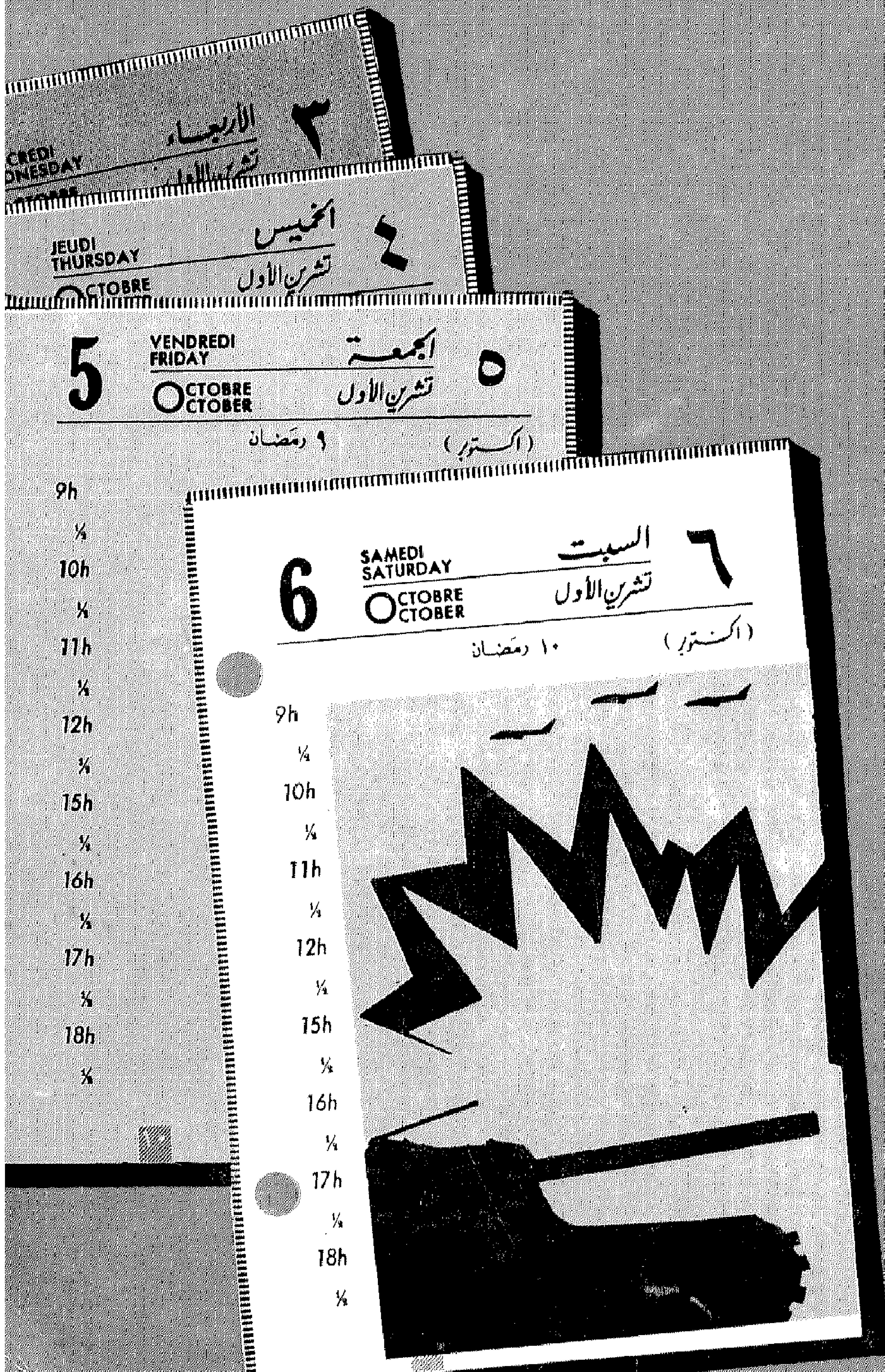
شؤون فلسطينية

۳۸

تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٣٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **مدير التوزيع** : غازي خورشيد .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٣١/٢ ل.ل. في لبنان ، ٤١/٢ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٤١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٤٠ ل.ل. في لبنان ، ٥٠ ل.س. في سوريا ، ٥٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٦٥ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ٩٠ ل.ل. في امريكا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

المحتويات

شؤون فلسطينية

تلك الحرب
هذه الحرب

● مضى عام ، ولا نقول : تلك الحرب .

هذه الحرب ما زالت دائرة منذ ما يزيد عن ربع قرن . وما حدث في تشرين الماضي لم يكن حربا جديدة . وما سيحدث في المستقبل ، القريب أو الاقل قربا ، لن يكون حربا جديدة . انه استمرار لتلك الحرب — هذه الحرب . ولذلك ، فان أبناء جيلنا لا يؤرخون بقدر ما يصنعون تاريخا . لا يحتفلون بذكرى حرب بقدر ما يعدون مقومات النصر في هذه الحرب المستمرة .

من واجب أبناء هذا الجيل أن يتلافوا الوقوع في الخطأ الناجم عن وضع الفواصل الميكانيكية بين البدايات والنهايات . ولكن، بوسعنا ان نسجل ، وبدون أناقة التردد ، أن ما حدث في تشرين الماضي كان أول نقطة انعطاف مؤثرة في سير المعارك ، حددت مصير الصراع على أرض الواقع الى مرحلة قادمة مرئية تنطوي على حد ما من الانسجام بين القدرة العملية العربية وبين المعاني التاريخية التي يمثلها صراعنا مع العدو .

ولعل هذا الانسجام الذي كنا نفتقده بمأساوية هو الذي يدفعنا الى التمسك بمصداقية القول اننا نقف على مدخل نهاية الهزيمة العربية المشروطة بايصال العدو الى بداية النهاية .

لم نعد قادرين على امتصاص المزيد من الهزائم . ولم يعد العدو مؤهلا لانجاز المزيد من الانتصارات . هذا هو كشف الحساب التاريخي الذي مكن الامة العربية من تحقيق نقطة الانعطاف المؤثرة في سير الصراع .

لقد وجد العدل قوته الضرورية لتمكينه من البقاء ومن ممارسة الادعاء في الحياة والجدارة . وفي الوقت ذاته ، كان من المحتم أن تجري عملية فتك بالجريمة التي استطاعت القوة ، وحدها ، أن تكسبها المقدرة على ادعاء الحق وممارسة الدفاع . هذه هي أوراق الاعتماد التي نقدمها الى محكمة التاريخ .

كان تفاؤلنا تاريخيا . والآن صار تفاؤلنا تاريخيا وعمليا . ليس التفاؤل هو أن نصدق التاريخ . ولكن التفاؤل هو أن نصدق قدرتنا على المشاركة في عملية سير التاريخ الى أمام . وستجري محاولات كثيرة لفك ارتباطنا بهذه القناعة .. ستجري محـــاولات لوضع الفوارق بين حاملة طائرات الامبريالية وبين الامبريالية ذاتها ، لدفع حركة التحرر العربية الى اجراء تعديلات على أهدافها تتفق مع صناعة هذا الفارق المصطنع ولكن تفاؤلنا يتغلب في النهاية ، لانه ليس بوسع الجماهير العربية أن تضحي ، بهذه السهولة ، بمحتوى أهداف نضالها ومبادئها وشعاراتها . وليس بوسعها أن تنسجم مع نغمة القول بسقوط العقائد تبريرا لعملية استبدال أصدقاء الجبهة الكفاحية بالاعداء .

ليست هذه الحرب آخر الحروب ، لاننا نكتشف ان توقف عملية الحرب يرادفه توقف عملية صنع السلام . وبقدر ما تنمو القدرة العربية على خوض حرب الحرية والتحرير تزداد امكانية نمو السلام .

ليست تلك مفارقة ، لانه ليس بوســـع أي نصر اسرائيلي أن يفرض السلام على العرب ، بعكس النصر العربي الذي يشكل ، وحده ، قاعدة السلام الحقيقي .

ومن هنا تكون الحرب العربية على العدوان الصهيوني هي المتتالية التي توصل الى سلام العدل والحق . ومن هنا أيضا يكون تجميد اشكال الصراع مع الصهيونية وأدا تدريجيا للسلام ذاته ، لانه يشكل مظهرا من مظاهر التسامح مع نمو الخطأ والخطيئة .

لقد أثبتت تجربة العام الماضي صعوبة الحسم بسبب تشابك الابعاد الدولية للصراع العربي ــ الاسرائيلي . ولكن الاهم من ذلك انها أثبتت عبثية انتظار السلام ــ كما يريده العرب ــ عن طريق اللاحرب . فكلما ارتقى مستوى القدرة العربية على خوض الصراع وادارته كلما تحسنت شــروط الاقتراب مـــن السلام القائم علــى احترام حقــوق العــرب والفلسطينيين . وهكذا ، فان العرب يمضون الى السلام الحقيقي حين يذهبون الى الحرب .

وأهم من ذلك ايضا ، ان تجربة العام الفائت اثبتت استحالة توصل الشروط العربية للسلام الى أية منطقة اقتراب مـــن الشروط الاسرائيلية للسلام في المستوى الراهن من هزيمة الامن الاسرائيلي .

ودلت على أن المضي في الصراع العربي ـ الاسرائيلي الى مرحلة أعلى يكشف عن استحالة تحقيق معـادلة التسوية العربية ـ الاسرائيلية بواسطة القفز عن الصخـرة الكبرى التي تكسر هـذه التسوية وهي : القضية الفلسطينية .

أي : ان كل تصاعد في الصراع العربي ـ الاسرائيلي في اتجاه الحل المتوقع يشكل اقترابا من العقبة التاريخية ـ فلسطين ، ويكشف لضعيفي الذاكرة انها هي أصل الصراع . وان كل اقتراب من هذه العقبة يشكل في الوقت ذاته ابتعادا عن امكانية التسوية العربية ـ الاسرائيلية . وهذه المفارقة تعني أن كل ما يبدو انه ملامح نهاية للحرب ليس في الواقع الا بداية جديدة للحرب .

مضى عام ، ولا نقول : تلك الحرب .

كانت الشهور الاخيرة هدنة مؤقتة يرتب كل طرف من أطراف الصراع فيها مقومات جديدة لالحاق الهزيمة بالطرف الآخر . « القلعة الاسرائيلية أعلى التل » تزيد تحصينها لتعود الى ممارسة دورها الذي اعتقد فرسانها أنه غير قابل للفتك . هذا الدور هو القضاء على روح تشرين ، وبعث روح حزيران . ولقد شهد العام الفائت هذه الحرب الاسرائيلية لاعادة روح حزيران في نفوس الاسرائيليين المنكوبة ، ولفرضها على النفوس العربية الحية .

وعلى الطرف المواجه ، كانت الجماهير العربية تتمسك بروح تشرين ـ رمز القدرة على خوض الصراع اذا أتيحت الفرصة الحرة ، وتتحرر من روح حزيران ، رمز الهزيمـة والاغتراب . وكـان العرب يعثرون ، في نفوسهم وفي ترابهم ، على ثروة هائلة تتلاءم مع طموحهم الى الحضـور المشرف في هذا العصر .

ليس بوسع العرب أن يهزموا . ولكن ليس بوسعهم أن يحققوا السلام الا اذا استمروا في خوض الصراع مع الصهيونية وحلفائها . وليس بوسع السلام أن يظهر في أفق الشرق الاوسط الا اذا بزغت شمس فلسطين .

(محمود درويش)

قضية فلسطين على جدول اعمال الامم المتحدة

الدكتور جورج طعمه

عندما يتناول القراء هذا العدد من « شؤون فلسطينية » تكون الجمعية العامة للامم المتحدة التي افتتحت في ١٧ أيلول (سبتمبر) الماضي دورة انعقادها العادية التاسعة والعشرين قد بتت سلبا أو ايجابا — في طلب ادراج بند اضافي على جدول أعمالها هو « قضية فلسطين » . وقد سبق الطلب هذا اجتماع مجلس الجامعة العربية ابتداء من ١ أيلول (سبتمبر) الى ٥ منه في القاهرة اتخذ فيه قرارا بالاجماع بالتقدم بهذا الطلب . وفي ١٢ منه قدمت الوفود العربية في الامم المتحدة رسالة للامين العام للمنظمة تطلب فيه ادراج بند مستقل على جدول أعمال الدورة . وتقضي لائحة الاجراءات الداخلية ان تصوت الجمعية على الادراج بعد أيام من افتتاحها .

ماذا يعني هذا الطلب ؟ ثمة عدد من الاسئلة ترتبط بهذا السؤال نورد منها :

١) ألم تكن قضية فلسطين مطروحة في الامم المتحدة ومدرجة على جدول اعمالها . كيف أدرجت وكيف طويت وكيف تبدلت ؟

٢) ما معنى أن تكون المنظمة قـد صوتت بين ١٩٤٧ و١٩٧٣ بأجهزتها الرئيسية — الجمعية العامة ومجلس الامن وبعض المنظمات الاختصاصية كاليونسكو وغيرها — على ما يقرب من ثلاثمائة قرار أكثر مما صوتت على أية قضية أخرى ؟ وهل هنالك حاجة لقرار اضافي جديد ؟

٣) هل القضية مجرد قضية اجرائية — اي ادراج بند على جدول الاعمال — أم تتعداها الى علاقة أساسية بجوهر الموضوع ؟ وهل ثمة علاقة بين صياغة البنـد والقرار الذي يتخذ بصدده ؟

٤) ما هي العلاقة بين البند المدرج والعوامل الفاعلة في القرار واتخاذه وتكوينه ؟ كيف أقصي الشعب الفلسطيني عن المساهمة في صنع القرار واتخذت القرارات نيابة عنه على أفضل شكل ؟

٥) هل يمكن اعتبار ادراج بند مستقل على جدول الاعمال منطلقا جديدا لمعالجة جديدة لقضية فلسطين في اطار الامم المتحدة تعبر عن التطورات الجذرية التي طرأت في الحقل الدولي واتخاذ قرارات ملائمة ؟

٦) ما هي الابعاد السياسية لهذه المرحلة في المنظمة ؟ هل يمكن أن تكون مقدمة للتصفية او انطلاقا لوضع الامور في قلب التطور التاريخي الذي تجتازه الامة العربية ؟

---

* راجع المقالات الثلاث التالية : لجورج طعمه (١) كيف طويت « قضية فلسطين » في جدول اعمال الامم المتحدة (٢) وحدها قضية فلسطين أخضعت صياغتها لتزييف وشطب (٣) المطلوب ادراج « قضية فلسطين » كبند مستقل في جدول الاعمال ، النهار — بيروت ١٣ و ١٤ و ١٥ حزيران (يونيو) ١٩٧٤ .

هذه الاسئلة برمتها — وغيرها مما يثار — يمكن ارجاعها لاربعة منطلقات أساسية: اجرائية ، قانونية ، تاريخية وسياسية . وان اي واحدة منها لا يمكن فهمها والاحاطة بها بدقة وشمول دون ربطها ربطا محكما بعضها ببعض . فهي موضوع واحد . وقضية كلية كاملة . والموضوع الذي نحن بصدد اثارته وتوضيحه ليس بحثا أكاديميا أو رياضة عقلية أو مما يقع في مواطن الجدل ولكنه يتصل بجذور المأساة التي نعيشها في الحاضر ورؤى المستقبل الذي نتطلع اليه . ووراء الاحداث والحقائق التي سأوردها ربع قرن من التآمر الدولي كما وجد سبيله الى المنظمة الدولية وأغرق الحق العربي في لا أخلاقية العمل السياسي .

لنأخذ الساعة التي نحن فيها نقطة الانطلاق في البحث : وزع الامين العام للمنظمة جدول الاعمال للجمعية العامة لدورتها التاسعة والعشرين في ٥ شباط (فبراير) ١٩٧٤ . الوثيقة A/٩٦٠٠) وفي ما يلي حصر البنود الخاصة بقضايا الوطن العربي :

البند ٣٩ وكالة الاونروا — وتشمل :

أ — التقرير السنوي للمفوض العام للاونروا .

ب — تقرير الفريق العامل من أجل تمويل الوكالة .

ج — تقرير لجنة التوفيق من أجل فلسطين .

د — تقرير الامين العام .

البند ٤١ — تقرير اللجنة الخاصة لبحث الممارسات الاسرائيلية في المناطق المحتلة وتأثيرها على حقوق الانسان .

البند ٨٩ — الارهاب الدولي .

فأين بند « قضية فلسطين » بين هذه البنود ؟ ولم يظهر بينها بند « الوضع في الشرق الاوسط » الذي كان رقمه ٢٢ على جدول أعمال الدورة الماضية والذي أدرج منذ صيف ١٩٦٧ . ربما لان قرار مجلس الامن رقم ٣٣٨ تاريخ ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ قد نقل هذا البند لمؤتمر جنيف فلن تنظر فيه الجمعية في دورتها الحالية وعلى الاقل حتى كتابة هذا المقال .

لكن « قضية فلسطين » كانت البند الوحيد الذي أدرج علــى جدول أعمال الدورة الاستثنائية الاولى للجمعية العامة التي عقدت من نيسان (ابريل) لأيار (مايو) ١٩٤٧ بناء على طلب الوفد البريطاني باعتباره ممثلا للدولة المنتدبة . واستمر ادراجها مع القضايا التي تفرعت عنها خلال خمس دورات متعاقبة على الشكل التالي : — أوردها تماما كما وردت في جداول الاعمال المتعاقبة :

الدورة الثانية — ١٦ ايلول (سبتمبر) — ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ :

١ — قضية فلسطين .

٢ — تقرير اللجنة الخاصة عن فلسطين .

٣ — انهاء الانتداب على فلسطين والاعتراف باستقلالها كدولة .

الدورة الثالثة — ٢١ ايلول (سبتمبر) — ١٧ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٨ :

— فلسطين .

— تقرير الوسيط الدولي للامم المتحدة . بند اقترحه الامين العام .

الدورة الرابعة ـــ ٢٠ أيلول (سبتمبر) ـــ ١٠ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٩ :

ـــ فلسطين .

أ ـــ اقتراحات بنظام دولي دائم لمنطقة القدس ـــ تقرير لجنة التوفيق الدولية من أجل فلسطين .

ب ـــ حماية الاماكن المقدسة : تقرير لجنة التوفيق الدولية من أجل فلسطين .

ج ـــ مساعدة لاجئي فلسطين : تقرير الامين العام .

الدورة الخامسة ـــ ١٩ ايلول (سبتمبر) ـــ ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٠ :

ـــ فلسطين .

أ ـــ قضية نظام دولي لمنطقة القدس وحماية الاماكن المقدسة : تقرير خاص لمجلس الوصاية .

ب ـــ مساعدة لاجئي فلسطين ـــ تقرير مدير وكالة الاونروا .

ج ـــ اعادة لاجئي فلسطين ودفع التعويض المستحق لهم : تنفيذ قرار الامم المتحدة في هذا الموضوع .

الدورة السادسة ـــ ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥١ ـــ ٥ شباط (فبراير) ١٩٥٢ :

ـــ فلسطين

أ ـــ تقرير لجنة التوفيق من أجل فلسطين .

ب ـــ مساعدة لاجئي فلسطين : تقارير اللجنة الاستشارية للاونروا .

وهكذا يبدو بوضوح ـــ من عام ١٩٤٧ الى عام ١٩٥١ ـــ ان جميع القضايا المتفرعة عن القضية الرئيسية الام كتقرير اللجنة الخاصة وانتهاء الانتداب وتقريـــر الوسيط والقدس والنظام الدولي فيها وحماية الاماكن المقدسة وتقارير مدير وكالة الاونروا وغيرها من التقارير المتعلقة باغاثة اللاجئين وتقارير لجنة التوفيق كانت كلها تدرج تحت بند رئيسي هو « قضية فلسطين » .

وفي الدورة السابعة للجمعية العامة المنعقدة من ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) الى ٢١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٢ جرى التحول الكبير عن التقليد الثابت الذي اتبعته المنظمة منذ عام ١٩٤٧ والذي أدى الى طي بند « قضية فلسطين » في جدول أعمال المنظمة . فقد قدم الامين العام للمنظمة تريغفـــي لي ، المعروف بولائه للصهيونيـــة واسرائيل ، والذي امتدت ولايته كأمين عام مـــن ١ شباط (فبراير) ١٩٤٦ الى ١٠ نيسان (ابريل) ١٩٥٣ اذ خلفه داغ همرشولد ، قدم جدول اعمال تضمن البند التالي فقط :

« تقرير مدير الاونروا عن لاجئي فلسطين » (البند رقم ١٩) . وقد تنبهت الوفود العربية لاسقاط بند قضية فلسطين من جدول الاعمال فطلبت ادراج البند التالي « لجنة التوفيق لفلسطين وعملها على ضوء قرارات الامم المتحدة » (البند رقم ٦٧) وتبع وفد اسرائيل الوفود العربية مباشرة فطلب ادراج بند « شكوى حول خرق الدول العربية لالتزاماتها بموجب الميثاق وقرارات الامم المتحدة واحكام اتفاقات الهدنة المعقودة مع اسرائيل والتي تلزمها أن تمتنع عن سياسة العداء وان تسعى الى التوصل الى اتفاق من اجل اقامة علاقات سلمية مع اسرائيل » (البند رقم ٦٨) وقد أحيلت البنود الثلاث الى اللجنة السياسية الخاصة لمناقشتها .

وكانت المناورة الاسرائيلية تقوم على ما يلي : من جهة حذفت قضية فلسطين كبند مستقل على جدول الاعمال . ومن جهة أخرى أخذت الدول المؤيدة لاسرائيل (أوروبا الغربية وأميركا اللاتينية) المبادهة فتقدمت بمشاريع قرارات تؤكد فيها ضرورة **التفاوض المباشر** بين اسرائيل والدول العربية الاعضاء في الامــم المتحدة ـــ في غياب شعب فلسطين ـــ من أجل عقد صلح معها دون أن تأخذ بعين الاعتبار القرارات السابقة التي صوتت عليها المنظمة بل أن تكون نقطة الابتداء « الامر الواقع » الذي حققته اسرائيل . وقد شهدت المنظمة في تلك الدورة السابعة جدلا حاميا بين الوفود العربية من جهة والوفود المؤيدة لاسرائيل ووفد اسرائيل من جهة ثانيـــة كانت نتيجتها نجاح المشروع الاسرائيلي بالدعوة للمفاوضة المباشرة في اللجنة السياسية الخاصة وفشله في الجمعية العامة اذ غيرت وفود الدول الاشتراكية شكل تصويتها مـــن امتناع الى ضد وطلب رئيس الجمعية العامة تطبيق المادة ١٨ من الميثاق على التصويت التي تقتضي بضرورة الحصول على ثلثي الاعضاء باعتبارها قضية هامة .

والحصيلة النهائية ان القرار القاضي بالمفاوضات المباشرة الذي حاربت اسرائيل من أجله قد هزم في الجمعية العامة لكن النتيجة النهائية جاءت ضد المصلحة العربية . فقد طويت قضية فلسطين كبند مستقل من جدول الاعمال تحت تأثير الابتزاز الاسرائيلي . ولم يعد يظهر على جدول الاعمال منذ الدورة السابعة وحتى الدورة التاسعة والعشرين غير بند « التقرير السنوي للمفوض العام لوكالة الاغاثة » وما أضيف اليه من بنود خاصة بعد حزيران (يونيو) ١٩٦٧ اذ انعقدت الجمعية العامة للنظر في مادة طلب ادراجها الاتحاد السوفييتي وهي « **الوضع في الشرق الاوسط** » . وقد عددت البنود المدرجة للدورة (٢٩) في مطلع هذه المذكرة .

قضية فلسطين في مجلس الامن

كان الوضع القانوني لقضية فلسطين في مجلس الامن أفضل منه في الجمعية العامة. ذلك ان جميع القضايا بلا استثناء المتفرعة عن قضية فلسطين ابتداء من ربيع ١٩٤٧ وجميع شكاوى الحكومات العربية ضد اسرائيل التي نظر فيها مجلس الامن من ١٩٤٩ الى ١٩٦٦ بما فيها قضية حرية الملاحة في قناة السويس قد أدرجت كلها تحت بنـــد « قضية فلسطين » .

ولكن عندما انعقد مجلس الامن ابتداء من ٢٣ أيار (مايو) ١٩٦٧ بدعوة من كندا والدنمارك ـــ العضوين في المجلس ـــ للنظر في خطـــورة الوضع في الشرق الاوسط والنزاع العربي الاسرائيلي فقد ظهر جدول الاعمال يتضمن ذكر الرسالة التي قدمت اليه من العضوين دون أية اشارة لقضية فلسطين كما جرت العادة حتى ذلك اليوم . ثم أدرجت رسالتان أخريان على جدول الاعمال احداهما من الجمهورية العربية المتحدة والاخرى من المملكة المتحدة . وقد أثار الدكتور محمد الفرا في جلسة المجلس المنعقد في ٣١ أيار ١٩٦٧ كيف ان جدول الاعمال لاول مرة في تاريخ المجلس لا يدرج مناقشاته تحت بند « قضية فلسطين » وايده مندوبون آخرون في ذلك . لكن الحرب التي شنتها اسرائيل في ٥ حزيران (يونيو) من تلك السنة جعلت قضية الادراج على جدول الاعمال أمرا ثانويا . ثم انعقدت الجمعية العامة في دورتها الاستثنائيـــة الطارئة الخامسة في حزيران ١٩٦٧ وعندما عاود مجلس الامن اجتماعاته في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ فقد كان البند المدرج على جدول أعماله هو نفس بند « الوضع في الشرق الاوسط » الذي نظرت فيه الجمعية العامة . وعندما عرض ونوقش وصوت على القرار ٢٤٢ فقد كان ذلك على أساس البند السابق لا على أساس قضية فلسطين .

وعلى ذلك فان جدول أعمال مجلس الامن طوى عام ١٩٦٧ قضية فلسطين كما طوته الجمعية العامة من قبل ثم جاء القرار ٢٤٢ الذي تـم التصويت عليه فحول قضيـة فلسطين لقضية لاجئين اذ أن كل ما ورد فيه هو ما نصت عليه الفقرة التنفيذية الثانية منه (المقطع ب) التي تقول « ان مجلس الامن يؤكد ضرورة ايجاد تسوية عادلة لقضية اللاجئين » .

وقد أوردت خصيصا الوضع القانوني للبند في مجلس الامن لاظهار التباين والتناقض الصارخين بين الجمعية العامة ومجلس الامن وموقف كل منهما من البند . فحين طوي البند من جدول اعمال الجمعية العامة من ١٩٥٢ كما أظهرنا استمر ادراجه في جدول أعمال مجلس الامن حتى ١٩٦٦ وطوي أيضا في عام ١٩٦٧ . وهذا ليس فقط دليلا على التخبط الذي تعمل فيه الامم المتحدة . فجهاز رئيسي كالجمعية العامة يطوي بندا معينا وجهاز رئيسي آخر كمجلس الامن يستمر في ادراجه . ولكنه مثال على أصابع التآمر داخل المنظمة التي تلاحق قضية فلسطين لطمسها . ومثل هذه المفارقات داخل المنظمة كثيرة مما يمكن بل يجب ايراده في أي بحث أوسع في الموضوع ولكنني اكتفيت بهـذا المقدار الان .

مثال على العلاقة بين البند وصياغته والقرار المتخذ

وكمثال على اهمية وجود البند وعلاقته بالقرار الذي يصوت عليه والمناقشات التي تدور حوله واتجاهاتها نأخذ آخر بند من البنود التي أدرجت على جدول أعمال الامم المتحدة مما تفرع عن قضية فلسطين . فعلى اثر حادث ميونيخ طلب الامين العـام فالدهايم في ٨ ايلول ١٩٧٢ ادراج بند جديد في جدول أعمال الجمعية العامة عنوانه « اجراءات منع الارهاب وغيره من أنواع العنف التي تهدد أو تودي بحياة الابرياء أو تعرض للخطر الحريات الاساسية » .

وبعد مناقشات طويلة وحادة نجح سفير المملكة العربيـة السعودية السيد جميل البارودي في ادخال اضافة على البند الذي اقترحه الامين العام هي الآتية :

« ودراسة الاسباب وراء تلك الانواع من الارهاب وأعمال العنف الكامنة في البؤس والاحباط والاسى واليأس التي تتسبب في قيام بعض الناس بالتضحية بأرواح البشر بما فيها أرواحهم في محاولة لاجراء تغييرات جذرية » .

واذا انت قرأت الان صياغة البند بكامله ــ أي البند كما اقترحه الامين العـام فالدهايم مضافا اليه ما اقترحه السفير البارودي وأقرته الجمعية العامة ــ لاتضح لك الفارق الكبير بين شكله الاول وشكله الاخير المكتمل . وقد كان من نتائج الاضافـة العربية انها غيرت اتجاه المناقشات ، لانها جعلت أمرا محتما العودة الى تلك الاسباب العميقة الكامنة في البؤس واليأس ــ أي الى جذور المأساة العربية الحديثة ــ كما تتمثل في فلسطين وانها وجهت القرار الاخير الصادر عن الجمعية العمومية الرقم ٣٠٢٤ (الدورة ٢٧) تاريخ ١٨ كانون الاول ١٩٧٢ في اتجاه مفيد للعرب بحيث تضمن في قسمه التنفيذي الفقرات الثلاث الاتية :

١ ــ تحث (أي الجمعية العمومية) الدول على تكريس عنايتها الفورية لايجاد حلول عادلة سلمية للاسباب الاساسية التي تؤدي الى أعمال العنف .

٢ ــ تعيد التأكيد على الحق الثابت في تقرير المصير والاستقلال لجميع الشعوب الواقعة تحت الاستعمار وأنظمة التمييز العنصري وأنواع السيطرة الاجنبية الاخرى ، وتدعيم شرعية نضالها ، خصوصا نضال الحركات التحررية ، وذلك وفقا لاغراض

ميثاق الامم المتحدة ومبادئه وسواه من قرارات اجهزتها ذات الصلة بالموضوع .

٣ — تدين استمرار أعمال القمع والارهاب التي تقوم عليها الانظمة الارهابية والعنصرية في انكار حق الشعوب الشرعي في تقرير المصير والاستقلال ، وغيرهما من حقوق الانسان وحرياته الاساسية .

وانها بالنتيجة جعلت عددا من الدول التي كانت متحمسة لادراج بند « الارهاب » على جدول أعمال الجمعية العمومية تصوت ضد القرار السابق وجعلت بعضها الاخر يستنكف عنه . وقد طلب القرار في فقرته الثامنة من الامين العام تقديم دراسة تحليلية الى الدورة الثامنة والعشرين للجمعية العمومية وقد فعل ، وجاء التقرير متضمنا أقساما تتناول نواحي شتى من الاسباب الخفية المؤدية الى « البؤس والاحباط والاسى واليأس » والتي ما كانت لتوجد في التقرير لولا صياغة البند على الشكل الاخير الذي صيغ فيه والذي اوردناه .

*

لا أعتبر هذا البحث الموجز جدا أكثر من كوة صغيرة فتحت ليطل القارىء العربي منها على ربع قرن من التآمر والغموض والابهام في اطار المنظمة وخارجها الذي رافق قضية فلسطين . لكن الماضي ليس أكثر من جسر نعبر منه للمستقبل وعلى ذلك نطرح السؤال الاخير: ما هي الابعاد السياسية لهذه المرحلة في المنظمة وما هي التوقعات من ادراج بند مستقل عن قضية فلسطين على جدول الاعمال ؟ هل يمكن ان يكون ذلك مقدمة لتصفية نهائية كما قال البعض او انطلاقا جديدا لوضع الامور في قلب التطور التاريخي الذي تجتازه الامة العربية ويجتازه العالم ؟

١ — ليس الطلب العربي في حقيقته ادراج بند جديد بل اعادة بند كان مدرجا لسنوات ثم صفي وطوي . فالموضوع اذن هو تصفية التصفية واعادة الامور الى نصابها الذي يجب ان تكون عليه . وكل شيء يتوقف بالضرورة على ما نريد وعلى انعكاس الفعل والادارة في طلب ما هو حق في ذاته وحق لنا .

٢ — كان رد الفعل الاسرائيلي حتى الان عنيفا . فبعد اتخاذ مجلس الجامعة العربية قراره وحتى اليوم ما زالت ردود الفعل الاسرائيلية تظهر يوما بعد يوم . نورد على سبيل المثال لا الحصر ما ذكرته هآرتس في ٩/٢ من ان « خطوة الجامعة العربية ستكون أختبارا للولايات المتحدة» ودعت الصحيفة الحكومة للقيام بنشاط واسع لاحباط المسعى العربي ، وقالت صحيفة اومر في اليوم ذاته « ان المهمة الرئيسية للاعلام الاسرائيلي يجب ان تكون تذكير العالم بنوايا العرب حين يتحدثون عن الكيان الفلسطيني ».وأكدت ضرورة التوضيح ان وراء هذه الصيغة نية لابادة اسرائيل. وهذا هو — على حد زعم الصحيفة — « هدف جامعة الدول العربية في الجمعية العمومية المقبلة في الامم المتحدة » . وعلق الدكتور يهوشاع بورات من محطة اذاعة اسرائيل في ٩/٣ بما يلي :

« أعتقد ان الدوافع مختلفة ، اولا هناك الدافع الفلسطيني للحصول على اعتراف دولي صريح ، بالنسبة لحقوقهم القومية ، وحق تقرير المصير في ارض اسرائيل . وثانيا : تطرح هذا المشروع منظمة التحرير الفلسطينية ، فالى جانب النقاش ، سيعملون ليس فقط لاتخاذ قرار ، بل أكثر من ذلك فسوف تسعى منظمة التحرير للحصول على مكانة مراقب في النقاش بحجة ان الامر يتعلق بها ، تماما مثلما حصلت الوكالة اليهودية على هذه المكانة عشية مناقشات الجمعية العامة حول موضوع ارض

اسرائيل عام ١٩٤٧(١).وثمة عامل آخر لا يقل أهمية ، وهو من جانب الدول العربية الاخرى وبما في ذلك الدول الراديكالية ، فيما يتعلق بموقف اوروبا الغربية الحقيقي وموقف الولايات المتحدة ، لان من الواضح ماذا سيكون موقف العالم الثالث والدول الشيوعية .

« وعلى ضوء هذا الضغط الدبلوماسي ، يأمل العرب ان تقترب الولايات المتحدة واوروبا الغربية ودول اميركا اللاتينية قليلا من الموقف العربي ، بحيث سيكون صعبا على هذه الدول معارضة المشروع الذي يمنح الشعب الفلسطيني حق تقرير مصيره ... » .

وفي ٩/٤ علق تدمور من ذات محطة الاذاعة بما يلي :

« وبالنسبة لحكومة اسرائيل فان الاوساط السياسية تنظر الى الموضوع بخطورة بالغة ، لان هناك خطرا من ان تؤدي هذه الخطوة الى كسب تأييد ما يقارب المائة دولة، فحول كل قضية عربية متطرفة توجد للعرب أغلبية مطلقة في الجمعية العامة . ومغزى هذا القرار سيكون منح مكانة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ويعترف بها كحركة تحرير وطني ، وتعطى مكانة مراقب في الامم المتحدة ، وبعدها تشترك في المناقشات، والخطوة التالية ستكون تأليف حكومة ، واقامة دولة فلسطينية » .

وتحدث ألون في الكنيست بتاريخ ٩/٩ عن خطورة طرح الموضوع في الجمعية العامة ومناقشته والقرارات التي ستتخذ بصدده وابعادها السياسية وضرورة محاربتها على المستوى الحكومي . وفي ٩/١٠ اورد مراسل اسرائيلي من واشنطن ان هذا الموضوع سيكون بين النقاط العشر التي سيبحثها رابين مع الرئيس الاميركي ووزير خارجيته . وقياسا على ذلك يتوقع ان تستمر اسرائيل بحركة اعلامية مسعورة وان تبذل جهودا محمومة لمحاربة القرار العربي .

٣ ـ قضية فلسطين ككل قضية تاريخية كبرى قائمة بذاتها تنتهي في المحط الاخير الى الشعب العربي الفلسطيني وحقوقه . وقضية الحق العربي في فلسطين قضية اساسية مطروحة على ساحة البحث والسياسة والفكر وما زالت تنتظر معالجة حازمة مسؤولة . فالمجابهة فيها مجابهة تاريخية واخيرة . والذي يهمنا ان نؤكده الان ان حقوق شعب فلسطين مهما كانت الصفة التي وصفت بها « وطنية » او « تاريخية » او « مشروعة » او « طبيعية » او « اساسية » ثابتة لا يمكن التنازل عنها ، يجب ان تكون اثارتها في اطار « قضية فلسطين » ويجب ان تبتدىء بالضرورة بالكشف عن التآمر الذي ادى الى طي قضية فلسطين . فالمقصود اولا واخرا من هذا التآمر الدولي كان طمس هذه الحقوق في عملية الاغتيال « الجيو ـ سياسي » الذي تعرضت له فلسطين وشعبها . وعندما يتم اعادة ادراج البند وتأتي مرحلة المناقشة الجوهرية التي لا ريب انها آتية يتم بحث هذه الحقوق وتوضيحها والدفاع عنها لا في فراغ او بصورة هامشية بل في النطاق الطبيعي والتاريخي والقانوني الذي يجب أن تبحث فيه وهو قضية فلسطين باعتبارها قضية ارض وشعب واستعمار استيطاني وقضية حق تؤيده الشرائع الدولية والتطورات التاريخية . ومع هذه المرحلة يزول الغموض والالتباس اللذان رافقا بحث القضية خلال عشرات من السنين .

---

١ ـ حصلت الهيئة العربية العليا على ذات الحق وفي ذات الدورة بموجب القرار رقم ١٠٥ (الدورة الاستثنائية ـ ١) ، تاريخ ٧ ايار (مايو) ١٩٤٧ .

٤ ــ العالم بعد حرب تشرين (اكتوبر) ليس هو العالم الذي كان قبل هذه الحرب المجيدة . فهي بأي مقياس منعطف كبير حاسم ونقطة تحول ليس في تاريخنا فحسب بل في تاريخ العالم بأسره . لقد شقت الامة العربية طريقها الى مركز قوة جديد ولا بد لهذا المركز ان يعبر عن ذاته في ابعاد وقرارات جديدة تؤخذ على أعلى المستويات من قومية ودولية .

٥ ــ اما على المستوى العربي والدولي فان المراحل التي ستمر بها قضية عرض فلسطين كقضية قائمة بذاتها في المنظمة من أعلى المنابر الدولية واحدى الجبهات التي كتب ان نخوض المعركة فيها ــ مؤكدا ان الجبهة الرئيسية تظل الجبهة الداخلية ــ ستؤدي ، بل يجب ان تؤدي الى استــلال اعتراف بالشــعب الفلسطيني وممثليه الشرعيين الوحيدين . واهم ما في هذه النتائج ان يصبح الفلسطينيون هم الطرف الاول في صنع القرار ــ اي قرار ــ بعد ان كانوا غائبين عنه ــ نتيجة ــ كما يقول الاستاذ عصام سخنيني في مقال رائع ــ « لتراكم الممارسات التاريخية المضنية التي فرض فيها على الفلسطينيين ان يكونوا غائبي التأثير عن دائرة صنع القرار وأوكل هذا الدور لغيرهم بالانابة فانتفت بذلك مصلحة الشعب الفلسطيني الحقيقية واغتيلت أحيانا وكانت في أحسن أحوالها مصلحة تابعة ومشتقة غير أصيلة » . او مقضي عليها في « انتحار احتفالي »(١).



البعد التاريخي هو في النهاية وفي المحط الاخير أعلى مستوى يطل الانسان من شرفته على مصيره . ادراج قضية فلسطين كقضية مستقلة ومناقشتها اجرائيا وجوهريا وما يسبق ذلك وما يتبعه تظل كلها في اطار الدبلوماسية السطحية الزائلة الزائفة اذا لم نرتفع بها الى مستوى التاريخ . وهي في قلب التاريخ شئنا أم أبينا أي في مستوى القدر والمصير . وعلى هذا المستوى فان ما يتم اليوم في أعمق معانيه هو ان فلسطين بالرغم من التآمر والتزييف والنفاق والمتاجرة تشبثت بالوجود . ومن حيث انها مأساة انسانية فقد حملت صليبها اجيال عربية كثيرة سبقتنا وسيحمل هذا الصليب أجيال ستلحقنا ، لانها قضية قدر وحق مطلق أي قضية الانسان من حيث هو انسان . لقد كانت حتى اليوم قضية خاسرة تحارب الاغتيال والفناء والانتحار الجماعي. ولكن للقضايا الخاسرة الكبرى في التاريخ وهج سحري وصوفية خفية لا تدركها الا المعاناة المأسوية للالم والتفاعل معها الى ان تتحول الى قضايا رابحة . وفي أي منعطف انساني كبير تجد الالم المهدور المسحوق يتحول الى نور مشع . أمام المأساة والحق تصبح الدبلوماسية لعبة أطفال ويصبح مسرحها ملعبا تتحرك عليه دمى . أمام الكآبة والمرارة والانسحاق يصبح الكلام اللبق زيفا وبهلوانية . أمام الاقتلاع والتشرد والحكم بحد السيف تصبح المراكز والمناصب ثيابا بالية يقذف بها القدر في سلة قمامة التاريخ . أمام دم الطفل ودمعة الام وذبح الشهيد أشعر ان الانسانية كلها تشارك في الجريمة : جريمة الاقتلاع والشتات والنفي والاضطهاد . ولا بد ان تأتي الساعة التي يتحرك فيها ضمير الانسان الذي يتحمل الخطأ لحد ثم يثور وعندها تصبح الثورة ثورة انسانية تاريخية . وتصبح ثورة فلسطين وفيتنام وانغولا وموزامبيق وروديسيا وناميبيا وثورات العبيد المعذبين في الارض وهجا حارا محرقا يتناول كل انسان . ثورة التاريخ التي تأخذ الافــــراد

---

١ ــ عصام سخنيني ، مكونات القرار في المجلس الوطني الفلسطيني « الدورة الثانية عشرة » **شـؤون فلسطينية** ، العدد ٣٥ ، تموز (يوليو) ١٩٧٤ ، ص ٤ .

والجماعات أوعية عابرة لتفصح فيها ومن ضمنها عما هو ازلي وأبدي وخالد .

ومن هذه البقعة الصغيرة من الارض التي اسمها فلسطين والتي شدت انظار البشرية اليها منذ آلاف السنين ومنذ ان سجل التاريخ سطوره الاولى والتي شهدت عذاب الانسان ولوعة المؤمنين وتحرق المضطهدين يعود التاريخ ليشد انظار البشرية اليها وليفرض عليها المشاركة في حمل الصليب وفي عبور جديد .

كيف تتحول القضايا الخاسرة المريرة الى قضايا رابحة سؤال لا يمكن ان نبصر جوابه الا من خلال اشعاع الرؤى المعذبة المريرة .

ولا صلة لنا في ذلك فالتاريخ بثقله وقدره وجلاله يمر بطريقنا .

فلسطين في الامم المتحدة : خطوة نضالية

منير شفيق

اثيرت تقولات كثيرة حول موضوع ادراج « قضية فلسطين » في جدول اعمال الدورة القادمة (دورة ٢٩ لعام ١٩٧٤) للجمعية العمومية في هيئة الامم المتحدة . وقد رأى البعض ان محاولة ادراج القضية ، في هذا الوقت ، يخدم مساعي التسوية وذلك عن طريق اخذ قرار من الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة يؤكد حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير ، ومن ثم يكون ذلك نقضا للفقرة الواردة في قرار مجلس الامن ٢٤٢ لعام ١٩٦٧ ، التي تعتبر ان المسألة الفلسطينية تتلخص بايجاد حل عادل للاجئين . اي أن انتزاع قرار من الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة باعتبار الفلسطينيين شعبا متساوي الحقوق مع بقية الشعوب ، وله حق تقرير المصير ، وفقا لميثاق الامم المتحدة، والاعلان العالمي لحقوق الانسان ، يبطل تلقائيا الفقرة الوارد ذكرها من قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ . لان الجمعية العمومية لهيئة الامم سلطة أعلى من مجلس الامن .

ولكن ، اذا كان ادراج قضية فلسطين في الدورة القادمة للجمعية العمومية واتخاذ قرار يعتبر الفلسطينيين شعبا له حق تقرير المصير ، وليس مجرد كومة من اللاجئين ، يخدم مثل ذلك الغرض ، من بعض النواحي ، فهذا لا يعني ، بأي حال من الاحوال ، عدم رؤية الجوانب الاخرى الاهم من مسألة ادراج « قضية فلسطين » في الدورة القادمة .

سوف نلاحظ فورا مع استعراض تاريخ ادراج « قضية فلسطين » في دورات الجمعية العمومية ان علية حذف هذا البند « قضية فلسطين » من جدول أعمال الجمعية العمومية جاء :

١ — نتيجة تآمر الامبريالية والكيان الصهيوني من أجل طمس القضية الفلسطينية وتحويلها الى قضية لاجئين اي استبدال أصل المسألة بأحد فروعها .

٢ — نتيجة التراجع الرسمي العربي الذي كان واقعا في ذلك الحين ، بمعظمه ، تحت تأثير النفوذ الامبريالي .

٣ — تمشيا مع ما كان يجري في البلاد العربية من أوائل الخمسينات حتى منتصف الستينات من عملية تغييب للشعب الفلسطيني عن تحمل مسؤولية قضيته وتحرير فلسطين .

ان موقف العدو الصهيوني من مسألة اعادة ادراج «قضيةفلسطين» الى جدول أعمال الجمعية العمومية ، يلقي ضوءا على خطورة هذه الخطوة بالنسبة للكيان الصهيوني ، لانها ستفتح من جديد ملف الاغتصاب الصهيوني لفلسطين من حيث أتى . بل يجب أن تفتح ملف هيئة الامم ومجلس الامن من جهة قراراتهما التي أجحفت بحق الشعب الفلسطيني ، وقضية فلسطين ، بمخالفة صريحة لميثاق هيئة الامم نفسها حيث اخذت هيئة الامم ومجلس الامن — وهذا ليس من حقهما — قرارات في عام ١٩٤٧ — ١٩٤٨

حول تقرير مصير فلسطين بديلا عن شعبها العربي الفلسطيني ، وهو أمر لا يسمح به منطوق بنود ميثاق هيئة الامم والاعلان العالمي لحقوق الانسان . هذا فضلا عن ضرورة فتح ملف التاريخ الاسود للامبريالية العالمية بالنسبة لهذه القضية . ومن هنا فان حكومة رابين سارعت باستدعاء تكواع مندوبها الدائم في هيئة الامم (رأا ١٥/٨/ ٧٤) ، وشكلت لجنة على أعلى مستوى تضم وزراء وخبراء (من بينهم ايغال آلون) من اجل وضع مخطط لاحباط مسألة ادراج قضية فلسطين في الدورة القادمة للجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة ، او احباط أية مشاريع قرارات يمكن ان تمس صلب قضية فلسطين في حالة الفشل في الحيلولة دون ادراج بند « قضية فلسطين » كبند مستقل في دورة ٢٩ لعام ١٩٧٤ .

ان ما تقدم لا يستهلك كل ما يمكن قوله في هذا المجال حيث سيستكمل ذلك بعد استعراض تاريخ ادراج « قضية فلسطين » كبند مستقل منذ عام ١٩٤٧ حتى الان .

اولا : مرحلة ١٩٤٧ ــ ١٩٥٢

ادرجت « قضية فلسطين » كبند مستقل ، لاول مرة ، في دورة الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة ، من قبل بريطانيا في ٢ نيسان ١٩٤٧ ، وعقدت دورة خاصة للجمعية العمومية في شهر نيسان لتحضير الوثائق الضرورية للدورة العادية في أيلول من العام نفسه . وهكذا ادرجت القضية الفلسطينية على جدول اعمال الجمعية العمومية في الدورة الخاصة الاولى في نيسان ١٩٤٧ ، تحت بند مستقل يحمل العنوان **« قضية فلسطين »** .

ومنذ عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٥٢ عالجت الجمعية العمومية في دوراتها السنوية كل القضايا المتعلقة بقضية فلسطين تحت بند « قضية فلسطين » الذي بقي مدرجا ، على هذه الصورة ، في جدول أعمالها . أي ادرجت تحت هذا البند كل القضايا المتفرعة عن الاصل (قضية فلسطين) . ولهذا تناولت تلك الدورات المواضيع التالية :

١ ــ الدورة الثانية عام ١٩٤٧ :

بحث تحت بند « قضية فلسطين » موضوع « حكومة فلسطين المقبلة » .

٢ ــ الدورة الثالثة (أ) عام ١٩٤٩ :

بحث تحت بند « قضية فلسطين » تقرير الوسيط الدولي عن فلسطين ، وشملت المناقشة اقتراحا قدمه الامين العام للمنظمة يتعلق بمساعدة اللاجئين العرب الفلسطينيين وقد تناول موضوعه الجزء الثالث من تقرير الوسيط الدولي .

٣ ــ الدورة الثانية (ب) عام ١٩٤٩ :

بحث تحت بند « قضية فلسطين » موضوعان :

أ) المساعدة للاجئي فلسطين .

ب) مسألة اقامة نظام دولي لمدينة القدس وحماية الاماكن المقدسة .

٤ ــ الدورة الرابعة عام ١٩٥٠ :

بحث تحت بند « قضية فلسطين » المواضيع التالية :

أ) مسألة اقامة نظام دولي لمدينة القدس وحماية الاماكن المقدسة . تقرير لمجلس الوصاية .

ب) تقرير مدير وكالة الغوث : مساعدة اللاجئين الفلسطينيين .

جـ) اعادة اللاجئين الفلسطينيين ودفع التعويضات المستحقة لهم . وموضوع تنفيذ قرارات الجمعية العمومية حول اعادة اللاجئين الفلسطينيين ودفع التعويضات المستحقة لهم .

د) تقرير لجنة التوفيق التابعة للامم المتحدة عن فلسطين .

٥ ــ الدورة الخامسة من ١٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٠ الى ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥١ :

لم تبحث فيها اية قضية عدا مشكلة كوريا .

٦ ــ الدورة السادسة ، ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥١ ــ ٥ شباط (فبراير) ١٩٥٢ :

بحث تحت بند « قضية فلسطين » المواضيع التالية :

أ) تقرير لجنة التوفيق الدولية التابعة للامم المتحدة عن فلسطين .

ب) تقرير من مدير وكالة اغاثة اللاجئين وتشغيلهم (الاونروا) واللجنة الاستشارية للاونروا حول مساعدة اللاجئين الفلسطينيين .

ثانيا : حذف بند « قضية فلسطين » من دورات الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة :

شهدت الدورة السابعة للجمعية العمومية توقف ادراج القضايا المتفرعة عن القضية الفلسطينية تحت البند « قضية فلسطين » . بل اسقط هذا البند ، وحلت محله القضايا الفرعية كبنود قائمة بذاتها . وقد بحثت الدورة السابعة لعام ١٩٥٢ المواضيع التالية :

أ) لجنة التوفيق الدولية التابعة للامم المتحدة عن فلسطين ، وعملها على ضوء قرارات الامم المتحدة . (ادرجت تحت بند الرقم ٦٧) .

ب) شكوى من « اسرائيل » حول خرق الدول العربية لاتفاقات الهدنة وميثاق قرارات الامم المتحدة . (ادرجت تحت بند الرقم ٦٨) .

جـ) تقرير مدير وكالة الاغاثة (ادرج تحت بند الرقم ٢٠) .

اما الدورة الثامنة ١٩٥٣ ، فقد بحثت موضوعا واحدا فقط تحت بند الرقم ١٩ ، وهو تقرير مدير وكالة اغاثة اللاجئين وتشغيلهم (الاونروا) .

وهكذا منذ الدورة السابعة ١٩٥٢ ، حتى الان حذف بند « قضية فلسطين » من دورات الجمعية العمومية لهيئة الامم . ولكن كيف حدث ذلك ؟

لقد استند الامين العام للامم المتحدة (تريغفي لي حينئذ عام ١٩٥٢) الى المادة ١٢ من لائحة النظام الداخلي للامم المتحدة ، التي تنيط به مهمة وضع جدول الاعمال للجمعية العمومية لاقراره ، فلم يضع بند « قضية فلسطين » واستبدله ببند يحمل عنوان « تقرير مدير وكالة اغاثة اللاجئين وتشغيلهم (الاونروا) » ، وبهذا قلب الموضوع المتفرع عن قضية فلسطين الى موضوع قائم بذاته بدل ان يدرج كفرع تحت اصل ، كما جرت العادة في الدورات السابقة . وحذف الموضوع الاصل حذفا تاما .

كان رد وفود الدول العربية الاعضاء في هيئة الامم انذاك ــ مصر ، سوريا ، العراق ، السعودية ، لبنان ، اليمن ــ ان استندت الى المادتين ١٤ ، ١٥ من لائحة

النظام الداخلي للامم المتحدة ، التي تعطي الحق للدول الاعضاء في هيئة الامم طلب ادراج ايه مواد الى جدول الاعمال قبل ثلاثين يوما من انعقاد دوره الجمعية العمومية لاقرارها ، ومن ثم احالتها على المناقشة ، فتقدمت تلك الوفود بطلب ادراج مـادة اضافية على جدول الاعمال تحت بند « لجنة التوفيق الدوليه لفلسطين وعملها علـى ضوء قرارات الامم المتحده » . لكن هذا الرد لم يثر مسالة حذف بند «قضية فلسطين» ولم يقدم كموضوع متفرع تحت بند « قضية فلسطين » . وكانت هذه خطوة تراجعية واضحـة من هده الزاوية رغم ان اثارة موضوع لجنة التوفيق الدولية وعملهـا في ضوء قرارات هيئة الامم اريد منه معالجة قضيه فلسطين بكاملها من خلال مناقشه أعمال لجنة التوفيق الدولية . وفي المقابل تقدم وفد الكيان الصهيوني بطلب ادراج بند مضاد تضمن شكوى على الدول العربية زاعما انها أخلت بالتزاماتها وخرقت اتفاقات الهدنة . والحق بمذكره تفسيرية طرحت موضوع المفاوضات المباشره من أجل اقامة علاقات سلمية مع « اسرائيل » . وبهذا غرقت المناقشات في بحث المواضيع الفرعية، الامر الذي اسفر عن عدم خروج الدورة السابعة للجمعية العامة بأي قرار يتناول القضية الفلسطينية وكان القرار الوحيد الذي اتخذ حول اجراء تعديلات مـالية في موازنة وكالة اغاثة اللاجئين وتشغيلهم (الاونروا) . لقد اعتبرت الدول العربية نتائج هذه الدورة مرضية ما دام مشروع المفاوضات المباشرة قد هزم في الجمعية العمومية أما تغييب القضية الفلسطينية وشطبها ، ثم استبدالها في دورات الجمعية العمومية ببند « تقرير مدير وكالة الاغاثة (الاونروا) » فلم تعتبره الدول العربية هزيمة سياسية خاصة ، وان ذلك جاء في ظروف ما شهدته مرحلة الخمسينات في البلاد العربية مـن تغييب للشعب الفلسطيني في تحمل مسؤولية قضيته . ولا يمكن أن نسقط هنا دور النفوذ الامبريالي في البلاد العربية وفي هيئة الامم باسقاط قضية فلسطين كبند على جدول اعمال دورات الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة .

ولهذا عندما جاءت الدورة الثامنة للجمعية العمومية ، عـام ١٩٥٣ ، أدرج على جدول الاعمال بند واحد فقط حمل الرقم ١٩ هو « تقرير مدير وكالة اغـاثة اللاجئين الفلسطينيين وتشغيلهم » . ولم تعترض الوفود العربية واستمرت بعد ذلك في عدم المطالبة بطرح« قضية فلسطين » في بند مستقل ، اي تحولت قضية فلسطين من قضية شعب اغتصب وطنه ، ومسألة حق تقرير مصير ، وقضية تحرر وطني ونضال ضـد الاستعمار الاستيطاني والعنصرية الى قضية لاجئين !!

بقي حال « قضية فلسطين » على هذا المنوال تحت سدة هيئة الامم المتحدة حتى اليوم ـــ مع ملاحظة التطور الذي حصل في الدورات ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ في السنوات ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧١ ، ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ على التوالي . ولكن قبل بحث هذه التطورات يجب أن يلاحظ أن الوضع في مجلس الامن كان مختلفا ما بين ١٩٥٢ الى ١٩٦٧ حيث بقي موضوع « قضية فلسطين » بندا مدرجا على جدول أعماله ، وكانت تدرج تحت هذا البند كل القضايا المتفرعة عن قضية فلسطين ـــ على سبيل المثـال ، الشكاوى التي كانت تتقدم بها كل من الدول العربية والعدو الصهيوني على الآخر . ولكن هذا البند شطب أيضا من جدول أعمال مجلس الامن منذ ٢٣ أيار (مايو) ١٩٦٧ على اثر اندلاع الازمة التي انتهت بحرب حزيران ١٩٦٧ حيث أدرجت جميع الرسائل التي تناولت تلك الازمة تحت بند مستقل يجمعها كلهـا وليس تحت بنـد « قضية فلسطين » . وقد جرت محاولات ، في حينه ، لادراج هذه المواضيع تحت بند « قضية فلسطين » . ولكن بعد حرب الخامس من حزيران أصبح البند « البديل » لبند « قضية فلسطين » يحمل العنوان « الوضع في الشرق الاوسط » ، وهو البند الذي أدرج تحته

قرار مجلس الامن الرقم ٢٤٢، بتاريخ ١٩٦٧/١١/١٦ . وقد كرس هذا القرار معالجة قضية فلسطين ــ قضية شعب فلسطين ــ باعتبارها قضية لاجئين !!.. أي حدث في مجلس الامن في عام ١٩٦٧ ، ما حدث في الجمعية العمومية في عام ١٩٥٢ . بل كان ذلك ، في هذه المرة ، ضربة أقسى موجهة ضد الشعب الفلسطيني وقضيته تسددها دول مجلس الامن في ظروف عدوان حزيران ١٩٦٧ ، وتجدد اندلاع الثورة الفلسطينية. أي في ظروف أصبح فيها العدوان الصهيوني علـى فلسطين والارض العربية أكثـر افتضاحا من أي وقت سابق ، وأصبح فيها صوت الشعب الفلسطيني عاليا . لان هذه الظروف كان يجب أن تعيد القضية الفلسطينية الى الجمعية العمومية لهيئة الامم ، على صورتها الصحيحة ، لا أن تغيبها عن مجلس الامن أيضا .

ثانيا ــ الشعب الفلسطينـي وقرارات الجمعية العمومية للامم المتحدة ١٩٦٩ ــ ١٩٧٣ :

كان من نتائج اندلاع الثورة الفلسطينية وتصاعدها ، وتراكم نجاحاتها ، أن أحدثت تغييرا أساسيا وجوهريا في الوضع بالنسبة للقضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني ، حيث أبرزت الشخصية الفلسطينيه المستقلة ممثلة بالمقاتل الفلسطيني الذي يناضل من أجل تحرير فلسطين من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني متمثلا بالكيان الصهيوني . واعادت قضية شعب فلسطين من قضية لاجئين في نظر مجلس الامن وهيئة الامم الى قضية شعب ثابت الحقوق الوطنيه ، وله حق تقرير المصير . وأدخلت قضية النضال الفلسطيني ضد الكيان الصهيوني ضمن قضايا التحرر الوطني والنضال ضد الاستعمار والتمييز العنصري . وقد انعكست هده الانجازات ، على درجات متفاوتة ومتصاعدة ، في مجالات عدة ، عربيا وعالميا ، بما في ذلك هيئة الامم المتحدة . ويمكن أن نرى هذا الانعكاس وتصاعده من خلال مراجعة منجزات دورات الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة في الاعوام ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧١ ، ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ .

١ ــ الدورة الرابعة والعشرون ، عام ١٩٦٩ :

لقد أصدرت الجمعية العامة للامم المتحدة قرارا في ١٩٦٩/١٢/١٠ في الدورة ٢٤ ، حمل رقم ٢٥٣٥ ب ، تحت بند « التقرير السنوي لمدير وكالة اغاثة اللاجئين وتشغيلهم (الاونروا) » ، نص على أن « الجمعية العمومية اذ تقر بأن مشكلة اللاجئين العرب نشأت عن أنكار حقوقهم الثابتة التي لا يمكن التخلي عنها المقررة في ميثاق الامم المتحدة، والاعلان العالمي لحقوق الانسان ، تعود فتؤكد الحقوق الثابتة لشعب فلسطين » . وكان هذا القرار أول انتقالة جديدة بقرارات الجمعية العمومية من حيث الاقرار بأن اللاجئين الفلسطينيين **شعب له حقوق ثابتة وفقا لنصوص ميثاق الامم المتحدة والاعلان العالمي لحقوق الانسان .**

٢ ــ الدورة الخامسة والعشرون ، عام ١٩٧٠ :

جاء قرار الجمعية العمومية في الدورة ٢٥ عــام ١٩٧٠ تحت بند « تقريـر مدير الاونروا » تأكيدا للقرار السابق ٢٥٣٥ ب ، ولكن مفصلا الحقوق الثابتـة بما نصه « ضرورة الاخذ بمبدأ تساوي الشعوب في الحقوق وحقها في تقرير المصير المكرس في المادتين ١ و ٥٥ من ميثاق الامم المتحدة .. » واعترفت الجمعية العمومية « لشعب فلسطين بالتساوي في الحقوق ، وبحق تقرير المصير وفقا لميثاق الامم المتحدة » . ان هذه الاضافات تعتبر خطوة متقدمة على القرار رقم ٢٥٣٥ ب .

وتحت بند « الوضع في الشرق الاوسط » من الدورة ٢٥ نفسها ، قررت الجمعية

العمومية في الفقرة ٣ انها « تعترف ان احترام حقوق الفلسطينيين هو عنصر لا غنى عنه من أجل اقامة سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط » .

أما القرار الثالث الذي اتخذته الجمعية العمومية في الدورة ٢٥ فقد جاء في اثناء بحث قضية الاستعمار وحق تقرير المصير للشعوب ، حيث اعتبرت الجمعية العمومية قضية فلسطين من جملة القضايا الاستعمارية ، واعتبرت نضال شعب فلسطين كفاحا مشروعا ضد استعمار أجنبي ، حيث جاء في القرار بعد مقدمة حول أهمية « التحقيق العالمي لحق الشعوب في تقرير المصير وضرورة الاسراع في منح الاستقلال للشعوب والبلاد المستعمرة » ، ثم بعد ذلك التأكيد على « شرعية نضال الشعوب الخاضعة للسيطرة الاستعمارية والاجنبية ، والمعترف بحقها في تقرير المصير ، لكي تستعيد ذلك الحق بأية وسيلة في متناولها » — هنا اشارة واضحة لحق استخدام الكفاح المسلح . وجاء في القرار المذكور أن الجمعية العمومية : « تدين تلك الحكومات التي تنكر حق تقرير المصير على الشعوب المعترف لها بذلك خصوصا شعوب افريقيا الجنوبية وفلسطين » .

٣ — الدورات ٢٦ عام ١٩٧١ ، ٢٧ عام ١٩٧٢ ، ٢٨ عام ١٩٧٣ :

لقد أكدت الدورات ٢٦ عام ١٩٧١ ، ٢٧ عام ١٩٧٢ ، ٢٨ عام ١٩٧٣ ما جاء ذكره من قرارات في الدورة ٢٥ عام ١٩٧٠ مضافا اليها تعبير الجمعية العمومية عن « قلقها البالغ لعدم السماح لشعب فلسطين بالتمتع بحقوقه الثابتة التي لا يمكن التخلي عنها ، ولعدم ممارسته حق تقرير المصير » (الدورة ٢٦) . وكررت ذلك في الدورة ٢٨ (عام ١٩٧٣) بالفقرة ٢ من القرار رقم ٣٠٨٩ — « تعرب مرة اخرى عن قلقها العميق بشأن حرمان اسرائيل لشعب فلسطين من التمتع بحقوقه الثابتة ومن ممارسة حقه في تقرير المصير » . وأعلنت الجمعية العامة في القرار نفسه فقرة ٣ «ان الاحترام الكامل لتحقيق الحقوق الثابتة لشعب فلسطين ، وخاصة حقه في تقرير المصير ، لازم من أجل سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط » . هنا يلاحظ ان هذه القرارات تنقض ما جاء في قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ في فقرته التي تعتبر المسألة الفلسطينية مشكلة لاجئين . أي يمكن استغلالها في مساعي التسوية لمن يريد ذلك . ومن ثم لا تضيف في هذا المضمار عملية ادراج « قضية فلسطين » كبند مستقل اضافة نوعية . ولهذا يبقى التخوف من ادراجها ثانويا اذا ما قيس بالضربة التي يوجهها الى سياسات العدو الصهيوني .

ان الدورات المذكورة أعلاه من ٢٤ عام ١٩٦٩ الى ٢٨ عام ١٩٧٣ تظهر بوضوح ما حصل من تقدم في وضع القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني في قرارات الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة ، وان كان ذلك ، حتى الان ، **أقل مما هو من حق الشعب الفلسطيني سواء في شكلها أو محتواها** . ولكن يجب أن يلاحظ أن تلك القرارات أدخلت تحت بنود مختلفة ، على سبيل المثال بند « تقرير مدير الاونروا » او بند « الوضع في الشرق الاوسط » مع بقاء التغييب للبند الخاص المستقل « قضية فلسطين » .

ثالثا : القضايا المتفرعة عن قضية فلسطين :

لا بد من الاشارة الى أن التصعيد الذي حصل في قرارات الجمعية العمومية بالنسبة لحقوق الشعب الفلسطيني ما بين الدورات ٢٥ الى ٢٨ ، رافقه تصعيد آخر فيما يتعلق بقرارات تتناول مواضيع متفرعة عن القضية الفلسطينية مثل :

أ) حق العودة للفلسطينيين لاجئي ١٩٤٨ ، والمرحلين عام ١٩٦٧ .

ب) ممارسات « اسرائيل » في المناطق المحتلة .

جـ) وحقوق العرب في التعويض واستعادة الاملاك .

أ) حق العودة للفلسطينين لاجئي ١٩٤٨ ، والمرحلين ١٩٦٧ :

كانت الجمعية العمومية في الدورة الثالثة عام ١٩٤٨ قد أصدرت قرارا رقم ١٩٤ أكد حق لاجئي ١٩٤٨ الفلسطينيين بالعودة الى وطنهم . ولكن الجمعية في دورتها السادسة اخذت قرارا بتاريخ ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٢ ، حمل الرقم ٥١٣ خصص بموجبه مائتا مليون دولار (٢٠٠ مليون دولار) لاعادة توطين اللاجئين في البلاد العربية خلال ثلاث سنوات . وقد وجه هذا القرار ضربة للقرار ١٩٤ ، وقد لقي تجاوبا في ذلك الوقت مع اغلب الدول العربية التي كانت رازحة تحت النفوذ الامبريالي . ولم يحبطـه سوى النضال الشجاع الحازم الذي خاضه الشعب الفلسطيني وحركة التحرر العربية ضد مشاريع التوطين .

عادت الجمعية العمومية في دورتها ٢٨ عام ١٩٧٣ فأكدت قرارها ١٩٤ لعام ١٩٤٨، بالقرار رقم ٣٠٨٩ ب . وأضافت عليه في الفقرة ٣ مـن القرار ٣٠٨٩ هـ « ان تمتع اللاجئين الفلسطينيين العرب بحقهم في العودة الى موطنهم وممتلكاتهم والذي اعترفت به الجمعية العامة بالقرار ١٩٤ (٣) في ١١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٨، والذي كررت الجمعية العامة تأكيده منذ ذلك التاريخ ، هو أمر لا غنى عنه من أجل تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين ، ومن أجل ممارسة شعب فلسطين حقه في تقرير المصير » .

اما فيما يتعلق بالمرحلين العرب الفلسطينيين عام١٩٦٧فقد كررت الجمعية العمومية في الدورة ٢٨ ، عام ١٩٧٣، في قرارها رقم ٣٠٨٩ ــ جـ ، تأكيد حق اولئك المرحلين « في العودة الى مساكنهم .ومخيماتهم » كما عبر القرار المذكور عن « الاسف بشدة لرفض السلطات الاسرائيلية اتخاذ الخطوات الكفيلة بعودة مرحلي ١٩٦٧ » .

ب) ممارسات « اسرائيل » في المناطق المحتلة :

لقد توصلت الدورة ٢٨ عام ١٩٧٣ للجمعية العامة الى قرارات هامة بالنسبة لوضع السكان المدنيين في المناطق المحتلة معتبرة ان اتفاقيات جنيف تنطبق عليهم حيث نص القرار رقم ٣٠٩٢ في فقرتيه ١ و ٢ بأن الجمعية العمومية :

« ١ ــ تؤكد ان اتفاقيات جنيف الخاصة بحماية الاشخاص المدنيين في زمن الحرب المؤرخة في ١٢ آب ١٩٤٩ تنطبق على المناطق العربية التي احتلتها اسرائيل منذ العام ١٩٦٧ » ...

« ٢ ــ تطلب من سلطات الاحتلال الاسرائيلية ان تحترم مواد تلك الاتفاقية في المناطق العربية المحتلة وتلتزم بها » .

كما وردت مناشدات بهذا الصدد في اكثر من فقرة في تلك الدورة . هذا فضلا عـن قرارات أصدرتها الجمعية العمومية في الدورة المذكورة :

« أ) تستنكر رفض اسرائيل الدائم السماح للجنة الخاصة بدخول المناطق المحتلة» .

« ب) تعبر عن قلقها الشديد لانتهاك اسرائيل اتفاقية جنيف » وتطلب منها الكف فورا عن هذه الانتهاكات .

« جـ) تعلن ان سياسات اسرائيل في الضم والاستيطان وتغيير طابع المناطق المحتلة المادي وتركيبها السكاني وبنيتها الدستورية أو وضعها ، أو وضع اي جزء منها ، هي انتهاكات للقانون الدولي والاتفاقات الراهنة ولقرارات هيئة الامم المتحدة » .

« د) تحث جميع الدول على الاحجام عن أي عمل قــد تستغله اسرائيل في تنفيذ سياساتها في استعمار المناطق المحتلة » . . . « تناشد جميع الدول والمنظمات الدولية والوكالات المتخصصة عدم الاعتراف بأية تغييرات تجريها اسرائيل في المناطق المحتلة ، وأن تتجنب القيام بأي عمل ، بما في ذلك أعمال المساعدة ، التي يمكن ان تستخدمها اسرائيل للاستمرار في سياساتها وممارساتها المشار اليها في هذا القرار » . (الدورة ٢٨ ، عام ١٩٧٣ ، القرار رقم ٣٠٩٢ ب ــ الفقرات أ ، ب ، ج ، د) .

جـ) **حقوق العرب في التعويض واستعادة الاملاك :**

صدر قرار من الدورة ٢٨ لعام ١٩٧٣ عن الجمعية العمومية ينص على ان الجمعية العمومية :

« ١ ــ تؤكد حق الدول والشعوب العربية التي وقعت أراضيهــا تحت الاحتلال الاجنبي في السيادة الدائمة على جميع مواردها الطبيعية » . .

« ٢ ــ تؤكد مجددا على ان جميع الاجراءات التي اتخذتها اسرائيل لاستغلال الموارد البشرية والطبيعية في المناطق العربية المحتلة هي اجراءات غير شرعيــة . وتدعو اسرائيل الى وقف هذه الاجراءات فورا » . .

« ٣ ــ تؤكد حق الدول والشعوب العربية التي وقعت أراضيهــا تحت الاحتلال الاسرائيلي في استعادة تلك الموارد الطبيعية ، والتعويض الكامل عن استغلالها ونهبها والاضرار بها ، كذلك عن استغلال الموارد البشرية واستخدامها في المناطق المحتلة » (الدورة ٢٨ عام ١٩٧٣ ، القرار رقم ٣١٧٥ الفقرات ١ ، ٢ ، ٣) .

خــلاصة :

ان هذه المراجعة التاريخية لمسألة ادراج « قضية فلسطين » كبند مستقل عــلى جدول أعمال دورات الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة ، وان مراجعة التقدم الذي حصل خلال دورات الجمعية العمومية من ١٩٦٩ الى ١٩٧٣ تؤكدان حقيقتين الاولى ، ان اعادة ادراج « قضية فلسطين » كبند مستقل في جدول اعمال الجمعية العموميــة يعيد الامور الى نصابها بحيث تبحث القضية بكليتها ومن جذورها وليس من خــلال بعض تفرعاتها « كتقرير مدير الاونروا » او « الوضع في الشرق الاوسط » ، او « خرق اسرائيل لحقوق الانسان في المناطق العربية المحتلة » . الامر الذي يسلط الاضــواء عليها كقضية الاصل ، خاصة ، في حالة وجود ممثلين حازمين للشعب الفلسطينــي يطرحون قضيته من حيث الاساس وبعمق وقوة . وأما الحقيقة الثانية ، فتنبع من ان هذا الادراج يسدد ضربة قاسية للمخططات الصهيونية والامبريالية التي عمدت الى طمس قضية فلسطين ، وانكار حقوق شعب فلسطين ، وتحويل القضية الى صراع بين الدول العربية وبين الكيان الصهيوني فقــط . ولا عــلاقة للشعــب الفلسطيني بالمسألة ، عدا كونه « كومة لاجئين » . وتضع هذه المخططات في قفص الاتهام .

ان ادراج « قضية فلسطين » على جدول اعمال الجمعية العمومية في هيئة الامــم المتحدة ينسجم مع النجاحات التي حققتها الثورة الفلسطينيــة ، ونضال الشعــب الفلسطيني وتضحياتــه ، عــلى النطاقين العربي والعالمي ، في تأكيــد الشخصيــة الفلسطينية ، واعادة قضية فلسطين من قضية لاجئين الى قضية حق تقرير مصير ، وقضية تحرر وطني ، وقضية نضال ضد الاستعمار الاستيطاني والتمييز العنصري . كما ان ذلك ينسجم مع نجاحات حركة التحرر العربي ومنجزاتها ، ومع ما طرأ مــن تغييرات ايجابية على الوضع العالمي ، خاصة ، في أفريقيا وآسيا واميركا اللاتينية ،

وفي داخل هيئة الامم المتحدة ومجلس الامن . فضلا عن ان هذا الادراج يأتي استمرارا للتقدم الذي تصاعد في قرارات الدورات من ٢٤ الى ٢٨ للجمعية العمومية في هيئة الامم المتحدة .

على ان النجاح في ادراج « قضية فلسطين » في الدورة ٢٩ ، عام ١٩٧٤ للجمعية العمومية لا بد من ان يستكمل بطرح القضية من قبل وفد فلسطيني مناضل طرحا قويا وحازما ، يأخذ موقفا هجوميا على الكيان الصهيوني من حيث أتى ، وليس فقط ، الهجوم على سياساته العدوانية ، او استمراره في احتلال بعض فلسطين ، او خرقه لقرارات الامم ومجلس الامن . وهذا يتطلب ان يقوم الوفد الفلسطيني بمناقشة قضية فلسطين من جذورها وفضح الحيف الذي لحق بالشعب الفلسطيني نتيجة قيام دولة الكيان الصهيوني الذي يشكل وجوده وبقاؤه جذر المشكلة . مما يجعل الحل الوحيد العادل الذي ينسجم مع ميثاق هيئة الامم المتحدة ، والاعلان العالمي لحقوق الانسان هو ممارسة الشعب الفلسطيني لحق تقرير المصير على كامل ترابه الوطني ، واقامة الدولة الديمقراطية على كل فلسطين . كما لا بد من التعريض بقرارات هيئة الامم التي قضت بتقسيم فلسطين ، بمخالفة صريحة لميثاق هيئة الامم المتحدة الذي يعطي الشعوب حق تقرير مصير اوطانها ، وليس اية قوة خارجية ، بما في ذلك هيئة الامم المتحدة . ويستتبع هذا الطرح المطالبة بطرد دولة الكيان الصهيوني من عضوية هيئة الامم المتحدة اسوة برفض عضوية الدول الاستعمارية الاستيطانية العنصرية كجنوب افريقيا وروديسيا .

على هذه الصورة يصبح ادراج « قضية فلسطين » على جدول اعمال الجمعية العمومية خطوة نضالية ذات مغزى هام فلسطينيا وعربيا وعالميا .

.. ولكن للشهادة وجها آخر

المطران جورج خضر

مرة رأيت وجهه الاسمر وكأنه طالع من البداوة ، وليد للصحراء قديم . ودار حديث بيننا عن الكنيسة التي كان يشيدها في القدس وعن الفن البيزنطي الذي أراده حلة لها. موضوع طقوسي جمالي كان يقربنا ولم يكن يدور في خلدي انه يتعاطى الشأن القومي . ولكن توقيفه ومحاكمته جعلاه موضوعيا واحدا من كوكبة رهابين كانوا في الشرق ، قديمه وحديثه ، روادا لانتفاضات الوطن كأن الصدق يحتاج الى الخروج من الهيكل لان الهيكل في تأهبه كوني .

من يكون الرجل ؟ هل هذا مهم ؟ كل مولود يولد مرتين من أمه ومن السماء على قدر ما تناثرت فيه ومضات الحقيقة . وتولد بنضالها دنى . فالاسقف صار مقاوما فدخل برعاية قومه وغير قومه من الباب الواسع . والراعي ، في الكتاب ، ضحية . والذبائح يزكيها الله . الا تعني لفظة كبوجي التركية حاجب السلطان ؟ ان هذا الاسقف العربي بدا ، في أيام من كفاحنا ، مدخل الناس الى سلطان الحرية .

كان هاجس هذا الحبر الشرقي أن تبقى المسيحية العربية في القدس . هذه المسيحية كان يراها في اضمحلال حتى النزاع ويتألم لذلك ويصلي . ومعنى ذلك كثير . فالمسيحية المقدسية عربي شعبها ، أجنبية رئاساتها . ولكن أجنبيا كبيرا هو المونسنيور لويدجي ، السفير البابوي السابق ، تكلم عن الرابط العضوي بين المسيحية في فلسطين والثقافة العربية .وكان دور الخيرين من الاحباء أنيؤكدوا أهمية الدور الذي تمثله هذه النصرانية المشرقية العربية اللسان في استمرار الكنيسة في الارض المحتلة . فانطلاقا من فلسطين مصلوبة تستطيع الكنيسة الوطنية ان تؤكد قيامة الكل. مشاركة الاوجاع هي الناطقة. وليس الاجنبي كالعربي . ولذلك كانت شهادة أسقف كاثوليكي سوري هي الشهادة التي كنا نتمنى لو أداها الاساقفة التي شاءت مفارقات التاريخ أن يعيشوا على الارض الفلسطينية وهم من غير أبنائها .

ومن هذا المنظار يتجلى لنا أن الحركة المسكونية التي تحاول أن تدني المسيحيين بعضهم الى بعض عقيدة ، وعملها محكها ، في بلادنا ؛ الاخلاص لقضية هي أوسع أفقيا من الكنائس اذا انعزلت أو تقاربت . فقد تدخل الكنائس في مسعى وحدوي بسبب من حيطة او خوف . وفي هذه النفسية تسمي اتحادا ذلــك الشأن الذي هو في حقيقته انقسام . اليس كل حذر من هذا النوع تباعدا عن الانسان وتقوقعا دون هذه المغامرة الكونية الكبرى التي تجعلنا في تلاق مع الكل ؟ « الاتحاد » قد يكون خاليا من النفحة الانسانية الكبرى المجبولة بالطمأنينة التقاربية المسيحية لا برهان على صدقها الا في تعهد واحد الشأن الارض، لخلافة الله على الارض.ولذلك، المسيحية لون من الوان

الانتحار الميتافيزيقي واحتجاب عن الفعل التاريخي . ومن هنا ان ليس من معنى ولا من وجوب الا للمسيحية العربية الحاملة شأن فلسطين محكا لصدقها ومجالا لتنقيتها .

الامامة الروحية تصبح في هذا الموقف شيئا من العالم . تفصح ، بمسالك واضحة ، عن قضية الانسان . فالانسان ، لا الله ، هو الذي يفرقنا . نقتتل حول الانسان . ومشكلة الله تبدأ من هذا التساؤل : هل لله وجه انساني ؟ هل الانسان مدعو ليصير الهي الطلعة والنفحة من خلال تاريخ وجهاد ؟

الذين يجيبون بنعم عن هذا السؤال تبدأ بينهم المصالحة . فالعودة الى التراث ممكنة فقط من الالم . والمسيحية لا تصبح فعل قيامة الا انطلاقا من الانسان المطروح على دمائه. الحب هذا يجعلها تنطق لاهوتا قادرا أن يرى الصليب وان يتجاوز الصليب بآن معا الى ما فيه فرح الانسانية جمعاء وهناؤها وسلامتها .

ان شهادة راع وطني مقاوم — جماله كله في اللا يقولها لاسرائيل — شهادته أن يرسخ في اذهان العرب جميعا ليس فقط ان الطليعة المسيحية لا تقل عن اية طليعة اخرى شرفا ونضالية ولكن من شأنها أن تجعل الفكر المسيحي في اصالته جزءا لا يتجزأ من هذه الدنيا العربية التي نريد بناءها على الحداثة . نحن قطب عقلي من هذا الميراث العربي الكبير . ولكن ينبغي تأكيد ذلك بالجهاد القومي والانتاج الثقافي الضخم في آن معا . وليس عندي من شك أن المصلحة العربية الكبرى تقضي بتعزيز المسيحيين العرب تعزيزا كبيرا . ولعل لهم في تقويض الامبريالية معاول يتقنون استعمالها كما لهم في تحرير الانسان العربي في العمق مساهمة كبيرة . المسيحية العربية ليست فقط واجهة أو سلعة تصدير في مواجهتنا الصهيونية والسيطرة الاجنبية التي تدعمها . ولكنها الهام للعرب وغذاء لا يستغنى عنه في وجودهم التاريخي الفاعل .

والى جانب تأثيرها في الشرق تبقى المسيحية المتجددة في تراث آبائها وتحسسها لعملها العربي تلك القوة القادرة حقا على تحدي المسيحية الغربية في نزعتها المتهودة اليوم . وقد أخذت تقوم بمهمتها هذه في المجالات العالمية والاقليمية وتقابل أهل الغرب بموقف من التوراة وعلاقتها بالعهد الجديد غير الذي ألفه الغرب في الازمنة المتأخرة . ولعل هذه المناظرات مقرونة بمعرفة الواقع الفلسطيني أخذت تؤتي ثمارها هنا وثمة بعد هذا التحفظ الشديد تجاه القضية برمتها .

والمسيحية العربية بتخطي الحرفية والتاريخانية الغارق فيهما الغرب المسيحي تؤكد على الانجيل والتراث الشرقي الكبير ولا سيما على رؤية آباء الاسكندرية القدامى وكان عندهم من الانفتاح على الديانات القديمة والفلسفة اليونانية الشيء الكثير . أي ان مسيحية هذه البلاد تقتفي آثار المسيح أنى وجدت وتستحبها أنى وجدت ولو في الميراثات الدينية الخارجة عن الكنيسة التاريخية كالاسلام وذلك لكون فعل الكلمة الالهي غير محصور في الكيان التجسدي الذي اتخذه المسيح . الكلمات الالهية المزروعة خارج الخط العبري — المسيحي التاريخي وهي كلمات لالهنا يجب التقاطها هنا وثمة وفيها يتجلى ضياء يسوع . ان الموقف المسيحي المشرقي في تعمقه الجديد ينشىء مودة أصلها موضوعي ليس فقط للمسلمين بل للاسلام نفسه أو بعض الاسلام . وهذا ما يجعلنا نذهب الى ان المسيحية العربية في نهضتها اللاهوتية لا تنادي بعلمنة التراث العربي حتى يذهب عنه الاسلام — وهذا مستحيل — ولكنها تدعو الى موقف روحاني وحضاري يكون فيه لكل من الديانتين أثرهما في تكوين الانسان العربي على هذا الصعيد أو ذاك

من وجودنا . وان البنية العلمانية للدولة لا تنفي اطلاقا استلهام الحياة الروحية لعيش كريم وبناء المدنية الجديدة في هذه الديار . فاذا نحن تنكرنا للسلفية و«الوطن المسيحي» في لبنان فلا نستطيع أن نكافح فكرة الوطن اليهودي في فلسطين اذا نحن قبلنا تنظيما دينيا ذي قطر . لا يمكن أن تنكر على عدوك سلاحا أنت تستعمله . من هذه الزاوية كانت المسيحية العربية أختا مقلقة ولكن هذا الاقلاق لا بد للعرب جميعا ان يرحبوا به اذا شاؤوا الخروج من التراكمية المتحجرة البليدة . انها حاملة توثب وطاقة تطهير اذا استطاعت أن تصبح كثافة نور وقوة تطلعات توتر فينا قوة الخلق المرتقبة للتفجر .

أمام هذه الآفاق يتلاشى التساؤل حول شرعية العنف يمارسه القسيسون . فالانسان ، في حركة امتداده وتصاعده التأليهي قد يختار اللاعنف عندما يكون تعبيرا عن لقائه بالله اي مسلكا من مسالك القوة . اللاعنف ، في أعماقه والتزاماته المصلية كبير لانه يقين اولئك الذين يرون أنهم شادون الارض بالسماء وان هذه تنحني رحمة منجية . اللاعنفيون الاكابر قادرون على ترويض الشراسة . اختيارهم ارتضيه حتى الحب .

ولكن الشهادة لها وجه آخر ، وجه القدرة تمارسها أصابعك والبدن . قد تختار قوة هذا الجسد سبيلا مؤقتا لقمع الشر . العنف ليس بمذهب . وأن مذهبناه فهو أبشع الوان فسادنا . انك أنت تفتديه بالحب . أنت مكره عليه أحيانا بعد تأمل وتمزق . من عاش المقاومة مأساة يتحرر من كذب البطولة ، من انتفاخ البطولة . انها أمر انساني ملقى عليك . قد تأتي اليه من واقع قداسة ، من موقف الحوار الذي لك مع ربك في احر دعاء . وليس لاحد أن يدينك اذا تراءى لك أداة الشهادة تارة صليبا وطورا بندقية . ليس لي أن أفلسف موقف كميليو توريس لان تراث كنيستي أصلا تراث غير عنفي ولكن لي أن أرى ، على ذلك ، أن الرجل أحس نفسه في طاعة ايمان وشاء « هذه الميتة التي أراد أن يمجد الله بها » .

غير اني الاحظ أن الكنيسة الشرقية نفسها اخترق رجالاتها هذه القاعدة المرة تلو المرة في غير أمة وان قديسيها وقفوا موقف الكبر والعزة القومية ضد التتار والافرنج في روسيا المقدسة وضد الاقطاع في رومانيا وقاوموا الترك في السلطنة العثمانية والصهيونية في فلسطين . وحدوا أنفسهم مع شعوبهم ولا حرج عندي ان يقفوا في معسكرين مضادين اذا اقتنعوا بعدالة معسكرهم . والمأساة ليست بأن يقفوا ، هنا وثمة ، بآن معا ولكن المأساة الا يفهم فريق منهم أن العدالة هناك .

ومما لا شك فيه أن كبار الرهبان الذين الهموا الثورات — وليس لها اسم آخر بالحقيقة — لم يكونوا منطلقين من عصبية قومية ولكنهم كانوا آتين من الانسان ومن آلامه . وفي بقعة المعمورة التي فيها يعيشون يرى هذا حسا قوميا بما في هذا التعبير من سمو . وهذه الطبيعة من لحم ودم لا يزالان طريقنا الى هذا الانسان الذي من ارضه يرتقي الملكوت ومن اوجاعه يتمتم الفرح . ليس لنا سبيل الى العافية الا اذا ضمدنا الجراح ولازمناها بالفهم .

الفهم الاخير يتنزل علينا من مجد الضابط الكل كما يتجلى على القبة البيزنطية . هذا ما تاق اليه السيد ايلاريون كبوجي لما أراد تزيين بيعته المقدسة برسوم جدارية . لقد شاءت الحياة أن يترجم هذا المجد خارج الهيكل ، في تلك المعابد الحية التي هي مشردو

فلسطين . ولعل اقدامه يكلفه ان يبعد عن المشاريع الكنسية التي يقوم بها . فلسطين عراء والنفي مصير الذين يحبونها . اليس مكتوبا في كتابه : « فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم » (متى ٢١ : ٢٩) . ولكنهم لا يستطيعون أن يقتلوه فانسه ، من حيث معناه ومرماه ، قد أمسى هو أيضا حجرا آخر في بناء الحرية . في مطاف الارض يبقى المطران كبوجي شاهدا على صهيون الظالمة وأكابر مجرميها كما يقول القرآن . الطالعون من جوف الضياء ، الممدودون على مبلغ الرجاء سيعرفون ذلك .

استراتيجية المستقبل العربية في ضوء الحرب الرابعة

المقدم الهيثم الايوبي

« الحرب معلم عنيف للحقيقة »
(شارل موراس)

تعتبر الحرب الرابعة منعطفا هاما في الصراع العربي ـــ الاسرائيلي . فلقد تركت آثارا معنوية واقتصادية وعسكرية على جانبي الخندق، وقدمت الى الطرفين المتنازعين دروسا هامة على مختلف الاصعدة ، ولا يمكن أن يمر هذا الحدث التاريخي الهام دون أن يؤثر على العقيدتين العسكريتين العربية والاسرائيلية ، أو دون أن يطرح ضرورة اجراء تعديلات جذرية على الصعيد الاستراتيجـــي . وتدل الدراســـات العسكرية الاسرائيلية التي ظهرت بعد الحرب، أن هناك توجها جادا لاعادة النظر في الاستراتيجية العسكرية الصهيونية التي أرسى بن غوريون اسسها ، ثم أدخل عليها بيغال يادين ، وبيغال آلون ، وموشي دايان ، وشمعون بيريس ، وحاييم بارليف، وغيرهم، الكثير من التعديلات المتلائمة مع مجمل التحولات والحقائق وموازين القوى المحلية والعالمية ، دون أن تلامس هذه التعديلات أسس الاستراتيجية الصهيونية أو تؤثـــر على روحها العدوانية التوسعية . ولعل من ابرز المفاهيم التي تعرضت لها هذه التعديلات : الردع التقليدي ، والحدود الآمنة ، والهجوم الاجهاضي المسبق ، وتعبئة الاحتياط والاعتماد عليه ، وتجديد القيادات بصورة مستمرة . ومن المنتظر أن يخرج المنظرون العسكريون الاسرائيليون بعد هزة حرب تشرين الاول بتعديلات جديدة لا تقل عن التعديلات السابقة أهمية ، وليس من المستبعد أن تلامس هـــذه التعديلات أسس استراتيجية العدو نفسها ، وخاصة اذا استطاع المنظرون الاستراتيجيون الاسرائيليون التخلص مـــن أفكارهم المسبقة ، والتحرر من عقدهم الموروثة والمكتسبة ، ونظـــروا الى الحقائق الجديدة نظرة موضوعية جادة تتجاوز الاوهام التي خلفتها حربا ١٩٥٦ و ١٩٦٧ .

ولا يقتصر التعلم على جانب واحد ، ومن الطبيعي أن يتعلم العرب أيضا دروس الحرب الرابعة ، وأن يرسموا استراتيجيتهـــم المستقبلية وفـــق المعطيات الجديدة المتحولة ، وان يخططوا للمستقبل استنادا الى تجارب الماضي ، وحقائق الحاضر ، وتصورات المستقبل . وهناك ولا شك هيئات عربية تقوم بمثل هذا العمل ، وما هذه الدراسة ، في جوهرها ، سوى محاولة لتقديم ملامح الاستراتيجيـــة السياسية ـــ العسكرية العربية الجديدة التي تضمن مجابهة التحدي الصهيوني ، والتي لا بد وأن ترافقها استراتيجيتان اعلامية ، واقتصادية (بترولية أساسا) لا تقلان عنها أهمية وحيوية .

نظرة الى الماضي

واجهت السلطات الحاكمة في الدول العربية المجاورة لاسرائيل منذ هدنة ١٩٤٩ وضعا سياسيا ـــ عسكريا حرجا ، فقد كانت الروح الوطنية العارمة والضغط الشعبي

يفرضان عليها التخطيط والعمل لتحرير فلسطين ، وكان وجود أي حاكم ، واستقرار الاوضاع الداخلية في بلده ، وسمعته كحاكم وطني أم غير وطني ، مرتبطة كل الارتباط بموقفه من مسألة التحرير . والى جانب هذا الضغط الداخلي المستمر فقد كانت الدول العربية تصطدم بواقع موضوعي مبني على العناصر التالية :

١ ـــ ان اسرائيل دولة معترف بها دوليا ، ولا يمكن التعرض لحدودها القائمة ، وخلق امر واقع وفرضه على المجتمع الدولي ، الا اذا أمكن اكتساب الولايات المتحدة التي كانت تقوم على العكس باحباط أي مخطط مـــن هذا القبيل وتحمي « الدولة ـــ القاعدة » التي تمثل رأس الجسر لمصالحها . ولقد كان الضمان الثلاثي الاميركي ـــ البريطاني ـــ الفرنسي (١٩٥٠) ، ووجود الاسطول الاميركي السادس على مقربة من الشواطىء العربية ، والقواعد الجوية ـــ البحرية الاميركية والبريطانية المنتشرة حول الوطن العربي ، وعلى أراضي عدد من البلدان العربية نفسها ، تمثل المعطيات اللازمة للتدخل بسرعة وفاعلية لحماية اسرائيل .

٢ ـــ ان الدول العربية غير مؤهلة لمناطحة الامبريالية ، فهي أضعف من أن تفكر بذلك ، كما ان بعضها مرتبط بالامبريالية بشكل عضوي ، وخاضع من ناحية التسليح ، والتدريب ، والقيادة (أحيانا) ، للدول الامبريالية التي تحمي اسرائيل . وكانت طبيعة السلطات الحاكمة تمنع الدول العربية من أن تتجه شطر موسكو لموازنة ثقل الامبريالية وضغوطها ، ولم تكن موسكو نفسها لتقبـــل وجهة النظر العربيـــة الرافضة للوجود الاسرائيلي . فهي تعارض كل عدوان او توسع اسرائيلي ، ولكنها ترفض أي مخطط عربي يستهدف خلق وضع راهن وراء حدود هدنة رودوس (١٩٤٩) .

٣ ـــ بالاضافة الى كل هذه الاوضاع الدولية فقـــد كانت اسرائيل قوة عسكرية ديناميكية لا يستهان بها . وكان ميزان القوى العام مائلا لصالحها ، ويرجع السبب في ذلك الى مجموعة من العوامل المعنوية والنفسية ، بالاضافة الى المساعدات العسكرية التسليحية والتدريبية والتنظيمية التي كانت الدول الامبريالية تقدمها لاسرائيل لتجعل منها الدولة الاقوى ، سواء كان ذلك قبل قيام مصر وسورية بكسر احتكار السلاح في عام ١٩٥٥ أم بعده .

ولقد استنتجت القوى السياسية العربية من كـــل هذه الاوضاع والعوامل ، ان مجابهة القاعدة الامبريالية المتقدمة والمصنعة لا يمكن أن تتم اذا مـــا بقيت البلدان العربية متخلفة ومجزأة . وان الاعداد الحقيقي للمعركة يتطلب ارساء قواعد الوحدة العربية والتنمية الاقتصادية ـــ الاجتماعية . وان تحقيق كل هذه المنجزات والتغلب على مشكلات التنمية ، ونقص الخبرات الفنية ، وقلة رؤوس الامـــوال ، والاميـــة ، والفكر القطري ، وضعف القاعدة الاساسية لبناء مجتمع متطور عصري ، تتطلب خلق قوة دفاعية ، يتم البناء الاقتصادي ـــ الاجتماعي ـــ العسكري وراءها ، ريثما تتحقق الوحدة وتتم التنمية ، ويصبح بالامكان الانطلاق الى التحرير .

ومن هذه المنطلقات نبعت السياسة العربية للحفاظ على « الوضع الراهن » ، ومنع اسرائيل من التوسع . ولتطبيق هذه السياســـة تبلورت الاستراتيجية العسكريـــة العربية الدفاعية ، وظهرت الجبهات الدائمة الثابتة ، المؤلفة من سور طويل من المخافر الامامية المحمية بحقول الالغام ، وخلفها خطوط دفاعية محصنة الى حد ما . وكانت الجيوش العربية المكلفة بحماية هذه الجبهات تكتسب مع الايام روح الخنادق ، وتفقد قدراتها الحركية والصدامية ، وترد على عمليات اسرائيل المحدودة « بالصد » و« الرد الناري » المدفعي أساسا ، دون ان تنتقل الى « الرد بالنار والصدمة » ، او ان تنقل

المعركة الى أرض العدو ، خوفا من التصعيد والانتقال الى الحرب الشاملة . وكان الخط العام الذي يحكم الجبهات هو : **تهدئة الاوضاع مع « الجارة القوية » ما أمكن ، ريثما يتم اعداد الظروف المحلية والدولية الملائمة لتسخين هذه الحدود .**

ولاقى تطبيق الاستراتيجية الدفاعيه نفسها عقبات كبيرة حرمتها من الفائدة المرجوة منها . فلقد استطاع الفكر القطري المسيطر حجب رؤيه العلاقه الوثيقه بين الامنين القطري والقومي ، ودفع الدول العربية الى تقديم الامن القطري على الامن القومي ، الامر الذي ادى الى عدم خلق جهاز دفاعي عربي فعال ؛ رغم عقد الاتفاقات العسكرية الثنائيه وغير الثنائية ، وخلق القيادات المشتركه . ولقد كان وراء فشل خلق الجهاز الدفاعي القومي اسباب اخرى : كعدم تماثل الهدف او وعي الخطر بالنسبه الى جميع الدول العربيه ، وضغط الامبرياليين على الحكومات العربية المرتبطة بهم ، ومخاوف حكومات الدول العربية التقليدية من تزايد مهابة الحكومات العربية الراديكالية بين صفوف جماهير الدول التقليدية نفسها ، وخاصة بعد حرب ١٩٥٦ ، وبدء المد الناصري الواسع .

وكان من أهم نتائج فشل الحكومات العربية في خلق جهاز دفاعي عربي فعال ، القاء اعباء الدفاع عن الامة العربية ، واحتواء القوه العسكرية الاسرائيليه ومنعها من التوسع ، على عاتق دول الطوق ، التي اضطرت الى تقوية جيوشها على حساب التنميه ، رغم أنها دول فقيرة أساسا ، على حين التفتت الدول العربية البعيدة عن بؤرة الصراع ، والاغنى من دول الطوق ، الى التنمية الداخلية ، أو الى توظيف رؤوس اموالها في الدول الامبريالية نفسها ، متجاهلة متطلبات بناء القوة الدفاعية العربية . وهكذا ظهرت كل ملامح « الحرب بالوكالة » ، التي تحمل دول الطوق أعباءها باسم الامة العربية كلها ، ونيابة عن الدول العربية البعيدة التي تدعمها سياسيا ومعنويا ، وتقدم لها العون الاقتصادي المحدود أحيانا*. ولقد أدى هذا الوضع الى عدم تكريس الطاقات البشرية والاقتصادية العربية لمجابهة التحدي المصيري ، وعجز الدول العربية المعنية بالصراع عن تكريس الامكانات المادية اللازمة لدعم تسليح جيوشها وقلبها الى جيوش عصرية ، وعدم قدرة هذه الدول على تجنيد طاقاتها البشرية الذاتية الكاملة ، وتعثر التنمية الاقتصادية ـ الاجتماعية في دول الطوق ، وتكريس التخلف ، الذي انعكس داخل القوات المسلحة على شكل انخفاض في المهارات التكنولوجية ، وضعف قدرة المقاتل على استيعاب الاسلحة المتطورة .

بمثل هذه الاستراتيجية ، وبمثل هذا الاعداد ، دخلت دول الطوق العربية المعارك المحدودة او الشاملة مع العدو الاسرائيلي حتى عام ١٩٦٧ . ولقد ادت الحرب الرابعة الى تبدل معطيات الموقف الاستراتيجي ، وظهور موقف جديد تحتل فيه اسرائيل اراضي دول عربية ، وتخضع جزءا من جماهير شعبها . واختفت صورة اسرائيل كدولة ضعيفة محاطة بالاعداء الذين يودون تدميرها ، وظهرت بدلا عنها صورة الدولة المعتدية المتحدية للارادة العالمية .

وفي مرحلة الصراع السياسي الذي اعقب وقف القتال ، بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة ، سارت السياسة الخارجية الاسرائيلية على طريق لا ينسجم مع ما كانت تطرحه قبل الحرب من مقولات ، وعجزت عن تفسير التناقض القائم بين ادعاءاتها حول السلام ،

---

* عزز العراق قوته الدفاعية رغم بعده عن بؤرة الصراع ، وعدم اعتباره من دول الطوق ، على حين لجأ لبنان الى سياسة الاعتماد على الضمانات الدولية رغم انه (جغرافيا) من دول الطوق .

ورفضها للمبادرات السلمية . وساد في العالم شعور واضح بأن الموقف الاسرائيلي يقف حجر عثرة امام السلام في الشرق الاوسط ، بل وامام السلام العالمي بأسره ، وأن السلطات الاسرائيلية الراغبة في اقتناص الفرصة التاريخية لتحقيق حلم الصهيونية تلعب بالنار امام برميل من البارود .

ومن حسن حظ العرب ، ان القيادات الاسرائيلية لم تغتنم ظروف ما بعد حرب ١٩٦٧ ، ولم تطرح ما تستطيع الحكومات العربية قبوله في ظل العجز العسكري الكامل ، ولكنها اضاعت على العكس كل الفرص الذهبية التي مرت امامها . وأعمتها نشوة الانتصار ، ودفعتها الى السعي لتكريس الاحتلال ، وضم المناطق ، واخضاع سكانها ، متجاهلة انها تحاول بذلك تطبيق الاستعمار ، بأكثر اشكاله بدائية ، في النصف الثاني من القرن العشرين ، وبعد ان مر العالم في عصر تصفية الاستعمار ، وان الارض التي تحتل بعض اجزائها ليست خالية من السكان ، ولا يعيش عليها شعب صغير يمر بفترة انحطاط وتفتت ، بل تعيش عليها امة كبيرة ، تطمح الى الوحدة والتقدم،وتملك من الامكانات الاقتصادية ما يؤهلها لتجاوز تخلفها الثقافي والتكنولوجي، ويجعلها أمة قوية اقتصاديا ، وبالتالي عسكريا .

ولقد استفادت الدول العربية من الموقف الاسرائيلي ، والمأزق السياسي الذي حشرت اسرائيل نفسها فيه ، وتسللت من ثغرة الغطرسة الاسرائيلية ، وشنت حملة سياسية واعلامية أريبة ، ووقفت من جميع المبادرات السلمية موقفا ايجابيا ، فربحت المناورة السياسية الخارجية ، وأثبتت أمام العالم انها راغبة في السلام ، ولكنها ترفض المنطق الاسرائيلي الذي يدعوها الى المفاوضات والمسدس مصوب الى رأسها . وساعد الدول العربية على كسب المناورة السياسية الخارجية وعزل اسرائيل دوليا ، عدة عوامل : (١) فلقد ساعدتها الكتلة الاشتراكية ودعمت موقفها السياسي المطالب بالانسحاب الكامل . وكان وراء هذا الدعم موقف ايديولوجي مبدئي (عدم شرعية احتلال اراضي دولة اخرى ، وضمان حق تقرير المصير للشعوب) ، وموقف عملي يتمثل في ان دول هذه الكتلة لم تكن تستطيع الموافقة على احتلال اراضي الغير بالقوة في الشرق الاوسط ، حتى لا تكون هذه الموافقة بادرة ضعف تشجع المعسكر الامبريالي على فرض الامر الواقع في مناطق اخرى من العالم . وبالاضافة الى ذلك فقد كان المعسكر الاشتراكي يرى أن وقوفه الى جانب الحق العربي يفتح له المجال لتدعيم مواقعه ، وتعزيز دفاعه ضد المخططات الامبريالية الرامية الى محاصرته ، (٢) وكانت اوروبا الغربية تدين الموقف الاسرائيلي ولا تقره ، رغم ضمانها لامن اسرائيل وسلامة أراضيها . وكانت ترى ان مصلحتها الاوروبية ، وحاجتها لمصادر الطاقة ، تتطلب عدم استعداء العرب ، كما ان علاقاتها القديمة مع بعض اجزاء الوطن العربي ، ومرتكزاتها فيه ، وقربها منه ، تجعلها مؤهلة اكثر من الاتحاد السوفياتي ، لاشغال الفراغ السياسي — الاقتصادي الذي سينجم عن تحول العرب عن الولايات المتحدة بسبب موقفها المؤيد لاسرائيل ، (٣) ومن المؤكد ان فشل وساطة الحكماء الافريقيين ، وتصرفات الاسرائيليين المتعالية في الدول الافريقية التي قدموا لها بعض المساعدات الاقتصادية والعسكرية ، ومشاعر النقمة العارمة التي يحس بها الافريقيون المستقلون حديثا ازاء الاستعمار الابيض واساليبه ، وحداثة ذكريات الاحتلال الاوروبي الاليمة الكامنة في لا وعي الافريقيين، كانت كلها وراء نجاح المناورة السياسية الخارجية العربية في افريقيا بشكل مذهل ، (٤) وكانت بلدان العالم الثالث مؤيدة مسبقا للموقف العربي ، كما كانت بعض الدول الاوروبية (اسبانيا ، اليونان) تؤيد العرب لاسباب مبدئية وثقافية واقتصادية ، كما كانت حكومات الدول الاسلامية (تركيا ، ايران ،

باكستان) تحس بضغط جماهيرها المتعاطفة مع مسألة تحرير الاراضي المقدسة ، وانقاذ القدس .

ولقد كان النجاح العربي في المناورة السياسية الخارجية كاملا تقريبا لدرجة جعلت جميع الدول الافريقية تقطع علاقاتها مع اسرائيل ، وجعلت دول العالم كلها ــ باستثناء الولايات المتحده والانظمه العنصرية في افريقيا ــ تقف على الحياد او الى جانب الحق العربي ، والى جانب شرعية استعاده الاراضي المحتله بمختلف الاساليب بما في ذلك الاسلوب العسكري . ولقد كان هذا النجاح السياسي المدخل لتبدل استراتيجي ، وشرطا هاما من الشروط اللازمة للانتقال في عام ١٩٧٣ من الاستراتيجية الدفاعية الى الاستراتيجية الهجومية . ومن الطبيعي ان هذا الشرط لم يكن كافيا لوحده ، وكان لا بد من أعداد القوة المسلحة القادرة على تنفيذ هذه الاستراتيجية واحباط رد فعل العدو ، لهذا تم تدعيم القوات المسلحة المصرية والسورية وتدريبها وتعبئتها ، وتنسيق الجبهتين الشمالية والجنوبية قبل بدء العمليات الهجومية في يوم ٦ تشرين الاول .

أستراتيجية المستقبل

تعتبر حالة « اللاسلم واللاحرب » وضعا ملائما لاسرائيل . ولقد افادت منه الى الحد الاقصى ، قبل ان تحطمه الجيوش العربية في الحرب الرابعة . ولقد بدا واضحا خلال مباحثات فصل القوات ، ان الاسرائيليين يعملون ما في وسعهم بغية العودة الى وضع مشابه ، يخلقون فيه حقائقهم الجديدة ، ويجبرون العالم على قبولها . ويحتل « السلام » الافضلية الثانية لدى الاسرائيليين بعد حالة « اللاسلم واللاحرب » لانهم يعرفون ان حصولهم على السلام يعني دفع ثمن هذا السلام من المكاسب التي حصلوا عليها في حرب ١٩٦٧ ، ولقد صرح الزعماء السياسيون والعسكريون الاسرائيليون ولا يزالون يصرحون بأنهم يفضلون الاحتفاظ بالمناطق على الوصول الى السلام . وكانت الفكرة السائدة في اسرائيل قبل الحرب الرابعة ان الحرب ايضا لمصلحتهم ، لانها تؤمن لهم انتصارات جديدة ، وتوسعا جديدا ، وتكريسا لمركزهم في الشرق الاوسط كدولة قوية قادرة على فرض شروطها على جيرانها .

وكانت حالة « اللاسلم واللاحرب » وضعا سيئا بالنسبة الى العرب ، وسببيلا لتفتيتهم المعنوي وفك ارتباطهم بحلفائهم السوفيات ، كما كان أي سلم غير عادل يفرض عليهم ويضطرون الى قبوله من موقع الهزيمة او عدم الانتصار ، وتضمنه الدول الكبرى ، وضعا سيئا ايضا ، لانه يعني اعترافهم بشرعية الوجود الاسرائيلي غير الشرعي ، وفك ارتباطهم بالقضية الفلسطينية . لذا دخلت الدول العربية الحرب الرابعة ، واعتبرتها النقيض العربي لحالة « اللاسلم واللاحرب » او حالة « السلم الاسرائيلي » ، وستكون الحرب الخامسة ايضا النقيض العربي لهاتين الحالتين ، والسبيل الوحيد لتحطيم الجمود في الشرق الاوسط اذا ما حاول الاسرائيليون ممارسة اللعبة التي طبقوها طوال ست سنوات .

بيد ان دراسة الحرب الرابعة اكدت بشكل قاطع أن اي صدام شامل في المنطقة سيكون محدودا في الزمان والمكان والغرض . وانه مهما كانت نتائجه الاولية ، فان الدولتين الاعظمين ستتدخلان لتعديل هذه النتائج ، وستستخدمان لذلك الضغوط السياسية والعسكرية التي اثبتت فاعليتها وقدرتها العاليتين ، وبرهنت على أن الجسور الجوية الضخمة تجعل الدول العظمى « موجودة » وقادرة على التدخل السريع بقوة كبيرة في اية بقعة من العالم ، حتى لو لم يكن لها فيه وجود عسكري مسبق .

ولقد برهنت حربا ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ايضا ، ان حسم الصراع العربي — الاسرائيلي بضربة عسكرية خاطفة امر متعذر في الشرق الاوسط وفي ظل موازين القوى العالمية الحالية . لانه اذا كانت جميع العوامل البشرية والاقتصادية والحضارية تجعل من المستحيل على اسرائيل تحقيق انتصار حاسم — بالمعنى التاريخي — على العرب ، فان دول العالم ، بما فيها الدول التي لا تؤيد عدوان اسرائيل او توسعها ، لا يمكن ان تسمح للعرب بان يحققوا عليها انتصارا سريعا يؤثر على وجودها . حتى لو امتلكت الدول العربية القوة العسكرية اللازمة لمثل هذا الانتصار . كما ان الاتحاد السوفياتي نفسه لا يشجع على تحقيق مثل هذا الانتصار اذا كانت نتائجه ستتعدى حدود ١٩٤٩ . بيد ان تعذر تسديد ضربة حاسمة سريعة لا يعني الاحجام عن القتال . ولكنه يعني الرؤية المسبقة لابعاد هذا القتال ، دون الاغراق في النظرة الذاتية .

ولكن اذا كانت حالة «اللاسلم واللاحرب» غير ملائمة للعرب، واذا كانت الحرب التي تحطم هذه الحالة ستبقى محدودة في الحجم والنتائج ، واذا كان السلام العادل امرا لا يمكن لاسرائيل ان تقبله لانه يتعارض مع روح الصهيونية وجوهر وجودها ، واذا كان السلام « الممكن » حاليا ، و « المضمون دوليا » يعني انتزاع اعتراف عربي بالوجود العدواني الاسرائيلي على ارض العرب ، فما هو المخرج الاستراتيجي المفتوح أمام العرب ؟

انه استمرار حالة اللاسلم ، ورفض أي شكل من أشكال تجميد القضية الفلسطينية او فك الارتباط معها ، والحفاظ على حالة الضغط النفسي والتوتر العسكري المحسوب والمتوازن ، وتغذية حالة العداء الكامن ، القابل للتحول الى صدام مسلح مكشوف كبير او صغير عندما تتوفر الظروف المحلية والدولية الملائمة لذلك .

ان السلم العادل والدائم هو هدف الشعب العربي ، وهدف جميع الشعوب . ولكن السلم المنتظر من مؤتمر جنيف — اذا ما تم انعقاد هذا المؤتمر وتحقق نجاحه — هو السلم « الممكن » في الظروف المحلية والدولية الراهنة . ولا يمكن ان يكون هذا السلم « عادلا » ، وبالتالي « دائما » ، لان جميع المعطيات السياسية والعسكرية والنفسية تؤكد مسبقا على ان المدعوين الى الاجتماع في جنيف عاجزون عن ايجاد حل للمعادلة المستحيلة التي تؤمن اعادة الحق الى اصحابه الشرعيين ، وبقاء اسرائيل بوضعها العنصري العدواني الحالي . وان اي تدبير وسط سيصلون اليه عاجز عن حل التناقض الجذري المصيري بين العرب والاسرائيليين ، وايقاف صراع مجتمعين متكاملين على ارض واحدة ، يدعي كل مجتمع منهما حقه التاريخي بالوجود عليها ، ويعتبر تخليه عنها — مع ما تمثله من معان اقتصادية وتاريخية وروحية — شطبا تاريخيا له .

ان ضخامة التناقض العربي — الاسرائيلي عامة ، والفلسطيني — الاسرائيلي بصورة خاصة ، وعنف الاهواء الكامنة وراءه ، تدفعنا الى الاعتقاد بان ما سيتم التوصل اليه في جنيف بكل صعوبة لن يكون سوى حل مؤقت لا ينهي حالة النزاع . وان قبول العرب بهذا الحل عبارة عن القفز الى وهم السلام وتجريد حقهم التاريخي من بعض شرعيته ، على حين ان رفضه بشكل مسبق ، وتبني **استراتيجية اللاسلم** تعني على الاقل عدم السقوط في الوهم .

ان **استراتيجية اللاسلم** المقترحة ، هي الحل الوحيد الذي يحبط اي سلم غير عادل ، ويحطم حالة اللاسلم واللاحرب . وتدخل هذه الاستراتيجية ضمن اطار استراتيجية الانهاك المعنوي عن طريق القضم المعنوي طويل الامد .

ولا تحقق هذه الاستراتيجية الانهاك المعنوي عن طريق حرب العصابات بشكلها المتعارف عليه ، بل عن طريق حرب طويلة تشنها الجيوش العربية النظامية (طيران ، بحريه ، قوات مشاة ومدرعه وميكانيكيه ومحموله جوا) التي تلجأ الى تكتيكات الحرب التقليديه وروح حرب العصابات . وتسدد ضربات محكمه قوية ومفاجئة وسريعة ، خلال حقبه زمنية طويلة ، على ان تحدد القوات النظامية حجم هذه الضربات ، وتوقيتها وعمقها ومدتها بشكل يجعلها تبدو كضربات محدودة (وهي بالفعل كذلك) ولا تتطلب رد فعل اميركي قويا . فلقد علمتنا حرب تشرين الاول ، ان اية ضربة عسكرية واسعة النطاق ، تهدد دولة اسرائيل بالانهيار ، تؤدي بصورة آلية الى استنفار قوى الولايات المتحده التي لا تسمح الاوضاع العربية الحالية بمواجهتها.

ويجدر بنا هنا ان نذكر ان مثل هذه الضربات العصابية بقوات نظامية كبيرة (الوية أو فرق ، اسراب جوية ، اسراب بحرية ، كمائن غواصات ، رشقات صواريخ متوسطة وبعيدة المدى) والتي تتم عن طريق المفاجاة والكر والفر ، والخدعة ستلقى تاييدا عالميا طالما ان اسرائيل لم تنسحب من الاراضي العربية المحتلة وطالما ان الشعب الفلسطيني لم ينل حقوقه . ولكنها بالطبع ستلقى تاييدا اقل اذا تحقق هذان الشرطان وكان من شروط تحقيقهما ضمان امن اسرائيل وسلامة اراضيها . وفي هذه الحالة تصبح عمليات العصابات الوحيدة الممكنة ، والمبررة ، هي عمليات قوات الثورة الفلسطينية التي لن تجمد كفاحها المسلح .

لقد اثبتت حرب ١٩٧٣ سقوط ثلاث مقولات ظهرت بعد حرب ١٩٦٧ وهي : ان البورجوازية الصغيرة العربية غير مستعدة للحرب ، وان دور الجيوش التقليدية ، قد انتهى ، وان حرب العصابات هي الرد الوحيد على الاحتلال الاسرائيلي . ولقد كانت هزة الهزيمة كبيرة لدرجة دفعت معظم المنظرين العرب الى التطرف في رؤية الامور ، وتجاهل الدور التحرري الذي تلعبه البورجوازية العربية الصغيرة ، وجيوشها التقليدية النظامية . والتعامي حتى عن موازين القوى القائمة والمستقبلية بين العسكرية الاسرائيلية وقوات الثورة الفلسطينية . ولقد كنت في فترة من الفترات من بين من سمحوا للشجرة بأن تحجب عنهم رؤية كل أبعاد الغابة . ولكن حرب ١٩٧٣ التي هزت الكثير من القناعات والمسلمات داخل معسكر العدو الاسرائيلي ، هزت بدورها الكثير من القناعات السائدة داخل المعسكر العربي ، الذي شهد باعتزاز الدور الوطني للانظمة البورجوازية الصغيرة ، والدور القتالي للجيوش النظامية العربية ، وحقيقة موازين القوى العسكرية في المنطقة ، والدافع القومي المتأجج الذي دفع جميع الحكومات العربية — راديكالية كانت ام تقليدية — الى المشاركة في الحرب باشكال مختلفة ونسب متفاوتة . وقد يكون هناك تحفظات على ادارة القتال في هذا المسرح او ذاك ، او على الطريقة التي تم فيها ايقاف القتال ، او على حجم الدعم العسكري الذي قدمه هذا القطر أو ذاك ، او على الطريقة التي استخدم بها سلاح النفط ، والشكل الذي وظفت به السياسة انتصارات الجنود العرب في سيناء والجولان ، ولكن العمل الذي لا يمكن ان يوجه اليه أي نقد هو : **اتخاذ قرار كسر حالة « اللاحرب واللاسلم » ، واختراق خطوط وقف القتال وتدمير القوات المعادية المنتشرة عليها ، والتشبث بالارض لصد الهجمات المضادة الاسرائيلية، واطالة أمد الحرب الى أكبر مدة يسمح بها الوضع الدولي ، واخراج قضية الصراع العربي — الاسرائيلي من حالة الركود ، واجبار المجتمع الدولي على وضعها على رأس جدول اهتماماته .**

ولقد برهنت حرب تشرين الاول ، في جملة ما برهنته ، على ان الخسائر الاسرائيلية

خلال القتال لا تحمل الاهمية نفسها : فالخسائر الاقتصادية التي تؤثر على تدفق رؤوس الاموال ، وتسبب الازمات الاقتصادية الداخلية ، قابلة للتعويض بالمساعدات الصهيونيه والاميركيه ، وقد تخلق لدى المكلف الاميركي ، على المدى الطويل ، احساسا بالعبء الاسرائيلي ، ولكنها تبقى على المدى القريب سلبية يمكن تجاوزها . ولا تسبب خسائر اسرائيل بالمعدات والاسلحه ، رغم اهميتها ، انهيار العسكرية الاسرائيلية ، طالما ان ترسانات الولايات المتحدة مفتوحه امامها لتعويض ما تفقده خلال القتال ، وطالما ان الجسر الجوي الاميركي قادر على نقل الاف الاطنان من الاسلحة والذخائر والمعدات خلال ايام . وتبقى الخسائر البشرية مكمن الضعف في مجتمع العدو ، فهي تهزه من اسسه ، وتخلق التناقض بين القياده والقاعدة ، وتدفع الشرائح غير المتجذره في المجتمع الاسرائيلي الى الهجره المضادة ، وتحطم المعنويات داخل « الغيتو » الكبير ، وتخلق لدى الاسرائيليين انطباعا قويا بعدم جدوى الحرب مع العرب ، وعدم امكانية حسم الصراع العربي — الاسرائيلي بالقوة ، طالما ان الحروب مستمرة ومتصاعدة منذ بناء الدولة رغم ما حققته القوات المسلحة الاسرائيلية من انتصارات في حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، وتهز ثقة الصهيونية العالمية بدولة اسرائيل ، وتفقد الامبريالية الاميركية الثقة بقدرة « الشرطي » الاسرائيلي على حماية مصالحها .

ويبقى تحديد الخط الاستراتيجي العسكري العام (اللاسلم) ، والوسيلة المستخدمة (القضم المعنوي طويل الامد بقوات نظامية تشن الحرب التحريرية بروح حرب العصابات مستخدمة الضربات التقليدية المرنة المحسوبة) ، وملامس الضعف في مجتمع العدو (الخسائر البشرية) تحديدا نظريا اوليا ، اذا لم يرافقه تحديد الاداة اللازمة لتحقيق الاستراتيجية . ويلعب في تحديد الاداة عدة عوامل : القوى المتوفرة والكامنة ، وطبيعة مسرح العمليات ، وردود فعل العدو .

وتتمثل القوى المتوفرة والكامنة في مجمل امكانات الشعب العربي البشرية والمادية ، وهي امكانات لا تمكن مقارنتها مع امكانات العدو . والشعب العربي بعمقه البشري الهائل ، وطاقاته الاقتصادية المؤهلة لنقله من حالة التخلف الاقتصادي — الاجتماعي الى حالة التطور والتقدم ، قادر على خلق قوات مسلحة نظامية وطنية كبيرة لا تستطيع اسرائيل ، مهما دعمتها الامبريالية الاميركية ، ان تخلق مثلها . ويمكن للدول العربية ان تؤمن تسليح جيوشها بأسلحة سوفياتية واوروبية ، وبواسطة التسليح الذاتي (الصناعة الحربية المتطورة) .

وهنا لا بد من الاشارة الى ان القوات المسلحة التي ستمارس العمليات المستمرة المحدودة ، والتي ستخلق **حالة اللاسلم** ، هي قوات دول الطوق . وتملك هذه الدول الطاقة البشرية اللازمة لذلك ، ولكن طاقاتها الاقتصادية ، واوضاع التنمية فيها لا تسمح لها بذلك ، نظرا لحاجتها الملحة لاقتطاع جزء كبير من دخلها القومي — المنخفض اساسا — لتسريع التنمية وخلق القاعدة الاقتصادية — الاجتماعية اللازمة لبناء قوات مسلحة حديثة . والمخرج الوحيد لهذا المأزق هو الدعم الاقتصادي العربي لدول الطوق بالمليارات . ان مصر وسورية مؤهلتان منذ الان لاستلام هذا الدعم ، وسيغدو الاردن مؤهلا ايضا اذا تخلص من ارتباطاته مع المعسكر الامبريالي ، وحطم الردع النفسي الذي اصاب قياداته بعد حرب ١٩٦٧ . كما ان لبنان مؤهل للحصول على الدعم ، والانتقال من دولة مساندة الى دولة مجابهة ، اذا استطاعت القوى السياسية الفعالة فيه رؤية العلاقة الجدلية بين الامن الوطني والامن القومي ، وارتفع مستوى وعيها لحقيقة الخطر الصهيوني على اراضي لبنان ومياهه ، واقتنعت بهشاشة الضمانات الدولية لسيادته وسلامة اراضيه ، وعادت الى تبني الخط الذي كان

سائدا حتى هدنة ١٩٤٩ . وفي هذه الحالة ـ وفي هذه الحالة فقط ـ يتم اغلاق الطوق العسكري حول الدولة الصهيونية ، وسيأخذ الطوق صلابته وفاعليته الكاملتين اذا خضعت قوات دول الطوق لقيادة واحدة فعالة تتحكم بمفاتيح القوى العسكرية الاستراتيجية والعملياتية في هذه الدول .

ولكي تنتهي حالة « الحرب بالوكالة » وتختفي آثارها المعنوية السيئة ، ويتم الحشد العربي الكامل، فان من الضروري ان يكون للدول العربية البعيدة عن مسارح العمليات قوات مقاتلة اختصاصية (طيران ، مدرعات ، صواريخ) متمركزة في دول الطوق . وقادرة على المشاركة في الضربات المستمرة ، بالاضافة الى وضع معدات واسلحة قطعات كاملة تابعة للدول العربية البعيدة على اراضي دول الطوق ، مع الحد الادنى من العناصر الفنية اللازمة لصيانتها . واذا كانت الوحدات الكاملة مؤهلة باستمرار للقتال المحدود ، فان المعدات والاسلحة المخزونة تبقى مؤهلة لاستيعاب الجنود والضباط العرب الذين يتم نقلهم الى دول الطوق خلال فترة التعبئة ، او خلال اي صدام شامل . حتى لا يبقوا فترة طويلة في دول الطوق المضيفة ، ولا يتحملوا من جراء ذلك اعباء انسانية واجتماعية لا داعي لها .

ولكي تكون عملية نقل القطعات المسبق ، او نقل الطواقم والافراد عند اللزوم ، من العمق الاستراتيجي الى العمق العملياتي ، سريعة وفعالة ، فان من الضروري ربط الدول العربية بشبكة مواصلات برية ـ جوية متطورة ذات مردود عال . ورفع مستوى كفاءة النقل البحري والنهري بين الدول العربية البعيدة ودول الطوق . فمن الغريب ان الدول العربية في شمالي افريقيا لا يربطها حتى اليوم خط حديدي سريع ، وليس بين العراق وجنوبي سورية (منطقة الحشد السورية) ، او بين السعودية والاردن خطوط مماثلة . ويتم الاتصال الجوي بين المشرق العربي والمغرب العربي عبر اوروبا ، وليس بين مصر والسودان طريق برية او سكة حديدية او خطوط مواصلات نهرية عالية الكفاءة . وليس في الاسلحة الجوية للدول العربية البعيدة طائرات نقل عسكرية ضخمة ، او طائرات صهريج لتموين الطائرات المقاتلة جوا .

وتفرض مسارح العمليات المكشوفة ، وخاصة في سيناء ، استخدام اسلوب خاص من حرب العصابات . فهي لا تصلح لحرب العصابات بشكلها الفيتنامي او الكوبي ، ولكنها تصلح لحرب العصابات المدرعة ، او حرب العصابات الجوية ، كما تصلح في بعض المناطق للحرب السرية الفلسطينية بمجموعات فدائية صغيرة (على غرار معركة مدينة الجزائر ، او الكفاح المسلح في غزة) . ويفتح اعتماد اسرائيل على خطوط مواصلاتها البحرية مجالا واسعا امام حرب العصابات البحرية .

ويأتي اخيرا رد فعل العدو . فمن المؤكد ان اسرائيل لن تتقبل عملية « القضم المعنوي » طويل الامد بقدرية وسلبية ، فهي تعرف ان فيها مقتلها ، وستحاول الرد عليها بعمليات انتقامية ، او بهجوم اجهاضي مسبق يأخذ شكل صدام شامل . ومن هنا تأتي ضرورة التفكير بالسيف والدرع ، واذا كان السيف النظامي وغير النظامي ضروريا لتسديد الطعنات (بدلا من وخزات الابر) خلال **مرحلة اللاسلم** ، فان الدرع ضروري لصد الضربات الانتقامية المعادية المحدودة ، واحباط اي هجوم معاد ، عن طريق « الردع » بوجود القوة ، او عن طريق « الصد والرد » ، في حالة انخفاض مستوى الردع الى درجة تدفع العدو الى الهجوم المكشوف .

ولا بد من ان يتألف السيف من قوات ضاربة (طيران ، مدرعات ، قوات محمولة جوا او بحرا ، مشاة ميكانيكية ، صواريخ متوسطة وبعيدة المدى ، غواصات ، زوارق

طوربيد ، زوارق صواريخ سطح ــ سطح) . اما الدرع فلا يعني بناء التحصينات والانتشار خلفها ، وحرمان القوات المسلحة من قدرتها الحركية ، ولكنه يعني بناء درع متحرك (طيران ، مدرعات ، مشاة ميكانيكية ، صواريخ ضد الدبابات) ، محمي بغطاء جوي فعال (مطاردات وصواريخ ارض ــ جو) قادر على الاشتباك في معركة تصادمية خلال مرحلة صد الضربة المعادية الواسعة ، وتطوير المعركة بعد ذلك وتحويلها الى معركة هجومية تعقبها مطاردة في عمق ارض العدو ، وتدمير الحد الاقصى من قواته ، والتشبث بالارض التي يتم الاستيلاء عليها خارج الخط الاخضر ، والقيام بالانسحاب الاستراتيجي بعد الضرب قبل تدخل الولايات المتحدة ، اذا ما امتدت المطاردة على بعض المحاور الى ما وراء الخط الاخضر .

ان دراسة موازين القوى العسكرية الحالية ، تدل على ان قيام العرب بالحشد الملائم ، وقيام الدول العربية البعيدة بدعم دول الطوق عسكريا واقتصاديا ، يمكن ان يسمحا بتنفيذ هذه الاستراتيجية قبل مطلع العام ١٩٧٥ ، كما ان استمرار الدعم العسكري السوفياتي وامكانية الحصول على اسلحة اوروبية يزيدان امكانية تنفيذها في النصف الثاني من السبعينات . ولا تتعارض هذه الاستراتيجية مع مباحثات السلام ، بل يمكن القول انها جزء منها ، لان الحصول على افضل النتائج في جنيف لا يمكن ان يتم الا في مناخ **حالة اللاسلم** . والمهم في الامر ان لا يسمح العرب للضغط الاميركي بأن يعطي للاسرائيليين في مباحثات جنيف سلاما مضمونا وغير عادل، وان يحبطوا كل المناورات الامبريالية ــ الصهيونية ، وان يمارسوا الضغط السياسي ــ الاقتصادي ــ العسكري حتى يحققوا سلما مشرفا عادلا ــ الى حد ما ــ يضمن حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ، ويضمن الانسحاب بالطبع ، ويقزم الدولة الاسرائيلية ويحرمها من امكانات التوسع والتهديد ولعب دور الدولة الكبرى في المنطقة ، فاذا فشلوا في ذلك ، عادوا الى **حالة اللاسلم** بشكلها الذي تحدثنا عنه .

ان الوضع الحالي الدولي والمحلي هو افضل الاوضاع لتنفيذ استراتيجية القضم النفسي ، فاسرائيل لا تزال تحتل جزءا من الاراضي العربية ، ولا تزال ترفض القرار الدولي بالانسحاب ، كما ترفض الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني ، ولا تزال المقولة السياسية العربية « ازالة آثار العدوان » مقبولة عالميا ، والضغط السياسي ــ الاقتصادي العربي قادر على تحقيق الكثير على صعيد المناورة السياسية الخارجية، والاتحاد السوفياتي متصلب لا يقبل بأي حل يحقق اقل من المطالب العربية ، والولايات المتحدة نفسها قد فقدت جزءا كبيرا من ثقتها « بالشرطي » الذي اضطرت للتدخل بغية انقاذه عندما ساء وضعه العسكري الى حد كارثوي بعد ٣ ايام من القتال ، ثم اضطرت الى استنفار قواتها الذرية لحمايته من ضربة سوفياتية ، وعرضت نفسها الى التورط في صراع عالمي يعادل الانتحار القومي ، ثم وجدت ان تبنيها له يكلفها مليارات الدولارات سنويا ، ويعرض علاقاتها مع حلفائها الاوروبيين لتوتر شديد . وتعيش الولايات المتحدة اليوم مرحلة اعادة نظر في سياستها الشرق اوسطية ، وسط ضغط الصهيونية المسيطرة على الكونغرس واجهزة الاعلام ؛ وضغط مؤيدي المصلحة الوطنية الاميركية الذين يرون ان هذه المصلحة تتناقض بشكل متزايد مع المصلحة الوطنية الاسرائيلية . والوضع العسكري ملائم لتنفيذ الاستراتيجية العربية الجديدة بعد ان اثبتت الجيوش العربية في حرب تشرين الاول انها قادرة على القيام بدور السيف والدرع ، وبعد ان فقدت القوة الجوية الضاربة المعادية جزءا من حرية عملها بفضل الدفاع الجوي العربي المتطور (مطاردات وصواريخ ارض ــ جو وبطاريات مدفعية ضد الطائرات) ، وبعد ان وازن الردع الصاروخي الردع الجوي .

وهناك ملاحظتان هامتان ضروريتان لنجاح الاستراتيجية العربية الجديدة . اولاهما ، ضرورة تنسيق العمل السياسي مع العمل العسكري ، ومتابعة العمل في مجال المناورة السياسية الخارجية لتدعيم العلاقات مع المعسكر الاشتراكي وبلدان العالم الثالث ، وربح القارة الاوروبية ، وتخليص قطاع كبير من الرأي العام العالمي من ضباب الخداع الصهيوني ، وتحييد — ان لم نقل اكتساب — شرائح واسعة في المجتمع الاميركي بعد كشف التناقض الجذري بين المصالح الاميركية الوطنية والمصالح الاسرائيلية ، وجسامة التأثيرات الاقتصادية — السياسية السلبية التي تنعكس على المصالح الاميركية من جراء دعم الادارة الاميركية لاسرائيل بلا حدود .

اما الملاحظة الثانية ، فهي تتمثل في ضرورة الانتباه لكل مظاهر التحول السياسي العالمي ، وعدم الاندفاع وراء الحل العسكري البحت المعزول عن الوضع السياسي العالمي ، وتجاهل تحديدات العمل العسكري حتى ولو سمحت موازين القوى المحلية بذلك ، لان تجاهل هذه الحقيقة ، ومحاولة فرض الامر الواقع عن طريق القوة المسلحة وحدها ، تعني استقطاب الصدام المباشر مع الولايات المتحدة ، كما تعني خسارة المناورة السياسية الخارجية اذا تم فرض الامر الواقع وراء حدود هدنة ١٩٤٩ دون اعداد سياسي مسبق .

ويدفعني الى هذا القول ما يردده بعض المنظرين العرب الذين ينظرون الى الصراع العربي بمعزل عن الواقع الدولي ، ويفصلون هذا الصراع عن مجمل التوازنات والارتباطات العالمية . ويعتقدون من جراء ذلك، ان قلب ميزان القوى في المنطقة لصالح العرب، واستغلال الوضع العسكري الملائم لتسديد ضربة قاصمة سريعة الى اسرائيل، وفرض الامر الواقع ، هو الحل الوحيد للنزاع العربي — الاسرائيلي . والحقيقة ان رأيهم كان بعيدا عن الصحة قبل حرب ١٩٦٧، ثم اتسم بصحة نسبية بعد هذه الحرب. ويرجع السبب في ذلك الى ان سياسة فرض الامر الواقع (استراتيجية السلامي او القضم المادي المتعاقب) سياسة تمارسها الدول الكبرى ، او دولة ثالثة تابعة لها ، في منطقة حيوية جدا بالنسبة اليها ، وهامشية بالنسبة الى الدول الكبرى الاخرى المناوئة . وتعتمد الدول التي تفرضها على ان الطرف الاخر سيحجم عن التدخل لقناعته بمصداقية الدولة المحتلة ، واستعدادها او استعداد الدولة الكبرى التي تقف وراءها للصدام في هذه النقطة من العالم ، من اجل هدف هامشي .

ولقد طبق هتلر هذه السياسة قبل الحرب العالمية الثانية في السار ، والانشلوس ، وتشيكوسلوفاكيا ، دون ان تتحرك بريطانيا وفرنسة ، وعندما طبقها في بولونيا ، متجاوزا حدود مصالح الحلفاء ، وقعت الحرب العالمية الثانية . ولقد ازدادت أهمية تطبيق هذه السياسة بعد الحرب العالمية الثانية وبدء عصر التوازن النووي ، اذ صار فرض الامر الواقع يتم تحت مظلة ذرية ، ويعني بالنسبة الى الطرف الاخر ان عليه ان يصطدم مع فارضي الامر الواقع ذريا في سبيل الدفاع عن هدف هامشي .

لقد استطاع الاميركيون مثلا فرض الامر الواقع في عام١٩٦٧ — عن طريق دولة ثالثة (اسرائيل) — كما فرضوا الامر الواقع في قبرص بواسطة الاتراك دون ان يستطيع السوفيات التدخل . وفي عام ١٩٥٦ فرض السوفيات الامر الواقع في المجر ، ثم فرضوه في تشيكوسلوفاكيا في عام ١٩٦٨ وفي بنغلادش في عام ١٩٧١ ، دون ان يستطيع الاميركيون التدخل . وترجع سلبية الطرف الاخر في الحالات المذكورة آنفا الى تفاوت اهمية الهدف بالنسبة الى القوتين الاعظمين . ولكن هناك حالات فشلت فيها سياسة فرض الامر الواقع : كوريا ١٩٥٠ — ١٩٥٣ ، وحرب السويس ١٩٥٦ ، وحرب

١٩٧٣ . فلقد وجد الاميركيون ان احتلال جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية لاراضي فيتنام الجنوبية يؤثر على وضعهم الدفاعي الذاتي في الشرق الاقصى ، فتدخلوا بقواتهم البرية والبحرية والجوية رغم احتلال الشماليين لـ ٩٥ ٪ من اراضي الجنوب . وعندما قام الاميركيون بانزالهم البحري في ميناء انتشون واستعادوا اراضي كوريا الجنوبية ، واحتلوا معظم اراضي كوريا الشمالية لفرض امرهم الواقع ، تدخل السوفيات جويا ، ودفع الصينيون مئات الاف المتطوعين لمنع الاميركيين من تحقيق ذلك . وعندما حاول الفرنسيون والبريطانيون والاسرائيليون في عام ١٩٥٦ فرض الامر الواقع في منطقة السويس الحساسة بالنسبة الى الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، أجبر العملاقان المعتدين على الانسحاب لعلمهم بعدم قدرة فارضي الامر الواقع على الصدام معهما رغم اهمية الهدف بالنسبة اليهم . وفي عام ١٩٧٣ فرضت سورية ومصر الامر الواقع في الجولان ومنطقة القناة. واوشكت العسكرية الاسرائيلية على الانهيار ، ووجدت واشنطن ان هذا الوضع يؤثر على مصالحها وهيبتها في المنطقة فتدخلت بارسال الاسلحة المتطورة والخبراء لمساعدة الاسرائيليين على استعادة قواهم . وفي يوم ٢٣ ــ ٢٤ استغل الاسرائيليون وقف القتال ، ووسعوا جيبهم على الضفة الغربية للقناة ، وحاولوا فرض الامر الواقع عن طريق احتلال مدينة السويس وتدمير الجيش المصري الثالث . واعتبر السوفيات ان تحقيق ذلك يسيء الى مصالحهم وسمعتهم وهيبة أسلحتهم في المنطقة والعالم ، فهددوا بالتدخل ، وأستنفر نيكسون قواته الذرية الاستراتيجية ، واعتقد كل طرف من الطرفين الكبيرين بمصداقية الطرف الاخر واستعداده للتدخل والصدام، فاتفقا عن طريق الخط الاحمر ، على ايقاف القتال، وايجاد حل وسط ، تمثل في فصل القوات على جبهة القناة . وتدلنا هذه الامثلة وعشرات الامثلة الاخرى أن فرض الامر الواقع ، في عالمنا المعاصر ، عملية لا تعتمد على ميزان القوى العسكرية وحدها ، ولكنها تعتمد ايضا ، وبصورة اساسية ، على موقف الدولتين الاعظمين المتحكمتين برسم خارطة العالم السياسية ــ الاقتصادية .

* * *

ان الهدف من الاستراتيجية العربية الجديدة (اللاسلم) ، المعتمدة على تناسق العملين السياسي والعسكري ، واكتساب المناورة السياسية الخارجية ، وتسديد الضربات المستمرة المدروسة بقوات نظامية تقوم بادارة القتال باساليب تقليدية وبروح حرب العصابات ، لا يستهدف قصم ظهر الدولة الاسرائيلية بعملية مادية سريعة تستثير تدخل الولايات المتحدة ــ طالما ان الوضع الاجتماعي ــ السياسي العربي غير مستعد لمناطحة العسكرية الاميركية بالاسلوب الفيتنامي او الكوري ــ بل يستهدف قضم الواقع المعنوي الاسرائيلي بشكل مستمر ، وتأمين تراكم التأثيرات المعنوية للضربات المادية الكبيرة والصغيرة ، الى ان يتم الانهيار الاسرائيلي عن طريق الذبول لا عن طريق البتر ، لان الذبول طويل الامد حاله لا تستطيع الامبريالية علاجها مهما قدمت من دعم ، وخاصة عندما يتأكد الانسان الاسرائيلي من ان الدولة التي ارادتها الصهيونية منطقة يعيش فيها يهود العالم بأمان ، قد غدت اكثر بقاع العالم خطرا على اليهود ، وتترسخ داخل اسرائيل قناعة شاملة بأن الحل العسكري العنصري على حساب الشعب العربي الفلسطيني سائر الى الفشل ، وان المخرج الوحيد لمأساة العصر ، هو الدولة الديمقراطية الشرق اوسطية ، التي يعيش فيها الجميع بسلام ، وتكون نافذة حضارية حقيقية على شاطىء المتوسط .

اسرائيل بعد سنة من تشرين

صبري جريس

مع مرور سنة على حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، على ما تخللها من احداث عسكرية وسياسية ، يبرز عدد من الاسئلة التي تطرح نفسها حول النتائج التي أسفرت عنها تلك الحرب لجهة تأثيرها على الاوضاع الاسرائيلية عامة ، بعد مرور هذه الفترة من الزمن . وتزداد هذه الاسئلة الحاحا ، بقدر ما تزداد الاجابة عليها أهمية ، في ضوء التطورات السياسية والعسكرية الراهنة والمستقبلية واحتمال ايجاد تسوية ما لأزمة الشرق الاوسط أو اندلاع القتال ثانية ، وقدرة اسرائيل على المناورة والصمود في أي وضع جديد قد ينشأ في المنطقة . وان لم يكن من السهل حتى الان القيام بمحاولة لتقييم نتائج الحرب والوقوف على الدروس المستفادة منها بالنسبة للاسرائيليين بصورة شاملة نظراً لقصر الفترة التي مرت منذ نهاية القتال عمليا ولتتابع الاحداث والتغييرات المفاجئة التي ترتبت عليها ، وحيث ان عددا من التطورات الناجمة عن الحرب على الصعيد الاسرائيلي الداخلي لم تصل الى نهايتها بعد ، فان فترة الهدوء النسبي التي سادت المنطقة مؤخرا وانتقال ثقل النشاط فيها الى المجال السياسي ثم استقرار الاوضاع ، نسبيا ، داخل اسرائيل على اثر ذلك تسهل القيام بعملية التقييم هذه بالنسبة لنواح معينة على الاقل ، رغم المحاذير التي أشرنا لها .

النظام يستعيد توازنه

كان من أبرز ردود الفعل التي نجمت عن حرب تشرين ، تضعضع هيبة الحكم في اسرائيل وسقوط اسهم معظم الزعماء الاسرائيليين ، السياسيين والعسكريين ، اثر النتائج التي أسفرت عنها الحرب وما انطوت عليه من خسائر بشرية ومادية لحقت باسرائيل . والواضح ان نتائج الحرب كانت مفاجأة كبيرة بالنسبة لاكثرية الاسرائيليين، التي لم تتوقع سير القتال بالشكل الذي سار به ، لدرجة دفعت العديد منهم الى الحديث عن « الطوفان » أو « الزلزال » الذي حل بهم وفتح عيونهم على واقع جديد ، لم يتقبلوه بسهولة . ولكن هذا الواقع أثار ، في الوقت نفسه ، النقمة والسخط على ساسة اسرائيل وزعمائها وخاصة اولئك المنتمين الى الحزب الحاكم ، حزب العمل الاسرائيلي ، الذي اعتبر مسؤولا عن الوضع الذي وصلت اليه اسرائيل . كذلك لم يسلم زعماء المعارضة من حملة النقمة تلك حيث اعتبروا ايضا مسؤولين ، الى حد ما ، عن ذلك الوضع . ولقد وجد هذا التذمر الشعبي تعبيرا عنه ، وان كان جزئيا في قيام العديد من حركات الاحتجاج، التي تشكلت من أناس ينتمون الى طبقات وفئات مختلفة، لا توحدها الا الدعوة الى تغيير نظام الحكم وانتقاد أسلوب الحياة في اسرائيل ورفض كل ما هو قائم .

مر نظام الحكم الاسرائيلي ، خلال نصف السنة الاولى التي تلت حرب تشرين على الاقل ، بأزمات حادة كادت تطيح به . فالنقمة على السلطة ، التي راحت تتعاظم بعد وقف اطلاق النار واطلاع الاسرائيليين على مدى الخسائر ، البشرية خاصة ، التي

لحقت بهم خلال الحرب لم تجد متنفسا لها في الاوضاع السياسية التي سادت بعد ذلك، خاصة بعد التوتر على الجبهة المصرية ثم انسحاب اسرائيل من غرب قناة السويس ، وهي الخطوة التي اعتبرتها فئات معينة تنازلا عن الورقة الرابحـــة الوحيدة في أيدي اسرائيل . ولقد انعكس هذا الوضع ، الى حد ما ، على نتائج الانتخابات العامة التي عقدت في ٣١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٣ وأسفرت عن خسارة حزب العمل الحاكم عددا من مقاعده في الكنيست بينما حصل التكتل اليميني (ليكود) المعارض ، في مقابل ذلك ، على زيادة في عدد الاصوات التي منحت له والمقاعد التـــي حصل عليها . والواضح انه لم يكن من السهل ، استنادا الى تلـك النتائج ، على رئيسة حكومة اسرائيل غولده مئير ، اعادة تشكيل حكومتها بعد الانتخابات ، وهي العملية التي لم تستطع تنفيذها الا بعد مرور وقت غير قصير وبعد ان قدم حزب العمل تنازلات عديدة الى شركائه في الائتلاف ، خاصة الحزب الديني القومي (المفدال) ، لدرجة ظهر معها ان بعض « صبية » المفدال كادوا يكبلون يدي الحكومة ويمنعونها من اتخاذ اي قرار لا يروق لهم ، خاصة فيما يتعلق بالانسحاب الاسرائيلي مـــن المناطق المحتلة ، وعلى راسها الضفة الغربية .

لم يمر وقت طويل على تشكيل حكومة مئير حتى كانت تتعرض لازمات جديدة ، كانت استمرارا لتلك الناجمة عن حرب تشرين . فمع انتهاء القوات الاسرائيلية مـــن عملية الانسحاب من منطقة قناة السويس ، اثر توقيع اتفـــاق فصل القوات بين مصـــر واسرائيل ، وجدت القوات الاسرائيلية نفسها تخوض حـــرب استنزاف جديدة على الجبهة السورية ، كانت نهايتها التوقيع على اتفاق آخـــر لفصل القوات بين سوريا واسرائيل وانسحاب القوات الاسرائيلية مـــن جزء من الجولان . ولم تكد الحكومة الاسرائيلية توقع على اتفاق فصل القوات هذا حتى كانت تواجه آخر أزماتها ، التي اطاحت بها ، مع نشر التقرير الاولي للجنة اغرانات التـــي عينت للتحقيق في أسباب التقصير الاسرائيلي في حرب تشرين وتحديد المسؤولين عن ذلك . ولقد أدان تقرير لجنة اغرانات ، كما هو معروف ، عددا من كبار ضباط الجيش الاسرائيلي ، وعلى رأسهم رئيس الاركان اللواء دافيد العازار ، وحملهم مسؤولية الفشل الذي منيت به اسرائيل في الحرب ، بحيث استقالوا أو اقيلوا رأسا من مناصبهم بعد نشر التقرير. ولكن النقمة الشعبية على السلطة لم تكتف بأكباش الفداء تلك، اذ سرعان ما توجهت أصابع الاتهام نحو موشي ديان ، باعتباره أول المسؤولين ، من الناحيتين السياسية والعسكرية ، عن الفشل الذي منيت به اسرائيل في الحرب ، ومن ورائه غولده مئير وحكومتها ، ولم يمر وقت طويل حتى استقال ديان من منصبه ثم تبعته مئير فحكومتها . ومع انه ظهر وكأن فراغا حدث في اسرائيل بعد استقالة حكومة مئير ، نظرا لغياب عدد لا بأس به مـــن الوجوه السياسية المألوفة دفعة واحدة ، فان حزب العمل الاسرائيلي سرعان ما جمع قواه وعمل على تشكيل حكومة جديدة برئاسة مرشحه يتسحاق رابين .

مرت بضعة اشهر فقط على تشكيل الحكومة الاسرائيليـــة برئاسة رابين وفوزها بالثقة في الكنيست في أوائل حزيران (يونيو) الماضي . وقد تعرضت الحكومة خلال هذه الفترة لحملات انتقاد شديدة بسبب سياستها ، على الصعيدين الداخلي والخارجي ، ولمحاولات لم تتوقف لاسقاطها ، خاصة وانها تستند الى أكثرية صوت واحد فقط في البرلمان (٦١ من ١٢٠ صوتا) ، بعد أن أصر حزب العمل على استبعاد التكتل اليميني (٤٠ نائبا) من الحكم ، بينما لم يوافق المفدال (١١ نائبا) على الاشتراك فيه، لاسباب لا مجال لذكرها هنا . ولكن على الرغم من ذلك يمكن القول ان النظام الاسرائيلي قد استعاد توازنه السياسي خلال هذه الفترة وارسى عددا من القواعد الهامة تمهيدا ،

كما يظهر ، لانطلاقة جديدة نحو وضع افضل ، بعد التخلص من عدد من العوائق التي كانت أحيانا ، تشل مسيرته في الماضي ، بحيث يبدو وكأن نتائج حرب تشرين لم تكن سلبية بالذات بالنسبة للنظام الاسرائيلي ، رغم ما في ذلك ، لاول وهلة ، من غرابة .

نحو عهد جديد ؟

ان أول ما يلفت النظر في وضع الحكومة الاسرائيلية الجديدة ، برئاسة رابين ، هو أن مجرد تشكيلها ، على الشكل الذي تم به ، كان نقطة انعطاف واضحة في تاريخ نظام الحكم في اسرائيل ، لجهة تركيبها البشري على الاقل . فحتى استقالة حكومة مئير كان جيل الأباء — المؤسسين من أبناء الهجرة الثالثة الذين قدموا الى فلسطين خلال العشرينات وبقايا أبناء الهجرة الثانية لا يزالون يسيطرون على مقاليد الحكم في اسرائيل ويضفون عليه طابعا خاصا بهم ، لا يتصف بمرونته أو قدرته على الاستجابة لتحديات العصر أو استيعاب التجديد أو التحرر من العقد الناجمة عن حياة الغيتو ، النفسي أو الفعلي ، التي مروا بها أيام صباهم . ولقد كان اصرار أولئك الزعماء على الاحتفاظ بمناصبهم ، التي لم تكن تشغر ، عادة ، الا بوفاتهم موضع السخرية والتندر لدى العديد من الاسرائيليين ، الى أن جاءت الحرب « وأجهزت » على معظمهم دفعة واحدة، حيث تم استبدالهم بعدد من الوجوه الجديدة الشابة . أما الزعماء الجدد ، وان كانوا لا يختلفون كثيرا عن أسلافهم ، لجهة أساليب الحكم التي مارسوها حتى الان على الاقل ، فانهم على الرغم من ذلك قد غيروا وجه النظام الاسرائيلي وجددوا شبابه واكسبوه دما جديدا ، وهي صفات كان النظام بحاجة ماسة لها منذ زمن بعيد ، وسيكون لها ولا شك تأثيرها على وضع الجهاز الحاكم في اسرائيل . كذلك يتوقع ان يكون أولئك الزعماء ، الذين ولد معظمهم وترعرع في ظل الكيان الصهيوني الاسرائيلي ، وعاش مشاكله منذ أيام الانتداب وحتى اليوم ورافق نموه خطوة فخطوة وضحى بالكثير في سبيله، اكثر حرصا من اسلافهم على سلامة هذا الكيان وامنه، وبالتالي أقل اندفاعا منهم نحو المغامرات وافتعال الازمات وأكثر واقعية في مواقفهم من المشاكل التي تعترض سبيله ، بما في ذلك مواقفهم تجاه العرب .

غير ان أهم النتائج الملموسة للحرب ، على صعيد النظام الاسرائيلي ، كانت تلك المتمثلة في «استعراض العضلات» بين الحكومة والمعارضة ، الذي استحكم بينهما منذ تشكيل حكومة رابين . لقد جوبهت الحكومة الجديدة منذ يومها الأول بمعارضة شديدة من قبل التكتل اليميني والمتدينين ، الذين حاولوا بكافة الطرق وأكثر من مرة العمل على اسقاطها ، ولكن دون جدوى، بل ان الحكومة استمرت في ممارسة مهامها كأية حكومة أخرى من تلك التي سبقتها ، رغم انها تستند الى أكثرية صوت واحد فقط في الكنيست . وان دلت هذه الحقيقة على شيء ما فانها تعود وتؤكد ان الجناح العمالي الصهيوني، الشريك الاكبر في الحكومة الحالية ، لا يزال يحتل مركز الصدارة في النظام الاسرائيلي ، خاصة بعد أن اتضح أن عدم قدرة المعارضة اليمينية والمتدينة على تشكيل حكومة بديلة يكاد يكون من البديهيات . ولهذه الواقعة مغزاها بالنسبة للمستقبل ، وعلى أكثر من صعيد . فالحكومة الاسرائيلية وجدت نفسها بعد انتصار سنة ١٩٦٧ ، وعلى الرغم من ذلك ، أسيرة الفئات المتطرفة داخل حزب العمل وخارجه ، بشكل منعها من التحرك نحو ايجاد اي حل لازمة الشرق الاوسط او الاستجابة لأية مبادرة كانت في هذا الصدد، الى أن جاءت الحرب ونتائجها لتغير من هذا الواقع قليلا . والواضح ان التطورات التي طرأت بعد الحرب واضطرار اسرائيل الى الانسحاب ولو من جزء من الاراضي المحتلة كان كافيا لتصعيد النزاع بين « المعتدلين » و« المتطرفين » داخل النظام الاسرائيلي وادخاله مرحلة الحسم . واذا ما استمرت المساعي لايجاد حل ما لأزمة المنطقة

وأسفرت عن نتيجة ما ، فستضطر الفئات المتصارعة كافة الى تحديد مواقفها والالتزام بها واستنتاج النتائج المترتبة على ذلك . واذا ما حدث ذلك فليس هناك من شك ، في ضوء المعطيات الراهنة ، أن الغلبة في هذا الصراع ستكون لجناح « المعتدلين » ، وان تم ذلك لسبب واحد فقط هو عدم قدرة الجنـــاح « المتطرف » المعارض على ادارة دفة الحكم في اسرائيل في ضوء المعطيات الدولية الراهنة او تقديم أي بديل لايجاد اية تسوية للأزمة الحالية ، خاصة اذا حظيت مثل هذه التسوية بدعـــم دولي وبموافقة الاطراف المعنية .

ان مثل هذا السيناريو ، ان خرج الى حيز الوجود ، يعني تقوية النظام الاسرائيلي ودعم قدرته على الحركة ودفعه نحو انطلاقة جديدة ، ويبدو أن الجهـــاز الحاكم في اسرائيل قد قطع حتى الان بعض الخطوات على هذه الطريق . ومنذ أن اتضح بأن الحرب قد أدخلت اسرائيل الى وضع جديد يختلف عن سابقه ، دون البحث في جوهر هذا الاختلاف الان ، وان الحكومة الاسرائيلية مضطرة الى اتخـــاذ مواقف وقرارات معينة لم تكن في السابق ملزمة على اتخاذها ، بدأ النظام الاسرائيلي ، ممثلا في الجناح العمالي الحاكم ، يشد أحزمته ويخوض معارك داخلية قاسية ضد خصومه السياسيين دفاعا عن السياسة الخارجية التي اضطر ، أو يبدو أنه سيكون مضطرا ، لاتباعها .

يلاحظ تأثير هذا التحول على نظام الحكم بشكل واضح ، اذ منذ أن اشتد هجوم المعارضة على الجناح العمالي الحاكم ، ازداد تكتل هذا الجناح ، رغم اختلاف وجهات النظر بين الكتل والفئات المتصارعة داخله ، وازداد حرص زعمائه علـــى الاحتفاظ بوحدته لدرجة دفعت قدامى مباي ، اكبر الكتل داخل ذلك الجناح ، الى التنازل عن الاحتفاظ بالمناصب الرئيسية في الحكومة ، خاصة رئاسة الحكومة ووزارات الخارجية والدفاع والمالية ، في أيدي زملائهم في الكتلة ، كما كانت الحال في الماضي ، وتسليم بعضها الى شركائهم ، أعضاء كتلتي رافي وأحدوت هعفوداه ، لكسب ودهم . بينما نرى ، في مقابل ذلك ، الخلاف يتسرب الى صفوف المعارضة اليمينية ويهدد بانشقاقها ، مع احتمال انسحاب كتلة الاحرار من التكتل ، نظرا للسياسة المتصلبة التي ينتهجها بايحاء من مناحم بيغين . ويبدو ان امكانات حدوث مثل هذا التطور ، وعودة الاحرار الى انتهاج سياسة خاصة بهم ، مرتفعة للغاية اذا ما حدث تغيير ما في اوضاع المنطقة، سلما او حربا ، مما يعني دعما وتقوية لنظام الحكم الاسرائيلي لا مثيل لهما ، اذ ان عودة الاحرار الى التمتع باستقلالهم وانتهاج سياسة خاصة بهم معناها الرجوع الى التحالف مع الجناح العمالي ، نظرا للتقارب في وجهات النظر والمواقف بين الفريقين واستنادا الى تاريخ العلاقات بينهما منذ ايام الانتداب البريطاني ، مما سيعزز قدرتهما على الانفراد بالحكم لوحدهما او ، على الاقل ، التحرر من ضغوط باقي الفئات التي قد تشترك معهم . واذا علمنا ان الكيان الصهيوني في فلسطين ، ومن ثم اسرائيل ، قد تخطيا معظم الازمات التي مرا بها ، منذ نحو اربعين عاما وحتى اليوم ، ومرا في أعظم فترات ازدهارهم ابان فترات التحالف بين الجناح العمالي الصهيوني (سابقـــا مباي) وبين الاحرار (سابقا الصهيونيون العموميون) ، نستطيع ان نرى ان حرب تشرين ، ان أدت الى مثل هذا التطور ، ستكون بداية عهد من النمو والازدهار فـــي اسرائيل ، مستندا الى نظام حكم ثابت وواثق بنفسه ، يعمل حثيثا على تنمية قدرات اسرائيل وطاقاتها ونقلها الى مصاف الدول القوية المتقدمة ، بعد ايقـــاظ الحركـــة الصهيونية العالمية من سباتها والعمل على توثيق الصلة بينها وبـــين يهود العـــالم واسرائيل . ويبدو ان العصب المبائي للجناح العمالي قـــد بدأ فعلا باتخاذ الخطوات العملية على هذا الطريق بتأمينه انتخاب وزير مالية اسرائيل السابق ، بنحـــاس

سابير ، « دينامو » النظام الاسرائيلي ومهندس نموه الاقتصادي خلال العشرين سنة الاخيرة ، لمنصب رئيس الوكالة اليهودية ورئيس ادارة المنظمة الصهيونية العالمية (والمنصب الاخير هو أعلى منصب في المنظمة الصهيونية العالمية ، حاليا ، منذ ان شغر منصب رئيس المنظمة مع استقالة — اقالة الدكتور ناحوم غولدمان منه عند انعقاد المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين — ١٩٦٨) من جهة واحلال « ربيبه » يهوشواع رابينوفيتش محله في وزارة المالية، محاطا ببعض أفراد عصابته من «هاغوش» (الكتلة) الذين عينوا في مناصب وزارية اخرى من جهة ثانية . والواضح ان مثل هذه التعيينات تعني سيطرة الجناح العمالي ، وبصورة أدق مباي ، على النشاط الصهيوني خارج اسرائيل ، بعد غياب طويل ، بالاضافة الى تعزيز وضعه داخل اسرائيل ، تمهيدا لتنفيذ مخططاته . ويكتسب هذا التقييم أهمية أكبر اذا علمنا ان سابير ، « المناضل » العنيد في سبيل العمل العبري ، والذي دخل السجن اكثر من مرة لاصراره على منع العمال العرب من العمل في البيارات اليهودية ، عندما كان زعيما نقابيا ايام الانتداب، وزمرته من كبار الداعين الى انسحاب اسرائيل من المناطق المحتلة او من معظمها ، ولو تم ذلك للتخلص من سكانها العرب فقط ، والاكتفاء باسرائيل صغيرة او «متوسطة» ولكن قوية ، خاصة في النواحي الاقتصادية والعلمية والعسكرية . وعليه فان حرب تشرين ، حتى وان أدت الى انسحاب اسرائيل من كل المناطق التي احتلتها أو عن معظمها ، وحتى ان تم ذلك دون عقد اتفاقيات سلام كاملة مع اسرائيل ، تضع العالم العربي ، استنادا الى الاتجاه الذي أشرنا اليه ، في مواجهة تحديات اسرائيلية صهيونية جديدة ، ينبغي عدم تجاهلها .

جروح الجيش لم تلتئم

اذا لم تستطع حرب تشرين التأثير بشكل جذري في جوهر النظام الاسرائيلي ، الذي بقي قائما بكل مركباته ، فان الوضع يختلف بالنسبة لاحد اركان هذا النظام المهمة ، الجيش .

اصيب الجيش الاسرائيلي خلال الحرب بجروح عديدة ، بعضها كان بالغا، لم يلتئم حتى الان . ولا نقصد بقولنا هذا انهيار بعض الجوانب الاساسية في الاستراتيجية العسكرية — السياسية الاسرائيلية ، او تضعضع نظرية الحدود الآمنة والقابلة للدفاع عنها ، او انفضاح اسطورة الجيش الذي لا يقهر ، وانما القصد بعض النواقص التي ظهرت في بناء الجيش واسس تكوينه بسبب الحرب .

قام الجيش الاسرائيلي ، قبل نشوب حرب تشرين بفترة قصيرة ، بحملة تغيير بين كبار قادته شملت تسريح العديد منهم واستبدالهم بمجموعة من الضباط الاصغر منهم سنا (وخبرة) بعد ترقيتهم ، وهو اجراء اعتاد الجيش على القيام به من حين لاخر ، وان جاء هذه المرة أكثر شمولا عن حالات مماثلة جرت في الماضي . وقد جرت العادة على أن يعرض الجيش الاسرائيلي اسلوبه هذا في استبدال الضباط بعد وصولهم سنا معينة وكأنه فخر نظريات التنظيم العسكري ، التي تمكن الجيش بسببها الافادة من طاقات ضباطه ، بأكبر قدر ممكن ، وهم في أوج نشاطهم من جهة وفتح المجال امام الاجيال الناشئة من القادة العسكريين للتقدم بسهولة نسبيا ، من جهة اخرى . ولكن هذه كانت اولى النظريات التي أثبتت الحرب عدم صحتها ، اذ لم تمر الا بضعة ايام على بدء القتال حتى كانت القيادة الاسرائيلية تستدعي معظم كبار ضباط الاحتياط ، ومنهم من كان يشغل مناصب وزارية وقتها ، وتعهد اليهم بقيادة مختلف الجبهات او الوحدات ، بعد ان شعرت ، كما يبدو ان ضباطها الحديثي العهد في

الترقية والتعيين غير قادرين على السيطرة على الموقف . لقد حلت ازمة القادة الاكفاء تلك اثناء الحرب وبعدها مباشرة بالشكل الذي حلت به ، ولكن يبدو ان الجيش الاسرائيلي لا يزال يعاني منها حتى الآن ، اذ ان كبار ضباط الاحتياط تركوا الجيش بعد انتهاء القتال وعادوا الى مواقعهم السابقة ، ثم اجبر عدد اخر من الضباط على ترك الخدمة بناء على توصيات لجنة اغرانات ، بينما يبدو ان عددا غير قليل من ضباط الميدان قد قتلوا خلال الحرب . وبعباره اخرى ، فان الجيش الاسرائيلي يعاني ، بعد سنه من حرب تشرين وبسببها ، من نقص في القاده المجربين والضباط لدرجة تدفع بعض المسؤولين الاسرائيليين الى الحديث صراحة عن نيتهم في العمل على ارجاع بعض الضباط السابقين اليه ، ومن بينهم حتى أولئك الذين حملتهم لجنة اغرانات مسؤولية التقصير في الحرب او اولئك الذين يتخذون مواقف سياسية مغايرة تماما لمواقف السلطة . واذا كان هناك من عبرة مترتبة على هذه الوقائع فهي تلك التي تؤكد ان قوى اسرائيل البشرية المحدودة ، رغم الادعاءات بكفاءاتها وقدراتها الفائقة ، تبقى احدى نقاط الضعف الرئيسية في الصراع الاسرائيلي الطويل الامد مع العرب .

غير ان أكبر خلل كشفت عنه الحرب في بناء الجيش وأسلوب عمله كان ذلك الذي تمخضت عنه فضيحة المخابرات . فمن الواضح الان أن المخابرات العسكرية الاسرائيلية قد فشلت فشلا ذريعا في اكتشاف استعداد العرب للحرب ونيتهم في مهاجمة القوات الاسرائيلية على الجبهتين المصرية والسورية ، وانذار السلطات المختصة بشأن ذلك وخلال مدة كافية تمكنها من دعوة قوات الاحتياط لمجابهة مثل ذلك الهجوم ، رغم الوعد الذي قطعته المخابرات على نفسها بهذا الشأن تجاه قيادة الجيش . ومما يثير الذهول في هذا الفشل ليس انعدام المعلومات لدى المخابرات عن التحركات العسكرية المصرية والسورية التي سبقت الحرب ، اذ أن هذه كانت متوفرة ، وانما عدم قدرة رجال المخابرات على استخلاص النتائج الصحيحة منها حتى اللحظات الاخيرة ، واضطرارهم الى اعلام المسؤولين الاسرائيليين عن ان الحرب وشيكة الوقوع قبل عشر ساعات من بدء القتال فقط ، واستنادا الى اشارة تلقوها من « دولة صديقة » هي ، كما يبدو ، أمريكا .

لقد كتب وقيل الكثير في اسرائيل ، منذ الحرب وحتى اليوم ، عن أسباب ذلك الفشل الذي منيت به المخابرات العسكرية ، وتحملت القيادة السياسية ، وعلى رأسها موشي ديان ، قسطا وافرا من المسؤولية عنه ، باعتبارها مروجة لذلك « المفهوم » الذي ساد بين رجال المخابرات بشأن عدم نية العرب ، او عدم قدرتهم بتاتا ، على القتال ، مما دفعهم بالتالي الى الاستخفاف بكل الاستعدادات العربية للحرب وتفسيرها على انها نوع من تهدئة الاعصاب على الصعيد العربي الداخلي ، او نوع من استعراض العضلات تجاه اسرائيل لابتزاز تنازلات معينة منها . لقد كان لهذا « المفهوم » ، ولا شك ، أثره في وصول القيادة الاسرائيلية بأسرها الى تقييم خاطىء للوضع كان من نتيجته ان فاجأت الحرب اسرائيل وهي غير مستعدة لخوضها . غير انه يبدو ، من ناحية ثانية ، ان هذا الخطأ لم يكن خطأ بسيطا عاديا يسهل تلافيه في المستقبل ، اذ أن أسبابه تتعدى نطاق الجيش والمخابرات لتمس احدى المؤسسات الاسرائيلية المهمة ، ونقصد مؤسسات الدراسات العربية والمشرفين عليها من المستشرقين ، المحترفين والهواة ، الذين كثيرا ما فخر الاسرائيليون بهم وبقدرتهم على استيعاب وفهم ما يدور في العالم العربي ، وبالتالي امكانات وصولهم الى تقييمات صحيحة للاوضاع هناك كتمهيد لاتخاذ القرارات المناسبة بشأنها ، مما غرس الثقة في قلوب عامة الشعب والمسؤولين سوية وبعث الطمأنينة في نفوسهم لجهة قدرة أجهزتهم على رؤية ما يجري

لدى العدو ـــ حتى اكتشفوا بعد الحرب ان تصرفاتهم تلك كانت أشبه بتصرفات النعامة التي تغرس راسها في الرمل .

ان اهتمام اليهود بالدراسات الشرقية عامة ، والعربية خاصة ، قديم العهد . كذلك فان اهتمام المستوطنين الصهيونيين في فلسطين بهذا النوع من الدراسات قديم العهد أيضا ، نسبيا ، اذ تعود بدايته الى سنوات العشرين ، وكان من بين الفروع الاولى التي اهتمت بها الجامعة العبرية في القدس ، بعد أن بدأت عملها سنه ١٩٢٥ . ومند دلك الوقت تتوسع دراسة هذه المواد ، كما على الاقل ، من حين لاخر مع افتتاح كليات ومعاهد جديدة ، في اماكن مختلفة في اسرائيل ، هدفها المعلن دراسة هذه الناحيه او تلك من الشؤون العربية والاسلامية . ولقـــد أسدى اولئـــك المستشرقون للدوائر العربية في أجهزه الامن الصهيونية خدمات جليلة ، اذ ان اول من أرسى أسس القسم العربي في « شاي » مخابرات الهاغاناه ، في مطلع الاربعينات كان المستشرق شمعوني وزمرته ، وهو نفس الجهاز الذي قدم فيما بعد خدمات جليلة للجيش الاسرائيلي ، خاصة خلال حرب ١٩٤٨ في فلسطين ، مكنته من احراز انجـــازات عديدة بسببها . واستمرت بعد ذلك أسهم المستشرقين ومن يعرفون بالخبراء في الشؤون العربية في اسرائيل في الصعود سنة بعد أخرى، الى أن وصلت قمتها خلال الفترة ما بين الحربين، الثالثة والرابعة (١٩٦٧ ـــ ١٩٧٣) ، حيث جاءت نتائج حرب ١٩٦٧ لتفتح بابا واسعا لتعليقاتهم وآرائهم ، ومعظمها ينطلق من وجهة نظر تستخف بالعرب عموما وتسخر من انجازاتهم وقدراتهم ، وبالتالي تطمئن الاسرائيليين لجهـــة استمرار تفوقهم على العالم العربي بأسره ، في معظم المجالات ، الى أن جاءت حرب تشرين ونتائجها لتقلب معظم فرضيات اولئك الخبراء رأسا على عقب وتسخر من دراساتهم واستنتاجاتهم . وفي أعقاب الحرب ، وفي غمرة تفتيش الاسرائيليين عن أكباش الفداء لما لحـــق بهم خلالها ، توجهت أصابع الاتهام الى الخبراء في الشؤون العربية مشيرة الى الدور الذي لعبه هؤلاء في تخدير أعصاب الاسرائيليين وتحويل أنظارهم عن التحديات الحقيقية التي تواجههم في صراعهم مع العرب ، مما دفع المستشرقين الى الدخول في مناقشات حادة مع بعضهم البعض بشأن آرائهم وآراء الآخرين ، لتكشف عمليا عجزهم عن استيعاب ما يدور في العالم العربي حاليا ورصد التطورات السياسية والاجتماعية التي تسوده ، بحيث يبدو وكأن آراء كبار الخبـــراء الاسرائيليين في الشؤون العربية تنطبق علـــى الاوضاع التي كانت سائدة في العالم العربي قبل خمسة عشر عاما على الاقل ، ولا علاقة لها البتة بالاوضاع الحالية . واذا كان هذا الانطباع صحيحـــا فانه يعني ان الاجهزة الاسرائيلية ، ومن بينها المخابرات خاصة ، والنظـــام الاسرائيلي عامة ، لن يكونوا في عصمة من الوقوع في الخطأ مرات أخـــرى في تقييمهم للاوضاع العربية ، فمعظم القوى البشرية العاملة في اجهزة المخابرات هي ، في نهاية الامر ، من تلامذة أولئك المستشرقين وامكانا تهوقوعهم في الخطأ لا تقل كثيرا عن امكانات أساتذتهم .

نظرة جديدة الى العرب ...؟

فتحت الحرب عيون الاسرائيليين على عالم عربي « جديد » وأزالت عددا من الاوهام التي استندوا اليها كثيرا لرسم استراتيجية اسرائيلية بعيدة المدى تجاه العالم العربي ، خاصة فيما يتعلق بقدرة الانسان والمقـــاتل العربي على مجابهـــة « السوبرمان » الاسرائيلي والتغلب عليه من جهة وامكانات العمل العربي الموحد ضد اسرائيل مـــن جهة أخرى . ولقد كان الرهان الاسرائيلي على عجز العرب عن قتالهم أو اللجوء الى استعمال القوة في صراعهم معهم وكذلك عدم قدرتهم على اتباع سياسة موحدة تجاه اسرائيل ، نظرا للخلافات السياسية السائـــدة بينهم ، مـــن بين الركائز الرئيسية

للسياسة الاسرائيلية المتصلبة واصرارها على الاحتفاظ بأجزاء من المناطق المحتلــة وفرض الصلح بالقوة على العرب ، حتى وقعت الحرب فهزت، مع الاحداث التي تلتها، تلك الصورة .

كانت الصدمة التي أصابت الاسرائيليين ، مع وقوع الحــرب وخلال الفترة التي تلتها ، قوية للغاية ولم تخف حدتها الا بعد مرور بضعة أشهر ، عندما توقف القتال تماما على الجبهات وانتقل ثقل النشاط في المنطقة الى المجال السياسي وبما تبعه من مناورات ، استطاعت اسرائيل خلالها التقاط أنفاسها . ولكن على الرغم من ذلك ، لا يزال هناك عدد من الدروس ، لا تستطيع اسرائيل تناسيها ، لا الآن بعد مرور سنة على الحرب ولا في المستقبل ، القريب أو البعيد ، اذ أن ما اثبتته الحرب مــن قدرة الجندي العربي على القتال واستعمال الاسلحة العصرية المعقدة ، ومن خلال مواكبة التقدم العلمي ، لا يمكن ان يعتبر بالنسبة للاسرائيليين تطورا هامشيا يمكن تجاهله ، بل ان مثل هذا التطور يكتسب مغزى خاصا ، وخطيرا للغاية ، في ضوء حقيقة امتناع العرب ، لاسباب عديدة لا مجال لبحثها هنا ، عن استغلال كــل طاقاتهم ، البشرية والعلمية ، في صراعهم مع اسرائيل ، مما سيضعها في وضع حرج للغاية ان تم ذلك فعلا في المستقبل . كذلك فان الاختلاف في وجهات نظر الدول العربية ، خاصة تلك منها المحيطة باسرائيل ، والفلسطينيين بشأن الخطوات التي ينبغي اتخاذها ، في الحاضر أو المستقبل ، لايجاد حل ما للازمة في المنطقة والتحركات السياسية المترتبة على ذلك ، وهي المواقف التي تعيد الى أذهان الاسرائيليين صورة العالم العــربي المنقسم على نفسه والعاجز عن اتخاذ موقف موحد حاسم تجاه اسرائيل ، لا يمكن أن تشكل عزاء بالنسبة لهم ، اذ أن تلك الخلافات تنحصر ، في نهاية الامــر ، حول أنسب الطــرق وأصلحها لصد العدوان الاسرائيلي أو احتوائه ، ومن هنا فان امكان عودة العرب الى منهج العمل الموحد وتوحيد قواهم في مواجهة اسرائيل ، كما حدث خلال الحرب وبعدها مباشرة ، أمر ينبغي أن يحسب له حسابه .

من الواضح الآن أن نظرة الاسرائيليين الى العرب قد تغيرت بعــد حرب تشرين وبسببها ، بشكل ملحوظ ، للاسباب التي أشرنــا لها وغيرها ، بدلالة اختفــاء تلك التصريحات المتبجحة التي كانت تصدر عن المسؤولين الاسرائيليين في الماضي ، وكلها تنم عن استخفاف بالعرب وبقدرتهم على مجابهة اسرائيل . وكذلك يلاحظ ان الحماس الذي كان يرافق حديث الاسرائيليين عن الحرب في الماضي قد خف بشكل واضح ، وحلت محله التصريحات « المتزنة » ، التي تنطلق ، عادة ، من التدليل على نية اسرائيل في عدم المبادرة الى حروب جديدة الا اذا « اضطرت » لذلك . ولكن هذه النظرة بحد ذاتها تنطوي ، من ناحية ثانية ، على تحديات كبيرة بالنسبة للاسرائيليين ، اذ أن التسليم بوجود قوى عربية آخذة في النمو وتزداد قدرتها يوما بعد آخر على مجابهة اسرائيل حقيقة لها مغزاها بالنسبة لنظام كان ، ولا يزال ، يعتبر اعتماده على قوته الضمان الاساسي لاستمرار وجوده . وعليه ، وانطلاقا من هذه الفرضية، يبدو ان الاسرائيليين يقتربون من لحظة الحقيقة في موقفهم من العرب عامة ، على المدى القريب أو البعيد ، وليس أمامهم الا أحد الطرفين : اما التسليم ببداية تبلور قوة عربية عظيمة ، لا قدرة لاسرائيل على مجابهتها ، ان لم يكن الآن ففي المستقبل على الاقل ، مما يدفعها الى الاتجاه نحو اتباع سياسة جديدة تجاه العالم العربي والتفتيش عن حلول واقعية لازمة المنطقة ، او الاستمرار في انتهاج السياسة القديمة ، والعمل على دعم قوتها استعدادا للحروب المقبلة . والسؤال الذي يطرح نفسه الآن واضح للغاية : أي من الطريقين اختارت اسرائيل ، بعد مضي سنة على الحرب ؟

ان الاجابة على السؤال الذي اشرنا له ليست سهلة ، بل يبدو أحيانا أنهـا غير ممكنة ، اذ أنه بالاضافة الى بوادر اعادة النظر في مواقف اسرائيل وسياستها تجاه العديد من القضايا التي تجابهها ، بما في ذلك الدعوة الى اتباع سياسة أخرى تجاه العالم العربي ، هناك أيضا اتجاه واضح يسعى الى اعادة بنـاء القوة الاسرائيلية وصقلها استعدادا لمجابهة تحديات المستقبل . ولا شك ان هذا « التردد » الاسرائيلي او محاولة المزج بين الخيارين ، أي محاولة انتهاج سياسة جديدة مـن جهة وابقاء الاصبع على الزناد من جهة أخرى ، يخلق تحديات واضحة موجهة الى العالم العربي ، وخاصة دول المواجهة ، بشكل يلزمها هي الاخرى على تحديد مواقفها — وقبل فوات الاوان . فالاسرائيليون يبذلون في الوقت الحاضر جهودا كبيرة لدراسـة نتائج حرب تشرين والافادة منها ، وأعينهم مفتوحة على ما يجري في العالم العربي ، قبل دخولهم مرحلة الحسم . وعليه فان الموقف العربي الواضح ، الموحد قدر الامكان والمتمسك بتحقيق مطالبه ، ان سلما أو حربا ، مهم للغاية لجهة تأثيره على القرار الاسرائيلي ، وهو الذي سيبت، في نهاية الامر ، فيما اذا كانت حرب تشرين بداية مرحلة من التحول في تاريخ المنطقة أم انها ستذهب سدى مع منجزاتها وتبقى مجـرد حرب في مسلسل الحروب العربية — الاسرائيلية ، التي مرت على المنطقة حتى الآن .

... والفلسطينيون ...

اذا كانت حرب ١٩٦٧ قد أسفرت عن عودة العنصر الفلسطيني الى مسرح الاحداث في المنطقة ، ممثلا في المقاومة الفلسطينية المسلحة وامتداداتها العسكرية والسياسية داخل الارض المحتلة وخارجها ، فـان حرب ١٩٧٣ جـاءت لتثبت للاسرائيليـين — ولغيرهم — ان القضية الفلسطينية كانت ، ولا تزال ، أساس الصراع العربي — الاسرائيلي ، ولا بد من ايجاد حل لها قبل أية مشكلة اخرى من مشاكل المنطقة .

حظيت القضية الفلسطينية باهتمام بالغ للغـاية في اسرائيل ، علـى الصعيدين الرسمي والشعبي ، منذ الحرب وحتى اليوم ، وهو الاهتمام الذي أسفر عن مناقشات علنية واسعة ، لا يزال الكثيرون من الاسرائيليين ، من مختلف الاتجاهات ، يشتركون فيها من جهة ودفع النظام الاسرائيلي الى الاعلان عن موقفه ، رسميا، من الفلسطينيين وقضيتهم في أكثر من مناسبة من جهة أخرى . وكان أهم ما حدث من تغييرات على الصعيد الرسمي هو ذاك « التقدم » الذي طرأ على موقف حزب العمل الاسرائيلي الحاكم ، وأسفر عن اعتراف الحزب في برنامجـه الانتخابي الذي أقـره بعد الحرب مباشرة ، ولاول مرة في تاريخه ، « بوجود » الفلسطينيين ، معلنا ان الحل الذي يقترحه للقضية الفلسطينية يكمن في اقامة دولة واحدة الى الشرق من اسرائيل ، يستطيع ان يجد الفلسطينيون والاردنيون فيها تعبيرا عن أمانيهم القومية . وان كان قد ظهر أحيانا ان ذلك التغيير في الموقف الرسمي لم يكن الا فاتحة لمواقف اخرى اكثر واقعية فقد جاءت الاحداث المتعاقبة لتثبت عكس ذلك .

ان الموقف الاسرائيلي ، أو على الاصح الصهيوني ، من الفلسطينيين وحقوقهم معقد للغاية ، وقد مر منذ نشوء الصهيونية وحتى اليوم في مراحـل عديدة ، كان القاسم المشترك الاكبر لها جميعا اصرار الصهيونيين على اعتبار عرب فلسطين مجرد « سكان في أرض — اسرائيل » ، وبالتالي لا حقوق سياسية لهم ومحاولاتهم حل المشاكل التي تعترضهم من هذه الناحية مع جهات أخرى من غير الفلسطينيين — حتى سنة ١٩٤٨ بواسطة النفوذ الاجنبي الذي كان مسيطرا على فلسطين وعلى باقي دول المنطقة ، وبعد ذلك التاريخ مع الدول العربية ومن خلال تجاهل وجود الفلسطينيين السياسي .

ولقد بدا بعد الحرب ، ولاول وهلة ، وكأن الاسرائيليين ينوون الاقلاع عن ممارستهم تلك ويقتربون من لحظة الاقرار بخطأهم والاتجاه الى الاعتراف بالفلسطينيين وحقوقهم وحل المشاكل المعلقة مباشرة معهم ، غير انه سرعان ما اتضح ان الواقع يشير الى عكس ذلك ، وان الموقف الاسرائيلي لا يزال ، رسميا على الاقل ، يفضل التعامل مع هذا النظام العربي أو ذاك لايجاد حل ما للقضية الفلسطينية ، يكون ملائما لاسرائيل .

غير ان أهم ما تجدر الاشارة اليه هنا هو أن دوافع هذا الموقف ليست اسرائيلية صافية ، بل تشوبها بعض الشوائب « العربية » ايضا ، فالمعلومات المتوفرة عن مواقف مختلف المسؤولين الاسرائيليين ممن يملكون القدرة على المشاركة في صنع القرار السياسي الاسرائيلي ، تشير الى وجود تعادل بين فريقين داخل الحكومة الاسرائيلية ، يدعو أحدهما الى اتباع سياسة جديدة لا تتردد في دعوتها الى الاعتراف بالفلسطينيين وبحقوقهم ، عند الحاجة ، والاتجاه الى التعامل مباشرة معهم ، بينما يصر الفريق الثاني على اتباع السياسة التقليدية التي انتهجتها اسرائيل حتى الآن ، وذلك بالاضافة الى وجود فريق ثالث لا يزال حتى الآن محايدا . واذا كانت الغلبة حتى الآن لا تزال من نصيب ذلك الفريق الداعي الى الاستمرار في انتهاج السياسة القديمة ، فلا شك ان ذلك قد تم ، الى حد كبير ، بفضل بعض المواقف العربية التي لا تزال حتى الآن تنازع الفلسطينيين حقهم في تمثيل انفسهم وأخذ زمام أمورهم بأيديهم ، مما يفرض على الفلسطينيين عامة ، وقيادتهم خاصة ، حل مشكلة الوجود الفلسطيني عربيا ، قبل حلها اسرائيليا .

... والعالم

تضعضعت علاقات اسرائيل الدولية بشكل واضح خلال حرب تشرين وبعدها ، اثر قيام العشرات من الدول الافريقية والاسيوية بقطع علاقاتها الدبلوماسية معها . وكانت اسرائيل قد بذلت جهودا خاصة في الماضي لاقامة علاقات مع تلك الدول ، تنفيذا لنظرية كان الاسرائيليون قد ابتدعوها في اواخر الخمسينات واوائل الستينات تدعو الى اقامة طوق من الدول الافريقية والاسيوية ذات العلاقات الحسنة معهم ، خاصة تلك المحيطة بالعالم العربي ، لكسر حاجز عداء العرب لهم . كذلك تعرضت العلاقات الاسرائيلية مع عدد من الدول الصديقة والمحايدة الى هزات عديدة ، اثر اضطرار عدد من تلك الدول الى الاعلان عن موقفها من الصراع العربي — الاسرائيلي ومطالبتها اسرائيل بتنفيذ قرارات مجلس الامن او احترام الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، نظرا للضغوط التي وجهت اليها من الدول العربية ، وخاصة التهديد باستعمال سلاح النفط .

ان نظرة سريعة الى مجمل أوضاع اسرائيل الدولية بعد مرور سنة على حرب تشرين تظهر ان استخفاف اسرائيل بالرأي العام العالمي وتجاهلها قرارات الامم المتحدة ، وهو الاتجاه الذي طغى على السياسة الاسرائيلية عامة ، خاصة بعد حرب ١٩٦٧ ، لم يمرا دون عقاب ، فأثار العزلة الدولية التي تمر بها اسرائيل حاليا وتقلص امكانات مناوراتها على الصعيد الدولي واضحة للغاية ، ومما يزيد في وضوحها تعاظم نفوذ العرب دوليا وارتفاع شأنهم ، في مقابل ذلك ، خاصة في ضوء أزمة الطاقة العالمية وعلاقة العرب بها .

غير ان أهم ما أسفرت عنه الحرب من نتائج بالنسبة لاسرائيل على الصعيد الدولي كان ، دون شك ، اتضاح مدى ارتباطها الشامل بالولايات المتحدة واعتمادها عليها لمساندتها في معظم الازمات التي تواجهها ، السياسية والاقتصادية والعسكرية . ولا

حاجة لان نؤكد انه لولا المساعدات التي حصلت عليها اسرائيل من الولايات المتحدة ، خلال الحرب وبعدها ، في كل المجالات التي اشرنا لها ، لما استطاعت الصمود طويلا في الحرب او تحمل نتائجها بعد ذلك . واذا كانت الحرب قد كشفت ، مرة أخرى ، عن احدى مراكز القوى التي تستند اليها اسرائيل ، ممثلة في علاقاتها الفريدة في نوعهـــا بالولايات المتحدة ، فانها تكشف في الوقت ذاته على ان مصدر القوة الاسرائيلي هذا هو نفسه أيضا نقطة الضعف في السياسة الاسرائيلية ، خاصة عندما تختلف وجهة النظر الامريكية عن الاسرائيلية ، او عندما يصر الامريكيون على جباية بعض الفواتير التي يقدمونها لاسرائيل من حين لآخر . وعليه فان الصورة التـــي ارتسمت خلال الحرب وبعدها مباشرة ، واتضحت الآن أكثر ، تظهر ان الموقف الامريكي من الصراع العربي ـــ الاسرائيلي لا يزال يحتل المرتبة الاولى من الاهميـــة لجهة تأثيره علـــى المواقف الاسرائيلية ، وبالتالي على الاوضاع في المنطقة ، بحيث يظهر بوضوح الآن ـــ بعد مرور سنة على الحرب ـــ ان الحل للازمة الحالية ، ان كان هناك حل ، لن يتم الا بواسطة واحد من طريقين ، أولهما الضغط الامريكي على اسرائيل ، دون أن نتطرق الى الثمن الذي يتوجب على العرب دفعه في مقابل ذلك وثانيهما اللجـــوء الى استعمال القوة العربية .

الثورة الفلسطينية في الحرب الرابعة : توظيف الخبرات واجتياز العقبات

عصام سخنيني

اغتنت التجربة النضالية الفلسطينية في الفترة ما بين الحربين واكتسبت خبرات عميقة ، كانت أحيانا نتيجة الجراح التي أصيب بها جسد المقاومة في تصديها للدفاع عن نفسها في بعض الساحات العربية ، ولكنها في الاغلب والأعم كانت خبرات أضيفت لرصيد المقاومة العسكري في أثناء قيام مقاتليها بمهامهم المسلحة داخل الارض الفلسطينية . وفي الحرب الرابعة كان لا بد من توظيف هذه الخبرات المختزنة وتكييفها لتتلاءم مع هذا الحدث الذي انفجر فجأة وفي غير توقع ، كي تثمر هذه الخبرات الجدوى القصوى المنسجمة مع تطلعات الثورة ، والمحققة لاهدافها الاستراتيجية . وفي المقابل ونتيجة ظروف عديدة معظمها متعلق بالاوضاع العربية وانعكاساتها على حركة المقاومة ، كان امام المقاومة ، وهي على عتبة الحرب ، عقبات كان عليها ان تجتازها وتذللها كي تجعل خبراتها اكثر عطاء .

خبرات مختزنة في تجربة جديدة

انحصرت التجربة القتالية الفلسطينية في أسلوب الحرب العصابية المبنية أساسا على تجنب المواجهات الواسعة مع العدو والمستفيدة من القاعدة المشروعة : اضرب واهرب . وقد ساد هذا النمط من القتال التجربة الفلسطينية نتيجة اسباب بعضها متعلق بطبوغرافية الارض الفلسطينية ، ومنها ما هو متعلق بالظروف التي نشأت فيها الثورة والتي جعلت قواعد الارتكاز القتالية خارج الارض المحتلة مما يجعل انشاء خطوط الامداد العسكري والبشري بين القاعدة الارتكازية وبؤرة المواجهة المختارة عملية مستحيلة ، وبعضها الاخر متعلق بأساليب القتال التي اتبعها العدو في تصديه للمقاومين الفلسطينيين التي تعتمد الحرب الميكانيكية السريعة التي تمكن العدو من نقل معداته وقواته الى أي مكان داخل الارض الفلسطينية خلال دقائق معدودة .

ولكن مع هذا فقد شهد أواخر العام ١٩٦٩ وأوائل العام ١٩٧٠ عددا من عمليات المواجهة العريضة نفذها الثوار الفلسطينيون مستندين الى قواعد ارتكازهم في الضفة الشرقية من الاردن ، وكان يمكن لهذه العمليات أن تكون نواة لشكل متطور من القتال لو استمر الوجود المقاوم الفلسطيني في الساحة الاردنية . غير ان مجازر أيلول ١٩٧٠ وأحراج جرش ١٩٧١ وما أعقبهما من تصفية الوجود الثوري الفلسطيني في الاردن أجهضت هذه التجربة التي كانت لا تزال في مرحلة الاختبار .

كانت الخبرة الفلسطينية **المتميزة** اذن هي خبرة حرب العصابات بكل أساليبها المعروفة التي تبدأ بزرع الالغام في الطرق الترابية وتمر بنصب الكمائن ومهاجمة الكمائن المعادية والقصف من بعد ... وتنتهي بشكل من أشكال الحرب المدينية الذي مارسه

ثوار قطاع غزة بشكل اكثر تطورا مـــن غيرهم . وكانت هـــذه الخبرة لا تستند الى الضرورات العسكرية فحسب وانما كانت منسجمة مع النظـرية السياسية لحركة المقاومة في حرب الشعب الطويلة المدى ، وهي التي فرضت أشكالا خاصة في البناء العسكري الفلسطيني لم يهيأ فيه المقاتل الفلسطيني لمواجهة حرب نظامية او احتمال قيام حرب نظامية . وقد عزز هذا الامر الاخير التنظيرات السياسية التي سادت في الفترة ما بين حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ والتي كانت تدور حول استبعاد قيام الانظمة العربية ، في ظل اوضاعها التي تحكمت فيما بين الحربين ، بحرب تحريرية .

كان لهذه الخبرة الفلسطينية في حرب العصابات ان تلقي بكل طاقاتها في الحرب الرابعة . وفي اليوم الاول من القتال حدد ابو عمار لقوات الثورة دورا مهما في الحرب : « ان المزيد من الضربات لخطوط مواصلات العدو ومراكز تجمعاته ومرافقه الحيوية داخل الارض المحتلة وحدودها أمر هام وحاسم » . ويندرج هذا الدور تحت ما يوصف عادة بأنه العمل خلف خطوط العدو وهو ينسجم تماما مع أسلوب الحرب العصابية الغني في التجربة الفلسطينية . وغني عن البيان ان هذه هي المرة الاولى التي تعمل فيها قوات الثورة الفلسطينية « خلف خطوط العدو » في أثناء حرب نظامية بمثل هذه الكثافة . والاستثناء الوحيد من ذلك كانت عمليات قوات العاصفة في حرب ١٩٦٧ التي كانت تجربة محدودة بسبب قصر أجل حرب حزيران ولم تشكل تقليدا في العمل العسكري الفلسطيني. وعلى الرغم من حداثة التجربة فان الخبرة العصابية في الحرب الرابعة أعطت نتائج متفوقة ، مستفيدة من وجود الخلايا القتالية في الداخل التي هي على احتكاك يومي بالعدو وعلى اطلاع على تحركاته وأماكن حشوده ومرافقه الحيوية وعلى معرفة وثيقة بالارض التي تعمل فوقها ، مما مكنها أن تمارس أشكالا متنوعة من القتال خلف خطوط المواجهة الرئيسية بل في قلب ساحة العدو . ولقد غطت العمليات الفلسطينية جميع الارض المحتلة وكانت انشطتها العسكريـــة تنقسم الى عدد مـــن الميادين :

(١) تمكنت قوات الثورة من الوصول الى عدد من المرافق الحيوية للعدو فوجهت عددا من الضربات الى منشآته الاقتصادية والانتاجية ومصادر الطاقة لديه . ومن الامثلة على ذلك : تدمير مستودعات النفط في كفر حسديم (حيفا) ، تدمير خط انابيب البترول ــ يانفطاه ــ ، تدمير عدد من أبراج كهرباء الضغط العالي في أسدود ورشون لتسيون ، تدمير جزء من مصنع الورق واحراق محتوياته في الخضيرة ، اشعال النيران في مستودعات الوقود في الخالصة ، تفجير قسم تركيب طائرات عرفاه وكومودور جت في بيت شيمش ، حرق معمل للمارتديلا وحانوت لتصنيـــع الجلود والبلاستيك في تل أبيب ، حرق مصنع للورق في ملبس ، تدمير مصنع للاسبست في نهاريا .

(٢) هاجمت قوات الثورة تحركات العدو العسكرية والتحمت معها من أجل تعطيل قواته المتجهة نحو المعركة . وقد ذكرت البلاغات العسكرية الصادرة عن القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية عددا كبيرا من هذه العمليات الناجحة نذكر منها : تدمير باص عسكري يحمل عددا من الطيارين على الطريق بين الخضيرة وحيفا ، تدمير عدد من سيارات قافلة تموين عند مفرق الظاهرية بئر السبع ، تدمـــير وتعطيل سير قافلـــة عسكرية عند ادمك في الجليل الغربي ، تعطيل قافلة عسكرية عند مستعمرة هونين ، تدمير ثلاث سيارات نقل عسكرية بين بئر السبع وعسلوج ، تفجير عدة عربات من قطار محمل بالذخيرة عند خان يونس ، تعطيل سير قوات العدو بين مسكاف عـــام والمالكية ، اصابة عدد من الاليات وتعطيل المرور بين القدس وأريحا ، اصابة عدد من الآليات من قافلة عسكرية بين المالكية والمنارة ، تدمير قافلة مكونة من ست شاحنات محملة بالذخائر في منطقة عومر (بئر السبع) الخ .

(٣) بالاضافة الى ذلك جهدت قوات الثورة في تخـــريب طرق مواصلات العدو فنسفت عددا من الجسور وقامت بنسف بعض السكك الحديدية ، ومن ذلك نسف عدد من الجسور والعبارات بين بيت شيمش وباب الواد غربي القدس ، تدمير الجسور بين الناصرة والعفولة وبين حيفا وعكا وبين باب الواد والرملة ، نزع قضبان سكة الحديد بين خان يونس ورفح ، تدمير خط سكة الحديد وتعطيل الحركة عليه بين اسدود وبيت حانون الخ .

(٤) قامت قوات الثورة بمهاجمة عدد من المواقع العسكرية للعدو بهدف تكبيده الخسائر من جهة ومشاغلته من جهة ثانية ، ومن ذلك مهاجمة قاعدة بحرية في عتليت ، مهاجمة معسكر في منطقة سعسع في الجولان ، قصف شبكة الرادار في جبل الجرمق ، تفجير مستودعات الذخيرة في جبل ام حواويط في النقب ، قصف معسكر فشكول في جبل الشيخ ، اقتحام عدد من المواقع العسكرية في صليحـــا في الجليل الاعلى ، تفجـــير مستودعات الذخيرة في معسكر وادي الصرار في القدس ، تدمير رادار في كفر مالك قرب رام الله ، قصف معسكر العلم ، تدمير أجزاء من مصنعي القنابل اليدوية ومصنع لاهن لصناعة الاسلحة الخفيفة واشعال النيران فيهما في تل أبيب ، قصف تجمعات عسكرية للعدو في سمخ قرب طبريا . الخ .

هذه الامثلة التي عددت أعلاه أثبتت أن الخبرة العصابية في التجربة الفلسطينية لم تذهب هدرا بل استثمرت كل امكاناتها وطاقاتها بكفاءة تجلت جغرافيا في أنهـــا غطت الارض المحتلة جمعاء ، وهدفيا في أنها مارست جميع أشكال القتـــال التي تنتظم في الحرب العصابية، وتأثيرا في أنها عطلت جزءا من طاقات العدو القتالية نتيجة اتساعها.

تجربة جديدة في حرب نظامية

بخلاف فصائل المقاومة الاخرى أنشىء جيش التحريـــر الفلسطيني بقواته الثلاث حطين والقادسية وعين جالوت ليكون جيشـا نظاميا . وقد أتيح لهذا الجيش أن يأخذ على عاتقه بعض المهمات القتالية في حرب ١٩٦٧ (شهد قطاع غـــزة بطولات فريدة لقوات عين جالوت ، وقيل أن قوات حطين غطت انسحاب بعض الوحدات العسكرية السورية في الجولان ، أما قوات القادسية فقد طوح بها التضليل الاردني على الطريق بين الجفتلك وأريحا وطريق القدس) . غير ان هذا الشكل من المهمات النظامية التي أوكلت لجيش التحرير توقفت بتوقف حرب حزيران بينما ظل الجيش بتدريبه وتشكيله خاضعا للاساليب النظامية باستثناء قوات التحرير الشعبية التي انبثقت نواتها الاولى من صفوف الجيش والتي مارست تجربة الحـــرب العصابية . كان الجسم الرئيسي للجيش اذن يهيأ لحرب نظامية ، غير ان تسليح الجيش وتدريبه كانا يحتمان اضطلاع الجيش بمهمات محددة في مثل هذه الحرب هي مهمات قوات الصاعقة (أو المغاوير) في الجيوش النظامية . وان الامر المؤكد في مثل هذه المهات ان نوعية العنصر البشري في هذه القوات لها أثر حاسم في النجاح أو الفشل . فبالاضافـــة الى التدريب الخاص والشاق الذي يتلقاه افراد القوات فان الروح المعنوية للمقاتل ودرجة اقدامه وشجاعته وقابليته للتضحية ، كل ذلك اذا توفر ، يجعل النجاح في تنفيذ المهمة اكثر احتمالا واقرب الى الكمال . وقد أثبتت تجربة الحرب الرابعة ان المقاتل الفلسطيني هو رجل المهمات الصعبة . فعلى الجبهة السورية عملت قوات جيش التحرير في أصعب ظروف قتالية وتمكنت من تنفيذ الواجبات المطلوبة منها بأكفأ ما يكون التنفيذ . لقد كلفت هذه القوات باحتلال بعض المواقـــع الاستراتيجية في الجبهـــة السورية ، وكانت تكلف بمهمات الانقضاض من الجو علـــى مرابض العدو وتحصيناتـــه وبعض التلال ذات الموقـــع

الاستراتيجي مثل تل الفرس وعملت على تطهير بعض هذه التلال وقد تمكنت من تطهير تل شمس كما توجهت عدة مجموعات انتحارية لتدمير بعض تحصينات العدو مثلما حدث في معركة تل ابو الذهب .

ان معارك التلال على الجبهة السورية كانت تحمل خلفها كل التراث النضالي للشعب الفلسطيني بكل ما فيه من تضحية واقدام. كذلك الامر كان على الجبهة المصرية فقد أدت قوات عين جالوت واجباتها بكفاءة في القطاع الذي خصص لها جنوبي الدفرسوار في مواجهة البحيرات المرة . وكانت التجربة القاسية التي تعرضت لها هذه القوات عندما واجهت عملية الخرق الاسرائيلي ، وقد تصدت قوات عين جالوت للخرق الاسرائيلي وتمكنت بعض كتائبها من الصمود ثمانية أيام بعد هذا الخرق .

هل هي تجربة جديدة في النضال الفلسطيني ؟ انها كذلك من واقع انها المرة الاولى التي تعمل فيها قوات الثورة بتساند مع الجيوش العربية يصل الى حد القتال المشترك في المعركة الواحدة . هي المرة الاولى التي يجري فيها تنسيق على هذا المستوى . فقبل تشرين كانت، كل دعوة الى تنسيق الجهد العسكري بين قوات الثورة الفلسطينية والجيوش العربية ينظر لها سياسيا بكثير من التحفظ ، وكان الظن يتجه مباشرة الى أن القصد من هذا « التنسيق » هو تقييد حرية الحركة لقوات الثورة وربطها بعجلة السياسة العربية . وكانت الثورة على حق في ذلك ما دام « التنسيق » المطلوب كابحا لارادة القتال الفلسطينية . وهكذا فان اشكال التنسيق التي تمت قبل حرب تشرين لم تزد عن كونها في الاغلب تتم لاغراض تكتيكية عسكرية بحتة ولم تزد عن ان معظمها كان لتغطية انسحاب مجموعات المقاتلين الفلسطينيين بنيران وحدات بعض الجيوش العربية . ونشير هنا الى أن هذا الشكل من « التنسيق » ان كان يتم بمعرفة القيادات العليا للقوات المسلحة في الجبهة السورية، فقد كان على الجبهة الاردنية — قبل مجازر الاحراج ١٩٧١ — يتم ضد ارادة هذه القيادات ، وبمبادرات خاصة من قادة بعض القطعات الاردنية وعناصرها الوطنيين . غير ان اندلاع القتال في تشرين جعل التنسيق يتخذ له مضمونا جديدا ، مضمونا قتاليا ، هو صلب برنامج الثورة . وبذلك فان نجاح التنسيق هنا على الجبهتين السورية والمصرية كان بسبب التقاء الجيوش العربية وقوات الثورة الفلسطينية على برنامج متقدم هو القتال لتحقيق الاهداف المشتركة .

عندما تكون الحدود عائقا

منذ تموز ١٩٧١ فقدت حركة المقاومة أبرز ساحاتها النضالية وأكثرها تأثيرا ، نعني الساحة الاردنية . وقد سبب هذا الامر ليس فقط شل العمل العسكري الفلسطيني المتوجه من الساحة الاردنية ، بل أيضا عطل اقامة اتصالات مثمرة بين قيادة المقاومة وقواعدها في الداخل كما قطع « خطوط الامداد » العسكري التي كانت تمر عبر شرق الاردن أو التي كانت رؤوسها مرتكزة هناك . وقد استعاضت قوات الثورة بعد تموز ١٩٧١ عن الساحة الاردنية بالساحة اللبنانية التي اصبحت قاعدة العمل الرئيسي لقوات الثورة مارست منها نشاطا عسكريا واسعا. الا ان الهجوم الاسرائيلي في ايلول ١٩٧٢ على مناطق المقاومة في القطاع الاوسط من جنوب لبنان كان نقطة تحول في العمل العسكري الفلسطيني المتجه من لبنان . فاثر انسحاب القوات الاسرائيلية من الجنوب احتلت مواقعها قوات الجيش اللبناني وتراجعت قوات المقاومة الى الخلف مما عطل جزءا مهما من نشاطها العسكري وقلص عدد عملياتها وحجمها . كما أفقد قوات الثورة تماسها اليومي المباشر مع العدو وما يتولد عن هذا التماس من اكتساب خبرات جديدة ومعلومات عن قوات العدو — تمركزها وتحركاتها — من جهة ثانية . غير انه مع اندلاع القتال في السادس من تشرين الاول انهار الحاجز الذي حال بين قواعد الثورة في

الجنوب اللبناني واداء دورها القتالي في شمال فلسطين . وقد كان هذا الانهيار نتيجة طبيعية لانفتاح أكثر من جبهة مع العدو بحيث سقطت الحجة القديمة القائلة ان صمت الجبهات العربية الاخرى يكفي تبريرا لوقف النشاط الفلسطيني المسلح مـــن الحدود اللبنانية . كما ان الحماس الشعبـــي الواسع والانتصارات العسكرية التي حققتها الجيوش العربية كانت رادعا لاية محاولة أو نيـــة محاولة لوقف النشاط العسكري الفلسطيني من الحدود اللبنانية . وفي اليوم التالي لاندلاع القتال اعلن البلاغ رقم ٩ الصادر عن القيادة العامة لقوات الثورة ما يلي : « قامت وحدات المدفعية والصواريخ التابعة لقواتنا بجنوب لبنان بقصف شديد ومركز على كل مـــن مستعمرتي المنارة وهونين » . وبذلك كان هذا البلاغ اقرارا لواقع لا يمكن تجاوزه تمثل في حق الثورة في أن تعمل من مختلف الجبهات لا يحكمها سوى تكتيكات القتال وقرارات الثورة نفسها العسكرية والسياسية .

كانت الجبهة التي فتحتها الثورة في شمال فلسطين منطلقة مـــن الجنوب اللبناني مؤثرة دفعت العميد (احتياط) حاييـــم هرتسوغ الى التصريح للاذاعـــة الاسرائيلية (١٠/١٠) بقوله « في هذه الليلة فتحت جبهة أخرى ، على الرغم من صغرها ، ولكن على كل حال تعتبر جبهة . والمقصود هنـــا النشاط التخريبي مـــن وراء الحدود ضد مستوطناتنا » . وقد جاء هذا الاعتراف من الجانب الاسرائيلي بعد فترة من التعتيم مارسه الاعلام الاسرائيلي على عمليات الثورة الفلسطينية . الا أن اسرائيل نتيجة وطأة العمل العسكري في مستوطنات الجنوب اضطرت بين فترة واخرى الى الاعتراف بذلك وان كانت تحاول اخفاء خسائرها الحقيقيـــة . وفي ٧٣/١٠/٢١ قال ناطق عسكري اسرائيلي ان الفدائيين هاجموا ست مناطق دفعة واحدة . وفي يوم ١٠/٢٢ اعـــترف الناطق بأن الفدائيين قاموا منذ اندلاع الحرب بالهجوم على ٤٢ مستعمرة وبلغ عـــدد هجماتهم ٢٠٠ هجوم ، اي بمعدل ١٢ هجوما في اليوم الواحد .

هذا على الجبهة الشمالية ، اما على الجبهة الاردنيـــة أطول خطوط المواجهة مع العدو ، فقد كان الامر مختلفا تماما . فقد كان حسين أعلن أكثر من مرة في الفترة ما بين تموز ١٩٧١ وتشرين ١٩٧٣ انه لن يسمح لاحد بأن « يستدرجه » للحرب مع اسرائيل . غير ان قيادة الثورة سعت جهدها لفتح جبهة قتالية انطلاقا من شرق الاردن لما تتمتع به هذه المنطقة من ميزات استراتيجيةلمصلحة الثورة . وقد أرسلت القيادة وفدا فلسطينيا الى الاردن بتاريخ ٧٣/١٠/٩ واجتمـــع بزيد الرفاعي ، رئيس وزراء الاردن ، وطلب الوفد ان يسمح للفدائيين بأن يمروا للقيام بواجبهم عبر النهر في الارض المحتلة . الا ان السلطة الاردنية رفضت ذلك رفضا قاطعا . وقد أبلغت قيادة المقاومة الرئيس السادات بذلك وطلبت اليه أن يتدخل لدى الملك . وتدخل السادات فعلا وطرح على الملك أن تكون القوات الفدائية تحت امرة عدد من الضباط المصريين . وبالفعل أرسل السادات سبعة عشر ضابطا من مختلف الرتب اقلتهم طائرة خاصة الى تبوك في المملكة السعودية حيث توجهوا بالسيارات الى عمان ومكثوا هناك ينتظرون أن يقابلهم الملك الذي رفض ذلك فعادوا من حيث أتوا . غير ان المقاومة حاولت أن تفتح الجبهـــة الاردنية بالامر الواقع . فتوجه عدد من المقاتلين الفلسطينيين الى شرق الاردن وتمكن ثمانون منهم من اجتياز النهر الى الارض المحتلة بينما وقع ١٢٦ مقاتلا في أسر القوات الاردنية .

• • •

ان الخبرة الفلسطينية في الحرب الرابعة هي وليدة سنوات طويلة مـــن النضـــال والتضحيات تكثفت وتفجرت في أكثر من ميدان وشكلت « الجبهة الثالثة » التي كانت عنصرا حاسما في كسب الحرب واختلال ميزان القوى لجانب المصلحة العربية .

قتال المدرعات في الحرب الرابعة

محمود عزمي

في معركة « العلمين » التي جرت في ١٩٤٢ ، كان لدى الجيش البريطاني الثامن بقيادة « مونتجمري » نحو ١٢٢٩ دبابة مقابل نحو ٤٩٦ دبابة المانية وايطالية كانت لدى قوات المحور بقيادة « رومل » . وفي معركة « كورسك » التي جرت في صيف ١٩٤٣ كان لدى الجيوش السوفييتية بقيادة « جوكوف » و« فاسيلفسكي » نحو ٣٦٠٠ دبابة وقانص دبابات مدرع مقابل نحو ٢٧٠٠ دبابة وقانص لدى الجيوش الالمانية بقيادة « فون مانشتاين » و« مودل » ، ومنذ هذه المعارك الشهيرة في الحرب العالمية الثانية لم يشهد التاريخ العسكري مواجهات ضخمة بالمدرعات كتلك التي شهدتها رمال سيناء والضفة الغربية من قناة السويس وهضبة الجولان خلال حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ . فقد كان لدى الجيوش العربية التي اشتركت في القتال نحو ٤٠٠٠ دبابة مقابل نحو ٢٥٠٠ دبابة لدى الجيش الاسرائيلي ، بالاضافة الى مئات القانصات، والمدافع ذاتية الحركة ، وآلاف الجنزرات ونصف الجنزرات والعربات المدرعة ناقلة الجنود التي كانت لدى الطرفين ، وبذلك فاقت حشود المدرعات العربية والاسرائيلية حشود المدرعات السوفييتية والالمانية التي كانت مشتركة في معركة « كورسك » التي اعتبرت أكبر معركة دبابات في التاريخ العسكري السابق لحرب ١٩٧٣ العربية — الاسرائيلية .

وبالاضافة الى ضخامة حجم المدرعات المشتركة في هذه الحرب ، فقد كانت غالبيتها من أحدث ما في ترسانة السلاح السوفييتي والامريكي والبريطاني . ولكن الشيء الذي جعل لاستخدام المدرعات اهميته الخاصة في حرب ١٩٧٣ ، هو استخدام الصواريخ المضادة للدبابات لاول مرة على نطاق واسع وبصورة فعالة من الطرفين .

وبسبب ضخامة عدد المدرعات المشتركة في هذه الحرب ، ونوعيتها المتطورة ، وفاعلية الاسلحة المضادة لها ، اكتسب دور المدرعات فيها أهمية كبرى تستحق الدراسة . وستكون هذه الدراسة في اطار الخطوط العامة لاحداث وتطورات هذه الحرب ، والدروس المستفادة منها ، نظرا لان المعلومات ما زالت غير مكتملة ، خاصة بالنسبة لتفاصيل التشكيلات المشتركة فيها من كلا الطرفين والتفاصيل التكتيكية والعملياتية للتحركات والمعارك التي جرت في الجبهتين الشمالية والجنوبية .

ميزان القوى المدرعة بين الطرفين عشية الحرب :

قدر تقرير معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني عام ٧٣ — ٧٤ عدد ونوعية دبابات الجيش المصري على النحو التالي :

حوالي ١٦٥٠ دبابة متوسطة من طراز « ت — ٥٤ » و « ت — ٥٥ » ، و ١٠٠ دبابة متوسطة من طراز « ت — ٦٢ » ، و ١٠٠ دبابة متوسطة من النوع القديم «ت — ٣٤»، ٧٥ دبابة خفيفة برمائية من طراز « ب ت — ٧٦ » ، ٣٠ دبابة ثقيلة من النوع القديم

« ستالين ــ ٣ » ، اي أن جملة عدد الدبابات المصرية وفقا لهذا التقدير كانت تبلغ ١٩٥٥ دبابة .

وفي تقرير المعهد المذكور عن « التقييم الاستراتيجي ١٩٧٣ » ، الذي صدر مؤخرا متضمنا تحليلا لحرب ١٩٧٣ ، ذكر أن عدد الدبابات المصرية المتوسطة كان ٢٠٠٠ دبابة(٢) .

وبالاضافة الى الدبابات كان هناك نحو ١٥٠ مدفعا مدرعا ذاتي الحركة بعضهـا مضاد للدبابات من طراز « س يو ــ ١٠٠ » والبعض الآخر ميداني من طراز « جي س يو ــ ١٥٢ » ، ونحو ٢٠٠٠ عربة مدرعة لنقل الجنود والاستطلاع ، بعضها مجنزر مثل « ب ت ر ــ ٥٠ ب » وبعضها على عجلات مثل « ب ت ر ٤٠ » و« ب ت ر ٦٠ » و« بـتـر ــ ١٥٢ » و« أو . ت ــ ٦٤ » . كما كان يدعم الوحدات المدرعة والميكانيكية أعداد من المدافع المضادة للطائرات ذاتية الحركة مثل المدفع الرباعي « زد س يو ــ ٢٣ ــ ٤ » عيار ٢٣ مم الذي يعمل بالتوجيه الراداري والمركب على قاعدة دبابة خفيفة « ب ت ــ ٧٦ » ، والمدفع الثنائي « زد س يو ــ ٥٧ ــ ٢ » عيار ٥٧ مم الذي يوجه بصريا والمركب على قاعدة دبابة « ت ــ ٥٤ » . وكانت القوة المدرعة المذكورة موزعة على فرقتين مدرعتين ، ولواءين مدرعين مستقلين ، و٣ فرق مشاة ميكانيكية ، وتتألف الفرق المدرعة المصرية عادة من لواءين مدرعين ، ولواء مشاة ميكانيكية ، والوحدات المعاونة من المدفعية والمهندسين . كما تتكون فرقة المشاة الميكانيكية من لواءين او ثلاثة الوية مشاة ميكانيكية ، ولواء مدرع ، وتوزع بعض وحدات الدبابات (خاصة دبابات الصف الثاني والقانصات المدرعة) على فرق المشاة المحمولة العادية لدعم قوتها الهجومية ودفاعها المضاد للدفاع في حالة الدفاع ؛ ولتكون بمثابة القوة الضاربة ضمن الاحتياطي التكتيكي لهذه الفرق .

وقد اهتمت قيادة الجيش المصري عقب حرب ١٩٦٧ برفع مستوى تدريب قواتها المدرعة على مستوى طواقم الدبابات ومستوى التشكيلات ، فأصبح كل فرد في طاقم الدبابة مدربا على اداء مهام بقية زملائه ، كما ركز على ضرورة استيعاب الضباط لاكبر قدر من فهم ميكانيكا الدبابة ، ومن المعتقد انه جرت مناورات علـى مستوى الفرقة المدرعة والفرقة الميكانيكية في السنوات التي سبقت حـرب ١٩٧٣ ، الا أن سلاح المدرعات المصري كان بطبيعة الحال يفتقد الى الخبرات القتالية الواسعة ، نظرا لان ظروف حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ لم تتح له فرصة حقيقية لممارسة القتال اللازم لبلورة خبرات تكتيكية وعملياتية ذات قيمة ، كما ان حرب الاستنزاف (١٩٦٩ ــ ١٩٧٠) لم توفر له مثل هذه الفرص وانما استخدمت فيها الدبابات والقانصات في الرمي المدفعي المستقيم أحيانا .

أما الجيش السوري فكانت قوته المدرعة تقدر قبل حرب ١٩٧٣ على النحو التالي : حوالي ٩٠٠ دبابة متوسطة من طراز « ت ــ ٥٤ » و « ت ــ ٥٥ » و ٢٤٠ دبابة « ت ــ ٣٤ » و ١٠٠ دبابة خفيفة برمائية « ب ت ــ ٧٦ » ونحو ٣٠ دبابة ثقيلة طراز «ستالين ــ ٣» و ٧٥ قانصا مدرعا « س يو ١٠٠ »، اي ان اجمالي الدبابات السورية كان يقدر بنحو ١٢٧٠ دبابة و٧٥ قانصا مدرعا ، بالاضافة لنحو ١٠٠٠ عربة مدرعة من أنواع « ب ت ر ــ ٥٠ » و « ب ت ر ــ ٦٠ » و « ب ت ر ــ ١٥٢ » .

وقد تبين بعد نشوب القتال انه كانت لدى الجيش السوري كميات كبيرة نسبيا من الدبابات المتوسطة الحديثة « ت ــ ٦٢ » ، قيل انها بلغت نحو ٣٠٠ دبابة ، ولذلك نجد أن تقرير معهد الدراسات الاستراتيجية « التقييم الاستراتيجـي ١٩٧٣ » يقدر قوة

المدرعات السورية التي دخلت الحرب بنحو ١٦٠٠ دبابة متوسطة(٣)، أي ان الكتلة الرئيسية من الدبابات العربية كانت من طراز ت ٥٤ و ٥٥ . وكانت هذه المدرعات موزعة على فرقتين مدرعتين ، ولواء مدرع مستقل ، ولواء ميكانيكي مستقل ، فضلا عن ٣ فرق مشاة (ذكر تقرير التقييم الاستراتيجي بعد ذلك انها كانت ميكانيكية)(٤).

اما اسرائيل فكان لديها ، وفقا لتقرير معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني ، نحو ٨٥٠ دبابة « سنتوريون » و ٤٠٠ دبابة « باتون » و ١٥٠ دبابة « ام ـ ٦٠ » و ٢٠٠ دبابة « سوبر شيرمان » و ١٠٠ دبابة « ت اي ـ ٦٧ » (وهي دبابات ت ٥٤ و ت ٥٥ غنمت خلال حرب ١٩٦٧ من الجبهتين المصرية والسورية وأعيد تسليحها بمدافع بريطانية الطراز عيار ١٠٥ مم التي تسلح بها السنتوريون) ، هذا بالاضافة لنحو ١٢٥ دبابة خفيفة « ام اكس ـ ١٣ » ، ونحو ٣٠٠٠ عربة مدرعة من مختلف الانواع « م ـ ٢ » و « م ـ ٣ » نصف المجنزرة و « م ـ ١٣ » المجنزرة . ونحو ٣٥٠ مدفعا مدرعا ذاتي الحركة من عيارات ١٠٥ مم ، و١٥٥ مم ، و١٧٥ مم ، و٢٠٣ مم(٥).

ولكن معظم التقديرات الاجنبية التي نشرت عقب انتهاء الحرب قدرت الدبابات الاسرائيلية بنحو ٢٠٠٠ دبابة ، وهناك تقدير امريكي حديث نشر في مجلة المدرعات الامريكية يصل بقوة المدرعات الاسرائيلية الى نحو ٢٥٠٠ دبابة ، منها حوالي ١٠٠٠ دبابة « سنتوريون » ، و ٨٠٠ دبابة « باتون » و« م ـ ٦٠ » و ٣٠٠ « سوبر شيرمان»، و ٣٠٠ ـ ٤٠٠ « ت اي ـ ٦٧ » (ت ٥٤ ، ٥٥ معدلة) ، فضلا عن نحو ٥٠٠ مدفع ذاتي الحركة و٣ آلاف عربة مدرعة(٦). ويذهب التقدير المذكور الى أن عدد الالوية المدرعة الاسرائيلية كان ٢٠ لواء ، فضلا عن ١٠ الوية ميكانيكية ، وان هذه الالوية شكلت على الاقل ٨ فرق ذات قوة اكبر من المعتاد . وهذا على خلاف تقدير معهد الدراسات الاستراتيجية السابق لنشوب الحرب الذي كان يقدر عدد الالوية المدرعة الاسرائيلية بعد استدعاء الاحتياطي بعشرة ألوية وعدد ألوية المشاة الميكانيكية بتسعة ألوية .

هذا وتوزع المدرعات الاسرائيلية على ألوية مدرعة مستقلة (بكل لواء كتيبتا دبابات، وكتيبة مشاة ميكانيكية ، وكتيبة مدفعية ذاتية الحركة، ووحدة مدافع مضادة للطائرات، وأخرى مضادة للدبابات مجهزة بصواريخ س س ـ ١١ ، وعربات جيب مجهزة بمدافع ١٠٦ مم عديمة الارتداد ، ووحدة استطلاع ، ووحدة هندسة ، ووحدة اشارة بالاضافة الى وحدات الاخلاء والصيانة) يجري تجميعها داخل مجموعات قتال متفاوتة الحجم وفقا للمهمة القتالية المسندة اليها تعرف باسم Ugdas ولها عادة قوة الفرقة ، وتضم ألوية مدرعة ، وأخرى ميكانيكية ، وكتائب مدرفعية ، وأحيانا ألوية مشاة محمولة .

وتقول الكتابات الاجنبية الغربية بأن الدبابات الاسرائيلية المزودة بمدافع ١٠٥ مم تتمتع بميزة بعد مرمى مدافعها بالقياس لمرمى الدبابات العربية المزودة بمدفع ١٠٠ مم، وانها تستخدم ذخيرة خارقة للدروع من نوع افضل من تلك التي تستخدمها الدبابات العربية (باستثناء دبابات ت ـ ٦٢ التي تتميز طلقتها الخارقة للدروع من نوع APFSDS بأنها ذات قوة اشد في خرق الدروع من مسافة كبيرة وافضل من ذخيرة « السنتوريون » و « الباتون » و« م ـ ٦٠ ») . وان الدبابات الاسرائيلية مزودة بأجهزة تحديد مدى من نوع أفضل لا يعتمد اساسا على التقدير البصري للقائد مثلما هو حال أنواع ت ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٢ (في « الباتون » يوجد مقدر مدى تجسيمي ، وفي « م ـ ٦٠ » مقدرة مدى تطابقية ذات نظارة مفردة ، وفي « السنتوريون » رشاش متطابق المحور مع المدفع يطلق طلقات خطاطة ، ويوجد

في الدبابات ت ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٢ عداد مدى مقرابي « ستاديو متري ») وان هذه الاجهزة الاكثر تطورا تتيح لها قدرة اكبر على سرعة الاصابة من الطلقة الاولى للمدفع ، وخلاصة رأى هذه المصادر ان الدبابات الاسرائيلية كان لديها القدرة الموضوعية على اصابة معظم الدبابات العربية (باستثناء ت ٦٢) من مسافة ابعد وبدقة وسرعة اكبر وذخيرة اكثر قدرة على خرق الدروع . ولا يوجد من الجانب العربي حتى الان رد أو تفسير منشور لهذه المزاعم .

ونحن نعتقد انه حتى لو صحت هذه الاقوال ، فأنها لا تخل كثيرا بميزان القوى بين الطرفين في المدرعات (وان كان هذا لا يقلل من اهمية بعد مدى المدفع وسرعة تحديد المدى والاصابة من الطلقة الاولى ويحتم السعي لتطوير مدافع وأجهزة الدبابات العربية ت ٥٤ ، ٥٥ والتزود بكميات اكبر من الدبابات ت ٦٢) ذلك لانه من النادر في التاريخ العسكري أن كان لدى الطرفين المتجابهين نوعية واحدة متماثلة من التسليح ، أو تحتم انتصار الطرف الذي يملك بعض التفوق النوعي في سلاح او أسلحة معينة . فلقد كانت الدبابات الفرنسية مثلا خلال معركة فرنسا عام ١٩٤٠ تتفوق على معظم الدبابات الالمانية من حيث قوة المدفع ، وبعد مداه ، ومن حيث قوة التدريع ، فضلا عن تفوقها بعض الشيء في العدد ، الا أن الدبابات الالمانية حققت انتصارا ساحقا بفضل كفاءة تكتيكاتها ، وتفوق الخطة الاستراتيجية والعملياتية التي استخدمت وفقا لها . كما كانت الدبابات السوفييتية تفوق عدد الدبابات الالمانية خلال المراحل الاولى من عملية غزو الاتحاد السوفييتي في صيف ١٩٤١ فضلا عن توفر نحو ١٥٠٠ دبابة متفوقة نوعيا بشكل كبير على الدبابات الالمانية (وهي ت ــ ٣٤ و كف ٢) الا أن ذلك لم يمنع الجيوش الالمانية من تحقيق سلسلة انتصاراتها الضخمة الاولى حتى وصلت مشارف موسكو .

وفي صيف عام ١٩٤٣ كان لدى الجيش الالماني في معركة « كورسك » مئات الدبابات من نوعي « النمر » و « الفهد » المتفوقة نوعيا على الدبابات السوفييتية « ت ــ ٣٤ » ورغم ذلك هزمت المدرعات الالمانية في المعركة وخاصة في معركة الدبابات الكبرى التي جرت في « بروخورفكا » بفضل كفاءة التكتيكات الهجومية والدفاعية السوفييتية وشجاعة وتصميم المقاتلين السوفييت ، وصحة خطط القيادة الاستراتيجية .

وكذلك في معارك فرنسا وبلجيكا وهولندا والمانيا عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ كانت الدبابات الالمانية « الفهد » و « النمر » و « مارك ٤ » تفوق دبابات الحلفاء « شيرمان » و « تشرشل » و « كروميل » تسليحا وتدريعا ولكن ذلك لم يحل دون انتصار الحلفاء وهزيمة المدرعات الالمانية . وعلى اي حال فأن معارك المدرعات التصادمية في حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ حققت فيها الصواريخ الموجهة النسبة الكبرى من الاصابات ، اذ تقدر نسبة الدبابات الاسرائيلية المصابة بالصواريخ خلال معارك الحرب المذكورة بنحو ٥٠٪ ، ونسبة الدبابات المصابة في قتال الدبابات ضد الدبابات بنحو ٣٠٪ ، ونسبة الدبابات المصابة نتيجة القصف الجوي والالغام بنحو ٢٠٪ (٨) .

● **تكتيك قتال المدرعات الاسرائيلية** : كان الشيء الرئيسي في صالح سلاح المدرعات الاسرائيلي عشية حرب ١٩٧٣ هو ارتفاع مستوى تدريب اطقم دباباته وتشكيلاته المقاتلة ، واستنادها الى خبرات تكتيكية في العمليات الهجومية ، وخبرات في ادارة العمليات المدرعة على نطاق واسع وما تتضمنه من حل مشكلات القيادة والتموين والصيانة وسرعة الحشد والحركة ، وذلك نتيجة للدروس العملية التي استقاها من حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، فضلا عما زرعته هذه الخبرات والنجاحات السابقة من

شعور بالثقة في نفوس جنود المدرعات سواء في سلاحهم او كفاءة قيادتهم . الا ان هذه الثقة المبالغ فيها وما صحبها من شعور بالاستهانة بقوة الخصم وقدرته القتالية ، ترتب عليها جمود شبه مطلق في تطوير اساليب القتال ، كان لها ضررها البالغ بسلاح المدرعات الاسرائيلية خلال حرب ١٩٧٣ ، خاصة في مراحلها الاولى كما سنرى فيما بعد ، وقد شكلت نتيجة لذلك ظرفا مناسبا لنجاح تكتيكات القتال المضاد للدبابات التي طبقها الجيش المصري خاصة اثر عبور قناة السويس .

فلقد انحصرت خبرات استخدام المدرعات الاسرائيلية في استخدام الدبابات ضمن اطار تكتيك ثنائي « الطائره ــ الدبابة » ، الذي يهدف الى احداث خرق مدرع مكثف خاطف في نقطة ضعيفة في الخط الدفاعي ، مستخدمة تكتيك الاقتحام بالنيران والحركة، (دون دعم مدفعي كبير) تحت حماية ودعم الطائرات التي تقصف مواقع المدفعية والمشاة المعادية قصفا قريبا Clase support يعقبه احتراق في العمق العملياتي يستهدف تطويق مواقع القوات المدافعة ، وقطع خطوط مواصلاتها ، وتدمير مراكزها الادارية والقيادية ، ومن ثم تحطيم معنوياتها واشاعه الاضطراب في قيادتها ودفعها الى الفرار او الاستسلام . وهو التكتيك الذي عرف بالحرب الخاطفة، وقد شهد انجح تطبيق له خلال حرب ١٩٦٧ وكانت القيادة الاسرائيلية تطبق هذا التكتيك خلال حرب ١٩٥٦ والمرحلة الاولى من حرب ١٩٦٧ بشيء من الحذر ، يتمثل في حرصها على ملازمة المشاة الميكانيكية (واحيانا المشاة العادية) للدبابات في هجماتها ، ومحاولة توفير اكبر قدر ممكن من دعم المدفعية ، وذلك كما توضح معارك « ابو عجيلة » و « رفح » على الجبهة المصرية عام ١٩٥٦ ، والمراحل الاولى من حرب ١٩٦٧ . الا ان هذا الحذر سرعان ما تلاشى في المراحل التالية من حرب ١٩٦٧ ، واصبحت الدبابات الاسرائيلية تقاتل شبه منفردة بريا ، على اساس انها تتلقى من الطيران دعما مباشرا كلما واجهتها بعض المشاكل في التقدم السريع في العمق العملياتي ، مما أدى الى انحراف خطير في تطبيق تكتيكات حرب الحركة السريعة الحقيقية التي تعتمد في الاساس على تعاون وثيق بين الدبابات والمدفعية والمشاة المحمولة او الميكانيكية والطيران ، اما دفع الدبابات بمفردها كي تقوم بمهام الجيش الميكانيكي المتكامل (أي تقوم بمهام المشاة الميكانيكية والمدفعية ذاتية الحركة) فهو استخدام للدبابات في دور الفرسان الخفيفة التي كانت تطارد عدوا مهزوما في الحروب القديمة ، وهو دور لا تنجح فيه الا ضمن ظروف استراتيجية ملائمة للغاية ، ابرزها تحقق السيادة الجوية المطلقة وانهيار مقاومة الخصم وعدم رغبته او قدرته على المقاومة المنظمة وقد أدت زهوة النصر الخاطف في ١٩٦٧ بالقيادة الاسرائيلية الى تعميم تكتيك استخدام الدبابات كفرسان خفيفة ، واعتباره اساس اسلوبها في حرب الحركة السريعة الذي تنتهجه والذي يلائمها استراتيجيا ، متناسية الخصوصية الشديدة التي جرت فيها معارك ١٩٦٧ وخطأ اعتبارها مصدرا موضوعيا لاستنباط قوانين ثابتة للحرب الميكانيكية .

وقد كتب باحث عسكري بريطاني في شؤون المدرعات في كتاب اصدره عام ١٩٧٠ عن تطور الدبابة كسلاح منتقد الاتجاه الذي يعتبر استخدام الدبابات الاسرائيلية خلال حرب ١٩٦٧ دليل على صحة هذا الاسلوب : « ان اسلوب استخدام الدبابات كفرسان وجد له منطلقا وحيدا نحو المجد مؤخرا ، وذلك عندما قامت القوات الاسرائيلية المدرعة تحت قيادة الجنرال « اسرائيل تال » في ١٩٦٧ ... بزحف على طريقة « غوديريان » داخل صحراء سيناء ، ممزقة ومحطمة قوات كبيرة من الدبابات المصرية ... ان هذه الحملة التي تبدو للمراقب احيانا وكأنها تنتقل في آلة الزمن لربع قرن مضى ... قد تم كسبها بواسطة اناس منظمين جيدا ومهرة تقنيا ، في مواجهة جيش

مسلح جيدا ولكنه يقاد بطريقة سيئة وليس لديه الاساس التثقيفي او الاجتماعي اللازم لخوض حرب تعتمد على الآلة »(٩). وكان لا بد لعقيدة القتال المدرع الاسرائيلية ان تخوض غمار تجربة حرب « يوم الغفران » لتتبين اخطاءها الناتجة عن التعميم المطلق لخبرات ذات طبيعة مؤقتة وشديدة الخصوصية ، الامر الذي اشار اليه ضمنا « زئيف شيف » فيما بعد حين قال في مقاله المسمى « المفاجأة على الصعيد التكنيكي والتقني في حرب يوم الغفران » « اعتقدنا ان الدبابة تصعق دائما سلاح المشاة الذي يواجهها ، واذا بنا نفاجأ بالمصريين يجرؤون على الانقضاض على الدبابات ... ويبدو لي ان احدى عبر حرب يوم الغفران ، هي انه في حرب المدرعات ، لا يوجد دائما وضع مثالي تحارب فيه دبابات ضد دبابات . لقد ذكرنا المصريون بحقيقة قديمة ، وهي انه لا يمكن ان يكون هناك سلاح مدرع دون سلاح مشاة مدرع . لقد فكرنا بمفاهيم حرب الايام الستة ، اي ان الدبابة قادرة على كل شيء ، وتستطيع ان تتدبر امرها حتى دون مساعدة المدفعية »(١٠).

والواقع أن عقيدة القتال المدرع الاسرائيلية قد تجاهلت اسس نظرية استخدام الدبابات في حرب الحركة السريعة التي طبقها القادة الالمان في الحرب العالمية الثانية ، فقد كتب « غوديريان » مثلا ان « كفاءة الدبابات تزداد بزيادة قدرة المشاة والمدفعية وغيرهما من وحدات الفرقة على متابعتها في اي تقدم عبر الاراضي »(١١). وكانت تطبيقات « رومل » الناجحة في حرب الصحراء خلال عامي ١٩٤١ ، ١٩٤٢ قائمة في الاساس على التعاون الوثيق بين الدبابات والمدفعية الميدانية والمضادة للدبابات والمشاة الميكانيكية والطيران ، على حين ان فشل الجيش البريطاني الثامن في هجوم معركة « الكروسيدر » في نهاية عام ١٩٤١ كان راجعا في احد اسبابه الى دفع الوية الدبابات في هجمات بالعمق العملياتي دون ان تساندها مدفعية ومشاة محمولة .

حرب المدرعات على الجبهة المصرية : استخدمت القيادة المصرية في بداية اقتحامها لقناة السويس وخط بارليف قوات من خمس فرق مشاة عبر منها في الموجة الاولى للهجوم التي جرت في الساعة الثانية والثلث من بعد ظهر يوم ٧٣/١٠/٦ نحو ٨٠٠٠ جندي ، استخدموا حوالي ١٠٠٠ قارب اقتحام مطاط تحت حماية نيران نحو ٢٠٠٠ مدفع وهاون ، بالاضافة الى لواء صواريخ تكتيكية ارض — ارض من طراز « فروغ — ٧ » وبعد تمهيد ضربة جوية مركزة قامت بها ٢٠٠ طائرة ضد مطارات العدو الامامية ومواقع مدفعيته بعيدة المدى ومراكز اتصالاته وقياداته ومحطات الرادار وبطاريات صواريخ هوك المضادة للطائرات ، فضلا عن قصف جميع حصون « خط بارليف » شرقي « بور فؤاد » في مواجهة بور سعيد . وتحت هذه الحماية النارية انطلقت جماعات المغاوير (الصاعقة) ومفارز اقتناص الدبابات لتبث الالغام في مصاطب الدبابات المقامة على الجسر الترابي الموازي للقناة وتقيم لها الكمائن لتشل حركتها ، وتؤمن عملية الاقتحام الجارية بواسطة قوات المشاة ، كما تركزت جماعات اخرى على مصاطب مقامة على الضفة الغربية للقناة مسلحة بالصواريخ « سنابر » و « ساغر » لتصطاد الدبابات الاسرائيلية عند اقترابها على الضفة الاخرى لتهاجم رؤوس الجسور الاولية .

وفي الوقت نفسه عبرت كتائب من المشاة الميكانيكية البرمائية تدعمها سرايا الدبابات البرمائية « بت — ٧٦ » عبر جنوب البحيرات المرة وعند بحيرة التمساح قرب الاسماعيلية (١٢)، وذلك نظرا لعدم وجود الحاجز الترابي الضخم على شواطىء البحيرات التي تمر في وسطها قناة السويس . وكان لا بد من قيام سلاح المهندسين بفتح ثغرات في الحاجز الترابي المقام على امتداد القناة بواسطة « مدافع المياه »

(مضخات مياه قوية) حتي يمكن مد جسور عائمة تعبر عليهــا الآليات والمصفحــات والدبابات الى الضفة الشرقية لتعزز رؤوس الجسور التي احتلتهــا المشاة خــلال موجات العبور الاثنى عشر التي تمت بالقوارب المطاطية وغيرها من وسائل العبــور الاخرى في الست ساعات الاولى من بدء الهجوم .

ولهذا تأخر عبور الدبابات المصرية التابعة لفرق المشاة عدة ساعــات الى ان تم انشاء ١٠ جسور عبر القناة (فضلا عن ١٠ جسور اخرى للمشاة) خلال الليل وتــم تشغيل نحو ٥٠ طوفا (معدية) كانت تنقل الدبابات والاليات الاخرى في النقاط التي لم تقم فيها جسور ، وقبل بزوغ فجر اليوم التالي كانت الدبابات قد بدأت تتدفق علــى الضفة الشرقية لتدعم رؤوس الجسور التي تحميها المشاة باسلحتها الخفيفة المضادة للدروع (آر بي جي ٧ وصواريخ ساغر)(١٣) . وخلال هذه الليلة (٦/٧ تشرين الاول) قامت سرية من المشاة الميكانيكية البرمائية (مستخدمة على الاغلب مجنزرات « بت ـــ ٥٠ ب ») ومعها بعض الدبابات الخفيفة البرمائية بالتقدم نحو ممر متــلا ، حيث هاجمت مركز قيادة القطاع الجنوبي في الساعة ١٠ر٨ من صباح اليوم التالي ، وهاجمت في الساعة ٥٠ر١ بعد الظهر محطة رادار في المنطقة نفسها ثم عادت الى القوات الرئيسية في رؤوس الجسور قرب القناة . كما قامت سرية اخرى مماثلة بمهاجمة بعض المواقع الاسرائيلية الصغيرة قرب ممر الجدى دون ان تتورط معها في معركة طويلة ، ومضت متسللة نحو مطار « بيرتمادا » الواقع الى الشرق من ممر الجدي وهاجمته في اغــارة فدائية سريعة في الساعة ١٠ر١٠ من صباح يوم ٨/١٠ ، ثم عادت الى رؤوس الجسور بعد ان هاجمت موقع رادار للعدو في طريق عودتها . وكانت هذه الاغارة المدرعــة الخفيفة التي وصلت الى عمق ٨٠ كلم تقريبا داخل سيناء ، والاغارة الاخرى التي تمت عند ممر متلا العمليتين الوحيدتين للمدرعات المصرية في العمق العملياتي للعدو خلال الحرب . ذلك لان حشود الدبابات والعربات المدرعة (قدرت بنحو ٥٠٠ دبابــة في اليوم الاول وكانت تابعة لفرق المشاة والالوية المدرعة المستقلة) التي عبرت القنــاة طوال الفترة من ٧ الى ١٣/١٠/٧٣ عملت على تعزيز رؤوس الجسور وربطها ببعض على طول القناة والمشاركة في صد هجمات المدرعــات الاسرائيلية مــن وراء حــاجز الصواريخ والاسلحة المضادة للدبابات الذي كانت تقيمه المشاة المصرية في النســق الدفاعي الاول ، ولم تدخل في معــارك تصادمية خلال هــذه الفترة مــع المدرعــات الاسرائيلية او تحاول الزحف في العمق داخل سيناء لتطوير الهجوم بعيدا عــن رأس الجسور البالغ عمقه ١٠ ـــ ١٢ كلم ، وذلك وفقا للاستراتيجيــة العسكريــة العامة الموضوعة في اطار الاستراتيجية العليا للحرب . وبقيت الفرقتان ٤ ، ٢١ المدرعتان في الضفة الغربية للقناة كاحتياطي استراتيجي لمواجهة احتمالات حدوث عمليات ابــرار جوي معادية على نطاق واسع في مؤخرة القوات المصريــة ، أو اي تطــورات غــير متوقعة اخرى ، وذلك حتى يوم ١١/١٠/٧٣ ، وتقدر المراجع الاجنبية هذه القــوات المدرعة الاحتياطية بنحو ٥٠٠ دبابة ، كان معظمها محتشدا في قطاع الجيش الثالــث على الضفة الغربية للقناة(١٤) .

ونظرا لاشتداد ضغط الهجوم المضاد الاسرائيلي على الجبهة السورية ، قــررت القيادة المصرية القيام بعملية هجومية محدودة نسبيا تنفذها القوات المدرعة الميكانيكية بهدف تخفيف الضغط على الجبهة السورية وتعميق شريط الارض المحررة على الضفة الشرقية الى عمق ٣٠ كلم تقريبا حتى المداخل الغربية للممرات ، وبذلك يتم الاستيلاء على الطريق العرضي الموازي للقناة ، الذي كانت القوات الاسرائيلية قد انشأته قبل الحرب لتسهيل مهام تموين حاميات خط بارليف ، والذي كان « يوفر للعدو حرية الحركة

والعمل ضد رؤوس الجسور »(١٥). وقد احاط بقرار القيادة المصرية بالقيام بهذا الهجوم عدة مخاطر من وجهة نظرها كان اهمها « خروج القوات من ستر غطاء صواريخ الدفاع الجوي المتمركزة غرب القناة ، وتعرضها بالتالي لضربات العدو الجوية ، التي لوحظ ازدياد شدتها وكثافتها ابتداء من ١٠ اكتوبر (تشرين الاول) ، بفضل وصول الدعم الامريكي لاسرائيل . كما كانت ضرورة التمسك برؤوس الجسور على الضفة الشرقية لقناة السويس ، وعدم اضعاف القوات الرئيسية الموجودة هناك او في غرب القناة تشكل ضرورة ملحة لانها الضمان الاكيد لعدم فقد القوات المسلحة اتزانها الاستراتيجي او التعبوي في هذه المرحلة الحرجة من المعركة الضارية. ولذلك نصت التوجيهات الصادرة على استخدام مفارز صغيرة الحجم نسبيا ، ولكنها ذات قوة نيران كبيرة ، على ان تكون من خارج التكوين الاصلي لفرق المشاة الخمس التي كان عليها ان تستمر في التمسك برؤوس الجسور »(١٦).

وبدأ الهجوم في الساعة ١٥ر٦ صباح يوم ٧٣/١٠/١٤ برمي تمهيدي مدفعي لمدة ١٥ دقيقة من ٥٠٠ مدفع وقاذف صواريخ كاتيوشا على اربعة محاور تقدم وتقدمت اثر ذلك على محور ممر متلا في الجنوب قوة مكونة من لواء مدرع وكتيبة مشاة ميكانيكية ، وفي اتجاه ممر الجدي تقدم لواء مشاة ميكانيكي ، وعلى المحور الاوسط تقدم لواءان مدرعان ، وعلى المحور الشمالي تقدم لواء مدرع(١٧). أي أن اجمالي القوة المهاجمة بلغ ٤ الوية مدرعة و ٤ كتائب مشاة ميكانيكية .

وهذا يعني ان غالبية القوة المدرعة المصرية المستقلة عن فرق المشاة الميكانيكية والمحمولة ، والتي تضم فرقتين ولواءين مدرعين ، قد نقلت الى الضفة الشرقية للقناة فيما بين يومي ١١ و١٩٧٣/١٠/١٣ ، اي ان الاحتياطي الاستراتيجي المدرع ضعف كثيرا .

وقد واجهت الهجمات المدرعة والميكانيكية المصرية مقاومة شديدة من الاسلحة المضادة للدبابات التي كانت في انتظارها ، بعد ان طالت الوقفة التعبوية المصرية ، واستخدمت القوات الاسرائيلية المدافعة خلال هذه المعارك صواريخ « تاو » الامريكية الجديدة لاول مرة من مناصب ارضية ومن طائرات هليكوبتر فضلا عن نيران مدافع الدبابات ونيران الدعم الجوي القريب ، على حين كانت المدفعية الاسرائيلية بعيدة المدى توجه نيرانها نحو مواقع بطاريات صواريخ « سام » المضادة للطائرات لتحييدها قدر الامكان اثناء مهاجمة الطائرات الاسرائيلية للمدرعات المهاجمة .

ويبدو أن الدبابات المصرية تكبدت خسائر شديدة خلال هجمات ذلك اليوم ، اذ ان القيادة المصرية اصدرت اوامرها « بعودة المفارز لاعادة تنظيمها وتقويتها ، مع تعديل اوضاع بعض القوات وتدعيمها استعدادا لصد وتدمير الهجمات والضربات المضادة القوية المدرعة التي توقعت القيادة المصرية ان يبدأ العدو شنها خلال يوم ١٥ اكتوبر (تشرين الاول) »(١٨). ويصف تقرير « التقييم الاستراتيجي » البريطاني معارك هذا اليوم فيقول « وفي هذه المعارك التي اشتركت فيها مئات الدبابات تحملت اسرائيل هي الاخرى خسائر فادحة ، ولكن طائراتها بعد ان اصبحت بعيدة عن متناول ضربات صواريخ سام ، اخذت تهاجم الحد الامامي من ساحة القتال بفاعلية كبيرة » (١٩).

وفي صباح اليوم التالي استأنفت القوات المصرية هجماتها بعد هجمات جوية حاولت تدمير مواقع الصواريخ المضادة للدبابات ، الا ان نتائج الهجمات الجديدة كانت سلبية. وهكذا انتهت المرحلة الهجومية من عمليات المدرعات المصرية وبدأت مرحلة الدفاع .

أما المدرعات الاسرائيلية فيمكن تلخيص دورها وعملياتها خلال هذه المرحلة كالاتي :

منذ الساعات الاولى للقتال حاولــت الدبابات الاسرائيلية ، المرابطــة في مواقــع محفورة تبعد مسافة ٥ الى ٨ كلم من خط بارليف ، التقدم في محاولات لصد وحـدات المشاة المصرية التي عبرت القناه واخذت تهاجم حصون بارليف بعد ان احاطت بهـا من كل جانب ، ثم في محاولات اخرى لانقاذ من بقي حيا من جنود هذه الحصون، ولكنها في كل مرة كانت نتعرض لكمائن « الار بي جي — ٧ » المتمركزه على الضفة الشرقيـة وصليات صواريخ « ساغر » من الضفه الغربية للقناة . وتكبدت نتيجة لذلك خسائـر فادحة اشار اليها مؤلفو كتاب « التقصير » في عديد من المواضع حيث قالوا « ان نحو مائة دبابة كانت تخوض قتالا فعليا على امتداد الخط الامامي ، في محاولات يائسة لانقاذ المحاصرين في التحصينات . واتضح للقيادة في وقت لاحق ان ثمن محاولات الانقاذ هذه باهظ جدا . فقد خلف الجيش الاسرائيلي عندما حاول اختراق طوق الحصار المضروب على أحد التحصينات ، نحو ٤٠ دبابه وناقلة جنود مصفحه ، كما اصيبت قوة أكبر في محاولة انقاذ نحو ٢٠ مقاتلا محاصرين »(١٠). ويقول الكاتب الامريكي «كنث برور» انه في « نهاية بعد ظهر يوم ٧ اكتوبر ، لم يكن لدى اسرائيل سوى ٩٠ دبابة عاملة من اصل ٢٥٠ دبابة كانت لديها ، وهذه الدبابات كانت هي الاخرى مصابة بشدة ، وأطقمها من الرجال المتعبين . وكان امام مصر خياران . أما ان تقـوم باندفاع سريـع لتحطـم السيطرة الاسرائيلية على ممرات سيناء الاربعة الحيوية التي تبعد ٢٠ ميلا عن القناة ، أو أن تقف مكانها وتعزز رأس جسرها . وقد اختارت الحل الاخير ، الذي يعد اقترابا اكثر حذرا »(٢١).

ثم بدأت تشكيلات الاحتياطي المدرع تصل الى سيناء ، وقد تعرض بعضها لكمائـن وحدات الصاعقة التي نقلتها طائرات الهليكوبتر الى عمق سيناء عند الممرات في ليلـة ٦/٧ وتكبدت بعض الخسائر نتيجة قذائف « الآر بي جي ٧ » ، وفي صباح يوم الاثنين ٨/١٠/٧٣ تلقت هذه التشكيلات امرا من القيادة الجنوبية بالقيام بهجوم مضاد بهدف « السيطرة على الجسور العائمة التي اقامها المصريون ونقل قوات اسرائيلية مدرعـة عليها الى الضفة الغربية »(٢٢) ويعلق مؤلفو « التقصير » على هذا الهجـوم قائلـين « وارسلت الدبابات . . . ودون معرفة العدو ، للهجوم كمن « يناطح الحائط » . ويبدو أن القيادة قدرت ان هذا بمثابة « اليوم السابع من حرب الايام الستة » . فقد اشترك الكثير من القادة في حرب الايام الستة ، واعتقدوا انه « تكفي خبطة على صفيحة لتطير العصافير مذعورة » . وعلى الرغم من أن اول يومين ، كانا مريرين وتم فيهما سحـق قوات كبيرة ، فانهما لم يكونا كافيين ، كما يبدو ، للتوضيح بأن هذه الحـرب تختلـف كليا . وقد اصطدمت الدبابات المهاجمة بفرق المشاة المسلحـة بالصواريـخ ، والى جانبها الدبابات وناقلات الجنود المصفحة بكثرة ، تساعدها المدفعية من كافة الانواع ، والتي لم تتوقف عن القصف طوال ساعات اليوم . وقد وجد الرجال انفسهم يهاجمون كتائب عصريـة . تمركز المصريـون كتـلا كتـلا حيث كان جنودهم مـزودين بالصواريخ تحميهم وحدات من الرشاشات والدبابات »(٢٣).

وقد توغلت احدى الوحدات المدرعة الاسرائيلية حتى وصلـت الى قـرب القنـاة واحترقت ٨ دبابات منها فوق المصاطب الترابية على الضفة الشرقية التي كانت معدة من قبل كي ترمي الدبابات من فوقها القوات المصرية على الضفة الغربية ، « وتلقت عشرات الدبابات قذائف صواريخ « ساغر » وبدأت تشتعل وهي تنسحب . ولوحظت دلائل واضحة على انهيار الهجوم المضاد . فقد انسحبت دبابات ، بصورة غير نظامية، ونفذت الذخيرة . . . وكانت المنطقة كلها مغطاة بقذائف المدفعية والكاتيوشا والهاونات . . . واستمر « قنص المشاة المصريين للدبابات بصواريخ « ساغر » »(٢٤).

وفي الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء ٧٣/١٠/٩ قام اللواء ١٩٠ المدرع الاسرائيلي بهجوم على مواقع الفرقة الثانية المشاه بقيادة العميد « حسن أبو سعده » التابعة للجيش الثاني على المحور الاوسط (كان الجيش الثاني يضم ٣ فرق مشاة ويعمل في القطاع الاوسط الواقع بين شمال البحيرات المرة عند « الدفرسوار » حتى القنطرة شمالا وهي من الجنوب الى الشمال الفرق ١٦ ، ٢ ، ١٨) وقد وقع اللواء المدرع المذكور في كمين ضخم من جنود المشاة المخندقين في حفر صغيرة اطلقوا منها قذائف « الآر بي جي ٧ » وصواريخ « ساغر » من مسافات قريبة على الدبابات الاسرائيلية المتقدمة بأقصى سرعة (دون تمهيد من المدفعية) ، وترتب على ذلك « تدمير ٨٣ دبابة في ٣ دقائق »(٢٥) ! وهو انجاز عسكري في الدفاع المضاد للدبابات لم يسبق له مثيل في التاريخ العسكري كله .

كما صد الجيش الثالث (الذي كان يضم وقتئذ فرقتي المشاة ١٧ ، ١٩ ويعمل في القطاع الممتد من جنوب البحيرات المرة حتى السويس) هجمات مضادة اخرى شنتها قوة مؤلفة من لواء مدرع وكتيبتي دبابات ، وكبدتها خسائر فادحة . « وادركت القيادة العسكرية العليا للجيش الاسرائيلي بأن الهجمات المضادة ستبقى تسبب سحق الدبابات الاسرائيلية فقط . دون ان تؤدي الى النتائج المرجوة ، وعندئذ اعطيت الاوامر بالتمركز في منطقة تبعد ١٠ — ١٥ كلم عن القناة »(٢٦) .

وازاء الحاح الجنرال « شارون » بضرورة الاسراع في هجوم مضاد اخر اعطيت اوامر بالقيام بهجمات محلية صغيرة مع البقاء في المكان نفسه والتحرك يمينا ويسارا ، وفي تلك المعارك الصغيرة اشتبكت مرارا ٥٠ دبابة و ١٠٠ دبابة احيانا مع اعداد مقابلة من الدبابات المصرية « ودارت المعارك احيانا ضمن مدى احتكاك فوهات المدافع . لقد بقيت في ارض المعركة دبابات محروقة من كلا الطرفين ، على بعد — ١٠ — ٥٠ مترا » ... « وكانت هذه الحرب الاولى التي تراجعت فيها الدبابات الاسرائيلية الى الوراء ، وبقيت دبابات في ارض العدو ، وفي داخلها قتلى وجرحى ، دون أن يكون في الامكان انقاذهم ، واصيبت اخرى بالصواريخ واشتعلت ، وقتل افراد الطاقم الذين قفزوا من داخلها أو وقعوا في أيدي المشاة المصريين المهاجمين »(٢٧) .

وهكذا أدى تطبيق تكتيك « الفرسان الخفيفة » الذي تعودت عليه المدرعات الاسرائيلية الى فشل ذريع في سلسلة الهجمات المعاكسة الاولى نتج عنه تدمير واصابة نحو ٤٠٠ دبابة خلال الاربعة ايام الاولى من القتال ، ولكن الاستراتيجية العسكرية المصرية ، المقيدة باعتبارات الخطة العامة الموضوعة مسبقا ، لم تستثمر هذه النجاحات التكتيكية الضخمة ، ولم تطور هجوم مدرعاتها بسرعة لتصفية بقايا الالوية المدرعة الاسرائيلية المنهكة ، وآثرت التريث لتعزيز رؤوس الجسور وربطها ببعضها .

الهجوم الاسرائيلي المضاد : ونتيجة للموقف المصري امكن للقيادة الاسرائيلية ان تحشد مزيدا من قوات الاحتياطي وتعيد تنظيم وتسليح الالوية التي أصيبت بخسائر فادحة بحيث أصبح لديها يوم ١٠/١٥ نحو ٦ الوية مدرعة ، ولواءان ميكانيكيان ، ولواء مشاة ، وبعض الكتائب المستقلة من الدبابات والمشاة والمدفعية ، وساعدها على ذلك بدء وصول الاسلحة الامريكية الجديدة بواسطة طائرات النقل الضخمة التي كانت بعضها تفرغ حمولتها في مطار العريش مباشرة . ولذلك واجه الهجوم المصري الذي جرى يوم ١٠/١٤ قوات قوية متأهبة لصده والانتقال مباشرة الى مرحلة الهجوم المضاد ، ولما كانت الخبرة الجديدة قد اثبتت ان « كلا من الطرفين غير قادر على اختراق الدفاعات المنظمة بواسطة الدبابات، حتى لو استخدمت اعداد ضخمة للغاية منها »(٢٨) فقد عمدت القيادة الاسرائيلية الى محاولة تطبيق استراتيجيتها المفضلة في « الاقتراب

غير المباشر » بعد أن قاتلت في الايام الاولى معارك جبهية مباشرة ، واستفادت من وجود ثغره واسعة بين الجيشين الثاني والثالث على امتداد الضفة الشرقية للبحيرات المرة غير الصالحة لعبور قوات كبيرة ، ومن امتداد المواقع الدفاعية المصرية مسافات كبيرة من الشمال الى الجنوب على الضفه الشرقية للقناة (البالغ طولها نحو ١٧٥ كلم ، منها ١٠ كلم في الشمال لا تصلح للقتال لوجود سبخات واسعة تستحيل معها حركة الآليات) بصورة لا يتوفر لها فيه عمق كاف يسهل حركة القوات المدرعة والميكانيكية ومناورتها ، كما انها لا ترتكز على مرتفعات أو موانع طبيعية مساعدة ، الامر الذي أتاح للقيادة الاسرائيلية حرية الحركة والمناورة واختيار نقاط تركيز قوتها الضاربة بمرونة ، خاصة وان الطريق الموازي للقناة وشبكة الطرق المكملة له كانت تسهل لها ذلك .

واعدت خطة عملياتها التي أطلق عليها اسم « الغزالة » واستهدفت النفاذ من هذه الثغرة وعبور القناة شمال البحيرات المرة مباشرة في مواجهة « الدفرسوار » ، من خلال حركة التفاف حول جناح الجيش الثاني الايمن ، بعد تثبيت قواته على المحور الاوسط بهجوم مخادع من اتجاه الطاسة نحو الاسماعيلية ، ودفع قوة أخرى تهاجم الجناح الايمن بالمواجهة لتشق طريقها نحو القوة الملتفة حوله ومن ثم تدعم رأس الجسر على الضفة الغربية للقناة وتقيم جسورا عائمة تعبر عليها المدرعات بحشود قوية . وكان هدف القوة التي ستعبر القناة في بداية العملية (أي قبل استكمال فتح محور التقدم نحو نقطة العبور خلال الجناح الايمن للفرقة ١٦ المشاة المصرية) هو تدمير اكبر عدد ممكن من بطاريات الصواريخ « سام » على الضفة الغربية للقنـــاة لفتح ممر تنفذ منـــه الطائرات الاسرائيلية .

وقد عهدت القيادة الجنوبية لمجموعة « شارون » القتالية القيام بفتح هذه الثغرة واقامة رأس الجسر على الضفة الغربية ، ثم تعبر من خلالهـــا مجموعة « بيرن » المدرعة لتزحف جنوبا نحو السويس لتطويق الجيش الثالث شرقي القناة .

وكانت فرقة « شارون » مؤلفة من ٣ ألوية مدرعة ، ولواء مشاة ميكانيكي يضم قوة كبيرة من المظليين ، بالاضافة الى وحدة خاصة من المهندسين لديهـــا معديات آليـــة ومعدات لبناء جسور عائمة وبولدوزرات قوية لازالة الاتربة(٢٩).

وبدأ تنفيذ العملية بهجوم احد الالوية المدرعة من منطقة تجمعه قرب « الطاسة » على المحور الاوسط تجاه « الاسماعيلية » لمشاغلة الفرقة ٢١ المدرعة المصرية ، وذلك عند غروب شمس يوم ١٠/١٥ ، وبعد الغروب قام اللواء المدرع الثاني ومعه لواء المشاة الى الجنوب الى الثغرة الواقعة بين الجيشين الثاني والثالث والبالغ عرضها نحو ٣٠ كلم حتى وصل الى المدخل الجنوبي للبحيرات المرة تقريبا ثم اتجه شمالا حتى نهاية البحيرات والتقائها بالقناة ، وهناك انقسمت القوة الاسرائيلية الى ثلاثة اقسام ، قسم اتجه شمالا لمنع تدخل القوات المصرية الموجودة عند الاسماعيليـــة ضد رأس الجسر ، وقسم اتجه شرقا نحو مؤخرة الجناح الايمن للفرقة ١٦ المشاة (وكـــانت بقيادة العميد عبد رب النبي حافظ) المؤلفة من لواء مشاة واحد كان يتعرض في الوقت نفســه لهجوم اللواء المدرع الثالث الزاحف غربا ، وقســـم ثالث (صحبه « شارون » نفسه) اتجه غربا الى القناة حيث عبر جزءا صغيرا منه الى الضفة الغربية (عبر نقطة ضعيفة في الحاجز الترابي كان « شارون » قد حددها بعلامات معينة من الحجارة اثناء توليه القيادة الجنوبية) وكان هذا الجزء الطليعي مؤلفا من نحو سرية مظليين تستخدم ١٠ مجنزرات « م ١١٣ » (لها قدرات برمائية) وسرية دبابات برمائية تضم ٧ دبابات « ب ت ٧٦ »(٣٠) (كانت قد غنمت عام ١٩٦٧) وتم العبور حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وبعد أن أطلقت المدفعية الاسرائيلية خلال الساعتين السابقتين نحو

٧٠ طنا من القذائف على المنطقة المحددة للعبور ، والتي تبعد نحو ٢٠٠ متر شمالي النقطة التي يتصل فيها مجرى قناة السويس بالبحيرات المرة ، ولم تواجه القوة العابرة التي استخدمت قوارب مطاط في البداية ، قوات مصرية على ضفة القناة الغربية ، ولذلك تسللت الى داخل الحقول وأشجار البرتقال الموجودة هناك ، بعد أن أزالت بعض الالغام المقامة قرب الحاجز الترابي المقام على مقربة من القناة ، وتخندقت بسرعة هناك لتحتمي من قذائف القصف المدفعي والجوي المصري المتوقع ، وفي الوقت نفسه كانت البولدوزرات المجهزة بجرافات تعمل لازالة الاتربة على الضفة الشرقيــة تمهيدا لمد الجسر العائم ، ثم اخذت المعديات تنقل الدبابات في فجــر يوم ١٠/١٦ الى الضفة الغربية حيث تسرع بالاختفاء بين الاشجار . وفي الوقت نفسه كان هجوم اللواء المدرع الآخر الموجه ضد الجناح الايمن للفرقة ١٦ المشاة يصادف مقاومة عنيفة للغاية تحول دون فتح محور التقدم المؤدي الى نقطة العبور « وقد استمرت المعركة في هذا القطاع ، حول المواقع المصرية التي كانت تسيطر على المحاور ، ثلاثة أيــام متتالية . وكانت اصعب المعارك بصورة خاصة تلك التي جرت حول الموقع الذي عرف باسم « المزرعة الصينية » ... وقد دارت في وقت ما وفي مراحل معينة من القتال ، معارك دبابات داخله ، حيث وقفت الدبابات على مسافة ١٠ أمتار من بعضها بعضا ... وقد تراجعت القوة المدرعة التي انقضت على « المزرعة الصينية » وهي تتكبد خسائر فادحة »(٢١) .

ومنذ صباح يوم ١٠/١٦ أخذت المدفعية المصريــة تقصف مكــان رأس الجسر الاسرائيلي والمحاور المؤدية اليه بمئات الاطنان من القذائف ، وفي هذه الاثناء اخذت الدبابات الاسرائيلية الموجودة في الضفة الغربية تهاجم بمجموعات صغيرة ، وبأسلوب مشابه لاسلوب حرب لعصابات في الضرب السريع والهرب ، بطاريات صواريخ سام ٢ ، ٣ مدمرة بعضها ومجبرة جنود بعضها الآخر على الانسحاب منها بعد نسفها . وبعد ٤٨ ساعة من القتال عند « المزرعة الصينية » أحضرت قوة من مشاة المظليين لتحاول احتلال المواقع الدفاعية المصرية الموجودة بها التي توجد بها سريتان من المشاة مزودتين بالصواريخ وفصيلتين من الدبابات و١٠ رشاشات « غورينوف » ، ولكــن « النيران اجبرت المظليين على التزام الارض ولم تمكنهم من الانقضاض ، أو حتى من التراجع ... وبعد بزوغ الفجر كان من الواضح انه ينبغي ارسال قوة مدرعة بصورة عاجلة ، لانقاذ قوة المظليين المصابة والمضروبة ... وبدأت القوة المدرعة تنقض على المواقع المصرية ، وهي تتكبد الخسائر من النيران المضادة للدبابات ... واستطاعت القوات المدرعة الاضافية التي دفعت الى المزرعة الصينية ، بعد معركة دامية ، تطهير الموقع ، الذي أصبح واديا رهيبا لقتل البشر وافناء الآليات »(٢٢) وهكذا فتحت محاور التقدم يوم ١٠/١٩ بعد أن أمكن دفع لواء المشاة المصري نحو ١٠ كلم الى الشمال ، وتم بذلك تأمين جناحي الثغرة على الضفة الشرقية ، خاصة بعــد أن صدت بعض هجمات الجيش الثالث من الجنوب ، وأمكن لفرقة « ابراهام ادن » (بيرن) المؤلفة من ٣ الوية مدرعة لديها نحو ٣٠٠ دبابة أن تعبر القناة الى الضفة المذكورة ، تحت حماية الطائرات الاسرائيلية التي امتلكت أخيرا حرية الحركة ، وتوسع رأس الجسر شمالا وجنوبا وغربا ، وفشلت محاولات المدفعية والطيران المصريين في تصفيتها رغم عنفها (نظرا لان طبيعة المنطقة ساعدت على اخفاء تحركاتها) كما فشلت الضربات المعاكسة الجزئية التي وجهت اليها بواسطة وحدات الفرقة الرابعة المدرعة (التي لم تكن قد عبرت القناة بعد) في تصفية هذه القوة ، وان كانت قد حدت من توسيع رقعة الثغرة شمالا ، وقد لعب استخدام الطائــرات الاسرائيلية النفاثــة والهليكوبتر المسلحــة بالصواريخ الموجهة المضادة للدبابات من أنواع « تاو » و« مافريك » وغيرها دورا هاما في تدمير عديد من الدبابات المصرية خلال هذه الفترة ، كما ساعد وصول كميات جديدة

من دبابات « م ــ ٦٠ » الى القوات الاسرائيلية بواسطة الجسر الجوي الامريكي الى مطار العريش على تحمل هذه القوات الخسائر الفادحة ودفع مزيد مـــن التشكيلات المدرعة الى ساحة المعركة الطاحنة، مما شكل أحد العوامل الرئيسية في فشل الهجمات المضادة المصرية على الضفة الشرقية يوم ١٠/١٧ ، نظـــرا لان العدو الاسرائيلي استخدم خلال هذه الفترة نتيجة لهذا الدعم الامريكي نحو ١٢٠٠ دبابة(٣٢). ولم تعرف بالضبط خسائر الدبابات الاسرائيلية خلال هذه المرحلة نظرا لان الدبابات المصابة بقي معظمها في الارض التي تحت سيطرة القوات الاسرائيلية . ويبدو أن السبب الرئيسي في نجاح الهجوم المضاد الاسرائيلي كان يكمن في ضعف الاحتياطي الاستراتيجي المدرع غرب القناة وامتلاك الطائرات حرية الحركة بعد أن فتحت لها الدبابات الطريق. وهكذا ادى كسر جدار الصواريخ المضادة للدبابات والمضادة للطائرات عبر ثغرة «الدفرسوار» الى امتلاك المدرعات الاسرائيلية حرية المناورة والحركة السريعة (ولكنها كانت هذه المرة تعمل بصحبة المشاة الميكانيكية) ، وتنفيذ عملية الاقتراب غير المباشر ضد مؤخرة الجيش الثالث في حمى قرار وقف اطلاق النار الصادر يوم ١٠/٢٢ وما صاحبه من هبوط معنوي لدى القوات المصرية ، وفي ظل ضعف قوة المدرعات المصرية وعدم اتقانها حرب الحركة المضادة ، خاصة مع عدم سيطرة الطيران المصري على سماء المعركة ، وفاعلية الصواريخ الموجهة اليها من الطائرات الاسرائيلية .

حرب المدرعات على الجبهة السورية : بدأ الهجوم السوري في هضبة الجولان برمي مدفعي تمهيدي اشترك فيه نحو ١٠٠٠ مدفع ، واستمر حوالي نصف ساعة مستهدفا المواقع الدفاعية الاسرائيلية الواقع معظمها وراء خندق عميق مضاد للدبابات، وللطرق ومفارقها ، ومراكز القيادات ، والمستعمرات الدفاعية المقامة في الهضبة عقب حرب ١٩٦٧ ، وصاحب القصف المدفعي قصف جوي مركز للقيـــادات الامامية ومراكـــز الاتصالات ، وهجوم مفاجىء بالقوات المحمولة جوا بطائرات هليكوبتر لمرصـــد جبل الشيخ المشرف على الهضبة كلها والذي يعد نقطة مراقبة ممتازة للمدفعية والطيران ايضا . وبعد ذلك تقدمت الدبابات التي تحمل جسورا واخرى مجهزة بجرافات واخذت تردم الخندق المضاد للدبابات وتعد معابر عليه تحت النيران المضادة للدبابات التي تطلقها المواقع الاسرائيلية المحصنة في التلال القريبة .

وفي حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر كانت حشود دبابات ٣ فرق ميكانيكية وفرقتين مدرعتين تجتاز المواقع الدفاعية الاسرائيلية في نقطتي اختراق أساسيتين ، احداهما كانت عند القنيطرة متجهة الى الجنوب الغربي تفرعت منها فرقة اخرى الى الشمال من المدينة في حركة كماشة تحيط بها دون أن تصفى المواقع الاسرائيلية الموجودة بها ، والاخرى كانت عند « الرفيد » وتفرعت بعدها الى شعبتين واحدة اتجهت الى الشمال الغربي نحو « خشنية » ، على الطريق المؤدي الى « القنيطرة » من الجنوب ، والاخرى اتجهت جنوبا نحو « العال » ونهر « اليرموك » ، وكان هدف القوة الزاحفة من شمال « القنيطرة » والقوة الاخرى الزاحفة من « الخشنية » الالتقاء في حركة كماشة اخرى عند « كفر نفاخ » الواقعة في منتصف الطريق الرئيسي في الجولان الممتد من «القنيطرة» الى جسر « بنات يعقوب » عند خط حدود ٤ حزيران ١٩٦٧ وحيث توجد قيادة القوات الاسرائيلية الموجودة في « الجولان » والتي كانت مؤلفة وقتئذ من لواءين مدرعين لديهما نحو ١٧٥ دبابة ، أحدهما في الشمال (وهو اللواء السابع المدرع) والآخر في الجنوب.

وهكذا كان الهجوم السوري هجوما بأسلوب الحرب الخاطفة ، منذ بدايته وحتى نهايته ، اشتركت فيه نحو ٦٠٠ دبابة مباشرة ، تقدمت في حركة سريعة ، قدر ما تسمح به طبيعة ارض الجولان الصخرية ، ملتفة حول المواقع الدفاعية الاسرائيلية مستهدفة

الوصول الى مفارق الطرق ومحاور المواصلات الرئيسية حتى تسيطر عليها قبل ان تصل قوات الاحتياطي الاسرائيلي .

وقد أوقعت الدبابات الاسرائيلية ، المتخندقة في مواقع اطلاق نـــار معدة مسبقا ، بعض الخسائر في الدبابات السورية خلال المرحلة الاولى من الهجـــوم ، خاصة في الاماكن التي كان يجري فيها اجتياز الخندق المضاد للدبابات ، الا أنها اضطرت للتراجع بعد ذلك أو بقيت محصورة مع المواقع الدفاعية التي عزلتها حركات الكماشـة السورية، وظلت تشكل مصدر ازعاج للتعزيزات السورية المدرعة اللاحقة ولحركة أرتال المدفعية والتموين وتلحق بها خسائر عدة (خاصة من المواقع الموجودة في التلال الحاكمة مثل تل « ابو الندى » ، وكلها تلال قوية التحصين ومجهزة بأسلحة وصواريخ مضادة للدبابات) ويقول معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني في تقريره عن عام ١٩٧٣ انه « في مواجهة ثقل هجوم المدرعات الضخم ، وفاعلية استخدام المشاة السورية لقواذف « الآر بي جي ٧ » المضادة للدبابات وهم يزحفون عبر الاراضي غير الممهدة اكثر من تحركهم على الطرق ، تحملت القوات الاسرائيلية خسائر فادحـــة ، خاصة في الدبابات ، ولذلك اضطرت أن تنسحب من الارض في الوسط وتمسكت بالتلال الواقعة على الاجنحة . وفي صباح الاحد ، ٧ اكتوبر ، كانت القوات السورية الزاحفة جنوبا قد وصلت الى حافة الجرف المطل على نهر الاردن . . . وهناك تم ايقافها »(٢٤). وقد نتج عن ذلك تحطيم لواء المدرعات الاسرائيلي المتمركز في الجنوب وقتل قائده « شوام » «Shoam». وفي شمال القنيطرة ، حيث كانت توجد شبكة قوية من الموانع للدبابات وحقول الالغام ، تكبدت الدبابات السورية خسائر كبيرة وكان تقدمها بطيئا . وقـــد ساهم الطيران الاسرائيلي هناك بدور فعال (وكذلك في الجنوب) في صد تقدم الدبابات السورية بعد ظهر يوم ١٠/٦ ، الا ان خسائره (الناتجة عن صواريخ « سام ٦ » المتحركة ومدافع « زد س يو ــ ٢٣ » الرشاشة الموجهة بالرادار) كانت فادحة للغاية اذ اسقطت له ٣٠ طائرة « سكاي هوك » ونحو ١٠ طائرات « فانتوم »(٢٥).

وبدأ تدفق الاحتياطي المدرع صباح اليوم التالي ، خاصة في القطـــاع الجنوبي ، واستمر الهجوم السوري في الوسط طوال اليوم حتى وصلت طلائعه (بعد أن ادخلت فرقة مدرعة احتياطية كانت مؤلفة من نحو ٣٠٠ دبابة سورية في القطاع المذكور) مساء ذلك اليوم الى مسافة نحو ٧ كم من جسر « بنات يعقوب » ولكنها توقفت هناك بسبب نقص الوقود ، الناتج عن اضطراب حركة الامداد في مؤخرتها بسبب جيوب المقاومة الاسرائيلية ، وبسبب اشتداد هجمات الطيران الذي استخدم النابالم بكثرة . وادى ذلك التقدم الى القضاء على معظم قوة اللواء السابع المدرع الاسرائيلي . الا ان القيادة الاسرائيلية سارعت الى دفع معظم قوات الاحتياطي المدرعة الى هضبة الجولان ، بحيث أصبح لديها في صباح يوم الاثنين ٧٣/١٠/٨ ثلاث مجموعات فرقية «Ugdas» مؤلفة من دبابات « سنتوريون » و« سوبر شيرمان »(٢٦) في مواجهة المدرعات السورية المجهدة والتي كانت قد خسرت نحو نصف قوتها في قتال اليومين السابقين ، وابتعدت عن حماية مظلة الصواريخ ، وباتت تعاني من مشكلات نقص الوقود وعدم ملاحقة المشاة والمدفعية لها بالصورة المطلوبة ، كما ان تركيز الطيران الاسرائيلي على بطاريات صواريخ « سام ٦ » وعلى قصف الاهداف المدنية في « دمشق » ادى الى سحب بعض هذه البطاريات الى هناك واضعاف الدفاع الجوي في الجبهة ، هذا فضلا عن استمرار مقاومة الجيوب الاسرائيلية في التلال الحصينة .

ودار قتال عنيف طوال أيام الاثنين والثلاثاء والاربعاء ٨ و ٩ و ١٠ تشرين الاول (اكتوبر) بين المدرعات والمشاة السورية والمدرعات والمدفعية والطائرات الاسرائيلية،

قام خلاله السوريون بشن سلسلة من الهجمات المعاكسة استخدموا فيها كميات كبيرة من دبابات « ت ٦٢ » شمال « القنيطرة » فقدوا خلالها نحو ٨٠ دبابة من هذا النوع يوم الثلاثاء ٩/١٠ (٢٧)، كما دارت معارك هجومية سورية أخرى عند « الخشنية » حتى مساء ذلك اليوم ، وبذلك انتهت المرحلة الهجومية السورية بعد أن فقد سلاح المدرعات السوري نحو ٨٠٠ دبابة مدمرة أو مصابة. وأمكن للقوات الاسرائيلية ان ترفع الحصار عن « القنيطرة » مساء يوم الاربعاء ١٠/١٠ وتشرع في التقدم داخل الاراضي السورية في اتجاه « الاحمدية ـ سعسع » صباح يوم ١٠/١١ ، ولكنها واجهت هجوما معاكسا مدرعا من جانب السوريين على طريق « دمشق ـ القنيطرة » ، كان آخر الهجمات الكبيرة السورية ، شغلها حتى نهاية اليوم . واستمرت مجموعتان مدرعتان اسرائيليتان في الهجوم طوال يوم ١٠/١٢ نحو « سعسع » في زحف اتخذ شكل ثلاث شعب متوازية ، ولكن عمق خطوط الدفاع السورية المعدة سلفا ، وعنف مقاومة المشاة والمدفعية ، ووصول لواء مدرع عراقي ، واشتباكه مع المدرعات الاسرائيلية لحماية انسحاب القوات السورية الى مواقع دفاعية قرب « سعسع » (فقد اللواء العراقي نحو ٧٠ دبابة في القتال)(٢٨) أدى الى فشل الهجوم الاسرائيلي وتوقفه تماما يوم ١٠/١٦ . وتحول القتال بعد ذلك الى جبهة ثابتة وأخذ كل طرف يحاول تحسين مواقعه الدفاعية فيها من الناحية التكتيكية بهجمات محدودة متبادلة بواسطة المشاة والمدفعية .

● **الدروس العامة المستفادة في حرب المدرعات** : يقول تقرير معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني بصدد تقييمه العام لمعارك حرب ١٩٧٣ العربية ـ الاسرائيلية « لقد قاتل الجنود السوريون والمصريون على السواء بتصميم وعزم خلال الهجمات الاولى ، واستخدموا أسلحتهم بمهارة. وفي الدفاع قاتلوا بعزم موطد وبشكل متماسك. وقد استخدمت الدبابات السورية في هجمات حاشدة جبهية رديئة جعا تها أهدافا سهلة للاسرائيليين . . . وفضلا عن ذلك ، كان هناك تعاون ضئيل بين الدبابات والمشاة ، ولذلك كانت الهجمات المدرعة تجري عادة دون مساندة . ويبدو أن المدرعات المصرية كانت أيضا توجه بصورة غير مكترثة في الهجوم ، وفي مجموعات منضمة أيضا ، وكان قادتها غير أكفاء في تنسيق النيران والحركة . وكانت أيضا معاقة في كثير من الاحوال بسبب بعد مدى مدافع الدبابات الاسرائيلية ، ودائما كانت معرضة لهجوم الطيران الاسرائيلي حالما تكون خارج الحماية الجوية »(٢٩).

ويلخص هذا القول الاداء العربي في قتال المدرعات والظروف التي أحاطت وأدت الى نتائجه . ففي الجبهة المصرية قيدت الاستراتيجية العامة الموضوعة للحرب مسبقا حركة المدرعات ولم تؤد الى استثمار قدراتها الكامنة في تطوير الهجوم بسرعة عقب سحق الهجمات المضادة الاسرائيلية الاولى ، الامر الذي ساعد على تركيز القوى الاحتياطية الاسرائيلية في الجبهة السورية ، وأدى عدم وجود احتياطي كافي منها في المكان والوقت المناسبين ، وعدم توفر خبرة سابقة كفؤة في أساليب حرب الحركة السريعة المعتمدة على تعاون المدرعات والمشاة الميكانيكية والطيران ، الى نجاح الهجوم المضاد الاسرائيلي الثاني بمجرد أن كسر جداري الصواريخ المضادة للدبابات والمضادة للطائرات في « المزرعة الصينية » و« الدفرسوار » . وفي الجبهة السورية أدى ضعف التعاون بين المشاة والدبابات والدفاع الجوي والطيران ، بالاضافة لمشكلات الامداد والتموين ، وعدم تصفية مراكز المقاومة الاسرائيلية في المؤخرة الى تكبد الدبابات السورية خسائر ضخمة وفقدان الهجوم لقوة اندفاعه واتزانه الاستراتيجي والتعبوي، ومن ثم ضياع المكتسبات التكتيكية للهجوم والاضطرار للتحول الى الدفاع الاستراتيجي،

الامر الذي ساعد ايضا على تحول الضغط الجوي والمدرع الاسرائيلي الـى جبهة « **الدفرسوار** » ، ومن ثم فان حجم القوة المدرعة العربية لم يعط اقصى مردود له .

أما سلاح المدرعات الاسرائيلي فقد ثبت له أن أيام « الحرب الخاطفة » قد ولت ، وان الدبابات لا تجابه الدبابات دائما وان هناك حالات تضطر فيها للقتال ضد مشاة جيدي التسليح والتدريب ، وانه صار على الدبابات ان تفتح الطريق للطائرات وتدفع ثمنا باهظا في سبيل ذلك ، وباختصار تحتم عليه أن يدرك أن الحرب مع العرب اصبحت من الآن حربا حقيقية .

---

١ — IISS, *The Military Balance 1973-1974*, p. 31

٢ — IISS, *Strategic Survey 1973*, p. 26

٣ — **المرجع السابق** ، ص ٢٦ .

٤ — **المرجع السابق** ، ص ١٧ .

٥ — *The Military Balance 1973-1974*, p. 33

٦ — Brower Kenneth; «Armor in the October War», *Armor*, May-June 1974, p. 10, 11

٧ — *Insight on The Middle East War*, London, Ad, 1974, p. 239

٨ — *Armies and Weapons*, The Chosen Tanks, Year III - No 11, 1974, p. 52

٩ — Orgill Douglas; *The Tank*, London, Heinemann, 1970, p. 256, 257

١٠ — **هآرتس** ، ١٩٧٣/١١/٤ ، نشرة م.د.ف. — عدد ١٩٧٣/١١/٢٦ — ص ٦٩٠ ، ٦٩١ .

١١ — غوديريان ، هاينز ، الجنرال — **قائــــد البانزر** — الترجمة العربية ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٣٥ .

١٢ — البدري ، حسن والمجذوب ، طه وزهدي ، ضياء الدين ، **حرب رمضان** ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ١٠٦ .

١٣ — *Insight on the Middle East War*, p. 68

١٤ — *Strategic Survey 1973*, p. 22

١٥ — **حرب رمضان**، المرجع السابق، ص ١٤٦ .

١٦ — **المرجع السابق** ، ص ١٤٧ .

١٧ — **المرجع السابق** ، ص ١٤٧ .

١٨ — **المرجع السابق** ، ص ١٤٨ .

١٩ — *Strategic Survey 1973*, p. 22

٢٠ — يشعياهو بن — فورات وآخرون، **التقصير**. ترجمة م.د.ف ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٩٦ .

٢١ — Brower Kenneth, *op. cit.*, p. 13

٢٢ — **التقصير** ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

٢٣ — **المرجع السابق** ، ص ١٠٨ .

٢٤ — **المرجع السابق** ، ص ١١٠ .

٢٥ — Armies and Weapons, *op. cit.*, p. 52

٢٦ — **التقصير** ، المرجع السابق ، ص ١١١ .

٢٧ — **التقصير** ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

٢٨ — *Strategic Survey 1973*, p. 54

٢٩ — *Insight on The Middle East War*, p. 159

٣٠ — **حرب رمضان**، المرجع السابق، ص ١٥٨ .

٣١ — **التقصير** ، المرجع السابق ، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

٣٢ — **التقصير** ، المرجع السابق ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

٣٣ — **حرب رمضان**، المرجع السابق، ص ١٥٦ .

٣٤ — *Strategic Survey 1973*, p. 11

٣٥ — *Insight on The Middle East War*, p. 83

٣٦ — Brower Kenneth, *op. cit.*, p. 12

٣٧ — *Insight on The Middle East War*, p. 103

٣٨ — **المرجع السابق** ، ص ١٥٥ .

٣٩ — *Strategic Survey*, p. 25, 26

عودة الى الوحدة العربية

الدكتور أسعد عبد الرحمن
و
الدكتور هاني فارس

تواجه الامم قدرا كبيرا من تحليل الذات وامتحان الضمير في اعقاب الازمات الكبرى. فتخضع الزعماء والقيم والمؤسسات لتفحص دقيق شديد وكثيرا ما تصدر أحكامها عليهم استنادا الى معايير طورتها حديثا . ولا يشذ سلوك العالم العربي في الفترة ما بين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣ عن هذه القاعدة العامة ظاهريا .

ويستوقف المرء مقدار الشك الذاتي والنقد الذاتي الذي حصل . حتى ان قلة من أوجه الحياة العربية خرجت سالمة . كما ان الفجوة بين الزعماء والاتباع ، بين الحكام والمحكومين ، اتسعت الى حد بات من الصعب معه تصور كيف يمكن سدها . وكان الاتجاه في السياسة العربية هو نزع الشرعية عن الانظمة العربية . ونادرا ما كان بامكان أي من رجال الفكر العرب ان يدافع او حتى يسوغ الوضع القائم بضمير حي . وصار الليبراليون والمحافظون فئتين سياسيتين تخطاهما الزمن وكان يحل بسرعة مكان عقائدييهما راديكاليون من النوع الثوري والمتشدد. وستكشف دراسة مسحية للكتابات السياسية في الفترة ما بين الحربين عن استقطاب شديد لوجهات النظر .

وأدت النكسات والاخفاقات المتكررة في تحقيق الاهداف الوطنية المرومة ، والتي فاقتها جميعا هزيمة عام ١٩٦٧ المذلة ، الى فحص واعادة تقييم القضايا الوطنية الاساسية . وكانت القضية الاساسية التي تأذت اثناء ذلك هي قضية الوحدة . وبرز في هذا النطاق موقف ثلاثي : التحرر من الوهم ، الفصل ، والازاحة . وفقدت عدة حركات قومية عربية عنيدة ايمانها في عملية خططها وانكفأ العديد من العناصر التي كانت في السابق قومية متورطة ونشطة الى حياة غير سياسية . غير ان التطور الاهم والاكثر دلالة في الفترة ما بين حرب عام ١٩٦٧ وحرب عام ١٩٧٣ كان التغير العام في تحديد الاولويات الوطنية الذي حصل . فزوال الوهم والفصل فرضا الازاحة. وتحولت الخطط والدوافع والآمال في الهدف الاولي لتوحيد العالم العربي تحت منظمة سياسية واحدة الى أهداف ثانوية ، محلية بالدرجة الاولى . وسيطرت الاقليمية المحلية في فترة ما بين الحربين . وفي محاولة لتفسير هذه الظاهرة كتب امين محمود العالم ، وهو منظر ماركسي مصري بارز :

« ظهرت الرغبة بالعزلة او الاعتزال التي أبرزت عند بعض الكتاب في مختلف البلدان العربية شعورا بالاقليمية معاديا للشعور الوحدوي السابق ، كانت نتيجة طبيعية للشعور بأن المشاركة الحقيقية التي تتطلبها الوحدة تفترض حلولا جذرية

* فصل من كتاب يجري طبعه في الولايات المتحدة بعنوان **الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة** ، تحرير الدكتور نصير عاروري ويشترك في كتابته كثيرون من الكتاب والمفكرين العرب . ويجري نشره من قبل جامعة الكويت وجمعية الخريجين العرب في اميركا .

للمشاكل ، السياسية خاصة ، التي يتخبط فيها العالم العربي . وان الخيبة ، او الخيبات المتكررة في الوصول الى هذه المشاركة الحقيقية دفعت الى اتجاهات سياسية اقليمية ، تستطيع ان تكتفي بانصاف الحلول ، وبانتصارات او مرابح جزئية . . . »(١).

ويبدو ان الحرب العربية ـ الاسرائيلية الرابعة لتشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ قد أوقفت ، ان لم تعكس ، العملية الآنفة الذكر . وبين أخطر مضاعفات الحرب بالنسبة للعالم العربي هو السؤال الذي أثارته فيما يتعلق باحتمالات الوحدة . ويرحب معظم الزعماء السياسيين وعدد كبير من رجال الفكر بالحرب الآن بوصفها بشير عهد جديد من وحدة الصف والهدف(٢) . ويصار تكرارا الى تأكيد ان العلائق بين العرب قد تحولت تحويلا جذريا وان امكانية العمل العربي المشترك لا حد لها . وبالنظر الى الصورة الكئيبة عن الوحدة التي كانت سائدة قبل الحرب ، لا بد من طرح السؤال : كيف ولماذا أثرت الحرب في التفاؤل السائد الآن ؟

يحار مراقب سياسة الشرق الاوسط في تفسير تضامن الانظمة العربية الذي ظهر في تشرين الاول (اكتوبر) والايام اللاحقة له . فقد أخذ الجانب العربي زمام المبادرة لاول مرة في العقدين ونصف العقد من الصراع مع اسرائيل ، على الرغم من شقاق العرب الموهن ظاهريا . فشنوا جهدا مدروسا وحسن التنسيق على جبهتين لمنازلة اسرائيل عسكريا وانتزاع الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ . وللحال ، تدفقت المساعدات العسكرية والمالية على الجيشين العربيين المقاتلين من البلدان المجاورة . وبدلا من التهديدات المطنبة الشهيرة سابقا والتي لم تنفذ ابدا ، ومن الوعود بمعونة لم تقدم قط ، ارسلت الانظمة العربية القوات لاداء الواجب على خط الجبهة . واشتركت في المجهود الحربي العراق والكويت وليبيا والعربية السعودية والجزائر والمغرب . واجتمع الموفدون العرب أيضا ، لدراسة سياسات مشتركة . وكان أبرز قرار اتخذوه هـو قرارهم لاستخدام أقوى سلاح في مستودعهم ، أي النفط . وفي محاولة للضغط على أوروبا الغربية واليابان والولايات المتحدة واجبارها على اتخاذ موقف حيادي ان لم يكن وديا ، جرى خفض انتاج النفط بشكل حاد ، وشرع في مقاطعة نفطيـة للولايات المتحـدة وهولندا . وكان الكثيرون ، وبخاصة الدوائر الغربية ، قد حذفوا من الحساب احتمال قيام سياسة عربية مشتركة في حقل النفط ، فكان ان أدى نجاح وزراء النفط العرب في الاتفاق على الوسائل والاهداف في اجتماعهم بالكويت الى تعزيز صورتهم في الخارج ورفع معنويات شعوبهم . وأخيرا ، كانت التحويلات المالية الضخمة التي ساعدت بها البلدان الغنية بالنفط سوريا ومصر مجالا آخر عبر فيه التضامن العربي عن نفسه بشكل فعال . وكان الشعور السائد هو أن العرب ، للمرة الاولى في تاريخهم الحديث ، استطاعوا أن يواجهوا اسرائيل وحليفاتها متحدين .

وكان التعاون بين الانظمة العربية باعثا على طـرح سؤال رئيسي : هل اشـار التضامن العربي الى طريق جديد للوحدة العربية ؟ هل هو اظهار لوحدة ، غير رسمية وغير معلنة ، تسود في العالم العربي اللاحق لحرب تشرين (اكتوبر) أم انه مرحلة عابرة اكثر ستعود الخاصيات المحلية بعدها الى تأكيد ذاتها ؟ وان شئنا التعبير بشكل مختلف ، هل زادت حرب تشرين (اكتوبر) الفرص للوحدة العربية وادخلت وجوها جديدة على نوع العلاقات بين الانظمة العربية وطبيعتها ؟

يعرض التراث السياسي لربع القرن السابق سبلا مختلفة الى الوحدة العربية . هذه السبل ستحدد وتقيم أولا وسيدرس اسهام حرب تشرين (اكتوبر) في ايجـاد هذه السبل . وستبحث من ثم البيئة الاجتماعية العربية في وقت الحرب من حيث الخلفية والقضايا . وأخيرا تختم الدراسة في محاولة لتقرير ما اذا كانت الحرب قد حسنت الفرص للوحدة أم لا ، واذا كانت قد حسنتها ، لماذا وبأية شروط .

١ ـــ السبل الى الوحدة العربية :

تظهر في التاريخ الحديث للعرب اربعة سبل مختلفة الى الوحدة : السبيل التعاقدي، والسبيل المتدرج ، والسبيل الثوري ، والسبيل العملي funclionalist . ولكل من هذه السبل مدرسته الفكرية وابطاله الخاصون ودعاته واتباعه ويستشهد باختبـــارات سياسية معينة لاثبات فعاليته . ومع ان ترتيبا زمنيا ينطبق على هذه السبل ومع انه كان لكل منها ايام عزه الخاصة ، فانها لا تنحصر في مراحل خاصة بها . وهي تستمر في التأثير على المشاريع الوحدوية حتى حينما تكسفها أفكار أقوى منها .

أ) وجهة النظر التعاقدية وتجربة الجامعة العربية :

السبيل الاول رسمي وتعاقدي في نظرته العامة وقد وجد التعبير الرئيسي عنه في تأسيس جامعة الدول العربية . وتعود هذه التجربة الى فتـــرة الطفولة في الحركة القومية وتعكس الصدمات والتناقضات ومواطن الضعف في الفكرة القومية عينها . وكان المقصود من هذه المحاولة الاولى أن تكون شاملة لجميع العرب ، خلافا لمحاولات الوحدة اللاحقة التي كانت دوما جزئية . وكان عليها في ذلك ان تتجاوز مشاعر الحسد والتنافس والتباينات الموجودة آنذاك بين الدول العربية الاصلية السبع المتعاقدة عن طريق اقامة رابطة فضفاضة وتكريس مبدأ سيادة الدولة. وكانت جامعة الدول العربية التي نتجت عن ذلك ابعد ما تكون عن مطالب القوميين ، الذين شعر الكثيرون منهم ان المولود الجديد هو خيانة للآمال الوطنية وتحرك يهدف الى تطويق المطالبات بسياسة قومية تتخطى الدول . صحيح ان اعضاء الجامعة لم يتصوروا انها خطوة نحو وحدة سياسية تامة او جزئية لانهم لم يكونوا راغبين في التخلي عن اي من السلطات التي ورثوها عن الدول الاستعمارية المتراجعة . غير ان الاهتمامات الاقليمية استمرت بواسطة اتجاهات أخرى . واقتضت العاطفة الشعبية والتطورات المهددة في فلسطين والمصالح المشتركة وتشجيع بعض الدول الكبيرة مستوى مـــا من التعاون . فكانت الجامعة ، اذن ، نتاج قوتين متنازعتين ، هما العروبة والاقليمية ، تعملان في وضع دولي يؤيد الثانية .

ولم تدعم الجامعة بأية طريقة مباشرة ، بوصفها التجسيد الاول للمشاعر الوحدوية، الاندماجات السياسية الفعلية بين البلدان العربية . وكـــان تأثيرها واسهامها غـــير مباشرين بشكل تام . وتمكن الاشارة الى اثنين من هذه التأثيرات غير المباشرة . أولا ، ان جمع كل البلدان العربية ضمن اطار تنظيمي واحد قد أعاق الطاقـــة الكامنة لنمو اقليمية اكبر في فترة خطيرة من فترات بلوغها النضج السياسي ، وبالتالي ساعد في حفظ الهوية القومية من التبديد . ثانيا ، ان اسهام الجامعة غير المباشر والذي لا يقل أهمية عن التأثير الاول في فرص الوحدة كان في الحقل الوظيفي(٣). فقـــد ساعدت المؤتمرات المختلفة ، والوكالات المتخصصة ، والمعاهدات للتعاون الاقليمي وغيرها من النشاطات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية على ارهاف حساسية الاقطار العربية لفوائد التعاون المتبادل وتنسيق السياسات ؛ وبالتالي خفضت مستوى اعتماد كل منها على العالم الخارجي وزادت من اعتمادها على بعضها بعضا . واعرب عن الراي نفسه عبد الخالق حسونة ، الامين العام السابق للجامعة ، في خطابـــه بمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيس الجامعة . قال :

الحقيقة هي ان الجامعة قد مهدت الطريق لوحدة العـــرب السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية . فان ميثاق الجامعة وميثاق الضمان الجماعي العربي ، والمعاهدة الثقافية العربية ، والكثير من الاتفاقات الاقتصادية والمالية التي بلغت اوجها في ابرام الميثاق الاقتصادي بين الدول العربية وفي مشروع مصرف الانماء العربي ،

والسلسلة المتواصلة من المؤتمرات والحلقات الدراسية التي عقدت خلال الثلاث عشرة سنة الماضية ، كل هذه هي الدعائم التي أقيم عليها أساس وحدتنا(٤).

وتبقى الجامعة المحاولة الاطول ديمومة بين سلسلة من المحاولات التي تهدف الى جمع العالم العربي معا . وكونها عاجزة عن ايقاف الشقاق السياسي يجب ان لا يجعل القومي غافلا عن الفوائد الناشئة عن توفير منتدى عـام لتبادل الآراء الرسميـة والسياسات والتنسيق فيما بينها .

اذن ، ان للجامعة بوصفها أحد السبل الى الوحدة ثلاثة معالم مميزة تفسر عمرها المديد وفي الوقت ذاته تجعلها عاجزة كوسيلة للاتحاد السياسي . هذه المعالم هي : شمولية في العضوية ، اعتماد مطلق على طبقة الموظفين الرسميين ، والاسهام في الاهداف السياسية عن طريق الوسائل غير المباشرة للنشاطات الوظيفية .

ب) وجهة النظر التدريجية وتجربة الجمهورية العربية المتحدة :

يبرز السبيل الثاني الى الوحدة في الصراع العقائدي الذي قسم العالم العربي الى تقدميين ومحافظين وأفضى الى الوحدة السياسية بين مصر وسوريا في جمهورية عربية متحدة بين عام ١٩٥٨ وعام ١٩٦١ . وخلافا لتجربة الجامعة العربية التي ارتكزت مقدمتها المنطقية على انسجام المصالح والتطلعات بين البلدان العربية ، فان هـذه المرحلة الجديدة في الحركة القومية وضعت معسكرا عربيا من البلدان العربية ضد معسكر آخر . كما انها تسببت في انقسام متطابق بين الجماهير اجتاز الحدود الوطنية جيئة وذهابا . وأدخلت عناصر جديدة الى الحياة السياسية العربية في هذه المرحلة . وكان بين هذه العناصر نشوء الحركات الجماهيرية ، وادخال العقائد وانتشارها ، واضافة بعد اجتماعي ــ اقتصادي الى القومية . وقد وصف أحد العلماء العـرب الصراع العقائدي الذي احتـدم بأنه « الجدل الكبـير بين القوميين الديناميكيـين والمتحجرين »(٥).

بدءا من أواسط الخمسينات ، أخذت الانظمة العربية تنجذب نحو أحد معسكرين اثنين : التقدمي أو المحافظ . وكان المعسكر الاول يتمثل بعداء عام نحو الغرب، وتحرك نحو تعاون أوثق مع الشرق ، وسعي سريع الى التنمية الاجتماعية ــ الاقتصادية ، ورفض للتقاليد والمؤسسات العتيقة ، وتتويج طبقات اجتماعية جديدة ، ولا سيمـا عناصر تنتمي الى الطبقات الوسطى . وكان المعسكر الآخر اقل ميلا الـى التغيير ، وحافظ على تعاون وثيق مع البلدان الغربية ، وبخاصة الولايات المتحدة وبريطانيا ، واسـتمرت تسيطر عليه الطبقات الاجتماعية القوية تقليديـا ، أي الارستقراطيون والملاكون ، وركز شرعيته على التقاليد . وكانت العضوية في المعسكرين العقائديين مائعة . وبصورة جوهرية ، فان مصر وسوريا والعراق والجزائر ، من جهة ، والعربية السعودية والاردن والمغرب ، من جهة اخرى ، هي البلدان الرئيسية في المعسكرين التقدمي والمحافظ .

يعود منشأ الانقسام بين التقدميين والمحافظين الى حركة ٢٣ يوليو ٥٢ المصريـة وارتقاء جماعة من الضباط العسكريين الوطنيين ، المناضلين وذوي العقلية الاجتماعية الى مراكز القيادة . وقامت هذه الجماعة للحال بسلسلة من الاجراءات التي قوضت النظام القديم وتحدت السلطة المتبقية لدى انكلترا الاستعمارية . ولم يكن للقيـادة الجديدة اي اتجاه عقائدي معين يوجه أعمالها في أول الامر وتبنت توجها يشبه أسلوب التجربة والخطأ . الا أن نظام اعتقادات أخذ يتبلور تدريجيا . وكان جمال عبدالناصر هو الذي عبر عنه . وتكثر الروايات عن صعود عبدالناصر الى السلطة وعن فلسفته ،

وليس ثمة حاجة الى تكرارها . غير ان ما ينبغي تأكيده هو سيطرة عبدالناصر على المسرح العربي طوال فترة وجوده في السلطة . وقد حقق عبدالناصر في أوائل حياته السياسية عددا من المآثر التي كسبت له الثناء والاتباع في جميع انحاء العالم العربي. فقد استطاع بأعماله وأقواله أن يسيطر على الجماهير في معظم العواصم العربية وبقي بلا منازع بين الزعماء العرب الآخرين في المواهب السياسية وسحر الزعامة . كما كان لنشاطاته وزن لا يستهان به بفضل وجوده على رأس القطر العربي الاكثـر سكانا والاقوى . وبدا كأن الامور في العالم العربي في اواخر الخمسينات واوائل الستينات كانت تحدث ببادرة من عبدالناصر أو كردة فعل لبوادره .

لم تكن أهمية عبدالناصر كشخصية تاريخية تنبع من صفاته الشخصية وحدها . وبالاحرى كان تأثيره ينبثق عن قدرة على التعبير عن آمال وتطلعات نطاق واسع من المجتمع العربي . وجوهريا ، كان عبدالناصر يجسم للجماهير العربية قيادة ديناميكية ومجددة ، ومستعدة لتحدي الوضع القائم المقوت وتحويله . ولم تكن تبز اصلاحاته الداخلية الا سياساته الخارجية ، التي رفعت كثيرا من اعتباره بـين العرب غـير المصريين . وكانت الاجراءات المسؤولة عن ارتفاع شعبية عبدالناصر ارتفاعا صاروخيا هي تأميم المؤسسات المالية والتجارية الاجنبية ، وتأميم قناة السويس ، والمعونة التي قدمها للجزائريين في نضالهم ضد الاستعمار الفرنسي ، ورفض الاحلاف العسكرية التي يرعاها الغرب ، وصفقة الاسلحة مع الكتلة الشرقية التي أنهت الحظر الغربي على شحنات الاسلحة الى مصر ومناصرة القضية الفلسطينية . وصار ينظر اليه على انه الزعيم الذي استعاد للعرب كرامتهم وأعاد تأكيد الهوية القومية . وتطلع اليه القوميون على اختلاف ألوانهم بوصفه الرجل القادر على انهاء حالة الشقاق وتحقيق أهداف الوحدة العربية العامة .

تحقق أول اتحاد سياسي في تاريخ العرب الحديث في الاول من شباط (فبراير) عام ١٩٥٨ عندما اعلنت مصر وسوريا عن تأسيس الجمهورية العربية المتحدة . وتم تبني شكل حكم وحدوي له رئيس جمهورية واحد ومجلس امة واحد . وغمرت الجمهورية الجديدة سيادتي الوحدتين العضوين كليا . وكان الشعور هو ان الاتحاد قد جعل سويا ما كان حالة شقاق شاذة . ولم يكن هذا ناشئا عن الهوية المشتركة للسكان فحسب ، بل عن الاستشرافات السياسية المماثلة التي تقاسموها ايضا . فالبيـان المصري ــ السوري المشترك (الاول من شباط ــ فبراير عام ١٩٥٨) يعلن : « خرجوا (اي الموفدون المصريون والسوريون) من هذا بالاقتناعات بأن العناصر المساعدة على نجاح اتحاد الجمهوريتين كانت وافرة ، ولا سيما بعدما جعل نضالهما المشترك ــ الذي كان قد قرب احداهما من الاخرى أكثر فأكثر ــ معنى القومية أوضح بكثير ، وأكد على انه كان حركة من أجل التحرر ورد الاعتبار »(٦). وقد دعا السبيل الجديد الى الوحدة الذي أبرزه الاندماج المصري ــ السوري عام ١٩٥٨ الى توجهات عقائدية مشتركة بين المشاركين .

واستقبلت الوحدة المصرية ــ السورية بردود فعل مختلفة . فكانت تتمتع بشعبية غامرة على صعيد الجماهير لكن الطبقة الموسرة والعناصر المحافظة مذهبيا عارضتها معارضة شديدة .

وكان أول تأثير للوحدة على السياسة العربية هو اخافة الانظمة المحافظة وتنبيهها الى الاخطار التي تثيرها والازدياد السريع المفاجىء في المشاعر القومية. وشعر العراق والاردن ، ركنا الكتلة المحافظة في العالم العربي آنذاك ، بأن التطورات تهددهما بالخطر وسارعتا الى الاعلان عن تأليف اتحاد عربي بينهما . وعلى الرغم من هذا التحرك

المضاد ، استمرت الوحدة المصرية ـــ السورية تترك أصداءها في جميع انحاء العالم العربي . وكان التأثير الاول هو الحرب الاهلية في لبنان والاضطرابات الواسعة النطاق في الاردن ، التي تبعها انقلاب دراماتيكي في العراق . وبحلول صيف عام ١٩٥٨ ، بدا مد الوحدة العربية وكأنه لن ينتكص . وقد وصف مالكولم كير ، في دراسته حول دور العقائد في السياسة العربية ، الحالة آنذاك بأنها حالة تولت فيها حركة الوحدة العربية مقاليد القضاء والقدر . كتب يقول :

« كانت موجة الحماسة التي اجتاحت سوريا في بداية الوحدة، والمتمثلة بالجماهير المظفرة التي استقبلت عبدالناصر في دمشق ، والتي شارك بها على نطاق واسع الرأي العام العربي في البلدان العربية المجاورة ، تعكس اعتقادا بأن الاحوال قد قلبت قلبا كاملا ، وبأن المبادرة في الشرق الاوسط قد انتقلت الى حركة الوحدة العربية الثورية ، وبأن شعوب الدول العربية ستنهض قبل مضي وقت طويل ضد حكامها الطغاة وتنضم للاتحاد . كانت هناك حاسة قدر اجبارية في هذا الموقف . . . وبلغت توقعات الوحدة العربية أوجها مع الثورة في لبنان ضد حكومة الرئيس شمعون التي ابتدأت في ايـــار (مايو) ، ثم مع الثورة العراقية في الرابع عشر من تموز (يوليو) التي انهت الملكية . وللحظة بدا وكأن اليوم المقدر بات قريبا »(٧).

ولم يأت اليوم المنتظر . فقد أنزل جنود مشاة البحرية الاميركية في لبنان لتدعيم نظام شمعون المتقلقل وأرسلت القوات البريطانية الى الاردن لانقاذ تاج الحسين . كما ان التطورات الداخلية في العراق وضعت ذلك القطر على درب معادية للجمهورية العربية المتحدة . وأوقفت الموجة الوحدوية وتراجع المد حينما وقع انقلاب عسكري في سوريا أخرجها من الاتحاد .

وأدى انهيار الوحدة في أعقاب انفصال سوريا عام ١٩٦١ الى صـــدم القوميين المقتنعين وتعريض حركة الوحدة العربية لنكسة خطيرة . لقد دامت الوحدة اربعة اعوام كان ينظر اليها خلالها على انها حجر الزاوية لوحدة عربية شاملة ؛ وتسببت ، خاصة بين السوريين ، في ارتفاع مشاعر التضامن الاقليمي في حين كانت تلك المشاعر أقل ما تكون ظهورا في ذلك القطر . لقد عرضت اسباب مختلفة لتفسير انهيار الوحدة. وبين العوامل الكثيرة التي عددت بوصفها مسؤولة عن ذلك الانهيار : الاستياء بـــين النخبة السورية ، الشدائد الاقتصادية ، التدخل الاجنبي ، المركزية المفرطة ، ضعف الاجهزة الادارية، عدم تعبئة المشاعر الشعبية، وحداثة الفكرة القومية. ومهما يكن من أمر ، فان « اخفاق الجمهورية العربية المتحدة لم يحطم مفهوم الوحدة العربية . بيد انه اشار الى المشكلات العملية التي تنطوي عليها الوحدة »(٨). وتبقى الوحدة المصرية ـــ السورية حتى الوقت الحاضر مصدر الهام للقوميين .

لقد قامت عدة محاولات للوحدة السياسية منذ عام ١٩٦١ . ففي عام ١٩٦٣ ، افتتح وفدان يقودهما بعثيون من سوريا والعراق المفاوضات مع عبدالناصر بقصد تأليف اتحاد ثلاثي . الا أن الاتفاق الذي تم التوصل اليه لم ينفذ قط . كما جرت محادثات حول الوحدة بين سوريا والعراق في آب (اوغسطس) عام ١٩٦٣ ، لكن سقوط حزب البعث في العراق في وقت لاحق من تلك السنة أنهى المحاولة . ومرة اخرى انهي اتفاق من حيث المبدأ لتوحيد مصر والعراق عندما أطيح بالرئيس عارف . وجرت آخر هذه المحاولات الفاشلة في الثاني من أيلول (سبتمبر) عام ١٩٧١ ، عندما أسست مصر وسوريا وليبيا اتحاد الجمهوريات العربية ، ولا تبشر التطورات اللاحقة لحرب تشرين (اكتوبر) والوضع الراهن للعلاقـــات المصرية ـــ الليبيـــة بمستقبل مشـــرق لذلك الاتحاد(٩).

وفي الختام نقول ان السبيل الثاني للوحدة السياسية رسمته الانظمة العربية الديناميكية والمتجهة نحو التغيير . وكانت الوحدة تمثل احدى السياسات المتيسرة لهذه الانظمة في هجومها ضد الانظمة العربية المتحجرة والمتجهة نحو تثبيت الوضع القائم . ومن هذه الناحية ، لبست الوحدة في هذه المرحلة زيا عقائديا ذا مفاهيم اجتماعية ــ اقتصادية تقدمية . ولذلك استبدلت الوحدة الشمولية التي شهدتها المرحلة السابقة باتحادات ومحاولات اتحادات مقصورة على انظمة لها عقائد مشتركة . كذلك ، بينما كانت احتمالات الوحدة في السابق تحت رحمة طبقة الموظفين الرسميين كليا ، فان المشاركة الجماهيرية في السياسة ارغمت الزعماء السياسيين العرب من جميع المذاهب على ان يصيروا اكثر تجاوبا مع مثال الوحدة الشعبي ؛ « وما من زعيم عربي هو من القوة بحيث يمكنه تجاهل جاذبيته ... وكل زعيم يبرر نفسه في نطاق اخلاصه لهذا المثال »(١٠).

ج) النظرة الثورية كنتيجة لحرب عام ١٩٦٧ :

لم يتجسد هذا السبيل الثالث الى الوحدة بعد في اختبار سياسي فعلـي . فهذا السبيل هو نتاج الانقسام ضمن المعسكر التقدمي الذي تبلور بعد عام ١٩٦٧ . وتقترحه الانظمة والحركات التي تسعى الى التحويل الجذري لمجتمعاتها وتشمل قوى من اليسار العربي « القديم » و« الجديد » .

يقسم مؤيدو هذا السبيل الى الوحدة الانظمة العربية الى أنظمة بورجوازية وأنظمة بورجوازية صغيرة . ويجادلون بأن الانظمة البورجوازية هي انظمة قديمة بالية لا بد من تدميرها قبل ان يمكن حدوث اي تغيير ذي معنى ضمن مجتمعاتها . وهي معادية لاية اجراءات وحدوية وغير قادرة هي نفسها على استهلال الاتحادات .ويؤكدون ان انظمة البورجوازية الصغيرة مناهضة للامبريالية ووطنية ولكنها تفتقر الى التزامات عقائدية واضحة . وهي تتذبذب بين الاشتراكية والليبرالية تبعا لما تقتضيه مصالحها . وتفشل الوحدة السياسية ، بين البلدان الخاضعة لقيادة البورجوازية الصغيرة « الانتهازية » و« غير المستقرة » ، في الصمود لاختبار الزمـن الا اذا حولت المجتمع الى نظـام اشتراكي . فالاشتراكية ، اذن ، هي الشرط الضروري لنجاح الوحدة(١١).

ولا يسقط دعاة الطريق الاشتراكية الى الوحدة ، التي تبلورت فكرتها بعد عـام ١٩٦٧ ، من الحساب امكانية قيام وحدات تبدأها وتقودها البورجوازية الصغيرة ، ولكنهم منقسمون حول ما اذا كانت مثل هذه الوحدات تستحق التأييد والدعم . ويؤكد البعض ان على القوميين ان يقيموا الانظمة الاشتراكية في بلدانهـم المختلفة قبـل توحيدها . ويقبل البعض الآخر بتحويل وسائل الانتاج تحويلا جزئيا نحو الملكية العامة، والديموقراطية الشعبية ، وزيادة الانتاج واعادة توجيه العلاقات التجارية العربية على انها سبب كاف لتؤيد القوى التقدمية محاولات الوحدات . ويعيد الجدل المستمر الى الذاكرة النزاع بين نظرتي « الاشتراكية في بلد واحد » و« الثورة الدائمة » .

كانت النقطة التي اضحت فيها الاشتراكية مرتبطة ارتباطا لا يفك بجميع العلاجات للوحدة هي سنة ١٩٦٧ . فالحرب العربية ــ الاسرائيلية في تلك السنة نفرت الحركة القومية بصورة تامة من الولايات المتحدة وأدت الى « مركسة » « القومي » والى جعل الماركسي « قوميا » . وربما كان التسلل الى الفكـر القومي ثم سيطـرة المذهب اليساري احدى ابرز النتائج التي ترتبت على الحرب في العالم العربي . وقد حدثت العملية كنتيجة لاقتناع متزايد بأن النزاع العربي ــ الاسرائيلي ليس نزاعا بين قوميتين فحسب ، ولكنه ايضا صراع بين طريقتي حياة تخطى القضايا الاقليمية وصار مرتبطا

ارتباطا وثيقا بالتنافس الدولي بين الرأسمالية والاشتراكية . وكان الشعور هو أن على المجتمع العربي أن يخضع لتغيير جذري قبل ان يستطيع أن يامل في قهر اسرائيل عسكريا ، وبالنظر الى الاختبار المرير مع الغرب والمواقف العدائية التي وقفتها حكومة الولايات المتحدة ، عرضت الماركسية العقيدة الشاملة التي يمكن استخدامها لتحويل الحياة العربية ، ومقاومة اخطار اسرائيل المتزايدة ، وتحدي التجاوزات الغربية في الشرق الاوسط .

كان يعوق دعاة السبيل الثوري الى الوحدة مواطن ضعف خطيرة ، ليس اقلهـا نظرتهم الضيقة والمذهبية اللاعملية . واسهمت الاستقامة المذهبية الجامدة لكل مـن اليسار العربي القديم والجديد على السواء في انزال الوحدة الى منزلة ثانوية(١٢) . وصار يوكد على الصراع الطبقي وحكم البروليتاريـا على حساب افكار التضامـن القومي . على ان النتيجة الاشد خطورة كانت عجـز اليسار عن تكييـف النمـوذج الماركسي للنزاع الاجتماعي مع الحقائق العربية . وقد جعلهم تبشيرهم بحكم الشغيلة في مجتمعات زراعية بصورة غالبة وحتى قبلية غافلين عن وجـود عقـدة الولاءات القديمة ، ولم تكن النتيجة النهائية لانتشار العقائد الجديدة التثوير المطلوب للجماهير، بل تنفيرها المتزايد من انظمتها السياسية . وقد ظهر هذا الوضع بوضوح في حـرب تشرين (اكتوبر) لعام ١٩٧٣ التي شهدت ، بالمقارنة مع الاشتباكـات العسكـرية السابقة الثلاثة ، اقل قدر من التورط والمشاركة الجماهيرية(١٣) .

وولدت نظرة جديدة الى الوحدة العربية في اعقاب حرب تشرين (اكتوبر) . وقد اضحت منذ ذلك الحين انجيل القيادة الرسمية وتسيطر على الكتابـات السياسية . وتقترح هذه النظرة التوحيد الوظيفي للمجتمعات العربية كمقدمة لوحدتها السياسية وترغب في استبدال العقائد السابقة بما صار يسمى « عقيدة التنمية »(١٤) .

ثمة عاملان افضيا الى نشوء النظرة الآنفة الذكر : قدرة الانظمـة العربية علـى تنسيق سياساتها في حرب تشرين (اكتوبر) والثروة التي اكتسبتها البلدان العربيـة نتيجة للزيادات الاخيرة في اسعار النفط . ويفسر كلا العاملين التفاؤل الذي يميز الان مزاج الرأي العام العربي ورؤاه للمستقبل . ويبحث العاملان بتفصيل في الجزء الثاني من الدراسة .

٢ ــ الحرب العربية ــ الاسرائيلية في محيط متحول :

أ ــ الخلفية : ١٩٦٧ ــ ١٩٧٣

يعود منشأ « النظرة الجديدة » الى الوحدة العربية بعد حرب تشرين (اكتوبـر) الى فترة ما بين الحربين . وهي تعكس محيطا طرأ عليه تحول عميق نجم عن مجموعة من التفاعلات المتعددة الابعاد ، المتغيرة والمعقدة ، والتي وقعت خلال الاعوام القليلة الماضية . وتظهر التغييرات المتعاقبة نفسها في مرحلتين متميزتين : الفترة بين حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ واب (اغسطس) عام ١٩٧١ ، والفترة منذ ذلك الحين الى الان .

١ ــ المرحلة الاولى : تغير وتبلور .

يمكن بحث التغييرات التي حصلت في هذه الفترة في ثلاث فئات رئيسية : محلية ، اقليمية ودولية .

أ) التطورات المحلية : شهدت معظم الدول العربية تغييرات اجتماعية ــ اقتصادية وسياسية اساسية منذ عام ١٩٦٧ . وكانت هذه التغييرات نتيجة لتبلور تيـارات خفية سابقة او لتطور جديد كل الجدة .

على الصعيد الاجتماعي ــ الاقتصادي(١٥)، ضاعفت عدة بلدان عربية جهودها التحديثية ، ولكن لاسباب مختلفة . ففي كل من مصر وسوريا ، استلزمت الاعتبارات العسكرية اعادة بناء القوات المسلحة . وكان نتيجة هذه الجهود في الدولتين قيام مؤسسات عسكرية ضخمة وعالية التعقيد تضم ضباطا وجنودا افضل ثقافة . وفي العربية السعودية ، ازداد زخم حملة رئيسية جديدة للتحديث منذ اواسط الستينات . وبحلول اوائل السبعينات كانت « الثورة البيضاء » التي اعلنها الملك فيصل قد تركت دمغتها على المجتمع السعودي . واتضح شكل بعض معالم الدولة السعودية الجديدة كالبروقراطيات العسكرية والمدنية الحديثة وصار لها اثر ملموس على الصعيد الاجتماعي . وكانت عمليات مماثلة ولكنها اكثر تواضعا تجري في ليبيا واليمنين ، واخيرا ، ازداد عدد فئة رجال الفكر العرب في متوالية هندسية .

هذه التغييرات الاجتماعية ــ الاقتصادية السريعة والبعيدة التأثير ما كانت لتكون ممكنة دون وفرة ايرادات النفط التي اعقبت الارتفاع الحاد في انتاج النفط العربي ، خصوصا في اوائل السبعينات . مثال ذلك ، ان الانتاج السعودي ازداد بنسبة ٣٠ ٪ عام ١٩٧٣ .

وبمصاحبة هذه التطورات الاجتماعية ــ الاقتصادية ، او ربما بسببها ، شهدت المنطقة تغييرات سياسية مهمة . وتشتمل هذه التغييرات على بروز قوى سياسية جديدة ، وقيادات جديدة ، وعقائد جديدة ، ومنظمات جديدة ومشكلات جديدة . وبالفعل ، كان المسرح السياسي يتميز بالاضطرابات العظيمة ، والجيشانات العنيفة، والتغييرات الحاسمة المفاجئة وغير المتوقعة .

فقد اطيح بالقيادة الرسمية في معظم الدول العربية عن طريق الانقلابات العسكرية والترتيبات السياسية الجديدة والانتخابات ، او الموت الطبيعي . وجاءت الى الحكم نخبات حاكمة جديدة في العراق واليمن والسودان وليبيا وسوريا عن طريق تدخل القوات المسلحة . وادى الانقلابان العسكريان الفاشلان ، ولكن الخطيرين جدا ، في المغرب الى القضاء على شخصيات سياسية قوية عدة ، وشهدت جمهورية اليمن الجنوبي المستقلة بعد عام ١٩٦٧ نزاعا عقائديا وتنظيميا عميقا بلغ اوجه في تطهيرات سياسية واسعة النطاق . وفي منطقة الخليج ، برزت تشكيلات سياسية جديدة ، هي اتحاد الامارات العربية ودولتا قطر والبحرين . وافلح البرلمان اللبناني ، بعد ازمة خطيرة حول خلافة رئاسة الجمهورية ، في انتخاب رئيس جديد للدولة عام ١٩٧٠ . واخيرا ، كان موت عبد الناصر في ايلول (سبتمبر) عام ١٩٧٠ نذيرا بعواقب بعيدة الاثر تركت تأثيرها في العالم العربي بأسره . وزادت التغييرات في القيادة السياسية ، ظاهريا ، في تحويل مفهوم الوحدة العربية الى افعال ملموسة . وكان بين هذه التغييرات تأسيس اتحاد الجمهوريات العربية الذي جرى تنفيذه وفقا للاساس المرسوم في ميثاق طرابلس لعام ١٩٦٩(١٦). وكان القذافي القوة الدافعة وراء الاتحاد. غير أن هذا الترتيب الوحدوي اثبت ، للاسف ، انه ذو أهمية عملية ضئيلة . فبحلول اواسط عام ١٩٧٣ كانت العلاقات بين مصر وليبيا من جهة ، وليبيا والسودان ، من جهة اخرى ، قد تقهقرت اكثر من أي وقت مضى .

وفي هذه الاثناء استجمعت حركة التحرير الفلسطينية اللاحقة لعام ١٩٦٧ زخما بسرعة فائقة . وصارت قوة مهمة ونشطة على المسرح السياسي للشرق الاوسط بعد عزل القيادة الرسمية لمنظمة التحرير الفلسطينية ووصول نخبة ثورية جديدة الى مركز القيادة(١٧). وكانت القيادة الجديدة تشمل امتدادا عقائديا وتنظيميا واسعا . فمن

الناحية العقائدية كانت تضم تيارات ايديولوجية متباينة ، الى المنظمات ، في حين كانت تتألف تنظيما من ١١ فصيلا معترفا به رسميا . ومن اواخر عام ١٩٦٧ حتى اواسط عام ١٩٧١ حركت منظمة التحرير الفلسطينية والهمت قطاعات واسعة من الجماهير العربية . واتخذت قوى عربية اخرى من الحركة نموذجا لها وحافزا لنشر السياسة الثورية .

وكانت النتيجة الثانوية الاخرى للبيئة الثورية الجديدة هي بروز « اليسار الجديد » الذي استجمع قواه حول المقاومة الفلسطينية وناصرها معتبرا اياها رأس حربة لثورة عربية . وهكذا صارت استراتيجيات وتكتيكات الفدائيين الفلسطينيين استراتيجيات وتكتيكات اليسار الجديد .

ب) الصراعات والعداءات القومية والاقليمية : يعود سبب الطبيعة المتفجرة لسياسة الشرق الاوسط الى عدد لا يحصى من الانقسامات الاقتصادية والاجتماعية والعرقية والدينية الملازمة لطبيعة المجتمعات الانتقالية في المنطقة. غير ان تأثيرات هذه الانقسامات المتشابكة تتخطى نطاق هذه الدراسة . واهتمامنا الرئيسي هنا هو من نوعين : الاول ، الصراعات القومية التي تمس الوجود القومي للعرب والناجمة عن وجود اسرائيل وعن سياستها التوسعية ، والثاني ، التناقضات بين العرب انفسهم .

١) الصراع العربي — الاسرائيلي : على الرغم من الاعمال العسكرية والاعتداءات الاسرائيلية على اهداف عربية غالبا ما كانت مدنية في اعقاب هزيمة حزيران ١٩٦٧(١٨)، فقد مر النزاع العربي — الاسرائيلي بمرحلة هامة تمثلت اولا بقبول بعض الدول العربية لقرار مجلس الامن ٢٤٢ الصادر في الثاني والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٦٧ وبخطة روجرز لعام ١٩٧٠ . وكان مثل هذا القبول يدل على استعداد رسمي لدى بعض الاوساط الحاكمة لانهاء حالة الحرب مع اسرائيل ، والاعتراف بحدود ما قبل عام ١٩٦٧(١٩). وبالاضافة الى هذا التغير الستراتيجي في الموقف العربي ، لا بد من الاشارة الى ان القيادة الفلسطينية غيرت نظرتها الى الاسرائيليين هي ايضا . لكن على صعيد مختلف . فالاسرائيليون ، وفقا للنظرية الجديدة ، سيبقون مع عرب فلسطين الذين سيعودون الى وطنهم ، عبر الكفاح المسلح ، ويتقاسمون واياهم حقوقا والتزامات متساوية في دولة علمانية وديمقراطية تنزع عنها صفاتها ومؤسساتها ومعالمها الصهيونية(١٩أ). وصار هذا الموقف هو البرنامج الرسمي للحركة في المجلس الوطني الفلسطيني الرابع عام ١٩٦٨ ، وقد اعاد تأكيده كل مجلس لاحق ، بما في ذلك المجلس الثاني عشر الذي عقد من الاول الى التاسع من حزيران (يونيو) عام ١٩٧٤ . وعلى الرغم من ذلك استمرت اسرائيل تتصرف بغطرسة وتهزأ بقرارات الامم المتحدة والراي العام العالمي . فقد ظلت اسرائيل خلال فترة ١٩٦٧ — ١٩٧٣ ، بتشجيع من الدعم الغربي غير المتردد ، متصلبة في تمسكها بموقف عنيد في ما يتعلق بالاراضي المحتلة ومصير الفلسطينيين .

٢) التناقضات بين العرب

في الفترة اللاحقة لحزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ ، لم تكن العلاقات بين الدول العربية في ما يتعلق بالوحدة والشقاق ، وحتى موت الرئيس عبد الناصر ، تختلف عن العلاقات التي تميز بها المسرح العربي قبل الحرب العربية — الاسرائيلية الثالثة . فقد كانت تتقلب بين اجتماعات قمة شاملة وسياسة التكتل . وكانت اجتماعات القمة تطالب بالتعاون وتنسيق السياسات ، وسياسة التكتل تولد نزعات تمزيقية وتزيد

من عدم الثقة بين الزعماء . مثال ذلك ان مؤتمري الخرطوم (عام ١٩٦٧) والرباط (عام ١٩٦٩) كانا استمرارا لسياسة اجتماعات القمة التي بدأها الرئيس عبد الناصر في اواخر عام ١٩٦٣ ، وهي سياسة كانت قد اصيبت بشلل تام تقريبا بحلول عام ١٩٦٦ . ومن جهه اخرى كانت اجتماعات القمة الصغيرة التي ضمت مصر والعراق وسوريا عام ١٩٦٣ ومؤتمر طرابلس عام ١٩٦٩ الذي حضره زعماء مصر وليبيا والسودان تمثل النزعة المعاكسة .

الا ان النزاعات بين العرب لم تكن مقتصرة على القاعات التي يجتمع فيها ملوك ورؤساء العرب . فقد كان يرافق خلافاتهم بوجه عام قطع العلاقات الدبلوماسية وحملات عنيفه بواسطة وسائل الاعلام ضد بعضهم بعضا . وكانت الحالات الاشد خطورة هي التي انفجرت فيها «الحرب الباردة» العربية متحولة الى قتال ضار وباهظ الثمن . واحد الامثلة على ذلك هو الاشتباكات السوريه ــ الاردنية ما بين عامي ١٩٦٩ و ١٩٧١ . وكذلك المواجهات الدموية المؤسفة بين القوات المسلحة الاردنية واللبنانية من جهة ، والفدائيين الفلسطينيين من جهة اخرى . وبلغت التصادمات الاردنية ــ الفلسطينية اوجها في ايلول (سبتمبر) عام ١٩٧٠ وانتهت في تموز (يوليو) عام ١٩٧١ ، والحوادث بين القوات اللبنانيه والفلسطينية التي وقعت في تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٦٩ وايار (مايو) عام ١٩٧٣ .

كانت احدى النتائج الرئيسية للمواجهات السياسية والعسكرية بين العرب انبعاث الانقسامات القديمة على أساس اقليمي أضعف التضامن بين الجماهير العربية الذي طالما عقدت عليه الامال . وبقدر ما كانت الصدوع بين الانظمة العربية ظاهرة متكررة ، كانت الانقسامات في صفوف الشعوب العربية مناقضة لتقاليد نصف قرن على الاقل من التربية القومية ونشر العواطف القومية . وثمة مثلان مهمان يجدر بنا ذكرهما من هذه الناحية . الاول يتعلق ببلدان المغرب العربي والثاني باقطار المشرق .

فقد تعرضت كل من الدول الموقعة على ميثاق طرابلس لانتقادات شديدة من القوى الاقليمية المناهضة للوحدة العربية في بلدانها . ففي السودان وحد الجنوبيون غير العرب والشماليون الموالون للمهدي فضلا عن الشيوعيين صفوفهم ، لدوافع واسباب مختلفة ، ضد الميثاق واتحاد الجمهوريات العربية المقترح وعارضوهما علنا(٢٠) .

المثل الثاني الموضح للاقليمية ينشأ عن علاقات الفلسطينيين بلبنان والاردن . فقد عززت الاقليمية اللبنانية المترسخة نتيجة للاشتباكات المختلفة التي وقعت بين الفدائيين الفلسطينيين والجيش اللبناني . وبرزت الى السطح بين الشرق اردنيين قوى قبلية جابذة نتيجة لنمو الوعي الفلسطيني وعجلت في اشعال حرب أهلية بين الجانبين .

وباختصار ، سيطرت القوى المناهضة للوحدة العربية بعد عام ١٩٦٧ . وبدا كأن احدا لا يستطيع تحدي سيطرتها ، كما بدا كأن مدى القومية العربية قد مني بهزيمة تامة .

ج) التنافس الدولي : كان الشرق الاوسط دوما حلبة لتنافس الدول الكبيرة . وقد تسببت عوامل دينية وسياسية واقتصادية وعسكرية في تدخلات اجنبية في شؤون المنطقة . غير ان دخول القومية العربية ، وتصاعد المواجهة العربية ــ الصهيونية والاستقطاب الذي سيطر على المجتمع العربي وصنفه تقدميين ومحافظين زادت من حدة التنافس الدولي واضافت عاملا خارجيا الى مرجل الشرق الاوسط . وقد سعى الاستعماران القديمان ، بريطانيا وفرنسا ، الى توطيد نفسيهما عن طريق اسرائيل في

حرب السويس عام ١٩٥٦ ، ولكنهما اخفقا . ويمكن عزو فشلهما مباشرة الى تدخلات وضغوط الدولتين المتفوقتين وحلول الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي مكانهما بوصفهما الدولتين الرئيسيتين في الشرق الاوسط . وفي هذه الحال تعززت العلائق السوفياتية ــ العربية ونقلت اسرائيل ولاءها من اوروبا الى الولايات المتحدة .

وقد حاولت الولايات المتحدة ان تروض عبد الناصر وحركة الوحدة العربية القومية وتحتويهما بعد حرب السويس عن طريق استبدال سياسة المواجهة التي كانت تنتهجها بسياسة تفهم وتوفيق . وكانت ادوات السياسة الجديدة قروضا مالية واغذية وبرامج ثقافية والاعتراف بشرعية عدم الانحياز وغيرها . واستمرت سياسة التفهم والتوفيق حتى عام ١٩٦٥ ، رغم التوترات المتكررة والتقاطعات الموقتة . وكان نقض هذه السياسة في ذلك العام منسجما مع استراتيجية الولايات المتحدة العالمية التي صارت تعتمد على التدخل الاميركي غير المباشر ورعاية الدول التابعة . ولذلك اضحت العربية السعودية وايران واسرائيل المحور البالغ الاهمية للولايات المتحدة في المنطقة وسعت الولايات المتحدة الى تفتيت قوة عبد الناصر ونفوذه وخلعه نهائيا ، وقد كان هذا في الواقع احد الاهداف الاولى لحرب حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ .

وخلافا للتوقعات الاميركية والاسرائيلية ، لم يسقط عبد الناصر بعد هزيمة حزيران (يونيو) . وبالفعل ، اثبت التضامن العربي في الهزيمة انه من الفعالية بحيث اضطر الرئيس عبد الناصر للعودة الى منصبه واعادة بناء قوات بلاده المسلحة وتعزيز المعنويات . وهذا التصميم على الاستمرار وعداء الولايات المتحدة للاهداف العربية عززا العلائق بين مصر والاتحاد السوفياتي ، وحذت حذوها العلائق السورية والعراقية والجزائرية بالاتحاد السوفياتي . واستمرت سياسة التعاون العربي ــ السوفياتي دون ان يعوقها عائق حتى موت عبد الناصر في الثامن والعشرين من ايلول (سبتمبر) عام ١٩٧٠ ومجيء السادات خلفا له .

٢) المرحلة الثانية : زوال السحر والوفاق .

ومع غياب عبد الناصر عن المسرح، لم تستطع شخصية موحدة ان تضطلع بدوره . ولم يكن الخلف ، السادات ، يتمتع بالاعتبار والتأثير اللذين كانا لعبد الناصر . فقد كان يفتقر الى سحر الزعامة الجماهيري Charisma المطلوب للتغلب على الصعوبات والصمود للمأزق الذي كان يميز العلاقات العربية ــ الاسرائيلية . وبلغ الشقاق مستويات عالية جديدة وتعرض السادات للضغط لاخراج مصر من معضلة «اللاحرب، واللاسلام » . وكانت هذه الحالة قد زادت من حدة زوال السحر من نظامه وتكررت في اماكن اخرى من العالم العربي .

كانت مصادر الاستياء عديدة . اولا وقبل كل شيء كان استياء الجماهير العربية من عجز الانظمة عن انهاء الاحتلال الاسرائيلي . واسهمت صيغة «اللاحرب ، واللاسلام» التي حلت محل حرب الاستنزاف في السخط الشعبي .

ثانيا ، سبب عجز الزعماء العرب عن تحرير اراضيهم الوطنية ضعفا متزايدا لمراكز قوتهم وبالتالي الشك في شرعيتهم . كما القى عجزهم عن تحقيق منجزات بارزة على الجبهة الداخلية المزيد من الشك على اهليتهم للحكم . وعلى الصعيد القومي ، كانت القيادة ايضا في حالة شلل تجلت في عدم قدرتها على تطوير اتحاد الجمهوريات العربية الى ترتيب سياسي معقول يمكن أن يوقف التشوش العربي . وكان ضعف هذه الانظمة واضحا ابان القتال بين الفدائيين الفلسطينيين والنظام الاردني .

ثالثا ، كان زعماء آخرون ، مثـل الملك فيصل ، يتعرضون هم ايضـا لوابل من الهجمات شنتها القوى الداخلية والخارجية التي حثته على « محو آثار عدوان عـام ١٩٦٧ » . ولان احتلال شبه جزيرة سيناء أوصل القوات الاسرائيلية الى الجناح الشمالي من العربية السعودية ، فقد راحت المخاوف الشعبية تضغط على النظام لتشكيل وفاق مع مصر ، تحقق فعلا في حرب تشرين (اكتوبر) . والى ذلك ، كانت سيطرة اسرائيل التامة على المواقع الدينية في البلاد المقدسة مصدر احراج شخصي للملك فيصل ، بوصفه أبرز زعيم اسلامي عربي . وفوق ذلك ، فقد عرضت العلاقات السعودية ــ الاميركية الوثيقة جدا على الملكية خيارين : اما ان تقطع العلاقات او تستخدم مساعيها الحميدة مع الولايات المتحدة لكي تجبر الولايات المتحدة اسرائيل على الانسحاب .

تطـور التعاون بين العربية السعودية ومصر الـى تحـالف ضمني هدفـه كسب ثقة الجماهير العربية عن طريق انجاز انسحاب اسرائيلي . واتخذت خطوات للوصول الى تفاهم مع حكومة الولايات المتحدة ، وقام الامير سلطان بن عبد العزيز ، الموفد الخاص للملك السعودي ، بعدة جولات من المفاوضات مع كبار المسـؤولين الاميركيين ، وبدا كأن الفريقين توصلا الى اتفاق اشترط ان تستخدم الولايات المتحدة نفوذها مع اسرائيل مقابل ابعاد المستشارين السوفييت عن مصر . ولم يضع الرئيس المصري أي وقت في تنفيذ الجزء المسند اليه من الاتفاق . فقد انهى بعثة المستشارين المساندين السوفييت في الثامن عشر من تموز (يوليو) عام ١٩٧٢ بحجة امتنـاع السوفييت على الوفاء بوعودهم السابقة لتزويد مصر « بأسلحة هجومية » . على ان الاميركيين لم يردوا على ايماءة مصر بمثلها . وأخفقت التهديدات السعودية اللاحقة باستخدام « سلاح النفط » في دفع الولايات المتحدة الى العمل .

وصار التجاهل الاميركي التام لرغبات العرب المقرون بالعناد والغطرسة الاسرائيلية المستمرة امرا لا يطاق . وبلغ انزعاج الزعماء العرب ، وبخاصة زعماء مصر وسوريا، حدا لم يسبق له مثيل . وبات هؤلاء الزعماء مقتنعين بان الطريقة الوحيدة للخروج من المأزق هي في القتال . ومنذ ذلك الحين اخذت مصر وسوريا تحضران تحضيرا جـادا لهجوم مشترك وشرعتا تحققان التضامن العربي مع كل الانظمة . وبدعم من العربية السعودية ، سوت مصر وسوريا علاقاتهما مع الاردن في ايلول (سبتمبر) عام ١٩٧٣ بقصد اكمال الطوق حول اسرائيل .

ب) قضايا : حرب تشرين (اكتوبر) والتضامن العربي

اندلعت الحرب العربية ــ الاسرائيلية الرابعة بهجوم مصري ــ سوري مفاجىء منسق في السادس من تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٧٣ . واشارت الحرب الى نقطة تحول تاريخية وأوجدت حقائق عسكرية وسياسية جديدة (٢١). ولن نبحث هنا الا تلك الحقائق التي لها صلة بمسألة الوحدة العربية : مستوى التضامن العربي ، طبيعـة القيادة ، المحتوى العقائدي ودرجة المشاركة الجماهيرية . وستكون القضايا الاربع بمثابة مقولات مقارنة لتحليل ومقارنة حرب تشرين بالحروب العربية ــ الاسرائيلية الثلاث الاولى .

١) مستوى التضامن العربي :

أظهر التضامن العربي في الحروب العربية ــ الاسرائيلية الاربع مجموعة واسعة التنوع من الاختبارات(٢٢) ، ففي الحرب العربية الاسرائيلية الاولى لعام ١٩٤٨ كان

التنسيق العسكري والسياسي في الحدود الدنيا وكان عدم الثقة يسود العلاقات بين الزعماء العرب خاصة وانه كان لكل من مصر والاردن مطامعهما الاقليمية والسياسية المتباينة .

ومن الناحية العسكرية شاركت وحدات من خمسة اقطار عربية في بعض معارك تلك الحرب(٢٣) .

ولم يكن التضامن العربي أقوى من ذلك في حرب عام ١٩٥٦ . فعندما شنت بريطانيا وفرنسا واسرائيل هجومها المدبر على مصر ، كان الشرق الاوسط ممزقا بين معسكر الاستقلاليين بقيادة مصر والمعسكر الموالي للغرب بقيادة العراق . وكانت حربهما السياسية الدعائية قد ابتدأت بدخول اقتراح ميثاق بغداد في اواخر عام ١٩٥٣ . وأبان الحرب نفسها ، وضعت المطارات العراقية تحت تصرف البريطانيين واستخدمت في حملتهم ضد مصر ، وقاتلت مصر وحدها . ومن الدول العربية الاخرى ، وحدها سوريا عرضت قوات على مصر ونسفت أحد خطوط انابيب النفط . أما بقية الدول العربية فقد اكتفت بالدعم الشفهي . ولم يكن الاجتماع الطارىء الذي عقد في بيروت وحضره بعض الزعماء العرب أكثر من مجرد حالة من حالات الدبلوماسية العاطفية التظاهرية . وكان الشقاق العربي في ذروته .

وتبدى عام القدرة العربية على التعاون قبل الحرب العربية ــ الاسرائيلية الثالثة قبل ستة أشهر من الحرب حين تأجل مؤتمر القمة في الرباط الذي كان مزمعا عقده في العام ١٩٦٦ الى وقت غير محدد . ولم تتحقق الاعلانات العربية الرسمية عن « الدعم غير المحدود » للبلدان المقاتلة .

وفي حين كان التضامن العربي مفقودا في المواجهات السابقة مع اسرائيل ، فقد كان حاضرا عام ١٩٧٣ . وهذه المرة لم يكن مقتصرا على التأييد الشفهي والمعنوي، بل اشتمل على معونة مادية قدمتها معظم الدول العربية الى مصر وسوريا . وكان هذا العمل يتغاير تغايرا حادا عن الحروب الماضية خاصة انه لم يكن مصحوبا بالجعجعة المعتادة . وبالفعل ، فان ما من شيء أقل من هذا كان سيرضي الجماهير المشككة ويعيد اليها الثقة بقيادتها .

عبر التضامن العربي عن نفسه في حقول ثلاثة : الحقل العسكري ، والحقل السياسي ، والحقل الاقتصادي . عسكريا ، كاد التعاون بين مصر وسوريا يبلغ حد التنسيق والتناغم التامين المتبدين في القيادة العليا الموحدة المصرية ــ السورية ، والخطط المرسومة بصورة مشتركة للهجوم المفاجيء وخطط الادارة اليومية للمعارك . وكذلك كانت المشاركة العسكرية للدول العربية الاخرى على الجبهات فعالة . وبرغم ان الهجوم كان مباغتا ، فقد تمكن العديد من الدول العربية من ارسال أفضل وحداتها العسكرية بسرعة الى ساحات القتال ، والامر الاهم من ذلك هو ان هذه الوحدات وضعت فورا بتصرف قادة الميدان السوريين والمصريين وتم ضمها بصورة فعالة في الجيوش المقاتلة . ويختلف هذا الاختلاف كله عن السلوك العسكري العربي في الماضي عندما كان كل واحد من المشتركين يخوض معاركه وحده ودون تنسيق مع الآخرين .

وسياسيا ، استخدمت الدول العربية مجموعة كاملة من الوسائل الدبلوماسية لتعبئة الرأي العام العالمي لمصلحتها . وبالاضافة الى جهود البلدان العربية المنسقة في الامم المتحدة ، قام كل بلد باتصالاته الخاصة مع الدول الاخرى . وكان أبرز هذه الاتصالات وأهمها هو الاجتماع الذي تم ببادرة من العربية السعودية وبقيادتها بين

اربعة من وزراء الخارجية العرب ورئيس الجمهورية الاميركية ، ورحلة الرئيس الجزائري الى موسكو واجتماعاته بالزعماء السوفييت ، والاتصالات السعودية والجزائرية المنفصلة بزعماء الولايات المتحدة ، والحملات الدبلوماسية الليبية والجزائرية في افريقيا وآسيا . واخيرا التحركات المصرية في اوروبا الغربية بالاضافة الى الاتصالات السورية بزعماء اوروبا الشرقية والبلدان الشيوعية الاخرى . وفي الواقع ، لم ينجح العرب يوما في تعبئة الراي العام العالمي وراء قضيتهم كما نجحوا ابان حرب تشرين (اكتوبر) .

واقتصاديا ، اتخذ التضامن العربي شكلين اثنين : تبرعات مالية لسوريا ومصر واستخدام النفط كسلاح سياسي ضد العدو ومؤيديه . ومع انه لم تتوفر ارقام دقيقة حول كمية التبرعات ، فيمكن الافتراض بأنها فاقت كل الارقام القياسية السابقة .

على « جبهة النفط » ، اوجدت البلدان العربية المنتجة للنفط ثلاث سوابق مهمة :

أ) فقد استخدمت النفط ، لاول مرة ، كسلاح سياسي وقررت خفض الانتاج بنسبة خمسة بالمئة شهريا على الاقل بدءا من تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٧٣ .

ب) كان هذا القرار فعل تحد ضد شركات النفط الاجنبية الكبيرة وبلدانها الام . وذهب العراق الى أبعد مما ذهبت ليه البلدان الاخرى فأممت شركات النفط الهولندية والاميركية .

ج) فرض حظر النفط ضد الولايات المتحدة وهولندا الذي كشف عن تصميم على مكافأة ومعاقبة الصديق والعدو .

٢) المحتوى العقائدي :

كان أحد أسباب المحافظة على التضامن العربي ابان الحرب هو أن الجدل العقائدي ظل خافتا جدا ، ان لم يطوه النسيان . واعتبر الاستشراف العملي للامور والمشكلات افضل وسيلة للمحافظة على تحالف عربي وتعبئة العرب ككل . وقد عبر عن هذه السياسة بالطريقة التالية :

أ) في النطاق العربي ، أعيدت علاقات سوريا ومصر مع المنافستين العقائديتين السابقتين العربية السعودية والاردن الى حالتها الطبيعية ، وأوقفت الحملات الدعائية ضد العراق .

ب) انعكس تفتت العقائد في تحطم العلاقات بين مصر والاتحاد السوفياتي والازمة اللاحقة في العلاقات بين العربية السعودية والولايات المتحدة .

ج) عنت سياسة الاستشراف العملي للامور والمشكلات ، أيضا ، تجديد العلائق مع الدول التي كانت في الماضي تعتبر غير صديقة . ويشهد على هذه السياسة ، مثلا ، استئناف العلاقات مع الولايات المتحدة بعدما قطعت قطعا تاما لمدة سبعة اعوام .

د) تخلت الدول العربية عن اللغة المتسمة بالغلو ابان الحرب وبعدها . وتميزت التصاريح والخطب العامة باعتدالها ، ان لم يكن بتعبيرها المكبوح عمدا .

٣) مستوى المشاركة الجماهيرية :

تشير حرب تشرين (اكتوبر) عام ١٩٧٣ الى أدنى نقطة بلغتها مشاركة الجماهير العربية . فلم تقع تظاهرة واحدة في أية عاصمة عربية . ولم تشهد البلاد العربية أي اندفاع للتطوع ولم توجه دعوة الى حمل السلاح الى الجميع بلا استثناء . وقد دارت

الحرب من البداية الى النهاية على ساحة القتال بين جيوش تقليدية . وكانت الحالة المستثناة الوحيدة هي الحرب التي شنتها قوات الثورة الفلسطينية .

ويبدو كأن حرب تشرين (اكتوبر) كانت تمثل وحدة الانظمة بينما كانت حرب عام ١٩٦٧ تمثل وحدة الدموع ، وحرب عام ١٩٥٦ تمثل وحدة المطامح ، وحرب عام ١٩٤٨ تمثل وحدة الايمان . وقد أظهرت حرب عــام ١٩٤٨ مشاركة والتزامـا جماهيريين بالمحافظة على الهوية العربية لفلسطين . وجسم ذلك الالتزام « جيش الانقاذ » الذي ضم خليطا من المتطوعين من مصر والمغرب وسوريا ولبنان والعراق والبلدان العربية الاخرى ، وأرغم الانظمة على عدم التغاضي عن واجبها نحو فلسطين وشعبها . على ان دخول سبعة جيوش عربية الى فلسطين في الخامس عشر من أيار (مايو) عام ١٩٤٨ والهزيمة التي منيت بها بعد ذلك اكدت عدم صلاح وكفــاءة الانظمة العربية لتحقيق رغبات شعوبها . فبالنظر الى التنافس الشديد بين الانظمة السياسية ، لم يسمح للجيوش بالعمل في انسجام مع بعضها بعضا ، وكانت النتيجة تفتت شرعيــة الانظمة الذي تجلى في الجيشانات والاغتيالات السياسية التي اجتاحت الاقطار المحيطة بفلسطين .

في الحرب الثانية ، كان الرئيس عبدالناصر قد قام بمحاولات قوية لاعادة اشراك الجماهير في الشؤون القومية وناشدها مباشرة ، متخطيا حكوماتها . وشهدت الحرب تماثلا عظيما في المصالح بين القائد والقاعدة ، في غياب الانظمة الاخرى . كمــا ان القيادة المتجاوبة مع الجماهير التي تميز بها الرئيس عبدالناصر والمشاركة الجماعية بين الجمهور والزعيم ارغمتا هذه الانظمة على تقديم الولاء الكلامي للتضامن .

وبحلول عام ١٩٦٧ كانت المشاعر الجماهيرية قد تفجرت في التاسع والعاشر من حزيران (يونيو) عندما تخلى الرئيس عبدالناصر عن منصبه واقنعته باستئناف قيادته . وبما ان الانظمة كانت قد تخلت عن مسؤوليتها ، فلم يكن في مقدور أحد أن يوجه خزان الطاقة هذا في قناة ويضعه في خدمة الامة . فتبددت الطاقة . وحدث تباعد خطير بين الجماهير والانظمة . وبحلول عام ١٩٧٣ لم تكن الجماهير ولا الزعماء قد بدأوا عملية التفــاعل .

الخاتمة

« الذي حدث هو ليس حتى الآن وحدة أو اتحادا ، ولكنه اكثــر من مجرد تضامن استلزمته الاحداث التي حصلت أو تحصل في المنطقة »(٢٤). هذا القول يصف وصفا يلاحظه معظم دارسي السياسة العربية في دراساتهم . وفي حــين لا يعرفون كيف يشرحون شرحا مرضيا لماذا تسيطر الوحدة مثل هذه السيطرة القوية على مخيلة العرب وأعمالهم ، فانهم يدركون أعمالها ادراكا تاما . وتؤيد دراساتهم استنتاجنا . فمجرى الاحداث الحالي ليس نتاج التطورات الاخيرة فحسب ، ولكنه ناجم ايضا عن مشاعر واسعة النطاق بين العرب بأن لهم هوية مشتركة ورغبة في أن يقيموا بين انفسهم وحدة سياسية تلغي الحدود القائمة .

لقد مرت حركة الوحدة العربية في تاريخها الحديث عبر أربع مراحل . وكانت كل مرحلة من هذه المراحل تبرز سبيلا الى تحقيق هذه الوحدة . ودعت المرحلة الاولى الى توفير منصة للتعاون ولتنسيق السياسات بين الانظمة العربية. وصنفت المرحلة الثانية الانظمة معتبرة ان هناك دولا ديناميكية واخرى متحجرة وقصرت التحركات الوحدوية على الانظمة الديناميكية . وطالبت المرحلة الثالثة بالتحويل الجذري للحياة والمؤسسات

العربية ووكدت على دور الحركات العامـة . واخيرا يتطلب سبيـل الوحدة الرابع المسيطر حاليا توحيد العالم العربي عن طريق تعبئة الموارد واستخدامها في مشروعات التنمية المشتركة .

ويلاحظ المرء في كل من المراحل الاربع الآنفة الذكر وجود اتجاه يعارض النظـرية السائدة ، ولكنها عادت فكسفته . فالنظرة التعاقدية ، على سبيل المثال ، عارضها الطموحون ، والنظرة التقدميـة عارضها المحافظون ، والنظـرة الثورية عارضها الاصوليون ، والنظرة العملية عارضها الاندماجيون .

وفي ما يتعلق بتأثير حرب تشرين (اكتوبر) على الوحدة العربية ، فان عرض الجانب العربي ما كان ليكون مثيرا للاعجاب الى هذا الحد لولا قدرته على تحاشي الخلافات من اجل الاهداف المشتركة . وقد أثبتت هـذه السياسة صحة خطـة عمل عبدالناصر الستراتيجية التي كانت تؤثر الفكرة القائلة بأن « الوحدة هي الطريق الى فلسطين » على الفكرة القائلة بأن « فلسطين هي الطريـق الى الوحدة » . ودون التنسيـق السياسي ــ العسكري للسياسات الذي سبق تشرين الاول (اكتوبر) واستمر الى ما بعده ، لما كانت نتيجة الحرب اختلفت اختلافا كبيرا عـن الحروب العربيـة ــ الاسرائيلية السابقة .

وبالاضافة الى الرغبة في معالجة القضايا القومية بصورة مشتركة ، عكست اقامة الجسور بين المعسكرين العقائديين المتحـاربين الحقائق الاجتماعية ــ الاقتصادية المتحولة في المنطقة . فالزيادة الحادة في دخل البلدان العربية المنتجة للنفط ، وبخاصة بلدان شبه الجزيرة العربية ، رافقتها زيادة في القوة المالية والعسكرية والسياسية . فبحلول أواخر الستينات لم تعد الانظمة المحافظة في مركـز دفاعي ازاء الانظمـة التقدمية . وكان في قدرتها أن تحدّث اقتصاداتها وبروقراطياتها المدنية دون الاضطرار الى تغيير أنظمتها السياسية . وكانت بحبوحتها كافية لتخفيف الاضطراب الاجتماعي الداخلي ولتحييد النقاد في الخارج . فالتبرعات المالية السنوية التي قدمتها العربية السعودية والكويت وليبيا لمصر وسوريا ساعدت ، منذ مؤتمر الخرطوم عام ١٩٦٧ ، على سبيل المثال ، في تليين موقف التقدميين العرب .

ويقف العالم العربي اليوم على مفترق الطرق . وتتنافس التيارات والاتجاهات فيما بينها للسيطرة : الرغبة في المحافظة على التقاليد ، والرغبة في اللبرالية والرغبة في التثوير . وتتقاسم التيارات الثلاثة حاسة مهمة تاريخية للعالم العربي . فيتصورها التيار الاول في تأسيس مجتمع عربـي مسلم ، والتيار الثـاني في مجتمع علماني ــ ديموقراطي ، والتيار الثالث في ثورة وحدوية عربية ذات محتوى اشتراكي. وفي الوقت الحاضر اندمجت المدرستان الليبرالية والمحافظة بدافع المحافظة على الذات لتقترحا توجها عمليا غير عقائدي للمشكلات العربية . وقد تتحقق جهودهما بالنظر الى التدفق الضخم لايرادات النفط التي تزودها بالوسائل المادية لتحقيق رؤياهما . بيد أنه من غير المحقق انهما يملكان الطاقة والتصميم للاضطلاع بمثل هذه المهمة . فالشكوك العميقة الجذور ، والفوارق المحلية ، والخاصيات الشخصية وقحة طبقـة الموظفين العرب تعرض عقبات خطيرة لا بد من التغلب عليها فيما بعد .

وبالاضافة الى حاسة المهمة التاريخية وغريزة المحافظة على الذات ، لا بد للتحالف المحافظ ــ الليبرالي من أن يحسب حساب الارادة الشعبية التي تمارس الضغط عليه باستمرار للعمل . والامتناع عن فعل هذا الامر قد لا يبقي للعالم العربي الا خيار الثورة الثالث .

الحواشي :

١ ــ **ملحق النهار** (بيروت) ، ٣٠ حــزيران (يونيو) ، ١٩٧٤ .

٢ ــ صاغ شعاري « وحدة الصف » و « وحدة الهدف» ونشرهما بين الجماهير الرئيس عبدالناصر في الخطاب الذي ألقاه في ٢٢ شباط (فبراير) ، ١٩٦٢ . وفي حين وكد الشعار الاول على الحاجة الى التضامن بين الانظمة العربية بصرف النظر عن فلسفاتها الاجتماعية ــ السياسية المتباينة ، فقد دعا الشعار الثاني الى التعاون بين الانظمة التي تتقاسم نظرة مشتركة فقط . والقصد من الدمج الحالي بين الشعارين هو الاشارة الى ان جميع الانظمة العربية تسعى الى نفس الاهداف.

٣ ــ للحصول علــى وصف مفصل لنشاطــات الجامعة العربية الوظيفية وبرامجها ، انظــر روبرت ماكدونالد ، *The League of Arab States: A Study in the Dynamics of Regional Organization. (Princeton:* Princeton University Press, 1965), pp. 169-22.

٤ ــ استشهــد به فايــز صايــغ في كتابــه *Arab Unity: Hope and Fulfilment* (New York: The Devinain Company, 1959), p. 137.

٥ ــ Fayez Sayegh : *Arab Nationalism: The Latest Phase.* Reprint from the November issue, 1957, of *Middle East Forum, Al-Kulliyah* (Beirut).

٦ ــ للحصول على نص الاعلان ، انظر مركز الاعلام العربي ، نيويورك ، *Basic Documents of the Arab unifications* (Documents collections, No 2), 1958, pp. 5-6.

٧ ــ Malcolm Kerr. *The Arab Cold War 1958 - 1964: A Study of Ideology in Politics* (London: Oxford University Press, 1965), pp. 21-22.

٨ ــ Monte Palmer, «The United Arab Republic: An Assessment of its Failure». *The Middle East. Journal* (Winter, 1966), pp. 67.

٩ ــ للحصول على وصف للاحداث المفضية الى تأسيس الاتحاد وعلى تقييم لقابليته للحياة ، انظر Peter Bechtold. «New Attempts at Arab Cooperation: The Federation of Arab Republics, 1971 — ?» *Middle East Journal.* pp. 152-172.

١٠ ــ Henry Sigmon «Arab Unity and Disunity ». *The Middle East Journal* (Winter, 1962), p. 48.

١١ ــ احد المنشورات التي تحتوي علــى الاراء الموضحة لمعظم الجماعات اليسارية العربية حول مسالة الوحدة خلال فترة ما بين حربي عــام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣ هو العدد الخاص المعنون « الوحدة والثورة العربية » من مجلة « الثقافة العربية » (بيروت) ، تشرين الثاني (نوفمبر)، ١٩٧١ ، العدد ٦ .

١٢ ــ الكاتبان اليساريان العربيان اللذان يشذان عن هذا الاتجاه العام واللذان يحذران اليساريين الاخرين باستمرار من اشراك موقفهم الدوغماتي هما الياس مرقص وياسين الحافظ . انظــر مقالتيهما في المصدر السابق ، ص ١٤ ــ ١٩ و ٢٠ ــ ٢٣ .

١٣ ــ للتبصر في الطريقة التي أثرت بها العقائد اليسارية على ردود فعل الجماهير العربية، انظر «The Fourth Arab - Israeli War», *Palestine Affairs,* No. 27 (November, 1973), p. 32.

١٤ ــ انظر النــداء الذي اطلقه محمد جابــر الانصاري بعنوان « التكامل الاقتصادي هو شرط تاريخي لاية وحدة » ، في **الانوار** (بيروت) ، ٤ أيار (مايو) ، ١٩٧٤ .

١٥ ــ للحصول علــى عرض مفصل للتطــورات الاجتماعية ــ الاقتصادية ، انظر Charles Issawi, « Economic Development in the Middle East ». *International Journal.* Vol. XXVII, No. 4 (Autumn, 1973), pp. 729-747.

١٦ ــ الذي وقعته مصــر وليبيا والســودان في السابع والعشرين من كانون الاول (ديسمبر) ، ١٩٦٩ .

١٧ ــ للحصول على تحليل دقيق يحيط بالموضوع حتى الوقت الحاضر ، انظر Ibrahim Abu Lughud. « Altered Realities. The Palestinians Since 1967» *International Journal,* Vol. XXVII, No. 4 (Autumn, 1973), pp. 648-669.

١٨ ــ تشمل هــذه المداولات اعمال المقاومــة الفلسطينية ، وحــرب الاستنزاف والغــارات والغارات الانتقامية المتواصلة تقريبا على طول خطوط وقف النار والهدنة .

١٩ — لا بد من الاشارة الـى ان بعض الدول العربية التي قبلت بقرار مجلس الامن وبمشروع روجرز ، أوضحت اكثر من مرة انها لا تعتبر هذا القبول ماسا بحقوق الشعب الفلسطيني القومية ولذا فانها أعلنت مواصلة دعمها لنضال الثورة الفلسطينية وكفاحها من أجل التحرير .

١٩ أ — تجب الملاحظة في هذا السياق بأن عددا صغيرا من الشخصيات الفلسطينية التي تعيش في ظل الاحتلال الاسرائيلي ، كان بين ابرزها الشيخ محمد الجعبري وعزيز شحاده ورشاد الشوا ، طرحت مقترحات من النـوع المعرض لاخطـر الشبهات لحـل النزاع العربـي — الاسرائيلي . وقد رفض زعماء منظمة التحرير الفلسطينية خطط هـذه الشخصيات برمتهـا ووصموها بالخيانة .

٢٠ — انظر
Peter Bechtold, *op. cit.*, pp. 159-60.

٢١ — تقدم دراسة أعدها فريق من الباحثين في مركز الابحاث الفلسطينية في بيروت وصفا وثائقيا شاملا للحرب . انظـر اسعد عبد الرحمن : **الحرب العربية — الاسرائيلية الرابعة**. (بيروت، مركز الابحاث الفلسطينية ، ١٩٧٤) .

٢٢ — تشير عبارة « التضامن العربي » هنا الى التضامن بين الانظمة .

٢٣ — باستثناء « جيش الانقـاذ » المؤلف مـن متطوعين ، كانت هذه الوحدات من مصر والاردن والعراق وسوريا ولبنان .

٢٤ — عادل أبو شنب، «أكثر من مجرد تضامن»، **المعرفة** (دمشق) ، العدد ١٤٣ (كانون الثاني — يناير ١٩٧٤) ص ١٧٦ .

سداسية الأيام الستة والوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل

(الكتاب الثالث : يعاد الثانية)

اميل حبيبي

اميل حبيبي ، افضل من كتب القصة في فلسطين المحتلة ، يضيف بهذا العمل الجديد انجازا آخر الى رائعته الشهيرة « سداسية الايام الستة » . وما تنشره « شؤون فلسطينية » هنا هو الفصل الثالث والاخير من ثلاثية « الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل » . ويلخص اميل حبيبي الكتابين الاولين من الثلاثية بما يلي :

ظهر الكتاب الاول — يعاد — من هذه السيرة الذاتية العجيبة (اوتوبيوغرافيا) ، في العدد الثاني من مجلة « الجديد » الذي ظهر في شباط ١٩٧٢ . وظهر الكتاب الثاني منها — باقية — في العددين ١١ و١٢ من « الجديد » اللذين ظهرا في كانون الاول من العام نفسه .

في الكتاب الاول — يعاد — ينتسب سعيد ابو النحس المتشائل الى عائلة عريقة في بلادنا يرجع أصلها ، كما يقول ، الى مسبية تبرصية من حلب ، من سبايا تيمور لنك سباها جده الاكبر ، أبجر بن أبجر . ويفسر اسم عائلته الغريب — المتشائل — بأنه ادغام المتشائم بالمتفائل . فشيمة هذه العائلة بين بين ! وفيه يروي قصة عودته الى « اسرائيل » من المهجر ، يوم قيامها ، وكيف التقى رجل الفضاء في دياميس عكا ، وسفره الى مدينة حيفا ، واشتغاله زعيم عمال في اتحاد عمال فلسطين ، يرئسه معلمه يعقوب وفوقهما رجل الجهاز الخاص « الرجل الكبير ذو القامة القصيرة » ، حتى يلتقي صاحبته من أيام الدراسة ، « يعاد » ، ذات العينين الخضراوين . ولكن العسكر ، في دهمة تفتيش ، يقذفونها الى ما وراء الحدود ، فيضيع أثرها .

وفي الكتاب الثاني — باقية — يروي سعيد أبو النحس المتشائل قصة التقائه فتاة طنطورية — باقية — على مصب نهر الزرقاء ، فيتزوجها ، فتفضي اليه بسر عجيب عن كنز خبأه والدها ، قبل رحيله ، في كهف في غور البحر على شاطىء الطنطورة ، وتلد له ولدا وحيدا اسماه « ولاء » فيعلم من والدته بهذا السر ، فيقيم خلية سرية مسلحة مع زميلين له في المدرسة ويجعلون من قبو مهجور على شاطىء الطنطورة مخبأ لهم ومخزنا للاسلحة . اما الزميلان فتطالهما يد السلطة وأما « ولاء » فيلتجىء الى القبو مزمعا ان يقاوم حتى يقتل . فيخف الرجل الكبير مع عساكره الى سعيد ، أي والد ولاء ، ان يقوم ويذهب هو وامه — باقية — الى ولدهما ليقنعاه بأن يستسلم دون قتال وفضيحة . فيذهبان . فتحاول باقية ان تقنع ولدها بأن يستسلم ، فيدور بينهما حوار تكون نهايته الطبيعية هي انحياز باقية الى ولدها فتقف معه في القبو المهجور ثم يفاجئان العسكر ويغوصان في الماء فلا يعثر لهما على أثر . ويقال انهما غرقا في الكهف في غور البحر ، الذي خبأ فيه والد باقية كنزه المذكور . فيضيع أثرهما ، كما ضاع من قبل ، اثر يعاد .

[١]

سعيد يجد نفسه فوق خازوق بلا رأس

كتب الي سعيد ابو النحس المتشائل ، قال : جاءت النهاية حين استيقظت في ليلة بلا نهاية . فلم أجدني في فراشي . فزارتني البردية . فمددت لها يدي ابحث عن سترة فاذا بها تقبض الريح .

رأيتني جالسا على ارض صفاح . باردة مستديرة . لا يزيد قطرها على ذراع . وكانت الريح صرصرا والارض قرقرا . وقد تدلت ساقاي فوق هوة بلا قرار كما تدلى الليف في الخريف . فرغبت في أن أريح ظهري . فاذا بالهوة من ورائي كما هي الهوة من امامي وتحيط بي الهوة من كل جانب . فاذا تحركت هويت . فأيقنت اني جالس على رأس خازوق بلا رأس .

فصرخت : النجدة ! فجاءني بها رجع الصدى واضحة حرفا حرفا . فعلمت انني جالس على علو شاهق . فرحت أسلي وحشتي بمجاذبة الصدى أطراف الحديث . فكان الحديث طريفا حتى افترت الهوة عن ابتسامة فجر اغبر كأنها العبوس .

فماذا أنا فاعل ؟

فناديت عليّ قائلا : هدىء من روعك ، يا ابن النحس ، واجعل أمرك شورى مع عقلك . فما الذي وضعك هذا الموضع ؟ وهل من المعقول ان تنام في فراشك مساء فتستيقظ فاذا أنت على خازوق ؟ تأبى هذا الامر نواميس الطبيعة واحكام المنطق . فأنا ، اذن ، في حلم لا غير على الرغم من انه حلم طويل .

فما بالي أظل قاعدا على هذا الخازوق ، تحزمني البردية ثم تنشرني لا ستر ولا ظهر ولا أنيس ، ولا أنزل ؟

هذا خازوق في كابوس لا محالة . كابوس عن خازوق . فاذا نزلت عن الاخير نفضت الآخر عن صدري فأعود الى فراشي واتغطى واتدفأ . فكيف أتردد ؟ أخوفا من ان أهوي من هذا العلو الشاهق الى قاع الهوة ، كبطة أردتها رصاصة صياد بط ، فأتوجع فأموت ؟

ولكن موضعي هذا هو موضع الوهم على خازوق الوهم . فهو فيما يراه النائم من احلام تخالف نواميس الطبيعة واحكام المنطق . فهيا ، هيا احتضن هذا الخازوق بساعديك وبساقيك وبكل ما فيك من عزم وحزم وارادة شديدة عند الشدة ، ثم اهبط عليه وئيدا كالستجاب .

فأزمعت أمري . فحركت ليفتي المتدليتين اتحسس صفحته فاذا بها ملساء كجلد الثعبان باردة مثل بروده . فأيقنت انني لن اقوى على التشبث بهذا الثعبان . واذا نزلت فأنا واقع لا محالة في القاع ، فأدق عنقي فأتوجع فأموت . فأمسكت .

واتتني حكاية الساحر الهندي الذي ينصب الحبل فيظل يرتفع في السماء حتى يغيب راسه في الغيم فيصعد عليه حتى يغيب ثم يعود ويهبط عليه فلا يتأذى بل يسترزق . ولكنني قلت : ما أنا بساحر هندي بل مجرد عربي بقي ، سحرا ، في اسرائيل .

فأردت أن اصرخ : أنا في كابوس ! ثم أن أقفز ، فلا يمكن أن أموت !

ولقد صرخت . الا أنني لم أقفز . فاذا كان موضعي هذا هو موضع الوهم فوق خازوق الوهم ، وفيما يراه النائم في منامه من حلم او من كابوس ، فلن يدوم الامر طويلا قفزت أم قعدت . وسوف استيقظ ، لا محالة ، فأجدني في فراشي متغطيا متدفئا .

فما حاجتي ، اذن ، الى مسابقة الساعات ، وربما الدقائق والثواني ، حتى لحظة اليقظة الآتية لا محالة ؟

ما حاجتي الى القفز اذا كان القعود سيقودني الى النتيجة نفسها ؟

وهزتني قشعريرة من البردية كادت ان تلقيني من فوق الخازوق لولا قشعريرة خاطر لم استطع أن أكفه عني :

فكيف اذا كان موضعي هذا هو حقيقة وليس فيما يراه النائم من حلم او من كابوس ؟ أما القول بأنه مخالف نواميس الطبيعة وأحكام المنطق فلا يكفيني برهانا على انه غير حقيقي . ألم تبحث عائلتي ، عائلة المتشائل ، عن السعادة طـــي القرون في عجائب خارجة عن نواميس الطبيعة وعن احكام المنطق ؟ واذا ظل أجدادي يدقون أعناقهم وهم يبحثون تحت ارجلهم عن الكنوز المطمورة فها أنا قد وجدت ضالتي ، وأنا انظر فوق راسي ، في اخوتي الفضائيين الذين أعادوا الى نفسي الطمأنينة . فكيف يُنتظر مني ، من دون آبائي وأجدادي ، وأنا فوق هذا الخازوق بالضبط ، أن أسلم أمري الى نواميس الطبيعة وأحكام المنطق ؟

ولقد بقيت على هذه الحال أترنح بين قشعريرة وقشعريرة ، بردية تقيمني ومحتد عريق يقعدني ، حتى التقيت يعاد مرة ثانية فشعرت بالدفء لاول مرة منذ الف عام !

[٢]

كيف أصبح علم الاستسلام ، فوق عصا مكنسة ، علم الثورة على الدولة ؟

التقيت يعاد فيما يكون فيه اللقاء في اسرائيل — في السجن . والاصح انني كنت خارجا منه . أما كيف دخلت السجن فذلك حين أفرطت في الولاء حتى أصبح ، في عرفهم ، تفريطا .

وذلك حين كنت استمع ، في ليلة من الليالي الست العفريتية ، الى الاذاعة العربية من محطة اسرائيل احتراسا ، فأتاني صوت المذيع وهو يدعو العرب المهزومين الى رفع أعلام بيضاء فوق أسطحة منازلهم فيوفرها العسكر المارقون مرق الســــهام ، فينامون في بيوتهم آمنين . فاختلط علي أمر هذا الامر : أيهم يأمره المذيع — مهزوم هذه الحرب أم مهزوم رودس ؟ قلت : أنهزم أسلم عاقبة ! واقتنعت نفسي بأنه اذا ظهر خطئي حملوه على حسن نيتي وبياض طويتي . فصنعت من بياض فراشي علما أبيض علقته على عصا المكنسة ونصبتهما على سطح بيتي ، في شارع الجبل في حيفا ، ولاء الافراط في الولاء للدولة .

ويا دلالة على من تدلّين ! فما ان أشرف على الناس هذا الشرشف حتى شرفني معلمي يعقوب بزيارة عاطل ، اي خلوا من السلام عليكم . فلم ارد التحية . وكان يصرخ : أنزله يا بغل !

فأنزلت رأسي حتى لامست قدميه وأنا اقول : هل عينوك ملكا على الضفة يا صاحب الجلالة ؟

فأخذ يعقوب بتلابيبي — اي ببجامتي — وراح يدفعني على الدرج نحو السطح وهو يشنشن : الشرشف ، الشرشف ! حتى بلغنا موضع المكنسة ، فانتزعها ، فحسبت انه

يريد أن يضربني بها ، فتعاركنا راقصين رقصة العصا حتى تهاوى على حافة السطح وهو يبكي ويقول : رحت يا صديق العمر ورحت معك !

فقلت انني رفعت الشرشف على عصا المكنسة ملبيا أمر المذيع من محطة الاذاعة الاسرائيلية . قال : حمار ، حمار !

قلت : ما شأني اذا كان حمارا ؟ ولماذا لا تستخدمون مذيعين سوى الحمير ؟

فافهمني ان المعني بالحمار هو أنا . أما مذيعو القسم العربي في محطة الاذاعة الاسرائيليه فكلهم عرب . ولذلك اساؤوا صياغة النداء فالتبس الامر عليك ، يا أحمق !

فدافعت عن بني قومي ، الذين يعملون في محطة الاذاعة ، قائلا : ما على الرسول الا البلاغ . يهتفون بما يلقنون . واذا كان رفع العلم الابيض على عصا مكنسة يسيء الى جلال الاستسلام فانكم لا تجيزون لنا حمل اي سلاح سوى المكانس .

وأما اذا كانت المكانس قد أصبحت ، منذ اندلاع نيران هذه الحرب ، سلاحا أبيض فتاكا لا يجوز لنا حمله الا بأذن ، كبارودة الصيد التي لا يؤذن بحملها الا للمخـــاتير وللمدمنين على الخدمة منذ الصغر ، فانني معكم أبا عن جد . وأنت تعلم ، يا صديق العمر ، باخلاصي المفرط للدولة ولأمنها ولقوانينها ، ما هو معلن منها وما سوف يعلن !

وكان صديقي يعقوب يستمع الى هذياني وهو مشدوه الفم لا يقوى على كفكفة الدمع المنسكب على وجنتيه فلا يقوى على كفي عن الهذيان .

حتى تمالك جأشه فأوضح لي ما وقعت فيه من التباس قرر رئيسنا الرجل الكبير ، ذو القامة القصيرة ، انه ليس التباسا بل نفير بشق عصا الطاعة على الدولة .

قلت : كلها عصا مكنسة !

قال : نداء المذيع موجه نحو عرب الضفة ، ان يرفعوا الاعلام البيضاء استسلاما أمام الاحتلال الاسرائيلي . فما شأنك أنت في ذلك في حيفا ، التي هي في قلب الدولة ولا أحد يعتبرها مدينة محتلة ؟

قلت : زيادة الخير خير !

قال : بل اشارة الى انك تعتبرها مدينة محتلة ، فتدعو الى فصلها عن الدولة .

قلت : ان هذا التأويل لم يدر في خاطري ابدا .

قال: اننا لا نأخذكم على ما يدور في خواطركم بل على ما يدور في خاطر الرجل الكبير . وهو يرى ان العلم الابيض ، الذي رفعته على سطح بيتك في حيفا ، هو دليل على انك تقوم بحركة انفصالية عن الدولة ولا تعترف بها .

قلت : انك تعلم علم اليقين انني مفرط في خدمة الامن ولا أفرط به .

قال : أصبح الرجل الكبير يعتقد بأن افراطك هو تمويه على تفريطك . ويستعيد الرجل الكبير أصلك وفصلك أدلة على انك تتغابى ولكنك لست بغبي . فلماذا لم تعشق سوى يعاد ولم تتزوج سوى باقية ولم تنجب سوى ولاء !

قلت : الم يسأل الرجل الكبير لماذا لم أولد سوى عربي ولماذا لم أجد وطنا سوى هذه البلاد ؟

قال : قم معي واسأله .

ولكنهم أخذوني الى غور بيسان وزجوا بي في سجن شطة الرهيب .

[٣]

حديث شطط في الطريق الى سجن شطـــة

لم يشأ الرجل الكبير الا ان يصحبني الى بيت خالتي فيسلمني الى مدير السجـــن يدا باليد . فنحن ، الذين ورثتنا الدولة عن آبائنا ، تظل مراتبنا عالية ولو في بئس السجن . كقولك نبيل فقد الحظوة في البلاط فأبعد الى جزيرة سيشل .

وهكذا أوهمت نفسي حتى اركبوني في سيارة البوليس المقفلة ، الرجل الكبير مـــع السائق الكبير وانا محشور مع ستة من رجال الشرطة فيما يشبه عربة الكلاب . فلما اقفلوا الباب قلت : صونا لسمعتي . فلما تأففوا من شدة الحر . وكنا في آب الهباب، تأففت معهم . فانهالوا علي لكما ورفسا وانا أصيح : النجدة النجدة أيها الرجل الكبير . ولفظتها بلغة عبرية فصحى لاقنعهم بعلو كعبي وحتى أقوم من تحت اكعابهم ، فتوقفت السيارة .

فاذا نحن على مفترق الطرق بين الناصرة ونهلال . وقد عرجنا على طريق المرج ، مرج ابن عامر . وكان الرجل الكبير يؤشر لهم ، من وراء الزجاج الفاصل ما بينه وبين عربة الكلاب ، فانزلوني وحشروني الى جانبه ، بينه وبين السائق ، فاسترحت وتنهدت واستنشقت الهواء النقي وقلت : مرج ابن عامر .

فزجرني وقال : بل سهل يزراعيل .

قلت مراضيا : « وما يهم الاسم » كما قال شكسبير ؟ وقلتها بالانجليزية .

فقال مهمهما : وتروي عن شكسبير ايضا ؟

فاسترخيت مبتسما .

فزجرني وهمهم بصوت مسموع ان هم ، هم . ولو كنت اعلم بما وراء هذه الهمهمة لحفظت شكسبير في قلبي لا عن ظهر قلب .

وفيما نحن نوغل في طريق المرج متوجهين نحو مدينة العفولة المرجية ، واكتاف تلال الناصرة الى يسارنا ، أخذ الرجل الكبير يلقنني مبادىء حياتي الجديدة في السجن ، واصول التأدب مع السجانين من فوقي ومع السجناء من تحتي . وذلك بعد ان وعدني بترقيتي همزة وصل .

وكنت ، كلما أمعن في هذا التلقين ، ازداد يقينا انه لا فرق بين ما هو مطلوب منا في السجن وما هو مطلوب منا خارجه حتى صحت من شدة الاستحسان : ما شاء الله !

وكان يقول : اذا ناداك السجان فليكن اول جوابك ـــ نعم يا سيدي ! فاذا انتهرك السجان فعليك الاكتفاء بأمرك يا سيدي ! واذا سمعت من زملائك المسجونين كلاما فيه أي مساس بأمن السجن ، ولو تأويلا ، فعليك ان تشي بهم الى المدير . فاذا ضربك مدير السجن فقل له . .

فقاطعته هاتفا : حقك يا سيدي !

قال : كيف علمت ؟ وهل كنت مسجونا قبل ان نسجنك ؟

قلت : حاشا ، يا سيدي ، ان يسبقكم احـــد الى هـــذا الفضل . انما وجدت ان سجونكم ، عطفا على ما شرحته من أصول التادب في سجونكم ، هي من الانسانية والرحمة في معاملة المسجونين **بحيث لا تختلفون فيها عنكم خارجها في معاملتنـــا** ، ولا نختلف . فبأي شيء تعاقبون العرب المذنبين يا سيدي ؟

قال : هذا هو ما يحيرنا . ولذلك قال الوفنا الوزير ان احتلالنا هو ارحم احتلال ظهر على وجه الارض منذ تحرر الجنة من احتلال آدم وحواء .

بل ان هناك من كبارنا كبارا يعتقدون بأننا نعامل العرب داخل السجون معاملة افضل منها خارج السجون ، والاخيرة ممتازة كما تعلم . وهؤلاء الكبار موقنون اننا ، بذلك ، نشجعهم على الاستمرار في مقاومة رسالتنا الحضارية في المناطق الجديدة ، مثلهم مثل الافريقيين أكلة لحوم البشر الذين كفروا بالنعمة .

قلت : كيف ، يا معلمي الكبير ؟

قال : خذ لك مثلا عقاب الابعاد الى ما وراء النهر . فنحن ننزله بهم وهم خارج السجن . فاذا دخلوا السجن ثبتوا فيه ثبوت الاحتلال الانجليزي .

قلت : ما شاء الله !

قال : ونهدم بيوتهم خارج السجن . اما في داخلها فيعمرون وينشئون .

قلت : ما شاء الله ! ولكن ، ماذا يعمرون ؟

قال : سجونا جديدة وزنازين جديدة في السجون القديمة ويزرعون من حولها الاشجار الظليلة .

قلت : ما شاء الله ! ولكن ، لماذا تهدمون بيوتهم خارج السجون ؟

قال : لنقطع دابر الجرذان التي عششت فيها فننقذهم من الطاعون .

قلت : ما شاء الله ! وكيف كان ذلك ؟

قال : هذا هو التبرير ، الانساني الخالص لوجه وزارة الصحة ، الذي أورده وزير الدفاع عما اضطررنا اليه من هدم بيوت قرى الجفتلك ، في الغور ، وردا على الاتهامات التي قذفها في وجوهنا ، في الكنيست ، النائب الشيوعي اليهودي أجير ناصر والملك حسين وامير الكويت والشيخ قابوس .

ـــ أفحمه ؟

ـــ بل وفحّمه .

ـــ كيف ، ما شاء الله ؟

قال : منعه رئيس الجلسة عن الاستمرار في الكلام ، فأفحمه . ان الدمقراطية ، يا ولد ، ليست فوضى . والشيوعيون ، كما ترى ، فوضويون . فرفض نائبهم الانصياع لاحكام الدمقراطية فطرده الرئيس من الجلسة طردا ، ففحمه .

قلت : ما شاء الله !

وذلك حين كانت سيارة البوليس تخرج بنا من مدينة العفولة المرجية على طريق بيسان متجهة نحو مقامي الجديد . وكانت نوافير الماء على الجانبين تنشر رذاذها المنعش على خضرة يانعة ونحن في اوج الصيف . فاذا بالرجل الكبير ، وهو محشور معي الى جانب السائق في عربة الكلاب ، يصبح شاعرا .

وكان يقول ، وأنا انشئل : الخضرة ، الخضرة على يمينك وعلى يسارك وفي كل مكان . احيينا الموات وأمتنا الحيات (وكان يعني الافاعي) . ولذلك اطلقنا على حدود اسرائيل القديمة اسم « الخط الاخضر » . فما بعدها جبال جرداء وسهول صحراء وارض فقراء تنادينا ان اقبلي يا جرارات المدنية !

ولو كنت معي ، يا ولد ، حين عبرنا طريق اللطرون نحو اورشليم ، لرأيت امـــامك الخط الاخضر مرسوما بالفعل على الطبيعة نفسها بخضرة جبالنا المكسوة بأشجـــار الصنوبر، الشجرة تخاصر الشجرة والغصن يصافح الغصن وفي ظلها يتعانق المحبون. ثم كنت سترى ، قبالة جبالنا المكسوة ، جبالكم العارية حتى بلا اسمال تخفي عوراتها المكشوفة صخورا ظلت تبكي ربع قرن حتى سحتت عنها كل التربة . دعونا نكفكف دموع الصخر واما انتم فلا تكفوا عن الانشغال بدموعكم وأنتم تبنون القصور في اعالي الصخور .

ــ ألهذا هدمتم قرى اللطرون ، عمواس ويالو وبيت نوبا ، وشردتم أهاليها ، يا معلمي الكبير ؟

قال : لقد أبقينا على الدير لرهبانه ، مجلبة للسائحين ، وعلى المقابر لذويها ، ايمانا برب العالمين . وورثنا هذا الرحب بهذه الحرب . والذي فات مات . وهو مثل امريكي من أصل الماني .

وما بلغ هذا البيت من شعره حتى كانت السيارة تبلغ بنا بيوت عين جـــالوت التاريخية ، التي اعيدت الى اصلها التوراتي ــ عين حارود . وفيها عين ماء تصب في بركة انشأها أهل الكيبوتس ويؤمها اهالي الناصرة ليتبردوا وليشتموا المغول .

فأردت ان اجاريه في شعره فشدني من شعري قائلا : لا يكن لك فكر . لقد انتصرتم على المغول في وقعة عين جالوت لانهم جاؤوا لينهبوا وليذهبوا . أما نحن فاذا نهبنـــا فنهب لنبقى . واما انتم فالذين يذهبون. اصرف عنك هذه الوساوس التاريخية واستعد لدخول سجن شطة .

وما ان قال هذا الكلام حتى وقع تغير فجائي في وجه الطبيعة من حوالينا . زالت الخضرة في طرفة عين فلم تعد العين ترى سوى أرض جرداء وصخور قمراء ، على اليمين وعلى اليسار وعلى امتداد البصر ، كانما كنا نشاهد مسرحا هبط في خلفـــه منظر وارتفع في مكانه منظر .

فقلت متهكما وأنا اتظاهر بالجهل بالجيوبوليتيكا : ها نحن خرجنا عن الخط الاخضر ودخلنا في خط العرب الاغبر ، الذين تركوا اراضيهم انتيكا .

فزجرني وصاح : كنت أحسبك حمارا فاذا أنت أحمـــر . انظر امامـــك فتر الى مَ ستدخـــل .

فنظرت امامي فاذا ببناء ضخم ينتصب امامي ، كالغول في الصحراء . جدرانـــه الداخلية مطلية بالكلس الابيض . وحوله سور عال مطلي بالدهان الاصفر ، لامر ما . وفوق سطوحه انتصبت كمائن الحرس ، المشرعي السلاح ، على اربعة اطرافه . فهالنا مشهد هذه القلعة الصفراء ، لا خضرة ولا كسوة ، وهي ناتئة ، كالدمـــل السرطاني ، على صدر أرض مريضة بالسرطان . حتى انه لم يتمالك نفسه عن القول: سجن شطة الرهيب ، ما اروعه !

فوجدتني أهمس وأنا مشرئب العنق هلعا : ما شاء الله !

قال : مدير السجن هو الذي يشاء فانزل اوصيه بك .

[٤]

كيف وجد سعيد نفسه وسط حلقة عكاظية ـــ شكسبيرية

نزلنا أمام باب السجن الحديدي فهبط العسكر من عربة الكلاب وهرع ثلاثة منهم نحوي فأحاطوا بي كالاثافي الثلاث . واما الرجل الكبير فتصدر الموكب امام الباب . فما أن طرقه طرقة واحدة حتى نبح كلب من الداخل فانفتح .

فاذا بمدير السجن ، بلحمه وشحمه ، وهو ذو لحم وشحم كثير ، يهرع لاستقبالنا وامامه كلبه البولدوغ المدلل . هذا يهش وذاك يكش . فلاعبا الكلب تارة وتطبطبا على الظهر اخرى حتى صعدا على درج وأنـــا واقف في الساحـــة الداخلية تحيط بـــي الاثـــافي .

ثم استدعاني أحدهم فصعد بي على الدرج الى دهليز ، فدهليز اخر ، فاخر ، حتى ادخلني مكتب المدير فاذا بهما يرتشفان القهوة بسرور مسموع .

فهش المدير في وجهي وقال : بوصاية صديقي العزيز ، الرجل الكبير ، ساعاملك معاملة خاصة . ولقد علمت منه ان ماضيك أبيض ناصع البياض لا تشوبه سوى شائبة سوداء واحدة هي ذلك العلم الابيض الناصع البياض ، وانك ولد مثقف وتروي عن شكسبير .

فانبسطت اساريري وانبسطت على مقعد .

فعاجلني بالقهوة وبالحديث عن شكسبير . فصار يتلو من خطبة انطونيوس امام جثمان قيصر فأتلو عليه ما غاب عن ذاكرته منها وهو يصيح : برافو ، برافو ! ثم قام عن مقعده واخذ يتصنع دور عطيل وهو يقبل ديدمونة القيلة القاتلة . فاستلقيت على الارض ديدمونة . فقال : قم ، لم يحن أوان ذلك بعد ! فقمت وقـــامت معي الهواجس .

قال : ولكننا امام السجناء سنعاملك مثلما نعاملهم ، وأنت فاهم .

قلت : فاهم يا سيدي ! ونظرت الى الرجل الكبير مطمئنا فرد علي بأحسن منها .

فضغط المدير على زر فأقبل أحد الحراس . فصافحت المدير ثـــم صافحت الرجل الكبير الذي اوصيته بزميلي يعقوب خيرا . وظللت أشكر هذا والهج بحمد ذاك حتى دفعني الحارس خارج المكتب . فلما أوغلنا في الدهليز الثاني قلت في نفسي : أصبح هذا الحارس صديقي وأخي فقد عبرنا سوية في دهليزين في سجن واحد ، كالمشاركة في العيش والملح ، فقلت له : مدير عالي الثقافة !

قال : فعم كنتما تتحدثان ؟

قلت : عن شكسبير وعطيل وديدمونة .

قال : وتعرفهم ؟

قلت : أروي عن الاول واستلقي كالثالثة .

قال : يا حبذا .

حتى ادخلني في غرفة معتمة خلو من النوافذ وجرداء من اي اثاث . فلما اضاء قنديل كهرباء في وسط السقف ، اوهي من نار جحا ، رايتني واقفا في وسط حلقة من السجانين العراض الطوال ، كل سجان بعينين ناعستين اثنتين وبساعدين مشمرتين

اثنتين وبفخذين غليظتين اثنتين وبفم واحد مفتر عن ابتسامة كشراء كانما طبعت جميعها في قالب واحد .

فظللت أحاول أن أطبع على فمي الابتسامة نفسها فينهار الجانب اليساري من فمي، فأقومه ، فينهار الجانب اليميني ، فأقومه، فأحس بشفتي السفلى كلها تنهار ، فأقومها، فتصطك اسناني .

وفيما انا في هذه الرياضة الشفهية سمعت الحارس الذي اقتادني الى هذه الغرفة العبقرية يقول لعسكر الافخاذ : ويروي عن شكسبير ايضا !

فكانت اشارة البدء بسوق عكاظية لم يشهد تاريخ العرب مثيلا لها منذ ايام داحس والغبراء .

بداها أحدهم قائلا : شكسبرنا يا ابن الكلب ! ثم لكمني لكمة مهولة . فتلقاني آخر قائلا : خذ يا قيصر ! فأخذت اتمايل نحوهم حتى ملوا اللكم فأعملوا الرفس فصرت اتدحرج تحت اقدامهم فيتداولونني فيما بين اقدامهم فأكون تارة أسرع منهم حركة فأشعر بعدة افخاذ تنيخ على صدري دفعة واحدة . فأصرخ فلا اسمع سوى أصوات مكتومة صادرة عن ضرب ولكم ورفس لم أعد أشعر بأنها تصيبني بل أسمعها قادمة من مكان بعيد . وكانوا قد توقفوا عن انشاد الاشعار الشكسبيرية وانصبوا على شعر الاهات : يتأوهون عزما فاتأوه خورا . يلهثون والهث حتى شعرت بأحذية تقطع انفاسي فغبت عن الوعي من شدة القهر .

واخر ما سمعته منهم ان اهلا وسهلا بشكسبير ، فعلق بي هذا اللقب بين زبائن السجن وفي اوساط الخريجين .

[٥]

سعيد في بلاط ملك

كان النهار يولي الادبار ، او هذا هو كل ما رأيته منه ، حين ايقظتني يد تصافح يدي . فاذا انا ممدد على فراش من القش في غرفة معتمة منخفضة السقف لا ينيرها سوى نور من النهار يتيم يحاشر قضبانا حديدية متشابكة على كوة وحيدة في أعلى الحائط فلا يدخلها الا جريحا .

وكانت اليد الى يساري تصافح يدي وتشد عليها صبرا .

فوجدت انني عاجز عن تحريك أصابعي فحركت راسي انظر الى يساري فغام بصري على جسم فارع الطول ممدد الى يساري على فراش مماثل من القش ، عار الا من زي ريه وقد طلي بما حسبته ، لاول وهلة ، الدهان الاحمر القاني .

ولولا عينان اثنتان صوبتا نحوي بلا حراك ابتسامة تشجيع سرية ، ولولا يد تشد على يدي ان اشتد ، لحسبت ان الجسم الممدد الى يساري جثة بلا حياة .

قلت : اهلا ! فخرجت : اها !

فسمعت صاحب الجسم الملتف بعباءة الملوك الارجوانية يهمس : ما شانك يا اخي ؟

قلت : هل هذه هي الزنزانة ؟

فسأل : أول مرة ؟

قلت : هناك غرفة بلا نوافذ .

قال : وهناك أمل بلا جدران .

قلت : وأنت ؟

قال : فدائي ولاجىء . وأنت ؟

فاحترت في هويتي كيف انتسب امام هذا الجلال المسجى الذي حين يتكلم لا يئن ويتكلم حتى لا يئن . هل أقول له انني كبش ومقيم ؟ أم أقول له : دخلت الى بلاطكم زحفا ؟

فسترت عورتي بأنين طويل .

فتحامل على نفسه فاذا هو منتصب أمامي بقامته الفارعة حتى رأيته يحني رأسه كي لا تصطدم بالسقف او كي ينظر الي .

وصاح : كف يا رجل !

قلت في نفسي : ها قد أصبحت رجلا بعد أن ركلتني ارجل الحراس .

وكان ظاهر الشباب لم تزده عباءته الارجوانية الا شبابا .

ـ مالك يا اخي ؟

لو كنا التقينا في الخارج هل كان يناديني بيا أخي ؟

وشيء في عينيه اعادني عشرين عاما الى وراء ، الى ملاعب الصبا ومدارج شارع الجبل . وفي ندائه ، مالك يا اخي ، سمعت صراخ يعاد القديمة ، والعسكر يلقونها في سيارة الترحيل : هذه بلدي ، داري ، وهذا زوجي !

فأعولت كالاطفال .

ـ اصبر يا والدي .

فلم أتوقف عن البكاء ، الا انه كان اعتزازا وامتنانا ، بكاء الجندي يمنحه قائده وسام الشجاعة .

ـ تشجع يا والدي . .

دوسي، أيتها الاحذية الضخمة على صدري ! اخنقي انفاسي ! ايتها الغرفة السوداء اطبقي على جسدي العاجز ! فلولاكم لما اجتمعنا من جديد . الحرس الغلاظ ، لو كانوا يعلمون ، هم حرس الشرف في بلاط هذا الملك . والغرفة السوداء الضيقة هي البهو المفضي الى قاعة العرش !

اصبحت اخاه . اصبحت والده . فأعيدوا ابتساماتكم الى قوالبها ايها العسكر !

وهزني اعتزاز لم يهزني منذ هتاف يعاد : هذا زوجي !

انا والدك ايها الملك . فلي ولد ، مثلك ، الا ان عباءته من مرجان البحر .

ولم اشأ أن اخبره بأنني من حيفا فيطول الشرح . فقلت : من الناصرة .

قال : اهلنا الشجعان .

ثم سأل : شيوعي ، بالطبع ؟

قلت : بل صديق .

قال : انعم واكرم .

وضمد جراحي بالحديث عن جراحه . وظل يوسع في الكوة الضيقة الوحيدة حتى رأيتها في عرض الافق الذي لم أره من قبل . واصبحت قضبانها المتشابكة جسورا نحو القمر ، وما بين فراشي وفراشه حدائق معلقة .

وكنت أحدثه عن نفسي بما كنت أحلم به عن نفسي . وما كنت كاذبا . انما تحاشيت ان ادنس جلال هذا المقام بخصوصيات جردني منهـا السجانون حين جردوني من ملابسي الخصوصية . ها أنذا متجرد امام متجرد . فكيف تخرج يا آدم من الجنة بمحض ارادتك ؟

الا أن الحراس لم يمهلوني . فقد جاؤوا واخرجوني من الجنة ونقلوني الى القاووش . . وهو قاعة طويلة في السجن يرقد فيها السجناء متراصين كل على برشه. وهو سرير حديدي فوقه فراش من القش . فبقيت عدة ايام ارتكب المخالفات لعلهم ينقلونني الى الزنزانة فألتقي ذلك الشاب الذي ناداني بيا والدي . ولكنهم لم يفعلوا .

وعلمت من السجناء انه فدائي فلسطيني قادم من لبنان أسره العسكر جريحا .

وقالوا ان اسمه هو سعيد . فقلت : عاشت الاسامي . فقالوا : ولكنه لم يتسم بشكسبير . وابتسموا مواسين . فانشغلت بتضميد جراحي وبالبحث عن سعيد الاول حتى التقيت اخته ، يعاد الثانية ، وأنا خارج من السجن مطلق السراح للمرة الثالثة .

[٦]

سعيد ينشد أنشودة السعادة

فالذي يدخل الى السجن ، في بلادنا ، يصبح حاله كحال المكوك في يد الحائك : داخل خارج . واما حائكي فهو الرجل الكبير . لم يشفع بي مـاضي" الابيض بل زاد سواد حاضري سوادا . حتى رأيت باب السجن الحديدي بابا بين ساحتين في سجن واحد ، ساحة داخلية اتمشى فيها ساعة ، فأستريح ، وساحة خارجية اتمشى فيها ساعة ، ثم أروح .

وفيما أنا في مدار هذا الصاروخ المكوكي جاءني الرجل الكبير مهددا بأنهم سيظلون ورائي من سجن الى سجن حتى أهلك حبيسا أو طليقا أو أن اعود الى خدمتهم .

ــ حلوا عني واركبوا غيري !

ــ هل تتوهم اننا نجد أمثالك ملقين على قارعة الطريق ؟

ــ قضيت نصف عمري في خدمتكم . فدعوا البقية اعيشها كبقية خلق الله ، لا أهش ولا أنش .

ولكنه أفهمني أن هذه الخدمة لا فكاك منها حتى بالموت . وقال : ابوك أورثها لك وستورثها لاولادك من بعدك . وسوف يلعنونك الا ان ذراعنا الطويلة ستنالهم ، جيلا بعد جيل .

وهددني بأن الناس لن يؤمنوا بتوبتي بل سيقولون ان العرق دساس وان من شب على شيء شاب عليه ، وبأنني لن أجد ملاذا غـيره . وهددني بالسجن . وهددني بالتعذيب . وهددني بالموت جوعا .

ولكنني لم أجع . فقد بسطت ، في زاوية في وادي النسناس ، بسطة كنت أبيع فيها الخضار . . فاذا جاء موسم البطيخ بعته أحمر حلو المذاق على السكين . فلما سلطوا

عليّ عساكر البلدية حليت افواههم . فلما رجمني اولاد الحارة ، على اعتبار شهرتي الشهيرة ، استحليتها منهم فتركوني أحل في الحارة مطمئنا .

غير ان الرجل الكبير لم يحل عني . فاستكتب ورقة يأمرونني فيها بالاقامة الجبرية . فأخفيتها حتى يظل عساكر البلدية يجبرون بخاطري . فاذا بالرجل الكبير يرسل عساكره فيداهمونني على بسطتي ، في عز الظهر ، فيقتادونني الى السجن متهمينني على رؤوس الاشهاد بأنني خالفت أمر الاقامة الجبرية وسافرت الى شفاعمرو اتسوق بطيخا وان هذا الفعل يطيح بكيان الدولة . فالذي ينقل البطيخ سرا ينقل الفجل سرا ، وبين الفجل والقنابل اليدوية مجرد لونه الاحمر . والاحمر ، على كل حال ، ليس الازرق والابيض . وبالبطيخ تستطيع أن تنسف كتيبة كاملة ، اذا اخفيت فيه قنابل نعل ، يا بغل !

فأجابهم البغل : ولكنني افتحها على السكين !

قالوا : والسكين أيضا . .

فلما انتشر الخبر بأن ورقة الاقامة الجبرية قد جاءتني ازداد الاقبال على بسطتي حتى جاءني شاب وقد تأبط صحفا . حيى وقال :

— جاءتك ؟

قلت : جاءتني منذ زمن طويل .

— فلماذا لا تقرأ الجريدة ؟

قلت : لانكم لم تجيئوا .

فقمت وعلقت ورقة الاقامة الجبرية على جدار البسطة. فلم يمض يومان حتى جاءت الشرطة ، وابلغتني بأن الحاكم تلطف وألغى أمر الاقامة الجبرية . وان دولتنا دمقراطية . ثم انتزعوا الامر من على الجدار وأعادوني الى السجن قائلين انني حقرت أوراق الدولة الرسمية .

وقال كبيرهم : لو كنت في بلد عربي هل كنت تجرؤ على التباهي بورقة الاقامة الجبرية ؟ أن دمقراطيتنا لا تصلح لكم .

وذلك وأنا في طريقي الى السجن .

وفيما أنا خارج من الساحة الداخلية الى الساحة الخارجية مطلق السراح ، وقفت على طرف الطريق من بيسان الى العفولة استوقف سيارة تحملني . فاذا بسيارة خصوصية على رقمها حرف « ش » بالعبرية اشارة الى أنها من مواليد « شخيم » ، وهي نابلس لا غير ، تتوقف فجأة أمامي .

ويدعوني سائقها الى الصعود فأصعد شاكرا .

وكان ان جلست في المقعد الخلفي وحيدا وانا مستوحد . وكانت فتاة جالسة الى جانبه ولم أر منها سوى شعر فاحم السواد كشعري بلا شيب . فقلت في نفسي : أنا في ايش وفكري في ايش .

وما اجتزنا طرفا من الطريق حتى دهمني السائق بالسؤال : كنا نعود قريبا في سجن شطة فأخبرنا الزملاء بأنك التقيت سعيدا . ولكن المدير أنكر وجوده.. فهل تعرف له من مكان ؟

فانقبضت نفسي من هذا السؤال . فتحسست مقبض الباب كي أنزل من هذه

السيارة الملغومة ، الا انها كانت مسرعة . فأسرعت اجيب ، وأنا مذهول :

ـ أنا سعيد !

فالتفتت الفتاة ذات الشعر الفاحم السواد نحوي لفتة زوبعية وهي تصيح :

ـ بل أخي سعيد .

ـ يعاد !

ـ حبيبي

ـ يعاد !

أو هذا ما أحسب الان انه قد جرى بيننا . أما في تلك اللحظة ، التي كانت اقصر من اللحظة ، فانني لم أكن أسمع شيئا ولم اكن أرى شيئا سوى عينين خضراوين يتألق بؤبؤاهما بنور سماوي افتقدته عشرين عاما .

لقد رأيت يعاد ، عشرين عاما من يعاد دفعة واحدة ، في عينيها وفي صوتهـا وفي شعرها وفي قامتها . فكيف تشعر سمكة أطاحت زوبعة ، دفعة واحدة ، بثلج تراكم على سطح نهرها عشرين عاما ؟ يا تراب القطب الجنوبي قل لهم كيف يكون شعورك لو انحسرت من فوقك ثلوج الدهر دفعة واحدة ! يا لظى البراكين ارو لهم حكايتي ! ويا صخر بلادي انفجر ينبوعا !

أما أنا فانفجرت بكاء .

فأوقفا السيارة . فنزلت يعاد وانتقلت الى المقعد الخلفي بالقرب مني . فأخذت يدي بين يديها فوسدتهما صدرها ثم وسدت رأسها كتفي فامتزجت دموعنا . وكان السائق يزغرد ببوق سيارته ويسير بها بطيئا كأننا في موكب عرس .

ـ سعيد ، سعيد .

ـ يعاد ، يعاد .

ـ أخيرا وجدته .

ـ ولن تفقديه ابدا .

ـ كيف حاله ؟

ـ على ما ترين ، يا يعاد !

ـ على ما ترين يا يعاد !

واستحوذتني رغبة جامحة في أن أصفق ، في ان اغني ، في أن ازغرد ، في أن أصرخ حتى تنهار من على صدري طبقات الخنوع والمذلة والحاجة ، والصمت ، نعم يا سيدي ، عظيم يا سيدي ، امرك يا سيدي ! فينطلق قلبي من صدري ، حرا ، يطير ، يحلق في اجواء النسور ، ينادي على الناس : مثلكم أنا يا ناس ، شجاع مثلكم ، ومثلكم لي قدمان ثابتتان على الارض وظهر مستقيم وقامة طويلة ورأس في السماء . سعيـد بشجاعتي مثلكم يا ناس . يعاد الى جانبي يا عالم ! صغيرة كعصا الراعي ، جديدة كالحلم القديم !

عشت الاعوام العشرين لوحدي . عشتها عن يعاد . عشتها حتى الثمالة ، حتى القعر . شربت كأسها المر كله وحدي . فلم يبق لها منه اية قطرة . انقذتها من هذه السنوات العشرين المريرة ، فبقيت يعاد صبية في العشرين وبدون عشريني . عادت

اليّ كما كانت ، هي هي ، تضحك وتبكي ، تتحدى وتحب ، وتناديني : سعيد !

سعيد انا يا عالم ! اسمعي يا دنيا ، من الخط الاخضر حتى الافق الازرق ، القفار والحقول ، القبور والسماء : لقد انطلقت خارج الساحتين حرا ، الداخلية والخارجية . أصبحت حرا .

سعيد ، أنا سعيد !

ولكنني فعلت أمرا آخر بالمرة . فبدون أن أدري بما دفعني اندفعت ففتحت باب السيارة والقيت بنفسي منها ، ويدي بيد يعاد لا أتركها . فوقعنا على التراب الجاف وأنا غائب عن الوعي .

[٧]

وجهتا نظر في مصيبة اسمها الطوق !

أيقظني عطر القرية ، الذي عبق به ليلها الانيس . فوجدتني مستلقيا على فراش من الصوف نظيف . فتخيلت انني نائم على صدر أمي ، في بيتنا العتيق . وكانت تأتيني رائحة المونة وخابية الزيت وطين الطابون ، وأصوات همس مكبوت ، وأنفاس أطفال نائمين بلا كبت ، وخيالات نساء قرويات وهن رائحات غاديــات يحملن أطباق الارز المعصفر وفوقه لحم الدجاج ، ومائدة خشبية منخفضة في وسط البيت العتيق .

فناديت : أماه !

فسمعت النسوة ينادين على يعاد أن والدها قد استيقظ . فأخذت أتلفت حولي بحثا عن والدها فلم أعثر له على أثر .

ـــ أين أنا ؟

فأخذن يحمدن الله على نجاتي وهن منسحبات خارج الغرفة باشارة من يعاد . وسمعتهن يرجونها أن تسرع قبل أن يبرد الطعام .

وجثت يعاد على الحصير الى جانبي وقالت : صن سري بكرامة أخي سعيد .

فقلت : بل أصونك حتى من الموت !

فأخبرتني بأننا في قرية « السلكة » المرجية . وهذا الاسم غير ظاهر على الخارطة لانه زال من الوجود ، ومثل هذا الامر موجود ، بل لانه غير موجود . فقد استعرت لهذه القرية ، التي آوتنا ، اسم السلكة . ام سليك بن السلكة ، الذي

طاف يبغي نجوة

من هلاك فهلك

فالمنـــايا رصـّـد

للفتى حيث سلك

وذلك حفاظا على سر هذه القرية المرجية العجيب الذي ، على الرغم من انه جاوز الاثنين ، لم يجاوز حدود القرية عشرين عاما ، عن فتى لي يطوف كالسليك بن السلكة في الارض نجوة ، فهلك ، بل أقام حتى شاخ ، فهلك . ولكنني أفردت لهذا السر فصلا خاصا سأرويه عليك حين يجيء .

وأما سر يعاد ، الذي ناشدتني أن أصونه ، فهو ادعاؤها امام مضيفنا انني والدها .

قلت ـــ قيل : رب أخ لك لم تلده أمك . وانا اقول : رب والد لك لم تتزوجه أمك .

قالت : رحمها الله ، انت في ايش ونحن في ايش .

فقلت : فما أبقاك معي ، اذن ، وأين السائق ؟

فأخبرتني بأننا ، حين وقعنا من السيارة وكانت ، سلم الله ، تسير بطيئا ، غبت عن الوعي دون أذى . وأما يعاد ، « شكرا لك يا والدي » ، فقد كنت احوطها بذراعي فوقعت على صدري فلم تتأذ . فهرع نحونا رجال ونساء من قــرية السلكة ، كانوا يعملون في اراضي الكيبوتس القريبة من موقع وقعتنا . وكان على راسهم مضيفنا ابو محمود الذي أكرم وفادتنا وسافر معنا الى قريته ، فبيته ، حيث وجدوا انني غائب عن الوعي اعياء فحسب . فتركوني أستريح حتى اتماثل .

واما سائق السيارة ، وهو صاحبها ، فهو صديق كريم الا انه اضطر للعودة الى نابلس ، فانه محظور عليه المبيت في اسرائيل وسيارته معه . وقد تركنا وهو شديد التأثر مما بدا منه من اهمال . فقد توهم انه هو المسؤول عن سقوطنا حين لم يحكم باب السيارة اغلاقا .

فأحكمت اغلاق فمي عن هذا الوهم خوفا من وقعة أخرى .

أما يعاد فآثرت البقاء معي حتى يعود الي" رشدي فأعيد اليها اخاها سعيدا الذي جاءت الى شطة من بيروت تبحث عنه .

ـــ وسجين زندة المقيم (الذي هو أنا) ، يا يعاد ، الا تعودين اليه ؟

ـــ الآن ، يا والدي ، وقت العشاء . قم وأكرم الناس الكرام الذين أكرمونا .

واقبل أهل الدار يسلمون على القادمين « من عند العرب » . وكانوا يؤهلون بنـــا تأهيلا عظيما ، ويتلقفون كل كلمة نقولها بحرص شديد كما لو انها بضاعة نادرة مهربة . وتولت يعاد الرد على أسئلتهم . وأما أنا فاكتفيت بالقيام وبالقعود وبيا حيى اللـــه وبالسلام عليكم ، خوفا من أن يتعثر لساني بكلمة في غير موقعها فأقع .

وكانت يعاد بين الرجال رجلا . حسنها شباب ، وشبابها حسن وأحسنهما المامها الحسن بحديث الرجال . وكنت أنظر نحوها مأخوذا بها ، فأسمع الرجال يدعون الله أن يبقيها لي فأحمده وأدعو له واغض الطرف عن سري .

وقالوا انهم كتموا أمرنا ، ما وسعهم الكتمان ، عن بقية أهل القرية حذر الوشاة وأن يكون قدومنا غير قانوني .

واخبرنا ابو محمود ، وهو رب البيت ، بأن القرية وقعت ، قبل عام ، في الطوق سبعة أيام بحثا عن متسللين . فلما لم يجدوهم اقتادوا أربعة عشر رجلا الى السجن وفكوا الطوق عن القرية .

فما هو الطوق ؟

قال : يقوم البوليس بتطويق القرية ويسد منافذها ويفرض منع التجول فيها . ثم تهدر سياراته المصفحة في أزقة القرية . وينتشرون ، وفي أثرهم كلاب الاثر ، يدخلون البيوت ويروعون الاطفال ويدلقون خوابي الزيت على عدل الطحين خوفا من ان يكون المتسللون قد تسللوا الى الخوابي والعدل . فاذا سمعنا صراخا في بيت تسللنا اليه في حلكة الليل ، فليل القرية حالك ، وهذا حاله عشرين عاما ، يسدلونه سترا لهم فنتستر

به عنهم ، فماذا قال اهل البيت المنكوب : اخذوا سعدا ! قلنا : انج سعيد ! فيخترق الطوق برعاية ليلنا الساتر أما منجاة او في طلب الرزق .

قالت : أفلا من مجير ؟

قال : ما من مجير سوى الشيوعيين وأهل الكيبوتس !

وكنت لاحظت ان هؤلاء القرويين ، ما أن يلتقوا قادما من « عند العرب » ، حتى يحسبوه شيوعيا أو من الحمولة . فتراهم يوسعون له مـــن صدورهم الواسعة . فضحكت في سري ثم قلت : يا حي الله !

وأبو محمود قال : أما الشيوعيون فيجرؤ نوابهم على اختراق الطوق . فيدخلون معنا فيه مؤاسين ومشجعين ان اصمدوا . ويجمعـــون الحقائق . ويصيحـــون في الكنيست . وهو مثل البرلمان عندكــم (فضحكت في سري ثم قلت : يا حي الله !) ويضطرون الوزير الى الرد . فتخترق مصيبتنا جدار الصمت الرسمي . ويسيرون على رأس مسيرات في الناصرة وتل أبيب يهتفون في أثنائها : فكوا الطوق ، فكوا الطوق ، اليوم تحت وبكره فوق ! وينشرون عن طوقنا في صحفهم . ويقولون لنـــا ان صحف الاحرار ، في انحاء العالم ، تنقل عنهم فيطلق طوقنا الضمـــير العالمي الذي تحـــاول الصهيونية أن تطوقه ، لولا الشيوعيون . فهل قرأتم عن طوقنا في صحف الاقطـــار العربية التي لم تطوقها الصهيونية ؟

قالت دعد ، وعيناها تبرقان ايذانا برعد : ان صحف الاقطـــار العربية تطوقنـــا بالانتصارات ، كالاطواق فوق رؤوس قديسيها ، فلا يبقى مكان فيها لطوقكم . ومـــا انفكوا يطوقوننا بأطواق الانتصارات حتى اختلط الحابل بالنابل فلم تعد تفرق بينها وبين أطواق الزهور على القبور .

قال : ولكن الصهيونية تقيم الدنيا وتقعدها على خدش اصبع ؟

فقصف الرعد . فقالت : القضية ، يا سادة ، هي وجهة نظر . فأنتم ترون في ما أصابكم مصيبة . اما نحن فان الطوق هو حياتنا . تقولون : من المهد الى اللحد . أما نحن فنقول : من الطوق الى الطوق ! فلا تنتظروا من الذين يعيشون حياتهم كلها في التطويق والتفتيش ، نهب كلاب الاثر حتى ضياع الاثر ، ان يشعروا بمصيبتكم التي اصبحت حياة أمة بأسرها ، من الخليج حتى المحيط !

فلم أتمالك لساني الا بعد أن قلت : من سواك بأخيك ما ظلم !

فاشرأبت الاعناق نحوي منزعجة . فشعرت بأنني وقعت . فرحت أحيي السامر على اليمين وعلى اليسار وأنا أقول : يا حي الله ، يا حي الله !

فهمهموا بما يشبه التحية .

قالت : وأهل الكيبوتس ؟

قال : لا يمضي اسبوع على التطويق حتى تتوق أراضيهـــم الى ايدينا الماهـــرة . فيتوسطون لفك الطوق فنعود الى العمل في حقولهم .

قالت : لماذا أنتم ؟

قال : لانها كانت حقولنا . انبتناها وسوف ننبتها . تحنو علينا كما نحنو عليها . وأما هذا الحنو فقد عجزوا عن مصادرته .

فانفلت لساني من عقاله مرة أخرى . ووجدتني أصيـــح مندهشا : فالخضرة نبت سواعدكم ، اذن ، لا كما ادعى الرجل الكبير !

فاشرأبت الاعناق نحوي ، مرة أخرى . وتهامس السامر بالسؤال : من هو الرجل الكبير ؟

الا أن يعاد عاجلتهم بابتسامتها الساحرة وبأن والدها يتحدث عن ذلك الجندي ، الضخم ، ولذلك فهو رجل كبير ، الذي دخل معه في موضوع السياسة ونحن ندخل في الضفة الغربية عبر الجسر .

وطمأنتهم يعاد على اننا قادمان عبر الجسر باذن اسرائيلي رسمي . وسوف نبقى في البلاد شهرا نقضيه بحثا عن أخيها سعيد الذي جاءنا انه رهين في سجن شطة .

قالوا : الرهيب ..

قلت : اسألوني ..

الا أن هرجا ومرجا في الخارج انقذاني من هذه الوقعة الاخيرة ..

[٨]

السر الذي لم يمت بموت السر

رأينا مضيفينا يغدون ويعودون وقد اشتد عليهم التأهيل بنا كما لو اننا حللنا منزلهم توا حتى ضاع ، في ذلك ، صوت الضوضاء في الخارج . فحاولوا أن يضيئوا وجوههم المنطبقة على أمر خطير بابتسامات ذكرتني بأغصان الشجر فوق خوذة جندي او فوق دبابته .

واردت ان اسأل : ما الخبر ! لولا قدم يعاد ، التي داست علـــى رجلي ، فكتمت انفاسي .

واختفت النساء عن اعيننا . وأطفال كانوا نائمين في زاويـــة استيقظوا فحملوا اغطيتهم على ظهورهم وغابوا عن أنظارنا مطأطئي الرؤوس دون ان ينظروا في وجوه آبائهم .

وكان رجال ، لم نرهم من قبل ، يدخلون المضافة فيجلسون بعد أن يرحبوا بنا . وأما رجال الدار فكانوا يخرجون واحدا واحدا فلا يعودون .

سوى أبي محمود الذي تسمر في مكانه وقد أقام ظهره فلا تعرفه جالسا أم قائما .

وجثا فوق صدورنا صمت ثقيل كالذي يؤذن ، كما قيل ، بالعاصفة. فأردت أن أقول: « هذه هي الشجرة التي تصمد لها ! » لولا قدم يعاد الضاغطة بعناد على أسناني .

واتانا من بعيد نحيب امرأة مخنوق الصدى . فاشتد ترحيب الغرباء بنا واحدا بعد واحد في حلقة لا فكاك منها ، يقومون ويقعدون فأقوم وأقعد دون ان انجح في فك قدمي من تحت قدم يعاد ، او لساني المتململ من عقاله .

حتى رأيت مضيفنا يخرج ، في مشية أرادها عادية فجاءت عسكرية ، ثم يعود وهو يقول : لا حول ولا !

فأطلقتها : خير ان شاء الله ؟

قال : شيخ جليل من أهلنا وافته المنية الليلة . فتبكيه النسوة .

فكلما وجدت ان كلامي محمول ، سألت :

ـــ المختار ؟

فأجاب شيخ من الغرباء : اختاره ربه الى جواره وهو أرحم الراحمين .

فأوغلت في جراتي فقلت : لو اخذهم جميعا !

قال : كلنا اليها .

فقالت : رحمه الله . ومن خلف ما مات . وكان هاجس قد انتابني ان ما بدا على القوم من اضطراب ، على اثر الهرج والمرج في الخارج ، راجع الـى ان طارشا في الخارج جاء يبلغهم بحقيقة أمري . فلما استوعبت ما جاء به مضيفنا عن وفاة شيخهم تنهدت مستريحا ووجدتني افلت : الله سلم !

فلم تلحقني يعاد بقدمها ، هذه المرة ، الا بعد أن قضي الامر .

والغريب في هذا الامر ان القوم الغرباء همهموا مستحسنين دعائي وراضين عنه .

فانطلقت من تحت قدم يعاد أفسر لهم فلسفة عائلتنا ، المتشائل ، وان هناك موتا اسلم من موت ، وموتا أسلم من حياة . وان أخي البكر ، حين قطعه الونش في « بور » حيفا اربا ، دفناه جثة بلا رأس .

ومرة اخرى بدرت من القوم الغرباء همهمات الاستحسان والرضى عـن فلسفتي العائلية العريقة حتى انهمكت في ترتيب كـلام في راسي يليق بسؤالهم عـن اصول اشجارهم العائلية لعلنا ان نلتقي في أصل او في فرع . فكلنا من آدم .

غير ان يعاد اوقفتني عن هذه الرياضة الذهنية ــ التاريخية وهي تحوطني بذراعها وتشدني اليها شدا خفيفا وتهمس في أذني : عمي سعيد ، عمي سعيد ، جئت كـي أزورك !

فصرخت : تزورين فحسب ؟

فأجاب مضيفنا ابو محمود : لا حاجة الى ذلك . لقد دفناه وانقضى الامر .

فقد ظن بأننا نتحدث عن شيخه الميت لا عن شيخنا الحي .

فسألت : الليلة ؟

قال : الليلة .

ــ ولماذا لم تنتظروا طلوع الفجر ؟

قال : ان فجره لا يطلع غدا .

فعن اي فجر يتحدث ، اذن ؟ قلت ، وانا محتار : انني لا أفهم من كلامك شيئا .

قال : ولا هم يفهمون !

فصرخت يعاد : نحن أصدقاؤكم ، فأفصح . ان الصمت يخنقكم .

قال : كل ما حوالينا ، نحن أهل القرى ، صامت : الارض والدواب والمحراث . ان لغتنا هي الصمت . فنتوارثها جيلا جيلا . فاذا كنتم تتحدثون بهذه اللغـة تفهموننا ونفهمكم .

قالت : الا تزغردون ؟

قال : الامر اعقد مما تتصورين ، يا اختنا القادمة من بيروت . لقد زغردنا وزغردنا وزغردنا ، مثلما لم يزغرد احد . ولكن أعراسنا كانت تتحول ، في كل مرة ، الى مآتم . والذي كنا نحسبه صديقنا كان يخطف العروس ويهرب الى بيروت !

قالت : ان أصدقاءكم ، اليوم ، مختلفون . فهم أصدقــاء مخلصون . ألم تذكــر الشيوعيين ، مثلا ، بالخير ؟

قال : على الراس وفوق الحاجب . الا أن غذاءنا الاساسي هــو زيت الزيتون . نستحلي اعواد الخرفيش الا أنها تنقصف . لا باس بالبرق ولكنه لا يزيل ليلنا الصامت . سنظل نجربهم ونجربهم ونجربهم ، في صمت ، حتى يطعمونا من زيتونهم . صياح الديك لا يطلع الصباح . ولكن ديوكنا ستصيح حين يطلعونه . فعلى أصدقائنا أن يتعلموا النطق بلغتنا ، لغة الارض والدواب والمحراث ــ الصمت الدؤوب !

وكان القوم الغرباء يهزون رؤوسهم ، بصمت ، استحسانا . واحببت أن أقاطعه قائلا : لو كان كلامك صحيحا لكنت أنا ، سعيدا ابا النحس المتشائل ، الصامت ذلا ، صديق الفلاحين الاول !

لولا انني تذكرت ماضيّ النابح وانني كنت اتكلم بالوشاية ولا أصمت !

ثم أتتني خاطرة عجيبة حقا وهي أنني ، على طول باعي بالوشاية ، لم استطع ان أشي بصمت رجل صامت . فصمت !

وفيما أنا في هذه المناجاة الصامتة ، بيني وبين نفسي ، اذا بامرأة عجوز ، هزيلة كعود ذرة جاف ، تدخل علينا دامعة العينين وهي تصيح : السر مات ، يا أبا محمود ، فعلام تتستر !

فهرع ابو محمود نحوها واخذها بذراعيه ودفعها محاولا أن يخرجها الى الخارج . فأبت . فظل يحوطها بذراعيه وقد أسند رأسه الى صدرها وأجهش بالبكاء كالاطفال وهي تخفف عنه وتشاطره البكاء ونحن مذهولون والقوم الغرباء ينسحبون من المضافة واحدا واحدا فيبتلعهم الليل البهيم وقائلهم يقول : السر مات . ولكن علينا ، غدا ، أن نعيش !

قضينا تلك الليلة مستيقظين وابو محمود يروي لنا أعجب قصة سمعناها عن شاب ضرير من اهل القرية ترك قريته ، في عام ١٩٤٨ ، مع قوافل النازحين ، بلا قوافل ، الى بلاد العرب الواسعة . ثم تسلل عائدا الى قريته بعد قيام الدولة. فظل أهل القرية يحفظون فيما بينهم أمر عودته . فآووه وأطعموه. واحترف صناعة الحصير والمكانس. فزوجوه . وادعوا ان زوجه هي امرأة اخيه الثانية ، وان اولاده هم اولاد أخيه منها . وحفظوا السر هم واولادهم من بعدهم فتكاثر اولاده وتكاثر حفظة السر فلم يبلغ آذان السلطة على الرغم من تكرار التطويق طول الاعوام العشرين الماضية . وكان يموت مختار ويولون مكانه مختاراً فيختار لهم ما شاؤوا من الوشاية الا هــذا السر الذي اصبح كالعرق الدساس لا يدسون على بعضهم البعض به ، او كيقظة الضمير الذي يجب الا يوقظ .

حتى شاخ السر فوافاه الاجل الليلة فدفنوه صمتا وبكوا عليه صبرا .

ــ ومن تكون تلك المراة التي اقتحمت علينا المضافة ؟

ــ أم أولاده .

ــ ومن تكون لك ؟

ــ والدتي !

ــ خفف عنك . لقد عاش عمره ، رحمه الله !

ــ ولكنني لم أعشه . كل يقول هذا والدي . اما انا فانكرته حتى اعيش .

ـ حتى يعيش .

ـ هذا هو سري الذي لم يمت بموته .

وكان الفجر قد طلع .

[٩]

عودة يعاد الى البيت القديم

بدأت الامور تختلط في عقلي عن يعاد حين بدأنا بتناول طعام الافطار ، فولا مخلوطا بالحمص ، في مطعم في العفولة . فاستغربت يعاد ان يتقن اليهود ، القادمون من أوروبا ، هذا الفولكلور العربي . فقلت لها : بل قادمون من بلاد العرب ولم يتغير عليهم شيء حتى ولا الشتيمة ــ يشتمون ويُشتمون بلغة الضاد .

ضحكت يعاد وشتمتني تحببا . قلت : هل تشتم البنت والدها ؟ قالت : بل انت عمي وفارس احلامي منذ الصغر .

قلت : والذي حولني ، بين ليلة وضحاها ، من أبيك الى عمك ، سيعيد اليك ذاكرتك الليلة . فهيا الى حيفا نوصل ما انقطع .

وفي السيارة ، التي حملتنا الى حيفا ، أخذت يعاد تلاطفني وتقول : سأفاجئك يا عمي مفاجأة . اما ان تكون سارة او ان تكون سيئة فأنت تحكم .

وأخذتني كما يأخذ المعلم تلميذه واسمعتني حكاية لم استطع تصديقها . ولكنها ظلت تحكي ، وتحكي فلا أجد لحكايتها من جواب سوى : مستحيل !

قالت ان أمرها اختلط علي . فيعاد ، التي انتظرتها ، هي والدتها . وقد ماتت .

ـ وأما أنا ، يا عمي ، فابنة يعاد التي انتظرتها .

ـ مستحيل ، مستحيل !

ـ هل اشبهها كل هذا الشبه يا عماه ؟

ـ مستحيل ، مستحيل !

وقالت ان والدتها كانت تذكرني دائما بالخير ولذلك سمت ابنها سعيدا باسمي ، وابنتها يعاد باسمها ، « حتى اذا عدت ، يا يعاد ، ستقولين له : لم تغيرنا الغربة » .

ـ ها نحن التقينا ، يا عماه . فهل تغيرنا ؟

ـ الصبا هو الصبا ولم يتغير . لكنني أرى ، ويا لمصيبتي ، ان الزمن الذي انتصر شبابك عليه قد انتقم من ذاكرتك . فكيف ينسى الحبيب حبه الاول ، والزهرة الفجر الذي برعمها ؟

ـ هلْ كنت تحبها هذا الحب كله يا عماه ؟

ـ أحبك كما احب الشيخ ان يكون ماضيه حلما فيستيقظ . لقد استيقظت . فكيف أجدك تهذين في المنام ؟

واوغلت في اوهامي كغريق يوغل في مغارة تحت الماء يلوح له ، في طرفها البعيد ، سراب نور .

قلت : حين تدخل بيتي العتيق في شارع الجبل ستستيقظ .

فلما وصلنا اليه ، تأبطت ذراعها واخذت اصعد بها الدرجات ، التي دحرجوها عليها من قبل عشرين عاما ، وانا احسب نفسي عريسا في ساعة الدخلة .

القيت الاعوام العشرين الماضية في صندوق القمامة في ساحة الدرج وصعدت الى المنزل وانا اطير بجناحين من يعاد .

وكنت اهتف : ها نحن نعود عودة المنتصرين !

وكان الجيران يفتحون ابواب بيوتهم محيين ومستفهمين . فكانت تركض الى جانبي وهي ترد التحية وتقول متباهية : عمي بعد غياب العمر !

فأطلقت جارة زغرودة الحقتها الجارات الاخريات بزغاريد متلاحقة كتلاحق صفارات السفن في ميناء حيفا ليلة رأس السنة .

فلما دخلنا المنزل قالت يعاد وهي مبهورة النفس : استرح ، ايها المنتصر . أما انا فأعود اسيرة !

وسألت : لاي شيء زغردت النساء ؟

قلت : لعودتك .

ـ أسيرة ؟

ـ زائرة .

ـ فما يفرحهم ؟

ـ السجناء يحلقون ذقونهم ويتزينون ويفرحون في يوم الزيارة .

قالت : ما هذا وقت الفرح .

ـ حتى فرحة الزيارة تبخلين بها على هؤلاء السجناء ؟

قالت : كيف تأتي الفرحة بنعمة الغازي ؟

فأجبت : كما ينضج الطعام بنعمة النار .

فلما سألتني : من أين أتتك هذه الحكمة ؟

أجبتها : من يوم ما شكسبرني حراس السجن .

وحكيت لها حكايتي معهم وكيف التقيت اخاها في الزنزانة فسمعت منه كلاما جعلني ارى الزنزانة جنة وقضبان الكوة جسرا نحو القمر .

فكانت تضحك تارة وتبكي تارة . وتقول : اخبرني عن يعادك ؟ فأروي لها حكايتنا القديمة . واقول : هنا جلسنا . وهنا ، في هذه الغرفة ، ظللت يا شيطانة مستيقظة تنتظرينني وانا منكتم الانفاس في الغرفة المجاورة ، لانني اهبل ، حتى جاء العسكر .

ـ العسكر يطوقون الدار !

هذا ما سمعته من الجارة ، التي اقتحمت علينا الباب دون استئذان فوجدتني جاثيا على اربع تحت قدمي يعاد امثل وقعتي الاولى عن الدرج ، قبل عشرين عاما ، ويعاد تضحك .

فلم اقم من جثوتي .

[١٠]

في انتظار يعاد الثالثة

وأما يعاد فجلست على مقعد ووضعت رجلا على رجل ، جلسة الرجل ، وقالت: قم وناولني سيجارة ولا ترع !

ـ فيأخذونك كما اخذوك في تلك المرة .

ـ اخذوا والدتي في تلك المرة .

ـ فيأخذونك هذه المرة .

ـ الامر هذه المرة غيره في تلك المرة .

ـ ولكنهم لم يتغيروا .

ـ اذا لم يتغيروا فهي مأساتهم . أما نحن فتغيرنا .

ـ لن تستطيعي ان ترديهم . وسوف يأخذونك مني .

ـ الى اين ؟

ـ الى ديار الغربة .

ـ بل أنا راجعة اليها ، اخذوني ام تركوني . فهل لديك من حل ؟

ـ ان نختبىء لدى الجارة .

ـ الى متى ؟

ـ نفعل ما فعله الشيخ الضرير في قرية السلكة .

ـ عشرين عاما اخرى ؟

ـ حتى تتغير الامور .

ـ فمن يغيرها ؟

ـ أخوك سعيد قال : الشعب .

ـ الشعب وهو مختبىء ؟

ـ أنا وأنت نختبىء . أما اخوك سعيد فيكافح .

ـ فيهدي الحرية الى المختبئين ؟

وضحكت متهكمة ثم قالت : اذا عشت يا عمي سعيد فستكون ابن سبعين عاما حين تلتقي يعاد الثالثة . ولن تعرفها ولن تعرفك .

واجلستني الى جانبها :

ـ هل تحبني يا عماه ؟

ـ بحنين عمري .

ـ وهل تحب ان تتزوجني ؟

ـ حتى لا يفرقنا الموت .

ـ اتزوج شيخا في اخر عمره ؟

ـــ سأعود الى البداية .

ـــ مستحيل !

ـــ فكيف يؤمن أخوك بأنهم سيعودون منذ البداية ؟

ـــ سمعوا ذلك من شيوخهم . والشيوخ لا تذكر من البداية سوى عنفوان الشباب، فتستحلي البداية . هل تعرف البداية ، حقا ، يا عمي ؟ ليست البداية ذكريات عذبة ، فحسب ، عن صنوبر فوق الكرمل او عن بيارات فوق ظهوركم ، او عن اغاني بحارة يافا . هل كانوا حقا يغنون ؟.

ـــ هل تتركينني ؟

ـــ الماء لا يترك البحر يا عماه . يتبخر ثم يعود في الشتاء . ويعود انهارا وجداول. ولكنه يعود .

ـــ فهل أبقى وحيدا ؟

ـــ حتى ضرير السلكة لم يعش وحيدا . اذهب واصنع الحصر في قرية السلكة .

ولكنني لم اذهب الى قرية السلكة ، ولم اصنع الحصر لا في السلكة ولا في غيرها .

فقد اقبل العسكر . فبقيت في موضعي بلا حراك سوى اني وضعت يدي فـــوق عيني فأغمضتهما حتى لا ارى النهاية كما رأيت البداية .

فشعرت وكأن أيدي العسكر تدفعني الى الخارج وتقذفني على الدرجات . فأجدني مرتميا في فناء الدرج . فلا استنجد بصاحبي يعقوب هذه المرة الذي اصبح يحتاج الى من ينجـــده .

واسمع من فوق ، في منزلي ، صراخا انثويا ، وصوت لطمات وركـــل وجلبـــة ، وارى معركة حامية تدور بين يعاد والعساكر . واراها تقاوم وتصرخ وتركل بقدمها . واراها تعض كتف احدهم فيصيح من الالم ويولي بعيدا . واراهم يتكاثرون عليهـــا ويدفعونها امامهم الى سيارة الترحيل واسمعها ، والسيارة تتحرك ، تنادي : سعيد ، لا يهمك ، فانني عائدة !

وفتحت عيني وشهقت قائلا : ها قد عدنا منذ البداية !

لكنني رأيت عجبا . رايت ضابط الشرطة يقرأ في اوراق يعاد بكل احترام . وسمعته يعتذر لها عن الامر الجديد الصادر بالغاء الاذن بدخولها الى اسرائيل ، وعن الزامها بالعودة ـــ معهم ـــ الى نابلس حالا . وقال انه عليها ان تعود ، غدا ، من حيث أتت. أي عبر الجسر .

وسمعتها تقول : لم انتظر منكم غير ذلك .

فأجابها : لم ننتظر منك الاقامة في بيت سعيد .

فصاحت : هذا بلدي ، داري ، وهذا عمي !

قلت في نفسي : سأحفظها مؤونة للعشرين القادمة .

قال : ممنوع .

فقالت انها لم تنتظر منهم سوى ما هم يفعلون . فكيف تنتظرون منا سوى مـــا نفعل ؟

فانحنى الضابط امامها باحترام عسكري وهو يقول : يا صغيرتي الحسناء لقد انتظرنا منكم اكثر مما تفعلون .

وودعتني يعاد مصافحة . ثم اقتربت بوجهها من وجهي وقالت : هل قبلت والدتي قبل رحيلها ، يا عمساه ؟

قلت : حالوا بيني وبينها .

قالت : اذن ضاعت عليك القبلة الثانية .

ومضت .

[١١]

مسك الختام ، الامساك بالخازوق

قلت لك ، يا محترم ، انني لم أذهب الى قرية السلكة ولم أصنع الحصر لا فيها ولا في غيرها . فالذي جرى هو انني ذهبت وقعدت على ذلك الخازوق .

وجدتني ، مرة اخرى ، متربعا وحيدا على راس ذلك الخازوق الذي بلا راس . كابوس يحط على صدري ليلة ليلة ، بلا انقطاع ، فلا اقوى على ازاحته عن صدري او على ان استيقظ . خازوق في كابوس . والخازوق الحقيقي هو ذلك الوسواس ، الذي لم استطع ان افكه عني ، ان ماذا سيحل بك ، يا ابن النحس ، لو ظهر انه ليس بكابوس بل خازوق واقع ؟

أضفت غطاء ثقيلا الى غطائي فاخترقته البردية . فأضفت اخر حتى السابع فاخترقتهم جميعا . فصرخت : من لي بذات الحسن ترفع عني هذه الاغطية ؟

ولكن العسكر اخذوها مرة اخرى . وكنت اتمتم باسمها والومها على مصيري لوما شديدا . فهي التي اقنعتني بأن خازوقي الماضي ليس بكابوس ، فكيف أومن بأن خازوقي الحالي هو كابوس ؟

عادت يعاد فاذا بها ليست يعاد . باقة ورد في عرس المستقبل واكليل زهور ناضرة على قبر الماضي في وقت معا . انتظرت عودتها عشرين عاما فلما عادت قالت : لست يعادك . تركتني وحيدا وقالت : لست وحيدا . فلما سألتها : اتعودين ؟ أجابت : كما يعود ماء البحر الى البحر ، في الشتاء ! لقد أقبل الشتاء يا يعاد ، فعودي ! قالت : هذا شتاؤك وحدك .

وحدي ، مرة اخرى ، وفوق هذا الخازوق انظر الى خلق الله من فوق علوه الشاهق .

وكانوا يأتوني وحدانا .

فاتاني صديقي القديم ، يعقوب . وكان حزينا . فصحت به : الخازوق ، يا صديق العمر ! قال : كلنا نقعد عليه ! قلت ولكنني لا اراكم ! قال : ولا نحن نرى احدا . كل وخازوقه وحيد . وهذا هو خازوقنا المشترك . ومضى .

واتاني الرجل الكبير . وكان مذهولا . فصحت به : الخازوق يا عم ! قال : ما هو بخازوق بل هوائي تلفزيون . صار الواحد منكم مثل الراكب في غواصة كلما أوغلتم في العمق زدتم الهوائي ارتفاعا . اقعد على هوائيك واسترح .

ومضى .

وأتاني الشاب الذي يتأبط الجريدة . وكان شابا . فصحت به : الخازوق ، يـا ولداه ! قال : الذي لا يريد ان يقعد عليه ينزل الى الشارع معنا . لا بديل ثالث ، فاختر ومضى في الشارع .

الا يوجد لي مكان تحت الشمس الا فوق هذا الخازوق ؟ الا يوجد لديكم خـازوق اقصر ارتفاعا اقعد عليه ؟ ربع خازوق ، نصف خازوق ، ثلاثة ارباع خازوق ؟

واتتني يعاد الاولى فمددت لها يدي حتى ارفعها الى فوق . فأمسكت بيدي واخذت تشدني الى قبر الغربة . فتشبثت بخازوقي .

واتتني باقية منادية ان انزل فقد بنى لك ولاء الى جانبه قصرا من صدف البحر . فتشبثت بخازوقي .

واتاني سعيد ، ابن يعاد واخو يعاد ، وهو يلوح بعباءته الارجوانية ، ويناديني : تعال يا والدي ادفنك بعباءتي ! فتشبثت بخازوقي .

ورايت الشاب ، الذي يتأبط الجريدة ، وقد تأبط فأسا . ثم رأيته يهوي بفأسه على قاعدة الخازوق وهو يقول : اريد ان انقذك ! فصحت به ان كف لئلا اقع . وتشبثت بخازوقي .

وفيما انا في هذه الحيرة من امري ، وقد تقوس ظهري ، اذا بهيئة رجل طويـل القامة ، حتى ليبلغني وانا في موضعي العالي ، يقترب مني بطيئا كغيمـة سارحة . فلم ار في وجهه سوى تجاعيد اشبه بصفحة البحر حين تلفحه نسمة شرقية . فعرفته من اول وهلة . فخفق له قلبي شوقا . ولولا خوفي من الوقوع لاكببت عليـه الثـم خـده .

صحت : سيدي شيخ الفضائيين ليس لي غيرك .

قال : اعرف ذلك .

قلت : جئت في وقتك !

قال : لا اجيئكم الا في وقتي .

قلت : انقذني يا ذا المهابة .

قال : اردت ان اقول : هذا شأنكم . حين لا تطيقون احتمال واقعكم التعـس ولا تطيقون دفع الثمن اللازم لتغييره تلتجئون الي .

الا انني أرى أن هذا الامر أصبح شأنك وحدك . قل : ان شاء الله ، واركب على ظهري ولنمض .

وفيما نحن طائران في الفضاء ، وانا محمول على ظهره أناجي ارواح اجدادي ، منذ جدي الاكبر ، ابجر بن ابجر حتى عمي الذي لقي كنز العائلة ، وادعوها ان تحضر ، فترى ، فتتباهى بأبنها الفالح ،

اذا بي اسمع ، على الارض من تحتي ، زغاريد .

فنظرت الى تحت ، فرايت الشاب المتأبط الجريدة ، وما زال يحمل فأسه . ورايت اخاها سعيدا . وابا محمود . واطفاله يحملون اغطيتهم على ظهورهـم ويقومون . والجارات ، وكنا يزغردن . والعامل « اخت » من وادي الجمال يحمل مزودته ويذهب الى عمله ، ويعقوب وقد نزل عن خازوقه . وخالتي ام اسعد « المخصية » . وحتى هي كانت تزغرد .

ورايت يعاد ترفع رأسها الى السماء وتشير نحونا وتقول :

حين تمضي هذه الغيمة تشرق الشمس !

باجس ابو عطوان

ــ مات البطل
ــ عاش الجبل

معين بسيسو

[١]

« لماذا أيدي الفلاحين كبيرة ...؟ »

● منذ طفولته ، ويداه مغروستان في الجمر ... حتى عقد الاصابع ... ، ومن الذي يستطيع ان يميز ، بين ألسنة النار ، وبين أصابع اليد الفلسطينية ؟

كان خلف « الوجاق » ، في مقهى « ابيه » ، يصنع الشاي ، يصبه في الاقداح، ويقدمه الى الفلاحين ... ولم يكن يخطر له على بال ، أن يوما سيأتي ، وسوف يقدم فيه ، دمه ، الى الفلاحين ... ، ليس الى الفلاحين في « دورا » ، ولكن الى الفلاحين الفلسطينيين كلهم ... والى الفلاحين ، اينما وجدت الارض تحت أقدامهم ...

لم يكن يتجاوز العاشرة من عمره ، وكان عليه ان يقطع كل ليلة ، وحينما تنطفىء غلايين الفلاحين في افواههم ... ويغادرون المقهى ، كان عليه ، ان يقطع خمسة كيلو مترات ... مشيا على قدميه ، حتى يصل الى حيث يقيم : في خربة « الطبقة »...

وفي طريق العودة ، الى الخربة ، حيث كان يسير الى جانب أبيه ، كان يحاول أن يسترجع ، ما كان يقوله الفلاحون ، وهو يتنقل بينهم يحمل اقداح الشاي ...، ولكنه لم يكن يذكر شيئا محددا من احاديثهم ... ولكنه كان يذكر شيئا واحدا ، أن ايديهم كانت كبيرة جدا ... وكأنها قد وضعت فوق صخرة ... وضربت بحجر ...

حيث كان يتعلم في مدرسة « دورا » ... لم يقرأ في الكتب المدرسية التي كانت بين يديه ... لماذا أيدي الفلاحين كبيرة ... ولماذا هي في حجم أقدامهم ...؟

● ●

... الطريق طويل من دورا ، الى خربة « الطبقة » ، والتعب قد هد الاثنين ، هد الاب ، وهد الابن ...

ولكن الصوت ، هو صديق الاقدام التي تمشي ... صديق المسافرين ...

وكان لا بد لصوته أن يرتفع :

ــ ابي ... لماذا أيدي الفلاحين كبيرة ...؟

وكأن هذا السؤال المفاجيء يوقظ الاب من حواره الطويل مع نفسه ، ولعله تــردد

---

* باجس ابو عطوان من شهداء الثورة الفلسطينية ، استشهد على جبال الخليل في منطقة دورا ، يوم ١٩٧٤/٦/١٩ ، بعد ان امضى اربع سنوات في الجبل ثائرا ومقاوما للاحتلال . لمزيد من التفاصيل راجع شؤون فلسطينية ، عدد٣٦ ، ص ٢٠٠ .

طويلا قبل ان يجيب ، فلقد كانت ملاحظة جديدة وغريبة بالنسبة له ... وكأنه قد تذكر الارض فقال :

ـ لانهم يعملون بأيديهم ...

أجل لانهم يعملون بأيديهم في ـ التراب ـ وهو يعمل بيديه في ـ النار ـ هو الطفل الفلسطيني الذي بدأ تعامله مع النار وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره ... ولم يكن يخطر له على بال في ذلك الوقت ، ان التحام النار الفلسطينية ، بالتراب الفلسطيني ، هو وحده الذي سيصوغ الوجه الجديد ، لوطن اسمه : فلسطين ...



طيلة أيام وليالي الاجازة الصيفية ، كان يقضي الساعات الطويلة ، خلف الوجاق ، في مقهى ... أبيه ... كان يصنع ويقدم أقداح الشـاي ، الى تلك الايدي الكبيرة التي اسمها : الفلاحون ...

بعد أن تنتهي ايام وليالي الاجازة ... ، كان عليه ان يعود الى المدرسة ... ان يعود الى القراءة والكتابة ... واللوح الاسود ، واصابع الطباشـير ...

وما اكثر ما كان ينظر الى يد مدرسه ، وهو يكتب فوق اللوح الاسود ... باصبـع الطباشير ، ويفاجأ الطفل ، ان يد مدرسه ، كبيرة هي الاخرى ، كأيدي الفلاحين ، الذين كان يقدم لهم اقداح الشـاي ، وكم كان يلح عليه ، ان يسأل مدرسه ، كما سأل والده ، ذات ليلة :

ـ لماذا يدك كبيرة ...؟

ولعل ذلك المدرس ، لو واجهه ذلك الطفل ، بذلك السؤال عن يده لاجاب :

ـ لانني اكتب ... يا « باجس أبو عطوان ... »

الان اقدم لكم اسمه ... « باجس ابو عطوان » ...

هكذا وبكل ما في اصبع الطباشير من عفوية ، وبكل ما في الفأس من عفوية وبراءة ... يبدأ الطفل ، يربط بين صورة اصبع الطباشير ، وبين الفأس ... لقد اتحـدت الصورتان ... في صورة واحدة ... ومنذ ذلك اليوم ، احب « باجس أبو عطوان » ، اولئك الذين يفلحون الارض بالفؤوس ، وأولئك الذين يفلحون الورق بالاقلام ...



ـ « باجس » ، هل تعبت ...؟

كان الاب يسأل ابنه ، وهما ينطلقان من « دورا » الى « خربة الطبقة » .

ولعل الطفل قد تعب ، ولكنه فيما يشبه الاصرار الطفولي على رفض التعب كـان صوته يرتفع :

ـ لا ... لم اتعب ...

معجزة الفلسطيني في قدمه ، وانا لا اكشف سرا للعدو ... فالفلسطيني يذبح مـن قدمه ... ومن اجل هذا « فهم » يعطون الفم الفلسطيني الف كيلو متر من الهواء ... لكي ينطلق فوقه صوته ومن اجل هذا « فهم » يعطون اليد الفلسطينية ، الف كيلو متر من الورق لكي تكتب فوقها ... اما امام القدم الفلسطينية ... فهناك الاسلاك المكهربة وهناك الاسلاك الشـائكة ... ، وهناك حقول الالغام ... وهناك مليون جرس انذار ... يدق ... كلما لمست قدم فلسطينية ، شبرا من الارض ...

الارض الفلسطينية خطرة ... يا « باجس أبو عطوان » ... وهي تصبح اكثر خطرا ... حين تلمسها القدم الفلسطينية ، وتلتحم بها ....

هل حدثك مدرسك في مدرسة « دورا »، ذات يوم ، عن ذلك البطل الاغريقي القديم ، الذي كان ينتصر دائما على اعدائه ، لانه كان يغرس قدميه في الارض ، كلما احس بالضعف ، فيسترجع قوته وعنفوانه ... وينتصر على مبارزه ... آه يا « باجس أبو عطوان » ... ، لعله قد حدثك عن ذلك البطل ، وحدثك ايضا عن نهايته المفجعة ... حين انتصر عليه ، بطل اغريقي اخر ، اسمه : هرقل ...

لقد انتصر عليه ، انتصر على ذلك البطل ، لانه ، لم يتركه ، يغرس قدميه في الارض ، حاربه ، وقد رفعه في الهواء ، وهكذا انتصر هرقل ... لانه عرف سر ذلك البطل ، عرف ان سره في الارض ، وان معجزته في الارض ، فلم يمكن قدميه ، من الارض، رفعه فوق الارض، جعله معلقا من خفائر شعره في الهواء...وقضى عليه ...



« باجس أبو عطوان » ... ، كان على قدمك ، ان تتذكر تلك الطريق جيدا ... من « دورا »، الى « خربة الطبقة » ... فحينما تفقد القدم الفلسطينية ذاكرتها ... فسوف يموت الرأس ... سوف يسقط كحجر من بين الكتفين ...

اذكر هذا جيدا ، يا « باجس أبو عطوان » ... فالقدم هي الخارطة ، والخارطة هي القدم ... وفلسطين امراة : تحبل من يديها ... وتلد من قدميها ... يا « باجس أبو عطوان » ...

[٢]

« كيف حدث هذا ...؟ »

● لقد انهى دراسته الاعدادية ... ونال الشهادة ... وهو يستطيع ان يفهم الان ما يقوله الفلاحون ... في احاديثهم القصيرة ... والطويلة ، وهم يرتشفون اقداح الشاي ... ويدخنون ... بعضهم لفافة التبغ ... الثقيلة الرائحة ، والبعض الاخر ... الغليون ، وهناك من يدخن « الشيشة » ... وهكذا استطاع « باجس أبو عطوان » ان يميز بين نوعين من الفلاحين ... فالفلاح الذي يدخن « الشيشة » كان بالنسبة « لباجس أبو عطوان » ، فلاح ميسور الحال ... فأوراق التمباك التي في لون الذهب ... ، اغلى ، من ذلك التبغ الاسود ... والذي يدخن الشيشة ، يملك المزيد من الوقت ، وليس كالفلاح الذي يدخن لفافة التبغ ، ويرتشف قدح الشاي ... ثم يمضي الى فراشه ... فعليه ان يكون قبل اشعة الفجر فوق الارض ...



في احيان كثيرة ، كان « باجس أبو عطوان » ، يشاهد مدرسي القرى ، ياتون الى المقهى ... ويجلسون الى جوار بعضهم البعض ، في دائرة كبيرة ... اما الفلاحون ، فلقد كانوا متناثرين هنا وهناك ... وفي حلقات صغيرة ... وما اكثر ما كان يسأل نفسه ، لماذا المدرسون في دائرة ... والفلاحون في دائرة اخرى ... واكثر من مرة حاول ان يطرح هذا السؤال على مدرسه ، ولكنه ، كان يتوقف في اللحظة الاخيرة ... ورغم ذلك ، فقد كان يحس ان هناك خطأ ما ... وكان يسأل نفسه :

— لماذا لا يجلس المدرسون والفلاحون في حلقة واحدة ...؟

الان بدأ الفلاحون يعلمونه ... ما لم يتعلمه في المدرسة ، ما لم يتعلمه في الكتاب ، وفوق اللوح الاسود ... كان يسمعهم يتحدثون وهم يتأوهون عن ايام زمان ... حينما كان الباعة في أسواق بئر السبع وغزة ويافا ... يصيحون ... وهم يرفعون عناقيد العنب الذهبية في ايديهم ويصيحون :

ـ يا عنب الخليل ... يا عنب ...

كانت بئر السبع على مرمى عنقود من العنب ، وكانت يافا على مرمى عنقودين ... وكانت غزة على مرمى ثلاثة عناقيد ... اما الان ... اما الان ...

كان يحس بصراخ دماء الفلاحين ... وكأنهم كانوا ينادون على بئر السبع وغزة ويافا ...

ولاول مرة بدأ « باجس أبو عطوان » يحب الجغرافيا ، فكان حينما يمضي الى بيته ، في خربة العقبة ، كان يفتح المصور الجغرافي ... على خارطة فلسطين ... ويضع اصبعه على يافا وبئر السبع ... وغزة ... وعرف لاول مرة ، مأساة الفلاحين الجغرافية ... انهم لا يستطيعون ان يقفزوا في الهواء ... لكي يصلوا ... الى تلك المدن ، التي كانوا يصلون اليها « بالباصات » او « التركسات » ، او حتى ظهور الحمير ...

ان عنقود العنب ، ليس هو بساط الريح ...

اجل يا باجس ابو عطوان ، ليس هو بساط الريح ، وليس هو طائر الرخ ... وعليك ان تبدأ البحث ... عن وسيلة جديدة للاتصال ...

ها قد بدأ الفلاحون ، يعلمونه دروس الجغرافيا ... وبدأ « باجس أبو عطوان » ، يحب الخارطة ... وبدأ يكتشف أشياء جديدة ...

طول ايام الدراسة ، كان يقرأ ، ان القدس ، هي عاصمة فلسطين ... اما الان فقد أصبحت عمان هي العاصمة ... وفوق الخارطة ... امتد خط أسود ... أكثر سوادا من جناح الغراب ... وبواسطة ذلك الخط ... لم تعد القدس في خارطة فلسطين ... لقد اصبحت في خارطة ذلك الشيء الذي اسمه : المملكة الاردنية الهاشمية ...

ـ كيف حدث هذا ...؟

ان الكتب التي بين يديه ، لا تقول له كيف حدث هذا ...؟ لا الكتب المدرسية ولا الخارطة ... تستطيع ان تقول له ، كيف تحولت القدس ، من مدينة من الدرجة الاولى ، الى مدينة من الدرجة الثانية ...؟

أين تعثر على الجواب ، يا « باجس أبو عطوان » ...؟

وظل يسأل نفسه ... الى أن جاء يوم ... ، وأجابه على سؤاله ... احد رعاة الغنم ... فاحساس ذلك الراعي بالارض وبجغرافية الارض ، كان مثل احساسه كانت المراعي تمتد امامه ... وكان اينما ترامى العشب ... كان يمضي اليه ... اما الان ... فهنالك للمرة الثانية ، تم رسم ذلك الخط الاسود ... فوق الارض ، كما تم رسمه فوق الخارطة ...

كان راعي الغنم ... صديق « باجس أبو عطوان » ، وصديق كل التلامذة ... في القرى والخرب ... وكان حلم حياته ... ان يتمكن ذات يوم ، من شراء « راديو

ترانزستور » ... ، ومن اجل ان يسمع شيئا واحدا : « أخبار فيتنام » ... كان يحس انهم يقاتلون مثله ... ضد الخطوط السوداء ، التي فرضت فوق أرضهم ، وفوق خارطة وطنهم ...

وينفخ راعي الغنم في « الشبابة » ، كأنه ينادي على التاريخ ، « وباجس أبو عطوان » ... وحفنة من التلامذة قد تحلقوا حوله ... ثم يضع الشبابة فوق العشب ... ويرتفع صوته :

ــ ربما حدث هذا قبل ان تولدوا ... او في العام الذي ولدتم فيه ... لقد كانوا هنا ... في ايديهم الكرابيج وفوق اكتافهم البنادق ... عساكر كثيرة ... كانوا يطلقون الرصاص في الهواء ... ويصدرون البلاغات ... عن معاركهم ضد العدو ... ثم يهوون بالكرابيج فوق ظهورنا ... وينتزعون من أيدينا البنادق ... كانوا يقولون ، انهم جاؤوا للانقاذ ... لانقاذنا نحن ...

ثم ذات يوم ... هجموا بالكرابيج ، وهجموا بكعوب البنادق ... وقد احضروا باصات كثيرة ... باصات وسيارات وصاح احد الضباط :

ــ اركبوا ...

ولم يقل الضابط الاردني الى اين ...؟

وركب الفلاحون ... وغير الفلاحين ... في الباصات ... والاعلى مرتبة من الفلاحين ، ركبوا في السيارات ...

وعادوا بعد ثلاثة ايام ... ، عاد الفلاحون ... واشباه الفلاحين ، ومن هم فوق الفلاحين ... وقال لي فلاح من « دورا » وهو يتحسس اضلاعه ... بعد ضربة كعب بندقية :

ــ لقد مضوا بنا الى أريحا ... كان هناك سرادق ضخم ... ودبابات ... وبنادق كثيرة ... ثم انطلقت اصوات كثيرة ... وقيل كلام كثير ، وحينما بدأ الجنود والضباط يصفقون ... احسست بأن شيئا ما ، يدبر لنا ، يدبر ضدنا ... فحينما يصفق الجندي والضابط فلا بد ان يرتاب الفلاح ، ويخاف على مصيره ...

ــ ثم ماذا أيها الفلاح من « دورا » ...؟

ويرتفع صوت الفلاح ، وهو لا يزال يتحسس اضلاعه ... كأنه كان يعدها في صدره :

ــ أصبح اسم فلسطين : المملكة الاردنية الهاشمية ... وهكذا تحولت القدس ، الى مدينة من الدرجة الثانية ... وهكذا سقط الخط الاسود فوق الخارطة ...



الفلاحون يعلمونه ... دروس الجغرافيا ... وها هو ذا راعي الغنم ، يعلم باجس ابو عطوان ، أول درس في السياسة ...

وكان على « باجس أبو عطوان » ، ان يواصل تلقي الدروس في الجغرافيا والسياسة ، وفي تلقي الدروس ، ضد الخط الاسود ، ومن اجل ان تعود القدس ، مدينة من الدرجة الاولى ...

[٣]

« من أين جاؤوا بكل تلك النياشين ...؟! »

كبرت المسؤولية ، وكبرت يده ... لقد أصبحت اكبر من الجمرة ... واكبر من قدح الشاي ... واكبر حتى من الصينية التي كان يحملها ...

كان يسمع من الفلاحين في « دورا » ومن بعض المدرسين وكأنه الهمس ، ان هناك مجموعة من الفلسطينيين ، قد أطلقت رصاصا ، وأصدرت بلاغا ، واعلنت ثورة ...

الفلاحون الذين ضربوا بكعوب البنادق ، وملأت أفواههم حبال الكرابيج المصنوعة من أسلاك التليفون ، أحس باجس أبو عطوان ، بفرحهم العفوي ، وبومضات عيونهم تخترق وجهه ، وهم يهمسون بأخبار تلك المجموعة ، التي اطلقت واصدرت البلاغ واعلنت الثورة .

ـ انه رصاص فلسطيني ...

كانوا يقولون هذا ، وهم يغرسون عيونهم في الارض ... كأن الارض توشك أن تمطر ...

أما بعض المدرسين ، فلقد كان يسأل عن هوية أولئك الفلسطينيين ، كان يسأل عن أسمائهم وبطاقاتهم السياسية ...؟

ولجأ « باجس أبو عطوان » الى « ابو علي » ، راعي الغنم ... وكان « أبو علي » ، قد سمع هو الاخر ، بأخبار البلاغ الاول الذي صدر في أول يناير ١٩٦٥ ... ، وخبر الرصاصة الاولى ... ونظر « أبو علي » ، طويلا في عيني « باجس أبو عطوان » ، قبل أن يقول وهو يضحك :

ـ لقد أصبحت أنادي عليهم ، بهذه الشبابة كدليلة ، وسوف يأتون على صوت هذه الشبابة ، وعندها ، سوف تتعرف عليهم ...

غير أنه كان على « باجس أبو عطوان » ، ان يحمل البندقية المرخصة ، قبل ان يلقي بها ... ويستبدلها ببندقية غير مرخصة ، وهكذا التحق كجندي بالجيش الاردني ... مستجيبا لتوصية ونصيحة احد اقربائه ... الذي وعده بأن يدخله دورة المرشحين ... في الجيش ... وحينما يحين وقت انعقاد الدورة ...

وبدأ « باجس أبو عطوان » ، يمارس اسلوبا جديدا من الحياة ... وكان يلاحظ وسط الدهشة الكبيرة ـ ضباطا كبارا ، قد طرزوا ، صدورهم بالنياشين ... وما أكثر ما كان يسأل نفسه ، قبل ان يغمض عينيه ، من فرط التعب ، بعد ساعات التدريب الطويلة :

ـ من أين حصلوا ، على كل هذه النياشين ، التي تطرز صدورهم ...؟ وفي أية معركة ...؟... وبعد اي انتصار ...

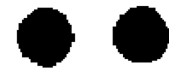
اذا كانت بعض اوراق التاريخ تكذب ... واذا كانت بعض الاوراق قد زورت ، فباجس ابو عطوان ، يعرف جيدا ، ان كل المعارك التي خاضها اولئك الضباط الكبار ... كانت معارك خاسرة ... وانتصر فيها العدو لمائة سبب وسبب ، فمن اين حصلوا على كل هذه النياشين ...؟

حين سأل باجس أبو عطوان بعض اصدقائه المجندين ، عن كيفية حصول أولئك

الضباط الكبار ، عن النياشين ، نصحه اصدقاؤه ، بأن يطرد من راسه ، مثل هذه الاسئلة ، فسوف يقدم الى محكمة عسكرية على الفور ... وسوف يسجن وسوف يطرد من الجيش ...

وما اكثر ما كان يسأل نفسه :

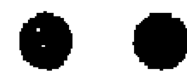
ــ هل هذا السؤال ، خطير الى هذا الحد ...؟



وانعقدت دورة المرشحين ، ولم يكن اسم باجس أبو عطوان ، في قائمة المرشحين لتلك الدورة ...

اذن لقد « فعلوها به » ...؟ وعدوه بالدورة ، وكذبوا عليه ، وبدون أن يشاور احدا من اصدقائه المجندين ... مضى الى مكتب بريد « الزرقا » ، وارسل برقية للملك ... ولعله لم يلاحظ من فرط الغضب ، ارتعاش يد موظف البريد ... وهو يقرأ البرقية ، ويحصي كلماتها ...

ودفع باجس أبو عطوان ، اجرة البرقية ، وتناول الايصال ودسه في محفظته ، ومضى ...



كانوا يقولون له ، ان اهم صفات الجندي ، هو الانضباط ... واطاعة الاوامر ...، وما اكثر ما كان يسأل نفسه :

ــ ماذا لو اصدر ضابطه ، امرا له ، باطلاق الرصاص على الفلاحين في خربة العقبة ؟ ماذا لو امروه حتى بالقاء القبض على « أبو علي » ، راعي الغنم ...

انه لن ينفذ هذا الامر ... ابدا ... وبدأ باجس أبو عطوان ، يحس بأنه يرتدي جلدا غير جلده ... ليس الكذب وحده بالنسبة الى دورة المرشحين ... هو الذي أهاجه ، ولكنه ... الكذب والنياشين ... واشياء اخرى كثيرة ... فهو لم يكن يثق بهم وكان يحس ، ان وجوده لا يمكن أن يكون بينهم ...



بعد اقل من ثلاث ساعات ، من ارساله للبرقية ... استدعوه لمقابلة الضابط المسؤول ... ، كان هائجا ... كالثعبان ... ، وانقض الضابط عليه وهو يلوح بالبرقية في يده :

ــ هل أنت الذي أرسلت هذه البرقية ...؟

● نعم ...

ــ من الذي كتبها لك ...؟

● انني اعرف القراءة والكتابة ...

ــ سوف اقطع اليد التي كتبت بها تلك البرقية ... سوف ترى ...



وأوقف باجس أبو عطوان ، وقدم لمحكمة عسكرية وحكم عليه بالسجن لمدة شهرين ، وطرد من الجيش ... وفي احدى زنازين سجن « الزرقا » ، امضى مدة العقوبة .

وخرج من بوابة السجن ، بثياب جديدة ... لقد عاد اليه جلده ... وكان طول الوقت ، يحس انه كان جلدا مصبوغا ... وكان لا يحب لون جلده ...

لقد خرج باجس ابو عطوان بتجربة جديدة : أن الكتابة يمكن ان تكون خطرة جدا ، وان اليد التي تكتب يمكن ان تقود صاحبها الى السجن ... ولكنه لم ينس ابدا ، ما قاله له الضابط وهو يتطلع الى يده .

ـــ سوف اقطع اليد التي كتبت بها ... سوف ترى ...

وبدات مرحلة جديدة ... ، بدات بهذا السؤال :

ـــ لماذا يكرهون اليد الفلسطينية الى هذا الحد ...؟

واحس باجس أبو عطوان ، بأنه قد اقترب كثيرا ، من تلك الايدي الفلسطينية ، التي اطلقت الرصاص واصدرت البلاغ الاول ... واعلنت الثورة ...

[٤]

« وكانت الشبابة ، عنقا مثقوبا بالرصاص ... »

على طريق العقبة الصحراوي ... عاد باجس أبو عطوان ، يدس يديه مرة ثانية في النار ... وافتتح مقهى ... وشاركه أحد اقربائه ...

في المقهى على طريق العقبة الصحراوي ... كانت الاحاديث كلها تدور حول الهزيمة ... هزيمة حزيران ١٩٦٧ ... وعاد باجس ابو عطوان يسأل نفسه :

ـــ الا يزال أولئك الضباط الكبار ، يحتفظون بالنياشين فوق صدورهم ...؟

اذن ... لقد احتل الاسرائيليون خربة الطبقة ... ، لم يحتلوا الخربة فقط ، بل احتلوا كل الخرب ... وكل القرى ... واحتلوا الخليل ايضا ... الخليل والقدس ونابلس ... وكل شيء ...

وكان باجس أبو عطوان يسأل نفسه طول الليل ، وهو لا يستطيع ان يغمض جفنيه :

ـــ ماذا يفعل والده الان ، هل لا يزال يعمل في المقهى في « دورا » ...؟ وماذا حل « بأبو علي » ، راعي الغنم ... وبالفلاحين ... في « دورا » و « الظاهرية » و « يطة » والسموع ... في « بني نعيم » ... و « بيت مرسم » ...؟

كان الفلاحون يرفعون في أيديهم عناقيد العنب ، وينادون على غزة ويافا وبئر السبع ، فاصبحوا ينادون الان ، على القدس ونابلس والخليل نفسها ...؟!

لم تعد نار المقهى ... تقدم الدفء لا ليديه ... ولا لقلبه ... ولم تكن تقدم الاجوبة على اسئلته ايضا .

ونظر الى يده ... وبصق على الارض ... ان عليه ان يفعل شيئا اخر بهذه اليد ... غير حمل الصينية وتقديم اقداح الشاي ، وفناجين القهوة ...

ونظر الى قدمه ... هل كل وظيفتها ، ان تسير خطوات بين زبائن المقهى ... تلك القدم التي تعودت على السير الطويل ... وما الذي يفعله ، في هذا الطريق الصحراوي ...؟

وقرر باجس ابو عطوان ان يترك المقهى لقريبه ... وان يعود الى خربة الطبقة ...

واحس ان تلك الطريق التي قطعها آلاف المرات من « دورا » الى خربته تنادي عليه... وما اكثر ما كان يخيل اليه ، انه يسمع صوت شبابة « أبو علي » راعي الغنم ... وانه ينادي عليه ... من خلال ذلك الانين الطويل الذي ينطلق فيها ... كانت الشبابة المثقوبة ، تشبه الصدر العنق المثقوب برصاص الاحتلال .

وقطع باجس ابو عطوان النهر ... ومضى ... لقد مرت مياه كثيرة تحت الجسر ... تبدل وجه الحرس وتبدل وجه الاحتلال ... وتغيرت الراية ...



حينما وصل الى الخربة ، أحس ان كل شيء قد تغير ... حتى الهواء اصبحت له رائحة أخرى ... واصبح ثقيلا كالرصاص ... وحتى والده ... صار لصوته رائحة اخرى ... الهواء والارض والاصوات ... ووجوه الفلاحين ... والطريق ... والجبال ... والنجوم وكل شيء ... كل شيء ...

كان الظلام كثيفا ، يكاد يقطع بالسكين ... ولم تكن تخترقه ... غير ومضات زخات من الرصاص ، تطلقها تلك الايدي الفلسطينية بين فترة واخرى ...

ما اكثر الاسئلة التي كان يريد ان يطرح على والده ؛ وعلى « أبو علي » ، راعي الغنم ؛ وعلى الفلاحين أيضا ... ولكنه لم يكن يتلقى غير القليل من الاجوبة ... فالناس في سنوات الاحتلال لا يتكلمون كثيرا ...

وسيأتي يوم يصبح فيه باجس ابو عطوان ، يتكلم من يده ... ان الايدي لا بد وان تخترع لغتها الخاصة ...



ما الذي على باجس ابو عطوان أن يفعله الان ...؟ ان العمل الى جانب ابيه في المقهى ، لم يعد يقنعه ، كان يعاوده الاحساس بأن يده قد كبرت كثيرا ، واصبحت أكبر من صينية الشاي والقهوة ...

فما الذي عليه ان يفعله ... انه يعرف ، كل تلك المنطقة بسلاسل جبالها ... بخربها وقراها ... بمسالكها ... وكهوفها ... كما يعرف خطوط كفيه ... واهم من ذلك كله ، كان يعرف جيدا ذلك الهواء الذي يتنفسه الفلاحون ... أيام الزرع وأيام القلع ...

لقد عرفت الخربة كلها ، انه سجن ، عرفوا بقصة تلك البرقية التي ارسلها للملك ... وما أكثر ما كان يسأله الفلاحون :

ـــ هل حقا ارسلت تلك البرقية للملك ...؟

وكان باجس يحس بومضات الاعتزاز تلمع في عيونهم ... فها هوذا شاب صغير من خربتهم ، يرسل برقية للملك ... وبرقية احتجاج ... وانه قد سجن من اجلها وطرد من الجيش ...



حينما يسترجع باجس ابو عطوان أيامه ولياليه في تلك الزنزانة ، في سجن الزرقا ، حينما كان يسترجع ذلك الباب الحديدي المغلق عليه ، وتلك العين المغروسة في الباب ، والتي يطل منها الحرس عليه ... والجدران الاربعة المغلقة فوقه ... كان الالم يعود الى قدميه ... فالقدم التي تعودت على قطع الكيلو مترات الطويلة كل يوم ... لا بد

وان تصاب بالمرض ... حينما تصبح كل الارض التي تحتها ، هي ارض الزنزانة ... متران في ثلاثة امتار ...

غير أنه كلما كان يحاصره الاحساس بالسجن ، كان ينظر الى رؤوس الجبال ... ويشعر بالطمأنينة ... وكان يحس بالامان ...

ولكن ... لماذا هذا الاحساس بالسجن ...؟



في أيامه الاولى في خربة الطبقة ، حدثه والده عن الايام الاولى للاحتلال ... ساعات حظر التجول الطويلة ... وغارات التفتيش المستمرة عن السلاح ... وعمليات اخراج الخربة بأكملها في العراء ... وتدوين اسمائهم ... والكشف عن هوياتهم ... وعشرات الاسئلة التي كان يوجهها العسكري الاسرائيلي لهم ... عن ميولهم السياسية وعن رأيهم في « اسرائيل » ؟ وأسئلة كثيرة ... تشبه ضربة كعب البندقية فوق الوجه ...

ـــ وهل صادروا اسلحة كثيرة من الخرب والقرى ...؟

ويرد عليه والده :

ـــ لم يترك « الاردنيون » ، غير اكوام زبالتهم ... اما الاسلحة ... فقد انسحبوا بها وراء النهر ...

ـــ و « ابو علي » ، راعي الغنم ...؟

ـــ لم أعد اراه ... كثيرا ... ولكنه كان يسأل عنك كلما صادفته في الطريق ...

ـــ والمدرسة والمدرسون والطلاب في « دورا » ...

ـــ انتزعوا كتب التاريخ والجغرافيا من أيديهم ... وانتزعوا كتبا اخرى وكوموها في ساحة المدرسة ، واضرموا فيها النار ... قالوا ، انها تحرض على الكراهية ...؟

وهم ... يحرضون على ماذا ...؟ الذين يشعلون النيران في الكتب ، والذين يحتلون الارض ... هم بالحاكم العسكري الاسرائيلي ... وبضباطه ... هم بعمليات التصفية والقهر والنسف ، وبجنازير دبابتهم التي تعض الارض ... هل يحرضون على الحب ...؟

لاول مرة يدرك باجس ابو عطوان ، ان الكراهية هي احد الاسلحة التي يفتش عنها الاحتلال ، كما يفتش عن بقية الاسلحة ... وعلى باجس ابو عطوان ، ان يحافظ على هذا السلاح الذي يملكه الان : سلاح الكراهية ... هذه البوصلة التي سوف تقود قدميه في يوم قريب الى طريق الجبل .

[٥]

« ... ولم يكن العدو كيس رمل ولا كيس ماء ... »

كانت عودة باجس ابو عطوان ، لخربة الطبقة ، في أيام الحراثة ...، حيث يشتد تعلق الفلاح بالارض وعشقه لها ... وبالذات في مراحل القهر والاحتلال حيث تصبح الارض في خطر ... وفي هذه المرحلة ، تجيء أيام الحراثة ، لتجدد ارتباط الفلاحين بالارض ، من خلال سكاكين المحاريث ... ومن خلال المحراث الذي يشق الارض ،

يؤكد الفلاح وجوده وملكيته للأرض ... اخاديد ... أخاديد ... تفتح في الارض ... وعلى جانبي كل اخدود ... تظهر كتل جديدة من التراب المتجمد الذي يشبه الطين الذي جف ولا تزال فيه بعض رطوبة الماء ... يظهر الطوب ويأخذ أشكالا متعددة ... ومنها شكل الطيور ... التي الوانها لون الطوب الجديد ... الذي خرج من باطن الارض ...

من هذه الطيور الترابية ، طائر اسمه « الشنار » ... وهذا الطائر ، لا يتواجد الان في ايام الحراثة ... حيث لا يكاد أحد يميز بين طائر الشنار ... وبين « الطوبة » ... ومن أجل هذا ، فطائر « الشنار » ، طائر صعب الاصطياد ... لانه يأخذ لون الارض ... بالاضافة الى أنه ... طائر حذر ... وهو يختلف كثيرا ، عن طائر « السمان » ... الذي رغم لونه شبه الترابي ، فهو يسقط بالمئات ... في الشباك التي ينصبونها له على امتداد الشواطيء ... حيث يأتي من جزر البحر الابيض المتوسط ... ويسقط في الشباك — شبه أعمى — وقد أنهكه التعب ...

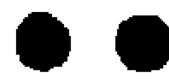
هل عرف باجس أبو عطوان ، كل هذا الذي يقال عن طائر الشنار ، عن الطائر الذي يأخذ شكل طوب الارض ... في أيام الحراثة ، والذي يمارس حياته ... يتنقل بمنقاره بين الطوب ...؟ ولانه لا يستطيع أن يغير جلده ... بعد أن يسقط المطر ... ويبدأ جلد الارض يخضر ... فما أسرع ما يرحل ... من أجل أن يعود من جديد ... في عام الحراثة القادم ...

هل عرف باجس أبو عطوان ، كل هذا ، عن طائر «الشنار » ، فأصبح اسمه الذي عرف به هو « أبو شنار »: الاسم الذي عاش به وقتل به ...؟ ومن الذي اختار له هذا الاسم ، « هو » ، أم والده ... أم أصدقاؤه ... أم الارض ... والتي كان قدره أن يرتبط بقطارها ...؟



سواء عرف باجس ابو عطوان « ابو شنار » ، طائر الشنار أو لم يعرفه ، وبغض النظر عن « الذي » أو « الذين » أطلقوا عليه هذا الاسم ... فلقد أصبح له : اسم طائر الشنار ، أصبح له هذا الاسم ولا يهم ان كان هو قد اختاره ... أو قد فرض عليه ...

فلقد أخذ هو باجس أبو عطوان ، لون طوب الارض ، وعاش متنقلا بينهما ... مقاتلا خلفها وفوقها وتحتها أخذ لون طوب الارض ، واخذ لون جلد الفلاحين الترابي ... ومضى من أجل أن يضيف الى الراية الفلسطينية ذات الالوان الاربعة ، لونا خامسا جديدا ... هو لون طوب الارض ... في أيام الحراثة ...



سمع « أبو شنار » ، الكثير ، عن اخبار المداهمات الليلية والنهارية ، التي كانت تقوم بها الدوريات الاسرائيلية ... والتي تبدأ بالاعتقالات ... وتنتهي بالمحاكمات العسكرية وبأحكام السجن ...

ولكن ها هو يواجه بعينه ... تجربة جديدة ... تجربة مداهمة بيتهم في خربة الطبقة ... واعتقال والده ... « موسى أبو عطوان » ... ثم المحاكمة العسكرية السريعة ، ثم الحكم عليه بالسجن ، لمدة ثمانية اعوام ... وبعد الحكم عليه ، يتم ترحيله من سجن الخليل ، الى سجن غزة المركزي ...

لقد اغاروا على البيت ، وقلبوا كل شيء ، قلبوه ومزقوه ... بسناكي بنادقهم ... هل كانوا يبحثون ... عن الاسلحة فقط ... ام كانوا يبحثون عن ذلك السلاح الاخر ... الذي اسمه الكراهية ...

ولم يعثر العساكر الاسرائيليون على البنادق في بيت موسى ابو عطوان ... ولكن الكراهية ، كانت سلاحا في حيازة الجميع ... في حيازة عائلة موسى أبو عطوان ...

وحينما رآهم باجس أبو عطوان ، يجرون والده ... أمام عينيه ، وينطلقون بـه ، بعد أن مزقوا بسناكي بنادقهم كل ما في البيت ... الفراش والجدار ... وحينما حاكموا والده ، وحكموا عليه بثمانية أعوام ... ادرك « أبو شنار » ، ان سلاح الكراهية وحده لا يكفي لمقاومة الذين اعتقلوا الارض ، وها هم يعتقلون والده ... احس بأنه لا بد من سلاح اخر ... يقف الى جانب سلاح الكراهية ...

أحس بأن الكراهية تنقذ الروح ... وادرك ان البندقية يمكنها ان تنقذ الروح وأن تنقذ الجسد معا ... ، وبدأ طائر الارض بحثه عن البندقية ...

طيلة ايام تدريبه في الجيش الاردني ، كان يطلق الرصاص ... وكانوا يدربونه على اطلاق الرصاص ... ولكن ضد « أكياس الرمل » ... كان العدو واضحا تماما ... ومع ذلك فلقد حولوه الى كيس رمل ... ، حولوه الى عدو غامض ... ، يمكن أن يكون كل شيء ، كيس رمل ... وكيس ماء ايضا ...

ولم يكن باجس أبو عطوان ، في حاجة لمن يدربه على استخدام البندقية ... ولم يكن في حاجة لمن يدربه على ممارسة الكراهية ، كان في حاجة الى ذلك الشيء الذي اسمه : البندقية ... فلقد حبلت يده بالكراهية ، حبلت يده ، وحبلت قدمه ... وحبل فمه ... ولا بد ان يلد الان ...



... وجاءه من قاده الى الجبل ... ووضع الكلاشينكوف في يده ... وقال له هذا هو العدو ، ليس كيسا غامضا من الرمل ، وليس كيسا غامضا من الماء ... ، فهو عدو يطلق الرصاص عليك ، فلا بد أن تطلق الرصاص عليه ...

... وبدأ باجس ابو عطوان ، « أبو شنار » ، يطلق الرصاص ... وضد عدو يعرفه ... ، في الجيش الاردني ، قالوا له : ان العدو هو كيس رمل وها هو يعرف الان ، ان العدو ... ليس كيس رمل وليس كيس ماء ، ولكنه دوريات تفتيش وعربات ملاحقة ... ، جنود مطاردة ، ومفرزة اعدام ... انه الدبابة والسجن ... والكيبوتسات ايضا ... الكيبوتسات التي تريد ان تحول فلسطين كلها الى « كيبوتس » ... الم يتحول البعض الى دجاجة — في كيبوتس جلعاد أو غيره من الكيبوتسات ... الى دجاجة ، في حوصلتها ، حبة قمح ... تختزنها لتاكلها لا لكي تلقي بها بذرة في الارض ... من اجل سنابل جديدة ... وما اكثر الدجاج الذي ظهر وفي مناقيره الرصاص ...؟ ولكن في سنوات الاحتلال ، فحبة القمح في حوصلة الدجاجة ، ليس شهادة مقاومة لها ... وليس الرصاصة في منقارها ايضا ... فالسؤال هو : بيضة الدجاجة لمن ... وفي راحة كف من ، تبيض الدجاجة ...؟

ولقد كان كل قمح الجبل ، في حوصلة باجس ابو عطوان ... قمح الخليل ، وخرب الخليل ، وقرى الخليل ...

ولكن ... في كف من يبيض باجس أبو عطوان ... ، « أبو شنار » ... في كف من يبيض طائر الأرض ...؟

انثى طائر الشنار ، تحرس بيضها ... وقبل حراسته تعرف أين تضع البيض ... ولقد عرف « أبو شنار » ، اين يضع بيضه ... لقد وضعه في داخل مغارة في جبل... وكانت تجربة الجبل ...



الفلاحون ... يلقون ببعض « النطف » في ارحام نسائهم ... ويلقـون بغالبيـة « النطف » ، كبذور ، في الارض التي تم حرثها ... وتنتظر سقوط المطر ... وهكذا فعل « أبو شنار » ، طائر الثورة ... ، وطائر الارض ... القى بطل « نطفه » ، في أخاديد الارض ... وسقط المطر وخرجت الرصاصة من داخل البيضة ... وهكـذا خرج باجس ابو عطوان ... واخيرا ... باض الديك الفلسطيني ...

ولم تكن بيضة الديك هي تأكيد معجزته ، بقدر ما كانت تأكيد عجز الدجاجة ، التي تقدم للديك الاميركي المخصي ، شهادة الفحولة ...؟!...

[٦]

« حينما يكون الموت علنيا ... »

بعد الحكم على والده بالسجن ، تم اتصال باجس ابو عطوان ، بأولئك الرجـال الذين أطلقوا رصاصة أول يناير ١٩٦٥ ... وجاءه منهم من يقول له ، أنهـم علـى استعداد لتقديم كل شيء ...

وهو لا يريد منهم شيئا ، فكل الذي يريده ، ان يكون معهم ... فهو وحـده الذي يحس بمأساة والده الان ... سوف يمرض من قدميه ... فطيلة ثمانية اعوام ... لن تلمس قدماه تلك الطريق التي اعتادا على قطعها معا ... من دورا الى خربـة الطبقة ... والقدم تمرض حينما تبتعد عن الارض ...

ويرتفع صوته :

ــ لا أريد منكم شيئا ... ولن اكلفكم نفقات توكيل أحد المحامين ... فانا الـذي سوف اكون محامي الدفاع عن والدي ...

ويسأله احدهم :

ــ كيف ...؟

ويرد باجس ابو عطوان :

ــ سأترافع عنه بالرصاص ... انني املك بعض المال ... لقد بعت نصيبي في المقهى هناك على الطريق الصحراوي ... وسأدفع ثمن ... بندقية ... سأدفعـه كاملا ... والان ...

بكل عفوية الجبلي ... يتكلم باجس أبو عطوان ... وبعفوية أيضا ، يقولون له :

ــ ولكننا لا نبيع البنادق يا باجس ... فالقدرة تقدم الكلاشينكوف ،

ليت الرصاص الذي سوف يعطونه له ، يكون بعدد قطرات دمه ... أو بعدد حبات العنب في عناقيد الدالية ... في بيته ...

ويرتفع صوته :

ــ سوف أوفر عليكم ذخيرة التدريب ... وفوق ذلك ، فانا اعرف هذه الجبال ... كما اعرف وجهي ...

واعرف عشرات الفلاحين ... أعرفهم بالاسم ... واعــرف ايضا ... أسمـاء اولادهم ... واعرف ايضا ، كيف يمكن ان يحفظ العنب ، ويؤكل طازجــا ، في عــز الشتاء ...

ــ سوف نتصل بك ....

ــ متى ...؟

ــ لا تقلق ... ولن يطول انتظارك ...

استأذنك الان ...

ويصرخ باجس ابو عطوان :

ــ لا ... لا ... ليس قبل أن نأكل معا ...

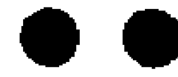
ويجيبه الرجل :

ــ ما اكثر ما سوف نأكل معا ...

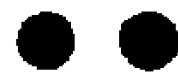
ــ اين ...؟

ــ هناك ... في الجبل يا باجس ابو عطوان ...

سوف نأكل العنب معا ، في عز الشتاء ... لقد وعدتنا بهذا ...



ولقد كان « باجس » ، وفيا للعهد ... فهو لم يقدم لهم العنب الطــازج ، في عــز الشتاء ... بل قدم دمه ... دمه الفلسطيني ، ــ هذا الزيتون الاخضر ــ الذي لم يعد يخزنه الفلسطينيون في الجرار او في « التنك » ... ولكنهم صاروا يخزنونه ... في رئاتهم ... وبين اصابع أيديهم ... الايدي التي تضغط على الزناد ... والرئات التي تتنفس الهواء ...



ــ أنت ...؟!

ويصرخ باجس ابو عطوان ... وهو يحتضن « أبو علي » ... راعي الغنم ...

● اجل أنا ... ما رايك ...؟

ــ لم اكن اتصور ابدا ... « انه » ، سيكون « انت » ...

● هل لانني ... أنفخ في « الشبابة » ...؟ حينما انضممت اليهم ، اشترطت عليهم ... شرطا واحدا ... ان لا استبدل الشبابة بالكلاشينكوف ... اشترطت عليهــم أن اقاتل « بالشبابة » ، واقاتل بالكلاشينكوف ...

ولو قدر للذين يكتبون ومع ذلك يوجهون الاهانة كل يوم للقلم والورقة .. ان يمضي بعض الوقت في جبال الخليل ، مع « أبو علي » ، راعي الغنم ، لكــان تعلم ... ان البندقية ليست بديل « الشبابة » وبديل الموسيقى ، وأن الرصاصة ، ليست بديــل الكلمة ... فالموسيقى ليست في المعسكر الاخر ابدا ...

ــ انني اقاتل بالكلاشينكوف واقاتل « بالشبابة » ايضا ، يا « أبو شنار » ... هل

تسمعني ... انك لا تعرف الى أي مدى يخافون ، حينما انفخ في « الشـــبابة » ... حينما يتحول هواء الرئتين ... الى صوت ... الى موسيقى ... وسوف ننتصـــر عليهم لا بالرصاص وحده ... ولكن بالموسيقى ... لا بد وان نمضي الان ...

ولم يسأل « أبو شنار » ، الى اين سوف يمضي مع « أبو علي » ، ـــ راعي الغنم ـــ كان يثق به ، ثقته بالاعشاب التي تنمو فوق قمم الجبال ... ، ثقته بالزبد والجبـــن ، الذي يخرج من حليب « الماعز » ...



وجنبا الى جنب مع راعي الغنم « أبو علي » ، مضى باجس ابو عطوان ، « أبـــو شنار » ... ، مضي يتبع صوتين : صوت البندقية وصوت الشبابة ... ولم يكـــن يدري ... ان شجرة ما ، ستعطيـــه غصنا ، ومن هـــذا الغصـــن ، سوف يصنـــع « شبابة » ... وسوف ينفخ ... وكلما ازداد عدد الثقوب في « الشبابة » ، كلما كان « الصفير » ، اكثر ارتفاعا ... وكلما كان الصوت ـــ ايضا ـــ ... أكثر ارتفاعا ... هو الاخر ...

ـــ حينما تكون معزولا ... محاصرا ... مطاردا ... لا تستطيع ان توقد نـــارا ... ودمك يكاد يتثلج ... فلا بد وأن تفعل شيئا ما ... ولكن يجب ان تعـــرف ان الموسيقى التي تخـــرج الثعابين من أوكارهـــا ... يمكـــن ان تخـــــرج ايضا ... « الاسرائيليين » من « كيبوتساتهم » ... والافعى ترقص على صوت الشبابة علـــى صوت الموسيقى ... ولكن الاسرائيلي ، يطلق الرصاص ... اتبعني الان ...

اتبع أبو شنار « أبو علي » ... تبع راعي الغنم الذي يحمـــل الكلاشينكوف بيد ، ويحمل « الشبابة » ، باليد الاخرى ... وقاده الكلاشينكـــوف وقادتـــه « الشبابة » ... الى مجموعة ... « علي ابو مليحة » ،

وهكذا انخرط ، باجس أبو عطوان ، في « سلك الجبل » ... ، واصبـــح مقاتـــلا جبليا ، في مجموعة « علي أبو مليحة » ،

ـــ مات البطل ...

ـــ عاش الجبل ...

وسقط « علي ابو مليحة » ... سقط « ملك الجبل » ... وكان لا بد ان يخلفـــه ابنه ... ولكن الجبل ليس شجرة نسب لعائلة ...

مثل كوريولانس ... القائد الروماني القديم ... كان على المرشح ، الذي سوف يخلف « علي ابو مليحة » ، في قيادة المجموعة ، ان يخلع قميصه ... ويكشف عـــن جراحه ....

ورفض « أبو شنار » ، أن يخلع القميص ، ويكشف عن جراح صدره ... ورفض أيضا ، ان يدفن ، « علي أبو مليحة » ، بشكل سري ، كان يعرف الفلاحين جيدا ، ومن اجل هذا قال :

ـــ المقاومة سرية ، فلا بد ان يكون الموت علنيا ... لا بد وان يعرف الفلاحون ... اننا نموت من أجلهم ... يجب ان يعرف مكان القـــبر الفلسطيني ... انني ارفض سرية الموت ... لا بد وان تكون ... كل العلنية للموت الفلسطيني ... مـــــا دام القتال الفلسطيني ، والحياة الفلسطينية ، هو قتال وحياة سرية ...

ويصرخون جميعا :

ــ اننا نعطيك اصواتنا . . .

● ورغم ذلك فسوف انتظر . . .

ويصرخون :

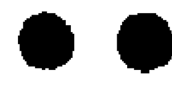
ــ تنتظر ماذا . . .؟

● انتظر . . . قرار القيادة . . .

ــ ولكننا نعطيك اصواتنا . . .

ويصرخ :

● انتظر قرار القيادة . . .



لقد علمه الجبل . . . كيف يحترم قوانين الجبل . . . وصدر القرار . . . وأصبح « ابو شنار » . . . خليفة « علي ابو مليحة » . . .

ــ مات البطل . . .

ــ عاش الجبل . . .

[٧]

« آلو .. آلو ... انني « أبو شنار » ..

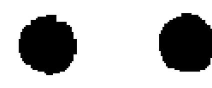
أصعب من العمل في الجبال الجرداء . . . ، العمل في الجبال المزروعة . . . وبالذات بالنسبة الى مقاتلي الجبل . . . ففي الجبال المزروعة ، في تلك الارض المعلقة ، يتعامل المقاتل الجبلي مع الزرع ومع الفلاحين . . . خاصة ، وان الفلاحين يعتمدون كليا ، على ما يزرعونه في صدر تلك الجبال . . . وتحت ابطيها . . . وبين اصابع قدميها . . .

وبدأ تعامل « أبو شنار » مع الجبل . . . « وكمقاتل جبلي » . كان يعرف أن مسؤوليته كقائد لمجموعة جبلية ، معزولة في الجبال ، تحتم عليه أقصى مستويات المقاومة للعزلة . . . وأعلى مرحلة من مراحل الاتصال بالفلاحين . . . وفي أعلى شكل من أشكال السرية .

ان الحياة الجبلية تفرض قسوتها . . . على المقاتلين . . . وبالذات الحياة في المغاور والكهوف . . . ولقد عرف ابو شنار بتجربته ، ان عليه هو وافراد المجموعة الجبلية ، أن يحافظوا على انسانيتهم كمقاتلين ، رغم كل الظروف . . .

ــ هذا ما يريده المحتلون ، أن نفقد انسانيتنا . . .

ونتحول الى مجموعة من الذئاب الجائعة . . . والذئاب هي الد اعداء الفلاحين . . . ولن نكون بالنسبة للفلاحين مجموعة من الذئاب أبدا . . . فنحن نقاتل بالفعل ضد الذئاب . . .



كان « أبو شنار » . . . يعرف أن العدو ، يركز كل نشاطاته المختلفة لافشال تجربة الجبل . . . وكان خبراء العصابات الجبلية من الاسرائيليين يؤكدون في تقاريرهم ، أن المقاتل الجبلي المعزول ، لا بد ومع مرور الايام ــ واحكام الحصار السياسي

والاقتصادي والاجتماعي والجنسي عليــه ــ لا بد وان يكتسب صــفات الوحــش الجبلي ...

وكان خبراء العصابات الجبلية من الاسرائيليين يؤكدون في تقاريرهم ... أن المقاتل الجبلي ، مهما حاول الدفاع عن انسانيته ، فلا بد وان ينهار عصبيا ، فــي نهاية المطــاف ...

ان باجس ابو عطوان ، كان يعرف هذا جيدا ، وكان يعرف ايضا ، انهم يحاصرونهم، الى درجة الموت جوعا ... ، من أجل أن يخرجوا من اطار انسانيتهم كمقاتلين ، ويدفعهم الجوع ، الى البحث عن صيد ، تماما كما تفعل الوحوش الجائعة ، وفي جبال الخليل ، في القرى والخرب ، لا توجد غير ابقار الفلاحين واغنامهم ...

وكان باجس أبو عطوان يعرف هو وأفراد مجموعته ، أن « اصطياد بقرة فلاح »، تعني اصطياد الفلاح نفسه ... (قبل موته الفاجع بأيام ، كان يريد بيع بقرته الوحيدة ... لمواجهة العديد من المسؤوليات ...) .

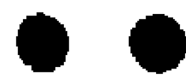
كانت الدموع تشتعل في عينيه حين كان يسترجع مــا قاله الحــاكم العسكري الاسرائيلي في الخليل لاحد المقاتلين الجبليين ، واسمه : يوسف اسماعيل مصطفى العواودة ... ، بعد أن وقع في الاسر :

ــ الم يبق لديك خبز ... ؟ ...

الخبز ... والرصاص ... والاتصال بالفلاحين ... لمعرفة اخبار العدو ... والاحتفاظ بانسانية البندقية ومقاومة العزلة ... الخ كل هذا لا بد وان يمارس وفي اعلى شكل من أشكال الانضباط التنظيمي ... والا سقطت المجموعة الجبلية كلها في مصيدة العدو ...

ولقد عرف باجس أبو عطوان ، ان النشاط المسلح ضد الاحتلال ، نشاط المجموعة كلها ... هو الذي يفرض الانضباط التنظيمي ... ومن خلال ٥٢ عملية مسلحة ضد الاحتلال قام بها باجس أبو عطوان ، في منطقة الخليل هو ومجموعته ، استطاع أن يحقق مبدأ الانضباط التنظيمي في الجبل ... فلقد كان « أبو شنار » ، يعرف تماما ، انهم لم يصعدوا الجبل من أجل الاصطياف الثوري ، والثرثرة الثورية ... ان الانفلات التنظيمي ، لا يتم الا في حالة « الراحة الثورية » ... وفي مرحلة الاستجمام الثوري ، يبدأ « الثوار » ، يتخاصمون ... ويخرجون النصوص الثورية من جيوبهم، ويرجمون بها وجوه بعضهم البعض ...

وضد هذا الاتجاه ... أغرق باجس ابو عطوان نفسه ، واغرق المجموعة الجبلية، التي كان يقودها في غمرة النشاط المسلح ... (معظم أفراد المجموعة من رعــاة الماشية ...)



ــ أبو علي ... كم طفلا أنجبت ... بعد أن صعدت الجبل ... وتنفجر الضحكة في فم راعي الغنم :

• ثلاثة ... ثلاثة ...

ويرتفع صوته :

ــ بين فترة واخرى ، كانوا يقومون باستجواب زوجتي ... وذات مرة ، سألها

المحقق الاسرائيلي ، وقد لاحظ بطنها المنتفخ . . . فنهض واقترب منها ، وقال فيما يشبه الهمس . . . وهو يشير الى بطنها :

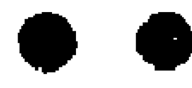
ـــ هذا . . . من اين . . . ؟ ان لم تعترفي ، فسوف أعمل ، على أن يصل خبر بطنك المنتفخ الى زوجك . . . وسوف يأتي ويقتلك . . .

وتزغرد زوجتي ، كما لم تزغرد من قبل وهي تصيح :

ـــ ولكن الذي في بطني . . . هو ثمرته . . . ثمرة زوجي . . .

وهو يفضل أيضا الاناث على الذكور . . . لانه راعي غنم . . .

يروي « أبو علي » قصة زوجته مع المحقق الاسرائيلي ، وهو يضحك . . . أجل لقد ، أنجب ثلاثة أطفال ، بعد صعوده للجبل ، ومن حقه ، ان يفرح بانتصاره على العدو . . . ، حتى بطن زوجته ، كان يقاتل ضد الاحتلال . . . ، وابنته الكبرى ، ابنة الذي يحمل الكلاشينكوف ، نالت شهادة البكالوريا . . .



(٥٢ عملية مسلحة) ضد العدو . . . تمت في الجبل وفي الشارع . . . ، في القرية والخربة . . . في ضوء الشمس وفي ضوء الليل . . . ولم يقدم فلاح واحد ، شهادة واحدة ضد باجس ابو عطوان ، فهو لم يقتل بقرة ، ولم تمتد يده لتينة من شجرة فلاح . . . ولا لعنقود عنب . . . من دالية . . .

كان يقول دائما لرفاق المجموعة :

ـــ لم نأت كجراد . . . والثورة تدفع مخصصاتنا . . . وما اكثر ما تتأخر . . . ولكننا لسنا موظفين في بنك . . . ولم يستأجرنا احد ، لحمل البندقية . . .



ـــ آلو . . . آلو . . . أعطني الحاكم العسكري . . . على الفور . . .

● من يتكلم . . . ؟

ـــ قل له « أبو شنار » . . . يتكلم . . .

ويرفع الحاكم سماعة التليفون :

ـــ آلو من . . . ؟

● انني أبو شنار أو باجس أبو عطوان . . .

ـــ باجس . . .

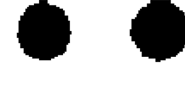
● اجل باجس . . . ، اريد أن اقول لك ، ان « أبو علي » ، راعي الغنم . قد ولد له طفل هذا اليوم ، وان فلاحا من دورا ، قدم لنا ثلاثة ديوك . . . وسلة تين . . . و « صحارة » عنب . . . وانا بدأنا نزرع القمح والتين والعنب في الجبل . . . وان لدينا طاحونة . . . ونحن نأكل خبزا ساخنا . . . ولدينا بقرة ايضا . . . ونحن نشرب الحليب . . .

ويلقي . . . باجس ابو عطوان بالسماعة . . .

ويصرخ الحاكم العسكري الاسرائيلي . . . :

ـــ آلو . . . آلو . . .

ويلقي بالسماعة ... بعد ان صرخ طويلا ... على باجس ابو عطوان ...



ــ لقد نسفوا البيت ... بيت أبيك ...

● انني اعرف هذا ...

ــ ما الذي نفعله الان ... لا والدك في البيت ، ولا انت ... اصبحت الحياة صعبة في خربة الطبقة ...

● ولكنهم يقيمون مستوطنات لهم في الخليل ، وانت تعرفين هذا ... لا بد وان تعيدي بناء البيت ...

ــ سوف ينسفونه من جديد ...

ولقد بنت الاختان ، وعاونهما بعض الفلاحين ، بيتهم من جديد ، بيت « موسى ابو عطوان » ، وجاء الاسرائيليون ، ونسفوه ثانية ... ، كانوا يرفضون ، ان يكون هناك سقف ... لعائلة باجس ابو عطوان ...

● لماذا لا تنضمين اليه في الجبل ... انت واختك ..؟

وتبصق ... الاخت الكبرى لباجس ابو عطوان ، في وجه الحاكم الاسرائيلي للخليل ... وترتفع صرختها . وكف الحاكم العسكري ... تضرب وجهها :

ــ لماذا تكذب على والدي ، الذي سجنتموه ، وتقولون له ، ان باجس قد قتل...؟ انه لم يقتل ... انك تعرف هذا ...

● ولكنه ... في عداد الموتى ... هل تسمعين ... انه في عداد الموتى ...

في ذلك الوقت تماما ، كان باجس ابو عطوان ، يدفع سبعة دنانير .. لاحد رعاة الغنم ، ثمن ... رأس من الغنم ...

وقبض الراعي الدنانير ومضى وهو يحدث نفسه ... :

ــ البنادق ... في أيديهم ... ومع ذلك فهم يدفعون ... الثمن ...

ولقــد دفعوا الثمن ... وكانوا دائما ، يدفعون ثمن ما يأكلون ...

[٨]

« تجوع البندقية ، فتصبح حياة الجبل في خطر ... »

● يجتمع الحاكم العسكري الاسرائيلي للخليل في مكتبه برئيس اعضاء المجلس البلدي لدورا ... فوق الحــائط ، كانت خارطة المنطقة معلقة ... بتضاريســها الطبيعية ... بكل خربة وقرية وجبل وواد ...

ويحدق الحاكم العسكري في وجوه رئيس واعضاء المجلس البلدي ويرتفع صوته :

ــ أين هو على هذه الخارطة ... باجس ابو عطوان ومجموعته ...؟

ويسود الصمت ... وللمرة الثانية يرتفع صوت الحاكم العسكري الاسرائيلي :

ــ أين هو على هذه الخارطة ... ؟

ومن اين لهم أن يعرفوا أين هو ...؟ في دورا ، ام الظاهرية أم يطة ، ام السموع

... في اية قرية ... او خربة ... او مغارة ...؟

حتى لو كانوا يعرفون ، فمن الذي يمد يده ... الى الخارطة ...

ـ انه يتجول بسلاحه في القرى والخرب ... وانتم تعرفون هذا ...

اجل انهم يعرفون هذا ، واكثر منه ...

ـ اذن فلن يتكلم احد منكم ...

ويرتفع صوت :

ـ من اين لنا ان نعرف اين هو ...؟

ويصرخ :

ـ ولكنه يأكل ويشرب وينام ... طيلة ثلاثة اعوام ... وفي هذه المنطقة ... لولا مساعدتكم أنتم وغيركم ... لما استطاع ان يظل في الجبل ... يوما واحدا ...

اجل ، لولا العلاقة الحميمة بين باجس ابو عطوان ، وبين الفلاحين ، لما تمكن من البقاء في الجبل ، والقيام بكل تلك الغارات ... وفي ضوء النهار ... وتلك الاشتباكات المسلحة مع دوريات الاحتلال ... وفي شوارع الخليل الرئيسية ...

انه لم يقطع شجرة ... حتى في ليالي الشتاء الدامية ... كانوا يكتفون بحرق الاعشاب ، في داخل الكهوف ... التي تكاد رطوبتها ، تحولهم الى الواح من الثلج... وباجس ابو عطوان لم يفرض « أتاوة » ، او « خوة » ، على قرية او خربة ...

لم يسرقوا ولم يقطعوا ولم يفرضوا اتاوة ، ولم يعتدوا على امراة ... كان باجس ابو عطوان ، يعرف المزارعين الفقراء من الفلاحين ، وكان والده ، مزارعا فقيرا ...، لا يهتمون بما يقوله الفم ، ولكن بما تفعله اليد ...

كانت المجموعة الجبلية المسلحة ، تدفع دائما ثمن ما تأخذ ... وبين وقت واخر، كانوا يقبلون بعض هدايا الفلاحين ... من الخبز والبيض والملح ... وبعد الحاح من الفلاحين ... وفي مقابل هذه الهدايا ، كان باجس ابو عطوان ... هو وأفراد مجموعته ، يقومون بجمع الاحطاب وتكويمها ... ويأتي الفلاحون ويأخذونها ... ويعرفون أنها هدية باجس ابو عطوان ... في أيام الشتاء ...

ومن أين للحاكم العسكري الاسرائيلي ، ان يدرك هذه العلاقة ، التي تربط بين الفلاحين ، وبين باجس ابو عطوان ورفاقه ...

ويرتفع صوته :

ـ انكم لن تتكلموا اذن ... انني في هذه الحالة ... سأجعل اولادكم يبحثون عنه في المغاور والكهوف ... سوف يدخلون اولا الى تلك المغارات ... وقبل الجنود الاسرائيليين ...

ورغم هذا الانذار ، فلم يتكلم أحد ... انتظر الحاكم العسكري طويلا ... ثم غادر حجرة مكتبه ...



ـ ان لي أما انا الآخر... وأنا اقدر مشاعرك... ولكن اذا كنت حريصة على حياة ولدك « باجس ابو عطوان » ، فلا بد أن تساعدينا ...

ويرتفع صوت والدة باجس ابو عطوان ، وهي تواجه الحاكم العسكري الاسرائيلي:
ـ وكيف اساعدكم ... ؟

● تسليمه لنا ، اقنعيه بأن يسلم نفسه ... لا أمل له في الافلات أبدا ... طائرات الهيلوكبتر ستبدأ منذ الفجر .. بالتحليق فوق كل صخرة وكهف وشجرة ... والدوريات ستفتش كل خربة وقرية ..

وتنظر « الام » ، التي نسفوا بيتها مرتين وحكموا على زوجها بالسجن ثمانية اعوام ، وطاردوا ولدها تنظر الى الحاكم العسكري ... وضوء عينيها يكاد ينسفه ...

ـ ليس لدي ما اقوله ...

● ولكنك ترينه ... اعرف انه يأتي الى البيت ...

ـ اجل انه يأتي ... وأطبخ له بيدي هاتين ... واطعمه بيدي أيضا ...

● ان لم تسلميه أنت فسوف يسلمه احد الفلاحين ...

ـ ولماذا يسلمه احد الفلاحين ... لقد كان دائما احد أبنائهم ... ان باجس ابو عطوان لم يخرب كروم العنب ، كما خربته أحذية جنودكم ... ولم يسلب الفلاحات سلال البيض ... ولم ينسف بيت فلاح ... ولم يعتقل الطلاب ... ولم يحاصر المنطقة عشرات المرات ...

● انك تقتلين ولدك ...

ـ لقد قلت لي ان لك ام ، وانا اسألك هل لك زوجة ...

● اجل ...

ـ لقد نقلتم زوجي موسى ابو عطوان ، من سجن الخليل ، الى سجن غزة ... وانتم ترفضون ان تعالجوه رغم مرضه ... وانتم تدسون عليه الاخبار الملفقة عن مقتل ولده باجس ... لكي تعجلوا في موته ...

● ولكن ولدك ... في عداد الموتى ... يجب ان تعرفي هذا ...

ـ في تشرين مات لكم كثيرون ... وسوف يأتي عليكم تشرين اخر ...

● انك تستحقين السجن ...

ـ ولكنني سجينة بالفعل ... ما دمتم تحتلون هذه الارض ...

● انك لن تسلميه اذن ...؟

ـ لم أسلمه قبل تشرين ... فكيف اسلمه الان ...

● سوف تندمين ... وسوف تبكين ...

ـ انك تعرف اننا لا نبكي على قتلانا ... ولكننا نزغرد لهم ... نحن نزغرد فوق اللحم المثقوب برصاصكم ... وانتم تنوحون فوق حائط ... وهذا هو الفرق بيننا وبينكم ...



وتعود أم باجس أبو عطوان الى بيتها المنسوف للمرة الثانية ... حيث تعيش مع بنتيها بين الانقاض ... وتحت سقف من الخيش والاغصان ، وفي هذه اللحظة ، كان

باجس ابو عطوان ، يفكر في شيئين :
في الكلمات التي قالها الحاكم العسكري الاسرائيلي للمقاتل الجبلي : يوسف اسماعيل مصطفى العواودة حينما وقع في يده ــ أسيرا ــ

ــ الم يبق لديك خبز ...

وكان يفكر ايضا ، في المصيدة التي نصبها المحتلون ، لعلي أبو مليحة ، حين كان يبحث عن ذخيرة ... فظل يقاتل وهو في الكمين ، حتى سقط في مكان اسمه : « أبو خروبة » ... الخبز لغم المقاتل الجبلي ... والرصاص لغم بندقيته ... وفي بعض الاحيان يوجد الخبز ولا توجد الذخيرة ...

وحينما تجوع البندقية ، تصبح حياة ... الجبل في خطر ... وها هي ذي بندقيته ، قد بدأت يوما ... من أيام الجوع ... وعليه ان يبحث لها عن طعام جديد .

[٩]

ــ « مات البطل ...
ــ عاش الجبل ... »

« علي ابو مليحة » ، لماذا يلح عليه هذا الاسم الان ... في صورة استشهاده الاخيرة ... ، في « أبو خروبة » ... وهو يبحث عن طعام جديد لفم بندقيته ...

لقد عاش ثلاثة اسابيع على الحشائش الخضراء الطرية وعلى الاعشاب الجافة... وفي استطاعته ، ان يعيش عشرة اسابيع اخرى ، ليس على الحشائش فقط ، ولكن على قضم الحطب أيضا ... غير أن البندقية لا تستطيع أن تعيش لا على الحشائش ولا على الحصى ... فلقد كان باجس ابو عطوان ، يحس أن يده تخون البندقية ، حينما تمر عربة دورية ، من عربات دوريات الاحتلال والبندقية صامتة في يده ...

باجس ابو عطوان ، ما الذي سوف تفعله الان ...؟

شريط طويل من الصور يمتد امامه ، مسلسل المعارك التي قد خاضها ... ومسلسل السنوات الاربع التي امضاها في الجبل ... ومسلسل « أبو علي » راعي الغنم ، الذي ولد له ثلاثة اطفال ... وهو معه ... في الجبل ...

كل شيء يمر امامه الان ... ولم يبق معه غير حفنة من الرصاص ، لا تكفي لغير وجبة غذاء واحدة لبندقيته ... وباجس ابو عطوان يعرف ، ان البندقية حينما لا تجد ما تأكله ، تموت يد صاحبها ...

انه الموت اذن ... ولكن على طريقة الجبل الفلسطيني ... ، لقد كان يرفض ان يدفن القتلى من المقاتلين في الجبال ... ، وكان يقول دائما لمقاتلي المجموعة الجبلية التي يقودها :

ــ اذا كانت حياتنا سرية الى اقصى درجات السرية في الجبل ، فيجب ان يكون موتنا في أعلى مراحل العلنية ... يجب ان يعرف الفلاحون ، ان هناك من يسقط من أجلهم ... ، يجب ان تكون قبورنا على مرمى عيونهم ...



انه الموت اذن ... ولكنه يعرف ان الجبل لم يخذله ، ولم يخذله الفلاحون ... ولم تخذله رؤيته ...

وراح ينحدر من صدر الجبل وقد حشا بندقيته بوجبة الطعام الاخيرة ... كان كمن يبحث عن صيد ، لا لفمه ولكن لبندقيته ...

انه يتذكر الان ، كل رسائله الى قيادته ، ويتذكر ايضا تفاصيل العمليات «الـ ٥٢ »، التي قام بها ، يتذكر وجه أبيه بعد صدور الحكم عليه ... ووجه امه واختيه ، بعد ان نسفوا البيت للمرة الثانية ... ويتذكر راعي الغنم « ابو علي » ، الذي كان طموح حياته ، ان يمتلك « راديو ترانزستور » ، وها هو الان بعد أن امتلك الراديو ، يبحث له عن بطاريات جديدة ... وربما يقتل قبل أن يجدها ... ويظل الراديو ... بلا صوت ... تماما كما هو يبحث الان ، عن « بطارية جديدة » ... لبندقيته ... عن رصاص جديد ...



عربة دورية اسرائيلية ، يرتفع دوي محركها ... ويكمن باجس ابو عطوان خلف صخرة وينتظر ، يأخذ كطائر الشنار ، لون طوب الارض وينتظر ...

وتقترب عربة الدورية ... وينتظر ... انه لا يملك غير ما حشا به بندقيته ... ولو قتلهم جميعا ... لتمكن من الاستيلاء على بنادقهم وذخيرتهم ... وكان عليه ، ان ينتظر اكثر ...

واصبحت عربة الدورية على مرمى مائة متر من بندقيته ، كانت الدورية تتألف من ضابط وثلاثة جنود ...

آه ، لو كانت معه قنبلة يدوية ... ولكن لا القلب يتحول الى قنبلة ، ولا العين تتحول الى رصاصة ...

عربة الدورية تقترب أكثر ، وهـــذه هي فرصته الاخـــيرة ... والحقد يتجمع في الاصبع ، كما تتجمع الكهرباء في الشلال ...

... وتنطلق الرصاصة الاولى ... وتخترق صدر السائـــق ... فيسقط فوق المقود ... وتترنح العربة ... وتندفع ... وتصطدم بصخرة ... وتتوقف ... وتنطلق الرصاصة الثانية ... ويسقط الضابط — الى جوار السائق — نصفه في داخل العربة ... ورأسه يتدلى فوق الارض ...

لقد بقيت رصاصتان ... ويخـــرج ... من خلف الصخـــرة ويقترب اكثر ... رصاصة لكل جندي ... لو خدمه الحظ ...

مطر من الرصاص ... يتساقط حوله ... ثم يحس باجس ابو عطـــوان ، ان عاصفة من النيران تلفه ... ويتراجع ... كان يحس بالدم ... يكاد يتفجر مـــن عينيه ... ومطر الرصاص يلاحقه ... كان كالسحابة التي تمطر فوق رأسه ...

ويظل يتراجع ... ويتراجع ... بين الصخور ... انه يعرف الطريق جيدا الى تلك المغارة ... تلك الطريق التي مشى فيها مئات المرات ... المغارة التي حفرها بيديه ...

لم يكن يدري ، لماذا كل هذا الاصرار على التراجع ، وهو يعرف انـــه ينزف حتى الموت ... ، لقد كان يريد ان يموت في بيته ، في داخل تلك المغارة التي عاش فيها أربع سنوات ...

ويواصل التراجع ... بين الصخور ... فوق جراح الرصاص في صدره ... فجراح الاشواك في يديه ... وفي ساقيه ...

ويبلغ باجس ابو عطوان ... باب بيته ، يبلغ باب المغارة ... وهو لا يسقط فوق عتبتها ... ولكنه يتسلل الى الداخل ...



انه النزع الاخير ... لقد بدأ شريط الصور يهتز ... وراحت الوجوه تختلط ببعضها البعض ... طلبت منه القيـادة ذات يوم أن يرسل بصـورة له ، وصور افراد المجموعة ... وأسمائهم العلنية ... يا الله ... الا يكفي كل تلك الصور الملصقة فوق الحيطان ... وفوق جدران المكاتب ... ولكن الجبل لن يتحول الى مكتب ...
ولاحظ باجس ابو عطوان ، انه قد استند في داخل المغـارة ، الى كيس مـن الطحين ... وان بقعا من دمه تصبغ الكيس ...

لن يترك لرفاق المجموعة ... رغيفا مخضبا من الدم ...

يكفي كل الدم الذي امتزجت به حياتهم ... ويزحف بعيدا عن كيس الطحين ... لقد تأخر « علي ربعي » ...

خشخشة في باب الكهف ... ورغم احساسه بثقل جفنيه ... يفتح ابو شنـار عينيه ... ورأى « علي ربعي » يزحف ، وحين اقترب منه ... واحتضنه ... رأى يد علي ربعي تنزف ... وأصابعها تتدلى ... وهي تقطر بالدماء ... كأنها مناقير الطيور ... لقد أصابته طلقة في يده ... انهم دائماً يطلقون الرصاص ... على يد الفلسطيني ... على يده وقدمه ...
فوق كتف علي ربعي ... سقط راس باجس ابو عطوان ...

ــ سقط البطل ...

ــ عاش الجبل ...



في كهف في منطقة الجوف جنوب شرق قرية « الحدب » ، من قرى دورا ... عثروا على باجس ابو عطوان ... كان امام باب الكهف ... كومة من الحجارة ... ملطخة بالدم ... كومها علي ربعي بيديه ... لم يكن للكهف باب مكشوف ، ولم يكن يمكن الاستدلال عليه ، لولا كومة الحجارة التي وضعها علي ربعي ... ومضى ... وأخبر والدة باجس ابو عطوان ...

بعد التفتيش ظهر لهم مدخل منخفض جدا ولا يستطيع أحـد دخوله الا زحفا على بطنه . وزحف الجنود الاسرائيليون مسافة عشرة أمتار على بطونهم داخل الكهف ... كان الكهف يتشعب ، من الداخل ، الى اتجاهات أربع ... والظلام كان كثيفا ... وظلوا يبحثون والمصابيح في أيديهم حتى عثروا عليه ... وتعرفت عليه امه ...



في تلك الليلة ، التي دفن فيها باجس ابو عطوان ، رأى الفلاحون في دورا ، رؤى عجيبة ... رأوا طيورا في حجم الصخور ... تحمل في مناقيرها عناقيد العنب ، وتلقي بها فوق سقوف بيوتهم ... أما والدة باجس ابو عطوان فلقد رأت نحلة في حجـم « طائر الشنار » ، يحط فوق تراب القبر ... ثم يطير ...

فلاح عجوز ... حينما سمع الرؤيا ... تطلع الى السماء وتمتم :
ــ هذا دم باجس ابو عطوان ، تحول الى قرص عسل ...
ــ مات البطل
ــ عاش الجبل

السياسة الاقتصادية الاسرائيلية في المناطق المحتلة : اسس لامبريالية جديدة

شيلا ريان

(الحلقة الثانية)

هذا هو القسم الثاني من هذه الدراسة المطولة وقد سبق ان نشرنا القسم الاول في العدد الماضي من شؤون فلسطينية .

غزة

لقطاع غزة ، بكثبانه وشطآنه الرملية ، وبيارات البرتقال والمدينة القديمة فيه ، عناصر جمال فائق ، ولكنه أصبح منذ عام ١٩٤٨ مكانا للتعاسة البالغة ، لقد فاق عدد اللاجئين الى القطاع عدد السكان الاصليين بنسبة ثلاثة الى واحد(١٤٥). وفقد معظم سكان غزة الدائمين أرزاقهم عندما فصلهم خط الهدنة عن حقولهم ، ولم يكن لدى القطاع الضيق على الاطلاق ما يكفي من الارض او المصادر الاخرى لاعالة سكانه المتكاثرين . وخلال فترة الادارة المصرية كان الـ ١٣٥ ميلا مربعا التي تشكل مساحة قطاع غزة مكتظة بالفقر والبؤس الانساني ، وعندما استولى عليها الاسرائيليون في عام ١٩٦٧ حشد اكثر من نصف عدد سكانها المكتظين في مخيمات اللاجئين التابعة للانروا . وفي عام ١٩٧٢ كان ٣٢٤،٥٦٧ لاجئا مسجلا يعيش في غزة ، من بينهم ٢٠٥،٧٣٤ من المخيمات(١٤٦). ولقد اشارت الحكومة الاسرائيلية الى انها لا تنوي الانسحاب من غزة .

في الضفة الغربية ، يلمس المرء ايدي الاحتلال الطويلة تصل الى المستقبل لتخلق اوضاعا مسبقة لسلام امبريالي في المنطقة عن طريق ابقاء الجسور الى أسواق الشرق العربي مفتوحة ، اما في غزة فان يد الحكم العسكري ممتدة فوق مخيمات اللاجئين ، في محاولة لاعادة تشكيل سكانها في هيئة يمكن اعلانها كـ « حل » لمشكلة اللاجئين ، وستكون في الواقع حلا دائما لسعي اسرائيل وراء العمل الرخيص .

في اوائل ١٩٧٣ قال موشيه دايان بشأن لاجئي غزة، « خلال سنتين او ثلاث، واذا كان لدينا الاموال التي نحتاجها ، نستطيع تغيير وضعهم في الواقع حتى لو استمروا في تسمية أنفسهم لاجئين وفي ابداء ادعاءاتهم . خلال سنتين او ثلاث، سيعيشون حياة طبيعية في مدن جديدة ، في شقق ماؤها في حنفيات ، وتعليم وخدمات للاطفال »(١٤٧). والاساس الاقتصادي للحياة الجديدة التي يصورها دايان للاجئين هو الدخول ضمن البروليتاريا الاسرائيلية .

العمــل

تشير الاحصاءات الاسرائيلية انه خلال الاحتلال كان اجمالي ناتج الفرد والدخل الشخصي المتاح والاستهلاك الشخصي يتزايد باستمرار .

غــزة

الارقام بالليرات الاسرائيلية للفرد(١٤٨)

السنة	اجمالي الانتاج	الدخل الشخصي المتاح	الاستهلاك الشخصي
١٩٦٨	٤٠٢	٥٣٦	٤٣٢
١٩٦٩	٤٥٣	٥٨٠	٤٩٧
١٩٧٠	٥٨٧	٧١٥	٥٧١

ومع بداية ١٩٧٣ سجل ان مستوى المعيشة في غزة قد ارتفع ٥٨ ٪ في الاعــوام الاربعة السابقة(١٤٩) . وهذه زيادة ملموسة حتى على أساس مؤشر أسعار الاستهلاك الذي ارتفع من ١٠٤،٩ عام ١٩٦٩ الى ١١٩،٦ في كانون الثاني (يناير) الى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧١(١٥٠) .

ويمكن ان يعزى معظم هذه الزيادة الى الارتفاع السريع في استخدام الاشخاص الذين يعيشون في غزة .

مشاركة الذكور في غزة في قوة العمل
ومعدل الاستخدام(١٥١)*

الفــترة	عدد المشاركين في قوة العمل	معدل الاستخدام
آب — كانون الاول ١٩٦٨	٥٨،٨٠٠	٨٥،٨٪
١٩٦٩ معدل	٦١،٩٠٠	٩٣،١٪
١٩٧٠ معدل	٦٣،١٠٠	٩٥،٧٪
كانون الاول — حزيران ١٩٧١	٦٢،٤٠٠	٩٨،١٪

ومعظم هذه الزيادة في الاستخدام ناتجة بدورها عن الاستخدام في اسرائيل : حوالي ٧٥ ٪ في الزيادة في الاستخدام بين رجال من غزة في الفترة الواقعــة بــين ١٩٦٨ و١٩٧١ ، على سبيل المثال ، تتشكل من العاملين في اسرائيل، وهذا ما يظهره الجدول التــالي :

عمال غزة المستخدمون في اسرائيل(١٥٢)

الفــترة	عدد المستخدمين
أيلول (سبتمبر) ١٩٦٨	٨٠٠
أيلول (سبتمبر) ١٩٦٩	٢،٥٠٠

* يضم « المشاركون في قوة العمل » اولئك الذين يبحثون بنشاط عن عمل واولئك الذين هم مستخدمون فعلا . « معدل الاستخدام » هو نسبة المشاركين في قوة العمل الذين هم مستخدمون فعلا .

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠	٥٤،٩٠٠
أيلول (سبتمبر) ١٩٧١	٨٤،٨٠٠

وفي اوائل ١٩٧٣ ، قدر رئيس بلدية غزة السابق رشاد الشوا عدد العاملين في اسرائيل بـ ٣٠،٠٠٠ غزاوي(١٥٣). واذا كان تقديره صحيحا ، فان نصف الرجال المستخدمين في غزة يعملون في اسرائيل .

وتخطط سلطات الاحتلال بوضوح لزيادة استخدام الغزاويين في اسرائيل في السنوات القادمة . وقد جاء في تقرير للصحيفة الاسرائيلية « دافار » ان السلطات العسكرية قد أعدت خططا مفصلة لقطاع غزة تشمل الفترة حتى عام ١٩٨٥ . ومع وضع الهجرة ، التي يتوقع ان تكون صغيرة ، بعين الاعتبار تقدير قوة العمل عام ١٩٨٥ بحوالي ١٠٦،٠٠٠ ذكر و ١٥،٠٠٠ انثى و ١٩،٠٠٠ غير محدد الجنس.ومن بين هؤلاء « سيوجه الى العمل في اسرائيل ٩٠،٠٠٠ على الاقل ، تبعا لاقوال ضابط الاركان المسؤول عن الاحصاءات تزفا جانوت »(١٥٤).

لقد أكد الارتفاع في الاستخدام في قطاع غزة ، والارتفاع في مستوى المعيشة والذي جاء الى حد كبير نتيجة عنه ، نظرة سلطات الاحتلال القائلة بأنه يمكن حل مشكلة اللاجئين ، في جزئها الاعظم ، من خلال جر لاجئي وسكان غزة ضمن البروليتاريا الاسرائيلية . ويستطيع الاسرائيليون الاشارة الى حقيقة ان عمال غزة قد جذبوا للعمل في اسرائيل بالرغم من شن الفدائيين هجمات مسلحة على الرجال الذاهبين الى اعمالهم في اسرائيل في محاولة لمنعهم عن ذلك . ويناقش الاسرائيليون بأن اجور الغزاوي العامل في اسرائيل أعلى منها في غزة بنسبة ١١٠ ٪(١٥٥). وتشكل الـ ٢٢ مليون ليرة اسرائيلية التي يحصلها الغزاويون كأجور في اسرائيل عام ١٩٧٠ حوالي ١٠ ٪ ناتج غزة الاجمالي لنفس العام(١٥٦). وفي السنة المالية ١٩٧٢ ، ارتفعت اجور الاعمال في اسرائيل حوالي ٦٠٠ ٪ ، وحصل عمال غزة في اسرائيل على ١٢٠ مليون ليرة اسرائيلية*.

وعلى اي حال ، في مجرى محاولة اسرائيل لـ « حل » المشاكل القديمة بعلاقتها مع شعب غزة ـــ وضع اللاجئين واملاق البطالة ـــ من خلال عرض حل هو بالاساس لصالح المستخدمين الاسرائيليين ، فان الحكومة الاسرائيلية ، في الواقع ، تخلق تناقضات جديدة . فالرجل القادم من غزة ويعمل في اسرائيل يعرف انه يعامل بشكل اسوأ كثيرا مما يعامل به عامل اسرائيلي ، وأنه ما يزال لا يحصل ما يكفي لاعالة عائلته على اساس مستوى معقول وان الظروف التي عليه ان يعمل ضمنها هي ظروف غير انسانية .

« في تل ابيب ، وخلال السنوات الخمس الاخيرة كان [العمال] العرب ينامون في الاقنية ـــ لماذا تغييب ذلك ؟ » هذا ما اعترف به موشيه دايان(١٥٨). يمكث الاف العمال من غزة خلال الليل في اسرائيل « بصورة غير مشروعة » غالبا لان مصاريف النقل والوقت الى بيوتهم يمنعهم عن ذلك . وقد تلقى البوليس والحكم العسكري تعليمات باتخاذ اجراءات مشددة بحق العمال العرب الفلسطينيين « الاتين من المناطق [والذين] ينامون في الليل قرب اماكن عملهم في اقبية البنايات التي يجري انشاؤها ،

* ولكنهم انفقوا ٤٠ مليون ليرة اسرائيلية ، اي حوالي ثلث اجورهم في اسرائيل ، على الطعام وربما غرفة وضرائب ومشتريات ومصاريف اخرى .

وفي مطابخ المطاعم ، وفي البساتين والمناطق الزراعية الاخرى »(١٥٩)، وقد كان هنالك تقارير في الصحافة الاسرائيلية حول « عائلات بأكملها [من غزة] بمن فيها الاطفال والرضع ينامون في الليل في بيوت دجاج المزارعين اليهود »(١٦٠).

وقد وصفت صحيفة اسرائيلية حالة عامل من غزة يمكث بصورة غير مشروعة في الموشاف حيث يعمل ، بقولها : « فايق حمد دليس ، شاب نحيف ذو بنية ضعيفة وعمره في الاغلب ٢٦ عاما ، هو عامل يعتني بمزرعتين لا يعمل فيهما مالكاهما على الاطلاق . وفايق أب لطفلة عمرها ثلاث سنوات وطفل عمره سنة ونصف . على شفتيه ابتسامة كالحة ويتكلم العبرية بشكل واضح . وهو يشرح قائلا : والدي ميت ، وهنالك امي وخمس اخوات غير متزوجات واربعة اخوة ما زالوا صغارا . أنا الاكبر من بينهم ، وأعطيهم أموالا وملابس . عملي ليس لي ، انه لهم . اننا عائلة واحدة ، زوجتي ، وامي واخواتي ، كلنا معا . . . أنني أعمل ما يقارب الست عشرة ساعة ، من الرابعة صباحا حتى العاشرة ليلا . في البدء كنا ثلاثة رجال ، بعدها أصبحنا اثنين . والان لا يريد المالك ذلك . انني اقوم بكل العمل لوحدي . لمدة سنتين عملت بأجر ١٢ ليرة اسرائيلية في اليوم ، ولكن كان معي عامل اخر . وحتى شهر مضى كنت أتلقى ١٦ ليرة اسرائيلية ، والان ٢٥ ليرة . على خمسة عشر شخصا ان يأكلوا ويلبسوا منها . يعيش فايق في بيت دجاج قديم ذي مصطبة اسمنتية مشققة وجدران صفيح حارة . وعلى سرير ضيق مغطى بفرشة بالية . تتكوم كومة من الملابس الوسخة . والى جانب السرير صندوق عليه صينية عليها بقايا مائدة ، وبجانبها زوج من أحذية العمل »(١٦١).

وكالعمال القادمين من الضفة الغربية ، يستخدم عمال غزة في الاعمال التي لا تتطلب مهارة او تتطلب بعض المهارة ، وهي أقل الاعمال أجورا في اسرائيل . وعمال غزة اقل صلاحية للعمل في البناء ، بسبب بعدهم عن القدس حيث تتركز الانشاءات الجديدة ، وهم غالبا ما يعملون في الزراعة الاسرائيلية : ٤١٪ من الغزاويين العاملين في اسرائيل يستخدمون في الزراعة ، بينما نسبة عمال الضفة المقابلة هي ١٩ ٪* .

استخدام العمال الغزاويين عام ١٩٧٠
حسب القطاع الاقتصادي(١٦٢)

القطــاع	النسبة المئوية
البنــاء	٤٩
الزراعــة	٤١
الصناعــة	٩
الخدمــات	١

وللحكومة الاسرائيلية مراكز تدريب مهني في غزة كتلك التي لها في الضفة الغربية . وتعترف سلطات الاحتلال صراحة ان هذه المدارس قد انشئت بحيث تنتج العمال الذين

* ان اتجاه عمال غزة للاستخدام في الزراعة في اسرائيل والتشجيع الرسمي للزراعة في غزة قد تسببا في تغيير في النسب المئوية للغزاويين العاملين في قطاعات الاقتصاد المختلفة لصالح الزراعة ، على عكس النموذج في الضفة الغربية حيث تسبب الاحتلال في تغير في الاستخدام بعيدا عن الزراعة .

تحتاجهم سوق العمل الاسرائيلي(١٦٣). وهنالك مركزان في مدينة غزة وواحد في كل من دير البلح وخان يونس . وقد شهد عدد الطلاب الداخلين الى هذه المراكز ارتفاعا سنويا ، كما يظهر في الجدول التالي :

عدد الطلاب الداخلين الى مراكز التدريب المهني
التي تديرها اسرائيل في غزة ، حسب العام والدراسة(١٦٤)

الدراسة	١٩٦٨	١٩٦٩	١٩٧٠
الصناعة	١٢٢	٧٠٦	٩٠٣
البناء	١٣٦	١٠٠٦٨	٢٠٠٨٧
المجموع	٢٥٨	١٠٧٧٤	٢٠٩٩٠

استخدام العمال الغزاويين
حسب القطاع الاقتصادي(٪)(١٦٥)

القطاع	قبل حزيران (يونيو) ١٩٦٧	١٩٦٩	١٩٧٠
الزراعة	٢٤	٣٣	٣٤
الصناعة	١٤	١٢	١٣
البناء	٩	١٠	١٠
الخدمات ، التجارة والصناعة	٥٣	٤٥	٤٣
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠

وتخطط الحكومة الاسرائيلية لانشاء ثلاثة مراكز تدريب اخرى لمهن البناء . وفي عام ١٩٧١ لوحده انفقت اسرائيل ١٫٤٢٩٫٠٠٠ ليرة اسرائيلية على التدريب المهني في غزة وسيناء(١٦٦) .

ان نوعية التدريب الجاري تحت رعاية اسرائيلية في غزة ، كما في الضفة الغربية ، متدنية . ويمكن اجراء مقارنة ذات دلالة بين مدارس التدريب المهني الحكومية الاسرائيلية ومدرسة غزة المهنية التابعة للانروا التي كانت ، وما تزال ، تنتج عمالا مهرة في مهن مختلفة منذ الخمسينات . ان كلا من الصفوف الاسرائيلية وصفوف الانروا هي عناصر خطط لتصفية مشكلة اللاجئين ، ومن ثم تصفية مسألة الحقوق الوطنية الفلسطينية . (لقد كانت برامج الانروا منذ وقت طويل عرضة لانتقاد الوطنيين العرب الفلسطينيين على اساس انها مجهودات لتسكين وتهدئة الشعب الفلسطيني) . ولكن بينما تقوم خطة الحكومة الاسرائيلية على استيراد العمال من مخيمات اللاجئين للقيام باعمال لا تتطلب مهارة او تتطلب بعض المهارة ضمن المستوى الاكثر انخفاضا للبروليتاريا الاسرائيلية ، يقوم برنامج الانروا على تصدير العمال المحترفين والتقنيين الجيدي التدريب من مخيمات اللاجئين الى البلدان العربية المختلفة ، أو حتى الى اوروبا . وعندئذ يرسل العمال المصدرون الاموال الى عائلاتهم التي تعيش في مخيمات اللاجئين أو بالقرب منها ، او يجلبون عائلاتهم الى البلد الذي يعملون فيه .

وهكذا ، فان دروس مدارس الانروا معدة لتعليم مستوى مهارة أعلى بكثير من دروس الاسرائيليين ، وتدوم دروس الانروا فترة ٢٣ شهرا بينما في المقابل تدوم دروس الاسرائيليين فترة ٣ ــ ٦ أشهر في مجال البناء وسنة واحدة في المجالات الاخرى . وقد علق مدرس عربي في الانروا بقوله ان الدروس الاسرائيلية تعلم المشاركين « كيفية التفريق بين المطرقة والمنشار فقط . وعندما ينهون الدرس فانهم لا يتعدون كونهم شبه مهرة ــ بالتأكيد لن تستطيع القول أنهم عمال مهرة . فهم يعلمون فقط بما يكفي لان يعملوا تحت اشراف مراقب اسرائيلي » . ولان المنهج الاسرائيلي يعتمد على وجود عامل اسرائيلي ماهر كرئيس للعمال العرب غير المهرة ، لا يقدر خريجو مدرسة الانروا على ايجاد أعمال في اسرائيل متناسبة مع المهارات التي تعلموها ، بالرغم من الازدهار في الاقتصاد الاسرائيلي بعامة والبناء بخاصة . قبل حرب ١٩٦٧ ، قدر عضو في الهيئة التعليمية لمدرسة غزة المهنية التابعة للانروا أن ٩٥٪ من خريجي المدرسة وجدوا اعمالا متلائمة مع مستوى تدريبهم في مصر غالبا . والان تتخوف الهيئة التعليمية من مشاكل بطالة جدية لخريجيهم طالما ليس في استطاعتهم المجيء والذهاب بحرية الى مصر ويحرمون من العمل العالي المهارة في اسرائيل لانهم عرب(١٦٧).

تلعب حكومة الولايات المتحدة دورا مهما في برنامج التدريب المهني الاسرائيلي وفي جهود الحكم العسكري الاخرى من اجل اعادة تشكيل قوة عمل المناطق المحتلة وأعادة توجيهها نحو اسرائيل . اذ يتلقى طلاب الدروس المهنية الاسرائيلية في غزة والضفة الغربية حصة شهرية من فائض الغذاء الامريكي عبر هيئة كير ، بالاضافة الى مرتبهم اليومي من الحكومة الاسرائيلية(١٦٨). ويختلف حجم مساعدة كير تبعا لعدد أفراد عائلة المتدرب . وكذلك ، فان بعض مراكز التدريب المهني الاسرائيلية تمول ايضا بهبات معدات من كير .

ان توزيع الغذاء للطلاب المهنيين في الدروس التي تشرف عليها سلطات الاحتلال هو وجه لبرنامج كير المسمى « الطعام من اجل العمل » . وعلى اساس القانون المسمى P.L. 480 ، تمنح حكومة الولايات المتحدة الغذاء الفائض لهيئة كير ، وهي مجموعة من المنظمات الامريكية تدير سلسلة مجموعات اغاثة تتراوح بين AFL - C 10 ومجموعات دينية للاغاثة . ومن ثم توزع كير الغذاء في المناطق المحتلة طبقا لخطة معدة بالتعاون مع وزارتي الشؤون الاجتماعية والعمل الاسرائيليتين ، وموافق عليها من قبل ضابط برنامج الطعام من أجل السلام في السفارة الامريكية باسرائيل(١٦٩). وفي غزة وشمالي سيناء يتم توزيع مؤن لــ ٥٠٫٠٠٠ شخص منهم ١٠٫٠٠٠ عامل والبقية معوزون تحت اشراف برنامج كير « الطعام من اجل العمل » . (ويعمل هذا البرنامج في الضفة الغربية ايضا . ففي السنة المالية ١٩٧٤ ، اقترحت كير توزيع مؤن لــ ٢٧٫٥٠٠ عامل ومعوز في الضفة الغربية ، بمن فيهم أشخاص في التدريب المهني الذي تشرف عليه اسرائيل ، وعائلاتهم)(١٧٠).

في غزة يوزع « الطعام من أجل العمل » ايضا على ما لا يزيد عن ١٧٫٠٠٠ عامل وعائلاتهم لا يعيشون في مخيمات لاجئين . ويستخدم العمال من قبل دائرة الاشغال العامة في المشاريع التي يوافق عليها الحكم العسكري . ومن بين هذه المشاريع « توسيع وتصليح الطرق »(١٧١) ، وهو عنوان غالبا ما يستعمل كتورية عن هدم بيوت اللاجئين وتقليص عدد سكان المخيم من اجل اغراض مواجهة الانتفاض .

يخصم نصف قيمة مساعدة كير من اجرة العامل(١٧٢)، وهكذا فانه من خلال برنامج

« الطعام من أجل العمل » تمول حكومة الولايــات المتحدة ، بطريق غــير مباشر ، استخدام العمال الفلسطينيين من قبل حكم الاحتلال العسكري ، وتساعد الاسرائيليين في خططهم لاعادة تركيب قوة العمل في غزة . وتحت برنامج « الطعام من أجل العمل » توزع كير ايضا مؤنا للنساء العاملات في تعاونيات الخياطة التي بعضها مشاريع تقيمها وزارة الشؤون الاجتماعية الاسرائيلية ومصممة لنقل زبائنها عن كاهلها . وقــد تم التعاقد مع احدى هذه التعاونيات لعمل بناطيل زرقاء تباع في اسرائيل .

تقسم المؤن المتبقية بين ١٠٤١٠ر٦٦ بدوي في سيناء للعمل في امدادات المياه والطرق . ولجزء من هذا العمل منافع مباشرة بالنسبة للاحتلال العسكري . وقد جاء في تقرير لايرين بيسون من سيناء انه « من وقت لوقت يصادف المرء مجموعات من المصريين المسلحين بالمقشات والرفوش ، يكنسون ويجرفون بطريقة متقطعة عابرة ، ويبقون الطريق نظيفة من الرمل والحجارة والمسامير والاجسام الاكثر ضررا ». وقد شرح أحد السكان المحليين الامر بقوله : « انهم مستفيدون من برنامجلــ كير ، فقد ابتدأ مشروع عمل من أجل الطعام منذ الحرب . هدفه اعطاء عمل ، بدل الصدقات ، للعاطلين عن العمل وللاجئين » . وتابع قائلا « ان ذلك يبقي الرجال مشغولين والطريق نظيفة امام الجيش الاسرائيلي ، ولا يكلف سوى ثلاث ليرات يوميا للرجل الواحد . واذا اصطدمت آلية اسرائيلية بلغم فان الرجال الذين يكنسون تلك القطعة المحــددة من الطريــق يتحملون المسؤولية »(١٧٣). ويستخدم الطعام ايضا كحافز للعشائر من اجل التعاون مع خطط الحكم العسكري الخاصة بسيناء ، ويلاحظ تقرير لــ كير ان « الجهود تبذل لمكافأة العشائر التي تعمل أكثر بمؤن اكثر ، واما الذين سجلات عملهم غير حماسية فيحصلون على مؤن اقل »(١٧٤).

الزراعــة

تشجع اسرائيل تصدير منتجات غزة الزراعية الى اوروبا ، والعملة الصعبة التي تحصلها الصادرات في أوروبا تقلص مشكلة ميزان مدفوعات اسرائيل ، لان قطاع غزة قد دمج ماليا مع اسرائيل . ما بين عام ١٩٦٨ وعــام ١٩٦٩ ، ازدادت الفواكــه والخضروات المشحونة من غزة الى اوروبا من ٥٥ طنا الى ١٢٤ طنا(١٧٥). وقد أدى ارتفاع الانتاج الى زيادة الصادرات . وقد جاء في تقارير سلطات الاحتلال ان « أضخم هذه الزيادات كان في الباذنجان ، الذي ارتفع ناتجه من ٣٠٠ طن عــام ١٩٦٨ الى ٨٠٠ر١ طن عام ١٩٦٩ . وقد ارتفع ناتج الباذنجان المزروع تحت أغطية بلاستيكية واقية من ١٥٠ طنا عام ١٩٦٨ الى ٨٠٠ طن عام ١٩٦٩ . وارتفع ناتج الفراولة مــن ٢ طن فقط عام ١٩٦٨ الى ١٢٠ طنا عام ١٩٦٩ »(١٧٦). وكــانت الخضروات المعدة للتصدير تزرع تحت غطاء بلاستيكي واق بشراكة ملاك اراض من غزة واسرائيلي ، وبشراكة أخرى بين عربي « اسرائيلي » ومزارع غزاوي(١٧٧). وقد بيعت الخضروات في اوروبا على أيدي وكالة تسويق اسرائيلية .

ان حوالي ثلثي منتجات غزة الزراعية من الحمضيات ، والناتج ، خاصة المعــد للتصدير ، يتزايد . وحوالي ثلثي ما تحصله حمضيات غزة تأتي من صادراتها الــى اوروبا ، ومعظم الباقي يأتي من الصادر الى الضفتين الغربية والشرقية ، الذي يعاد تصدير جزء منه حينئذ الى البلدان العربية الاخرى(١٧٨). ويبلــغ انتــاج غزة مــن الحمضيات حوالي عشر انتاج اسرائيل(١٧٩).

تسوق الحمضيات المصدرة الى اوروبا الغربية من قبل مجلس تسويق الحمضيات المركزي الاسرائيلي(١٨٠). توفر فواكه غزة منافع تجاريــة لمصادر اسرائيــل مــن

الحمضيات بأكمله ، كما قالت جريدة **التجارة والصادرات الاسرائيلية** بشأن الكريفوت عام ١٩٧١ : « لقد فاقت الصادرات الاجمالية لعام ١٩٧٠ بشكل ملموس كل الاهداف المرسومة لها ... وهنالك عاملان مهمان وراء هذه الزيادة ... [والثاني هو أن] المجلس تلقى حوالي ٩٠٠٠ طن من الكريفوت من قطاع غزة في الشهرين الاخيرين من العام ، ساهمت في تخفيف النقص ، وقد دفع لها سعر أعلى من الاعتيادي . لقد ذهبت معظم فواكه غزة الى ايطاليا ، التي لا تشتري الا الكريفورت من اسرائيل ».

الصناعــة

في تموز (يوليو) ١٩٦٩ قررت لجنة وزارية اسرائيلية في المناطق المحتلة تأسيس مركز صناعي وتجاري في الجزء الشمالي من القطاع(١٨١) . وقد بني المرفق بالقرب من خط ايريز ، رمزيا على الحد بين العمل العربي والراسمال الاسرائيلي . ومع ١٩٧١ اصبح هنالك ١٤ مشروعا في المنطقة تستخدم حوالي ٥٠٠ عامل ، ومشروعين اخرين خطط لهما ان يستخدما ٦٥ آخرين(١٨٢) . وفي منتصف ١٩٧٢ جاء في تقارير الصحافة الاسرائيلية ان كل اصحاب المشاريع كانوا اسرائيليين ، وكل العمال كانوا عربا فلسطينيين ، مع أن الملتزم العربي الاصلي ، وهو ابن عم رئيس بلدية غزة (السابق)، قد استأجر دونمين ليبني عليهما مصبغة . وقد تلقى الصناعيون قروضا بقيمة ٤٠ الى ٥٠ بالمئة من رأس المال المستثمر من الحكومة و « اصحاب المشاريع هي شركات كبيرة مثل كور ومديرو بنوك سابقون وضباط سابقون عملوا في قطاع غزة وأماكن اخرى »(١٨٣) .

وحتى خارج المركز الصناعي الجديد فان المستثمرين الاسرائيليين يؤسسون مشاريع مستقلة وبالشراكة مع سكان محليين . ان احد معملي تغليف الحمضيات اللذين فتحا في غزة منذ حرب ١٩٦٧ يملكه اسرائيلي(١٨٤)، واسس مستثمرون اسرائيليون مصنعا لصب النحاس في غزة ، مستعملين المعدن الخردة الذي يجمعه بدو من ساحات المعارك في سيناء(١٨٥) . واصبح احد الاسرائيليين شريكا في شركة بيع بالجملة في غزة ، واخر في شركة لبيع مبيدات الحشرات والاسمدة . ودخلت شركتان غزاويتان للباصات في مشروع مشترك مع شركة ايجد، وهي شركة باصات اسرائيلية، لتوفير المواصلات في غزة(١٨٦) .

وبالاضافة الى ذلك ، تقوم المعامل في غزة بجزء كبير من العمل الملحق بالصناعة الاسرائيلية ، فعلى سبيل المثال ، بلغت قيمة الحقائب البلاستيكية المخاطة في غزة لصالح الشركات الاسرائيلية حوالي ٤٥٠٠٠٠ ليرة اسرائيلية عام ١٩٧٠(١٨٧) . وقد تعهدت معامل الخياطة في غزة بتوفير متطلبات الشركات الاسرائيلية ، بما فيها شركات : كتان دايمونا وخضوري وشهيبا في يافا(١٨٨) .

يبدو أن سياسة الحكومة الاسرائيلية هي محاولة ناجحة في امتصاص خزان العمل في غزة ولكن القادة السياسيين الاسرائيليين يجمعون على أن الخزان ممتلىء الى مستوى خطر : اذ أن تركز ٣٢٥٠٠٠ لاجيء في غزة يمتلكون تاريخا مفعما بروح المقاومة يشكل تهديدا ضمنيا للاحتلال الاسرائيلي . وقد اقترح نائب رئيسة الوزراء ، ايغال آلون ، ان يطلب من الملك حسين العمل على توطين لاجئي غزة في الضفة الشرقية مع مساعدة اسرائيلية ، كجزء من تسوية سلمية(١٩١) . ولكن يبدو أن الراي بتوطين بعض لاجئي غزة حول العريش ، وهي مدينة صغيرة جنوب غزة على ساحل البحر المتوسط ، هو الذي له تأثير عملي على نموذج سياسات الاحتلال .

العمل والصناعة

بعد أن تسلمت جولدا مائير رئاسة الوزارة بفترة وجيزة طلبت من رئيس دائـــرة الاستيطان التابعة للوكالة اليهودية ، الدكتور رعنان فايتس ، رسم خطة لاعادة توطين اللاجئين العرب الفلسطينيين . فقام ، بدوره ٢ بتفويض فريق من « الخبراء » برأسه شمشون كارمل لتقديم خطة . وقد جاء في اقتراح فايتس وكارمل ، توطين ٠٠٠ر١٠ عائلة من غزة بالقرب من العريش ، ضمن مشروع سيتناول في النهايـة ٠٠٠ر١٠٠ شخص(١٩٢) . وكانت العناصر الاقتصادية لمشروع التنمية تشبه تماما عناصر الخطط الاقتصادية الفعلية لغزة نفسها ، بما فيها تبعية زراعية وصناعية للاقتصاد الاسرائيلي: « يجب ان تكون المحاصيل في الغالب من الخضروات والازهار والفواكه ، ولا يستعمل منها لاستهلاك المزارعين الخاص سوى جزء ضئيل ، ويسوق الجزء الاعظم فيما وراء البحار (في أوروبا الغربية) أو في الاسواق العربية او في اسرائيل (من اجل العمليات الصناعية) . ويجب ان تكون الصناعة في الغالب معامل نسيج وجلد وأغذية وكرتون ومعادن ، على نطاق ضيق ، وتعمل بالاساس من أجل توفير الطلبيات القادمة مـــن اسرائيل . ويتوقع للصناعة ان تقام غالبا — ان لم يكن دائما — من قبل مستثمرين اجانب (بما في ذلك شراكات مع مالكين اسرائيليين) وان تجتذب العمل الذي يتطلب المهارة ، من الخارج »(١٩٣) .

لقد كان القصد من الخطة جلب منافع سياسية واقتصادية لاسرائيل ، كمـــا اشار المحرر الاقتصادي لصحيفة « **الجيروزالم بوست** » (الذي اعتقد ان الاقتراح غـــير عملي) : « لا يتوقع من خطة التوطين في العريش الاسهام في التنمية الاقتصادية للبلد وامتصاص فائض العمل (العاطل) في قطاع غزة وتحسين مستوى الشعب المعيشي وحسب ، بل وينتوقع منها ايضا خلق « بنية اجتماعية مستقلة » ومن ثم توفير حافز وفرصة لتطوير « قيادة محلية » من بين اللاجئين انفسهم ، وتحويل طاقاتهم الثقافية والسياسية من العداوة العقيمة والنشاط الارهابي الى مجاري انتاجية بالتعاون مع اسرائيل »(١٩٤) .

لا بد انه كان لخطة فايتس — كارمل ، او خطة شبيهة بها ، تأثير مـــا على سلطات الاحتلال العسكرية ، ذلك انه عندما بدأ الجنود الاسرائيليون في صيف عـــام ١٩٧١ باجلاء العائلات ونسف بيوتهم في مخيمات اللاجئين من اجل بناء طرق لـــ « اغراض أمنية » ، فانهم كانوا يحثون الناس الذين دمرت بيوتهم على الذهاب الى العريش . وجاء في تقارير الانروا ان الجنود الاسرائيليين الذين وصلوا الى المخيمات ، في منتصف الليل أحيانا ، من أجل وضع علامات على البيوت التي ستدمر كانوا يعطون العائلات ٢ — ٤٨ ساعة ليغادروا مع امتعتهم ، ويحثونهم بقوة على الذهاب الى العريـــش : « لقد كان يقال للاجئين عن وجود منازل جيدة لهم في العريش ، ولكن ، ان فضلوا ، بامكانهم الذهاب الى الضفة الغربية من الاردن او البقاء في غزة اذا استطاعوا ايجاد منازل شاغرة وتوفير موافقة المالك الخطية على استعمالها . وكان يقال لهم ايضـــا بأن المواصلات المجانية ستتوفر للذين يوافقون على الذهاب الى العريش او الضفة الغربية من الاردن وان السكن هناك سيكون مجانيا لفترة معينة وان العمل سيكون متوفرا . . . »(١٩٥) .

وبشكل عام ، طرد ٧٠٤ر١٤ لاجئين بعد سلسلة التدميرات . وبالاساس ذهـــب حوالي ٤٠٠ عائلة من الـــ ٤٠٠ر٢ عائلة المطرودة ، الى العريش ولكن ١٣٠ عائلة منها عادت مؤخرا الى غزة . وذهبت ٣٠ عائلة الى الضفة الغربية(١٩٦) .

وبعـد قليل مـن طرد هؤلاء اللاجئـين من بيوتهم ، علقت صحيفة « **اسـرائيل اكونومست** » بقولها ان « تطويرا فوريا لقوة العمل في منطقة سيناء ... يستدعـي انشاء معمل اثاث في العريش ، مشروع مستثمر اسرائيلي . ويتوقع ان يستفيد هذا المشروع وغيره في مدينة العريش من تدفق العائـلات التي يتم اجلاؤها من قطـاع غزة »(١٩٧). وقد انشأ الملتزمون الاسرائيليون ايضا معمل سمـك في العريـش ، واستولت مجموعة من شركات الزيوت النباتية الاسرائيلية على معمل لزيت الخروع كانت قد دمرته الحرب واستثمرت ١٠٠,٠٠٠ ليرة اسرائيليـة في اصلاحـه(١٩٨). تستعمل صناعة الكيماويات الاسرائيلية زيت الخروع في انتاج البلاستيك والدهانات ومبيدات الحشرات والزيوت الهيدروليكية(١٩٩).

سينـاء

تبلغ الـ ٢٣,٠٠٠ ميل مربع من شبه جزيرة سيناء التي استولت عليها اسرائيل من مصر في حرب حزيران حوالي ثلاثة اضعاف مساحة اسرائيل ما قبـل ١٩٦٧ . ومعظم سيناء صحراء ، وفيما عدا سكان بعض المدن عـلى شاطىء البحر وقنـاة السويس ، لا يقطن هذه الارض ـ الجسر بين افريقيا وآسيا سوى ٦٠ ـ ٧٠ الف بدوي ، وهي طريقة تجارية ذات اهمية تاريخية* .

ولقد اعتبرت سيناء ، بشكل عام ، المنطقة المحتلة التي اكثر ما ترغب اسرائيل في التخلي عنها ضمن تسوية سلمية . وعلى اي حال ، فان سيناء توفر لاسرائيل منافع اقتصادية ومواد خام استراتيجية هامة ، وهي عامل مهم في جعل الاحتلال مشروعا جيدا للحكومة الاسرائيلية .

النفـط

تضخ اسرائيل كميات كبيرة من نفط الابار المصرية المستولى عليها في سيناء(٢٠٠). ومع ان الاسرائيليين لم يمسوا حقول نفط مورجان وجارة ، التي تديرها بصفة مشتركة شركة النفط الامريكية والهيئة المصرية العامة للبترول (ربما لان شركة امريكية تشارك في استغلالها) ، فانهم صادروا ١١٧ بئر نفط في سيناء التي كانت تديرها بصفة مشتركة شركة اي. أن. آي الايطالية والشركة المصرية . وفي ١٩٧١ ، انتجت هذه الآبـار حوالي ٦ ملايين طن من النفط تعادل ما قيمته ٨٠ مليون دولار تقريبا لاسرائيل . وفي اوائل السبعينات ، يفوق نفط سيناء احتياجات اسرائيل الخاصة بحوالي ٥ ملايـين طن سنويا ويسمح بتصدير جزء منه . وقد جاء في التقارير ان اسرائيل تسوق نفط سيناء ، بشكل سري ، في اوروبا(٢٠١) وتطلب من سكان المناطق المحتلة ان يشتروا نفطهم من الاحتكار الاسرائيلي(٢٠٢).

ان ثروة سيناء النفطية ذات قيمة خاصة لاسرائيل لان انتاجها الخاص ما قبل حرب ١٩٦٧ كان قليلا جدا ، حوالي ٦٪ من الاستهلاك المحلي عام ١٩٦٦ . وفي الماضي كانت اسرائيل مضطرة للاعتماد على النفط الخام الايراني لمعظم احتياجاتها الداخلية .

وتتوقع التقديرات ان يكون احتياطي النفط الاجمالي في سيناء كبيرا ، لكن صحيفة

---

* وفر احتلال سيناء فرصا مهمة في المواصلات لرجال الاعمال الاسرائيليين . فقبل حرب ١٩٦٧ ، كـان الطيران من اسرائيل الى جنوب افريقية ، وهي مصدر المواد الخام للماس المصقول ، اكثـر صـادرات اسرائيل ، يتطلب خطا تسلكه طائرة العال وتدور الى تركيا وايران ومنها الى جوهانسبرج عبر نيروبي ، ويستغرق ١٦ ساعة . أما الخط المباشر الجديد عبر سيناء فيستغرق ١١ ساعة ونصف طيران فقط .

« **الفاينشال تايمز** » تقدر الانتاج الممكن بحوالي ٤٠ مليون طن سنويا(٢٠٣)، أو حوالي سبعة أضعاف الانتاج عام ١٩٧١ . وهنالك ايضا احتياطي كبير في المعادن والغاز في قاع خليج العقبة والبحر الاحمر ، ومن الممكن ان تلجأ اسرائيل الى استغلاله في المستقبل .

ان النفط المصادر من آبار سيناء هو عامل مهم في جعل الاحتلال العسكري في المناطق المحتلة مشروعا مربحا لخزينة الحكومة الاسرائيلية وكذلك للطبقة الرأسمالية . وتبعا للارقام التي أعطاها دافيد كوهاف ، المستشار الاقتصادي لوزارة الدفاع الاسرائيلية ، فان الحكومة الاسرائيلية حصلت على ربح صاف مقداره ٩٨ مليون ليرة اسرائيلية من الاحتلال عام ١٩٧١ ، اي حوالي ٢٨ مليون دولار . وقال ان الارباح الناجمة عن بيع نفط سيناء بلغت ١١٠ ملايين ليرة اسرائيلية ، وبلغت عائدات الضرائب ومصادر اخرى ٢٣٦ مليون ليرة اسرائيلية ؛ بينما كانت المصاريف ٢٤٨ مليون ليرة اسرائيلية فقط(٢٠٤) .

الخلاصة

لقد كان للاحتلال الاسرائيلي اثر عميق على كل الطبقات في المناطق المحتلة . اذ تجري عملية بلترة لسكان مخيمات اللاجئين ، الذين كان معظمهم فلاحين طردوا عام ١٩٤٧ — ١٩٤٨ . وجنبا الى جنب مع بعض فلاحي الضفة الغربية الذين يجبرون على ترك اراضيهم ومع الطبقة العاملة في المناطق المحتلة ، يدمج اللاجئون بأعداد كبيرة في البروليتاريا الاسرائيلية . ومع أن الاعمال الجديدة قد أجرت بعض التحسينات في مستوى معيشة العمال الفلسطينيين العرب في اسرائيل ، الا انهم (أي العمال) يحالون الى الاعمال التي لا تتطلب مهارة او تتطلب بعض المهارة ذات اكثر الاجور انخفاضا ، ويعانون من التمييز الحاد .

كما كان اثر الاحتلال على البرجوازية الصغيرة عكسيا . اذ يجري دمج بعض المستخدمين — الحرفيين واصحاب الدكاكين وصغار المزارعين — في الطبقة العاملة ، عادة في اعمال بأسرائيل ، أو على الاقل يجري الدمج الى حد ما . اما المثقفون والمهنيون ، مثل المحامين والاشخاص ذوي الشهادات الاكاديمية العالية ، فهم بدون عمل : يرفض بعضهم ، لاسباب تتعلق بالموقف الوطني ، العمل للاسرائيليين او للاحتلال ، وحتى الذين يرغبون في العمل فليس امامهم فرص للعمل بمستوى مهني في اسرائيل لاشخاص من المناطق المحتلة .

وتغدو قطاعات البرجوازية الصناعية كمبرادورية ؛ تشغل العمال في معاملها لصالح الرأسماليين الاسرائيليين . ويستفيد بعض الكمبرادوريين من الاحتلال ، عبر حوافز التصدير ووسائل اخرى ، وقد يكون باستطاعتهم توسيع عملياتهم في المستقبل مع الرأسمال الاسرائيلي . ولكن الرأسماليين الفلسطينيين يفقدون تدريجيا استقلالهم: عليهم أن يعتمدوا على المولين الاسرائيليين في قروضهم ، وبسبب توفير الحكومة الاسرائيلية ظروفا ملائمة للغاية أمام الرأسماليين الاسرائيليين للاستثمار في المناطق المحتلة ، فسيكون على رجال الاعمال العرب اقتسام فرص الربح في المناطق المحتلة مع اسرائيليين . ويلاحظ ان المشاريع الاسرائيلية — الفلسطينية المشتركة تتزايد عدديا .

ان تحول البرجوازية الوطنية الى كمبرادور والجماهير الى عمال للبلد المستعمر هو نموذج خاص بالامبريالية تكرر في انحاء العالم . لا يهمنا كثيرا واقع انه لا الحكومة الاسرائيلية ولا الكنيست اتخذا قرارا رسميا باستعمار المناطق المحتلة ، المهم هو الاثر

الراسخ للسياسات اليومية للحكم العسكري . وكما لاحظ اليـاهو كانوفسكي فان « للقوى الاقتصادية منطقا وزخما خاصين بها . فعندما قررت اسرائيل التجارة مع المناطق (في ظل تحديدات على استيراد منتجات زراعية معينة) ظهرت نتائج لا مفر منها : عملة مشتركة (بالرغم من حقيقة استمرارها في السماح باستعمال العملة الاردنية في الضفة الغربية جنبا الى جنب مع العملة الاسرائيلية) ، حرية الحركة النسبية للسكان بين اسرائيل والمناطق (مع تحديدات ، يصعب تطبيقها) ، على استعمال العمل غير المرخص من المناطق المحتلة في اسرائيل) ، وتكامل طرق المواصلات بين المناطق وسهل اسرائيل الساحلي . وبغض النظر عن مستقبل الوضع السياسي للمناطق بأكملها او لجزء منها، فان تلك كانت بدايات سوق مشتركة »(٢٠٥).

لا تقوم هذه « السوق المشتركة » على اساس المساواة بين اسرائيل والمناطق المحتلة ، بل على اساس علاقة كولونيالية تتميز بالعوامل — اغراق سوق المستعمرة ببضائع البلد المستعمر ، استخراج المواد الخام والاستغلال الاقصى للعمال في المستعمرة — التي عملت في القرنين الاخيرين على اغناء برجوازية البلدان الرأسمالية ودفع شعوب معظم العالم غير الصناعي الى قيود التبعية .

لقد قال القادة الاسرائيليون مرارا وتكرارا انهم لن يقبلوا بتسوية ما الا بشرط فتح الجبهات الاقتصادية مع الدول العربية . ان تسوية كهذه ستسمح باستمرار أوجه عديدة من النظام الاقتصادي الكولونيالي الذي فرضته اسرائيل على المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ ، واكثر من ذلك ، فانها قد تطرح خطر امتداد عناصر ذلك النظام الى مناطق اخرى في الشرق العربي .

---

١٤٥ — دون بيريتز، **مشكلة اللاجئين الفلسطينيين العرب** (**راند** ، ١٩٦٩) ، ص ٢٣ .
١٤٦ — تقرير المفوض العام لوكالة الغوث ، الجمعية العمومية (الجلسة السابعة والعشرون)، ملحق رقم ١٣ [(٨٧١٣/أ)] ، ص ٧٦ .
١٤٧ — **معاريف** [٩ شباط (فبراير) ١٩٧٣] ، ص ٢ مترجمة في صحيفة **نو** [٨ آذار (مارس) ١٩٧٣] ، ص ٧ .
١٤٨ — **أربع سنوات ...**، صص ١٤٥ — ١٤٦.
١٤٩ — **اسرائيل اكونومست** [كانون الثاني (يناير) ١٩٧٣] ، ص ١٣ .
١٥٠ — **اربع سنوات ...**، ص ١٥١ .
١٥١ — **المصدر نفسه** .
١٥٢ — **المصدر نفسه** ، ص ١٤٩ .
١٥٣ — **كريستشان سينس مونيتور** [٣ نيسان (ابريل) ١٩٧٣] ، ص ٢ .
١٥٤ — بيتر مانسفيلد ، «أخبار خارج اسرائيل» **ميدل ايست انترناشيونال** [كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٢] ، ص ٢٥ ، نقلا عن **دافار** [تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٢] .
١٥٥ — **اربع سنوات ...**، [١٩ نيسان (ابريل) ١٩٧٣] ، ص ٣ .
١٥٦ — **المصدر نفسه** .
١٥٧ — **جيروزالم بوست** [١٩ نيسان (ابريل) ١٩٧٣] ، ص ٣ .
١٥٨ — **هآرتس** [٣٠ تموز (يوليو) ١٩٧٢] مترجمة في **اسرائيل لفت** [١٣ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢] ، ص ٢ .
١٥٩ — **هآرتس** [٢ آب (اغسطس) ١٩٧٢]، مترجمة في **اسرائيل لفت** [١٣ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢] ، ص ٣ .
١٦٠ — **يديعوت احرونوت** [٩ آب ١٩٧٢] مترجمة في **اسرائيل لفت** [١٣ ايلول ١٩٧٢] ، ص ٦ .
١٦١ — **المصدر نفسه** .
١٦٢ — **اربع سنوات ...** ، ص ١٤٩ .
١٦٣ — **المصدر نفسه** ، ص ١٦٢ .
١٦٤ — **المصدر نفسه** ، ص ١٦٣ .
١٦٥ — **المصدر نفسه** ، ص ١٥٠ .
١٦٦ — **المصدر نفسه** ، ص ١٦٤ .

١٦٧ — مقابلة أجرتها الكاتبة ، المدرسة المهنية التابعة للانروا ، غزة [٢٦ حزيران (يونيو) ١٩٧١] .
١٦٨ — **ثلاث سنوات ...** ، ص ١٨ .
١٦٩ — معظم المادة التي حول كي قدمتها دائرة العلاقات العامة لـ كي في نيويورك [٢٦ آذار (مارس) ، ١٩٧٣] .
١٧٠ — تقرير كي — **اسرائيل** للسنة المالية ١٩٧٢ — ١٩٧٣ .
١٧١ — **المصدر نفسه** .
١٧٢ — **ثلاث سنوات ...** ، ص ٢٨ .
١٧٣ — **ديلي ستار** (بيروت) ، ١٥ آذار (مارس)، ١٩٧٠ .
١٧٤ — **المصدر نفسه** .
١٧٥ — **ثلاث سنوات ...** ، ص ٦٧ .
١٧٦ — **المصدر نفسه** ، صص ٩٦ — ٩٧ .
١٧٧ — **كانوفسكي** ، ص ١٨٠ .
١٧٨ — **اربع سنوات ...** ، ص ١٥٣ .
١٧٩ — **كانوفسكي** ، ص ١٨٠ .
١٨٠ — **اسرائيل اكسبورت اند تريد جورنال** (كانون الاول ١٩٧٢ — كانون الثاني ١٩٧٣) ، ص ٢٢ .
١٨١ — **ثلاث سنوات ...** ، ص ٨٧ .
١٨٢ — **اربع سنوات ...** ، ص ١٧٣ .
١٨٣ — ملحق **هآرتس الاسبوعي** [١٦ حزيران (يونيو) ١٩٧٢] ، ص ١٠ ، مترجمة في نو [٣١ آب ، ١٩٧٢] ، ص ٥ .
١٨٤ — **كانوفسكي** ، ص ١٨٠ .
١٨٥ — **جيروزالم بوست اوفرسيز ويكلي** [١٧ شباط (فبراير) ١٩٦٩] ، ص ٧ .
١٨٦ — **كانوفسكي** ، ص ١٨٧ .
١٨٧ — **اربع سنوات ...** ، ص ١٧٦ .
١٨٨ — **جيروزالم بوست ويكلي** [١٧ شباط (فبراير) ١٩٦٩] ، ص ٧ .
١٩٠ — **كانوفسكي** ، ص ٦٠ .

١٩١ — **بكر** ، ص ٣٠ .
١٩٢ — **جيروزالم بوست اوفر سيز ويكلي** [١١ اب (اغسطس) ١٩٦٩] ، ص ١١ .
١٩٣ — **المصدر نفسه** .
١٩٤ — **المصدر نفسه** .
١٩٥ — **التقرير الخاص للمفوض العام لوكالة غوث اللاجئين في الشرق الادنى حول اثر العمليات الاخيرة التي قامت بها السلطات العسكرية الاسرائيلية في قطاع غزة على اللاجئين الفلسطينيين** [١٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٧١] الجلسة السابعة والعشرون ، رقم ٤١ على جدول الاعمال [٨٣٨٣/أ] .
١٩٦ — ملحق للتقرير الخاص الذي قدمه المفوض العام لوكالة الغوث في الشرق الادنى حول اثر العمليات التي قامت بها السلطات العسكرية الاسرائيلية في قطاع غزة في تموز واب ١٩٧١ ، على اللاجئين الفلسطينيين [٢٣ تشرين الثاني ١٩٧١] .
١٩٧ — **اسرائيل اكونومست** [تشرين الاول (اكتوبر) ، ١٩٧١] ، ص ٣١٩ .
١٩٨ — **جيروزاليم بوست اوفر سيز ويكلي** [١٧ شباط (فبراير) ١٩٦٩] ، ص ٧ .
١٩٩ — **كانوفسكي** ، ص ١٩٥ .
٢٠٠ — اخذت المادة الخاصة بنفط سيناء من مقال الياس شوفاني المهم ، « اسفين سيناء »، مجلة **الدراسات الفلسطينية** ، مجلدا ، ع ٣ (ربيع ١٩٧٢) .
٢٠١ — **جيروزالم بوست اوفر سيز ويكلي** [١٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧١] ، ص ١٥ .
٢٠٢ — **اربع سنوات ...** ، ص ٣٨ .
٢٠٣ — **فاينَنشال تايمز** [٢٨ شباط (فبراير) ، ١٩٦٨] .
٢٠٤ — **بيتر مانسفيلد** ، ص ٢٦ .
٢٠٥ — **كانوفسكي** ، ص ١٨٦ .

الأساليب الاسرائيلية في مواجهة العمل الفدائي

عبد الحفيظ محارب

اثر تصاعد الاعمال الفدائية داخل اسرائيل ، واتصافها بالروح الانتحارية والقدرة القتالية العالية ، أخذ الاسرائيليون سواء على الصعيد الرسمي او الجماهيري يفتشون عن وسائل جديدة لردع الموجة الفدائية التي بدأت تتصاعد منذ عملية كريات شموناه . وقبل التحدث عن وسائل التصدي الاسرائيلية لا بد من الوقوف قليلا حول انعكاس العمليات الاخيرة على المجتمع الاسرائيلي، وتتلخص هذه في ادخال الاحساس في نفوس المستوطنين الاسرائيليين أينما كانوا سواء بالقرب من الحدود أو بعيدا في الداخل ، بانه لا يوجد مكان آمن داخل اسرائيل ، وكذلك عرقلة سير الاعمال في كثير من الاماكن. ويعترف بذلك معلقون اسرائيليون مرموقون مثل ايتان هنار المراسل العسكري لصحيفة يديعوت احرونوت ، اذ يذكر « ان النشاط المكثف الاخير لتنظيمات المخربين في المنطقة الشمالية عرقل بشكل ليس بسيط مجرى الحياة في المستوطنات ، وكذلك تلك البعيدة عن خط الحدود . ان الناس في الشمال قلقون . ويمكن القول ان المخربين نجحوا في القاء الفزع والخوف حتى بين صفوف مواطنين اسرائيليين في وسط البلاد وجنوبها ، وبمقدار معين نجحوا في تأكيد الاحساس بالضيق بأن لا مكان آمن في البلاد». (يديعوت احرونوت ٧٤/٦/٢٦) . ويؤكد يشعياهو بن بورات الكاتب المعروف ، ما توصل اليه ايتان هنار ، بل ويمتدحه لانه لم يتخوف من مس كبد الحقيقة ، الا انه يعتبر ذلك بمثابة أمر مروع : « ان الامر المروع هو ان يعترف بالفعل ، مراسلون محترمون في صحف رزينة بنجاح المخربين ... ان الامر المروع هو ان يجد مراسل عسكري رزين نفسه ، عقب مرور اربعين عاما على فترة « سور وبرج » ،مضطرا للكتابة عن الاحساس بالضيق بأن لا يوجد مكان آمن في البلاد » لينتقل بعد ذلك لمطالبة المسؤولين باعطاء رأيهم حول هذا الوضع : « من المناسب ان تعطي القيادة السياسية رأيها وبسرعة حول هذا الوضع الذي يعتبر أكثر من مشين ، وأقل بكثير من كونه ضروريا ، لانه ليس هنالك أية ضرورة موضوعية بأن تلقي مجموعات ارهابية ، مركزها بيروت ، يبلغ تعداد أفرادها بضعة آلاف شخص يتمتعون بقدرة تنفيذية ، الخوف والفزع على اسرائيل لدرجة انها تضطر للتحصن خلف اكوام من الاثاث » . (يديعوت احرونوت ٧٤/٦/٢٨) .

في مواجهة هذا الواقع « الذي يعتبر اكثر من مشين » واحتمال تزايد عنف المقاومة الفلسطينية ، بدأت السلطات الاسرائيلية باتخاذ اجراءات وخطوات ، كما وأخذت الدعوات تنطلق ، لتقليص حدة العمل الفدائي ، وتتلخص تلك الاجراءات والدعوات في التالي :

الحرس المدني أو « العيون والاذان » : اضافة الى قوات الجيش ورجال الدفاع المدني الخاضعين للجيش ، وقوات الشرطة ، تعمل السلطات الاسرائيلية الان جاهدة لتشكيل قوة مساندة من المتطوعين يبلغ تعدادها حوالي ٣٠ الف شخص ، ومن المقرر ان تكون هذه القوة متحركة ومجهزة بأسلحة حديثة لمساعدة قوات الجيش والشرطة في الحفاظ على الامن الداخلي من الهجمات الفدائية داخل المستوطنات والمدن . وتخضع قوات الحرس المدني للشرطة . اما الاعمال المنوطة بهذه القوة الجديدة فهي التجول وسط المارة في الشوارع الرئيسية ومراكز التجمعات والحوانيت الكبيرة ودور السينما وخاصة في ساعات المساء حيث تكون الحركة على أشدها ، وكذلك فحص صناديق القمامة، وتطويق الاشياء المشبوهة، واستدعاء قوى الشرطة على الفور في حالة العثور على شيء مشبوه ، ولا تشمل مهامها التصدي للفدائيين ومجابهتهم ، بل تقتصر على القيام باشعار

المسؤولين وانذارهم بوجود فدائيين ومشاغلة هؤلاء حتى مجيء قوات الجيش . ووصف رئيس شعبة التنظيم في شرطة اسرائيل المفوض مئير نوبيك مهام الحرس المدني بقوله « انهم سيكونون بمثابة عيون وآذان في المدن والمستوطنات ، وسيستخدمون خطوط الاتصال ، ويقومون بترتيبات الحماية ، وعندما يصطدمون بالمخربين فانهم سيكونون بمثابة عامل انذار . ان واقع وجودهم ينطوي على الردع، وهنالك شواهد على ذلك » (دافار ١٢/٧/٧٤) .

لقد نجمت الحاجة لاقامة الحرس المدني لان القوى البشرية التي تمتلكها قوات الشرطة والدفاع المدني لا تكفي لتلبية جميع الطلبات في ساعات الطوارىء داخل المستوطنات او المدن . ومن هنا ظهرت فكرة اقامة الحرس المدني لكي يكون ظهيرا لقوات الشرطة والجيش ، الا ان هذا الحرس الذي اعتمد اسلوب التطوع للانخراط فيه (يعمل كل فرد ٤ ساعات خلال الاسبوع) ما زال يواجه المصاعب، وأهمها الاقدام على التطوع ، فالسقف الذي أقرته السلطات الاسرائيلية (٣٠ الفا) لا يزال يحتاج الى عدد كبير من المتطوعين ، حيث انه ظهر للمسؤولين ان عدد المتطوعين اقل بكثير مما كان متوقعا ، الامر الذي دعا احد المسؤولين عن الحرس المدني في تل ابيب للقول بأن « حجم المتطوعين يجلب الخذلان » ودفع قائد شرطة حيفا للاعراب عن شعوره بالخذلان هو الاخر ، وكذلك رئيس بلدية القدس الذي اعرب عن خيبة أمله من ضآلة عدد المتطوعين . الا انه تجدر الاشارة هنا الى أن وتيرة سير حركة التطوع في مستوطنات المنطقة الشمالية وسائر المستوطنات و« قرى التطوير » ، وكذلك في ضواحي المدن ، هي أعلى منها في المدن الكبيرة . فحركة التطوع في القرى المحيطة بحيفا أعلى منها في حيفا نفسها ، وكذلك الحال بالنسبة للمستوطنات المحيطة بتل ابيب .

لا يعتبر الحرس المدني ظاهرة جديدة في اسرائيل، فقد سبق وأن تكون في حيفا عند تعاظم عمليات المقاومة الفلسطينية هناك ، حيث أقامت السلطات الاسرائيلية حرسا مدنيا في المدينة تشكل من حوالي ٥٠٠٠ شخص عند أواخر الستينات (اليوم يقل عدد المتطوعين في حيفا عن ٥٠٠ شخص) الا انه تلاشى فيما بعد .

الى جانب العمل على اقامة الحرس المدني هنالك دعوة لتوزيع السلاح على من يقدر على حمله من المواطنين كما دعا الى ذلك وزير الشرطة . بيد ان هذا الامر يحمل بين طياته مخاوف عدد كبير من الاسرائيليين ، خاصة وان ظاهرة الاستقطاب الاجتماعي بالاضافة الى التوتر النفسي غدت أكثر وضوحا وبروزا في اسرائيل ، واذا لم تضبط عملية توزيع السلاح سواء على المتطوعين في الحرس المدني او على المواطنين ، هنالك احتمال بأن تبرز « ظواهر سلبية » ، مثل استخدام السلاح لتصفية الحسابات الشخصية او توجيهه ضد السكان العرب في اسرائيل ابان الهيجان ، او استخدامه من قبل عناصر حزبية ضد خصومها الحزبيين ، وتصل هذه التخوفات لدى بعض الصحفيين مثل يهودا سبوراي الى ترجيح كفة سلبيات عملية توزيع السلاح على المواطنين على الايجابيات الكامنة فيها، فقد ذكر في مقال له : « ان حالات مهاجمة السكان الغاضبين الوزراء والوجهاء في حالة توتر نفسي عال — وخاصة التعرض لرئيس الدولة اثناء المسيرة الجنائزية في صفد ، تشير الى مدى تفجر الحالة الاجتماعية والنفسية التي تراكمت بين صفوف جمهورنا . ان عملية توزيع السلاح من شأنها ان تزيد ، بنسبة كبيرة ، الخطر الذي يمكن أن يواجه رجال القانون وكل من يضطر ، بحكم مهمته ، الوقوف أمام جماهير غاضبة في حالات التوتر . من يضمن عدم قيام الهائجين باطلاق نيران (نيران تحذيرية) صائبة ، بدل القاء الحجارة ؟ ». (معاريف ٢٠/٥/٧٤) .

جدار الامن في الشمال : أقامت السلطات الاسرائيلية جدارا أمنيا على امتداد الحدود مع لبنان ، بغرض تقليص نشاط المقاومة الفلسطينية ، ومع تعاظم العمليات الفدائية مؤخرا داخل اسرائيل أخذت تعمل على توسيع وتسميك الجدار ، حيث تضيف عليه شبكة من الاسلاك الشائكة مع جهاز الكتروني . وتقوم قوات متحركة بأعمال الحراسة على امتداد الخط ، بالاضافة الى قوات كبيرة ترابط خلفه . ومن اجل تشديد الاشراف عليه ليلا اقيمت على امتداده ابراج للكشافات بغرض انارة المنطقة في حالة الاشتباه بشيء ، هذا بالاضافة الى قيام طائرات الهليكوبتر بتغطية اجواء المنطقة بحثا عن فدائيين محتملين .

ومن الجدير بالذكر ان جدارا أمنيا آخر كان قد

أقيم عام ١٩٣٨ لنفس الغرض ، حين قامت سلطات الانتداب البريطاني بالتعاون مع الوكالة اليهودية في اقامة سياج أمني على امتداد الحدود الشمالية لفلسطين ، حيث عمل فيه حوالي الف مستوطن يهودي ، الا ان الثوار الفلسطينيين كانوا يتخطونه بل وينجحون في تدمير أجزاء منه ، ففي ليلة واحدة تم تدمير ١٤ كم من ذاك السياج .

واذا كانت سلطات الانتـداب بالتعاون مـع المؤسسات الصهيونية ابان ثورة ١٩٣٦ لم تتمكن من منع المجاهدين الفلسطينيين في ذلك الوقت من تخطي ذلك الخط ، والقيام بعمليات ضد المنشآت البريطانية والمؤسسات الاستيطانية ، كما حدث لمستوطنات عدة ، فانه يوجد هنالك من يعترف في اسرائيل ، بأن هذا الخط الجديد قابل للاختراق من قبل فدائيي اليوم . « ...ان مجموعات المخربين المدربة وقتا طويلا ، والمتمسكة بهدفها حتى الانتحار تستطيع بدون شك ، التغلب على جدار او عائق آخر وتخطيه ، الا ان كل عائق يؤخر عمليات المجموعة ويضع مشاكل في طريقها ، حيث تكون مضطرة لتخصيص وقت وتفكير لدراسة كيفية التغلب عليها » (معاريف ٧٤/٦/١٦) . وازاء ذلك ليس من المستغرب ان يظهر في اسرائيل من يدعو الى اقامة سور شاهق وقوي في أماكن معينة علـى امتداد الحدود مع لبنان او اقامـة ستائر رملية ضخمة تكون مزروعة بالالغام او التفتيش عن اية وسائل اخرى .

وحدة « يولي » او « يقتل ولا يمر » : لعل عامل تعثر سير حركة التطوع في الحرس المدني بالاضافة الى عاملي التنافس بين الكتل السياسية الاساسية في اسرائيل ، وتزايد عنف المقاومة الفلسطينية في الداخل ، من بين الاسباب التي دفعت بعض الفئات المتطرفة الى التفكير بانشاء وحدة من المتطوعين في محاولة للقضاء على العمل الفدائي داخل اسرائيل وخارجها .

يقف وراء وحدة « يولـي » (وهي اختصار للاحرف الاولى من الجملة العبرية يقتل ولا يمر) عدد من الضباط الذين خدموا في الفرقة التي قادها اريك شارون في الحرب الاخيرة . لم يصدر عـن الوحـدة الا مذكرة واحـدة نشـرت في الصحف الاسرائيلية على شكل رسالة يوقع عليها المتطوع ، وكذلك نشر مقابلة اذاعية مع احد قادة التنظيم . تقول المذكرة : « حضرة وزير الدفاع ، أطلب نقلي من وحدتي الحالية في الاحتياط (في الخدمة الالزامية) لفرقة المتطوعين التي ستقام بهدف تصفية المخربين في قواعدهم ، بدون ارتداء البزة العسكرية لجيش الدفاع الاسرائيلي ، وبدون علامـات اسرائيلية مميزة ، وبدون تعليمات صادرة من قبل السلطات العليا ، في الوقت الذي اتلقى انا وزملائي فـي السلاح اجازة مدفوعة . مع الاحترام » (هآرتس ٧٤/٧/٧) .

من الواضح ان القائمين على التنظيم يسعون الى بناء قوة من داخل الجيش الاسرائيلي ، تتمتع بامتيازات ومخصصات افراد الجيش ، ولكن **دون تلقي أوامرها من القيادة العليا** . ولعل الشرط الاخير يعتبر ضربا من المحال ، لان ذلك يعني في حال تطبيقه احياء سلطتين عسكريتين مختلفتين في المنطلقات والمفاهيم ، اي عودة المجتمع الاسرائيلي الى فترة تنوف عن ربع قرن حيث كانت القوتان العسكريتان تتمثلان في الهجناه واتسل ، واذا اخذنا بعين الاعتبار ان كثيرا من السياسيين والعسكريين المسؤولين في اسرائيل يعارضون حتى مجرد عودة اريك شارون (من كتلة جاحال) الى الجيش ، فكيف تكون معارضة هؤلاء تجاه عملية اقتطاع جزء من الجيش ووضعه تحت امرته او امرة رفاقه ؟ ولذا ليس من المستغرب في شيء ان يكون رد الفعل لدى المسؤولين الاسرائيليين يتسم بالرفض للشرط الاخير ، بل وحتى عدم الاكتراث بمجمل الموضوع .

أما المقابلة الاذاعية التي نشرت بتاريخ ٧/٩/ ٧٤، ونقلتها نشرة «رصد اذاعة اسرائيل» الصادرة عن مركز الابحاث الفلسطينية ، فتعتبر المعلومة الثانية التي تشير الى ماهية التنظيم ، وسنقوم هنا بتقديم الجزء الاهم منها :

« س : ما اسمك :

ج : ايتان .

س : اسم العائلة ؟

ج : أفضل عدم ذكر اسم عائلتي .

س : لماذا ؟

ج : لاسباب أمنية .

س : ما هي الاسباب الامنية ؟

ج : **لا نريد أن يلحق ضرر بعائلاتنا** .

س : من قبل من ؟

جـ : من جانب المخربين .

س : ما هو هدف التنظيم ؟

جـ : ليس لدينا هدف منفصل عدا القضاء على المخربين ...

س : هل يمكنك تنفيذ مثل هـذه المهام دون مساعدة السلاح ، كالطائرات والاسلحة الثقيلة ؟

جـ : هذا هو احد المواضيع التي أعالجها حاليا ، وهو الحصول على طائرات من صنع سوفييتي ، وبعدها سنحتاج الى طياريـن متطوعين للقيـام بمساعدتنا في الجو » .

هنالك ملاحظتان حول اقوال المدعو ايتان، الاول انه يؤكد بشكل واضح الاحساس بـ « الامر المروع » الذي تحدث عنه كل من هفار وبن غورات والقائل بأن لا مكان آمن في اسرائيل ، والتخوف من قوة ساعد المقاومة الفلسطينية من الوصول الى كل مكان ، ويتضح ذلك من رفضه الكشف عن اسم عائلته خشية « أن يلحق ضرر بعائلاتنا من جانب المخربين » . والثانية ان تنظيم يولي هو أقرب الى التقاليع الجديدة منه الى التنظيم ، حيث تسيطر على اعضائه روح المغامرة المشفوعة بالخيال البعيد عن الواقع ، كما يبدو من أقوال ايتان الذي يسعى للحصول على « طائرات من صنع سوفييتي » من أجل تصفية الفدائيين !!

ومن هنا يمكن القول ان هذا التنظيم هو بمثابة ردة فعل لدى الفئات اليمينية المتطرفة ازاء تصاعد العمليات الفدائية داخل اسرائيل من جهة ، وازاء حالة الصراع على السلطة بين كتلة الليكود اليمينية وبين كتلة المعراخ العمالية الحاكمة من جهة اخرى. ولا يكون المرء مغامرا في حكمه اذا ما قرر ، من خلال الاخذ بعـين الاعتبار الصراع الدائـر بين الكتلتين آنفتي الذكر بأن تنظيم يولي (يقتل ولا يمر) محكوم عليه بالقتل قبل المرور .

المطالبة بفرض عقوبة الاعدام على الفدائيين :

مع اتساع دائرة الخوف التي أحدثتها الموجـة الجديدة للاعمال الفدائية ، وفي غمرة البحث عن وسائل لتقليص العمل الفدائي ، اخذت الاصوات الداعية الى فرض عقوبة الاعدام بحق الفدائيين تتزايد، الا أن أصواتا أخرى تصدت لهذه الدعوة ، ليس من منطلق مبدئي معارض لفكرة الاعدام ، بل لان وسيلة الاعدام بحد ذاتها قد تكون عاملا معززا لقوة العمل الفدائي وفاعليته !

للوهلة الاولى تبدو عقوبة الاعدام غير قائمة في اسرائيل ، الا ان هنالك خمسة قوانين ما زالت قائمة وتمكن السلطات من تنفيذ عقوبة الاعدام على كل من يتعدى حدود تلـك القوانين . وقبل ان تستعرض الحجج التي يطرحها كل من الفريقين تجدر الاشارة الى هذه القوانين وهي :

١ — قوانين الطوارىء لعام ١٩٤٥ بجرم حمل السلاح واستخدامه ضد الاشخاص ، او الانتماء الى تنظيم سري يستخدم السلاح .

٢ — القانون الخاص بجريمة افناء شعب لعام ١٩٥٠ .

٣ — قانون محاكمة النازيين ومساعديهم لعام ١٩٥٠ بتهمة ارتكاب جرائم ضد اليهود خلال الحرب العالمية الثانية .

٤ — قانون بشأن الاحكام العسكرية لعام ١٩٥٥ بشأن خيانة الجندي ابان القتال .

٥ — قانون لتعديل احكام العقوبات لعام ١٩٥٧ والخاص بجريمة المس بسيـادة الدولة ووحـدة أراضيها والتسبب في الحـرب بغرض مساعـدة العدو .

ومن المعروف ان المحاكم الاسرائيلية درجت على محاكمة الفدائيين المعتقلين وفق قوانين الطوارىء التي سنتها سلطات الانتداب البريطاني عام ١٩٤٥، الا أنها بايعاز من الحكومة منذ عام ١٩٦٧ تقتصر أحكامها على العقوبة بالسجن لمدد مختلفة . ومن هنا فان المطالبين بفرض عقوبـة الاعدام بحـق الفدائيين يجمعون على تطبيق قوانين الطـوارىء بحذافيرها ، ومع ذلك يوجد هنالك مـن يطالب بمحاكمة الفدائيين وفق قانون منع ابادة شعب مثل عضو الكنيست يديديا بئيري ، وليس وفق قوانين الطوارىء الانتدابية التي أزهقت ارواح بعـض اليهود ، في محاولة منه لاظهار ان المجتمع اليهودي يواجه حالة افناء ، بغرض تقليص الاحتجاجات من قبل العناصر والهيئات المستنيرة في العالم ، ويذهب عضو الكنيست المذكور اكثر من ذلك اذ يرى انه من الافضل محاكمة الفدائيين وفق قانون محاكمة النازيين ومساعديهم لعام ١٩٥٠ ، لولا أن هذا القانون يقتصر على فترة زمنيـة معينة (يديعوت احرونوت ٧٤/٦/٣) .

يتفق دعاة فرض عقوبة الاعدام على الفكرة بحد ذاتها الا انهم يختلفون حول كيفية تطبيقها وعلى من من الفدائيين ، فبينما نجد البعض يقتصرها على الفدائيين الذين قد يعتقلون ، نجد آخرين يدعون الى تطبيقها ايضا على اولئك المعتقلين الذين صدرت بحقهم الاحكام بالسجن . يقول يهوشوع بار يوسف « انني أعود وأقترح ما كنت قد اقترحته في هذه الزاوية قبل حوالي سنتين : كل مخرب سفك دما ، دمه يسفك بأمر من المحكمة ، كما وان جميع اولئك المخربين الذين يجلسون اليوم في المعتقلات الاسرائيلية والذين يعتبرون بمثابة اغراء لقتل رهائن اسرائيليين،يجب ان يغدوا وسيلة ناجعة لمنع قتل رهائن اسرائيليين، ذلك انه ينبغي أعدام عدد من المخربين القتلة الموجودين في المعتقلات الاسرائيلية فورا ، مقابل كل ضحية جديدة من بين الرهائن الاسرائيليين في عملية تخريبية تقع في المستقبل » . (يديعوت احرونوت ٧٤/٦/٧) .

واذا كان بار يوسف يقتصر حكم الاعدام على الفدائيين المعتقلين او الذين قد يعتقلون ، فان هنالك من يرى ضرورة فرض عقوبة الاعدام على جميع الفدائيين ، بدون استثناء ، وفي كل مكان مثل البروفيسور يوسف دان ، اذ يقول بهذا الصدد : « ليس هنالك شك ، اذا كان القصد قبل كل شيء ردع المخربين عن القيام بأعمال تخريب في اسرائيل ، فانه ينبغي فرض عقوبة الاعدام عليهم قبل أن ينفذوا مآربهم . فقط بهذه الطريقة يمكن أن تدار حرب فعالة ضد الارهاب العربي ، ويمكن ان يكون هنالك ردع له... حرب شاملة ضد المخربين، في كل مكان يتواجدون فيه ، لكي يدرك كل صعلوك ينضم بلا وعي لمنظمة تخريبية ، انه فور قيامه بذلك ، فور تسجيله في قائمة المنظمة او دخوله معسكر تدريب ، تكون اسرائيل قد فرضت عليه الحكم بالاعدام حتى ولو لم يحاول الاقتراب ابدا من حدود دولة اسرائيل ، او الخروج للقيام بعملية ضد هدف يهودي او اسرائيلي في خارج البلاد » . (يديعوت احرونوت ٧٤/٦/١٦) .

الى جانب هؤلاء يقف عدد آخر من دعاة فرض عقوبة الاعدام ويمكن تلخيص الذرائع التي يوردونها بما يلي :

١ — التصور بأن الفدائيين اذا كانوا يعرفون سلفا بأنهم لن يواجهوا حكم الاعدام في حالة القاء القبض عليهم ، فان ذلك سيشجع انضمام الكثيرين الى صفوف التنظيمات الفلسطينية والانخراط في المجموعات المقاتلة .

٢ — التصور بأنه اذا ما اقدمت اسرائيل على تنفيذ حكم الاعدام بحق الفدائيين الموجودين داخل المعتقلات الاسرائيلية ، فان مبرر احتجاز الرهائن من قبل الفدائيين سيزول .

٣ — هنالك ادعاء يطرحه البعض لتبرير حكم الاعدام متذرعا بالعامل الاقتصادي « لماذا ينبغي علينا اعاشة القتلة ... طيلة حياتهم ؟ لماذا ينبغي علينا تشييد سجون ، واستئجار سجانين لكي يعيشوا أناسا يسعون لازهاق أرواحنا » (معاريف ٧٤/٥/٢٠) .

ومن الجدير بالذكر ان أصوات أصحاب هذا الفريق تتزايد عقب كل عملية فدائية جريئة ، كما وتزداد تهكماتهم على الفريق الثاني وهم في الغالب من فئة اليسار الصهيوني أو اليمين الصهيوني غير المتطرف بتوزيع ألقاب عليهم كـ « المستنيرين » الا ان هؤلاء لا يقنعون مكتوفي الايدي ، بل يردون ، وربما بحجج اقوى لانهم لا يدافعون ضد عقوبة الاعدام على الفدائيين بحد ذاتها بل ضد الانعكاسات التي يمكن ان تتأتى عنها على المجتمع الاسرائيلي ، ويتهم هؤلاء اصحاب الفريق الاول بأنهم يسيرون وفق غرائزهم وأهوائهم . ويمكن تلخيص معارضة هؤلاء بالامور التالية :

١ — خشية ان يقاتل الفدائيون « حتى النهاية » على اساس انهم يعرفون ما ينتظرهم .

٢ — بالنسبة للقول بأن مبرر احتجاز الرهائن من قبل الفدائيين سيزول من خلال اعدام الفدائيين المعتقلين ، يرد هؤلاء بأن العمل الفدائي حينذاك سيأخذ شكلا أقوى واعنف ، كما يقول جبرائيل شيرن : « حتى لو اننا نقدم على قتل جميع المخربين والمتهمين بالقيام بأعمال تخريب او بالانتساب للتنظيمات المعادية ، فهل لا نتوقع بأن موجة من الانتقام ستأتي ليس على شكل احتجاز رهائن .. بل على صورة القيام بمجازر جماعية ، حيث يقتلون كل من تطاله ايديهم ... » (عل همشمار ٧٤/٥/٢٢) .

٣ — خشية ان يلاقي الفدائيون عطفا عالميا ،

خاصة عندما يستغلون قاعة المحكمة لترديد مطالبهم المشابهة لمطالب كل شعب يواجه الاحتلال ، مما يتأتى عنه تدفق العرائض والاحتجاجات من قبل مفكرين مشهورين في العالم وحتى من قبـل بعض اليهود . ومن بين الذين أوردوا هذا التبرير بنيامين بيت هلحمي استاذ العلوم الاجتماعية في جامعـة حيفا : « ... كل محاكمة ضد مخرب ستتحول اوتوماتيكيا الى محاكمة سياسية مع اصداء دولية ، وذلك على ضوء واقع رؤية قسم كبير من العالم الغربي بعين الرضا نضال الفلسطينيين. قبل سنين عدة كان بامكاننا ان ندعي بأن الفدائيين هم مرتزقة، اما اليوم فاننا ندرك بأن الدافع هو ايديولوجي في أساسه » (حوتام ٧٤/٥/٢٤) .

٤ — التخوف من ان يؤدي ذلـك الى زيادة التطرف لدى كل من اليسار واليمين في اسرائيل ، ودفع بعض الاسرائيليين اليساريين الى التقرب من المقاومة الفلسطينية او كما يقول اوري دودزون المرشد في قسم العلوم الاجتماعية في جامعة حيفا : « في اللحظة التي تشغل فيها المشنقة الاولى ، ستجر في اعقابها استقطابا اجتماعيا . من ناحية ستصبح الاوساط اليسارية اكثر يسارية . ان « راكاح » و« متسبين » اللذين لم يقدما حتى الان مساعدة ملموسة للمخربين ، سيدفعان عقب ذلك نحو اعمال أكثر فاعلية ... ومن ناحية اخرى ، فان الاوساط اليمينية ستجر نحو مزيد من التطرف وستكون النتيجة تأزيم الوضع » (المصدر السابق).

٥ — التخوف من ان يصبح الفدائيون بمثابة « قديسين معذبين ، وأبطالا وطنيين » كما وتغدو قبورهم أماكن مقدسة » ذلك « اننا لن نحرق الجثث ونذروها للرياح » .

الى جانب هذه التبريرات والحجج هنالك من يعتقد بأن عقوبة الاعـدام تتنافى و« الاخلاقيـة اليهودية » كما ويوجد كثيرون يتصدون بسهولة للحجة السخيفة القائلة بأنه اذا ما اقدمت اسرائيل على تنفيذ حكم الاعدام بالفدائيين المعتقلين ، فانها تكون قد حالت دون تبذير الاموال عليهم ووفرت تلك المبالغ لصالح المشاريع ، بقولهم ، ما اكثر الاموال التي تبذر باسم المشاريع .

حيال هذين التصورين واحتدام الحوار حولهما على اثر الشروع بالعمليات الفدائية الجـريئة مؤخرا ، كان لا بد من ان تعكف الحكومة على دراسة الموضوع من جديد واتخاذ قرار بشأنه . وبالفعل عقدت الحكومة الاسرائيلية جلسة في أوائل شهر آب الماضي جددت فيها التصديق على المقررات التي كانت قد اتخذتها عام ١٩٦٧ ، اي محاكمة الفدائيين المعتقلين وفق قوانين الطوارىء لعـام ١٩٤٥ ، مع ايعاز للمحاكم الاسرائيلية بأن تتجنب اصدار عقوبة الاعدام بحق الفدائيين .

توجيه ضربات مع محاولة ايجاد مخرج سياسي :

يجمع الكتاب والمعلقون الصحفيون الذين يعالجون العمل الفدائي على أمرين : الاول ، ضرورة توجيه ضربات قوية ضد الفدائيين بغرض تقليص نشاطهم، والثاني ضرورة ايجاد مخـرج سياسي للقضيـة المستعصية ، ويتفق هـؤلاء على ان الضربـات العسكرية مهما بلغت من الشدة والعنف لن تؤدي الى القضاء على العمل الفدائي اذا لم تكن مصحوبة بحملة سياسية موازية تعطي الفلسطينيين الامل في الحصول على شيء . كما ويجمعون على ضرورة أخذ زمام المبادرة والقيـام بعمليات هجوميـة مدروسة ، الا أنهم يختلفون في اعطـاء تصورات للاساليب الناجعة لمجابهة الفدائيين وفي كثير مـن الاحيان يقفون حيارى تجـاه ضرورة اتباع هـذا الاسلوب او ذاك ، ولعل أبرز الاساليب تتمثل في ثلاث : (١) استخدام الطائرات ضد قواعـد الفدائيين داخل المخيمات وخارجها ، (٢) احتلال مناطق من جنوب لبنان بشكل مؤقت ، (٣) خلق قيادة خاصة داخل الجيش الاسرائيلـي لمجابهة الفدائيين ومباغتتهم في أماكن تواجدهم ، وكذلك مجابهة قياداتهم .

فيما يتعلق بالاسلوب الاول ، وهو الذي درجت اسرائيل على استخدامه اثر العمليات الفدائية الاخيرة ، توجد تحفظات كثيرة عليه ، أهمها التخوف من أن تؤدي ردود الفعل الاسرائيلية الى اندلاع الحرب مرة اخرى ، « ليس هنالك شك بأن الشرق الاوسط ، اذا ما استمرت اسرائيل في الرد على غرار رد الاسبوع الماضي ، سيعود بسرعة الى ساحة معارك وحروب » والتخوف من ان يؤدي الى دفع الفدائيين للحصول علـى اسلحة دفاعيـة متطورة ، واحتمال قيام بعض الدول العربية بادخال وحدات عسكرية مضادة للطائرات داخل الاراضي اللبنانية (انظر مقال ايتان هفار، يديعوت احرونوت

٧٤/٦/٢٣) وكذلك هنالك تخوف من ان تثير اعمال القصف الجوي الرأي العام العالمي ، والضغوط على اميركا من قبل بعض الدول العربية خاصة وان الطائرات التي تقصف المخيمات هي من صنع اميركي ، وهنالك من يرى بأن القصف الجوي من شأنه ازهاق أرواح مدنيين الامر الذي يؤدي بدوره الى دفع مزيد من الشباب للانتساب للعمل الفدائي « ... كل قتيل او جريح من بين صفوف السكان المدنيين في لبنان يؤدي الى انضمام مرشحين جدد لحركة المخربين وتأييدها من قبل جميع افراد عائلته واقاربه . ينبغي ايضا ان نذكر ، بأن اعمال القصف الجوي ، لا تلاقي الاستحسان وتثير ضدنا الرأي العام العالمي . ويجب ان لا نستخف بذلك » (انظر مقال يشعياهو بن فورات ، يديعوت احرونوت ٧٤/٦/٢٦) .

ويجب ان لا يغيب من بالنا ان هذه تحفظات فقط ، وجميع هؤلاء بالاضافة الى عدد كبير آخر يرون في هذا الاسلوب وسيلة ردع للعمل الفدائي .

اما الاسلوب الثاني وهو احتلال اجزاء من جنوب لبنان مؤقتا ، فان اسرائيل لم تقدم عليه حتى الان ، بالرغم من التهديدات المتكررة والدعوات الداعية الى ذلك بين الحين والاخر بين صفوف الاوساط اليمينية المتطرفة . يقف المعلقون والصحفيون الاسرائيليون تجاه هذا الاسلوب ضمن دائرة التشكيك والتحفظ ، ويمكن تلخيص تحفظاتهم بالامور التالية : (١) ان الاقدام على هذا الاسلوب من شأنه ان يدفع المنطقة الى ساحة القتال من جديد في الوقت الذي تمر فيه اسرائيل باعادة بناء جيشها واستيعاب اسلحة جديدة ، وليست هذه هي الفترة الافضل بالنسبة لها لخوض غمار معركة جديدة ، (٢) التخوف من مواجهة اسرائيل لضغوطات دولية ، خاصة من قبل الدول الغربية التي اعتمدت على كبح جماح اسرائيل لعدم تعريض سلامة لبنان للخطر ، (٣) ان الوضع اللبناني الداخلي وميزان القوى فيه لا يؤديان الى قيام لبنان ضد المقاومة ، وان الضغوطات الاسرائيلية عليه ربما تؤدي في احسن الاحوال من وجهة النظر الاسرائيلية الى وضع عراقيل على الحدود أمام الفدائيين ، او ان تؤدي الى دفع لبنان لاتباع سياسة اكثر راديكالية تجاه اسرائيل (للاستزادة انظر مقال زئيف شيف . ملحق هآرتس ٧٤/٧/٥ ومقال هفار ، يديعوت احرونوت ٦/٢٣/ ٧٤) .

اما الاسلوب الثالث وهو الذي ينال اجماع ومطالبة جميع المعلقين الاسرائيليين فيتمثل في خلق وحدة عسكرية خاصة ، تتشكل من عناصر الكوماندو في الجيش الاسرائيلي ، تحت قيادة خاصة تابعة لقيادة الجيش تكون مهمتها القيام بأعمال عسكرية ضد تجمعات الفدائيين سواء داخل المخيمات او في القواعد ، وكذلك القيام بعمليات ضد قيادة المقاومة الفلسطينية على غرار عملية فردان . ومن الجدير بالذكر ان مهمة محاربة العمل الفدائي مناطة بقيادة المنطقة الشمالية ، واذا ما تم خلق هذه القيادة الجديدة فستعفى قيادة المنطقة الشمالية من هذه المهمة . ومن بين الذين دعوا الى انشاء قيادة خاصة لمحاربة العمل الفدائي يشعياهو بن بورات في مقال له تحت عنوان « ينبغي اقامة قيادة خاصة لمحاربة الارهاب » (يديعوت أحرونوت ١٩٧٤/٦/٢٦) قال فيه : « ان السياج على امتداد الحدود ، ومرابطة وحدات من الجيش هناك ، وقيام وحدات حرس الحدود بأعمال الدورية ، وتجنيد المتطوعين ، وتوزيع السلاح على كل من يطلبه من ناحية ، وأعمال القصف الجوي من ناحية اخرى ، ليس فيها ما يكفي لصد موجة الارهاب المتصاعدة ، كما وانها ليست كافية للحيلولة دون تحول اسرائيل الى معسكركبير مغلق. لقد طرحت منذ مدة فكرة اقامة قيادة خاصة ضمن اطار الجيش — بالتعاون مع اجهزة الامن المختصة — لمحاربة الارهاب ، حيث تشرف على قوة مختارة ومدربة لهذا الهدف . وينبغي على هذه القيادة التي ستوكل اليها مهمة المهاجمة ، العودة الى اساليب الماضي التي اثبتت نجاعتها ، وامداد أساليب جديدة وعمليات جريئة ...» . وكذلك الكاتب « ايلان كفير » الذي طالب هو الاخر باقامة مثل هذه القيادة الخاصة ، ففي مقال له : « ينبغي اقامة هيئة داخل الجيش الاسرائيلي لمحاربة الارهاب » (يديعوت أحرونوت ١٩٧٤/٧/٥) يقرر فيه ان الفدائيين استفادوا من الاساليب التي اتخذتها اسرائيل ضدهم ، « وكلما اكثر الجيش الاسرائيلي من ضرباته ضد المخربين ، فان هؤلاء تعلموا كيف يمتصون الضربات . ومثل الفيتناميين الشماليين تعلموا كيف يعيشون تحت القصف المكثف لسلاح الجو الاميركي ، هكذا ايضا المخربون في

لبنان ... » لينتقل بعد ذلك للقول بأنهم يجزئون قواتهم الى وحدات صغيرة ومنتشرة هنا وهناك ، كما انهم على صعيد القيادة وخاصة بعد عملية الفردان شرعوا يتخذون احتياطات أمنية شديدة « واذا كان ضرب المخربين أخذ يغدو أكثر صعوبة، فان المحاولات لضرب كبار قادتهم — جبريل، عرفات، حبش وحواتمه — غدت مستحيلة تقريبا . فمنذ الضربة التي وجهها الجيش الاسرائيلي لكبار قادة المخربين في قلب بيروت ، وقبل ذلك ، ينتقل عرفات وشركاؤه من مكان سري الى آخر ، وهم محاطون بقوات حراسة لذا فان عملية اكتشافهم تعتبر بمثابة مهمة استخبارية معقدة ، وتوجيه ضربة لهم بواسطة قوة عسكرية تعتبر امرا صعبا وجريئا » الى ان يصل الى بيت القصيد ويطالب المسؤولين الاسرائيليين بانتهاج اسلوب جديد : « يجمع المختصون الذين تحدثت معهم على الرأي القائل بأن محاربة الارهاب والتصدي له ، ينبغي ان يكون أحد المواضيع المركزية ضمن معالجة الجيش الاسرائيلي . لذا ينبغي على الجيش الاسرائيلي ان يقيم هيئة مع صلاحيات ، تقتصر مهامها على معالجة الارهاب . هيئة تكون تابعة مباشرة لرئيس هيئة الاركان ويقف على رأسها ضابط كبير ذو خبرة ميدانية واصالة تفكير وملم على الصعيد النظري بكل ما يتعلق بالتنظيمات ، رجالها وتدريباتها وايديولوجيتها . ضابط مع افراد اركانه ، يقف على خصائصهم ونقاط ضعفهم . هيئة كهذه بوسعها انعاش الفكر في محاربة المخربين » . وهنالك عدد اخر يقف الى جانب هذه الدعوة ويروج لها ، مثل الكاتب « يعقوب كروز » الذي دعا بدوره الى اقامة سلطة خاصة لمحاربة الفدائيين : « ان متطلبات محاربتهم تستلزم قيام سلطة خاصة ، تدير وتنسق الجهود العامة ضد منظمات التخريب دون كلل وفي كل مكان وزمان . وفوق ذلك فانها ستأخذ المبادرة من ايديهم . وتنطوي هذه الطريقة على أمل لتقليص النشاط الارهابي لادنى درجة ممكنة » (المصدر السابق) .

اذن يمكن القول ان اسرائيل تمر الان في مرحلة اختيار للاساليب التي تراها انجع لمحاربة العمل الفدائي ، آخذة بعين الاعتبار الانعكاسات المحلية والدولية التي يمكن ان تتأتى عن عملية الاختيار ، ومع ذلك يوجد هنالك من يعتقد بان اسرائيل ستتبنى الاساليب الثلاث الانفة الذكر فيما اذا تعاظمت موجة العمل الفدائي ، مثل المعلق « حاجي ايشد » الذي يذكر على شكل تساؤلات في مقال له تحت عنوان : « كيف يمكن محاربة الارهاب » (دافار ٥/٧/٧٤) : « ينبغي ان يطرح السؤال هل تقتصر الهجمات على القصف الجوي او ينبغي ايضا القيام بهجمات برية ، هل من المجدي ان تنجز جميع الهجمات علنا على يد وحدات من الجيش الاسرائيلي ، او انه من المجدي استخدام وحدات خاصة شريطة ان تكون خاضعة لسلطة حكومية وصية عليها ، والسؤال هو هل من الممكن قطع شوط بعيد لدرجة القيام باحتلال مؤقت لجنوب لبنان او اجزاء واسعة من هذه الدولة كيلا تستخدم كقاعدة لاعمال المخربين ضد اسرائيل ، وذلك عندما يتضح ان جميع الاعمال الاخرى لم تثمر » ليصل الى القول : « يمكن ان نقيم ، بأنه اذا ما استمر الارهاب لن يكون مناص من تصعيد الاعمال ضد المخربين في جميع هذه الاتجاهات » .

الا انه يمكن لنا من خلال استقرائنا لمجموعة اراء الكتاب والمعلقين الاسرائيليين القول بانه سواء تم بناء قيادة خاصة جديدة لمحاربة العمل الفدائي او لم يتم ، فان الاحتمال الاقوى والارجح ، هو ان تتوجه اسرائيل الى القيام بسلسلة من العمليات الخاصة ضد قواعد الفدائيين داخل المخيمات او خارجها سواء عن طريق الانزال الجوي او البحري او عن طريق التسلل البري ، مشفعة ذلك بعمليات ذات طبيعة استخبارية ضد قيادات المقاومة الفلسطينية وليس من المستغرب ان تعتمد على اساليب الخداع في بعض عملياتها، كارتداء ملابس معينة تبعد الاشتباه .

ذكرنا في مطلع حديثنا ان المعلقين الاسرائيليين الذين يعالجون ظاهرة العمل الفدائي يجمعون على ان الضربات العسكرية مهما بلغت من الشدة والعنف لن تؤدي الى القضاء على العمل الفدائي اذا لم تكن مصحوبة بحملة سياسية موازية تعطي الفلسطينيين الامل في الحصول على شيء ، الا ان هذا « الشيء » يبقى ضبابيا وعائما ومتفاوتا بين شخص واخر بين تيار واخر وفي بعض الاحيان بين الشخص وذاته ! ولعل مرد ذلك يعود الى رغبة هؤلاء بان يكون الشيء بمثابة تكتيك او مناورة

لخدمة الخط الاستراتيجي ، ومن هنا نجد من يبدي اسفه وحزنه على تغييب اسرائيل للخيار السياسي امام الفلسطينيين وتمسكها فقط بالخيار العسكري ، مثل بن فورات : « علينا ان نقبل مع الاسف او الندم المتأتيين عن ذلك ، بأن السياسة التي كانت تعتمد على نفي وجود الهوية الفلسطينية قد افلست » ولذا فانه يطالب بمواصلة توجيه الضربات للفدائيين مع التوجه لحل القضية الفلسطينية من خلال الاردن وسكان الضفة الغربية . اما زئيف شيف فيعرب هو الاخر عن أسفه من واقع عدم قيام اسرائيل بالعمل على جبهتين تجاه الفلسطينيين بل اقتصارها على جبهة واحدة هي الجبهة العسكرية . « مثلما هو واضح للجميع بأن هذه الحرب ليس بوسعها ان تقتصر على الدفاع فقط ، هكذا ينبغي ايضا ان يكون واضحا بان القضية برمتها (المسماة بالفلسطينية) لا يمكن حلها بالوسائل العسكرية فقط ، ذلك لانها قضية سياسية في اساسها . وفي الوقت الذي نقاتل فيه منظمات التخريب ... من الاهمية بمكان ان تهتم اسرائيل بايجاد مخرج سياسي للحركة الفلسطينية . والقصد ليس فقط اثبات ان الخيار العسكري الخاص بهم لا امل فيه ، بل ايجاد مخرج سياسي لهم ، وهذا الامر سيدخل الشكوك في قلوبهم ويقسمهم ويعزز المعتدلين من بين صفوفهم . ان اسرائيل — للاسف الشديد — تمتلك فقط خطة عسكرية تجاه هذا الموضوع ... » (ملحق هآرتس ٧٤/٧/٥) .

ليس هنا مجال التوسع ، في القاء الضوء على وجهات النظر الاسرائيلية المختلفة والمتباينة تجاه ضرورة ايجاد مخرج سياسي للقضية الفلسطينية ، وانما سنكتفي بالوقوف على وجهة نظر فريدة من نوعها .

بروفيسور دان ومخيمات لبنان : من المعروف ان الكتاب والمعلقين في اسرائيل درجوا عند تطرقهم لموقف سوريا او دورها في الصراع العربي الاسرائيلي على القول بأن « الرياح الشريرة تهب من الشمال » ايماء بان سوريا هي البلد العربي الاكثر تطرفا تجاه اسرائيل ، وتنفيسا عن روح الكراهية تجاه سوريا . وقد اخذ هؤلاء اثناء معالجتهم لظاهرة العمل الفدائي يرددون بأن « الرياح الشريرة تهب من مخيمات لبنان » على اساس ان المخيمات هي منبت العمل الفدائي والقاعدة الامينة الحامية له ، ومن هنا انطلقت الدعوات من قبل بعض المعلقين ، مستهدفة احداث ثغرة بين جماهير المخيمات والفدائيين ، من خلال توجيه ضربات عسكرية مصحوبة بطرح خيار سياسي امام الفلسطينيين على أمل ابعاد السكان عن العمل الفدائي وبالتالي القضاء عليه ، الا ان هؤلاء لم يفصحوا عن هذا الخيار السياسي باستثناء البروفيسور يوسف دان (يمين متطرف) الذي انفرد باعطاء تصور اوضح للخيار السياسي الذي يرتأيه ، وقد عبر عن ذلك في مقال له تحت عنوان « كيف يمكن تصفية مخيمات اللاجئين في لبنان » (يديعوت احرونوت ٧٤/٧/٧) حيث يتطرق الى ضرورة تصفية مخيمات اللاجئين في لبنان ، ليس من خلال دافع انساني حيث يعيش اللاجئون فيها حياة البؤس والشقاء او من خلال تأنيب ضمير لدور الصهيونية في ظهور هذه المخيمات ، بل لان « مخيمات اللاجئين في لبنان قد غدت الان المشكلة الاساسية التي تواجه اسرائيل على الصعيد الامني ، والقاعدة الاساسية للمنظمات ، فمن هنا ترسل الى جميع ارجاء المعمورة سواعدهم ، سواء لزرع القتل وبث الخوف او للقيام بحملة دعائية ضد اسرائيل ، ومن الطبيعي ان يستخدم ضد هذه المخيمات ساعد الجيش الاسرائيلي في صراعه ضد التنظيمات ، الا ان السؤال هو هل بالقوة وحدها يمكن تصفية اعشاش الدبابير هذه التي تلحق الاضرار الجسيمة بالارواح الطاهرة في اسرائيل ، وبجهودها العسكرية وصورتها الدولية ؟ » .

وقبل ان يتطرق الكاتب الى الطريقة التي يمكن بها تصفية « اعشاش الدبابير » يذكر بان هنالك فرقين بين اللاجئين الفلسطينيين في لبنان وبين اللاجئين في الضفة والقطاع والاردن ، الاول ان لاجئي لبنان قد فقدوا بيوتهم ووطنهم ، بينما اللاجئون في الضفتين والقطاع فقدوا بيوتهم فقط وبقوا في وطنهم . « انهم لا يزالون يعيشون في وطنهم داخل فلسطين بمفهومها التاريخي والقانوني — الواقعة على ضفتي النهر » والثاني حسب اعتقاده ان لاجئي لبنان يشكلون قضية امنية ليس بالنسبة لاسرائيل فحسب بل بالنسبة للبنان ، « ولهذا السبب هنالك اساس للامل بانه يمكن

التوصل الى تعاون بين اسرائيل ولبنان لحل هذه المشكلة .. »

ثم يعود ويكرر ما يجمع عليه الكتاب الاسرائيليون من غياب خطة سياسية الى جانب الخطط العسكرية الاسرائيلية ، ليطالب كالاخرين بطرح بديل سياسي امام الحكومة اللبنانية وسكان المخيمات وذلك « للحيلولة دون استمرار سيطرة منظمات التخريب على هذا الجمهور الكبير » ليصل بعد ذلك الى طرح مشروعه ويتلخص في التالي : قبول اسرائيلي مبدئي بعودة من يرغب من سكان لبنان الى الضفة الغربية وقطاع غزة وتعويض من لا يرغب في ذلك عن ممتلكاته . ويلحق ذلك بشروط (١) اذا كان هذا الامر يؤدي الى تخفيف عبء الامن ويهز سيطرة المنظمات الفلسطينية في المخيمات (٢) ان انضمام اي شخص للمقاومة يفقده حق المطالبة بالعودة ، او حق المطالبة بالتعويض ، ويشمل ذلك اهله واقاربه وذويه . اما فيما يتعلق بكيفية تطبيق ذلك فيقترح ان تجري عملية عودة الاشخاص على اساس توحيد شمل العائلات ، الا انه هنا يضع شرطا اخر علاوة على شروطه السابقة ، يتمثل في ضرورة تواجد معظم افراد العائلة في المناطق الخاضعة لسيطرة اسرائيل « اذا ما اتضح بعد الفحص ان معظم ابناء تلك العائلة يعيشون في الاردن او سوريا او الكويت، فان الطلب سيرفض، وسيقبل فقط اذا كان المقصود بالفعل عائلة معظم افرادها يعيشون في البلاد » . وبالرغم من ان اشتراطات البروفيسور تحول دون عودة الاكثرية الساحقة الى المناطق المحتلة ، فانه يحاول طمأنة الاسرائيليين بالقول ان عدد اللاجئين في لبنان يناهز المئتي الف ، ويذكر بان هذا الرقم مبالغ فيه مع ان العدد التقريبي للفلسطينيين في لبنان — لسوء حظ البروفيسور دان — يناهز الـ ٣٥٠ الف نسمة ، وزيادة في الحرص على طمأنة القارىء بان لا تعود هذه الاعداد دفعة واحدة ، يرى ان العملية ستتم بالتقسيط ، حيث يسمح كل عام على امتداد فترة حددها بعشر سنوات ، عودة او تعويض عشرة الاف شخص .

يشدد الكاتب على ان الاهمية لا تكمن في البديل بقدر ما تكمن في طرحه ، واذا ما احبطته فصائل المقاومة ، فانها كما يتصور « ستكشف عن وجهها الحقيقي ، واظهار نظرتهم الحقيقية سواء تجاه قضية اللاجئين او تجاه وجود اسرائيل » واذا ما رفضه سكان المخيمات « فان المسؤولية كلها تقع عليهم ، وبذلك يكون مركز اسرائيل على الصعيد الدولي ، كما يتخيل قد تعزز ، وتكون يدها « طليقة اكثر في استخدام الخيار العسكري لمعالجة قضية الارهاب » .

كتلخيص لما سبق يمكن القول ان المجتمع الاسرائيلي ، عقب الموجة الفدائية مؤخرا ، غدا يشعر اكثر من اي وقت مضى بفقدان الامن ، وان الانسان العادي يعيش تحت وطأة الخوف والترقب للضربة بسبب الاحساس السائد بان لا وجود لمكان آمن في اسرائيل ، الامر الذي دفع السلطات الاسرائيلية للعمل في اتجاهين ، الاول يتسم بالدفاع المحض ، مثل اقامة سياج امني على امتداد الحدود الشمالية ، والعمل على تسميكه بين الفينة والاخرى وكذلك احاطة قرى الحدود باسيجة امنية مما يعيد الى الاذهان صورة « سور وبرج » في اواخر الثلاثينات ، والعمل على اقامة الحرس المدني في جميع قرى ومدن اسرائيل ، والثاني ، يتسم بالهجوم الا انه لا يزال حتى الان يقتصر على اعمال القصف الجوي او البحري ، وهنالك احتمال كبير بان يتطور الى عمليات انتقامية خاصة ضد تجمعات الفدائيين ، ومراكز قيادات المقاومة .

مراجعات

J. Berque, J. Couland, L. Y. Duclas, J. Hadamard, M. Rodinson,
Les Palestiniens et la crise israélo - arabe,
(Paris, Editions Sociales, 1974).

لم تقتصر حرب اوكتوبر على احداث خلخلة خطيرة داخل التفكير الصهيوني وحسب بل وتجاوزت ذلك الى اعادة تصحيح بعض « المسلمات » لدى ما يسمى بالرأي العام الغربي . ولقد أدت هذه العملية السريعة الى تشجيع بعض الاصوات الخجولة التي كانت تؤيد الموقف العربي بحذر ودون ان تحاول « خدش » الشعور الصهيوني الى التخلي عن بعض خجلها وحذرها والمناداة علنا بما كانت تردده في نطاق ضيق ومحدود . والكتاب الجديد الذي بين ايدينا يسير في هذا الاتجاه لا بل هو ، ان صح التعبير ، ثمرة مباشرة لحرب اوكتوبر وما أدت اليه من تغيير وتعديل في ميزان القوى . فبعد أن تعودنا سماع اصوات التأييد للقضية العربية من بعض الاوساط اليسارية التي كانت توصف في فرنسا بالمتطرفة ها نحن نرى بين ايدينا كتابا عن القضية الفلسطينية تتولى نشره وتوزيعه « المنشورات الاجتماعية » وهي من اكبر دور النشر التابعة للحزب الشيوعي الفرنسي ويحمل توقيع نخبة ممتازة من المفكرين الماركسيين الفرنسيين منهم من تعود القارىء العربي على سماع أسمائهم كثيرا كرودنسون وبرك وكولان الذين كتبوا الكثير من قضايا الشرق العربي ومنهم من بدأ حديثا الكتابة من هذه القضايا وهم بمعظمهم من الشباب التقدميين الذين يتعاطفون مع الثورة الفلسطينية . الا ان الكتاب ليس مجرد مواقف بل يضم ايضا مجموعة وثائق سياسية تتعلق بالصراع العربي الاسرائيلي ومن ضمنها بعض الوثائق الرسمية الصادرة عن فصائل الثورة الفلسطينية . ولعل من المفيد هنا ان نرجع الى الكتاب بالتفصيل لعرض محتوياته ومناقشتها .

يشتمل هذا الكتاب على ثلاثة أجزاء رئيسية يشكل كل جزء منها مرجعا وثائقيا هاما لكل من يريد متابعة الصراع العربي — الاسرائيلي في الفترة الزمنية الواقعة بين حرب حزيران ١٩٦٧ وحرب اوكتوبر ١٩٧٣ . فالقسم الاول — وهو القسم الذي يبدو ان واضعي هذا الكتاب يولونه اهتماما خاصا — يضم نصوص ووثائق الـ «G.R.A.P.P.» وهي « مجموعة البحث والعمل » لتسوية المشكلة الفلسطينية . ويعرف مكسيم رودنسون هذه المجموعة بأنها تأسست سنة ١٩٦٧ « وسط موجة الانفعالات التي سببتها حرب الايام الستة » . والذين أسسوها كانوا مدفوعين الى ذلك بالرغبة الجارفة في أن يعرفوا الرأي العام الفرنسي بمجموعة من المعطيات التي كانت آنذاك مطموسة بشكل متعمد ومكثف بواسطة دعاية منظمة تنظيما جيدا وبواسطة مشاعر كانت أحيانا تختبىء وراءها نوايا حسنة الا أنها تؤدي الى استنتاجات خاطئة تحت تأثير الجهل او التحيز الاعمى . وكان مؤسسو مجموعتنا يتطلعون ايضا الى هدف آخر وذلك بحكم تكوينهم الفكري من جهة وبحكم معلوماتهم الخاصة من جهة اخرى . « ذلك ان الكثيرين منا كانوا مطلعين ، بحكم تخصصهم او مجرى حياتهم الشخصية ، اطلاعا واسعا على المشاكل العربية ويعرفون من كثب الشعب العربي . وهذه كلها أمور غير متوفرة عند الغالبية العظمى من مواطنينا ... »

ويضيف رودنسون معرفا بهذه المجموعة « بالاضافة الى هذا فان أحدا منا لم يكن يجهل معطيات المشكلات اليهودية . لا بل ان البعض منا كانت لديه الاسباب الخاصة جدا للاهتمام بها لكونهم هم انفسهم من اصل يهودي » (وبالتحديد مكسيم رودنسون الذي ينتمي الى عائلة يهودية

معروفة) ويستمر تعريف رودنسون بهذه المجموعة بحذر شديد فهي ليست مجموعة تعطي تأييدا غير مشروط لاي احد كان (أي للعرب) كما انها لا تنادي بابادة اي شعب . « ولكن الكثيرين من بيننا يشعرون بتعاطف خاص ، وبدرجات متفاوتة ، كل حسب طباعه ، مع الشعب العربي » . « نحن مع انصاف العرب ... ولكننا لا ندعو الى ارتكاب ظلم آخر في سبيل رد العدالة اليهم ... » . « نحن مع الحكومات العربية بقدر ما تعمل هذه الحكومات على تخليص شعوبها من التخلف والتبعية ... » .

وهكذا بعد سلسلة طويلة من الجمل التمهيدية التي تهدف بشكل او بآخر الى اقناع القارىء الغربي بحسن نية المجموعة تجاه اليهود او بمعنى أدق لانتزاع صك براءة من اية ميول او اتجاهات لاسامية قد يتهمون بها يدخل رودنسون في صلب المشكلة فيقول بأن تطلعات اليهود جديرة بالاحترام وينبغي ان يدافع عنها بقوة عندما تسعى الى أهداف لا يجوز ان يحرم منها أي انسان : أعني الحرية ، المساواة في الحقوق والفرص ، الكرامة ... ولكن ليس هناك اي مبرر لتحويل متطلبات كما يفهمها المرء او حتى متطلباته الفردية الى قانون ملزم للاخرين . ان كل طموح ينبغي ان يجد حدوده عند طموحات الاخرين عندما تكون مشروعة . ثم يقول بأن من الممكن ان نناقش بشكل تجريدي فوائد او مساوىء ان يكون لليهود دولة تضم أولئك الذين يريدون ان ينشئوا أمة جديدة يكون بمقدورهم ان ينخرطوا فيها بملء حريتهم . ويعطي رودنسون كمثل التجربة السوفياتية في هذا المجال حين أنشأوا دولة لليهود في بيروبيدجان ولكن بدون نجاح واضح . الا ان « اختيار » اليهود وقع على وطن يسكنه اصحابه وبالضبط في فلسطين التي لم تكن في تلك الحقبة مجموعة من المستنقعات والصحاري كما تروج لذلك الدعاية الصهيونية . « لقد كانت فلسطين بدون أدنى شك على الاطلاق وطنا يسكنه العرب تحت حكم العثمانيين . وبالطبع فان المنطق الاكثر بداهة يدفعنا الى القبول بأنه ليست هناك سوى وسيلتين لتحويل هذا البلد العربي الى بلد يهودي : اما طرد السكان الاصليين واما تحويلهم الى مواطنين من الدرجة الثانية . وأيا كانت الظروف فان هذه هي في الواقع الوسائل التي استعملت في هذا السبيل . اما رأي اهل البلاد المعنيين فلم يؤخذ ابدا بعين الاعتبار » .

بهذه الكلمات البسيطة يلخص رودنسون كل المشكلة ولذلك فانه يعلن بكل وضوح عداءه — وعداء كل المجموعة التي ساهمت في وضع هذا الكتاب — للايديولوجية وللحركة الصهيونية ، هذا العداء الذي لم ينشأ بسبب التعليلات التي أعطاها أصلا لجذور الصراع العربي — الاسرائيلي بل ايضا بسبب التحالفات او الاساليب التي سعت وراءها او اتبعتها والتي في النهاية تنجم في معظم الاحيان عن مشروعها الاساسي .

الا ان هذا العداء لا يتضمن بالضرورة عداء مماثلا للشعب الاسرائيلي وان الحل الوحيد الممكن يكمن في تخلي اسرائيل عن طابعها الاستعماري وتتحاور مع المعنيين المباشرين بالقضية للتوصل الى صيغة من التعايش على اساس من المساواة التامة . وهنا يشرح رودنسون آراءه المعروفة حول هذا الموضوع والتي لخصها في كتاباته العديدة حول قضية الصراع العربي الاسرائيلي ونخص منها بالذكر « اسرائيل واقع استعماري » (مجلة الازمنة الحديثة . عدد خاص . أيار ١٩٦٧) و« اسرائيل والرفض العربي » . الا ان ما يمكننا ان نثيره حول ما قاله رودنسون بالذات هو ان ما ينادي به هو في النهاية قريب نوعا ما من اطروحات المقاومة الفلسطينية حول الدولة الديمقراطية . الا ان المشكلة ليست بالنوايا الحسنة ولا بالتصريحات المتفائلة بل في السؤال التالي : ما العمل لتجسيد هذه الامال والمطامح ؟ انها حتما لا تتحقق برغبة ذاتية من اسرائيل بل ان نتيجة الصراع هي التي تحدد مصير هذه الامال اي بمعنى آخر الهزيمة المادية والايديولوجية للصهيونية . وكل كلام آخر في رأينا لا يتعدى كونه كلاما رومانسيا مثاليا يشكر اصحابه عليه الا انه في عالم الواقع لا يغير شيئا . ان تحول ميزان القوى لصالح القوى التقدمية العربية والعالمية كفيل بتحقيق السلام الحقيقي القائم على انقاض الصهيونية ومؤسساتها .

بعد هذه المقدمة التمهيدية للكتاب يجد القارىء مجموعة هامة من الوثائق المتعلقة بالصراع العربي — الاسرائيلي ما بين حرب حزيران ١٩٦٧ وحرب اكتوبر ١٩٧٣ ومن بينها بعض الفقرات من نظام « مجموعة البحث والعمل لتسوية المشكلة الفلسطينية » «G.R.A.P.P.» والنداء الذي وجهه

المؤتمر الدولي المنعقد في بولونيا « من أجل السلام والعدالة في الشرق الاوسط » . ثم يعرض « جاك كولان » — وهو من كبار الباحثين الفرنسيين الشيوعيين المهتمين بقضايا الشرق العربي (اشتهر بكتابه عن النقابات في لبنان) — لمواقف كل الدول والمنظمات المعنية مباشرة بالصراع ويشرح «امكانيات التعايش السلمي العادل » في المنطقة . وتغلب على هذا الفصل روح البحث والتقصي والموضوعية بالاضافة الى الالمام الدقيق بتطورات القضية الفلسطينية من ٥ يونيو الى ٦ اكتوبر . اما فيما يتعلق بالاستنتاجات التي يستخلصها من عرضه التاريخي فهو يتبنى كلية موقف الحزب الشيوعي الفرنسي القريب جدا من الموقف السوفياتي القائم على :

— ادانة الاوساط الحاكمة في اسرائيل بصفتها وراء العدوان .

— انتصار الطبقة العاملة في اسرائيل هو الكفيل بالقضاء على الصهيونية واعادة السلام الى المنطقة .

— ان ميزان القوى على الصعيد المحلي سيتحول بلا شك لصالح العرب مهما طال الزمن ومهما كثرت الصعوبات . أما اولئك الذين يهمهم قبل كل شيء وجود دولة اسرائيل فانهم لا يستطيعون الزعم بانهم يحافظون على هذا الحق الا اذا عملوا على جعل اسرائيل تنفذ قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ .

— لا يمكن ان يكون هناك سلام دائم في المنطقة وبالتالي تعايش عادل طالما ان الشعب الفلسطيني ليس سيد مصيره وطالما انه لم يعط ارضا يمارس فوقها سيادته : قد تكون هذه السيادة في دولتين منفصلتين او متحدتين او في دولة ديمقراطية ، علمانية ...

ويعود رودنسون بعد ذلك ليشرح بتفصيل وتوسع « امكانيات التعايش » وذلك من خلال تأكيده هو الآخر على اهمية قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ . الا انه بعد مناقشة طويلة ومستفيضة لمسألة وجود « مجموعتين اثنيتين » Ethnique متمايزتين على ارض فلسطين (نجد هنا ان المجال لا يسمح لنا بمناقشة تأكيد رودنسون على ان الاسرائيليين يشكلون فعلا مجموعة بشرية متجانسة . ولكننا نكتفي بالقول ان من الواضح جدا ان المجتمع الاسرائيلي مؤلف من مجموعات بشرية متنوعة وان كل مجموعة تحدد نفسها ، بالاضافة الى يهوديتها، بانتمائها الاصلي : فهناك الاسرائيلي البولوني والاسرائيلي الامريكي او السوفييتي او الشرقي الخ ...) وبعد استعراض امكانات التعايش من خلال اعطائه بضعة امثلة تاريخية وبعد تركيزه على ان الانسان العربي يتسم بالتسامح والطيبة يعود فيقول : اننا لن نحدد مشروع « حل » للصراع الفلسطيني فهذا عمل لا يجدي نفعا . ان الحل — وهذا في رأينا استنتاج صحيح — سيكون نتيجة تطور ميزان القوى بين الطرفين وقد يكون نتيجة مفاوضات بين المتصارعين او حتى بين القوتين العظميين . و« كل ما نتمناه هو تحديد صورة الحل في مثله الاعلى أي التعايش بين المجموعتين بشكل متساو على ارض فلسطين » .

وفي الفصل الخامس من الكتاب يناقش رودنسون مشروع الملك حسين و« الارهاب الدولي » وبالاخص العمليات التي شهدتها بلدان اوروبية عديدة من ميونيخ الى روما مرورا بباريس ومدريد وبروكسل. وطبعا فان ما يقوله رودنسون هنا سبق ان نشر الا ان اهميته هو انه كاد يكون الصوت الوحيد الذي ارتفع آنذاك في وجه الاعلام الغربي والصهيوني الذي اخذ يحرض الرأي العام العالمي على الفلسطينيين وتشويه الحقائق والاستهتار بكل المقاييس المنطقية والمقبولة . بالنسبة للموضوع الاول يشرح رودنسون علاقة النظام الهاشمي التاريخية بالقضية الفلسطينية ويستعرض بسرعة النوايا الحقيقية الكامنة وراء مثل هذا المشروع لينتهي اخيرا الى ادانته اذ « ليس فيه اطلاقا اثر لحقوق الشعب العربي الفلسطيني في التصرف بكامل حريته لاختيار نظام الحكم الذي يريده . وهذه صفة تدعو الى ادانته بشدة وذلك أقل شيء ممكن ان يقوم به انسان » . أما بالنسبة لما يسمى « بالارهاب الدولي » وللضجيج الاعلامي المفتعل الذي رافق بعض العمليات الفلسطينية (كعملية ميونيخ مثلا) فيدعو رودنسون جميع قارئيه (الاوروبيين طبعا) الى عدم فقدان التوازن وعدم نسيان عناصر الصراع ككل ومن أهمها استعمار فلسطين من قبل الصهيونية . ويقول ان من كانت لديه رؤية واضحة للصراع يجب ألا يستهول بعض التفاصيل او يستنكر بعض العمليات لمجرد استنفار ما يسمى بالرأي العام العالمي ضدها . ان مناقشة

هذه العمليات من حيث فعاليتها وأهميتها السياسية شيء وادانتها من حيث لاأخلاقيتها وعنفها شيء آخر . « ان اولئك الذين أدانوا هذه العمليات من وجهة النظر الثانية يعتبرون ان موقفهم من جذور الصراع يعفيهم ، بالنسبة للتفاصيل ، عن كل بحث عن المنطق والعقل والنية الحسنة والاتزان في اصدار الاحكام » . ان المنطق والحس السليم يفرضان على الانسان المنسجم مع نفسه ان يذكر دائما بالخطيئة الاصلية الكامنة وراء مثل هذه التفاصيل ، اي العمليات . وعلى كل حال ، كما يقول في نهاية المقال ، ان اسرائيل هي آخر من يحق لها ادانة الارهاب لانها انما قامت على الارهاب . وكذلك الحال بالنسبة الى معظم الدول فان تاريخها لا يسمح لافرادها بأن يدينوا الارهاب على الاطلاق . والجدير بالذكر ان رودنسون يشير في ملاحظة بنهاية المقال الى أنه قد كتبه قبل أن تنفذ اسرائيل سلسلة عملياتها الارهابية ضد بعض المسؤولين الفلسطينيين في أوروبا . وهذا في رأينا موقف لا يخلو من الشجاعة وسط موجة الاحداث العنصرية الحاقدة التي كانت آنذاك لا تترك مناسبة دون شتم العرب والفلسطينيين وتصويرهم على انهم النقيض الكامل لكل ما هو مدنية وحضارة .

أما **جاك برك** فقد جاءت مساهمته في هذا الكتاب — وبالتحديد في الجزء الاول منه — من خلال مقالين قصيرين الاول بعنوان « الامم والشعب العربي أمام فلسطين » والثاني بعنوان « الواقع والحق في فلسطين » . يقول برك في مقطع من مقاله الاول ما معناه ان اسرائيل تستند الى رؤيا مسيانية Messianique أي الى فكرة العودة الى أرض الميعاد والى قومية مستوردة قائمة على سيطرة حضارة غربية معينة. وهذا التضافر بين العاملين : المسيانية السلفية والقومية الغربية يشكلان قوة لا بأس بها الا ان خطأها الاساسي أنها تنتمي الى الماضي . ويقول برك ان « افضل سبيل لمواجهة هذا الواقع لا تكمن في مجابهته بقومية اخرى . ان رجحان الكفة في مثل هذا النوع من المناقشات هو من نصيب القضية التي تعرف كيف تتخطى غيرها وتتخطى نفسها » اي بمعنى آخر انه يدعو الفلسطينيين — والمقاومة بالتحديد — الى التخلي عن مجابهة ما يسميه بالقومية الاسرائيلية المستوردة بقومية فلسطينية من نفس النوع . والمآخذ الاساسي الذي يوجه الى هذا النوع من الكلام هو انه يوحي وكأن للفلسطينيين قومية خاصة بهم ، قومية فلسطينية مميزة عن القومية العربية . ان برك يدعو هنا الى فلسطنة الفلسطينيين لان في هذه الفلسطنة السبيل الوحيد الى انتصارهم . ليس هذا وحسب بل انه يسمح لنفسه بالتساؤل مما اذا كانت المرحلة العربية البحتة من المشكلة ليست في طريقها لان تتلاشى او ان تغرق بالتزامات اخرى أكثر عمقا واتساعا . ويعتقد برك ان فصل القضية الفلسطينية عن محيطها العربي اي تخليص القضية من أيدي الحكومات العربية سيساهم في تغذية التيار العالمي المؤيد للحق الفلسطيني . طبعا قد يكون في هذه الاقوال بعض الفائدة لو اننا نظرنا اليها من ناحية تكتيكية .

أما اذا وضعنا القضية الفلسطينية ضمن اطارها الموضوعي التاريخي ونظرنا اليها استراتيجيا فان كل هذا المنطق التجزيئي او الاقليمي سرعان ما ينهار ويفلس . ان مصير الشعب العربي الفلسطيني مرتبط ارتباطا نهائيا بمصير كل الاقطار العربية والتطورات الاخيرة تؤكد هذه الحقيقة وكل محاولة لعزل القضية الفلسطينية عن محيطها الطبيعي في سبيل كسب تأييد ثوري عالمي لها تشبه في رأينا محاولة من يريد ان يخسر اهم الاوراق الرابحة في أيديه من اجل ورقة غير اكيدة. على كل حال فان ما يسوقه الينا برك هنا ليس في النهاية سوى كلام مثالي يعتقد انه يخدم القضية الفلسطينية خدمة مخلصة وصادقة الا انه في الحقيقة يساعد ، فيما لو نفذ ، على عزلها وحصارها . ويكفي ان نذكر ان تاريخ كتابة هذا المقال يرجع الى أيار ١٩٦٩ حتى ندرك مغزى كلام برك ونضعه في مكانه الصحيح اي في موجة الكتابات والحركات التي كانت مسيطرة على الاجواء والتي كانت ترى في التركيز والتشديد على القطرية الفلسطينية سبيلا ناجحا لانتصار القضية . الا ان النكسة الخطيرة التي اصيبت بها حركة المقاومة في مذابح ايلول ١٩٧٠ جاءت لتؤكد ان السبيل الوحيد للانتصار هو في الالتحام المصيري بنضال الشعب العربي في كل مكان اذ كل انتصار عربي ثوري هو في النهاية انتصار للقضية الفلسطينية اي العربية.

ويكمل جاك برك في مقاله الثاني في الكتاب ، الشق الثاني من فكرته فيدعو الدول العربية الى اختيار الحل السياسي للقضية على اساس انه اقل سوءا من غيره . الا انه في الوقت نفسه يقول بأن كلامه

لا يشمل الطليعة الثورية التي تشكل فلسطين بالنسبة اليها كل مآسي الخارج والداخل . انه يدعو الدول العربية الى الحل السياسي وبالوقت نفسه يدعو الفلسطينيين الى مواصلة النضال لانهم من غير الممكن ان يستسلموا ويرضخوا ... وهنا ايضا يقع برك في تناقض خطير هو بالحقيقة نتيجة حتمية لمنطقه التجزيئي القطري . ان التناقض وعدم التماسك في كلام برك ، رغم كل نواياه الطيبة نحو العرب والفلسطينيين يبرز بشكل واضح عندما نقارنه برودنسون . فالاول يحاول التوفيق بين الثورة والمؤسسات والثاني ينظر الى الصراع نظرة شاملة نافذة ولا يخشى من ان يعطي رأيه بصراحة حتى ولو جاء مخالفا للثورة الفلسطينية وللحكومات العربية .

وينتهي القسم الاول من الكتاب بالمذكرة التي اصدرتها « مجموعة البحث والعمل لتسوية المشكلة الفلسطينية » بشأن حرب اكتوبر وهي مذكرة سريعة كتبها رودنسون نفسه ولا نجد من المفيد الوقوف عندها .

اما القسم الثاني من الكتاب فيدور بمجمله حول العرب في اسرائيل وفي الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ . ويضم هذا القسم دراسات ووثائق هامة ومكثفة عن واقع الاستغلال الذي يعيشه عرب الارض المحتلة .

ومن المواضيع الهامة التي كتبتها جاكلين هادامار وهي عضوة نشيطة في رابطة حقوق الانسان العالمية ، دراسة هامة عن « التمييز المتصاعد في الجامعة ضد الطلاب العرب . وهذه الدراسة عبارة عن مقابلات ومشاهدات جمعتها ونظمتها الكاتبة اثناء اقامتها في اسرائيل . بالاضافة الى هذه الدراسة ضم الكتاب بعض الوثائق الاسرائيلية التي تدين تصرفات الحكومة الصهيونية تجاه السكان العرب كما ضم تقرير لجنة العقد الدولية عن وضع السجناء العرب في المعتقلات الاسرائيلية سنة ١٩٧٠ وكذلك تقرير نفس اللجنة عن طريقة اجراء التحقيقات مع السجناء العرب وطريقة معاملتهم وانتزاع الاعترافات منهم .

ويجد القارىء ايضا في هذا القسم الوثائقي دراسة جيدة عن «بعض جوانب المالية الاسرائيلية» كتبته ايضا جاكلين هادامار .

اما جان لوي دوكلو ، وهو اختصاصي بقضايا الصراع العربي — الاسرائيلي واحد المشاركين في وضع هذا الكتاب فقد قدم وصفا مطولا ومثيرا للاحتلال العسكري الاسرائيلي .

القسم الاخير من هذا الكتاب يضم وثائق مترجمة عن العربية تهدف بالدرجة الاولى الى تعريف القارىء الفرنسي « بالاختيارات الفلسطينية » . واهم الوثائق المترجمة :

— مقتطفات من الميثاق الوطني الفلسطيني .

— اعلان اللجنة المركزية في فتح (أول ك ٢ ١٩٦٩) .

— الوثيقة الصادرة عن المجلس الوطني الفلسطيني السابع (اب ١٩٧٠) .

— مقتطفات من الاستراتيجية السياسية والتنظيمية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (١٩٦٩) .

— مقتطفات من « حركة المقاومة الفلسطينية في الوضع الراهن » نايف حواتمه (ايلول ١٩٦٩) .

— موقف الحزب الشيوعي الاسرائيلي من فكرة الدولة الفلسطينية ، بقلم اميل توما .

— « فلسطين المستقبل » لنبيل شعث .

— واخيرا يجد القارىء بعض المقتطفات من مشروع اتحادي فلسطيني اوصت به لجنة خاصة تابعة للامم المتحدة عام ١٩٤٧ .

وفي النهاية الحق بالقسم الوثائقي من الكتاب دراسة تاريخية شارك في اعدادها كل من موريس بوكان واوليفيه كاري ومكسيم رودنسون تستعرض، حسب التسلسل الزمني ، تاريخ فلسطين من بداية التاريخ وحتى حرب اوكتوبر مع التوقف طويلا امام احداث الفترة المعاصرة من ١٩٤٧ وحتى الان .

وينتهي الكتاب بلائحة بيليوغرافية عن اهم المراجع في القضية الفلسطينية .

ان هذا الكتاب ، بالرغم من ان معظم ما اشتمل عليه من دراسات وابحاث ووثائق قيمة قد سبق ونشر في فترات زمنية مختلفة وفي مجلات عديدة ، وبالرغم من المآخذ الكثيرة التي يمكن ان توجه الى بعض مضامينه والتي اشرنا الى

بعض منها ، يعتبر بحق مساهمة مخلصة وامينـــة في نقل صورة الوضع العربي ما بين الخامـــس من حزيران ١٩٦٧ والسادس من تشرين ١٩٧٣ الى القارىء الغربي التقدمي وفي تسليط الاضواء على جذور القضية الفلسطينية وكشف الممارسات القمعية والاستغلالية التي تقوم بها سلطات الاحتلال الصهيوني في فلسطين . ثم ان هذا الكتاب يشتمل على فضيلة اخرى وهي انه جاء في فترة تصاعـــد موجات العداء العنصرية ضد العرب في معظـــم انحاء فرنسا ، خاصة بعد حرب تشرين وازمـــة الطاقة العالمية . ومن هذه الزاوية فانه يمثـــل محاولة شجاعة للوقوف ضد التيار العنصـــري الجارف واعادة بعض الاعتبار الى العقل والحس السليم .

وهو في النهاية يعطي القارىء العـــربي فكـــرة واضحة عن آراء بعض التقدميين الفرنسيين الذين يعتبرون انفسهم — وعن حق — اصدقاء للعرب وخاصة فيما يتعلق بقضيتهم الاولى وعلى هـــذا الاساس فهو جدير بالقراءة والدراسة والتحليل .

ماجد نعمه

Pamela Ferguson, **The Palestine Problem**
(Martin Brian and O'Keefe, London, 1973).

كما ندرك منذ عهد بعيد ان دور النشر الغربية ، الصهيونية والمراعية لمشاعر الصهيونية خوفا مـــن انتقامها ، تتجنب قدر الامكان قبول الكتب التـــي تدور حول موضوع القضية الفلسطينية الا اذا كانت مؤيدة بوضوح لاسرائيل ولوجودها . صحيح ان البعض القليل من دور النشر هذه ، ولا سيما الكبيرة والمعتبرة منها ، تعمدت ان تضم قوائمهـــا عينة صغيرة رمزية من الكتب التي تحمل وجهـــة النظر العربية والفلسطينية لتكسب مظهر الـــدار الحيادية حسنة النية . الا ان معظم الكتـــب المؤيدة ، بدرجات متفاوتة ، للقضية الفلسطينيـــة في هذه العينات الصغيرة الرمزية كـــانت لمؤلفين فلسطينيين وعرب او من النوع العلمي ، التاريخي المحدود الانتشار ، الذي تقبل تلك الدور بنشـــره لاسباب يشتبه المرء بانها تتعلق بالاعتبار ليس الا.

والكتب التي تجد صعوبة فائقة ، في العثـــور على دار نشر غربية كبيرة تقبل بها تكون عـــادة لمؤلفين يهود او غربيين مناهضين للصهيونية ، او حتى غير متحمسين لها فحسب ، وتنطوي علـــى انتقادات واضحة او عنيفة للدولة الصهيونيـــة . والامثلة هنا كثيرة ومعروفة ، ولعل ابرزها هـــي كتب الفرد ليلينتال وموشيه مينوحين ، وكأن الغاية الكامنة وراء هذه السياسة هي نشر الانطباع بان القضية الفلسطينية العربية لا تتمتع بأي تأييـــد يذكر في الغرب نفسه . وكانت باميلا فيرغوسون احدى ضحايا هذه السياسة التبييزية المفضوحـــة والمشينة ، فبعد ان تعاقدت مع احدى دور النشر المعروفة في لندن على تاليف كتاب يصدر عـــن الدار ، عادت هذه الاخيرة فرفضـــت اصـــداره [راجع خلفية هذا الموضوع وتفاصيله في بـــاب « تقارير » في عدد ٣٦ من شؤون فلسطينية ، ص ١٧٠ — ١٧٨] . ويبدو واضحا بعد قراءة الكتاب ان الدار اللندنية رفضته في النهاية لا لانه معـــاد للصهيونية واسرائيل او لليهود ، ولا لانه متحيز للعرب بل ، ببساطة ، لان مؤلفته تعمـــدت ان تشرح « المشكلة الفلسطينية » بصورة موضوعية قدر المستطاع ، وتورد وجهات النظر المتقابلـــة والمختلفة حول وجوهها العدة .

فالكتاب يعرض وجهة نظر تبدو بوجه عام حيادية تماما بالنسبة للفلسطينيين والعرب . بل ان اراء المؤلفة تتعارض بشكل واضح مع ارائنا حول الكثير من القضايا الاساسية والجوهرية . فهي ، بادىء ذي بدء ، تنطلق في بحثها كله من التسليم ببقاء اسرائيل وبضرورة بقائها . تقول ، على سبيل المثال : « مما لا ريب فيه انه لا يوجد ثمة حل الى ان يحل اولا مأزق الفلسطينيين بطريقة لا يعتبرها اليهود خطرا يهدد بتفكيك اسرائيل » (ص ١٥ — ١٦) . ومن البديهي القول ان هذا الموقف يتعارض تماما مع موقف الفلسطينيين العرب ، وبالتالي فان كل رأي او تحليل يرتكز عليه هو خاطىء ومرفوض بالنسبة لنا . فليس مستغربا ، والحال هذه ، ان فيرغوسون لا تتبنى وجهة النظر الفلسطينية قط ، ايضا ، حول تصور المقاومة للحل المتمثل في اقامة دولة ديموقراطية علمانية في فلسطين ، وحول اعتبار الصهيونية شرا بحد ذاتها ، نظرا لما تنطوي عليه من عنصرية وغطرسة وفاشية واغتصاب . وهي ، بالفعل ، تبدي اسفها (ص ٩٩) لكون المدارس التي تديرها فصائل المقاومة « تشرب » اولادها « الى حد كبير الافكار المناهضة بعنف للصهيونية » . وكان بود الفلسطيني ان يسأل المؤلفة لماذا تعتبر انه امر يؤسف له ان يشرح لاولاده حقيقة الحركة التي شردته واضطهدته وارادت وتريد ابادته كشعب . لكن فيرغوسون توجه كتابها لابناء الغرب بالدرجة الاولى ، وما يزال الموقف المعادي للصهيونية ولاسرائيل موازيا للاسامية في نظر الكثيرين من ابناء الغرب . لذلك فانها ، كالكثير غيرها من الكتاب الغربيين الذين لم يعودوا مستعدين للقبول بالاراء والاساطير والاكاذيب التي تبثها الدعاوة الصهيونية دون استقصاء وتمحيص وتحليل ، تجتهد اكثر من اللازم لكي لا يبدو انتقادها لبعض اوجه السياسة الاسرائيلية والصهيونية موقفا لاساميا عنصريا .

وهكذا فانها ، اذ تنتقد اسرائيل والصهيونية ، ترى لزاما عليها ان تنتقد ايضا الفلسطينيين والعرب . ولا شك في ان بعض انتقاداتها الموجهة للعرب محقة ولا مجال لنكرانها . فهي تروي بعض الحقائق القاسية والمريرة المتصلة باساءة معاملة النازحين الفلسطينيين في بعض الاقطار العربية والمتعلقة بالاتصالات التجارية والسياسية السرية — التي جرت بين بعض العرب واسرائيل — وبعض هذه الحقائق لم يجرؤ العرب انفسهم على فضحها او اعلانها . الا انها توجه انتقادات اخرى لا يمكن فهمها البتة لعدم استنادها الى اية ادلة او شرح . فهي تقول (ص ٩٢) ان الشقاء البشري الذي قاساه النازحون الفلسطينيون « قد استغل لاغراض سياسية ، احيانا من قبل الفلسطينيين انفسهم ، رغم صعوبة تصديق هذا الامر » . ولكنها لا تقول لنا ماذا تقصد بالضبط ، ولا كيف استغل الفلسطينيون شقاء الفلسطينيين ، كما انها لا تسمي هؤلاء الفلسطينيين ولا تشير اليهم حتى من طرف بعيد . وعلى هذا يبقى الانتقاد مرفوضا ، وغير مفهوم .

كما انها تردد بعض الافكار التقليدية المحببة للغربيين بنوع خاص ، كقولها (ص ٥٥) ان الملك الاردني الراحل عبد الله « برز بوصفه اكثر الزعماء العرب اعتدالا واوسعهم مخيلة ، وهما صفتان مميزتان كانت عائلته دائما تكره على تحمل الالام بسببهما » . ولماذا تعتبره « اكثر الزعماء العرب اعتدالا واوسعهم مخيلة » ؟ لانه اجتمع فعلا بغولدا مئير عام ١٩٤٧ ، يوم تسللت عبر نهر الاردن متخفية في زي امرأة عربية ، ثم عام ١٩٤٨ ، حيث اتفق والزعيمة الصهيونية على ان عدوهما المشترك هو المفتي الحاج امين الحسيني. واذا كان الملك عبد الله هو عنوان الاعتدال والمخيلة الواسعة ، في نظر الكاتبة الغربية ، فمن الطبيعي ان يكون الحاج امين والحسينيون رمزا للتطرف في نظرها ايضا . وواضح انها تعتبره متطرفا لوقوفه موقفا يرفض المساومة والتسوية مع العدو الصهيوني . والحقيقة هي ان الكاتبة لا تفهم ، ولا توضح كفاية ، ان الفلسطينيين والعرب ما كان باستطاعتهم ، ولا من مصلحتهم ، التصرف « كمعتدلين » بمعنى القبول بحل وسط او بالتقسيم ، لا عام ١٩٤٨ ولا اليوم . ويبقى صحيحا القول ان ما تعتبره الكاتبة ، ومن تمثلهم من الغربيين الداعين الى حل وسط ، « اعتدالا » هو في نظر الفلسطينيين خيانة واضحة . وفي الواقع ، تعرب الكاتبة (ص ١٣٣) عن حزنها لكون « الفلسطينيين الاكثر تطرفا سيظلون دوما على الارجح ، في المستقبل المنظور ، في طريق

حل وسط معتدل وتقدمي — على الرغم من حقيقة ان عدة فلسطينيــين اثريــاء سيكونون مستعدين. للقبول بأي حل لاعتبارات انسانية ليس الا » . والغريب انها تقول ذلك رغم اعترافها في الفقرة التالية مباشرة (مع تكرار الشعور بالاسـف) بان « جميع الحلول الممكنة الاخرى تصل الـى مأزق : فهي جميعها تبدو غير عملية لدى دراستها على خلفية الاوضاع السياسية في الاردن واسرائيل، وكلاهما غير مقبول من الفلسطينيين » .

ومع هذا ، فان مما لا ريب فيه ان الكاتبـة تكن عطفا ومحبة واضحين للفلسطينيــين ، مـع التشديد على الناحية الانسانية في القضية بالدرجة الاولى . وفي وصفها لمحنة الفلسطينيين وصمودهم تبلغ احيانا مستوى رفيعا من البلاغة والصدق . فهي تقول في الصفحة ٨٤ : « الفلسطيني فلسطيني ويبقى فلسطينيا — ولا يمكن لاي امتداد من التاريخ او الاستيعاب او الضغط السياسي ابدا ان يجعله اي شيء اخر ، سواء اعيدت فلسطين ام لم تعد، فان فلسطين تحيا بقوة في ذهنه بحيث اضحت هي الحقيقة : وصارت البلدان المضيفة عوالم احلام . ويتذكر الفلسطينيون بيوتهم وممتلكاتهم ومقاعدهـم المفضلة وحقولهم وبيارات برتقالهم جميعها بوضوح وكأنهم تركوها امس فقط . ويتكلم الفلسطينيــون عن الامس والغد وكأنهما الواقع : واليوم هـو الوهم العابر . وهكذا تحافظ العائلات التي تقيـم في المنفى على الذكرى والامـل — سواء كـانت اقامتها في البيئات الوردية الزاهية في عمـان او بيروت ، او في اكواخ النازحين الكئيبة ... » .

وفي الواقع ، يبدو الكتاب بوجه الاجمـال اكثر موضوعية مما اعتدنا توقعه من الكتب الغربية التي تتناول الموضوع نفسه. ولا شك في ان المؤلفة تجرأت ان تقول امورا لا يرضى عنها الصهاينـة ويتطلب قولها شجاعة — ولكن دائما في نطــاق الموضوعية . بل ان « موضوعيتها » تبدو احيانـا غير مسوغة ، كما يحصل عندما تتكلم في الصفحة ١٤٧ ، وهي التي واجهت متاعب جمة في نشر كتابها هذا ، عن تبادل الاتهامات في انكلترا بـين العرب والاسرائيليين حول تحيز الصحـافة ودور النشر البريطانية ! فالكاتبة تكتفي بعرض هـذه الاتهامات المتبادلة ، دون ان تعترف بتحيزالصحافة ودور النشر البريطانية السافر مع اسرائيل وضد العرب .

ويبقى ان نقول ان الكتاب يقع في ١٥٨ صفحة ، وينقسم الى ١٩ فصلا ، مع مقدمة وفهرست وثبت مراجع . ولا يخلو الكتاب ، للاسف ، من عـدة هفوات واخطاء بارزة ، منها : ان الكاتبة تنسب الى حزب حيروت الاسرائيلي (ص ١١٧) قوله ان اسرائيل تمتد « من دجلة الى الفرات » ، وقولها (ص ٩) ان طائرات « الميغ » والهانتر اللبنانية — قصفت مخيمات النازحين في ضواحي بيروت فـي « ايار الاسود » ، وترجمتها (ص ٩٦) لعبـارة « انشاء الله » العربية على انها تعني « انهـا مشيئة الله » . غير ان هذه الهفوات تبقى غـير مهمة بالمقارنة مع حسنات الكتاب . فهو موضوع في لغــة بســيطة واضحة وسلسة . ويظهر صدق المؤلفة وايمانها بما تقوله في كل سطر من اسطر الكتاب .

رجا جورج

التوسع الاسرائيلي — عرض وتحليل مشروعات السلام الاسرائيلي [يونيو ١٩٦٧ — اكتوبر ١٩٧٣] .

اعداد محمد فيصل عبد المنعم وابراهيم كروان — تقديم د. علي الدين هلال (اصدار مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام).

تحدث الدكتور علي الدين هلال في مقدمة الكتاب عن المفهوم الاسرائيلي للسلام ، ولا يتعدى الكتاب ان يكون مجموعة من التصريحات الصادرة عن الجماعات السياسية في اسرائيل على اختلاف اوزانها ، وان كان الكتاب قد اعتبرها مشروعات سلام . ويقع الكتاب في ٦٠ صفحة بالاضافة الى ١٤ خريطة . وينقسم الكتاب الى اربعة اقسام الاول عن الائتلاف الحاكم والثاني عن جاحال والثالث عن قوى الرفض والرابع خاص بالخرائط.

وفيما يتعلق بالقسم الاول الخاص بالائتلاف الحاكم ، بدأ الكتاب بالحديث عن حزب العمل وفي هذا الصدد تعرض لجناح الماباي ، وجناح رافي ، واحدوت هاعفودا ، ومشروع رعنان فايتس ، ووثيقة جاليلي ، ثم تحدث الكتاب عن مشروع السلام الخاص بالمابام وتصريحات مائير يعارى .

وفيما يتعلق بالقسم الثاني الخاص بجاحال ، اورد الكتاب بعض تصريحات مناحم بيجين وعزرا وايزمان ، وبيان حركة العمل من اجل اتمام ارض اسرائيل « في سبيل اسرائيل كاملة » ولم يذكر تاريخ البيان او مصدره ، ثم بيان صادر عن حركة ارض اسرائيل ١٩٦٨ .

وتعرض الكتاب في القسم الثالث الخاص لقوى الرفض لاوري افنيري وذلك بالحديث عن مشروع حركة هاعولام هازيه ، وموقف الحزب الشيوعي الاسرائيلي « راكاح » ، وموقف « سياح » وهي احدى منظمات اليسار الاسرائيلي وموقف الماتسبن وهي المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية .

وفي القسم الرابع اورد الكتاب خرائط عن الاراضي الفلسطينية واللبنانية والسورية والاردنية التي طالبت بها الحركة الصهيونية ، والاراضي التي استولت عليها اسرائيل عقب حرب ١٩٤٨ ، ومشروع ايجال الون للحدود الامنة ومشروع موشيه ديان ، ووثيقة جاليلي ، ومشروع الحزب القومي الديني ، وخريطة جاحال ، والمستعمرات الاسرائيلية في قطاع غزة وشمال سيناء ١٩٦٧ — ١٩٧٣ ، والمستعمرات الاسرائيلية في جنوب سيناء ١٩٦٧ — ١٩٧٣ ، والمستعمرات الاسرائيلية في الضفة الغربية للاردن ١٩٦٧ — ١٩٧٣ ، والمسطح الهيكلي الاسرائيلي للواء القدس الكبرى ، ومدينة القدس الكبرى حسب المخطط الاسرائيلي والمستعمرات الاسرائيلية في المرتفعات السورية ١٩٦٧ — ١٩٧٣ ، وبيان بالمستعمرات الاسرائيلية المقامة في الاراضي العربية ١٩٦٧ — ١٩٧٣ .

ويمكن ابداء الملاحظات التالية :

١ — وصف هذا العمل في المقدمة بانه دراسة ولكن العرض السابق يبين انه ليس دراسة ولكنه تجميع لمجموعة من المعلومات معظمها تصريحات للمسئولين الاسرائيليين .

٢ — تتحدث المقدمة في ص ٧ عن الانطباعات والمفروض في الدراسة ان لا تكون انطباعية ، وتبتعد عن الانطباعات .

٣ — تتحدث المقدمة عن ارتباط السلام بالحرية والعدالة ، ومعروف ان هذه مفاهيم نسبية يختلف عليها وعلى سبيل المثال فان الحرية والعدالة بالنسبة للفلسطيني تختلف عن الحرية والعدالة بالنسبة للصهيوني وذلك فيما يتعلق بمفهوم الحرية والعدالة تجاه الوطن .

٤ — اعتمد هذا العمل في كثير من الاحيان على المصادر غير الاساسية وعلى سبيل المثال فانه لم ينقل عرض جولدا مائير الخاص بالسلام عن المصدر الاصلي ولكن نقله عن تقرير لليلى القاضي حول مشاريع التسوية السلمية للنزاع العربي الاسرائيلي ، كما انه لم ينقل مشروع ديان عن المصدر الاصلي . اي ان الظاهرة السائدة هي النقل من المصادر غير الاصلية والاعتماد كثيرا على المصادر العربية كبعض المقالات في مجلة شؤون فلسطينية او نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية وبعض النشرات التي تصدرها مؤسسات عربية . وكان الاجدر اللجوء الى المصادر الاصلية .

٥ — كان من الافضل الاستعانة بخبراء في

التوثيق لان العمل ذو جوانب توثيقية في المقام الاول وهذا لم يتم .

٦ — يخلط هذا العمل بين مشروعات السلام والتصريحات ، فأحيانا يأتي بتصريحات على انها مشروعات للسلام مثل ما ورد عن مشروع السلام الخاص بجولدا مائير وبالرجوع اليه تبين انـــه مجموعة تصريحـــات منقولة عن مصادر غــير اساسية .

٧ — عنوان هـــذا العمل هو « التوســـع الاسرائيلي — عرض وتحليل مشروعات الســـلام الاسرائيلي » [يونيه ١٩٦٧ — اكتوبر ١٩٧٣] وبالرجوع الى الكتاب يتبين ان هذا العمل لا يتمشى مع العنوان اذ انه لا يوجد تحليل على الاطـــلاق والموجود هو سرد وصفي ونادرا ما يوجد مشروع للسلام بمعنى هذا المفهوم الذي يقتضي وجود نص مشروع السلام ، ولكن الموجود هو اساسامجموعة من التصريحات لذلك فان العنوان المــلائم هـــو « بعض تصريحات المسئولين الاسرائيليين الخاصة بالتوسع » .

٨ — لا تعد هذه الدراسة تجميعا شبه كـــامل للتصريحات الاسرائيلية التي وصفت حيفا بانهـــا « مشروعات سلام » ، وقد اعترف بذلك فـــي المقدمة .

٩ — اورد الكتاب بيان ابيان في الامم المتحدة ضمن التصريحات الخاصة بجناح المباي الداخل في حزب العمل ، وهذا غير صحيح ، لان هذا بيان سياسي يعبر عن سياسة اسرائيل كدولة عضو في الامم المتحدة ويلاحظ ان هذا البيان نقل من ليلى القاضي — تقرير حول مشاريع التسوية السلمية للنزاع العربي الاسرائيلي الذي نشر في مجلـــة شؤون فلسطينية ، وكان من الافضل الرجوع الى المصدر الاصلي كنص رسمي صادر عن مصـــدر اسرائيلي مسئول او من خلال سجـــلات الامـــم المتحدة .

١٠ — عندما اورد الكتاب وثيقة جاليلي نقلا من نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ص‌ص ٣٣ — ٣٤ ، لم يوضح لنا اسباب تسميتها بهذا الاسم ، وذلك تكملة للعمل الذي بذل في هذا الصدد .

١١ — الخرائط الواردة في نهاية الكتاب مفيدة ولكن لم يذكر المصدر ولو كان مصدرها ما يطلـــق عليه البعض « سري » ولم يتيسر الرجوع الـــى مصدر غير سري ، فهناك خرائط وردت في كثـــير من المصادر وكان من الاجدى ذكرها ، لا سيمـــا اننا في عصر تغير فيه ما يسمى بالسرية ، واصبح من السهل معرفة كثير من الحقائق ونشرها .

ان الملاحظات السابق ذكرها تبين اننا نسعـــى للكمال ، وهذا لا يقلل من اهمية الكتاب باعتبـــاره مصدرا مفيدا لصانع القرار السياسي يبين اهمية العمل العلمي في اتخاذ القـــرارات ، ويبدو ان الكتاب قد اعد في عجالة ليتيسر الاستفادة منـــه ، مما يبين ان الاعمال القادمة ستكون اكثر شمـــولا وفائدة .

وفي النهاية اننا نهنىء مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام بهذا الكتاب وتأمل ان يكون بداية الابحاث ودراسات اخرى عن نفس الموضوع، كما تصدر الجهد الذي بذله السيدان محمد فيصل عبد المنعم وابراهيم كروان في اعداد هذا الكتاب الذي يعد عملا مفيدا من الدرجة الاولى في هـــذه المرحلة من مراحـــل تطـــور الصـــراع العربـــي الاسرائيلي ، كما نهنىء زميلنا الدكتور علي الدين هلال على هذه المقدمة القصيرة التي تحتوي على جوانب مفيدة ، لا سيما ان الذين اشتركوا فـــي الاعداد والتقديم يعدون من الاعلام البارزة في مجال الدراسات السياسية والعسكرية التي تصـــدر عن مؤسسة الاهرام .

محمد علي العويني

اللواء حسن البدري ، واللواء طه المجذوب ، والعميد أ.ح. ضياء الدين زهدي ،
حرب رمضان : الجولة العربية الاسرائيلية الرابعة ، اكتوبر ١٩٧٣
(الشركة المتحدة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٤) .

كانت حرب ١٩٦٧ حربا اسرائيلية ، بقرارها ، وبدايتها ، وادارة عملياتها ، والنتائج المترتبة عليهـا . لذا كان من الطبيعي ان تكون الكتب التي صدرت حولها في اسرائيل كثيرة متعددة الاشكال (دراسات عسكرية ، دراسات سياسية ، البومات صور .. الخ) . ولقد ظهر في اسرائيل بعد الحرب مباشرة أعداد كبيرة من هـذه الكتب ، كما كتب الغربيون ، المبهورون بالانتصار الاسرائيلي ، العديد من الكتب التي استقوا معلوماتها مـن مصـادر اسرائيلية ، اذ كانت المصادر العربية صامتة . ولم ينته عام ١٩٦٧ حتى كانت المكتبات العالمية مليئة بعشرات الكتب الغربية والاسرائيلية التي تمجـد بطولة الجيش الاسرائيلي ، وتحلل الاسباب المعنوية والتنظيمية والتكنولوجية التي جعلته قادرا على تحقيق نصر مدهش وحاسم في فترة زمنية أذهلت العالم بقصرها .

وصمت العرب . ولم يصدر في سنوات ما بعد الحرب أي كتاب عسكري قيم يمكن للقارىء ان يفيد منه ، ولو لم تصدر المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت كتاب العميد الركن حسن مصطفى « حرب حزيران ١٩٦٧ ، ج١ الجبهة المصرية ، ج٢ الجبهة الشرقية » بعد اكثر من خمس سنوات من اندلاع الحرب ، لما كان في المكتبة العربية اي مرجع رصين عن الحـرب الثالثة . ولكان على القارىء العربي أن يكتفي بالغث من الكتب ، أو أن يحاول اكتشاف الحقائق مـن بين آلاف الاكاذيب المسطرة في الكتب الاجنبية .

وكان الكثير من النقاد العسكريين يبرر هـذا الصمت . فالحرب اسرائيلية مائة في المائة ، وليس لدى العرب ما يقولونه عنها . ولكن هؤلاء النقاد أنفسهم عاجزون اليوم ، وبعد مرور عام على اندلاع حرب ١٩٧٣ ، عن تبرير عدم ظهور كتب عسكرية حولهـا ، مـع انها كانت حربـا عربيـة في قرارها وبدايتها ، وكانت عربية الى حد مـا في نتائجها ، وكانت بمجملها اول حرب عربية منذ اندلاع الصراع العربي — الاسرائيلي .

لقد اغرقت الاسواق العربية بعـد وقف القتال مباشرة عشرات الكتب . ولكن نظرة علمية جادة اليها تدلنا على ان بوسعنا تقسيمها الى فئتين : فئة تمثل محاولة اوليـة وسريعة لتلمس بعض حقائق الحرب وتقديمها الى القارىء بشكل مبسط وغير تكاملي (مثل كتاب النهار ، وكتاب الشرارة الصادر عن دار الصياد وكتاب عن قصص المعارك في حرب تشرين التحريرية الصادر عن قيادة الجيش السوري ، ١٩٧٤) ، وفئـة تمثل محـاولة تجارية بحتة ، تستهدف تحقيق الربح السريع ، عن طريق تقديم « أي شيء » مهما كانت قيمته ، للقارىء العربي المتعطش للمعرفة . واذا كانت الفئة الاولى تقدم جزءا من الحقيقة فقط ، فان الفئة الثانية تسيء الى الحقيقة ، ولا تخدم سوى ناشرها ، ولا ترتفع الى مستوى الحدث الكبير الذي يمثل صفحة من أروع صفحات التاريخ العربي الحديث ، ان لم تكن أروعها على الاطلاق .

ولولا ظهور كتب عربية رصينة عن الحـرب مثل : « حرب رمضان » الذي صدر عن الشركة المتحدة للنشر والتوزيع في القاهرة مع مطلع عام ١٩٧٤ ، و« العرب في الحاضر » الذي كتبه الكاتب المصري محمود حسين بالفرنسية ، وأصدره فـي باريس في أيـار ١٩٧٤ ، ثم قامت دار الطليعة البيروتيـة بترجمته ونشـره في حزيران ١٩٧٤ ، و « عادت القنيطرة » الذي كتبه عدنان ملوحي ونشرته دار احياء العلوم ، بيروت ، ١٩٧٤ ، و « حرب اكتوبر » الصادر عن المركز القـومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ومركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، الاهرام ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، و « أبطال الطيران » بقلم العقيد الطيار علي زيكوه والصادر عن الهيئة المصرية العـامة للكتاب ، القاهرة ، لبقي القراء العرب ضائعين بين محاولات التلمس ، وصفقات التجار .

ويتسم كتاب « حـرب رمضان » بأنه صورة مأخوذة عن الواقع . فلقد كتبه ثلاثة ضباط كبار شاركوا في الحرب الرابعة وعاشوا أحداثها ، ثم قابلوا عددا من الضباط والجنود ليأخذوا منهـم التفاصيل الدقيقة والشهادات الحية ، وأفادوا من

المعلومات المتوفرة في بعض المؤسسات والهيئات العلمية المصرية ، مثل : ادارة البحوث الفنية برئاسة الجمهورية ، وأكاديمية ناصر العسكرية العليا ، ومكتب عمليات القيادة العامة الاتحادية ، ومركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، والمركز القومي للبحوث الجنائية والاجتماعية فخرج كتابهم جامعا للمعلومات النظرية والحقائق العملية. ولقد قدم للكتاب الرئيس محمد أنور السادات ، ووزير الحربية المصري المشير احمد اسماعيل علي، فأضفيا عليه بذلك طابعا شبه رسمي .

« السلام بالحرب » هكذا يبدأ الفصل الاول من الكتاب ، ملخصا بكلمتين الهدف العربي الاساسي لهذه الحرب ، انه **السعي لتحقيق السلام العادل بقوة السلاح بعد ان فشلت كافة السبل السياسية والدبلوماسية في ذلك**، واصطدمت بتعنت اسرائيل، ورفضها لكل الحلول والمبادرات ، واصرارها على حل وحيد هو **السلام الاسرائيلي** . والحقيقة ان المناورة السياسية الخارجية العربية بعد الحرب الثالثة كانت انجح بكثير من المناورة السياسية الخارجية الاسرائيلية . فلقد استطاع العرب بفضل مواقفهم السياسية المنطقية ، واعتمادهم على فكرة سياسية مقبولة، اكتساب تأييد العالم وعزل اسرائيل عن حلفائها السابقين ، على حين حجب الانتصار الحقائق عن الاسرائيليين ، وحرمهم من وضوح الرؤية ، ودفعهم الى السير على سبيل سياسي مسدود ، انتهى بهم الى العزلة الدولية التامة ، وحرمهم من امكانية شن هجوم اجهاضي مسبق ، ولم يترك لهم عند اندلاع القتال سوى حليف واحد هو الولايات المتحدة .

ولقد بنى القادة الاسرائيليون موقفهم السياسي على منطلقات خاطئة : ١) عجز العرب عن شن الحرب واصابتهم بالردع والتفكك ، ٢) التفوق التكنولوجي الاسرائيلي ، ٣) عدم رغبة الاتحاد السوفياتي في مساعدة مصر بعد خروج الخبراء في تموز ١٩٧٢ ، ٤) عدم رغبة السوفيات في دعم العرب بشكل يضايق الولايات المتحدة ويدفع الكونغرس الاميركي الى عدم الموافقة على بيع المواد الغذائية او تقديم المساعدة التكنولوجية والمالية اللازمة لتطوير الاقتصاد السوفياتي ، ٥) عدم فاعلية سلاح النفط ، وعجز العرب عن استخدامه .

وكان الموقف الاسرائيلي يتمثل في المماطلة والرفض ، والابقاء على حالة «اللاحرب واللاسلم»، وخلق قوة مسلحة رادعة تتم تحت مظلتها عملية الضم الزاحف وفرض الامر الواقع في المناطق المحتلة ، وطرح حلول سلمية بشروط تعجيزية يرفضها العرب ، واعتبار الوضع الراهن المستند الى حدود آمنة بديلا لاي سلام .

ويمكن القول ، ان المواقف السياسية التي وتبنتها الدول العربية منذ حرب ١٩٦٧ كانت رغم طابعها السلمي جزءا من الاعداد للحرب . فلقد أقنعت العالم كله بعدالة المقولة السياسية العربية « ازالة آثار العدوان » ، وبرهنت على ان العسكرية الاسرائيلية الثملة بنشوة الانتصار هي حجر العثرة الوحيد أمام السلام العادل في هذه المنطقة الحساسة من العالم . ويذكر الكتاب « ان حرب رمضان وان نشبت في اكتوبر ١٩٧٣ ، الا ان بدايتها لم تقع في السادس من ذلك الشهر ، بل سبقته بأكثر من ست سنوات » (ص ١٧) .

والى جانب هذا الاعداد السياسي فقد قامت مصر وسورية باعداد عسكري دؤوب ، لاعادة بناء قواتها المسلحة ، وشارك السوفيات في هذه العملية مشاركة جدية ، وكانت المساعدات الاقتصادية العربية عاملا مساعدا وضروريا — وان يكن غير كاف — لبناء القوات المسلحة العصرية ، واعادة تدريبها وتزويدها بأحدث الاسلحة ، خاصة وان الجهد الذي بذلته مصر وسورية في هذه العملية كان يتجاوز امكاناتهما الاقتصادية، ويحد من قدرتهما على التنمية ، ويفرض على شعبيهما ظروفا حياتية وانمائية قاسية .

ولم يكن بوسع القادة المصريين والسوريين القبول ببقاء حالة « اللاحرب واللاسلم » التي تستغلها اسرائيل ، وكان لا بد من تحطيم هذه الحالة ، ولقد قام الرئيس الراحل جمال عبدالناصر بتقديم المثل خلال حرب الاستنزاف (١٩٦٩ — ١٩٧٠) . وكان امام القيادتين المصرية والسورية احتمالان : الاعداد لحرب استنزاف مماثلة لحرب الاستنزاف السابقة ، او تحطيم الجمود العام بخرق « الحدود الامنة » الاسرائيلية والتقدم مسافة محددة داخل الارض المحتلة ، وتدمير القوات الاسرائيلية المتمركزة فيها ، وفرض حقائق جديدة تجبر العالم على التدخل . وكان القرار المتخذ هو

تطبيق الحل الثاني . ويمكن اعتبار القرار بحد ذاته نقطة تحول في الصراع العربي — الاسرائيلي ، فهو أول قرار هجومي تتخذه القيادة العربية منذ حرب ١٩٤٨ . ولم يكن بوسع هذه القيادة اتخاذه لو لم تكن قد امنت ربح المناورة السياسية الخارجية .

ويذكر الكتاب التدابير المتعددة التي اتخذتهـا القيادة العربية لخلـق الظروف اللازمة للنجـاح (الاعداد المادي والمعنوي للقوات ، التدريب على العبور مع خرق التحصينات ، التدريب على صد الهجمات المعاكسة المدرعة بوحدات المشاة المجهزة بأسلحة مضادة ، الاستعداد لاحباط هجمات الطيران المعادي بشبكة صواريخ ارض — جو ، الاعداد الهندسي لمسرح العمليات ، خداع العدو ، التنسيق بين الجبهتين) ثم يذكر التدابير التي استخدمت لتحقيق المفاجأة ، والتي ساعدت على نجاحها أوهام الاسرائيليين وتناعاتهم بعدم قدرة العرب على اتخاذ قرار القتال ، وعجزهم عن خوض المعركة الحديثة في حالة اتخاذ مثل هذا القرار . كما يذكر الكتاب التدابير التي طبقت لاختيار يوم وساعة العبـور بشكل علمي وفق أنسب ظروف الارصاد الجوية والاحوال الجومائية والهيدروغرافية .

وينتقل المؤلفون بعد ذلك الى معركة العبور ، فيسهبون في وصف اقتحام قناة السويس والاستيلاء على رؤوس الجسـور وتعزيزها وصد الهجمـات المعاكسة التكتيكية المعادية . ويذكـرون خلال الوصف مهمات الطيران ، والمدفعية ، والمشاة ، والمهندسين ، ووحدات الصواريخ المضادة للطائرات والمضادة للدبابات ، وقوات الصاعقة . ثم يتحدثون عن المرحلة الثانية « تطوير الهجوم شرقا وتوقفه ». ويذكرون أن هذا التطوير تم « لتخفيف الضغط على القوات السورية » (ص ١٤٦) وانه جرى في وقت سابق للوقت المخطط له بغية اجبار العدو على سحب قواته من الجبهة السورية ، ونقل جزء من جهده الى الجبهة الجنوبية .

والحقيقة أن العدو الاسرائيلي الذي فشل في الايام الاولى في تطهير رؤوس الجسور المصرية ، ركز قواته الجوية على الجبهة السورية ، ودفع جزءا كبيرا من احتياطاته نحو هذه الجبهة نظرا لخطورتها ، واندفاع القوات السورية فيها بشكل يهدد المناطق الحيوية والاهلة بالسكان في سهلي الحولة وطبرية ، ولقد استطاع الاسرائيليون تحقيق بعض النجاح على هذه الجبهة ، ولكنهم فشلوا في حسم المعركة . وعندما طور المصريون هجومهم نحو الشرق اضطرت القيادة المعادية الى سحب جزء من قواتها البرية ودفعها نحو الجنوب ، وتركيز جهد القوات الجوية على الجبهة المصرية ، ولكن قيامها بهذا العمل قبل حسم الموقف على الجبهة السورية، ووصول الوحدات العراقية الى سورية، واعادة تسليح الجيش السوري بواسطـة الجسر الجوي السوفياتي ، جعلها عاجزة عـن اجراء الحشد الكامل ضد المصريين ، واجبرها علـى الاحتفاظ بقسم كبير من قواتها في الشمال لتأمين توازن الجبهة ، والوقوف في وجه اي هجوم عربي تشنه القوات السورية — العراقيـة . واخيرا ينتقل المؤلفون الى معارك الدبابات على الضفـة الشرقية للقناة (١٥ — ١٧ تشرين الاول) وثغرة الدفرسوار (١٦ — ٢٢ تشرين الاول) وتوسيع الثغرة من قبل الاسرائيليين بعد قرار وقف القتال (٢٣ — ٢٨ تشرين الاول) وبطولة القوات المصرية — المغربية المدافعة عن مدينتي السويس والادبية ودورها في منع العدو من توسيع نطاق الجيب او احتلال مدينة السويس .

ويخصص الكتاب فصولا خاصة لقوات الدفاع الجوي وغابة الصواريخ التي اكتسبت شهرة كبيرة في هذه الحرب ، وجردت الطيران الاسرائيلي من حرية العمل ، وللقوات الجوية التي قامت بعمليات هجومية — دفاعية وغطت القوات المقاتلة علـى مسارح العمليات ، والقوات البحرية التي قامت بواجبها رغم سيطرة العدو الجوية ، ونفذت مهمة الخنق الاستراتيجي عند مضيق باب المندب ، واثبتت « ان مبررات اسرائيل في التمسك بمنطقة شـرم الشيخ واهية مثل خيط العنكبوت » (ص ٢٣٨).

وفي نهاية الكتـاب فصل خاص عـن الصراع السياسي (من ١٧ تشرين الاول ١٩٧٣ الـى ٢٥ كانون الثاني ١٩٧٤) وهي الفترة التي قامت بها الحكومة المصرية بجهود سياسية بدأت عندما القى الرئيس انور السادات خطابه خلال القتال، وانتهت مع توقيع اتفاق فصل القوات . وتقول مقدمة هذا الفصل « ان الجهود السياسية التي بدأت اثناء القتال ، وفي اعقاب توقفه ، في محاولات متعاقبة ومكثفة لتهدئة الموقف وتهيئة المناخ المناسب لحل

الازمة سياسيا ، هذه الجهود لم تبدأ من فراغ . ولكنها كانت انعكاسا طبيعيا وضروريا لحقائق الموقف العسكري في جبهتي القناة والجولان ، والموقف السياسي العام » (ص ٢٤٣) .

وبالرغم من غزارة المعلومات والدروس التي يقدمها الكتاب ، وبالرغم من شرحه المسهب لسير المعارك الحربية ، وميكانيكية العلاقة الجدلية بين الحرب والسلام ، فان فيه اكثر من خلل يفقده بعض أهميته .

وبتمثل **الخلل الاول** في الاسلوب العاطفي الذي استخدمه المؤلفون عند الكتابة ، وضعف التحليل العسكري ، والاكتفاء بسرد الاحداث كما وقعت ، وعدم التوثيق حتى في حالة اقتباس جمل او استشهادات . ولا تشمل ملاحظة التوثيق الباب السابع « وتحطمت الاسطورة بعد الظهر » فهو موثق بشكل مخالف لكل أبواب الكتاب .

أما **الخلل الثاني** فهو عدم التطرق الى موازين القوى خلال كل مرحلة من مراحل القتال ، ومن المعروف عسكريا ان موازين القوى هي التي تحدد حجم النصر او الهزيمة ، وتفقد الانتصار في بعض الحالات كل اهميته (اذا كان تفوق المنتصر ساحقا) وتعطي الفشل بعض المبررات اذا كان ميزان القوى مختلا الى درجة لا تسمح بالصمود دفاعيا او تحقيق الخرق هجوميا ، او استثمار الفشل عند المطاردة.

ويأتي **الخلل الثالث** من عدم التوسع في توضيح الدور الفعلي الذي قامت بـه القوات العربية المشاركة في القتال ، وابراز اهمية حركتها الاستراتيجية من العمق الاستراتيجي البعيد الى مسارح العمليات .

والخلل الاخير ، والاكبر برأينا ، هو ان اسم الكتاب اكبر من مضمونه . ان عنوان « حرب رمضان ، الجولة العربية ـ الاسرائيلية الرابعة ، اكتوبر ١٩٧٣» يشمل منطقيا كل الجوانب العسكرية للحرب على الجبهات الشمالية والجنوبية والجبهة الثالثة التي فتحتها الثورة الفلسطينية وراء خطوط العدو . ولكن الكتاب الذي يتحدث باسهاب عن خط بارليف واقتحامه ، والحرب في سيناء، لا يتطرق الى الجبهتين الشمالية والثالثة الا عرضا وبجمل مسهبة خلال الحديث ، مع ان دور الجبهة الشمالية في الحرب لا يحتاج الى برهان، كما ان الاسرائيليين انفسهم اعترفوا ، على لسان معلقهم العسكري الجنرال الاحتياطي حاييم هرتسوغ ، بأهمية الجبهة الثالثة وقدرتها على تخريب مؤخرات العدو لو ان الحرب امتدت فترة اكبر من الزمن ، ولقد كان بوسع المؤلفين ان يتجاوزوا هذا الخلل لو انهم جعلوا عنوان الكتاب « حرب رمضان على الجبهة المصرية » لانه العنوان الوحيد الذي يؤمن تطابق الشكل مع المضمون .

هـ . أ .

تقريران

[١]
الغرب بعد حرب تشرين الاول

حرب السادس من تشرين خلفت بصمات منقوشة بعمق على خارطة مستقبل العالم الصناعي الغربي . هذا العالم المتمثل بحلف الاطلسي والمنظمة الاقتصادية الاوروبية كان الى ما قبل تشرين عالم التحكم بعملات العالم ، باسواقه ، بتجارته ، باسعار البضائع الصادرة منه والواردة اليه . غير ذلك كان عالم العلاقات المتفوقة والتحكم بالاوضاع الاقتصادية في اجزاء كثيرة من افريقيا واميركا اللاتينية وغرب آسيا ، بفضل نفوذ شركاته الكبرى التي تستخرج وتستولي على نسب عالية من خامات الاقطار النامية وبفضل تقدم التكنولوجيا فيه مما جعله مصدر الانتاج الرئيسي لسلع استهلاكية كثيرة في العالم يقرر اسعارها على هواه وحسب مشيئته . وما كان هذا العالم حتى تشرين ليحجم عن اتباع اي اسلوب عمل يحفظ له تسلطه الاقتصادي على الشطر الاخر من العالم ، وما كان ليتردد في سبيل ذلك عن الاخذ بكل اساليب الضغط بما فيها « الابتزاز » . فلكم حرم على تلك الدول ناتجاته من الالات والاسلحة والحبوب الا بشروط . ولكم حرم عليها الخبرة العلمية الا بشروط . ولكم منع منها المساعدات المالية والاقتصادية الا بشروط .

ولقد ساعد عالم الغرب على الوصول الى تفوقه العلمي والصناعي حصوله على ما يحتاج اليه من وقود ومواد خام من العالم النامي بأبخس الاسعار . ان وصوله الى مجتمعات الرفاه ، تحقق في المقام الاول بفضل حصوله على طاقة رخيصة .

الان وقد شحت الطاقة وارتفع سعر الوقود بارتفاع سعر البترول اولا وبنقص ما يصل للغرب منه ثانيا ، صار هذا العالم يواجه احرج ازماته منذ الثلاثينات من هذا القرن . ذلك ان امورا كثيرة وخطيرة اصبحت تترتب على هذا الواقع الجديد.واغلب الظن ان يتعرض هذا العالم لهزات اجتماعية عنيفة وربما لتغيرات اجتماعية جذرية . فاذا ما انخفض الانتاج الصناعي في اقطار العالم الصناعي نتيجة الانخفاض نسبة الطاقة المتوفرة لديه ، فان مسلسلا كاملا من الاحداث الاجتماعية والاقتصادية لا بد ان يعقب ذلك . البطالة في صفوف الطبقة العاملة لا بد ان يتسع مداها . القوة الشرائية ستضعف والدخل الحكومي من الضرائب التي تحصل عليها الحكومات من الشركات ومن المبيعات ومن اجور الناس سيقل ، فينبثق عن ذلك ركود اقتصادي ما يلبث ان يؤدي الى ارتجاج في البنيان الاقتصادي والاجتماعي في الاقطار الصناعية والرأسمالية .

وكان المسؤولون في اوروبا الغربية واليابان يدركون عند اتخاذ القرار العربي بتخفيض انتاج البترول ، والقرارات الاخرى التي اتخذتها معظم الدول المصدرة للبترول برفع اسعاره ، ان هذه القرارات آتية يوما ما ، وان ما فعلته حرب حزيران ليس سوى تقريب الموعد . ومن شدة وقع تلك القرارات على الدول الصناعية ، وفي مقدمتها فرنسا وانجلترا والنمسا وايطاليا وبلجيكا واليابان راحت تسعى وبكل سرعة الى ارضاء العرب . كذلك راحت بعض منها تسخر هذه التطورات للوصول الى اهداف استراتيجية اوروبية مهمة ، مثل ترسيخ جذور الانفصال عن الولايات المتحدة الامريكية ، في سبيل التخلص من تسلطها السياسي والاقتصادي على اوروبا الغربية ، ومثل توطيد اقدام الاقتصاد الاوروبي لكي لا يظل تابعا لاقتصاد الولايات المتحدة ، تقرر له اميركا

نترات ركوده وانتعاشه على عواها . ومنهـــا التحرر من « عبودية » حلـــف الاطلسي الـــذي اصبحت اميركا لوحدها فيه اقوى من كل حلفائها معا . وكانت المناسبة الرائعة التي انتظرتها بعض دول العالم الصناعي لتحقيق هذه الاهداف ، حرب تشرين بالذات حينما قررت الحكومة الاميركية نيابة عن الحلف ودون الحصول على رأيه وموافقتـــه مساعدة اسرائيل بكل الوسائل بما في ذلك نقـــل العتاد الحربي اليها من مستودعات اميركا الحربية في الاقطار الاوروبية ، واعلان حالة التأهب الذري ووضع العالم كله على حافة الدمار التام . يضاف الى ذلك ان دولا غربية كثيرة اصبحت عاجزة عن تنفيذ برامجها الاجتماعية والاقتصادية داخل اقطارها لان شركات الاحتكار الضخمة فيها التي اصبحـــت اقوى من الحكومات نتيجـــة لسياسة الاندمـــاج الرأسمالي بين اميركا واوروبا وسياسة التداخل الاقتصادي الذي فرضته برامج المنظمة الاقتصادية الاوروبية ... هذه الشركات وعلى رأسها شركات البترول العملاقة تملك من النفوذ ما جعلها تفرض ارادتها على الحكومات سواء كـــانت اشتراكيـــة الميول او رأسمالية الاتجاه . الحكومات الغربيـــة التي كانت تنتظر مناسبة لقص اجنحة الشركـــات الاحتكارية ، وجدت ضالتها في حرب تشرين وراحت باسم الازمة الاقتصادية المرتقبة تطالب بصلاحيات اضافية وسلطات طوارىء . اكثـــر من ذلك ان الوضع السيء الذي قبض بيد حديدية على عنـــق الانظمة الديمقراطية البرجوازية ، اخذ ولاول مرة يقلب الموازين والاساليب التي تعود عليها الساسة « الديموقـــراطيون » . فاذا كانـــوا دائما يلعبون ورقة استغلال نقاط الضعف عند الانسان العـــادي فلا يقولون له سوى ما يحب سماعه ، اصبحـــوا الان يواجهونه بصراحة لم يكن يعهدها فيهم ، على اساس ان الوضع لا يحتمل المواربة او التمويه. وفي كل قطر اوروبي ، ظهر رئيس الوزراء في بضعة اشهر على التلفزيون اكثر مما ظهر في سنوات ، ليقول للناس بلهجة حزينة وصوت عميق وبخطـــوط الارهاق المحفورة على وجنتيه ، ان بلاده تنتظرها ايام عسيرة وان التقشف والبطالـــة يقفان لهـــا بالمرصاد وان على الشعب ان يصمد ويتعـــاون ويضحي في سبيل تفويت الفرصة على الهـــزات الاقتصادية المتوقعة .

في طبيعة الحال ، اشياء كثيرة اخرى كـــانت ضمن حلقات هذا المسلسل الخطير . منها ان دولا غربية كانت تعاني من بوادر الازمات الاقتصاديـــة قبل تشرين ولا تجد الشجاعة لاطلاع الناس علـــى الحقائق .. سارعت الى الاستفادة من حـــرب تشرين وقرارات الدول المنتجة للبترول بالحد مـــن انتاجه ورفع سعره ، لتحويـــل مسؤوليتها عـــن تدهور الاقتصاد في اقطارها الى تلك القرارات ومن اصدر تلك القرارات . منها ايضا قضية المساعدات للاقطار النامية . فالمساعـــدات كانت حتـــى الان وسيلة اخرى من وسائل الضغط على حكومـــات الاقطار النامية والاستغلال والاستثمار المالي فيها. وعندما استقر في وعي الحكومات الغربية ان الدول النامية نتيجة لحرب تشرين اصبحت تبحث عن طرق اخرى للحصول على المساعدات تعتمد على توثيق وتصعيد التعاون فيما بينها ، راحت تفكر في عمليات انقاذ سريعة لكي يكون لها فيما ستؤول اليه الامور نصيب . من تلك العمليات ، النظر في امكانيـــات فتح ابواب السوق الاوروبية المشتركة للـــدول الافريقية دون قيود كثيرة ، والموافقة على بيـــع الاسلحة ، والتبرع باستثمارات مالية جديدة مجردة من القيود تماما . واخيرا ، هناك مسألة مـــا يتوقعه نفر ليس بقليل من مفكري الغرب بصـــدد التغيرات التي ستطـــرأ علـــى الاساس الفكـــري والعقائدي لاقطار الديمقراطية الرأسمالية . ففي هذا المجال يرى هؤلاء المفكرون ان نقص الطاقـــة في عالم رأس المال معناه اهتزاز كل المبـــادىء والقيم التي تقوم عليها تلك المجتمعات .

اذن ، ليس بالامر البسيط ما احدثته حـــرب تشرين على المستوى الاوروبي والعالمي . وليس من الممكن وهذا هو الحال ، ان يقف اعداء العرب مكتوفي الايدي وهم يرون العرب يلوحون بايديهـــم في وجه العالم الصناعي الغربي ، بقوة وتصميم ، منذرينه بضرورة التعقل والكـــف عـــن مساعـــدة اسرائيل والبحث عن حلول عادلة منصفة لقضايا الشرق الاوسط . لقد جن جنون هؤلاء وحـــاولوا اول الامر وبكل وسائلهم الشيطانية ايهام العالـــم الغربي بان العرب لا يملكون اسلحة قوية ضده ولا ضد اسرائيل. فلما فشلوا في ذلك راحوا يستعملون كلمة « ابتزاز » بمناسبة وغير مناسبة . فلمـــا فشلوا في ذلك ايضا ، راحوا يهددون بالاحتـــلال

العسكري للاقطار العربية المنتجة للبترول . وفي هذا الشأن فشلوا ايضا فشلا ذريعا .

قالت صحيفة الصنداي تايمز البريطانية يوم ٢٥ تشرين الثاني من العام الفائت ، ردا على صرخات الاستفزاز الصهيونية « ان استعمال كلمة ابتزاز في وصف القرارات العربية ، يتصاعد بدون سبب معقول . واذا قررنا اتهام العرب بالابتزاز يكون لزاما علينا اتهام كل دولة تلجأ الى الضغط لحماية مصالحها لدى دولة اخرى بالابتزاز . ولان هذا كان موقف الحكومات دائما وابدا على مدى التاريخ ، فمن العبث الان محاولة الصاق هذه التهمة بالعرب من دون شعوب الارض جميعا . وكل ما يميز الاجراءات العربية عن غيرها ، انها قادرة على اصابة الخصوم بالشلل الكلي » . والكاتبان الاميركيان ايفانز ونوفاك ، قالا في مقالة عنوانها « حقائق باردة وراء ضغط البترول » في عدد ٢٨ تشرين الثاني من صحيفة الهرالد تريبيون الاميركية « من السخف اطلاق صرخة الابتزاز لان الدول العربية استعملت ، وبعد تردد طويل ، الاداة الوحيدة التي تحقق قوتها الوطنية . وكل دولة ، بما فيها نحن ، استعملنا ادوات قوتنا الوطنية للوصول الى اغراضنا . ولسنا نعتقد ان الاميركيين من النبلاء بحيث يحرمون على العرب حق استعمال اداتهم الوحيدة التي تعبر عن قوتهم الوطنية بعد ان زودت اميركا اسرائيل بملايين الدولارات من الاسلحة لاحكام قبضتها على الاراضي العربية » .

اما بصدد الدعوة لاستعمال العنف المسلح ضد اقطار البترول العربية ، من اجل السيطرة على مناطق آبار البترول فيها ، فقد لقيت هذه الدعوة الحمقاء ادانة واسعة النطاق من الصحف ومن كبار رجال الرأي الغربيين ، بحيث تم وأدها ساعة ظهورها . قال هانس أدولف جاكوبسون رئيس قسم العلوم السياسية في جامعة بون الالمانية « هدفنا الاساسي الان ، هو محاولة حل الازمة سياسيا ، بحيث تستبعد الحلول العسكرية بصورة تامة » . وقال اركول جرازيادي ، كاتب ورجل قضاء من سكان روما « الحرب ؟ بأسلحة من نشن الحرب وبأموال من ؟ معنى ذلك فيتنمة الوضع في الشرق الاوسط » . البروفسور الهولندي يان تنبرخن ، استاذ الاقتصاد في جامعة روتردام والحائز على جائزة نوبل عام ١٩٦٩ ، قال « انا ضد التدخل العسكري في كل الحالات . انني اتفهم اسباب استعمال العرب للبترول كسلاح سياسي . نحن كثيرا ما استعملنا اسلحتنا الاقتصادية لخدمة اغراضنا . ان ازمة الطاقة الحالية تجربة اولى في عملية كانت ستحدث قريبا وقبل مضي وقت طويل . وكلما برعنا في ادخال التوفير على استغلال كمية الطاقة التي نملكها ، كلما برعنا في تكييف اقتصادنا على الظروف الجديدة وفي العثور على مصادر طاقة جديدة . فالجواب ليس السلاح ، وانما التكيف الاقتصادي لحل مشكلة طويلة المدى» . وقال البروفسور ساموليسون الاميركي ، والحائز ايضا على جائزة نوبل ، قال في صحيفة النيويورك تايمز الاميركية يوم ٤ كانون الاول عام ١٩٧٣ « ان دول الاوبك ستظل الدول الوحيدة التي تزود العالم بالبترول حتى بعد اقرار معاهدة سلام في الشرق الاوسط . واعتقد جازما ان النار لا تطفأ بالنار » .

وليس خافيا ما حدث بين الولايات المتحدة وحلفائها في حلف الاطلسي من خلافات عميقة بعد حرب اكتوبر . وان كان يبدو على السطح ان سبب الخلاف الرئيسي هو عدم استشارة اميركا لحلفائها عندما اعلنت حالة التأهب الذري ، فان السبب الحقيقي هو استهتار اميركا ، حتى بعد مضي شهر على بدء الحرب ، بالاوضاع الجديدة التي حلت بالعالم نتيجة للانتصار العربي في ميداني الحرب والسياسة بصورة لم يتوقعها احد ونتيجة لنجاح العرب في وضع سلاح النفط موضع التنفيذ . ذلك ان اوروبا الغربية وجدت نفسها في طرفة عين تواجه احتمالات صعبة للغاية ، فاقنعت نفسها موقتا على الاقل بان حل مشكلة الشرق الاوسط بعدل من شأنه خدمة مصالحها اكثر من التحالف العسكري مع اميركا التي تحتل فيه على اية حال مركز التفوق والتسلط . ثم ان العرب استنزفوا على ما يبدو معين صبرهم ، مما حدا باوروبا الغربية الى النظر بجد ورزانة في ما يريده العرب عموما والفلسطينيين بوجه خاص .

والحق ان ازمة الثقة الاميركية الاوروبية او ثورة الاحتجاج والرفض الاوروبية ، على اميركا ، وصلت ابعادا جديدة بعد تشرين . ان دولا اوروبية معينة اصبحت تدرك ان الوقت حان لايجاد نوع من التوازن داخل حلف الاطلسي ، بحيث تكون المجموعة الاوروبية فيه ندا للولايات المتحدة

الاميركية . هذه الدول تعتقد ان الدول المنتمية للمنظمة الاقتصادية الاوروبية صارت تتمتع بقدر من القوة والتضامن يؤهلها للتمتع بلقب اوروبا الحقيقية او اوروبا الواحدة . وبدافع من هذا الاحساس ، فانها ترفض الانجرار وراء الحروب الاميركية التي لا تعرض امنها القومي للخطر . في حين ان اميركا ترى العكس . فهي تعامل الطرف الشرقي لحلف الاطلسي كما لو كان طفلا رضيعا يحتاج لرعاية الام ووصايتها . يوم ٢٩ تشرين الاول من عام ١٩٧٣ قالت صحيفة الغارديان البريطانية « ان حلفاء اميركا الغربيين يحق لهم المشاركة في اتخاذ القرارات ، على الاقل في الحالات التي تعرض العالم للحروب الذرية . ان على الولايات المتحدة ان تدرك ان عمليات حافة الحرب سواء كان لها ما يبررها ام لا ، تهمنا جميعا . اننا نستحق ان ندلي برأينا » . وقال انطون سامسون ، وهو مؤلف انجليزي ، في الاوبزرفور الاميركية يوم السادس من كانون الاول « يكاد كل فرد في واشنطن ان يدرك ان حلف الاطلسي اصبح منذ شهر واحد فقط اضخم مما كان . السبب في ذلك ان ازمة الشرق الاوسط ثبتت وجود طرف الحلف الشرقي . لقد كان الشرق الاوسط منذ الخمسينات عاملا مؤثرا في السياسة الاوروبية الخارجية وحافزا فعالا في اتحاد الاوروبيين . والواقع ان حرب ٥٦ خلقت الوحدة الاوروبية وحرب ٧٣ دعمتها » . وقال ارنولد توينبي في الاهرام بتاريخ ٧ كانون الاول عام ١٩٧٣ « ان ارتباط اوروبا بالسياسة الاميركية بشكل مخاطرة غير مقبولة . في الخامس والعشرين من تشرين الاول استخدمت الولايات المتحدة بعض قواعدها العسكرية في اوروبا في عملية لا صلة لها بالهدف الذي من اجله وضعت القواعد الاوروبية تحت تصرفها . ومع ذلك فان اوروبا ستعاني اكثر من الولايات المتحدة نتيجة لحظر البترول الذي كان الجواب العربي على مساندة اميركا لاسرائيل . واما ما لا يمكن السماح به ابدا بالنسبة لاوروبا الغربية فهو التورط في حرب سياسية اميركية في الشرق الاوسط ليست حربها » .

ان المراقب الصحفي في الغرب كثيرا ما يعثر على دلائل جديدة تثبت ان سلاح البترول سلاح ماض وبتار .. سلاح في غاية الخطورة . وكثيرا ما يعثر ايضا على ادلة تثبت ان العرب استعملوا هذا السلاح بذكاء وفطنة . فالدول التي وقفت من نزاع الشرق الاوسط على الحياد ولم ترجح كفة على كفة ، كان عليها ان تقاسي قليلا من انخفاض بسيط في كمية البترول العربي المباع لها ، لان الحياد في القضايا التي يقف العدل كالشعاع الساطع في جانب طرف من اطرافها ، هروب من مواجهة الحق لا مبرر له . واما الدول المنحازة لاسرائيل ، فقد انقطع البترول العربي عنها بعض الوقت . وكان هذا منطقا مقبولا . والدليل على ان سياسة محاسبة الدول التي اطلقت عليها صفة الحياد اعطت مردودا ، هو في هذه الاعلانات والبيانات التي صدرت عن مجموعة دول اوروبا الاقتصادية والتي لم يعد مجال لتفسيرها تفسيرات شتى . فهي من الوضوح بحيث لا تقبل تأويلا .منها بيان بروكسل في السادس من تشرين الثاني عام ١٩٧٣ بتوقيع تسعة وزراء خارجية ، ومنها بيان كوبنهاجن بتاريخ ١٦ كانون الاول بتوقيع تسعة رؤساء دول . الاول طالب اسرائيل بالانسحاب من جميع الاراضي العربية التي تحتلها منذ حزيران عام ١٩٦٧ واعادة الحقوق المشروعة لشعب فلسطين كما ينص على ذلك قرار مجلس الامن الدولي رقم ٢٤٢ ، والثاني كرر نفس العبارة مع الذهاب خطوة ابعد من الخطوة السابقة ، وذلك بتعهد اوروبا الغربية بعمل كل ما تستطيعه لتنفيذ قرار مجلس الامن الدولي وانجاح مؤتمر جنيف والاعتراف بالامم المتحدة مشرفا على مؤتمر جنيف ، وليس الدولتين الكبريين اميركا والاتحاد السوفياتي ، نزولا عند ما يريده العرب بهذا الصدد . هذا الى ان عدة دول من الدول الموقعة على بيان كوبنهاغن هي من الدول التي تنطبق عليها صفة الحياد مثل ايطاليا والمانيا والدنمارك .

يوم ٣ كانون الاول من العام الماضي ، وفي مجلة نيوزويك الاميركية ، عمد فريق من المحررين الاقتصاديين في المجلة الى تبرير تخلي اوروبا الغربية واليابان عن اميركا نتيجة لسياستها في الشرق الاوسط بالقول « ان العرب لم يكونوا بحاجة الى اية اجراءات متطرفة في سبيل ايقاع الفرقة بين اوروبا واميركا . ولعل اعظم فرقة احدثوها هي التي وقعت بين الولايات المتحدة واليابان . وقد بلغ استسلام اليابان للمطالب العربية حد قول ناطق بلسان وزارة خارجية

اليابان ان بلاده لو تجاهلت التهديدات العربية لكان في ذلك نهاية المعجزة اليابانية » . وقالت الهرالد تريبون الامريكية بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني « ان البترول العربي كان الى الان انجح سلاح سياسي في التاريخ . فلم يحدث ابدا في السابق ان تمخضت نتائج مأساوية عن حجب سلعة تجارية » . وعندما اعلن شميت رئيس وزراء المانيا الغربية عن منح ايطاليا يوم اول سبتمبر عام ١٩٧٤ قرضا مقداره الفا مليون دولار لانقاذها من ورطتها الاقتصادية ، قالت الصحيفة الايطالية كوريير دلا سيرا « ان مباحثات شميت وكولمبو حققت نصرا اوروبيا ، لان من شأنها مساعدة اوروبا على الصمود في مجال المواجهة الاقتصادية مع اميركا ، وعلى الاخص بعد ان قرر فورد الرئيس الجديد للولايات المتحدة اتخاذ اجراءات مشددة جدا لمكافحة التضخم النقدي في اميركا ، الامر الذي سيؤدي الى تقليص مبيعات اوروبا في اسواق اميركا .

ولعل موقف انجلترا بالذات ، من هذا كله ، كان المفاجأة الكبرى لاميركا . انجلترا بعد تشرين قررت ربط مصيرها بمصير اوروبا ، بدل اميركا . قالت صحيفة الفاينانشال تايمز البريطانية في الثالث عشر من كانون الاول عام ١٩٧٣ « ان غضب اميركا على حلفائها الغربيين ، نتيجة لرفض سياستها في الشرق الاوسط ، كان منصبا في المقام الاول على بريطانيا . فان اميركا تعودت ان ترى في بريطانيا الوسيط الذي يضمن عدم ابتعاد اوروبا عن اميركا . وينسى الاميركيون ان دخول انجلترا للسوق الاوروبية المشتركة ، كان بدافع عن مصالحها ولتوافق هذه المصالح مع المصالح الاوروبية ، وليس لتحويل اوروبا الى حليف قوي لاميركا » .

وعندما اكتشفت اميركا الاتجاه البريطاني الجديد ، راحت تسعى الى ادخال اليابان في حلبة الصراع ، بمحاولة اشراكها في حلف صناعي قوي يقوم بدور حفظ التوازن بين اميركا وحلفائها الغربيين . لكن هيث وبومبيدو افسدا على كيسنجر مساعيه . ففي مؤتمر كوبنهاجن تقرر انشاء لجنة للطاقة ، وليس فريق عمل واسع الصلاحيات كما اقترحت اميركا . اميركا كانت تسعى الى مجابهة ازمة الطاقة بفريق عمل اميركي اوروبي ياباني يكون تحت امرتها ، لكن اوروبا التي تنبهت للحيلة الاميركية ، طالبت بتشكيل لجنة مشتركة للطاقة تكون اصوات كل الاطراف فيها متساوية .

هذا الى ان اوروبا الغربية ، وخاصة فرنسا ، تعتقد حاليا ان حلا ما يجب ان يفرض على اسرائيل . ويرئس هذا الاتجاه فرنسا وانجلترا ، بينما يرئس الاتجاه الاخر الذي يريد لاوروبا ان تقف في المؤخرة على مسرح الاحداث المقررةبالنسبة لصراع الشرق الاوسط ، كل من المانيا وهولندا . ويقال ان قضية الشرق الاوسط كادت تعصف بمؤتمر كوبنهاجن بين الرابع عشر وصباح السادس عشر من شهر كانون الاول من عام ١٩٧٣ لولا المساومات المنهكة التي نجحت اخر الامر في انقاذ المؤتمر . وبصدد الشرق الاوسط اتخذ هذا المؤتمر قرارا اقوى من قرار وزراء خارجية دول السوق الاوروبية في بروكسل قبل ذلك باربعين يوما ، كما اتخذ قرارا مهما اخر له علاقة بالشرق الاوسط ينص على انه يتعين على وزراء خارجية دول السوق التسع في حالات الازمات الدولية اللقاء بسرعة لتقرير موقف اوروبا الغربية من تلك الازمات . كذلك كادت احداث الشرق الاوسط ان تعصف بمؤتمر بروكسل . قال جون غشكو من وكالة الانباء البلجيكية بتاريخ ١٢ كانون الاول « ان مؤتمر وزراء خارجية حلف الناتو الذي انعقد في بروكسل بين ١٠ و ١٢ كانون الاول كان مؤتمرا فريدا في تاريخ الحلف . فلاول مرة ، بدل التحدث عن مشاكل الدفاع وتهديدات حلف وارسو صرف كل الوقت في معالجة الخلافات الداخلية » . وحقا كانت قضية الشرق الاوسط مركز الثقل في مباحثات بروكسل وكوبنهاجن . وليس في هذا غرابة . فاوروبا الغربية صارت لا ترى في اميركا الصخرة التي تستطيع الركون اليها . وبينما قال نكسون متباهيا يوم ٧ تشرين الثاني ان اميركا ستحل مشاكل الطاقة الخاصة بها بوسائلها الخاصة وبدون الاعتماد على احد ، قال كيسنجر في لندن وبروكسل يومي ١٠ و ٢٠ كانون الاول ان اميركا بحاجة الى عمل مشترك مع حلفائها لحل ازمة الطاقة التي تعصف بالغرب كله .

وان كانت اقطار كثيرة في اوروبا قد عانت الامرين في أواخر العام الماضي ومطلع هذا العام من القرارات العربية الخاصة بقطع البترول او رفع أسعاره او تخفيض انتاجه ، فان اميركا لم يكن

حظها بأحسن من ذلك . لقد حاولت حكومة نكسون بكل طاقتها وبكل ما في جعبتها من ألاعيب ، مسنودة بذلك من الصحف الاميركيـة التي تمقت العرب ، التظاهر بأن أزمة البترول لا تعنيها ، لان نصيبها من البترول العربي قليل ولانها قادرة على استنباط مصادر جديدة للطاقة . لكن كل تلك المحاولات ذهبت سدى . ومنذ ذلك الوقت واميركا ترزح تحت شبح ثقيل جدا اسمه شبح الطاقة وأزمة الطاقة . وهي بالذات القطر الذي يعاني أكثر من غيره من اهوال البطالة والتضخم النقدي . قالت صحيفة الواشنطن بوست في افتتاحيتها بتاريخ ١٩ تشرين الثاني من عام ١٩٧٣ « العجز في الوقود في العـام القادم سيؤدي الى بطالة عالية . والخطأ ليس خطـأ شيوخ البترول ، بل خطأنا نحن لاننا لم نحزم أمرنا بعد . واميركا تمر الان بمرحلة احتياجات متصارعة ، البترول ليس سوى حاجة واحدة منها » . كما نقلت الانباء يوم ٢٢ تشرين الثاني تصريحا للمستر روجرز مورتون وزير داخلية اميركا جاء فيه قوله « ان نقص الوقود في اميركا سيبلغ قبل مضي الربع الاول من العام القادم ٢٠ بالمئة وسيضطرنا ذلك الى تخفيض القـوة الكهربائية في البـلاد الامر الذي سيسبب للشعب صعوبات جمة » . وبعد ذلك بحوالي عشـرة شهور قالت صحيفة التربيـون الاميركية على لسان ولتر لفي الخبير الدولي في شؤون البترول ، وبالضبط في عددها الصادر يوم ٢ أيلول ١٩٧٤ « ان محـاولات مجموعة الدول المنتجة للبترول تخفيض انتاج البترول مـن جـديد سيصيب بالضرر الفادح زاد العالم مـن البترول ونظامه المالي ، ومع وجود قوى تضخم لا يمكن التحكم بها ، من المحتمل ان يتعرض مستقبل العالم غير الشيوعي السياسي والاقتصادي لمخاطر جسيمة للغاية » .

وليست أزمـة الطاقة وقفا علـى السيارات والمصانع كما يتبادر الى الذهن عند قراءة الانباء اليومية الصغيرة ، عـن صدور قوانين لتخفيض سرعة السيارات والطيارات والحد من التدفئة في البيوت والمباني العـامة ، والحد مـن استعمال الكهرباء او تحريم السواقة يوما او يومين فـي الاسبوع . ان قضية انخفاض الطاقة في العالم الصناعي اعمق مـن ذلك وأبعد . الحكومـات الاشتراكية المتمسكة ببعض مبادىء الاشتراكية في العالم الديموقراطي البرجوازي التي تحاول على طريقتها تخفيف سطوة شركات البترول والاحتكار ، هذه الحكومات القليلة العـدد اغتنمت الفرصـة لتضعف نفوذ تلك الشركات علـى أدوات الحكم ورجال الاعمال الكبار منهم والصغار . وقد اعترف السيد ج. واجنر رئيس ادارة شركة شل الهولندية الملكية في مجلة تايم بتاريخ ١٠ كانون الاول بأن « الصدمة العربية لا بد أن تؤثـر على شركات البترول العالمية ، لجعل حياتها أصعب . مـن ناحية ، اصبح نفوذ هذه الشركات اضعف في اقطار انتاج البترول التي صارت تعمد الى انشاء شركاتها الخاصة بها . ومن ناحية اخرى ، اصبح عملاء الشركات العالمية أصلب وأقسـى . فرنسا مثلا هددت بأن تقدم للمحاكم شركات البترول التي تحاول عدم تنفيذ اتفاقياتها معها . وحكومة سويسرا قررت اجراء تحريات واسعة لتتأكد من ان شركات البترول لن تستغل الوضع الحالي لتحقيق مآربها » . ولقد وقعت شركات البتـرول منذ تشريـن في اضطراب مخيف . كانت سفنها تتحرك من مكان الـى آخر باسلوب المفاجأة . السفينة التي كانت ، على سبيل المثال ، تحمل بترولا من ايران الى اميركا ، كانت في منتصف الطريق تتسلم برقية تأمرها بالتوجه الى ايطاليا ، وقبل الوصول الى شواطىء ايطاليا كانت تتسلم برقية اخرى تأمرهـا بتغيير وجهتها نحـو اليابان . مما يدل على ان الحكومات ، وربما لاول مرة في تاريخ علاقاتها مع شركات البترول ، كانت تتدخل لتفرض ارادتها على تلك الشركات . ولعل كثيرين منا يذكرون الخلافات العنيفة بين الحكومة البلجيكية وشركات البترول طيلة العام الحالي ، وكيف لجأت الحكومة الى القضاء أكثر من مرة .

ولعل اهم ما ستتمخض عنـه حرب تشرين ، بالنسبة للعالم الصناعي الغربـي ، هو انتهاء احتكاره لثروات العالم . قبل تشرين كاد اليأس يدب في أوصال مفكري العالم الشرفاء والمخلصين الذين كلما فتحوا بابا يتسرب منـه للعالم شعاع من أمل بامكانية حل مشكلة سد الفجوة الاقتصادية والعلمية الفاصلة بين عالمي الثراء والفقر ، كلما اغلقت دول الانتاج والاستهـلاك والاستعمـار في وجوههم أبوابا . فجأة وبعد حرب تشرين ، أوجد العرب عن وعي او غير وعي واقعا دوليا جديدا يحمل في طياته معالم بارزة لطريق جديد قد يكون

الطريق الموصل الى توزيع ثروات العالم توزيعا عادلا بين جميع الشعوب. ان أزمة الطاقة ، سواء وجدت الحلول لها أو لم توجد ، بينت للعالم الصناعي ان الطاقة التي في حوزته في المستقبل ، ستقل عاما بعد عام . نتيجة لذلك فان العالم الامبريالي سيجد نفسه مضطرا للحد من اعمال ابتزازه واستغلاله لمواد الاقطار النامية الخام واحلام تعاليه على العالم التي اوحت اليه والى عملائه في العالم الثالث انه مانح النعم والبركات .

هذا الفرق الكبير بين طاقات العالمين المتطور والنامي ، وبين اهدافهما ومثلهما ، قد حكم عليه بالزوال . لقد تحقق هذا بضربة واحدة ، وليس في هذا القول مبالغة . الساسة العرب وهم يتخذون قراراتهم في اعقاب حرب تشرين لوضع العالم أمام حقائق كان يجهلها او يتجاهلها ، ما كانوا وهم يتخذون تلك القرارات يرون ابعادها على حقيقتها . وهذه الابعاد أخذت بعد السادس من تشرين تتضح شيئا فشيئا .

العالم الديموقراطي البرجوازي ، وهو عالم الراسمالية والاحتكار والاستعمار القديم والحديث ، سعى دائما الى اجهاض الافكار الثورية الاجتماعية والسياسية بين جماهير شعوبه بمنحها بعض المكاسب المادية بين الحين والاخر من جهة ، وبمنحها حرية التعبير والرأي بشرط عدم السعي لاجراء تغييرات مجتمعية جذرية من جهة اخرى . وكلما ازداد ضغط الافكار الثورية الاجتماعية والسياسية التي تطالب باقامة مجتمعات العدل وتوزيع الثروات بين الناس بالقسطاس ومنح فرص العمل والتعلم للناس بالتساوي ، كلما تصاعدت عمليات اجهاض هذه الافكار بتوفير امكانيات مادية اوفر للناس . ولما اصبحت الافكار الاشتراكية في الاوطان الغربية والاوطان النامية قوة لا يستهان بها ولا يمكن صدها لا بالحديد ولا بالكلام المعسول ، راح العالم الديموقراطي البرجوازي يبحث عن أساليب اخرى يخدر بها شعوبه وشعوب العالم الثالث ، تعتمد على طوفان من بضائع الاستهلاك تغرق العالم في مباهجها وعلى رفع المرتبات والاجور حتى يتمكن الناس من اقتنائها وعلى تمنين العالم الثالث بالقروض والمساعدات . ونجح التخطيط ، واذا بالانسان الغربي يتحول الى اداة انتاج واستهلاك يعمل ويشتري ولا يجد متسعا من الوقت لاشياء أهم من الشراء واقتناء السيارات والركض وراء مشاغله الخاصة به والتي لا علاقة لها اطلاقا بحاجات مجتمعه وعالمه . نتيجة لذلك ، انغمست الشعوب الغربية في لجة من الشبع والرفاه المادي وهي لا تحسب حساب الثمن الذي دفعته والذي يصفه العارفون بأنه التخمة التي تمهد للموت .

في هذه الاثناء ، كان العالم النامي غارقا في مآسيه لا يدري كيف يخرج منها . فالاوضاع الاقتصادية فيه لا تتحسن لان ما يأخذه من الدول الصناعية بيده اليمنى يعيده لها اضعافا بيده اليسرى . وهكذا ظل الحديث عن تضييق الفجوة بين الطرفين حبرا على ورق رغم مئات الندوات الدولية التي عقدت من أجل ذلك على المستويات المحلية والاقليمية والعالمية وباشراف المنظمات الدولية ووكالاتها . ولكن في أيامنا هذه ، صار الناس يلمحون بوادر تغييرات مهمة في هذا المضمار . افريقيا مثلا اثبتت انها تفضل المساعدات العربية المالية على مساعدات الغرب . والدول المتطورة صارت لا تقاوم ما يجمع عليه ممثلو دول العالم الثالث في المؤتمرات الدولية التي تبحث قضايا تكاثر السكان وانتاج الغذاء وسد الفجوة الكبيرة الفاصلة بين عالمي الصناعة والنمو. آخرها ، على سبيل المثال ، مؤتمر بوخارست العاصمة الرومانية الذي عقد في النصف الثاني من شهر آب من عام ١٩٧٤ والذي شارك فيه ثلاثة آلاف مندوب عن مائة وخمسين قطرا على مستويات الحكومات ومنظمات الشباب ومنظمات النساء والمؤسسات الانسانية . فلأول مرة في تاريخ هذه المؤتمرات الدولية ، تتخذ قرارات قدمتها وأصرت عليها دول افريقية وأسيوية وامريكية جنوبية ، ووقعت عليها دول الصناعة دون رفض او اعتراض او تهديد . وبينما كانت الدول الصناعية تحاول جعل قضية الحد من النسل حجر الزاوية في اية اجراءات يتفق عليها للتغلب على المشاكل الناجمة عن تكاثر السكان في العالم ، فان دول العالم النامي ناضلت في المؤتمر بقوة وايمان لجعل المؤتمر يتبنى شعارات وقرارات اجدى وافعل ، ومنها تغيير النظام الاقتصادي العالمي وتوزيع ثروات العالم بالعدل بين الشعوب .

القرار العربي بتخفيض انتاج البترول أرهب حكومات الغرب لانها تعلم ان وصول مجتمعات

الرخاء والاستهلاك الى الطريق المسدود معناه القضاء على مخططاتها وأهدافها واطماعها . وحكومات البرجوازية لا تحرص على التمسك بالحكم الا للمحافظة على مصالح الطبقات التي تمثلها . وسلاحها دائما هو الوعود الرنانة وملء المعد . وعندما ووجهت بامتحان عسير ، ظهرت وعودها كفقاعات الهواء وراحت مبادؤها ومثلها تهوي واحدا بعد الاخر . كانت تتبجح دائما بتفوقها العلمي على اجزاء العالم الاخرى على اساس انه الضمانة ضد التقهقر الاقتصادي والاجتماعي . عند الامتحان ثبت ان هذه الضمانة لا وجود لها . كانت دائما تنكر على العرب حقهم في الدفاع عن قضاياهم العادلة ، بحجة ان العرب ظالمون يغطون تأخرهم بالاعتداء على دولة ديموقراطية صغيرة مسالمة . وأمام التجربة الحقيقية ثبت ان اهتمامهم باسرائيل ينتهي عند طلوع العرب على العالم طلعة الجنود المظفرين القادرين على فرض ارادتهم على من يسيء اليهم . فجأة صار وصف العرب بالبرابرة أمر محرم على الافواه . صار حق اسرائيل بالبقاء من شأن اسرائيل وحكومة اميركا فقط . صارت شعارات ادانة اليهود التي ظهرت في اميركا على السيارات من شأن اصحابها فقط .

ملامح التغيير المقبل على عقليات الناس تشير الى ان الناس سيقبلون قريبا على مرحلة فكرية جديدة تكون محاسبة النفس وانظمة الحكام من اعمدتها الراسخة. والمراقب المقيم في الغرب اصبح يرى البدايات منذ الان . ولا ريب على هذا الاساس ، ان الانسان الغربي سيدرك خلال وقت ليس ببعيد كيف تحقق رفاهه المادي على حساب الملايين من اهل الارض الذين لا يعثرون حتى على رغيف الخبز . وسيدرك انه كان مبذرا في كل شيء ، لانه كان يملك الكثير من كل شيء . قال مسمير رئيس وزراء فرنسا في ٢٠ كانون الثاني من عام ١٩٧٣ « ان هدف القانون الذي يخفض سرعة السواقة على الطرق هو زرع روح التوفير عند الناس » . واغلب الظن ان الانسان المبذر اذا ما فرضت عليه أوضاع جديدة تحتم عليه التوفير في استهلاكه للطعام والوقود والمشتريات الاخرى ، سيتعرض لتغيير جذري في وعيه الانساني يحصنه ضد استغلال المستغلين ويصب سلوكه الاجتماعي في قوالب جديدة . قال الكاتب الاميركي انتوني لويس في الهرالد تريبيون بتاريخ ٤ كانون الاول من عام ١٩٧٣ « هناك بديل واحد لوهم الطاقة اللامتناهية والرخاء اللامتناهي في اميركا . ذلك هو الاخذ بأخلاق التوفير . ليس التوفير القائم على تخفيض درجة الحرارة في البيوت ، وانما التوفير عن طريق التمييز بين التيارات الاجتماعية الصائبة والخيارات الاقل صوابا ، الامر الذي يحتم البحث عن قيم حياتية وخلقية جديدة . على سبيل المثال ، سيكون جنونا استمرار الادارة الاميركية في تنفيذ مشروع بناء اوتوستراد جديد عبر البلاد . ان تغيير عادات الاميركيين في مجال استهلاك الطاقة أمر ليس سهلا ، بل عملية معقدة جدا . لكن الصعوبة تزول اذا بدأنا بتغيير القيادة في البلاد . بكلمات اخرى يجب ان نحصل على قادة لا يدغدغون خواطرنا بالوعود الفارغة حول الرخاء والكفاية ، وانما يحثوننا على اتباع حياة افضل ، حياة مشاركة العالم الثالث كل ما نملك . هذا هو الطريق الوحيد للقضاء على الكابوس الدارويني المحلق فوق رؤوسنا » . وقال الكاتب والمفكر السويسري دنيس دي روجيمونت « العرب أثبتوا ان اوروبا لا مكان لها على مستوى الحكومات . ففي كل مؤتمر قمة اوروبي جديد ، نكشف عن المزيد من خلافاتنا . العرب جعلونا نعمد الى الهروب . من ناحية اخرى فان شبح كارثة اقتصادية يمكن ان يكون الهزة القوية التي تحتاجها اوروبا . على اساس هذا لا بد من توجيه الشكر لشيوخ البترول وأمرائه . لقد كنا دائما اشبه بالعجزة الذين لا يغيرون معيشتهم الا اذا وقعت كارثة . الان صار بامكاننا تغيير نمط معيشتنا بشد احزمتنا وبالتركيز على البحث العلمي وبالسعي لبناء وحدة اوروبية غير مزيفة » .

وبعد ، هل يواكب العرب هذه التطورات والتحولات المذهلة والعميقة ، باسراع الخطو على درب انهاء الوجود الامبريالي الصهيوني في الشرق الاوسط ، ودعم الثورة الفلسطينية دون تردد او تحفظ ، واداء دورهم الحضاري في عالم اليوم ؟ فهم يملكون كل شيء .. المال والسلاح والمنطق والتأثير . اذا وعوا قيمة ما يملكون ، واذا سارعوا الخطى في مجالات رفع المجتمعات العربية الى مستوى العصر ، واذا انقذوا بفائض أموالهم افريقيا وليس الحكومات والدول التي تمثل عالم الصناعة المسيطر على مصائر الشعوب ، اذا فعلوا كل ذلك اخذهم الاخرون مأخذ الجد في مقبل الايام أيضا .

عقيل هاشم

[٢]
ايران ، الحل « البديل والمكمل » لاسرائيل

شكلت المنطقة العربية بثرواتها الكبيرة، وموقعها الاستراتيجي في ملتقى القارات الثلاث ، مركزا هاما جذب انظار المخططين الاستعماريين منذ ان كان الاستعمار . ولقد كانت هذه المنطقة قبل اكتشاف حقول النفط الكبيرة ، وقبل خروج الولايات المتحدة من عزلتها، بؤرة اهتمام الدول الاستعمارية (فرنسا وبريطانيا والمانيا) . وما ان انتهت الحرب العالمية الثانية ، وظهر الاتحاد السوفياتي كدولة عملاقة ، وتضاءلت القوة الاقتصادية لفرنسا وبريطانيا ، وبدأ الاستعماران الفرنسي والبريطاني مرحلة الانحسار ، وظهرت الثروات المعدنية الهائلة في البلدان العربية التي غدت اكبر مستودع لمصادر الطاقة في العالم ، حتى قررت الامبريالية الاميركيــة الجديدة احتلال مواقع الاستعماريين القدماء ، وتثبيت مواقعها ، والحفاظ على مصالحها الكبيرة على ارض العرب .

وكــان الاسلوب الاميركــي مغايرا في شكلــه للاسلوبين الفرنسي والبريطاني . فهو لم يعتمد على الاحتلال العسكري المباشر ، الذي لم يعد ممكنا في عصر تصفية الاستعمار ، بل اعتمد على التحالف مع الطبقات الحاكمة المسيطرة ، بعد ربطها مصلحيا مع الامبرياليين . وكان هدفه الاستراتيجي العام مبنيا على منع الوحدة العربية ، والحفاظ علــى وضع التخلف الاقتصادي ــ الثقــافي الموروث في الوطن العربي ، لان ظهور دولة عربية متحدة متقدمة فكريا واجتماعيا ، ومتكاملة اقتصاديا ، يعني تهديد مصالحه الحيوية ، ونهاية النهب الامبريالي الذي لا يمكنه ممارسته الا في ظل التخلف والتجزئة .

ولتحقيق هذا الهدف ، سار الامبرياليون على خطين متوازيين : يتمثل اولهما في جر الدول العربية المستقلة حديثا الى الاحلاف والمشاريع الاميركية ، باسم محاربة الشيوعية ، مع ايمانهم المطلق بأن هذه الاحلاف ، مهما قويت وامتدت ، لا يمكن ان تكون حاجزا عسكريا فعــالا امام قوة المعسكــر الاشتراكي الضخمة المتنامية . أما الخط الثاني فيتمثل في خلق رأس جسر امبريالي يضمن منــع الوحدة العربية ، ويعرقل النمــو الاقتصادي ــ الاجتماعي العربي ، ويؤمن ضرب حركة التحــرر الوطني العربية اذا ما نمت هذه الحركة ودخلت مع الامبريالية في تناقض حاد يهدد المصالح الامبريالية بشكل خطير . وعندمــا التقت مصالح الامبريالية الاميركية ، مع مصالح الصهيونية العالمية الراغبة في جمع اليهود الذين شردتهم الحرب العالمية الثانية وسياسة هتلر العنصرية ، ومصالح الدول الاوروبية الراغبة في التخلص من معضلات ايواء واطعــام ملايين اللاجئين اليهود المشردين في انحاء اوروبــا المدمرة ، ظهرت اسرائيل الى الوجود ، وكانت « الحل الذهبي » الذي يلائم الشرق والغرب ، وقرر العالم المتعب من الحرب ، والمثقل بآثام تعذيب اليهود ، تشريد الشعب العربي الفلسطيني في ارجاء العالم العربي ، ليحل اللاجئون اليهود محــله .

وكانت الامبريالية الاميركية تخطط للنصف الثاني من القرن العشرين ، فهي تعرف ان شهر العسل مع الانظمة والطبقات العربية الحاكمة لا يمكن ان يدوم ، وان التناقض بين الناهبين الخارجيين ، والقوى الداخلية المستفيدة من جهة ، والجماهير العربية المنهوبة ، والتواقــة للحرية والوحــدة والتطور ودخول حضارة العصر من جهة اخرى ، لا بد وان يتفجر يوما . وان الحل الامثل لمجابهة هذا التفجر ، هو خلق دولة قوية متقدمة عصرية ، تلعب دور « الشرطي » لحماية مصالح الامبريالية عند اللزوم .

ولكن هذه الدولة ــ اسرائيل ــ جوبهت منذ نشأتها بمعارضة جيرانها العرب . وكان وجودها تحديا مصيريا لامة تعيش مرحلة النهوض القومي ، وتمتلك من الامكانات البشرية والاقتصادية مــا يؤهلها للخروج من التخلف ، ويجعلها دولة عصرية كبرى . ولقد لاحظ الامبرياليون ، منذ عام ١٩٥٥ ، ان وجود اسرائيل لم يؤمن الاستقرار في المنطقة بل زادها اضطرابا ، كما انه لم يؤد الى قهر حركة التحرر الوطني العربية ، بل زادها على العكس امتدادا وتجذرا ، والاخطر من هذا كله، ان مشاعر العداء ضد الغرب، قد ازدادت بين صفوف الجماهير العربية ، التي اعتبرت الغرب مسؤولا عن العدوان الاسرائيلي ، وسببت انهيار سمعة الدول الغربية

ومكانتها في الوطن العربي ، ودفعت الحكومات العربية الراديكالية الى احضان الاتحاد السوفياتي.

وكانت بداية فشل المخطط الامبريالي في العام ١٩٥٥ مع صفقة الاسلحة الشرقية لمصر وسورية ، ثم بناء السد العالي في مصر من قبل الاتحاد السوفياتي بعد حرب ١٩٥٦ ، وتزايد التغلغل السوفياتي في مصر وسورية اولا ، وفي العراق والجزائر واليمن الجنوبي بعد ذلك . وكانت كل هذه الظواهر تشكل خطرا على مصالح الامبريالية الاميركية ، التي شعرت ان خلق اسرائيل ، الذي منع تنمية الدول العربية المجاورة لها ، ولعب دورا جغرافيا وعسكريا في عرقلة الوحدة ، لم يتم رغم ذلك بكل مهماته ، بل أدى في بعض المجالات (المجال النفسي ، وانتشار الفكر الراديكالي ، وزيادة التغلغل السوفياتي) الى نتائج سلبية تتعارض مع اهداف المخطط الامبريالي . وكان من الاسباب التي شنت اسرائيل من اجلها حرب ١٩٦٧ ، اقناع الاميركيين بأنها قادرة على لعب دورها البوليسي الذي خلقت من أجله .

وبالرغم من النتائج الباهرة التي حققتها القوات المسلحة الاسرائيلية في حرب ١٩٦٧ ، فان الدول العربية لم تركع ، وازدادت مشاعر المرارة ضد الولايات المتحدة ، وازداد ارتباط الدول العربية الراديكالية بالاتحاد السوفياتي اقتصاديا وعسكريا ، وازداد حرج موقف حلفاء الولايات المتحدة في الوطن العربي ، ولم يعد هؤلاء الحلفاء قادرين على المجاهرة بميولهم الغربية ، او ارتباطهم بالولايات المتحدة التي تسلح عدو الامة العربية ، وتساعده على اذلالها ، وتكرس احتلاله لاراضيها ، واختل الاستقرار في منطقة الشرق الاوسط — وهذا أمر يقلق بال الامبرياليين الراغبين في الحفاظ على « الوضع الراهن » . وزاد من عدم الاستقرار ظهور الثورة الفلسطينية كعنصر فعال ، وكرد مادي على ادعاءات اسرائيل **بعدم وجود شعب فلسطيني**.

ولقد وعت الامبريالية الاميركية كل هذه الحقائق ، وفهمت ان الغطرسة الاسرائيلية ، والاطماع التوسعية الصهيونية ، تتعارض بشكل جذري مع رغبة واشنطن في الاحتفاظ بمرتكزاتها الثقافية ، ومصالحها الاقتصادية ، وصداقاتها ، مع بعض الحكام العرب . لذا كان خط السياسة الخارجية الاميركية ازاء الصراع العربي — الاسرائيلي بعد حرب ١٩٦٧ ، مبنيا على مبدأ « حماية أمن اسرائيل لا حماية توسعها » . بيد ان هذا المبدأ لم يدفع واشنطن نحو خط معتدل بالنسبة الى الصراع العربي — الاسرائيلي ، ولم يمنعها من دعم اسرائيل اقتصاديا وسياسيا وعسكريا . ويرجع السبب في ذلك الى سيطرة الصهيونية على غالبية اعضاء الكونغرس ، ونجاح الدعاية الاسرائيلية في اقناع بعض اجهزة الادارة الاميركية بقدرتها على ردع العالم العربي المصاب بالشلل ، والحفاظ على حالة اللاحرب واللاسلم التي ستؤدي الى ابتعاد الدول العربية بالتدريج عن الاتحاد السوفياتي ، ووقوفها مكشوفة ومستعدة للركوع ، ودفع ثمن هزيمة حزيران ١٩٦٧ .

ولكن هذه القناعة لم تكن كاملة ، ويبدو ان بعض أجهزة الادارة الاميركية رأت ، حتى قبل حرب ١٩٧٣ ، ان الانتصار الاسرائيلي لن يؤتي أكله ، بل سيدفع العرب نحو مزيد من التلاحم الداخلي لمواجهة التحدي ، ونحو مزيد من الارتباط بالاتحاد السوفياتي . ولم تكن هذه الاجهزة بحاجة لذكاء كبير لاكتشاف خلل الفكرة الصهيونية الاساسي المتمثل في « **محاولة تطبيق الاستعمار في عصر تصفية الاستعمار** » . وكانت كل المعطيات المحلية والعالمية تؤكد لها بأن انتصار اسرائيل على الدول العربية بشكل حاسم وتاريخي امر متعذر لا تسمح به طبيعة الاشياء ، وان من الضروري البحث عن بديل — وكان هذا البديل ايران .

من هنا جاء اهتمام الولايات المتحدة بتدعيم القوة العسكرية الايرانية . وتزويدها باسلحة قادرة لا على مجابهة جاراتها فحسب ، بل على القيام بعمليات هجومية وراء البحار (طائرات بعيدة المدى ، اسطول بحري ، قوات محمولة بالهليكوبتر...)(١)

---

١ — تملك ايران قوة جوية ضاربة تضم ١٥٩ طائرة مقاتلة من بينها ٦٤ طائرة فانتوم « ف — ٤ د آي » و٨٠ طائرة من طراز « ف — ٥ أ » ، وهناك ٧٠ طائرة فانتوم « ف — ٤ اي » قيد التسليم . وفي سلاحها البحري ٣ مدمرات و٤ فرقاطات مسلحة بصواريخ سطح — سطح ، وصواريخ سطح — جو ، و ١٠ زوارق دورية ، و٤ مراكب انزال بالاضافة الى عدد من طائرات

(تتمة الحاشية على الصفحة التالية)

ويكشف الجدول التالي ، الخاص بنفقات ايـران العسكرية بملايين الدولارات من عام ١٩٥٠ حتى عام ١٩٧٣ التزايد الكبير في هذه النفقات بعد حـرب ١٩٦٧ ، وفي السبعينات بصورة خاصة .

عـام	١٩٥٠	١٩٥١	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦	١٩٥٧	١٩٥٨	١٩٥٩
النفقات	٦٦،٥	٦٣،٤	٦٠،٠	٥٦،٩	٦٤،٧	١٩٠،٠	١٠٥،٧	١٢٧،٢	٢٠٢،٧	٢٢٦،٧
عـام	١٩٦٠	١٩٦١	١٩٦٢	١٩٦٣	١٩٦٤	١٩٦٥	١٩٦٦	١٩٦٧	١٩٦٨	١٩٦٩
النفقات	١٨٢،٩	١٨١،٠	١٨٠،١	١٨٣،٠	٢٠١،٢	٢٥٠،١	٢٨٥،٨	٣٦٦،٣	٤٦٥،٧	٥٣٠،٩
عـام	١٩٧٠	١٩٧١	١٩٧٢	١٩٧٣						
النفقات	٦١٩،٥	٦٨٦،٧	٩١٥	٢٠١٠،٠						

(Sipri World armement and disarmement year book 1972, and Military Balance 1973 - 1974).

وهكذا اصبح لدى الولايات المتحدة «شرطيان» ، احدهما مكلف بقمع مصر وسورية والاردن (عنـد اللزوم) ، والاخر مكلف بقمع العراق والمملكـة العربية السعودية ، وامارات الخليج العربـي ، والكويت ، وتأمين استمرار تدفق النفط عبر الخليج العربي والبحر الاحمر اذا ما ارتفعت حدة العداء العربي الى درجة استخدام سلاح النفط بشكـل يقلق الولايات المتحدة نفسها (تأميم وقطع) .

ويبدو ان الاختيار الاميركي « للشرطي » الايراني أنضل من اختيارها « للشرطي » الاسرائيلي . فايران دولة كـبيرة ، تملك قـدرة بشريـة واقتصادية تسمح لها ببناء قوة عسكرية ضخمـة دون ان يشكل ذلك عبئا على المكلف الاميركي(٢)، كما هي الحالة بالنسبة الى اسرائيل . وبالاضافة الى ذلك فان ايران ، على عكس اسرائيل ، دولة يعيش شعبها على ارضه منذ الاف السنـين ، وليس هناك من يجادل في حقها بالوجود ، ولا يشكل تسليحها تحديا قوميا ودينيا مباشرا لجيرانهـا ، الا اذا تصرفت ازاءهم بروح عدوانية .

ولقد تلاقت المصالح الامبريالية مع طموحـات الشاهنشاه محمد رضا بهلوي شاه ايران ، الراغب في بناء دولة قوية لا تلعب دورا محليا فحسـب ، بل دورا عالميا ايضا . وكما استغل الامبرياليـون المشاعر الدينية عند اليهود ، وعقد نقصهـم ، وخوفهم من العودة الى حياة التشرد والبوغرومات والمذابح الجماعية ، وافـران الابادة ، لخلـق الحوافز المعنوية داخـل القـوات المسـلحة الاسرائيلية ، فانهم يستغلون اليوم ذكريات الفتح العـربي — الاسلامي ، وتحطيم الامبراطوريـة الفارسية على يد العرب ، كقاعدة للتعبئة المعنوية داخل القوات المسلحة الايرانية .

ان التقاء مصالح الامبريالية الاميركية في الوطن العربي مع مصالح الشاه ، يمثل حجر الزاويـة في سياسة الولايات المتحدة لتسليح ايران . ولقد بدأت هذه السياسة بالتبلور منذ ان ظهرت ضرورة ايجاد حل « بديل ومكمـل » للدور البوليسـي الاسرائيلي، ولقد جاءت نتائج حرب ١٩٧٣ ، وعجز العسكرية الاسرائيلية عن الحاق الهزيمة بالجيوش العربية ، وتزايد التلاحم العربي خلال المعركـة ،

الهليكوبتر الملحقة بالبحرية ، وهناك ٦ طائرات دورية بحرية و ٢٠٢ طائرة هليكوبتر « أه — ١ جي » و ٤ حوامات « ب هـ — ٧ » قيد التسليم . أما القوات المحمولة جوا فهي تتألف من لواء محمول جوا ولواء قوات خاصة ، وهي تتصرف بأعداد كبيرة من طائرات الهليكوبتر وطائرات النقل الموجودة او قيد التسليم .

(Military Balance, 1973 - 1974)

٢ — يبلغ سكان ايران ٣٠،٨٠٥،٠٠٠ نسمة ، ولقد وصل دخلهـا القومي لعام ١٩٧٢ الـى ١٥،٠٩ مليار دولار . علـى حين لا يزيد عدد سكان اسرائيل من الاسرائيليين عن ٣ ملايـين نسمة ، ولا يزيد دخلها القومي (١٩٧٢) عـن ٦،٨٥ مليار دولار .

(Military Balance, 1973 - 1974)

واستخدام سلاح النفط بشكله الاولي ، لتؤكد ضرورة وجود هذا الحل « البديل والمكمل » ، وتزيد اهتمام الامبريالية الاميركية بتقوية العسكرية الايرانية .

وتلاقي السياسة الاميركية ازاء ايران تشجيعا كبيرا في اوساط «المجموعة الصناعية ـ العسكرية» المسيطرة في الولايات المتحدة . فهي تضمن بيع كميات كبيرة من الاسلحة لزبون مضمون يدفع نقدا ، وتمتص فائض العملة الاجنبية الناجم عن ارتفاع أسعار النفط الايراني بنسبة ٣٠٠٪ ، وتخلق قوة عسكرية قادرة على حماية المصالح النفطيةالاميركية في الشرق الاوسط ، وتمنع الدول العربية من استخدام نفطها كسلاح اقتصادي فعال ، وتضع امام الدول العربية التقليدية تحديا عسكريا يدفعها الى التفكير الجدي بتقوية جيوشها وتطوير تسليحها ، وشراء كميات كبيرة من الاسلحة والمعدات الاميركية ، الامر الذي يضاعف امكانات تأثير البيت الابيض على سياسة هذه الدول ، ويؤمن امتصاص مليارات الدولارات الفائضة التي تملكها .

ولقد كان خبراء البنتاغون يعتقدون ان مصانع الاسلحة الاميركية ستحتكر بشكل كامل تقريبا اسواق السلاح في الدول العربية البترولية ، نظرا لقيود الحظر التي فرضتها فرنسة على تجارة الاسلحة بعد حرب ١٩٦٧ ، ونظرا لوجود اسباب ايديولوجية تمنع هذه الدول من شراء السلاح السوفياتي . ولكن قيام فرنسة فاليري جيسكار ديستان برفع الحظر الفرنسي عن بيع الاسلحة الى الشرق الاوسط في ٢٨ آب ١٩٧٤ ، سيشجع المملكة العربية السعودية والكويت وامارات الخليج على شراء سلاح فرنسي لجيوشها ،ولجيوش دول المجابهة ايضا، وسيجعل فرنسة قادرة على منافسة الولايات المتحدة بالنسبة الى مبيعات البند الثاني ، بعد ان كانت تنافسها في مبيعات البند الاول فقط . اما بالنسبة الى العراق ، فانهاستفكر جديا ولا شك بشراء السلاح الفرنسي الى جانب السلاح السوفياتي طالما انه سيكون بوسعها استخدام هذا السلاح في المعركة ضد اسرائيل ، كما سيكون بوسعها تقديمه الى دول المواجهة لتستخدمه ، دون قيود ، في معركة التحرير المصيرية .

ان تكديس الاسلحة المتطورة في ايران امر بالغ الخطورة ، وخاصة اذا اغرت القوة العسكرية المتعاظمة الشاه الى سلوك سياسات مغامرة في منطقة الخليج العربي الحساسة . وقد لا يستطيع الشاه تهديد الدول العربية المجاورة بحرية كاملة ، والدخول معها بصراع طويل الامد ، نظرا لوجوده على مقربة من الاتحاد السوفياتي ، وعدم رضا الشعب عنه ، ووجود أقليات بلوشية وكردية وعربية تنتظر انشغاله خارجيا لتخلق له المتاعب في الداخل ، ولكن وجود قوة عسكرية ايرانية كبيرة على الجناح الشرقي للوطن العربي، يشكل في حد ذاته تهديدا يجبر العرب على اقتطاع جزء اضافي من امكاناتهم وتكريسها للتسليح، بدلا من تكريسها للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ويمنع الدول العربية من حشد كل قواتها العسكرية في الصراع مع اسرائيل ، ويفرض عليها تجميد قسم من هذه القوات لصد الخطر الكامن في الشرق .

ان خطوط اللعبة الاميركية واضحة للعيان ، فهي تحاول ، بميكانيلية لا ريب فيها ، تسليحايران والدول العربية النفطية بآن واحد . ولقد كان بوسعها ان تبرر عملها في الماضي بانها « لن تسمح للسلاح الاميركي بان يقتتل في الشرق الاوسط » ، ولكن احداث قبرص ، واقتتال حلفاء الامس من اتراك ويونانيين ، بسلاح اميركي ، يسقط هذه الحجة ، ويبدد الدافع الاخلاقي الاميركي المزعوم ، ويكشف الدافع الاقتصادي للعملية .

ولا يمكن ان تنجح الخطة الاميركية ، وتحقق كل اغراضها السياسية والاقتصادية ، الا اذا استطاع البنتاغون تأمين التفوق العسكري الايراني على السعودية والكويت ودول الخليج والعراق معا . وقد كان من الممكن تحقيق ذلك لو ان الولايات المتحدة تحتكر اسواق السلاح في هذه الدول . ولكن وجود الاتحاد السوفياتي وقدرته على تزويد العراق اساسا ، والكويت جزئيا باسلحة متطورة ، ووجود فرنسة وقدرتها على تزويد الدول الاربع بمثل هذه الاسلحة ، وامتلاك هذه الدول لرصيد كبير من المال ، يحرم الولايات المتحدة من امكانية خلق ايران الاقوى من جاراتها العربية .

ان الطاقات الاقتصادية والبشرية للدول العربية الاربع(*) كفيلة بمجابهة التحدي الجديد ، والحل الاميركي « البديل والمكمل » ، ولكن التسليح الاميركي لايران يبقى مع ذلك عاملا هاما يستحق الانتباه والدراسة ، لانه يؤثر بشكل غير مباشر على ميزان القوى العربي — الاسرائيلي ، ويمنع الدول العربية من تحقيق الحشد اللازم لمعركة التحرير . الامر الذي يضع ايران الشاه ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ، في معسكر العدو .

سلمى حداد

(*) يبلغ عدد سكان هذه الدول الاربع حوالي ١٩٫٦٥٠٫٠٠٠ نسمة ، ويبلغ دخلها القومي السنوي ١٣ مليار دولار (الارقام لعام ١٩٧٢) **« ميزان القوى العربي الاسرائيلي ١٩٧٤ »** ، مركز الابحاث ، بيروت .

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

فلسطين في الامم المتحدة

حققت منظمة التحرير الفلسطينية في الشهر الفائت كسبا سياسيا كبيرا في جعلها مجلس جامعة الدول العربية يتبنى قرارا في ٩/٢ بادراج قضية فلسطين كبند مستقل في جدول اعمال الدورة الحالية للجمعية العامة للامم المتحدة . وقد وصف الاخ عبد المحسن ابو ميزر ، الناطق الرسمي باسم المنظمة ، هذا القرار بأنه « أخطر قرار اتخذته الجامعة العربية منذ ربع قرن » واضاف « ان خطورة القرار تكمن في انه اتخذ بالاجماع وان القضية ستطرح طرحا جديدا امام الجمعية العمومية منفصلة عن قضية الشرق الاوسط باعتبارها قضية تحرر وطني » .

وقد نص قرار الجامعة العربية (رقم ٩/٦) على ما يلي : « ١ — الموافقة على طلب ادراج قضية فلسطين بندا مستقلا في جدول اعمال الجمعية العامة للامم المتحدة في دورتها التاسعة والعشرين. ٢ — التأكيد على المبادىء الاتية في اي مشروع قرار يقدم في الموضوع : أ — تأكيد الحقوق الانسانية الثابتة للشعب الفلسطيني ورفض اي اهدار او اغتصاب لها . ب — تأكيد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره دون اي تدخل خارجي وتأمين استقلاله الوطني وحقه في العودة . جـ — تأكيد حق الشعب الفلسطيني في العمل بجميع الوسائل لنيل حقوقه الاساسية طبقا لاهداف ومبادىء ميثاق الامم المتحدة . ٣ — ان تعمل الوفود العربية لدى الامم المتحدة على دعوة منظمة التحرير الفلسطينية لعرض وجهة نظر الشعب الفلسطيني اثناء بحث القضية في الجمعية العامة للامم المتحدة » .

لقد اعطى قرار الجامعة العربية افاقا جديدة للنضال الفلسطيني متسعة باتساع العالم كله ، كذلك — في حال نجاح الدول العربية والصديقة بادراج هذا البند مستقلا في جدول اعمال الجمعية العامة — فقد وضع القرار القضية الفلسطينية على عتبة مرحلة جديدة ابرز سماتها ان المجتمع الدولي يعود فيها الى البحث في جذر القضية للمرة الاولى منذ العام ١٩٥٢ عندما طويت القضية — باعتبارها قضية فلسطين — من جدول اعمال الجمعية العامة للامم المتحدة واهمل جوهرها ، في الوقت الذي كان يجري التركيز ، منذ ذاك ، على مشتقاتها بعد ان اصبحت تدرج منذ دورة العام ١٩٥٢ ضمن تقرير مفوض وكالة غوث اللاجئين العام ، وبعد العام ١٩٦٧ في اطار « الوضع في الشرق الاوسط » . اما الان فان بحث « قضية فلسطين » يفترض العودة الى الجذور ، ليس بما ترتب على احداث العام ١٩٤٨ من نتائج (قيام اسرائيل وتشريد الشعب الفلسطيني واقتسام الارض الفلسطينية) فحسب ، وانما منذ ان كانت فلسطين قضية تحت الانتداب البريطاني ثم في ظل الاحتلال الاسرائيلي .

لقد اوضح الاخ فاروق القدومي ، رئيس الدائرة السياسية في المنظمة ، في تصريح له في القاهرة (٩/١) ان منظمة التحرير تأمل من طرح قضية فلسطين في الامم المتحدة « اولا : الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير . ثانيا : اعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وطبقا لروح ميثاق الامم المتحدة ونصه . ثالثا : الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في العودة الى اراضيه ودعم استقلاله الوطني » . وبطبيعة

الحال ان تحقيق هذه الاهداف — المطاليب يتطلب نضالا سياسيا فلسطينيا مدعوما بجهد عربي ومن جانب الدول الصديقة كي تخرج الجمعية العامة بقرارات تلبي هذه المطاليب ضمن منظومة واحدة عنوانها « قضية فلسطين » ، ذلك ان الجمعية العامة قد اتخذت في دوراتها خلال السنوات الاربع الماضيات عددا من القرارات التي تنسجم في خطوطها العريضة مع بعض هذه الاهداف التي ذكرت ، غير انها ادرجت جميعا تحت بند الوضع في الشرق الاوسط ، مما يشير الى ان جوهر القضية ظل غائبا عن البحث ما دامت هذه القرارات غير مقرونة بهذا الجوهر وباساس القضية . ونذكر هنا بعض هذه القرارات التي اتخذتها الجمعية العامة .

لقد اعترفت الجمعية العامة بحق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير ، لاول مرة في الدورة الخامسة والعشرين في العام ١٩٧٠ واعيد تأكيد هذا الاعتراف في الدورات السادسة والعشرين والسابعة والعشرين والثامنة والعشرين في الاعوام ١٩٧١ ، ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ على التوالي . وقد اكد القرار الذي اتخذ في ١٩٧٣/١٢/٧ (الدورة ٢٨) « ان شعب فلسطين مؤهل لحقوق متساوية ولتقرير المصير » كما اعلنت الجمعية العامة « ان الاحترام الكامل لتحقيق الحقوق الثابتة لشعب فلسطين وخاصة حقه في تقرير المصير لازم من اجل سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط » .

اما بالنسبة للاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في العودة الى اراضيه ، فقد اعترفت الجمعية العامة بحق « اللاجئين الفلسطينيين » بالعودة الى وطنهم منذ اتخاذها القرار ١٩٤ (٣) في كانون الاول ١٩٤٨ ، وفي الدورة السابقة (الدورة ٢٨) اعلنت الجمعية العامة « ان تمتع اللاجئين الفلسطينيين العرب بحقهم في العودة الى مواطنهم وممتلكاتهم والذي اعترفت به الجمعية العامة بالقرار ١٩٤ (٣) في ١١ كانون الاول ١٩٤٨والذي كررت الجمعية العامة تأكيده منذ ذلك التاريخ هو امر لا غنى عنه من اجل تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين ، ومن اجل ممارسة شعب فلسطين حقه في تقرير المصير ». ومع هذه الايجابية الظاهرة في القرار الذي يربط بين « عودة اللاجئين » وممارسة شعب فلسطين حقه في تقرير المصير » فان جهدا سياسيا موجها يمكن ان يسفر عن تكريس اصطلاح « عودة شعب فلسطين » في قاموس الامم المتحدة بديلا عن « عودة اللاجئين » .

اما الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني فقد اعترف بها القرار ٢٧٨٧ (٢٦) الذي اتخذته الجمعية العامة في الدورة السادسة والعشرين والذي نص على ما يلي : « ان الجمعية العامة ... « اذ تعيد التأكيد على الحقوق الثابتة لجميع الشعوب ، وفي شكل خاص شعوب زمبابوي وناميبيا وانغولا وموزامبيق وغينيا (بيساو) والشعب الفلسطيني ، في الحرية والمساواة وتقرير المصير وشرعية كفاحها لاستعادة هذه الحقوق ، تؤكد شرعية كفاح الشعوب من اجل تقرير المصير والتحرر من السيطرة الاجنبية والاستعمارية والاستعباد الاجنبي ، خاصة في جنوب افريقيا وتحديداشعوب زمبابوري وناميبيا وانغولا وموزامبيق وغينيا (بيساو) ، كذلك الشعب الفلسطيني بجميع الوسائل المنسجمة مع ميثاق الامم المتحدة».

وهكذا ، استنادا الى التجربة السابقة ، يجوز التأكيد ان الجمعية العامة ستتخذ قرارات تنسجم تماما مع ما تأمله منظمة التحرير ، خاصة اذا اخذ بالاعتبار ان عدد الدول المؤيدة للحق الفلسطيني أخذ في الازدياد مع تصاعد وتيرة النضال الفلسطيني العسكري والسياسي . وان اطلالة على عمليات التصويت التي تمت منذ العام ١٩٧٠ على القرارات المتعلقة بحق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير تؤكد هذه الحقيقة . فقد نال القرار المتعلق بهذا الشأن في العام ١٩٧٠ ٤٧ صوتا وعارضه ٢٢ وامتنع عن التصويت ٥٠ ، بينما كانت النسب في العام ١٩٧١ هي على التوالي ٥٣ ، ٢٣ ، ٤٣ ، وفي العام ١٩٧٢ هي ٦٧ ، ٢١ ، ٣٧ وفي العام ١٩٧٣ هي ٨٧ ، ٦ ، ٢٣ . وكانت الدول التي عارضت القرار في الدورة الاخيرة بالاضافة الى الولايات المتحدة واسرائيل — وهما الطرف الاساسي في العداء — دولا هامشية عديمة التأثير هي باربادوس وبوليفيا وكوستاريكا ونيكاراغوا .

هذه الحقيقة ، حقيقة رجحان الكفة في المجتمع الدولي لمصلحة الحق الفلسطيني وما يسفر عن ذلك من احتمال اعتراف الامم المتحدة بمنظمة التحرير كممثلة للشعب الفلسطيني وما يترتب على

ذلك من انعطافات حادة في مستقبل القضية الفلسطينية وانعكاسات ذلك كله سلبا على اسرائيل اثار ردود فعل يائسة في اسرائيل عبر عنها وزير خارجيتها يجال الون في خطاب له امام الكنيست (اذاعة اسرائيل ٩/٩) قال فيه « في هذه الساعات بالضبط تجري اتصالات مع جميع عواصم دول العالم التي لنا معها علاقات دبلوماسية لنشرح لها مدى الخطورة الكامنة في مبادرة جامعة الدول العربية ، بواسطة دول عربية ، والتي تسعى لطرح بند فلسطين على جدول اعمال الجمعية العامة للامم المتحدة وذلك مع تاكيد السلبية والعدوان في الميثاق الفلسطيني، والضرر الذي سيلحق بالجو المطلوب في الوقت الذي توجهت اطراف النزاع الى طريق الجهود السياسية . وانا لا استطيع ان التزم امام اعضاء الكنيست بأن تثمر هذه الجهود . ولاسفي الشديد فان منظمة التحرير الفلسطينية حظيت في السنوات السبع الاخيرة باعتراف متزايد ايضا في عواصم كثيرة في العالم ومنها دول صديقة » .

ان الشهرين القادمين سيشهدان صراعا سياسيا عنيفا ، فاسرائيل تدرك خطورة تمرير قرار في الجمعية العمومية للامم المتحدة يتعلق بجذر القضية الفلسطينية ، فهي نفسها اكتسبت شرعيتها الدولية بقرار من الامم المتحدة . وقد عبرت الاذاعة الاسرائيلية عن هذا الادراك بتعليق (٩/٤) جاء فيه ان « مغزى هذا القرار سيكون منح مكانة لمنظمة التحرير الفلسطينية ويعترف بها كحركة تحرر وطني، وتعطى مكانة مراقب في الامم المتحدة، وبعدها تشترك في المناقشات ، والخطوة التالية ستكون تأليف حكومة واقامة دولة فلسطينية » .

الجبهة الاردنية

حفل الشهر الماضي بكثير من الحديث عن مسألة « فك الارتباط على الجبهة الاردنية » وقد ظهرت هذه المسألة وكأنها ملحة وعاجلة منذ صدر بيان الاسكندرية ، الاردني — المصري المشترك في ١٨ تموز الماضي ، والذي اتفق فيه الجانبان « على ضرورة التوصل الى اتفاق فك الارتباط على الجبهة الاردنية ، كخطوة اولى نحو الحل السلمي العادل » . وقد فسر ذلك البيان بانه ضوء اخضر فتح الطريق امام النظام الاردني ليخوض تجربة المفاوضات العلنية مع اسرائيل من اجل التوصل الى تسوية ما تتعلق بفلسطين الوسطى (الضفة الغربية) . وقد رجح ذلك التفسير انذاك من خلال واقعين : الاول الاستجابة الاسرائيلية السريعة لبيان الاسكندرية ، والتي تمثلت في القرار الذي اتخذته الحكومة الاسرائيلية في ٧/٢١ والذي نص على « ان الحكومة الاسرائيلية ستقوم بالخطوات اللازمة لتبدأ مع الاردن مفاوضات من اجل التوصل الى اتفاق سلام » ، والثاني المؤشرات التي كانت تدل على ان « فك الارتباط » رغبة اميركية ، جرى التعبير عنها باكثر من وسيلة ، غير ان تضمينها الاساسي كان في توجهات السياسة المصرية نحو دعم هذه المسألة ، مع الاخذ بعين الاعتبار ان كل الدلائل تشير الى ان يقع الالتقاء بين التوجهات المصرية والاخرى الاميركية ازاء الموقف من التسوية ، خاصة المتعلقة بالجبهة الاردنية ، آخذة في الاتساع .

لقد كشفت « الاهرام » (٨/١٢) جانبا من التصور الاميركي لفك الارتباط ، فقد كتبت ان كيسنجر كان قد عرض على رئيس وزراء الاردن تسوية جزئية مع اسرائيل تقوم على انسحاب من جزء من الضفة الغربية للاردن يتركز في قطاع اريحا وبعمق يتراوح بين ١٠ و ١٢ كيلو مترا . ويردف هذا التصور موافقة مصرية على « ان الاردن يمكنه ان يمثل الفلسطينيين في الضفة الشرقية وفي الضفة الغربية بصفة مؤقتة بشرط ان يكون ذلك سببا لاقناع اسرائيل بالانسحاب من هذه الضفة » كما ذكر ذلك اسماعيل فهمي ، وزير خارجية مصر ، في مقابلة تلفزيونية مع محطة أن. بي. سي. (٨/١٦) .

الى اي مدى وجدت هذه التوجهات استجابة لدى اسرائيل ؟ . تقضي الاجابة على هذا السؤال تمهيدا بتأكيد قضية اساسية هي انه على الرغم من انطباق المصلحتين الاميركية والاسرائيلية في المنطقة العربية فان هامشا من التعارض يبرز احيانا متعلقا بكيفية النظرة الى هذه المصلحة والوسائل الكفيلة بالحفاظ عليها . وبقدر ما يتعلق الامر بالموضوع المطروح هنا ، فان المصلحة

الاميركية وكذلك الاسرائيلية تقضيان بمنع وضــع فلسطين الوسطى تحت سلطة وطنية فلسطينيــة مستقلة . وقد عبرت « معاريف » (٨/١٢) عــن هذه الحقيقة بقولها « ان الولايات المتحدة واسرائيل توصلتا الى النتيجة نفسها وهي انه ينبغي استبعاد امكان انشاء دولــة فلسطينية بــين اسرائيــل والاردن » . ومع وجود هذه المصلحة المشتركــة فان هامش التعارض ينبثق من اختلاف وجهة النظر بالوسائل التي تمنع قيام اي سلطة وطنية فــوق الارض الفلسطينية . ففي الوقت الذي تتجه فيــه السياسة الاميركية ، حسب معطياتها الظاهــرة ، نحو تمكين النظام الاردني من العودة الى بعــض الارض الفلسطينية ، تجد اسرائيل ان الوقت لا يزال مبكرا لتقديم « تنازلات اقليمية » لمصلحــة النظام الاردني ، وتشير كثير من الدلائل الى انها لا تزال متمسكة ببقائها في فلسطين الوسطى مــا دامت موازين القوى الراهنة تبيح لها استمــرار الاحتلال . ويتعزز هذا الاتجــاه في السياســة الاسرائيلية نتيجة الاوضاع الداخلية في اسرائيل . فمن الواضح ان هناك انقساما في الرأي داخــل اسرائيل بالنسبة لمسألة التسوية مــع الاردن ، ويهــدد هذا الانقســام اذا دفع الى مـــداه الائتلاف الحكومي الراهن كما ينذر بأثارة المشاكل في وجه الحكومة ذات اغلبية الصوت الواحد ممــا يعرض بقاءها للتهديد . وقــد وصفت الاذاعــة الاسرائيلية في برنامجهــا العبري (٩/٨) هــذا الانقسام في الراي الذي تبلور كما يبدو في جلســة الحكومة بتاريخ ٩/٨ ، فقد ذكرت الاذاعة « اذا حاولنا ترتيب الامور التي قيلت اليوم في الحكومة ، تبرز مجموعتان من الوزراء : المجموعة الاولى تحاول ان تكون المفاوضات مع مصر اولا . وان اهم حجج هذه المجموعة انه يمكن التحدث مع مصــر عن تسوية جزئية اخرى ، وبالطبع مقــابل ثمن ملائم . وبالنسبة للاردن فقد طرحت اقتراحات مثل فصل القوات وتنازلات من جانب واحد على اسرائيل ان تقوم بها دون اي مقابل . وتؤكد مجموعـــة الوزراء هذه حقيقة ان اي تنازل اقليمي في الضفة الغربية يستوجب خوض انتخابات . وبالمقابل هناك المجموعة الثانية التي تزعم انه يجب ان تكـــون المفاوضات مع الاردن اولا . كذلك يزعم اعضاء هذه المجموعة الوزارية انه اذا لم تجر في هــذه المرة مفاوضات مع الاردن فان الامر قد يدفع نحــو الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كمنظمة ممثلة لشؤون الفلسطينيين ومن ثم تعقيد الوضع السياسي اكثر » .

ان فك الارتباط ، الذي يعني سياسيا انسحابا اسرائيليا من بعض اجزاء الضفة الغربية وعــودة الادارة الاردنية اليها ، يتم في حالة واحدة فقط هي قيام ظروف محلية (فلسطينية علـــى الاخص وعربية) ودولية تجعل الاحتلال الاسرائيلي امــرا متعذرا ، عندها تجد اسرائيل نفسها مضطرة الى المفاضلة بين خيارين : التسليم بقيام سلطة وطنية فلسطينية الى جانبها او عودة النظــام الاردنــي الى حكم الارض الفلسطينية ، فتختار اسرائيــل البديل الذي يتمشى مع مصلحتها ، نعني عــودة الارض الفلسطينية الى القبضة الاردنية . وهكذا في ظل موازين القوى الراهنة لا نرى ان الخيــار الثالث ــ استمرار الاحتلال ــ قد سقط الان ، ولم تنضج الظروف المحلية والدولية بعد التي تلــزم اسرائيل بالانسحاب . ونتوصل الى النتيجــة : ان منع قيام السلطة الوطنية الفلسطينية ، مــن وجهة النظر الاسرائيلية ، هي ادامة الاحتلال ، وبذلك يسقط بالتأكيد بديل « فك الارتباط » علــى الجبهة الاردنية ، وهو بديل غــــير مضطرة لـــه اسرائيل . وقد اكد اسحق رابين ، رئيس الحكومة الاسرائيلية ذلك في تصريح له (٨/١٩) بقولــه « ان المرحلة المقبلة نحو السلام ليست اتفاقا على فصل القوات بل انها سلام حقيقي فقط . ولا توجد اتفاقات فك ارتباط غير الاتفاقات التي عقدت » .

هل استجابت الولايات المتحــدة لهذا التوجــه الاسرائيلي ؟ يعلمنا تاريــخ العلائق الاميركية ــ الاسرائيلية ان حل التعارضات الناشئة بين الطرفين يحسم عادة لمصلحة وجهة النظر الاسرائيلية . ونذكر هنا بما كتبته صحيفة « هآرتس » الاسرائيلية في ١٩٧٢/١/١٣ عندمــا ظهر تعارض في الموقفــين الاميركي والاسرائيلي من مسألة فتح قناة السويس وما سمي حينذاك بالمحادثات عن كثب « ان جميع الخطوات الاميركية حتى تلك التي اعدت للضغط على القدس ترتكز عــلى ان اسرائيــل هي مصلحة وطنية للولايات المتحدة ... ولا يعني هذا ان هناك وفاقا تاما بين اسرائيل والولايات المتحدة ، ولكن عدم الاتفاق ناتج عن اختلاف الرأي بالنسبة الى

السؤال : ماذا يقوي اسرائيل ، الاراضي أم التسويات » ، نذكر بهذا القول الذي يحدد بدقة سياسة اميركه تجاه اسرائيل ونستحضر الالتزام الاميركي ببقاء « اسرائيل قوية » (اذاعة اسرائيل ٨/١٠ ذكرت ان كينيث كيتنغ ، السفير الاميركي في اسرائيل سلم رابين رسالة من فورد اكد فيها الاخير « استمرار السياسة الاميركية تجاه اسرائيل » وقال ان الولايات المتحدة سوف تلتزم بكل تعهداتها نحو اسرائيل ، وسوف تمدها بمعونة مالية وعسكرية طويلة الاجل) ، ونصل الى النتيجة وهي ان وجهة النظر الاسرائيلية قد تغلبت في هامش التعارض على وجهة النظر الاميركية ، وأبلغ كيسنجر الصحافيين المصريين (أ. ش. أ. ٨/١٤) ان هناك مصاعب أمام مسألة فك الارتباط في الجبهة الاردنية تنبع من الموقف الداخلي في اسرائيل لان هذه المسألة تثير الكثير من المشاكل .

وعلى الرغم من ان البيان المشترك من محادثات الملك حسين والرئيس الاميركي فورد الصادر في ٨/١٨ نص على انه « تم الاتفاق على ان هذه المشاورات [بين الاردن واميركه] ستستمر بهدف معالجة المشاكل التي تشكل اهتماما خاصا للاردن **في وقت مناسب** بما في ذلك اتفاق اردني — اسرائيلي حول فك الارتباط » ، على الرغم من هذا النص فقد ظهر واضحا ان مسألة « فك الارتباط » قد دفعت الى الوراء ، ولم يحسن بعد « الوقت المناسب » لها ، وقد تأكد ذلك في مؤتمر صحافي عقده حسين في واشنطن (٨/١٨) ذكر فيه ان مباحثات كيسنجر الحالية مع المبعوثين العرب والاسرائيليين ، لم تحدد بعد اذا كانت الخطوة المقبلة في البحث عن سلام دائم في الشرق الاوسط ستكون مفاوضات اردنية — اسرائيلية او مباحثات مصرية أخرى حول الانسحاب الاسرائيلي من سيناء. وقد ذكرت « الاهرام » (٨/١٨) « ان الولايات المتحدة ابلغت حسين انهما ترى ضرورة تأجيل موضوع فصل القوات على الجبهة الاردنية الى وقت محدود على الاقل ، الى حين تسوية كل المشاكل التي يمكن ان تترتب على هذه الخطوة » . وقد جاءت زيارة رابين الى الولايات المتحدة في الشهر الماضي تكريسا لوجهة النظر هذه. فقد أعلن رابين لدى عودته الى تل ابيب (٩/١٥) ان اسرائيل توصلت الى اتفاق مع الولايات المتحدة حول « الشريك المقبل » في « مفاوضات السلام » وقال ان اسم هذا « الشريك » لن يعلن الا بعد اسابيع . غير ان وكالات الانباء نقلت عن مراقبين في اسرائيل «ان رابين اتفق مع المسؤولين الاميركيين على محاولة بدء مفاوضات جديدة مع مصر تتبعها مفاوضات مع الاردن » .

عصام سخنيني

(٢) القضية الفلسطينية دوليا

كان هذا الشهر شهر الزيارات بالنسبة لعدد من كبار المسؤولين العرب الى واشنطن لمقابلة الرئيس الاميركي الجديد فورد والدكتور كيسينجر وغيرهما من كبار المسؤولين الاميركيين . وكانت أهم هذه الزيارات هي التي قام بها وزير الخارجية المصري في الاسبوع الثاني من شهر آب لبحث الخطوات القادمة بالنسبة للتسوية السلمية في الشرق الاوسط وانعقاد مؤتمر جنيف للسلام ، بالاضافة الى مشكلة ما يسمى بنصل القوات على الجبهة الاردنية والعلاقات الثنائية المصرية الاميركية . وجاءت زيارة فهمي الى العاصمة الاميركية في الوقت الذي كان فيه الرئيس فورد يلقي خطابه السياسي الاول امام جلسة مشتركة لمجلسي النواب والشيوخ الاميركيين . ومما لفت الانتباه حضور الوزير المصري — اسماعيل فهمي — هذه الجلسة لانه كان الاجنبي الوحيد الذي شارك في هذا الحدث الاميركي السياسي الداخلي المحض والذي لا سابقة له في التقاليد البرلمانية الاميركية . وتطرق فورد في خطابه الى مشكلة الشرق الاوسط مؤكدا من جديد الخطوط العامة لسياسة حكومته وموضحا بذلك الجو العام الذي جرت فيه المحادثات الاميركية مع الزعماء العرب الذين زاروا واشنطن هذا الشهر . وجاءت اشارة فورد الى مشكلة الشرق الاوسط استمرارا للتأكيدات التي كان قد أطلقها عند استلامه السلطة بالاستمرار على خطى الرئيس السابق نيكسون والالتزام بسياسته « المتوازنة » فيما يتعلق بالنزاع العربي الاسرائيلي ، لذلك تعهد في خطابه بأن تكون جهوده في هذا المضمار استمرارا نشيطا لسياسة نيكسون كما التزم بتشجيع استمرار المفاوضات بين الفرقاء المعنيين من اجل الوصول الى « تسوية كاملة وعادلة ودائمة » للنزاع . وبالاضافة الى اجراء المحادثات مع فورد وكيسينجر ترأس فهمي (مع كيسينجر) أول اجتماع تعقده لجنة التعاون الاميركية — المصرية لدراسة الاجراءات التطبيقية والعملية المطلوبة لتنفيذ الاتفاقات التي كان قد تم عقدها بين مصر واميركا في السابق وخاصة اثناء زيارة الرئيس نيكسون لمصر . ومن المعروف ان هذه الاتفاقات تشمل مجالات التجارة والاستثمار والزراعة واعادة تعمير منطقة قناة السويس ، بالاضافة الى التعاون العلمي والطبي بين البلدين ، والمساعدات الاميركية لمصر في مجال استخدام المفاعلات الذرية لاغراض سلمية .

وقد أدلى الوزير فهمي بعدد من التصريحات اثناء زيارته كان اهم ما فيها النقاط التالية :

(١) تأكيده على أن العلاقات المصرية — الاميركية سوف تصبح أقوى وأمتن من السابق ، لان الرئيس فورد ينوي التحرك بحرية وبطريقة ايجابية ازاء مشكلة الشرق الاوسط ، متحررا من قيود فضيحة ووترغيت وهمومها ، مما سيمكنه من الحصول على تأييد الكونغرس الاميركي لسياسته .

(٢) تجديد الرئيس فورد الدعوة الى الرئيس السادات لزيارة الولايات المتحدة هذا العام .

(٣) ان محادثاته مع فورد وكيسينجر كانت شاملة وتناولت الموقف الدولي مع تركيز خاص على أزمة الشرق الاوسط . وقد أبدى فهمي ارتياحه الكبير لهذه المحادثات .

(٤) ان فورد اكد له بأن السياسة الاميركية ستسير في الخط ذاته الذي انتهجته اميركا بعد حرب اوكتوبر ١٩٧٣ بهدف تحقيق سلام دائم وثابت في الشرق الاوسط . هذا بالاضافة الى تدعيم العلاقات الطيبة بين البلدين .

(٥) ان من حق الفلسطينيين الاشتراك في مؤتمر جنيف « كما هو الحال تماما بالنسبة الى الاسرائيليين » وان اقرار السلام في الشرق الاوسط بدون ايجاد حل عادل للقضية الفلسطينية مستحيل .

(٦) ان الضفة الغربية أمانة في يد الملك حسين كما ان غزة أمانة في يد مصر . وبناء عليه سيكون بامكان الاردن « تمثيل الفلسطينيين في الضفتين الشرقية والغربية لنهر الاردن بصورة مؤقتة لان في ذلك محاولة لاقناع اسرائيل بالانسحاب من الضفة الغربية » .

(٧) بأنه ليس في استطاعة اسرائيل الاستمرار في احتلال الاراضي العربية بالقوة وتجاهل الحقوق المشروعة للفلسطينيين . وعلى هذا الاساس فان مصر تنصح كل الاطراف باتخاذ موقف معتدل في مؤتمر جنيف للسلام الذي سيعقد خلال العام الحالي ،

كما انها تعمل على تنسيق مواقف الدول العربية كي تذهب كجبهة واحدة الى مؤتمر جنيف .

وبالنسبة للجانب الامريكي فقد ادلى كيسينجر بعدد من التصريحات خلال زيارة فهمي أكد فيها :

(١) ان بلاده ستفي بكل التزاماتها المتعلقة بتحقيق السلام في الشرق الاوسط وهذا يعني تعاونه تعاونا تاما مع الوزير فهمي للوصول الى تسوية للازمة .

(٢) ان احتمال انعقاد مؤتمر جنيف قبل نهاية العام الحالي وارد جدا حيث سيجري البحث في مسألة اشتراك الفلسطينيين في أعمال المؤتمر .

(٣) انه سيقوم قريبا بجولة جديدة في الشرق الاوسط في شهر تشرين الاول .

(٤) ان التوصل الى سلام دائم في الشرق الاوسط وليس مجرد وقف اطلاق نار مسألة ضرورية للسلام العالمي . ولن يكون هناك اي سلام بالنسبة للعرب « بدون عودة الاراضي والعمل على معالجة المظالم التي تعرض لها الشعب الفلسطيني بطريقة عادلة » . ولن يكون هناك اي سلام بالنسبة لاسرائيل ايضا « بدون الاعتراف بشرعية وجودها وأمنها كأمة من قبل جيرانها » .

(٥) ان الاردن واسرائيل سيتفقان على فصل قواتهما ربما في الشهر المقبل .

وعلى اثر انتهاء زيارة فهمي صدر بيان مشترك مصري — اميركي رسمي جاء فيه :

(١) ان الرئيس فورد قدم تعهدات شخصية حول استمرار سياسة الولايات المتحدة بالنسبة لازمة الشرق الاوسط وحول مواصلة جهودها الاكيدة للتوصل الى السلام في المنطقة .

(٢) ان محادثات فهمي كانت مساهمة بناءة في المشاورات الجارية الان بصدد المرحلة التالية من المفاوضات من أجل التوصل الى السلام الدائم والعادل في المنطقة .

(٣) الاتفاق على ان مثل هذا السلام يجب ان يأخذ بعين الاعتبار المصالح المشروعة لكل شعوب الشرق الاوسط بمن فيهم الشعب الفلسطيني « وحق الوجود لكل الدول في المنطقة » .

(٤) الاتفاق على ضرورة استئناف مؤتمر جنيف لاعماله في أقرب وقت ممكن .

(٥) ان الرئيس الاميركي سيكرس نفسه لتقوية علاقات الصداقة النامية بين الولايات المتحدة ومصر . وبهذا الصدد حدد البيان النقاط التي تم الاتفاق عليها في المجالات الاقتصادية وأهمها :

(أ) ضرورة استكمال وضع الخطط المحددة بشأن انشاء جهاز مشترك يضم ممثلين عن رجال الاعمال في كلا البلدين وذلك قبل نهاية شهر تشرين الثاني المقبل .

(ب) الاتفاق على وسائل تشجيع تدفق رساميل الاستثمارات الخاصة لتعزيز القطاع الصناعي في مصر ، وارسال الولايات المتحدة في القريب العاجل خبراء في هذا الميدان الى مصر .

(ج) دراسات مفصلة لعدد من المشاريع التي يمكن ان تشارك فيها الشركات الاميركية في مصر .

(د) المساعدات الاميركية لاعادة فتح قناة السويس وتعمير المدن الرئيسية هناك .

(هـ) تحسين الاتصالات بين البلدين في مجالات التنمية الزراعية والتعاون الفني لتحديث الزراعة المصرية بالاضافة الى الاجراءات التفصيلية المتعلقة بالتعاون العلمي والتقني والثقافي والتعليمي والفني .

وجدير بالملاحظة ان البيان المشترك كان اول بيان من نوعه يتكلم عن « حق الوجود لكل الدول في المنطقة » بدلا من الصيغة المعتادة القائلة بالاعتراف بحق كل الشعوب في المنطقة في السيادة والاستقلال . وتعني الصيغة الجديدة ضمنا الاعتراف بحق اسرائيل في الوجود وليس مجرد حق الشعب الاسرائيلي في ذلك .

ذكرت الانباء الصحفية التي تواترت حول زيارة فهمي ان مصر تسعى الى الحصول على مساعدات غذائية اميركية قيمتها ٧٥٠ مليون دولار تشمل القمح والزيوت وغيرها من المواد الغذائية على اساس قروض طويلة الامد وعلى شكل هبات ومساعدات. كما ذكرت هذه الانباء ان فهمي وافق في اجتماعاته مع كيسينجر على ان تتناول المرحلة المقبلة من المفاوضات الاسرائيلية العربية موضوع التوصل الى اتفاق جزئي بين اسرائيل والاردن . وقالت صحيفة الاهرام بضرورة اقتحام العرب لابواب الكونغرس الاميركي لضمان تنفيذ بنود الاتفاق المصري — الاميركي الذي وقعه وزيرا خارجية البلدين .

وتجدر الاشارة بهذا الصدد الى ان الرئيس فورد رفض علنا اقتراح نقل السفارة الاميركية في اسرائيل من تل ابيب الى القدس في الوقت الحاضر « لكي لا تعرقل هذه المسألة مفاوضات السلام » مما يعني ضمنا عدم اعتراف اميركا الرسمي بالقدس الموحدة عاصمة لاسرائيل . ومن جهة اخرى صرح سايمون وزير الخزانة الاميركي ان بلاده « تدرك الدور التاريخي والفريد الذي تقوم به مصر كمركز للزعامة السياسية والثقافية في الشرق الاوسط كله » . ولذلك ستقدم الولايات المتحدة الى مصر مساعدات اقتصادية تبلغ قيمتها ٢٥٠ مليون دولار كما ستزودها بالمنتجات الزراعية على اساس قروض طويلة الاجل وستعمل على زيادة التسهيلات التي يقدمها بنك الاستيراد والتصدير الاميركي الى مصر كما ستؤيد حصول مصر على أكبر قدر من القروض من البنك الدولي للانشاء والتعمير ومن صندوق النقد الدولي والمنظمات الدولية المشابهة الاخرى . كذلك اكد سايمون ان الامل ضئيل في تدني اسعار النفط قبل انخفاض حدة التوتر بين الدول العربية واسرائيل . ولذلك فانه يعمل مع كيسينجر على اعداد سياسة جديدة بالنسبة للمصالح الاقتصادية والسياسية الاميركية في الشرق الاوسط .

● كانت الزيارة الهامة الثانية لواشنطن هي زيارة الملك حسين التي جاءت على اثر محادثات تمهيدية أجراها وزير خارجيته زيد الرفاعي . ومن المؤكد ان محادثات الملك حسين مع الرئيس فورد والدكتور كيسينجر شملت بالتحديد مطالب الاردن باجراء فصل للقوات على جبهته بالاضافة الى المشكلات العامة المتعلقة بالتسوية السلمية والعلاقات الثنائية بين البلدين وتسليح اميركا للاردن . وكان موضوع السلاح مجال محادثات الملك مع وزير الدفاع الاميركي. وأدلى الملك حسين بعدد من التصريحات اثناء زيارته قال فيها :

(١) انه مرتاح اشد الارتياح لهذه المحادثات التي جرت في جو من الصداقة والصراحة واستندت الى الرغبة المشتركة في اقامة سلام عادل ودائم في المنطقة .

(٢) ان الاردن على استعداد للتفاوض مع اسرائيل لفك الارتباط وانه يرحب بوساطة كيسينجر ودبلوماسيته المتنقلة لتحقيق ذلك .

(٣) ان المباحثات الاميركية ــ العربية الحالية لم تحدد بعد ما اذا كانت الخطوة المقبلة في البحث عن السلام الدائم في الشرق الاوسط ستكون المفاوضات الاردنية ــ الاسرائيلية او اجراء مباحثات اضافية حول انسحاب اسرائيل من سيناء .

(٤) انه لا يعتقد ان مؤتمر جنيف سينعقد في المستقبل القريب لانه من الضروري اعطاء فترة من الزمن لوزير الخارجية الاميركي كي يعمل « على ضوء التغيرات التي حدثت مؤخرا » .

(٥) انه بدون اجراء فك ارتباط اردني ــ اسرائيلي لا يمكن لمباحثات السلام مع اسرائيل أن تبدأ .

(٦) ان محادثاته مع وزير الدفاع الاميركي حول تزويد الاردن بالسلاح كانت « مرضية جدا » .

(٧) انه ليس بامكانه التفاوض لحساب منظمة التحرير الفلسطينية وهو لا يقبل تعيينه وصيا على الضفة الغربية خلال اجراء مفاوضات فصل القوات مع اسرائيل في الجبهة الاردنية .

(٨) انه اذا طلب منه رؤساء الدول العربية صراحة ان يترك لمنظمة التحرير الفلسطينية مسؤولية التفاوض حول الضفة الغربية فانه سيعتبر نفسه في حل من مسؤولياته ولن يشترك بأية مفاوضات مقبلة .

(٩) انه يخشى تجدد القتال مع اسرائيل في الاشهر الستة المقبلة ما لم يتم تحقيق تقدم نحو تسوية الازمة في المنطقة .

(١٠) ان الاردن يضع شرطا مسبقا للاشتراك في مؤتمر جنيف وهو انسحاب اسرائيل الى عمق معقول من المواقع التي تحتلها الان لوادي الاردن.

(١١) انه في وسع منظمة التحرير ان تذهب الى مؤتمر جنيف لكنها « لا تستطيع التفاوض على مستقبل الضفة الغربية او حتى على مستقبل اية أراض فلسطينية تجري استعادتها او حول مستقبل الشعب الفلسطيني لان كل هذه القضايا يجب ان يقررها الفلسطينيون بأنفسهم » .

وبالنسبة للجانب الاميركي فقد صرح الرئيس فورد أمام الملك حسين بأن بلاده تتعهد بتقديم الدعم الكامل للمبادرات الدبلوماسية الجارية لتحقيق السلام في الشرق الاوسط . كذلك صرح كيسينجر

قائلا ان الولايات المتحدة مهتمة اهتماما كبيرا باحراز المفاوضات الاردنية — الاسرائيلية تقدما وان اهتمامها بذلك يشبه تماما الاهتمام الذي أبدته بالتقدم الذي أحرزته المفاوضات المشابهة الاخرى التي جرت سابقا . وان حكومته ستبذل كل جهدها للمساعدة على احراز مثل هذا التقدم على الصعيد الاردني — الاسرائيلي .

وعلى اثر انتهاء زيارة الملك حسين صدر بيان مشترك كان أهم ما فيه قوله بأنه تم الاتفاق بين الطرفين على استمرار المشاورات حول تحقيق اتفاق لفك الارتباط بين الاردن واسرائيل في الوقت المناسب . وهذه الفقرة في البيان تدعم المطلب الاردني حول مسألة فصل القوات وايجاد موطيء قدم للنظام الهاشمي في الضفة الغربية بدون ان تحسم الموقف نهائيا لصالح سياسة الملك حسين .

والجدير بالذكر ان انباء صحفية عديدة ومتضاربة ترددت عن زيارة الملك حسين ونتائجها وكان أهم ما جاء في هذه الانباء ما يلي :

(١) ان الولايات المتحدة أبلغت الملك حسين ضرورة تأجيل موضوع فصل القوات على الجبهة الاردنية لفترة محدودة تسمح بتسوية المشاكل التي يمكن ان تترتب على تنفيذ هذه الخطوة وتطويقها .

(٢) ان مفاوضات فعلية جرت في الواقع بين الجانب الاسرائيلي والجانب الاردني (آلون وسفير اسرائيل في واشنطن من جهة وزيد الرفاعي من جهة ثانية) تحت اشراف كيسينجر وان المفاوضات توصلت الى اتفاق محدد بين الطرفين على مسألة فصل القوات . ويقول هذا النبأ ان الملك حسين لم يأت الى واشنطن من كندا الا بعد ان حققت مفاوضات زيد الرفاعي مع الجانب الاسرائيلي بعض النجاح .

(٣) ان جوزيف سيسكو هو الذي سيقوم بالتنقل بين الاردن واسرائيل لاتمام المفاوضات على الطريقة الكيسينجرية لتحقيق فصل القوات على تلك الجبهة . وقد جاء هذا النبأ بعد تصريح ادلى به كيسينجر قال فيه بأنه يجب الا يتوقع العالم منه ان يلعب دورا شخصيا في حل كل المشكلات الدولية .

وجدير بالذكر ان اسرائيل عبرت عن انزعاجها من المقطع الوارد في البيان الاميركي — الاردني المشترك حول بحث موضوع فصل القوات . وبناء عليه بعث وزير الخارجية الاسرائيلي يغال آلون برسالة الى كيسينجر اعرب فيها عن دهشته للمقطع المذكور خاصة وان اسرائيل كانت قد اكدت للحكومة الاميركية معارضتها للانسحاب من خط وادي الاردن على اساس اتفاق جزئي . وقد بعث كيسينجر برسالة جوابية شرح فيها الاسباب التي دعت الحكومة الاميركية الى الموافقة على ايراد المقطع المذكور في البيان المشترك . وعلى اثر ذلك صرح آلون أمام البرلمان الاسرائيلي ، الذي اجتمع خصيصا لمناقشة هذا المقطع من البيان الاردني — الاميركي ، قائلا بأن الحكومة الاميركية تؤيد فكرة فصل القوات الاسرائيلية — الاردنية ولكنها لم تلتزم مطلقا بتأييد اي مشروع اردني محدد لتحقيق ذلك .

● الزيارة العربية الثالثة الهامة الى واشنطن قام بها وزير خارجية سوريا عبدالحليم خدام بهدف « متابعة الجهود الرامية الى اقامة سلام عادل ودائم في المنطقة على اساس انسحاب اسرائيل الكامل من الاراضي المحتلة وضمان حقوق الشعب العربي الفلسطيني » على حد تصريح الوزير قبل سفره . كما بين ان زيارته تأتي تنفيذا للاتفاق الذي تم بين الرئيسين الاسد ونيكسون (اثناء زيارة الاخير الى سوريا) بأن يقوم مسؤول سوري كبير بزيارة واشنطن لمتابعة جهود السلام . وأكد خدام بأن سوريا تقدر الجهود المبذولة في هذا المضمار وترى انه من الضروري اتاحة الفرصة اللازمة والوقت الكافي لجهود السلام على الرغم من الاستفزازات الاسرائيلية ومحاولاتها خنق فرص السلام وبترها . وعلى اثر اجتماع خدام بالرئيس فورد والدكتور كيسينجر صرح الناطق باسم البيت الابيض ان الرئيس الاميركي يرى في زيارة خدام تأكيدا للاهمية التي تعلقها الولايات المتحدة على دور سوريا في عملية احلال السلام في الشرق الاوسط وان فورد ابلغ الوزير السوري تصميمه على تعزيز العلاقات السورية الاميركية وسروره لما طرأ من تقدم على هذه العلاقات منذ استئنافها في حزيران الماضي . وأكد الناطق بأن الحكومة الاميركية مستعدة لتقديم كل مساعدة ممكنة لسوريا على الرغم من انها لم تربط نفسها بأي التزام معين تجاه سوريا فيما يتعلق بالمساعدات الخارجية . وصرح خدام من جانبه بأن محادثاته في واشنطن

كانت بناءة ومفيدة وهدفت الى اعطاء الجهود السلمية الجارية حاليا فرصة للتوصل الى سلم عادل ودائم في المنطقة . وجدير بالذكر ان بيانا مشتركا لم يصدر عن المحادثات السورية الاميركية الا ان الوزير السوري شدد في تصريحات اطلقها في طريق عودته على ضرورة انعقاد مؤتمر جينيف باسرع ما يمكن على الرغم من خطورة الوضع الحالي في الشرق الاوسط وتوتره . وعند وصوله الى بيروت اكد ان سوريا ستبذل كل الجهود لعقد المؤتمر في اسرع وقت بحيث يؤدي الى تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٣٣٨ وضمان حقوق الشعب الفلسطيني . وشدد على ذلك بقوله « اننا نريد ان ينعقد مؤتمر جينيف غدا اذا امكن لان الجمود في الوضع يؤدي الى نتائج خطيرة وكل ما من شأنه تجميد الوضع يخدم العدو » . هذا وقد صدر تصريح على لسان الناطق بلسان وزارة الخارجية الاميركية قال فيه ان محادثات خدام مع المسؤولين الاميركيين « كانت بناءة وودية ومثيرة ».

وترددت انباء صحفية تقول ان سوريا وضعت شرطين لتجديد الاتفاق حول وجود المراقبين التابعين للامم المتحدة في مرتفعات الجولان . ذكرت هذه الاخبار ان خدام ابلغ واشنطن بأن حكومة بلاده تطالب بموعد محدد لاستئناف محادثات السلام في جينيف بالاضافة الى ضمانات اميركية رسمية بتأمين المزيد من الانسحاب الاسرائيلي من الجولان . وكنوع من الرد على الموقف السوري صرح شمعون بيريز وزير الدفاع الاسرائيلي قائلا ان سوريا تعتبر مطلبها بوجوب انسحاب اسرائيل من كل الاراضي المحتلة وحل المشكلة الفلسطينية . بمثابة انذار نهائي . كما صرح ضابط اسرائيلي كبير قائلا بأنه على الرغم من ان ليس لدى اسرائيل معلومات خاصة تفيد ان سوريا تنوي بدء الحرب في المستقبل القريب مع ذلك فان اسرائيل لن تنسحب من مرتفعات الجولان مما يعني انه عليها الاستعداد للحرب مع سوريا في المستقبل القريب.

● قام بالزيارة العربية الهامة الاخيرة الى واشنطن عمر السقاف المسؤول عن الشؤون الخارجية في المملكة العربية السعودية حيث قابل كلا من الرئيس فورد والدكتور كيسينجر . وصرح السقاف بأن محادثاته « كانت مفيدة جدا وانها دارت حول العلاقات الثنائية بين البلدين وحول الوضع في الشرق الاوسط بشكل عام . كما اكد ان تقدما كبيرا قد تم تحقيقه في المحادثات بالنسبة لازمة الشرق الاوسط . واعرب عن امله « بأن يواصل كيسينجر جهوده من أجل التوصل الى حل نهائي مبني على العدل وعلى حقوق سكان المنطقة». كذلك اكد الوزير السعودي ان الطرفين السعودي والاميركي متفقان حول كل القضايا التي تم بحثها . أما كيسينجر فقد وصف محادثاته مع السقاف بقوله انها « كانت ودية جدا وحارة جدا » واكد انه تم احراز تقدم كبير بالنسبة لتنسيق مواقف البلدين اذ « اننا توصلنا الى تفاهم جيد حول ما يمكن ان نقوم به وحول الموعد الذي سنقوم به » . وقد اكد الجانب الاميركي ان النفط كان احد المواضيع الرئيسية التي جرى البحث فيها وان الرئيس فورد وجه دعوة رسمية الى الملك فيصل لزيارة الولايات المتحدة .

● على صعيد اخر لا بد من الاشارة الى بعض التطورات ذات الطابع الدولي التي طرأت مؤخرا:

١ — انسحاب اليونان العسكري من الحلف الاطلسي وتوتر علاقاتها توترا شديدا مع الولايات المتحدة واتخاذها اجراءات تحد من حرية التصرف الاميركي بالقواعد الموجودة على الارض اليونانية. وجاء كل ذلك نتيجة موقف الحكومة الاميركية من الغزو التركي لجزيرة قبرص ودورها التخريبي في الكارثة التي حلت بالجزيرة الصغيرة . وقد اثار الانسحاب اليوناني مخاوف اسرائيل اذ ان تزويدها بالسلاح من الولايات المتحدة سيكون صعبا بدون استخدام القواعد العسكرية الاميركية خارج البر الاميركي . ومما زاد الوضع سوءا بالنسبة لاسرائيل تبدل السياسة البرتغالية خاصة وان الديكتاتورية السابقة في البرتغال قامت وحدها في السماح للجسر الجوي الاميركي بالتزود في الوقود اثناء نقل الاعتدة العسكرية الى اسرائيل خلال حرب اوكتوبر ١٩٧٣ . وقد ذكرت مصادر اميركية مطلعة ان اسرائيل اعربت للحكومة اليونانية الجديدة عن قلقها الناتج عن انسحاب اليونان من الحلف الاطلسي خاصة وان اراضي اليونان استخدمت بصورة سرية خلال حرب اوكتوبر لنقل الاسلحة الاميركية الى اسرائيل بموافقة الحكومة العسكرية السابقة . ونتيجة لهذه التطورات تصاعدت الدعوات في اسرائيل لاعطاء تسهيلات

الى اميركا بديلة عن التسهيلات العسكرية التي كانت تحظى بها في اليونان . اي تريد هذه الدعوات احلال اسرائيل محل اليونان في الشبكة العسكرية الامبريالية الاميركية العالمية .

٢ – اعلان الحكومة الفرنسية لقرارها برفع الحظر عن بيع السلاح الى دول الشرق الاوسط ، أي عمليا لدول المواجهة مصر وسوريا والاردن واسرائيل . واعتبر المراقبون ان القرار سيفيد الجانب العربي بصورة عامة ان اراد الاستفادة من شراء الاسلحة الفرنسية . في حين ان اعتماد اسرائيل على السلاح الاميركي يضع حدودا على امكانات استفادتها استفادة تامة من قرار الحكومة الفرنسية الجديد. وقد صرحت بعض المصادر الاسرائيلية بأنها تعتبر هذا القرار خطيرا جدا ومعاديا لاسرائيل لان الدول النفطية الغنية قادرة على شراء الاعتدة والاسلحة الفرنسية بكميات كبيرة ودفعها الى دول المواجهة اذا دعت الحاجة الى ذلك . وقد ترددت انباء صحفية بأن فرنسا تعهدت ببيع مصر نحو ٥٠ طائرة من نوع ميراج ف – ١ وتزويد سوريا بشبكة رادار حديثة . الا ان مصدرا فرنسيا رسميا نفى ان تكون فرنسا قد وقعت اي اتفاق مع مصر او سوريا بهذا الشأن . طبعا ولا يمنع هذا النفي ان تكون الحكومة الفرنسية قد تقدمت بمثل هذا التعهد من حيث المبدأ الى الدولتين العربيتين المعنيتين .

٣ – ورود انباء صحفية عن استعداد الولايات المتحدة ومنظمة التحرير لاجراء مباحثات مباشرة حول القضية الفلسطينية . وذكرت هذه الانباء ان الشرط الذي تصر عليه المنظمة من اجل اجراء مثل هذه المحادثات هو ان تكون علنية ، في حين ان كيسينجر يشترط سرية مثل هذه الاتصالات اذا تمت على مستوى عال . في الواقع ذكرت هذه الانباء ان كيسينجر عبر عن استعداده أمام أكثر من زعيم عربي للاجتماع بياسر عرفات شريطة ان يبقى خبر اللقاء سريا . وقد علقت وزارة الخارجية الاميركية على لسان ناطقها الرسمي على هذه الانباء قائلة بأنها لا تستبعد اجراء اتصالات في المستقبل القريب مع منظمة التحرير . الا ان الناطق رفض الدخول في التفاصيل باستثناء التشديد على ان الموقف الاميركي كان يدعو دوما الى أخذ المصالح المشروعة للشعب الفلسطيني بعين الاعتبار في اية تسوية للنزاع في المنطقة . وقد أثارت هذه الانباء قلقا كبيرا في اسرائيل مما دعا الحكومة الاسرائيلية الى توجيه طلب الى الحكومة الاميركية تستوضحها فيه صحة ما يتردد عن احتمال اجراء مفاوضات بين منظمة التحرير والولايات المتحدة . وقد عكس السفير الاسرائيلي في باريس هذا القلق عندما اجاب على سؤال صحفي حول احتمالات لقاء كيسينجر وعرفات بقوله « ان هذا اللقاء لم يتم حتى الان وارجو الا يتم » .

(٣) المناطق المحتلة

ما أنفك الرأي العام والجماهير الشعبية في الضفة الغربية وقطاع غزه ، عن متابعة التطورات ورصد الاحداث والوقائع الفلسطينية ، سواء على صعيد المناطق المحتلة او على الصعيدين العربي والدولي . ومن خلال ما انشغلت به صحف الضفة الغربية وما كرست من اهتمام ملحوظ ، نجد الجماهير الفلسطينية الرازحة تحت الاحتلال ، والمقاومة لتسلطه البغيض ، قد تابعت التطورات الفلسطينية ، وخاصة التطورات السياسية منها . ولا غرو في ذلك ، ان تفرد العديد من افتتاحيات الصحف العربية في الضفة الغربية الحديث عن زيارة وفد الثورة الفلسطينية الى العاصمة السوفياتية وبعض عواصم الدول الاشتراكية الاخرى . كما كان لحادث اعتقال المطران هلاريون كبوجي مطران الروم الكاثوليك في القدس ، اوسع الاثر واعمقه لدى اوساط جماهير الارض المحتلة . والان ، حيث تأخذ القضية الفلسطينية مكانها الطبيعي في الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة ، ما تزال صحف الضفة الغربية والرأي العام الفلسطيني ، داخل الوطن وخارجه ، يتابع باهتمام كبير تطورات عرض القضية وردود فعل مختلف الدول ومواقفها من الحق الفلسطيني في تقرير المصير وبناء كيانه الوطني المستقل*.

الزيارة التاريخية لموسكو

عكس اهتمام الجماهيرية الفلسطينية عموما ، وجماهير الارض المحتلة بشكل خاص ، بزيارة وفد منظمة التحرير لموسكو ، تقديرا كبيرا لدور الاتحاد السوفياتي الصديق للشعب الفلسطيني والامة العربية . وخلال ايام الزيارة الفلسطينية الى موسكو ، كانت صحف الضفة الغربية تبرز في صدر افتتاحياتها وصفحاتها عناوين اساسية حول الزيارة. وكان من الواضح تماما ان اهتمام صحف الضفة الغربية الملحوظ ، بزيارة موسكو ، يؤكد مدى ما تعلقه الجماهير الفلسطينية ، على تطوير وتمتين العلاقة مع الاتحاد السوفياتي حليف الشعوب ، وخاصة في هذه المرحلة التي يناضل فيها الشعب الفلسطيني بدعم من كل اصدقائه وحلفائه ، وعلى رأسهم الاتحاد السوفياتي ، لاستعادة هويته الوطنية وبناء كيانه المستقل .

فتحت عنوان « شتان ما بين مشرق ومغرب »، علقت صحيفة الشعب الصادرة في ٧٤/٧/٣٠ ، على اهمية الزيارة وتوقيتها فقالت « ان زيارة عرفات لموسكو تنفرد هذه المرة من حيث الاهمية القصوى بأمرين : موضوعيا — انه سيحل ضيفا على ليونيد برجنيف السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفياتي كأي رئيس دولة، فضلا عن ان المحادثات مع وفد فلسطين سيقوم بها وزير الخارجية اندريه غروميكو ، وتوقيتا — تأتي الدعوة والاستجابة في وقت وظرف هامين جدا بالنسبة لاحداث المنطقة وما يدور فيها ومن حولها او من حيث العلاقات الفلسطينية — السوفياتية على اسس واضحة ذات ابعاد خطيرة وحاسمة » . وبعد ان قارنت « الشعب » بين العلاقات الاردنية — الاميركية — الاسرائيلية من جهة ، والعلاقات الفلسطينية — السوفياتية من جهة اخرى ، وزيارة الوفد الفلسطيني الى موسكو وزيارة كل من زيد الرفاعي وبيجال آلون لواشنطن ، مضت « الشعب » قائلة « ومع انه شتان ما بين مشرق ومغرب ، الا ان الزيارة الفلسطينية تنطوي على حقوق شعب يطالب ويصر عليها ويتداول وجهات النظر مع عملاق صديق هو الاتحاد السوفياتي تكشف طبيعة الزيارات المضادة ممن لا يملك ولا يستحق لبحث باطله مع عملاق عدو هو الولايات المتحدة الاميركية » .

وعادت « الشعب » مرة اخرى للتعليق على انباء الزيارة منوهة بالتحالف مع الاتحاد السوفياتي ومنددة ، في آن معا ، بالولايات المتحدة وسياساتها الشرق اوسطية ، تقول : « وفي الجانب الاخر يبقى الاتحاد السوفياتي حليفا عملاقا للحق العربي الفلسطيني خاصة والحق العربي عامة . وما يلقاه اليوم في موسكو وفد منظمة التحرير من تكريم يقوم على الاعتراف الكامل بالحق الفلسطيني المشروع ، وبمنظمة التحرير ممثلة وحيدة لشعبها في كل مكان وعن افتتاح مكتب للمنظمة — كمفوضية — رسمية ، الى جانب ما

* سوف نقوم في العدد القادم من « شؤون فلسطينية » بتغطية شاملة لهذا الموضوع من جميع جوانبه .

تناقلته الانباء من تزويد الفلسطينيين باسلحة حديثة ومتطورة « هذا كله يعطي العرب الصورة المضادة والقناعة الامينة الصادقة بان الاتحاد السوفياتي يقف في خندق العروبة دفاعا عن الحق في حين تقف الولايات المتحدة بكل ثقلها في خندق الاعداء من اقربين وابعدين » (الشعب ٧٤/٨/٤) .

وبعد ان انهى وفد المنظمة زيارته لموسكو ، واصدر البيان الختامي مع الجانب السوفياتي ، استعرضت « الشعب » عبر افتتاحيتها الرئيسية ، المنجزات العامة التي تم التوصل اليها مع السوفيات واثرها على مستقبل النضال الفلسطيني ، والدور الهام الذي تلعبه العلاقات الفلسطينية – السوفياتية ، في الوقوف في وجه المشاريع الامبريالية الهادفة الى فرض الاستسلام على الشعوب العربية . وقالت « الشعب » في افتتاحيتها هذه « ان بيان موسكو الصريح كان ردا على ان بيان التجزئة في الاسكندرية كما يعتبر انذارا لواشنطن وهي تمارس لعبتها القديمة الجديدة بين طفليها المدللين ، الاردن واسرائيل ، في اعقاب اختتام الون زيارته وبدء الرفاعي لها ، وما قيل من ان امريكا تعمل على ايجاد ما اسمته بالحل الوسط بين الجانبين ، ذلك الحل المهزلة الذي يتطوع به من ليس مؤهلا باي شكل بالتدخل بشؤون المنطقة العربية والفلسطينية لانه طرف منحاز ومرفوض ، واي اتفاق بين الاردن واسرائيل على هذا السبيل الامبريالي او ذاك ، لا يعدو اتفاقا بين من لا يملك مع من لا يستحق ومن قبل القاتل الاميركي لشعبنا والعدو الوحيد لامتنا » .

اعتقال المطران كبوجي

اعلن ، في ٧٤/٨/١٨ ، ان المطران هيلاريون كبوجي ، مطران طائفة الروم الكاثوليك في القدس، قد تم اعتقاله على يد رجال الشرطة الاسرائيلية . وقالت الشرطة في معرض اعلانها عن اعتقال المطران ، انه متهم بالتعاون مع المقاومة الفلسطينية وانه « ممثل لحركة فتح في القدس والضفة الغربية » ، وانه قام بنقل الاسلحة والمتفجرات من قيادة فتح في لبنان الى الفدائيين بالضفة الغربية ، وان هذه الاسلحة والمتفجرات استخدمت في الاعمال الفدائية التي وقعت مؤخرا في المناطق المحتلة وعلى الاخص في مدينة القدس .

وادعت سلطات الاحتلال انها عثرت لدى تفتيش سيارة المطران ، على مخابىء سرية تحتوي على كميات كبيرة من الاسلحة في معظمها بنادق سريعة الطلقات ومسدسات اتوماتيكية وقنابل يدوية ومتفجرات واجهزة تفجير . وقالت الشرطة كذلك أن المطران سيحاكم امام المحكمة المركزية في القدس بتهمة حيازة اسلحة ومتفجرات بطريقة غير مشروعة وبتهمة الانتماء الى المنظمات « الارهابية » .

وقد ادى اعتقال المطران الى موجة عنيفة من ردود الفعل داخل فلسطين المحتلة وخارجها . ففي القدس وسائر مناطق الضفة الغربية ، بدى الوجوم والاستنكار العام على وجوه المواطنين . وقد قام عدد من القساوسة وكبار رجال الكنائس في الضفة الغربية بالاتصال بالسلطات المحتلة بهدف الافراج عن المطران المعتقل .

ويذكر ان بطريركية الروم الكاثوليك قد اصدرت في لبنان بيانا يشجب عملية اعتقال المطران كبوجي. وجاء في بيان البطريركية : « ما كنا لنعجب مما اذاعته اليوم وكالات الانباء العالمية عن توقيف سيادة المطران هيلاريون كبوجي الجزيل الوقار ، الوكيل البطريركي العام للروم الكاثوليك في القدس . وان في هذا الخبر وملابساته دسيسة جديدة المقصود منها الايقاع بشخص عربي مسيحي كبير ضمن المخطط الاسرائيلي المعروف لتهويد مدينة القدس وتهجير اهلها بوسائل الارهاب المختلفة. وكما جاء في الانجيل المقدس : « يضربون الراعي لتتبدد الرعية » . ولا شك ان هذه الاجراءات التعسفية هي ضمن مخطط عام للمس بالسلطات الكاثوليكية بعد المواقف المعروفة لقداسة الحبر الاعظم البابا بولس السادس لمصلحة حقوق الشعب الفلسطيني التي كان المطران هيلاريون من كبار المدافعين عنها » .

ويذكر كذلك ان مصدرا اعلاميا في منظمة التحرير الفلسطينية قد اذاع بلاغا حول نفس الحادث جاء فيه : « ان سلطات الاحتلال التي دأبت باستمرار على اتباع سياسة تخريب الثقافة الوطنية ، وتدنيس المقدسات ، تستفز بهذه السياسة المشاعر الوطنية والدينية لسائر القوى تحت ظل الاحتلال . ومن الجدير بالذكر انها ليست المرة الاولى التي تقدم فيها هذه السلطات على جريمة التعرض للشخصيات الدينية . فقد قامت باعتقال وابعاد

القس ايليا خوري والشيخ عبد الحميد السائح خارج الوطن المحتل ، ولا يزال الشيخ هاشم الخزندار في غزة سجينا لدى العدو الصهيوني . ان الجهات المسؤولة في منظمة التحرير الفلسطينية تعمل الان على متابعة هذه القضية باهتمام كبير ، وتتصل بكافة الجهات المعنية بما فيها مقر البابوية في روما والهيئات الدولية والامم المتحدة » .

ومن ناحية اخرى فقد أبرزت صحف الضفة الغربية حادث الاعتقال هذا ، وخصته بعدد من الافتتاحيات والتعليقات الرئيسية . فقالت صحيفة الشعب : « من حيث لا يتوقع احد او يحتسب ابدا ، قامت سلطات الاحتلال باعتقال المطران كبوجي مطران الروم الكاثوليك والصقت به تهمة أمنية خطيرة » . وتضيف الصحيفة قائلة : « ان رابين رئيس الوزراء نفسه هو الذي أمر باعتقاله بعد أن كان الاتجاه منصرفا الى الاكتفاء بابعاده . ان الناس في الاحتلال يعرفون ان الرجل لم يكن من موالي السلطة او اتباعها وله مواقف طالما أزعجتها سواء في خطبه ايام الاحاد او وقفته المعروفة في كلية الفرير ودفاعه عن عروبة القدس ، ورده المباشر على تخرصات المطران ريا » (الشعب ٧٤/٨/٢٠) .

وكانت الشعب قد كتبت بتاريخ ٧٤/٨/١٩ وبعد الاعلان عن اعتقال المطران مباشرة ، قائلة : « في القدس والاراضي المحتلة ولدى تلقي الناس نبأ القاء القبض على المطران كبوجي سادهم الوجوم وفاجأهم ما زعم حوله من شبهات واتهامات . وقد جرت أمس عدة اتصالات بين رجال الدين المسلمين بهذا الصدد ، كما تقيم الطائفة اليوم في الدير صلاة على نيته للخلاص من المحنة التي يراد له ان يجتازها » (الشعب ٧٤/٨/١٩) .

اما صحيفة الفجر ، فقد كتبت حول الموضوع نفسه – بعد أن أبرزت نبأ الاعتقال في صدر صفحتها الاولى ومن خلال عنوانها الرئيسي – تقول على لسان الاب بطرس جرايجري : « ان المطران كبوجي انسان وطني ويصر على حرية وعروبة وطنه . وقد صرح بذلك علنا في اجتماعات شعبية في رام الله والقدس حيث اكد ضرورة انسحاب اسرائيل من المناطق المحتلة بما في ذلك القدس ، وقد نشر حديثه في حينه بالصحف مما دعا السلطات للتفكير بالايقاع به » . وبين الاب بطرس جرايجري الذي اعتقل مع المطران في البداية وحقق معه ، الكيفية التي تمت فيها عملية اعتقال المطران، وكذب ادعاءات سلطات الاحتلال عن ضبط اسلحة في سيارة المطران واعترافه بذلك . وفي ختام حديثه أعلن الاب بطرس ان الكنيسة الكاثوليكية ورجال الدين من ابناء طائفة الروم الكاثوليك سوف يسيرون على خطى المطران في مناهضة الاحتلال والدفاع عن عروبة الاراضي المقدسة . (الفجر ٧٤/٨/٢٠) .

ونقل تقرير خاص لوكالة الانباء الفلسطينية (وفا) من الاراضي المحتلة ، على لسان الاب بطرس جرايجري قوله اثناء مقابلة له مع ابناء طائفة الروم الكاثوليك : « ان سلطات الاحتلال لا تريد لاحد ان يرفع صوته عاليا » . وكشف ان المخابرات الاسرائيلية قد حققت معه عدة مرات ، وكانت تعامله بأسلوب مشين لا يليق برجل الدين . وقال الاب بطرس : ان الهدف من وراء اعتقال المطران كبوجي « ابعاده واهانته » لمواقفه المناهضة لسياسة تهويد القدس . وتساءل : هل من يعمل من اجل الاماكن المقدسة مسلما او مسيحيا صار مجرما ؟! وأفاد تقرير (وفا) ان ابناء طائفة الروم الكاثوليك في القدس قد نظموا مسيرة صامتة تعبيرا عن تضامنهم مع المطران كبوجي . وأضافت الانباء الواردة من الارض المحتلة ، ان سلطات الاحتلال تروج حاليا لابعاد المطران كبوجي الى خارج فلسطين المحتلة ضمن مخططها الرامي الى تفريغ مدينة القدس من رؤسائها الروحيين وأصحابها الشرعيين . وفي نابلس قدم المواطنون المسلمون والمسيحيون مذكرة احتجاج موجهة الى فالدهايم السكرتير العام لهيئة الامم المتحدة والى مكتب الصليب الاحمر الدولي في جنيف يناشدون فيها التدخل السريع لاطلاق سراح المطران كبوجي .

وورد من مصادر الثورة الفلسطينية ، ان الانباء الواردة من الاراضي المحتلة تقول بأن المنشورات الثورية المعادية للاحتلال قد عمت مختلف مدن الضفة الغربية منددة بالاحتلال وباعتقال المطران كبوجي .

ويذكر ان سلطات الاحتلال قد أعلنت في الاول من (سبتمبر) تجديد فترة توقيف المطران كبوجي ١٢ يوما اضافية بناء على طلب الشرطة الاسرائيلية. وخلال هذه الفترة سيقدم قرار الاتهام الى المحكمة.

عيسى الشعيبي

(٤) اسرائيليات

١ — ردود الفعل الاسرائيلية على عرض القضية الفلسطينية على الامم المتحدة

أثار قرار الدول العربيـة ، الذي اتخذ خلال اجتماعات الدورة الاخيرة للجامعة العربية ، بشأن عرض القضية الفلسطينية كبند مستقل على جدول اعمال الجمعية العامة للامم المتحدة التي افتتحت الشهر الماضي ، ردود فعل اسرائيلية عديدة ، لجهة تأثير هذه الخطوة على أوضاع اسرائيل خاصة وأزمة الشرق الاوسط عامة . ويتضح مـن مجمل التصرفات والتعليقـات التي صدرت حول هـذا الموضوع ان اسرائيل ، على الصعيد الرسمي على الاقل ، تنظر بخطورة بالغة الى مثل هذا التطور ، اذ قام المسؤولون الاسرائيليون ، بعد أن تأكدوا من ان القضية الفلسطينية ستعـرض على الامم المتحدة ، بعقد سلسلة من المشاورات لبحث أنسب الطرق للتصدي لتلك المحاولة . وكانت أول خطوة اتخذتها السلطات الاسرائيلية على اثر ذلك قيام وزير الخارجية ونائب رئيس الحكومة يغال ألون بارسال رسائل الى « عدد من الدول الصديقة » طالبا منها الوقوف الى جانب اسرائيل فـي الامم المتحدة ، عند طرح هـذا الموضوع (معاريف ، ٧٤/٨/٦) .

يتفق معظم المعلقين الاسرائيليين على ان امكانات نجاح الفلسطينيين في الحصـول على قرار يؤيـد حقوقهم في الامم المتحدة كبيرة للغاية ، ذلك لان الامم المتحدة « بتركيبها الحالي ، ستوافـق على اي مشروع قرار مؤيد للعرب ، خاصة اذا كان هذا القرار مصاغا بحكمة ويعتمد بشكل ما على قـرار التقسيم لسنة ١٩٤٧ ، الذي كان من المفروض اقامة دولتين ، يهودية وعربية ، بموجبه » (افتتاحية معاريف ، ١٩٧٤/٩/٣) ، بينما أشار مراسل دافار (٧٤/٩/٣) للشـؤون العربية ان « حسابـات الفلسطينيين) هي انه يمكن الحصول على اكثرية واضحة تؤيـد قرارا يصاغ بـروح القـرارات الفلسطينية التي اتخذت في مؤتمر القمة الاسلامية في لاهور ومؤتمر القمة الافريقية ، ثم الزام الدول الغربية باتخاذ مواقف اكثر وضوحا » . ويبدو ايضا ان المسؤولين الاسرائيليين قد فقدوا الامل في منع اتخاذ قـرار في الامم المتحـدة يعترف بحقـوق الفلسطينيين ، اذ « ليس لدى اي شخص شك بأن العرب سيؤمنون أكثرية لاقتراحاتهم ، فتحت تصرفهم تقف كل دول افريقيا والكتلة الشرقية وكما يبدو معظم دول أوروبا وأمريكا الجنوبية ، الذين لن يجرأوا على التحـرش بالمال والنفـط . ففي « البروفه » التي جرت في مؤتمر الدول غير المنحازة في الجزائر ، صوتت ٩٠ دولة ، من بين ١٣٥ دولة عضوا في الامم المتحدة ، الى جانب مشروع قرار يدعو الى الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينيـة وبحقوق الفلسطينيين » (ماتي غولان — هآرتس ، ٧٤/٩/٦) . ولهذا تم الاتفاق في المشاورات التي جرت في القدس بأن المشكلة ليست الاعتراف او عدم الاعتراف بمنظمة التحريـر الفلسطينية وانما كمية وماهية الاعتراف الذي سيمنح لحقوق الشعب الفلسطيني « خاصة وان كل الدلائل تشير الى ان العرب يتجهون هذه المرة للحصول على قرارات أكثر تفصيلا ووضوحا وتطرفا . وفي القدس لم يسقطوا من الحسبان تقديم مشروع قرار للاعتراف بحـق الفلسطينيين في استقلالهم الوطني — وقد ترسم ضمن هذا القرار حدود الضفة الغربية وكأنها حدود الدولة التي يتم ضمنها تنفيذ هذا الحق » .

ومن ناحية ثانية ، تبدي دوائر اسرائيلية عديدة تخوفها من نتائج حصول الفلسطينيين على اعتراف عالمي بحقوقهم وتأثير ذلك على اسرائيل من جهة والمنطقة بأسرها من جهة اخرى ، وتعتبر ان هذه الخطوة موجهة في الاساس ضد اسرائيل وتمسها بشكل مباشر . فاعتراف الامـم المتحدة بحقـوق الفلسطينيين « لا يتضمن الاعتراف فقط من قبل الامم المتحدة ومعظم الدول المنتمية لها بمنظمة التحرير الفلسطينية . ان مغزاه قد يكون اكثر من ذلك : انه يعني اضفاء صبغة شبه رسمية على اهداف منظمة التحرير الفلسطينية ، مع كل ما لذلك من مغزى بالنسبة لمركز اسرائيل ومواقفها» (يهوشواع تدمور — دافار ، ٧٤/٩/٤) . كذلك فان هذه الخطوة قد تكون فاتحة لخطوات أخرى ، و « من

المستحسن ان نعرف ان منظمة التحرير الفلسطينية لن تكتفي بالاعتراف بها فقط — انها تسعى الى اكثر من ذلك : الى قرار صريح بشأن اقامة دولة فلسطينية ، مرفقا بنداء لاسرائيل لتنفيذ قرارات الامم المتحدة » . ويبدو ان اليوم الذي سيصدر فيه تفسير معتمد « لقرارات الامم المتحدة » لن يكون بعيدا ، اي حدود ١٩٤٧ ، بناء على موقف « المعتدلين » في منظمات التخريب ، وهو أمر سيحظى بالتأكيد بموافقة الاتحاد السوفييتي ودول المعسكر الشيوعي . ان معنى هذا ان امامنا معركة قاسية جدا ، ستكشف جذور الخلاف في المجال الفلسطيني ، عندما سيقف في مواجهتنا المتطرفون من بين الفلسطينيين او اولئك الذين يسيرون في اعقاب الخط الذي يقرره المتطرفون » (المصدر نفسه) .

اضافة الى ما ذكرنا ، يبدو ان الاتجاه الى عرض القضية الفلسطينية على الامم المتحدة واحتمالات صدور قرارات معينة لجهة الاعتراف بحقوق الفلسطينيين قد دفع اسرائيل الى اعادة النظر في مواقفها من المحاولات الجارية لتسوية الازمة في المنطقة ، وخاصة في موقفها من الاردن . وعلى الرغم من بعض التصريحات التي دعت الى الاسراع في المفاوضات في الاردن ، « لانه على اسرائيل والاردن ان تفهما ان الطريق المسدود الذي وصلت اليه المحادثات بينهما، يضعف كليهما سوية» (ارئيل غيناي — يديعوت احرونوت ، ٧٤/٩/٦) وعلى الرغم من تصريح وزير الاعلام الاسرائيلي ، اهرون ياريف (في مقابلة مع دافار ، ٧٤/٩/١٣) بأنه لا يؤيد اتخاذ اية خطوة من جانب اسرائيل تمس بالبيان المصري الاردني لجهة اعتراف مصر بحق الاردن ايضا في تمثيل الفلسطينيين ، فان معظم ردود الفعل الاخرى اشارت الى ان صدور « قرارات فلسطينية » في الامم المتحدة يضعف موقف الاردن بشكل جدي . « فمن الواضح ان مثل هذا الوضع يمس أسس المملكة الاردنية في صميمها ، لانه من الصعب التصور كيف يمكن ان يستمر هذا البلد في البقاء اذا كان ٦٠ ٪ من سكانه او أكثر ممثلين — وفقا لقرار دولي — بواسطة هيئة اخرى مختلفة عن الحكومة الشرعية في عمان ». (غيناي ، المصدر السابق) . كذلك « فانه اذا اتضح انه ليس لدى الاردن تفويض عربي للبحث مع اسرائيل بشأن مستقبل المناطق (المحتلة) وسكانها ، فمن الواضح ان لا فائدة هناك من المفاوضات والاتفاقيات معه حول مستقبل تلك المناطق وسكانها ، ولا حتى لاتفاقات جزئية بهذا الشأن » (حغاي ايشد — دافار ، ٧٤/٩/٤) ، وكان ايشد قد صرح في مقابلة له مع الاذاعة الاسرائيلية (ر أ أ ، ٧٤/٩/٣) ان الاتجاه لعرض القضية الفلسطينية على الامم المتحدة « هو مناورة من جانب الفلسطينيين . ان منظمة التحرير تحاول ان تناور للحصول على تأييد اميركي ضد الاردن ، بمساعدة « الفزاعة » السوفياتية . بل اكثر من هذا ، ان هناك مناورة بين الاميركان وبين السوفيات ، وبين كل هؤلاء وبين مصر ، وكل هذا ضد الاردن ، لان الجهة المطالبة بالتمثيل الفلسطيني امام اسرائيل هي الاردن » . أما يهوشواع بورات ، احد المستشرقين الاسرائيليين ، صرح أيضا بأنه « من ناحية الفلسطينيين والعراق ودول عربية أخرى ، هناك نية لعزل الاردن ، واظهاره كعنصر لا مكانة له ، وانه ليس باستطاعته الحصول على حلفاء في العالم العربي او في العالم الثالث ، حول كل ما يتعلق بقضية فلسطين » (المصدر نفسه) .

وتعلق اسرائيل اهمية كبرى على موقف اميركا من بحث القضية الفلسطينية وتبدي شكوكها بشأن هذا الموقف وامكان حدوث تغيير فيه يميل الى اقامة صلات ما مع الفلسطينيين او منحهم اعترافا من قبل الولايات المتحدة، خاصة وان التقييم الاسرائيلي للخطوات الفلسطينية المقبلة يركز على ان الفلسطينيين يسعون. أولا الى الاعتراف بحقوقهم من قبل الامم المتحدة ومن ثم طرح انفسهم كعامل مستقل له علاقة خاصة بالازمة في المنطقة، والانطلاق من هذا الموقف للمطالبة بحقوقهم . وتزداد شكوك الاسرائيليين في ضوء تصرفات الولايات المتحدة خلال الآونة الاخيرة وموقفها من الفلسطينيين . « فحتى الجمعية (العمومية) الاخيرة صوتت الولايات المتحدة بشكل شبه تقليدي ، سوية مع اسرائيل ، ضد كل مشروع قرار يذكر حقوق الفلسطينيين او يشير اليها . ولكن انزلاقا جديا حدث في موقف الولايات المتحدة خلال السنة الاخيرة ، اذ صوتت الى جانب اشتراك منظمة التحرير الفلسطينية في مؤتمر الصليب الاحمر في جنيف وفي مؤتمرات بودابست وكراكاس ، اي عمليا ، في كل مرة اثير فيها الموضوع . ان اعترافا رسميا (طريق التصويت)

في الجمعية العمومية ، لجهة التمثيل او الحقوق ، هو بحد ذاته ، بالطبع ، مسألة اخرى . ولكن على الرغم من ذلك فقد ظهر شك بأن الاتجاه الذي ظهر في المؤتمرات المختلفة سيجد تعبيرا عنه في الجمعية » (ماتي غولان — هآرتس ، ٧٤/٩/٦) . وكانت اسرائيل قد استفسرت من الولايات المتحدة حول صحة الانباء التي ترددت بشأن لقاءات بين مسؤولين امريكيين وفلسطينيين ، غير انها لم تحظ برد على استفساراتها تلك . كذلك كان قد أعلن في حينه ان هذه المسألة ستكون بين تلك التي سيبحثها رابين مع فورد اثناء زيارته الاخيرة الى اميركا .

اما بشأن موقف الاتحاد السوفياتي ، فمن الواضح انه يؤيد موقف المنظمة وهو الذي يقف ، بحسب رأي معظم المعلقين الاسرائيليين ، وراء طلبها لادراج القضية الفلسطينية على جدول اعمال الامم المتحدة ، وذلك بعد ان « اوضح لعرفات انه بدون موافقة الاميركيين لن يستطيع الاشتراك بشكل او بآخر في مؤتمر جنيف ، ولكن بعد اتخاذ قرار بهذا الشأن في الامم المتحدة سيصعب على كيسنجر ان يعارض دعوة منظمة التحرير الفلسطينية للاشتراك في مرحلة معينة من المؤتمر » (دوف ايغل — دافار ، ٧٤/٩/٦) .

وقد عقد الكنيست جلسة استثنائية يوم ٩/٩/٧٤ ، بناء على طلب المعارضة (ليكود) ، لمناقشة « تقصير » الحكومة الاعلامي وعدم تصديها بصورة جدية ، بحسب رأي المعارضة ، لمحاولة طرح القضية الفلسطينية على الامم المتحدة . وبعد جلسة قصيرة هاجم فيها النائب اريدور الحكومة بسبب مواقفها تلك ورد عليه وزير الخارجية معلنا انه لا يجوز اعتبار الفلسطينيين وكأنهم جميعا ارهابيون ، وانهم وحدة اثنية لها أمانيها وآمالها ، تم تحويل الموضوع الى لجنة الخارجية والامن لدراسته .

٢ — « الجبهة الوطنية الفلسطينية » في المناطق المحتلة : نشاطها ، أهدافها ، وحملة الاعتقالات ضدها

شنت السلطات الاسرائيلية خلال الاشهر الاربعة الاخيرة اوسع حملة اعتقالات في المناطق المحتلة منذ عام ١٩٦٧ ، وقد بدأت هذه الحملة في أواخر شهر نيسان الماضي واستهدفت أعضاء الجبهة الوطنية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، الذين مارسوا نشاطهم ضد الاحتلال منذ عام ١٩٦٧ . واعترفت المصادر الاسرائيلية بهذه الحملة، اذ أعلنت صحيفة دافار (٧٤/٥/١٤) عن اعتقال زعماء الشيوعيين في الضفة الغربية ، ولكنها لم تذكر عدد المعتقلين . واكتفت بذكر ابرزهم : حسني حداد من بيت لحم ، دكتور فرحان من نابلس ، محمد عباس عبد الحق ، محمود شقير ، غسان حرب ، سليمان النجاب ، حسين ابو غربية ، خليل حجازي وعادل البرغوتي. بينما ذكرت صحيفة الاتحاد (٧٤/٤/٢٦) — نقلا عن صحيفة الشعب الصادرة في القدس العربية — أسماء اخرى ، من بينها ابراهيم الجولاني وطاهر عرفة وماجد ابو سرية ، وعادل الرجب وعمار الشرباتي والصحافي المعروف غسان طهبوب ، وعمر عودة .

وقد استمرت حملة الاعتقالات هذه عدة ايام ، حتى شملت معظم اعضاء الجبهة الوطنية في الاراضي المحتلة ، ووصل عدد المعتقلين الى اكثر من ٣٩٠ شخصا (الاتحاد ، ٧٤/٥/٧) . وتميزت جميعها بأنها اعتقالات سياسية تعتمد على أوامر اعتقال ادارية يصدرها وزير الدفاع ضد هؤلاء الاشخاص ، حيث يتم تجديدها كل بضعة اشهر .

تبرير الاعتقالات

منذ اليوم الاول لبدء حملة الاعتقالات والصحف الاسرائيلية تحاول تبريرها ، استنادا الى ادعاءات دوائر الامن ، بأنها تعتمد على الشك في محاولة انتقال الحزب الشيوعي في الضفة « الذي يكون العمود الفقري للجبهة الوطنية » (دافار ، ٧/٢/٧٤) من مجال الدعاية المعادية لاسرائيل الى مجال النشاط الفدائي ، خاصة بعد ان اتضح في الاونة الاخيرة ، حدوث تغير في سياسة الحزب في اتجاه ممارسة « الارهاب » ، وقد أدى هذا التغيير الى رد فعل عنيف من جانب سلطات الامن (دافار ، ٧٤/٥/١٤) .

وحاول احد المعلقين ، الربط بين نشاط الجبهة الوطنية وبين موجة العمليات الفدائية في اسرائيل والمناطق المحتلة التي سبقت الاعتقالات . وقال انه قبيل « يوم الاستقلال » ، في اواخر نيسان ، استعدت قوى الامن لامكانية حدوث نشاط (فدائي) متزايد . وبأمر من المستويات العليا تم اعتقال عشرات من الشبان العرب والتحقيق معهم . (داني روبينشتاين — دافار ، ٧٤/٥/٥) .

وحاول روبينشتاين ابراز خلفية هذه الاعتقالات ، معلنا عن وجود غليان كبير بين مجموعات من الشباب العربي ، وخاصة في الضفة الغربية والقدس الشرقية . وقال ان اماكن تجمع الشبان العرب كانت دائما ولا تزال بمثابة بؤر لتنظيم الشبكات السرية . ففي أماكن مثل كلية النجاح في نابلس ، ودار المعلمين في رام الله ، والصفوف الجامعية في كلية بير زيت ، لم تطأ قدم زائر اسرائيلي تقريبا . والجو هناك مليء بالعداء العميق لاسرائيل . حتى ان جزءا كبيرا من الشبان يرفض بصورة مبدئية ، تبادل الحديث مع اي اسرائيلي . ويضيف الكاتب أن المجموعات المتطرفة ابان الحكم الاردني ، مثل القوميين العرب ، والبعث والشيوعيين ، كانت تعتمد في غالبيتها على شبان من هذه المؤسسات وعلى شريحة واسعة من المعلمين ، وخريجي الكليات المختلفة ، الذين يمارسون مهنة التدريس في جميع مدارس الضفة .

ولكن روبينشتاين يعترف بأن هذه المجموعات فضلت طوال سني الاحتلال ممارسة نشاط سري ذي طابع ايديولوجي . « ولكن أحداث الاسابيع الاخيرة اثارت الشك لدى اوساط اسرائيلية ، بأن النشاط السياسي السري قد خلق في اعقابه تنظيما بهدف القيام بأعمال تخريبية اكثر جدية ... وابرز مثال على ذلك هو الحزب الشيوعي الاردني ، الذي يصدر منذ عدة سنين صحيفة سرية ، هي «الوطن»، تدعو الى التحرر من الاحتلال الاسرائيلي » .

ويضيف الكاتب ان الشيوعيين برروا طوال الوقت اعمالا تعبر عن « المعارضة الشرعية للاحتلال » ولكن هذه المعارضة اعتمدت على توزيع المناشير ومحاولات خلق تمرد مدني ، وليس على التخريب . ومن المحتمل جدا ان تكون الاحداث السياسية في المنطقة قد حثت الشيوعيين على تكثيف نشاطهم. « ان الشيوعيين والمقربين اليهم من رجال البعث هم المجموعات الاقوى تنظيما في المناطق . وأعمالهم موجهة بحذر من الخارج — وخاصة من مراكز الحزب الشيوعي والبعث في سوريا ولبنان . ثمة من يعتقد ان التعليمات من هذه المراكز تتمثل في زيادة النشاط من اجل خلق خلفية ملائمة من ناحيتهم لتقوية المطالب العربية في اي مفاوضات مع اسرائيل . لذلك يبدو ان موجة التخريب الاخيرة التي تجتاح اسرائيل والمناطق ، ليست كالماضي ، من ثمار تخطيط وعمل المنظمات الفلسطينية العادية، وانما هي انتاج جديد من شبيبة تتمتع بثقافة اوسع وذات تنظيم سياسي وايديولوجي يساري » .

وتحت عنوان « الشيوعيون في الضفة أصبحوا عدائيين » كتبت صحيفة يديعوت احرونوت (٥/٢/ ٧٤) ، « ان الحكم العسكري الاسرائيلي ، تحلى بصبر كبير تجاه نشاط الشيوعيين ، من خلال الافتراض ، بأن هذا الحزب لن يمارس الارهاب والعنف . ولكن أحداث الايام الاخيرة برهنت العكس : فقد اكتشفت قوى الامن شبكات تخريب شيوعية ، خططت ونفذت ، كما يبدو ، عمليات التخريب الاخيرة في القدس والضفة الغربية » .

وتضيف الصحيفة « ان الحزب الشيوعي بقي بعد حرب الايام الستة ، كما كان من قبل — صغيرا ، منظما ، سريا وبعيدا عن النشاط التخريبي . وانه استمر في نشاطه السري ، حتى بعد طرد بعض زعمائه : رشدي شاهين من نابلس (طرد في عام ١٩٦٨) ونعيم الاشهب » .

الجبهة الوطنية — أهدافها

أقيمت الجبهة الوطنية الفلسطينية في أواسط عام ١٩٧٣ ، في المناطق المحتلة، حول الخلايا الشيوعية هناك . (أهود يعري — دافار ، ٧٤/٧/٢) . وتضم الجبهة ايضا ، عدا الشيوعيين ، أعضاء حزب البعث والقوميين العرب سابقا . وقد انتظموا جميعا في هيئة واحدة اطلقوا عليها اسم « الجبهة الوطنية الفلسطينية » .

وقد اعترف اعضاء الجبهة علنية بانشائها ، ونشروا قبل اعتقالهم بيانا طويلا ، فصلوا به آراءهم . ويمكن تلخيص نقاطه الاساسية على النحو التالي ، كما نقلها داني روبنيشتاين في دافار ، ١٩٧٤/٩/١ :

● ان نضال الجبهة هو جزء من النضال العربي والعالمي .

● اذا اعتبرت مشكلة الفلسطينيين في الماضي مشكلة لاجئين بحاجة الى اعادة تأهيلهم (بمثابة مشكلة اجتماعية) ، فان الامر يختلف الان . فهي مشكلة شعب يطالب بحقه في تقرير مصيره في وطنه.

● منذ معركة الكرامة (آذار ١٩٦٨) ، التي كانت نقطة تحول ، بدأ الاعتراف بحقوق الفلسطينيين . واستطاعت منظمة التحرير الفلسطينية كسب الاعتراف والتأييد في جميع انحاء العالم ، حتى اصبح معترفا بها بأنها الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني . لذلك ارتقت منظمة التحرير الفلسطينية الى مستوى حركة تحرر قومية ، ولن يتحقق حل في الشرق الاوسط بدون حل المشكلة القومية للفلسطينيين . وهذا الحل لا يمكن ان يتحقق دفعة واحدة وانما على مراحل . وهم يتم بموجب القرارات الدولية ومؤتمر جنيف . ان القرار الاول والاساسي هو قرار التقسيم في عام ١٩٤٧ ، الذي يعترف بحق اسرائيل في الوجود ، ولكن على اسرائيل ان تتخلى عن الفكرة الصهيونية ، لانها هي التي تخرب انشاء علاقات بين الشعبين .

● ان القرار ٢٤٢ لا يلزم الفلسطينيين ، طالما ان اسرائيل لم تنفذ قرارات الامم المتحدة السابقة، وطالما تسيطر على مجالات اوسع مما خصص لها في عام ١٩٤٧ .

● تؤمن الجبهة بانشاء دولة فلسطينية على أرض فلسطين بحيث تكون دولة ديمقراطية ، ذات طابع اشتراكي ، ولها علاقات وحدوية مع العالم العربي — وخاصة مع الاردن — وتحترم الحقوق الدولية .

● تعارض الجبهة كل فكرة تتعلق باقامة دولة محمية في الضفة الغربية ، كما تعارض مشاريع التأهيل التي « تبعث على الشك » ، وستناضل ضد مشروع حسين ، وضد اي مشروع اسرائيلي .

● تعتبر الجبهة نفسها ممثلة عن المناطق في اي مفاوضات . وورد في البيان ايضا : « ان الجبهة الوطنية الفلسطينية في الارض المحتلة هي ذراع لمنظمة التحرير الفلسطينية وممثلة القوى الوطنية في الارض المحتلة . انها ستقود الشعب وتكتله من حول منظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد لشعبنا في المناطق وخارجها . وكل محاولة (تمثيل) اخرى باستثناء الجبهة والمنظمات (منظمة التحرير الفلسطينية) محظورة ، لانها ستخطىء الهدف وتكون أداة في أيدي الاستعمار الاميركي » .

ويحاول الكاتب تعليل الانتظام المتأخر للجبهة الوطنية ، بعد مرور سبع سنوات على الاحتلال الاسرائيلي ، فيقول ان النشيطين العرب ، المعادين للحكم الهاشمي وللزعامات التقليدية في المناطق المحتلة ، أدركوا ، بعد احداث الحرب ، ومؤتمر جنيف واتفاقات الفصل والحديث عن مراحل سريعة أخرى ، انهم اذا لم يسرعوا بالعمل ، فسيتأخرون. انهم يخشون اليوم ، أكثر من الماضي ، من الوصول الى قرار بشأن حل ، من وراء ظهورهم . وبصورة طبيعية جدا ترأس الجبهة نشيطو الحزب الشيوعي المنظم، حيث ضموا اليهم عناصر ذات طابع مشابه.

كما يمكن التعرف على مبادىء الجبهة الوطنية من خلال الرسالة التي بعثت بها الى منظمة التحرير الفلسطينية في تاريخ ١٩٧٣/١٢/١ (ونشرتها الاتحاد ، ١٩٧٤/٢/١٩) ، شارحة فيها موقفها من أهم القضايا التي تواجه الفلسطينيين في هذه المرحلة . وتعتبر هذه الرسالة بمثابة وثيقة ، تبين موقف الجبهة وآراءها ، منذ تأسيسها . وأهم ما ورد في هذه الرسالة :

١ — ترى الجبهة الوطنية ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الهيئة الوحيدة القادرة على تمثيل الشعب الفلسطيني .

٢ — تدعو الجبهة الى اشتراك المنظمة في مؤتمر جنيف ، قائلة ان « البديل لعدم اشتراك المنظمة هو نظام الحكم الاردني » .

ويرى احد الملحقين الاسرائيليين ان الجبهة الوطنية بالاضافة الى كونها فرعا من حركة المقاومة في الداخل فان لها تعاونا وثيقا مع الحزب الشيوعي الاسرائيلي — راكح ، الهدف منه نقل نضال الجبهة الوطنية ، ومجال عملها الى القطاع العربي الاسرائيلي . « ان الكتلة الشيوعية الاردنية — الفلسطينية — الاسرائيلية ، هي التنظيم السياسي الوحيد ، الذي يعمل الان داخل « الخط الاخضر » (اسرائيل حدود الهدنة ١٩٤٩) ، وخارجه (حدود ١٩٦٧) ، ووراء الخط البنفسجي ايضا (حدود ١٩٧٣) » . (أهود يعري — دافار ، ٧٤/٧/٢).

ويمكن تلخيص أهداف الجبهة الوطنية ، في ثلاثة أمور : رفض الاحتلال الاسرائيلي ، ورفض عودة الحكم الاردني الى المناطق ، والاصرار على ممارسة السيادة الوطنية الفلسطينية بعد التحرر من الاحتلال الاسرائيلي . وقد عبرت الجبهة الوطنية عن هذه المبادىء في صحيفتها « فلسطين » التي صدرت حديثا . والجدير بالذكر ان الاعتقالات بدأت في الاسبوع نفسه الذي صدرت به الصحيفة . (افتتاحية الاتحاد ، ٧٤/٥/٣) .

حملة الاعتقالات

كان الهدف الحقيقي لحملة الاعتقالات هذه هو ضرب الجبهة الوطنية في الداخل كتنظيم سياسي ، وشل نشاطاتها عن طريق وضع اعضائها في السجون . والدليل على ذلك هو طابعها ، حيث تعتبر جميعها اعتقالات سياسية ، كما ذكرنا ، لم يجر خلالها توجيه اية تهمة الى احد من المعتقلين رغم ادعاءات السلطة واتهامها اياهم بمحاولة ممارسة العمل « التخريبي » .

وقد قامت صحيفتا الاتحاد ، وزو هاديريخ ، اللتان تصدران عن الحزب الشيوعي الاسرائيلي — راكح ، بكشف هدف هذه الاعتقالات منذ بدئها . كما نشطت هاتان الصحيفتان في تغطية اخبار هذه الحملة ، بصورة شاملة ، بينما تجاهلتها الصحف الاسرائيلية ، ووسائل الاعلام هناك ، ولم تعرها أي انتباه يذكر واقتصر ما ورد بشأن الجبهة على بعض الاخبار القصيرة ، والتعليقات التي كتبها بعض الكتاب اليساريين .

فقد نشر الكاتب الاسرائيلي عاموس كينان ، في صحيفة يديعوت احرونوت ، (٧٤/٧/١٧) ، تعليقا قصيرا حول هذه الاعتقالات ، واصفا اياها بأنها اعتقالات سياسية بحتة ، ومنددا بجهاز الامن ، الذي يستغل دافع « الامن » للقيام بمثل هذه الحملة ، بدون ان يقوم اي شخص بالتدقيق فيها ، أو نشر اخبارها .

حملة الاستنكار في الضفة الغربية وفي اسرائيل

تسود الضفة الغربية حملة استنكار شديدة منذ بدء الاعتقالات ، وخاصة بسبب التعذيب الذي يلقاه المعتقلون في السجون . وشملت موجة الاستنكار هذه جميع مدن الضفة ، وشاركت فيها البلديات والنقابات ومختلف الهيئات الشعبية . ففي القدس أبرقت نقابة اصحاب المهن الهندسية الى الحاكم العسكري العام محتجة على حملة الاعتقالات التي شملت اثنين من اعضائها هما المهندسان حسين حداد من بيت لحم ، ومحمد عباس عبد الحق من نابلس ، كما أرسلت لجنة اصحاب المهن والحرف بالقدس كتابا الى وزير الشرطة محتجة فيه على الاعتقالات، وخاصة اعتقال طالبات وطلاب لا تتجاوز أعمارهم ١٥ عاما . وفي نابلس ارسل الموظفون والعمال في قسم الهندسة في البلدية ، برقية الى الحاكم العسكري العام مطالبين بالافراج عن المعتقلين . وأعد اطباء نابلس ونقابتهم العامة برقية يستنكرون فيها الاعتقالات الاخيرة التي شملت زميلهم الدكتور فرحات ابو ليل (الاتحاد ، ٧٤/٥/١٧) . وهناك عدة أمثلة اخرى على برقيات الاحتجاج وعمليات الاستنكار ، نشرتها صحيفة الاتحاد في أعدادها خلال الاشهر الثلاثة الاخيرة . وأبرز ما فيها ، عمليات اعتصام النساء في رام الله ونابلس، (الاتحاد ، ٧٤/٥/١٤) . وقد قام ذوو المعتقلين بارسال نداء الى الصحف ومختلف الهيئات الشعبية في اسرائيل ، نشرته صحيفة الاتحاد (٧٤/٦/٢١)، وصفوا فيه وضع المعتقلين ودوافع اعتقالهم ، ودعوا الرأي العام الى التضامن معهم في سبيل الافراج عن ذويهم . كما قامت الهيئة الاسلامية في القدس بارسال مذكرة الى الرئيس الاميركي ، خلال زيارته لاسرائيل ، ومن بين ما طالبت به فيها ، الافراج عن المعتقلين من ابناء الضفة (المصدر نفسه) . كما قام رؤساء ١٥ بلدية في الضفة بارسال مذكرة الى رئيس وزراء اسرائيل ، مطالبين فيها بالغاء الاعتقالات الادارية (الاتحاد ، ٧/٣٠/ ٧٤) .

لقد أصرت سلطات الامن في البداية على اخفاء مكان اعتقال المعتقلين، وعلى عدم السماح لعائلاتهم بزيارتهم . ولم يسمح لمحاميهم كذلك بزيارتهم الا بعد حصول هؤلاء على أمر من المحكمة العليا . وقد التقى المحاميان حنا نقارة وعلي رافع ، في سجن نابلس ، ببعض المعتقلين ، ووقفا على عمليات التعذيب التي تعرضوا لها (الاتحاد ، ٧٤/٦/٧). بعد ذلك ، وجه نقارة ورافع برقية الى السكرتير العام للامم المتحدة ، الدكتور كورت فالدهايم ، اثناء وجوده في اسرائيل ، طلبا منه فيها التدخل في سبيل ايقاف عمليات التعذيب ، واطلاق سراح المعتقلين السياسيين (الاتحاد ، ٧٤/٦/١) .

وعقدت عصبة حقـوق الانسان والمواطن في اسرائيل ، مؤتمرا صحافيا ، في تل ابيب بتاريخ ٧٤/٦/١٨ ، أدلت فيه ببيان واف عن الاعتقالات والتعذيب الذي يلقاه المعتقلون . افتتح المؤتمر رئيس العصبة ، البروفيسور يسرائيل شاحاك ، الذي قال ان هدف المؤتمر ايصال قضية الاعتقالات والتعذيب في المناطق المحتلـة الى الجمهـور الاسرائيلي عن طريق وسائل الاعلام. وكشف النقاب على ان عدد المعتقلين الاداريين في سجون اسرائيل يبلغ حوالي ٤٠٠ شخص (الاتحاد ، ٧٤/٦/٢١).

اما على صعيد البرلمان الاسرائيلي ، فقد تقدم النائب الشيوعي (راكح) ماير فلنر ، اقتراحا لجدول اعمال الكنيست ، باسم الكتلة الشيوعية ، حول الاعتقالات الادارية وأساليب التعذيب ضـد المعتقلين . ورد وزير الدفاع شمعون بيرس على الاقتراح ، فاعترف بحقيقة الاعتقالات السياسية . ولكنه زعم ان المقصودين هم ٩٠٠ شخص ثلثهم من الشيوعيين . ونفى الوزير مسألة التعذيب . كما تحدث الوزير بيرس عن حوادث الاخلال بالامن في الضفة الغربية في الفترة الاخيرة ، وحاول ربط ذلك بالاعتقالات ، مخفيا حقيقة الاعتقالات الادارية . (الاتحاد ، ٧٤/٧/٥) .

٣ ــ اعتقال المطران كبوجي يربك السلطة الاسرائيلية

قام المدعي العام الاسرائيلي ، جبرئيل باخ ، بتقديم لائحة اتهام ضد المطران هيلاريون كبوجي ، مطران القدس لطائفـة الروم الكاثوليك ، الى المحكمة المركزية في القدس ، بتاريخ ٧٤/٩/٢ ، تمهيدا لمحاكمته . وكانت السلطات الاسرائيلية قد أعلنت عن اعتقال المطران كبوجي في ٧٤/٨/١٨ ، بعد ان اتهمته بالتعاون مع الفدائيين ونقل الاسلحة والذخائر الى فلسطين المحتلة .

يبدو ان سلطات اسرائيل كانت في حيرة مـن أمرها ، في بداية الامر ، بشأن الخطوات التي ينبغي اتخاذها بحق المطران ، بعد ان حام الشك حوله ، نظرا لمكانته كممثل لطائفة الروم الكاثوليك، اكبر الطوائف المسيحية في اسرائيل، والى العلاقات الحساسة القائمـة بين اسرائيـل والطوائـف المسيحية ، ومن ثم رد الفعل التي يمكن ان تحدث في العالم العربي وفي العالم المسيحي ، وخاصة في الفاتيكان . ويبدو ان دوائر الامن لم تستطع اتخاذ قرار في هذا الشأن ، واستقرت على الرأي ، بأنه يجب طرد المطران من البلد، لان قضية اعتقاله يمكن ان تعود بالضرر على اسرائيل . ولكنها في الوقت نفسه طرحت القضية على الحكومة للبت بها . وتروي دافار (٧٤/٨/١٩) ، بعد اعتقال المطران بيوم واحد ، ان رئيس الحكومة يتسحاق رابين ، اطلع على كل مرحلة من مراحل التحقيق مع المطران كبوجي ، وهو الذي اتخذ في النهاية قرار اعتقاله ، بعد وقوع اختلافات في الرأي بين السلطات المختلفة بشأن معالجة هذه القضية .

وكان المطران كبوجي قد اعتقل في المرة الاولى في الثامن من آب (اغسطس) الماضي ، اي قبل اعتقاله الاخير بعشرة ايام . وقد حدث ذلك بعد مرور عشرة ايام علـى عودته ــ طريـق رأس الناقورة ــ من الزيارة التي قام بها للاردن وسوريا ولبنان . « في ذلك اليوم نصبت قوات الامن كمينا أمام بيته . وفي الصباح ، عندما خرج في طريقه الى مبنى البطريركية ، اعتقلته قوات الامن داخل سيارته ... وقد أمر سائقه بالتوجه الى مبنى الشرطة في المسكوبية . وهناك كان في انتظار رجل الدين عدد من كبار المحققين في القيادة القطرية في الشرطة .

« وفي ساعات بعد الظهر ، بعد تحقيق متواصل، أحضر المطران كبوجي الى سيارته . وبدأ رجال المهمات الخاصة في شرطة اسرائيل ، بحضوره ، تفتيش السيارة ...

« وأمام عينيه ، سحب رجال الشرطة المواد المتفجرة التي كانت مخبأة في سيارته. ولكن المطران كبوجي لم يعتقل . وسمح له بالعودة الى بيته ــ وهناك بقي حرا ، حتى يـوم امس » (يديعوت احرونوت ، ٧٤/٨/١٩) حيث تم اعتقاله بناء على قرار من رئيس الحكومة ، كما اشرنا .

وذكرت المصادر الاسرائيلية ، انه عثر في سيارته اثناء التفتيش على ٤ رشاشات من نوع كلاشينكوف،

مسدسين ، عشر قنابل ، عشرات المخازن ، الاف الطلقات ، قوالب من المواد الناسفة ، مشعلات كهربائية ، واجهزة توقيت (دافار ، ٧٤/٨/١٩) .

وبعد اعتقاله تحدثت دوائر الامن الاسرائيلية عن ثلاثة حوادث اثارت الشك حوله ، وجعلته موضع المراقبة :

● اتضح لهذه الدوائر ان المطران يحصل على المال ، ولكنها لم تستطع التاكيد اذا كان هذا المال من مصادر الكنيسة ، او من مصدر آخر .

● تقدم بشكوى الى الشرطة ، قبل اربعة اشهر تقريبا، بصدد سرقة ربع مليون دولار كانت بحوزته.

● قبل شهرين ، عند عودته من لبنان طريق راس الناقورة ، طلب منه موظف الجمارك ، معرفة ما في السيارة . وقد استاء جدا من هذا الطلب وهدد « باحداث ضجة » اذا فتشت سيارته .

وفي النصف الثاني من الشهر الماضي عاد كبوجي من لبنان مرة اخرى . ولكن سلطات الامن لم تعتقله واكتفت بمراقبته (المصدر نفسه) .

لائحة الاتهام

نشرت دافار (٧٤/٨/٤)، تلخيصا للائحة الاتهام الموجهة ضد المطران ، فاعلنت انها تشمل ثلاثة بنود اساسية ومنها تفصيل كامل للاسلحة والمواد الناسفة التي وجدت اثناء تفتيش سيارته . كما تشمل لائحة الاتهام ١٩ شاهدا من جانب الادعاء ، معظمهم من رجال الشرطة وقوات الامن ، وستة مواطنين من القدس الشرقية .

« يتهم الادعاء المطران كبوجي بالامور الاتية :

● اجراء اتصال مع عميل اجنبي .

● حمل اسلحة والاحتفاظ بها بصفة غير قانونية.

● تقديم خدمة « لمنظمة غير قانونية » .

« وورد في لائحة الاتهام ان المطران كبوجي التقى خلال زياراته المتتالية لبيروت بعملاء أجانب ، وبينهم من يدعى « ابو جهاد » ، الذي يعتبر بمثابة الساعد الايمن لعرفات ... الاخر الذي التقى معه ، حسب قول الادعاء، هو المدعو «ابو فراس» من كبار المشرفين على النشاط العسكري لمنظمة « فتح » في الضفة الغربية والقدس .

« كما ورد في لائحة الاتهام ، ان المتهم اتخذ على عاتقه مسؤولية نقل حقائب مليئة بالاسلحة والمواد التخريبية ، بواسطة سيارته ، وقد كرر هذا العمل عدة مرات . وقد وصلت هذه الاسلحة والمواد الى أهدافها، واستخدمت في عمليات تخريبية في القدس » .

وفي صباح ٧٤/٩/٤ احضر المطران كبوجي الى المحكمة من اجل تمديد اعتقاله ، واستمرت الجلسة ساعتين ونصف ، اعلن خلالها محاميه ، عزيز شحادة ، انه يعارض بنود الاتهام ، وليس من صلاحية المحكمة محاكمة المتهم لكونه يتمتع بحصانة ديبلوماسية . وهنا عرض المحامي جواز سفر المطران الذي يحمل ختما من وزارة الخارجية . وطلب اخلاء سبيل المتهم بكفالة .

كما تحدث المطران كبوجي في المحكمة ، مطالبا نقله من السجن الى المقر البطريركي او الى منزله ، لكونه يتعرض للاهانات والمس بكرامته من جانب السجانين (راا ، ٧٤/٩/٤) . وقد رفضت المحكمة طلب اخلاء سبيله بكفالة ، واستجابت لطلب المدعي العام ، بتمديد مدة اعتقاله حتى الانتهاء من بحث قضيته . كما قررت المحكمة عدم التدخل في قضية نقل المطران من سجنه . اما بالنسبة لحصانته الديبلوماسية فقد اشارت المحكمة الى عدم وجود علاقات ديبلوماسية بين اسرائيل والفاتيكان ، « ولذلك لا يجوز ان تمنح الدولة حصانة ديبلوماسية لممثل دولة اجنبية ، دون ان تكون هناك معاملة بالمثل بين الدولتين » (راا ، ٧٤/٩/٥) .

منذ اعتقاله ، والمطران كبوجي يتعرض لحملة تعليقات واسعة في مختلف الصحف ووسائل الاعلام الاسرائيلية ، اتفق الجميع بها على تبرير عملية الاعتقال والمحاكمة ، محاولين تشويه دوافعه والحط من كرامته . بعد ان وصف ، « بالخداع والفساد ، والتهريب وتعاطي المخدرات » . وقد شارك في هذه الحملة بعض الوزراء ايضا ، حيث اعلن وزير شرطة اسرائيل ، شلومو هيلل في مقابلة مع معاريف (٧٤/٨/٣٠) ، « ان المطران ليس صاحب مبدأ ، ولا يمكن القول في اي شكل من الاشكال ان افعاله جاءت من خلال تماثله مع اهداف « المخربين » . وانما نتيجة التهديدات ضده » . ولكن لائحة الاتهام تناقض اقوال الوزير هذه ، فلا تشير الى اي ضغط او تهديد من هذا النوع .

رجال الدين يعملون ضد اسرائيل

ما من شك في ان نظرة عدد لا باس به من كهنة الروم الكاثوليك في المناطق المحتلـــة ، تجـاه اسرائيل ، كانت ولا تزال سلبية جدا (ميخائـل شيشار — معاريف ، ٧٤/٨/٢٧) . فالمطـران كبوجي ليس اول رجل دين يعتقل بتهمة العمل ضد اسرائيل ، فقبل ١٢ سنة اعتقل وطرد الكاهـن القبطي يواكيم الانطوني ، بتهمة التجسس لصالح الاردن . وفي عام ١٩٦٣ ، اعتقـل القس ايليـا خوري بتهمة التعاون مع المقاومة ، حيث تم طرده بعد ذلك . ولكن اعتقـال المطـران كبوجي لاقى اهتماما أكبر ، نظرا لمكانته ، وحجم النشاط الذي مارسه . فقد تحدث حاكم لواء القدس رفائيل ليفي، وهو احد كبار الموظفين الاسرائيليين الذين تعرفوا على المطران كبوجي بحكم منصبه ، مبرزا فترتـين في حياة كبوجي منذ الاحتلال الاسرائيلي في عــام ١٩٦٧ . » حتى قبل عامين ، عمل المطران ضـد اسرائيل ، مستغلا مركزه الديني لممارسة نشـاط سياسي بارز معادٍ للدولة . فمثلا : خلال فتـرة طويلة كان يوقع على مذكرات ضد سلطات اسرائيل، الى جانب شخصيات اسلامية . ويوم وفاة عبـد الناصر ، توجه الى رؤساء الاساقفة في القـدس الشرقية طالبا منهم قرع الاجراس ورفع الاعـلام السوداء اثناء الجنازة .

» وفي العامين الاخيرين ، قل اهتمامه بالقضايا السياسية ، مدعيا مرارا انه مشغول جدا بقضايا ابناء رعيته « .

« المطران الفدائي »

رفضت اسرائيل طلب رؤساء الاساقفة الثلاثـة الذين اوفدهم البطريرك حكيم ، للاطلاع على قضية اعتقال المطران كبوجي ، بالافراج عنه مقابل طرده من البلد ، واصرت على محاكمته ، متجاهلة جميع ردود فعل الرأي العام في المناطـق المحتلـة وفي الخارج . غير ان هناك من يحذر من نتيجة هـذا الموقف :

» أن المطران متهم بجرائم خطيرة ، وليس من شك في ان اطلاق سراحه بدون محاكمته سيمس بمصداقية الحـرب الاسرائيليـة ضد الارهـــاب والتخريب . من ناحية قانونية ، يبدو ان الطريـق مفتوحة للتصرف مع المطران ككل متهم اخر . انـه صاحب جواز خدمة من الفاتيكان ، واصحاب جواز كهذا لا يتمتعون بحصانة ديبلوماسية . اضف الـى ذلك ان المطران ليس متهما عاديا وقضيته تتعـدى قضايا الامن الجارية التي تعالجها قوات الامن « (داني روبينشتاين ، دافار ، ٧٤/٨/٢٧) .

ويضيف روبينشتاين قائلا : « باستثناء قضايا الامن ذاتها ، يصعب علينا ان نعرف مدى الضرر الذي يمكن أن تلحقه قضية المطـــران كبوجـي باسرائيل . فالتهمة الموجهة له استطاعت حتـى الان ان تلصق به في عدة أماكن لقب « المطران الفدائي » . واذا وجد مذنبا — ومحكمته ستحظى بالطبع باهتمام واسع — فربما سيؤدي هذا الـى تعزيز وتثبيت مكانة « المخربين » . لا يعرف اي شخص كيف ستجري المحاكمة ، وماذا سيعلن المتهم خلالها . على اي حال ، من الواضح انها لـن تكون محاكمة عادية ، وليس معروفا مدى الاعتزاز الذي سيحدث اذا اتضـح ان رجـل الكنيسة ، صاحب المكانة السامية ، قدم هو ايضا مساهمـة نشيطة « للنضال القومي في سبيـــل تحريـــر فلسطين » .

« اضف الى ذلك ، أن العلاقات القائمة بـين الدولة اليهودية والطوائف المسيحية في اسرائيل وفي العالم كله ، هي علاقات معقدة وحساسة . ان طائفة المطران كبوجي هي اكبـــر الطوائـف المسيحية في اسرائيل ... فقد حظي المطران حكيم في الماضي ، والمطران ربا في هذه الايام ، بمعاملة خاصة في اسرائيل كممثلين لفئات عربية واسعة ، تفوق مهامهم الكنسية . ولقد تورطت الســلطات الاسرائيلية بقضية مأساوية بارزة في علاقاتها مـع طائفة الروم الكاثوليك ، وهي قضية اقرت وكفر برعم ... ان قضية كبوجي تضايق ليس من الوجهة الامنية فقط ، وانما ، وبمــــدى اكبر من ناحيـة سياسية واجتماعية . ولذلك فان اعتبارات مصلحة اسرائيل يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار « .

كما يحذر ميخائيل شيشار (معاريف ، ٧٤/٨/٢٧) من امكانية تبلور رأي عام عــالمي معــاد لاسرائيل ، نتيجة محاكمة المطران كبوجي ، فيقول « يبدو انه لن تكون هناك صعوبة في كسب تأييـد الرأي العام ، غير المطلع على التطورات ، واثارة الاستنكار ضد اسرائيل ، بسبب الخطوة التـي اتبعتها ضد المطران . هكذا كان سيحدث تجاه كل

دولة اخرى ، فكم بالحري تجاه اسرائيل ، بعدما تثور المشاعر المعادية لليهود عند المسيحيين — وحتى عند ابناء ديانات اخرى — بسبب اعتقال رجل دين مسيحي . ولكن لهذا السبب بوجه خاص، فان السؤال الذي يجب ان يطرح نفسه الان : ما هي الاعمال التي ينبغي ان يقوم بها المسؤولون عن القضية — بالاضافة الى الاجراءات القانونية التي يلزمها الاعتقال — من اجل منع تيقظ مشاعر معادية للاسرائيليين ، ذات خلفية دينية ، نتيجة لاعتقال كبوجي ؟

« ان القاعدة المتبعة عندنا هي « ان الهجوم افضل دفاع » . ويبدو انه ينبغي تطبيقه بصورة مفيدة ، وحذرة ، في هذه الحالة بوجه خاص . انني اصر على هذا الامر ، بسبب الهمس الذي بدأت اسمعه ، « لا يستحسن » التورط مع الفاتيكان ، وينبغي « انهاء القضية بهدوء » ، وكأننا لا نعالج هذه القضية في دولة ذات سيادة ... اذا تصرفنا هكذا ، لن نحل مشكلة كبوجي فحسب وانما ستزداد الاتهامات ضد اسرائيل ، لانها وجهت تهما باطلة ضد شخصية مسيحية هامة » .

وهاجمت صحيفة معاريف في افتتاحيتها يوم ٧٤/٩/٤ « تلك التهديدات التي تسمع من بيروت ، بواسطة المراسلين اللطفاء ، ضد اسرائيل ، بانه من الافضل لها عدم تقديم المطران كبوجي الى المحاكمة ، لانه سيستغل محاكمته لاجراء حساب سياسي مع المحتلين الاسرائيليين في القدس الشرقية . سيعترف بجميع التهم المنسوبة له ، ويدعي بحق رجل دين في منطقة محتلة، في المساهمة بالحرب ضد المحتلين .

« مقابل ذلك ، اسنا متأكدين ابدا من ان الكنيسة التي يمثلها ، ستخرج بسلام من محاولة تحويل قاعة المحكمة الى حلبة صراع سياسي . ان القاعدة المتبعة في اسرائيل هي منح حرية العبادة لكل كنيسة وكل دين . ولكن هذه القاعدة مشروطة بفصل كامل ومطلق بين شؤون الدين وشؤون السياسة ، وكم بالحري — قضايا القتل . ان الكنيسة التي تكون حليفا للقتلة ، عليها الا تنتظر المعاملة المتسامحة التي يستحقها رجال دين حقيقيين » .

واضافت الصحيفة :

« اذا اراد كبوجي اقناع الرأي العام العالمي بان كنيسته هي قناع لمنظمة سرية ، سيحقق امرا واحدا فقط : ستفقد كنيسته الاستفادة من الامتيازات المحفوظة لها الان ، وسنعاملها ككل منظمة سرية تشكل خطرا على سلامة الجمهور ».

(٥) القضية الفلسطينية عسكريا

تصريحات الرئيس انور السادات الحربية

عندما تكون حالة العداء قائمة بين مجتمعين او دولتين او كتلتين تكون حالة الحرب هي القاعدة ، وحالة السلم هي الاستثناء . ولا يتم الانتقال من حالة الحرب الى حالة السلم ، الا اذا تم حل التناقض التاريخي الذي يقع في قاعدة العداء ، ويغذي كل اشكال النزاع . وبالرغم من ان الحرب — بالمعنى الحرفي للكلمة — لا تشغل سوى فترة قصيرة نسبيا من حقبة النزاع الطويلة ، فان حالات « الحرب الكامنة » ، و « الحرب الخفية » ، و « الحرب الخبيثة » ، و « الحرب الباردة » تشغل الجزء الاطول من هذه الحقبة ، وتكون بمجملها مرحلة اعداد للصدام المسلح الشامل — الحرب العسكرية .

وتتجسد هذه الحالات بأشكال متباينة ، كالدعاية ، والدعاية المضادة ، والتجسس ، والمقاطعة الاقتصادية ، واغلاق الحدود ، والتخريب وتشجيع العناصر الداخلية المناوئة للسلطة ، والمناورات الكبيرة ، والتعبئة العامة ، والتهديدات ، والتلويح بالقوة ، والمناورات السياسية الخارجية ، وتسريب المعلومات عن امتلاك اسلحة جديدة ... الخ . وتدخل في اطار هذه الاشكال أمور عديدة تم رصدها خلال الشهر الماضي (٨/١٥ — ٩/١٥) : كالتصريحات الحربية الاسرائيلية ، والتصريحات العربية المضادة ، والاعلان عن شراء أنواع متطورة من الاسلحة ، وتمارين التعبئة الاسرائيلية (٢٥ — ٧٤/٨/٢٦) ومناورات اسرائيل في سيناء (٢٦ — ٨/٢٧) والجولان (١٠ — ٩/١٢) ، وزيارة رئيس وزراء العدو اسحاق رابين الى واشنطن ، وزيارة الرئيس حافظ الاسد الى رومانيا وبلغاريا ، والتقارب المصري — الليبي والمصري — العراقي ، وزيارة رئيس منظمة التحرير ياسر عرفات الى موسكو ، وما كتبته الصحافة السوفياتية خلال هذه الزيارة وبعدها ، والاعلان عن احتمال حصول الولايات المتحدة على قاعدة بحرية في حيفا ، وعودة شحن الاسلحة السوفياتية الى مصر ، ووصول طائرات « ميغ — ٢٣ » الى سورية ، واحتمال وصولها الى العراق ومصر ، وتصريحات رابين في ٩/١٥ حول الاسلحة التي ستحصل عليها اسرائيل ، لذا فان من الممكن اعتبارها أعمالا حربية ، حتى لو لم تأخذ الطابع العسكري ، كما يمكن ادراجها تحت بند الاستعداد لمؤتمر جنيف ، الذي يمثل بدوره مرحلة من مراحل الاعداد للحرب الخامسة .

ويهمنا هنا التحدث عن تصريحات الرئيس انور السادات الأخيرة ، لعلاقتها الكبيرة بشؤون الحرب والسلام في المنطقة . وينبع اهتمامنا بتصريحات الرئيس السادات من الوزن البشري والعسكري الضخم الذي تملكه جمهورية مصر العربية حاليا ، والدعم الاقتصادي — السياسي الذي يقدمه الملك فيصل للرئيس المصري ، وانعكاس هذا الوضع على وزن السياسة المصرية الخارجية ، وعلاقات مصر مع الدول العربية الاخرى ، ومختلف مبادرات السلام وقرارات الحرب .

في اليوم الذي بدأت فيه اسرائيل تمارين التعبئة العسكرية (٨/٢٥) تحدث الرئيس انور السادات في الاسكندرية عن مسائل الحرب والسلام في الشرق الاوسط ، خلال لقائه مع اعضاء الوفود المشتركة في « اللجنة التحضيرية لمؤتمر كل الشعب العربي » . وتركزت المواضيع العسكرية في حديثه بأربع نقاط :

١ — « ان اي عدوان على اية مدينة من مدن القناة يعطينا الحق في ضرب عمق اسرائيل . ونحن نملك السلاح لضرب عمق اسرائيل . ولا داعي للتأخير في تعمير مدن القناة . وآن الاوان لان يعود اهل القناة الى حياتهم العادية » . وتعتبر هذه النقطة ردا على الفكرة القائلة ، بأن تعمير مدن القناة سيقدم للاسرائيليين رهينة كبيرة ، وسيجعل القيادة السياسية المصرية تحجم عن اتخاذ قرار الحرب خوفا من الضربات الرادعة المعادية التي تلحق اضرارا جسيمة بالسكان والممتلكات ، ويقيد حرية العمل المصري ، ويزيد حرية العمل الاسرائيلي .

ويتبلور رد الرئيس المصري حول مسألة موازنة الردع الجوي الاسرائيلي بالردع الصاروخي —

الجوي العربي . والحقيقة ان اسرائيل كانت تملك بعد حرب ١٩٦٧ ، قدرة ردعية جوية كاملة اذ كان بوسعها ضرب اهداف حيوية في عمق الاراضي العربية ، دون ان تخشى ضربة مضادة مماثلة . ولكن هذا الوضع لم يمنع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر من شن حرب الاستنزاف (١٩٦٩ — ١٩٧٠) . وردت اسرائيل على هذه الحرب بضرب اهداف مصرية مدنية وعسكرية (مدرسة بحر البقر ، معسكر الهاكستيب ، مصنع ابي زعبل ، معسكرات الدهشور والمعادي ، ومستودعات الطيران في الخانكة ، وغيرها) بالاضافة الى ضرب مدن القناة (بور سعيد ، الاسماعيلية ، السويس) وتدمير مصانع تكرير البترول وبعض منابع النفط على الشاطىء الغربي لخليج السويس . ولقد دفع هذا العمل القيادة السياسية المصرية الى اخلاء مدن القناة من اكثر سكانها ، وترحيلهم الى داخل البلاد ، لتحرير القيادة العسكرية من الردع ، ومنحها حرية عمل اكبر .

ومع تكامل شبكة الصواريخ المصرية على طول قناة السويس ، وارتفاع مستوى كفاءة الدفاع الجوي المصري بفضل ادخال الطائرة « ميغ — ٢١ م ف » الى الخدمة ، وتكثيف تدريب الطيارين المصريين ، ووصول اعداد كبيرة من الخبراء والطيارين السوفيات الى مصر ، تناقصت حرية عمل الطيران الاسرائيلي الذي سيطر على اجواء المنطقة سيطرة كاملة منذ حصوله في عام ١٩٦٩ على طائرات الفانتوم « ف — ٤ اي » ، وطائرات سكاي هوك « أ — ٤ اي/هـ » . ولكن هذه الحرية لم تختف نهائيا ، اذ بقي بوسع الطيران الاسرائيلي القيام بمهمات ضد اهداف بالعمق المصري ، اذا ما قرر التضحية ببعض الطائرات ، ورأى ان الغرض المادي او المعنوي الذي سيحققه القصف يستحق مثل هذه المجازفة . وبالاضافة الى ذلك ، فان حرية عمل الطيران الاسرائيلي ضد اهداف تقع على اراضي البلدان العربية المجاورة ، كانت كاملة وبلا حدود ، الامر الذي حرم مصر من امكانية الحصول على مساعدة سورية على الاقل عن طريق شن حرب استنزاف سورية منسقة مع حرب الاستنزاف المصرية .

ولقد نجم عن هذا الوضع ، ان سلاح الطيران المعادي الذي فقد جزءا من حرية عمله في الاجواء المصرية ، حافظ على قدرته الردعية . ولقد استغل هذه القدرة ضد سورية ولبنان بعد توقف حرب الاستنزاف المصرية (اب ١٩٧٠) ، وكان يدمجها مع العمل الجوي ضد اهداف سورية — لبنانية — اردنية خلال الحرب التي شنها على القواعد الخارجية لقوات الثورة الفلسطينية . ومع خروج الخبراء السوفيات من مصر (تموز ١٩٧٢) ، ظن المراقبون العسكريون العالميون ان الطيران المعادي استعاد قدرته على العمل والردع بالنسبة الى مصر ايضا ، نظرا لاعتقادهم بعجز الطواقم المصرية عن ادارة شبكة الدفاع الجوي وصيانتها، ولذا فانهم لم يأخذوا بجدية كافية شعار « العمق بالعمق ، والنابالم بالنابالم » الذي طرحه الرئيس السادات. ولقد اثبتت حرب ١٩٧٣ خطأ تصوراتهم، واستطاعت الصواريخ ارض — جو والطائرات تحديد عمل الطيران المعادي ، كما استطاعت الصواريخ ارض — ارض تعديل الردع الجوي .

ويشير الرئيس انور السادات الى هذه النقطة عندما يقول بان العدوان على مدن القناة يعطيه الحق بضرب عمق اسرائيل . ويستنتج من قدرته على موازنة الردع ، ضرورة اعادة تعمير مدن القناة واسكانها ما دامت حمايتها مؤمنة بالصواريخ أرض — جو ، وما دام العدو لا يملك حرية ضربها ، لان اهدافه المدنية المتكاثفة على شريط ساحلي ضيق ، ستتعرض لضربات مماثلة ، وما دامت الصواريخ ارض — ارض المصرية والسورية قادرة على ايصال الدمار الى العمق ، وما دام وصول الطائرة « ميغ — ٢٣ » الى سورية واحتمال وصولها الى مصر والعراق سيجعلان القاذفات العربية قادرة على ضرب أعماق اسرائيل تحت حماية مظلة جوية واقية لا تستطيع طائرات الفانتوم مجابهتها .

وليس ضرب أهداف في عمق اسرائيل امرا نظريا، فلقد اعترفت اسرائيل خلال حرب تشرين الاول ١٩٧٣ ان الصواريخ ارض — ارض السورية قصفت اهدافا مدنية وتجمعات عسكرية في سهلي الحولة وطبرية ، وان غاراتها على دمشق والمدن السورية الاخرى كانت ردا على هذا القصف . وفي حديث الرئيس انور السادات مع صحيفة « أخبار اليوم » (١٩٧٤/٨/٣) سئل « الم نضع في حساباتنا ان نضرب اسرائيل في العمق ؟ » فاجاب الرئيس « طبعا كان هذا محسوبا » . وكنا مستعدين للرد

في عمق اسرائيل ايضا . وأعلنت هذا بعد ذلك في خطابي أمام مجلس الشعب خلال القتال » . ثم قال « كانت صواريخنا موجهة الى ثلاث مدن رئيسية في اسرائيل استعدادا للضرب الفوري في العمق اذا لجأ الاسرائيليون الى حرب العمق ». وعندما قال الصحفي متسائلا « تردد اننا أطلقنا سلاحا جديدا » أجاب الرئيس « هذا صحيح ، وكان ذلك يوم ٢٢ تشرين الاول ، قبل وقف اطلاق النار . وهو سلاح له قوة تدميرية فظيعة . لكن الصواريخ وحدها لم تلعب الدور الاول . ان المدفعية المصرية الرهيبة لعبت أخطر الادوار » .

ان الصواريخ ارض — ارض لم تلعب في الحرب الرابعــة الدور الاول . ولكنهــا منعت الطيران المعادي ، على كل حال ، من ان يلعب الدور الاول في العمق ، وهذا باعتقادنا انجاز ضخم يضع دور الصواريخ ، حتى في الحرب الرابعة ، في مصاف الادوار الاولى . وما دامت الصواريخ قادرة على لعب هذا الدور ومنع العدو من قصف العمق ومدن القناة ، فلماذا لا تبنى هذه المدن ، ويرجع اليها سكانها ، وتعود اليها الحياة الطبيعية ؟ هذا هو ما أراد الرئيس السادات قوله في هذه الفقرة من حديثه .

٢ — والنقطة الثانية في حديث الرئيس السادات (٨/٢٥) هو ان الحرب الرابعة ، وما رافقتها من انجازات وتضامن عربي ، وامتلاك العرب لطاقات وقوى تجعلهم « القوة السادسة في العالم » ، قد استطاعت زحزحة الولايات المتحدة « عــــن انحيازها الاعمى لاسرائيل » ودفعتها الى الالتزام بخط متوازن ، والبحث عن « حل سلمي عــــادل ومشرف للقضية بعدما اعادت حساباتها نتيجــة الحرب . لذلك لا يمكن بلبلة المواطن العربي والقول ان هذا بيع القضية لاميركا » .

لقد استطاعت الحرب الرابعة بالفعل رفع قيمة العالم العربي في العالم أجمع ، وحركت قضيــة النزاع المتجمدة ، ووضعتها على رأس جــدول اهتمامات الدول كلها ، بعد ان كاد العالم ان ينساها . ونقلت العرب من حالة امتلاك القــوة الى حالة الوعي بامتلاك القوة والقدرة عــــلى استخدامها . واصبح بوسع المعسكر العــربي استخدام القوة العسكرية بتنسيق كامل مع القوى الاقتصادية والسياسية والمالية في سبيل تحقيق أهدافه العادلة . ولكن هل ادى كل ذلك الى تبديل الموقف الاميركي ؟ هذا هو السؤال المطروح.

لقد كانت أهداف السياسة الخارجية الاميركية في الشرق الاوسط هي : ١ — الحفاظ على « الوضع الراهن » الذي يؤمن لها استمرار النهب الامبريالي لثروات المنطقة ، ٢ — ابعاد النفوذ السوفياتي عن الشرق الاوسط ، ٣ — احتلال المواقع السياسية — الاقتصادية — الثقافية التي اضطرت الدولتان الاستعماريتان القديمتان (فرنسة وبريطانيــة) لتركها بعد الحرب العالمية الثانية . ولا تزال الاهداف الاميركية نفسها دون تبديل بعد حرب١٩٧٣. واذا كانت تعتقد في السابق ان الحفاظ عــــلى « الوضع الراهن » الذي يضمن مصالحها ، لا يتم الا عن طريق خلق اسرائيل « الاقوى من جيرانها » ، فان هذا الاعتقاد لا يزال قائما . ولا ادل على ذلك من دعمها العسكري لاسرائيل ، واستعدادها لان تقدم للدولة الصهيونية معونات عسكرية مقدارها ٦ مليارات من الدولارات خلال السنوات الخمس المقبلة (بمعدل ١٢٠٠ مليون دولار سنويا) (النهار ٩/١٦) ، وتعزيز العسكرية الاسرائيلية بأحدث ما تنتجه الترسانة العسكرية الاميركية (٥٠ طائرة فانتوم ، و٢٠٠ — ٢٥٠ دبابة « م — ٦٠ » ، وطائرات هليكوبتر « هيوكوبرا » وقنابل ذكيــــة « سمارت بومب »، ومدفعية، ومعدات اليكترونية، وصواريخ من مختلف الانواع). واذا كانت تعتمد في الماضي على اسرائيل وحدها للحفاظ على المصالح الاميركية وردع العرب وضرب حركة التحرر الوطني العربي الوحدوية ، فان الولايات المتحدة تهــدد الان بالتدخل العسكري المباشر لحماية مصالحهــا (احتلال منابع النفط) ، وتمارس أساليب أشد خبثا لمحاربة حركة التحرر الوطني العربي الوحدوية، وترسم الخطط لحرب ايديولوجية عربية — عربية ، قد تتحول الى صدام مسلح عربي — عربي ، باسم حماية الوطن العربي من الشيوعية . ولم يعد البيت الابيض يتطلب من « اسرائيل القوية » لعب دور « الشرطي » فحسب ، ولكنه يود ايضا ان تكون اسرائيل القوية ، وايران القوية ، حافزا يدفع الدول العربية الغنية الى شراء مزيد مــن الاسلحة الاميركية المكدسة بكميات كبيرة ، منذ انتهاء الحرب الفيتنامية — الاميركية ، شريطة ان

لا يؤثر ذلك على ميزان القوى العربي — الاسرائيلي ، او ميزان القوى العربي — الفارسي، الامر الذي ينعش الاقتصاد الاميركي ويمنع ركوده ، ويزيد وزن التأثير السياسي الاميركي في البلدان العربية المستوردة للاسلحة . وتكمن الخدعة الاكبر في ممارسة هذه السياسة التسليحية وادعاء الرغبة في اتباع سياسة متوازنة في الشرق الاوسط ، في ان واشنطن تهب اسرائيل أسلحة حديثة متطورة لتنشيط المصانع الحربية الاميركية ، وارضاء « المجموعة العسكرية — الاقتصادية » المسيطرة في اميركا ، وتعوض خسائرها المادية التي تمثلها هذه الهبة عن طريق الارباح الناجمة عن بيع الدول العربية الغنية أسلحة قديمة مكدسة . وهكذا يبقى الاقتصاد الاميركي ، ومصانع السلاح بصورة خاصة ، المستفيد الاول والاخير من لعبة « البعبع الاسرائيلي » القديم الجديد، و « البعبع الايراني » الذي نمت انيابه ومخالبه منذ اواخر الستينات .

ولم تتخل الولايات المتحدة عن هدفها في ابعاد التغلغل السوفياتي بعد حرب ١٩٧٣ ، وهي تتبع حتى الان اسلوب الضغط السياسي — الاقتصادي التي اتبعتها منذ صفقة السلاح السوفياتي التي عقدتها الحكومتان المصرية والسورية (١٩٥٥) ، ثم كرستها بعد حرب ١٩٦٧،عندما ارادت اقناع العرب بأن حل النزاع في الشرق الاوسط لا يتم عن طريق القوة العسكرية التي يحصلون عليها من السوفيات، بل عن طريق الضغط الاميركي على اسرائيل . ولقد استمر اتباع هذا الاسلوب خلال مباحثات فصل القوات ولا يزال مستمرا حتى الان، وحقق نجاحات متفاوتة الحجم في بعض البلدان العربية ، ولكنه أصاب في بلدان عربية أخرى فشلا واضحا ، وادى على العكس الى زيادة التغلغل السوفياتي فيها .

ولا يزال هدف احتلال مواقع الفرنسيين والانكليز في الوطن العربي مستمرا . وتطبق الولايات المتحدة لتحقيقه الاساليب السابقة نفسها ، مع زيادة في التكالب والاندفاع ، تتناسب مع تزايد الثروات العربية ، وتراكم الاموال الفائضة العربية في البنوك العالمية ، وارتفاع مستوى حاجة العالم لمصادر الطاقة العربية ، واتجاه الوطن العربي نحو تنفيذ المشروعات الانمائية والاعمارية الكبيرة . وتحاول واشنطن منع اوروبا من استعادة بعض مواقعها في البلدان العربية ، وتخريب المواقف الاوروبية المؤيدة للعرب في مجالي استخدام سلاح النفط ، والنزاع العربي — الاسرائيلي . ولقد وصل بها الحد الى تهديد اوروبا بحرمانها من المظلة النووية، وكشفها دفاعيا امام حلف وارسو ، اذا ما أصرت على اتباع سياسة شرق اوسطية مستقلة عن السياسة الاميركية .

ويعني كل هذا ، ان الولايات المتحدة لم تتخل عن أهدافها الامبريالية المتناقضة مع أهداف الامة العربية،بل عدلت الاساليب المستخدمة لتحقيق هذه الاهداف . كما انه يعني ان الولايات المتحدة تحاول الحصول على ثمن عال للتبدل الجزئي الذي لحق بموقفها بالنسبة الى الصراع العربي — الاسرائيلي. وهي تستخدم في ذلك ابتزازا مكشوفا يتمثل في تقوية اسرائيل عسكريا ، واجبارها على تقديم بعض التنازلات،ومطالبة العرب بتأمين أهداف الاستراتيجية الاميركية ، والا فان « اسرائيل القوية » جاهزة للتدخل ، والضغوط الموجهة اليها يمكن ان تتوقف.

الا ان هذا كله لا ينفي آثار حرب تشرين الاول على السياسة الاميركية . فلقد استطاعت الاسلحة العربية المتعددة (العسكرية والاقتصادية والسياسية) كشف التناقض القائم بين المصالح الاميركية والمصالح الاسرائيلية . وكان لمواقف الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية وبلدان العالم الثالث وعدد من بلدان القارة الاوروبية دور في مساعدة العرب على استخدام أسلحتهم . بيد ان القوى الاميركية التي اقتنعت بخطر هذا التناقض على المصالح الاميركية لا تزال محدودة ، ولا يمكن التوصل الى زيادتها عن طريق تخفيف ضغط العرب على اميركا ، او فك ارتباطهم مع الاتحاد السوفياتي ، بل عن طريق متابعة هذا الضغط ، وزيادة التلاحم مع الاتحاد السوفياتي والدول المعادية للامبريالية .

٣ — لقد قال الرئيس السادات في حديث ٨/٢٥ « ان مصر لا تقبل أي حل جزئي ولن أخرج من المعركة » وليس هذا الموقف جديدا . فلقد صرح الرئيس المصري أكثر من مرة انه يرفض الحلول الجزئية ، ويرفض الحل الذي يضمن لمصر استعادة سيناء اذا لم يضمن في الوقت نفسه استعادة الجولان والضفة الغربية ، وحصول الشعب الفلسطيني على حقوقه المشروعة . ويتطابق هذا الرفض مع الخط القومي الذي يسير عليه الرئيس

الاسد . وهو يعني ان الرئيس السادات متمسك بالحل الشامل ، ويرى انه الخط الوحيد الذي يمكن اتباعه خلال الصراع مع العدو الاسرائيلي . ولقد صرح في مطلع شهر ايلول (سبتمبر) : « ليس عندي مشكلة بالنسبة الى سيناء ... مشكلتي هي الجولان والقدس ... الذي يعلم والذي لا يعلم يجب ان يعلم ويفهم انه بتحليل استراتيجي بسيط جدا عندما اوافق على انهاء حالة الحرب مع اسرائيل ، سينسحبون فورا الى حدودهم ... انا ليس عندي مشكلة ... ومع ذلك يأتي البعض ويقول بسخافة ان مصر ستنهي الحرب وحدها... مصر عليها التزام قومي لا تتنازل عنه ... انها مستشعرة مسؤولياتها العربية تماما ، ولا يمكن ان تفرط ابدا بأي شبر من الارض العربية » (النهار ١٩٧٤/٩/٧).

وتكمن أهمية هذا الخط السياسي القومي ، في ان التأكيد على ان الضغط الاميركي عجز عن فصل الدول العربية عن بعضها ، وان أساليب اسرائيل في الاستفراد بالدول العربية للحصول على اتفاقات صلح منفرد ، قد فشلت تماما ، وان على القوات المسلحة الاسرائيلية ان تجابه في أية حرب مقبلة وضعا صعبا يتمثل في القتال على أكثر من جبهة ، الامر الذي تحاول العسكرية الاسرائيلية تحاشيه .

٤ ـ والنقطة العسكرية الاخيرة في طرح الرئيس السادات قوله « اما ان يسفر المؤتمر عن حل سلمي عادل ومشرف او نعيد حساباتنا من جديد ونبدأ معركتنا من جديد » . وتدل هذه النقطة على مدى وعي الرئيس المصري لجدلية الحرب والسلام. لقد قال في حديثه مع جريدة النهار (٩/٧) « أنا فاتح على كل الجبهات : الحرب والسلم وبناء الدولة ». وهو يرى ان من الضروري ذهاب العرب الى جنيف « والمبادأة لا تزال في أيديهم » حتى يستطيعوا العودة الى الحرب اذا ما ادى التعنت الاسرائيلي الى احباط محاولات السلام . ولقد سأل أحد الصحفيين الاجانب الرئيس السادات خلال زيارته الى بور سعيد في ٩/١٠ « هل لديه أمل في حل سلمي ، فاجاب بالايجاب » وأكد ان رؤيته للخطوة الاسرائيلية القادمة هي « انسحاب اسرائيل وفقا لقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، والتنفيذ الفوري الكامل لهذا القرار » . وعندما سأله الصحفي عما سيحدث في حالة عدم تنفيذ اسرائيل لهذا القرار ، أجاب بقوله : « سنعود الى الحرب مرة اخرى » (الاهرام ١٩٧٤/٩/١١).

*

هذه هي أهم النقاط العسكرية التي طرحها الرئيس السادات خلال الشهر المنصرم . وهي بمجملها تكرار لنقاط كان قد طرحها قبل حرب ١٩٧٣ وخلالها وبعدها . وتعكس هذه النقاط طبيعة العلاقات السياسية الاقتصادية العسكرية كما يراها قائد دولة يخطط للحرب والسلم والبناء بآن واحد ، ويفكر بأن يجعل عبور القناة عبورا للتاريخ .

وبالرغم من وضوح خط الرئيس المصري المتطابق مع الخط السوري ، فان الاسرائيليين يريدون على ما يبدو دفن رؤوسهم في الرمال لتجنب رؤية الحقيقة . ومن حسن حظ العرب انه لا يزال في معسكر العدو أشخاص مثل دوف ينون ، معلق الشؤون العربية في الاذاعة الاسرائيلية . فلقد علق ينون على تهديدات الرئيس أنور السادات خلال جولته في منطقة السويس ، بأن مصر ستستأنف القتال اذا لم تنفذ اسرائيل قرار مجلس الامن ٢٤٢ ، واعتبر ان هذه التهديدات نابعة من أسباب مصرية داخلية وانه « كلما أصبحت الاوضاع بالنسبة الى النظام الحاكم في مصر وفي العالم العربي متعبة أكثر ، يكثر الرئيس السادات من استخدام هذه اللهجة ، والقول بأن الحرب لم تنته بعد » (ر.ا.ف. ، ١٩٧٤/٩/١٢) . وحبذا لو كان دوف ينون مستشار رئيس حكومة العدو للشؤون العربية ، لان وجوده في مثل هذه الموقع وتحليلاته الغيبية المماثلة ، ستجعله أفضل حلفاء العرب ، وستساعد الجيوش العربية على تحقيق المفاجأة ، تماما كما ساعدتها تحليلاته قبل ثلاثة أيام من اندلاع الحرب الرابعة ، والتي أكد فيها ان الحشود السورية على حدود وقف اطلاق النار قبل حرب تشرين الاول « تعود الى المشكلات الداخلية » و « ان هناك محاولات جرت للاطاحة بالرئيس الاسد ، كما ان هناك سوء تفاهم مع « المخربين »، وخلافات حزبية داخلية . وحل هذه المشكلات، كان ولا يزال ، هو محاولة خلق جو من التوتر على الحدود » .

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٨/١٦ — ١٩٧٤/٩/١٥

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
١	٨/١٥	—	جنعات اولجا/ غرب مدينة الخضيرة(١)	تفجير	عبوات مشركة	غيرمحدد		—	—	—	—	رقم٧٤/٢١١	٨/١٦
٢	٨/ ٤	—	حيفا	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	—	١	اعطاب سيارة اودي لاحد رجال المخابرات الصهيونية	—	—	—	رقم٧٤/٢١٢	٨/١٦
٣	٨/ ٥	—	يروحيم/تل ابيب	تفجير	عبوات حارقة	—	—	اشعال النيران في المستودع الرئيسي لمعمل نويس للكلسات واتلاف محتوياته	—	—	—	رقم٧٤/٢١٣	٨/١٦
٤	٨/ ٤	—	معسكر الشاطىء	كمين	قنابل يدوية واسلحة رشاشة	غيرمحدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم٧٤/٢١٤	٨/١٧
٥	٨/١٥	—	ايلات(٢)	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد		اشعال النيران في مبنى البلدية واتلاف وحرق ملفات رئيس البلدية	—	—	—	رقم٧٤/٢١٥	٨/١٧
٦	٨/١٦	—	نتانيا/شمال تل ابيب	تفجير	عبوة ناسفة	غيرمحدد		تدمير قسم من أحد الملاهي الليليـة	—	—	—	رقم٧٤/٢١٦	٨/٢٠
٧	٨/١٣	—	نابلس	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوة قبل انفجارها بدقائق في مقر الحاكم العسكري	—	—	—	رقم٧٤/٢١٧	٨/٢٠
٨	٨/٢٠	—	العفولة	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير منزل رئيس بلدية العفولة واصابـة مبنى مجاور بأضرار	—	—	—	رقم٧٤/٢١٨	٨/٢١
٩	٨/٢٠	٢١٠٠	(شارع يافا حي محني يهودا) القدس(٣)	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	ادعى العدو باكتشاف العبوة قبل انفجارها	—	—	—	رقم٧٤/٢١٩	٨/٢١
١٠	٨/١٨	—	بين تل ابيب وحيفا(٤)	كمين	—	غيرمحدد		تدمير سيارة واعطاب اخرى وقتل وجرح من فيهما	—	—	—	رقم٧٤/٢٢٠	٨/٢١
١١	٨/٢٤	—	—	—	—	—	—	حرق سيارة محمود ابو الزلف صاحب جريدة القـدس ومحررها المسؤول	—	—	—	رقم٧٤/٢٢١	٨/٢٥
١٢	٨/٢٣	—	شمال مدينة اريحا	اشتباك	أسلحة مختلفة	غيرمحدد		دامت المعركة ثماني ساعات متواصلة	—	٣	—	رقم٧٤/٢٢٢	٨/٢٥
١٣	٨/٢٥	—	كفار سابا/شمال شرق تل ابيب(٥)	تفجير	عبوة ناسفة	غيرمحدد		تدمير مبنى مقابل مبنى رقم ٨ في شارع روجي واصابة عدد من المباني بأضرار	—	—	—	رقم٧٤/٢٢٣	٨/٢٦
١٤	٨/٢٥	—	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	١	اصابة خبير عسكري بجراح بالغة اثر محاولته تفكيك عبوة في سوق محني يهودا في شارع عيتس حاييم	—	—	—	رقم٧٤/٢٢٤	٨/٢٦
١٥	٨/٢٣	—	بين طوباس وجنين(٦)	اشتباك	أسلحة مختلفة	غيرمحدد		نفس مجموعة البلاغ رقم ٧٤/٢٢٢ تخوض مزيدا من الاشتباكات اثناء تقدمها نحو هدفها المحدد	—	٤	—	رقم٧٤/٢٢٥	٨/٢٧
١٦	٨/٢٧	—	بين حيفا وتل ابيب	تفجير	قنبلة موقوتة	غيرمحدد		اصابة مطعم هباتشيم بأضرار	—	—	—	رقم٧٤/٢٢٦	٨/٢٧
١٧	٨/٢٧	—	شلومو/رمات منشية	تفجير	عبوة ناسفة	غيرمحدد		اصابة عدد من مباني المستوطنة بأضرار	—	—	—	رقم٧٤/٢٢٧	٨/٢٧
١٨	٨/٢٦	—	المنطقة الصناعية في مدينة ديمونا(٧)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		نشوب حريق هائل في المعامل	—	—	—	رقم٧٤/٢٢٨	٨/٢٨
١٩	٨/٢٩	—	يافا(٨)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير قسم كبير من مبنى مطعم فورد في شارع ياتوت	—	—	—	رقم٧٤/٢٢٩	٨/٢٩
٢٠	٨/٢٤	—	عين سارة/الخليل	اقتحام	—	—	—	حرق كافة اوراق ومستندات مكتب العمل الصهيوني	—	—	—	رقم٧٤/٢٣٠	٨/٢٩

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
٢١	٨/٢٩	—	شارع النصر في مدينة نابلس	القاءقنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		اعطاب سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم٧٤/٢٢١	٨/٣٠
٢٢	٨/١٥	—	كريات حاييم	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير قسم من منزل أحد رجال المخابرات واصابة مبان اخرى بأضرار	—	—	—	رقم٧٤/٢٢٢	٨/٣٠
٢٣	٨/١٥	—	نهاريا	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	ادعى العدو انه تم اكتشافها وتفكيكها	—	—	—	رقم٧٤/٢٢٢	٨/٣٠
٢٤	٩/ ١	—	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اشعال النيران في عدد من المراكز التجارية في السوق المركزي	—	—	—	رقم٧٤/٢٣٣	٩/١
٢٥	٩/ ٢	—	رمات غان(٩)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اشعال النيران في ناقلة وقود وامتدادها الى محطة للوقود	—	—	—	رقم٧٤/٢٣٤	٩/٢
٢٦	٩/ ٣	—	حي روميما/ القدس(١٠)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير سيارة واصابة المباني المباني المجاورة بأضرار	—	—	—	رقم٧٤/٢٣٥	٩/٤
٢٧	٩/ ٥	—	شارع أكروكريس/ تل ابيب(١١)	تفجير				اشعال النيران في مصنع بيليو للشوكلاته واتلاف جميع محتوياته				رقم٧٤/٢٣٦	٩/٥
٢٨	٩/ ٥	—	نتانيا	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تدمير الكابل الرئيسي للهاتف	—	—	—	رقم٧٤/٢٣٧	٩/٦
٢٩	٢٧—٨/٢٨	—	بين نتانيا وطولكرم	اعدام	—	١	—	الاستيلاء على سلاح الجندي الفردي	—	—	—	رقم٧٤/٢٣٨	٩/٧
٣٠	٩/ ٨	—	معشوقات/طبريا	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير محطة المياه المركزية	—	—	—	رقم٧٤/٢٣٩	٩/١٠
٣١	٩/ ٩	—	شارع اشتمبر/ بتاح تكفا	تفجير	عبوة ناسفة	غيرمحدد		تدمير جزء من مركز الشرطة واصابة عدد من افراده	—	—	—	رقم٧٤/٢٤٠	٩/١٠
٣٢	٩/ ٩	—	غزة	كمين	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم٧٤/٢٤١	٩/١٠
٣٣	٩/١٠	—	شارع عمر المختار/غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		اعطاب سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم٧٤/٢٤٢	٩/١٠
٣٤	٩/١٠	—	كريات شاؤول/ تل ابيب(١٢)	غيرمحدد	غير محدد	غيرمحدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم٧٤/٢٤٣	٩/١١
٣٥	٩/١٠	—	نابلس	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير جزء من مبنى الحاكم العسكري واصابة عدد من السيارات وباص	—	—	—	رقم٧٤/٢٤٤	٩/١١
٣٦	٩/١١	—	نحال العريش/ سيناء	تفجير	القسام	غيرمحدد		تدمير اليتين للعدو وقتل وجرح من فيهما	—	—	—	رقم٧٤/٢٤٥	٩/١١
٣٧	٨/٢١	١٩،٠٠	حي وادي التفاح/الخليل	اعدام	—	١	—	تم اعدام أحد رجال المخابرات	—	—	—	رقم٧٤/٢٤٦	٩/١٢
٣٨	٩/١١	—	مستوطنة بيريي/ صفد(١٣)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اشعال النيران في عدد من المباني وامتدادها الى احراش الحمضيات	—	—	—	رقم٧٤/٢٤٨	٩/١٢
٣٩	٩/١١	—	غزة	اشتباك	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد		تدمير سيارتين ومقتل جميع افراد الدورية	—	—	—	رقم٧٤/٢٤٩	٩/١٤
٤٠	٨/٢٩	—	قرب تل فليحة/ بئر السبع	تفجير	القسام	غيرمحدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم٧٤/٢٥٠	٩/١٤
٤١	٩/١٥	٧،٥٥	شارع لامبردبا/ تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تمكن العدو من اكتشاف العبوة داخل السوبر ماركت وتفكيكها	—	—	—	رقم٧٤/٢٥١	٩/١٦
٤٢	٩/ ٢	٢١،٥٠	مستعمرة حانوتا/ الجليل الاعلى	اشتباك	أسلحة مختلفة	غيرمحدد		—	٢	٢	—	جبهة النضال الشعبي	٩/٣
٤٣	٩/ ٤	—	عين زيف/جنوب عرب فسوطة	اقتحام	أسلحة مختلفة	٢	٢	—	٢	—	١	الجبهةالديمقراطية لتحرير فلسطين	٩/٤

١ ـ ادعى العدو بأن خمسة اولاد اصيبوا بجروح من جراء لعبهم بصاعق وجدوه على شاطىء البحر . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦٠٩ ، ١٩٧٤/٨/١٦ ، ص ٤٣١).

٢ ـ اعترف العدو بالحادث وادعى بان النيران انطفأت من تلقاء نفسها واعتقد ايضا بأن المنفذ قد يكون أحد المحتاجين لمساعدة اجتماعية لم ينل مطلبه . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦٠٨ ، ١٩٧٤/٨/١٥ ، ص ٣٦٢).

٣ ـ راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦١٦ ، ١٩٧٤/٨/٢٤ ، ص ٦٢٩) .

٤ ـ اعترف العدو بالحادث وادعى ان شخصا سكب زيتا على الطريق مما ادى الى هذه الحوادث . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ـ العدد ٦١٣، ١٩٧٤/٨/٢١ ، ص ٥٤٣).

٥ ـ اعترف العدو بالحادث في معرض ادعائه بان تم اعتقال فدائيين بالقرب من نتانيا يحملان عبوتين ناسفتين . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦١٨ ، ١٩٧٤/٨/٢٧ ، ص ٧٠٠).

٦ ـ اعترف العدو بالحادث . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦١٨ ، ١٩٧٤/٨/٢٧ ، ص ٧٠٦).

٧ ـ ادعى العدو بأن الحادث قد يكون من فعل أحد العمال الذين فصلوا من المعمل ، وقد قدر العدو بأن الحريق قد سبب خسارة تزيد عن ربع المليون ليرة اسرائيلية . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦١٩ ، ١٩٧٤/٨/٢٨ ، ص ٧٢٤).

٨ ـ ادعى العدو بأن القاء القنبلة يعود الى نزاع جيران (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦٢٠ ، ١٩٧٤/٨/٢٩ ، ص ٧٦٩).

٩ ـ اعترف العدو بالحادث (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦٢٤ ، ١٩٧٤/٩/٣ ، ص ٦٨).

١٠ـ ادعى العدو بأن صبيان وجدا عدة صواعق كهربائية انفجرت بهما . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦٢٤ ، ١٩٧٤/٩/٣ ، ص ٧٩).

١١ـ اعترف العدو بالحادث (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦٢٦ ، ١٩٧٤/٩/٥ ، ص ١٣٦).

١٢ـ ادعى العدو بأن القنبلة وضعت تحت السيارة لان صاحبها شريك في ناد للقمار . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦٣١ ، ١٩٧٤/٩/١١ ص ٢٩٤).

١٣ـ ادعى الناطق العسكري الاسرائيلي بان النيران شبت من « محرقة » لم تطفأ كما يجب (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٦٣١ ، ١١/٩/ ١٩٧٤ ، ص ٢٩٤).

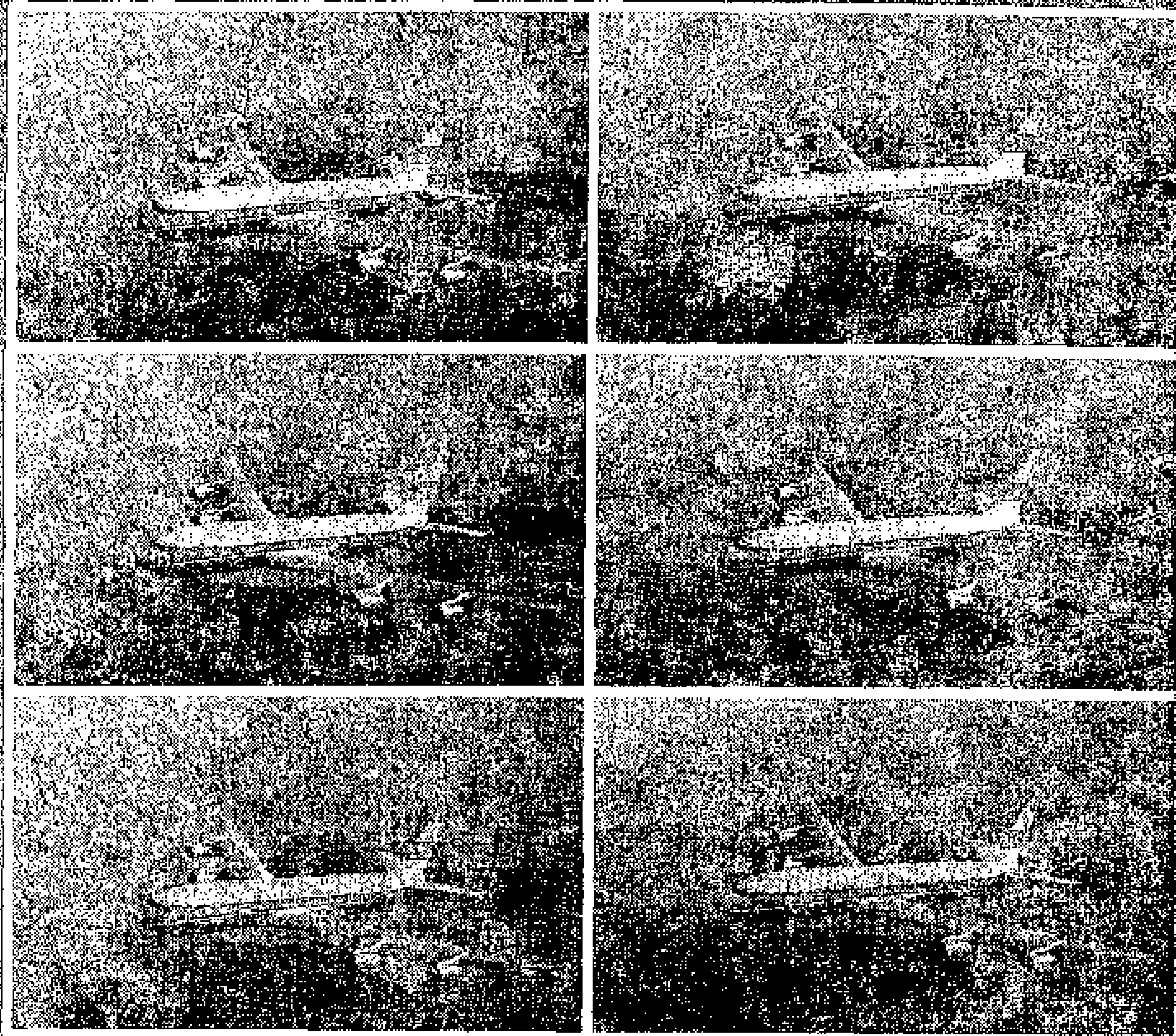
ملاحظة : تصدر البلاغات العسكرية عن الاعلام العسكري في القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية .

جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٨/١٦ — ١٩٧٤/٩/١٥

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر	تاريخه
١	٨/٢٠	—	العفولة	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	اصابة مبنى رئيس بلدية العفولة بأضرار	—	—	—	ن٠عدد٦١٣،ص٥٤٦	٨/٢١
٢	٨/٢٨	—	هضبة الجولان	اشتباك	أسلحة مختلفة	—	—	—	—	٢	—	ن٠عدد٦٢١،ص٨٠٤	٨/٣٠
٣	٨/٢٩	—	نابلس	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	—	—	لم تصب السيارة العسكرية بأضرار وكذلك أفرادها	—	—	—	ن٠عدد٦٢١،ص٨٠٤	٨/٣٠
٤	٩/ ٢	—	بين زرعيت وحانيتا	اشتباك	أسلحة مختلفة	—	—	—	٢	—	—	ن٠عدد٦٢٤،ص٧٨	٩/٣
٥	٩/ ٤	—	شمال فلسطين المحتلة/مسوطة	اشتباك	أسلحة مختلفة	٢	٢	—	٢	—	—	ن٠عدد٦٢٥،ص١٠٤، ١١٠، ١١١	٩/٤
٦	٩/ ٨	—	زرعيت	قصف	قذائف مدفعية	—	—	—	—	—	—	ن٠عدد٦٢٩،ص٢٢٧	٩/٩
٧	٩/١٠	—	غزة	القاء مواد متفجرة	مواد متفجرة	—	—	القاء المواد المتفجرة على سيارة للتلفزيون الاسرائيلي	—	—	—	ن٠عدد٦٣١،ص٢٩٣	٩/١١
٨	٩/ ٩	—	غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	—	—	القاء قنبلة على سيارة عسكرية	—	—	—	ن٠عدد٦٣١،ص٢٩٣	٩/١١
٩	٩/١٠	—	نابلس	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	انفجرت العبوة تحت سيارة اوتوبيس كانت ترابط أمام مقر الحاكم العسكري	—	—	—	ن٠عدد٦٣٢،ص٣٢٢	٩/١٢

ن — نشرة رصد اذاعة اسرائيل التي تصدر يوميا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

غازي خورشيد





وفي عام ١٩٧٤ [illegible]

قضايا عربية

شهرية فكرية مفتوحة لمختلف الاتجاهات العربية والتقدمية ، تعالج الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية والعلمية في الوطن العربي ، من خلال نظرة مستقبلية وبروح البحث العلمي .

للاشتراكات يرجى مراسلة ادارة المجلة، ص.ب ٥٤٦٠، بيروت ــ لبنان

تقرأ في العدد السادس (عدد خاص)

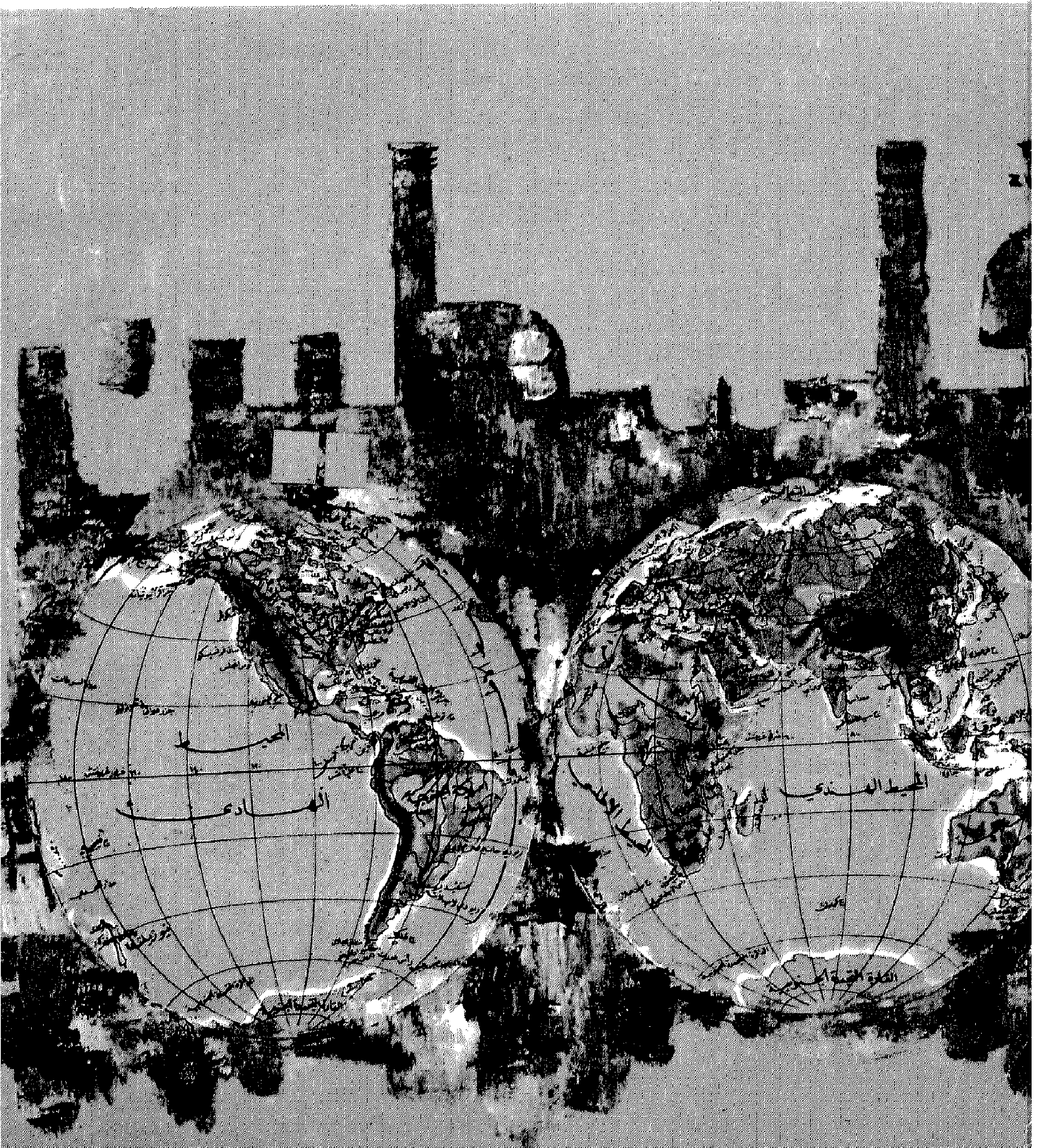
سعر النسخة ٣ ليرات لبنانية او ما يعادلها

السعر ٣ ١/٢ ل.ل. في لبنان
٤ ل.س. في سوريا
٤٥٠ فلساً في الكويت والعراق
٤ ١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية

شؤون فلسطينية

٣٩

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٤



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٣٩ — تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٤

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **مدير التوزيع** : غازي خورشيد .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرأبحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٣١/٢ ل.ل. في لبنان ، ٤١/٢ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٤١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٤٠ ل.ل. في لبنان ، ٥٠ ل.س. في سوريا ، ٥٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٦٥ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ٩٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

المحتويات

شؤون فلسطينية

المحطة . .

● لا تذهب القضية الفلسطينية الى الامم المتحدة لتسكن في ملف او خطاب . فسكناها ارض الصراع . ولكنها ، في ذهابها الى أكثر المنابر العالمية تأثيرا ، تأخذ العالم معها الى أرض الصراع ، وتشحن الادراك بمزيد من المعرفة والتأييد .

ولعل قضية اخرى لم تذهب الى هذا المنبر العالمي ، بمثل هذا السحر الذي يرافق القضية الفلسطينية ، في زيارتها الثورية الى هيئة الامم المتحدة . كأن رمزا حافلا بالمأساة والرفض ، يدق باب العالم لينقذ الصواب من الاتهامات التي صارت عادة .

لقد تحرك السلاح الفلسطيني ، فصارت الحنجرة الفلسطينية قادرة على اصدار الصوت المسموع . كأن دهشة تجتاح النائمين : فلسطين تتكلم . وقد لا ينتبه الذين أصابتهم رعشة الدهشة الى ان كمية العدل المتفجر من قضية فلسطين ، على طرقات العالم والتاريخ ، تجعلها أكبر في توهجها وجرحها من أي منبر واطار .

ان هيئة الامم المتحدة هي التي تطهر بعض خطاياها في دخول فلسطين . شيء من المغفرة تهبه فلسطين للذين اشتركوا ، بشكل أو آخر ، في احتواء الظلم لها . ومن هنا أن العالم لا يرحم فلسطين بقدر ما يرحم ذاته في هذا اليوم الفلسطيني الكبير .

تنزل الاسماء المخطئة عن كياناتها الخاطئة . واليوم ، تدخل فلسطين لا لتشارك الخطيئة مقعدا ، بل لتزحزحها رويدا رويدا — بقدر ما يتزاوج السحر مع القوة — لان فلسطين واحدة . عدلها واحد . وحقها واحد . ولهذا ، يكون الجهد الفلسطيني للثبات في مفاهيم الشرعية الدولية . . وللحركة المتصاعدة على أرض الصراع ، عملية واحدة مترابطة تبني عملية خروج الخطيئة التدريجي من دائرة الانسانية ومن معادلة العلاقة .

لم تكن فلسطين مغتربة عن نيل الاعتراف بحقها بقدر ما كان ميزان العدل الدولي بعيدا عن التطابق والصلاحية . العالم اليوم ليس عالم أمس ، وكل تطور ثوري هو اقتراب مباشر من الحق الفلسطيني . وكل اقتراب من ادراك عدالة فلسطين وسلامتها هو تعميق للعلاقة بين الوعي البشري وبين الضمير . كأن فلسطين محك لصدق الفهم والموقف . كأنها محكمة الضمير .

هل انتصرت فلسطين ؟ ربما . ولكنها اسست قاعدة أخرى لعملية الانتماء الفاعل الى المستقبل . وليس هذا اليوم الا نتاج الصراع الطويل الذي يخوضه الشعب الفلسطيني بكل اشكال الصراع . لقد انتزعت فلسطين صوتها ، وصار العالم يطلب

حضورها الاصيل . وهذا انتصار على الخوف والابادة ومؤسسة الخطيئة التي بنت كيانها على هذا الغياب .

ان فلسطين تحرر وتبشر . أن تكون هي ـــ ولها ، وأن تتعمق هذه القربى ـــ الهوية المنجزة ببراعة الكفاح ومهارة الايضاح ، شرط غير قابل للتجاهل لان تكون حلا للآخرين أيضا . وهذه هي دعوتنا : أن تكون بلادنا نقيض العرقية والانانية القومية والتعصب . ان تكون بلادنا أرض البناء والسلام . ان تكون بلادنا أرض المستقبل لا قاعدة المفاهيم المنقرضة .

الحرية هبة تحرر فلسطين . الحرية لأبنائها ولأبناء الحياة . وبهذا التحرر مـــن الاغتصاب والكراهية والعرقية تعيد فلسطين القيم الى نقطة توازن . وتسقط خطايا كثيرة عن الارض عندما تسقط الخطيئة التي ترتدي أرض فلسطين الآن . وتتسع منطقة الحرية والبشارة كلما ضاق استعباد فلسطين .

ولهذا يدرك عدو فلسطين معنى كلامها في الامـــم المتحدة . ويعترف بأن لا مكان مشترك لفلسطين المقاومة والصهيونية المؤسسة على صدر فلسطين صوتا وكيانا . لانهما النقيضان التاريخيان . ولم يكن التأكد من عزلـــة العدو وندرة أصدقائه هو الشاهد الوحيد على أهمية اكتساب المقاومة الفلسطينية مثل هذه الشرعية الدولية . ولكن الخوف الصهيوني من أبعـــاد الحصار الدولي ، ومـــن دلالة الاعتراف العالمي بالمقاومة يجب أن يبقى ماثلا أمام تقييم الفلسطينيين لهذه المواجهة القانونية والسياسية التي صعدت مستوى الصراع الى مستوى مراجعـــة تاريخ المشروع الصهيوني من أساسه .

وماذا بعد هيئة الامم المتحدة ؟ ماذا بعد القرار ؟

يظن البعض ان مبنى الامم المتحدة هـــو محطة على طريق الوصول الى مدينـــة الشكوك ! ولكننا نريد أن نعتقد ان الانتصار لا يقود الى هزيمة . ان هذا الانتصار السياسي حافز لتصعيد الصراع . انه بداية جديدة لمواصلة السير نحو الهدف الكبير . انه محطة على طريق فلسطين . . . فلسطين الحرية والتحرر والغد .

محمود درويش

النضال السياسي الفلسطيني
انجازات وابعاد ومضامين

فاروق القدومي

لمناسبة التحرك السياسي الواسع الذي تقوم به القيادة السياسية الفلسطينية في المرحلة الراهنة ، خص الاخ فاروق القدومي (أبو اللطف) رئيس الدائرة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية ، « شؤون فلسطينية » بهذا الحديث .

كانت حرب تشرين الاول ١٩٧٣ نقطة تحول حاسمة في تاريخ القضية الفلسطينية ، فهي بنتائجها وما أسفرت عنه كانت ذات اثر فعال في المواقف الدولية تجاه القضية . فقد لوحظ في اثناء الحرب وبعدها ان كثيرا من الدول ، خاصة الدول الافريقية ، بادرت الى قطع علائقها الدبلوماسية مع اسرائيل ، وكان هذا الموقف اشارة واضحة الى اتجاه هذه الدول نحو عزل اسرائيل سياسيا على الصعيد العالمي . كذلك فقد كان من نتائج حرب تشرين السياسية انها طرحت من جديد جوهر الصراع في المنطقة ، فقد تركز الاتجاه نحو القضية الفلسطينية باعتبارها هي القضية الاساسية وهي جوهر الصراع ، وان ازمة الشرق الاوسط هي نابعة في الاصل من هذه القضية المركزية التي أساسها العجز وعدم الجدية في حل القضية الفلسطينية . وبتغيير موازين القوى على جبهة دولتي المواجهة مصر وسوريا بدأ الراي العام العالمي يتساءل عن حقيقة الصراع وجذوره الاساسية وانتبه العالم الى حقيقة واضحة هي ان الصراع في المنطقة هو صراع بين شعب طرد من أرضه وبين غزاة قدموا الى هذه الارض فاستوطنوا فيها ومارسوا جميع السبل والوسائل لتصفية هذا الشعب وطرده من اراضيه .

وقد لعبت الثورة الفلسطينية دورا اساسيا في توضيح جوهر الصراع هذا والكشف عن جذوره ، فقد كان لقوات الثورة الدور الفعال والمؤثر في حرب تشرين ، فقد تم الاتفاق بيننا وبين قائد الجبهات في الشمال والجنوب كذلك مع الرئيس السادات على أن تشترك قوات الثورة اشتراكا فعليا في حرب تشرين . وبناء على طلب الرئيس السادات حشدنا عددا من القادة ومن العناصر التي يمكن أن تقوم بدور مؤثر في الجبهة الجنوبية وقد حدث الشيء نفسه في الجبهة السورية حيث تم التنسيق بين القوات الفدائية وقوات جيش التحرير الفلسطيني والجيش العربي السوري . ولم يكن هذا هو الشيء الوحيد فقد كانت لدينا القدرة على العمل والنضال من الجبهة الثالثة ، اعني الجبهة اللبنانية وداخل ارضنا المحتلة . وفي الحقيقة لقد تحمل لبنان كثيرا من اجل ذلك . وعلينا هنا ان نؤكد انه كان من المفروض ان تكون الجبهة الاردنية هي الجبهة الحية غير أن الملك حسين ونظامه العميل رفضا ان تتاح لنا الفرصة للقيام بواجبنا من

هناك على الرغم من الضغط الذي مارسه الرئيسان السادات والاسد على الاردن من اجل القبول بادخال القوات الفدائية الى الساحة الاردنية . لذلك كانت الجبهة الشمالية هي المشتعلة وقد استطعنا بالفعل أن نقوم بأكثر من مئتي عملية وان نهاجم اكثر من اربعين مستوطنة اسرائيلية باعترافات العدو نفسه . وقد استطاعت عملياتنا في الشمال ان تربك العدو وتشل حركته .

كان اذن لهذه الانتصارات العسكرية التي حققتها دولتا المواجهة وقوات الثورة الفلسطينية واشتراك هذه القوات اشتراكا فعليا في الحرب الاثر الحاسم في قلب موازين القوى وفي تنبيه الراي العام العالمي الى جوهر القضية الفلسطينية . وقد استثمرت القيادة السياسية للثورة الفلسطينية المعطيات الجديدة التي أسفرت عنها الحرب لتخوض نضالا سياسيا على الصعيدين العربي والدولي لتثبيت هذه المعطيات. وقد قامت الثورة بعمل باهر خلال الاشهر القليلة الماضية وحققت عددا من الانجازات والمكتسبات السياسية والدبلوماسية . وعلى الرغم من ذلك فعلينا ان نؤكد ان هذه الانجازات والمكتسبات ما كانت لتتم لولا ان الكفاح المسلح ثابر على الوجود والتصاعد داخل الارض المحتلة . وقد مثلت هذه المكاسب التي حققناها من آن لآخر درجات سلم نرتقي بها لتحقيق أهدافنا المرحلية .

لقد حققنا هذه الانجازات في عدد من المؤتمرات الدولية والعربية منها مؤتمر دول عدم الانحياز ومؤتمر القمة العربي ومؤتمر القمة الاسلامي ومؤتمر القمة الافريقي وكان الكسب الاعظم الذي حققناه الاعتراف بالحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني، بعد أن كانت كلمة فلسطين تستثير « النوازع الانسانية » لا اكثر ولا اقل باعتبار أن هؤلاء الفلسطينيين بحاجة الى كساء وغوث وليس الى وطن . وبجانب هذا الاعتراف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني فقد اكدت هذه المؤتمرات ضرورة استعادة هذه الحقوق .وقد توجت هذه المكتسبات السياسية بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، في هذه المؤتمرات جميعا ، ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني .

بالاضافة الى هذه المؤتمرات الدولية كان توالي اعتراف دول المنظومة الاشتراكية بمنظمة التحرير الفلسطينية واحدا من أبرز مكاسبنا السياسية . امـا على الصعيد العربي فقد كان البيان الثلاثي (المصري — السوري — الفلسطيني) الاخير تكريسا للموقف العربي الرسمي تجاه مسألة التمثيل الفلسطيني . فقد ظهر الموقف المصري في هذا البيان على حقيقته بدون رتوش . وان هـذا البيان يعني — من جملة مـا يعنيه — ان دولتي المواجهة (مصر وسوريا) والمقاومة الفلسطينية بصفتها الطرف الاساسي في الصراع لا بد لها ان تنسق عملها فيما بينها مما يؤدي بالنتيجة الى مزيد من المكاسب والانتصارات السياسية .

قد يثار تساؤل عن الظروف التي احاطت بالموقف المصري ازاء مسألة التمثيل الفلسطيني . فمن المعروف ان البيان الاردني — المصري المشترك الذي صدر في الاسكندرية في أعقاب محادثات الملك حسين مع الرئيس السادات أعطى للنظام الاردني الحق في مشاركة المنظمة بتمثيل الشعب الفلسطيني ، غير ان البيان الثلاثي الاخير كرس حق المنظمة الوحيد في هذه المسألة . وجوابا على مثل هذا التساؤل نقول انه

ربما كانت لمصر في فترة معينة من الزمن وجهة نظر في هذه المسألة تريد من خلالها ان تحقق شيئا معينا . وكانت في ذلك تثق الى حد بعيد ببعض الاوساط الدولية بأمــل تحقيق مزيد من المكاسب . ولكن لو نظرنا الى الامر بعين مجردة وبمزيد من العقل لرأينا ان الامبريالية واسرائيل لن يتراجعا مهما قدمنا من تنازل وانما هما سيستغلان هذا التنــازل ضدنا نحن . ولقد بدا انه لن يكون هناك تراجع اميركي او تراجــع اسرائيلي والطريق السليم في رأينا هو الحرب الخامسة التي هي الوســيلة لتحقيق المكاسب . وفي الوقت ذاته ظهر أن هناك تغييرات متعددة تدل دلالة واضحة على ظهور قناعة بأن التقارب المصري ــ الاميركي الزائد عن حدوده هو في الحقيقة تقارب يقوم على اسس واهية في معظم ركائزها ، وان الضرورة تقتضي باستمرار ان يكون ثمة تنسيق بين القوى المواجهة ، اي القوى الثلاثية : مصر وسوريا وفلسطين ، فهي القوى القادرة على التنسيق باستمرار وثبتت قدرتها تلك في حرب تشرين ، وهــي القوى التي تعمــل وتتحلى بديناميكية عــلى المســتويات العسكرية والســياسية والدبلوماسية . كذلك فلقد بدأت تظهر في مصر قوى ضاغطة ذلك أن حرب تشرين قد فتحت أعين الكثيرين على الحقائق الجديدة . من هنا فان العوامل الداخلية والعربية والدولية تجعل من الصعب أن تتجاهل مصر او اي دولة عربية اخرى الدور الرئيسي للشعب الفلسطيني ومنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد لهذا الشعب .

بعد هذا الاستطراد نعود الى الحديث عن المكتسبات التي حققتها الثورة الفلسطينية في الاونة الاخيرة . ولا شك أن طرح القضية على الامم المتحدة هو احــد المظاهر الاخرى لهذه المكتسبات السياسية . فمجرد طرحها في الجمعية العمومية يعتبر دليلا واضحا على رغبة الامم المتحدة في دعم الشعب الفلسطيني وتأييده كما هو دليل على الاعتراف بوجود الشعب الفلسطيني كوحدة كيانية مستقلة ، ويمكن أن يكرس هذا الإتجاه إذا استطعنا أن نأخذ قرارا بدعوة منظمة التحرير الفلسطينية الى القاء كلمة بوصفها ممثلة الشعب الفلسطيني في أثناء عرض هذه القضية .

ان النضال السياسي على صعيد الامم المتحدة مهم وأساسي فان صدور قرارات من الجمعية العمومية تعترف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وبأنه قادر على ادارة شؤونه بنفسه وعلى ضرورة قيام سلطته الوطنية المســتقلة عــلى الارض الفلسطينية وفي الوقت ذاته صدور قرارات تدين اسرائيل وتســتنكر أعمالهــا العدوانية ، كل ذلك سوف يثير في ذهن الراي العام العالمي القضية من أساسها ، نعني قضية فلسطين التي هي جوهر القضايا في الشرق الاوسط والقضية المركزية فيه والتي يعتبر حلها أساسا لحل غالبية المشاكل في الشرق الاوسط. وستتوضح من خلال النقاش كثير من حقائق هذه القضية ، وسيقود ذلك الى ان يتعرف الراي العام العالمي على معطيات هذه القضية .

ان موقف العديد من الدول معنا في الامم المتحدة : الدول العربية ، دول عــدم الانحياز ، دول المنظومة الاشتراكية ، الدول الافريقية والدول الاسلامية ، فهي جميعا وافقت على القرارات التي نريدها بالنسبة للقضية الفلسطينية . بقي دول السوق الاوروبية المشتركة . فهي على الرغم من انها اعترفت بالحقوق المشروعة للشــعب الفلسطيني الا أننا نريد فعلا أن نسمع رأيها وان تحدد رأيها بشكل مباشر او غــير

مباشر من خلال القرارات التي سوف تتخذها الامم المتحدة في الجمعية العمومية بالنسبة للقضية الفلسطينية او في ادانة اسرائيل . ان على دول السوق الاوروبية المشتركة ان تحدد موقفها في هذه المرحلة .

ان هذه المكاسب التي أشرنا اليها يجب أن تكون قاعدة لمكسب اخر ينطلق منها . ولا بد أن نبلور جميع مكاسبنا السياسية في وجود سياسي مستقل . وقد أقر المجلس الوطني الفلسطيني هذا الوجود السياسي المستقل وحسم نضالنا السياسي مسألة مصير الارض الفلسطينية . فمن خلال هذا النضال حسمت قضية الاردن وقضية الملك حسين وظهرت الضفة الغربية على حقيقتها فلسطينية وليست اردنية . فقد كان محور النضال الفلسطيني في الاونة الاخيرة مسالة التمثيل الفلسطيني ، فالانسان الفلسطيني يجب الا يفقد هويته الفلسطينية على الرغم من اوضاعه السياسية والحقوقية المتعلقة بتجنسه بجنسية اخرى غير فلسطينية . وقد سجلنا بعض الاهداف في صراعنا مع الحكم الاردني، وصراعنا معه طويل، وطرحنا قضايانا بكل صراحة ووضوح . فنحن نستغرب ان تطالب جهة عربية بأن تمثل الفلسطينيين او جزءا منهم . ولا يمكن ان نسمح بأي حال من الاحوال بأن يقوم النظام الاردني بتمثيل الفلسطينيين مهما كلف الامر لانه بذلك سيكون قادرا على اعادة الاوضاع الى ما كانت عليه في الضفة الغربية . ان التمثيل الفلسطيني يجب ان يكون غير ناقص وقد خاضت منظمة التحرير الفلسطينية معارك ضارية في سبيل ذلك وفي منع ان يشارك الملك حسين في تمثيل الفلسطينيين . وقد حسم البيان الثلاثي هذه القضية حسما بينا عندما أعلن ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني .

ويقودنا هذا الامر الى مسألة فك الارتباط على الجبهة الاردنية ، ونحن نرفض ذلك رفضا قاطعا ، نرفض ان تقوم السلطة الاردنية بعملية فك الارتباط . فالاردن لم يقاتل ولم يشترك في حرب تشرين . فماذا يعني بالنسبة اليه فك الارتباط ؟ ان النظام الاردني فك ارتباطه في عام ١٩٧٠ عندما تصدى للمقاومة الفلسطينية وصارعها وأخرج وجودها العلني من الساحة الاردنية . من هنا فان عملية فك الارتباط تعني ان يعود النظام الاردني الى التسلط على الضفة الغربية . والاردن لا يمكن ان يتم هذا العمل الا اذا تلقى ضوءا أخضر من الدول العربية وخاصة من دول المواجهة . وقد استطعنا نحن أن نطوق هذا الموقف وان نعزله بالبيان الثلاثي الذي رد بكل وضوح على كل هذه التساؤلات والقضايا المطروحة . ومن هنا نرى أن قضية فك الارتباط هي مسألة تخص الفلسطينيين اساسا وليس الحكم الاردني العميل لان فك الارتباط بالصيغة الاردنية يعني عودة السلطة الاردنية الى الضفة الغربية ونحن نرفض ذلك . ونحن نرى أن فك الارتباط لا يمكن ان يتم بموافقة عربية او باعطاء ضوء أخضر من دول المواجهة — حسب البيان الثلاثي — مهما حاول كيسنجر ذلك . ولكن يمكن ان يتم ذلك باتفاق ثنائي بين الاردن واسرائيل ولكن ذلك سوف يحمل اسرائيل اعباء ضخمة فنحن لن نترك هذه الارض فسوف نقاتل من عليها حتى تصبح السلطة لنا في النهاية .

ان هذه ابرز ابعاد ومضامين النضال السياسي الفلسطيني في الفترة الاخيرة . واذا طرح سؤال عن القرار ٢٤٢ فاننا نقول اننا رفضنا التعامل مع هذا القرار لانه يطمس الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني فهو ينظر لقضيتنا على أنها قضية لاجئين .

قضية وطن وشعب . وبذلك فان هذا القرار لا يخدم الشعب الفلسطيني ولا مصالحه. وقد أعلنا في المجلس الوطني وبالبرنامج المرحلي اننا نرفض التعامل مع هذا القرار . ونحن نريد تحويل النظرة العالمية والرأي العام العالمي الى قضية فلسطين ، الى نظرة واعية . وفي أي حال فان الثورة تقاتل بسلاحها وبنادقها وليس من خلال القرارات .

وتظل نقطة اخيرة هي الراي فيما تردد اخيرا عن اقامة حكومة منفى او حكومة فلسطينية مؤقتة . ونوضح في البداية ان التعبير الصحيح هو حكومة مؤقتة . اما الموقف منها فمن الضروري ان تجد المكاسب الفلسطينية لها في النهاية قاعدة ارتكاز تحميها وتطورها وتنميها . وفي تصوري ان معظم الثورات التي قامت كانت في النهاية تخرج بحكومة مؤقتة . أما هل يمكن استخدام هذا الشعار الآن فانني أعتقد انه لا بد من انضاج الكثير من العوامل حتى نستطيع الجزم — مع أقل ما يمكن من الخلاف في الساحة الفلسطينية — حول اذا كان بامكاننا ان ننشىء حكومة مؤقتة ، ذلك انه لا بد أن يكون لدينا وفي ايدينا أساس مادي نرتكز اليه من اجل ان نقول : نحن نسعى الى حكومة مؤقتة .

واخيرا نؤكد ان جميع هذه المكتسبات التي حققناها على جميع المستويات هي من أجل القضية الفلسطينية والاعتراف بها وبكيانها السياسي وبمنظمة التحرير الفلسطينية كممثلة وحيدة للشعب الفلسطيني وان هذه المكتسبات تتعزز بوحدة وجود الثورة متماسكة متضامنة .

.. وتطل فلسطين من المستقبل

الدكتور كلوفيس مقصود

ان الانجاز السياسي الكبير الذي حققته منظمة التحرير الفلسطينية من حيث انها تدخل القضية الفلسطينية مرة ثانية الى صميم المجتمع والوجدان الدوليين يضع الأمة العربية أمام خيار لا بد لها ان تقرر وجهة سيرها المستقبلية .

نحن لا نريد ان نعطي لهذا القرار التاريخي حجما أكبر مما هو في الواقع الا انه في كل الحالات يشكل مدخلاً لاعادة النظر في القضية الفلسطينية منجذورها ويتيح للممثلين الشرعيين للشعب الفلسطيني ان يحاوروا العالم من أرضية صلبة وهي أرضية الوحدة الوطنية الفلسطينية ومن الموقع الاستراتيجي التاريخي الجديد الذي تمكنت الثورة الفلسطينية ان تقف عليه وهو رؤيا الثورة بأن الحوار الديبلوماسي ــ السياسي لا يكون ذا جدوى اذا لم ينبثق من ويتمم الحوار القتالي مع الكيان الصهيوني الجاثم والمتهيكل على ارض فلسطين .

ان الاهمية البالغة لكون الشعب الفلسطيني سوف يطل هذه المرة على العالم بشكل مباشر ويعلن لا عن حقوقه التاريخية والوطنية والشرعية في فلسطين فحسب ، بل عن حقوق هؤلاء اليهود داخل فلسطين وفي العالم ، هذه الحقوق التي قوضتها العقيدة الصهيونية والكيان الذي انبثق عنها من حيث ان الصهيونية عقيدة وكيانا ، سلخت اليهودي عن الانســـان وأوجدت عنده حالة اللاانتماء ، وهكذا تكون اطـــلالة الثورة الفلسطينية على العالم بعد أيام منطوية على ما تختزنه الثورة من أهلية التمثيل لطاقات وامكانيات الشعب الفلسطيني ومن حقه في بلورتها وصيرورتها ، وما تختزنه من قدرة التصحيح داخـــل الانحراف والتشويه ، الذي أوجدته وتحاول تكريسه الصهيونيـــة وكيانها الاسرائيلي في واقع اليهودية العالمية .

وهكذا فان الثورة الفلسطينية ككل ثورة أصيلة في التاريخ تؤدي الى استرجـــاع الحقوق الوطنيـــة والمشروعة ، وتحرر محتجزي هذه الحقوق وخارقيها من النزعة اللاانسانية التي أودت بهم ان يتصوروا حقوقا من خلال نفي حقوق الغير .

وهنا أهمية القرار الذي يشكل تطويرا جذريا وفقهيا في القانون الدولي وفي العلاقات الدولية من حيث ان العالم في لحظة امتحان وجدانه ادرك ان الثورة الفلسطينية لم تعد في ظرفنا الراهن مجرد حركة تحرير وطنية فحسب بل انها نفذت الى صميم معضـــلة حضارية أرادت اسرائيل والصهيونية حجب بصيرة العالم عنها ، وهذه المعضلة هي ان اسرائيل حاولت اعادة الحياة للنظريات العرقية والطائفية ، والتي ترتكز عـــلى تأكيد اولوية او بالاحرى اطلاقية ما يفرّق الانسان عن الانسان ، فجاءت الثـــورة الفلسطينية تؤكد القيم الايجابية الشمولية التقدمية التحررية التي تؤكد ليس فقط اسبقية علاقة الانسان مع الانسان بل التزام الثورة للمنحى التفاؤلي في التاريخ ــ اولوية ما يجمع الانسان بالانسان .

ان المجتمع العالمي ادرك ان الصهيونية باغتته عندما طرحت نفسها بديلا للاسامية ، واذ بالعالم يكتشف — على حساب تشرد ومعاناة وآلام الفلسطينيين — ان الصهيونية واللاسامية صنوان يغذيان بعضهما بعضا ويتكلان على بعضهما بعضا لان الواحدة بدون الاخرى مرفوضة تاريخيا وحضاريا وانسانيا .

ثم تعمدت اسرائيل ان تنتزع من العالم ومن الوجدان الانساني اعترافا كاملا غير قابل للمراجعة او التعديل باستثنائية وجودها ، فكان خرق اسرائيل لكل القرارات الدولية والمواثيق والقوانين والشرائع ، ولكل المعايير والمقاييس التي افرزها تطور العقل والمجتمع في العالم ، أجل فكأن خرق اسرائيل لكل هذا يجب ان يبقى بمنأى عن العقوبات والروادع التي تمليها انضباطية العلاقات الدولية والتي يمليها التوق والتطلع البشري نحو المزيد من فرص المساواة والعدالة والسلام .

ان اصرار اسرائيل على كونها مستثناة من المحاسبة على جرائمها واعمالها وتجاوزاتها وعدوانيتها ، وعلى عدم امتثالها لكل القرارات والاعراف الدولية التي صدرت عن الامم المتحدة ، كان يرتكز على مقدرة فائقة في انجاز أكبر واشمل عملية ابتزاز في التاريخ المعاصر ، وكانت عملية الابتزاز متعددة الابعاد والاوجه ، فالى جانب ان الاصرار على كون اسرائيل حالة استثنائية هو بحد ذاته ابتزاز وتهرب من الخضوع للانماط السلوكية المرعية ، الا ان اسرائيل والحركة الصهيونية العالمية المرتبطة عضويا بها لجأت الى مختلف الاساليب من اجل ان تجعل من عقدة الاثم في الغرب حاجزا أمام أقنية الاتصال الفكرى والسياسي كأن اسرائيل تريد ان ترسخ في قناعة الغرب على وجه التخصيص أن اسرائيل تعفي الغرب من الخطايا والجرائم التي حصلت ضد اليهود من جراء اللاسامية والنازية في الماضي اذا تعامى الغرب عن الخطايا والجرائم التي قامت بها الصهيونية واسرائيل ضد الفلسطينيين حاضرا ومستقبلا . هذه المعادلة التي ارادت اسرائيل تثبيتها في القناعات العالمية اجمالا والغربية بشكل خاص استهدفت ان توجد مناخا يتيح لاسرائيل ان تلوح الى الغرب مباشرة وبواسطة تحريك منظماتها الصهيونية بخطر اعادة فتح موضوع اللاسامية وعقدة الاثم اذا ما تجرأ الغرب او المجتمع العالمي ان يتساءل او يشكك او ينتقد اي وجه من أوجه التحرك الاسرائيلي ، ناهيك عن مجابهة العدوانية الاسرائيلية .

ان هذا الارهاب الفكري النفسي السياسي الذي قامت به اسرائيل في الساحة العالمية ، كان يتعمد تكفيف الضباب عن بصيرة العالم حتى تتمكن اسرائيل من ان تستمر وتمعن في مزيد التنظيم لارهابها في الساحة العربية .

ثم لازم هذا الابتزاز على الساحة الدولية عملية ابتزاز من نوع آخر وهو ان اسرائيل هي أداة ضاربة تنفيذية لمصالح الامبريالية العالمية في المنطقة . ترتب على ذلك ان اسرائيل ربطت كيانها ومستقبلها بمصير الهيمنة الامبريالية في المنطقة ، ومثلما فعلت الصهيونية منذ نشأتها ، فانها لجأت باستمرار الى التنسيق المحكم مع مراكز العصب الامبريالي في العالم . نسقت قبلا مع الاستعمار البريطاني وعندما انتقل مركز التوجيه للهيمنة الامبريالية من بريطانية الى الولايات المتحدة ، نسقت الصهيونية ومن بعدها اسرائيل تنسيقا كاملا مع استراتيجية الاستعمار الجديد في العالم الثالث ، ولا غرو في ذلك فان اسرائيل ككل الكيانات العرقية والطائفية والاستيطانية والاستعمارية مجبولة باللامبالاة لكل التطلعات الاصيلة لشعوب العالم الثالث ولشعوب العالم . وعندما يكون الكيان من حيث بنيته العرقية وتفكيره العدواني لامباليا بالمستجد من التطلعات المشروعة، يتحول الى اداة طيعة منفذة وبشكل تلقائي لاهداف كل السياسات المعادية لاماني هذه الشعوب في التغيير والتطور والتحرر .

ومن المفارقات ان اسرائيل المجبولة ، كما أشرنا ، باللامبالاة المطلقة تصبح من حيث السلوك والتصرف متمادية بخرق المعادلات المتفق عليها وبخرق الحقوق البديهية ، فاللامبالاة تعني ان ليس هناك من فرامل تردع النزعة العدوانية المتأصلة في كل الكيانات القائمة على الاغتصاب وعلى اولوية التمييز . هذا أدى باسرائيل منذ نشأتها وقبل ذلك ان تتصرف ازاء عرب فلسطين وعرب خارج فلسطين على أنهم حواجز بشرية أمـــام ما تبغيه من توسع وأمام ما تتصوره من خريطة لذاتها .

من أجل ان تتمكن اسرائيـــل من الاستمرار في تنفيـــذ تصوراتهـــا لجأت الى ان تضع يهود العالم واليهود المتواجدين في فلسطين في سجن فكري هو في بعض تعبيراته اقسى وأشد فتكا من السجون العادية . في هذا السجن الفكري قامت المؤسســة الاسرائيلية الصهيونية في زرع بذور الشك والخوف من الغير في نفوس اليهود بحيث ان اليهود المتأثرين بالصهيونية واسرائيل باتوا يشعرون بأن اللايهودية لا تعـــرف الا كونها نسب متفاوتة من العداء لليهود ، تمكنت اسرائيل والصهيونية من ارهاب من ادعت انها جاءت لانقاذهم فما كان منها الا ان أفقدتهم قدرات التمييز والاستقصاء والتدقيق ، فتحول اليهود الذين امتصتهم الصهيونية في أطر اسرائيل الى مجرد آلات تنفذ بشكل فوري ما خططته الصهيونية وبالتالي نزعت عنهم قدرة التفاعل الانساني ومن ثم قدرة التفاؤل بالانسان .

وحصل التعتيم وأدخلت الصهيونية الكثير من اليهود في العالم في ظلمة التاريخ لانها تمكنت من ان تتكمش اسرائيل بأسراها اليهود من خلال رفع التشاؤم من وجهة نظر الى مؤسسة ونمط شامل . فاستشرست اسرائيل بالعدوان لان الصهيونية أقنعت اسراها اليهود بأنهم اذا لم يتهيأوا للاعتداء فانه سيُعتدى عليهم وانهم اذا لم يعبثوا ويتوسعوا فانهم سوف يتعرضون لاجترار العدوان على وجودهم ، فصار الغزو عندهم والعدوانية والتمادي في التجاوز وخرق القوانين والحقوق وسائل «دفاعية عن الذات» فالاسرى اليهود في سجن الصهيونية لم يعودوا أسرى فحســب بل عبيـــدا عملت الصهيونية على تفريغهم من قدرة مواجهة الذات واستشراف المصير لان الخـــوف والتشاؤم استعبد عقولهم فحصل التخلي عن انسانيتهم .

وهكذا تطل الثورة الفلسطينية على العالم من جديد لا لتكشف التزوير الصهيوني فحسب ولا لتفند الاكاذيب والادعاءات المغلوطة لاسرائيل بل لتمهد لعملية « عتق » الاسرى اليهود من سجن اسرائيل الكبير .

هذه الاطلالة للثورة الفلسطينية ستؤكد ان اسرائيل الصهيونية ترتكز على عقيدة بدائية مخدومة بوسائل عصرية وان فلسطين الديمقراطية العلمانية انعكاس للتفكير المتقدم وان يكن لا يزال مخدوما بوسائل ابتدائية .

ان فلسطين تدخل العالم من خلال وجدانه ، من خلال النور الذي تضيئه دمـــاء الشهداء الذين بوعي كامل وتفاؤل مستقبلي ، اكتشفوا انسانيتهم ، وناضلوا من أجل تأكيدها وتأكيد ديمومتها ، فكانت الثورة هي المعمودية التي حولتهم من حواجز بشرية الى حواجز قادرة على كبت الطغيان .

ان الثورة الفلسطينية سوف تروي للعالم من منبر العالم لا قصة المشردين ومآسي وآلام اللاجئين بل ستروي قصة المعذبين الذين استلهموا من واقعهم المأساوي قدرة التجاوز على الثأر من أجل ارساء قواعد الثورة . سوف تروي الثورة كيف ان الانتقام هو سلاح الضعفاء في النفوس وكيف ان الثورة من خلال تحرير شعبها وأرضها تحرر أعداءها من العوامل والمؤسسات والافكار والعقائد التي حولت اعداءها الى اعداء .

اطلالة الثورة الفلسطينية على العالم سوف تتجاوز الاطلالات الديبلوماسية والاعلامية الى ما هو أبعد اثرا وفعلا ، سوف تعطي للعالم فرصة ادخال المستقبل الى الحاضر ليتمكن العالم ان يدفع الحاضر المرفوض الى المستقبل المرغوب ، سوف تعطي الثورة الفلسطينية تصورها للامثل لان الثورة لن تكتفي بما هو أفضل ، سوف تطل الثورة الفلسطينية على العالم لتقول ان المستحيل بفعل الثورة الاصيلة يصبح ممكنا وان فلسطين التي حولتها الصهيونية الى نموذج للانتماء يمكن ان تتحول ويجب ان تتحول وبمقدورها ان تتحول الى نموذج لا للتعايش بين مختلف الاعراق والاديان بل الى مجتمع يؤمن التنوع من خلال الوحدة ويفلت رغبة النفاذ الى الغير والاكتشاف المتبادل على مجرد التعايش وتكريس الانفصال .

ان مثل هذا المجتمع العلماني الديمقراطي الذي ارتسم في فكر المقاتلين الفلسطينيين ، هو تعبير عن الانسجام الداخلي لتكامل الانسانية فيه .

ان الثورة الفلسطينية تطل على العالم لتواجه اسرائيل مواجهة الملتزم للمناور ، مواجهة المتقدم للمتخلف ، مواجهة المستقبل للمنقرض ، مواجهة الانسان للامنتمي .

*

يبقى السؤال ويبقى التحدي ، ماذا بعد الاطلالة ! ماذا بعد الاقتحام الكبير لفكر العالم ! ماذا بعد ان ترسي قضية فلسطين وأبعادها المستقبلية في وجدان العالم ! ماذا بعد ما أنجزته الثورة الفلسطينية من تثبيت مواقعها في الواقع العالمي المعاصر ! ماذا بعد هذا الاعتراف شبه الكوني لا في شرعية الثورة الفلسطينية ، بل في جدارتها ان تتحمل مسؤولياتها ازاء العالم مثلما تحملتها ازاء نفسها ! ماذا بعد العزلة التي فرضها العالم على المحور الاميركي الاسرائيلي وفي افشال مخطط الابتزاز والارهاب الذي قام به هذا المحور طوال السنوات الماضية من أجل احتواء ومن ثم الانقضاض على انطلاقة الثورة ! ماذا بعد اعادة فتح القضية الفلسطينية وافشال محاولات اسرائيل لقفلها !

قد لا يكون بمقدورنا ان نقيّم المعنى والابعاد لهذه الاطلالة الفلسطينية على عقل العالم وواقعه ، الا انه من البديهي ان لا نؤخذ بوهج الانتصار المعنوي والسياسي والفكري والاعلامي الكبير للثورة الفلسطينية في هذا الظرف بالذات . من هنا يترتب علينا تنظيم المكاسب التي حققناها على المستوى العالمي وان نتصرف وكأن الذي حصل هو نقطة انطلاق جديدة وليس نهاية مطاف . ان مستوى التأييد الذي نالته القضية الفلسطينية يجب ان يترجم الى تغيير في موازين القوى الدولية بحيث تترجح اولوية الحق الفلسطيني لا على العدوانية الاسرائيلية فحسب بل على جذور الاغتصاب الصهيوني ايضا . واذا كان لا مفر من ان تتمرحل أهدافنا الاستراتيجية ، فمن الاهم ان تستنزف التعبئة من خلال استغراقنا في تفاصيل المرحلة .

ولعلها مفارقة ان تتواقت اطلالة فلسطين القادمة على العالم مع تصعيد المحاولة الاميركية من أجل تحييد او حتى الغاء فعل هذه الاطلالة التاريخية لفلسطين من خلال استباق النتائج المحتومة لحكم التاريخ على الكيان الصهيوني ، وتثبيت اسرائيل موقعا دائما في الوطن العربي . وما زيارة وزير خارجية الولايات المتحدة هنري كيسنجر الى عواصم المنطقة قبل انعقاد مؤتمر القمة وبعده الا دليل واضح على استعجاله لان يضع أسس معادلات كفيلة بأن توقف اطلالة فلسطين على العالم من النتائج المنطقية لهذه الاطلالة .

واذا كانت المجهودات الديبلوماسية التي قامت بها السياسة الاميركية منذ حرب تشرين عام ١٩٧٣ لم تتناسب مطلقا مع الاهداف المرحلية المحدودة التي اعلنت الولايات المتحدة عنها عندما باشرت بديبلوماسيتها ، فان هذا البطء في اعطاء النتائج المطلوبة دليل على ان الولايات المتحدة لا تمارس كل طاقتها التأثيرية لجعل اسرائيل تمتثل لقرار مجلس الامن ٢٤٢ . وتصبح ضرورة بقاء الاستنفار العربي بكل قطاعاته قائمة لمجابهة المحور الاميركي الاسرائيلي اما من اجل تخفيف قدرة اسرائيل من الامعان بالاستخفاف بالارادة والقرارات الدولية وخرقها لاراضي العرب وحقوق الفلسطينيين حتى تدفع الولايات المتحدة الى ممارسة ضغوطها، واما ان تعاود الامة العربية ممارسة عقوباتها المصدقة على الولايات المتحدة من أجل بلورة ارادتها واستعدادها ، لممارسة ضغوطها الحقيقية على جعل اسرائيل تمتثل للقرارات الدولية بشأن الانسحاب الكامل من كل الاراضي العربية المحتلة واقرار حقوق الشعب الفلسطيني .

ولعل التمييز بين الموقفين الاميركي والاسرائيلي من حيث اختلاف ادوارهما يجب ان لا يغيب عن اذهاننا كونهما مرتبطين عضويا في محور واحد . لذلك يدخل عامل النفط وعامل علاقات العرب مع الاتحاد السوفياتي في حساباتنا المرحلية القادمة من حيث ان علينا ان نوصل الى الولايات المتحدة بالذات ان عرب النفط وان كانوا ملتزمين بأن لا يتلاعبوا بالواقع المالي العالمي بشكل يؤدي الى تدهور في الحالة الاقتصادية العالمية الا ان عرب النفط في نفس الوقت غير مستعدين ان يروا نفطهم يزيت آلة الحرب الاسرائيلية في المنطقة من خلال استمرار المساعدات الاميركية العسكرية لاسرائيل وتزويدها بالادوات الضاربة للمصالح العربية الثابتة ، أكان في مجـــال التنمية او التأسيس او التعبئة لاسترجاع حقوق العرب في فلسطين .

والعامل الثاني في هذا المضمار يكمن في ان تستقيم المعادلة العربية السوفياتية بحيث ان لا نتصرف ديبلوماسيا وكأننا ننشط استئثارا اميركيا في الاجراءات التنفيذية لقرارات مجلس الامن لان هذا من شأنه ان يبدو وكأن العرب يساهمون في معاقبة الاتحاد السوفياتي لانه أحكم طوقه المبدئي على الصهيونية والاستراتيجية والديبلوماسية على اسرائيل .

لذلك يتراءى لنا ان الخطر يكمن في سماحنا للولايات المتحدة بأن تتصور ان تمحورها مع اسرائيل يعطيها أهلية الوساطة لان هذا يعني ان الحقوق العربية بصورة اجمالية والحقوق الفلسطينية بشكل أخص تخضع للجدول الزمني بشكل عام للذي تضعه استراتيجية ومصالح الولايات المتحدة . هذا يعني بدوره مزيد من التباطؤ في امتثال اسرائيل ومزيد من الفرص لتستجمع قواها وتستعيد قدرتها على التحرك وتفك العزلة عن نفسها وتعيد تنظيم معادلاتها . عندئذ نكون اذا ما تداركنا مخاطر الانزلاق في اطار التعامل الاميركي ، نكون قد جعلنا اطلالة فلسطين على العالم نوعا من التخدير الذاتي بدلا من ان تكون ما هي عليه بالفعل من تنشيط للوجود العربي الفاعل وتنظيم للحيوية العربية ، وجعلها هادفة وقادرة على الانجاز .

هذا هو التحدي ، ان اطلالة فلسطين على العالم واعادة فتح القضية الفلسطينية على مصراعيها جاء نتيجة التزام الثورة الفلسطينية بخيار القتال ضد الكيان الصهيوني، وان توسع رقعة التأييد للقضية الفلسطينية وقضية تحرير الاراضي العربية الذي شاهدناه في الآونة الاخيرة جاء اثر التزام عرب المواجهة بخيار القتال ، فكان ان تحركت القضية وكان ان اضطرت الولايات المتحدة الى مراجعة ذاتها وسياساتها . والان تقوم ديبلوماسية الولايات المتحدة على جعلنا نسقط الخيارات الفاعلة المتوفرة لدينا ــ

اي خيار القتال والنفط وأهلية منظمة التحرير لتمثيل الشعب الفلسطيني ــ لانه اذا نحن أسقطنا هذه الخيارات نكون قد حولنا الانتصـــار الكبير الذي أنجزته الثــورة الفلسطينية الى هامش في تاريخ القضية بدلا من ان تكون ما هي عليه اطلالة فلسطين على العالم ، أي ان العرب من خلال قضية فلســطين يصنعون التاريخ ويصنعون المستقبل .

ان أهمية الثورة الفلسطينية في هذه المرحلة تكمن في أنها أنضجت مقومات تفكيرها وكأن في ثورتها شرعية الدولة المسؤولة أمام التاريخ وأمام العالم في حين ان اسرائيل « الدولة » تجد نفسها من جراء الاكذوبة الكبرى التي أشاعتها في العالم بأنها مضطرة الى ان تتمرد على العالم وتخرج منه حتى لا تواجه ديمومة ثورة الفلسطينيين والعرب عليها فحسب بل ثورة اليهود على زيفها ، ثورة الاسرى اليهود بغية الخروج من سجن اسرائيل .

على هامش طرح قضية فلسطين في الامم المتحدة

الكيان الفلسطيني في مواجهة الكيان الصهيوني

الدكتور الياس شوفاني

« ليس يطلب من دولة ان توافق على تصفيتها ، او ان تنتحر » . هذا ما قاله وزير خارجية اسرائيل ، يغئال آلون ، في خطابه الرسمي ، امام الجمعية العمومية للامم المتحدة ، في دورتها التاسعة والعشرين ، والتي ادرجت على جدول اعمالها مناقشة قضية فلسطين . وبعد ان اتهم الوزير الاسرائيلي غالبية الدول الاعضاء في المنظمة الدولية بالتواطؤ مع العرب والتحامل « الذي لا يستند دائما الى الموضوعية »، على اسرائيل ، حذرها من الاستجابة لطلب منظمة التحرير الفلسطينية دعوة ممثل عنها الى الجمعية العمومية ، ليطرح من جديد قضية فلسطين . وأعلن الوزير ، منذرا ومهددا ، بأن قرارا ، تتخذه الامم المتحدة بهذا المعنى « ستعتبره اسرائيل غير ذي صفة شرعية ، ولا يلزمها بشيء قط » .

هذا التحدي للمنظمة الدولية ، التي تجاوزت في السابق ميثاقها من اجل تثبيت دعائم الكيان الصهيوني على حساب اقتلاع الشعب الفلسطيني من أرضه ، وهذا الانفعال الحاد من طلب ممثل الشعب المقتلع ، ضحية قيام اسرائيل ، من المنظمة الدولية اياها، اعطاءه الفرصة لعرض قضيته العادلة عليها ، ورد الفعل العصبي هذا على مطالبة الشعب الفلسطيني ، المغتصب ارضه ، بالاعتراف الدولي بحقه الطبيعي في تقرير مصيره السياسي ، وهذا التزمت والتشنج حيال تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية لشعبها ، لماذا ؟ .

لدى كتابة هذه السطور ، (١٩٧٤/١٠/١١) ، كانت اسرائيل قد خسرت الجولة الاولى من المعركة السياسية ، التي بادرت اليها منظمة التحرير الفلسطينية ، على صعيد الامم المتحدة ، متخذة تكتيك الهجوم ، كخير وسيلة للدفاع عن وجودها ومستقبلها ، في هذا الظرف الحاسم ، حيث تجري محاولات خطيرة لتقرير مصير المنطقة ، على الاقل لعدد من السنين . فقد جرى التصويت على ادراج القضية، قضية فلسطين ، في جدول اعمال الجمعية العمومية ، ونال اكثرية كبيرة ، رغم معارضة اسرائيل ، وامتناع حليفتها الكبرى ، الولايات المتحدة ، عن التصويت على مشروع قرار الادراج . وكذلك ، فمن الان ، يبدو اكيدا ان محاولات اسرائيل المعلنة ، للحؤول دون دعوة ممثل منظمة التحرير الفلسطينية الى الامم المتحدة ليتولى بنفسه ، ودون شراكة طرف آخر ، طرح القضية في جلسة عامة ، وليس في احدى اللجان الفرعية للمنظمة الدولية ، ستبوء بالفشل . فقد ضمن مندوب المنظمة ، الذي عهدت اليه مهمة الاعداد للدعوة ، الاصوات الكافية لاقرار القرار ، عند التصويت عليه ، (١٩٧٤/١٠/١٤) . وبذلك تحتم امداد المواجهة ، بين الغاصب والمغصوب على أرض فلسطين ، الى منبر

المؤسسة الدولية الكبرى . تلك المواجهة التي بدأت فصولها الاولى مع وصول طلائع المستوطنين الصهيونيين الى شواطىء فلسطين ، والتي دأب الغاصب فيها منذ البداية على طمس معالمها ، ونجح الى حد كبير في تشويه وقائعها ، واستطاع لسنين طويلة التحكم بمجرياتها .

وعند مناقشة القضية ، سيقول ممثل منظمة التحرير الفلسطينية كلمة الشعب الفلسطيني ، على مرأى من الملا ومسمع ، بعد ان قيل الكثير جدا عن أن ليس لهذا الشعب وجود بعد . وكذلك فلن يكون مجال لكبت الصوت الفلسطيني او لتشويهه . ولن يستطيع العدو الصهيوني التحكم بسير المناقشات وتوجيهها كما يتلاءم ومصالحه، خارجا عن ارادة صاحب القضية الاول . وستبرز مناقشة القضية ، **حين يكون الطرح الفلسطيني نضاليا** ، يتناول القضية من جذورها ، التناقض المطلق القائم بين الوجود الفلسطيني السياسي وبين الكيان الصهيوني . وستكون لطرح كهذا دلالة واضحة على النجاح الذي احرزه الشعب الفلسطيني ، من خلال حركة تحرره الوطني ، في ابراز الشخصية الفلسطينية والتاكيد على حقها في التعبير عن هويتها سياسيا ، وفي الارتفاع بقضية الشعب الفلسطيني من صعيد اللجوء والاحتياجات الانسانية ، الى صعيد حق تقرير المصير السياسي .

ولان كل ما انجزته الصهيونية كان على حساب شعب فلسطين ، فان كل ما يسترده هذا الشعب من حقوق سيكون على حساب الكيان الذي اقامته الصهيونية على أرض فلسطين . فلا عجب اذن ، ان يكون رد فعل اسرائيل ، كما عبر عنه وزير خارجيتها ، منفعلا عصبيا . فالوزير الاسرائيلي يعي تماما مضاعفات بروز الشعب الفلسطيني على ساحة الصراع السياسي في المنطقة ، وتصديه بنفسه لانتزاع حقوقه من أيدي مغتصبيها . وهو لا يخفى عليه ، طبعا ، ما لحق باقران مجتمعه الاستيطاني في مواجهة حركات التحرر الوطني لسكان البلاد الاصليين . وهذا ما يجعله يفقد توازنه عند الكلام عن منظمة التحرير الفلسطينية ، فلا يترك فرصة تفوته دون الافتراء عليها والتشهير بها .

خطاب الون في الجمعية العمومية

رغم كلامه المنمق عن الفلسطينيين ، وما ينتحله من الليبرالية عند الحديث عن احتياجاتهم الانسانية والسياسية ، فان آلون لا يخرج قيد انملة عن الاطر التي وضعتها الصهيونية التقليدية في نظرتها الى الشعب الفلسطيني . فمن كلامه عنهم تفوح رائحة الاستيطان الكريهة . وخطابه في الجمعية العمومية ، كتصريحات اعضاء حكومته الاخرين ، يراد به الايهام بأن قيادة اسرائيل الجديدة قد غيرت وبدلت من مواقفها تجاه الشعب الفلسطيني . وعهدنا بمثل هذا التكتيك، في السياسة البراغماتية التي انتهجتها الصهيونية ، طويل . فالحكومة الاسرائيلية تجتمع لساعات طويلة ، تناقش مسألة الاعتراف « بالكيان الفلسطيني » ، بعد أن يعلن وزير الاعلام فيها عن استعدادها للاعتراف بذلك الكيان . ليخرج رئيسها بالتصريح ان لا اعتراض لديه على ان هناك مشكلة بالنسبة للعرب « الذين كانوا يعيشون ، في الماضي ، في المنطقة التي هي اسرائيل اليوم ، او الذين يعيشون في المناطق التي تحت حكمها الان » . ثم تخرج الصحف الاسرائيلية بمقالات مطولة عن خلاف في وجهات النظر داخل الحكومة ، بين آلون ورابين ، حول السياسة الواجب اتباعها تجاه القضية الفلسطينية . (راجع نشرة م.د.ف. ، مجلد ٤ ، العددين ١٤ ، ١٥) . ولا تمر فترة زمنية وجيزة ، حتى يقف آلون على منصة الامم المتحدة ، ويردد حرفيا الفقرة الواردة في بيان حكومة رابين ، الذي

نالت على أساسه ثقة الكنيست ، والتي تقول بوجوب حل المشكلة الفلسطينية في اطار المفاوضات مع الاردن . ويتضح كذلك ان الخلاف بين رابين وآلون لا يـدور حول الاعتراف بكيان فلسطيني مستقل ما ، فكلاهما يعارضه بشدة ، وانما حول انجـع الطرق الواجب اتباعها ، في المفاوضات الدائرة الان على التسوية السلمية في الشرق الاوسط ، لعزل منظمة التحرير الفلسطينية ، وابعادها عن المشاركة في مؤتمر جنيف . فبينما يرى رابين ان تركيز الجهد الاكبر على التوصل الى تسوية مع مصر كفيل بحل المشاكل « الثانوية » على الجبهات الاخرى ، ولصالح اسرائيل ، يرى آلـون ان الاسراع في فتح حوار مع الاردن ، بالاضافة الى انه يتفق مع وجهة النظر الاميركية ، هو أقصر السبل لقطع الطريق على منظمة التحرير الفلسطينية ، وقبل ان تتجـذر مواقعها . وعلى هذا الاساس يجب أن يؤخذ كلام آلون في الامم المتحدة .

وآلون ، على حد قوله ، « لا يوافق على حل شامل [للنزاع العربي الاسرائيلي] لا يتضمن تلبية لاحتياجـات الفلسطينيين » . وهو كذلك ، ممثلا لحكومته ، يعتـرف « بوجود مشكلة الهوية الفلسطينية » . ولكنه ينكر أن تكون اسرائيل هي التي حالت دون تبلور تلك الهوية السياسية او منعت منها التعبير عن ذاتها في كيان سياسي . ولئن كانت راودت الفلسطينيين تطلعات كهذه ، فآلون يؤكد بأن الدول العربية هي التي احبطتها ، خلال تسعة عشر عاما من الحكم في الضفة الغربية وقطاع غزة . والا ، فكيف يمكن ، على حد تعبيره ، تفسير ان الفلسطينيين لم يترجموا تطلعاتهم السياسية عمليا طوال تلك السنين . وواضح ان آلون ، بكلامه هذا ، يهدف الـى تحريض الفلسطينيين على نقل صراعهم من الساحة الرئيسية ، ومع العدو الاساسي ، الى الساحات الثانوية ، ومع الحكومات العربية ، واكيدا ان آلون لا يطلق هذا الكلام جزافا ، فهو يثق من انه سيقع على بعض الاذان الفلسطينية الصاغية .

وانتقل آلون في خطابه الى بيت القصيد ، فعاد الى فتح الدفاتر الصهيونية العتيقة ، واخذ يشرح للفلسطينيين درسا في الجغرافية التاريخية : بان الاردن ليس بالحقيقة الا جزءا لا يتجزأ من « فلسطين التاريخية » ، وبأنه قد أصبح اليوم بمثابة « الوطن القومي للفلسطينيين » . ودرس آخر في علم الاجتماع : ان اكثرية الفلسطينيين تحمل الجنسية الاردنية ، وانه من الناحية الاثنية ، يستوي الاردني والفلسطيني ، فمـا ينطبـق على أحدهما ينسحب على الاخر — لا فرق حضريهما أو بدويهما . وآلـون مستعد للاعتراف « بفلسطينية » الاردن ولكن ليس بفلسطينية فلسطين ذاتها ، والتي عنها انبثقت الهوية السياسية والاثنية التي يدعي الاعتراف بها . وفي اطار « الاردن الفلسطيني » فقط ، يرى آلون امكانية التعبير السياسي عن الهوية الفلسطينية . امـا الهوية الصهيونية ، فلا يتم التعبير عنها الا في « فلسطين اسرائيلية » . وآلون ، الذي يتهم الدول العربية باحباط تطلعات الفلسطينيين السياسية ، يتعامى عن كيف اصبحت اكثريتهم تحمل الجنسية الاردنية ، وعما جرى حتى أصبح الاردن « وطنهم القومي » . فاي فرق هناك بين آلون ، الذي ينتمي الى ما يسمى « بيسار الصهيونية » ، وبين يمينها المتمثل في جابوتنسكي وبيغن ، عندما يكون الكلام عن الفلسطينيين ؟ وكلام آلون يذكرنا باقوال بن غوريون ، عام ١٩٢٨ ، في حوار مع « عصبة السلام » . حيث ، بعد ان اعترف بوجود شعب اخر في فلسطين ، وبأن لهذا الشعب حقوقا متساوية مع المهاجرين اليهود ، قال : « علينا أن نحافظ على حقوق جيراننا العرب وعلى تساويهم معنا . ولكننا نكون نكذب على انفسنا ، اذا قلنا بأن فلسطين بالنسبة للشعب العربي هي الشيء ذاته بالنسبة للشعب اليهودي » . (مذكرات بن غوريون) .

وآلون ، « عن معرفة شخصية بالجمهور الفلسطيني » ، يرفض أن يخلط بين ذلك الجمهـور وبين « منظمات الارهاب الفلسطيني » . وبمقاييسه التي اكتسـبها من خبرته الطويلة في الارهاب الصهيوني السري، لا يعتبر آلون منظمة التحرير الفلسطينية حركة تحرر وطني ، تسعى لتحرير شعب مستعبد من الحيف الذي يلاقيه على يد غيره من الشعوب ، ولديها جيش سري يقاتل من أجل الاستقلال الذاتي. وانما هي مجموعة « عصابات ارهاب مغامرة ، تبحث عن شعب لتتبناه ، عصابات تسعى لبلورة شعب والتحكم فيه ، عن طريق ابادة شعب اخر — وكل ذلك في حين ان هناك مجالا لتعايش الشعبين — اليهودي والعربي ، في فلسطين التاريخية ، على جانبي الاردن ، وبحدود بينهما ، تقررهما المفاوضات » . ويطلق الون لنفسه العنان في تعداد « جرائم » المنظمات الفلسطينية ، من قتل للاطفال والابرياء وغيره . وينتهي وزير خـارجية اسرائيل الى الادعاء بأن ضحايا عمليات المقاومة الفلسطينية من العرب تزيد عنها من اليهـود ، وان الجيوش العربية قتلت من تلك المنظمات أكثر مما فعـل الجيـش الاسرائيلي .

وليس غريبا ، طبعا ، على وزير خارجية اسرائيل هذا التشهير بحركة المقـاومة الفلسطينية وهذا التشويه لنضالها الوطني ، فآلون هو ربيب الصهيـونية ، التي كقريناتها من حركات الاستيطان ، لا تنفك تشوه وقائع المواجهة مع سـكان البلاد الاصليين ، خاصة عندما يحتدم الصراع بينهما ، ولا يعود بالامكان اخفاؤه . فهي بعد أن تكون قد تجاهلت وجودهم لتغزو بلادهم ، وتعامت عن نضالهم لتسلب ارضهم ، تشوه معالم الصراع معهم ، وتحط من قيمهم الاخلاقية ، بحيث تصورهم دون المستوى البشري ، لتضفي على ما ارتكبته بحقهم طابعا من الشرعية ، يقوم على اعراف البلد الام لحركات الاستيطان تلك .

ولكن آلون ، عند الكلام عن الفلسطينيين من على المنصة الدولية ، لا يفوت على نفسه فرصة طرح صنارة ، ولو واحدة ، الى مياه الشرق الاوسط العكرة ، فلعـل وعسى . فبينما يهاجم منظمة التحرير ، وينزع عنها صفة تمثيل الشعب الفلسطيني ، وينفي دعم ذلك الشعب لها ، يقول : « اما تفهم لاحتياجات الجمهور الفلسطيني ، فنعم ، واما استجابة لطلبات محترفي القتل ، الذين ينصبون انفسهم « محررين » — فلا » . وعلى الون لا تخفى التناقضات في الساحة العربية ، او حتى الفلسطينية . وهو يذهب الى أبعد من ذلك في مناورته مع منظمة التحرير ذاتها ، فيؤكد بأن اسرائيل لن تعترف بها بسبب ايديولوجيتها ، وهو يعني بذلك « الميثاق الوطني الفلسطيني » ، وبسبب اعمالها ، والمقصود بذلك هو العمل المسلح . وهكذا يوحي آلون بأنه اذا تنازلت المنظمة عن هذين الامرين — فالمسألة فيها نظر . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو ، لماذا لم تعترف حكومة آلون بالمنظمة او بسابقاتها من المؤسسات الفلسطينية، حين لم يكن الميثاق بعد ، وقبل أن يقوم الكفاح المسلح ؟ وما هي الضمانة لمثل هـذا الاعتراف ؟ أهي التجربة الفلسطينية مع الصهيونية ؟!.

الاصرار على حل القضية الفلسطينية من خلال الاردن ، لماذا ؟

في ظاهره ، يبدو الموقف الاسرائيلي ، في اصراره على حل قضية فلسطين في اطار الاردن ومن خلاله ، مليئا بالمفارقات . فهناك ، على حـد تصريحات الرسميـين الاسرائيليين ، اعتراف « بالهوية الفلسطينية » ، وبضرورة العمل على ايجاد حـل لمشكلتها . وكثيرا ما أعلن المسؤولون في اسرائيل ، ولا داعي للشك في ذلك ، بأنهم لا يرغبون في اضافة مليون عربي من المناطق المحتلة الى سكان اسرائيل . وهم ، كما

يدعون رسميا ، لا يريدون الابقاء على عرب المناطق تحت الاحتلال ، الى ما لا نهاية . فلماذا اذن ، وحتى في اطار تسوية سلمية شاملة ، لا يتركونهم وشأنهم ، يقررون مصيرهم بأنفسهم ؟ واذا كانت اسرائيل ستنسحب من الضفة الغربية ، في اطار تسوية شاملة فرضا ، فماذا يعنيها ان تقوم دولة فلسطينية هناك او لا تقوم ؟ ولماذا الاصرار على الا مكان لاكثر من دولتين بين البحر والصحراء ؟ ولماذا التزمت حكومة رابين بالقرار الذي اتخذته في ٢١ تموز (يوليو) ١٩٧٤ ، والذي ينص على التالي : « ستعمل الحكومة من اجل مفاوضات على اتفاق سلام مع الاردن . وسيرتكز السلام على أساس قيام دولتين مستقلتين فقط : اسرائيل وعاصمتها القدس الموحدة ، ودولة عربية اردنية — فلسطينية الى الشرق من اسرائيل ، في حدود تقر بالمفاوضات بين اسرائيل والاردن . وفي هذه الدولة يعبر عن الهوية المستقلة للاردنيين والفلسطينيين، من خلال سلام وعلاقات جوار جيدة مع اسرائيل » . (نشرة م. د. ف. مجلد ٤ ، عدد ١٥) .

وفي تقديرنا ، ان لهذا الاصرار الاسرائيلي سببين : احدهما يتعلق بالتصور الاسرائيلي للدولة اليهودية المستقبلة ، على الاقل للمستقبل المنظور ، وهو تصور يرتكز على منطلقات صهيونية تقليدية . والثاني يتعلق بالسياسة الاسرائيلية على المدى القصير ، وهي سياسة تمليها ، الى حد كبير ، اوضاع اسرائيل الداخلية .

للمدى البعيد

معلوم ان زعماء الحركة الصهيونية اعتبروا شرق الاردن داخلا في الرقعة الجغرافية التي منحتهم اياها الدول الامبريالية في وعد بلفور . وبذلك أصبح شرق الاردن في نظرهم جزءا من « الوطن القومي اليهودي » . الا ان التيار الرئيسي في الحركة الصهيونية ، ولاسباب تاريخية وموضوعية معروفة ، جمد مطالبته بالضفة الشرقية للاردن ، مع انه لم يعلن تنازله عنها . هذا في حين أن حزب حيروت ، ما زال الى يومنا هذا يرفع شعار « للاردن ضفتان » . وفي السنوات الاخيرة ، خاصة منذ حرب حزيران ، يلاحظ أن كلام زعماء اسرائيل عن أن شرق الاردن هو قسم من « فلسطين التاريخية » آخذ بالازدياد ، وليس أقله خطاب آلون الاخير في الامم المتحدة . وعلى ما يظهر ، فان القيادة الصهيونية ، التي في مراحل الاستيطان الاولى تجاهلت وجود الشعب الفلسطيني عامة واعتبرت « أرض اسرائيل » على جانبي الاردن مسرحا لنشاطها الاستيطاني ، أخذت مع الزمن ، وفي أعقاب المقاومة الفلسطينية للهجرة اليهودية ، تتبنى فكرة اقتسام « أرض اسرائيل » مع الفلسطينيين ، ولكن دون التصريح بذلك .

وكان طبيعيا أن ترى في شرق النهر الحصة العربية ، وفي غربه اليهودية . وخلال سني الاستيطان ، وفي أكثر من مرة ، حتى قبل قيام اسرائيل ، جرى كلام في مؤتمرات صهيونية عن « نقل » عرب فلسطين الى الضفة الشرقية . وليس أقل ذلك الكلام ما طرحه كاتسنلسون — أحد مؤسسي حزب العمل اليهودي وزعيمه لمدة طويلة — في الثلاثينات، والذي أثار ضجة بين أطراف اليسار الصهيوني وأوساط « عصبة السلام » في حينه . ولكن الظروف التي واكبت قيام دولة اسرائيل، والتي ليس هنا مجال بحثها ، لم تسمح للقيادة الصهيونية بتنفيذ مخططاتها كاملة . الا انه بعد قيام الدولة ، وفي أكثر من مناسبة ، صدر عن زعماء اسرائيل كلام بهذا المعنى ، ومن بينهم بن غوريون ، وغولدة مئير ، ورابين ذاته . وتحركات اسرائيل حول المشكلة الفلسطينية تدل على انها ما زالت تخطط لزج الشعب الفلسطيني في شرق الاردن ، بينما تستأثر هي في

غربه . واسلوب اسرائيل في تنفيذ مخططاتها التوسعية ، عن طريق الضم الزاحف ، اصبحت معروفة جيدا . والاساس في ذلك الاسلوب هو الانطلاق من مبدأ ان الارض عنصر ثابت ، بينما السكان عليها هم العنصر المتغير ، وتغيره يعتمد أصلا على ديناميكية الاوضاع السياسية . فالمهم اذن هو التحكم في الوضـــع السياسي بالمنطقة لخلـــق الديناميكية المناسبة لتنفيذ عملية الضم عند الحاجة . ومن هنا ، فلا بأس ان يبقى السكان العرب على قسم من الارض في فلسطين ، ما دام وضعهم السياسي لا يحول دون « نقلهم » ، بطريقة أو بأخرى ، الى مكان آخر . والكيان السياسي المستقل هو احد أهم العوائق لذلك .

لقد كان أمل اسرائيل الاكبر ، بعد عام ١٩٤٨ ، ان يذوب الفلسطينيون في العالم العربي ، خاصة في الاردن . وما أكثر ما صدر عن الاسرائيليين ، الرسميين وغيرهم ، من أن الفلسطينيين ليسوا أمة ، وانه لم يكن لهم قط استقلال ذاتي ، وانهم لم يبلوروا ابدا حركة قومية مستقلة ، الى غير ذلك من الحجج الواهية في محاولة لاثبات أن العمل الفلسطيني ليس الا تمويها لسياسة عربية عدوانية ، هدفها القضاء على اسرائيل .

ولكن السنوات الاخيرة من العمل الفلسطيني ، والنجاحات التي أحرزتها الثورة الفلسطينية ، أبرزت بكل وضوح ، ليس في اسرائيل فحسب ، بل في العالم أجمع ، الشخصية الفلسطينية المستقلة . ولما لم يعد بالامكان انكـــار الهوية الفلسطينية ، وأصبح من دواعي السخرية ادعاء زعماء اسرائيل بالا وجود للشعب الفلسطيني ، وبأن ذلك المسمى ليس الا بدعة عربية ، عمدت اسرائيل الى تحوير ما كانت تقوله عن الفلسطينيين وأخذت تطلقه على الاردن . فاذا به يصبح كيانا مصطنعا ، وانه ليس الا جزءا من فلسطين التاريخية ، وان اغلبية سكانه من الفلسطينيين ، الخ . فعندما فشل تكتيك « أردنة » الفلسطينيين ، تحولت اسرائيل الى لعبة « فلسطنة » الاردن . والمهم ان الجوهر بقي واحدا ـــ وهو انتماء الفلسطينيين الى شرق الاردن ، حتى لو تواجدوا مرحليا غربه .

وطبيعي ان ترى اسرائيل بقيام دولة فلسطين مستقلة غربي النهر ما يضع حـــدا للعبتها هذه ، وانه سيقف عقبة كأداء في طريق تنفيذ مخططها للمستقبل البعيد مـــن « نقل » عرب فلسطين الى شرق النهر . فقيام مثل هذه الدولة سيجذر الشخصية الفلسطينية ، ويكسبها مع الوقت مقومات الانتماء الوطني ، اسوة ببقية شعوب العالم العربي ، في دولها المستقلة . وبالمقابل ، وبموازاة مثل هذه التطورات على الساحة الفلسطينية ، وربما كرد فعل عليها ، ستبرز اتجاهات مماثلة على الساحة الشرق اردنية . فلا يمضي زمن طويل قبل أن يصبح كل واحد من الشعبين ذا شخصية مستقلة تماما ، تثقل على عملية انتقال سكان الضفة الغربية العرب الى الضفـــة الشرقية « بصورة طبيعية » ، كما انها ستزيد من تصميم الفلسطينيين على الصمود في مواقعهم والدفاع عنها عند الحرب ، خلافا لما جرى في السابق . وهذا ما تريد اسرائيل ان تتفاداه مسبقا ، ان استطاعت الى ذلك سبيلا .

ولا شك في أن اسرائيل ، على حد قولها ، تخشى من ان يؤدي قيام دولة فلسطينية ، في الظروف الراهنة التي يعيشها الفلسطينيون في شتاتهم ، الى تجمع قسم كبير منهم في الضفة الغربية . فلا تلبث تلك الدولة ان تنفجر ، تحت ضغط الكثافة السكانية ، مرسلة شظاياها الى ما جاورها من الدول .

للمدى القريب

أما على المدى القريب ، فتتكاتف عوامل عدة في اسرائيل ، تدفعها باتجاه التزمت حيال المشكلة الفلسطينية ، والتشنج ازاء ما يطرح الان من حلول لها . ومن أهم تلك العوامل ، التركيبة السياسية للمؤسسة الحاكمة ، في اطار اللعبة الديمقراطية القائمة حاليا هناك . وليس أقل أهمية من ذلك ، هذا اذا افترض ان الحكومة الاسرائيلية قبلت بحل ما ، يستجيب ولو جزئيا لطلبات الفلسطينيين ؛ كالدولة الفلسطينية مثلا ، تبرير مثل هذا القبول للشعب الاسرائيلي ، واخراجه لجيل الشباب الذي نشأ على الاصول الصهيونية .

فحكومة رابين الحالية ، هي حكومة ائتلافية ، تقوم على أكثرية صوت واحد في الكنيست ، من أصل مائة وعشرين . وقد التزمت هذه الحكومة بخط سياسي تجاه الفلسطينيين (أنظر أعلاه) ، أعلنته في بيانها الوزاري الذي نالت على أساسه الثقة . كما تعهدت حكومة رابين باجراء انتخابات عامة قبل التوقيع على أي اتفاق ، ينطوي على اتخاذ خطوات ملموسة في الضفة الغربية ، لاعطاء الجمهور الاسرائيلي فرصة التعبير عن رأيه في الموضوع . ورابين يخشى الدخول في معركة انتخابات في هذا الظرف ، وعلى أساس مسألة شائكة ، كمستقبل الضفة الغربية ، تتضارب فيها الآراء الاسرائيلية بشدة . فهو لم يثبت اقدامه بعد في المؤسسة الاسرائيلية الحاكمة ، ويخيم على حكومته شبح مراكز القوى التقليدية ، التي أصبحت الان خارج الحكم . وظل دايان الطويل يتابع رابين في جميع تحركاته السياسية ، خاصة ما يتعلق بالمناطق المحتلة . وفي داخل الحكومة ، يقع رابين بين مطرقة آلون وسندان بيرس ، حليف دايان . ولربما كان في كلام آلون الاخير ، بعد عودته من نيويورك من انه لا يريد البقاء في حكومة ، تقرر الانتخابات سياستها ، دلالة على تصاعد الخلاف في وجهات النظر داخل الحكومة . واما تصريح رابين الاخير ، من انه مستعد لتنازلات اقليمية في الضفة الغربية الى الملك حسين ، مقابل اعلان الاخير انهاء حالة الحرب مع اسرائيل ، فهو مناورة مكشوفة ، يقصد بها تدعيم مركز الملك حسين تجاه العالم العربي ، في حين تطرح قضية فلسطين على الامم المتحدة ، وعشية انعقاد مؤتمر القمة العربي في المغرب . وفي تقديرنا ، بأن في الضفة الغربية ستكون مقبرة رابين السياسية ، الا اذا انقذه الملك حسين . ويبدو أن رابين نفسه يعتقد ذلك ، ولذا فهو يتحرك هناك بحذر شديد .

وحكومة رابين لا شك تعلم مدى تمسك الجمهور الاسرائيلي بالضفة الغربية ، ورفضه اعادتها الى أيد عربية ، خاصة أيدي منظمة التحرير الفلسطينية . وهذا التمسك هو نتيجة طبيعية للتعبئة الفكرية التي مارستها الصهيونية على اتباعها ، خلال قرن من الزمن . ولعل لمحة موجزة عن نظرة الصهيونية الى الشعب الفلسطيني تفسر هذا التمسك .

كباقي حركات الاستيطان ، في نظرتها الى سكان البلاد الاصليين، هكذا الصهيونية ، تجاهلت وجود عرب فلسطين قبل مواجهتهم ، وتعامت عن مقومات تلك المواجهة عندما وقعت ، وشوهت وقائعها عندما قويت ، وانقلبت ، على الجانب الفلسطيني ، الى حركة تحرر وطني . ففي مراحل الاعداد للهجرة الجماعية ، وحتى في بداياتها ، اعتبر المستوطنون الصهيونيون الارض الفلسطينية خلوا من الشعب ، تارة ماديا وطورا معنويا . فقد غاب الفلسطينيون عن الصورة عند تخطيط زعماء الصهيونية للاستيلاء على الارض . ولئن اعترفوا حينا بحضورهم الجسدي ، فقد غيبوهم حضاريا

احيانا ، لكونهم ليسوا من الناس — الناس البيض المتحضرين .

ولعل فيما قاله الفيلسوف — الكاتب اليهودي ، احاد هعام ، (١٨٥٦ — ١٩٢٧) ، خير دلالة على ما اتسمت به نظرة المستوطنين الصهيونيين الى عرب فلسطين ، من تجاهل واحتقار . فبعد رحلة قام بها الى فلسطين ، عام ١٨٩١ ، كتب احاد هعام مقالا بعنوان « حقيقة من فلسطين » . وقد جاء فيه ما يلي : « درجنا نحن في الخارج على الاعتقاد بأن فلسطين الان مقفرة تقريبا ، صحراء غير ذي زرع ، ومن أراد شراء الارض بها ، فليأت ويشتر كما يطيب له ... ودرجنا نحن في الخارج على الاعتقاد بأن العرب جميعا هم من وحوش البراري ، شعب اشبه ما يكون بالحمير ، وانهم لا يرون ما يجري حولهم ولا يفقهونه ... ودرجنا نحن في الخارج على الاعتقاد بأن الحكومــة التركية ضعيفة ومضطربة ، الى حد انها لا تعير اهتماما أبدا لما يجري في فلسطين . واننا بالرشوة ، نستطيع أن نفعل كل شيء ، وكم بالحري اذا كنا تحت حماية ممثلي دول اوروبا » . ومضى احاد هعام ينفي هذه المزاعم ، ولكن هيهات أن يثني صوته المتردد دعاة الصهيونية عن المضي في تنفيذ مشاريعهم الاستيطانية . فمنهم مــن ذهب الى التخطيط لخلق واقع جديد ، يتفق والمنطلقات الذاتية للصهيونية السياسية . ومنهم من عمد الى تغييب الفلسطينيين حضاريا ، علّه يوحــي بانعدام التناقض بين المنطلقات الذاتية للصهيونية والظروف الموضوعية في فلسطين . ولعل أبرز الامثلة على التغييب الحضاري ، ما قاله أحد منظري « اليسار الصهيوني » الاولين ، بــير بوروخوف ، (١٨٨١ — ١٩١٧) .

ففي أحد أهم مقالاته ، « برنامجنا » ، يقول بوروخوف : « وليست لابناء فلسطين صفة اقتصادية أو حضارية مستقلة . فهم منقسمون على أنفسهم ومفتتون ، ليس فقط بسبب تضاريس البلد ، ولا بسبب التمايز الديني فيه ، وانما أيضا لكونه خانا دوليا . وأبناء البلد ليسوا أمة واحدة ، وسيمضي وقت طويل قبل ان يصبحوا كذلك . وهم يستوعبون أي طابع حضاري ، يكون أرفع من مستواهم ، ويأتيهم من الخارج ، بسرعة وسهولة كبيرتين . وليس بمقدورهم التكتل في عملية مقاومة منظمــة ضد التأثيرات الخارجية . وهم غير مهيئين للتباري على الصعيد القومي — ومبارياتهم تأخذ الطابع الفردي أو الشللي ... وسكــان فلسطين سيتكيفون مــع أي طابع اقتصادي أو حضاري ، يحتل موقعا يهيمن اقتصاديا على البلد . وهم سيندمجون من الناحيتين — الاقتصادية والحضارية ، بمن يدخل النظام الى البلد ، وبمن يأخذ على عاتقه تطوير قوى الانتاج في فلسطين . **والمهاجرون اليهود هم الذين سيتولون تطوير قوى الانتاج في فلسطين . أما السكان المحليون فيها ، فسيندمجون ، على مر الايام ، اندماجا اقتصاديا وحضاريا ، باليهود .** » [التشديد بالاصل] .

ولما لم يعد ادعاء الجهل بالوجود الفلسطيني ممكنا ، بواقع الاصطدام به من خلال تنفيذ عملية الاستيطان ، عمدت السياسة الصهيونية الى التعامي عن ذلك الوجود ، ومحاولة الاستدارة حوله . ولجأت الى التعامل مع المشاكل الناجمة عن الاستيطان من خلال موازين القوى الدولية ، بدلا من التفاهم مع القوى المحلية ، على حــد قول الفيلسوف اليهودي مارتن بوبــر (١٨٧٨ — ١٩٦٥) . واشترت الاراضي مــن الاقطاعيين ، غير آبهة بمصير الفلاحين الذين عليها . وبعد ان تحكمت باقتصاد البلد ، تبنت سياسة العمل العبري والسوق اليهودية ، وهي لا تعبأ بحياة السكان المحليين الاقتصادية . هذا قليل من كثير من سياسة التعامي ، التي بلغت ذروتها في كلام بن غوريون ، عندما قال في مناقشة بيان « عصبة السلام » ، عام ١٩٢٨ ، انه لا يرى في فلسطين مشكلة عربية وانما يرى فيها مشكلة يهودية فقط .

ولعل البراعة الصهيونية بلغت أوجها في تشويه طبيعة الصراع الدائر على أرض فلسطين . وما كلام آلون الاخير في الامم المتحدة ، الا حلقة جديدة من مسلسل طويل في الافتراء على الشعب الفلسطيني ونضاله . فمنذ ان تصاعدت المواجهة بين الشعب الفلسطيني والمستوطنين اليهود الى حد الصدام المسلح ، انبرت الدعاية الصهيونية لطمس معالم النضال الفلسطيني وتشويه وجهه التحرري . فالفلاحون الذين هبوا يقاتلون دفاعا عن وسيلة حياتهم الوحيدة — الارض التي سلبت منهم وأجلوا عنها هائمين على وجوههم ، اصبحوا في نظر المستوطنين الصهاينة عصابات من اللصوص ، همها السرقة والتخريب . وقبائل البدو التي حرمت مراعي قطعانها ، فغزت المستوطنات اليهودية الجديدة ، وصفت بالبدائية والنفور من الحضارة وحياة الانتاج المستقرة ، وبالخروج على شرعة القانون والاعراف المتمدنة . وبذلك صوروا وكأنهم أعداء للمدنية ، التي يحملها معه المستوطن الغربي « الابيض » . وكتائب الارهاب الاولى التي اقيمت لتكون ذراع الاستيطان الضاربة ، سميت على يد المستوطنين « حركة الحراس » ، ايهاما بأنها انما أنشئت لتحافظ على ما جناه المستوطنون بعرق جبينهم ، ضد عصابات الفوضى والتخريب . والاضرابات التي قامت احتجاجا على الهجرة اليهودية ، سميت اضطرابات وأعمالا غوغائية ، قام بها الرعاع بتحريض من عناصر مشبعة بالحقد والتعصب الديني . وتحركات الشعب الفلسطيني السياسية ، من أجل الحفاظ على بقائه في وطنه ، عزيت الى تحريض أجنبي ، ووصفت بأنها تمويه لحركات عدوانية من خارج الحدود ، الخ . وأخيرا وليس آخرا ، ففصائل المقاومة الفلسطينية في مصطلح وسائل الاعلام الصهيوني ، هي « عصابات من محترفي القتل »، والاعمال الفدائية ليست الا عمليات « اجرامية »، والثورة الفلسطينية « عميلة للاتحاد السوفياتي »، والدولة الفلسطينية لن تكون أكثر من « قاعدة روسية في المنطقة »، الخ . والفلسطينيون لا يريدون من دولتهم على الضفة الغربية الا « لتكون قاعدة ينطلق منها القتلة الى قلب اسرائيل » .

وبعد هذا القاموس الصهيوني من « المصطلحات الفنية » للصراع الفلسطيني الاسرائيلي ، وبعد هذا الدأب المستمر على التشويه ، كيف بصانعي السياسة الاسرائيلية في مواجهة شعبهم باتفاق مع الفلسطينيين ، وماذا عساهم يقولون عنه ؟ وكيف تبرر القيادة الصهيونية ، التي ربت أبناءها على هذا التراث من التضليل ، الاعتراف بحقوق الفلسطينيين على الضفة الغربية مثلا ، وليس على يافا وحيفا وغيرها ؟ وماذا سيكون ردها على عروبة الجليل الذي لا تزال أكثرية سكانه من العرب؟ وماذا سيكون جوابها على الاسئلة التي يثيرها جيل الشباب الاسرائيلي والتي أخذت تحوم مؤخرا حول شرعية الدولة الصهيونية ، بعد أن كانت لا تتعدى سياسة الحكومة؟ هذا بغض النظر عن التعقيدات النفسية التي يواجهها المستوطنون « البيض » ، لدى ارغامهم على التراجع أمام حركة التحرر الوطني « للسود » من سكان البلاد الاصليين . فأمام كل هذه الاعتبارات الداخلية ، تواصل القيادة الصهيونية في اسرائيل الهروب الى الامام .

في الامم المتحدة

لئن فاجأ العرب اسرائيل في حرب تشرين ، فقد فاجأتها منظمة التحرير الفلسطينية بمبادرتها الى طرح قضية فلسطين في الامم المتحدة . وازاء هذا التحرك من جانب الثورة الفلسطينية وقفت اسرائيل موقف الخيار بين أهون الشرين . فمنذ البداية ، كانت هناك قناعة لدى الحكومة الاسرائيلية ، أثبت صحتها التصويت على ادراج القضية في جدول أعمال الدورة الحالية (٢٩) للجمعية العمومية ، بأنها ستكون أعجز

من أن تحول دون ادراج القضية ومناقشتها في الامم المتحدة ، كبند منفصل ، وقائم بذاته . ولذا فقد اتجهت نحو العمل على افراغ طرح القضية من أي محتوى مادي ملموس ، خاصة فيما يتعلق بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كحركة تحرر وطني، ومن ثم الاعتراف بهـا كممثلة شرعيـة ووحيدة للشـعب الفلسطيني . ولكن مصادر الحكومة الاسرائيلية المفوضة ، اعترفت مرارا بصعوبة الحؤول دون ذلك ، لما تتمتع به الثورة الفلسطينية من تأييد واسع على الصعيد الدولي ، وما تستطيع أن تجنده من أصوات في الجمعية العمومية لتأييد الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني . ولذا ارتأت الحكومة الاسرائيلية أن تصب جهدا كبيرا في محاولة تأجيل البحث الى موعد متأخر ، متذرعة بحجة ضرورة الاستمرار بالنشاطات السياسية ، التي تمهد للمرحلة التالية من مفاوضات التسوية .

وازاء هذا الوضع ، عمدت اسرائيل الى العمل من خلال توازن القوى السياسية ، أي ضمان الدعم السياسي لبعض الدول الكبرى ، دون الاهتمام الكبـير بالناحية الدستورية ـــ أي عدد الأصوات الى جانب هذا القرار او ذاك . ويهم اسرائيل أولا موقف الولايات المتحدة من القضية ومن مسألة طرحها أصلا . وهي تولي موقف دول أوروبا أهمية كبيرة ، خاصة تعليقات تلك الدول على الصياغات المختلفة التي قد تقدم كمشاريع قرارات ، وما ينطوي عليه ذلك من نظرات سياسية ، تعكس آراء تلك الدول في سبل حل مشكلة فلسطين .

الا أن الولايات المتحدة لم تستجب لطلبات اسرائيل المتلاحقة ، بتقديم تعهد مسبق لها يأخذ صفة الالتزام الملزم بالتصويت ضد مشاريع القرارات التي ستتقدم الى الجمعية العمومية ، من ادراج القضية على جدول الاعمال ، الى دعوة ممثل منظمة التحرير لطرحها ، الى الاعتراف بالمنظمة كممثلة للشعب الفلسطيني. ويبدو ان اسرائيل تخشى استعمال الولايات المتحدة صوتها بالامم المتحدة بشأن القضية الفلسطينية كأداة للضغط على كل من اسرائيل والاردن ، لدفعهما باتجاه التحرك نحو تسوية مرحلية على تلك الجبهة . وربما كانت تصريحات رابين الاخيرة ، باستعداد اسرائيل لتقديم تنازلات اقليمية للاردن مقابل اعلان انهاء حالة الحرب معها ، صدرت على هذه الخلفية .

ويستشف من اقوال الصحف الاسرائيلية قلقها من أن يؤدي اعتراف الامم المتحدة بالحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني الى دعوة منظمة التحرير الفلسطينية للمشاركة في المفاوضات على التسوية السياسية الدائرة الان . كما ان هناك تلميحا الى مخاوف من أن تنتهي الامور ، بعـد اعتراف واسع النطـاق بحقـوق الشعب الفلسطيني ، وبالمنظمة كممثلته الشرعية الوحيدة ، الى العمل على طرد اسرائيل من الامم المتحدة . ولذا فانه يتوقع أن تقوم اسرائيل بحملة مسعورة للحؤول دون وصول الفلسطينيين الى بداية الطريق المؤدية الى تلك المرحلة . وأكيدا انها ستحاول عرقلة سير المناقشات ، وستعمل على تمييع القرارات التي ستتخذ بهذا الشأن .

وفي مناوراتها داخل الامم المتحدة وخارجها ، تستعمل اسرائيل تكتيكا ذا وجهين : احدهما الترغيب والآخر الترهيب . فبينما يرفض آلون رفضا باتا امكانيـة اعتراف اسرائيل بمنظمة التحرير الفلسطينية ، يؤكد اعتراف حكومته « بوجود مشكلة الهوية الفلسطينية » ، وقناعتها بضرورة العمل على حل تلك المشكلة . وفي ذلك استدراج واضح لفئات فلسطينية ، خارج منظمة التحرير ، لتلعب دور البديل ، وتدخل في حوار مع اسرائيل . وفي نفس الوقت ، يخرج رابين ، بعد اصرار طويل على أن تبدأ المرحلة القادمة من المفاوضات مع مصر ، بتصريحاته المذكورة عن الاردن . واما على صعيد

الترهيب ، فتأتي أقوال آلون من ان اسرائيل ستعتبر قرارا ، يصدر عن الامم المتحدة ويعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثلة للشعب الفلسطيني ، واية قرارات أخرى مماثلة تعتبرها اسرائيل ضارة بمصالحها الحيوية ، غير شرعية ولا تلزمها بشيء قط . هذا الى جانب التصريحات الكثيرة عن ان مناقشة القضية الفلسطينية في الامم المتحدة ، وفي هذا الظرف بالذات ، ستعرقل سير مفاوضات التسوية السلمية . وفي هذا اشارة واضحة الى المعنيين باستمرار تلك المفاوضات . أما على الصعيد الدعاوي ، لن تترك اسرائيل سهما في جعبتها لا تطلقه على نضال الشعب الفلسطيني وعلى منظمة التحرير وفصائل المقاومة . وهي ، كما يبدو ، تعد حملة اعلامية واسعة النطاق ، تبدأ عند مناقشة القضية في الامم المتحدة .

ايضاح

سقط من خاتمة مقال الاستاذ منير شفيق « فلسطين في الامم المتحدة : خطوة نضالية » الذي نشرناه في العدد الماضي ، رقم ٣٨ ، من شؤون فلسطينية ، ثبت المصادر التي اعتمد الكاتب عليها ، ولم تنتبه المجلة الى هذا الخطأ الا بعد صدور العدد . واذ ننشر فيما يلي ثبت مصادر المقال المذكور ، كما تسلمناه من كاتب المقال في حينه ، نقدم اعتذارنا الى كل من كاتب المقال ومن الاساتذة المذكورين في ثبت المصادر .

مصادر البحث :

١ — القرار ٢٤٢ بين التعديل والتبديل — جورج طعمه (النهار ١٣ ، ١٤ ، ١٥ حزيران ١٩٧٤) .

٢ — قرارات هيئة الامم حول فلسطين ١٩٤٧ — ١٩٧٢ (بالانكليزية) ، جمع وتصنيف سامي مسلم — مؤسسة الدراسات الفلسطينية .

٣ — فلسطين والشرق الاوسط في الجمعية العامة للامم المتحدة . تلخيص لاحداث الدورة الثامنة والعشرين ، د. فايز صائغ ، شؤون فلسطينية ، عدد ٣١ .

٤ — قضية القدس في الامم المتحدة ، جورج طعمه (النهار ١١ ، ١٢ كانون الثاني ١٩٧٤).

٥ — ر.أ.أ. ، مركز الابحاث ، ١٩٧٤/٨/١٥ .

٦ — « السياسة » الكويتية ، ١٩٧٤/٩/٢ .

٧ — الاهرام ، ١٩٧٤/٩/٢ .

٨ — الانوار ، ١٩٧٤/٩/٣ .

«انهاء حالة الحرب» بين الدول العربية واسرائيل وآثارها على القضية الفلسطينية

الدكتور عدنان العمد

هذه الدراسة هي محاولة للاجابة على السؤال التالي : ما هي الاثار القانونية والسياسية التي ستلحق بالقضية الفلسطينية في حالة اعلان « انهاء حالة الحرب »* بين الدول العربية واسرائيل ؟. سوف تعتمد الاجابة عن السؤال على المفهوم القانوني لمبدأ انهاء حالة الحرب كما ورد في قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ لعام ١٩٦٧ وهو القرار الذي يعتبر حاليا الوثيقة الدولية المعتمدة اساسا لاقامة سلم « دائم وعادل » في الشرق الاوسط(١). وعليه فان الدراسة ستدور بالدرجة الاولى ضمن اطار الصيغة القانونية المستعملة في القرار ولن تتطرق الى موضوع اللاشرعية التاريخية او اللااخلاقية السياسية للكيان الاسرائيلي او لبطلان الاسس القانونية التي قامت عليها اسرائيل الا بالقدر الذي يخدم متطلبات البحث مباشرة .**

تنطلق الدراسة من قناعة مسبقة لان القضية الفلسطينية هي اصل النزاع العربي ـ الاسرائيلي وان ما سيلحق بها سياسيا سيكون مؤثرا وكذلك متاثرا بمجموعة المتغيرات التي ستطرأ على النواحي العسكرية والاقتصادية من النزاع بعد ان يتم اقرار انهاء حالة الحرب*.**

قرار ٢٤٢ ومبدأ انهاء حالة الحرب

ينص القرار على أن السلام في الشرق الاوسط يجب أن يقوم على مبدأين : **المبدأ الاول** : سحب القوات المسلحة الاسرائيلية من اراض احتلتها اثناء النزاع ـ النص الفرنسي يستعمل تعبير « الاراضي التي احتلتها » وهو التعبير الذي يعتمد عليه الموقف العربي ويعتبر اكثر انسجاما مع مبدأ « عدم الاستيلاء على الاراضي بواسطة الحرب » الذي جاء في مقدمة القرار . **والمبدأ الثاني** : انهاء جميع ادعاءات وحالات الحرب واحترام واعتراف بسيادة ووحدة اراضي كل دولة في المنطقة ، واستقلالها السياسي وحقها في العيش بسلام وضمن حدود آمنة ومعترف بها وحرة من التهديد او اعمال القوة .

---

* انهاء حالة الحرب ، اصل التعبير عن الانكليزية Termination of the State of War

** يشمل تعبير « الدول العربية » في البحث كل من مصر وسوريا والاردن باعتبارها الدول المعنية بقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ويشمل في بعض الاحيان لبنان باعتباره من الدول العربية التي وقعت عام ١٩٤٩ على اتفاقيات الهدنة بين الدول المذكورة واسرائيل .

*** سبق لمجلة « شؤون فلسطينية » ان بحثتنتائج اي تسوية سلمية في ثلاث اوراق قدمها الدكاترة أسعد رزوق ونديم البيطار وصلاح الدين الدباغ ، نشرت في العدد ٣ ـ ١٩٧١ .

ان القرار يتحدث بشكل عام عن ضمانات والتزامات متبادلة بين الدول العربيـــة واسرائيل يترتب عليها منح اسرائيل تعهدات تشمل الاعتراف بسيادتها وبضمان حقها في العيش ضمن حدود آمنة وغير مهددة . ولا يحدد القرار الخطوط التي يجب ان يتم الانسحاب على أساسها ويترك تحديد هذه الخطوط الى سير المفاوضات بين الاطراف باشراف ووساطة الامم المتحدة .

لقد مرت المنطقة بعد اصدار القرار بعده تطورات عسكرية وسياسية كـــان من أبرزها ظهور الثورة الفلسطينيه المسلحه كقوه جديدة لا يقل وزنها عن وزن أي دولة طرف في النزاع ، وفي اكتوبر ١٩٧٣ جرت مبادره عسكريه (مصرية ـ سورية) لتغيير ميزان القوى العسكري لمصلحة الدول العربية ولكن المحاولة تجمدت دوليا باصدار قرار مجلس الامن رقم ٣٣٨ بتاريخ ٢٢ اكتوبر ١٩٧٣ الذي دعا الى « وقف اطـــلاق النار وانهاء كل نشاط عسكري فورا ... والبدء مباشرة بتنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ بجميع فقراته ... ووجوب البدء في مفاوضات فورية تحت رعاية مناسبة بغية تحقيق سلام دائم وعادل في الشرق الاوسط »(٢).

فالقرار ٣٣٨ اذا هو تكرار للقرار ٢٤٢ ولا يحتوي على أية عناصر جديدة غـــير « التنفيذ المباشر » و« المفاوضات الفورية » ، وكما ان القرار ٢٤٢ لم يأخذ بعـــين الاعتبار التطـــورات التي رافقت القضيـــة الفلســـطينية منذ ١٩٤٧ (مشـــروع التقسيم) فان القرار ٣٣٨ لم يأخذ بعـــين الاعتبار التطورات التي حدثت منذ يونيـــو ١٩٦٧ . فالمعروف ان القرار ٢٤٢ يتطلب انهاء حالة الحرب على أساس ميزان القوى العسكرية بين الطرفين كما كان عليه بعد حرب يونيو ١٩٦٧ وهو ميزان لا تمثـــل القضية الفلسطينية بموجبه اكثر من « مشكلة لاجئين يتوجب ايجاد تسوية عادلة لها » كما جاء في الفقرة ب من المادة ٢ من القرار . من هنا يبدو ان انهاء حالة الحرب بين الدول العربية واسرائيل على اساس القرار ٢٤٢ ومهما توسعت الاطراف في تفسير مواده ، سوف يؤدي دوليا الى اخراج قضية فلسطين من نطاق العلاقات العربية ـ الدولية كما جرى اخراجها من جدول أعمال الامم المتحدة عام ١٩٥٠(٣). فانهـــاء حالة الحرب يفترض توصل الاطراف الى اتفاق حول حل اسباب النزاع سواء كانت هذه الاسباب ذات صفة سياسية او اقتصادية او اقليمية ، كما يفترض ان هـــذه الاسباب قد زالت قانونيا وسقطت عنها صفة الشرعية ، وهذا ما سنحاول اثباته في مجرى البحث بعد ان تتوضح امامنا الاثار القانونية والسياسية لانهاء حالة الحرب بشكل عام اولا وبشكل خاص على القضية الفلسطينية بعد ذلك .

المعنى العام لانهاء حالة الحرب

انهاء حالة الحرب بمفهوم القانون الدولي هو التمهيد القانوني لاحلال حالة السلم بين طرفين متنازعين ، ويتطلب ذلك الكف نهائيا عن العمليات العسكرية والامتناع عن اتخاذ الاجراءات الاستثنائية التي كانت تعتبر شرعية بموجب قانون الحرب . ومن هـــذه الاجراءات على سبيل المثال من الناحية العسكرية استعمال القوة كالتسلح ومرابطة القوات على الحدود ودعم القوات غير النظامية وقوات المقاومة المسلحة والسماح لها بالعمل داخل الاراضي التي يسيطر عليها العدو وتأمين الحماية لها*، ومن الناحية السياسية اللجوء الى المقاطعة الاقتصادية والحصار وعدم السماح لوسائل مواصلات

* هذه ناحية لم يتطرق اليها القانون الدولي الكلاسيكي اذ انها لم تبرز الا في الحروب الحديثة وبالذات منذ الحرب العالمية الثانية ثم أصبحت ظاهرة عسكرية في جميع حروب التحرر الوطني من الاستعمار .

العدو باستعمال الاراضي او الاجواء أو الممرات المائية . وبينما تعتبر الهدنه الاجراءات السياسية مسموحا بها وتكتفي بوضع القيود على الاجراءات العسكريه فقط فان انهاء حاله الحرب يتطلب الامتناع كليا عن جميع الاجراءات العسكرية والسياسيه التي كان مسموحا بها اثناء الحرب . ولما كانت الهدنه مقتصرة على الناحية العسكرية من النزاع فان توقيعها لا يمس بالحقوق السياسية للاطراف . اما انهاء حالة الحرب فيمس هذه الحقوق مباشرة وتصبح بموجبه من القضايا التي يتفق الاطراف على حلها بموجب أحكام القانون الدولي وميثاق الامم المتحدة . فانهاء حالة الحرب يلزم الاطراف بعدم اللجوء الى القوة أو الى أي اجراء من شانه تجديد حالة الحرب ، كما يتطلب اقراره انشاء علاقات طبيعية أساسها احترام الحدود وتحكيم مبدأ سيادة كل دولة على أراضيها .

ويضع القانون الدولي أهمية قصوى على توقيت ومضمون انهاء حالة الحرب وعلاقته بالهدنة ووقف الاشتباكات العسكرية . ويرى اللورد ماكنير ان الهدنة الدائمة (العامة) هي بمثابة انهاء حالة الحرب بشكل عام ولكن ليس بالمفهوم القانوني حيث تظل الحرب قائمة قانونيا ، ويورد ستون بعض الحالات في التاريخ انتهت الحرب فيها بواسطة وقف الاشتباكات وبدون توقيع معاهدة صلح(٤) (السويد وبولندا عام ١٧١٦ ، فرنسا واسبانيا ١٧٢٠ ، روسيا وبروسيا ١٨٠١) .

أما أوبنهايم — وهو من أهم مراجع القانون الدولي بهذا الصدد — فيذكر أن للقانون الدولي موقفين بالنسبة لعلاقة وقف الاشتباكات بانهاء حالة الحرب ، الموقف الاول يعتبر انه اذا تم انهاء حالة الحرب لمجرد توقف الاشتباكات العسكرية فانه يحق لاي طرف ضم أراضي طرف آخر بحجة ان هذا الطرف أسقط حقه عنها بموافقته على ايقاف العمليات العسكرية ، والموقف الثاني يعتبر أن انهاء حالة الحرب لمجرد ايقاف العمليات العسكرية لا يسقط حق أي طرف في الاقاليم التي سقطت تحت سيطرة قوات الطرف الآخر واصبحت تعتبر أراض محتلة ، فهذه الاقاليم لا يمكن اقرار الوضع النهائي لها الا بواسطة معاهدة صلح(٥). ان الموقف الثاني يعني أن الوضع الاقليمي للنزاع لا يكتسب صفة الشرعية الا بعد توقيع معاهدة الصلح التي يكون انهاء حالة الحرب أساسا لها وحتى المفاوضات التي تسبق التوصل الى المعاهدة لا يعتبر الدخول فيها اعلانا مسبقا بقواعدها أو شروطها ، فالمفاوضات تقع عادة في فترات الهدنة وفي حالة تكافؤ الاطراف عسكريا تحمل المفاوضات امكانيات أفضل للتوصل الى معاهدة صلح ، وتصبح الهدنة في أثنائها فترة زمنية لتجربة قدرة ميزان القوى العسكري على الاستمرار ، دون الاخلال بميزان الحقوق السياسية للاطراف عند توقيع الهدنة .

وهنالك في القانون الدولي عدة طرق للتوصل الى انهاء حالة الحرب (ماكنير) :

أ — **الاستسلام** : بمعنى الاخضاع حيث يفترض الغاء الوجود القانوني للطرف الذي يتم اخضاعه أي الغاء سيادة حكومة هذا الطرف عن أراضيه وضم هذه الاراضي الى الدولة المنتصرة بعد أن يتم القضاء على جيش الدولة المهزومة ، وهذه حالة نادرة في التاريخ الحديث ويذكر ماكنير أمثلة عليها ما حدث عندما تم اخضاع الحبشة (١٩٣٦) من قبل ايطاليا واخضاع المانيا النازية من قبل الحلفاء (١٩٤٥) .

٢ — **الامتناع عن العمليات العسكرية** : في حالة امتناع الاطراف عن العمليات العسكرية ودخولها مباشرة في اقامة علاقات سلمية دون توقيع معاهدة صلح ، أي الاكتفاء باعلان انهاء حالة الحرب من طرف واحد واعلان الطرف الآخر بقبوله الوضع الجديد .

٣ ــ **عقد معاهدة صلح** : تتوصل الاطراف بعد ايقاف العمليات العسكرية الى عقد معاهدة صلح وتتضمن هذه المعاهدة شروط تنفيذها .

٤ ــ **الوساطة الدولية** : وهي الحالة التي تستطيع فيها أطراف ثالثة أو الامم المتحدة ومجلس الامن القيام بعمل دولي جماعي بموجب المادتين ٣٩ و ٥١ من ميثاق الامم المتحدة(٦) .

يعتبر (ماكنير) معاهدة الصلح الشكل القانوني الافضل لانهاء حالة الحرب . أما الوساطة الدولية فيعتبرها (ستون) وسيلة حديثة وما زالت تحت التجربة . فالمحاولات التي قامت بها الامم المتحدة في الكونغو وقبرص وفلسطين ما زالت بحاجة الى الكثير من الدراسة للحكم على مدى نجاحها بحيث يمكن اعتبار معاهدة الصلح سواء تمت عن طريق الاطراف مباشرة أو عن طريق الوساطة الدولية هي الوسيلة الوحيدة للتوصل الى انهاء حالة الحرب بسبب الطبيعة السياسية والاعتبارات الاستراتيجية الدولية التي تحيط بالنزاعات المسلحة في عالم اليوم .

معاهدة الصلح

لما كانت معاهدة الصلح تعتبر حلا نهائيا للنزاع ونهاية للحرب بين الطرفين المتنازعين ، فان من أهم ما تتضمنه اية معاهدة هو الاتفاق على الحدود الجديدة للطرفين ، ويسبق تحديد خطوط هذه الحدود سلسلة من الاتفاقيات تتضمن مناطق منزوعة من السلاح ونقاط مراقبة ولجان مراقبة وتنفيذ حيادية ، ويشير (أوبنهايم) الى امكانية احتفاظ طرف من الاطراف ببعض المناطق المحتلة تحت سيطرته ريثما يتم توقيع معاهدة الصلح ، وذلك لاستعمال هذه المناطق للضغط على الطرف الآخر واجباره على قبول شروط العدو . كما يمكن الاحتفاظ بهذه المناطق كضمانة لتنفيذ المعاهدة(٧) . ويعتقد (ستون) ان الطرف الذي يتمتع بمواقع عسكرية أفضل عند توقيع الهدنة يمكنه أن يضع شروطا لمصلحته تكون بمثابة استسلام بالنسبة للطرف الآخر ، ولكنه يعارض هذه الوسيلة باعتبار الاستسلام يشترط تحطيم المؤسسة العسكرية والاقتصادية للطرف الآخر ، وهذا ما لا يمكن حدوثه في عالم اليوم حيث يعتبر حدوثه بموجب القانون الدولي المتطور جريمة حرب لن يسمح المجتمع الدولي بها ، فاذا نشأ عن أي نزاع حديث ضم او احتلال فهو مؤقت ويجب ان ينتهي مع نهاية حالة الحرب أي مع توقيع معاهدة الصلح . ولهذا فان (ستون) يعتبر المعاهدة وثيقة معقدة تتطرق الى كل المشاكل الدقيقة التي تؤثر على ماضي ومستقبل العلاقة بين الاطراف ، وتضم بجانب المواد الخاصة مواد عامة مثل وقف القتال والامتناع عن العمليات العدوانية والانسحاب من المناطق المحتلة واعادة الاملاك والتعويض ومنح الضمانات المتبادلة للحدود الجديدة التي يوافق عليها الاطراف(٨) . ويمكن لمعاهدات الصلح أن تكون مفروضة اذا كان هنالك طرف منتصر انتصارا مطلقا وهي حالة نادرة الوقوع في العصر الحديث ، أو أن تكون تفاوضية يصل اليها الاطراف عن طريق المفاوضات المباشرة أو عن طريق الوساطة الدولية للامم المتحدة ومجلس الامن والاطراف الثالثة .

وتظل مسالة الحدود هي عقدة كل معاهدة صلح ، خاصة اذا كانت اسباب الحرب اقليمية وحاصلة بسبب نزاع حول السيادة على اقليم ، فمن خلال معاهدة الصلح يمكن التوصل الى انهاء الحرب على أساس اقليمي لم يكن قائما قبل الحرب .

انهاء حالة الحرب والقضية الفلسطينية

موضوع السيادة على فلسطين : يقول ماليسون انه لغاية الآن اثبتت عملية تطبيق القانون الدولي وقواعد الاتفاقيات الدولية على النزاع العربي ــ الاسرائيلي فشلها .

كما ان الامم المتحدة كأداة لتنفيذ رغبة المجتمع الدولي أثبتت فشلها أيضا(٩). ان كلام ماليسون قد ثبتت صحته ، فالقضية الفلسطينية تعتبر « حالة قانونية » لا سابقة تاريخية لها . والنزاع العربي ــ الاسرائيلي يشكل حالة خاصة يجب عند معالجتها بمنطق القانون الدولي مراعاة الظروف التاريخية التي مر بها النزاع ، فاسرائيل « كدولة » تعتبر ظاهرة سياسية لا تنطبق عليها أحكام القانون الدولي ، فهي كيان سياسي لا يوجد له أي امتداد تاريخي مرتبط بباقي كيانات المنطقة . واذا كان هنالك ضرورة قانونية لتصنيفها سياسيا لاغراض البحث فانه يمكن اعتبارها مرحلة متقدمة من الاستعمار الاستيطاني الذي يعتمد في بقائه واستمراره على الدعم البشري والمالي والعسكري الخارجي (موجات الهجرة وامدادات المال والسلاح)(١٠). ولما كان الاستيطان بمفهومه الاستعماري هو الاستيلاء غير الشرعي على أراضي الغير ، واقامة مجتمع غير قابل للنمو بالطرق الشرعية عليها ، فان موضوع الارض التي يقوم عليها هذا المجتمع يظل معلقا بنتيجة الصراع مع الاهالي الاصليين ، وبالتالي فان مسألة السيادة على الارض التي تقوم عليها فلسطين ستظل معلقة الى حين حسم النزاع نهائيا بينها وبين الشعب الفلسطيني الذي يعتبر الحكومة الاسرائيلية حكومة تمارس سلطة على أرض لا تملكها وعلى شعب لا تمثله ، ومن هذه الزاوية يعتبر دخول الدول العربية لحسم النزاع حول السيادة على فلسطين عام ١٩٤٨ مسألة تتعلق بنوع التحالف القومي بين الشعب الفلسطيني والشعوب العربية . ويرى العنبتاوي ان حالة الحرب تعتبر قائمة في فلسطين منذ عام ١٩٤٧ اي منذ رفضت الدول العربية مشروع التقسيم فقامت الحرب بينها وبين اسرائيل حول من يملك السيادة على فلسطين ، الاكثرية العربية أم الاقلية اليهودية . وعليه فان الحرب بدأت قانونيا في ١٥ مايو ١٩٤٨ اي يوم اعلان سلطة سياسية اسرائيلية في فلسطين(١١)، وعليه فان نقطة الخلاف بين الفلسطينيين واسرائيل هي السيادة على فلسطين ، فاذا اعترفت الدول العربية بهذه السيادة لاسرائيل فمعنى ذلك عمليا الغاء السيادة الفلسطينية . وهكذا يبدو ان انهاء حالة الحرب بين الدول العربية واسرائيل سيكون الخطوة الاولى في عملية الحسم التاريخي لمشكلة السيادة على فلسطين ، بحيث سيعتبر انهاء حالة الحرب اقرارا ضمنيا من الجانب العربي بوجود سيادة سياسية اسرائيلية على اجزاء من فلسطين وانه لمظهر من مظاهر هذه السيادة قبول الدول العربية لمبدأ التعامل مع الكيان الاسرائيلي كدولة تنطبق عليها أحكام القانون الدولي والعلاقات الدولية . ان اقرار مبدأ التعامل بموجب القانون الدولي يعني أكثر من ذلك ، انه يعني ان الدول العربية قد أقرت امكانية حسم موضوع السيادة على فلسطين بالطرق السياسية ودون اللجوء الى القوة ، وتكون قد أقرت بذلك بشرعية السيادة الاسرائيلية على جزء كبير من فلسطين وبالتالي اغلاق باب حق مطالبة أي طرف عربي (أو فلسطيني) بهذا الجزء . وتبقى المسألة المعلقة هي مدى حجم هذا الجزء وماهية الحدود التي سيتم الاعتراف باسرائيل على أساسها .

موضوع الاعتراف باسرائيل : قامت السياسة العربية منذ اعلان بريطانيا وعد بلفور (١٩١٧) وفرض الانتداب البريطاني على فلسطين (١٩٢٢) على أساس عدم الاعتراف لليهود بأي حق لاقامة كيان سياسي على أي جزء من فلسطين ، سواء أطلق على هذا الكيان اسم وطن ديني أو وطن قومي أو دولة اسرائيل . وظلت الدول العربية تواصل عدم الاعتراف بوجود أي مقومات شرعية لدولة اسرائيلية في فلسطين حتى بعد قيام هذه الدولة فعليا عام ١٩٤٨ واعتراف الامم المتحدة بها . وقد اعتمد الموقف العربي على عدة حجج قانونية من اهمها أن اسرائيل قامت على أرض عربية وان حكومة اسرائيل تمثل أقلية يهودية وهي حكومة معادية للاكثرية الفلسطينية التي كانت تعيش

في فلسطين آنذاك، وان قيام اسرائيل واستمرارها يشكل خرقا لمبادىء القانون الدولي وميثاق الامم المتحدة وحتى اعتراف الامم المتحدة باسرائيل يشكل بحد ذاته اختراقا لهذه المبادىء وقد اعتبرت الدول العربية الاعتراف باسرائيل ضمن أي حدود الغاء لحقوق الفلسطينيين القومية والمدنية ضمن هذه الحدود بحيث يشمل هذا الالغاء حقوق الفلسطينيين الذين تم طردهم من فلسطين أو هؤلاء الذين ما زالوا يعيشون فيها .

لقد ظل موقف عدم الاعتراف باسرائيل هو الموقف العربي الاساسي من اسرائيل الى عام ١٩٦٧ (حرب يونيو) حيث جرى تعديل على السياسة الخارجية العربية بهذا الصدد على أساس امكانية القبول بتنفيذ قرار ٢٤٢ بشرط انسحاب اسرائيل من الاراضي التي احتلتها من مصر وسوريا والاردن ، وبشرط عدم المساس بالحقوق القومية للشعب الفلسطيني أي عدم المساس بشرعية استمرار الحرب من أجل تحرير تلك الاجزاء من فلسطين التي لا تشملها مادة الانسحاب كما وردت في القرار المذكور . وما زالت منظمة التحرير الفلسطينية برفضها الاشتراك في أية تسويات قائمة على تنفيذ القرار ٢٤٢ تقيم علاقاتها واستراتيجيتها في العمل السياسي على هذا الاساس . وقد عبر البرنامج السياسي المرحلي لمنظمة التحرير الفلسطينية الذي أقره المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الاخيرة (٨ يونيو ١٩٧٤) عن الموقف الفلسطيني من القرار ٢٤٢ ، فقد نصت النقطة الاولى من البرنامج المرحلي على ان القرار « يطمس الحقوق الوطنية والقومية لشعبنا ويتعامل مع قضية شعبنا كمشكلة لاجئين ، ولذا نرفض التعامل مع هذا القرار وعلى هذا الاساس في أي مستوى من مستويات التعامل العربية والدولية بما في ذلك مؤتمر جنيف »(١٢).

بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ جرى تعديل جديد على الموقف العربي من القرار ٢٤٢ وخاصة فيما يتعلق بمسألة انهاء حالة الحرب والاعتراف باسرائيل ، بحيث أصبحت نظرة الدول العربية الى اسرائيل على انها حتمية تاريخية يترك أمر التكيف معها الى الزمن ، وبرزت حول هذه النظرة تنظيرات مختلفة تراوحت بين التنبؤ بأن اسرائيل قد بدأت تواجه « ساعة العد العكسي » حيث ستبدأ عملية انهيارها تدريجيا كما حدث لجميع الامبراطوريات التي قامت بقوة التوسع العسكري ، وبين توقع قيام انفجار داخلي في المجتمع الاسرائيلي سيسبب اختفاء مفاجئا لدولة اسرائيل نفسها . وعلى أساس هذا المنطق تصبح مسألة الاعتراف باسرائيل جزءا من المناورة السياسية من أجل الاسراع في عملية فقدان الكيان الاسرائيلي لميزة قدرته على التوسع باعتبار هذه القدرة احدى العوامل المشجعة للهجرة والاقامة في اسرائيل . وبغض النظر عن أهمية الحرب النفسية كأداة من أدوات النزاع العربي ـ الاسرائيلي ، الا أن مسألة الاعتراف باسرائيل لا تدخل ضمن هذه الادوات من حيث ضخامة المردود السياسي الذي ستنتجه على مجمل القضايا المعلقة بالنزاع ، وخاصة قضية الحقوق القومية للشعب الفلسطيني . ان انهاء حالة الحرب وما سيؤدي اليه من اعتراف الدول العربية اعترافا رسميا باسرائيل سيؤدي الى الغاء هذه الحقوق ، فاستمرار حالة الحرب كان يضفي على « عدم الاعتراف » باسرائيل صيغة قانونية باعتبار ان الدول العربية كانت في حالة حرب مع طرف لا يحمل صفة الدولة(١٣).

موضوع الحدود : تحتل اسرائيل حاليا جميع مساحة فلسطين المعروفة في عهد الانتداب مضافا اليها مناطق من سوريا ومصر . وينص قرار مجلس الامن ٢٤٢ في جوهره على ان يتم انسحاب اسرائيل من مناطق أو المناطق التي احتلتها في حرب يونيو ١٩٦٧ على أن تصبح الحدود التي ستنسحب اليها هي حدودها الدولية التي ستقوم عليها أسس علاقاتها مع الدول العربية والدول الاخرى . وبينما يبدو الموقف العربي

واضحا من حيث تعريفه للخطوط التي يجب أن تعود القوات الاسرائيلية اليها وهي حدود ما قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ ، يبدو الموقف الاسرائيلي حول هذه الخطوط غامضا وغير محدد ولكنه واضح بالنسبة لعدم العودة في اي حالة من الاحوال الى حدود ما قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ .. وينص قرار مجلس الامن بكل وضوح على أن يتم انهاء حالة الحرب على أساس « حق كل دولة في العيش بسلام وضمن حدود آمنة ومعترف بها وحرة من التهديد وأعمال القوة » . ولما كان المجتمع الدولي (الامم المتحدة) لم يعترف لاسرائيل بأي حدود غير تلك التي اقرها قرار التقسيم لعام ١٩٤٧ وهي حدود أقل بكثير من تلك التي استطاعت اسرائيل الامتداد اليها عام ١٩٤٨ ثم قامت بتوسيعها عام ١٩٥٠ مستغلة عدم مقدرة الجيوش العربية آنذاك حتى على حماية حدود هدنة ١٩٤٩ ، ولما كانت الدول العربية قد رفضت قرار التقسيم ودخلت جيوشها الى فلسطين لمنع قيام كيان اسرائيلي على جزء من فلسطين ولمنع فرض سلطة اسرائيلية على شعبها ، ولضمان حقه في ممارسة تقرير مصيره على أرضه ، فان مشكلة الحدود في النزاع العربي ــ الاسرائيلي هي مثل مسألة السيادة والاعتراف تعتبر في صميم القضية الفلسطينية . وقد مرت هذه المسألة بنفس التطورات والتغيرات التي طرأت على مواقف الدول العربية من مسألتي السيادة والاعتراف ، ولكن مسألة الحدود اتخذت داخل النزاع شكلا أكثر ارتباطا بالحياة المادية والاوضاع الاجتماعية التي آلت اليها أحوال الشعب الفلسطيني والشعوب العربية من جراء موجات التوسع الجغرافي للكيان الاسرائيلي ، فاذا اعتبرنا حدود مشروع التقسيم هي الحدود الوحيدة التي يتوجب على أي طرف عربي أن يوافق عليها ويعترف بها كحدود لدولة اسرائيلية في فلسطين يمكن أن يتم انهاء حالة الحرب على أساسها فان أي حدود أخرى غيرها لا يمكن أن تكون بموجب القانون الدولي حدودا « آمنة وحرة من التهديد » وهذه الحدود تشمل حسب الوضع القائم حاليا المناطق التالية(١٤):

١ ــ المناطق التي استولت عليها اسرائيل بالقوة من الاراضي الفلسطينية التي كانت مخصصة لقيام دولة عربية بموجب قرار التقسيم رقم ١٨١ بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ وحجم هذه الاراضي يساوي نصف مساحة الدولة العربية المقترحة وقد قامت اسرائيل باحتلالها اثناء القتال الذي دار في فلسطين في الفترة ما بين ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ ومن ثم قامت بضمها .

٢ ــ مدينة القدس والتي بموجب قرار التقسيم نفسه كان يجب أن تقوم عليها ادارة دولية باشراف الامم المتحدة . فقد استولت اسرائيل على القدس الجديدة عام ١٩٤٨ وأعلنتها عاصمة لها واستولت على البلدة القديمة وضواحيها العربية عام ١٩٦٧ وقامت بضمها نهائيا .

٣ ــ الضفة الغربية من الاردن ، شبه جزيرة سيناء ، مرتفعات الجولان وهي مناطق تشكل أجزاء من الاردن ومصر وسوريا وقد احتلتها اسرائيل في يونيو ١٩٦٧ .

٤ ــ قطاع غزة الذي استولت عليه اسرائيل في يونيو ١٩٦٧ .

لقد قامت عدة محاولات دولية موجهة للدول العربية لاستبدال حالة الهدنة بحالة سلم دائم على أساس الاعتراف « بحدود دولة اسرائيل » وانهاء حالة الحرب على أساس هذه الحدود ، وكان من أهم هذه المحاولات مفاوضات لوزان التي أجرتها لجنة التوفيق الدولية عام ١٩٤٩ بين مصر وسوريا والاردن ولبنان من جهة واسرائيل من جهة اخرى ، وقد قبلت الدول العربية آنذاك خارطة مشروع تقسيم فلسطين أساسا لهذه المفاوضات ، ولكن اصرار اسرائيل على عدم الانسحاب من المناطق التي استولت عليها وراء هذه الحدود ورفضها تنفيذ قرار الامم المتحدة الخاص بعودة الفلسطينيين

الى أماكن سكنهم التي تركوها اثناء القتال جعلا مهمة اللجنة مستحيلة . واضطرت اللجنة فيما بعد الى اسقاط مسألة الحدود عن جدول أعمالها واقتصرت اتصالاتها على محاولة اقناع الاطراف باجراء تسوية خاصة بتعويضات اللاجئين عن أملاكهم . ولكن الدول العربية رفضت الدخول في أية تسوية نهائية لمشكلة اللاجئين قبل ايجاد تسوية سياسية شاملة مع اسرائيل تكون مسألة الحدود النهائية لاسرائيل أساسا لها . وقد اعتمدت الدول العربية في موقفها هذا على احكام القانون الدولي وقرارات الامم المتحدة ومواد اتفاقيات الهدنة التي نصت على انه « لا يجوز أن يفسر خط الهدنة بأي معنى من المعاني بانه حد سياسي او اقليمي ... وانه لا يمكن بشكل من الاشكال لاي من بنود هذا الاتفاق ان يمس حقوق أي من الفريقين او مطالبه او مواقفه في التسوية السلمية النهائية لقضية فلسطين »(١٥). ولكن اسرائيل كانت تعتبر اتفاقيات الهدنة بينها وبين الدول العربية كافية لانهاء حالة الحرب . وقد اقامت سياستها الداخلية تجاه أملاك الفلسطينيين وتجاه حقوقهم القومية والمدنية على هذا الاساس ، كما اقامت سياستها الخارجية على هذا الاساس ، فقد قدمت شكوى الى مجلس الامن عام ١٩٥٠ بسبب اتخاذ مصر اجراءات خاصة في وجه عبور السفن الاسرائيلية لقناة السويس(١٦).

لقد اقتصرت مشكلة الحدود بين الدول العربية واسرائيل لغاية ٥ يونيو ١٩٦٧ على حدود فلسطين الجغرافية والتاريخية كما كانت في عهد الانتداب البريطاني وكانت حدود التقسيم هي أساس لاي مفاوضات دولية مقترحة لانهاء حالة الحرب مع اسرائيل ، الا انه بعد حرب يونيو ١٩٦٧ اكتسبت مشكلة الحدود ابعادا جديدة عندما استولت اسرائيل على أراضي دول عربية أطراف في النزاع . وقد اعتمد قرار ٢٤٢ خطوط وقف القتال بعد ١٠ يونيو ١٩٦٧ أساسا للمفاوضات حول الحدود ، أي ان القرار منح اسرائيل مركزا تفاوضيا قويا لا يعكس الحجم الذي وضعها فيه قرار مشروع التقسيم ، كما انه سلب من الدول العربية ورقة امكانية التفاوض دون المساس بالوضع القانوني الاقليمي الذي كان قائما في فلسطين عـــام ١٩٤٨ او بالحقوق الشرعيـــة للشعب الفلسطيني . فسياسة المفاوضات العربية قبل الخامس من يونيو ١٩٦٧ كانت قائمة على أساس تعيين حدود اسرائيل بشرط عودتها الى حدود التقسيم ووجوب تنفيذها لقرارات الامم المتحدة الخاصة بحقوق الشعب الفلسطيني . اما الوضع الاقليمي كما هو قائم اليوم بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ فانه بالنسبة للدول العربية ليس أفضل بكثير من الوضع بعد الخامس من يونيو ١٩٦٧ ولا يختلف عنه الا بالقدر الذي يمكن ان يستفاد منه بالمقومات العسكرية والسياسية التي وفرتها المبادرة العسكرية العربية أثناء حرب اكتوبر ١٩٧٣ ومن هذه المقومات زوال ظاهرة التفوق العسكري الاسرائيلي وفعالية عمليات المقاومة الفلسطينية في الداخل .

موضوع حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير : لقد غطى القسم السابق من البحث آثار انهاء حالة الحرب على نواحـــي السيادة والاعتراف والحـــدود المتعلقة بالقضية الفلسطينية ومدى ارتباط هذه النواحي بمسالة حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ، وهو الحق الذي يشمل ممارسة السيادة القومية على ارضه واختيار الحكومة والنظام ونوع الحكومة وتشكيل المؤسسات السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية اللازمة لتقدم أي مجتمع وضمان تطوره واستمراره . ان اقرار انهاء حالة الحرب سيؤدي قانونيا الى قبول سيادة اسرائيل على جزء من فلسطين بحيث تصبح مسألة ممارسة الشعب الفلسطيني لحق تقرير المصير على ذلك الجزء مسألة خاضعة لسيادة وقوانين الدولة الاسرائيلية ، اذ انه ليس باستطاعة الصياغات القانونية مهما بلغت براعة السياسيين في التلاعب لغويا في تفسيراتها ان تحقق الانسجام بين نقيضين

هما سيادة اسرائيل وحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره . وقد عملت الدول العربية منذ صدور وعد بلفور (١٩١٧) على ربط القضية الفلسطينية بالمسألة القومية العربية والتحرر من الاستعمار . وكان هذا الترابط من أهم الاسباب التي دخلت الدول العربية من أجلها حروبا مع اسرائيل وتعرضت شعوبها وأراضيها للاحتلال والعدوان اثناءها . ان انهاء حالة الحرب سوف يؤدي تاريخيا الى اضعاف الترابط بين حقوق الشعب الفلسطيني ومسألة الوحدة العربية والتحرر من الاستعمار او السيطرة الاجنبية بما فيه الاستعمار الاستيطاني في فلسطين . وسوف يؤدي انهاء حالة الحرب مع اسرائيل الى تغير في مفهوم الدول العربية لحقوق الشعب الفلسطيني بحيث يصبح حجم هذه الحقوق (المساحة التي يمكن ممارستها عليها) هو الاساس وليس نوعها (الترابط بينها وبين قضية الوحدة والتحرر من الاستعمار) . فمنذ دخول الدول العربية في مفاوضات مع اسرائيل عام ١٩٤٩ على أساس الحدود التي أقرها مشروع التقسيم اصبح واضحا ان ممارسة الشعب الفلسطيني لحق تقرير المصير قد تجزأت اقليميا ، فبالنسبة للفلسطينيين الذين دفعهم قيام الدوله الاسرائيلية الى خارج حدود تلك الدولة أصبحت مطالبة الدول العربية بعودتهم الى أراضيهم أو تعويضهم عنها هي التفسير القانوني المبدئي لحق تقرير مصيرهم .

أما ذلك الجزء من الفلسطينيين الذين استمروا في العيش داخل اسرائيل فقد أصبحت مشاكلهم تنحصر في المطالبة بحقوقهم المدنية والانسانية . وبعد حرب اكتوبر والمد القومي الذي أحدثته على صعيد العالم العربي عادت مسألة الترابط بين حقوق الشعب الفلسطيني والوحدة العربية تحتل مكانها السابق في تحريك النزاع وبرزت بشدة قضية استعادة الشعب الفلسطيني لحقه في تقرير المصير . ولكن ميزان القوة بين الدول العربية واسرائيل وميزان القوة بين الكتل الدولية قد فرض على الدول العربية تحديد الرقعة الجغرافية التي يمكن للشعب الفلسطيني ممارسة حقوقه عليها دون الاخلال بميزان القوى المحلية والدولية . وحددت تلك الرقعة بتلك الاجزاء من فلسطين التي سيتم عنها الانسحاب الاسرائيلي بموجب المادة الاولى من قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ (مبدأ الانسحاب) . ويجد بعض كبار القانونيين العرب في انهاء حالة الحرب بين الدول العربية واسرائيل حسب الشروط الواردة في القرار ٢٤٢ الغاء لحق الشعب الفلسطيني في العودة الى المناطق التي احتلتها اسرائيل عام ١٩٤٨ فبعد أن يتم الانسحاب الاسرائيلي مقابل الاعتراف بالحدود الجديدة لاسرائيل واعتراف الدول العربية بها كدولة ذات سيادة في المنطقة سيتم خلق وضع سياسي جديد في المنطقة وهو وضع يحظى على موافقة وضمانات الدول الكبرى والامم المتحدة والدول العربية وتصبح مسألة تقرير الشعب الفلسطيني لمصيره مسألة خارج اطار الاراضي التي تحت سيادة اسرائيل ، وتصبح من الامور الهامشية التي يدخل بحثها ضمن المسائل التي يمكن الاتفاق عليها بعد انهاء حالة الحرب وهي أمور يتم ادراجها عادة في البروتوكولات الاضافية الملحقة بمعاهدات الصلح(١٧). فاذا تم انهاء حالة الحرب بموجب شروط القرار رقم ٢٤٢ فان حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره سيتحول في الامم المتحدة الى مسألة يتفق الاطراف على حلها بموجب أحكام قانون السلم والعلاقات الطيبة التي يقرها القانون الدولي وميثاق الامم المتحدة تماما مثل قضايا الاقليات وتنظيم الهجرة ومعاملة الاجانب . أن هذا الاتجاه في معالجة مسألة تقرير الشعب الفلسطيني لمصيره يبدو واضحا في القرار ٢٤٢ حيث لا يأتي ذكر الفلسطينيين في أي مادة من مواده سوى تلك المادة المتعلقة بالحاجة الى « تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين » وهي مادة يضعها القرار على درجة اقل أهمية من « ضمان حرية الملاحة » وأكثر بدرجة من ضرورة « اقامة مناطق مجردة من السلاح » (راجع نص القرار) .

موضوع المقاومة الفلسطينية المسلحة : يعتبر عدم اللجوء الى القوة او التهديد باستعمالها من أهم القواعد التطبيقية لتنفيذ مبدأ انهاء حالة الحرب . وتشمل هذه القاعدة ايقاف جميع العمليات والنشاطات العسكرية التي تقوم بها القوات النظامية وغير النظامية ــ أي العصابات المسلحة وقوات المقاومة سواء كانت جماعات مسلحة أو أفرادا مسلحين ــ . ولما كانت العمليات العسكرية التي تقوم بها القوات النظامية خاضعة لقرارات السلطة السياسية في الدول المعنية فان الاشارة في معاهدات انهاء الحرب الى ايقاف عمليات القوات غير النظامية كشرط من شروط تنفيذ المعاهدة ، يعني الزام الدول الموقعة على المعاهدة باتخاذ اجراءات رادعة ومانعة لعمليات هذه القوات وللتنظيمات التي تشرف على تخطيطها وتنفيذها . فبموجب انهاء حالة الحرب يعتبر كل طرف مسؤول عن عمليات القوات غير النظامية العاملة تحت سلطته او من أراضيه كما يعتبر دعم هذه القوات أو تقديم التسهيلات لها عملا غير قانوني ويتعارض مع مبدأ احترام سيادة الدول التي توجه هذه القوات عملياتها اليها . وحتى اتفاقيات الهدنة بين الدول العربية واسرائيل لعام ١٩٤٩ ــ والتي لا تشكل بموجب القانون الدولي انهاء لحالة الحرب ــ تضمنت على نصوص واضحة قائمة على مبدأ وضع حد للنشاطات العسكرية للقوات غير النظامية ، فقد نصت الفقرة الثانية من المادة الثالثة من هذه الاتفاقيات على انه « لا يجوز لاي فئة من القوات البرية او البحرية او الجوية بما في ذلك القوات غير النظامية أن ترتكب اي عمل حربي او عدائي ضد قوات الفريق الآخر ، ولا يجوز لها لاي غرض كان أن تتخطى أو تعبر خط الهدنة » .

ان التزامات الدول العربية بشأن حظر عمليات القوات غير النظامية بعد انهاء حالة الحرب ستفوق التزاماتها بموجب الهدنة ، فانهاء حالة الحــرب بموجب القرار ٢٤٢ تصف الحدود بين الدول العربية واسرائيل بأنها « حدود آمنة ومعترف بها وحرة من التهديد واعمال القوة » وقد سبق لمجلس الامن ان حدد نوع الشروط والالتزامات التي يجب ان تتقيد بها الدول العربية واسرائيل تجاه مثل هذه الحدود وذلك في القرار رقم ٥٦ بتاريخ ١٩ اغسطس ١٩٤٨ المتعلق بتعليمات المجلس بشأن اول هدنة بين الدول العربية واسرائيل ، فقد نصت هذه التعليمات على ما يلي(١٨):

١ ــ كل طرف مسؤول عن اعمال القوات النظامية وغــير النظامية العاملة تحت سلطته او في اراض تحت سيطرته .

٢ ــ كل طرف ملتزم باستكمال كل ما لديه من وسائل لمنع اعمال انتهاك الهدنة من قبل اشخاص او جماعات تخضع لسلطته او قائمة على ارض تحت سيطرته .

٣ ــ كل طرف ملتزم بالاسراع في المحاكمة ، وفي حالة الادانة بمعاقبة اي او جميع الاشخاص الذين يقعون تحت سلطته ولهم علاقة بخرق الهدنة .

ان الوضع الذي ستستقر عليه الحدود العربية ــ الاسرائيلية بعــد انهاء حالــة الحرب سيكون اكثر مناعة واصعب اختراقا على المقاومة الفلسطينية المسلحة مــن الوضع الذي تقره الهدنة ، « فحدود السلم » سوف تشمل بجانب التعهدات الخاصة بالناحية العسكرية تعهدات سياسية تتعلق بتبادل المنافع الاقتصادية الناتجة عن حرية تنقل الاشخاص والسلع والاموال عبر الحدود وهي منافع ناتجة عن التطور الطبيعي الذي ستمليه العلاقات السلمية بين الدول المعنية بحيث ستتجه سياسة هذه الــدول الى اتخاذ الاجراءات الكفيلة بحماية هذه المنافع . وقد حرصت اسرائيل بعد موافقتها على وقف اطلاق النار بموجب القرار ٣٣٨ (٢٢ اكتوبر ١٩٧٣) على أن تتضمن جميع الاتفاقيات الممهدة لانهاء حالة الحرب بينها وبين الدول العربية على مواد خاصة بمنع

اي طرف ثالث في النزاع (المقاومة الفلسطينية) من اختراق « حدودها » ، فلو اخذنا مثلا التصريحات والبيانات التي صدرت عن اسرائيل والولايات المتحدة بعد توقيع اتفاق فصل القوات على الجبهة السورية او بعد زيارة الرئيس نيكسون لاسرائيل نجد ان هذه البيانات اكدت بشكل ملحوظ على حماية حدود اسرائيل من العمليات العسكرية لقوات المقاومة الفلسطينية (وان لم تذكر بالاسم) فبعد يوم من توقيع اتفاق فصل القوات بين سوريا واسرائيل أعلنت الحكومة الاسرائيلية انها تلقت مذكرة من حكومة الولايات المتحدة تؤكد فيها « عدم اعتبارها للاعمال التي تقوم بها اسرائيل ضد الفدائيين العرب خرقا للاتفاق »(١٩). أما البيان الامريكي — الاسرائيلي المشترك الذي صدر على اثر المحادثات بين الحكومة الاسرائيلية والرئيس نيكسون فقد كان اكثر وضوحا حول هذه النقطة فقد نص ، انه « من واجب كل دولة أن تمتنع عن تشجيع وتنظيم قوات غير نظامية او جماعات مسلحة من ضمنها مرتزقة ، بهدف التسلل الى اراضي دول اخرى . وان الطرفين يدينان ايضا اعمال العنف والرعب التي تؤدي الى وفاة ابرياء »(٢٠). ان هذه الصياغة عندما تتحول الى صياغة قانونية كتلك المستعملة في الاتفاقيات والمعاهدات بين الدول ستعني ان جميع نشاطات المقاومة المسلحة ستعتبر خرقا وانتهاكا لما سيتم الاتفاق عليه ضمن حالة انهاء الحرب، لهذا فان اسرائيل حريصة على ان تتعهد الدول العربية بالعمل على حظر كل نشاط للمقاومة الفلسطينية ، اي ان اسرائيل ستطلب من الدول العربية معاملة المقاومة الفلسطينية بنفس الطريقة التي تعاملها هي بها ، او بنفس الطريقة التي تعامل بها الدول العربية اي جماعة من « العصابات المسلحة » التي تعتبرها الدول في الاحوال العادية خطرا على مواطنيها وتهديدا لأمنها وسيادتها .

خلاصة

اذا اردنا البقاء في اطار ما هو معقول قانونيا في النزاع العربي — الاسرائيلي فانه لا مناص من الاستنتاج بان انهاء حالة الحرب بين الدول العربية واسرائيل لا يمكن ان يتم الا عن طريق معاهدة صلح ، تكون تكريسا لميزان الخسائر والارباح في الحروب الاربع التي وقعت بين الطرفين خلال ربع قرن . وسوف تتضمن المعاهدة وثائق موقعة تحدد التزامات الدول العربية تجاه سيادة اسرائيل وحدودها الجديدة ، وسوف تستمد قوتها الالزامية من ارادة الدول الموقعة عليها بالاضافة الى الضغوط الدولية للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وللرغبة المعنوية للمجتمع الدولي ممثلا بالامم المتحدة(٢١).
ان مؤتمر جنيف للشرق الأوسط القائم على اساس القرار ٢٤٢ يهدف في النهاية الى عقد مثل هذه المعاهدة على ان تشمل قواعدها وبنودها مستقبل القضية الفلسطينية . سواء اشترك طرف فلسطيني في المؤتمر او لم يشترك ، فاذا اشترك فسوف يصبح طرفا قانونيا في المعاهدة تنطبق عليه احكامها وبنودها واذا لم يشترك يصبح طرفا خارجا على المعاهدة ويتوجب على باقي الاطراف تحديد علاقاتها معه بما تقتضيه شروط انهاء حالة الحرب ، وسوف تنطبق عليه شروط المعاهدة بفعل قوة القانون وبالادوات الضاغطة المتوفرة لدى الدول من اجل تطبيق هذه الشروط وفق تفسيراتها ومصالحها.
ويوجد حاليا ثلاثة اتجاهات دولية لانهاء حالة الحرب بين الدول العربية واسرائيل :

الاتجاه الاول : ايجاد صيغة قانونية لمعاهدة صلح على اساس مبادىء وشروط القرار ٢٤٢ واعتبار القضية الفلسطينية « مشكلة لاجئين يتوجب على الاطراف ايجاد تسوية عادلة لها » .

الاتجاه الثاني : اشراك منظمة التحرير الفلسطينية طرفا في المعاهدة باعتبار الشعب الفلسطيني طرفا في النزاع وباعتبار قضية فلسطين السبب الرئيسي للحرب ،

ويقترح اصحاب هذا الاتجاه اجراء تعديل على القرار ٢٤٢ يعكس الوزن الذي تحتله المقاومة الفلسطينية المسلحة في النزاع ، ولا يستبعد ان يؤدي هذا الاتجاه الى اجراء المفاوضات ضمن اطار اوسع من اطار قرار ٢٤٢ بحيث يضم الاطار الجديد جميع قرارات الامم المتحدة ومجلس الامن الخاصة بالشعب الفلسطيني والقضية الفلسطينية منذ ١٩٤٧ (٢٣).

الاتجاه الثالث : ان يتم التوصل الى المعاهدة تدريجيا بحيث تبدأ اسرائيل بالانسحاب من المناطق العربية التي احتلتها في حرب يونيو ١٩٦٧ مقابل اعتراف الدول العربية بها كدولة يهودية ذات سيادة واستقلال ، ويتبع ذلك قيام دولة فلسطينية على الجزء الفلسطيني من الارض التي سيتم عنها الانسحاب — الضفة الغربية ، القدس الشرقية ، وقطاع غزة — وتكون لهذه الدولة نفس الحقوق في السيادة والاستقلال وعليها نفس التعهدات والالتزامات الخاصة بالدول الموقعة على المعاهدة .

من الواضح ان الاتجاه الاول يضع القضية الفلسطينية عند المفترق الذي وصلت اليه عام ١٩٤٨ ، اما الاتجاه الثاني ففي احسن الاحوال سيكون تكرارا للوضع كما كان عليه قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ واعتبار مسألة اللاجئين الفلسطينيين كقضية سياسية ، اما الاتجاه الثالث فهو أكثر واقعية بالنسبة لما يمكن للقانون الدولي تحقيقه على ضوء ميزان القوى الحالي في المنطقة بين الاطراف بما فيها الطرف الفلسطيني . ولما كان القانون الدولي لا يخلق حالات جديدة ولكنه يحكم في حالات قائمة او يفسرها بالعودة الى عناصرها ومقوماتها فان معاهدة الصلح بين الدول العربية واسرائيل ستكون تكريسا لوضع لم تستطع الاطراف تغييره باستعمال القوة ، لهذا فان المركز العسكري الذي يتمتع به كل طرف عند بدء المفاوضات هو الذي يحدد نوع الشروط التي يمكن لهذا الطرف قبول انهاء حالة الحرب على اساسها ، وتكون المفاوضات حوارا قانونيا يحاول كل طرف من خلاله تخفيض مكاسب الطرف الاخر الى الحد الذي يمكن قبوله دون تعريض المفاوضات للفشل والعودة الى التهديد بالحرب . وتلعب الناحية الاقليمية — المناطق المحتلة — ووجود سكان تحت الاحتلال دورا هاما في عملية مقايضة المكاسب الاقليمية بتعهدات سياسية لم يكن الطرف الاخر ليوافق عليها في حالة تكافؤ القوى العسكرية . ومن هنا يأتي حرص اسرائيل على ابقاء عنصر التفوق العسكري قائما لصالحها على طول الخط وطوال فترة المفاوضات بحيث يتم انهاء حالة الحرب في ظل القوة الاسرائيلية وبحيث تصبح اي مطالب عربية اقليمية (مسألة الانسحاب) أو سياسية (مسألة حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره) رهينة بالارادة الاسرائيلية وحدها ، وربما تلجأ اسرائيل تحت الضغوط الدولية الى الاكتفاء باعلان قبولها بسيادة الدول العربية على بعض المناطق المحتلة دون الانسحاب منها وذلك بحجة وضع النيات العربية موضع التجربة بينما تحتفظ في هذه الاثناء بحق الاستمرار في بناء المستعمرات واقامة المشاريع في تلك المناطق . اما موضوع تنفيذ قرارات الامم المتحدة ومجلس الامن الخاصة بحقوق الشعب الفلسطيني ، فان اسرائيل سترفض ان يكون تنفيذ هذه القرارات شرطا لاقدام الدول العربية على انهاء حالة الحرب معها ، وهنا ستلجأ الاطراف الى الصياغات القانونية المبهمة لتخفيض وزن هذه القرارات باعتبار ان تنفيذها بحذافيرها سيؤدي الى نسف المعادلة السياسية التي تم توزيع السيادات الاقليمية بين الاطراف على اساسها .

مما لا شك فيه ان عملية التراكم التاريخي للاحداث منذ ١٩٤٧ هو الذي جعل القرار ٢٤٢ يبدو اليوم اقرب الصيغ القانونية انطباقا على ميزان القوى في المنطقة ، وهو الذي جعل الظروف التي اوجدتها حرب اكتوبر ١٩٧٣ تبدو للدول العربية افضل

الظروف نسبيا لقبول المفاوضات من أي ظروف سابقة . ان انهاء حالة الحرب على أساس هذه الظروف سوف يؤدي الى توزيع السيادة على فلسطين بين كيان اسرائيلي وكيان فلسطيني وهي حالة قانونية لا تتماشى مع النوايا والدوافع الحقيقية للدول العربية او لاسرائيل او للدولة الفلسطينية ، فالدول العربية ستظل تجد في اسرائيل كيانا متعارضا مع تطلعاتها نحو الوحدة السياسية ، واسرائيل ستجد ان الاعتراف القانوني بها لا قيمة له بالنسبة لحجم التحفظات والمطالب العربية الاقليمية والسياسية، والدولة الفلسطينية ستظل النظرة الفلسطينية لها مرتبطة بما ستحققه بالنسبة الى هدف اقامة دولة فلسطينية ديموقراطية على مجمل اراضي فلسطين . لهذا فان انهاء حالة الحرب دون اعتبار الدوافع الحقيقية التي ادت الى الحرب (الحقوق القومية للشعب الفلسطيني) سيجعل من اي معاهدة سلم مجرد صياغة قانونية دون اي مضمون سياسي . ولو اخذنا من اجل المقارنة اتفاقية انهاء الحرب في فيتنام(٢٢) التي وقعها كل من الولايات المتحدة وجمهورية فيتنام الجنوبية وجمهورية فيتنام الديمقراطية والحكومة المؤقتة لجمهورية فيتنام لوجدنا انها تنص في مقدمتها على « ان الاطراف المشتركة في مؤتمر باريس تهدف الى انهاء الحرب واعادة السلام الى فيتنام على اساس حق الشعب الفيتنامي في تقرير المصير » . ومع ان الفقرة الثالثة من المادة الثالثة من الاتفاقية تنص على ان تتوقف القوات النظامية وغير النظامية التابعة لجميع الاطراف في جنوب فيتنام عن النشاطات الهجومية ، الا أن القاعدة التي جاءت في مقدمة الاتفاقية بالنسبة الى حق تقرير المصير للشعب الفيتنامي تظل هي المقياس الذي يحدد مدى تقيد الاطراف بأحكام الاتفاقية وشروطها . ومع ما تحمله المقارنة بين القضية الفلسطينية والقضية الفيتنامية من فروق واختلافات سواء من ناحية اسباب النزاع او من ناحية مواقف الاطراف الا ان ما ينطبق على نتائج انهاء حالة الحرب يظل في القضيتين واحدا وهو ان اي سلام غير قائم على مراعاة الدوافع التي ادت الى اللجوء للقوة سيظل سلاما لا يمثل الارادة الحقيقية للقوى المحركة للنزاع وسيكون سلام دول وحكومات لا سلام شعوب ومجتمعات . ان الاستنتاج الاهم لهذه الدراسة هو التالي : ان انهاء حالة الحرب على اساس القرار ٢٤٢ وتحت ظروف التوسع والاحتلال الاسرائيلي يعني انهاء القضية الفلسطينية قانونيا على الاقل في هذه المرحلة من مراحل النزاع ولذلك رفضت المقاومة الفلسطينية التحرك السياسي على اساس هذا القرار .

---

١ — العرض الكامل للقرار في « **قرارات الامم المتحدة حول فلسطين ١٩٤٧ — ١٩٧٢** » مؤسسة الدراسات الفلسطينية — بيروت ١٩٧٣ ص ١٢٢ .

٢ — نصه القرار في « **السياسة الدولية** » العدد ٣٥ يناير ١٩٧٤ ص ٢٠١ .

٣ — راجع دراسة للدكتور جورج طعمه « كيف طويت قضية فلسطين في جدول اعمال الامم المتحدة » في اعداد « **النهار** » ١٣ و ١٤ و ١٥ يونيو ١٩٧٤ .

٤ — انظر Lord McNair A.D. and A.D. Watts «*The Legal Effects of War*» Cambridge 1966, p. 13 - 15. Stone Juluis, «*Legal Controls of International Conflicts*», Sydney 1959, p. 39 - 51.

٥ — انظر L. Oppenheim, «*International Law*», Vol II, Edited by H. Lauterbach 5th Edition 1951, p. 599.

٦ — تنص المادة ٣٩ من الميثاق بان مجلس الامن هو الذي يقرر حالات تهديد السلام او الاخلال به ما يقرر حالات العدوان ويقوم بوضع الخطوات اللازمة للمحافظة على السلم والامن العالمي . وتنص المادة ٥١ على ان المجلس يستطيع اتخاذ الخطوات اللازمة للحفاظ على السلم والامن العالمي .

٧ — اوبنهايم المرجع السابق .

٨ — ستون المرجع السابق ص ٦٣٨ تابع .

٩ — W.T. and S.V. Mallison, «The Role of International Law in Achieving Justice and Peace in Palestine-Israel».

قدمت هذه الدراسة امام ندوة الحقوقيين الدوليين التي عقدت في جنيف لبحث موضوع « الحقوق الانسانية في فلسطين » في يناير ١٩٧٤ نشرت الدراسة مجلة

Journal of Palestine Studies, Vol III, No. 3, Spring 1974.

١٠ — بخصوص موضوع الاستعمار الاستيطاني راجع كتاب الدكتور جورج جبور حول المقارنة بين طبيعة هذا الاستعمار في جنوب افريقيا وفي الشرق الاوسط .

George Jabbour, «*Settler Colonialism in Southern Africa and the Middle East*», Palestine Research Center, Beirut 1970.

١١ — انظر د. منذر عنبتاوي « **واجبات الاطراف الثالثة في الحروب المعاصرة** » مركز الابحاث الفلسطيني — بيروت ١٩٧١ ص ١١ (**مقدمة** الكتاب) .

١٢ — القرار رقم ١ — البرنامج السياسي المرحلي لمنظمة التحرير الفلسطينية المقر من المجلس الوطني الفلسطيني في دورة انعقاده الثانية عشرة المنعقد في القاهرة من ١ — ١٩٧٤/٦/٨.

١٣ — ندوة القانونيين العرب (الجزائر ٢٢ — ٢٧ يوليو ١٩٦٧) : « **القضية الفلسطينية** » مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت ١٩٦٨ ص ٩٥ .

١٤ — حول هذه النقطة انظر Henry Cattan, «*Palestine, The Arabs and Israel*», London 1969, p. 242.

١٥ — تكررت هذه المادة في جميع نصوص اتفاقيات الهدنة بين الدول العربية المعنية واسرائيل (الفقرة ٢ من المادة الخامسة من اتفاقية الهدنة المصرية — الاسرائيلية لعام ١٩٤٩ والفقرة ٢ من المادة الثانية من اتفاقيات الهدنة اللبنانية — الاسرائيلية) انظر النص الكامل لاتفاقيات الهدنة بين الدول العربية واسرائيل في كتاب « **اتفاقيات الهدنة العربية — الاسرائيلية — نصوص الامم المتحدة** » . منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ١٩٦٨ .

١٦ — ستون — المرجع السابق ص ٦٤٢ .

١٧ — من اصحاب هذا الرأي القانوني والمؤرخ الفلسطيني هنري كتن .

انظر Henry Caatan, «*The Palestinians and the Geneve Conference*».

دراسة قدمها هنري كتن لندوة الحقوقيين الدوليين التي عقدت في جنيف في يناير ١٩٧٤ بدعوة من لجنة « المسيحيين من اجل فلسطين ».

١٨ — قرار الهدنة رقم ٥٦ (١٩٤٨) بتاريخ ١٩ اب (اغسطس) ١٩٤٨ ، انظر **قرارات الامم المتحدة حول فلسطين**، المرجع السابق ص ١٠٦.

١٩ — من حديث لاهارون ياريف (وزير اعلام اسرائيل) في « لا سويس » الصادرة بجنيف ١ يونيو ١٩٧٤ .

٢٠ — النص الكامل للبيان في « **النهار** » ١٩٧٤/٦/١٨ .

٢١ — حول دور الدولتين الكبرتين في اقرار الحل انظر ماليسون المرجع السابق .

٢٢ — **قرارات الامم المتحدة حول فلسطين** — المرجع السابق .

٢٣ — انظر النص الكامل للاتفاقية في *International Legal Materials - Current Documents,* Vol. XII, No. 1, Jan. 1973.
The American Society of International Law, Washington.

الموقف الاميركي من ازمة النفط

ومحاولة تفجير منظمة « الاوبك » من الداخل

سمير كنعاني

يبين مؤشر اتجاه جملة التطورات والاحداث المتعلقة بالمنطقة العربية أن خطاب الرئيس الامريكي جيرالد فورد في حفل افتتاح « المؤتمر العالمي التاسع للطاقة » (٢٣ – ٢٨ أيلول) والذي ضمنه تهديدات بأوخم العواقب وتلويح باستخدام القوة وانذار بقطع المواد الغذائية عن الاقطار العربية المنتجة للنفط ان لم تنصاع للمطالب الامريكية بتخفيض أسعار النفط الخام الخ ... يسجل هذا الخطاب درجة اشد حدة في لعبة عض الاصابع بين الامبريالية الامريكية وحلفائها وتوابعها المحليين وبين قوى حركة التحرر الوطني العربية ، كما انه يسجل مرحلة جديدة في الهجمة الامبريالية الامريكية على حركة التحرر الوطني العربية لسلبها البقية الباقية من منجزات حرب ٦ تشرين على جميع الجبهات وفي شتى الميادين .

ويمكن في هذا الصدد ابداء الملاحظات الاولية التالية :

أولا : ان خطاب الرئيس الامريكي هذا لم يكن مجرد زلة لسان أو شطحة قلم ، بل سبقه ورافقه وتلاه سيل من التصريحات والخطابات لمسؤولين امريكيين عديدين تصب جميعها في الاتجاه ذاته . فالرئيس الامريكي نفسه كان قد عبر عن آراء مماثلة ، وان كانت أخف لهجة ، في خطابه في الجمعية العمومية للامم المتحدة في ١٩٧٤/٩/١٨ ، كذلك تضمن خطاب وزير الخارجية الامريكي في هذه الهيئة الدولية في ١٩٧٤/٩/٢٣ آراء مطابقة لآراء رئيسه ، بل انه استخدم العبارات والكلمات ذاتها في بعض الاحيان ، وقبل هذا وذاك ، أورد وزير المالية الفرنسي جان بيار فوركاد في تصريحاته عن نتائج اجتماعات وزراء مالية الدول الرأسمالية الخمس الكبرى (امريكا واليابان والمانيا الغربية وبريطانيا وفرنسا) في الاسبوع الاول من أيلول الماضي في بلدة سان سور مارن الريفية قرب باريس قوله : « لقد قررنا أن نجعل اقتصادياتنا اقل اعتمادا على الطاقة النفطية التي لها تأثير تعطيلي من شأنه خلق عدم استقرار » . ونسب لزميله وزير المالية الامريكي قوله : « لسنا متفائلين ... نحن مصممون »(١) .

ومن جهة أخرى عقب مساعد وزير الخارجية الامريكي للشؤون الاقتصادية توماس أندروس في ١٩٧٤/٩/٢٤ على خطاب رئيسه التهديدي المشار اليه بقوله: « ان حكومة الرئيس فورد تنوي أن تطلب من الكونغرس سلطة اتخاذ الترتيبات المناسبة لمواجهة اية أزمة نفطية جديدة » ، واضاف انه « لا يوجد نص محدد بما تتضمنه هذه السلطة ، ولكنها يحتمل أن تشمل التقنين وزيادة الاسعار وتخفيض الحد الاقصى لسرعة السيارات وتخفيض التدفئة في البيوت والمكاتب وفرض ضرائب »(٢) .

وفي ١٩٧٤/٩/٢٨ أعلن جون سكالي المندوب الامريكي لدى الامم المتحدة في مؤتمر ضم ٤٠ دولة صناعية ونفطية « ان على الدول المنتجة للنفط أن تتحمل العبء الرئيسي

في مساعدة الدول المتضررة من ارتفاع أسعار النفط » وأعاد سكالي الى الاذهان بهذا الصدد خطابي فورد وكيسنجر(٣).

اما جون سوهيل رئيس وكالة الطاقة الامريكية الاتحادية فكان أصرح هؤلاء جميعا اذ وجه في الاسبوع ذاته تحذيرات مباشرة الى الاقطار المنتجة للنفط زعم فيها ان « سياسة هذه البلدان قد وصلت الى مرحلة باتت تهدد البقاء القومي للولايات المتحدة » واضاف : « هنالك نقطة تفقد عندها الشروط التي يشحن بموجبها النفط طابعها التجاري وتجعل منها مسائل تتعلق بصميم الوجود القومي » وقال : « لا بد من اعادة النظر بما يسمى قواعد اللعبة التي كانت عادلة بالنسبة للمنتجين والمستهلكين » . واضاف أنه يعتزم الدعوة الى ندوة للبحث في « قواعد اللعبة للاهتداء للخطوات التي تستطيع الولايات المتحدة اتخاذها بالاشتراك مع بلدان أخرى مستهلكة »(٤).

وبطبيعة الحال ، رافقت هذه الخطابات والتصريحات حملة اعلامية مسعورة لتحريض الرأي العام على الشعوب العربية وحقوق سيادتها على ثرواتها النفطية وهي استمرار للحملة الاستعمارية الغوغائية المتواصلة منذ رفع اسعار النفط لاول مرة بعد حرب ٦ تشرين الاول .

ثانيا : ان خطاب الرئيس الامريكي هذا وجملة الخطابات والتصريحات الاخرى الخ . . . قد جاءت في وقت كان يعقد فيه في « كامب ديفيد » قرب واشنطن مؤتمر لوزراء الخارجية والمال للدول الرأسمالية الخمس الكبرى (امريكا ، اليابان ، المانيا الغربية ، بريطانيا ، فرنسا) وهو المؤتمر المكمل لاعمال مؤتمر وزراء المال للدول الخمس ذاتها الذي عقد في ضاحية ريفية لباريس في الاسبوع الاول من شهر ايلول (سبتمبر) . والغاية من هذا المؤتمر ، رغم السرية والكتمان الشديدين، باتت مفضوحة اذ استهدفت منه الولايات المتحدة الامريكية عقد صفقة مع منافساتها الراسماليات الاخرى لحل التناقضات الثانوية التي ما زالت قائمة بينهامن مخلفات التصدع الذي أصاب صفوفها عقب حرب ٦ تشرين عندما حاولت بريطانيا ادوارد هيث وفرنسا ديغولية جوبير عقد صفقة مع الاقطار العربية على حساب المصالح النفطية والاقتصادية الامريكية . كذلك ان مؤتمر « كامب ديفيد » هذا هو استمرار لقرارات ومنجزات « مؤتمر واشنطن للطاقة » في ١١ شباط الماضي والذي جمعت فيه الولايات المتحدة وزراء خارجية ١٢ دولة رأسمالية أخرى (أقطار السوق الاوروبية المشتركة التسع والنرويج واليابان وكندا) . والغاية التي تستهدفها الولايات المتحدة من ذلك هي خلق جبهة موحدة الصفوف من الدول الرأسمالية الكبرى ، باعتبارها الدول الرئيسية المستوردة للنفط ، لمجابهة الاقطار المصدرة للنفط واخضاعها للمخطط الاستعماري الاحتكاري وسلبها المنجزات التي حققتها بعد حرب تشرين والتي تمثلت في زيادة عائداتها من نفطها ، واستعادة بعض حقوق سيادتها على ثروتها النفطية مثل : رفع نسبة مشاركتها في ملكية شركات النفط العاملة في أراضيها الى ٦٠ ٪ ورفع نسبة الضريبة التي تحصلها من الشركات على النفط المستخرج الخ . . .

ويبدو أن امريكا قد احرزت نجاحا كبيرا في اقامة مثل هذه الجبهة الراسمالية الاستعمارية ضد مصالح الاقطار المصدرة للنفط لا سيما وأن امريكا ، وبمؤازرة القوى الصهيونية ، قد تخلصت من خصومها السياسيين في اوروبا الغربية الذين راودتهم فكرة عقد صفقة مع الاقطار العربية على حساب المصالح الاستعمارية الامريكية وهم جوبير والديغوليون في فرنسا وادوارد هيث وحزب المحافظين في بريطانيا والهر فيلي برانت في المانيا الغربية . وستكشف الشهور القريبة القادمة مدى ابعاد الصفقة السياسية والاقتصادية والعسكرية التي ينطوي عليها تشكيل هذه الجبهة ، لا سيما

وأن ابحاث هذه المؤتمرات قد احيطت بقدر كبير من السرية والكتمان .

ثالثا : ان خطاب الرئيس الامريكي التهديدي هذا انما يلقي ضوءا جديدا على لهجة التصلب والغطرسة التي اتسمت بها تصريحات رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحــق رابين بعد عودته من محادثاته في واشنطن (١٠ ــ ١٣ ايلول) مــع اركــان البيت الابيض . ومعنى هذا ان الجبهة الاستعمارية ــ الصهيونية المتحــدة تخطط للالتفاف حول جميع مكتسبات حــرب ٦ تشرين وتنفيسهــا في شتى الجبهات وعلى جميــع الاصعدة .

رابعا : ان نبرة ومضمون خطاب الرئيس الامريكي المشار اليه انما يفيد بأن الرجل قد أخــذ كلية بالمنطق الصهيوني في سياسته المتعلقة بمعــالجة التمرد الجزئي لبعض الدول المصدرة للنفط على المشيئة الاستعمارية الامريكية . فمنذ ان اتخذت الاقطــار المصدرة للنفط قرارها الاول برفع اسعــار النفط في ١٩٧٣/١٠/١٦ ثم قــرار وزراء النفط العرب بتخفيض الانتاج كسلاح سياسي ضاغط اخــذت الابواق الصهيونية في اسرائيل وفي الاقطار الغربية تدعو كتلة الاقطار الراسمالية الغربية الى **اولا** : تشكيل جبهة واحدة موحدة من هذه الاقطار للضغط على الاقطار العربية اقتصاديا وسياسيا وعسكريا . **وثانيا** : حجب المواد الغذائية عنها . **وثالثا** : وقف التعامل معهــــا على صعيد التكنولوجيا والمعدات والسلع الصناعية والاسلحة ومقاطعتها مقاطعة جماعية .

ولكن عندما دب الصراع والتنافس بين دول اوروبا الغربية وبين الولايات المتحــدة الامريكية بعد حرب تشرين لم تكن الظروف ملائمة لانتهاج هذا السبيل الذي بشرت به الفئات الصهيونية . ويبدو ان الظــروف قــد نضجت الان لتجريــب هــذه الخطط الصهيونية ــ الاستعمارية .

خامسا : ان تهديــدات الرئيس الامريكي جــيرالد فورد ووزير خــارجيته هنري كيسنجر وبطانتهما للدول العربية المنتجة للنفط انما تأتي في وقت بلــغ فيه التضخم في الولايات المتحدة مستوى حادا هو ٢ر١١ بالمئة في اسعار المواد الاستهلاكية ، وفي وقت تعقد فيه الحكومة الامريكية ورجال الاعمال الامريكيين مؤتمــرات واجتماعات علــى مستويات عدة للبحث عن حلول لمعضلة التضخم الاقتصادي المتفاقمة علما بأن الرئيس الامريكي جيرالد فورد قد جعل مكافحة التضخم في قمة الاولويات بين القضايا الرئيسية التي وعد الجمهور الامريكي انه سيتصدى لها خلال مدة ولايته ، وحيث ان معضلــة التضخم الاقتصادي هذه كامنة في صلب النظام الراسمالي الاحتكــاري الامريكي ولا سبيل لتخفيفها الا بنهب ثروات الشعوب الاخرى او بتغيير هذا النظام الراسمالي من اساسه ، فان الرئيس الامريكي اختار ان يجعل من الاقطار المنتجة للنفط ولا سيمــا الاقطار العربية منها كبش فداء امام انظار الجمهور الامريكي المتذمــر من استفحال التضخم الذي يلتهم مداخيلهم ويخفض مستوى معيشتهم ويمتص جميــع الزيادات في الاجور التي يحققونها . وبعبارة اخرى ان الرئيس الامريكي بصفته رأس هذا النظام الراسمالي الاحتكاري الاستغلالي المسؤول الوحيد عن التضخم لا بد وأن يبحث عــن ضحية يحملها مسؤولية هذا التضخم . وقد آثر الرئيس الامريكي ان يحــوّل نقمة جماهير العاملين والمستخدمين الامريكيين نحو الاقطار المصدرة للنفط وبالذات نحــو العرب لكي لا يتسنى لجماهير العاملين والمستخدمين الامريكيين المستغلين هؤلاء ان يكتشفوا هوية المسؤول الحقيقي عــن تفاقم التضخــم الا وهو الطبقة الراسماليــة الاحتكارية الامريكية الحاكمة ذاتها ، فبذلك تبقى رؤية هذه الجماهير الامريكية لواقع مجتمعها غائمة مشوهة ويتم استعداؤها على الشعوب العربية في عملية تهيئة لخطة

استعمارية عدوانية على هـذه الشعوب ان لم تذعـن للمشيئة الامريكية في نهـب ثرواتها .

لقد بين تقرير اعده خبراء « اينسي » أنه لا ينتج من مضاعفة سعر النفط سـوى ارتفاع بنسبة ٢ر١٪ في اسعار الاستهلاك المنزلي و ٢ر١٪ في أسعـار الاستعمـال النهائي و ١ر١٪ في اسعار الصادرات في قطر صناعي مثل فرنسا »(٥) واذا اعتبرنـا هذه النسب ضئيلة فان مساهمة ارتفاع أسعـار النفط في التضخـم الاقتصادي في الولايات المتحدة الامريكية لم تتجاوز نسبة ٢،٥٪ من هذا التضخم حسبما بين مراسل صحيفة « الصندي تايمز » اللندنية في واشنطن وليـم شوكروس في رسالة تناولـت بالتحليل اسرار تهديدات الرئيس الامريكي جيرالد فورد وبطانته لعرب النفط(٦) .

أضف الى ذلك انه اذا كان ارتفاع اسعار النفط قد اسهم في تفاقم حدة ازمة الغلاء والتضخم فان المسؤولية في ذلك انما تقع على عاتق شركات النفط الاحتكارية التـي استغلت الموسم ورفعت اسعار المنتجات النفطية بدرجة فاقت بكثير نسبة ارتفـاع أسعار النفط الخام وبذلك حققت شركات النفط ارباحا خياليـة زادت لـدى بعض الشركات على نسبة ٣٠٠٪ عما حققته في الفتـرات المماثلـة من السنة السابقة . وبالتالي فان المسؤولية ايضا تقع على عاتق الرئيس الامريكي جيرالد فورد نفسـه وعلى عاتق نظرائه في الاقطار الراسمالية الغربية الاخرى الذين يغضون النظـر عن تلاعبات الاحتكارات النفطية ويسمحون لها بتحقيق هذه الارباح الفاحشة . وعـلاوة على ذلك فان حكومات الاقطار الرأسمالية الغربية تفـرض رسوما وضرائب علـى المنتجات النفطية تفوق كثيرا ما تحصله الدول المنتجة للنفط من عائدات من كل برميل تنتجه شـركات النفط من أراضيها . وبناء عليه ؛ فان حكومات الاقطـار الغربية الرأسمالية وشركات النفط الاحتكارية التي تنتمي لهذه الاقطار والطبقة الرأسماليـة المتحكمة باقتصاديات هذه الاقطار هي المسؤول الوحيد عن ارتفاع أسعار منتجـات النفط ومشكلة الغلاء والتضخم الاقتصادي ، وهي التي تقوم بتصدير هـذه الآفـة الخانقة الى مجتمعات اقطار العالم الثالث التي وصلت اوضاعها الاقتصادية الى حافة الانهيار والانسحاق والمجاعة .

سادسا : لقد جاء خطاب الرئيس الامريكي المنذر بالويل والثبور لعرب النفط ان لم يستجيبوا لطلبات السيد الامريكي بوضع ثروة بلادهم النفطية نهبا حـلالا للعم سام وشركاه في وقت بدأت فيه أعمال الجمعية العمومية للامم المتحدة حيث قضايا التضخم والغلاء والنهب الاستعمـاري لثروات شعوب العالـم الثالث والاوضاع الاقتصادية والاجتماعيـة المتردية في بـلدان العـالم الثالث بـين البنـود الرئيسـية عـلى جـدول أعمال هذه الدورة اسـتطرادا لأعمال الدورة الخاصـة للجمعية العمومية للامم المتحدة حول المواد الخام التي عقدت بمبادرة مـن الرئيس الجـزائري هواري بومدين في شهر نيسان الماضي ، وحيث يتحفز مندوبو اقطار العالم الثالث لشن هجمة شعواء على النهب الاستعماري الذي تمارسه البلدان الرأسمالية الرئيسية . وكذلك جاء خطاب الرئيس الامريكي هذا في وقت تنعقد فيه في نيويـورك اجتماعات هـامة لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي وغيرهما من الهيئات الدولية لمعالجة الوضـع النقدي والاوضاع المالية المتردية وما تجره من مضاعفات على شعوب العالم الثالـث الفقيرة بوجه خاص ، وبطبيعة الحال ، كانت المناسبة التي اطلق فيها الرئيس الامريكي تهديداته هي افتتاح « المؤتمر العالمي التاسع للطاقة » في مدينة ديترويت ، وهو توخى من ذلك القاء تبعات الاستغلال والنهب الاستعمـاري الـذي يعتصر شعوب العالم الثالث على كاهل الاقطار المصدرة للنفط ، وبذلك يصطاد عصفورين بحجر واحـد ،

فهو من جهة يؤلب جميع الناس بما في ذلك حتى ابناء اقطار العالم الثالث ضد الاقطار المنتجه للنفط التي هي في واقع الامر جزء من هذا العالم الثالث المتخلف ، كما انه من جهه اخرى يبعد السهام عن حكومته وبقيه حكومات الاقطار الرأسمالية الاستعمارية المسؤول الوحيد عن هذا البلاء . والرئيس الامريكي يصنع ذلك وفق المبدأ الاستعماري الشهير « فرق تسد » . وبطبيعه الحال ، ان شيوخ النفط العرب يسهلون للرئيس الامريكي مهمته لانهم بدل ان يوظفوا مداخيلهم النفطية الهائلة في تنمية مجتمعاتهم ومجتمعات الاقطار العربية ، وان يخصصوا حصة جيدة من فائض هذه المداخيل لمساعدة شعوب اقطار العالم الثالث في محنتها ، فانهم اختاروا ان يودعوا القسم الاعظم من مداخيلهم النفطية الهائلة في ديار الاعداء في اقطار الراسماليات الغربية ، وبوجه خاص في الولايات المتحدة الامريكيه التي يتوعدهم رئيسها ويهددهم بأوخم العواقب ، وبذلك يكونون قد اختاروا ان يكونوا في صف القوى المعادية لنهضة مجتمعاتنا العربية وتقدمها مثلما اختاروا ان يكونوا في صف القوى الاستعمارية المعادية لحركة التحرر العالمية على نطاق العالم باسره .

هذا هو الاطار العام الذي اطلق فيه الرئيس الامريكي وبطانته تهديداتهم بأوخم العواقب للاقطار العربية المنتجة للنفط ، **فالى من وجه الرئيس الامريكي تهديداته بصورة مباشرة ؟ وما الذي استهدفه من هذه التهديدات ؟** لقد وجه الرئيس الامريكي خطابه الى أطراف عدة في منظمة الاقطار المصدرة للنفط وفي المنطقة العربية ، وهو يأمل في نهاية المطاف ان يصل الى الغاية التي ينشدها وهي اعادة المنطقة العربية وبما فيها من ثروات نفطية كبيرة مزرعة مباحة للنهب الاستعماري بصورته السافرة التي عرفتها المنطقة طوال السنوات الماضية قبل حرب ٦ تشرين ، وضمانة هذا النهب هي وأد قوى حركة التحرر الوطني العربية . وهو غير قانع بالمستوى الراهن من النهب الاستعماري للثروات العربية من حيث ان الاقطار العربية ، حتى المتحررة منها ، لم تخرج موضوعيا حتى الان من دائرة الاقتصاد الرأسمالي الاستعماري العالمي ، بل يبدو أنه يتطلع الى استسلام عربي تام على الصعيدين السياسي والاقتصادي .

أما الاطراف التي يخاطبها مباشرة فهي :

اولا : وجه التهديد الى الاقطار النفطية العربية المتحررة مثل الجزائر وليبيا والعراق التي تظهر العزم على المضي قدما بمعركة النفط لاستعادة كامل حقوقها في سيادتها التامة على ثرواتها النفطية ، وجعل هذه الثروة عمادا لنهضة اقتصادية واجتماعية وثقافية شاملة لمجتمعات هذه الاقطار تكون بالتالي ضمانة لاستقلالها وتحررها السياسي التام من ربقة التبعية الاستعمارية والالحاق . والرئيس الامريكي هو في مركز يتيح له أن يستشف المضامين الحقيقية التي ينطوي عليها مثل هذا الاتجاه . ذلك ان ثروة النفط العربي كانت حتى الان اضخم احتياطي اقتصادي في حوزة قوى الرأسمالية العالمية والاستعمار العالمي مما وفر لهذه القوى رصيدا ضخما لحل ازماتها الدورية واتاح لها الاحتفاظ بمواقعها الاقتصادية القوية وابقاء ميزان القوى العالمي العام لصالحها الى حد ما حتى الان . ويلاحظ وزير الخارجية الامريكي هنري كيسنجر بحق ، حسبما اوردت صحيفة « النيويورك تايمز » الامريكية في ١٩٧٤/٩/٢٨ ، أن تفاقم الازمة الاقتصادية في المجتمعات الرأسمالية واستمرار تفاعلاتها المنطقية قد تؤدي الى تمزيق البنية السياسية للمجتمعات الغربية وانهيار سياسي يشمل اوروبا الغربية والولايات المتحدة واحتمال استيلاء الشيوعيين على السلطة في بعض الاقطار الغربية . كذلك اوردت هذه الصحيفة تحذيرات وجهها رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق رابين الى كيسنجر خلال زيارته الاخيرة لواشنطن (١٠ — ١٣ ايلول) بأنه « اذا

استمرت اسعار النفط في الارتفاع فان الديمقراطية في اوروبا الغربية مهددة بالزوال وان ايطاليا تعتبر مثلا على ذلك »(٧).

وبعبارة اخرى ان قوى المعسكر الاستعماري الغربي قد تتحمل مسالة زيادة أسعار النفط عن معدلات النهب التي كانت سائده حتى حرب ٦ تشرين ١٩٧٣ طالما ان هـذه الزياده لم تتجاوز حدا معينا وطالما ان العائدات التي تجنيها الاقطار المصدره للنفط تضخ معظمها في الدورة الاقتصادية لهذه الاقطار ، وبالذات في اقتصاد زعيمة هذا المعسكر الولايات المتحدة الامريكية ، اي أن تصبح هده العائدات تحت الوصاية التامة لامريكا تستثمرها وتحركها على الوجه الملائم لها . بيد ان الاتجاهات التي تبديها بعض اقطار النفط العربية المتحرره كالجزائر وليبيا والعراق من حيث عدم الاكتفاء بالمطالبة بتحقيق ارتفاع مطرد في اسعار الخام تتحرك طرديا بنسبة ارتفاع التضخم في الاقطار الرأسمالية الغربيه وعكسيا مع انخفاض القيمة الشرائية لعائدات الاقطار المنتجة للنفط . ان اتجاه هذه الاقطار العربية المتحررة للمضي قدما في تغيير طبيعه علاقات الانتاج التي ظلت تحكم قطاع النفط في هذه الاقطار بالغاء نظام الامتيازات النفطية الاستعماري وعدم الاكتفاء بمبدأ المشاركة في هذه الامتيازات بل السير قدما نحو تأميم انتاج النفط وتخليص ثرواتها النفطية من براثن الشركات الاحتكارية الاستعمارية ، وبعد ذلك استثمار المداخيل الكبيرة المتزايدة من هذه الثروة النفطية في الانفاق على برامج سريعة لتنمية مجتمعات هذه الاقطار اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وذلك للانتقال بها بسرعة صاروخية من عالم التخلف والفقر والجهل وتحويلها الى مجتمعات متطورة مرفهة ، وبذلك تتحرر ارادتها السياسية وتخلص من دورة اقتصاد اقطار الرأسماليات الغربية الاستعمارية .

ان وزير الخارجية الامريكي هنري كيسنجر وغيره من اركان الامبريالية الامريكية يرون في هذا الاتجاه الذي تسير فيه بعض اقطار النفط العربية المتحررة ظاهرة خطيرة تصيب مجمل النظام الرأسمالي العالمي وبالتالي النظام الاستعماري العالمي في موضع قاتل . وهذا تماما ما عناه جون سوهيل رئيس وكالة الطاقة الامريكية الاتحادية في تصريحه الذي اشرنا اليه آنفا حين قال عن اتجاهات الاقطار العربية النفطية المتحررة هذه : « ان سياسة هذه الاقطار قد وصلت الى مرحلة باتت معها تهدد البقاء القومي للولايات المتحدة »(٨). ولهذه الاقطار العربية ذاتها وجه الرئيس الامريكي فورد تهديده الصريح حين قال : « لقد خاضت الدول الحرب عبر التاريخ من اجل المصادر الطبيعية كالمياه والغذاء او من أجل ممرات ملائمة في البر او في البحر »(٩). والعرب لديهم هذه المصادر الطبيعية وتلك الممرات . ان خطاب فورد هـذا هو نسخة عن عنتريات انطوني ايدن عام ١٩٥٦ ، فهل يكون أسعد حالا منه ؟

ثانيا : ان خطاب الرئيس الامريكي ينطوي على مناورة تشجيع للتيار الـذي يمثله وزير النفط السعودي أحمد زكي اليماني داخل منظمة الاقطار المصدرة للنفط «أوبك». فمعلوم ان الشيخ احمد زكي اليماني يجهر بمواقف المعارضة الصريحة لاية زيادة في اسعار النفط الخام ، بل انه لم يمل طوال الشهور الماضية من الدعوة لتخفيض اسعار النفط هذه ، وهدد من اجل تحقيق هذه الغاية بزيادة انتاج السعودية من النفط زيادة كبيرة بحيث يغرق سوق النفط العالمي فيزيد العرض على الطلب زيادة كبيرة ، وبالتالي يدفع الاسعار نحو الانخفاض . وبالفعل زادت السعودية انتاجها من النفط من حوالي ٦ ملايين برميل في اليوم قبل رفع حظر النفط العربي عن امريكا في ١٨/٣/١٩٧٤ الى ما يزيد على ٨٫٥ مليون برميل في اليوم في شهر ايار الماضي . وكذلك صادقت السلطات السعودية على برنامج توسيعات الانتاج الذي قدمته لها شركة

« الارامكو » ، وهو يهدف الى رفع انتاج ارامكو من النفط الى معدل ١١ر٢ مليون برميل في اليوم قبل نهاية العام القادم ١٩٧٥(١٠) كمرحلة في تنفيذ البرنامج الجنوني الذي وضعته الاحتكارات الاستعمارية لرفع انتاج السعودية الى معدل عشرين مليون برميل في اليوم بحلول العام ١٩٨٠ . ان انفضاح المخاطر الكامنة في موقف أحمد زكي اليماني هذا على مستقبل الاقطار المصدرة للنفط ومداخيلها قد جعله في موضع عزلة شديدة ، لا سيما وانه تبين ان الصراخ الذي علت به اصوات الدوائر والصحف الاستعمارية بشأن ارتفاع اسعار النفط هو كاذب ومفتعل لان شركات النفط استغلت الازمة وحققت ارباحا قياسية زادت على ٤ دولارات في البرميل الواحد من النفط الخام عدا عن ارباحها من كل برميل من عمليات النفط المتممة ــ النقل والتكرير والتصنيع والتوزيع ــ وهي ارباح لا تقل عن ارباحها من النفط الخام ، بل ان وزير المالية الايراني جمشيد أموزيغار قال ان ارباح شركات النفط اصبحت تتراوح بين ١٢ الى ١٣ دولارا في كل برميل من النفط الذي تشتريه من الدول المنتجة بسعر يتراوح بين ٧ الى ٨ دولارات(١١). ومن جهة أخرى ، كانت صحيفة « نيويورك تايمز » قد علقت على موقف اليماني في مؤتمر « الاوبك » في كيتو (١٥ الى ١٧ حزيران الماضي) حيث حدثت مجابهة حقيقية بين اليماني والاعضاء الآخرين بسبب اصراره على تخفيض اسعار النفط ، فقالت « نيويورك تايمز » : « ان السعودية قد استخدمت قوتها كأكبر مصدر للنفط في العالم لتمنع مؤتمر « أوبك » في كيتو من اتخاذ قرار بزيادة أسعار النفط زيادة كبيرة » .واضافت الصحيفة ان « السعودية تسعى لان تقوم الولايات المتحدة بدور أكثر فعالية لاقناع حليفتها ايران والدول الاخرى بتخفيض أسعار النفط »(١٢). وعلى صعيد آخر كان مسؤول سعودي آخر هو الشيخ عبد الهادي طاهر محافظ مؤسسة « بترومين » قد صرح في نيسان الماضي بأن « الاسعار الحالية للنفط تعتبر عالية بمقاييس الامريكيين والسعوديين والعالم » واستعدى السلطات الامريكية لممارسة ضغوطها على الاقطار الاخرى المصدرة للنفط فقال : « ان التدابير السعودية وحدها لن تكفي لتخفيض أسعار النفط »(١٣) .

وعلى صعيد آخر ، أدى تصاعد التضخم الاقتصادي في الاقطار الرأسمالية الغربية المستوردة للنفط بنسبة زادت أحيانا على ٢٠ ٪ منذ مطلع هذا العام في بعض الاقطار كايطاليا الى انخفاض القيمة الشرائية لعائدات الاقطار المصدرة للنفط التي تقبض أثمان نفطها بالدولارات . هذه الحقائق جميعها وغيرها تثبت ان لا مبرر لدعاوى وزير النفط السعودي .

فالغرض الذي استهدفه الرئيس الامريكي جيرالد فورد من خطابه العنتري هو خلق حالة من الفزع لدى حكام بعض الدول الاعضاء في منظمة الاقطار المصدرة للنفط « أوبك » ان لم يكن لديهم جميعا ، بحيث يستجيبون الى دعوة الشيخ أحمد زكي اليماني لهم لزيادة انتاج النفط وتخفيض أسعاره . ولذلك لم يكن غريبا ولا عجيبا ان الشيخ اليماني لم ير في خطاب الرئيس الامريكي أية تهديدات واعتبره دعوة محبة للتعاون . فقد نقلت وكالة الصحافة الفرنسية على لسانه تعقيبا على خطابي جيرالد فورد وهنري كيسنجر فقالت : « ان اليماني لا يرى في ذلك تهديدات بالمواجهة ، بل دعوة للتعاون فقط ، وانها دعوة لاجراء حوار مع الدول المنتجة يمكن ان تكون فرصة للمساومات »(١٤)!!..

وتجنبا لاي التباس يمكن أن يتولد في أذهان الرأي العام حول المضامين الحقيقية لخطاب الرئيس الامريكي ، سارعت المصادر الامريكية الى تبرئة ساحة المسؤولين السعوديين من أية مسؤولية عن أسباب الشكوى . وجاءت شهادة حسن السلوك

الامريكية على لسان جيمس أكينز السفير الامريكي في جده الذي أعلن في اجتماع لغرفة التجارة العربية ــ الامريكية في شيكاغو انه « لولا السعوديين لكانت أسعار النفط العالمية أعلى بنسبة ٥٠ في المئة عما هي عليه الآن » . وأضاف : « ان السعوديين ارادوا خفض أسعار النفط لكنهم لم يتلقوا تأييدا لمطلبهم من الدول الاخرى الاعضاء في منظمة الاقطار المصدرة للنفط « أوبك » »(١٥).

ثالثا : انطوى خطاب الرئيس الامريكي كذلك على اشارات تحذير ونصح مبطنة بالتهديد الى تلك الاقطار المتأرجحة بين الموقف الوطني الصلب الذي تقفه الجزائـــر والعراق وليبيا وبين الموقف السعودي ــ وهي أقطار مثل الكويت وأبو ظبي والبحرين واندونيسيا الخ . . . ــ وهذا ما عناه الرئيس الامريكي حين قال : « ان الخطر واضح وقاس ، ولكنني على اي حال متفائل ، ففوائد التعاون واضحة كما ان اخطار المواجهة واضحة ، وهذا ما يجعلني متفائلا ومتشائما في آن واحد »(١٦). واقع الامر أن حملة التهويل والتخويف هذه التي شنها الرئيس الامريكي وبطانته موجهة بالدرجة الاولى الى مثل هذه الاقطار المتأرجحة بين بين نظرا لطبيعة بنيتها السياسية وأوضاع الفئات الحاكمة فيها والتي تجعلها عرضة للتهويل والتخويف من دولة لهـــا سجلها الحافل بعمليات الابتزاز والعدوان الخالي من كل روح بالمسؤولية . فهذه الاقطار هي حلقة الضعف الاساسية في منظمة الاقطار المصدرة للنفط واليها وجه الرئيس الامريكي سهامه التهويلية على أمل أن تخاف وتضطرب فتذعن للمطالب الامريكية الابتزازية . والمأمول في هذا الصدد الا يكون اعلان وزير المالية والنفط الكويتي بأن سعر « اعادة الشراء » لنفط حصة المشاركة الكويتية اعتبارا مـــن ١٩٧٤/١٠/١ سيكون ١٠ر٤٧ دولارا للبرميل بدلا من ١٠ر٩٥ دولارا للبرميل(١٧)، وهو الاعلان الذي جاء بعد خمسة أيام فقط من خطاب الرئيس الامريكي ، أول مظاهـــر الخضوع للتهديدات الابتزازية الامريكية . فمعلوم أنه منذ بدأ العمل « باتفاقيات المشاركة » عـــام ١٩٧٢ ، وهي الاتفاقيات التي بدأت بمشاركة الحكومة بحصة ٢٥ ٪ من شركة النفـــط العاملة في أراضيها جرى العرف على أن شركة النفط العاملة لها الاولوية في أن تشتري مـــن الحكومة حصتها من النفط أو كميات من هذه الحصة على أن يحتسب سعرها على أساس ٩٣ ٪ من السعر المعلن الذي يساوي ١٤٠ ٪ من السعر الذي يتم الاتفاق عليه بين الحكومات المنتجة وشركات النفط العاملة على أنه سعر السوق للنفط الخام . ولكن في شهر تموز الماضي أصرت الحكومة الكويتية على احتساب سعر كميات من النفط مقدارها . . . ٧٠٠ برميل في اليوم رغبت شركتا « غلف أويل » الامريكية و« بريتيش بتروليوم » البريطانية المالكتان لشركة نفط الكويت بشرائها على أساس ٩٤ر٨ ٪ من السعر المعلن بدلا من ٩٣٪ من السعر المعلن فقط(١٨)، ولكن اعلان وزير المالية والنفط الكويتي بتخفيض سعر « اعادة الشراء » من ١٠ر٩٥ دولارا للبرميل الى ١٠ر٤٧ دولارا فقط يعني الرجوع الى نسبة ٩٣ ٪ ، وهذا يكتسب اهمية خاصة نظرا لان المراجع الرسمية الامريكية والبريطانية كانت قد أثارت في حينه ضجة كبيرة حول رضوخ شركتي « غلف اويل » و« بريتيش بتروليوم » لشروط الحكومة الكويتية برفع نسبة سعر اعادة الشراء من ٩٣ ٪ الى ٩٤ر٨ ٪ .

فالمأمول الا يسيطر الذعر على أقطار الحلقة الضعيفة الاعضاء في منظمة « أوبك » فترضخ هذه الاقطار للتهديدات الابتزازية الامريكية وبذلك تتحقق أماني الاستعماريين الامريكيين بانقسام صفوف أعضاء منظمة أوبك الى فريقين : فريق يصمد ويتصدى للتهديدات الامريكية قوامه الجزائر والعراق وليبيا وفريق ينصاع للمشيئة الامريكية وبذلك تتفجر منظمة أوبك من داخلها وتستفرد الاحتكارات الاستعمارية بأعضائها

الواحد تلو الآخر بحيث تسترجع هذه الاحتكارات مواقعها التي خسرتها بعد حرب ٦ تشرين وتستعيد سيطرتها السابقة على مقدرات أقطار النفط وثرواتها النفطية وتعود لتتحكم بها كما تشاء فتنهب من ثرواتها ما طاب لها النهب .

رابعا : ان خطاب الرئيس الامريكي فورد موجه كذلك في بعض جوانبه ومغازيه الى الرئيس المصري السادات ، اذ يقول له بصورة غير مباشرة : « كيف تريدني أن أحل لك مشكلتك مع اسرائيل اذا لم تساعدني في حل مشكلتي مع عرب النفط ؟ وعليك الا تتوقع مني أن أنشط في استخدام نفوذي السياسي لدى قـادة اسرائيل للاستجابة لمطالبك طالما لم تبادر أولا الى اظهار نشاط أكثر في استخدام نفوذك السياسي لدى عرب النفط للتجاوب معي في قضية تخفيض أسعار النفط وزيادة انتاجه ووضع عائداته تحت تصرفي أستثمرها كما أشاء لصالح الاقتصاد الامريكي » . وهذا تماما هو ما عناه هنري كيسنجر حين قال في خطابه في الجمعية العمومية للامم المتحدة في صدد دعوته الى تخفيض أسعار النفط : « ان ما ارتفع بقـرار سياسي يمكن أن يخفض بقـرار سياسي »(١٩). واقع الامر أن وزير الخارجيـة الامريكي هنري كيسنجـر صاحب « ديبلوماسية المكوك » الذي أظهر نشاطا كبيرا من أجل تحقيق فك ارتباط القوات على الجبهتين المصرية والسورية لتأمين حدود اسرائيـل الجديدة مما جعـل بعض الاوساط الحاكمة العربية تعلق عليه آمالا عظيمة لتخليصها من ورطة المواجهة مع اسرائيل وبالتالي توفير المناخ المناسب لهذه الاوساط لعقد صفقة مع واشنطن عـلى حساب حركة التحرر الوطني العربية ، وهو أمر لا تقوى عليه طالما ظل النزاع العربي ـــ الاسرائيلي محتدما ملتهبا . . . ان هنري كيسنجر هذا بعد أن فرغ من هذه المرحلة التي أظهر خلالها الوجه الناعم للامبريالية الامريكية ، أخذ يظهر الآن لمن راهنوا عليه الوجه الآخر الحقيقي للامبريالية الامريكية ، فقد جاء دور التركيع والاخضاع لفرض المشيئة الامريكية كاملة . فقد غدا جليا الآن أن الثمن الامريكي لارجاع شيء من الارض العربية التي تحتلها اسرائيل هو أن يصبح الوطن العربي كله ـــ بأرضه وأهلـه وثرواته ـــ مزرعة مستباحة للامريكيين وشركاتهم . وبالتالـي فان خطاب الرئيس الامريكي فورد يشتمل على الابتزاز السياسي لدول المواجهة العربية مثلما يشتمل على الابتزاز العسكري والاقتصادي لدول النفط العربية . ولعل هذا هو ما عناه السيد عبدالرحمن العتيقي وزير المالية والنفط الكويتي حين قال في صدد رده على تهديدات فورد وكيسنجر : « ان واشنطن وقد أتمت فك الارتباط قد عمدت الى اقامة أمر واقع في المنطقة يخالف أهداف حرب تشرين الاول » . وأضاف : « ان الولايات المتحدة تعتزم الرجوع عن الوعود التي قطعتها في المنطقة مختلقة أسبابا تحاول أن تظهرها معقولة ومشروعة »(٢٠)!!

نخلص من هذا كله الى القول ان على الاقطار المصدرة للنفط ، ولا سيما العربية منها ، ألا تدع تهديدات الرئيس الامريكي فورد توهن من عزيمتها في استعادة كامل حقوقها وسيادتها الوطنية على ثروتها النفطية ، وتخليص ثروتها الوطنية هذه من نهب الشركات الاحتكارية الذي طال عليه الزمن وذلك بتأميم مصالح هذه الشركات تأميما شاملا وناجزا . ان تهديدات فورد هذا هي تهويشية في طبيعتها ، وهو يعلم حق العلم أن موازين القوى العالمية وطبيعة عصرنا لم تعد تسمح للاستعماريين الامريكان أن يمارسوا سياسة رعاة البقر تجاه حقوق الشعوب القومية وثرواتها الوطنية . ان الاستعماريين يعلمون حق العلم أن عجلة الزمن لا تعود الى الوراء ، وان المكتسبات التي حققتها الاقطار المصدرة للنفط بعد حرب تشرين لم يعد هنالك سبيل للرجوع عنها. ولذلك ، فان تهويشات فورد انما يتوخى منها شل ارادة الاقطار المصدرة للنفط عن

مواصلة سعيها لبسط يدها على كامل ثروتها النفطية الوطنية . وهو يهدف أيضا الى المحافظة على ما تبقى من مصالح الاحتكارات النفطية في هذه الاقطار قبل أن تمتد اليها روح التغيير والثورة فتعصف بها وتنهي عملية نهب واستغلال تجاوزت حدود الوصف. ويهدف فورد كذلك الى تخويف الاقطار المصدرة للنفط ، ولا سيما العربية منها ، لكي ترضخ لمشيئة أمريكا الاستعمارية فتوظف عوائدها النفطية في أمريكا لكي تكون هذه التوظيفات هناك بمثابة رهائن تحول بين أي حكومة وطنية قد تأتي بها الايام وتأميم مصالح شركات النفط الاحتكارية في ذلك القطر . والرئيس الامريكي غير قانع بقيام الاقطار المصدرة للنفط بتوظيف أموالها النفطية الهائلة في أمريكا فقط ، وهذا ما هو جار الآن على قدم وساق ، بل هو يريد أن تكون للسلطات الامريكية تقرير كيفية توظيف هذه الاموال وفي أية قطاعات وحقول وتقرير الشكل الذي تستخدم فيه هذه الاموال . وبعبارة أخرى أنه يريد أن تستعيد أمريكا من الدول المصدرة للنفط باليد اليسرى ما تدفعه ثمن مستورداتها النفطية باليد اليمنى . وهو لا يريد ذلك فحسب ، بل يريد أيضا أن تستأثر أمريكا بنصيب الاسد من عائدات الاقطار المصدرة للنفط وذلك على حساب أقطار أوروبا الغربية التي تتطلع بدورها الى استعادة جـزء كبير مما تدفعه ثمـن مستورداتها النفطية على هيئة ودائع واستثمارات وتوظيفات في اقتصادها ، وكانت مسألة تقسيم هذه العائدات التي يطمحون باستعادتها من الاقطار المصدرة للنفط هي المادة الرئيسية على جدول أعمال مؤتمر الوزراء والمال للدول الرأسمالية الخمس الرئيسية الذي كان منعقدا في « كامب ديفيد » في الوقت الذي القى الرئيس الامريكي خطابه المشار اليه في مؤتمر الطاقة العالمي التاسع .

والتر ليفي :
مهندس استراتيجية المجابهة النفطية الامريكية

ان المتمعن في نصوص خطابي كل من الرئيس الامريكي فورد ووزير خارجيته هنري كيسنجر المشار اليهما يتبين انه ليس فيهما أفكار مبتكرة ، فالآراء التي ردداها تتداولها الدوائر الاستعمارية الامريكية والصحافة المعبرة عن هذه الدوائر منذ شهور . ولعل الاساس النظري للموقف السياسي الذي عبر عنه فورد وكيسنجر في خطابيهما مستمد في جملته من التحليلات والدراسات التي نشرها الخبير الصهيوني والتر ليفي الذي يعد أشهر الاختصاصيين الامريكيين في سياسة اقتصاديات النفط . ففي دراسة له كان قد نشرها في شهر نيسان الماضي نبه الاذهان الى أن « منظمة الاقطار المصدرة للنفط » (أوبك) تواجه مشاكل داخلية خطيرة قد تعرضها للانقسام بسبب تضارب المصالح بين أعضائها(٢١) . وهو يرى أن « الانشقاق في صفوف الدول المنتجة للنفط قد يؤدي الى هبوط كبير في أسعار النفط في السنوات الأخيرة من هذا العقـد » . وهو يعتقد أن « عودة الانسجام والوئام بين أعضاء الاوبك من شأنها أن ترفع الاسعار من جديد مما يؤدي الى تفاقم الفوضى الاقتصادية والنقدية بين الدول المنتجة للنفط والمستهلكة له على حد سواء » ، وهو يرى ان الدول المستهلكة للنفط مضطرة بسبب غلاء الاسعار الى تبني برامج تقشفية طويلة المدى ، اذ سيكون من الصعب عليهـا في السنوات القادمة أن توفر المال اللازم لشراء المستوردات الضرورية من النفط . أما مشكلة الدول المصدرة للنفط على المدى الطويل فهي تأمين نمو عائداتها النفطية في عالم سيلجأ بصورة متزايدة الى التقشف في استهلاك الطاقة » . وتتكهن دراسة ليفي هذا بأن « ارتفاع الاسعار سيدفع الدول المستهلكة للنفط الى تخفيض استهلاكها الى الحد الادنى الذي يسمح باستمرار النمو الاقتصادي والعمليات الصناعية » . وترى الدراسة ان « هذا

التقشف سيؤدي الى انخفاض الاستهلاك الى درجة أن النمو في انتاج النفط قد يزيد على النمو في الطلب ؛ وعندئذ ، ستلجأ الدول المصدرة للنفط الى خفض انتاجها أكثر فأكثر للحصول على أسعار أعلى . بيد ان قدرة البلدان المنتجة للنفط ورغبتها في مثل هذا التخفيض تتفاوت . فالاقطار التي تحتاج الى مقادير كبيرة مـــن رؤوس الأموال (نظرا لعدد سكانها الكبير نسبيا وتوفر موارد خام بحاجة الى تطوير لديها) مثل ايران والجزائر وأندونيسيا وفنزويلا والعراق ستجد من الصعب عليها ، بل من المستحيل أن تلجأ الى تخفيض انتاجها من النفط ، وبالتالي تخفيض عائداتها منه ؛ وهكذا ستلعب الدول الاخرى مثل السعودية والكويت وابو ظبي القليلة السكان والمحدودة في مواردها الخام الدور الرئيسي في تقرير مستقبل انتاج الشرق الاوســـط ، وبالتالي الامدادات العالمية من النفط » . وبالنسبة لاحتمال اشتعال نيران المنافسة والصراع بين الاقطار المصدرة للنفط ، ترى دراسة ليفي هذه أنه « اذا ما هبطت عائدات السعودية والكويت وابو ظبي الى ما دون التوقعات المرتقبة فسيكون ذلك باعثا لها على زيادة انتاجها مما يضر بالاقطار المنتجة الاخرى ويؤدي بالتالي الى انخفاض أسعار النفط » .

اذن الخطة الاستعمارية حسبما شرحها والتر ليفي واضحة ، انها تقوم على اللعب على التناقضات الثانوية القائمة بين أعضاء منظمة أوبك لتفتيت عرى وحدتها وتضامنها باعتبارها لها مصلحة واحدة مشتركة ، ومن ثم الانقضاض عليها واحدة تلو الاخرى . ويرى ليفي ومعه الدوائر الاستعمارية أن الحلقة الضعيفة داخل صفوف منظمة الاوبك التي سيركزون عليها نيرانهم هي على وجه التحديد السعودية والكويت وابو ظبي . وبطبيعة الحال ، أقطار أخرى لم يذكرها ليفي لانها أقل أهمية من حيث انتاجها النفطي وهي قطر وعمان والبحرين .

ان ما يستدعي اليقظة والحذر الشديدين هنا هو أن والتر ليفي هذا لم ينسج تحليلاته هذه في فراغ بل استمد مادتها من استقراء جملة معطيات واقع الاقطار المصدرة للنفط هذه واستشف صيرورتها في منظار مستقبلي . فهنالك جملة من المعطيات التي تشكل محاذير على الاقطار المصدرة للنفط أن تتوقاها لكي تفسد على الدوائر الاستعمارية أحلام يقظتها في رؤية هذه الاقطار متنافرة متخاصمة مصدعة الصفوف تتراكض كـــل واحدة منها لطلب الحماية في كنف هذه الدولة الاستعمارية أو تلك . فمن هذه المحاذير :

أولا : كان وزير النفط السعودي المعارض الوحيد في وجه الزيادة الثانية لاسعار النفط التي اقرها المؤتمر الوزاري لمنظمة « الاوبك » في طهران في ١٩٧٣/١٢/٢٣ . أما في المؤتمر الوزاري التالي « لأوبك » الذي عقد في جنيف (١٦ الى ١٨ آذار ١٩٧٤) فقد طالب اليماني باصرار بتخفيض أسعار النفط رغـــم ان اللجنة الاقتصادية لاوبك المؤلفة من مجموعة من الخبراء الفنيين لدراسة أوضاع السوق كانت قد أوصت برفع الاسعار المعلنة للنفط بحوالي ١٠ ٪ . وازاء تهديدات اليماني اضطرت « الاوبك » الى تجميد أسعار النفط لفترة الربع الثاني من السنة(٢٢) . بالاضافة الى ذلك ، استبق الشيخ اليماني مؤتمر الاوبك في كيتو (١٥ الى ١٧ حزيران ١٩٧٤) بالمطالبة بتخفيض السعر المعلن للنفط الى ٩ دولارات للبرميل مما يخفض قيمة العائدات التي تتقاضاها الحكومات من الشركات الى حوالي ٥ر٥ دولار للبرميل بدلا من ٧ دولارات كما هو الحال عليه بموجب السعر المعلن الحالي(٢٣) . وازاء تهديدات الشيخ اليماني بزيادة انتاج النفط السعودي بمعدل ٣ ملايين برميل في اليوم للضغط علـــى الاسعار نحو الانخفاض تم الاتفاق على تجميد اسعار النفط لفترة الربع الثالث مـــن السنة على التوالي وذلك وعيا من الاقطار الاخرى لخطورة الموقف الذي كاد ينذر بتفجر منظمة « أوبك » وانهيارها . واكتفي في مؤتمر كيتو بزيادة نسبـــة الضريبة التي تحصلها

الحكومات من شركات النفط العاملة في أراضيها بنسبة ٢ ٪ من السعر المعلن للنفط ، علما بأن الاتجاه لدى معظم اقطار النفط الاخرى كان رفع نسبة الضريبة هذه من ٥٥ ٪ الى ٨٧ ٪ بهدف امتصاص الارباح الزائدة التي تجنيها شركات النفط من بيع النفط العائد لها بموجب حصتها في ملكية عمليات الانتاج(٢٤). وقد استنكفت السعودية عن تحصيل هذه الزيادة الضئيلة في نسبة الضريبة . أما في الاجتماع الاخير للمجلس الوزاري لمنظمة الاوبك الذي عقد في فينا في ١٢ و ١٣ أيلول الماضي فكان الجو العام للاجتماع أفضل بكثير من جو مؤتمر كيتو الشحون في شهر حزيران الماضي بفضل « الجهود الجزائرية التي نجحت في اقناع السعودية بالتخلي عن مساعيها لتخفيض الاسعار مقابل تخلي الدول التي تدعم زيادة الاسعار ، ولا سيما ايران ، عن تشددها في رفع الاسعار خلال الفصل الاخير من هذه السنة »(٢٥). وكانت اللجنة الاقتصادية لمنظمة أوبك قد أوصت برفع أسعار النفط بنسبة ١٤ ٪ كتعويض عن التضخم الحاصل في الدول الرأسمالية المستوردة الرئيسية للنفط ، ولكن المجتمعين وفقوا بتحويل الزيادة المرجوة الى الوجهة الصحيحة وذلك بزيادة معدلات الضريبة والريع الذي يحصل من شركات النفط العاملة « بنسبة اجمالية مقدارها ٣ر٥ ٪ أي بزيادة تبلغ ٣٣ سنت امريكي في البرميل ، وبذلك ارتفع معدل الضريبة من ٥٥ ٪ الى ٦٥ر٧٥ ٪ وارتفعت نسبة الريع من ١٤ر٥ ٪ الى ١٦ر٦٧ ٪ ، وتمثل نسبة الزيادة هذه للربع الاخير من السنة نفس نسبة الارتفاع السنوي للتضخم في الدول الصناعية لعام ١٩٧٤ بكامله ، والتي قدرتها اللجنة الاقتصادية لمنظمة « أوبك » بنسبة ١٤ ٪ »(٢٦). ان هذه الزيادة في نسبة الضريبة المحصلة من شركات النفط العاملة أتاحت للدول المنتجة للنفط تعويض الخسارة في عائداتها النفطية الناجمة عن ارتفاع معدل نسبة التضخم في الاقطار الراسمالية بنسبة ١٤ ٪ كما انها ، في الوقت ذاته ، أتاحت للاقطار المنتجة تقليم أظافر شركات النفط قليلا بتقليص نسبة أرباحها الفاحشة ، لا سيما وأن شركات النفط الاحتكارية أصبحت تهدد بالتهام شركات النفط الاجنبية المستقلة مثل شركة « ايني » الايطالية و« الف/ايراب » الفرنسية و« هيسبانيول » الاسبانية كما انها هددت أوضاع شركات النفط الوطنية التابعة لحكومات الاقطار المصدرة للنفط وذلك لان شركات النفط الاحتكارية مالكة الامتيازات النفطية القديمة أصبحت تحصل على النفط الخام بسعر ٧ دولارات بينما الشركات المستقلة يكلفها شراء النفط الخام حوالي ١١ دولارا وبذلك أصبحت شركات النفط الوطنية وشركات النفط المستقلة في وضع لا يؤهلها لمنافسة شركات النفط الاحتكارية من حيث أسعار منتجاتها في الاسواق ونسبة الربح الذي تجنيه منها ...

لقد كان موقف السعودية في مؤتمر فينا في ايلول الماضي أقل « انشقاقية » من مؤتمرات أوبك الماضية حسبما بسطه وزير المالية والنفط الكويتي عبد الرحمن سالم العتيقي لصحيفة « الرأي العام » الكويتية اذ قال : « ان السعودية توافق على الزيادة من حيث المبدأ ، ولكنها ترى أن تكون مقرونة بتخفيض السعر المعلن ، وهذا ما لم يوافق عليه الحاضرون ، كما أن السعودية في كلا الحالين لا تريد وضع الاتفاق موضع التطبيق لانها في حالة مفاوضات مع الشركات المالكة للامتياز ولا تريد أن تدخل عرضا جديدا في أسلوب التطبيق قبل أن تصل مع الشركات الى اتفاق نهائي »(٢٧).

نخلص من هذا كله الى ان منظمة « أوبك » قد اجتازت في الشهور الماضية أزمات عصيبة كادت أن تعصف بها بسبب تفرد السعودية بالدعوة الى تخفيض الاسعار . وأهمية السعودية هنا هي انها تنتج وحدها من النفط زهاء ربع ما تنتجه الدول أعضاء منظمة أوبك مجتمعة بما فيها السعودية ذاتها ، كذلك ان غزارة حقول نفط السعودية

وضخامة الاحتياطي لديها تجعلها قادرة على زيادة انتاجها بمعدل عدة ملايين من البراميل في اليوم في غضون شهور معدودة وبذلك تغرق السوق بالنفط وترغم الاسعار على الانخفاض ، وهذا ما أشار اليه والتر ليفي في دراسته المشار اليها آنفا ، وهذا ما تتمناه الدوائر الاستعمارية وتجهد لتحقيقه . وخصوصا ان أسعار النفط الخام المحققة في السوق الحرة انخفضت فعليا منذ مطلع هذا العام أكثر من خمسة دولارات للبرميل لفائض العرض على الطلب بمعدل زاد ثلاثة ملايين برميل في اليوم .

ثانيا : لقد أظهرت اجتماعات منظمة « أوبك » خلال الشهور الماضية ان التناقض السياسي بين ايران والسعودية هو تناقض عميق وان كان ما زال تناقضا ثانويا وليس تناقضا رئيسيا ، وان الخلافات والمواجهات بين ممثلي ايران والسعودية في مؤتمرات « الاوبك » والتي اتسمت بالتحدي وتصلب المواقف حول أسعار النفط هي واجهة لخلاف سياسي أعمق قد يكون في المستقبل مصدر خطر على وحدة صفوف منظمة « أوبك » . وببساطة وايجاز ، يتمحور التناقض والخلاف بينهما أساسا في الدور الذي تعد كل منهما ذاتها لكي تلعبه في منطقة الخليج العربي ومدى علاقة ذلك بالاستراتيجية الامريكية تجاه المنطقة. فالاستراتيجية السياسية الامريكية تجاه منطقة الشرق الاوسط قبل حرب ٦ تشرين والتي أشرف هنري كيسنجر على صياغتها كانت تقوم على ركيزتين محليتين أساسيتين هما اسرائيل وايران وقوى مساعدة لهما مثل تركيا والحبشة . وبعد حرب تشرين ، وبسبب التغيرات في موازين القوى ، حاولت السعودية ومصر ابعاد كل من اسرائيل وايران من المكانة التي احتلتاها في الاستراتيجية الامريكية . وبدا أن لهذا التطلع السعودي — المصري ما يبرره في الشهور القليلة التالية لحرب تشرين . أما الآن وبعد سقوط نيكسون وتغير صورة الاوضاع في المنطقة بشكل انعكس على موازين القوى فان هذا الرهان يجتاز مأزقا عسيرا، ولعل أعتدال موقف السعودية في معارضة زيادة نسبة الضرائب على شركات النفط في مؤتمر الاوبك الاخير في فينا (١٩٧٤/٩/١٢) هو نوع من ممارسة الضغط على الرئيس الامريكي الجديد جيرالد فورد .

أما كيف ولماذا يتخذ الصراع السعودي — الايراني على الفوز بالمكانة الاولى في الاستراتيجية الامريكية تجاه المنطقة اتجاهين متعاكسين في الجبهة النفطية فمرد ذلك معطيات نفطية وسياسية معينة . فبالنسبة للمعطيات النفطية فتتمثل في أن الغاية الاساسية من الاستراتيجية السياسية الامريكية تجاه المنطقة هي الحصول على النفط، والحصول عليه بكميات كافية وكذلك بأرخص كلفة ممكنة . وفي هذا الصدد توجد في يد حكام السعودية ورقة رابحة تتفوق على أوراق ايران الاخرى . فمن المعلوم أن باطن أرض المملكة العربية السعودية يكتنز بأضخم احتياطي للنفط في العالم ، فالاحتياطي النفطي الثابت لديها يزيد على ١٣٠ مليار برميل أي اكثر من خمس الاحتياطي النفطي الثابت في العالم . وهي تتنافس الان مع الاتحاد السوفييتي على احتلال المرتبة الاولى في انتاج النفط ، وواقع الامر ان طاقة الانتاج لديها حاليا تزيد على عشرة ملايين برميل في اليوم ، كما ان غزارة حقولها النفطية جعلت من الممكن أن تعد شركة الارامكو لرفع أنتاجها الى معدل ٢٠ مليون برميل في اليوم بحلول عام ١٩٨٠ . ان ايران لا تستطيع أن تنافس السعودية في هذا المضمار لان الاحتياطي النفطي الثابت في ايران هو اقل من نصف نظيره المتوفر لدى السعودية ، وكذلك ، أن طبيعة حقول النفط الايرانية من حيث ان كثيرا منها حقول قديمة استنفد القسم الاعظم من طاقتها الانتاجية كما ان بعضها الآخر لا يجاري الحقول السعودية في غزارته وبذلك يتعذر على ايران أن ترفع انتاجها خلال السنوات القليلة القادمة بوتيرة سريعة هائلة كالسعودية،

فبرنامج توسيعات الانتاج الايراني الموضوع قبل التطورات النفطية الاخيرة كان يتوخى رفع انتاج ايران في عام ١٩٨٠ الى ثمانية ملايين برميل في اليوم ، وهذا اقل بمليوني برميل من طاقة الانتاج المتوفرة حاليا لدى السعودية . وبالتالي فان السعودية ، وليس ايران ، هي التي لديها النفط الكثير الذي تحتاجه امريكا لتلبية احتياجات استيرادها المتصاعدة التي كان من المقرر لها قبل التطورات النفطية الاخيرة ان تبلغ بحلول عام ١٩٨٠ حوالي عشرين مليون برميل في اليوم .

ولكن امريكا ايضا تريد النفط رخيصا . وفي هذا المجال ايضا تتوافر لدى السعودية فرصة أفضل للمضاربة على ايران في تلبية احتياجات امريكا النفطية والفوز بالود الاول لديها . ان مطامح شاه ايران كما عبر عنها مرارا هي أن يستثمر موارد الثروة النفطية في تنمية المجتمع والاقتصاد الايراني بحيث يجعل من ايران في غضون خمسة عشر عاما أو ما الى ذلك احدى الدول الخمس الكبرى في العالم. وايران هي ، بعكس السعودية، لديها طاقة بشرية كبيرة كما لديها مواد أولية وفيرة ، بيد أن تحويل ايران الى احدى الدول الخمس الكبرى في العالم ، حسبما يطمح الشاه ، يتطلب استثمار كميات هائلة من الاموال لتطوير هذه الطاقة البشرية والمواد الاولية ، ولذلك فان حاجة ايران لتنمية مواردها المالية هي اشد بكثير من حاجة السعودية . وحيث ان شاه ايران لا يستطيع أن ينافس السعودية في زيادة انتاج النفط ليتفوق عليها في حجم الموارد المالية المتوفرة لديه ، فانه يحاول أن يعوض ذلك بواسطة رفع أسعار النفط فيتوفر له بهذا السبيل الحجم المطلوب من الاموال التي يتطلبها استثمار ما لدى ايران من طاقة بشرية ومواد أولية ، بينما ترى السعودية أن من مصلحتها أن تعيق سبيل ايران في الحصول على جميع الموارد المالية التي تصبو اليها لكي تبقى وتيرة تطوير موارد ايران البشرية ومن المواد الاولية في نطاق الاحتواء وقابلة للضبط ، في حين أن بميسور السعودية أن تحصل على وفرة في الاموال حتى مع انخفاض اسعار النفط وذلك عن طريق زيادة انتاجها .

ربما كانت هذه الفكرة كمحاولة لسبر اغوار اسرار التعاكس في الاتجاهات الايرانية والسعودية من حيث أسعار النفط رفعا وتخفيضا مفرطة في عقلانيتها . وقد يكون حافز حكام السعودية لزيادة انتاج نفطهم وتخفيض أسعار النفط هو مجرد الاستجابة لرغبة الامريكيين للفوز برضاهم وودهم الاول على حساب ايران ، بيد أن المؤشرات تبين أن هذا الصراع بين ايران والسعودية داخل الخيمة الامريكية مرشح للاستمرار والتفاعل في المستقبل المنظور . ويبدو ان كفتيهما متعادلتان . فبتوفر الطاقة البشرية والمواد الاولية لدى ايران يتسنى لها أن تصبح أثقل من السعودية في حسابات الاستراتيجية العسكرية الامريكية في المنطقة ، في حين ان وفرة النفط لدى السعودية تتيح لهـا ان تحتل مكانة افضل في حسابات الاستراتيجية الامريكية الاقتصادية . واغلب الظن أن الامبريالية الامريكية ستحاول ان تستثمر هذا التنافس القائم بين حكام السعوديـة وشاه ايران داخل الخيمة الامريكية لصالحها بحيث تبقيهمـا معا داخـل حظيرتهـا السياسية فتحصل من السعودية وبجهودها على النفط وفـيرا ورخيصا نسبيا بينما يكون لها في ايران قوة عسكرية استراتيجية ضارية فعالة عند الحاجة . ولكن هـل سيتمكن مخططو ومنفذو السياسة الامريكية من المحافظة على هذا التوازن الدقيـق القائم بين احتياجاتهم من كل من السعودية وايران فيحافظوا على البلدين معا داخـل حظيرتهم ؟

خلال الشهور المشحونة التي انقضت منذ حرب اكتوبر مرت فترات لعب خلالهـا كل من حكام السعودية وايران ورقة فرنسا للضغط على امريكا . السعودية لوحـت

لفرنسا بصفقة نفط مقابل تكنولوجيا مقدارها ٨٠٠ مليـون طن من النفط في غضـون عشرين عاما لم يقدر لها ان تشهد النور حتى الان ، أما شاه ايران فعقد خلال الشهور القليلة الماضية مع فرنسا صفقة أولية : نفط مقابل تكنولوجيا وبالذات مفاعلات نووية قيمتها اكثر من ثلاثة الاف مليون دولار . وقد تكون هذه مجرد دفعة أولى على حساب زغزغة امريكا للفت انتباهها والفوز بودها الاول .

وبناء عليه ، فان الصراع السعودي الايراني الجاري ضمن الخيمة الامريكية هو أحد البؤر الاساسية التي ستحاول الامبريالية الامريكية أن تنفـذ من خلالها لشـق صفوف اقطار منظمة « الاوبك » وابقاء نفط هـذه المنطقة احتياطيا لصالـح قـوى الرأسمالية والاستعمار العالميين .

ثالثا : ان نقطة الاختبار الاساسية ، في غضون السنوات القليلة القادمة ، لمـدى نجاح الاقطار المصدرة للنفط في تقوية جبهتها وصلابة موقفها هي اتفاقها على تنسيـق انتاجها من النفط وفق برنامج منصف لكل منها على أساس احتياجاتها المالية وأوضاع ثروتها النفطية من حيث ضخامة الاحتياطي النفطي لديها او ضآلته الخ ... ذلك أن تسابق الاقطار النفطية على زيادة انتاجها بوتيرة سريعة حسبما جرى في السنـوات الخمس عشرة الماضية . فمثلا كان معدل ارتفاع انتاج النفط في منطقة الشرق الاوسط خلال الفترة ١٩٦٨ ــ ١٩٧٢ هو ١٢٫٥٪ في السنة في حين أن الزيادة السنويـة في استهلاك اقطار العالم (عدا الكتلة الاشتراكية) من النفط كانت ٧٫٥ ٪ والزيادة في استهلاك الطاقة بوجه عام بنسبة ٥٫٦ ٪ سنويا(٢٨) . فبسبب هذا التسابق في الانتاج بين الاقطار المصدرة للنفط والذي شجعت عليه شركات النفط الاحتكارية المتحكمـة بسياسات الاقطار المصدرة للنفط آنذاك زاد عرض النفط في الاسواق على الطلـب فتدنت اسعاره حتى ان الاحتكارات النفطية عمدت الى تخفيض اسعار النفط الخـام بنسبة ١٨٪ في عام ١٩٥٩ ثم مرة اخرى بنسبة ١٨٪ كذلك في عام ١٩٦٠ ، فانخفض بذلك دخل الاقطار المنتجة للنفط الى ٧١ سنت امريكي فقط من البرميل الواحد(٢٩) مما دعا بعض هذه الاقطار الى تأسيس منظمة أوبك في عام ١٩٦٠ لبحث السبل للمحافظة على حقوق الاقطار المصدرة للنفط . ان تسابقا كهذا في الانتاج بين الدول المصـدرة للنفط يجعلها جميعا في موقف ضعف ويكون سببا لان يدب الخلاف فيما بينها وبالتالـي لا تنخفض أسعار النفط فحسب بل تعود الاقطار المصدرة للنفط وسياساتها رهينة في يد شركات النفط الاحتكارية حسبما كان عليه الحال طوال السنوات الماضية قبـل حرب ٦ تشرين . وان مما يبعث على القلق في هذا الصدد انه توجد لدى بعض الدول الاعضاء في منظمة « أوبك » برامج طموحة لزيادة انتاجهـا زيادة كبـيرة في غضون السنوات القليلة القادمة . فكما أسلفنا هنالك مخطط لـدى السعودية لرفع معـدل انتاجها بحلول العام ١٩٨٠ الى ٢٠ مليون برميل في اليوم ، كذلك تعتزم ايران زيـادة معدل انتاجها اليومي الذي ينوف حاليا على ٦ ملايين برميل في اليوم الى ما معدله ٨٫٥ مليون برميل في اليوم في عام ١٩٧٧ ، بينما يعتزم العراق زيادة انتاجه البالغ حاليـا حوالي ٢ مليون برميل في اليوم الى زهاء ٣٫٥ مليون برميل في اليوم قبل نهاية العـام القادم ١٩٧٥ (٣٠) .

ان هذه البرامج والخطط لزيادة الانتاج في هذه الاقطار كانت قد وضعت قبل حرب ٦ تشرين والتطورات النفطية التي تلتها . وفي ذلك الوقت كان الطلب العالمي علـى النفط سائر نحو الازدياد بسبب رخص اسعاره بدرجة ملموسة بالنسبة الى جميـع مصادر الطاقة الاخرى بما في ذلك الفحم الحجري ، ناهيك عن مزايا النفط الاخـرى

من حيث سهولة نقله وتنوع منتجاته وشدة احتراقه ويسر استخدامه ونظافة احتراقه مما يجعله اقل تلويثا للبيئة . اما الان فان الطلب على النفط اخذ ينحسر تدريجيا نظرا لارتفاع أسعاره . فبالاضافة الى الاجراءات التقشفية التي اتخذتها الاقطار المستهلكة للنفط خلال الشهور التالية لحرب ٦ تشرين بسبب اضطراب ورود الامدادات النفطية، فان ارتفاع اسعار النفط حاليا جعل هذه الاقطار تضع الخطط وتشجع الناس على الحد من استهلاك النفط والطاقة بوجه عام ، ثم ان هذه الاقطار تضع الخطط الان للحد من الاعتماد على النفط في سد احتياجاتها المتزايدة من الطاقة واستبداله بمصادر طاقة اخرى كالفحم الحجري والطاقة الكهرمائية والطاقة النووية . ولكن ، من غير المحتمل أن تحقق هذه الخطط نجاحا كبيرا في الاستغناء عن النفط حتى عام ١٩٨٠ ، بل سيظل النفط حتى عام ١٩٨٠ هو مصدر الطاقة الرئيسي في العالم ثم تأخذ اهميته في التراجع ببطء بعد ذلك حتى مطلع التسعينات عندما سيصبح ذا منزلة ثانوية بالنسبة لمصادر الطاقة الاخرى البديلة (طاقة نووية وكهرمائية) ومصادر الطاقة البتكرة كالطاقة الشمسية وطاقة الرياح وحرارة الارض الجوفية الخ ... ويقدر خبير النفط والتر ليفي انه لو أفلحت اجراءات الاقطار المستوردة للنفط في تخفيض نسبة زيادة استهلاكها للطاقة من ٥ر٦٪ سنويا كما كانت عليه خلال الفترة ١٩٦٨ ــ ١٩٧٢ الى ٤ر٦٪ سنويا فان الحاجة من نفط الشرق الاوسط سترتفع من معدل ١٨ مليون برميل في اليوم عام ١٩٧٢ الى معدل ٢٣ مليون برميل يوميا عام ١٩٧٥ ثم الى ٢٩ مليون برميل يوميا عام ١٩٨٠ ، وهذا يعني ان الزيادة السنوية لمستورداتها من نفط الشرق الاوسط ستكون خلال هذه الفترة (١٩٧٤ــ١٩٨٠) بمعدل ٣ر٦ ٪ سنويا(٣١). أما اذا كانت خطط التقشف في الاقطار المستوردة للنفط تخفض معدل النمو في استهلاكها من الطاقة الى ٣ر٣٪ ، فان حاجتها من نفط الشرق الاوسط سترتفع الى ما معدله ١٩ مليون برميل في اليوم فقط عام ١٩٧٥ ثم ما تلبث ان تنخفض الى ١٨ مليون برميل في اليوم في عام ١٩٨٠ ، اي ان متوسط النمو السنوي لاحتياجات الاقطار المستوردة من نفط الشرق الاوسط ستكون ١ر٠ ٪ سنويا فقط خلال الفترة (١٩٧٢ ــ ١٩٨٠)(٣٢).

ومن جهة أخرى بدأت اقطار السوق المشتركة الاوروبية تعد الخطط والبرامج للتقشف في استهلاك الطاقة وتقليل اعتمادها على النفط الذي أخذت مستورداته ترهق موازين مدفوعاتها وتوقعها في ازمات مالية شديدة الوطأة . « فيفيد تقرير أعدته لجنة السوق الاوروبية المشتركة أن بامكان اقطار السوق أن تخفف من اعتمادها على النفط المستورد بحيث يصبح في عام ١٩٨٥ يشكل ٤٠٪ من اجمالي الطاقة المستهلكة في دول السوق الاوروبية بدلا من مستواه الحالي الذي يبلغ ٦٠٪ »(٣٣). ويضيف التقرير المذكور ان « على أقطار السوق الاوروبية المشتركة ان تشجع في الوقت ذاته استهلاك الكهرباء بحيث ترتفع حصتها من اجمالي استهلاك الطاقة بحلول العام ١٩٨٥ من ٢٥٪ الى ٣٥٪ والغاز الطبيعي من ٧ر١٢٪ الى ٢٥٪ والطاقة النووية من ٥ر١ ٪ الى ٥ر١٧ ٪ »(٣٤).

ازاء هذا كله ، اذا مضت الاقطار المصدرة للنفط في الشرق الاوسط قدما في تحقيق برامج توسيعات الانتاج لديها حسب المخططات التي كانت قد وضعت قبل حرب ٦ تشرين ، فان كميات النفط المنتجة في الشرق الاوسط ستتزايد خلال الفترة (١٩٧٤ ــ ١٩٨٠) بمعدل سنوي يزيد على ١٥٪ ، ومثل هذا الامر يخلق فائضا كبيرا في كميات النفط المعروضة في الاسواق على الطلب مما يؤدي حتما الى انخفاض اسعار النفط بنسبة هذا الفائض وبالتالي انخفاض عائدات الاقطار المصدرة من نفطها .

ان هذا الواقع يدعو الدول الاعضاء في منظمة « أوبك » الى مباشرة تنسيق جهودها لبرمجة انتاجها بصورة عقلانيةومنصفة لكل منهما . فمثلا ان الانتاج الحالي لكل من السعودية وايران هو مرتفع بدرجة قد تدعو المصلحة المشتركة للدول الاعضاء في منظمة « الاوبك » الى تخفيضه . ولذلك ، ان خططها السابقة لرفع انتاجها بنسبة كبيرة فيه انتهاك لحق شقيقاتها الاخريات الاعضاء في منظمة « أوبك » مثلما انه يضر بمصالح جميع أعضاء « الأوبك » بما فيه مصالحها هي نفسها . في حين أن العراق مثلا الذي لديه طاقة بشرية كبيرة نسبيا ومصادر مواد أولية هائلة تتطلب موارد مالية وافرة لتطويرها ما زال معدل انتاجه دون ٢ مليون برميل في اليوم علما بأن لديه احتياطي نفطي هو الثاني في ضخامته بعد السعودية ، ولذلك ، فان له حقا مشروعا في زيادة انتاجه من النفط لتتوفر له من عائداته الموارد المالية الضرورية لتطوير طاقته البشرية ومصادر مواده الاولية من زراعة وثروة معدنية الخ اسوة بايران والسعودية . ولذلك فان برمجة انتاج الاقطار المصدرة للنفط بصورة منصفة تقتضي الاخذ باعتبارين في تقدير كمية الانتاج المسموح بها لكل منها ، **أولهما** : مدى احتياجات ومتطلبات ذلك القطر من الموارد المالية في ضوء مستلزمات تطوير طاقته البشرية ومصادر مواده الاولية . **وثانيهما** : مدى ضخامة الاحتياطي النفطي لديه . فالعراق على هذا الاساس ينبغي له أن تتساوى طاقة انتاجه من النفط مع مستوى انتاج ايران البالغ ٦ ملايين برميل في اليوم ، لان احتياطي العراق من النفط اكبر بنسبة ملموسة من احتياطي ايران ، في حين ان عدد سكان ايران اكثر من سكان العراق .

بفضل سياسة برمجة للانتاج عقلانية كهذه تستطيع الاقطار المصدرة للنفط ان تغلق على نفسها بابا واسعا يمكن أن تنفذ منه الدسائس الاستعمارية لتفريق صفوفها والسيطرة عليها جميعا .

رابعا : ولعل مما يشكل نقطة ضعف واضحة في صفوف دول منظمة الاقطار المصدرة للنفط ستسعى الدوائر الاستعمارية للتسرب داخل الاوبك من خلالها هي البنية السياسية والاجتماعية الهشة لبعض الدول الاعضاء مما يجعلها مكشوفة امام ضغوط ودسائس الاستعماريين . ولذلك ستسعى الدوائر الاستعمارية للتسرب من خلال هذه الثغرة لتصديع صفوف « الاوبك » من الداخل بحيث يتجه اعضاؤها اتجاهات متضاربة فتتفجر . ولكن ، في نهاية المطاف تظل المملكة العربية السعودية هي مركز الثقل الرئيسي داخل منظمة « أوبك » ، ويتوقف على اتجاهاتها ومواقفها في المستقبل مدى صمود هذه المنظمة في وجه الهجمة الامبريالية .

من أجل « أوبك » متحدة وقوية :

ان السبيل الوحيد امام الدول الاعضاء في منظمة « أوبك » للصمود في وجه الضغوط والدسائس الاستعمارية التي لن تتوقف يقتضي منها :

أولا : أن تبقي صفوفها مرصوصة وان تنسق مواقفها السياسية بحيث تعامل الاقطار الرأسمالية المستهلكة للنفط ككتلة واحدة وبموقف واحد . ولا شك ان معالجة شذوذ عضو او اخر بالحكمة والروية يفوت على الاستعماريين دسائسهم في بعض المناسبات . وخلال الشهور الماضية لعبت الديبلوماسية الجزائرية دورا هاما في التوفيق بين موقف السعودية وايران داخل الاوبك مما حفظ لهذه الاقطار وحدة منظمتهم حتى الان .

ثانيا : ان لا تذعن للتهويشات الاستعمارية والا تستكين أمام تهديداتها ، بل عليها أن تمضي قدما لاستعادة جميع حقوقها في ثروتها الوطنية من شركات النهب الاستعماري ، وأن تتصرف بمواردها المالية وفق مصلحتها .

ثالثا : أن تستثمر مواردها المالية في تنمية مجتمعاتها واقتصادها وفي تنمية اقتصاد شعوبها والمجتمعات العربية ومساعدة اقطار العالم الثالث بسخاء وخلق جبهة واسعة من الانصار .

رابعا : أن تسلك مناورات محسوبة لشق صفوف معسكر الدول الرأسمالية فلا تدعها تتكتل ضدها في جبهة واحدة موحدة .

خامسا : أن تنظم حملة اعلامية واسعة موجهة للقطاعات العريضة في المجتمعات الرأسمالية وكذلك لاقطار العالم الثالث لفضح أكاذيب وتهويشات الاستعماريين والشركات الاحتكارية وبث الحقائق والمعلومات على أوسع نطاق لاظهار المسؤول الحقيقي عن ارتفاع أسعار منتوجات النفط والتضخم الخ .

---

١ ـ صحيفة « **النهار** » البيروتية، في ١٩٧٤/٩/٩.
٢ ـ صحيفة « **السفير** » البيروتية ، في ١٩٧٤/٩/٢٥ .
٣ ـ « **السفير** » ، في ١٩٧٤/٩/٢٩ .
٤ ـ « **السفير** » ، في ١٩٧٤/٩/٣٠ .
٥ ـ الاب جان دوكربيه « لعبة النفط الدولية » **مجلة البترول والغاز العربي** ، آب ١٩٧٤ نقلا عن مجلة « **انتربريز** » الفرنسية ، ٨ـ١٤ تشرين الثاني ١٩٧٣ .
٦ ـ أنظر « **السفير** » ، في ١٩٧٤/١٠/١ .
٧ ـ انظر « **السفير** » ، في ١٩٧٤/٩/٣٠ .
٨ ـ **المصدر ذاته** .
٩ ـ « **النهار** » في ١٩٧٤/١٠/٢ .
١٠ ـ نشرة « **عالم النفط** » في ١٩٧٤/٤/٦ .
١١ ـ « **عالم النفط** » في ١٩٧٤/٣/٢٣ .
١٢ ـ « **عالم النفط** » ، في ١٩٧٤/٦/٢٢ .
١٣ ـ « **عالم النفط** » ، في ١٩٧٤/٤/٦ .
١٤ ـ « **السفير** » في ١٩٧٤/٩/٢٦ .
١٥ ـ « **النهار** » ، في ١٩٧٤/١٠/٢ .
١٦ ـ « **السفير** » ، في ١٩٧٤/٩/٢٤ .
١٧ ـ « **السفير** » ، في ١٩٧٤/٩/٢٩ .
١٨ ـ « **عالم النفط** » ، في ١٩٧٤/٧/٢٧ .
١٩ ـ « **السفير** » ، في ١٩٧٤/٩/٢٤ .
٢٠ ـ « **السفير** » ، في ١٩٧٤/٩/٣٠ .
٢١ ـ أنظر نشرة « **عالم النفط** » ، في ١٩٧٤/٤/٢٠ لهذه الفترة والفقرات التالية .
٢٢ ـ « **عالم النفط** » ، في ١٩٧٤/٣/٢٣ .
٢٣ ـ « **عالم النفط** »، في ١٩٧٤/٦/٢٢ .
٢٤ ـ « **عالم النفط** » ، في ١٩٧٤/٦/١٥ .
٢٥ ـ « **عالم النفط** » ، في ١٩٧٤/٩/١٤ .
٢٦ ـ « **عالم النفط** » ، في ١٩٧٤/٩/٢١ .
٢٧ ـ **المصدر ذاته** .
٢٨ ـ والتر ليفي « التعاون النفطي العالمي او الفوضى العالمية » ، أنظر مجلة « **الشؤون الخارجية** » الامريكية ، عدد تموز ١٩٧٤ .
٢٩ ـ الاب جان دوكربيه « لعبة النفط الدولية »، أنظر **مجلة البترول والغاز العربي** ، عدد آب ١٩٧٤ .
٣٠ ـ **المصدر ذاته** .
٣١ ـ والتر ليفي : « التعاون النفطي العالمي او الفوضى العالمية » ، مجلة « **الشؤون الخارجية** » الامريكية ، عدد تموز ١٩٧٤ .
٣٢ ـ **المصدر ذاته** .
٣٣ ـ مجلة «**النفط**» Petroleum Economist عدد نيسان ـ ابريل ١٩٧٤ .
٣٤ ـ **المصدر ذاته** .

التعاون العربي الافريقي وقضية فلسطين

الدكتور سامي منصور

ان قيام الملك حسين ـ ملك الاردن ـ ببيع السلاح الى الحكم العنصري في جنوب افريقيا مسألة لا يجب أن تعالج بالصمت العربي المشوب بالخجل ، ولا بالاعتذار المملوء بكلمات النقد للحكم الهاشمي . فلا الصمت ولا الاعتذار يمكن أن يعالج مسألة على مثل هذا القدر من الخطورة والحيوية ، بل هي تحتاج الى معالجة صريحة وموضوعية تضع النظام الهاشمي في موقعه الصحيح من العرب أمام الدول الافريقية بوجه خاص والعالم الثالث بوجه عام .

- فرئيس وزراء الاردن نفى نفيا قاطعا أمام الدول العربية ان الاردن باع سلاحا الى الحكم العنصري في جنوب افريقيا **ثم اعترف لبريطانيا بأن الاردن فعل ذلك فعلا ووعد بالا يتكرر ذلك** . وهو أمر لا بد أن يكون واضحا بهذه الصورة .
- ان صفقة السلاح قد تمت في وقت يطرق فيه العرب كل الابواب بحثا عن السلاح، والحرب دائرة مع اسرائيل .
- الصفقة تمت مع دولة كانت ولا زالت أحد مصادر الدعم الاساسي لاسرائيل بعد الولايات المتحدة ، فهي تقدم لاسرائيل الطيارين والصواريخ والمجندين ، والاردن الهاشمي يقدم لها السلاح ـ ! ـ وهي عدو افريقيا الاول ، بينما دول افريقيا تقف مع العرب .
- ان جنوب افريقيا هي الصورة الافريقية لاسرائيل . فهي استعمار استيطاني لمهاجرين من دول الاستعمار ، تستولي على الارض وتبذل كل الجهد لابادة الشعب صاحب الارض ، وتجد الدعم العسكري والمالي من الولايات المتحدة .

وبذلك فان ما ارتكبه النظام الهاشمي في الاردن من جرائم ليست فقط استمرار في خط خيانة الامة العربية ، وطعن جديد للشعب الفلسطيني ولكنه ايضا غدر بالتعاون العربي الافريقي .

فاذا لم تسارع الحكومات العربية لمعالجة هذه الجريمة بوضوح مع الدول الافريقية ، فان اسرائيل سوف تتحرك بسرعة أملا في عودة العلاقات السياسية بينها وبين الدول الافريقية ، خاصة وان هناك من الدول الافريقية ما اجبره الواقع على قطع العلاقات مع اسرائيل مسايرة للسلوك الجماعي الافريقي ، وتنتظر مثل هذه الدول اي فرصة أو مبرر لاعادة علاقاتها مع اسرائيل مثل كينيا التي تكاد تأخذ موقف « الملكي اكثر من الملك » . وسلوك الاردن الهاشمي يعطي الفرصة لمثل هذه النظم .

والحقيقة ان التعاون العربي الافريقي ثروة لا بد من المحافظة عليها من التبديد بل وقوة للعرب لا بد من دعمها لتزداد رسوخا . فلا بد من النظر اليه في اطار :

اولا : انه جزء أصيل من المعركة بين العرب والاستعمار ممثلا في الصهيونية .
فاسرائيل قد أدركت منذ البداية اهمية الساحة الافريقية فركزت دبلوماسيتها لضرب

المصالح العربية فيها . ونجحت بعض الوقت وكان من المستحيل أن يستمر هذا النجاح بمجرد ان انكشف الوجه الاستعماري لها أمام الدول الافريقيـــة . وبالتالي فهزيمة الصهيونية على ساحة افريقيا هي جزء أصيل من هزيمتها على الارض العربية .

ثانيا : انه في النهاية رصيد دعم للنضال الفلسطيني . والنضال ليس فقط بالسلاح ولكنه بالعمل السياسي والاعلامي . ويكفي أن نعرف ان المؤامرة الامريكيـــة لمحاولة وضع النضال الفلسطيني في الامم المتحدة تحت اسم الارهاب ، وذلك في الدورة الماضية ــ ٢٧ ــ للجمعية العامة قد فشلت بفضل ادراك الدول الافريقية لأبعاد المؤامرة . وانتهت المناقشة بأن أقرت الجمعية العامة بأغلبية ٧٦ صوتا ضـــد ٣٥ وامتناع ١٧ مشروع القرار الذي تبنته دول العالم الثالث وفي مقدمتها المجموعة الافريقية باعتبارها اكبر المجموعات الدولية في الامم المتحدة وأهم ما فيه « اعادة تأكيد حق تقرير المصير والاستقلال لكل الشعوب التي تعيش في ظل الاستعمار والعنصرية والاشكال الاخرى من السيطرة . **وتسجل حقها في النضال المسلح ، وخاصة نضال حركات التحرير في ضوء ميثاق الامم المتحدة** » . وسجل مواقف افريقيا على هذا الطريق طويل .. ولا بد ان نحرص عليه .

ثالثا : ان افريقيا هي العمق الاستراتيجي لاي حرب عربية مع اسرائيل ــ ولا يزال الباب مفتوحا لجولات حربية أخرى ــ ، وخاصة وان هناك دولا مثل « اثيوبيا » تعتبر شريكة مع العرب في مدخل البحر الاحمر الجنوبي ، كما انها العمق الاستراتيجي لاي عمل سياسي بحكم ما لها من ٤٢ صوتا في الامم المتحدة . فافريقيا لها وجود ان كان الحديث والاحتكام للسلاح وهي ايضا موجودة ان كان العمل في مجـــال السياسة والدبلوماسية .

فان أدركنا أهمية ذلك لا بد أن يكون واضحا في الاذهان ان الموقف الافريقي الجماعي في ظل آثار حرب اكتوبر يواجه بعض المخاطر : فالفرصـــة المتاحة للعمل العربـــي الافريقي يندر أن تتاح في كل وقت وأي وقت . فبقـــدر ما هي فرصة ذهبية الا أنها ايضا في اعتقادي فرصة أخيرة فان ضاعت فان خروج العمل العربي من افريقيا سوف يكون بلا عودة على الاقل لسنوات طويلة .

كما ان اسرائيل تقف على الابواب الافريقية في يقظة ومتابعة لموقف التحرك العربي ، وهي تنتظر اي خطأ او تخاذل لتعود . فان عادت فهي بلا شك سوف تبقى هذه المرة لسنوات طويلة .

ثم ان الاهتمام بافريقيا لا يجب أن يوضع وكأنه موضة مثل موضة الازياء تنتشر حينا وتختفي احيانا أخرى . ولا يجب النظر اليه فقط باعتباره مسألة استراتيجية بل انه في الواقع الدماء التي تجري في شرايين الاقتصاد العربي اذا أراد العرب لاقتصادهم أن يبقى شبابا مع الايام ، حيويا في مواجهة الزمن .

فخطأ تصور أن دولة ــ اي دولة ــ مهما عظم حجمها مثل الولايات المتحدة يمكن أن تكون بديلا للدعم الافريقي للعرب .

وأكثر ما يعكر المناخ المتاح للتعاون العربي الافريقي اليوم : بيع الاردن للسلاح الى الحكم العنصري في جنوب افريقيا ، وازمـــة الطاقة وما خلفته مـــن مشاكل للدول الافريقية .

ومن الواضح حتى الان ان العمل العربي على المستوى السياسي مدركا لابعاد الموقف وعقباته . وقد تبلور ذلك في قرار مؤتمر القمة العـــربي بالجزائر في نوفمبر ١٩٧٣ بدعم التعاون العربي الافريقي وانشاء بنك عربي افريقي برأسمال قدره ١٩٥

مليون دولار . وفي نفس الوقت ــ وبالتحديد قبل مؤتمر الجزائر بأيام ــ قررت منظمة الوحدة الافريقية انشاء جهاز التعاون الاقتصادي العربي الافريقي .

وتتابعت القرارات ، وبقي أن تتحول الى خطة عمل متكاملة وليست مجرد عون لمواجهه ازمة . فالدول العربيه المنتجه للبترول قررت تقديم ٥٠ ٪ من القروض التي طلبتها الدول الافريقيه لمساعدتها على اجتياز الازمات التي نتجت عن ارتفاع أسعار البترول بعد القرار العربي بحظر البترول في حرب اكتوبر . وكانت منظمه الوحدة الافريقية قد اقترحت على الدول العربية الثمانيه أن تقدم دفعة أولى في حدود ٢٥ ٪ من هذه القروض ، الا ان الدول العربية قررت رفع الدفعة الاولى الى ضعف المطلوب بعد أن تبين ان جملة المبلغ لا يتجاوز ٩٠ مليون دولار فقط .

ولكي تبدو المسألة في حجمها الطبيعي لا بد من توضيح مدى الخسائر التي تعرضت لها الدول الافريقية بسبب رفع أسعار البترول وهي دول صديقة وحليفة للعرب في معركتهم . فنجد مجموعتين من الدول الافريقية .

مجموعة اولى وهي ١١ دولة لديها مصافي بترول ولكنها تستورد البترول الخام لعمل هذه المصافي . وباستمرار اسعار البترول على ما وصلت اليه في العام الماضي وهو ١٢ دولارا للبرميل فان هذه الدول سوف ترتفع قيمة وارداتها البترولية بحوالي ٢٤٢ ٪ عما كانت عليه في العام الماضي اي ترتفع من ١٨٥ مليون دولار ١٩٧٣ الى ٦٣٤ مليون دولار هذا العام .

والمجموعة الثانية وهي ٢٢ دولة وهي التي تستورد البترول بعد تكريره سوف يكون عليها أن تدفع هذا العام اكثر من ٤٢٧ مليون دولار بعد أن كانت تدفع ١٦٦ مليون دولار لنفس الكميه في العام الماضي اي بزيادة ١٥٧ ٪ في خلال عام واحد .

وبذلك سوف يكون على ٢٢ دولة افريقية المستوردة للبترول دون ان يكون لديها اي مورد بترولي ذاتي أن تدفع ما يزيد عن مليار دولار ــ الف مليون ــ للبترول هذا العام مقابل ٤٠٠ مليون دولار لنفس الكمية في العام الماضي .

وهكذا نجد ان الدول الافريقية قد دفعت ثمنا لمعركتنا مع الدول التـــي تقف وراء اسرائيل . وكان لا بد من معالجة المشكلة بسرعة وخاصة وان اسرائيل استغلت ذلك في حملة اعلامية مسعورة مدعمة بكل اجهزة الاعلام الامريكية لكسر حلقات التعاون العربي الافريقي .

واليوم يواجه العرب تحديا سافرا مـــن الولايات المتحدة بعـــد أن هدد الرئيس الامريكي فورد الدول العربية المنتجة للبترول . واذا كانت الضجة التي اثارها تهديد فورد قد جعلته يتراجع عن تهديده وان لم يكن قد تنازل عنه فان ذلك يكشف من جديد اهمية التعاون العربي الافريقي .

فان استطاع العرب من خلال هذا التعاون تكوين جبهة الدول المنتجة للمواد الاولية بين العرب وافريقيا لكانت قوة اقتصادية عملاقة تكفي لمواجهة مثل هذه التهديدات الامريكية فافريقيا ليست كما يتصور البعض هي الفقر والتخلف بل هي في الاساس كنز مملوء بالثروات . وهذه بعض الامثلة : ان نسبة ما تنتجه افريقيا من المواد التالية بالنسبة الى الانتاج العالمي (عام ١٩٧٠) هو : الكوبالت ٦٦٫٣ ٪ ، الماس ٧٦ ٪ ، الذهب ٨٠٫٦ ٪ ، الفوسفات ٢٣٫٥ ٪ ، النحاس ٢٠٫٥ ٪ ، الحديد ٩ ٪ . هذا الى جانب احتكار نسبة هائلة من انتاج عدد من المحاصيل الزراعية مثل الكاكاو والقطن والذرة والقمح ، مع عدم اغفال مصادر الطاقة من فحم وكهرباء وبترول .

وقد حدث لهذه الثروات نفس ما حدث للبترول العربي مـــن استنزاف بلا حساب ورفع أسعار تعود أغلبها الى الشركات الاجنبية وتدفع ثمنها الدول المنتجة !.. وعلى سبيل المثال نجد أنه في العام الماضي تضاعفت أسعار القمح ٣ مرات ، وقفزت اسعار النحاس في سوق المعادن بلندن من ٥٠٠ جنيه استرليني للطن في بداية ١٩٧٣ الى ٨٥٠ جنيها في نهاية نفس السنة ثم الى ١١٢٩ جنيها في مارس من العام الحالي . كما ارتفعت أسعار التصدير من ١٦٠٠ جنيه الى ٢٧٠٠ جنيه ثم ٣٦٥٠ جنيها في نفس الفترة . **وبلغ التشابه الى حد ان حتى الدول المستهلكة لثروات افريقيا هي نفسها الدول التي تستخرج هذه المعادن من باطن الارض مثلما هو الوضع تماما في البترول العربي .**

فان اضفت ذلك الى ما لدى العرب من مصادر البترول لظهر مدى ضخامة حجم التجمع الافريقي العربي في مواجهـــة استغلال الدول المستهلكـــة للمواد الاولية وفي مقدمتها الولايات المتحدة .

والغريب انه رغم كل هذه الثروات وما لم يستغل بعد أكبر ، فان افريقيا تعاني الكثير والعرب يستوردون الكثير بشروط غير منطقية . فنحن في حاجـــة الى القمح وافريقيا لديها أراض زراعية تفوق طاقتها دون استغلال وكثير منها يصلح للتوسع في زراعة القمح ويكفي لاحتياجات ليس العرب فحسب بل والعالم الثالث كله . ومثال القمح يمكن أن يقال عن كثير من المجالات ويمكن منعا لضياع خيـــوط الموقف وسط التفاصيل تركيز الخيوط في خطوط رئيسية يمكن أن تأتي تحتها كل الامثلة والتفاصيل من الطرفين .. العربي والافريقي .

فتجد أن افريقيا تحتاج لاستغلال ما لديها من امكانيات وثروات الى :

١ ــ الاموال التي تقدم بلا شروط سياسية أو قيود على استقلالية كل دولة . هذا من الوجه السياسي اما الاقتصادي فهي اموال لا تتحول الى عملية استنزاف مستمر لثروة افريقيا تحت شعار الربح المطلق ، وتتكرر بذلك قصة الاستغلال لافريقيا وان كانت هذه المرة تحت رايات الاستقلال السياسي . وليس معنـــى ذلك ان الاموال المطلوبة يجب أن تكون مساعدات او منح بل على العكس هي يمكن ويجب ان تكون اما قروضا بفوائد محدودة تحقق ربحا مقبولا لاصحابها كما تؤدي دورهـــا الاقتصادي لافريقيا واما أن تكون استثمارات سوف تحقق مؤكدا معدلات ربح معقولة ويتوفر لها جو الامان طالما هي لا تتحول الى عملية الاستنزاف والاستغلال .

٢ ــ خبرة فنية تستطيع أن تحقق للانتاج المطروح مستوى فنيا معقولا يفي بالغرض المطلوب . وتتعدد مجالات النقص في الخبرة ابتداء من الزراعة وانتهاء بالصناعة بل وفي كل المجالات حتى في مجال العلوم الانسانية من اعلام وتعليـــم وثقافة الى عمـــل الاحصاءات والتعدادات السكانية . فافريقيا التي تشهد بشرا يموتون من الجوع الى حد ان دولة مثل اثيوبيا فقدت خلال السنوات الثلاث الماضية ما يصل الى ١٠٠ الف انسان بسبب الجوع ، ومع ذلك فان نصيب الفرد من الارض الزراعية هـــي ثلاثة أضعاف نصيب الفرد في اوروبا . والمراعي المتاحة للماشية سبعة أضعاف ما هو متاح في أوربا ومع ذلك فالثروة الحيوانية في القارة بالغة الفقر .

والمهم أن تحصل افريقيا على هذه الخبرة دون مبالغة في الاجر او القيمة . فأوربا وامريكا تقدمان لدول افريقيا الشباب من أحدث خريجي المعاهـــد الزراعية الذيـــن يفتقرون الى الخبرة على أنهم خبراء . ويحصل الواحد منهم على أضعاف أجر الافريقي . وليست المسألة فقط في الاجر ولكن في الدور السياسي الذي يقوم به أهل الخبرة من التجسس أو التخريب الاقتصادي والثقافي ، وما الى ذلك من أدوار تجعل افريقيا في

حاجة الى مصادر للخبرة الفنية تخدم افريقيا باخلاص وصدق في معركة الانتاج .

ولا بد من اشارة سريعة من باب التذكر في هذا المجال ان اسرائيل تسربت الـــى افريقيا من هذا الباب ، وقد شاهدت على سبيل المثال ان السنغال مزرعة امريكية ضخمة قامت من خلالها اسرائيل بتقديم نظام للري تدرب عليه بعض الافريقيين للتغلب على مشكلة نقص المياه ، مع ان لدى العرب في هذا المجال خبرات بلا حدود !

٣ ــ قوى عاملة بشرية في المجالات التي تفتقر فيها الدول الافريقية الى ما يكفيها من هذه الايدي ، بشرط أن تعيش في ظل نفس الظروف الافريقية حتى لا تتحول الى عزلة تجعلها طبقة عليا يلفظها المجتمع الافريقي بعد فترة . فلا بد أن تعايشه بنفس شروطه. وليس من المعقول ان يأتي الرجل الابيض من مجتمعات متقدمة ويعيش الحياة الافريقية بينما نحن ابناء نفس القارة نرفض أن نقدم هذه القوى العاملة لافريقيا .

وللانصاف فان افريقيا تحتاج الى قوى عاملة في كل المجالات وعلى كل المستويات من مزارعين الى عمال صناعة الى مدرسين ومهندسين وأطباء . فافريقيا باستثناء ثلاث دول هي مصر ونيجيريا والجزائر تواجه نقصا في السكان الى حد ان الدعوة الى تحديد النسل في دولة مثل السنغال او زائير يمكن ان تكون كارثة بشرية . فيكفي أن نعرف ان هناك ١٠ دول افريقية يتراوح معدل كثافة السكان فيها بين ١ ــ ٣ اشخاص فقط في الكيلومتر المربع . وهناك ١١ دولة يرتفع فيها هذا المعدل الى ٤ ــ ١٠ أشخاص فقط . وطبعا تعتبر هذه الخلخلة السكانية تعبيرا عن العجز الهائل في القوى العاملة في كل المجالات بالاضافة الى مشكلة التعليم التي تجعل من القدرات الصالحة للعمل ندرة . ففي موزمبيق مثلا التي سوف تحصل على استقلالها في منتصف العام القادم نجد ان عدد حملة المؤهلات العالية فيها لا يتجاوز عشرة فقط بينمـــا حملة المؤهلات المتوسطة في حدود ١٠٠ شخص . ومطلوب انتاج وتسيير الدولة . وطبعا سوف تقوم البرتغال بسد هذا النقص وبالتالي تهدد الاستقلال الوليد .

وتحت هذه الخطوط الثلاثة يمكن ان تجتمع كل صورة الموقف الافريقي والمنافذ التي يتسلل منها الاستعمار للعودة مرة أخرى الى القارة الغنية بالثروات بينما مواطنوها يعيشون في الفقر والجوع والمرض .

وفي مواجهة ذلك نجد الصورة العربية محددة بهذه الخطوط :

١ ــ أموال عربية طائلة وغير مستثمرة بطريقة اقتصادية صحيحـــة حيث تترك معظمها مجرد أرصدة لدى البنوك الاوروبية وغيرهـــا تستغلها البيوتات الماليـــة في مشاريعها ومعظمها ضد مصالح العالم الثالث كله ، ولا تقدم لاصحابها الا فوائد الودائع المالية العادية ، بل وأحيانا لا تحتسب نتيجة المغالطة !

وقد ذكر تقرير لوزارة الخزانة الامريكية ان الـــدول المنتجـــة للبترول استثمرت في الولايات المتحدة ٧ مليارات من الدولارات كان منها ٤ مليارات في سندات حكومية والباقي ودائع في البنوك ، بينما استثمرت في أوربا ٥ مليارات كلها ودائع ، وانهـــا استثمرت بنفس الاسلوب ٣ مليارات دولار في كل دول العالم الثالث .

كما جاء في تقرير لبنك امريكي ان الاحتياطيات المتراكمة لدول الاوبك قد ترتفع الى ٦٥٠ مليار دولار سنة ١٩٨٠ ثم الى ١٢٠٠ مليار دولار سنة ١٩٨٥ . وهذا أمر غير منطقي لان دراسة علمية لمجالات الاستثمار الزراعي او الصناعي او حتى التجاري في افريقيا تؤكد ان معدل العائد منها أضعاف معدلات العائد من السندات والودائع .

حتى مسألة الامان فان رأس المال العربي المستثمر في افريقيا قد يكون أكثر أمانا من

استثماره في امريكا واوربا حيث حكومات يمكن ان تجمد هذه الارصدة اذا وجدت في حركتها بادرة خطر .

فان اضفنا الى ذلك القيمة السياسية للاستثمار لاكتملت الصورة . فاستثمار هذه الارصدة في افريقيا يدعم العلاقات العربية الافريقية ويحقق جبهة قوية وراء العرب في نضالهم من أجل حقوقهم الضائعة بينما استثمار هذه الاموال في امريكا ليست له قيمة بدليل انه لم يستطع حتى ان يجعل اي حكومة امريكية تقف ولو على الحياد في الصراع العربي الصهيوني بل على العكس تماما تقف موقف العداء .

وصحيح أيضا أن العرب أنفسهم ما زالوا في حاجة الى استثمار الاموال العربية في المشاريع العربية الا انه الاصح ان هذه الاموال العربية اكبر من طاقات الاستثمار المتاحة في العالم العربي كله في الوقت الحاضر ، ويمكن توجيهها الى مجالات تحقق الكسب الاقتصادي والسياسي في نفس الوقت بدلا من منحها قروضا الى اليابان أو الولايات المتحدة !

٢ ــ ان لدى الدول العربية خبرات فنية غير مستغلة ، ويمكن تصديرها الى من في حاجة اليها . وقد لا تكون هذه الخبرات على نفس المستوى من الخبرة العالمية ، ولكنها بقدر من التدريب والاعداد الخاص يمكن أن تقدم لافريقيا ما تحتاجه في هذه المرحلة وخاصة اذا كانت بشروط مقبولة ، ومن مصادر صديقة تبني ولا تهدم .

وقد يقال ان الدول العربية في حاجة الى هذه الخبرات ، فان كان ذلك صحيحا فيمكن تصديرها حاليا طالما هي غير مستغلة بل ومهدورة حقيقة بلا انتاج . والى أن تتاح لها المجالات يمكن ترك دول أفريقيا تستفيد منها .

٣ ــ أيد عاملة فائضة تمثل عبئا اقتصاديا على كثير من الدول العربية . وكثير منها قوى معطلة تبحث عن أي عمل ، وفي اي مجال حتى لو لم تكن مؤهلة له . ولا أظن أنني في حاجة الى نشر جدول بالقوى العاملة المعطلة والزائدة في العالم العربي في كل المجالات بينما دول افريقيا تستجير بنا ان نلبي طلبها من هذه القوى !

وواضح من مقابلة ما تحتاجه افريقيا بما لدى العرب انه في قدرة الدول العربية فعلا أن تصنع الكثير في افريقيا وتكسب أيضا الكثير بل وأكثر من كل عائداتها المستثمرة في سندات وأسهم في الغرب الى جانب الكسب السياسي وهو أغلى من كل شيء لانه في الاساس دعم للنضال الفلسطيني من اجل استعادة حقوقه .

ومثل ذلك يحتاج الى توقيع على أعلى المستويات حيث تركيز السلطة واضحا ولا بد من أن تعطى القيادات اشارة القبول لكوادرها الادارية والسياسية لتحول ذلك الى خطة عمل وان تشرع في تنفيذها فورا .

ولعل ذلك ما دفع الصومال في مؤتمر القمة الافريقي بمقديشو في يوليو الماضي الى دعوة الى عقد مؤتمر قمة عربي أفريقي مشترك . وقد وافقت الدول الافريقية من حيث المبدأ على فكرة المؤتمر وتركت للجامعة العربية دراسة الاقتــراح فان قبلت الدول العربية تبدأ منظمة الوحدة الافريقية مع الجامعة العربية في الاعداد له . وفي ظني انه مؤتمر يجب أن ينعقد بأسرع ما يمكن بشرط أن يحسن الاعداد له بحيث لا يتحول الى تظاهرة سياسية بل الى مؤتمر عمل تعرض عليه خطط ومشاريع للامر بتنفيذها فورا، اذا كان هناك ادراك حقيقي بأهمية التعاون العربي الافريقي ، وارادة صادقة لتحويله من مجال القرارات السياسية الى دائرة الواقع .

السابقون

للصحفي السوفييتي تسزار سولودار
ترجمـــة الدكتور شوقي العمـــري

سلسلة مقالات للصحفي السوفييتي تسزار سولودار نشرتها له مجلة « اوغونيوك » السوفييتية الواسعة الانتشار . وقد نشرت هذه السلسلة في اعداد متوالية خلال شهري ابريل ومايو من هذا العام . وهي تتحدث عن أوضاع اليهود السوفييت الذين تخلوا عن جنسيتهم السوفييتية وهاجروا الى (اسرائيل)... وبعدما شاهدوا حقيقة الواقع الاسرائيلي تمكنوا من الفرار من جحيم اسرائيل ... وهم يقيمون الان في فيينا ... وينتظرون مصيرهم المجهول .

[١]

المهاجرون : الابناء يدينون الآباء

ـــ اقترب القطار من رصيف محطة السكك الحديدية الغربية لمدينة فيينا . وكالعادة ، اندفع الناس من العربات . . وكان هناك خمسة أشخاص قفزوا على الرصيف متقدمين الجميع . لم يستقبلهم احد . ولم يكن من الصعب أن يقـــرأ الانسان في عيونهم تلك السعادة الغامضة لأناس ربما لم يعتقدوا بعد بأنهم قد تخلصوا من شيء قاهر ورهيب .

ـــ اين قابلت أناسا بمثل تلك العيون ؟ ألم يكن ذلك ربيع عام ١٩٤٥ عند مشارف برلين المحاصرة ؟.. لقد كان اليوغوسلافيون والدانمركيون والهولنديون الذين حررتهم القوات السوفييتية من أقبية التعذيب الهتلرية يسيرون منهكين ، وقد لمعت عيونهم بالأماني السعيدة حيث أنهم سيلتقون عما قريب بوطنهم !

ولكن مثل هذه الثقة لم تكن ولن تكون عند أولئك الناس الذين شاهدتهم ذلك المساء على رصيف محطة سكة حديد فيينا . لقد أدركوا شيئا واحدا فقط ، أدركوا أنه لا توجد هناك اية قوة تستطيع أن تعيدهم الى اسرائيل التي فروا منها بطريق غـــير مباشر مستخدمين بذلك حيلا متعددة .

ـــ فهل سيقبلهم الوطن الذي غادروه « بدون تفكير » على حد تعبيرهم ؟ . ـــ كلا ، انهم لم يغادروا الوطن ، وانما خانوه . والآن فقط ، وبعد هذا التأخير المميت ، بدأ يعترف كل من الميكانيكي لازار تشودنوفسكي والصراف بيغا شفارتسمان ، وهما من مدينة كييف مهد صباي ، بأنهما بتخليهما عن جنسيتهما السوفييتية في سبيل الهجرة الى اسرائيل قد خانا الوطن السوفييتي .

لقد أمضيا أول ليلة لهما مع عائلتيهما في مدينة فيينا علـــى رصيف المحطة . وكانا ينظران بكل خوف . . نحو البوليس الذي كان يتمشى هناك ذهابا وايابا . شاهدهما عميلان من الفرع المحلي للوكالة الصهيونية . هذا الفرع الذي يوحي وكأنه يقوم بأعمال الهجرة فقط ، مع أن موظفيه في حقيقة الامر ، يراقبون كـــل يهودي يجد نفسه على

الاراضي النمساوية . لم تبد على ملامحهما الان أية بشاشة او مجاملة، كما حدث ذلك منذ سنة ونصف عندما استقبلا هنا في فيينا هؤلاء الكييفيين السابقين المتوجهين الى « أرض الميعاد » .

وهما الآن ينذران لازار الفوفيتش ويهددانه بغضب قائلين :

ــ لا تطلب الصفح من أجل استعادة الجنسية السوفييتية . في فيينا توجد جالية صهيونية ثرية ، وتستطيع أن تجد لك مسكنا وعملا . عليك أن تعود لنفسك . بكل تأكيد ستثوب الى رشدك ، وترجع الى اسرائيل . واذا كنت لا ترغب في ذلك ، لا سمح الله ، فهناك بلاد كثيرة على هذا الكوكب . سيساعدونك في الوصول الى استراليا ، كندا ، نيوزيلاندا . أو ربما سيبسم لك الحظ وتجد نفسك في أمريكا . فقط لا تتشاجر معنا ، ولا تذهب الى القنصلية السوفييتية .

ولكنني منذ الصباح الباكر ، شاهدت مــن جديد في القسم القنصلــي لسفارتنا تشودنوفسكي وشفارتسمان . لقد جاءا مع بزوغ الفجر الى أبواب القنصلية لكي يأخذا مكانهما في أول الطابور عندما يحين موعد الاستقبال .

ــ سألتهما : أين العفش ؟

ــ عشرات الحقائب التي وصلت معنا الى مطار اللد تلاشت . اضطررنا أن نبيع كافة الاشياء التي أخذناها معنا من كييف ، والا لما استطعنا طوال الحياة أن نسدد ديوننا . آه ، كم كانت كثيرة تلك الديون التي سجلت على كل واحد منــا في الدفتر الازرق . لقد علمت أن هذه الوثيقة تعطى للقادمين الجدد الى اسرائيل مــن الرجال والنساء . ومنذ تلك اللحظة تبدأ عملية استعبادهم القاسية التي أمعن التفكير فيها .

ــ قابلت خلال عدة أسابيع أكثر من مائة من المواطنين السوفييت السابقين الذين فروا من اسرائيل بعد وصولهم اليها بقليل مثل تشودنوفسكي وشفارتسمان . ان المهاجر .. كلمة مرة . أما المهاجرون .. فهم أولئك الذين يسعون للخلاص من الكارثة المؤلمة التي لا تطاق . من الغزو العسكري المعادي . من الفاجعة الطبيعية المدمرة . من العدوى الرهيبة التي لا ترحم . والناس الذين التقيت بهم .. فروا ايضا من الكارثة التي لا تحتمل . من الصهيونية الشريرة المشبعة روحها بالشر والعدوان. من الشوفينية الجنونية المغطاة بالستار الديني . من الجفاف الروحي واللامبــالاة اللاانسانية التي يتميز بها مجتمع فيه الانسان للانسان ذئب . لقد فروا من الغربة . واتضح لهم أن دولة اسرائيل التي بشروهم بأنها « الوطن الجديد » ما هي الا غربة مرة .

ها هم الآن يبكون . يستغيثون كي يرجعوهم للوطــن . ويعدون بأنهم على أتم الاستعداد لان يكفروا عن خطاياهم بأي ثمن نتيجة تخليهم عن الجنسية السوفييتية . وهم موافقون على العيش في اي زاوية من البلاد السوفييتية . انهم قلقون ليس على مستقبلهم ، وانما على مستقبل أطفالهم .

ــ لقد استمعت الى الكثيرين : « لا أفكر بنفسي ، أريد فقط أن أرجع الطفل الى الوضع الطبيعي . هل من المعقول أن أستسلم لواقع يفرض على طفلي أن يتعلم التلمود من خلال العصا ! وانني لا أستطيع يوم السبت ، وهو يوم الراحة الوحيد أن آخذه الى المناطق الخضراء ، فقد منع « الحاخاميون » سير المواصلات العمومية في أيام السبت . ثمة أمر ، فسوف يستدعونه خلال سنوات للالتحاق بجيش المعتدي ! » .

ــ ولكن ، لست أدري لماذا صمت هؤلاء الذين استمعت الــى استغاثاتهم ، ولم

يحدثوني عن أهم شيء . فهم لم يذكروا لي مثلا كيف أن الاطفال واجهوهم مرارا بهذه الاسئلة :

ــ « لماذا يا أبي شوهت حياتي ؟ ، لماذا أبعدتني عن الوطن الذي يجب أن أصبح فيه انسانا حقيقيا ، والقيت بي في الغربة المقيتة ، حيث كل شيء هنا بغيض ومكروه » .

فهذا هو سيما لوشنير الطفل الذي بلغ من العمر ثلاثة عشر عاما كتب يقول بالحرف الواحد الى والده عندما حاول ذات مساء أن يهرب من عسقلان الى قبرص ، ومن هناك يركب الباخرة السوفييتية ويعود الى مدينته أوديسا التي تؤرقه في المنام وفي اليقظة : « الابناء يدينون الآباء » .

[٢]

صانعو الشقاء

ــ بأي شيء فكرتم حينما قررتم مغادرة الوطن العزيـز ؟ . . استمعت الى أجوبة مختلفة على سؤالي هذا . وكان البعض يجيب من مرض عقلي ، وحتى من حمى معدية غريبة في نوعها . لقد قالوا لنا ، أولئك الذين تطوعوا بنصحنا : « اسرائيل ، اسرائيل ، اسرائيل » فقط . ان كلارا روزنتال فلدشر وهي من مدينة بلتسي المولدافية تعلن أن سفرها الى اسرائيل كان حصيلة تلك الرسائل التي كانت تصل من اسرائيل وتتحدث عن « الحياة الزرقاء » على « أرض الاجداد المقدسة » .

« لقد أدركت بعد أن تجاوزني الوقت كثيرا أحد الاسباب الحقيقية التي كانت وراء ظهور هذه الرسائل منذ الساعات الاولى لوصولي الى الارض الاسرائيلية . لقد قابلت مدرسة الموسيقى ماريا لازارفنا فايتسمان المعروفة لدى جميع البلتسيين ــ نسبة الى مدينة بلتسي بجمهورية مولدافيا السوفييتية ــ ، بصعوبة عرفتها . . لقد شاخت خلال فترة قصيرة . . واستسلمت للمقادير . انها تعطي دروسا خصوصية في الموسيقى من حين لآخر . لان المدارس الموسيقية في اسرائيل توجد في العاصمة فقط . وكل درس من هذه الدروس يبلغ بها حتى ذروة الدموع . فآباء التلاميذ يرون متجردين من اية لياقة أن من حقهم اعطاء التوجيهات للمدرسة ، ومراقبة وقت حضورها وخروجها بالساعة .

ــ سألتها : اذا لماذا كتبت في رسائلك تقولين أنك تعيشين في اسرائيل حياة باهرة ؟ لقد تناقلت الايدي رسائلك ، وقضت على الكثيرين من الناس ! » . امتقع لون المدرسة ، وضغطت على قلبها بشدة « اني أشعر بالعار تجاه زملائي . اتذكرين . . لقد كنت انسانة في بلتسي ، وكنت أسير مرفوعة الرأس ، وكان الآباء والتلاميذ يبتسمون لي . أما هنا في اسرائيل فلقد أصبحت تافهة ، ولست مرغوبة من أحد ، واستسلمت أخيرا للمقادير . أحس بالعار لانني اعترف بذلك » .

وآخرون أجابوا على سؤالي موضحين خطأهم المدمر مــن خلال مشاعر يشوبها الاستنكار . قال لي ابرام بتيلاشفيلي الذي يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاما ، والذي كان فيما مضى . . في تفليسي يعمل ميكانيكيا لتصليح أجهــزة الراديو « لقد قضــى الشيوخ علينا نحن الشباب . . وحركت تلك الرسائل التي كانت تصل من اسرائيل المشاعر القومية والدينية . بيد أن القاء الذنب على الشيوخ أمر غير عادل أيضا . كذلك لم يخطر على البال أن هذه الرسائل مزورة ، وقد أمليت املاء ، وان أكثرها يحتوي على أكاذيب ساذجة . ولكن كانت هناك أيضا رسائل لم تبعث الفرحة على الاطلاق . فبمن تثق ، وبمن لا تثق . كثيرون هم الذين صدقوا ولكن كيف ! »

اما ريفا موسكوفيتش التي غادرت لاتفيا ووصلت منذ عدة شهور الى اسرائيل فقد كتبت الى ابنها تقول : « يجب الا تغادر ، فلن تستطيع العيش هنا » . لكن الابن حتى التخمة كان قد امتلأ بالوعود الصهيونية . وكان جوهر رده على أمه على النحو التالي : « لا حاجة لي تلك الام التي تنتقص من أرض الآباء المقدسة » . وهكذا يغادر لاتفيا الى اسرائيل . وعند وصوله لم يتمكن من رؤية أمه ، لانها كانت قد فرت من هناك .

ويتلقى ليبزر شايكيفيتش رسالة من أخيـــه الذي يعيش في اسرائيل . في هذه الرسالة ينصحه بدون أية مواربة أن يبقى في « بوكوفين » مدينته الغالية . ولكن ليبزر ينقل محتوى الرسالة الى جاره قائلا : « لقد كان أخي دائما خبيثا معي . أعلم أنه سعيد هناك ، ولا يريد لي أن أكون سعيدا مثله . ولكني لست غبيا . ومع ذلك فسوف أسافر ! »

وآخرون لم يجيبوا على سؤالي ، بكل بساطة انهم لم يتجاسروا أن يقولوا بماذا فكروا آنذاك عندما تخلوا عن جنسيتهم السوفييتية . لقد كانوا يتشدقون بكل صراحة ، أثناء مغادرتهم الاتحاد السوفييتي ، عن الشهد الذي ينتظرهم هنـــاك ، وبتعطش يتصيدون كل كلمة كاذبة من الاذاعات المعادية . والآن بعد أن فات الاوان أدرك موسى ماتوسفيتش غيتبرغ . . المهندس المتخصص في صناعة المعادن ، الذي ترك زوجته وابنه البالغ من العمر خمسة عشر عاما في دنبروبتروفسك :

« لقد قارن أحد الحقوقيين الغربيين المعروفين عملية ارسال المعلومات المعادية الى دولة أجنبية بعملية ارسال القذائف المدفعية . أية حقيقة تفرزها هذه الكلمات ! » لقد أدرك الكثيرون هذه الحقيقة ولكن بصورة متأخرة جدا .

اما الميكانيكي أبرام غيرشوفيتش غيتس من ريغا سابقا . . فقد صرخ الآن بصوت مسحوق : « اللعنة عليك يا « صوت اسرائيل » وعلى جميع أصوات الاذاعات الاخرى الكاذبة ! فكم من الشقاء حملت للناس » . ويضيف على الفور بنبرة حزينة . . بالطبع ، انها أصوات غريبة ، أصوات سامة ، ولكن من الضروري أن يكون للانسان رأس على كتفيه . أما أنا ففي لحظة من اللحظات فقدت رأسي .

— ومع ذلك بماذا فكر هؤلاء الناس عند مغادرتهم الوطن العزيز ؟ . .

من الاجوبة التي تذكرتها على سؤالي البسيط هذا كلمات الاوديسي عامل الاحذية روفيم الفوفيتش بلوفشتين ، الذي فر من اسرائيل مع ابنه البالغ من العمر الثامنة عشر عاما ، والذي كان من المفروض أن يستدعى للخدمة في الجيش الاسرائيلي :

— « بماذا فكرت عند مغادرتي اوديسا ؟ . . عن مأساتي آنذاك لم افكر . بدأت افكر متأخرا ، وفقط في اسرائيل ، عندما أعلنوا لابني « أنت جندي جيشنا في المستقبل ، وملزم أن تربي نفسك على الحقد ضد العرب » ولاول مرة فكرت وأنا في حالة فزع ، ما الذي ارتكبته ؟ . . والى أين جئت بولدي ! . . وأدركت ، كلا ، ان اسرائيل لا يمكن أن تصبح لي وطني الثاني ! »

عند مناقشة مسألة « الوطن الثاني » الذي تتحدث عنه بسخاء الدعاية الصهيونية تذكرت كلمات الكاتب السوفييتي الوطني الرائع ليف أبراموفيتش كاسيل :

— « لا يمكن أن يكون هناك اي وطن ثان لاولئك الذيـــن تربوا في ظل النظـــام السوفييتي . يوجد فقط وطن واحد للانسان السوفييتي . تذكروا . . واحد فقط ! » .

والآن . . وانا استمع بصبر الى شكاوى وانين الفارين من « أرض الميعاد » ، كثيرا

ما اتذكر كلمات ليف كاسيل الغاضبة عن « الوطن الثاني » . لقد اقتنعت أكثر فأكثر أن جميع مآسيهم وأحزانهم هي نتيجة حتمية لكونهم خانوا وطنهم .

ــ تحدثت مع بعض الذين التقيت بهم في فيينا مرتين وأحيانا ثلاث مرات . كثيرون رجوني ان أتعرف على مذكراتهم . كيف يتكلمون . . اعترافات . . لقد اقتنعوا جميعا . . كل على طريقته الخاصة . . عبر الذاكرة . . وأحيانا مــن واقع التجارب القاسية ، اقتنعوا بأن نظام الحياة الراسمالي الذي يعج بنظريات التفوق العنصري ليس لهم . . وليس لابنائهم أيضا .

ــ وددت لو أن روحي مالت الى الاعتقاد بأنهم جميعا بلا استثناء أصبحوا ضحايا الدعايات الصهيونية الكاذبة التي انفلتت من عقالها . ــ كلا ، لقد اتضح أن بعضهم كانوا ضحايا انطباعاتهم الوهمية الخاصة عن المجتمع الراسمالي . وبالدرجة الاولى اولئك الوصوليين الذين داعبهم الخيال « بتكوين مناصب » .

ان رومان كاتسوباشفيلي الطباخ السابق لاحد اشهر المطــاعم « ريتسا » على ضفاف البحر الاسود يفيض بالرغبة للعودة الى جورجيــا . فعرائضه المتعددة . . المكتوبة والشفهية ، تمتلىء بالحقائق الحزينة والتفاصيل ، التي حولت حيــاته في اسرائيل الى عذاب ، وبلا معنى . انني ميال . . ويمكن القــول انني أثق بكلمـــات كاتسوباشفيلي الحميمة عن أشواقه الى زوجته التي انفصل عنها كلمح البرق لكي يذلل صعوبات سفره الى اسرائيل . الا أنه لا يستطيع ان يكتم تلك المشاريع الزائلة التي زاحمت آنذاك رأسه . . ونخرت قلبه . وبما أنه طباخ ماهر . . وانسان يتمتع بصحة جيدة ، وعامل نشيط . . داعبت خياله امكانية تطوير مؤهلاته وانتشاره « خــارج الحدود » .

أما ميخائيل برانزبورغ . . وهو موسيقي . . يعيش في مدينة موسكو . . ويبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما . . فقد اقتنع نفسه بأنه يستطيع « خارج الحدود » فقط ! أن يتقن اتقانا كاملا العزف على الآلات الموسيقية وان يصبح قائدا شهيرا للاوركسترا . وعندما قرر ان يترك زوجته وابنته الصغيرة همس في اذن الكسندر كوفمان المهاجر الى اسرائيل قائلا : « وجه لي دعوة من قريب مزيف » . وعلى الفور وصلت الدعوة بتوقيع غامض « سومبولينسكي زاغافا » . ــ هل « سومبولينسكي زاغافا » رجال أم نساء ؟ ــ وهل هو توقيع ابن عم اسطوري ؟ أم ابنة خالة وهمية لا وجود لها ؟

يعتقد المهاجرون الفارون من « أرض الميعاد » والمقيمون في فيينا بأن الحظ قــد ساعد برانزبورغ ، لانه قبل سفره الى اسرائيل كان قد التقى بالعديد من الناس الذين فروا من هناك . . وتحدث معهم . وبعد هذا الحديث رفض أن يهاجر .

[٣]

سقوط الاوهام

ــ ان كل من هاجر الى اسرائيل هو صهيوني راسخ العقيدة . وهؤلاء المهاجرون الصهيونيون أطلقوا على انفسهم « المناضلين » وحتى « المنتصرين » . ولم يخفوا عن المواطنين السوفييت ــ وهم يفخرون بذلك ــ آراءهم المعادية ، وراحــوا علانيـــة ينشرون الافتراءات الصهيونية عن طبيعة حياتنا . واخذوا . . وبعد ، ما زالوا في طريقهم الى اسرائيل يعلنون على الملأ بأن الحظ قد واكبهم لانهم غــادروا البـــلاد السوفييتية . وهذا ما دعا السلطات الاسرائيلية ــ التي تشاركهم الراي ــ الى ان

تخلق لهم ظروفا ملائمة .. فمنحتهم على الفور جوازات سفر دائمة .

اعتاد الاسرائيليون ان يسموهم « المثاليين » وهم يختلفون عن « الماديين » او الذين يسمون « الوسطيين » ، بأن « المثاليين » في البداية أخذوا ينظرون بكل عجرفة لاولئك « الماديين » « الوسطيين » المتعطشين بشكل سافر « لحياة المتعة » والذين عزموا على ان يقتنوا « الرأسمال » ويحافظوا بسذاجة عليه .

في نفس الوقت .. حدث هذا منذ وقت قريب .. اخذ « المثاليون » أيضا .. وهم من أحط السفلة يواظبون على المجيء الى عتبات القنصلية السوفييتية في فيينا . مثلا : اللينينغرادي الحقوقي السابق غريغوري سولومونوفيتش فيرتليب وزوجته صوفيا موسييفنا فايسمان التي تضع البرامج الدراسية لعلم الرياضيات قوبلا في اسرائيل بكل افتخار ، وذلك في شهر مارس عام ١٩٧١ من قبل « اخوتهم في صهيون » . وهذه المجموعة « اخوتهم في صهيون » التي يشرفان عليها باعتراف فيرتليب نفسه .. من مهامها الاساسية نشر وترويج الادب الذي يقنع اليهود بأن مكانهم هو اسرائيل .

لقد قوبل فيرتليب في اسرائيل .. وهذا أمر طبيعي .. بكل ترحاب . وكان أحد المختارين الذين قابلتهم غولدا مئير باستمرار ، واستقبلهم كذلك العديد من الوزراء . لقد ارسلوه الى باريس وروما ليقوم بشن حملة ضد الاتحاد السوفييتي في سبيل « الدفاع عن اليهود السوفييت » . وعومل بخلاف أكثرية رفاقه ، بأن أعطوه على الفور شقة جيدة ، وكذلك وفروا له ولزوجته العمل المناسب .

فقط ، في شهر ديسمبر .. اقتنع فيرتليب تماما ، بأن الواقع الاسرائيلي مؤلم ويتناقض مع مثله الصهيونية ، ومن ثم اتخذ قراره بمغادرة « أرض الميعاد » . ترك العمل . ولكنه كان يعلم ، انه ليس بامكانه أن يفصح عن رغبته بالعودة الى الاتحاد السوفييتي . فأخذ يستخدم اسلوب التمويه . وبدأ تدريجيا يتحدث عن السفر الى اقربائه في أوروبا الغربية . وفي ربيع عام ١٩٧٢ ، تخلى فيرتليب عن كل ممتلكاته التي أحضرها معه من مدينة لينينغراد ، وفر مع زوجته وطفله الصغير البالغ من العمر خمس سنين .. من البلاد التي كان يحلم فيها طوال عشرين عاما .

ــ لماذا ؟..

ــ ان اعتراف فيرتليب المتعدد الصفحات يعطي جوابا يحتوي على أكثر من مدلول .

ــ « لم نكن محتاجين من الناحية المادية » . هكذا يعترف فيرتليب على الفور بالوضع الاستثنائي الذي خلقه له الاسرائيليون الصهيونيون . نعم ، حالة استثنائية للغاية . فاذا انطلقنا من الارقام الحسابية الدقيقة .. أرقام فيرتليب نفسه ، فان متوسط دخل الفرد الاسرائيلي لا يسمح له أن يعيل اسرة ، وخصوصا اذا كان لهذه الاسرة حتى طفل واحد . وكذلك اذا لم يكن رب الاسرة محتالا .. ولم يلجأ الى الخداع .. ولم يعش على نقود الآخرين .

ــ فاذا كان بعض المهاجرين الذين حكم عليهم النظام الاسرائيلي ان يحيوا حياة فقر مدقعة قد اثرت عليهم الى حد ما ، الحقيقة المادية .. فان قرار فيرتليب قد نجم عن اسباب اخرى تماما : ــ فما هي هذه الاسباب ؟..

« ان اسرائيل هي عبارة عن دولة انتفت فيها منذ أمد بعيد أية مثل للصداقة والعلاقات العادية بين الناس . فكيف والحالة هذه يمكن أن تنشأ علاقات بين صاحب العمل الذي يمتلك المصنع .. والفيلا .. وثلاث ــ اربع سيارات ، وبين اليهودي القادم من مراكش او العراق والذي يمتلك شقة صغيرة ــ وفي كثير من الاحيان لا يمتلك

حتى مثل هذه الشقة الصغيرة ـــ ، ويقيم مع خمسة أو ستة أطفال في حـــي حقير « للسود » ؟ ـــ وكيف يمكن أن تنشأ علاقات أيضا بين ذلك البيروقراطي الذي يعمل في دائرة ما ، والذي يحلم أن يظل في مكانه هذا حتى التقاعد . . وهو يعلم تماما . . أن طرده من وظيفته عمليا غير ممكن هذا من ناحية ، وبين المهاجر الجديد القادم مـــن الاتحاد السوفييتي الذي يذهب عشرات المرات « للمقابلة » من أجل العمل . . ويتلقى دائما نفس الجواب « سافلانوت » (الصبر) ، و (كل شيء سيكون حسنا) ؟

ان فيرتليب يورد الحديث التقليدي الذي يدور بين موظف الدائرة الحكومية المكلف بالاهتمام بالقادمين الجدد ، وبين مواطن سوفييتي سابق :

« ـــ لا يوجد عمل ، ولا يتوقع قريبا . ولكن كل شيء سيكون حسنا .

ـــ كيف يمكن أن يكون كل شيء حسنا ، اذا كان مكتب العمل لا يجد لنا عملا ؟

ـــ الواسطة ضرورية . . وكل شيء سيكون حسنا .

ـــ لا توجد لدي شقة .

ـــ الصبر . ولكن لماذا تريد أن تقيم في حيفا ؟ اسكن في « ديمون » .

ـــ في « ديمون » لا يوجد عمل للمهندسين .

ـــ ولكنك ستنتزع بأظافرك لك سكنا .

ـــ فليذهب السكن الى الشيطان ، اذا كان المهندس لا يستطيع أن يجد له عملا هناك على الاطلاق .

ـــ ولكن هل من الضروري أن تعمل مهندسا ؟ ـــ جميعكم تأتون الى هنا وتطلبون . . تطلبون . . اعطونا عملا وسكنا » .

وفي نهاية اعترافه يدلي فيرتليب بهذا التصريح المر : « انه لأمر صعب ان يعترف الانسان وهو في سن الاربعين ، بأن حياته كلها كانت عديمة الجدوى ، ومكرسة لمثل كاذبة . ولكن من وجهة نظري . . يجب أن تكون الحياة مروعة لكـــل واحد صدمـــه الواقع الاسرائيلي ـــ كمثلي أنا ـــ ولا يجد لديه القوة والشجـــاعة ليحدث اليهـــود الآخرين عن كل شيء ، وعن كل ما يحدث هنا » .

هذا وان بنتسيون غريغوريفتش توفبين صديق فيرتليب الذي ينسجم مع آرائه ، قد استقبل هو الاخر في اسرائيل بأذرع مفتوحة . لقد علموا هناك . . بأنه منذ زمن بعيد . . قد أعلن وبشكل واسع عن رغبته للاقامة في اسرائيل . . وللابد . وتوفبين هذا يختلف عن الاكثرية مـــن المواطنـــين السوفييت السابقين بأنه يتمتـــع بشهرته كصهيوني . ولهذا . . وبدون أي تحقيق معه . . تسلم عمـــلا يتعلق بالسفر من حين لاخر الى الموانىء الغربية . وها هو الان بعد أن غادر اسرائيل يقول بكـــل ألم : « لا ابالغ اذا قلت بأنه غالبا ما داهـــم شعورنا في اسرائيـــل احساس بأننا فعـــلا اناس سابقون » .

ـــ ولا يتوقف توفبين عن ارسال التماساته من أجل السماح له بالعودة الى الاتحاد السوفييتي . ومما يثير الدهشة حقا ، تلك الثقة . . أو بالاحرى الثقـــة بالنفس التي تبدو في التماسات وتوسلات غالبية المهاجرين بالسماح لهم بالعودة . حتى الكبار منهم والذين حنكتهم تجارب الحياة . . يتصورون . . وبكل سذاجة ، بأنه عند أول طلـــب لهم . . على الفور . . سيرتفع امامهم حاجز الحدود .

« أجل ، التخلي عن الجواز السوفييتي .. هو سد .. ولكني اريد استرجاعه !.. كذلك اجراءات الطلاق التي اتخذتهـا بحق زوجتي التي لم توافـق على هجرتي الى اسرائيل .. هي الاخرى سد .. ولكني على استعداد ان أعود اليهـا !.. نعـم ، تخليت عن اطفالي .. ولكني موافق على أن أصبح أبا لهم من جديد !.. »

ــ وتطير الرسائل عبر أرجاء مدن الاتحاد السوفييتي وتحتوي علـى مثل هـذا المضمون :

« زوجتي العزيزة ! لقد ادركت الان ، انني احببتك ، واحبك انت لوحدك ... »

« والداي العزيزان ! لقد أدركت الان .. كم فعلتما في سبيلي » .

« أطفالي الاعزاء ! لقد ادركت الان .. انني لا أستطيع العيش بدونكم ... »

ــ من الطبيعي ، انني لا استطيع ان اكتب عن جميع المهاجرين الذين قابلتهم في فيينا .. مع انني تحدثت مع الكثيرين منهم .. واكرر .. أكثر من مرة .

[٤]
الحقائق فقط .. والوثائق فقط

يجتهد الكثيرون منهم في ابداء التوبة والغفران ، ولكن يبدو مـن الصعب الثقة في ذلك . فأنا لا استطيع ان اثق في هذا الحماس الخطابي لاحـد العاملين السابقين في الحقل التجاري في مدينة تيفليسي . فاذا كان سابقا قد علـل سفـره من الاتحـاد السوفييتي منطلقا من ضرورة « لم شمل » العائلة « الوهمية الكبـيرة » ، فانه الان يندفع بعواطفه قائلا لا يمكن ان توجد معاداة للسامية في الاتحاد السوفييتي ، ومـع ذلك لم يستطع ان يعيش مع اقرانه وسط قوميته .

لقد شاهد هذا الموقف بعض المواطنين السوفييت السابقين وهم من مدينة جورجيا .. وأبعدوه خارج الباب .. عند ذلك ، سألت زوجته :

ــ هل استمعت الى صراخ زوجك .. ولماذا كان يصرخ ..؟

لقد خطر على بالي .. أنه في اسرائيل كان يصرخ ايضا وبمثل هذه الحرارة ــ كم كان صعبا علي أن اعيش في جورجيا . أو انني مخطىء ؟

ــ صمتت المرأة طويلا . بيد انها نظرت بتحد الى المهاجرين الاخرين وأجابـت ــ موجهة كلامها لهم ــ :

ــ هل هو الوحيد فقط ؟ ألم يتندر كل واحد منكم بالخرافات عن الحياة الصعبـة لليهود في جورجيا ..؟ ــ لماذا تصمتون ؟ قولوا للكـاتب ، انني أكـذب ! تكلموا .! بالطبع ، لم يقل لي احد منهم هذا الكلام ... والتقيت بمهاجرين اخرين من اسرائيل ، وكانوا من السذاجة بحيث انهم اعتقدوا بأن اقوالهم المعادية للسامية ، وتهجمهـم ، وضحكاتهم الشريرة على اناس من قوميتهم يمكن ان تكون تبريرا لتخليهم المشين عن الجنسية السوفييتية .

ومع أن هؤلاء الناس لم يتمكنوا في واقع الامر من استيعـاب طبيعة الحيـاة في اسرائيل ، ولا يريدون مهما كان الثمن ان يرجعوا الى اسرائيل ، اجدني لا أستطيـع ان أروي هنا حكاياتهم التي قيلت لي بصورة مثيرة . أقول هذا .. وأنا أعلم أن مـا سمعته اما كان مدعما بالوثائق ، وأما كان عبارة عن حكايا رواها الكثيرون .. وأقول بضمير نظيف : ان كل واحد قابلته في فيينا .. وأفضى الي بأحزانـه وأمانيه ، كـان

يعلم أنه يتحدث مع كاتب يعمل في مجلة « أوغونيوك » ، وأنا بدوري أنقل للقراء بكل دقة كل ما قيل لي ، وما شاهدته وسمعته .

من الصعب حقا .. أن تكون قاصا .. وأن تكون عديم الاحساس عندما تنظر اليك دالي .. الطفلة الصغيرة التي بلغت من العمر اثنى عشر عاما بعينيها الجزعتين المنطفئتين ، وياشي شاميلا شفيلي — سبعة عشر عاما — بنفس تلك العينين . لقد غادرا اسرائيل بلا أمهما التي جاءت بهما من سوخومي . ففي تاريخ ٩ ابريل عام ١٩٧٣ قطعت ميديكو شاميلا شفيلي شريانها .. ثم شنقت نفسها . لقد يتمت ولديها بهذا العمل . ان دالي ذات العينين الكبيرتين .. لم تشك .. بأن دموع أمها الجامحة .. قد اصبحت اخر القطرات لديها .. وبعدها فاض بها كأس الصبر .

كانت دالي تبكي .. لقد فرت من المدرسة وقالت لامها : « لن أعود للمدرسة بأي حال » . لم تحتمل دالي احتقارات المدرسة الدنيئة التي اكدت بحزن منافق مفتعل بأنها شديدة الاسف لان كافة اليهود الجورجيين قاصرون . وبطاعة عمياء ايد المدرسة زملاء دالي في الدراسة ، وهم من المجتهدين ومن ذوي الاخلاق الحميدة الذين ينتمون الى عائلات « سابروف » القديمة والمميزة .

وبمثل تلك الطريقة استقبل في مدينة اشكلون يوري كوفريغار (عمره خمسة عشر عاما) . لقد كان ينتظر يوري في أوكرايينا مستقبل كبير في مجال الرياضيات ، وكان من المتوقع ارساله الى مدرسة خاصة . أما في مدينة أشكلون فلقد علم الصهاينة الشبان بكل ازدراء ان يوري ينتمي الى مجموعة « الكفار وغير المطهرين » ، ونشروا هذا الخبر في انحاء المدينة كلها . انذر المدرسون والدي يوري بأنهم لا يحتملون وجود غير مطهرين في مدرستهم .

— من الصعب .. طبعا ، ان لا يستسلم الانسان لعواطفه عندما يندفع نحوه فيضان الدموع .. ومع ذلك فسوف أتماسك وسأحافظ على أن أكون مندوبا صحفيا .. مسجلا .. ووثائقيا . وهكذا تتكلم الحقائق فقط .. والارقام فقط .. والوثائق فقط التي تختفي وراءها المصائر الحقيقية للناس الذين ظلموا انفسهم عندما هاجروا الى الغربة .

وللحقيقة ، فان الكثيرين منهم لا يفهمون .. ولا يريدون ان يفهموا جوهر المأساة التي ينطوي عليه معنى التخلي عن الجنسية السوفييتية . وعلى مسمعي دار ذلك الحوار بين اثنين من الفارين من اسرائيل وهما طبيبان :

— « اني لا أستطيع ان اصدق — صرخ بغضب الطبيب الاصغر سنا — ، لقد سألوني عند وصولي الى مطار اللد :

— منذ متى أصبحت ملحدا ..؟

— يا أسفاه ! — أجاب الطبيب الذي يكبره — نحن نستحق ذلك . — فماذا تعني الكلمة الانجليزية « ديسيدينت » ..؟ انها تعني متخلي . ونحن تخلينا عن الوطن العزيز .. تخلينا عن الشعب الذي ترعرعنا .. وتعلمنا .. وعملنا معه .

— فلماذا نستغرب اذا ..؟ لانهم في اسرائيل رأوا فينا ملحدين !

— « ومع ذلك لا أحد يملك الحق في أن يتهمني بالالحاد — بصراحة أكد الطبيب الشاب — وخصوصا بعد ان ندمت ! »

— استمعت اليه .. وفكرت : يبدو ان هذا الشاب لم يفهم ، ان الاصل ليس في المصطلح ، وانما في التخلي عن الوطن !

[٥]

الدفتر الازرق

وما يكاد القادم الجديد ، تطأ قدماه الارض الاسرائيلية ، حتى يتسلم على الفور الوثيقة الضرورية التي سبق وورد ذكرها وهي « الدفتر الازرق » المشئوم .

وبكل بساطة .. وبصور مختلفة .. ولكن بحقد واحد .. فان كافة المهاجرين يطلقون على هذه الوثيقة « الدفتر الاسود » او رخصة الاستعباد .

لقد تصفحت كثيرا من هذه الدفاتر .. ولاحظت انها مدونة على نمط واحد :

ــ « ثمن تذكرة الطيران من فيينا الى مطار اللد » .

« تأمين العفش » .

« توصيل العفش » .

« معونة مالية حتى لحظة ايجاد مصدر للرزق » .

« ثمن العلاج بعد ستة شهور من الوصول الى البلاد » .

« اعطاء مهلة لدفع اجرة الشقة » .

« سلفة فورية » (بالطبع ، مع الفوائد . ــ س . تس) .

ان هذه الاشياء المدونة وما يشبهها هي شكل من اشكال الاهانة .

ويكفي فقط ان يشتم العميل السوخنوتوفسكي بأنه ظهرت لدى شخص ما الرغبة في مغادرة البلاد ، حتى تظهر فجأة في دفتره الازرق كتابات جديدة لم تكن مدونة في السابق . ويتم هذا على النحو التالي : يدعى الشخص على الفور لعدة دوائر .. وهناك يوجهون اليه انذارا :

ــ هل عليك ديون ..؟

ــ لاي شيء هذا ..؟ ولماذا ..؟

لكي يقال مثلا ليوسف شاميلا شفيلي .. وهو اب الولدين اللذين فقدا امهما في اسرائيل :

ــ نسينا ان نسجل في دفترك الازرق قيمة ١٨٠را ليرة كتأمين على عفشك . وعليك ان تدفعها ..!

وعندما يخاطبون الانسان بصيغة المفرد « أنت » ، فهذا على اية حال ، ليس مبعثه الود : كما ان التفاهم في الدوائر « بالايديش » أو بالروسية ممنوع على الاطلاق . شيء لا يصدق : فاللغة التي انتجت الاعمال الادبية العظيمة لشلوم علييخيم ، ومينديلي موخير سفريم ، والتي كتب بها دافيد برغلسون ، وليف كفيتكو ، والتي يكتب بها اليوم الكتاب اليهود التقدميون اصبحت بالنسبة للدولة اليهودية لغة قاصرة .. أو تكاد تكون لغة معادية للدولة !

ــ فما هي الاضافات الجديدة التي تضاف بسرعة الى دفتر ديون كل واحد يفكر بمغادرة اسرائيل ..؟

سألوا في « الوكالة » مثلا كلا من دافيد ويفغيني كوفريغار :

ــ أنسيتما .. كم زجاجة من مرطبات الليمون شربتماها في قصر شيوناو ؟ نحن بالضبط نتذكر . وطبقا لذلك صار من المفروض ان نسجل لكما هذا في « الدفتر الازرق » .

أما اسحق فانشينكير .. فلقد اسرعوا في ادارة المدرسة بتذكيره :

ـــ لقد تعلم ابنك عندنا في الصف الثاني ، وعليك ان تدفع مبلغ ١٠٢٦ر١ ليرة . اوه .. آسف .. لقد أخطأت ، المطلوب ان تدفع ٩٨٤ ليرة فقط ، لقد اتضح ان ابنك تعلم في الصف الاول .

ومثل هذا المبلغ اضيف الى « الدفتر الازرق » الخاص بالسيدة فريدة ت . فهذه المرأة لم تتمكن حتى الان من تسديد ديونها ومغادرة اسرائيل . لهذا فليس من حقي ان انشر اسمها بالكامل ومكان عنوانها . فلنحاول ان نتأكد لماذا يطلبون من فريدة ت . ان تدفع على تعليم ابنتها ٩٨٤ ليرة ؟

ـــ لقد بقيت عدة ايام حتى بداية العام الدراسي . ولاول مرة ستذهب ابنتي الى المدرسة . يجب ان احيك لها فستانا جديدا ! . لقد اقترضت فريدة مبلغ ٣٠٠ ليرة مع فوائدها من مراب صغير يقيم في نفس الشارع الذي تقيم هي فيه . بالاضافة الى الفستان الجديد .. اشترت فريدة من المبلغ ايضا حقيبة لابنتها الصغيرة .. ودفاتر .. وقلم حبر .

ـــ يا أسفاه ..! هذا اول يوم دراسي لها .. وهو يحمل دائما .. ذكرى مدى الحياة . ولكنه حمل لطفلتي مشاعر حزينة . لقد أجلسوها .. وهي في فستانها المدرسي الجديد .. على الارض القذرة .. وليس وراء مقعد الدراسة .

ولاول مرة في الحياة .. فتحت دفترها .. على الارض فتحته . نعم .. على الارض ! ، فان النقود التي ضحي بها « الامريكي الخير » لبناء مدرسة جديدة عصرية .. لم تكف لشراء الاثاث .. في الوقت الذي اهدرت فيه تسعة الاف ليرة لرسم صورة « حامي الفنون » وبناء لوحة من البلاط كتبت عليها قائمة خدماته امام « الاشقاء الاسرائيليين » .

[٦]

نساء كافرات

ان اقرباء ايتسي غير شوفيتش ميرسون الذين وجهوا له الدعوة ، لم يكلفهم ذلك اكثر من مائتي ليرة تقريبا . ثمة امر .. فما هي حاجة « اسرائيل العظمى » لرجل « غير عظيم » ..! لقد كان بامكان ميرسون ان يعيش حياة حسنة في ريفا . فهو يتلقى شهريا معاش التقاعد نتيجة اصابته في الحرب الوطنية ، ويقوم في نفس الوقت بأعمال خفيفة في شركة « سادادس » .

ولكن الاقرباء في اسرائيل عذبوا امه العجوز بالحاحهم الكاذب :

ـــ هل تستطيعين ان تموتي قريرة العين وانت تعلمين بأن ابنك ايتسي متزوج من لاتيشكا (لاتفية) ؟ ـــ الا تستطيعين ان تلبي ارادة عقيدتنا وتفصليهما عن بعض ..؟

حاولت العجوز .. بشتى الطرق اقناع الذين يحيطونها من الاسرائيليين المشبعين بالروح الدينية ، مذكرة اياهم بأن ايتسي يعيش مع زوجته عشرين عاما . ونتيجة لرعايتها له ـــ بالتحديد ـــ لم يعد يلازم فراش المرض . انه ملزم تجاهها . غير ان هذه الايضاحات الانسانية لم تحرك اولئك « المؤمنين » المتعصبين . وفي نهاية المطاف اجبروا العجوز على ان تكتب لابنها بأنها على حافة الموت ، وتود من ابنها الغالي ان يغلق عينيها بعد نهايتها . على الفور سافر الابن الى امه . وصل .. ولكن اي عار سيلحق بالابن الاسرائيلي . لقد وصل مع زوجته التي تنتمي الى عقيدة اخرى . فلم

ترض الزوجة ان تترك زوجها يسافر للمهجر البعيد وهو نصف أعمى .

ــ وحدثت فضيحة على الشارع .

ــ لم يدع الاقرباء ايتسي « وزوجته الكافرة » ان يخطوا عتبة الباب . وبلا رحمة . . طلبوا منه :

ــ أطردها ! ، انفصل عنها . . ولا داعي للقلق . . فورقة زواجكما لا قيمة لها هنا على الاطلاق !

لكن ميرسون حاول ان يوقظ ضمائر الاقرباء :

ــ « هل من المعقول ان اتخلى عن زوجتي ؟ لقد عشنا معا اكثر من ربع قـــرن ! ثم كيف يمكنها ان تعيش وحيدة في هذه الغربة ؟

وكان جواب الاقرباء عمليا وهادئا :

ــ لن تضيع . يمكنها ان تصبغ وجنتيها ، ثم ترتدي تنورة قصيرة ، وستحصل على النقود من ممارسة البغاء .

في اليوم التالي . . ميرسون وزوجته حاولا ان يغادرا اسرائيل علـــى الفـــور . ولكن « الدفتر الأزرق » المشئوم الذي حصل عليه من « السوخنوت » « الوكـــالة » سجلت فيه مجموعة الديون المطلوبة منه : ــ ثمن تذكرة الطائـــرة من فيينا الـــى اسرائيل ، وثمن الغذاء في « مصحة السجن » ، لقد اعتادوا هنا في فيينا ان يسموا هذه المصحة « قصر شيوناو » . ولكي يبدأ الانسان أبسط الامور الحياتية للوجود ، حاول ميرسون ان يجد عملا . حزن عليه صاحب محل صغير ، ووافق على أن يعينه حارسا ليليا . بطبيعة الحال بمرتب ضئيل . وبكل سعادة وافق ميرسون .

ولكن اقرباءه لم يدعوه بسلام . فلقد أنذروا صاحـــب المحل قائلين : هـــل ترضى لنفسك ان توافق على أن يعمل عندك يهودي دنس نفسه بزواجه من كافرة ؟

وهكذا فان ايتسي لم يعمل .

لقد أنقذته « الكافرة » من الجوع في بلاد « المؤمنـــين » . لم تساورهـــا مشاعر الاختقار من أي عمل ، حتى لو كان هذا العمل هو اسوأ الاعمال . . واضناهـــا . . وبالاجرة اليومية .

ــ وعندما قابلت ميرسون في فيينا سألته : كيف تعيش في هذه المدينة . .؟ « لـــو لم تكن زوجتي ــ دمعت عيناه ــ لما كنت الان موجودا بين الاحياء » . .

ــ ومنذ بضعة أيام مضت . . وجدت نفسي في بيت حزين . . معروف في مالتسغاس . في هذا البيت تكدست مجموعة كبيرة من المهاجرين . وكان يحيطـــه الضجيج وبكاء الكبار والصغار . لمحت في عيون الاطفال حزنا أكبر من عمرهم . وفي ركن ما مـــن الغرفة . . وقفت امرأة ليست شابة . . وكانت صامتة . لقد كانت زوجة ميرسون .

سألتها : كيف تستطيعين في فيينا ان توفري لك ولزوجك الطعام . ببساطة أجابت :
ــ لا يخيفني أي عمل يومي . . فأنا فلاحة . . وأنتظر بصبر قرار السلطة السوفييتية . انني آمل أن يصفحوا عنا . ويبدو لي . . أن ذنبي شديد الوطأة علي . . فلقد غادرت لاتفيا الغالية . . وبطلب خاص مني تخليت عن جنسية بلادي . هناك حيث تعلمت . . وحيث أصبحت انسانة . وتنفست الصعداء منهية كلامها : لا يمكنك أن تتصور كيف أهانونا وسخروا منا في اسرائيل !

والى جانب هذه المباهج العادية « لارض الميعاد » فان عائلة ميرسون مرت بتجارب قاسية عنيفة مع الصهيونيين المتعصبين نتيجة الزواج المختلط .

يمكن الحكم عن الدرجة القصوى لمثل هذه الصعوبات من خلال الكلمات التي استمع اليها ممثل الطائفة المحلية في مدينة ديمونه من القادمين الجدد : ـــ يمكن علاج الزواج المختلط باجراء عمليات جراحية : عملية البتر الى نصفين .. ورمي النصف الكافر !. ولهذا السبب ، على ما يبدو ، فان زميل ميرسون يوسف بودكامن في البداية لم يعلن ان له زوجة « لاتفية » في ريغا . غير أن أقرباءه الاذكياء نصحوه بأن يلعب على هذا الوتر ، وبهذا ، كما يقال ، يمكنه أن يحقق منصبا :

« انشر رسالة في احدى الجرائد ، بأنك جئت الى اسرائيل وليس هذا فحسب .. وانما أيضا لكي تنفصل والى الابد عن زوجتك « الكافـــرة » . فهذا سيلفت اليك الانتباه . وبامكانك حتى الانضمام الى احد الاحزاب التي لها تأثير » .

لقد أسعد الحظ بودكامن حيث أنه وجد عملا في مجال تخصصه كميكانيكي لتصليح وضبط آلات النسيج . وهذا قلما يحصل . ففي مدينة المجدل ، أرسلوا مثلا الفتاة خايمين التي أنهت مدرسة السكك الحديدية الى مصنع للاسلاك . أما فيلدشروف فلقد أرسلوه للعمل في مزارع الحمضيات . لقد حاز مؤهل بودكامن العالي عـــلى رضا صاحب شركة النسيج . وبهذا أرادوا منعه من مغادرة اسرائيل باصرار ، الى جانب تهديدات « السوخنوتوفسكيين » وانذاراتهم الشريرة الموحية بأن كل من يعود للاتحاد السوفييتي من اسرائيل تنتظره عقوبة أقصاها عشر سنوات في السجن . وعلى هذا المنوال أخذوا التأثير على بودكامن : « انهم الآن وصايا على مصيرك ، وخلال عدة سنوات ستشرف أنت بنفسك على مصائر الآخرين . فلديك أياد ذهبية . وفي نهاية الامر ستتفتح لك في اسرائيل عملا خاصا » .

لم يهتم يوسف بهذه الوعود .. لقد كان هناك أمر هام يثيره : ـــ كيف استطاع ان يستسلم لمواعظ المستشارين « الاقرباء » بأن زوجته اللاتفية لا يمكن ان تكون له صديقة وفية لانه يهودي .. وان بامكانه أن يجد مثل هذه الزوجة الوفية فقط في اسرائيل . ـــ لقد أوحى له الاقرباء :

ـــ « عمليا عندنا فقط الزوجة جزء لا يتجزأ عن الزوج . وحتى لو اصبحت أرملة ، فانها لا تملك الحق في أن تتزوج بدون موافقة شقيق الزوج أو أقربائه ! » . وصارت الخاطبات تتزاحمن حول بودكامن . دعوه الى اجتماع للصهيونيين مؤكدين له انه يوجد بينهم كثيرات من النساء الوحيدات . وأرسل مكتب الزواج المعروف باسم « غولدا » والذي تعلن عنه الصحافة الاسرائيلية بشكل واسع الى يوسف أحد عملائه المتطفلين .

ـــ وفر بودكامن من اسرائيل .. فر وهو في ذهول كامل تاركا وراءه السادة الاقرباء المتعصبين .

والآن ، فان بودكامن يكرس أوقات فراغه في مراسلة زوجته . فهي تعمل في أحد مصانع ريغا التي تشكل أهم الانجازات الصناعية لريغا .

وفي غرفة قذرة في مالتسغاس .. استأجر بودكامن احدى زواياها .. وراح يقرأ الرسائل التي تصله من زوجته .. من ريغا .. ويعيد قراءتها من جديد .. وما يكاد ينتهي من اعادة قراءتها ، حتى يبدأ في نفس اللحظة بالاجابة عليها .. بكتابة رسائل مطولة . ويظل بلا نهاية يوجه النصائح الى زوجته عن كيفية اسراع عودته الى الاتحاد السوفييتي .

ــ « هل تعلم : قال لي يوسف بودكامن وهو يلنقط أنفاسه ــ أحيانا .. بجوار المنزل عند مالتسغاس يقبض علي السوخنوتوفسكيون وعملاء المنظمة الصهيونية في فيينا ، ويحاولون اقناعي ، بأنه حتى لو عدت الى الاتحاد السوفييتي ، فلا محال .. فانني سأحاكم . انهم لا يعلمون بأنني قد حكمت على نفسي .. وبنفسي .. اقسى .. وأبشع حكم » .

[٧]

ماما .. من هذه الخالات ؟

في ذلك المساء الربيعي ، خرج ايغور اسرائيليفيتش زلوتسكي .. وهو مهندس في الاربعين من عمره ، عمل سابقا في الغييرو السينماتي المسكوفي .. الى شوارع تل أبيب وهو في حالة نفسية ليست على ما يرام . منذ لحظة أخبروه بأن عليه أن يتوجه في الصباح الباكر الى مدينة نتانيا لدراسة كورس اللغة العبرية ولمدة ستة شهور في مدرسة « الألبان » المحلية .. الخاصة بتدريس العبرية للقادمين من الاتحاد السوفييتي ــ انك محظوظ ــ ، بخفة قال موظف المكتب لزلوتسكي ، فلقد كان عليك أن تنتظر أكثر من اسبوع للذهاب الى « الألبان » . في الحقيقة .. يجب علـــي أن احذرك ــ بثقة استمر الموظف مواصلا كلامه ــ بأن مدير مدرسة « الألبان » في نتانيا اتصل بنا تليفونيا اكثر من مرة لكي نحاول الاقلال من ارسال القادمين من الاتحاد السوفييتي وذلك :

أولا : انهم بنفسياتهم السوداء يثيرون الاعصاب .

ثانيا : ان السيد المدير .. ببساطة .. لا يحترم اليهـــود السوفييت . وأنت .. مصيبتك أدهى .. فأنت من مدينة موسكو نفسها . فحاول أن تخلق لديه انطباعا جيدا .

ــ ولكن طابع الحياة الاسرائيلي .. في تلك اللحظة ، كان قد خلق عند زلوتسكي انطباعا كريها ، بحيث أنه لم يفكر الآن على الاطلاق بمدير مدرسة الألبان في نتانيا .

استسلم زلوتسكي لافكاره القاتمة ، وأخذ يتمشى على كورنيش « اليركون » ، حتى أنه لم يشعر بالمطر الذي أخذ يتساقط .. ويطارد المارة . وفجأة قطع الطريق على زلوتسكي شخص ما . رفع ايغور اسرائيليفيتش عينيه .. فرأى أمامه امرأة ليست شابة ، وقد غطت وجهها بالمساحيق ، وكان فستانها مفتوحا بشكل فاضح . حاولت استثارته بابتسامتها : « تعال معي ــ سمع زلوتسكي صوتها الحزين ــ .. سأخفف عنك ، ــ قالت له بالايديش ــ : فمومسات تل أبيب ، وهن لا يعتبرن مـــن الوجوه الرسمية ــ يشعرن أنه ليس من الضروري دعوة « الزبون » بالعبرية » .

وما كاد زلوتسكي يستفيق ، حتى سمع صوتا آخر منافسا ولكنه اكثر شبابا :

ــ هذا الشاب الجميل ليس في حاجة لمثل هذه العجوز الشمطاء ! سيذهب معي ، وتأبطت بالفعل ذراع زلوتسكي ! في تلك اللحظة أسرعت امرأتان أخريان نحوه !. ولكن زلوتسكي سحب يده بحدة ، وأخذ يعدو بعيدا .. تلاحقه كلمات بذيئة يستحيل نشرها عند ترجمتها حرفيا الى الروسية . فقط .. فان تلك المومس الشابة التي حاولت اللحاق بالزبون الذي أفلت من بين يديها صرخت :

ــ « يبدو أنك الآن مشغول . تعال الى هنا مساء الجمعة .. سأكون بانتظارك !» .

لقد أوضحوا فيما بعد لزلوتسكي أن مساء الجمعة هو ساعات « زحمة » وتكاد تكون فريدة في نوعها بالنسبة للمومسات على شاكلة تلك المومس التي حاولت اللحاق بزلوتسكي على الكورنيش . ففي هذه الساعات .. حتى منتصف ليل السبت .. كل

شيء يتجمد على الشوارع الاسرائيلية . فالخاضعون لقوانين الدين .. والمالكون .. يغلقون المطاعم ، والمخازن ، والمسارح . وتتوقف الاوتوبيسات عن السير . ممنوع العمل . لهذا فان المومسات يحاولن الى اقصى حد الاستفادة من هذه الساعات .

ــ الذي يحدث اذن .. ان القواعد الدينية تسري علـــى كل شيء .. مـــا عدا « البغاء » . وهذا ما دعا أورمان أحد سكان مدينة طشقند السابقين لان يستغرب . فكروا ! ــ كيف يمكنني أن أوضح لابنتي البالغة من العمر ثمانية عشر عاما ؟.. ــ هل اقول لها أن « البغاء » منتشر هنا عندكم ؟!

ــ غمز بخبث حلاق تل أبيبي ، وهو من المقيمين القدامى ، محاولا تهدئة الطشقندي الساذج قائلا :

ــ قل لابنتك .. أنه حتى في الكتب المقدسة ورد الحديث عن العشيقات . صحيح.. ولكن أعطوهن « الاقمشة الغالية » والاحجار الكريمة الثمينة بدل الليرات . وما يتعلق بيوم السبت فان الكتب المقدسة منعت الاتصال بأية امرأة ما عدا الزوجة والجارية . وما يخص المومسات فلم يذكر شيء عنهن .

لقد اندهشت ليباشور من مدينة كيشينوف لاستسلام وخضوع الاسرائيليات لواقع البغاء الذي يزداد نموا وانتشارا .

ــ ليس بالامكان عمل اي شيء . فالرجال هم الرجال ، هذا ما سمعته ليبا أكثر من مرة . ان المومس في نهاية المطاف ليست هي السعادة المرجوة . ولكن الاسوأ من هذا بكثير أن يكون للرجل عشيقة . فهذا سيكلف الزوجة والاطفال ثمنا غاليا .

ــ فما هو مصدر هذا الصبر الاستسلامي لدى أكثرية الاسرائيليات لهذه الظاهرة التي تعتدي على بنيانهن العائلي ؟ يمكن الاجابة على هذا السؤال من خلال الاعترافات ذات الطابع الوثائقي لنائب الكنيست غروسمان . في هذه الاعترافات يبين أن وزارة الاديان ــ وهي أكثر الدوائر الحكومية الفعالة ــ تشرع قوانين دينية وحشية تخدم تعاليم التلمود فيما يتعلق باستقلال النساء عن الرجال . ويشير غروسمان الى انه يوجد عدد ليس بالقليل من النساء الارامل اللواتي سقط أزواجهـــن في حرب الايام الستة ، وهن على استعداد لان يخسرن كل ما لديهن ويدفعن فدية لاقرباء الميت في سبيل أن يحصلن على موافقة أهل الزوج بالزواج مـــرة ثانية . وتعرضت الوثيقة ــ السالفة الذكر ــ للوضع المأساوي للنساء اللواتي هجرهن أزواجهن ، ولا يملكن حق التفكير في تكوين عائلة جديدة ، وعن الحالة المزرية التي تعامل بها النساء، وبشكل خاص الارملة التي لا تملك أطفالا . فمن الناحية القانونية لا يحق لها أن تتزوج من شقيق الزوج الميت .

اما المرأة التي تتمتع بالتعليم العالي فبامكانها أن تصبح مستقلة أكثر من غيرها . فمثلا هذا الاعلان المنشور في جريدة « هآرتس » بتاريخ ١٧ أغسطس من العام الماضي يعطي جوابا مقنعا :

« ابنتي جميلة جدا .. عمرها سبعة وعشرون عاما .. مطلقة .. تعليمها عالي .. طولها ٦٠ر١ متر ، تملك شقة خاصة وسيارة . نفتش لها عن انسان جيد .. حائز على التعليم العالي ، ولا يتعدى من العمر الخمسة والثلاثين . نرجو الكتابة الينا على العنوان التالي : رآعنان ، صندوق بريد ١٣٨ » .

ــ ان الحديث عن التعليم العالي للباحثة عن الزواج يثير فقط السخرية المريرة . انه اعلان يستهدف منه التجارة المربحة . ومع ذلك فان وزارة الاديان تواصل التأكيد

على أن المعنويات الثابتة للمجتمع الاسرائيلي لا يهددها البغاء ، وانما الزواج المختلط ، والذي يعتبر من الامور العادية بالنسبة لعائلات المواطنين السوفييت السابقين .

وتدل الابحاث الاجتماعية على ان عدد المراهقات اللواتي يتصلن بالمومسات يزداد عاما بعد عام بشكل حاد .

لقد حدث في مدينة هرتسليه ان مجموعة من الشبان المحليين ساورتها الرغبة في أن تضحك وبصورة مزاح وبأدب على رجل مسن من مواطني تشرنوفيتش السابقين ، جاء الى مدينة هرتسليه لعمل ما . سأل الرجل المسن هذه المجموعة عن فندق متواضع يمكنه أن يبيت فيه ليلته وبأقل التكاليف . تعاطف معه الشبان .. وأوصلوا الضيف الغريب الى أرخص فندق في المدينة . شكرهم الرجل المسن .. ودخل الى ردهة الفندق . في نفس اللحظة التي وصل فيها أحاطت به مجموعة من النساء نصف العاريات .

نظر الرجل المسن مذعورا الى شخص هرم استند على الرواق .. ويبدو من هيئته اما أن يكون صاحب الفندق أو المسؤول فيه .

— سأل بدوره الرجل المسن : هل تريد غرفة لوقت قصير ؟.. او لتمضية الليل كله ؟..

لقد ادرك الرجل المسن ، أن هؤلاء الشبان المازحين قادوه الى بيت للدعارة يتخفى تحت اسم فندق .

حدثني الكثيرون من المهاجرين عن مثل هذه الصور وما يشابهها . ولم يكن مبعث حديثهم السخرية .. ثمة من الذين هاجروا الى اسرائيل اصطحبوا معهم فتياتهم الشابات . يمكن والحالة هذه .. ان يتصور الانسان الحالة النفسية لآباء وأمهات الفتيات اللواتي حرمن من امكانية التعليم والعمل .

— لم أستطع أن أبقي ابنتي طوال اليوم حبيسة الجدران الاربعة القذرة — بحزن يتذكر أورمان — وكاد قلبي أن يتجمد عندما قالت لي انها تريد الخروج للتنزه ! ليس من السهل ابدا تربية الاطفال في مثل هذه البيئة . فماذا كان بامكان كلارا روزينتال أن تجيب على أسئلة ابنتها ثانيا التي أخذت تنهال عليها :

— « ماما .. من هذه الخالات اللواتي يدخن ؟ — ولماذا يقفن على الشارع في الامسيات ؟.. — ولماذا يحاولون الامساك بيد كل رجل عابر ؟.. — وهل بناتهن لا يخفن وهن لوحدهن في البيت ، عندما تكون أمهاتهن على الشارع ؟.. »

وماذا كان بامكان تلك الام التي جاءت من تشرنوفيتش أن تقول لطفلتها ذات الاثني عشر عاما ، عندما جرى أمام عينيها ذلك الحادث :

— كان القطار مسافرا من بئر السبع الى حيفا .. وكان ممتلئا بالمسافرين . وفي احدى العربات كانت مجموعة من المجندات الاسرائيليات الشابات ، وقد ارتدين الملابس العسكرية . اثرن انتباه الطفلة .. فأخذت تنظر باعجاب الى أزرار ملابسهن، والى الشارات على ستراتهن الرسمية . أما الكبار ومن ضمنهم زلمان خاييموفيتش شابتيفان فلقد أذهلتهم أشياء اخرى : لقد أخذت هذه الفتيات الاسرائيليات يمارسن بشكل سافر مع الركاب الشبان .. أمام عيون الصغار .. أعمالا مبتذلة . وفيما بعد انفردن مع هؤلاء الشبان في احدى الكابينات . واخذ كل شاب وفتاة يتبادلان الدخول الى الكابينة والخروج منها بالدور ، مما دفع أحد الركاب وكان رجلا مسنا .. بعد أن فقد قدرته على التماسك أن يصرخ بغضب : « أية وقحات أنتن .. على الاقل كان يجب

ان تخجلن امام الصغار » . وهنا تدخلت امراة شابة لم تشأ أن تنقطع عن الكتاب الذي كان يشدها :

ـــ ما العيب في هذا !.. ان الفتيات المجندات يمكن أن يسمحن لانفسهن بذلك . فهن نادرا ما يحصلن على اجازة . والشيء الرئيسي ، أنهن يحملن معهن وسائل مانعة للحمل .. لا تستطيع شراءها في الصيدليات العادية . واذا أمكن الحصول عليها .. اوه !.. فان سعرها يخدش .. ولا يسمح لنا بشرائها .

[٨]

احزان كبيرة للقلوب الصغيرة

عنوان المستلم : مدينة بئر السبع ، شيكون والد (رامبان) ، ٤٤ ، أومانسكايا مايا .

عنوان المرسل : تل أبيب ، مكتب سكرتارية رئيسة وزراء دولة اسرائيل .

بأصابع مرتعشة فتحت مايا الظرف المنتظر . وأخذت عيناها تسابقان السطور . ولكنها سرعان ما ارخت يديها بضعف .

ـــ فما الذي اضطر الصرافة أومانسكايا التي غادرت كييف الغالية مع ابنتيها .. اللجوء الى السيدة غولدا مئير شخصيا ؟

ان ابنة مايا عمرها أربع سنوات .. وهي ضعيفة .. أصابتها نزلة شديدة .. وبعدها وقعت مريضة في حالة خطرة . نقلت مايا ابنتها الى المستشفى .. وهي تعلم ان القادمين الى اسرائيل يحصلون على حق الامتياز في العلاج خلال الستة شهور الاولى من وصولهم .

رقدت الطفلة في المستشفى .. وبعد مرور ستة أيام استدعوا أمها :

ـــ ابنتك عندها مرض مزمن .

خذيها للبيت .

صعقت الام .. الى اين ستأخذ طفلتها المريضة .. وهي لا تملك حتى شقة في المعنى البسيط لهذه الكلمة . الصقيع .. والطقس يتغير كل يوم : والرياح .. والشتاء البارد .. والنزلة تهدد الطفلة بمضاعفات خطيرة .

رفضت أومانسكايا أن تأخذ ابنتها من المستشفى وهي لا تزال مريضة . عند ذلك استدعت ادارة المستشفى الشرطة . وعلى الفور طردوا الطفلة المريضة من مبنى المستشفى .

ان جميع الذين لجأت اليهم هذه الام التي تكاد تجن من الالم ، حركوا أيديهم فقط : لا يوجد علاج مجاني في المستشفى للامراض المزمنة .. النظام هو النظام !

التجأت أومانسكايا هذه المرة الى الكنيست ـــ البرلمان الاسرائيلي ـــ ووصلها الجواب .. وردد بالضبط نفس الكلام الذي سمعته المراة في الدوائر المحلية .

الجيران نصحوا مايا :

ـــ اكتبي الى غولدا مئير شخصيا ! فهي ليست رئيسة وزراء فقط .. انها أم . ستستجيب لوضعك الذي لا مخرج منه .. وستساعدك .

فليكن ، ان الام « ساعدت » الامهات . لكن مكتب سكرتاريـــة السيدة مئير اخبر

أومانسكايا . أن السيدة رئيسة الوزراء للاسف لا تدخل في صلاحيتها امكانيات وضع استثناءات خارجة عن اطار القواعد الموجودة .

وفي دهاليز وزارة الصحة ، حيث توجهت مايا أومانسكايا .. شاهدت رجلا مسنا .. حزينا .. كانوا يجرونه وخيبة الامل في عينيه من غرفة الى غرفة . ــ فما الذي جاء به الى هنا ؟ .. من بائع في المجر الى الوزارة .

لقد استوطن البائع مع عائلته في احدى المقاطعات القريبة من البحر الميت . ولم يمض وقت قصير ، حتى مرض له ولدان دفعة واحدة . شخص الاطباء المرض :

ــ الطقس المحلي يؤثر تأثيرا مميتا على الولدين . ويجب أن يقيما في منطقة خضراء .

ــ واضاف احد الاطباء بثقة : باخلاص أقول ، أن نظام الاوعية الدموية لقلبي الولدين لا يتلاءم مع طقس بلادنا .

كتب الاب طلبا وجهه الى مؤسسات الهجرة جاء فيه : اما أن تنقلوني الى احدى المدن الخضراء ، واما أن تسمحوا لي بمغادرة اسرائيل . وضحكوا عليه بشكل يثير الحنق :

ــ كم أنت ذكي ! لقد قالها قبلك البارون روتشيلد ان الارض التي اختاروها لدولتنا طقسها رديء . وفضل البارون روتشيلد أن تقوم دولة اسرائيل على اراضي اوغندا . لكن الآن لا تكن ذكيا أكثر من اللازم : فما دمت قد هاجرت الى اسرائيل ، فالرجاء من فضلك أن تعيش هناك ، حيث توجد اسرائيل .

ــ ان ولدي يمكن أن يصبحا مقعدين ــ تضرع الاب ــ .

ــ عليك أن تحصنهما ضد المرض ــ نصحوه ــ ولا تربيهما بطريقة رقيقة .

وهكذا ، فان أب الولدين المريضين ، تماما مثل مايا أومانسكايا ، لم يجد أي تأييد في وزارة الصحة .

ــ يقول باريس ليفت أن أكثرية الآباء والامهات الذين هاجروا الى اسرائيل مع ابنائهم يناقشون الامر هكذا : ان الابناء لا يعتادون على الطقس بسرعة .. ولكنهم سيعتادون عليه فيما بعد بسهولة . وسيكون عليهم التعود على الطقس . ولكن اتضح أن الامر أصعب من هذا التصور ، وعلى الاخص بالنسبة للاطفال الذين ولدوا في بلد اشتراكي ، فانه يصعب عليهم التعود على الطقس المعنوي لاسرائيل .

ان يوري ماميستفالوف الذي ولد بتاريخ ١٢ ابريل ١٩٦١ ، من الطبيعي أن يفتخر بأنه يحمل اسم أول رائد للفضاء .. أخضع الفضاء الكوني في يوم عيد ميلاده .

لقد أصابت الصبي خيبة أمل لانهم في المدرسة الاسرائيلية قالوا له بأن اسمه ليس اسما يهوديا ! واقترحوا عليه أن يختار له اسما جديدا يهوديا حقيقيا . يوري بالطبع رفض . عند ذلك قالت له المدرسة :

ــ في صفي اسمك سيكون يوركو وليس يوري . ذعـر الصبي .. ولم يذهب للمدرسة لعدة أيام .

وهكذا تغير اسما ايغور واوليغ التوأمين البالغين من العمر أحد عشر عاما الى ايغال وايلي . وبانفعال سأل الصغيران الكبار :

ــ هل أسماؤنا مثيرة للخجل ؟ ..

ان الاطفال الذين جاءوا من البلاد السوفييتية ينظرون بفزع غير خفي الى اترابهم

الذين يدرسون في المدارس الدينية . فمظهرهم الخارجي يوحي بانطباع شرير . فالاولاد ملزمون ان يرتدوا سترات وطواقي . أما البنات فيرتدين — حتى في الحر — فساتين حتى الركبة .. وكلسات طويلة . بيد ان المدارس الداخلية التي انشئت تابعة تماما للمدارس الدينية . لذلك فان بعض العائلات مضطر من الناحية المادية الصرف أن تلحق أبناءها في مثل تلك المدارس . وهذا يثير لدى الاولاد الاحتجاج وخيبة الامل . فعندما علمت ريتاشور بأنهم سيرسلونها للدراسة في مدرسة دينيه اصابتها نوبة عصبية . وكم سالت في الخريف الماضي من عيون الصغار الدموع المريرة . هؤلاء الصغار الذين جيء بهم من الاتحاد السوفييتي « الى أرض الاباء » ، ومع ان آباءهم قادرون ماديا ، فان السلطات الاسرائيلية انشأت على الفور « مدرسة البان داخلية » خصيصا لهؤلاء الصغار . لقد ورد في الاعلان الرسمي بأن المدرسة أنشئت « لتعليم الاطفال من سن ٦ حتى ١٤ سنة اللغة العبرية والديانه اليهودية » .

لقد وعدوا الآباء الذين سلموا أطفالهم للعبودية الدينية ببعض المنافع المادية . واستجابوا لهذه الاعلانات المغرية .

ان مثل هذه الحقائق يشير الى أن السلطات الدينية في اسرائيل تسعى باصرار مع مواطنيها الجدد ، ومنذ السنين الاولى للطفولة لعزلهم عن الانسانية كلها ، وعن الحياة الموضوعية . وتتألق على الذاكرة الكلمات المعبرة للكاتب الديموقراطي اسحق لييبوش برتس : « لا نريد أن نلقي من الايدي رايات الانسانية جمعاء .. ولا نريد أن نزرع لا النبات الشوفيني المتوحش ، ولا أكاليل الشوك المتعصب للفلسفة الطفيلية » . ويمكن الحكم على هذا النبات الشوفيني الذي يترعرع في اسرائيل من خلال الاهانات المذلة التي تتعرض لها الامهات « الكافرات » ، وذلك لكي تعتبرن أن أولادهن ولدن من يهودية . وانهم يتمتعون بنفس الحقوق التي يتمتع بها المواطن الاسرائيلي .

لقد قابلت لوبوف غوردينا التي كانت سابقا تقيم في ريغا امرأة شابة هي الاخرى تقيم في اسرائيل اضطرتها الظروف ان تستحم في حمام طقوسي أمام عيون بعض ممثلي « الرافينات » . وبعد هذا المرسوم المهين والذي بدونه يستحيل اعتناقها للديانة اليهودية .. شابت المرأة .

ان الشبان السوفييت من لاتفيا ، وأوكرايينا ، وجورجيا لا يستطيعون على الاطلاق أن يستسلموا لغياب اللغة الروسية من البرنامج المدرسي . وبأسف حزين .. تتبعه الدموع .. يتذكرون الكتب الروسية الغالية التي تركوها في الوطن . فهذا صبي من طشقند جاء الى نتانيا وحمل معه « يوميات صياد » لايفان تورغينيف . وبدأت زيارة الشبان الصغار المقدسة اليه ، أولئك الذين حرمهم آباؤهم — مثله — من الوطن . رجوه أن يعطيهم الكتاب ولو لليلة واحدة .. ولو لعدة ساعات . وعرضوا عليه أن يدفعوا له رهنا للكتاب .

ولكي يخفف اسحق فانشنكر من لوعة ابنته ليزا البالغة من العمر ثلاثة عشر عاما ، للغة الروسية اشترى لها نسخة من جريدة « تريبونا » التي تصدر باللغة الروسية . تهتم ليزا بالرياضة .. وبدأت على الفور قراءة العرض الانتقادي لكرة القدم . وخلال عدة دقائق أعادت الجريدة الى والدها وهي منفعلة : لو انني في الفصل الخامس كتبت مثل هذا الكلام املاء لاخذت خازوقا ثمينا ! هذه ليست جريدة روسية انها جريدة الاخطاء اللغوية .

ان الطلبة الاسرائيليين لا يثقون في حكايات القادمين الجدد من الشبان عن المدرسة السوفييتية . وعن معسكرات الاشبال ، وعن المتع ، وعن تمضية الفراغ . لقد أخذت

ليزا فانشكر تحدث زميلاتها في الفصل : « كنا كل شهر نذهب مع كافة تلاميذ فصلنا الى المسرح لنشاهد احدى المسرحيات في الحفلة الصباحية . وكم أود أن أعرف ما هي المسرحيات التي يعرضها مسرحنا « ت. يو. ز » ، وهو المسرح الذي كنا نتردد عليه باستمرار ! » .

يعتقد الطلبة أن ليزا تشوه الكلام ، وأنه لا يوجد أي مسرح خاص بالاطفال ولا في أي مكان . ولقد حدثوا مرشد الصف عن كذب ليزا . وعندما جاء المرشد الى الصف « طمأن » تلاميذه ببشاشة :

— ليزا لا تكذب . انها ببساطة خيالية كبيرة .. تتخيل .. تتخيل ، ثم بعد ذلك تبدأ تعتقد بتخيلاتها . لا بأس .. سيزاح عنها هذا الوهم .

وناقشت ليزا .. وبرهنت .. ثم احتدت .. ولكن الصف كله أخذ يضحك عليها .

ان الصغار الذين جاءوا الى اسرائيل من البلدان الاشتراكية لم يستطيعوا أن يتقبلوا الآراء الجديدة لمثل تلك الكلمات : « اضراب » ، « المالك » ، « بورصة العمل » ، وتثيرهم اللامبالاة التي تنتهجها المدرسة تجاه الحقائق . وهي من وجهة نظرهم حقائق تزلزل .

لقد حدث في مدينة حولون أن ضرب أحد الشيوعيين المحليين بوشاية من صاحب المصنع ، عندما دعا العمال الى الاضراب . علم بالامر اثنان من الشبان الذين جاءوا الى اسرائيل من الاتحاد السوفييتي . واقترحا على زملائهم كتابة رسالة باسم الصف كله وارسالها الى الجريدة . وعندما رفض اقتراحهما .. عانيا كثيرا . والذي آلمهما اكثر أن أبناء العمال خشوا تأييد اقتراحهما .

وهكذا يتشوه تصور الشبان عن الواجبات الاخلاقية ، ويتسمم وعيهم ، وتفسد روحهم . وبلا انقطاع يصغي الشبان الى حديث الكبار عن الحرب — ان هذا القتل يؤثر عليهم . — الحرب ! ساعة العقاب ! الانتقام !

هذه النداءات الشريرة يذيعها راديو اسرائيل . وهي تنعكس على صحة ومعنويات الصغار .

وبالنسبة لشبابنا الذين ولدوا على الارض السوفييتية ، فان كلمة « السلام » تكاد تكون أول كلمة يسمعونها . ان كلارا روزينتال تشارك برأيها ، — « في المدرسة حدثوهم عن السلام .. وعن النضال في سبيل السلام قرأوا في مجلات الأطفال .. وسمعوا من الراديو والتليفزيون . وفجأة كل شيء متناقض تماما : الحرب ، الحرب ، الحرب ! وصار يلاحظ أن الاطفال يضطربون عصبيا . انهم يتذكرون حكايات الآباء عن المذابح الهتلرية .. صفارات الانذار .. الغارات . لقد قال طفل لامه وهو من مدينة كيشينيوف مذكرا اياها ان تستعلم بسرعة أين يوجد أقرب ملجأ في باردسكاتسيه . وللعلم لقد توصل الاطباء الى أن الكثيرين من المهاجرين الكبار يمرضون بحالات عصبية . ولكني أؤكد — ويمكن القول ان الذي يتحدث في داخلي ليس الطبيب فقط ، وانما الام أيضا — أن هذا يمس الاطفال بصورة خاصة » .

ان الطبيب النفساني يوسف غريغوريفتش بورشتيين الذي لم يعلم بحديثي مع كلارا روزينتال يؤكد تماما ، ويطور استنتاجاتها : — ان الكثير من الرجال المضطهدين لم يتوقعوا هذا الواقع الاسرائيلي الصعب ، لهذا فانهم يقعون فريسة الكآبة .. وهذه الكآبة قادتهم اكثر من مرة للانتحار . لقد أدت الى انتحار سميون لاديجنسكي — من مدينة موسكو — ، وكابلان — وهي ايضا من مدينة موسكو — ، ومجموعة نساء من

جورجيا . الاطفال كذلك صاروا يتأثرون بصورة او باخرى من اولئك الذين يسببون لهم الاسى : — ارتفاع الاثارة ، مرض عدم الثقة ، خوف بلا وعي امام الوسط المحيط.

وهذه هي الطفلة الصغيرة داليكو شاميلاشفيلي تتحدث مدعمة تماما استنتاجات الطبيب :

— أتدرون . . ان الاطفال في اسرائيل ، لا ادري لماذا . . يخافون كثيرا من الضباط فهم يسيرون بخيلاء . . وملامح الغضب على وجوههم . . ولا ينظرون لاحد . في البداية أخذت اضحك على صديقاتي الجديدات قائلة : — عندنا لا احد يخاف حتى من الجنرالات انفسهم ! فيما بعد حاولت ان لا اقع تحت نظرات الضباط . . . وسبق لي أن سمعت من المهاجرين الكبار ، ان الضباط يتمخترون في الشوارع بكل غطرسة وعجرفة وكأنهم بذلك يريدون الاشارة الى طائفتهم العظيمة . لقد عبرت داليكو عن ذلك بطريقتها الخاصة :

— « الضباط يسيرون ، كما لو ان الحرب ناشبة » .

تذكرت . . كلمات الطفلة المؤثرة التي انتحرت امها في المهجر الاسرائيلي ، عندما كنت اصغي الى الخطاب الذي يهز المشاعر للسكرتير العام لمجلس السلم العالمي روميش تشاندرا في ختام المؤتمر العالمي للقوى المحبة للسلام في موسكو :

— لقد عرض تشاندرا — الشخصية البارزة في الحركة العالمية من اجل السلام — أمام القاعة عدة الاف من البطاقات المرسلة الى المؤتمر . ومنشورات موقعة بحروف مرسومة . ببساطة . . وبشكل معبر . . قال روميش تشاندرا . . ان الاطفال في الكثير من بلدان العالم يشعرون بشكل عفوي بخطر الحرب المروعة . . وبصورة مؤلمة تؤثر عليهم .

ومثل هذا الشعور يعتبر صفة مميزة للاطفال في اسرائيل . انهم يشعرون بغيوم الحرب السوداء وقد انعقدت فوق هذه البلاد . انهم يضيعون حياة الشباب السعيدة . ولا يعرفون الطفولة الحقيقية .

وحتى على أصغر الصغار ، تنصب المستحدثات المريرة لنمط الحياة الاسرائيلية — فماذا تستطيع الام أن تجيب على سؤال ابنتها الضئيلة :

— (ماما) . . لماذا لا تأخذينني الى روضة الاطفال ؟ ان الام لا تستطيع ان توضح لابنتها ان مبلغ اقامة الطفل في روضة الاطفال في اسرائيل لا يقدر عليه في اسرائيل غير الاباء الميسورين .

— وسؤال « لماذا ؟! » يردده عشرات الاطفال .

— لماذا لم تشتروا لي هنا حتى الان ولا اية لعبة . . ؟ ولا أي كتاب . . ؟

— لماذا لم اذهب هنا . . ولا مرة . . الى عيادة الاطفال . . ؟ هل تذكرين . . ؟ قالت لي الطبيبة . . اذا لم اذهب اليها وحنجرتي سليمة . . فان حنجرتي ستمرض . .

— لماذا بعنا التليفزيون الذي كان في بيتنا . . ولم نشتر هنا بعد تليفزيونا جديدا . . ؟
— يجب ان اشاهد برنامج « تصبحون على خير أيها الاطفال » .

— ماذا سيقال لهؤلاء الاطفال الذين كانوا ينتمون منذ زمن ليس ببعيد — والحق يقال — الى « طبقة » مميزة هي الوحيدة من نوعها في الاتحاد السوفييتي .

وهم الان بلا انقطاع . . يشعرون . . في المهجر الاسرائيلي بالاهانات اثر الاهانات . . ولكن الاحزان الكبيرة تشحذ قلوبهم الصغيرة المرهفة .

[٩]

مصير دينا بريسلاف

رجل وامراة .. مسنان .. نحيلان .. يقومان بآخر محاولة لهما لتأخير السيارة . ولكن السائق يدير موتور السيارة .. وينطلق بها على شوارع فيينا المزدحمة بالسيارات متجها نحو المطار .

ينظر الرجل والمراة طويلا نحو السيارة المختفية .. بلهفة ينظران .. فلقد اخذوا منهما ابنتهما الوحيدة . ومنذ حوالي اربعة شهور فر ايلي ابراموفيتش مع زوجته وابنته من اسرائيل التي بسببها تركوا وطنهم ريغا . في عاصمة لاتفيا السوفييتية عمل بريسلاف مديرا لاكبر مخزن للادوات المنزلية . لقد قال هذا بفخر للموظفين الاسرائيليين العاملين في قسم الهجرة في مطار « اللد » . وسمع الجواب : — ابحث لك عن مهنة جديدة . فليس لدينا هنا ما يمكن ان تديره . ولم يطل بحث بريسلاف عن مهنته الجديدة . فخلال ثلاثة اسابيع اصبح بريسلاف « حمالا » . كذلك دينا .. الفتاة الضعيفة .. الواهية الصحة .. ذاقت من روعة هذا التخصص . في الحقيقة لقد حلمت دينا بالدراسة .. ولكن حلمها كان صعب المنال . فمجانية التعليم في اسرائيل تنطبق على الاطفال الذين لم تبلغ أعمارهم الرابعة عشرة .

قالت دينا لوالدها بفجيعة : — « هل تذكر ..؟ لقد حذرتك من هذا الوضع .. عندما كنا في ويغا !

وأجبتني آنذاك بغضب : يجب علي الا اكون غبية .. والا اثق بدعايات الصحف » .

لقد قررت دينا بعد أن اعتراها اليأس .. أن تلتحق على الاقل في مدرسة « الالبان » لدراسة اللغة « العبرية » .. حيث يبدأ القادمون الجدد عادة بدراستها لفترة زمنية مختصرة .

ولكنها .. في هذا ايضا .. لم توفق . فلقد صدر امر من المسئولين في تل ابيب ان يقبل « المهاجرين » فقط الذين حصلوا على دراسات عليا ، وفي حالات خاصة ، الذين انهوا دراسات متوسطة .. للالتحاق في دورات دراسة العبرية .

ان عائلة بريسلاف التعسة لم تثر اهتمام أحد ، حتى اقرباءهم نسوهم محذرين : — « ثمة أمر ، فلا احد هنا يقوم بزيارة الاخر .. فهذا غير وارد .. ايضا عليكم ان تتذكروا ، ان كل عائلة عليها ان تعتمد على نفسها . حتى لو ان ثلاثتكم مرضتم في آن واحد .. فلن يشفق عليكم أحد . فحاولوا ان تقتصدوا لليوم الاسود . ولكن « الايام السوداء » قد داهمت عائلة بريسلاف مباشرة بعد وصولها الى اسرائيل . بيد ان « اشد الايام سوادا » قد طرأ على حياة هذه العائلة .. عندما لاحظ ايلي ابراموفيتش ان الصهيونيين المحليين قد اهتموا بشدة بابنته .

وفجاة اقترحوا على دينا ان تترك «العمل الاسود» وتهيىء نفسها لمهنة جديدة ذات دخل . وأخذوا باصرار يوجهون الدعوة للفتاة لحضور الاجتماعات والمهرجانات .
— سال بريسلاف احد معارف ابنته الجدد : هل يمكنني الحضور مع دينا الى الاجتماع ؟

— من الصعب اعادة تربيتك — برفق واضح اجاب صهيوني شاب — . الا تلاحظ بنفسك تلك النظرات المتلئة بالعداء لنا ..؟ أما ابنتك فسنحولها الى اسرائيلية حقيقية .

ومن يوم لاخر أخذت تدور وسائل تحويل دينا الى اسرائيلية حقيقية . لقد شعرت الام والاب بقلق بالغ .. كيف ان ابنتهما أخذت بوضوح تنعزل عنهما ، وصارت جافة .. وتسخر غير مبالية من شكواهما عن صعوبة وعدم اعتيادهما على مثل تلك الحياة . وهذا ما دعا ايلي ابراموفيتش الى اتخاذ قراره الحاسم بمغادرة اسرائيل على الفور .

لقد نظرت السلطات الاسرائيلية بعين العطف الى هذا القرار ، مما ادهش بريسلاف .

ـ لا بأس .. فاذا وجدنا ختما في دفتره الازرق يشير الى انه قد سدد كافة ديونه .. فيمكنه ان يغادر مع زوجته من جميع الجهات الاربع .

ـ مع الزوجة ..؟

ـ والبنت ..؟

ـ ابنتي الوحيدة ..!

ـ لديها طريق اخر .. وستبقى في اسرائيل .

في البداية ستؤدي فترة الخدمة العسكرية ، وبعد ذلك ستتزوج .. وتلد الاطفال .. وسيكون احفادك اسرائيليين حقيقيين .

ـ هل تفهم ماذا يعني هذا بالنسبة لهم ؟ لقد علم بريسلاف انهم يطلقون على الاسرائيليين ذوي « النوع الاول » والذين ولدوا على أرض فلسطين « سابريم » .

ـ ويمكن ذات يوم ان يصبح حفيدك سائقا لادارة احدى المنشآت الاحتكارية .. ولربما ستتزوج حفيدتك من مدير . فتصور اية فروع يمكن ان تعطي شجرة عائلتك !

ادرك بريسلاف في تلك اللحظة ، كم كان صادقا جاره البولندي اليهودي الذي كان بلا توقف يصب اللعنات على اقربائه الذين دعوه الى اسرائيل .

لقد حذر بريسلاف بمرارة :

ـ انهم ليسوا في حاجة لنا .. انهم يريدون اطفالنا .

وغالبا .. يريدون ليس اطفالنا .. وانما احفادنا .

ومع ذلك تمكن بريسلاف ان يغادر مع زوجته وابنته اسرائيل . وبعد ان تجولوا في العديد من البلدان والمدن وصلوا الى فيينا . وهناك توجهوا الى القنصلية السوفييتية يرجون منحهم تأشيرة عودة للوطن .

نوليا ايتسكسون .. من مدينة ريغا سابقا .. يبلغ من العمر عشرين عاما .. اعتبر نفسه عازفا محترفا على الغيتار . وصل الى اسرائيل قبل بريسلاف بفترة قصيرة . ومنذ اليوم الاول لوصوله .. لم ينفر من اية وسائل ، حتى لا يتعرض لعدم الثقة والحذر من قبل السلطات .. التي يتعرض لها عادة القادمون من الاتحاد السوفييتي . وبسرعة حفظ الاغاني التي ترضي الصهيونيين ، على غرار تلك الاغنية التي تعجب غولدا مئير نفسها :

« كل العالم ضدنا ،
ولكن كل من يقف ضدنا ،
فليحترق في الجحيم »

واخذ يستشهد بنداءات موشي ديان البغيضة والمعادية للعرب . ولفق الخرافات

عن حياة اليهود السوفييت مرضيا بذلك اسماع ليس فقط « دعاة الوكالة » ولكن ايضا « المخبرين » أنفسهم .

لقد لعب تسيكسون امامهم دور القواد والمخبر ، فقدم لهم خدماته بأن عرفهم على « المهاجرين » القادمين من جمهوريات ما وراء البلطيق السوفييتية . ولكن مثل هذا الحرص . . في الحقيقة ، لم ينعكس على الرفاهية المادية للموسيقى الماكر . وحسب تعبير أم دينا بريسلاف ، فان نوليا خلق على الدوام انطباع « القذر المتلون » . فهو الذي عرف دينا بالصهيونيين المحليين النشيطين . ثم اختفى فيما بعد كالذليل في الظل .

وفجأة . . وذات يوم من أيام سبتمبر . . وكان الطقس خريفيا . . بحيث لم تشهد مثله فيينا . ظهر نوليا تسيكسون في سكن بريسلاف المتواضع . وبدا وكأن رسله اما قد زينوه في سبيل جولة في فيينا ، واما انه استلم اخيرا ثلاثين جنيها من الفضة التي انتظرها طويلا ، وذلك نتيجة خدمة اسياده الصهيونيين . ولكن اسرة بريسلاف لم تعرف على الفور ان الذي جاء الى زيارتها هو الغندور « القذر المتلون » نوليا .

ــ لقد جئت خصيصا من أجل دينا ــ باغت فجأة والدي البنت ــ .

ــ هل انت خطيبها . .؟

تسيكسون لم ير من الضروري الاجابة على مثل هذا السؤال التافه . اخذ يبرهن باسهاب لوالدي دينا ، انها ملزمة ان ترجع الى « أرض الاجداد » . والمح بمعنى خفي : ــ حتى لو انهم سمحوا لكم بالعودة الى الاتحاد السوفييتي ، فستكون بانتظار دينا هناك امور خاصة مزعجة . لم يؤثر هذا البرهان الاستفزازي على بريسلاف . عند ذلك أخذ تسيكسون يتشدق عن حبه الحميم لدينا .

ــ ولكنكم في اسرائيل . . لم تسعوا لرؤيتها في الايام الاخيرة .

ــ لقد اختبرت مشاعري ــ أجاب بحماس مبتذل ــ هذا الساعي الصهيوني .

ــ سألت الام دينا :

ــ هل تحبينه . .؟

ابتعدت البنت عن الاجابة المباشرة ، وارخت عينيها . . وبحزن أكدت :

ــ انه محق . . اني مضطرة للعودة الى اسرائيل . . مضطرة !

ــ وانتحبت .

وخلال ساعة ونصف ، بعد أن أخذ تسيكسون دينا الى المطار ، وابتسامة المنتصر على شفتيه . . قال لي والدها :

ــ لقد فقدنا الوطن . . انا وزوجتي . . بذنبنا الخاص . ولكن يداعبنا الامل بأننا سوف نراه من جديد . ومنذ لحظات فقدنا الابنة . فما هو تصورك . .؟ هل يوجد أمل بأننا ذات يوم سنراها . .؟

ماذا كان بامكاني ان اجيب الاب . فلقد جر عميل صهيوني البنت معه . وللمرة الثانية يأخذها الى معسكر المتعصبين ، والاعداء الشريرين لأرضنا التي فتحت عينيها عليها . . حيث شاهدت لاول مرة سماء السلام فوق رأسها .

الصراع الالكتروني
بين الطائرة والدفاع الارضي في الشرق الاوسط

كمال السعدي

١ ـ خلفية الصراع

كثر استخدام عبارات « الحرب الالكترونية » و« ميدان الحرب الالكترونية » و« وسائل الحرب الالكترونية » في الاونة الاخيرة . وهذه العبارات جميعا ، كما يجري استخدامها ، هي عبارة عن مترادفات تفيد معنى واحدا مفاده استخدام العلوم التطبيقية الحديثة ، خصوصا تلك التي تحققت في ميدان الالكترونيات على الصعيد العسكري ، في خدمة التكتيكات العسكرية الهجومية والدفاعية . وهي تعني في الاصطلاح العسكري استخدام المعدات التالية : ١) معدات رصد Surveillance and detection equipment لتحديد اماكن وجود معدات العدو الحربية ، كالطائرات في الجو ، والرادارات على الارض . وتستخدم هذه المعدات تقنية الرادار ، والبصريات، والمغناطيسية ، والاشعة تحت الحمراء، والليزر، والاقمار الصناعية الاستطلاعية ، ٢) ومعدات للسيطرة والضبط Command and Control equipment تقوم بتقدير الخطر وتحليله ، كمعرفة عدد الطائرات في الجو ، وتحليل خط سيرها وسرعتها وارتفاعها ، وتحديد الاسلحة المناسبة لضرب منطقة الخطر ، كاطلاق الصواريخ المضادة للطائرات، او تحليل مسار القذيفة المضادة لشبكات الرادار الارضية . وتستخدم هذه المعدات تقنية العقول الالكترونية ، ٣) واجهزة ملاحية Navigational equipment تضمن دقة توجيه الاسلحة الى أهدافها . وتستخدم هذه الاجهزة تقنية الجيروسكوب أو بعبارة أخرى تقنية التصور الذاتي ، والرادار ، والاشعة تحت الحمراء ، والليزر ، والبصريات ، ٤) واخيرا شبكة من الاتصالات الالكترونية تربط بين جميع المعدات سابقة الذكر وبين الاسلحة التابعة لها وبين قيادة العمليات الحربية .

وليس استخدام الالكترونيات على هذا النحو امرا جديدا ، فلقد بدأ مع اختراع الرادار واستخدامه ، وصناعة العقول الالكترونية ، وتطور علوم الفضاء وارتياد الكواكب ، وصناعة الصواريخ عابرة القارات ، وبناء الغواصات النووية الحديثة . ولكن يمكن القول أن مثل هذه المعدات حديثة نسبيا على الترسانة العسكرية ، ولقد طورت خصيصا لتلائم متطلبات الحرب الالية الحديثة المعقدة . كما أن تطبيق مبدأ نيكسون القاضي بمكننة الحرب في فيتنام جعلها تتبوأ مكانا بارزا في ترسانة السلاح الاميركية ، وكان دافع نيكسون لاتخاذ قراره هو التغلب على المشكلة الدائمة التي عانتها القوات الاميركية ، الجوية بشكل خاص ، في اكتشاف أماكن وجود الثوار وتصفيتهم ، وبالتالي فقد زودت الولايات المتحدة طائراتها العاملة في فيتنام بمختلف الاجهزة سابقة الذكر . واستطاعت الطائرات المزودة بالاجهزة الالكترونية الجديدة أن تحقق نجاحا في اداء مهامها في بادىء الامر ، وكان هذا فاتحة عهد جديد لبدء صراع

حامي الوطيس بين الطائرة التي تعززت هيمنتها فوق مسارح العمليات وبين وسائل اعتراضها ومقاومتها . وقد حتم نشوء هذا الصراع الجديد ـ بالاضافة الى الاجهزة المذكورة ـ التطور العظيم في صناعة الطائرات الذي بدأ في اوائل الستينات وكان من نتيجته : تطور سرعة الطائرة وتجاوزها لضعفي سرعة الصوت او اكثر ، وتطور قدرتها على المناورة والبقاء في الجو مدة أطول في مختلف انواع الظروف الجوية وعلى مختلف الارتفاعات التي تتراوح بين بضعة امتار وما يزيد عن ١٨ كيلومترا فوق سطح البحر ، سواء كان ذلك في الليل أو في النهار ، وتطور الاجهزة والخدمات الارضية التي تساندها ، وتطور فعالية ودقة أسلحتها المتعددة الاشكال والانواع . كل ذلك عزز الاهمية التكتيكية والاستراتيجية للطائرة ومكنها من احتلال مركز متميز بين مختلف الاسلحة ، اذ أصبحت السيادة الجوية تتحكم بصورة واسعة بالقدرة على الحركة البرية والبحرية ، ومثالنا على ذلك حرب حزيران ١٩٦٧ التي حسمت نتيجتها في الساعات الثلاث الاولى من نشوبها بعد تدمير سلاح الجو المصري على الارض وسيطرة سلاح الجو الاسرائيلي على أجواء مسارح العمليات في غياب القدرة على اعتراضه . والاهم من ذلك ان تطور الطائرة جعل من اسلوب اعتراضها التقليدي، عن طريق تركيز سدود النيران الكثيفة في طريقها ، اسلوبا متخلفا محدود الفعالية : فوسائط النار التقليدية وصلت الى شكلها العام النهائي ، وقد تطرأ عليها تجديدات وتحسينات ، كتحسين مداها ، ودقة رميها ، وكثافة نيرانها ، ولكن هذه التجديدات والتحسينات سوف تبقى محدودة بالنسبة الى امكانات الطائرة الحديثة ، كما أنها سوف تثير معضلات أساسية كمسألة التموين بالذخيرة ، وتقييد الرمايات العمياء في الميدان ، وغيرها . وبالتالي فان السلاح الذي يقوم باعتراض الطائرة في الجو ينبغي ان يكون سلاحا قابلا للتطور السريع شأنه في ذلك شأن الطائرة نفسها .

ويرتبط التطور الذي اصاب الطائرة ـ كأي تطور تقني اخر ـ بثلاثة عوامل هي: المعارف العلمية الاساسية ، والاكتشافات الجديدة ، والتطورات التقنية الحديثة . ونظرا لوجود هذه العوامل ، وللتطور الكبير الذي تحقق على صعيد صناعة الصواريخ الفضائية والعسكرية المختلفة ، فانه لم يعد هناك بد من اختيار الصاروخ ليحل محل الاسلحة التقليدية في اعتراض الطائرة في الجو : ويستطيع الصاروخ الانطلاق بسرعات تفوق سرعة الطائرة ، والوصول الى ارتفاعات تفوق الارتفاعات التي يمكنها وصولها ، ويستطيع المناورة في الجو او الفضاء وحمل رأس حربي واعتراض الهدف وتدميره ، كما ان تكاليف استخدامه اقتصادية اذا قورنت بفعاليته العسكرية وباعتبار تكاليف الطائرة والاجهزة والخدمات الملحقة بها . وبالتالي فقد أخذت الصواريخ المضادة للطائرات تحل محل الاسلحة النارية التقليدية في أنظمة الدفاع المضاد للطائرات . ويتضمن نظام الدفاع المضاد الذي نحن بصدده ـ كأي نظام دفاعي اخر ـ القيام بعمليات تحديد ومراقبة الهدف ومتابعته ، واعداد الصاروخ واطلاقه وتوجيهه نحو الهدف واخيرا التوجيه النهائي للصاروخ لاعتراض الهدف وتدميره .

وباستخدام وسائل الحرب الالكترونية المذكورة اعلاه ، فان هذا النظام يتطلب استخدام معدات الرصد ، ومعدات السيطرة والضبط ، واجهزة الملاحة ، وشبكة الاتصالات الالكترونية التي تربط بينها . اي بعبارة أخرى استخدام الاجهزة والمعدات نفسها التي مكنت الطائرة من أخذ مركزها المتميز ، الا أنها تستخدم في هذه الحالة استخداما مضادا . وبعبارة اخرى ايضا ، فان الصراع بين الطائرة والصاروخ هو عبارة عن مبارزة بين الالكترونيات والالكترونيات المضادة .

٢ ــ بدايع الصراع

لقد كانت حادثة اسقاط طائرة الاستطلاع (يو ٢) الاميركية فوق سماء الاتحاد السوفياتي بواسطة صاروخ سوفياتي مضاد (سام ٢) في سنة ١٩٦٠ ، بمثابة اعلان ميلاد هذا الصراع الدرامي الجديد . وقد كشفت هذه الحادثة التي اثارت في حينها لغطا وتساؤلات وتكهنات كثيرة عن قدرة الصاروخ المضاد الموجه على اسقاط طائرة تحلق على ارتفاع عال (حوالي ١٨٠٠٠ متر فوق سطح البحر) . ووقعت المواجهة الثانية بين الطائرة والصاروخ في فيتنام ، وقد تميزت هذه المواجهة بأنها أول مواجهة واسعة النطاق استمرت مدة طويلة ، وكان من نتيجتها اسقاط اعداد ضخمة من الطائرات الاميركية بواسطة الصواريخ السوفياتية من طراز « سام ــ ٢ » التي تمكن ثوار الفيتكونغ من الحصول عليها . كما تميزت بكونها اول مواجهة بين الالكترونيات والالكترونيات المضادة خلال صراع يجري بين قوة تكنولوجية متفوقة وشعب فقير متخلف ، استطاع أن يخوض هذا الصراع بأساليب مضادة مبتكرة ،وان ينتصر فيه ، خصوصا وان الترسانة الاميركية الالكترونية التي استخدمت في فيتنام طورت خصيصا لتغطية احتياجات جيش يقوم بمكافحة حرب عصابية ثورية . وتميزت أيضا بكونها اعطت سمة مميزة للاسلحة الحديثة المضادة للحرب العصابية ــ ومنها الطائرة ــ أشار اليها البروفيسور اليوغوسلافي فلاديمير ديديجر (الضابط السابق في جيش العصابات الذي كان يقوده تيتو خلال الحرب العالمية الثانية) في مقاله « قوة الفقراء »(١)، وهي انه برغم كل التحسينات التقنية التامة لاجهزتها الالكترونية فان هذه الاسلحة الحديثة تعطي دوما انطباع عدم دقة كبير ، وارادة تدمير عمياء ، مما يثبت ان شكل الحرب العصابية لها كل فرص البقاء والاستمرار مهما تكن الاسلحة المستخدمة ضدها . ومن أمثلة الصراع التي ظهرت في فيتنام ما يلي :

١ ــ بعد دراسة نقاط ضعف صاروخ « سام ــ ٢ » ، تعلم طيارو قاذفات القنابل الاميركية كيف يفلتون منه بتنفيذ حركة جوية تشبه حرف « S » وتسمى بحركة « S » الناقصة Split S maneuver، وقد استفاد ثوار الفيتكونغ من هذه الحركة في اسقاط عدد كبير من القاذفات وذلك عن طريق اطلاق عدد من الصواريخ باتجاه القاذفات المغيرة التي سرعان ما تقوم بتنفيذ الحركة المذكورة لتجد سدودا كثيفة من النيران المضادة في استقبالها عند نهاية الحركة .

٢ ــ وعندما طور الاميركيون اسلوبا للتشويش على اجهزة توجيه « سام ــ ٢ » الرادارية ، لجأ الثوار الى اسلوب مضاد بسيط يتلخص في أنهم يقومون بتشغيل أجهزة تحديد الهدف الرادارية الملحقة ببطاريات الصواريخ المذكورة لمدة ثوان قليلة تكفي لتوجيه الصاروخ نحو الهدف بينما لا تكفى لكي تقوم الطائرات المغيرة بالتشويش عليها بوسائلها الالكترونية المضادة ، كما لجأ الثوار الى تنفيذ اسلوب آخر متطور ــ سبب قلقا شديدا للدوائر الاميركية ــ يعتمد على استبدال أجهزة التوجيه الرادارية في عدد من بطاريات صواريخ « سام ــ ٢ » بأجهزة متابعة بصرية : ويشبه جهاز المتابعة البصرية هذا منظار البندقية القناصة ، وما على الرامي في هذه الحالة سوى متابعة الطائرات المغيرة بواسطة المنظار وابقائها في دائرة الهدف ، الامر الذي يستدعي تحريك المنظار صعودا وهبوطا او من جانب الى جانب ، واثناء اجراء حركات المتابعة هذه يتم تغذيتها الى عقل الكتروني ملحق وظيفته ترجمة هذه الحركات وتحليلها وتحويلها الى بيانات تفيد في توجيه الصاروخ الى هدفه . وبالرغم من أن دقة جهاز المتابعة البصري أقل من دقة جهاز الرادار ، فقد كانت دقته مرضية، بالاضافة الى كونه غير قابل للتشويش او التضليل بالوسائل الالكترونية المضادة .

٣ ــ وقد أثار اسقاط طائرات « ب ــ ٥٢ » الاميركية الاستراتيجية العملاقة فوق فيتنام الشمالية قلقا كبيرا في دوائر الطيران الاميركي ، فقد كان الخبراء يعتقدون ان هذه الطائرات منيعة ويستحيل اسقاطها بسبب تحليقها على ارتفاعات شاهقة ، وقدرة اجهزتها الالكترونية على تضليل صاروخ « سام ــ ٢ » ، ومعرفتها بنقاط ضعفه . وقد تبين لهم من التحقيق الذي اجري مع الطيارين الذين لم يقعوا في الاسر ، ان هذه الطائرات اسقطت بواسطة الصواريخ الموجهة من الارض ، مما دعاهم الى الاعتقاد بان هذه الصواريخ قد طورت بشكل ملحوظ ، او أن هناك صواريخ سوفياتية اخرى جديده تماما « سام ــ ٣ » . ويظهر ان التطور الذي استحدث في هــذه الصواريخ يتعلق بشكل خاص بمعدات التوجيه والكشف الالكترونية ، بحيث تستطيع التغلب على موجات التشويش المضاد ، وعلى المناورات التي قد تقوم بها الطائرات المغيرة للهرب من ملاحقة الصواريخ لها ، الامر الذي دفع القيادة الاميركية الى تطوير المعدات التي استخدمتها في فيتنام واعطاء الامر بالعمل على تطوير صاروخ (جو ــ جو) قادر على اعتراض صواريخ (ارض ــ جو) الموجهة وتحطيمها قبل وصولها الى « الطائرة ــ الهدف » . وتقول المعلومات المتوفرة ان عملية تطوير وصناعة هذا الصاروخ الموجه ضد الصواريخ ــ وقد اعطيت اسم اس. ام ٥٧٤ــ نستغرق ما يقارب ١٠ سنوات ، وتكلف مجهودات تقنية ومالية ضخمة .

وقد أثبتت التجربة الفيتنامية ان الصواريخ الموجهة المضادة للطائرات وسائل دفاع فعالة ، ضمن حدود مدى رميها. وان عملها على ارتفاع عال محدود بخصائصها المميزة والخاصة بها ، كما أنه محدود على ارتفاع منخفض ، بتعقد مسائل مراقبتها وتوجيهها. ولما كانت صواريخ « سام ــ ٢ » صالحة للعمل على ارتفاعات عالية وهذا هو الهدف الاساسي من تطويرها الذي كشفت عنه حادثة اسقاط طائرة « يو ــ ٢ » فقد استغلت الطائرات الاميركية امكانية العمل فوق حقل عمل الصاروخ او تحته للتخلص من خطره، وبالتالي فقد اضطر الفيتكونغ الى دمج استخدام سدود النار المضادة التقليديــة على الارتفاعات المنخفضة لزيادة فعالية صواريخهم الموجهة . وقد استثمرت الولايــات المتحدة ــ على ضوء هذه التجربة ــ مبلغ (٥ر٢) مليار دولار في حقل تطوير وسائل الالكترونيات المضادة لشبكات توجيه الصواريخ الارضية في فيتنام Electronic counter measures وخصوصا (ســـام ــ ٣) ، مثل تطوير صناعة الرقائق او النصلات(٢) Chaff المعدنية والزجاجية التي تستطيع عكس موجات الكشف والتوجيه الراداريــة اللاحقة بالصواريخ المضادة والتشويش عليها ضمن نطاق ترددات واسع ، وتطوير صواريخ جو ــ ارض مضادة لشبكات الرادار الارضية مثل صاروخ شرايك، واكتشاف نقاط ضعف الصواريخ الجديدة . وقد صرحت المصادر الاميركية في سنة ١٩٦٩ ان الولايات المتحدة حققت تفوقا في هذا المجال ، وهو تفوق مشكوك فيه كما بدا فــي المواجهات اللاحقة بين الطائرة والصاروخ .

٣ ــ الالكترونيات فوق السويس (حرب الاستنزاف)

وكانت المواجهة الثالثة من الصراع بين الطائرة والصاروخ ، ابان حرب الاستنزاف التي شنها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ضد اسرائيل (١٩٦٩ ــ ١٩٧٠) . وقد اظهرت هذه المواجهة أن الصاروخ قد تكيف مع الخطر الجديد ، وان استثمار ذلــك المبلغ الخيالي لم يكن المرحلة الاخيرة من الصراع ، بعد ان برزت شبكة الصواريخ الارضية المتراصة على طول جبهة السويس التي تمكنت من اسقاط العديــد مــن الطائرات الاسرائيلية ، وبرز صاروخ « سام ــ ٣ » المحمول ذو المدى المتوسط الذي

يمكن استخدامه ضد الطائرات المنخفضة ، وبذلك أصبح نظام الدفاع الصاروخي أكثر تكاملا باضافة بعد جديد اليه .

ومن هنا عكفت الولايات المتحدة على العمل — من جديد — من اجل التفوق على هذه الشبكة واخذت تطور وسائل الكترونية جديدة لمواجهتها . وقد اعترفت الولايات المتحدة — آنداك — بانها كانت عاجزه ، بالوسائل التي كانت متوفره لديها • عن مواجهة هذه الشبكة الصاروخيه السوفياتيه من نوعي «سام — ٢» • و«سام — ٣» • كما اعترفت المصادر الاسرائيلية ، بأن هذه الشبكه شكلت مصدرا للقلق والازعاج لسلاح الجو الاميركي ، لانها اثبتت ان بوسع الاتحاد السوفياتي منع النشاط الجوي فوق ارض المعركه في المستقبل ، اذا ما اقام شبكة كالشبكه التي اقيمت بين يوم وليله على جبهه السويس . ومن هنا قررت الولايات المتحدة تزويد اسرائيل باحدث ما لديها من معدات الكترونية مضادة من أجل تدميرها . ولهذه الاسباب لا نستغرب قول المصادر الاسرائيلية في تلك الفترة : ان اسرائيل هي اكبر مستورد في العالم لشراء انتاج الشركات الاميركية (مثل شركة سلفانيا ، وفينكس وجونسون، ووستنجهاوس) في حقل الاجهزة والمعدات المضادة للالكترونيات ، وأن احدى هذه الشركات ، منفردة، باعت اسرائيل اجهزة تشويش تناسب طائراتها بمبلغ عشرة ملايين دولار ، وان اسرائيل تنتج سلسلة من الاجهزة المضادة للالكترونيات . ولكي تتمكن من ذلك قامت بشراء ونقل مصانع بكاملها — مع عمالها — من الولايات المتحدة الى اسرائيل . ويلاحظ ان كلتا المواجهتين السابقتين استخدمتا كحقل للتجارب بين الدولتين الاعظمين في الالكترونيات والالكترونيات المضادة والالكترونيات المضادة للالكترونيات المضادة electronic counter counter measures .

٤ — اكتوبر ١٩٧٣

ثم حدثت المواجهة الرابعة بين الطائرة والصاروخ في حرب تشرين الاول ١٩٧٣ التي استطاعت الدول العربية بفضلها مفاجأة اسرائيل والعالم بشبكة من الصواريخ الموجهة من طراز سام، قامت بتأمين التغطية اللازمة لها في جبهتي السويس والجولان، واسقاط اعداد كبيرة من الطائرات الاسرائيلية التي حاولت اختراقها ، وكانت هذه الشبكة تضم صواريخ « سام — ٢ » و« سام — ٣ » ، و« سام — ٦ » (المحمول الذي يعمل ضد الاهداف المنخفضة والمرتفعة حتى ١٧٠٠٠ مترا) ، و(سام — ٧ » (الذي يحمله المقاتل لمواجهة الطائرات الاكثر انخفاضا) . وبهذه الشبكة أمكن تحقيق حماية فعالة متكاملة الابعاد ضد الطائرات التيتطير على ارتفاعات منخفضة ومتوسطة ومرتفعة . والجديد في هذه المواجهة هو استخدام صاروخين متطورين هما «سام — ٦ و ٧ » : وتكمن اهمية « سام — ٦ » في كونه يستخدم لاول مرة ، وبالتالي لم يكن بالامكان معرفة اشارات رادارات التوجيه الخاصة به ، كما هو الحال بالنسبة « لسام — ٢ » الذي اختبر في فيتنام واستولى الاسرائيليون على عدد منه في حرب ١٩٦٧ وكما هو الحال — ربما — بالنسبة « لسام — ٣ » ، ومن حيث انه قادر على العمل رغم أجهزة التشويش الحديثة التي استخدمها الاسرائيليون خصوصا وانه يستعمل أربع موجات رادارية مختلفة لتوجيهه في المرحلة الاولى من انطلاقه نحو الهدف تعقبها مرحلة تسيير ذاتي يقوم الصاروخ فيها بتوجيه نفسه بواسطة رأس باحث عن الاشعة تحت الحمراء التي تنبعث من محركات الطائرة الهدف ومن الطاقة الشمسية المنعكسة على الطائرة او كليهما معا . وقد خسرت اسرائيل الكثير من طائراتها في الايام الاولى للقتال بفضل الصاروخ « سام — ٦ » ، وكان يواجهها خطر المناورة الى الاعلى لتجنبه فتجد امامها « سام — ٣ » او « سام — ٢ » كما كان يواجهها خطر المناورة الى

الاسفل لتجد امامها « سام ـــ ٧ » او المدافع السوفياتية المضادة الموجهة بالرادار من طراز شيلكا « زد. اس. يو ـــ ٢٣ ـــ ٤ » (ZSU-23-4). وتكمن اهمية صاروخ « سام ـــ ٧ » : من حيث خفة وزنه وسهولة استخدامه وبساطة تركيبه ، ومن حيث انه ينطلق من قاذف يستطيع المقاتل حمله واطلاقه في مختلف اوضاع الرمي ، ومن حيث أنه يتوجه ذاتيا بواسطة رأس باحث عن الاشعة تحت الحمراء المنبعثة مـــن محركات الطائرة او الطاقة الشمسية المنعكسة على سطحها او كليهما ، ومن حيث مداه الذي يبلغ حوالي (٣) كيلومترات .

وقد بذلت اسرائيل أقصى ما يمكنها لاستعادة سيطرتها الجوية السابقة اثناء حرب تشرين الاول واستخدمت احدث ما في الترسانة الالكترونية الاميركية من أجهزة مضادة، ولكن لم يتبين بعد استخدام اسرائيل للاجهزة المضادة للرادار ولصواريخ شرايك او لبث بالونات او دفقات حرارية لتضليل صواريخ « سام ـــ ٦ » و« سام ـــ ٧ » ، بشكل خاص ، أنها قامت بالمهمة بنجاح يماثل فعالية هذه الصواريخ ، لان ما استخدم منها لم يعط نتيجة جيدة . وقد اضطر الاسرائيليون للاعتماد بشكل واسع على النصلات التي تلقيها الطائرات ، واستخدمت بشكل خاص موزع النصلات المحمول جوا من طراز (AN/ALE-29) . ومن مظاهر الدعم الاميركي في هذه الحرب : قيام سلاح الجو الاميركي بتوجيه طلب الى شركة لندي الكترونيكس Lundy Electronics ـــ وهي المزود الرئيسي له بالنصلات الزجاجية ـــ لتحويل انتاجها لمدة شهرين الى اسرائيل . وبالاضافة الى ذلك ، فقد تم تحويل اكثر من ٥٠,٠٠٠ حزمة من النصلات من مخازن سلاح الجو الاميركي الى اسرائيل وذلك خلال الاسبوع الاول من اندلاع القتال ، كما تم ارسال ٢٠ موزع نصلات من نوع (AN/ALE-38) الذي يحمل مـــا زنته ١٥٠ كيلو غراما من النصلات اليها ، وتم تعديل معدات التشويش الكتروني الاميركية التي تستخدمها اسرائيل حاليا والتي تشمل حواضن (AN/ALQ-71) من صنع شركة هيوز، وحواضن (QRC-335) من صنع شركة وستنجهاوس ، وحواضن (AN/ALT-27) صنع شركة « لينون » لتحييد قواعد صواريخ « سام ـــ ٢ » ، و« سام ـــ ٣ » الثابتة ، ولكن قواعد « سام ـــ ٦ » المتحركة كانت تشكل المعضلة الاكثر جدية التي لم تستطع معدات التشويش الالكتروني مواجهتها لعدم وجود جهاز باستطاعته التشويش ضمن نطاق ترددات واسع تتراوح ذبذباتها بين نطاق ترددات اي(E)، ول (L) . وبالاضافة الى ذلك ، وعلى الرغم من التحسين المستمر في أجهزة التشويش الالكتروني ، فان الولايات المتحدة واسرائيل لا تملكان سوى قدرة مشكوك فيها على اكتشاف اطـــلاق صاروخ «سام ـــ ٦» ، وتحذير قائد الطائرة الهدف، باستخدام أجهزة (AN/ALQ-72) و (AN/ALQ-78) التي تحملها الطائرات تحت اجنحتها لتلتقط اشارات الـــرادار المعادي وتشوش عليها . وربما تستطيع طائـــرات التشويش الاميركيـــة (EA-6B) التي طلبت اسرائيل التزود بها، والتي تحمل أجهزة جديدة وسرية من نوع AN/ALQ-99) والمصنفة على قائمة الاسلحة غير المسموح بتصديرها ، التشويش على رادار صواريخ « سام ـــ ٦ » بواسطة الاجهزة المتطورة التي تحملها والقادرة على حل اسرار ذبذبات الرادار فورا . الا ان صحة ذلك متروكة لمواجهات مستقبليـــة بـــين الطـــــائرة والصـــاروخ(٢). ولما لم تأت الوسائل السابقة بالفائدة المرجوة ، لجـأ الطيارون الاسرائيليون الى اطلاق دفقات او بالونات حرارية لتضليل أجهزة صواريخ«سام ـــ٦»، و« سام ـــ ٧ » التي تعمل بالاشعة تحت الحمراء ، ثم القيام بمناورات جوية لتجنبه ورغم ان هذه الوسيلة كانت تنجح احيانا الا انها كانت تضع الطائرات الاسرائيلية في مواجهة وسائط النار المضادة الاخرى . وهناك ملاحظة هامة ظهرت ابان حـــرب

الاستنزاف في الجولان سنة ١٩٧٤ وهي أن صواريخ مضادة للطائرات متعددة الرؤوس واجهت الطائرات الاسرائيلية التي كانت تبث دفقات حرارية مضللة فوق سماء الجبهة، ولا توجد في الوقت الحاضر اية بيانات تفصيلية عن هذه الصواريخ خلاف المشاهدات الميدانية، وربما كانت طرازا متطورا من صواريخ «سام» حصلت عليه الجمهورية العربية السورية وربما كانت من طراز اخر ، والامر سيان طالما أن استخدامها يدلل على أن الصراع الالكتروني بين الطائرة والصاروخ ما زال مستمرا .

ولا بد من الاشارة الى أن انواع الصواريخ الحديثة أرض ــ جو التي تملكها الدول كثيرة ومتعددة منها صواريخ « ستاندارد » بنوعيها : (RIM-66A) ومداه ٢٤ كيلو مترا و (RIM-64A) ومداه ٥٦ كيلو مترا ، وتستخدمها البحرية الاميركية على القطع البحرية للدفاع ضد الطائرات . وقد قيل ان اسرائيل حصلت عليها(٤). ومنها نظام صواريخ « هوك Hawk » الاميركية المضادة للطائرات التي تطير على ارتفاعات متوسطة / منخفضة (من ٣٠ ــ ١١٠٠٠ متر) ، وهو يستخدم الان في تسليح جيوش الولايات المتحدة الاميركية والمانيا واسرائيل والمملكة العربية السعودية . وقد جرى تحسين هذا النظام مؤخرا بزيادة قوة محرك الصاروخ ، وزيادة حجم الراس الحربي الذي يحمله وتحسين اجهزة قيادته وتوجيهه ، وتزويده « بأجهزة مضادة للالكترونيات المضادة ECCM » اكثر كفاءة ويجري حاليا انتاج اعداد من نظام « هوك » المحسن لتزويد الجيش الاميركي بها ، كما ستزود به (٦) دول اوروبية : (الدنمارك ، فرنسا ، اليونان ، هولندا ، ايطاليا ، والمانيا الغربية) بالاضافة الى المملكة العربية السعودية التي اجرت عقدا ، في هذا العام ، بقيمة (٢٦٠ ــ ٢٧٠) مليون دولار من أجل الحصول على نظام هوك المحسن . ومنها ، « سام ــ دي (SAM-D) » الذي تقوم شركة « ريثيون Raytheon » الاميركية بتطويره حاليا لصالح الجيش الاميركي مستفيدة في ذلك من دروس حرب تشرين الاول الماضي ، وهو نظام بالغ التعقيد معد للدفاع ضد الطائرات الحديثة المتقدمة التي تطير على ارتفاعات عالية ينتظر ان يحل محل نظام « هوك » في سنة ١٩٨٠ . ومنها الصاروخ « تشابارال Chaparral » الموجه ضد الطائرات التي تطير على ارتفاعات منخفضة . ومنها نظام صواريخ « رابير Rapier » البريطاني ، من انتاج «بريتش ايركرافت كوربوريشن BAC المضاد للطائرات التي تطير على ارتفاعات منخفضة (حتى ٥٠٠٠ متر) ، والمجهز بوسائل توجيه الكترونية بصرية اساسا تدعمها وسائل توجيه رادارية للتعامل مع الطائرات في مختلف انواع الظروف الجوية ، وهو يدخل حاليا في تسليح الجيشين البريطاني والايراني . ومنها نظام صواريخ « تايغركات » البريطاني الموجه بالرادار ضد الطائرات المنخفضة ، وهو موجود في تسليح بعض أسلحة الجو كسلاح الجو البريطاني والاردني . ومنها نظام صواريخ « كروتال » الفرنسي ، انتاج «تومبسون» الموجه بالرادار ضد الطائرات التي تطير على ارتفاع منخفض (٥٠٠ ــ ٨٥٠٠ متر) ، وهو يدخل حاليا في تسليح جمهورية افريقيا الجنوبية التي طلبت على اثر حرب تشرين الاول الماضي دعم هذا النظام بوسائل توجيه بصرية، كما سوف يدخل في تسليح فرنسا في سنة ١٩٧٦ . ومنها نظام صواريخ « م. ب. ب / رولاند MBB/Roland » ، انتاج « ايروسبسيال » ، المحمول والموجه بواسطة اجهزة رادارية / بصرية لمدى (٦) كيلومترات ، وينتظر دخوله في تسليح الجيشين الفرنسي والالماني . ومنها صواريخ « آر.بي ــ ٧٠ (RB 70) » السويدية الموجهة بصريا ضد الطائرات التي تطير على ارتفاعات منخفضة . ومنها أيضا الصواريخ الصغيرة من فئة صاروخ « سام ــ ٧ » وهي : « رد. آي » الاميركي ، و« بلو بايب Blow Pipe » البريطاني وغيرها .

ويلاحظ ان جميع أنظمة الصواريخ هذه لم تستخدم بعد في مواجهات قتالية حقيقية ، وبالتالي فمن الصعب تقييم مدى فعاليتها كما هو الحال بالنسبة لصواريخ « سام » السوفياتية . ويلاحظ ان معظم هذه الانظمة حديثة ومعدة بحيث يمكن توجيهها امـــا بوسائل رادارية متقدمة ، او بوسائل بصرية ، او بوسائل رادارية / بصرية معا . ويلاحظ ايضا ان اهتمام دول الغرب منصب في الوقت الحاضر على تطوير استخدام الصواريخ المضادة للطائرات التي تطير على ارتفاع منخفض مثل رد. آي وبلوبايب ، ورابير ، ورولاند ، وتشابارال الذي حصلت اسرائيل عليه من الولايات المتحدة مؤخرا وعرضته بمناسبة يوم قواتها الجوية . كما يلاحظ ان اهتمام هذه الدول منصب أيضا على استخدام وسائل التوجيه البصرية ودعمها بالوسائل الرادارية في أنظمة الدفاع الصاروخية المختلفة كنتيجة للدروس المستفادة من حرب تشرين الماضي في ميـــدان الالكترونيات المضادة ، ذلك انه من الصعب تضليل الوسائل البصرية والتشويش عليها كما هو الحال بالنسبة للوسائل الرادارية .

ومن الجدير بالذكر ان وسائل النيران المضادة التقليدية استخدمت بفعالية كبيرة في الحرب التشرينية من قبل الجانب العربي ، الا أنها كانت وسائل متطورة موجهـــة بالرادار : فقد استخدمت المدافع السوفياتية المضادة للطائرات من طراز شيلكا (زد. اس. يو — ٢٣ — ٤)(٥) لدعم أنظمة الصواريخ المضادة ولمواجهة مناورات الطائرات الاسرائيلية التي كانت تحلق على ارتفاعات منخفضة . وتمتاز هذه المدافع ذاتيـــة الحركة بتوجيه راداري ذي شعاع ضيق جدا لمنع اكتشافه والتهرب منه ، ولا يعرف عن اجهزة اميركية قادرة على التشويش عليه . كما يتميز مدفع « زد. اس. يو — ٢٣ — ٤ » بكثافة نيرانه (٤٠٠٠ طلقة في الدقيقة ، بمعدل ١٠٠٠ لكل سبطانه) التي لا ينافسه فيها اي من المدافع ذاتية الحركية الموجودة في تسليح اسرائيـــل والدول الغربية ، ويشابهه الى حد ما نظام « فولكان Vulcan » (عبارة عن مدفع سداسي ، عيار ٢٠ ملمتر ، يطلق ٣٠٠٠ طلقة في الدقيقة) وهو الوحيد من بين الانظمة المستخدمة فعليا في الغرب الذي يتمتع بهذه الخاصية ، وقد حصلت عليه اسرائيل اثر حرب تشرين الاول الماضي . ويبدو ان هناك اهتماما غربيا مستفادا من دروس الحرب يهدف الى دعم الدفاعات الصاروخية بمدافع ذاتية الحركة مضادة للطائرات التي تطير علـــى ارتفاع منخفض ، ومن أهم الانظمة التي سيتم التزود بها مدفع اورليكون (عيار ٣٥ ملمترا) ومدافع « راينمتال ر هـ ٢٠٢ Reinmetall RH 202 » (عيار ٢٠ ملمترا، ومداها ٢ كيلومتر) . ويذكرنا استخدام الدفاعات التقليدية المتطورة اثناء حرب تشرين الاول باستخدام الدفاعات التقليدية ابان الحرب الفيتنامية .

وهناك ، بالاضافة الى الصواريخ ارض — جو الموجهة ، صواريخ اخرى تكتيكية موجهة تحملها الطائرات لرمي أهداف جوية في الصراع مع الطيران المعادي (صواريخ جو — جو) ، ولضرب أهداف ارضية (صواريخ جو — ارض) . ويتم تناولهما فيما يلي من زاوية الصراع الالكتروني الدائر بين الطائرة والصاروخ بالنسبة للنوع الاول من جهة ، ومن زاوية الحاجة الماسة الى ضرب الاهداف الارضية التكتيكية الحساسة في هذا الصراع كالمطارات ، وقواعد اطلاق الصواريخ من الارض واجهزة توجيههـــا الرادارية ، بالنسبة للنوع الثاني من جهة أخرى .

* وقد استخدمت الصواريخ المضادة للطائرات التي تطلق من الجو الى الجو على نطاق محدود في المواجهات الجوية بين الطائرات العربية والاسرائيلية . وتتميز هذه الصواريخ بانها ذات استخدام أكثر مرونة من الصواريخ ارض — جو المذكورة آنفا ، خصوصا اذا حدثت المواجهة بين الطائرات على ارتفاعات متوسطة او عالية ، اما في

الارتفاعات المنخفضة فهناك مشكلات تواجه الطائرة المعترضة في الحصول على معلومات صحيحة عن الطائرة المهاجمة مما يستدعي تكليف طائرات خاصة بالمراقبة بواسطة الرادار وتوجيه الصواريخ جو — جو الى أهدافها . وتوجه هذه الصواريخ عادة اما بواسطة الرادار مثل الصاروخ « سبارو — ٣ » الاميركي الذي تحمله طائرات « الفانتوم » و« السكايهوك » او بجهاز توجيه يعمل بالاشعة تحت الحمراء مثل الصاروخ « سايدوندر » الذي تحمله طائرات « الفانتوم » و« السكايهوك » ايضا. ومن هذه الصواريخ : صاروخ « أتول Atoll » الذي تحمله طائرات « الميغ ٢١ » الروسية ، وصاروخ « شفرير » الاسرائيلي الصنع ، وصواريخ « فاير ستريك Fire Streak » و« رد توب Red Top » البريطانية ، « وماترا Matra » الفرنسية ، و« آسبيد (١ أ) Aspide IA » الايطالية الحديثة ، وصاروخ « برازو Brazo »، الاميركي الجديد الذي تم اختباره مؤخرا (في شهر نيسان الماضي) وهو اول صاروخ جو — جو يحمل اجهزة توجيه ذاتية ، توجهه نحو شعاع الرادار الذي تطلقه الطائرة المعادية لتوجيه أسلحتها ، موضوعة في هيكل صاروخ « سبارو » طراز (AIM-7) وقد تمت تجربته على متن طائرة « فانتوم دي ٤ ».

* ان تطوير الاساليب والانظمة الدفاعية الصاروخية المضادة للطائرات ، يضطر الطائرة المغيرة الى اطلاق نيران أسلحتها عن بعد ، مع بقائها خارج مدى جهاز الدفاع المضاد لها ، والتضحية بعامل دقة الاصابة ودورها في اسناد القوات الارضية . واستخدامها في حرب تشرين الاول الماضي منع سلاح الجو الاسرائيلي من استثمار تفوقه الجوي على الاسلحة العربية ، واوقع الخسائر الجسيمة في صفوفه . والسبب في ذلك ان الطائرة، باعتبارها جهاز اطلاق يحمل قائدا بشريا قادرا على تحليل الاوضاع التكتيكية والتعرف على الاهداف وحفظ خصائصها المميزة ، تحتاج الى كثير من الوقت وتتعرض الى كثير من المخاطر لكي يصبح بامكانها القيام بوظيفتها بفاعلية ، بعد التعرف على ميزات وخصائص ، وعيوب ، ونقاط ضعف الاسلحة المضادة لها ، وبعد تمكنها من التعامل مع الاهداف التكتيكية الارضية العائدة لتلك الاسلحة . وهذا لا يتم الا بمساعدة اصطناعية تؤمنها «الالكترونيات» و«الالكترونيات المضادة ECM » و« الالكترونيات المضادة للالكترونيات المضادة ECCM» ، ومن هنا فقد تطورت أسلحة الطائرة نفسها لمجابهة هذا الخطر ، وتعقدت وسائل توجيهها . وكما استخدمت الصواريخ المضادة للطائرات التي تطلق من الارض الى الجو فقد استخدمت الصواريخ أيضا كأسلحة تحملها الطائرة على متنها وتطلقها من الجو الى الارض لضرب الاهداف التكتيكية الارضية . وبرغم أن الوسائل الالكترونية التي تستخدم في تحديد اهداف هذه الاسلحة وتوجيهها والتشويش عليها وتضليلها متشابهة في الحالين ، الا ان دور العامل البشري (قائد الطائرة) بالنسبة للاهداف التكتيكية على الارض يبدو أكثر اهمية ، حيث غالبا ما يقتصر دور الالكترونيات في الوقت الحاضر ، على رفع درجة كفاءته ، اذ أن عليه ان يشاهد الاهداف ثم يقوم بتوجيه أسلحته اليها .

وقد شهدت ساحة الصراع العربي — الاسرائيلي اول استخدام لصواريخ جو — أرض متطورة في حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية (١٩٦٩ — ١٩٧٠) ، فقد استخدمت اسرائيل صواريخ من طراز « شرايك » الاميركي ، ذات توجيه سلبي لتدمير اجهزة الرادار التي تدير بطاريات الصواريخ المضادة أرض — جو (من طراز « سام — ٢ » و« سام — ٣ ») ، اذ يتبع الصاروخ الموجات الرادارية التي تنبعث من هوائي الرادار فيتجه نحوه ويدمره ويعطل بالتالي اداء المراقبة الرادارية أو توجيه الصواريخ بواسطة الرادار ، ويبلغ مدى هذا الصاروخ (١٦) كيلو مترا . ولكن

يبدو ان استخدام هذا الصاروخ لم يكن فعالا وخصوصا بعد استخدام صواريخ « سام ــ ٦ » المحمولة ذات انظمة التوجيه المتطورة ابان الحرب التشرينية ، بدليل ضخامة خسائر سلاح الجو الاسرائيلي، وبدليل المساعدات التقنية المتخصصة الضخمة التي حصلت عليها اسرائيل من الولايات المتحدة اثناء وبعد الحرب لمواجهة الحرب الالكترونية العربية . وقد تلقت اسرائيل صواريخ تكتيكية جو ــ أرض من الانواع التاليه : « ستاندارد آرم » الموجهة ضد شبكات الرادار الارضية أيضا . و«مافريك» الذي يوجه بواسطة كاميرا تلفزيونية مثبتة في رأسه ، ويتم توجيهه بأن يختار الطيار الهدف الذي يظهر على شاشة التلفزيون في مقصورته ويناور بحيث تلتقط الكاميرا التلفزيونيه الموجوده في الصاروخ صوره الهدف ، ثم يطلق الصاروخ الذي يتوجه اوتوماتيكيا نحو الهدف . وقد صمم هذا الصاروخ أساسا لقصف الدروع والدشم المحصنه ، وهو ذو رأس حربي خارق للدروع يزن (٥٩) كيلو غراما ، ويبلغ مداه حوالي (٨) كيلومترات . ومن الجدير بالذكر ان اسرائيل وايران هما البلدان الوحيدان بعد الولايات المتحده ، اللتان تملكان مثل هذا الصاروخ . وقد كشفت بعض المصادر في سنه (١٩٧٢) ان الولايات المتحدة تحاول انتاج نموذج من صاروخ « مافريك » يوجه بأشعة ليزر بدلا من تقنية التلفزيون البصرية . ومن الصواريخ جو ــ أرض التي ترغب اسرائيل في الحصول عليها من الولايات المتحدة ايضا : الصاروخ « كوندور » ، وهو صاروخ ثقيل محسن عن « مافريك » يستخدم أساسا لضرب اهداف بحرية كما يمكن استخدامه لتحطيم اهداف صعبة كالقواعد وملاجيء الصواريخبأبنيتها الاسمنتية، وهو يحمل رأسا حربيا شديد الانفجار يزيد وزنه على نصف وزن الصاروخ ــ الذي يبلغ (١١٠٠) كيلوغرام ــ وتوجد في مقدمته كاميرا تلفزيونية للتوجيه على المدى القريب ، وجهاز رادار للتوجيه البعيد المدى يصل الى (١٦٠) كيلو مترا ، وذلك لكي تتمكن طائرات الفانتوم من تدمير اجهزة رادار بطاريات « سام ــ ٦ » دون أن تدخل في مدى عملها

ويبدو أن هناك اهتماما اميركيا بتطوير الاسلحة الموجهة من الجو الى أهداف أرضية تكتيكية ، فقد أنهت الولايات المتحدة مؤخرا مراحل التطوير الرئيسية لصاروخ مضاد للرادارات الارضية ، هو صاروخ « هارم AGM-88A Harm » ، لاستبداله بصاروخي « شرايك » و« وستاندرد آرم » . ومن ناحية ثانية ، فان الاهتمام الاميركي لم يقتصر على صواريخ جو ــ أرض الموجهة ، بل تعدى ذلك الى الاهتمام بتطوير أنواع من قنابل الطائرات المزودة بأجهزة توجيه الكترونية توجهها نحو الهدف. وقد تلقت اسرائيل بالفعل عددا من هذه القنابل ــ ذات التكاليف الباهظة ــ اثناء وبعد حرب تشرين الماضي لقصف أهداف أرضية تكتيكية وهي قنابل «سمارت Smart Bombs» بنوعيها الموجه بأشعة ليزر (ويدعي سلاح الجو الاميركي ان طريقة توجيه هذه القنابل الى أهدافها تحقق دقة تبلغ عشرة أضعاف الطرق الاخرى ، وفائدة أشعة ليزر هنا تكمن في ضيق الحزمة الشعاعية التي تسير بسرعة الضوء في خط مستقيم ، وتستعمل في هذه الطريقة طائرتان : اولاهما توجه الشعاع نحو الهدف المطلوب ، والثانية تطلق القنبلة التي تتبع مسار الشعاع المنعكس عنه) والقنابل الانزلاقية : « وول أي Walleye » و« هوبوز Hobos » ، وكلاهما يوجه بواسطة كاميرا تلفزيونية بطريقة مماثلة لتوجيه صواريخ « مافريك » .

وتنبغي ملاحظة ان جميع هذه الانظمة والاسلحة المتطورة التي حصلت عليها اسرائيل من الولايات المتحدة ، من أجل اعادة فرض سيطرتها فوق الاجواء العربية، لم تثبت جدواها بعد ، حتى في حرب الاستنزاف على جبهة الجولان السورية . وبقي

نظام « سام ــ٦» والانظمة الدفاعية الاخرى المساندة مثل مدافع شيلكا ونظام صواريخ « سام ــ ٧ » الجديد المحمول على آليات والموجه بواسطة اجهزة توجيه بصرية بالاضافة الى الاشعة تحت الحمراء الذي تسلمته سوريا مؤخرا ، يحد من هذه السيطرة .

كما تجدر الاشارة الى ان ارتفاع خسائر اسرائيل الجوية في المعدات والافراد نتيجة كفاءة وفعالية انظمة الدفاع العربية المضادة ، وفشل اجراءاتها الالكترونية المضادة جعلها تلجأ الى استخدام الطائرات الموجهة عن بعد والتي تطير بدون طيارين من طراز رايان فايربي ، بشكل مكثف لغايات الاستطلاع والتشويش الالكتروني للتخفيف من خسائرها البشرية . الا ان العديد من هذه الطائرات اسقط وبالتالي لم يكن استخدام هذه الطائرات فعالا .

وفي ضوء التجارب السابقة المستفادة من حرب تشرين الاول سنة ١٩٧٣ ، يمكن القول بأن دور الطائرة في المستقبل القريب سوف يكون محصورا بالعمل خارج نطاق فعالية الصواريخ المضادة ، وضمن حدود الحماية المؤمنة بالطائرات الاعتراضية والصواريخ الموجهة (جو ــ أرض) : اي العمل على ارتفاعات عالية جدا ، او منخفضة جدا طالما أنها لا تستطيع تأمين وسائل الكترونية مضادة ووسائل الكترونية مضادة للالكترونيات المضادة فعالة . ويترتب على ذلك ان الصراع الالكتروني بين الطائرة وأسلحتها المختلفة وبين وسائل الدفاع الارضية المضادة سوف يستمر بهدف السيطرة على الجو ، وسوف ينتقل الى الفضاء ، ذلك أن السيطرة على الفضاء في المستقبل هي سبيل السيطرة على الجو(٦) .

---

١ ــ نشر في كتاب **الاسلحة الحديثة** الجنرال اندريه بوفر ، وآخرون ، ترجمة اكرم ديري (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧٣) .

٢ ــ شرائط او رقائق معدنية او زجاجية تلقى من الجو بواسطة موزعات خاصة لتعكس الموجات الرادارية، وتعطي النتيجة المثلى عندما يكون طول الواحدة منها مساويا لطول الموجة الرادارية .

٣ ــ انظر **نشرة م. د. ف** ٧٤/١/١ ، و ٧٤/٥/١٦ ، **وافياشن ويك** ٧٣/١٠/١٥ ، **وفلايت انترناشيونال** عدد آب / ٧٤ ، **ونشرة م.د. ف** عدد ٢٤ سنة ١٩٧٣ .

٤ ــ ذكرت **افياشن ويك** عدد كانون الاول سنة ١٩٧٣ ان اسرائيل تسلمت صواريخ ستاندارد ARM ــ وليس RIM ــ الموجهة من الجو الى الارض والمضادة لقواعد الرادار . انظر نشرة م. د. ف ٧٤/١/١ .

٥ ــ مدفع رباعي ، عيار ٢٣ ملم ، ومداه المضاد للطائرات ١٢٠٠ متر، ومعدل رمايته ٤٠٠٠ طلقة في الدقيقة . انظر **انترناشيونال ديفيس ريفيو** ، عدد حزيران ١٩٧٤ .

٦ ــ انظر مقال اندرو ستراتون « معارك في السماء » ، **كتاب الاسلحة الحديثة** ، اندريه بوفر واخرون ، ترجمة اكرم ديري واصدار دار الطليعة .

التوجيه العسكري للمجتمع الاسرائيلي

اياد القزاز

كتب انور عبد الملك ، عالم الاجتماع المصري ذو الثقافة الفرنسية : « من وجهة نظر التحليل السوسيولوجي العلمي ، ان المجتمع المعاصر الوحيد الذي يمكن وصفه فنيا بانه مجتمع عسكري هو ، بمعنى دقيق ، المجتمع الاسرائيلي(١) » . وعلى الرغم مما ينطوي عليه هذا القول من نبرة مثيرة للجدل فان الاستاذ عبد الملك ، للاسف ، لم يحدد المقاييس التي يستطيع المرء من خلالها ان يصنف احد المجتمعات مجتمعا عسكريا كما انه لم يعرض تفصيليا اراءه في الاوجه العسكرية للمجتمع الاسرائيلي . وهدف هذه الدراسة هو ان ابحث بتفصيل المؤشرات الرئيسية التي اعتقد انها تظهر التوجيه العسكري للمجتمع الاسرائيلي .

يلعب الجيش(٢) الاسرائيلي دورا مسيطرا جدا في اسرائيل . فهو اكثر سيطرة بكثير من الجيوش في عديد من البلدان المجاورة في افريقيا وآسيا ، حيث الانقلابات والانقلابات المضادة هي طرق حياة ، وأتقنية رئيسية للعمل السياسي والتغيير في الحكم . فالجيش في اسرائيل مؤسسة فوق المؤسسات . وبامكان المرء أن يقول دون مبالغة كبيرة ان « الجيش الاسرائيلي هو المجتمع الاسرائيلي والمجتمع الاسرائيلي هو الجيش الاسرائيلي . وبكلام اخر ، فالجيش ليس شيئا هامشيا ، ملحقا مفيدا بالوجود الوطني . بل انه الشيء الوحيد الذي يجعل الدولة حقيقة واقعة . فهو بداية ونهاية الوجود السياسي »(٣) . والتعليق التالي لشاول لاداني ، احد اعضاء الفريق الاسرائيلي في الالعاب الاولمبية بميونيخ ، هو ايضا ذو مغزى كبير ويشكل الاساس للدور المهم الذي يلعبه الجيش الاسرائيلي . فقد قال بتقرير صحافي ان « المشاركة الاسرائيلية (في الالعاب الاولمبية بميونيخ) كانت صغيرة لان معظم الشبان الاسرائيليين كانوا مستخدمين في الجيش . وهو ليس كالجيش في اماكن اخرى حيث الرياضة مهمة . ففي جيشنا لا وقت هناك لاي شيء سوى الاعمال الجدية جدا(٤) » .

ثمة مؤشرات كثيرة نستطيع ان نكتشف من خلالها هذا الدور المسيطر الذي يلعبه الجيش الاسرائيلي . وفيما يلي بحث موجز لبعض هذه المؤشرات .

١) **الميزانية** : احد المؤشرات المهمة التي تقرر العسكرية في مجتمع من المجتمعات هو مبلغ المال الذي يخصصه ذلك المجتمع لمؤسسته العسكرية . لقد قال السناتور فولبرايت في الثامن من اب (اغسطس) سنة ١٩٦٧ : ان الاولويات تنعكس في الشيء الذي ننفق عليه مالنا ، وان موازنة امة من الامم هي ابعد ما تكون عن محاسبة جافة يقوم بها كاتبو الحسابات ، اذ انها مليئة بالتضمينات المعنوية ، فتكشف عما يهتم به أحد المجتمعات ، وتكشف عن قيمه . ومجتمع اسرائيل يخصص نسبة مئوية كبيرة من المال لمؤسساته العسكرية ، اكثر بكثير مما تخصصه المجتمعات الاخرى ، بما فيها الكثير من المجتمعات المصنعة في اوروبا واميركا . وتسجل اسرائيل درجة عالية جدا على مقاييس مختلفة للانفاق العسكري . فقد بلغت نفقات التسليح في اسرائيل عام

١٩٧٢ ٤٠٤ دولارات للفرد الواحد ، مقابل ٤٣ دولارا للفرد في مصر و ٣٨ دولارا للفرد في سورية(٥). وهو اعلى انفاق عسكري للفرد في العالم . فقد كانت ارقام الولايا ت المتحدة هي ٣٧٩ دولارا وحل الاتحاد السوفياتي في المرتبة الثالثة ، اذ بلغ انفاقه على الاسلحة للفرد ١٣٢ دولارا(٦) . وقد انفقت اسرائيل ، بين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣ ، على وجه التقريب ٣٥ ــ ٤٣ بالمئة من موازنتها العامة على مؤسستها العسكرية مقابل اقل من ١٦ بالمئة على المؤسسة التربوية(٧). لقد انفقت اسرائيل حوالي ٢٥ ــ ٣٠ بالمئة من مجمل انتاجها القومي على القوات المسلحة ، اي اكثر بمرتين ونصف المرة مما انفقته الولايات المتحدة(٨). وسواء كان لهذا الانفاق(٩) الباهظ ما يسوغه ام لا ، فانه ولا شك يقع على حساب القطاعات الاخرى . وتوازنه مخصصات متناقصة للانماء والبطالة والاغاثة والخدمات الاجتماعية والقطاعات الاخرى . وكذلك فان هذا الانفاق الباهظ على القوات المسلحة قد خلق عبئا ثقيلا جدا على المواطن الاسرائيلي . وتعتبر الضرائب الاسرائيلية بين اعلى الضرائب في العالم . ففي سنة ١٩٦٨ كانت معدلات ضرائب الدخل الشخصي للازواج تتراوح بين ٥ر٢٢ بالمئة على الدخل الخاضع للضريبة وحد اقصى يبلغ ٥ر٦٢ بالمئة على الدخل الخاضع للضريبة الذي يتجاوز ٣٢٥٠٠ ليرة اسرائيلية(١٠).

وقد خلقت النفقات العسكرية العالية اقتصادا شاذا جدا يرتكز على حد كبير على التبرعات والقروض من الخارج . وفي دراسة عن المؤسسة الاسرائيلية صدرت اخيرا وقام بها ب. شيقي اكتشف المؤلف ان « متوسط عجز ميزان المدفوعات السنوي الاسرائيلي قبل عام ١٩٦٧ كان يبلغ نحو ٥٠٠ مليون دولار ــ ومعنى هذا ان كل رجل وامرأة وطفل اسرائيلي كان بحاجة الى اعانة مالية سنوية تبلغ ٢٠٠ دولار من الخارج ليعيشوا » . وبعد حرب الايام الستة عام ١٩٦٧ تغيرت الحالة تغييرا كبيرا وقفز العجز الى اربعة اضعاف ما كان عليه قبل عام ١٩٦٧ . « وهذا يعني ان كل اسرائيلي يحتاج الان الى نحو ٢٢٥ دولارا سنويا من الخارج . ومثل هذه الحال لا مثيل لها في اية دولة اخرى في العالم » . وقد ارتفع العجز ، بعد حرب تشرين ، الى ٣ر٣ مليار دولار . واخيرا فان الكلفة العسكرية الباهظة تمثل عبئا ثقيلا على رصيد اسرائيل من العملة الاجنبية . فقد ارتفعت مصروفاتها من العملة الاجنبية للشؤون العسكرية من ١٦٠ مليون دولار عام ١٩٦٦ الى حوالي ٨٠٠ مليون دولار عام ١٩٦٩ (١١).

٢) **القوة العمالية والمؤسسة العسكرية** : احد المؤشرات الاخرى التي تكشف عن التأثير البعيد المدى للمؤسسة العسكرية هو العدد الكبير من الاشخاص الذين يستمدون دخلهم من هذه المؤسسة . ففي نهاية عام ١٩٧٠ كان هناك عدد يتراوح ما بين نصف القوى العمالية او ثلثيها ، على الاقل ، يحصلون على جزء رئيسي من دخلهم من موازنة القوات المسلحة . ووفقا لما صرح به ناطق باسم وزارة الدفاع الاسرائيلية، فان ما بين ٨٠ الف عامل و ١٠٠ الف عامل في السوق المدنية كانوا يعيشون بصورة مباشرة من موازنة القوات المسلحة(١٢). ومن الامثلة التي توضح الاعتماد المتزايد على تجارة الحرب، النمو غير الاعتيادي للصناعة العسكرية الاسرائيلية من بداية متواضعة قبل عام ١٩٤٨ عندما كانت القوات السرية ــ الهاغانا ــ تصنع رشيشة ستن وقنابل يدوية ، الى مستوى عالي التعقيد من انتاج الطائرات والصواريخ والبنادق الخ . الامر الذي جعل « حوالي ٩٠ بالمئة من الاسلحة الصغيرة والخفيفة والمتوسطة والذخائر التي تستخدمها القوات المسلحة الاسرائيلية هي مصنوعة في اسرائيل »(١٣).

واليوم ، لقد نمت صناعة(*) اسرائيل العسكرية لتصير اكبر صاحب عمل في اسرائيل ، اذ ان صناعة الطائرات وحدها تستخدم ما يزيد على ١٣ الف شخص . واسرائيل مدرجة في « معهد الدراسات الاستراتيجية » بلندن على انها بين البلدان الاربعة والعشرين في العالم التي تطور وتنتج بعض اسلحتها . ولا تضم القائمة ايا من البلدان العربية(١٤) رغم وجود صناعة حربية في مصر . ويقول احد التقارير ان قيمة السلع المصنوعة في مصانع الاسلحة الاسرائيلية كانت تبلغ ٣٠٠ مليون ليرة اسرائيلية عام ١٩٦٧ . وقد ارتفع هذا الرقم الى ١٣٠٠ مليون ليرة اسرائيلية عام ١٩٧٠ ، أي اربعة اضعاف ما كان عليه عام ١٩٦٧ . ومن المتوقع ان يبلغ ٢٦٠٠ مليون ليرة اسرائيلية عام ١٩٧٥ (١٥).

وتدفعنا الاحصائيات الانفة الذكر الى استنتاج واضح ، هو ان تجارة الحرب تسيطر على المجتمع الاسرائيلي . وليس من المبالغة القول بانه اذا ما توقفت المؤسسة العسكرية في اسرائيل عن العمل والانتاج ، او خفضت انتاجها الى الحد الادنى ، فسوف تخلق مضاعفات سلبية خطيرة من شأنها ان تؤثر في المجتمع بأسره . وستتمثل هذه السلبيات بظهور معدل بطالة مرتفع ، أعلى من أي معدل سبق لاسرائيل أن عرفته من قبل ، الامر الذي يهدد بالخطر وجود المجتمع الاسرائيلي نفسه . وهكذا فانه واضح تماما لماذا يوجد لنخبة السلطة في اسرائيل مصلحة راسخة في ابقاء التوتر مرتفعا ، ولماذا تعزز دائما سياسة ذات خط متصلب يعوق اي حل للنزاع . فهي تعي ان اي تخفيض للنزاع سيظهر الى السطح لا التبيانات بين اليهود الشرقيين مقابل اليهود الغربيين فحسب ، بل ايضا اعتماد الاقتصاد الاسرائيلي العالي على الحرب . ولا داعي للتذكير هنا بان سياسة التصلب الاسرائيلية تقوم في الاساس على طبيعة الدولة التوسعية العدوانية ولا على مجرد رغبة السلطة في انتفاع الاقتصاد من سياسة الحرب .

٣) **ضباط في مناصب مدنية** : احد المؤشرات الاخرى التي تكشف عن التوجه العسكري للمجتمع الاسرائيلي هو سياسة الحكومة العامة الرامية الى احالة الضباط على التقاعد في سن مبكرة وتعيينهم في مناصب في القطاع المدني . ونادرا ما ينتبه العلماء الغربيون الذين يدرسون المجتمع الاسرائيلي الى هذا الاتجاه المتزايد في اسرائيل . ويميلون الى اغفاله ولا يعلقون عليه اية دلالة سياسية على الاطلاق ، او يميلون الى التركيز على الاسهام الايجابي لهؤلاء الضباط في القطاعات المدنية ، ويصفونهم بتعابير الاعجاب البراق على انهم افراد موجهون نحو الانجاز ، مجتهدون ، ذوو كفاءة بالغة ، رجال عمل الخ . . ومع هذا ، عندما يدرس هؤلاء العلماء مصر وسورية والعراق وغيرها من البلدان النامية ، فانهم يميلون الى استعمال هذا الاتجاه كمؤشر للسيطرة العسكرية على هذه المجتمعات . ويعملون على شجب هذا الاتجاه لانه يتعارض مع مفهومهم لشكل الديمقراطية حيث لا يسمح ، نظريا ، للرجال الذين يرتدون البزات العسكرية بادارة القطاعات المدنية من المجتمع . واذا ما نظرنا الى الامر في نطاق اخلاقي ، وجدنا أن العلماء يميلون الى وصف ما يحدث في اسرائيل بانه

---

* علق محرر « شؤون فلسطينية » العسكري على هذا الكلام عن صناعة اسرائيل الحربية بأن الموضوع كله قابل للنقاش ، وحذر من الاخذ السريع بما تزعمه المصادر الاسرائيلية للاعلام . فالمهم هو قيمة الاسلحة التي تنتجها اسرائيل اكثر مما هو نسبتها الى مجموع السلاح الاسرائيلي ، وقد كشفت حرب اكتوبر زيف اسطورة تقدم الصناعة الحربية في اسرائيل وقدرتها على تلبية حاجات الجيش والطيران . (شؤون فلسطينية ، عدد ٢٨ ، صفحة ٦٩) .

فاضل ، ثم يصفون الاشياء عينها في البلدان الاخرى بأنها شائبة سياسية . وفيما يلي بعض المعلومات التي توضح تغلغل النفوذ المتزايد للضباط في القطاعات المدنية من اسرائيل .

ان من أهم الامثلة الصارخة على هذا التغلغل تكوين مجلس الوزراء الاسرائيلي السابق الذي كان ستة اعضاء فيه من كبار الضباط السابقين ، بينهم ثلاثة رؤساء اركان سابقين : موشي دايان ، واسحق رابين ، وحاييم بارليف ، وهؤلاء الاعضاء ، وفقا لكل الاراء ، اهم الاعضاء الاقوياء في مجلس الوزراء . وكان من المرشحين لخلافة جولدا مئير لدى استقالتها ييغال الون ، وموشي دايان ، وكلاهما من كبار الضباط السابقين . ثم خلفها بالفعل عسكري اخر هو اسحق رابين . وقد درس بن — دور في بحث غير منشور سيرة ٧٥ من كبار الضباط السابقين من رتبة زعيم وما فوق احيلوا على التقاعد بين عام ١٩٥٠ وشباط (فبراير) عام ١٩٧٣ . فوجد انهم عينوا في دوائر الوزارات التالية :

مكان الاستخـــدام	العـــدد	النسبة المئوية
١) النظام العسكري	١٨	٢٤
٢) التعليم والابحاث في معاهد التعليم العالي	٦	٨
٣) مراتب ادارية عليا في معاهد التعليم العالي	٦	٨
٤) مراتب ادارية عليا في المؤسسات العامة والحكومية	٨	١٠ر٦٦
٥) وزارة خارجية وسفراء	٢	٢ر٦٦
٦) بعثات دائمة ومؤقتة في الخارج ارسلتها وزارة الخارجية او مؤسسات اخرى	٣	٤
٧) منصب سياسي منتخب وموظفون حزبيون	٨	١٠ر٦٦
٨) مراتب ادارية في الصناعة والمؤسسات والمشاريع الاقتصادية	٢٤	٣٢
المجموع	٧٥	٩٩ر٩٨ ٪

ومن الملاحظات المهمة ان عددا من معاهد التعليم الاسرائيلية يترأسها ضباط كبار سابقون . وتشمل هذه المعاهد جامعات القدس ، وتل ابيب ، وبئر السبع . ومعهد التخنيون في حيفا .

ولتعيين الضباط ذوي الرتب العالية لمناصب مدنية معان كثيرة . اهمها توسيع التوجيه العسكري ليشمل القطاعات المدنية ، مما يجعلها اكثر تقبلا للانضباط العسكري والمثل والاهداف العسكرية ، وبالتالي يخفض التوتر والنزاع بين الاثنين الى ادنى حد . وتميل الدراسات في علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي التي تبحث في طريقة حياة الجيش الى التشديد على كون عمليات التطبع الاجتماعي في القوات المسلحة تتسم بأنها واسعة شاملة وكثيفة شديدة ، وانها اكثر من تامة وكاملة ، وتميل الى ترك تأثير مستديم في سلوك الفرد . وهكذا عندما ينتقل الضباط الى المناصب المدنية لدى تقاعدهم ، فانهم يميلون الى نقل انماط السلوك والقواعد والقيم التي اكتسبوها اثناء وجودهم في القوات المسلحة الى مناصبهم المدنية الجديدة . وثمة أمثلة عديدة تشير الى ان هذا هو ما يحدث في اسرائيل . وقد ورد في احدى المجلات ان ييغال الون ، وهو من كبار الضباط السابقين ، كان يدير مجلس الوزراء كجنرال

عندما تسلم رئاسة الوزارة بالوكالة ، بين السادس والعشرين من شباط (فبراير) والسابع عشر من اذار (مارس) عام ١٩٦٩ ، بعد وفاة ليفي اشكول(١٦). والرواية الاكثر دلالة هي تلك التي اوردها ملحق هآرتس في الثامن عشر من حزيران (يونيو) عام ١٩٧٢ . اذ نشر الملحق مقالة كتبها شلومو شامير حول الطريقة التي ادار بها اسحق رابين ، رئيس الاركان السابق ، السفارة الاسرائيلية عندما صار سفيرا في واشنطن (من عام ١٩٦٨ حتى عام ١٩٧٣) . ويقول الكاتب ان السفارة تشبه وحدة قتال طال تمركزها على الجبهة ، فصار رجالها يحتقرون هؤلاء الذين يخدمون بعيدا ، على الخطوط الخلفية ويكرهونهم . ويمضي الكاتب قائلا ان « اراء رابين في مؤهلات الدبلوماسي الاسرائيلي مستمدة من ماضيه العسكري » . ويقول انه من الافضل «لو جاء الممثلون الدبلوماسيون الاسرائيليون من عالم العمل والفكر الى هذه المجالات»، ويشرح قائلا ان « الخبرة العسكرية تشمل حقولا كثيرة من الاعمال والقيادة والاعلام والتدريب في التفكير المنضبط والموضوعي ، والمقياس الوحيد الاوحد في الجيش هو النتائج ، واذا كانت الديبلوماسية المحترفة تعني النتائج ، فانا احبذها »(١٧).

٤) **سنوات الخدمة العسكرية** : المؤشر الرابع الى الدور المسيطر للمؤسسة العسكرية في اسرائيل هو ان الذكر المقيم بصورة دائمة عليه ان يمضي ما بين خمسة اعوام وستة اعوام من حياته في القوات المسلحة ، ثلاثة منها كمجند الزامي وعامان كجندي احتياطي (٣٠ شهرا للضباط ولصف الضباط) . وتعتبر الخدمة الاجبارية في جيش اسرائيل أطول خدمة اجبارية في العالم الغربي . وتفاصيل نوعي الخدمتين هي كما يلي :

ا) التجنيد الالزامي — وهو يشمل كل الذكور الذين تتراوح اعمارهم بين الثامنة عشر والتاسعة والعشرين من العمر ، لثلاثة اعوام ، (وهي مدة طويلة بالنسبة للخدمة العسكرية في بلدان اوروبا الغربية) والتأجيلات من الخدمة قليلة ، والاعفاءات قليلة جدا . ولا يمنح تأجيل الخدمة الا للذين اختاروا الالتحاق بما يسمى « الاحتياط الجامعي » ، ولا يمنح الجيش في اسرائيل امتياز تأجيل الخدمة العسكرية الا لعدد صغير من المجندين الالزاميين . وليست غاية هذا البرنامج تخفيف عبء الطلاب ، بل زيادة اعداد المهنيين المتدربين الذين يحتاجهم الجيش . وبكلام اخر ، لا يمنح تأجيل الخدمة العسكرية الا لهؤلاء الاشخاص الذين يواصلون مهنة او تدريبا من شأنه أن يرفع الى الحد الاقصى من فعالية الجيش الاسرائيلي وكفاءته . فالاحتياطيون الجامعيون يتجندون اولا في الجيش وهم في سن الثامنة عشرة ، ويتلقون دورة قصيرة من تدريب المجندين في احد معسكرات الجيش ، وانذاك فقط يبدأون دراساتهم الجامعية « بوصفهم جنودا في اجازة خاصة » . وهم طوال دراساتهم يتمرسون بالتقيد بالانضباط العسكري(١٨) . ويجند الجيش كل الذكور ولا يسمح الا بقلة ضئيلة من الاعفاءات . فتبسط القدمين وعمى الالوان والامية لا تعتبر اسبابا للاعفاء . ولا يعفى من الخدمة العسكرية الا المعتوهين ، والمنهارين نفسيا ، او من هم في حاجة الى عناية طبية جسدية او نفسية . ويبلغ معدل الرفض الاجمالي ما بين ٧ بالمئة و ١٠ بالمئة من ذكور اسرائيل الذين يبلغون الثامنة عشرة من العمر(١٩). وهكذا فان التجنيد الالزامي في اسرائيل يختلف اختلافا ملحوظا عنه في البلدان الاخرى ، بما فيها البلدان العربية . فالتجنيد الالزامي ، نظريا ، شامل عام في معظم البلدان العربية ، وتصل مدته في سورية الى ٣٠ شهرا ، وفي مصر الى ٣٦ شهرا . بيد أن اشخاصا عديدين يعفون من الخدمة العسكرية في الواقع . وفي الكثير من الحالات فان عدد الافراد المعفيين يتجاوز عدد الذين يجندون فعلا . وفي بلدان عربية معينة بامكان المرء ان يدفع البدل

النقدي للاعفاء من الخدمة العسكرية . وفي الولايات المتحدة نجد ان معدل الرفض ، حتى في حالات الطوارىء ، كالحرب العالمية الثانية ، يصل الى الثلاثين بالمئة . ويمكن تفسير شمولية التجنيد الالزامي للذكور في اسرائيل ، من الناحيتين النظرية والعملية ، كما يلي : اولا ، ان عدد يهود فلسطين المحتلة صغير جدا اذا ما قورن بعدد سكان البلدان المجاورة لها . فعدد سكانها اليهود لا يتجاوز الملايين الثلاثة . وعدد المجندين الالزاميين سنويا يفوق قليلا الخمسة والاربعين الفا . ولذا فانها لا تستطيع ان تتحمل ترف اعفاء العدد الكبير من الشبان الذين تعفيهم البلدان كثيرة السكان . ثانيا ، كان الفرد الاسرائيلي منذ طفولته المبكرة وطوال اعوام دراسته النظامية وعضويته في الكثير من منظمات الشبيبة ، يثقف ويكيف اجتماعيا ليعي اهمية الجيش وقيمته كوسيلة للبقاء الوطني وتحقيق الاهداف والمثل الصهيونية . واخيرا ، فان التجنيد الالزامي الشامل للذكور يوضع موضع التنفيذ لانه الوسيلة الوحيدة التي يمكن بواسطتها تحقيق مستوى حد أدنى من المواطنية للافراد الذين ينتمون الى اكثر من ٧٠ ثقافة متباينة(٢٠) .

ب) نظام الاحتياط — على جميع الاشخاص من المجندين الزاميا بعد اكمال اعوامهم الثلاثة ان ينضموا الى نظام الاحتياط حتى سن الخامسة والخمسين . وفي عام ١٩٧٢ كان حجم مقاتلي نظام الاحتياط يقدر بحوالي ٢٥٠ الف جندي . وبوجه عام ، يخضع الاحتياطيون لتدريب متواصل طوال فترة الاحتياط . فعليهم ان يمروا في دورات تدريب سنوية تدوم ثلاثة اسابيع حيث يعيشون في اوضاع مماثلة لاوضاع الحرب . وكثيرا ما كان هؤلاء الافراد يشتركون في الغارات والهجمات الاسرائيلية على الاردن وسوريا ومصر . الامر الذي يجعل الاسرائيليين يقولون عن أفراد شعبهم بأنهم « جنود في اجازة لمدة ١١ شهرا في السنة » .

وفي اوقات الطوارىء يصار الى استدعاء هذه الجماعة اما بواسطة شيفرة خاصة بالراديو او بالاتصالات الفردية . وتمكن تعبئة قوات الاحتياط ونقلها الى اية منطقة في اسرائيل في غضون ٧٢ ساعة من الاشعار . وفي عام ١٩٦٧ استطاعت اسرائيل ان تعبىء ١١ بالمئة من طاقتها البشرية في غضون ٤٨ ساعة . ووحدات الاحتياط منظمة على اساس المناطق لتيسير التعبئة . ولديها كادر صغير من الاشخاص المحترفين ، وهم عادة ضباط قادة وحدات ، وفنيين واداريين وخبراء صيانة . وتتم المحافظة على المعدات لكل وحدة احتياطية في حالة استعداد تام بحيث ان الوحدة تستطيع القيام بمهمتها فور تجمعها في زمن الحرب(٢١) .

ه) **المرأة في القوات المسلحة** : ليس التجنيد الالزامي في اسرائيل شاملا بالنسبة للذكور فقط ، بل بالنسبة للاناث ايضا . ويتم تجنيد الفتيات بين سن الثامنة عشرة وسن السادسة والعشرين . ومما لا ريب فيه ان الاعفاء يصيب النساء أكثر مما يصيب الرجال . واسس اعفائهن كثيرة . وبعض هذه الاسس هي التالية : يمكن اعفاء امرأة اذا اقسمت في حضور حاخامين اثنين على ان معتقداتها الدينية ارثوذكسية الى حد ان الخدمة في القوات المسلحة ستتعارض تعارضا خطيرا مع ضميرها الديني وطريقة حياتها(٢٢) . كذلك فان النساء المتزوجات او الحوامل يعفين من الخدمة العسكرية . ويمكن اعفاء احدى النساء اذا ما تبين انها لا تستطيع التكيف مع الحياة العسكرية . وعلى الرغم من كل هذه الاسس للاعفاء وغيرها من الاسباب فان اكثرية النساء تدخل الجيش . وتتراوح النسبة المئوية بين ٦٠ بالمئة و ٧٠ بالمئة من جميع النساء المؤهلات . وتتدرب اللواتي يلتحقن بالجيش على استعمال الاسلحة الخفيفة ، للدفاع ، مع تشديد اولي على العمل في مجالات الخدمة غير القتالية ، كالاعمال الكتابية والصحية والادارية والمواصلات . وبكلام آخر ، لا تتدرب النساء على قتال الخط الامامي .

ويعود تضمين النساء في القوات المسلحة الاسرائيلية الى اسباب كثيرة بحثناها في مكان اخر(٢٢) . واهم سببين يجدر بنا ذكرهما في نطاق هذه الدراسة هما: ١ ــ قلة عدد السكان وامكانية استخدام المرأة في بعض الاعمال العسكرية وشبه العسكرية ، لتوفير عدد اكبر من الرجال للخدمة في خطوط القتال ، ٢ ــ حقيقة ان الام في اسرائيل ، لا الاب ، تقرر يهودية الطفل . فالنساء في الجيش يتعلمن الشيء الكثير عــن الديــن والتاريخ اليهودي عن طريق المحاضرات والتقيد باعراف دينية معينـــة . ويستطيع الجيش ، بفعله ذلك ، ان يزيد من احتمال استمرار دولة اسرائيــل كبلد يهودي او يضمن ذلك الاستمرار .

٦) **الجيش كقناة للتكامل الاجتماعي** : احد المؤشرات الاخرى الى دور الجيش في اسرائيل هو كونه قناة لدمج الخلفيات الثقافية المتباينة والمتبـاعدة التي يحملهــا المهاجرون معهم الى اسرائيل ولصهرها ولتكاملها . والمجتمـــع الاسرائيلي هو احد المجتمعات الاكثر تغايرا في عناصرها التي عرفها علماء الاجتماع . انه بلد ٥٠ بالمئـــة من مواطنيه مهاجرون من اكثر من ٧٠ بلدا ، وتوجد بينهم اختلافات وفوارق سياسية وايديولوجية ودينية عديدة . والكثيرون من هؤلاء المهاجرين ، وبنوع خــاص اليهود الشرقيون ، يفتقرون الى معرفة اللغة العبرية وتاريخ البلاد وجغرافيتها ، كما انهــم يفتقرون الى التكرس السياسي ، والالتزام الفكــري والنزعـــة التنظيمية التي تميز اليهودي الاوروبي ، وبالتالي ، فانهم يحتاجون الى توعية وتوجيه شديدين .

وتؤدي الوظائف التكاملية للجيش الاسرائيلي بواسطة نوعين رئيسيين من انــواع النشاطات . ويشتمل النوع الاول على برنامجين للتوعية والتسلية يهدفان الى تقوية الوعي المدني والوطني للمجندين . ويضم هذا البرنامــج ، ايضا ، مدارس خــاصة لتعليم العبرية والتاريخ والجغرافية والمواضيع المتعلقة بها للمهاجرين الجدد . ولقــد لعبت المجندات النساء دورا بارزا في هذا النوع من النشاطات كمعلمات . وتشمــل الفئة الثانية جهودا لرفع مستوى الطاقة البشرية قبل عملية ادخال المدنيين في الجيش ولاعداد الجنود والضباط للاندماج السهل في المجتمع لدى اتمام الخدمة العسكرية(٢٤) .

وهناك ثلاثة عوامل جعلت الجيش قادرا على تأدية وظائف التكامل . اولا ، بما ان التجنيد الالزامي هو شامل بالنسبة الى الذكور بين سن الثامنة عشرة وسن التاسعة والعشرين ، وبالنسبة الى نحو ٦٠ ــ ٧٠ بالمئة من النساء بين سن الثامنـــة عشرة والسادسة والعشرين ، فان المؤسسة العسكرية هي المؤسسة الوحيدة في اسرائيل التي يمكنها ان تصل الى جميع البالغين الشبان تقريبا وتزودهم بالتنشئة الاجتماعية . ثانيا ، لدى جيش اسرائيل كميات ضخمة من الموارد غير الموجودة لدى اية مؤسســـة اخرى ، والتي تمكن الجيش من التغلغل في مناطق هي اما مهملـــة او لا تستطيــع السلطات المدنية والمؤسسات الوطنية الاخرى الوصول اليها . واخيرا ، لكي يعمل الجيش ويحقق اهدافه في الدفاع عن اسرائيل وتحقيق الاطماع الصهيونية ، فانــه يحتاج الى مجمع وافر ومخلص وملتزم وعالي الكفاءة ويمكن الركون اليه مــن الطاقة البشرية التي يستطيع الاعتماد عليها لتادية الوظيفة . وبكــلام اخر ، ان للقــوات المسلحة مصلحة راسخة في رفع نوعية الشعب ومستوياته بوجه عام .

٧) **سيطرة الجيش على الكثير من منظمات الشبيبة والبالغين** : يسيطر الجيــش الاسرائيلي بمفرده او بصورة مشتركة ، على الكثير من المنظمات التي تلعب دورا مهما في تشكيل الشخصية الاسرائيلية وتاليفها . واهم هذه المنظمات في الجدناع والناحال . وكلمة جدناع هي اختصار للاسم العبري لفيالق الشبيبة . ابتداءً عام ١٩٣٩ ووضعت

عام ١٩٤٩ ، تحت الادارة المشتركة لوزارة الدفاع ووزارة التربية والثقافة(٢٥) . وهي، نظريا ، منظمة طوعية ، ولكنها في الواقع تحاول ان تبلغ وتجند كل الشبيبة الاسرائيلية التي تتراوح اعمارها بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة ، سواء كانت في المدرسة أو عاملة .

وفي الوقت الحاضر تعمل الجدناع في ١١٠ مدارس عامة، و١٠٠ مدرسة مهنية ، و٣٠ مدرسة زراعية ، وفي نحو ٢٥٠ صفا من الصفوف الاضافية اللاحقة للمدرسة الابتدائية وجماعات الشبيبة في الكيبوتزات ولقد وصل حجم المنظمة في العام ١٩٦٩ الى ٨٠ الفا ، من الفتيان والفتيات(٢٦) .

وتسهم الجدناع في القوات المسلحة الاسرائيلية عن طريق التدريب شبه العسكري التمهيدي ، وعن طريق امتصاص وتمثيل الشبيبة من مختلف الخلفيات الثقافية وتشريبهم روح الرياضة والخدمة الوطنية(٢٧) . وهدف الجدناع هو غرس الاحاسيس الصهيونية في الشبيبة فضلا عن تزويدهم بنظرة الى ما ستكون عليه الحياة العسكرية واهميتها ، وتشبيعهم بالروح العسكرية على غرار النازية والفاشية في النصف الاول من هذا القرن . واوجه البرنامج طوعية والزامية في آن معا . اذ يطلب من الاحداث الاستماع الى المحاضرات في الشؤون العسكرية وبحثها . وهذا مطلوب من كل الشبيبة المسجلين في مدرسة لاحقة للمرحلة الابتدائية يوجد للجدناع وحدة فيها . وتشتمل البرامج الطوعية على تقديم مجموعة متنوعة من الدروس الخاصة حول الطيران والمواصلات والرادار للذين يظهرون اهتماما وميلا خاصين نحو هذه المواضيع . ويجري هذا بقصد مساعدة الجيش في اكتشاف مجندين محتملين ولخفض هدر الطاقة البشرية وخسارتها . وبكلام اخر ، تؤدي الجدناع وظيفة مختبر بشري للجيش لاكتشاف الذين يملكون البنية النفسية والفكرية والبدنية التي يتطلبها الجيش. ومثل ذلك ، ان جميع طلاب سلاح الطيران يتم اختيارهم من بين اعضاء الجدناع .

المنظمة الثانية هي الناحال . وكلمة ناحال هي اختصار لعبارة « نوعار حالوتسي لوحيم » ، اي الشبيبة الرائدة المقاتلة . وقد تأسست هذه المنظمة عام ١٩٤٨ ،حل مكان البالماخ ، القوة الضاربة للقوة المسلحة اليهودية السرية المسماة هاغاناه . والناحال، كالبالماخ، تمزج الخدمة العسكرية بالزراعة . وينعكس هذا في شعارها وهو سيف يرمز الى القتال ومنجل يرمز الى المستوطنات الزراعية(٢٨) . ولدى بلوغ الاسرائيلي السادسة عشرة من عمره يستطيع الانضمام اما الى الجيش كمجند او الى الناحال . وبعد ثلاثة اشهر من التدريب العسكري الاساسي الشديد ، يتناول عضو الناحال تدريبا زراعيا ، وهو ما يزال تحت الانضباط العسكري ، في المستوطنة الزراعية الموجودة في منطقة صعبة للسكن العادي . ويتبع هذا تدريب عسكري . ولدى اتمام فترة الخدمة يكون قد اكتمل تدريب العضو للانضمام الى اي مستوطنة زراعية او لتأسيس مستوطنة خاصة به(٢٩) . ومعظم الاشخاص الذين يختارون الانضمام الى الناحال هم اعضاء سابقون في الجدناع .

٨) **الجيش كقناة للتكامل الدولي** : المؤشر الاخير الذي يبين التوجيه العسكري للمجتمع الاسرائيلي هو الوجه الدولي للجيش الاسرائيلي . ولا يعتبر الجيش الاسرائيلي مسيطرا كقناة مهمة التكامل الداخلي فحسب ، بل للتكامل الدولي أيضا . فهو يلعب دورا بارزا في دمج اسرائيل في السياسة الدولية . ويؤثر في اقامة الروابط والعلائق مع كل البلدان المتقدمة والنامية وتعزيزها . وترتكز علاقته مع البلدان المتقدمة على الحاجة الى استيراد اسلحة حديثة ، وتدريب ضباط اسرائيليين على استخدام

المعدات العسكرية الحديثة ، ولرفع النظريات والمفاهيم العسكرية الى المستوى الحديث . كما أن هذه الامم تتعاون مع اسرائيل لانماء الصناعة العسكرية في اسرائيل بغية تأمين المنفعة المتبادلة للجانبين . أما علاقاته بالبلدان النامية ، فتشمل الحقول التالية : تصدير الاسلحة، ارسال الخبراء لتنظيم جيوش هذه البلدان، وتدريب ضباطها في المدارس العسكرية الاسرائيلية . كذلك ، فان الجيش الاسرائيلي ، بواسطة منظماته المختلفة كالناحال والجدناع ، يتغلغل في مجتمع هذه البلدان . ويحاول ان يقنع الشعب بقيمة هذه المنظمات واهميتها في تدريب الشبيبة وتحضيرها في مختلف المجالات لانماء بلدانها اجتماعيا واقتصاديا . وفي الاعوام القليلة الماضية كان الجيش الاسرائيلي ، بالتعاون مع حكومات اخرى، قادرا على ترتيب نحو ثماني دورات لتدريب ٥٥٠ زعيما من زعماء الشبيبة من ٥٠ بلدا ، على أساليب الجدناع ، وثماني دورات اخرى لتدريب ٢٠٠ ضابط ومعلم من ١٦ بلدا على أساليب الناحال ونشاطاتها. والهدف الاساسي لهذه الدورات هو خلق جماعة من الزعماء في هذه البلدان يتعاطفون مع أهداف اسرائيل ويستطيعون التأثير في شعوبهم وحكوماتهم . ويأمل الاسرائيليون من ذلك ان تعزز تلك الحكومات علاقاتها باسرائيل وتصوت لمصلحة اسرائيل في الامم المتحدة.

---

١ — Abdel Malek, Anouar, *Egypt: Miliyary Society*, N. Y., Randon House, 1968, p. 383.

٢ — ستستعمل عبارة « جيش » كاختزال لكل فروع القوات المسلحة في اسرائيل .

٣ — Rolbant, S., *The Israeli Soldier*, N. Y., T. Yoseleff, 1970, p. 296.

٤ — جريدة *The Sacramento Bee* الصادرة في ساكرامنتو في كاليفورنيا ، عدد ١٩٧٢/٩/٥ ، ص ٢٢ .

٥ — *Military Balance* 1973-74.

٦ — **المرجع السابق .**

٧ — *Facts About Israel*, 1972, p. 95.

٨ — Peretz, Don, «Some Aspects of Social-Polotical Change in Israel» in M.M. Roumani (ed) *Forces of Change in the Middle East*, Worcestor, 1971, p. 62.

٩ — لا بد من القول بوضوح ان الارقام المتعلقة بالنفقات العسكرية في اسرائيل هي تقريبية في بعض الامور التي تكتنفها السرية . أما الموازنة العسكرية بشكل عام فهي ليست سرية . اذ ان الكنيست يبحثها بين حين وآخر. انما نجده أحيانا يصدق على الموازنة العسكرية دون نقاش . كذلك فالارقام المتيسرة دائما تبخس تقدير المبلغ الفعلي . كما ان الكثير من البنود التي لها اغراض عسكرية يجري تمويهها تحت موازنات خاصة او ادراجها في مخصصات وزارات اخرى او تأمينها من قبل وكالات يهودية . مثال ذلك ان كلفة الكثير من المستوطنات المدنية وشبه العسكرية التي أسست بعد حرب ١٩٦٧ داخل اسرائيل وفي المناطق المحتلة والتي لها أهداف دفاعية مباشرة تحملتها هذه الوكالات اليهودية الى حد كبير .
Kanovsky, E., « The Economic Impact of the Six Day War», *Egypt and Jordan*, N. Y., Praeger, 1970, p.48.

١٠ — Smith, M. M., *Area Handbook for Israel*, Washington, U.S.G.P.O., 1970, p. 365.

١١ — Mansfield, P., *The Middle East*, N.Y., Oxford University Press, 1973, p. 373.

١٢ — جريدة **هآرتس** العبرية الاسرائيلية ، ١٩٧٠/٩/٤ .

١٣ — Miller, M.J., «Israeli's Quest for Military Self-Sufficiency», *Military Rev.* 51, March, p. 67-73.

١٤ — مجلة *Jewish Week* ، ١٩٧١/٩/٩ ، ص ٣ .

١٥ — الملحق الاسبوعي لجريدة **جروسالم بوست** الاسرائيلية ، ١٩٧١/٦/٢ ، ص ٣ .

١٦ — *The Sacramento Bee* ١٩٦٩/٦/٨ .

١٧ — مجلة *Journal of Palestine Studies* مجلد ٢ ، عدد ٢١ ، ص ١٤٥ .

١٨ — Rolbant, *op. cit.*, p. 80.

١٩ — Marshall, S.L.A., *Sinai Victory*, N.Y., W Morrow, 1967, p. 9.

٢٠ — Rapport, D., «A Comparative Theory of Military and Political Types», in S. Huntington, *The Changing Patterns of Military*, N.Y., Free Press, 1962, p. 85.

٢١ — Haymont, J. «The Israeli Nahal Program, *Middle East Journal*, Feb. 1967, No. 2, p. 42.

٢٢ — Heiman, L., «Warriors in Skirts», *Military Review*, 1967, March, No. 42, p. 16.

٢٣ — Al Qazzaz, A., «Army and Society in Israel», *Pacific Sociological Review*, Vol. 16, No. 2, April 1973, p. 148 - 150.

٢٤ — Perlmutter, A., «Assessing the Six Day War», *Commantary* 49, January 1970, p. 70 - 72.

٢٥ — تقدم وزارة التربية الاجور للمعلمين في المواضيع الاكاديمية في المدارس الثانوية والمهنية. وتقدم القوات المسلحة قادة فيالق الشبيبة للكيبوتزات والمدارس الرينية .
Eaton, J. W., «Gadna», *Middle East Journal*, Autumn 1969, p. 471 - 481.

٢٦ — Ramati, S., «The Israeli Defense Forces», *Israeli Digest*, 69 p. 35.

٢٧ — Haymont, *Op. Cit.*, p. 46.

٢٨ — Heiman, *Op. cit.*, p. 66.

٢٩ — Haymont, *Op. cit.*, p. 46 - 47.

الحزب الشيوعي الفلسطيني
١٩١٩ — ١٩٤٨

موسى خليل

يمكن تقسيم تاريخ الحزب الشيوعي الفلسطيني(ح.ش.ف.) الى فترات ثلاث توازت مع التطورات التي حدثت داخل الحركة الوطنية في فلسطين . فلقد شاهدت الفترة الاولى (١٩١٩ — ٢٩) تأسيس الحزب وجهوده المبذولة كي يمايز نفسه عن اليسار الصهيوني ويطرح عنه بقايا الايديولوجية الصهيونية . وفي المراحل الاولى ارتبطت تلك الجهود بالمحاولات المستمرة من أجل الحصول على اعتراف الكومنترن . ساهم الحزب بشكل رئيسي في المجال النظري ، ولكن مساهمته اتصفت بضعف وفتور المحاولات التي كانت تهدف الى كسب الجماهير العربية . وبقي الحزب يهوديا بالدرجة الاولى مع انه نجح في كسب ولاء عدد من العناصر العربية . وركز الحزب اهتمامه الرئيسي بالثورة العالمية التي رأى انها لا بد ان تشمل فلسطين في مجرى سيرها وتقدمها . وبدا للحزب أن القوى المحلية وحدها لا تستطيع تحقيق الثورة ذلك لان الطبقة العاملة كانت لا تزال في مرحلتها الجنينية . وفي « عهد الاستقرار » في النصف الثانـــي من العشرينات بدأ الحزب يعمل في سبيل فلسطين مستقلة . وعجلت أحداث ١٩٢٩ حركة تحوله الى حزب أممي حقيقي .

واما المرحلة الثانية (١٩٣٠ — ٣٩) فقد شهدت نشاطا مكثفـــا قامت به الحركة الوطنية . وقد لعب الحزب الشيوعي دورا نشطا في الصراع الثوري الدائر . وانتقد الحزب وقفته المترددة أثناء حوادث ١٩٢٩ . وبناء على توصية الكومنترن أسرع في عملية تعريب نفسه . وجرى تطهير قادة الحزب ، ولاول مرة باتت اللجنة المركزية تضم أكثرية عربية . وفي عام ١٩٣٤ اصبح « موسى » أول أمين عربي للحزب . انتهج الحزب سياسة معادية للبورجوازية الوطنية وذلك تمشيا مع خط مقررات المؤتمر السادس للكومنترن ١٩٢٨ ، وكان الحزب يحرض باتجاه ثورة العمال والفلاحين من أجل تأسيس اتحاد العمال والفلاحين لعموم البلدان العربية . لقد دعم الحزب بحماس انفجار ١٩٣٣ ولعب دورا فعالا في ثورة ١٩٣٦ — ٣٩ . وكان الكومنترن قد أصدر قرارا عام ١٩٣٥ يقضي بتغيير في خطه السياسي ، وكان الحزب باتباعه مبدأ الجبهة الوطنية قد أعطى دعمه الكامل للقيادة القومية التقليدية في الحركة الوطنية . وتميزت هذه الفترة بازدياد شدة الاحتكاك ما بين الاعضاء اليهود والعرب في الحزب ، وقد فصل عدد من الجماعات اليهودية في داخله وذلك نتيجة معارضتهم لاتباع خط الحزب في دعمه للحركة الوطنية العربية . ومع نهاية عام ١٩٣٩ كانت اللجنة التنفيذية قد فقدت كل اتصال مع الاقسام اليهودية بينما كان التأييد العربي لها يزداد .

وشهدت الفترة الثالثة الممتدة من ١٩٤٠ — ٤٩ افول الحركة الوطنية نتيجة الهزيمة التي منيت بها الثورة العربية في فلسطين ، بينما انشق الحزب الشيوعي الفلسطيني الى شقين وطنيين ، كلاهما تميزا باتباع سياسات قومية وتخليا عن النضال الثوري الذي تميزت به حقبة العشرينات والثلاثينات .

وجاءت العصبة تمثل قوة هامة بين العرب مع انها لم تكن حزبا ماركسيا ثوريا . وسرعان ما كسبت مؤيدين لها بين المثقفين وحركة العمال ، وقد ناضلت من اجل فلسطين مستقلة تضمن فيها المساواة التامة والحقوق المدنية للعرب واليهود على السواء . وعارضت العصبة التقسيم . وانشقت في النهاية الى شقين متعارضين نتيجة تأييد السوفيات لقرار الامم المتحدة . وتدريجيا ، طور الشيوعيون اليهود موقفا يعترفون به بيهود فلسطين كمجموعة قومية ، وتعاونوا مع الحركة الصهيونية . ثم انهم قبلوا التقسيم ، ودعموا بنشاط وفعالية مبدأ « الحرب الدفاعية » من أجل اقامة الدولة اليهودية .

الفترة الاولى ١٩١٩ — ١٩٢٩ : ولادة وتشكيل الحزب الشيوعي الفلسطيني

ولد الحزب الشيوعي الفلسطيني (ح. ش. ف.) نتيجة الانشقاق الذي حصل في حزب العمال الصهيوني ، حول مسألة الانضمام الى الاتحاد الصهيوني (احدوت هعفودا) ، ومسألة الاختيار بين استمرار الولاء للاممية الثانية او الانضمام الى الاممية الشيوعية التي تشكلت حديثا(١). ان تاريخ تشكيل الحزب غير معروف تماما بسبب الانشقاقات الدائمة في الكثير من اقسامه . فقد كانوا ينشقون ثم يتجمعون في فئات ، ثم يعاودون الاتحاد مع الحزب الام ، أو انهم كانوا ببساطة ينحلون نهائيا . أما الحزب نفسه فيرجع تاريخ تأسيسه الى يوم مجيء « حزب العمال الثوري » في آذار ١٩١٩(٢). وقد كان تأسيس هذا الحزب من عمل فئة راديكالية ضمن حزب العمال الصهيوني رفضت الانضمام الى الاتحاد الصهيوني . انعقد اول مؤتمر « لحزب العمال الثوري » في تشرين الاول (اكتوبر) من عام ١٩١٩ بقيادة ي. شالدي وي. مايرسون(٣). وكان هذا الاخير ، وهو الذي القى الخطاب الاساسي في المؤتمر ، من اصحاب الرأي القائل ان الانشقاق في حزب عمال صهيون والذي أدى الى تشكيل الحزب مشابه للانشقاقات في الاحزاب الاشتراكية في كل العالم ، بين اليمين واليسار ، بين الاصلاحيين والثوار البولشفيك(٤).

وتابع محاولا ان يعطي تعريفا جديدا لموقف الحزب من الصهيونية حيث قال ان الصهيونية البروليتارية التي كان يدعو لها تربط انجاز المثال الاعلى الصهيوني بانتصار الثورة الاشتراكية ، واكد بحزم ايمانه بأن « الصهيونية اما ان تنتصر كاشتراكية واما انها لن تنتصر ابدا » . واثبتت قرارات المؤتمر تحليل مايرسون مؤكدة معارضة المؤتمر الانضمام الى الاممية الثانية والاتحاد الصهيوني ، والامتناع عن الاعتراف بالاتحاد العالمي لعمال صهيون طالما احتفظ بممثله في الاممية الثانية(٥). وأما بخصوص الجماهير العربية فقد قرر المؤتمر « بأن الشغيلة اليهود سوف يسيرون جنبا الى جنب مع سائر جماهير الشغيلة في البلد بدون اي تمييز قومي »(٦). لقد كان المؤتمر الاول « لحزب العمال الثوري » جزءا من التطور الذي ادى الى الابتعاد عن الايديولوجية الصهيونية . وقد أظهر اعضاؤه انهم حرروا أنفسهم من معظم المعتقدات الاساسية للصهيونية ، وعبروا عن تأييدهم لثورة اكتوبر ، واظهروا رغبتهم في النضال والتعاون

مع سكان فلسطين العرب المقهورين ضد « الامبريالية والصهيونية » . الا أنه كان واضحا انهم في نفس الوقت استمروا في اعتناقهم المثالي لبعض اشكال الصهيونية (الصهيونية البروليتارية) ولم يكونوا قد تحققوا بعد من التناقض الاساسي بين الصهيونية والاشتراكية ، وبأن ما يسمى بالاشتراكية الصهيونية هو شيء لا يمكن تحقيقه ، كما انهم لم يدركوا ان الصهيونية تشكل بمفاهيمها ايديولوجية مستقلة ، وكذلك لم يدركوا كون الصهيونية واحدا من التيارات السياسية « تستغله الامبريالية في صراعها مع حركة التحرر الوطني العربية » .

استمر هذا الحزب الجديد في اعتبار نفسه جزءا من حركة اتحاد عمال صهيون الدولي ، ورأى ان دوره يتحدد في العمل النشط بهدف جر الحركة الى مواقعه . وبناء على هذا الفهم ، أرسل مايرسون الى فيينا عام ١٩٢٠ ليمثل الحزب في المؤتمر الخامس للاتحاد الدولي لعمال صهيون بغرض التأثير على الحركة لتغيير سياستها وربط الحزب بفئات مشابهة له في الحركة نفسها(٧) . وفي خطابه امام المؤتمر هاجم مايرسون البرنامج الصهيوني في فلسطين ووصفه بأنه تضليلي ، ونبه الى وجود مواطنين عربا على الارض الفلسطينية مصممين على طرد الوافدين الجدد وخصوصا الاجانب منهم ، وحذر من السير في سياسة التواطؤ مع الامبريالية البريطانية ضد الجماهير العربية . وقال انه « نتيجة قلة تضامننا مع الجماهير العربية المقهورة فاننا نزيد في كراهيتهم لنا ، وذلك بسبب من صداقتنا المفتوحة وتعاوننا مع الحكم الامبريالي الاجنبي »(٨) . ثم طالب « باقامة منظمات سياسية واقتصادية مشتركة تضم في صفوفها الشغيلة العرب واليهود ، كما طالب بالمبادرة في التهيئة من اجل نضال مشترك ضد الحكم الامبريالي الخارجي »(٩) . وكما هو متوقع فقد قوبل الخطاب بمعارضة شديدة واضطر مايرسون تحت الضغط الى ان يترك المؤتمر . ولقد كانت المعارضة شديدة لدرجة ان « حزب العمال الثوري » شعر بأنه مرغم ان يكتب الى فيينا حالا نفسه من اي ارتباط بوجهة نظر مايرسون ومتنصلا من اي مسؤولية عن آرائه(١٠) .

نظم حزب العمال الثوري مؤتمره الثاني في الثاني من تشرين الاول (اكتوبر) من ١٩٢٠ في مدينة حيفا(١١) . وقد صيغت مقررات هذا المؤتمر ايضا من ضمن الاطار الصهيوني . وقد شخص المشكلة العالمية للشغيلة اليهود في انها تكمن في عدم وجود ارض لهم وفي التركيبة الاقتصادية الشاذة للشعب اليهودي . وقد كان في اساس مقرراته زيادة هجرة اليهود الى فلسطين . وفي الوقت نفسه اكد المؤتمر على ضرورة انشاء حزب ثوري في فلسطين مؤسس على « قسمين قويين : يهودي وعربي »(١٢) .

لقد نتج عن المؤتمر خليط من القرارات الصهيونية والثورية مما عكس قلة الوضوح وعدم النضج الثوري في الحزب . ومع ذلك فقد كان له جانب ايجابي تميز بموقف صريح ضد الامبريالية ، وبدعوة لتشكيل اتحادات مهنية واقامة تنظيم سياسي أممي .

واثناء الفترة الممتدة حتى شباط (فبراير) ١٩٢٤ ابان كان الحزب مقبولا رسميا كقسم من الاممية الشيوعية (١٣) ، كان يدور في صفوفه صراع ايديولوجي تركز حول نقطتين رئيسيتين : أ) الموقف من الصهيونية ، و ب) والرغبة في الانضمام الى الاممية الشيوعية . ولكن طالما ان الحزب لم يكن قد ازال من ايديولوجيته كل بقايا الصهيونية فانه لذلك لم يكن مؤهلا لعضوية الاممية(١٤) . وادت هذه الصراعات الى عدد من الانشقاقات والتجمعات داخل الحزب . فتشكلت مجموعات جديدة ما لبثت ان اتهمت قيادة الحزب بالخضوع للصهيونية (١٥) ، وفي عام ١٩٢١ دعا الكومنترن « حزب العمال

الثوري » الى ارسال مراقب بمؤتمر الثالث للكومنترن . ولكن(١٦) لم يصبح الحزب مؤهلا لعضوية الكومنترن الا بعد ان خرج من مؤتمره الخامس عام ١٩٢٣ (١٧) بمقررات واضحة وذلك نتيجة اندماج المجموعتين الرئيسيتين مجموعة بيرغر ومجموعة اورباخ وكلاهما كانا قد تشكلا بعد تفكك « حزب العمال الثوري » في العام ١٩٢١ الذي حصل نتيجة مباشرة لاضطرابات اول ايار والملاحقات التي تبعتها .

وقد قرر المؤتمر الخامس المذكور ارسال اورباخ الى موسكو حوالي نهاية العام ١٩٢٣ للقيام بالمفاوضات من اجل انتساب الحزب الشيوعي الفلسطيني الى الكومنترن رسميا(١٨) . وكان المؤتمر الخامس للحزب اول مؤتمر يلقي فيه عضو عربي خطابا امام تجمع مثله . وقد كان لذلك اكثر من قيمة رمزية كما اظهرت مقرارات الحزب فيما بعد(١٩) . فانطلق برنامج الحزب متخذا جانب الحركة الوطنية العربية بحزم ، وضد الصهيونية والامبرياليه(٢٠) . وقد اعلن عن كون الحركة العربية الوطنية كأحد العوامل الاساسية في الصراع ضد الامبريالية البريطانية ، وأخذ الحزب على عاتقه وجوب فعل اي شيء في استطاعته من اجل دعم الحركة طالما هي موجهة ضد الامبريالية . ويجب ان لا يؤدي شكل هذا الدعم « بأن تنحدر الحركة الشيوعية وتتحول الى ارسالية » من أجل ان تدعم فقط الحركة العربية وانما يجب ان تجمعهما جبهة موحدة ضد الامبريالية . وينبغي ايضا على الحزب ان يؤثر في التطورات السريعة الجارية في عملية انقسام الطبقات في الحركة العربية ، فعلى الحزب ان ينال ثقة الجماهير المقهورة بأن يضمن في عداد مطالبه الامور والقضايا التي تتعلق بحياتهم اليومية (مثل تصفية الديون القديمة ، والمسألة الزراعية ، وانشاء حكم ذاتي والغاء الانتداب) .

وفيما يتعلق باليهود فقد اعترف الحزب بأن الصهيونية هي حركة تحمل آمال البورجوازية اليهودية في ان مجمل نشاطها الاستيطاني من الناحية الاقتصادية ، مرتبط بأسوأ اشكال الاستغلال ، وان هدف مؤسساتها المالية هو ايجاد الاساس لاستقرار راس المال المتجمع عن طريق استغلال البروليتاريا ، الامر الذي يميزها كممثل للامبريالية الصهيونية . وفي ضوء هذا التحديد للصهيونية فقد وجد الحزب ان دوره محصور في النضال ضدها . ووجد الحزب ان عليه ان يقاوم عن طريق العمل التربوي في صفوف الشغيلة اليهود ، وان « النضال يجب ان يوجه بشكل خاص ضد الصهيونية البروليتارية »(٢١)، وضد الشوفينية والدعوة لاستخدام اللغة Yiddish (الييدشية) مكان العبرية ، وان على الحزب ان ينظم مكافحة الصهيونية حيثما وجدت جماهير يهودية متراصة .

ووجد الحزب ان الصناعة في البلد في حالة متدنية ، لذلك شدد على اهمية العمل بين العرب الاكثر ثقافة وفي الوقت نفسه ، فان نشاط الحزب يجب ان يهدف الى خلق اتحاد بين جميع الاحزاب الشيوعية في الشرق من اجل مقاتلة الامبريالية البريطانية .

ان محاولات الحزب في توحيد صفوفه وكسب اعتراف الكومنترن به قد امتصت كل اهتمامه وادت الى اهمال جوانب اخرى في الصراع مثل العمل بين اليهود انفسهم (في هذه المرحلة لم يكن للحزب اي نشاط بين العرب) . وقد نجح حزب العمال الثوري مبكرا ، وذلك في الانتخابات الاولى للهستدروت في ١٩٢٠/٢١ ، ان يحصل على ستة ممثلين من اصل ثمانية وسبعين(٢٢) . لكن نتيجة لموقفه من منظمة الشغيلة العرب داخل الهستدروت فقد رفض ان يعمل الى جانب الاحزاب الصهيونية الاخرى وبذلك سحب ممثليه منه . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) من العام ١٩٢٣ انشأ الحزب

الشيوعي الفلسطيني « قسم الشغيلة » داخل الهستدروت(٢٣)، لفصل الدور الاقتصادي والتعاوني عن النقابات وفصل هذه الاخيرة عن الصهيونية وذلك بهدف تثويرها وجعلها اممية . وقد برز « قسم الشغيلة » عن طريق معارضته قادة عماليين معترف بهم ، وحرض ضد البطالة وناضل من اجل الوحدة مع العرب(٢٤). وفي كل المظاهرات والمشاكل العمالية الناجمة عن البطالة نشط الشيوعيون كمنظمين و « وكمحرضين »(٢٥). لكن الهستدروت وجد انه من المستحيل التعايش مع فئة معادية للصهيونية في داخله فطرد اعضاء « قسم الشغيلة » وأدانهم رسميا في نيسان (ابريل) ١٩٢٤ (٢٦).

الحزب الشيوعي الفلسطيني حزب يهودي في اغلبيته وذو تأثير ضئيل بين العرب . لقد اشار الكومنترن عندما قبل الحزب الشيوعي الفلسطيني الى اهمية مسألة العمل بين العرب كي يتحول الحزب من منظمة للشغيلة اليهود الى حركة اقليمية(٢٧). لكن فيما يختص بالعمل في صفوف العرب فقد وجد الحزب معوقات صعبة جدا . فقد كان معظم مؤسسي الحزب وكادراته مهاجرين يهود من روسيا ، مما يعني ان مجيئهم الى فلسطين يدل على انهم كانوا صهاينة ذات يوم . وباعترافهم بأنهم جزء من مجتمع قومي استيطاني فقد كان عليهم ان يختاروا اما مغادرة البلد كما فعل الكثيرون منهم جاعلين الحزب بذلك « مخيم مرور » ، وأما توجيه جهودهم طلب اعضاء عرب الى الحزب مؤثرين بذلك على الحركة الوطنية العربية . ولم يكونوا ابدا مهيئين من اجل هذا العمل الاخير لاسباب منها العادات والتاريخ . وقد كانت اللغة واحدة من المشاكل الصعبة التيكان عليهم مواجهتها .

لقد ادعى الحزب ان اول عضو عربي انضم الى صفوفه عام ١٩٢٣ (٢٨). ولكن حتى العام ١٩٢٥ فقد كانت المنشورات الصادرة بالعربية حول مواضيع اشتراكية عامة مكتوبة بلغة سيئة وغير مفهومة(٢٩) مما يدل على عدم وجود اعضاء عرب في الحزب . وتشير تقارير الشرطة الى ان الحزب كان يضم عضوا عربيا واحدا عام ١٩٢٤ ، وثمانية اعضاء عام ١٩٢٥ ، لكن هذا العدد ارتفع عام ١٩٢٧(٣٠).

يبدو انه كان لدى الحزب صحيفة صدرت ما بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٧(٣١)، لكنها انقطعت عن الصدور بعد ذلك.ومن المحتمل ان تكون جهود الحزب بين العرب وحتى ما بعد منتصف العشرينات تركزت كليا حول اصدار البيانات وعدد محدود من المنشورات في مناسبات مختلفة . ولم تعط الجهود المبذولة لتنظيم الشغيلة العرب اي نتائج ايجابية . الا انه مما يذكر ان ثمة نجاح احرز في يافا في سنة ١٩٢٥ عندما انضم واحد وعشرون عربيا الى جماعة بايكر(٣٢).

شدد الحزب في دعايته على شعارات معينة كان يؤمل ان تخدم في تهيئة ارضية مشتركة مع الحركة الوطنية العربية. وبذلك اكد على ضرورة شن حملات ضد الانتداب البريطاني ، وضد وعد بلفور ، ومن أجل استقلال فلسطين الخ... حتى انه حاول التفاهم مع بعض الوطنيين(٣٣) (من المحتمل ان يكون حمدي الحسيني من الجناح اليساري لحزب الاستقلال) الذين كانوا معروفين باتصالاتهم مع « متطرفين عرب ممثلين في اللجنة التنفيذية » . الا انه لم يبد ان هذه الجهود قد اتت ثمارا .

وفي كانون الاول ١٩٢٦ اثناء انعقاد مؤتمر ايحود (الوحدة) في تل ابيب اتضح ان العمل بين العرب قد بدأ يعطي بعض النتائج . فقد كان بين الخمسة والثمانين مبعوثا الى المؤتمر ثمانية عشر عربيا ، وفي انتخابات المجلس الاعلى (بريزيديوم) فقد نجح

عربيان بين المنتخبين الستة(٣٤). وبعد المؤتمر مباشرة ارسلت اول مجموعة من الاعضاء العرب الى موسكو ليتم تدريبها في مدرسة الكومنترن(٣٥).

خلال كل هذه الفترة وحتى اضطرابات ١٩٢٩ كان ابرز حدث بالنسبة لنشاط الحزب فيما يتعلق بالعرب هو الدور الذي لعبه في حادثة عفولة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٤ . فقد هاجم الفلاحون العرب مجموعات العمال اليهود الذين جيء بهم ليفلحوا الجزء الذي اشتراه الصهاينة من مرج ابن عامر . وقد عارض الحزب الشيوعي الفلسطيني الصهاينة ، متهما اياهم بنهب الاراضي ، كما أنه طلب من العمال اليهود الا يساهموا في طرد الفلاحين العرب من اراضيهم(٣٦). واتبع الحزب هذا التكتيك حتى تاريخ حله في عام ١٩٤٣ . ولقد كان هذا الجانب ابرز ملامحه فيما يتعلق بنشاطه بين الجماهير العربية .

كما ان الحزب لم يهمل الجماهير الكادحة . ففي الاول من ايار عام ١٩٢٦ نقلت التقارير انه لاول مرة يشترك اليهود والعرب في مظاهرات احياء الاول من ايار ، وان حوالي مائتي وخمسين عربيا قد اضربوا في حيفا(٣٧). كان هذا نتيجة دعاية الحزب في دعم الحركة الوطنية العربية ومعارضته لاخلاء الاراضي من قبل الصهاينة .

لم يقع الحزب في الوهم في تقديره للحركة الوطنية العربية في ما يخص الامكانات الثورية للحركة . ومع ان المؤتمر السادس للحزب الشيوعي الفلسطيني المنعقد في العام ١٩٢٦ قد أقر بوجود جناح يساري داخل الحركة العربية(٣٨) الا ان الحزب الشيوعي أوضح موقفه في تقرير ذكر فيه بأنه ليس بين الحركات السياسية والاجتماعية الجارية في الشرق الادنى وبين الشيوعية شيء مشترك . وما تلك الحركات سوى مسعى البورجوازيات الصغيرة في هذه البلاد، تدعمها جموع الفلاحين، كي تضمن لنفسها الظروف الملائمة التي تمكنها من التطور بحرية . ويضيف التقرير ان على الشيوعية ان تأخذ جانب الحذر في مواقفها فتدعم هذه الحركات طالما هي معادية للامبريالية ، ولكن عليها ان لا تنسى طبيعتها البورجوازية « وميولها الراسمالية » . فيتوجب على الشيوعيين المحافظة على استقلال تنظيماتهم(٣٩).

انتفاضة العام ١٩٢٩ : عندما أصبح واضحا ان فرص قيام الثورة العالمية قد باتت قليلة بدأ الحزب الشيوعي الفلسطيني في النصف الثاني من العشرينات يعمل من أجل الاستقلال بطرق اكثر تواضعا . فقد كان موقفه سلبيا من العنف المعادي لليهود ، وسمى حادثة حائط المبكى عام ١٩٢٨ بـ « مذبحة صغيرة ضد اليهود »(٤٠). وقد القى اللوم على السلطات البريطانية متهما اياها بتعمد اثارة النعرات العنصرية بهدف حرف الحركة العربية عن نضالها المشروع ضد الامبريالية البريطانية ودفعها للانغماس في صراع عنصري وديني مع اليهود .

انعقد المؤتمر السادس للكومنترن في موسكو عام ١٩٢٨ . وقد رفض الخط الجديد للمؤتمر بوضوح الاعتراف بأي امكانات ثورية للبورجوازية ، وقد وصفها بأنها تخلت عن النضال ضد الامبريالية ، واوصى بأن على الطبقة العاملة ان تخوض نشاطا ثوريا مستقلا لقلب الحكم الاستعماري واقامة حكومة بروليتارية . وقد عارض اورباخ (حيدر) الذي قاد الحزب الشيوعي الفلسطيني منذ سنة ١٩٢٤ ، هذه المقولة وقال بعدم صلاحيتها فيما يختص بفلسطين . وشدد على النمو الذي طرأ على حركة التحرر الوطني ، وعلى مشاركة الطبقة العاملة الفعالة فيها(٤١). وشدد ايضا على أن القادة الاصلاحيين الوطنيين يتمتعون بنفوذ قوي لدى الحركة الوطنية وعلى ان الاحزاب والمنظمات التي يقودونها هي تنظيمات جماهيرية . ورأى ان واجب الحزب هو التغلغل

الى داخل الحركة وجذب الجماهير الى جانب الشيوعيين وتحرير هـذه الجماهير من نفوذ وتأثير هؤلاء القادة الاصلاحيين .

عقد الحزب الشيوعي الفلسطيني مؤتمره الثالث في كانـون الاول (ديسمبر) من العام ١٩٢٨ (٤٢) وتألف من ٢٤ مندوبا (عربا ويهود) . والى حد ما فقد عكست قرارات هذا المؤتمر مقررات المؤتمر السادس للكومنترن . وقد سجل المؤتمر الثالث للحزب « بعض التأخر في نشاطه وفي تأثير الحزب » وذلك نتيجة تصميم الشرطة على ملاحقته. ولاحظ ، ان قادة الحركة الوطنية العربية يتجهون ناحية الامبريالية ، وبأنه بات مـن الواضح ان البورجوازية والاعيان العرب يرغبون في تسوية مع السلطات البريطانية على حساب العمال والفلاحين يصبحون معها مستعدين للاعتراف بحكـم الانتداب . وقد عارضت اقلية شيوعية منظمة في « مجلس الشغيلة اليهود » هذا التقييم للحركة الوطنية العربية ، وقالوا « ان وطن اليهودي هو حيث يولد وان فلسطين هي للعرب ... وواجبنا ان نناضل بجانبهـم وان نحـرض شعوب العالـم ضـد الخطـر الصهيوني »(٤٣). وقد منعت الاغلبية وجهة النظر هـذه التي اعتبرت ان كل يهـود فلسطين مرتبطين بالصهيونية وبذلك يجب اعتبارهم خـارج الخـلاص . وعليه فان المؤتمر « ادان بشدة تغلغل الحالة الانهزامية الى الحزب » وعبر بالاجماع عن ثقتـه التامة باللجنة المركزية(٤٤). ووقف الكومنترن الى جانب الاغلبيـة وابعدت الاقلية عن المناصب القيادية داخل الحزب ومن ثم طردت منه(٤٥).

هكذا كانت الحال السائدة في الحزب عشية انـدلاع الاضطرابـات عام ١٩٢٩ . ويومها اصدر الحزب منشورا يحرض فيه جماهير العـرب واليهـود على مقاومـة الصراعات العنصرية وعلى بداية حـرب اهلية(٤٦). وقد اتهـم الحـزب الشيوعي الفلسطيني الانكليز بتعمد اثارة الحوادث التي اطلق عليها اسم « حمام دم » . وقـد اعتبرت الاضطرابات في مراحلها الاولية « كمذبحة ضد اليهود » . كما اعتبر العـرب « جمهور فاشـي قوامه فلاحون محمديون ، وبدو بقيادة رجال دين جهلـة ، وزعمـاء اقطاعيين وعناصر بورجوازية »(٤٧). لكن الاضطرابـات التي فبركتهـا السلطـات البريطانية بحذق بدأت تخرج عن سيطرة القادة الوطنيين الاصلاحيين وتتحول مـن مذبحة ضد اليهود الى عصيان معاد للامبريالية وقد كان ذلك واضحا في المدن العربية. ورفع الشيوعيون شعار « التآخي بـين الشغيلة العـرب واليهود من اجل مقاتلـة الامبريالية البريطانية » . وقد وزع المحرضون الشيوعيون منشورات تحذر الجماهير مـن الانغماس في صراع عنصري وتطلب منهم « الا يقتل بعضهم بعضا ، يا عمـال اليهود والعرب اتجهوا نحو العدو المشتـرك ، الامبرياليـة البريطانية »(٤٨). وقـد اصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني بلاغا(٤٩) عالجـت فيه مطـولا الاضطرابات واسبابها الكامنة. ووضعت اللوم على اكتاف القادة الوطنيين الاصلاحيين الذين عندما تحققوا من ان انفجارا ثوريا سوف يقع لا محالة بين جماهـير الارياف ، ولحرصهم على عدم خسارتهم قيادة الحركة الوطنية حرفوا حالة العصيان المتزايـدة وحولوها الى مذبحة ضد اليهود ولم يسمحوا لهـا ان تتطـور الى تمرد وثورة ضـد البريطانيين(٥٠). والحالة التي كانت سائدة كانت شبيهة بحالة « التعصب للجهاد » ، فقد اعطى القادة الوطنيون الاصلاحيون اوامرهم المشـددة بخصوص عدم المساس مطلقا بارواح الانكليز وممتلكاتهم ، بل على العكس من ذلك فقد كان شعار النـاس « الدولة معنا » . وقد اصر البلاغ على حقيقة تواطؤ البريطانيين وادعى « وجـود دلائل ثبوتية » تظهر ان « كان لدى الشرطة البريطانية اوامر بالسماح بذبح اليهـود دون ان يكون لديهم امر بالتدخل »(٥٢) على الاقل في المراحل الاولى من الاضطرابات .

وانتهى البلاغ بالتأكيد على ان المذابح المضادة لليهود قد تحولت في طبيعتها عند المراحل الاخيرة من الاضطرابات الى حركة عصيان عربي شامل لها اهداف ابعد بكثير من اهداف ذبح اليهود »(٥٣). الا ان طاقة الجماهير استنفذت وقمعت من قبل الجبهة المتحدة من الوطنيين الاصلاحيين العرب والامبرياليين البريطانيين . ولقد كان دور الشيوعيين صغيرا بالضرورة مما لم يسمح لهم بافراز قيادة بتصورات واضحة . ويعود سبب ذلك الى انهم كانوا في وضع محشور منذ بداية « الارهاب الرسمي » ضدهم في أول آب ، اثناء مظاهرة شيوعية ، ثم ان الحزب كان لا يزال في مرحلة الطفولة ، وكان معرضا لملاحقات شرسة من قبل السلطات البريطانية والصهيونية والبورجوازية العربية . واستمر في الاعلان عن « تمسكه بتصريحات ومقررات المؤتمر السادس للكومنترن التي رأت انه لو كان الفلاحون وراء الشغيلة بدلا من كونهم خاضعين لنفوذ ومصالح الاقطاع ورجال الدين لكان من الممكن ان توجد « الامكانية لقيام ثورة مظفرة » يستتبعها تأسيس دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية الثورية . وانتهى البلاغ بالدعوة الى ضرورة تكوين حكومة عمال وفلاحين والحاجة الى وحدة كل البلاد العربية « لتشكيل جمهورية مستقلة للعمال والفلاحين »(٥٤).

حوالي نهاية ايلول (سبتمبر) من العام ١٩٢٩ ، تسلم الحزب الشيوعي الفلسطيني تعليمات من الـ ECCI حول طابع انتفاضة ١٩٢٩ وبضرورة تبني موقف صحيح منها . وعليه دعا الحزب الى جلسة عامة موسعة للجنة المركزية لبحث تعليمات الكومنترن(٥٥)، ومهمات حزب الطبقة العاملة في الانتفاضة العربية . وشدد الحزب على انه أقر دائما بالبعد القومي للتحرك العربي بينما عارض الطابع الرجعي فيها وذلك عند انحرافها وتحولها الى مذابح ضد اليهود ؛ فاستنكر الدور الذي لعبه الصهاينة والبريطانيون كمحرضين في ذلك الاتجاه ، كما اتهم زعماء الاقطاع الديني العرب . واعترف الحزب « بالجذور الاجتماعية العميقة للحركة العربية وبطابعها الريفي » ، كما اقر بأنها ارتكبت عددا من الاخطاء المبنية على سوء تقدير مدى سرعة التطور لدى الجماهير ، مما أدى الى ضعف تنظيمي عند انفجار الانتفاضة . وأدان الحزب الاعضاء الذين استمروا بتمسكهم بالتحليل السابق للثورة واتهمهم بتشكيل معارضة يمينية وبالانتهازية وبمعارضة التوجه اليساري للحزب وبانكارهم عملية دفع الجماهير الى مواقف جذرية . وأدان الحزب فرع حيفا ككل لانه استمر في موقفه الذي اعتبر الاحداث الاخيرة مذابح ضد اليهود ، وتغاضى عمدا عن كل الدوافع والحوافز الاجتماعية للحركة . وقد قررت اللجنة الموسعة تطهير الحزب من الانحرافيين اليمينيين ، وأكدت في الوقت نفسه موقفها ضد « الانهزاميين » الذين اتهمهم الحزب عام ١٩٢٨ بالانحراف اليميني بينما أخذ بمعظم تحليلاتهم فيما يتعلق بالقيمة الثورية للحركة العربية وبضرورة تعريب الحزب .

انتهت الفترة الاولى من تاريخ الحزب باعلانه سياسة يسارية صريحة . فقد شدد على ضرورة تعريب نفسه(٥٦)، وبالعمل لاقامة دولة متحدة للعمال والفلاحين العرب . وتوقع الحزب انفجارا جديدا للحركة الثورية العظيمة في كل البلاد العربية والتي لم تكن انتفاضة عام ١٩٢٩ في فلسطين سوى « المرحلة الاولى » منها .

الفترة الثانية ١٩٣٠ ـــ ١٩٣٩ : النشاط الثوري و« الانحراف اليساري »

خاضت الحركة الوطنية على امتداد هذه الفترة، صراعا طويلا موجها بشكل اساسي ضد الاحتلال البريطاني ، وانتهى الصراع بالاضراب العام في سنة ١٩٣٦ ، وبالثورة التي امتدت حتى بداية الحرب العالمية سنة ١٩٣٩ . وبما ان الحزب قرر أن يلعب

دورا ايجابيا في الاحداث الآتية ، وبما انه قد تبنى خطا جديدا نتيجة المؤتمر السادس للكومنترن واخذ بتحليلات الاخير حول انتفاضة ١٩٢٩ ، لذلك فقد كانت هذه الفترة بالنسبة للحزب فترة صراع عنيف ونشاط ثوري واسع .

التعريب : عقد الحزب مؤتمره السابع في كانــون الاول (ديسمبر) مــن العام ١٩٣٠(٥٧)، ووضع مقرراته على اساس توجيهات من الـ ECCI (٥٨). وقد عزت تلك التوجيهات فشل الحزب في تبني موقف صحيح من أحداث ١٩٢٩ الى الانحراف اليميني (القومي) كما تضمنت تلك التوجيهات أوامر الى الحزب بادخال سياسة تعريب في القمة وفي القاعدة .

في الواقع ان كلا الطرفين ، الحزب والقسم الشرقي في الكومنترن ، قد أعطيا أهمية خاصة لضرورة تعريب الحزب في وقت مبكر يعود الى عام ١٩٢٤ .

لكن لعدم وجود أي اتصال مع الجماهير العربية في فلسطين فقد كان من المستحيل تحقيق تلك المقررات . الا أنه مع نهاية العشرينات كان الحزب قد حصل على بعض الدعم من قبل العرب(٥٩) مما سهل عليه عملية تعريب نفسه .

وفي أيار (مايو) من العــام ١٩٣٠ قررت اللجنــة المركزية سياســة التعريب والبلشفة(٦٠) والاخيرة كانت تعني تخفيف سرعة عملية التعريب نظرا للتخلف النسبي لعرب فلسطين . وقد ناسبت تلك السياسة كثرة من الاعضاء اليهود الذين أحسوا بعدم الارتياح بالنسبة لمستقبل سياسة التعريب ، التي أدت بالكثيرين منهم اما لترك الحزب واما للهجرة . أما أورباخ ، زعيم الحزب منذ ١٩٢٤ ، فعارض هذا الخط الجديد مما سبب استدعاءه لموسكو ، وقد خلفه بيرغر (برزلي) في منصب الامين العام(٦١).

الا أن القسم الشرقي في الكومنترن لم يكن راضيا عن السرعة التي كانت تتم بها عملية التعريب ، لذلك عين في تشرين الاول (اكتوبر) من العام ١٩٣٠ لجنة مركزية جديدة للحزب مؤلفة من ثلاثة عرب ويهوديين(٦٢). وكانت اللجنة الجديدة لجنة مؤقتة تخدم حتى مؤتمر كانون الاول (ديسمبر) للحزب . وانعقد المؤتمر السابع في كانون الاول ١٩٣٠ ، وأقر هذا الترتيب الجديد ، وأعاد انتخاب اللجنة المركزية التي عينها الكومنترن ، ولذلك ولاول مرة تقود الحزب لجنة مركزية بأكثرية يهودية(٦٣).

بعد المؤتمر السابع مباشرة ، في أوائل العام ١٩٣١ ، قبض على الاعضاء العرب في اللجنة المركزية وقدموا للمحاكمة(٦٤). وجرى بعد ذلك استبدالهم بلجنة مركزية جديدة حوفظ فيها على مبدأ الاغلبية العربية بالنسبة العددية نفسها(٦٥). وعلى نطاق الحزب روعيت في كل قسم من أقسامه نسبة دقيقة بين الاعضاء العرب واليهود مــن أجل الحفاظ على مبدأ الاغلبية العربية . لكن التنفيذ العملي لهذه السياسة كان في غاية الصعوبة . ومن أجل تسهيلها ، جرى في العام ١٩٣٢ تطهــير الحزب من عدد مــن الاعضاء اليهود الذين لم يؤيدوا خط الحزب في تعريب نفسه ، كما أجريت كذلك عملية تسجيل جديدة للاعضاء. لكن الحزب كان لا يزال بحاجة الى النشاط اليهودي. فبالرغم من أنه في هذه الفترة « نال تأييدا متزايدا بين العرب وخصوصا بين العمال أكثر من أي فترة سابقة »(٦٦)الا انه كان يجد من الضروري ارسال المناضلين اليهود للتغلغل داخل القرى العربية والتحريض ضد احتلال الصهاينة للاراضي الخ ... أما على مستوى القيادة فقد كان التعريب أسهل . ففي العام ١٩٣٤ انتخب رضوان الحلو (موسى) العائد من موسكو أمينا عاما للحزب . واستمر في هذا المنصب حتى تفسخ الحزب وسقوطه في العام ١٩٤٣(٦٧).

الانحراف اليساري في الحزب ١٩٣٠ ــ ١٩٣٥ : حدد مؤتمر الحزب السابع المنعقد في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٠ كسياسة رسمية ، الخط السياسي الذي جرى اتباعه منذ نهاية انتفاضة ١٩٢٩(٦٨) . وكان الحزب قد بـدأ في بداية العام ١٩٣١ يحـرض الفلاحين على عدم دفع الضرائب(٦٩)، ويحثهم على احتلال اراضي الحكومة والصهاينة والملاكين العرب ، ثم يدفعهم للانضمام الى العمال من أجل انتخاب لجان ثورية . وقد تميز هذا التحريض بعنف لهجته. فقد أبلغوا الفلاحين ان الحكومة الانكليزية والصهاينة والافندية العرب « يمصون دماءكم » وانه ما من شيء « يستطيع انقاذكم من طغيان » ذلك الاستغلال المثلث « الا السيف والبندقية » .

ان هذه الدعوة للثورة والانتفاض ضد الحكم البريطاني والاستعمـار الصهيوني والاقطاع العربي قد جرى رسمها بوضوح في مقررات المؤتمر السابع للحزب . فقد شددت المقررات على ان التعريب هـو الشرط الرئيسي لنجاح العمـل في الريف ، وأوضحت ضرورة التحرك والتحريض بين أنصاف البروليتاريا والعمال الزراعيين الذين « يشكلون اللحمة الحيوية بين الفلاحين والطبقة العاملة »(٧٠) . كما جاء في المقررات وفي التحريض « ان الارض لمن يفلحها » وان على الفلاح أن يستولي عليها ويرفض دفع ضرائبه(٧١) . واعترف الحزب ان المقاومة السلبية غير كافية، ورأى ان التصفية الفعلية للحكم البريطاني غير ممكنة الا بثورة فلاحية مسلحة تحت قيادة الطبقة العاملة(٧٢) . ومن أجل التوصل الى كل ذلك دعا الحزب الـى شن نضال شديـد وفعال ضـد الاصلاحيين القوميين، ودعا أيضا الى وجوب « فضح خيانة » الزعماء العرب والمجلس الاسلامي والمفتي ، والى ضرورة اطلاق حملة دعائية تهيىء التربة للنضال من أجل اقامة حكومة العمال والفلاحين(٧٤) .

وفيما يتعلق باليهود والصهيونية نشر الحزب رايه(٧٥) الذي يميز فيه بشكل قاطع بين الاثنين مشددا على انه « من الخطأ اعتبار الامبريالية والصهيونية والسكان اليهود كفئة عضوية واحدة ليس بينها أي تناقض »(٧٦) . ولكنه اعترف مع ذلك ان « الاقلية القومية اليهودية المتأثرة بالصهيونية تلعب دورا عميلا للامبريالية »(٧٧) ضد الجماهير العربية، وانه نتيجة ذلك « فان الصراع ضد الصهيونية يصبح المسألة الاساسية للثورة في الريف » . وشدد الحزب في هذه الفترة على مسألة الارض نظـرا لتزايد شراء الاراضي من قبل الصهاينة ، الامـر الذي ساعد في خلـق خلفية ملائمة للنشـاط الشيوعي(٧٨) .

وفيما يتعلق بالعرب فان الحزب قد عبر عن اعتقاد يتمشى مـع خط استراتيجية « الفترة الثالثة » للكومنترن(٧٩) الذي يتلخص في أن « اللجنة التنفيذية العربية بدأت تسير على طريق خياني في منافسة الصهيونية في المساومة للحصول على تنازلات من الامبرياليين الانكليز »(٨٠)، وان النضال من أجل الاستقلال الوطني والوحدة القومية للشعوب العربية الذي تداخل معه النضال من أجل ثورة فلاحية ، يجب أن يوجه لا فقط ضد الامبرياليين وعملائهم الصهاينة وانما أيضا ضد الاقطاعيـين العرب(٨١) . فقد فضحت انتفاضة ١٩٢٩ الزعماء العرب القوميين البورجوازيين الاقطاعيين . وقـد كشفت خيانتهم(٨٢) حقيقة ان النضال ضد الامبريالية والصهيونية لا يمكن خوضه تحت قيادة قوميي اللجنة التنفيذية(٨٣) .

وقد تميزت هذه الفترة من تاريخ الحركة الشيوعية في العالم العربي (بالاضافة الى الجهود التي بذلت من أجل التعريب في سوريا ولبنان وفلسطين) بتشديد الامبريالية على تكتيك « فرق تسد » الذي أدى الى حالة التجزئة الراهنة للوطن العربي . فقد

ناضل الحزب تحت شعار « اتحاد كافة عمال وفلاحي الشعوب العربية »(٨٤)، كما ارتبط هذا النضال بالثورة الفلاحية وبالنضال ضد الانحراف القومي في الحركة الشيوعية ، ورفض قيادة الزعماء الاصلاحيين بما فيهم « يسار » الحركة الوطنية(٨٥).

في الاعوام من ١٩٣١ — ١٩٣٥ توقع الحزب ان تنفجر الثورة قبل اوانها بدفع من الصهاينة وملاك الاراضي العرب مما قد يجهض حركة الجماهير(٨٦). فقد كانت تلك الجماهير لا تزال تحت تأثير الزعماء الرجعيين ، وقد كان هناك احتمال انفجارهم وتوجيه نشاطهم الثوري ضد اليهود . ومن اجل ان يكونوا مهيئين لمثل هذا الاحتمال فقد دعي أعضاء الحزب لتحضير خطط تنظيمية يتجمع حولها افضل عناصر الطبقة العاملة التي من الممكن ان تشارك في الثورة القادمة بهدف التأثير على الجماهير في تبني استراتيجية ثورية(٨٧). وفي نفس الوقت حذر الحزب اليهود من ان استمرار التعاون مع الحكومة البريطانية جعلهم هدفا للمذابح التي تقع كامل مسؤوليتها على اكتاف القادة الصهيونيين(٨٨). ويبدو واضحا من مؤلفات الحزب لتلك الفترة انه رأى مهمته الاساسية في النضال ضد الزعماء القوميين الاصلاحيين من اجل اقامة « حكومة عمال وفلاحين »(٨٩) فشددت تلك المؤلفات على التشابه بين النضال ضد الرأسمالية في أوربا ونضال العمال والفلاحين في فلسطين ، اذ أن كلاهما موجه ضد القوميين الاصلاحيين والفاشيين الذين « يريدون طعن الجماهير من الخلف »(٩٠). كما انه شدد كذلك على الاضطراب وحالة الغليان في الريف ، وعلى نشاط الفلاحين العرب في مقاومتهم الحملة الصهيونية من أجل « انتزاع الارض » (حادثة وادي الحوارث)(٩١). وقد عبر الشغيلة اليهود الثوريون عن تضامنهم ودعمهم لحق العرب في المشاريع والمزارع اليهودية ورفضهم سياسة « انتزاع العمل » الصهيونية(٩٢).

وقبل اندلاع مظاهرات العام ١٩٣٣ أوضح الحزب موقفه الرافض للارهاب الفردي(٩٣)، مشددا على انه لا يمكن الحصول على الاستقلال الا عن طريق حركة وطنية ثورية معادية للامبريالية والاقطاع . وفي منشور ظهر بالعربية في نفس الوقت ، حذر الحزب من « الثورة الفلاحية الوطنية المسلحة » الوشيكة الحدوث ، ودعا للوحدة والتنظيم مما يمكن نجاح اقامة « حكومة عمال وفلاحين » . وقدم المنشور المطالب الشيوعية التالية(٩٤): طرد المستعمرين البريطانيين ، الغاء وعد بلفور ، اعادة الارض المباعة من الصهاينة الى الفلاحين ، النضال ضد الزعماء الاصلاحيين الخونة ، رفض دفع الضرائب للحكومة ، ٨ ساعات عمل يوميا للعمال ، واخيرا « الخبز والشغل للعاطلين عن العمل ». شكلت تلك المطالب مجموعة من المهام الملحة متصلة مع النضال الوطني العريض الذي يجد صدى لدى الشغيلة والفلاحين والجماهير الوطنية .

اثبت انفجار التظاهرات في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٣ صحة تكهنات الحزب الثورية وقد ساهم الحزب بالاحداث بشكل نشيط . ونظر الى التظاهرات وكانها الثورة المنشودة منذ فترة طويلة والتي كان الحزب يتحدث عنها منذ العام ١٩٢٩ . فكانت التظاهرات تعبيرا عن الخميرة الاجتماعية وعن بداية الحركة الثورية الفلاحية . ولم ينظم تلك التظاهرات « زعماء خونة » بل يسار الحركة الوطنية (ربما عنوا بذلك حمدي الحسيني من حزب الاستقلال) . وابرز هذا الطابع الريفي الفلاحي للحوادث بشكل متفرد ، كما صرح الحزب ان « مئتين من مجموع تسع مئة قرية » في فلسطين اشتركوا في تلك الحوادث(٩٥)، متظاهرين ضد الامبرياليين والصهاينة وملاك الاراضي العرب . وأشير كذلك الى أن التظاهرات (خصوصا في المدن الكبرى) حملت « طابعا معاديا للامبريالية بشكل صريح » ولم تكن مذابح نظمها المفتي و« الافندية » ضد اليهود .

وقد رأى الحزب في تلك التظاهرات كذلك نشاطا جماهيريا واسعا ضد استمرار بقاء الانتداب البريطاني .

واثناء التظاهرات أصدر الحزب بيانا(٩٦) دعا فيه الجماهير للنضال تحت الشعارات التالية : الغاء الانتداب ووعد بلفور ، الايقاف الفوري للهجرة ، مصادرة كافة الاراضي وتوزيعها على الفلاحين ، ووقف دفع كافة الديون والفوائد والايجارات والضرائب . كما توجه الحزب بالدعوة الى الجماهير من أجل تشكيل لجان عمالية وفلاحية لمقاطعة بضائع البريطانيين والصهاينة . وصرح بأن مظاهرة يهودية عربية مشتركة قد سارت في حيفا معبرة عن التعاضد الثوري للشغيلة العرب واليهود ومظهرة الطابع المعادي للبريطانيين في الحوادث . وفي نفس الوقت هاجم البيان الزعماء التقليديين للحركة الوطنية وسماهم « الاصلاحيون القوميون الخونة » . واختتم الحزب بيانه مصرحا بثقة ان هذه « بداية أزمة ثورية . وان الانتفاضة الجماهيرية في بدايتها فقط » وان الثورة الفلاحية الجارية ما هي الا مرحلة ما قبل الثورة الوطنية المظفرة . الا أن تشخيص الحزب للحوادث على أنها انتفاضة فلاحية لم يؤخذ به أحيانا(٩٧). فقد أشير الى أن تلك التظاهرات جرت بشكل رئيسي في المدن وان الفلاحين نقلوا بالقطارات لينضموا اليها . وبالاضافة الى ذلك فقد ادعي أن يسار حزب الاستقلال لم يلعب دورا قائدا في الاحداث وان الحركة نفسها (التظاهرات) ما هي الا حادثة معزولة بدون اي متابعة.

الا أن الحزب أشار الى أن تشكيل مجموعات الانصار كاستمرار لانتفاضة ١٩٢٩ وتظاهرات ١٩٣٣ يثبت صحة تحليل الحزب باستمرار انتشار التخمر الفلاحي(٩٨).

مؤتمر الكومنترن السابع وسياسة الجبهة الشعبية الوطنية : كان الحزبان الشيوعيان الفلسطيني والسوري متمثلين في مؤتمر الكومنترن السابع في العام ١٩٣٥(٩٩)، وشاركا في جميع جلساته . ووافق الحزبان على الخط الجديد المتضمن في التقرير الذي قدمه ديمتروف وعزيا فشلهما في اتباع سياسة صحيحة الى وجود نفوذ صهيوني داخل قيادتيهما(١٠٠). وطرح المندوب الفلسطيني الموضوعة القائلة ان الدعم الاساسي للامبريالية البريطانية في فلسطين يتمثل في البورجوازية الصهيونية التي « تقوم بطرد الفلاحين العرب من اراضيهم بدون رحمة وتحطم الطبقات المتوسطة — الدنيا وحتى البورجوازية العربية »(١٠١). ويكمن خطأ الحزب في عدم الاقرار بأن الجماهير العربية هي قوة الدفع في النضال الوطني وفي الثورة البروليتارية . وعبر مندوب آخر (خالد بكداش) كان يتحدث باسم البلدان العربية عن موافقته التامة على موضوعات ديمتروف وأعلن ان على الاحزاب الشيوعية العربية « أن تتحول تحولا جذريا فيما يتعلق بمواقفها من اصلاحيي البورجوازية العربية القوميين . علينا أن نؤيد مطالبهم المعادية للامبريالية ، ونؤيد كذلك اجراءاتهم التقدمية »(١٠٢). وصور الصراع على مرحلتين ، وبأنه لا ينبغي توقع ان يقود الشيوعيون الجماهير رأسا الى الاشتراكية دون اتمام المرحلة الاولى بنجاح ، مرحلة مقاتلة الامبريالية(١٠٣) لذلك فعلى الشيوعيين ان يضعوا في منظورهم « امكانية الاشتراك والموافقة حتى مع اكثر احزاب البورجوازية الاصلاحية القومية تطرفا » ، ولكن حتى لو جاءت هذه البورجوازية الى السلطة على أساس اتفاقية حل وسط ، او تسوية مشبوهة مع الامبريالية فان التناقضات بين الاثنتين سوف تستمر بالضرورة ، وسوف تستمر لذلك سياسة الحزب المؤيدة لها دون تغيير .

ومع تنفيذه للسياسة الجديدة أخذ الحزب يقر « بالصفة التقدمية الموضوعية » للحركة المعادية للامبريالية حتى ولو قادتها عناصر الاقطاع الديني . وفي تشرين الاول

(اكتوبر) ١٩٣٥ أصدر الحزب منشورا تحت العنوان « من أجل تحالف كل العرب واصدقائهم ضد الامبريالية » يشرح فيه الخط الجديد للكومنترن(١٠٤).

واما في حقل العلاقات الخارجية(١٠٥) فقد طلب الحزب من الشعب الفلسطيني (الاشتراكيون الوطنيون والديمقراطيون) ان يؤيدوا اثيوبيا ضد الفاشية الايطالية ، وان يؤيدوا كذلك الصين الثورية ضد فاشية اليابان ، وأن يدعموا الشعب المصري في كفاحه ضد الامبريالية البريطانية وأخيرا أن يدافعوا عن الاتحاد السوفياتي وعن التحالف السوفياتي ــ الفرنسي . وفي نفس الوقت دعا الى النضال الحازم ضد الامبريالية الفرنسية لان « تحرير شعوب المستعمرات سيؤدي حتما الى تحرير الطبقة العاملة الفرنسية » . وفي حال وقوع حرب امبريالية تعهد الحزب أن يقاوم الامبرياليين وان يحول الحرب الى ثورات تحرر وطني .

واما في ما يتعلق بالاوضاع الداخلية(١٠٦)، فقد تعهد الحزب أن يناضل ضد « الاستعمار البريطاني الصهيوني المشترك فالحزب لا يفرق بين الواحد والآخر » . فهو يناضل من اجل « تحطيم الصهيونية وايقاف الهجرة فورا » . فقد صورت الهجرة الصهيونية على انها محاولة لخلق مصد بين حركة التحرر الوطني العربية وبين الامبريالية البريطانية ، اذ أنه كان يؤتى باليهود الى الجيش ويسلحوا بهدف أن يمنعوا ليس فقط استقلال فلسطين وانما العالم العربي بكامله . واغلبية اليهود في فلسطين يدفعون للعب دور فاشي ، دور « الارستقراطية العمالية » . وان الجهود التي بذلت لمنعهم من تأدية هذا الدور قد أودت الى نتائج باهتة وذلك نتيجة الحالة الموضوعية . ومع هذا فان الصراع يجب ان يخاض من داخل المجموعة اليهودية لتعي الدور الذي تؤديه . والحزب يناضل ضد الهجرة الصهيونية لانها لا تخدم سوى البريطانيين والراسماليين اليهود ، وتؤدي الى تقوية الامبريالية ضد الحركة الوطنية العربية .

توجه الحزب الى جميع الفئات والطبقات في المجتمع العربي الفلسطيني لان «٩٩٪» من الشعب يعاني نتائج السياسة الصهيونية والامبريالية البريطانية. « كل عربي أكان تاجرا ،حرفيا ، صاحب دكان ، مصرفيا، صاحب مصنع ، مهنيا أو من الصناعيين»(١٠٧) عليهم جميعا أن يتحدوا في جبهة واحدة ضد الامبريالية الانكلو ــ صهيونية . فالجبهة المتحدة ضرورية ، وهي الطريق الوحيد للتخلص من العجز والعداوة المتبادلة لاننا « لا نستطيع النضال من أجل الوطن بينما نقاتل بعضنا بعضا باستمرار »(١٠٨).

وحذر الحزب الجماهير من الزعماء العاجزين عن القيام بواجباتهم بالطريقة المطلوبة ، والذين يجب أن يكونوا باستمرار معرضين لضغط الشعب كي يبقوا في نضالهم ومقاومتهم للامبريالية . وعلى الجماهير أن تحذر هؤلاء الذين يحاولون اثارتهم ودفعهم للقيام بالثورة قبل أوانها(١٠٩)، عملاء الفاشية والهتلرية التي لا تستفيد الحركة الوطنية من نشاطاتهم في شيء وانما هي فقط تساعد في احكام يد الامبريالية على البلاد .

واما فيما يخص الشغيلة والفلاحين اليهود وكل هؤلاء الذين هم أعضاء في الهستدروت فقد طلب منهم الحزب ان يحرضوا ويناضلوا ضد الهجرة وضد قيام مجموعات يهودية مسلحة (الهاغانا) ، كما دعاهم للنضال ضد الامبريالية البريطانية والصهيونية لكن عن غير طريق التعاون مع الفاشية الايطالية (وهذه اشارة الى جابوتينسكي ومجموعته الذين قيل أن لهم اتصالات قوية وتعاطفا مع موسوليني) ، كما طلب منهم أن ينظموا بشكل علني مطالب من أجل اخراج المحتلين البريطانيين(١١٠).

ثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ : عند بداية الاضراب العام في نيسان (ابريل) ١٩٣٦ وحد

الحزب نضاله مع النضال الوطني ودعم كلية مطالب الوطنيين العرب التي تضمنت الغاء وعد بلفور ، انهاء الهجرة اليهودية الى فلسطين ، اقامة مجتمع ديموقراطي وايقاف بيوع الاراضي لليهود . ولوحظ ان « روح العصيان كانت واضحة بشكل خاص في الريف » كما قيل ان النضال كان يخاض ضد الامبريالية البريطانية والحركة الصهيونية معا . وشدد الحزب على ان النضال يجب ان يستمر وحتى تحقيق كافة مطالب الحركة الوطنية(١١١).

كان من الملاحظ ان اساس الثورة يكمن في الريف . فقد عانى العرب ظلما مزدوجا من الامبريالية البريطانية ومن الغزو الصهيوني . فقد قام الصهاينة بالريف بالحلول محل العرب بالقوة . وهكذا نجد ان افتقار وتردي الفلاحين هو نتيجة مباشرة لسياسات الصهاينة المعروفة بـ « الاستيلاء على الارض » و« الاستيلاء على العمل » ، والتي أدت الى نشوب الثورة(١١٢). ودعي اليهود للانضمام الى حركة التحرر العربية ، فهم دخلوا البلاد « بروح الامة الفاتحة »(١١٣)، لكن لا يمكن انقاذ يهود فلسطين من الكارثة الا عن طريق تشكيل جبهة متحدة من العرب واليهود . أصدر الحزب الشيوعي الفلسطيني نداء يناشد الجماهير اليهودية النضال ضد الصهيونية(١١٤). لانه عن طريق هذا النضال وحده ستحصل الجماهير اليهودية على حقوق الاقلية القومية في فلسطين المستقبل المستقلة . وفي نداء آخر صدر بعد بداية الاضراب العام بشهرين(١١٥) وصف الحزب الانتفاضة بأنها شكل مشروع من الدفاع عن الذات ضد عدوين قويين . وصور النضال ضد الصهيونية على انه ملح للغاية لان الصهاينة كانوا ينتزعون من العرب جميع سبل العيش ، وقريبا « فان الصهاينة سوف يحرمون الشعب العربي من فلسطين نفسها » . وقد أحس الفلاحون الذين هم العامود الفقري للنضال ، بشكل مباشر بضغوطات الاستعمار الصهيوني الامر الذي يفسر صراعهم ضد المستعمرات الصهيونية . فقد كان هدفهم تدمير الاقتصاد الصهيوني وجعل كل استمرار في عمل التعمير مستحيلا(١١٦).

وفيما يتعلق بالثورة على اليهود وضع الحزب اللوم على الصهيونيين والامبرياليين(١١٧). وقد اظهرت « الجبهة الشعبية » ، وهي الصحيفة العربية للحزب ، تقارير عن النشاطات المسلحة ضد مراكز البوليس ولكنها لم تذكر مهاجمة اليهود(١١٨). والحزب نفسه اشترك بغير حماس في محاولات غير مؤثرة سنة ١٩٣٦(١١٩)، ولكن مساهمته الاساسية جاءت عن طريق التحاق نمر عودة (عضو اللجنة المركزية منذ ١٩٣٧) بالمجموعات العربية المسلحة(١٢٠).

في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٦ خمدت أول موجات الثورة ووجد الحزب نفسه في موقع ضعيف . فقد قبض على الكثير من كادراته كما جرح الكثير في القتال ، وعارض الكثيرون من أعضائه اليهود خطه الداعي الى الدعم التام للثورة والاشتراك فيها . من هؤلاء من ترك الحزب ومنهم من تخلص الحزب منهم . وفيما بعد أرسل الكثير من هؤلاء الاعضاء اليهود الذين لم يوافقوا على خط الحزب الى اسبانيا ليقاتلوا في الفرق الاممية. في العام ١٩٣٧ نظم الحزب « القسم اليهودي » لمعالجة قضايا أعضائه اليهود . ومنع القمع الذي مارسه الانكليز ضد الثورة الاتصال بين قسمي الحزب اليهودي والعربي وبين اللجنة المركزية ، بينما عضوا اللجنة المركزية اليهوديان (سلونيم وتساباري) كانا في السجن ، وكانت النتيجة النهائية لانشاء القسم اليهودي أن اتبع القسمان سياسات مختلفة . وبينما فسر الشيوعيون العرب مفهوم الجبهة القومية الذي صاغه المؤتمر السابع للكومنترن على انه يعني الدعم للهيئة العربية العليا ، فان القسم اليهودي فسر بالمقابل نفس المفهوم على انه يعني الدعم للمعتدلين داخل « اليشوف »

(وايزمن) ضد المتطرفين (جابوتنسكي ومنظمة الارغون) . وهكذا فان فقدان الاتصال بين القسمين اثناء الثورة أدى الى عدم المقدرة على التوفيق بين سياساتهما المختلفة عندما التقيا مرة أخرى سنة ١٩٣٩ .

رفضت اللجنة التنفيذية للحــزب مشروع التقسيم المتضمــن في تقرير بيل عند صدوره(١٢١) . وفي نفس الوقت عارض الحزب تجدد الاشتباكات المسلحة وأعاد تصوره السابق عن ان الانتفاضة هي حركة جماهيرية . وقد اعتبرت المقاومة المسلحة التي نشبت للرد على التقسيم « ضد مصالح العرب واليهود معا »(١٢٢)، مما سينتج عنه جعل التقسيم أقرب للتحقيق . ومع ذلك لم يعارض الحزب الموجة الثانية من الثورة عندما تحركت . وعلى امتدادها وجه هجومه ضد الارهاب اليهودي ومنظمة الارغون التي اتهمها بالتواطؤ مع الفاشية الايطالية(١٢٣) . وتظهر منشورات الحزب ازدياد حذره من مخاطر الاستفزازات الفاشية كما تحذر من تسرب العملاء الطليــان الى داخل الحركة الوطنية العربية . وتوقفت « كول هعام » صحيفــة الحزب العبرية عــن التحريض لصالح الثورة وناشدت الشعب العربي أن « يتخلى عن الاستفزاز وأعمال العنف »(١٢٤)، ودعت اليهود الى التفاهم مع العرب .

ومع انه وحتى مطلع ١٩٣٨ كان الحزب لا يزال مصرا على ان الهيئة العربية العليا المنفية هي الزعامة الشرعية لعرب فلسطين(١٢٥) وليس المعارضة النشاشيبية ، الا انه في نهاية العام هاجم المفتي واصفا اياه بأنه « عميل مباع من الفاشية الالمانية »(١٢٦)، وبأن الثورة في فلسطين لا تمولها سوى مصادر مالية في روما وبرلين(١٢٧) . في ايار (مايو) ١٩٣٩ أعلنت اللجنة المركزية ان تأييد ودعم الدور الثاني من الثورة كان مجرد خطأ(١٢٨)، وانقسمت اللجنة قسمين : واحد ابدى انتقاده التام والاخر اعتبر ان الحزب انما ارتكب خطأ في عدم دعوته لتجديد الكفاح المسلح قبل ان يفعل ذلك القادة القوميون واضعين انفسهم بذلك على رأس الحركــة . وانتصر القسم الاول اثنــاء النقاشات الداخلية التي دارت في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٩ ، واقر الحــزب ان الاضراب العام له صفة ثورية تقدمية ولكن دعم الحزب لتجديد الارهاب عــام ١٩٣٧ يجب ان يعتبر على انه خطأ ويدان . وكان على الحزب ان يحضر الجماهير للنضال السياسي لا ان ينجر الى تأييد الارهاب ، وبالاضافة لذلك لم يقر ان النفوذ الفاشي قد تغلغل الى داخل قيادة الحركة الوطنية(١٢٩) .

ايدت اللجنة التنفيذية المقترحات المتضمنة في كتاب ١٩٣٩ الابيض(١٣٠) وطلبت من زعامة الحركة الوطنية قبولها على انها خطوة على طريق التحرر الشامــل . وادرك الحزب ان الجماهير العربية استنفدت قواها في النضال الطويل المستمر وانها بحاجة الى تراجع منظم . وان النجاح الجزئي المتضمن في الكتــاب الابيض سوف يساعــد الحركة على ان تلتقط انفاسها وتعيد تنظيم نفسها ثم تستمر في النضال . لكن القيادة الوطنية لم تقبل اي تسوية وطلبت من الجماهير الاستمرار في النضال دون توقف . وفي الوقت نفسه فان القسم اليهودي في الحزب مع البيشوف عارض المقترحات الجديدة معارضة شديدة . وكانت النتيجــة العملية لذلــك ان انشق قــادة القسم اليهودي (مجموعة باجوجا) عن الحزب سنة ١٩٤٠ وشكلوا مجموعة مستقلة عاشت عــامين خارج الحزب تحت اسم مجموعة (امت Emet)(١٣١) .

ومما اكسب الحزب قوة متزايدة وعزز هيبته امــام عرب فلسطــين اشتراكه في الحركة الوطنية وفي حوادث الثورة . لم تتخذ تلك القوة شكــل زيــادة في العضوية المنظمة وانما شكل منظمات متعاطفة كثــيرة مما شكــل عام ١٩٤٣ القوة الاساسية لعصبة التحرر الوطني .

اعتبر تاريخ الحزب انحرافا يساريا في تطوره الصفتين الرئيسيتين في النضال الشيوعي لتلك الفترة وهما التشديد على الوحدة العربية والنضال ضد البورجوازية الوطنية ، اي الصفتين اللتين ميزتاه حتى عام ١٩٣٥ . ففي هذا العام ابتعد الحزب الشيوعي الفلسطيني من غير رجعة عن سياسة « وحدة كل العرب » . وبدلا من ذلك ، شأنه شأن الاحزاب الشيوعية في العالم العربي ناضل من اجل استقلال الكيانات التي خلقتها الامبريالية عندما مارست سياسة بلقنة (أي تفتيت) المنطقة . وشدد الحزب هنا على الحاجات والظروف المختلفة للدول العربية المتفرقة . وفي نفس الوقت استمرت حقبة الجبهة الشعبية التي بشر بها المؤتمر السابع للكومنترن حتى هذا الوقت مع بعض التقطع . تخلت الاحزاب الشيوعية عن دعوتها للاشتراكية هنا والان واتبعت استراتيجية سياسية ذات مراحل مقسمة تقسيما صارما . فقد كان على النضال من اجل الاشتراكية في فلسطين والعالم العربي ان ينتظر اتمام المرحلة التي قبله ، مرحلة انجاز التحرر الوطني والثورة البورجوازية الديمقراطية . واعترف بالقوميين الاصلاحيين كزعماء شرعيين لانجاز هذه المهام واكتفى الشيوعيون بالبقاء على الحواشي مقدمين الدعم ، والنقد واحيانا الشجب والاتهام ، ولكنهم لم يتحدوا ابدا مع زعامة البورجوازية الوطنية مرة اخرى .

الفترة الثالثة ١٩٤٠ — ١٩٤٨ : تطور الاحزاب الشيوعية « الاثنية » والنضال من أجل الاستقلال والتقسيم

كانت الحركة الوطنية خلال هذه الفترة في حالة جزر ، اذ أن معظم زعماء انتفاضة ١٩٣٦ — ٣٩ كانوا اما في السجن أو في المنفى او انهم تصالحوا مع السلطات . وتحللت الحركة واستكانت(١٢٢)؛ وطيلة مدة الحرب توقف العرب عن العمل كقوة سياسة متماسكة . وتزايد الصراع داخل الحركة الشيوعية فيما يختص بالمسألة القومية . فقد كان معظم الزعماء اليهود يؤيدون وجود أمة يهودية منفصلة في فلسطين و « يقرون » بواقع تحويل البلاد الى دولة مزدوجة القومية ، مما أدى الى تفتت الحزب بعد أن انحل الكومنترن سنة ١٩٤٣ الامر الذي كان له تأثير مزدوج داخل الحركة الشيوعية . فمن ناحية أدى الى ازدياد الفوضى فيما يتعلق بالخط الصحيح والسياسات التي يجب اتباعها . ومن ناحية أخرى فقد أعطى قدرا أكبر من الحرية من أجل تطوير خط « قومي » . واستفاد الاعضاء العرب في الحزب استفادة كاملة من ذلك وانشأوا « عصبة التحرر الوطني » (لاحقا العصبة) . وخلقت هذه المنظمة بديلا لقيادة الزعماء الوطنيين التقليديين ، واستفادت في تصعيد نشاطاتها من غياب زعامة وطنية متماسكة . وتمسكت العصبة حتى قرار التقسيم في ١٩٤٧ بخط ثابت معاد للصهيونية وضغطت باتجاه اقامة فلسطين ديموقراطية مستقلة . وفي هذه الاثناء فان الاعضاء اليهود في الحزب الشيوعي الفلسطيني بينما تمسكوا بنفس الفكرة لاقامة فلسطين مستقلة ديموقراطية كانوا يقتربون تدريجيا من الييشوف ويشاركون في مؤسساته . فأقروا بأن اليهود هم مجموعة قومية منفصلة مما مكنهم بسهولة اكبر ان يتبنوا قرار التقسيم وأن يلعبوا دورا فعالا في الصراع من أجل خلق الدولة اليهودية .

السنوات الاولى للحرب وانشقاق ١٩٤٣ : كنا رأينا أن سنوات الثورة العربية أدت الى انشاء تنظيم جديد في الحزب هو « القسم اليهودي » . وبامكاننا ان نرجع أسباب تأسيس هذه الدائرة مباشرة الى كون الظروف أثناء الاضطرابات قد منعت الاتصال بين قسمي الحزب . فخلال تلك السنوات تبلورت معارضة لخط الحزب في قيادة القسم اليهودي . وانطلقت هذه المعارضة من أن لليهود مصالح قومية في البلاد ، ثم من

استهجان ونقد الموقف الذي اتخذته اللجنة المركزية في كل مراحل الثورة ، واخيرا دعم المجهود الحربي . وقد نتج عن ذلك حل القسم في نهاية ١٩٣٩(١٣٣).

خلق نشوب الحرب مشكلة حادة للحزب . فحتى توقيع الاتفاق النازي السوفياتي كانت دعايه الحزب معاديه للالمان بشكل صريح . الا انه بعد توقيع الاتفاق هاجمت صحيفه الحزب الحرب وقالت ان الشيوعيين « مدركون تماما ان هده الحرب ليست حربهم وانهم سيحاربون الامبريالية البريطانيه وعملاءها جنبا الى جنب مع الجماهير العربيه »(١١٤). وبعد ثلاثة اشهر قالت الصحيفه انه اذا كان صحيحا « ان الجيوش الالمانيه والايطاليه على الابواب فصحيح أيضا ان جيش تشرتشل داخل البلاد ، وواجبنا الاول هو محاربة العدو في الداخل »(١٣٥). في حزيران (يونيـــو) ١٩٤١ انقلب هذا الموقف من المعارضة « للحرب الامبريالية » الى مصادقة « الحرب ضد الفاشية »(١٣٦). ومنذ ذلك الوقت خرج الشيوعيون الى العلن بموافقة خفية من الحكومة .

استمر الصراع خلال هذه الفترة بين اللجنة التنفيذية للحزب وبين القسم اليهودي الذي رفض ان يدعن لقرار حله . فاستمرت مجموعة « ها ايمت » المنفصلة بوجودها المستقل حتى رأب الصدع في حزيران (يونيو) من العام ١٩٤٢ وعودتها للحزب(١٣٧). الا أن الشعور القومي الذي أخذ يستيقظ اثناء الحرب كان يدفع بالاعضاء اليهود في الحزب نحو تبني القسم اليهودي : الاقرار بوجود تمايز داخل المعسكر الصهيوني وتطور كيان يهودي قومي منفصل في البلاد .

رحب الشيوعيون العرب(١٣٨) بحل الكومنترن في آب ١٩٤٣ وبدأوا يحرضون من أجل تأسيس حزب شيوعي عربي . وعارض موسى (ر. حلو) أمين عـــام الحزب الاندماج مع مجموعة « ايمت »(١٣٩) وحث على تصعيد الهجوم على الصهيونية ، الامر الذي ادى الى تشكيل معارضة يهودية داخل الحزب قادها ميكونيس عضو اللجنة المركزية اليهودي(١٤٠). وانكشف الانشقاق علنا لاول مرة في أيار ١٩٤٣ عندما عارضت اللجنة المركزية الاشتراك بنشاطات الاول من أيار التي نظمها الهستدروت(١٤١). وأهم من ذلك اضراب عمال المعسكر البريطاني الذي اندلع في الاسبوع الثاني من أيار . فقد عارض الاعضاء العرب بقيادة موسى الاضراب رافضين التعاون مع الهستدروت الذي دعا الى الاضراب بدون استشارة العمال العرب(١٤٢) بينما أصر الاعضاء اليهود على الاشتراك في الاضراب . اقترح موسى تسوية على أساس أن لا يشارك العمال العرب في الاضراب بينما تترك للعمال اليهود حرية المشاركة أو عدمها . وأدى ذلك بالنتيجة الى صعوبة التوصل الى اتفاق حول الموضوع فكان رد فعل اللجنة المركزية اغلاق فرعي حيفا وتل أبيب وطرد ميكونيس وفاينهوس (في اللجنة المركزية أيضا) مـــن الحزب(١٤٣). واشترك القادة المطرودون مع الفرعين المنحلين بعدم الاقرار بسلطة اللجنة المركزية .

وفي التاسع والعشرين من ايار (مايو) اجتمعت الجمعية القومية للحزب في محاولة لرأب الصدع . لكن مجموعة عربية متطرفة نشرت بيانا موقعا من اللجنة المركزية أدى الى وضع حد لتلك الجهود(١٤٤). وأوضح البيان ان اغلاق فرعي الحزب تم من أجل طرد العناصر الصهيونية التي تسربت لداخل الحـــزب . وأوضح ايضا ان الحزب الشيوعي الفلسطيني هو حزب عربي ويمكن أن ينضم اليه اليهود اذا كانوا مستعدين للاقرار بهذه الحقيقة(١٤٥). تنصل موسى من البيان المذكور(١٤٦)، لكن الوقت بات متأخرا لمنع انشاء المجموعة اليهودية المنفصلة . وفي نفس الوقت تشكلت المعارضة التي لم توافق على جهود موسى للوصول الى تسوية ، واسست العصبة في شبـــاط

(فبراير) ١٩٤٤ (١٤٧) . وفي الجانب اليهودي فقد توصل عضوا اللجنة المركزية فيلنسكا وفلنر الى تفاهم مع مجموعه ميكونيس في اوائل ١٩٤٤ حول احياء نشاطات الحزب الشيوعي الفلسطيني وفي ايار (مايو) عقدوا المؤتمر الثامن للحزب(١٤٨) . وأنشأ مؤيدو موسى في امانة الحزب (سلونيم وتساباري) مع شيوعيين يهود آخرين الاتحاد التربوي الشيوعي (الذي أصبح في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٧ « الحزب الشيوعي العبري ») الذي اقترب فيما بعد من الموقف الصهيوني أكثر من أي مجموعة أخرى(١٤٩) .

العصبة : منشؤها وبرنامجها السياسي : في العام ١٩٣٧ قررت مجموعة من طلاب المدارس تنظيم مدارس صيفيه للاميين البالغين . وعقدت الصفوف في بيت لحم والمنطقة المجاوره وجذبت اليها تلاميذ كثر ، مما أدى في النهاية الى تشكيل « منظمة الطلبة العرب »(١٥٠) . وفي تموز ١٩٣٨ قرر اعضاء المنظمة تغيير اسمها الى « عصبة الطلبة العرب » ، ليدلوا على توسع المنظمة ونشاطاتها . هدفت العصبة الى خدمة الشعب عن طريق محاربة الامية ، وتنظيم حركة من أجل احياء القرية العربية وأخيرا نشر شعور احترام الذات بين الطلبة العرب .

في أيلول (سبتمبر) ١٩٤١ غيرت العصبة اسمها مرة ثانية الى « عصبة المثقفين العرب » وأصبحت بذلك منظمة عامة للمثقفين(١٥١) . وفي نفس الوقت ظهرت مجموعة نواد سياسية في المدن العربية الكبرى مثل « العصبة العربية ضد الفاشية »(١٥٢)، و« جمعية أشعة الامل »(١٥٣) و« نادي الشعب »(١٥٤) في حيفا . ثم تطورت هذه النوادي الى مراكز ومجموعات لها دور سياسي أكثر صراحة ، وأصبحت الحركة النقابية العربية واحدا من اهتماماتها الرئيسية .

واجتمعت هذه النوادي معا في العام ١٩٤٤ وشكلت نواة عصبة التحرر الوطني .

ترجع أصول الحركة العمالية في فلسطين الى ١٩٢٥ عندما تأسست في حيفا « جمعية العمال العرب في فلسطين » في حيفا . وتم عقد المؤتمر الاول للعمال العرب في العام ١٩٣٠ (١٥٥) . وقد قمعت الحركة النقابية العربية أثناء ثورة ١٩٣٦ ولم تمارس نشاطاتها مرة ثانية الا مع الانتعاش الاقتصادي اثناء الحرب ونتيجة لها . وتوسعت الطبقة العاملة العربية في فلسطين نتيجة اشتغال الالاف من العمال العرب في معسكرات الجيش البريطاني ، بينما دخل بضعة آلاف آخرين المؤسسات العربية التي نشأت نتيجة للازدهار الاقتصادي الذي رافق سنوات الحرب(١٥٦) . وفيما يختص بالنشاط النقابي فان أول تجمع شيوعي تطور داخل فروع جمعية العمال العرب في فلسطين . وفي خريف ١٩٤٢ شعر الشيوعيون انهم أقوياء ما يكفي لتأسيس « اتحاد نقابات وجمعيات العمل العربية »(١٥٧) . وجاء تأسيس الاتحاد نتيجة المعارضة المتزايدة للاعتدال والتسويات التي أخذ بها قادة الجمعية . وفي وقت قصير نجح اتحاد النقابات الجديد في تسجيل عدد من النقابات المركزة في صناعة البترول ، بينها عمال « شل » و« ب. ب. » ، وعمال مرفأ حيفا وفي مخيمات الجيش قرب المدينة(١٥٨) . ولم يصطدم الاتحاد مع النقابات الملتحقة بالجمعية ، والتي تركزت بشكل رئيسي بين عمال سكة الحديد ، وعمال التبغ والبلدية(١٥٩) . وجاءت العصبة نتيجة دمج الاعضاء العرب في الحزب الشيوعي الفلسطيني المتفكك والجمعيات المختلفة ونوادي المثقفين التي كانت ضمن اتحاد النقابات .

أعلنت العصبة أهدافها القومية في برنامجها الذي نشر في أوائل العام ١٩٤٦ (١٦٠)، ولم تختلف كثيراً عن أهداف الحزب الشيوعي الفلسطيني أو عن أهداف الحركة

الوطنية العربية مع الاستثناء البارز الوحيد وذلك هو الموقف من المسألة اليهودية . أما الاهداف فهي اخراج الجيوش الاجنبية ، الغـاء الانتداب وتاسيس حكومـة ديموقراطية في فلسطـين مستقله(١٦١). وأعلنت العصبـة معارضتها للصهيونيـة ومطامحها ، ونادت بتقوية الروابط مع الشعوب العربية « في كفاحها المشترك ضد الامبرياليه » . وشددت على ان العصبـه قامت « لتميز بين الصهيونية والشعب اليهودي . فالصهيونيه كحركه عدوانية واجيره للامبرياليه هي عدوة الامـة العربية وعدوه اليهود أنفسهم »(١٦٢). وكانت المطالب الاجتماعية الرئيسية للعصبة رفع الحالة الاقتصاديه الاجتماعية للعمال عن طريق النقابات وخلق مجموعة من القوانين تكون أساسا للضمان الاجتماعي ولالغاء التمييز العنصري في الوظيفة وفي الاجور ، توزيع أراضي الدوله على الفلاحين ووضع قوانين تقي الفلاح من الطرد من أرضه(١٦٣)، ثم جعل العمل في البلديات ديموقراطيا وتطوير وانشاء المدارس وجعل التعليم الزاميا ومجانيا للجميع(١٦٤). لا يرد بين المطالب المذكوره اي ذكر لنوع الحكم المزمع اقامته عقب نيل الاستقلال . فقد تركت العصبه ذلك جانبا ، على أن تبحث به بعد النجاح في تحقيق الاهداف القومية .

اشترط البناء التنظيمي الذي نص عليه النظام الاساسي للعصبة ، انشاء حزب يكون مبنيا بكامله على الاسس الشيوعية . وعند تحديد بنيه الحزب فقـد أكد على انه « مبني على مبدا المركزيه الديموقراطية »(١٦٥). وهكذا بينما برنامج العصبة السياسي لا يظهر أبدا ان له ايه صفة شيوعية نجد ان نظامها الاساسي قد وضع بالكامل على المبادىء الشيوعية . والاشارة الوحيدة الى انه كان مقصودا بالعصبة ان تكون حزبا سياسيا جاءت في شرط العضوية التي كانت مفتوحة « لكل مواطن عربـي فلسطيني يوافق على الصفة القومية للعصبة ولنظامها الاساسي »(١٦٦). وهكذا ، « عكس كل الاحزاب الشيوعية » لم يكن للعصبة أساس اقليمي ، وانما كانت مبنية على اساس عضوية تتألف من فئة اثنية واحدة في بلد متعدد القوميات .

العصبة والنضال من أجل الاستقلال : بدأ نشاط العصبة باصـدار نشرة نصف شهرية دافعت على صفحاتها عن برنامجها السياسي وموقفها من القضايا العربية . واستمرت النشرة بالظهور حتى أيار (مايو) من عام ١٩٤٤ عندما بدأ صدور مجلة « الاتحاد » بشكل منتظم(١٦٧). ففي المجال السياسي ايدت العصبة سياسة التحالف مع الزعامة التقليدية لحركة التحرر الفلسطينية(١٦٨) ودعت لتشكيل « جبهة عربية » . وعقد أول لقاء دعاوي في يافا في ٢٠ نيسان (ابريل) ١٩٤٥ وكان ذلك أول ظهور للعبة أمام الجمهور(١٦٩). تبع ذلك سلسلة اجتماعات عقدت في الناصرة وحيفـا والقدس وأماكن أخرى غيرها . وكانت المواضيع التي بحثت تدور حول الدعاية من أجل الجبهة العربية ، والمطالبة بجعل انتخابات البلدية ديموقراطية ، المطالبة باطلاق السجناء السياسيين ، ثم المطالبة بالتوصل الى تفاهم مع سكان فلسطين اليهود(١٧٠).

منذ البداية طالبت العصبة باقامة سلطة عربية عليـا تكون مبنية علـى أسس ديموقراطية . لكن عندما كانت التحضيرات تجري في العام ١٩٤٥ لتأسيس الهيئة العربية العليا أصبح واضحا ان المبادرين لذلك كانوا يريدون لها أن تتألف من ممثلين عن العائلات والفئات التقليدية ، لذلك استبعدت الانتخابات الشعبية(١٧١). ونتيجة لهذا نشب الخلاف بين العصبة وبين مؤسسي الهيئة العربية العليـا . واستمرت العصبة في سياسة الدعم والتحريض لصالح انشاء الجبهة العربية ، والوحدة الوطنية، لكن الزعامة التقليدية للحركة الوطنية صرحت عن عدائها للشيوعية ومنعت العصبة

من الانضمام للتحالف الذي تألف من كل الفئات السياسية العربية والذي أنشىء في حزيران (يونيو) من العام ١٩٤٦ (١٧٢).

اتخذت العصبة في معالجتها للقضية الفلسطينية نفس موقف الحركة الوطنية العربية في خطوطه العامة مع استثناء وحيد وهو السياسة المتعلقة بسكان البلد اليهود . وشددت العصبة على ان المشكلة ليست مشكلة هجــرة(١٧٣) كما يزعــم الصهاينة والامبرياليون (وكما تجادل قيادة الحــركة الوطنية) وانما هــي قضية الاستقلال والديموقراطية وتقرير المصير . واتهمت العصبة الحركــة الصهيونية بأنها رجعيــة واستعمارية ، وانها لا تناضل من اجل استقلال فلسطين وانما من اجل اقامة الدولة اليهودية(١٧٤). واتهمتها كذلك بالخوف من تأييد نشر الديموقراطية لان ذلك يعني اقامة حكم وطني ديموقراطي يطيح بحلم الدولة اليهودية . لذلك فقــد نشط الصهاينة في معاداتهم لتقرير المصير وللديموقراطية . وحذرت العصبة من مخاطر التقسيم لان ذلك « يضمن مستقبل الصهيونية ويؤمن للامبريالية موقع قدم في كل العالم العربي »(١٧٥). وأدانت « الشعارات غير الواقعية لجزء من الحركة الوطنية العربية فيما يتعلق بالعيش بسلام مع اليهود » . وأصرت العصبة على ان الحركة الوطنية العربية « تستطيع بالفعل ان تؤمن الحقوق الديموقراطية للسكان اليهود »(١٧٦). وكان حلها مبنيا « على الرغبة لتأمين السلام والهدوء لكل الذين يعيشون في فلسطين الآن »(١٧٧). والسياسة المقترحة من أجل ذلك هي تقرير المصير ، السياسة الوحيدة التي تؤمن الحقوق القومية للشعب العربي و« الحقوق المدنية والحريات الديموقراطية للسكان اليهود ». وسيتمتع اليهود بكل الحقوق القومية المشروعة التي يتمتع بها اليهود الآخرون فــي البلدان الديموقراطية(١٧٨). وكانت المطالب الراهنة التي وضعها الشيوعيون في أواخر ١٩٤٥ تطهير الادارة في فلسطين من كل القوى الرجعية ، العمل على جعل الحكومة المحلية حكومة ديموقراطية واقامة قضاء منتخب بطريقة ديموقراطية ، ثم دعم الحكومة المحلية للاقتصاد العربي في فلسطين واخيرا تأمين ديموقراطية حقيقية للقوى الشعبيــة في البلد(١٧٩).

وفي تشرين الثاني ١٩٤٥ أصدرت العصبة منشورا تعلق فيه على طريقة وزارة الخارجية البريطانية في معالجتها للاوضاع وتصرح بأنه لا يمكن ان يكون هناك حل آخر لفلسطين غير الاستقلال(١٨٠). واتهمت الحكومة بتجاهل حقوق العرب في البلاد وكذلك حقهم في تقرير مصيرهم . ورفضت العصبة أن يكون هناك حاجة للجنة تقص انكلو ـ أميركية ، واقترحت بدلا عنهــا لجنة دولية لمعالجة القضيــة . ثم كررت مطالبتها بالاستقلال ، وبايقاف الهجرة ، وبوجوب الفصل بين قضية فلسطين وقضية اللاجئين.

اختلف موقف العصبة من الجانب اليهودي لقضية فلسطين اختلافا جذريا عن موقف الحركة الوطنية العربية ، لذلك فهو يستحق أن يذكر بشكل خاص . فقد ميزت العصبة بوضوح بين الصهيونية والسكان اليهود في فلسطين . وهذا ما أعير اهتماما خاصا في ميثاق العصبة حيث وصفت الصهيونية بأنها حركة عدوانية في خدمة الامبريالية ومعادية للامة العربية ولليهود انفسهم علــى السواء(١٨١). ورفضت الخلــط بين الصهاينة واليهود . وفيما يتعلق بالهجرة شددت على انه ينبغي ألا يسمح للراغبين في المجيء الى فلسطين الا بموافقة سكان البلاد(١٨٢). وأما بخصوص مشكلة الذين يرحلون من أوروبا فقد أعلنت العصبة انها مشكلة عالمية وبالتالي ينبغي الا ترتبط بقضية فلسطين. فالمسؤولية دولية . وعلى كل دول العالم التعاون لتحمل أعباء هؤلاء الذين لا يريدون العودة الى اوطانهم ، و« قد عبر الشعب العربي عــن رغبته في المساهمة في حل المشكلة جنبا الى جنب » مع البلدان الاخرى في اطار هيئة الامم المتحدة(١٨٤).

وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٤٦ اصدر المكتب السياسي للعصبة تصريحا شجب فيه لجنه التقصي الانكلو — اميركيه ، التي كان الهدف منها « صرف الشعب العربي عن نضاله الحقيقي لالغاء الانتداب وضمـــان الاستقلال »(١٨٥) . وفي نفس الوقت رفض التصريح محاولات الجامعة العربيه أخذ مسؤولية القضية بين يديها ، وأصر على ان الجامعه يجب ان تلعب دورا داعما فقط . واتهم الجامعة العربية بالضعف والوقوع تحت التاثير البريطاني لانها « لم تطالب بالغاء الانتداب على فلسطين »(١٨٦)، ولكنها حاولت بمساعده ودعم الزعماء العرب في فلسطين ان تحل القضيـــة بالتوصل الى تسوية منفردة مع الامبريالية البريطانية(١٨٧) .

وفي آذار (مارس) ١٩٤٦ أصدرت الامانة العامة للعصبة تصريحا آخر بمناسبة زياره اللجنة الانكلو — أميركية الى فلسطين هاجمت فيه اللجنة ، وأعلنت ان هذه الاخيرة لا يمكن أن تؤدي الا الى « حل استعماري جائر مبني على التقسيم . لذلك ينبغي افشال هذا المخطط برفض التواطؤ مع اللجنه »(١٨٨) . وقد قررت الهيئة العربية العليا التواطؤ مع « اللجنة الاستعمارية » فأدينت لموقفها « الانتهازي » .

ومن العام ١٩٤٦ وصاعدا طالبت العصبة باحالة قضية فلسطين على مجلس الامن، وربما كان ذلك نتيجة الاقتناع بأن الاتحاد السوفياتي كان سيستعمل حق الفيتو ضد اي حل لصالح الصهاينة ، ولذلك فقد طالبت بالذهاب الى هيئة الامم المتحدة بدلا من استمرار المفاوضات مع البريطانيين(١٨٩) .

وحتى صيف ١٩٤٧ كانت العصبة لا تزال تحارب التقسيم(١٩٠) حتى بعد ما أعلن الوفد السوفياتي الى هيئة الامم المتحدة بأنه ينبغي حل قضية فلسطين عن طريق اقامة اتحاد فيدرالي ، أو عن طريق التقسيم كأفضل بديل لذلك . وبعد أن رحبت العصبة في البداية بلجنة التقصي التابعة للامم المتحدة التي جاءت الى البلاد في حزيران (يونيو) ١٩٤٧ ، عادت وقررت مقاطعتها ، وارسلت مذكرة تشرح فيها موقفها من الاوضاع من كافة جوانبها ووجوهها(١٩١) . كانت العصبة قد اعلنت مطالبها أمـــام الرأي العام بالاستقلال وتقرير المصير(١٩٢) . ثم عادت وأكدت مرة ثانية رغبتهـــا في التعاون مع الجماهير اليهودية (التي وصفتها « بالمضللة » في تأييدها للصهاينة) ، وأدانت أيضا الزعماء العرب التقليديين الذين « لم يأخذوا قط موقفا ايجابيا من الجماهير اليهودية مميزة عن الصهيونية »(١٩٣) . تضمنت المذكرة التي أرسلت للجنة الامم المتحدة تكرارا لمطالب العصبة السابقة . ووجهت كل التهم الممكنة الى خطة التقسيم ، لانها ستؤدي الى فصل نهائي بين العرب واليهـــود ، وستحطم كل أمـــل في التعاون والتفاهم في المستقبل ، وستخلق دولة يهودية تكون قاعدة للامبريالية الانكلو — أميركية في المنطقة ، ولانها جزء من مشروع « سوريا الكبرى » ، واخيرا لانهـــا ســـتعيق كل تطـــور اقتصادي(١٩٤) . وفي نفس الوقت أعلنت رفضها للدولة مزدوجـــة القومية ، ولكل المشاريع المقترحة ذات الهدف المركزي وهو حفظ واستمرار مركز وسلطة الامبريالية البريطانية في فلسطين وعليها . والحل الوحيد الذي وجدته العصبة مقبولا كان الحل الذي اقترحته عند تأسيسها وهو « الغاء الانتداب ، اخراج الجيش البريطاني ، وتأسيس دولة ديموقراطية مستقلة تكفل حقوقا متساوية لليهود والعرب »(١٩٥) .

عندما نشرت لجنة التقصي قراراتها عبرت العصبة عن ارتياحها لقرار منح البلاد استقلالها واجلاء الجيش البريطاني(١٩٦)، ولكنها رفضت توصيـــة الاغلبية لصالح التقسيم ووصفتها بأنها « نتيجة المؤامرات الاستعمارية داخل الامم المتحدة التي تهدف الى تدمير مستقبل فلسطين والامم المتحدة معا » .

وبينما رحبت بتوصية الاقلية التي جاءت لصالح الدولة الموحدة ، شجبت العصبة من الناحيه الاخرى محاولات تلك الاقليه لفرض شكل محدد لهذه الدوله على انه لا يحق لغير شعب فلسطين المستقلة الموحده ان يختار ويقرر شكل دولة المستقبل . واشاره العصبة الى أن لجان التقصي تزيد القضيه تعقيدا وبأنه لم يعد هناك مجال للتردد والتاخير . ودعت جميع فئات الشعب العربي في فلسطين الى تنظيم وتوحيد مساعيهم وجهودهم وراء مطلب الجلاء والاستقلال الفوريين .

العصبه والنشاط النقابي : بدا انهماك الشيوعيين في العمل التنظيمي بين العمال العرب في خريف ١٩٤٢ عندما حصلت مجموعه شيوعيه (مرتكزة على « جمعية أشعة الامل ») ، على اذن من وزارة العمل لانشاء « اتحاد النقابات وجمعيات العمل العربيه » . وكان هدف المجموعه الريسي كما عبرت عنها مجلتهم « الاتحاد » توحيد الحركة النقابية العربية ، بينما تقوم المجله بالتكلم نيابة عن كل النقابات العربية ، ودعت المجموعة ممثلي تلك النقابات للمشاركه الفعالة في تحريرها(١٩٧). لكن هذه الوحده لم تنجز ، وسرعان ما توصل الاتحاد الى تفاهم مع منافسه الرئيسي جمعية العمال العرب في فلسطين ، حول وجود منفصل لكل منهما .

وكانت « الجمعية » تتألف من عناصر متغايرة وسرعان ما تبلورت في داخلها معارضة يسارية كانت تميل الى قبول اقتراح « الاتحاد » لاقامة منظمة واحده . وكان رؤساء أقسام بعض فروع « الجمعية » شيوعيين (الناصرة ، يافا ، القدس) ، وسرعان ما انشقت عنها بعض الفروع(١٩٨).

حاول سامي طه زعيم جمعية العمال العرب في فلسطين ان يقمع الفروع اليسارية بكل الوسائل(١٩٩)، مما جعل اليسار يدرك ان استمرار التعايش مع القيادة اليمينية قد أصبح مستحيلا . ووصلت الامور حدتها حول مسألة التمثيل لدى مؤتمر النقابات العالمي الذي كان سيعقد في لندن في شباط (فبراير) ١٩٤٥ . وتوصلوا الى تسوية على اساس ارسال وفد مشترك مؤلف من سامي طه ، حنا عصفور ، بولس فرح ، لكن فرح وصل المؤتمر متأخرا نظرا لبعض التعويق بخصوص التأشيرة وسمح له بالحضور كمراقب ، مما جعل الوفد يتألف رسميا من طه وعصفور (٢٠٠).

ونشب خلاف حاد آخر حول تأليف الوفد الى مؤتمر باريس الذي كان سيعقد في أيلول (سبتمبر) من نفس السنة ، مما أدى الى انشقاق اليسار النهائي عن « الجمعية » . وبالرغم من تعاظم قوة اليسار الا أن سامي طه تابع رفضه لاقتراحهم بخصوص التمثيل المشترك وقرر أن وفد باريس سيتألف منه ومن عصفور .

وقد وجهت الدعوة في ١٩ آب (اغسطس) لفروع اليسار لعقد اجتماع لها في يافا ، حضره ممثلون عن فروع يافا ، والقدس ، وغزة وعكا بالاضافة الى ثمانية فروع أخرى صغيرة . وأعلنوا انسحابهم من « الجمعية » وانضموا الى « الاتحاد » بهدف انشاء « مؤتمر العمال العرب »(٢٠١). ثم تم تأليف الوفد الى باريس من مخلص عمرو وبولس فرح اللذين منحتهما لجنة مؤتمر باريس منزلة رسمية(٢٠٢).

وأصبح « المؤتمر » المنظمة الرئيسية للعمال العرب في البلاد وقام بنشاط اكبر بكثير من نشاط « الجمعية » في الحقل النقابي . طالب المؤتمر بالتشريع العمالي ، وبالاجر المقطوع وبالضمان الاجتماعي للمسنين والمرضى ، وبالغاء التبادلات في العمل الخاص وبانشاء قسم للتوظيف تشرف عليه الدولة(٢٠٣). وكان نشاطه النقابي « بدون شك أكثر اخلاصا لمصالح العمال من نشاط جمعية العمال العرب في فلسطين »(٢٠٤). وكان يتألف فقط من العمال كما ان واحدا من زعمائه كان عاملا في سكة الحديد متمرسا

بالسياسة والعمل النقابي . ومن خلال « المؤتمر » نجحت العصبة التي كانت في البداية حركة مثقفين في التغلغل داخل صفوف العمال لتخلق بذلك « تحالفا حقيقيا بين المثقفين والعمال »(٢٠٥). وبالرغم من أن الخلاف حول قوته العددية الفعلية لا زال قائما(٢٠٦) فانه قد شكل « أكبر وأهم نقابة عربية في فلسطين »(٢٠٧).

الحركة الشيوعية اليهودية و« الوطني القومي » : بعد تفكك الحــزب اليهودي العربي الموحد في سنة ١٩٤٣ الف الشيوعيون اليهود عدة مجموعات صغيرة . وفي أوائل ١٩٤٤ نجح ميكونيس وفلنر في احياء الحزب الشيوعــي الفلسطيني وعقدوا المؤتمر الثامن في أيار (مايو) من ذلك العام . وخرج الحزب بموقف جاء لصالح اقامة فلسطين ديموقراطية مستقلة تكفل مساواة تامة في الحقوق « للاقلية القومية اليهودية وللاقليات الاخرى »(٢٠٨). وتضمن برنامجه السياسي الصراع من أجل « مصالح العمال والفلاحين داخل الحركة الوطنية العربية » . كما تضمــن تصعيد الكفاح المشترك للجماهير العربية واليهودية من أجل مصالحهم المشتركة . وأعلن البرنامج ان السياسة الصهيونية تضر بمصالح القسم اليهودي من السكان ، وأكد على ان الحل العملي الوحيد يكمن في تشجيع الوحدة العربيــة اليهودية . وفي آب (اغسطس) ١٩٤٤ اشترك الشيوعيون تحت اسم « اللائحة الشعبية الديموقراطية » بانتخابات الجمعية التشريعية لليبشوف وفازوا بثلاثة مقاعد(٢٠٩). وشجبوا البرنامج الداعي لاقامة دولة في « تصريح بلتمور » لكونه « مبني علــى السيطرة » وعلــى « سياسة التوسع والانعزالية الشوفينية المتطرفة » . ولكن في منتصف ١٩٤٤ كان الحزب الشيوعي الفلسطيني يفاوض في سبيل السماح لاعضائه بالدخول الى صفوف الهستدروت(٢١٠).

في نيسان (ابريل) ١٩٤٥ أنشأ سلونيم وتساباري (العضوان السابقان في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني الموحد) « الرابطة التربوية الشيوعية » (التي عرفت في ما بعد « بالحزب الشيوعي العبري ») . ولاول مرة اعترفت الرابطة بالوطن القومي اليهودي وصادقت على طلب الهجرة اليهودية الى فلسطين(٢١١). عمليا كان البرنامج « مطابقا للصهيونية » ، ومع ذلك فقد استمر الشيوعيون العبريون حتى العام ١٩٤٨ كمجموعة مستقلة ، عندما انضموا الى الحزب الشيوعي الفلسطيني والعصبة مشكلين بذلك الحزب الشيوعي الاسرائيلي .

لم يكن الحزب الشيوعي الفلسطيني صهيونيا ، وهو لم يؤيد « الدولة اليهودية » الا انه كان يتحرك باتجاه موقع الاعتراف « بالحقوق القومية » اليهودية في فلسطين الامر الذي اتخذ شكل طلب الحكم الذاتي للمناطق ذات الاغلبية اليهودية ، كما ان الحزب اقترح في ما بعد انشاء دولة فيدرالية(٢١٢). بقي الحزب غير صهيوني لكنه أخذ مع ذلك يطرح عنه تدريجيا معاداته الحادة السابقة للصهيونية . واستمر في طرح سياسات متناقضة ، ففي العام ١٩٤٦ كان لا يزال يدين برنامج بلتمور ويطالب بالتعاون مع الجماهير العربية « التي سنعيش معها الى الابد »(٢١٣). في تموز (يوليو) وتحت عنوان « خذوها الى الامم المتحدة » ذكرت « كول هاعام » ان الاعتداءات التي قامت بها السلطات العسكرية البريطانية ضد اليهود كان المقصود بها تلميحا للعرب على ان البريطانيين بجانبهم تشجيعا لهم للاستمرار في هجماتهم علــى اليهود . كما أدانــت اعتقال زعماء الييشوف وطالبت بنقل القضية الفلسطينية فورا الى مجــلس الامن . وفي كانون الاول (ديسمبر) من السنة نفسها اعلن ميكونيس ان المقاومة اليهودية ضد البريطانيين « فيها شيء من الاحتجــاج ضد الحكــم الاستعماري »(٢١٤). وهاجــم الجامعة العربية ، والوكالة اليهودية والزعماء الصهاينة على موقفهم من تحويــــل

القضية الفلسطينية الى الامم المتحدة مع ان « نفوذ القوى الديمقراطية الممثلة فيها يستطيع هناك ان يعطي ثماراً » .

وفي شباط (فبراير) ١٩٤٧ حضر ميكونيس مؤتمر الاحزاب الشيوعية في الامبراطورية البريطانية المنعقد في لندن تحت رعاية الحزب الشيوعي البريطاني(٢١٥) حيث تحدث عن « عنف البيشوف المبرر ضد الحكم الاستعماري » وهاجم الصهاينة « لسياساتهم الرجعية الهادفة لتحويل فلسطين الى دولة يهودية » . وقدم مطلب الديمقراطية والاستقلال اللذين لا يستطيع سواهما « ان يؤمن ازدهار العرب وتطورهم الحر »(٢١٦)، واعلن ان الحزب الشيوعي يعتقد بأنه « ليس بين العرب واليهود مصالح متناقضة » . وتركزت مطالب الحزب الفورية حول ابطال الانتداب والاجلاء الفوري للقوات ، وحول انه ينبغي وضع القضية امام مجلس الامن لكي يؤمن اقامة الدولة الديمقراطية المستقلة(٢١٧).

اكد الحزب الشيوعي الفلسطيني باستمرار وحتى ربيع ١٩٤٧ على شعار الوحدة بين العرب واليهود ، وشجب المساعي الاميركية والبريطانية الرامية للتوصل الى حل. واعلن فيلنر في تصريح له في ٢٥ آذار (مارس) ١٩٤٦ ان اللجنة الانكلو — اميركية ما هي الا مؤامرة اخرى « لضمان استمرار الوضع الراهن » ، كما وقف بشدة ضد اي مشروع للتقسيم لانه « سوف يشكل مصيبة للسكان اليهود والعرب على السواء »(٢١٨). ومع ذلك ففي تموز (يوليو) من العام ١٩٤٧ انقلب موقف الحزب راسا على عقب ، وفي تصريح امام لجنة الامم المتحدة وقف ميكونيس مع التقسيم(٢١٩).

علاقات العصبة مع الحزب الشيوعي الفلسطيني : فيما يختص بالاتصالات بين الجانبين سعى الشيوعيون اليهود منذ ١٩٤٤ للتعاون مع العصبة معتبرين ان هذه هي الطريقة الوحيدة لاقناع العرب واليهود بامكانية التعاون بينهما . ولم تستطع العصبة ان توافق على هذا المنطق على اساس ان مستوى الوعي عند الجماهير العربية منخفض(٢٢٠). لكن الشيوعيين اليهود استمروا في مساعيهم وفي المؤتمر التاسع للحزب (ايلول (سبتمبر) ١٩٤٥) ذكر في احدى المقررات « ان الحزب يعتبر الحاجة لبذل كل الجهود في تقريب التعاون مع العرب مهمة اساسية »(٢٢١). وقد كرر المؤتمر العاشر المنعقد في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٦ الحاجة الحيوية للوحدة ، ولضرورة تشكيل « حزب أممي » كأساس للتعاون بين العرب واليهود . وقد كانت النتائج العملية الوحيدة لذلك بعض البوادر من اجل ظهور مشترك كالمنشور الذي اصدروه في ١٨ نيسان (ابريل) ١٩٤٦ المتعلق باضراب موظفي الحكومة والموقع من الطرفين (٢٢٢).

وجدت العصبة انه من المستحيل التوصل الى تفاهم مع الحزب الشيوعي الفلسطيني . اذ انه عدا الخلافات المتعلقة بكتاب ١٩٣٩ الابيض وهجرة اللاجئين اليهود من اوروبا الى فلسطين كان بينهما المشكلة المتعلقة بشكل فلسطين المستقبل . فقد طالبت العصبة بفلسطين ديموقراطية مستقلة حيث يتمتع اليهود بالحقوق المدنية الكاملة ، بينما انتقل الحزب الشيوعي الفلسطيني للاقرار « بالحقوق القومية للشعبين بالبلاد »(٢٢٣). وقد كتب فلنر مؤخراً (وهو الامين العام للحزب الشيوعي الاسرائيلي الجديد ، وفيما بعد واحد من زعماء الحزب الشيوعي الفلسطيني) ان الحزب (المخلص للمبادىء الماركسية اللينينية ، المتعلقة بالمسألة القومية » قد طبق هذه المبادىء على الظروف المستجدة في فلسطين . فاليهود « مع انهم اقلية ، شكلوا في

ظروف البلاد الخاصة مركز التطور الصناعي الرأسمالي ومركز تطور البورجوازية والبروليتاريا على السواء » . وكل هذه العوامل « أدت الى تحويل البلاد من دولة وحيدة القومية الى واحدة ثنائية القومية وذلك نظرا لتشكل امة يهودية على جانب الامة العربية الفلسطينية »(٢٢٤) .

العصبة ، الحزب الشيوعي الفلسطيني والتقسيم : تجاهلت العصبة في البداية تصريح غروميكو في هيئة الامم المتحدة في أيار (مايو) ١٩٤٧ المؤيد للتقسيم واستمرت في الضغط من اجل دولة مستقلة موحدة . وفي ما بعد قامت محاولة لاظهار ان هذا الالتواء المستجد في السياسة السوفياتية ما هو الا تكتيك سياسي مؤقت ، ولم يحدث الا في تشرين الثاني (نوفمبر) ان بدأت العصبة تتفهم حقيقة التقسيم(٢٢٥) . وقد خلق قرار الامم المتحدة في تشرين الثاني انشقاقا داخل العصبة . فتجمعت فئة حول فؤاد نصار واميل حبيبي اللذين قبلا بقرار الامم المتحدة ، بينما عارضت هذا الخط الجديد فئة اخرى تجمعت حول مؤسسي العصبة بولس فرح ، واميل توما وموسى دجاني(٢٢٦) . وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨ عقدت العصبة مؤتمرا في الناصرة لرسم سياسة مشتركة أعلن فيه معظم المشتركين معارضتهم للتقسيم . الا أن مؤتمرا جديدا عقد في يافا بعد ذلك بشهرين قلب قرارات اجتماع الناصرة(٢٢٧) وازيحت مجموعة فرح — توما من القيادة وصنفوا « انحرافيين يمينيين »(٢٢٨) . وقد شاركت هذه المجموعة التي عارضت التقسيم في الدعوة الى اضراب عربي عام في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٧ وتطابقت كلية مع الحركة الوطنية . واستمرت هذه المجموعة في تسيير امور مؤتمر العمال العرب وارسلت رسالة تعزية للمفتي تعزيه فيها باستشهاد عبد القادر حسيني في معركة القسطل(٢٢٩) .

ونشطت كذلك مجموعة فؤاد نصار — اميل حبيبي التي اخذت تحرض ضد « الغزو » العربي ودعت الى سحب جيوش الجامعة العربية . وخاطب نصار « جمهورا كبيرا اجتمع في القدس » في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ مهاجما « الارهاب والمؤامرات الامبريالية لاغراق الشعب في حمام من الدم »(٢٣٠) . وقامت العصبة في هذه الاثناء بحملة دعائية نشطة ضد الجيوش العربية ، فوجهت رسالة الى « جنود الجيوش العربية » دعتهم فيها لمحاربة حكوماتهم التي ارسلتهم الى فلسطين عوضا عن ارسالهم للقتال ضد الامبريالية ، فأهداف تلك الحكومات موجهة لا لتحرير فلسطين وانما لحرف الكفاح من اجل التحرير في العالم العربي ، كما دعتهم الى « تحرير مصر وبقية العالم العربي من نير الامبريالية واذنابها »(٢٣١) . وقد اعتقل الكثير من مؤيدي التقسيم ، وسجنوا . فؤاد نصار نفسه القي القبض عليه في بيت لحم في تموز (يوليو) ١٩٤٨ بينما كان يوزع منشورا يطالب بانهاء « الغزو » وباقامة دولتين مستقلتين(٢٣٢) .

لم يكن لدى الشيوعيين اليهود تحفظات حول التقسيم وقد ايدوا بحماس قرار الامم المتحدة . وقد اصبح ميكونيس ، (امين الحزب) واحدا من واحد وثلاثين عضوا تشكل منهم مجلس الدولة المؤقت عندما أعلنت دولة اسرائيل(٢٣٣) . وفي نيسان (ابريل) ١٩٤٨ افهم ميكونيس الامبريالية البريطانية بمحاولة تخريب قرار الامم المتحدة ، لانها كانت تساعد مؤيدي المفتي لمنع قيام الدولتين العربية واليهودية المستقلتين . كما ادان ارهاب الارغون ، وعنف الهاغانا بشدة لعدم قيامها بمقاومة فعالة ضد البريطانيين . واعلن ، ان الحزب الشيوعي الفلسطيني بالاشتراك مع العصبة كانا يحاربان من اجل اقامة دولة عربية واخرى يهودية ، ووقفا ضد التحريض الشوفيني الذي كان يقوم به الزعماء الاقطاعيون والبورجوازيون القوميون .

واعلن ايضا ان المهمة الراهنة للحزب كانت اقامة جبهة ديموقراطية مــع الجنــاح التقدمي في الحركة الصهيونيــة (هاشومير هتسعير وأحدوت هعفودا)(٢٢٤). وفي مناسبة اعلان « الاستقلال » في ايار ١٩٤٨ اصدرت اللجنة المركزية للحزب تصريحــا رحبت فيه بانتهاء الانتداب البريطاني الذي « الغي بنضال اليشوف ومساعدة الاتحاد السوفياتي » . واعلن التصريح كذلك ان الحزب سيناضل من اجل حرية الشعــب العربي داخل الدولة ، ومن اجل التعاون مع البلدان العربية المجاورة بينما « على كل اليشوف ان يتوحدوا للنضال من اجل الحرية ... واي هجوم سوف يقابل معارضة من قبل كل الشعب .. تعيش الدولة اليهودية .. المجد للمدافعين عن الاستقــلال والمقاتلين في سبيلــه .. »(٢٢٥). ودعا الحــزب انصاره المتحمسين للاشتــراك في « الحرب الدفاعية » التي اطلقتها الامبريالية البريطانية ضد الدولة اليهودية الفتية ، بواسطة الجامعة العربية ، وأعلن ان التقسيم في الظروف القائمة هو « الحل الوحيد المعقول » . وأدان الحزب وقف اطلاق النار الذي انهى الجولة الاولى من القتال على انه ضد مصالح اسرائيل ، وأكد ان الشعب « سيتابع القتال حتى لا يدوس جنــدي اجنبي واحد على ارض فلسطين الطاهرة » . ووصف الصراع بأنه صراع « شعب محب للحرية ضد هؤلاء الذين يحاولون سلبنا حريتنا في بناء حياتنا القومية بســلام » ودعا تقدميي العالم بأسره للنضال من أجل الاعتراف باسرائيل « ورفع الحظر عــلى شحن الاسلحة »(٢٢٦). وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٨ التقت العصبة والحــزب الشيوعي الفلسطيني اللذين كانا قد وحدهما تأييدهما المشترك للتقسيــم . وانتهى بذلك الخلاف بين شقي العصبة (تقاعد بولس فرح عن النشاط الحزبي بينما تراجع اميل توما عن ارائه وانضم الى الحزب الشيوعي الاسرائيلي) . ونشرت الامــانة العامة للعصبة نقدا ذاتيا صارما لنشاطاته السابقة(٢٢٧). وأقرت ان وجــود حزبين منفصلين على اساس قومي يبطل الشعار الشيوعي الداعي الى جبهة عربية يهودية ضد الامبريالية وان هذا الوجود قد منع العصبة « من ادراك بلورة الشعب اليهودي الى مجموعة قومية » . وانتقدت العصبة جهودها السابقة في تشجيع الوحدة الوطنية مع « الزعماء البورجوازيين الاقطاعيين القوميين بدلا من شجبها » . ومع هذا التنكر لماضيها انضمت العصبة الى الحزب الشيوعي الفلسطيني (الذي شهد هو بــدوره تحولا سياسيا تدريجيا) وتهيأ للدور الجديد الــذي كان ينتظرهمــا في « المغامــرة الصهيونية » التي حولتها مجموعة القوى الجديدة والظروف المتغيرة الى « الرغبات القومية المشروعة للسكان اليهود في فلسطين » .

---

١ — **تقرير عن النشاط الشيوعي في فلسطين** ، قدمه لورد بلامر الى وزير المستعمرات في تشرين الاول ، اكتوبر ١٩٢٧ ، صفحة ٥ .

٢ — م. فيلنــر ، محاضرة في آذار (مارس) ١٩٧٠ بمناسبة مرور ٥٠ عاما على الحزب . نشرت تحت عنوان « **خمسون عاما من حياة الحزب الشيوعي في فلسطين** » ، حيفا ١٩٧٠ ، صفحة ٢٥ .

٣ — فيلنر ، صفحة ٢٥ .

٤ — فيلنر ، صفحة ٢٦ .

٥ — فيلنر ، صفحة ٢٩ .

٦ — فيلنر ، صفحة ٣٠ .

٧ — فيلنر ، صفحة ٣١ .

٨ — رسالــة في ٢٥ آب (اغسطس) ١٩٢٠ ارسلها مايرسون من فينا ، مذكورة في فيلنر ، صفحة ٣١ .

٩ — رسالة مايرسون ، فيلنر صفحة ٣٢ .

١٠ — فيلنر ، صفحة ٣٢ .

١١ — فيلنر ، صفحة ٣٣ .

١٢ — فيلنر ، صفحة ٣٣ .

١٣ — فيلنر ، صفحة ٤٠ .

١٤ — تقرير بلامر ، صفحة ٨ . طلب الكومنترن

من « عمال صهيون » ان يتبنى سياسات معينة في مسائل الهجرة ، ومسألة تغيير اسمه .
١٥ — تقرير بلامر ، صفحات ٨ — ١٤ ، فيلنر ، صفحة ٢٣ .
١٦ — **الاممية الشيوعية**، مجلد ٣ ، عدد ١٦/١٧، ١٩٢١ ، ص ١٢٣ .
١٧ — فيلنر ، صفحة ٤٠ .
١٨ — « من المؤتمر الدولي الرابع للكومنترن الى المؤتمر الخامس » تقرير ECCI ، صفحة ٦٦ . تقرير بلامر ، صفحة ٢٠ .
١٩ — فيلنر ، صفحة ٤٠ .
٢٠ — تقرير عن البرنامج مبني على تقرير بلامر ، صفحات ١١ — ١٣ .
٢١ — فيلنر ، صفحة ٤٠ .
٢٢ — فيلنر ، صفحة ٣٤ .
٢٣ — فيلنر ، صفحة ٣٧ . تقرير الـ ECCI « الكومنترن بين المؤتمرين الخامس والسادس » يذكر نهاية ١٩٢٢ كتاريخ لذلك ، صفحة ٤١٧ .
٢٤ — تقرير بلامر ، صفحة ١٥ .
٢٥ — تقرير بلامر ، صفحة ٥٢ .
٢٦ — فيلنر ، صفحة ٤٠ . تقرير بلامر يذكر حزيران ١٩٢٤ ، كتاريخ ، صفحة ١٩ .
٢٧ — « من المؤتمر الرابع الى المؤتمر الخامس للكومنترن » . لندن ١٩٢٤ . تقرير ECCI صفحة ٦٧ .
٢٨ — يذكر فيلنر ان وفدا عربيا تحدث امام المؤتمر . صفحة ٤٠ .
٢٩ — تقرير بلامر ، صفحة ١٩ .
٣٠ — تقرير بلامر ، صفحة ٣٨ .
٣١ — تقرير ECCI « الكومنترن بين المؤتمرين الدوليين الخامس والسادس » . لندن ١٩٢٨ ، صفحة ٤١٧ . يذكر لاكير ان مجلة « المنبه » صدرت أواخر العشرينات ، وان جبران نقولا كان محررا لها ، وهو لم يكن عضوا في الحزب ذلك الوقت (اتصال شخصي مع جبران نقولا) ويدل هذا على واحد من عدة اخطاء يرتكبها لاكير . تقرير بلامر يذكر « المنبه » ولا يعطي تفاصيل ، صفحة ٤٣ .
٣٢ — تقرير بلامر ، صفحة ٤٤ .
٣٣ — تقرير بلامر ، صفحة ٣٣ . يذكر توصية راديك الى الحزب الشيوعي الفلسطيني بخصوص مخاطر سياسة الجبهة المتحدة والتحذيرات الضرورية لذلك .
٣٤ — تقرير بلامر ، صفحة ٣٣ .
٣٥ — تقرير بلامر ، صفحة ٤٥ .
٣٦ — **المراسلات الصحفية الدولية** (اسبوعية للكومنترن) سنذكرها لاحقا في الهوامش بمختصر (م. ص. د.) ، عدد ٥ ، ١٩٢٥ ، صفحة ٤٣ .
٣٧ — م. ص. د. ، عدد ٤٤ ، ١٩٢٦ ، صفحة ٧٢٦ .
٣٨ — م. ص. د. ، عدد ٦٨ ، ١٩٢٦ ، صفحة ١١٨٤ . من المحتمل ان يكون حمدي الحسيني من حزب الاستقلال .
٣٩ — م. ص. د. ، عدد ٧١ ، ١٩٢٦ ، صفحة ١٢٣٧ .
٤٠ — م. ص. د. ، عدد ٧٠ ، ١٩٢٦ ، صفحة ١٤٧٨ .
٤١ — م. ص. د. ، عدد ٤٨ ، ١٩٢٨ ، صفحة ٨٥١ .
٤٢ — م. ص. د. ، عدد ١ ، ١٩٢٩ ، صفحة ١٥ .
٤٣ — و. لاكير ، **الشيوعية والقومية في الشرق الاوسط** ، لندن ١٩٦١ ، صفحات ٧٩ — ٨٠ .
٤٤ — م. ص. د. ، عدد ١، ١٩٢٩، صفحة ١٥.
٤٥ — م. ص. د. ، عدد ٢٩ ، ١٩٢٩ ، صفحة ٦٤٧ . لا كير ، صفحة ٨٠ . الانحرافيون اليمينيون تمسكوا بتحليل اورباخ . والاخير استدعي الى موسكو سنة ١٩٢٩ .
٤٦ — **مؤسسة اسكو من اجل فلسطين** ، الجزء الثاني ، صفحة ٧٨٠ .
٤٧ — م. ص. د. ، عدد ٥٠ ، ١٩٢٩ ، صفحة ١٠٥٨ .
٤٨ — م. ص. د. ، عدد ٥٠ ، ١٩٢٩ ، صفحة ١٠٥٨ .
٤٩ — م. ص. د. ، « الثورة في فلسطين » ، اعداد ٥٤ و٥٦ ، ١٩٢٩ .
٥٠ — م. ص. د. ، عدد ٥٤ ، ١٩٢٩ ، صفحة ١١٦١ .
٥١ — م. ص. د. ، عدد ٥٤ ، ١٩٢٩ ، صفحة ١١٦٣ .
٥٢ — م. ص. د. ، عدد ٥٤ ، ١٩٢٩ ، صفحة ١١٦٣ .

٥٣ — م. ص. د. ، عدد ٥٦ ، ١٩٢٩ ، صفحة ١٢٢٠ .

٥٤ — م. ص. د. ، عدد ٥٦ ، ١٩٢٩ ، صفحة ١٢٢١ . وصف حمدي الحسيني كـ « زعيم الجناح الوطني الثوري للعرب » وعزي اليه التصريح عن « ضرورة خلق انتفاضة معادية للامبريالية عوضا عن قتل السكان اليهود الابرياء . » الزعيم الوحيد الذي لم يهاجم .

٥٥ — م. ص. د. ، عدد ٦١ ، ١٩٢٩ ، صفحة ١٣٢١ .

٥٦ — م. ص. د. ، عدد ٦١ ، ١٩٢٩ ، صفحة ١٣٢١ . عبرت الجمعية الموسعة عن رأيها في أن « معدل سرعة توسع الحزب بين الطبقة العاملة العربية يجب ان يدفع الى اقصى مداه » .

٥٧ — م. ص. د. ، عدد ٣ ، ١٩٣١ ، صفحة ٦٤ . ايضا ا. سبكتر ، « **الاتحاد السوفياتي والعالم الاسلامي ١٩١٧ — ١٩٥٨** » ، واشنطن ١٩٦٧ ، صفحة ١٢٩ .

٥٨ — م. ص. د. ، عدد ٤٩ ، ١٩٣٠ ، صفحة ١٠١٨ . مقال عن فلسطين يذكر « قرار الـ ECCI عن حركة الثورة في البلاد العربية » مؤرخ في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٩ .

٥٩ — **بوراث** (دورية عبرية) « الثورة والارهاب في الحزب الشيوعي الفلسطيني ١٩٢٩ — ١٩٣٩ » . هامبزراح هاداش . مجلد ١٨ ، عدد ٣/٤ ، ١٩٦٨ ، صفحة ٢٥٩ ، يذكر المقال انه في العام ١٩٢٩ ، اختبأت اللجنة المركزية في احدى القرى العربية .

٦٠ — **بوراث** ، صفحة ٢٥٩ .

٦١ — اتصال شخصي مع احد اعضاء الحزب العرب .

٦٢ — **بوراث** ، صفحة ٢٥٩ ، كان بين العرب نجاتي صدقي ، وم. مغربي .

٦٣ — م. ص. د. ، عدد ١١ ، ١٩٣١ ، صفحة ٢١٥ .

٦٤ — م. ص. د. ، عدد ٢٨ ، ١٩٣١ ، صفحة ٥١٥ . (صدقي ومغربي) .

٦٥ — **بوراث** ، صفحة ٢٦٠ . (كامل عوده ، عثمان زعرور ، سهيل ترسيسي) .

٦٦ — **بوراث** ، صفحة ٢٦٠ . يبدو ان بوراث هنا تبالغ في قوة الحزب .

٦٧ — **بوراث** ، صفحة ٢٦٠ . (اتصال شخصي مع احد اعضاء الحزب القدامى) . برمان خلف برغر ، الذي استدعي لموسكو . خلال كل هذه الفترة كان الاعضاء اليهود في اللجنة المركزية مثر سلونيم وسيمحا تساباري .

٦٨ — « مهمات الحزب الشيوعي الفلسطيني في الريف » ، قرارات المؤتمر السابع للحزب ، كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٠ ، اقتبسها سبكتر ، صفحات ١٥٦ — ١٦٠ .

٦٩ — منشور بالعربية للحزب الشيوعي الفلسطيني مؤرخ أول كانون الثاني (يناير) ١٩٣٠ .

٧٠ — الحزب الشيوعي الفلسطيني ، قرارات المؤتمر ، اقتباس سبكتر ، صفحة ١٥٦ .

٧١ — **المرجع نفسه** ، صفحة ١٥٧ .

٧٢ — **المرجع نفسه** ، صفحة ١٥٨ .

٧٣ — مهمات الحزب الشيوعي الفلسطيني ، كما ورد في سبكتر ، صفحة ١٥٩ .

٧٤ — **المرجع نفسه** ، صفحة ١٦٠ .

٧٥ — « العمل بين الفلاحين والنضال ضد الصهيونية » . موضوعة وافقت عليها أمانة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني . سبكتر ، صفحات ١٦١ — ١٧٨ .

٧٦ — **المرجع نفسه** ، صفحة ١٧٥ .

٧٧ — « المسالة القومية في المؤتمر السابع للحزب » ، م. ص. د. ، عدد ٣ ، ١٩٣١ ، صفحة ٦٤ .

٧٨ — بوراث ، صفحة ٢٦١ .

٧٩ — « مهمات الشيوعيين في عموم الحركة الوطنية العربية » ، قرار تبناه مؤتمر الحزبين الشيوعيين السوري والفلسطيني سنة ١٩٣١ . كما ورد في سبكتر ، صفحات ١٢٩ — ١٤٠ .

٨٠ — **المرجع نفسه** ، صفحة ١٣٤ .

٨١ — **المرجع نفسه** ، صفحة ١٣١ .

٨٢ — م. ص. د. ، عدد ٤١ ، ١٩٣٠ ، صفحة ٨٦٥ .

٨٣ — م. ص. د. ، عدد ٤٣ ، ١٩٣٠ ، صفحة ٩٠٧ .

٨٤ — « مهمات الشيوعيين ... » ، سبكتر ، صفحة ١٣٧ .

٨٥ — « الاممية الشيوعيـة » ، كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٠ ، صفحة ٣٠٣ . هجوم على حمدي الحسيني .
٨٦ — م. ص. د. ، عدد ٦٣ ، ١٩٣١ ، صفحة ١١٤١ . أيضا ، منشور مؤرخ نيسان (ابريل) ١٩٣٢ .
٨٧ — **بوراث** ، صفحة ٢٦٢ .
٨٨ — منشور باللغة العبرية الاوروبية الشرقية ، نيسان (ابريل) ١٩٣٢ ، اقتباس **بوراث** ، صفحة ٢٦٢ .
٨٩ — منشور بالعبرية ، نيسان (ابريل) ١٩٣٢.
٩٠ — منشور بالعربية ، كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٢ . (بمناسبة ذكرى ثورة اكتوبر) .
٩١ — منشور بالعربية ، كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٢ « ضد الاستيلاء الصهيوني على العمل ».
٩٢ — محاكمة نستزيونـا ، نيسان (ابريل) ١٩٣٢ ، ورد في فلنر ، صفحة ٤١ .
٩٣ — منشور بالعبرية ، آذار (مارس) ١٩٣٣ ، ورد في **بوراث** ، صفحة ٢٦٢ .
٩٤ — منشور بالعربية نيسان (ابريل) ١٩٣٣ .
٩٥ — م. ص. د. ، عدد ١٤٨ ، ١٩٣٣ ، صفحة ١٠٥٨ .
٩٦ — **المرجع نفسه** .
٩٧ — **بوراث** ، صفحة ٢٦٣ .
٩٨ — م. ص. د. ، عدد ٢٨ ، ١٩٣٦ ، صفحة ٧٥١ .
٩٩ — م. ص. د. ، عدد ٣٣ ، ١٩٣٥ ، صفحة ٨٥٦ .
١٠٠ — م. ص.د. ، عدد ٣٦ ، ١٩٣٥ ، صفحة ٩٤٨ .
١٠١ — م. ص. د. ، عدد ٣٤ ، ١٩٣٥ ، صفحة ٨٨٤ .
١٠٢ — م. ص. د. ، عدد ٣٦ ، ١٩٣٥ ، صفحة ٩٤٤ .
١٠٣ — م. ص. د. ، عدد ٦٢ ، ١٩٣٥ ، صفحة ١٥٤١ .
١٠٤ — منشور للحزب الشيوعي الفلسطيني : « شعارنا ، من أجل وحدة كل العرب وأصدقائهم ضد الامبريالية ، من اجل تحقيق الوطن العربي الكبير المحرر ، مع أثيوبيا ، والصين الحمراء ، واقامة سوفياتات في كل مكان » ، اللجنـة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني ، تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٥ .
١٠٥ — **المرجع نفسه** ، صفحات ٦ — ١٠ .
١٠٦ — **المرجع نفسه** ، صفحات ١٠ — ١٤ .
١٠٧ — منشور للحزب الشيوعي الفلسطيني : « من أجل وحدة كل العرب ... » ، تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٥ ، صفحة ١٥ .
١٠٨ — **المرجع نفسه** ، صفحة ١٧ .
١٠٩ — **المرجع نفسه** ، صفحة ١٩ .
١١٠ — **المرجع نفسه** ، صفحة ١٨ .
١١١ — **بوراث** ، صفحة ٢٦٤ .
١١٢ — م. ص. د. ، عدد ٢٨ ، ١٩٣٦ ، صفحة ٧٥١ .
١١٣ — م. ص. د. ، عدد ٢٥ ، ١٩٣٦ ، صفحة ٦٧٩ .
١١٤ — م. ص. د. ، عدد ٣٢ ، ١٩٣٦ ، صفحة ٨٨٤ .
١١٥ — م. ص. د. ، عدد ٣٠ ، ١٩٣٦ ، صفحة ٨٠٥ .
١١٦ — مقال غير موقع ولا يتناسب مـع الصورة العامة ، ظهر في م. ص. د. امتدح عمل الرواد اليهود « لعملهم الجاد ومثاليتهم الرائعة » ، كما امتدح النقابات اليهودية لتأثيرها الخير على العرب ، عدد ٢٧ ، ١٩٣٦ .
١١٧ — م. ص. د. ، عدد ٣٣ ، ١٩٣٦ ، صفحة ٨٨٥ .
١١٨ — **بوراث** ، صفحة ٢٦٥ .
١١٩ — (اتصال شخصي). لا كير ، صفحة ٩٨ .
١٢٠ — اعتبر نمر عودة في ما بعد بأنه تسرب الى الحزب كعميل للمنتي .
١٢١ — م. ص. د. ، عدد ٤٣ ، ١٩٣٧ ، صفحة ٩٧١ .
١٢٢ — **بوراث** ، صفحة ٢٦٥ .
١٢٣ — مجلـة **« اخبـار ونظرات دوليـة »** World News and Views ، عدد ٤٠ ، ١٩٣٨، صفحة ٩٣٨ .
١٢٤ — **« اخبار ونظرات دولية »** ، عدد ٣٥ ، ١٩٣٨ ، صفحة ٨٣٧ .
١٢٥ — **« اخبار ونظرات دولية »** ، عدد ٥٥ ، ١٩٣٨ ، صفحة ١٢٦٣ .
١٢٦ — **« الاممية الشيوعية »** ، ١٩٣٨ ، صفحة ١٠٦٤ ، وعدد ١ ، ١٩٣٩ ، صفحة ٤٠ .

١٢٧ — « **الاممية الشيوعية** » ، عدد ٦ ، ١٩٢٩، صفحة ٤٧٩ .

١٢٨ — **بوراث** ، صفحة ٢٦٦ .

١٢٩ — **بوراث** تذكر في العدد المذكور ان هذا النقد الداخلي لم ينشر حتى تموز (يوليو) ١٩٤٤ في رسالة الى الهستدروت .

١٣٠ — اميل توما ، « **جذور القضية الفلسطينية** » حيفا ، ١٩٧٢ ، صفحة ٢٦١ .

١٣١ — (اتصال شخصي مع عضو تديسم في الحزب) .

١٣٢ — اميل توما، « **جذور المسالة الفلسطينية**»، ص ٢٧٩ ، حيفا ١٩٧٢ .

١٣٣ — « مذكرة القسم اليهودي الى الكومنترن »، اقتباس « بوراث » « عصبة التحرر الوطني ، ١٩٤٣ — ١٩٤٨ » ، **مجلة دراسات افريقية وآسيوية** ، مجلد ٤ ، ١٩٦٨ ، ص ٢ .

١٣٤ — كول هاعام ، كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٠ ، اقتباس الحكم دروزة « **الشيوعية المحلية** » ، ص ٢٨٠ ، بيروت ١٩٦٣ .

١٣٥ — **نفس المرجع** .

١٣٦ — ي. هيروويتز، « **الصراع على فلسطين** »، نيويورك ١٩٥٠ ، ص ١٢٢ .

١٣٧ — بوراث ، « عصبة التحرر الوطني ...»، ص ٢ .

١٣٨ — عبد القادر ياسين ، « الحزب الشيوعي الفلسطيني والمسألة القومية » ، **الكاتب** ، عدد ١٢٣ ، حزيران ١٩٧١ ، ص ١٤٤ .

١٣٩ — بوراث « عصبة التحرر الوطني ... » ، ص ٣ .

١٤٠ — انتخب ميكونيس عضوا للجنة المركزية خلال فترة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ .

١٤١ — بوراث « عصبة التحرر الوطني ... » ، ص ٣ .

١٤٢ — تقرير المخابرات عن الشيوعيين العرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٢ — أيار (مايو) ١٩٤٦ » تدمته الوكالة اليهودية الى المخابرات البريطانية ، حزيران ١٩٤٦ . السجلات الصهيونية ، ص ١ .

١٤٣ — بوراث ، « عصبة التحرر الوطني ...»، ص ٤ .

١٤٤ — أ. بندك و ي. ارماني ، واميل حبيبي (ليس عضوا في اللجنة المركزية) ، تقرير المخابرات ، ص ٢ .

١٤٥ — اقتباس بوراث «عصبة التحرر الوطني...» ص ٤ .

١٤٦ — **نفس المرجع** ، ص ٥ .

١٤٧ — « **تقرير المخابرات** ...» ، ص ٣ .

١٤٨ — بوراث ، « عصبة التحرر الوطني ...»، ص ٥ .

١٤٩ — م. ايبون ، « تكتيك الشيوعيين في فلسطين » ، **مجلة الشرق الاوسط** ، ١٩٤٨ ، عدد ٣ ، ص ٢٥٧ .

١٥٠ — « بيان وتقرير » لجمعية الطلاب العرب ، اقتباس بوراث، « عصبة التحرر الوطني...»، ص ٦ .

١٥١ — يرئسها أ. بندك (كان في أحد المرات عضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني) ، واميل توما .

١٥٢ — « **نضال الشعب** » (الصحيفة العربية للحزب الشيوعي الفلسطيني) ، عدد ٢٤ آذار ١٩٤٣ .

١٥٣ — أسسها بولس فرح ، (عضو سابق في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني) طرد من الحزب سنة ١٩٤٠ ، واميل توما في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٢ . « **تقرير المخابرات** » ، ص ٢ .

١٥٤ — « **نضال الشعب** » ، عدد ٤ ، آذار ١٩٤٣ . أسسها اميل حبيبي وس. تبلان في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٢ . « **تقرير المخابرات** » ، ص ٢ .

١٥٥ — اميل توما، « **جذور المسالة الفلسطينية** » ص ١٨٠ .

١٥٦ — **المرجع نفسه** ، ص ٢٨١ .

١٥٧ — هيروويتز ، ص ١٢٢ . أسسها بولس فرح ، واميل توما .

١٥٨ — بوراث ، « عصبة التحرر الوطني ...»، ص ٨ .

١٥٩ — هيروويتز ، ص ١٢٢ .

١٦٠ — « الميثاق الوطني » .

١٦١ — **المرجع نفسه** ، المواد ١ و٣ ، ص ٣ .

١٦٢ — **المرجع نفسه** ، المادة ٢ ، ص ٣ .

١٦٣ — **المرجع نفسه** ، الاهداف الاقتصادية ، المواد ١ و٢ و٣ ، ص ٤ .

١٦٤ — **المرجع نفسه** ، ص ٥ .
١٦٥ — **المرجع نفسه** ، النظام الاساسي ، القسم الثالث ، ص ٦ — ٧ .
١٦٦ — **المرجع نفسه** . القسم الثاني ، مادة ٢ ، ص ٦ .
١٦٧ — « **تقرير المخابرات** » ، ص ٣ .
١٦٨ — عبد القادر ياسين ، ص ١٤٥ .
١٦٩ — « **تقرير المخابرات** » ، ص ٦ .
١٧٠ — **المرجع نفسه** .
١٧١ — بورات ، « **عصبة التحرر الوطني** ...» ، ص ١١ .
١٧٢ — عبد القادر ياسين ، ص ١٤٥ .
١٧٣ — « **القضية الفلسطينية وطريقة حلها** » ، مذكرة أرسلها امين العصبة الى كلمنت اتلي ، ١٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٥ ، ص ٤ ، (بالعربية) .
١٧٤ — **المرجع نفسه** ، ص ٧ .
١٧٥ — **المرجع نفسه** ، ص ٩ .
١٧٦ — **المرجع نفسه** ، ص ٩ .
١٧٧ — **المرجع نفسه** ، ص ١٥ .
١٧٨ — **المرجع نفسه** ، ص ١٦ .
١٧٩ — **المرجع نفسه** ، ص ١٨ و١٩ .
١٨٠ — منشور مؤرخ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٥ ، « لا حل غير الاستقلال » ، ورد في ياسين ، ص ١٤٩ .
١٨١ — **الميثاق الوطني** ، ص ٣ .
١٨٢ — « **الاتحاد** » ، عدد ٢ ، ٢١ ايار (مايو) ١٩٤٤ ، اقتباس بورات « عصبة التحرر الوطني ... » ، ص ١٣ .
١٨٣ — « **الاتحاد** » ، عدد ١٤ ، ٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٥ ، ورد في ياسين ، ص ١٤٧ .
١٨٤ — « **طريق فلسطين للحرية** » ، مذكرة الى الامم المتحدة (انسكوب Unscop) ، آب ١٩٤٧ ، ص ٧٤ .
١٨٥ — تصريح للمكتب السياسي في ١١ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٦ في « **الفجر الجديد** » ، ٢٣ كانون الثاني ١٩٤٦ ، اقتباس ياسين ، ص ١٥٠
١٨٦ — « **الفجر الجديد** » ، ٣٠ كانون الثاني ١٩٤٦ ، اقتباس ياسين ، ص ١٥٠
١٨٧ — « **الاتحاد** » ، ٢٦ ايار (مايو) ، ٢٦ حزيران (يونيو) ١٩٤٦ . اقتباس بورات ، ص ١٤ .
١٨٨ — « تصريح امين العصبة » في « **الفجر الجديد** » ، ٦ آذار (مارس) ١٩٤٦ ، اقتباس ياسين ، ص ١٥١ .
١٨٩ — بورات « **عصبة التحرر الوطني** ... » ، ص ١٤ — ١٥ .
١٩٠ — رفضت الفكرة عندما طرحت اول مرة للتصويت في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٥ .
١٩١ — « **طريق فلسطين للحرية** »آب (أغسطس) ١٩٤٧ ، (قرار المقاطعة اتخذ تمشيا مع باقي الحركة الوطنية) .
١٩٢ — اميل توما في « **نتكلم عن الحرية** » ، تقرير مؤتمر الاحزاب الشيوعية للامبراطورية البريطانية ، لندن ، شباط (فبراير) / آذار (مارس) ١٩٤٧ ، ص ٧٠ .
١٩٣ — **المرجع نفسه** ، ص ٧١ — ٧٢ .
١٩٤ — « **طريق لفسطين للحرية** » ، ص ٦٨ — ٦٩ .
١٩٥ — **المرجع نفسه** ، ص ٧٠ .
١٩٦ — تصريح أصدرته أمانة العصبة ، الخامس من أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧ ، بمناسبة نشر نتائج تحقيقات الانسكوب Unscop .
١٩٧ — « **الاتحاد** » ، عدد ١ ، ١٤ ايار (مايو) ١٩٤٤ .
١٩٨ — بورات ، « **عصبة التحرر الوطني** ...» ، ص ١١ .
١٩٩ — « **تقرير المخابرات** » ، ص ٤ .
٢٠٠ — « **تقرير المؤتمر الدولي للنقابات** » ، شباط (فبراير) ١٩٤٥ ، لندن .
٢٠١ — « مؤتمر العمال العرب » ، « **تقرير المخابرات** » ، ص ٥ .
٢٠٢ — عبد القادر ياسين ، ص ١٤٦ . (وسافر وفد الجناح اليميني ايضا الى باريس واتخذ مركز مراقب) .
٢٠٣ — بورات ، « **عصبة التحرر الوطني** ...» ، ص ١٢ .
٢٠٤ — « **تقرير المخابرات** » ، ص ٥ .
٢٠٥ — بورات ، « **عصبة التحرر الوطني** ...» ، ص ٢٠ .
٢٠٦ — ادعى المؤتمر ان العدد كان ٢٠،٠٠٠ عضو .

٢٠٧ — اتخذ المؤتمر دورا فعالا في العام ١٩٤٩ اثناء اضراب موظفي الحكومة وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٤٦ اثناء اضراب العمال في معسكرات الجيش البريطاني .

٢٠٨ — « تقرير الحزب الشيوعي الفلسطيني حول المؤتمر الثامن للحزب » ، مجلة « **أخبار ونظرات دولية** » ، عدد ٣٣ ،١٩٤٤، ص ٢٦١.

٢٠٩ — هوروويتز ، ص ٢٠٣ .

٢١٠ — **المرجع نفسه** . ص ٢٠٨ .

٢١١ — لاكير ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .

٢١٢ — بورات ، « **عصبة التحرر الوطني ...**»، ص ١٩ .

٢١٣ — أ. فيلنسكا ، « من هم أصدقاؤنا » ، في الـ « **جويش كلاريون** » ، كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٦ .

٢١٤ — س. ميكونيس ، « حرروا فلسطين » في « **الجويش كلاريون** » ، كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٦ .

٢١٥ — ميكونيس ، « نتكلم عن الحرية » ، **تقرير المؤتمر ...** ، ص ٦٦ .

٢١٦ — ميكونيس ، **خطاب في مؤتمر لندن** ، ص ٦٧ .

٢١٧ — **المرجع نفسه** ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

٢١٨ — م. ايبون ، التكتيك الشيوعي ... » ، ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

٢١٩ — مجلة « نيو ليدر » (القائد الجديد) ١٣ كانون الاول (ديسمبر) ، ١٩٤٧ ، ص ١٨ ، اقتباس ايبون ، ص ٢٦٢ .

٢٢٠ — بورات ، « **عصبة التحرر الوطني ...**»، ص ١٧ .

٢٢١ — **المرجع نفسه** .

٢٢٢ — « **تقرير المخابرات** » ، ص ٦ .

٢٢٣ — فيلنر ، « **محاضرة بمناسبة الذكرى السنوية للحزب** » ، ص ٤٥ .

٢٢٤ — **المرجع نفسه** ، ص ٤٩ .

٢٢٥ — بورات ، « **عصبة التحرر الوطني** » ، ص ١٥ .

٢٢٦ — عبد القادر ياسين ، ص ١٥٣ .

٢٢٧ — **المرجع نفسه** ، ص ١٥٤ .

٢٢٨ — بورات ، « **عصبة التحرر الوطني** » ، ص ١٦ .

٢٢٩ — « **الدفاع** » ، ١٨ نيسان (ابريل)، ١٩٥٨، اقتباس كابليوك « عندما أيد الشيوعيون الدولة اليهودية » ، مجلة « **نيو آوتلوك** » ، عدد ٩ ، كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٢ ، ص ٩٠ .

٢٣٠ — كابليوك ، ص ٩٠ .

٢٣١ — منشور (غير مؤرخ) أصدرته العصبة في « **الجويش كلاريون** » ، عدد ٣٦ ، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٨ .

٢٣٢ — كابليوك ، ص ٩٠ .

٢٣٣ — م. ايبون ، ص ٢٦٢ .

٢٣٤ — ميكونيس ، في « من أجل سلام دائم ، من أجل ديموقراطية شعبية »، مجلة **الكومينفورم** عدد ٨ ، ١٥ نيسان (ابريل) ١٩٤٨ .

٢٣٥ — م. ايبون ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ . «**الشيوعيون الفلسطينيون يحيون اليوم العظيم**» ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨ .

٢٣٦ — ميكونيس ، « سوف نتابع النضال حتى لا يطأ جندي أجنبي ارضنا الحبيبة» في «**الجويش كلاريون** » ، عدد ٣٣ ، آب (أغسطس) ١٩٤٨.

٢٣٧ — كول هاعام ، ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٨ . اقتباس بورات ، ص ٢٠ .

فقيدان فلسطينيان كبيران:
عبد الحميد شومان ومحمد علي الطاهر

بيـــان نويهض الحوت
و الدكتورة خيرية قاسمية

فقد الفلسطينيون ، وسائر العرب ، في أوائل سبتمبر ١٩٧٤ شخصيتين فلسطينيتين بارزتين ، ترك كل منهما أثره في الحياة العامة في فلسطين وفي دنيا العرب ، الاول ، عبد الحميد شومان ، في عالم المال والاقتصاد ، والثاني ، محمد علي الطاهر ، في عالم التاليف والصحافة ، الى جانب اسهام الاثنين معا في الحركة الوطنية الفلسطينية في فلسطين وفي ديار النزوح ، سواء قبل النكبة او بعدها .

[١]

عبد الحميد شومان ... عائد الى الوطن

عاد الى الوطن مرتين . قهر البحار والحواجز والغربة ، وعاد مرتين . الاولى كانت عام ١٩٢٩ ، يوم عاد من المهجر اثر غياب طويل ، ولم تكن العودة من المهاجر الى الاوطان سهلة في ذلك الزمن ، فقد كانت الدوافع للبقاء كثيرة . المال يغري بالمال ، حتى يستعبد المال الرجال ، الا هو ومن كان على شاكلته ، يستعبدون المال ولا يستعبدهم ، يستعبدون الحياة ولا تستعبدهم . يؤمنون بمثل وقيم محدودة ، وهم عنها لا يتبدلون . وهكذا عاد في المرة الاولى ليحقق الحلم الذي اراده حقيقة مجسدة يخدم بها ابناء وطنه ، عاد ليؤسس البنك العربي ، اول مصرف عربي في فلسطين .

وبالامس ، كانت عودته الثانية . وبين العودتين ، اكثر من أربعين عاما ، بنى خلالها عبد الحميد شومان مملكة البنك العربي ، فاستحق العـــودة الى الوطن مرفوعا على الاكتاف . لقد استحق هذا الفلسطيني الذي هاجر مرتين ، ان يعبر نعشه الجسر ، وان يدفن داخل أسوار المسجد الاقصى .

ومن من ابناء فلسطين لا يحبها ، ولا يعشقها ؟ لقد كان عبد الحميد شومان واحدا منهم ، الا انه كان لحبه ــ وهو الصامت الصارم في ابـــداء عواطفه ــ كان له لون فريد . كان حبه لها يتعايش في ذاته اينما ذهب ، نراها في الملفات ، في الحقائب ، في الوجوه ، ويعترف له الجميع بأنه ما صد أبواب مؤسساته يوما في وجه فلسطيني جدير بالعمل .

لقد بنى هذا المهاجر القروي من بيت حنينا ، بنى لفلسطين ــ وقد ذهبت فلسطين ــ أجنحة في العالم العربي ، وحتى في اوروبا ، وقد بناها في أشد أعوام اللجوء ظلاما ، وبناها يوم كانت كلمة « اللاجئين » وحدها هي العنوان والبديل لكلمة « فلسطين » .

من هو شومان ؟ ولد عام١٨٨٨ في بيت حنينا(١)،

وفي بيت قروي بسيط ، كان والده يتاجر بالاغنام والحبوب ، فيطول غيابه عن البيت ، ومن هنا عرف عبد الحميد في طفولته أمه أكثر مما عرف أباه ، وقد كان ترتيبه في العائلة الولد الثالث .

يومذاك لم تكن وسائل التعليم أكثر من مستوى الكتاب ، حيث يتعلم التلاميذ في غرفة واحدة ، ومن أعمار مختلفة ، على ايدي شيوخ الكتاب تلاوة القرآن الكريم والقراءة وبعض الحساب .

وكان من حظ الصبي عبد الحميد معلم شيخ قاسي القلب ، يضرب تلاميذه ، فامتنع عن الذهاب الى « المدرسة » غير آسف ، ومنذ ذلك الوقت ، منذ كان في الرابعة عشرة ، تنتهي سيرة حياته الدراسية(٢). لقد أصبحت الحياة بالنسبة اليه هي المدرسة الكبرى ، ويبدو ان نفوره من « المدرسة » تأصل في نفسه ، فما حاول طوال سنوات وجوده في الولايات المتحدة ان يدرس اللغة الانكليزية ، لقد تعلم شيئا منها بحكم المعيشة والاضطرار ، الا ان حرمانه من العلم لم يشكل لديه على الاطلاق حاجزا ما بين عقله ، وبين رؤية المظاهر العلمية في البلاد الامريكية واستيعابها ، ولولا هذه المقدرة التي كان يتمتع بها ، لما تمكن من الاقتناع بأهمية العلم المصرفي وأهمية انشاء بنك عربي في فلسطين على الصعيدين ، الوطني والاقتصادي .

عمل اول حياته مع أخويه الكبيرين حجّارا ، كانت مهمته أن يرفع الحجارة من محجر قريب ، فيضعها على بغل ويسوقه الى القدس ، وهناك يبيعها فيربح ليرة ذهبا يوميا ، وقد بقي طوال حياته يعتز بنشأته العصامية ، ويعتز بأنه رفع بيديه مع رفيق واحد له فقط حجارة الكنيسة الالمانية ، حجرا حجرا .

أخذت انباء المهجر الامريكي تتوارد الى سمع الشاب الطموح ، فراودته الاحلام بأن يهاجر . ولكنه ما ان فاتح أمه بالامر حتى جزعت عليه كما جزع أخواه ، وخافت العائلة ان تفقد ولدها الاصغر الى الابد .

وتحايل عبد الحميد على أمه حتى تمكن من أخذ مفتاح صندوق النقود ليتناول جنيهات خمسة فقط ، يشتري بها ثيابا لنفسه ، ولكنه عوضا من الخمسة تناول الخمسين ، وكانت من الجنيهات الذهب(٣).

وأسرع السارق الظريف الى القدس حيث أتم معاملات سفره وقصد ميناء يافا ، وهناك لحق به أخواه وحاولا منعه ، الا انه أصر ، وغادر البلاد في صيف ١٩١١(٤)، وفي مصدر آخر ان هجرته كانت قبل هذا التاريخ ، في عام ١٩٠٥(٥).

عمل حال وصوله الى بتسبرغ بائعا متجولا ، وفي فلسطين يقال له « بياع بالكشة » ثم انتقل الى بلتمور ، وبعد ان تحسنت أحواله افتتح مخزنا خاصا ، ولما ضاقت بطموحه بلتمور انتقل الى نيويورك ، وهناك أسس مخزنا تجاريا كبيرا يحمل اسمه ، وهكذا تحول من بائع متجول الى تاجر كبير بالجملة يوزع على الباعة المتجولين وعلى المخازن .

وأتقن شومان ادارة مخزنه الكبير ، واستعان بمحاسب ليضمن سير العمل بانتظام ، ولما عاد الى القدس نهائيا ما نسي ان يحمل معه دفتر الحسابات تذكارا وبرهانا(٦).

تأسيس البنك العربي وانتشاره

بالاضافة الى انصرافه الى جمع المال كان طوال وجوده يفكر في كيفية العودة ، وكيفية استثمار أمواله في الوطن .

اتجه فكره اولا الى انشاء مصرف عربي امريكي، تكون له فروع في البلاد العربية وفي الولايات المتحدة ، على ان يتعاون مع اصدقاء له في هذا المشروع ، الا ان المشروع هذا لم ينفذ .

وصادف ان اطلع بواسطة الجرائد العربية التي كانت تصل اليه من فلسطين على فكرة طلعت حرب حول تأسيس مصرف عربي في فلسطين يكون الاول من نوعه ، باسم البنك المصري الفلسطيني ، فكتب حالا الى حرب مبديا كل استعداده للتعاون(٧). وكانت فكرة الاقتصادي المصري الكبير ، ومؤسس بنك مصر قائمة على اساس ان يقوم البنك برأسمال مائة الف جنيه فلسطيني ، فيقدم حرب ٥١ ٪ ، ويقدم الفلسطينيون ٤٩ ٪ ، وقد زار حرب فعلا فلسطين عام ١٩٢٥ واجتمع بالمفتي الحاج امين الحسيني ، ولاقت فكرته تشجيعا كبيرا ، فابتدىء بجمع المال . الا ان المشروع مات وهو في المهد بسبب مقاومة اليهود الشديدة له علنا والانكليز ضمنا(٨).

واثار فكرة البنك من جديد عبد الحميد شومان اثناء عودته من امريكا عام ١٩٢٩ ، فعرج على

مصر وزار طلعت حرب ، واتفقا على العمل معا .

ومنذ وصوله الى فلسطين ، اخذ شومان يبشر بفكرة البنك ، ويدعو الى الاكتتاب ، حتى بلغت القيمة خمسة وثلاثين الف جنيه ، فكتب الى طلعت حرب يخبره بذلك ، واتفق الرجلان على ان يكون رأس المال مبدئيا سبعين الفا .

ولكن قبل ان تتم معاملات تسجيل البنك قامت ثورة ١٩٢٩ الشهيرة ، فقرر طلعت حرب التوقف في المشروع(٩) وقد كان ليهود مصر اثر كبير في توقفه هذا ، ذلك ان بعض اغنيائهم المساهمين في بنك مصر (بنك طلعت حرب)، هددوا بالانسحاب في حالة تأسيس بنك في فلسطين ، كما هددوا بمعاكسته(١٠). وقد كان موقف المكتتبين في فلسطين ايضا الانسحاب خوفا على اموالهم بسبب الثورة وذيولها ، فطار المشروع ، وبقي عقل عبد الحميد شومان يفكر في كيفية تخطي العقبات .

واتخذ القرار، قرر ان ينشيء البنك ولو لوحده، وفعلا انشأه بمفرده ماديا ، وشاركه معنويا عدد من المسؤولين العرب والاصدقاء . لقد وقف الى جانبه — وبكل قوة — صديقه الحميم الامير عادل ارسلان ، كما وقف الى جانبه رئيس المجلس الاسلامي الاعلى ، واحمد حلمي عبد الباقي ، (مدير الاوقاف الاسلامية في المجلس ورئيس حكومة عموم فلسطين فيما بعد) .

واجهت شومان صعوبة تأليف الشركة التي تحتاج قانونا الى سبعة اعضاء، ولم يكن قد تقدم لمشاركته سوى اثنان هما أحمد حلمي عبد الباقي وفياض الخضرا . ولما كانت مجموع الاسهم التأسيسية ٣٧٥٠ سهما ، ولما كانت قيمة كل سهم أربعة جنيهات ، فقد بلغ رأس المال خمسة عشر الف جنيه . وكان معظم الاسهم لشومان ، اذ بلغت ٣٥٩٨ سهما ، وبلغت أسهم أحمد حلمي ١٢٥ سهما وفياض الخضرا ٥ أسهم . وهنا اضطر شومان الى الاستعانة باقربائه فاشترك كل من سليم وموسى شومان بعشرة أسهم ، واشترك كل من ياسين وابراهيم شومان بسهم واحد(١١).

من هذه الارقام يتضح جليا ان البنك في واقع تأسيسه كان بنك شومان لوحده ، ولكنه اسما كان البنك العربي ، لان صاحبه ، وهو المؤمن بالعروبة فطرة وعقلا ، والمؤمن بدور فلسطين في دنيا العرب ، شاء ان يطلق على مؤسسته « البنك العربي » . لقد كان طموحه عربيا بعيد المدى في وقت كانت بلاده الصغيرة فلسطين مهددة بخطر الضياع .

وتم تسجيل البنك العربي رسميا في ٢١/٥/١٩٣٠ ، وتسلم رئاسة مجلس الادارة أحمد حلمي عبد الباقي . ومنذ انشاء المركز الرئيسي في القدس، ومن ثم امتداد فروعه في العالم العربي ، لم يستعن شومان بخبير اجنبي واحد ، ولم يوظف اجنبيا . وقد ابتدأ خطته هذه منذ وطئت قدماه القدس ونزل في فندق داروتي في البقعة التحتا .

كان من عادته ان يحدث كل من يراه عن مشروع البنك ، فتحدث مع اصحاب الفندق ، وطلب منهم أن يعرفوه على محاسب عربي لانه لا يريد ان يوظف محاسبا أجنبيا ، وقد كان يشعر بالقلق خوفا من عدم ايجاد محاسب عربي ، فأخبره أصحاب الفندق عن وجود جار محاسب لهم اسمه فؤاد سابا .

التقى الرجلان في اليوم نفسه ، ومن الساعة الاولى للتعارف كان الاتفاق ، وقد امتدت هذه الساعة الى يومنا هذا ، فمنذ عام ١٩٣٠ والبنك العربي يتعامل مع سابا وشركاهم . لقد اغترب الرجلان . اغترب بنك الاول ، واغتربت شركة الثاني ، وبقي اتفاق فندق داروتي قائما .

غاب عبد الحميد شومان ثلاث سنوات ، عاد من بعدها نهائيا الى فلسطين ، وفي غيابه كان فرع يافا قد تأسس عام ١٩٣١ ، وفرع حيفا عام ١٩٣٢ ، كما تأسس في عام عودته ١٩٣٣ فرعا نابلس والخليل . وكان اول بلد عربي غزاه البنك هو الاردن عام ١٩٣٤ ، لتأسيس فرع في عمان ، ثم تأجلت فكرة التوجه الى الاقطار العربية الى ما بعد زوال رعب الحرب العالمية الثانية عن أرض العرب ، فانطلق فرع دمشق ١٩٤٣ ، وبيروت والقاهرة عام ١٩٤٤ ، وحلب وبغداد عام ١٩٤٥(١٢).

وهكذا أخذ انتشاره في العالم العربي يتزايد بسرعة مذهلة حتى بلغ في اربع عشرة دولة وامارة عربية اربعين فرعا ، ما عدا الفروع المؤممة ، وما عدا فروعه في بعض الدول الاوروبية والافريقية(١٣).

اثر البنك العربي في الاقتصاد الفلسطيني

لن نتعرض هنا لدور البنك العربي في الاقتصاد

من الناحية المصرفية المحضة ، أي من ناحية التسهيلات والخدمات والدعم الذي تقدمه البنوك عادة للمشاريع والشركات والافراد ، ولكننا سنتعرض لدوره الفعال في الاقتصاد ، حين كان البنك العربي يقوم بأدوار متميزة عن سواه من البنوك ، فيقدم لمواطنيه خدمات تحجم عنها سائر البنوك ، كما انها كانت في أشد الازمات السياسية صعوبة ، وكذلك من خلال أهم المشاريع التي ما كان لاية مؤسسة أخرى في فلسطين ان ترعاها .

● **المعرض العربي:** كانت مساهمة البنك الفعالة في اول معرض عربي في فلسطين عام ١٩٣٣ عملا وطنيا جبارا ، ذلك ان الحرب الدائرة يومذاك بين العرب واليهود كانت حربا اقتصادية .

ابتدأت هذه الحرب الاقتصادية عام ١٩٣٢ ، يوم قرر اليهود اقامة معرض في تل ابيب ، واعلنوا عنه في طول البلاد وعرضها ، وحاولوا بكل ما لديهم من وسائل اشراك التجار العرب والمؤسسات العربية . ولكن تنبه الشباب العربي للخطر ، فأصدر مؤتمر الشباب العربي الفلسطيني بتوقيع رئيسه راسم الخالدي نداء في ٥ / ٣ / ١٩٣٢ يدعو فيه جميع العرب الى مقاطعة المعرض الصهيوني بكل الوسائل(١٤).

وهبت في الصحف حملة اعلامية ، رافقها عمل جاد ودؤوب لاقامة معرض عربي ، وتشكل مجلس ادارة للمعرض برئاسة احمد حلمي عبد الباقي ، وقد كان لا يزال مديرا للبنك العربي ، ومن هنا جاءت مساهمة البنك العربي فعالة وقوية ، فاقبل رجال الصناعة والتجار الذين يتعاملون معه على الاشتراك في المعرض .

افتتح المعرض في ١٩٣٣/٧/٧ ، وقد استطاع المدير الذي أشرف عليه ، وهو نبيه العظمة المجاهد العربي السوري ، استطاع بفضل اتصالاته العربية ان يحقق الامل باشتراك عدة دول عربية ، وقد كانت مصر والعراق والحجاز ونجد وشرق الاردن وسوريا ، وبلغ عدد المشتركين من أشخاص وشركات ١٨٧(١٥).

وبعد عام أقيم المعرض الثاني برئاسة عبد الباقي واشراف العظمة ايضا ، وكان عبد الحميد شومان قد عاد من الولايات المتحدة فاشترك عضوا في مجلس الادارة ، وقد بلغت المعروضات والارقام في هذا المعرض الثاني ضعف ما بلغته في الاول .

وفي حفل الافتتاح في ١٩٣٤/٤/١١ ، أعلنت أهداف المعرض ، وهي : « استقلال اقتصادي في الوطن العربي الكبير ، تنمية رؤوس المال العربية ، انهاض المشروعات الوطنية ، تنشيط العامل العربي بتقوية المصانع العربية ، تعضيد أهل الفنون والاختراع ، توثيق الروابط الاقتصادية بين الاقطار العربية فتحا للطريق أمام الاستقلال الاقتصادي »(١٦).

● **مساهمته في تأسيس البنوك الاخرى** : عندما استقال احمد حلمي من البنك العربي وانصرف ليؤسس البنك الزراعي في ١٩٣٣ — ١٩٣٤ ، وبرأسمال قدره ثمانون الف جنيه فلسطيني ، ساهم البنك العربي في انشائه ، وقد كانت غاية البنك واضحة ، وهي مساعدة الفلاح العربي ورفع مستواه . (تحول البنك الزراعي فيما بعد الى بنك الامة) .

وفي عام ١٩٤٧ ساهم البنك العربي كذلك في تأسيس البنك العقاري العربي الذي كانت غايته انقاذ ارض فلسطين(١٧).

● **صموده في وجه الازمات** : صمد البنك ازاء أزمات سياسية كبرى واثبت للمواطن العربي انه كالبنوك الاجنبية صلابة ان لم يكن أكثر .

اجتاز اولا ازمة ١٩٣٥ لما اعتدت ايطاليا على الحبشة ، وعاش المواطنون في شبح الحرب ، فهرعوا يسحبون أموالهم وودائعهم ، ودفع البنك الاموال لاصحابها وبدون أية مساعدة .

وفي اضراب ١٩٣٦ الشهير ، والذي استمر ستة أشهر ، شلت خلالها حركة البلاد الاقتصادية ، لم يتشدد البنك في مطالبة المتخلفين عن القيام بالتزاماتهم، وفي الوقت نفسه دفع الاموال والامانات التي طالب بها أصحابها .

وكانت الازمة الكبرى اثر نشوب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ، فخشيت حكومة الانتداب من موجة الذعر الاقتصادي الى درجة اضطرتها الى وضع تشريع خاص بالبنوك ، يحدد نسبة معينة لسحب الاموال ، الا ان البنك العربي لم يتقيد بهذا القانون ، وبذلك كسب ثقة المودعين ، وهذه الثقة ساعدته على الانطلاق في فتح الفروع في الاقطار العربية .

ثم كانت أشد الازمات في عام ١٩٤٨ ، وقد اضطر الموظفون في فرعي يافا وحيفا الى حمل السجلات والودائع والخروج بها ، ولما أعيد فتح فرع حيفا في بيروت ثم في عمان ، وأعيد فتح فرع يافا في نابلس ثم في رام الله ، أقبل المودعون على سحب أموالهم وودائعهم ، فأعطيت لهم .

ولم تكن تجربة فرع القدس بأقل خطرا ، فقد انتقل البنك اثناء المعارك الى مكتب وراء السور ، واثناء الهدنة الاولى خاطر بعض الموظفين بأرواحهم للحصول على الاوراق والمستندات ، وعادوا بها فعلا مع خمسة عشر الف جنيه بالعملة الفضية(١٨).

والواقع ان اقدام البنك على دفع الاموال لاصحابها لم يكن عملية سهلة ، فالبنك ما استطاع تخليص أكثر من الثلثين مما كان لديه أصلا من أموال وودائع . بالاضافة الى ان المدينين قد فقدوا موجوداتهم . ولولا ان البنك قائم من البداية على أسس متحفظة ، وعلى سياسة السيولة العالية ، لما كان بالامكان فعلا ان يدفع كل ما دفعه . وقد جرى هذا في الوقت الذي أحجمت فيه البنوك الاخرى عن الدفع ، والفلسطيني المشرد في أشد الحاجة لامواله . بنك باركلس والبنك العثماني كانا يرفضان الدفع ، فلجأ المودعون الى المحاكم ليحصلوا على حقوقهم ، وعلى الرغم من ذلك فان بنك باركلس — فرع نابلس ، لم يدفع شيئا لاحد الا بعد مرور سنوات .

مساهمته في تحسين اوضاع الفلسطينيين

كان من الطبيعي ان يتعثر البنك لسنة او سنتين ، ولكنه منذ عام ١٩٥٠ أخذ يتوسع من جديد ، وأخذت أسهمه تسترد قيمتها تدريجيا حتى ارتفعت من جنيه الى سبع جنيهات ، وبانتعاش البنك ماليا من جديد انتعشت جميع العائلات الفلسطينية التي كانت تعيش من أسهمها او من ايرادها .

وكان من الطبيعي جدا ان يطرق الفلسطينيون أبواب البنك العربي حيثما وجد ووجدوا . ولم يخيب عبد الحميد شومان أمل واحد منهم جدير بالعمل ، فوظف في فروعه مئات الموظفين والمدراء الفلسطينيين ، ومن خلال المدراء توظف في الخليج بالذات عدد كبير .

كان هذا كله في اوائل الخمسينات ، عندما لم يكن « للاجئين » من مؤسسة واحدة تعترف بهم كمواطنين . ولم يكن بامكان البنك العربي مهما امتدت فروعه وتشعبت ، ان يستوعب مأساة شعب ، ولكنه استطاع على الاقل حماية ورعاية كل من عاش في رحابه . لم يشعر الموظف الفلسطيني فيه بالغربة ، لقد شعر انه لا يزال في ارضه . ان هذه المؤسسة الضخمة بانتقالها وصمودها على الرغم من ضياع البلد ، وانهيار الجيوش ، وموت الضمير ، بقيت خير سفارة لفلسطين ، وقطعة منها(١٩).

مساهمة شومان في الحقل الوطني

من الصعب فعلا ان نفصل بين الاعمال الاقتصادية والاعمال الوطنية لهذا الرجل الكبير ، وان جاز لنا التعبير ، ورددنا ما قاله فؤاد سابا من ان شخصيته قد تجلت وتبلورت في وطنيته الاقتصادية ، فاننا لا نستطيع ان نتجاهل ان شومان كانت له اعماله الوطنية المحضة ، وتبرعاته التي لم تكن اقتصادية ابدا ، وانما على العكس من ذلك كانت عبئا على مؤسسته المصرفية ، وعلى زملائه أعضاء مجلس الادارة .

وربما يقول البعض ان شومان كان يربح من وراء التبرعات الوطنية السخية في المناسبات الشهرة للبنك العربي ، ولكننا من باب الانصاف يجب ان نعود الى الوراء ، الى العشرينات ، ويوم كان شومان مهاجرا ، ويوم كان البنك العربي حلما في الغيب .

سمع وهو في المهجر بانشاء اللجنة المركزية لاعانة منكوبي سوريا ، وهذه اللجنة أسسها وترأسها رئيس المجلس الاسلامي الاعلى عام ١٩٢٧ من أجل دعم الثورة العربية السورية سرا ، ومساعدة عائلاتها المنكوبة واطفالها « غزلان الصحراء » علنا . وكان شومان من أكثر المتبرعين حماسة ، ومن هنا نشأت صداقته بالامير عادل ارسلان ، الذي كان يسكن عمان آنذاك ، وكان صلة الوصل بين القدس ، وبين رجال الثورة في صحراء النبك ووادي السرحان .

وفي اضراب ١٩٣٦ ، قام شومان بحملة تبرعات كبيرة بين الموظفين في فلسطين ، فجمع منهم في اسبوعين ستة آلاف جنيه ، ولا شك في ان مناصرته للحركة الوطنية بقوة وعلانية أدت الى اعتقاله

والزج به في معتقل صرفند عام ١٩٣٧ ، وثم في سجن عكا للمرة الثانية عام ١٩٣٨(٢٠).

ولما قامت ثورة الجزائر كان شومان من أكثر المتبرعين لها ، كما انها كانت أكثر ثورة تبرع لها سواء من أموال البنك أم من أمواله الخاصة .

ومثل واحد على الطريقة الحميدية الشومانية في التبرع تظهر معدن هذا الرجل الذي لا يبارى في عفويته وتصلبه وايمانه العربي العميق .

في حفل افتتاح اسبوع التسلح في دمشق عام ١٩٥٥ ، كان يجلس في منتصف القاعة واجما وهو يستمع الى الخطباء العشرة ، واحدا اثر الآخر ، وينتبه جيدا الى الارقام التي تتبرع بها الشركات الضخمة العتيدة كالشركة الخماسية وغيرها من أجل دعم الجيش السوري ، ولم تكن الارقام لتزيد على المائة الف بأية حالة . وازاء هذا المشهد لم يستطع عبد الحميد شومان سوى البكاء . رجل على حدود السبعين يبكي ويشهق ، فيلتفت الناس اليه ، ويتعجبون ، ولا يستطيع الذين كانوا يرافقونه ان يفعلوا شيئا. كان معه نجله عبد المجيد شومان وسامي العلمي وواصف كمال ، وهؤلاء الثلاثة كانوا يتجادلون وهم يدخلون القاعة ، حول المبلغ الذي بامكان البنك ان يتبرع به ، قالوا ستين الفا ، وقالوا مائة الف، ولما التفتوا اليه محتكمين، التفت اليهم زاجرا .

وفجأة قام من وسط مدرج الجامعة السورية وطلب الكلام ، وبلغة بسيطة قال : « يا اخوان... دائما بفلسطين كنت أقول لهم ، ادفعوا بسخاء ، تبرعوا بالنصف كي تحتفظوا بالنصف الثاني » . وختم كلامه متبرعا بربع مليون جنيه ، فاضطرت الشركات الى اعادة النظر في ارقامها(٢١).

سألوه مرة : « انك تتبرع باسم البنك العربي بمبالغ كبيرة ، الا تخشى ان يحتج بعض المساهمين على هذا ؟ » وهنا كشر عبد الحميد شومان ، وعاد الى ترويته الاصيلة ، واجاب محتدا : « سأقول لهذا المساهم اولا ، انت خائن ، ثم أتف بوجهه ، ثم أشتري أسهمه كلها بضعف ثمنها » .

والواقع ، انه كانت لشومان تبرعات من جيبه الخاص ، لم يعلم بها أحد ، وكان موعدها مع الربيع عادة ، مع موسم الارباح . ومثل عليها في ايار ١٩٧٣ ، اثر حادثة فردان المشئومة ، واثر الاصطدام الدموي بين الفدائيين والسلطة اللبنانية . لقد انتظر هدوء الاحوال نسبيا ، فقام ذات صباح ليسأل عن مكان حساب الهلال الاحمر الفلسطيني ، ثم ذهب بنفسه وتبرع في ذلك اليوم للهلال بمائة الف ليرة ، ولصندوق الطلبة الفلسطينيين بخمسين الفا ، ولمؤسسة الدراسات الفلسطينية بعشرين الفا ، ولاسرة الشهيد « أبو يوسف » بثلاثين الفا(٢٢).

رجل لا ينسى

كل من عرف هذا الرجل عرف عنه انه رجل نظامي لا يفكر الا بعمله ليل نهار . عندما يذهب الى مكتبه في أي فرع كان، يصل اليه قبل المراسلين والفراشين ، حتى ولو كان على سفر ، فطالما وصل الى البنك في حيفا او يافا قادما من القدس قبل الآخرين .

وهو رجل تؤثر عنه هذه الكلمات في كل اجتماع كان يعقده للموظفين ، وهو انه عندما كان في امريكا لم يعرف المرأة ، ولم يعرف الخمرة ، ولم يعرف التدخين . والويل الويل لمن يدخن امامه ، لا من الموظفين فحسب ، وانما من الضيوف والاصدقاء ، كان يتضايق من التدخين الى درجة يغادر فيها الغرفة ، الا ان الآخرين كانوا يحترمونه الى درجة يمتنعون فيها فعلا عن التدخين بوجوده .

وهو رجل كثير الالحاح ، لا يستحي ولا يخجل من أحد ، كان في القدس يذهب الى التجار فردا فردا ، ويقنعهم بالتحول الى البنك العربي ، وكانت حجته قوية ، ما دام مصرفه هو البنك « العربي » الوحيد .

وهو رجل كريم في عطائه الوطني الى درجة لا تبارى ، واما في حياته اليومية ، فهو مقتصد الى درجة — ايضا — لا تبارى .

وهو رجل يحترم العمل الذي يقوم به ، وهذا من أسرار نجاحه . لقد احترم اختصاصه في عالم البنوك ، فتقيد بعمل البنوك ، وهذا من مميزاته .

وهو رجل يحترم العلم ، وان حرم من أسبابه ، ومن أجل ذلك بنى دار المعلمين الريفية في مسقط رأسه بيت حنينا ، وبنى كلية الاقتصاد في عمان .

وهو رجل يسعى الى مناصرة الوطنيين ، حتى ولو على حساب مؤسسته ، وفي هذا مأخذ عليه برأي الكثيرين ، اذ انه بذلك يوظف من هم ليسوا

اكفاء ، وفقط ، لانهم وطنيون . ويروى عنه انه لما سعى الى تأسيس فرع في بغداد قابل نوري السعيد واشترط عليه اخراج الوطنيين المعتقلين اثر ثورة رشيد عالي الكيلاني لتوظيفهم ، وكان الذين طالب باخراجهم طالب مشتاق وبشير الجراح وفاضل رشيد ، (لقد اصبح قائد القدس فيما بعد في معارك ١٩٤٨) . وقد اجيب الى مطلبه .

وربما لم يكن شومان ليجهل ان المتخصصين في الاعمال المصرفية واصحاب الخبرة ، هم اكثر فائدة عادة من غيرهم ، الا انه كان يؤمن بان مؤسسته نفسها هي عبارة عن مدرسة كبرى للوطنيين ، ومن هنا فهي تتسع لكل وطني وكل مثقف يملك العقل والاستعداد للعمل .

وبقي عبد الحميد شومان مثلا للاخرين حتى عامه الاخير ، وقد كان من قدره ان ينتقل الى الحياة الثانية بعيدا عن وطنه . لقد وافاه الاجل في تشيكوسلوفاكيا في ٩–٩–١٩٧٤ ، ودفن بعد ايام في القدس داخل اسوار الحرم الشريف .

ومن كل انحاء فلسطين العربية توافد المودعون فكان يوما وطنيا مشهودا ، اشتركت فيه مجالس البلديات والمؤسسات والجمعيات والمواطنون وقد انتقل الجميع بعد الدفن الى بيت حنينا ، واحتشدوا في المدرسة التي شيدها ، وهناك هتف نجله الاكبر عبد المجيد وطلب من الجميع ان يكرموا والده كما يتمنى والده ، وهو أن يأخذوا على أنفسهم عهدا بعدم بيع الارض ، والتمسك بكل شبر منها .

واقسم الجميع على ذلك ، وترددت في الارض المحتلة الاصداء . « ان من لا أرض له ... لا وطن له »(٢٣).

بيان نويهض الحوت

---

١ — هناك اختلاف حول مولده . جاء في كتاب « البنك العربي » ، ص ٧ ، انه ولد عام ١٨٨٨ ، وجاء في كتاب آخر أصدره البنك العربي ايضا بعنوان « قوانين لبنانية وأعراف دولية » ، ص ٦ ، انه ولد عام ١٨٩٠ ، والبعض من أصدقائه يقولون انه ولد قبل ١٨٨٨ . نحن اعتمدنا المصدر الاول باعتباره المصدر الرئيسي.

٢ — « البنك العربي ، ١٩٣٠ — ١٩٥٥ ، (بيروت ، دار الاحد ، بدون تاريخ) ، ص ٧ .

٣ — **المصدر نفسه** ، ص ٨ .

٤ — **المصدر نفسه** ، ص ٨ .

٥ — عجاج نويهض ، « أول محاولة مصرفية عربية في فلسطين » ، جريدة **المحرر** ، ٢١/٩/١٩٧٤ ، ص ١٣ .
(يؤكد الكاتب ان شومان روى له عام ١٩٢٩ انه هاجر عام ١٩٠٥ ، أي قبل الدستور العثماني بثلاث سنوات .

٦ — فؤاد سابا ، مقابلة في ٥/١٠/١٩٧٤ .

٧ — « البنك العربي » ، ص ٨ .

٨ — عجاج نويهض ، **المصدر السابق** .

٩ — « البنك العربي » ، ص ٩ .

١٠ — محمد علي الطاهر ، « **نظرات الشورى** »، (القاهرة ، مطبعة الشورى ، ١٩٣٢ م .) ، ص ١٤ .

١١ — « **البنك العربي** » ، ص ٩–١٠ .

١٢ — **المصدر نفسه** ، ص ١٩–٢١ .

١٣ — « **قوانين لبنانية وأعراف دولية** »، (بيروت، دار الاحد ، بدون تاريخ) ، ص ١١ .

١٤ — جريدة الجامعة العربية ، (القدس ، العدد ٧٧٨ ، ٦/٣/١٩٣٢) .

١٥ — مجلة **العرب** ، (القدس ، العدد ٤٢ ، ١٥/٧/١٩٣٣) ، ص ٢٣–٢٤ .

١٦ — **المصدر نفسه** ، (العدد ٧٤ ، ١٤/٤/١٩٣٤) ، ص ١٣ .

١٧ — **البنك العربي** ، ص ٤٤–٤٥ .

١٨ — **المصدر نفسه** ، ص ١٣–١٧ .

١٩ — سامي العلمي ، مقابلة في ٢/١٠/١٩٧٤ .

٢٠ — عجاج نويهض ، **المصدر السابق** .

٢١ — سامي العلمي ، المقابلة السابقة .

٢٢ — المقابلة نفسها .

٢٣ — جريدة **المحرر** ، (بيروت ، ١٧/٩/١٩٧٤)، ص ٨ .

[٢]

محمد علي الطاهر ، قلم فلسطيني في مصر

فقد القلم الفلسطيني منذ أسابيع احد أقطابه من الرعيل الاول ، احد الذين هجروا وطنهم بسبب الاحتلال الاجنبي الذي عهد لتوطيد دعائم الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، لجأ الى مصر مدافعا عن فلسطين بصورة خاصة ، وعن البلاد العربية بصورة عامة ، حاور الاستعمار على اختلاف انواعه واعوانه وبقاياه في الشرق والغرب . وعرف في كل ما يكتب بالصراحة والمجاهرة والعلانية فهو لا يعرف الكتمان ولا المخادعة مع غلو في النقد المنطوي على الاخلاص وحسن النية .

أول صوت اطلقه بالتحذير من الصهيونية وانها تستهدف انشاء دولة يهودية في فلسطين كان عام ١٩١٤ في جريدة (فتى العرب) التي كانت تصدر في بيروت(١)، وكان يعمل مراسلا لها في يافا ، وتحت عنوان « الصهيونيون في فلسطين » كتب مقالا ذكر فيه ان يهود (حارة تل ابيب) يستعملون نقودا نحاسية نقش عليها خاتم سليمان وان لهم طوابع بريدية عليها صورة هرتزل زعيم الحركة الصهيونية ، وان يهود (حارة تل ابيب) يعملون استعراضات عسكرية ، ثم حذر الناس من اليهود الذين يقومون بانشاء حكومة يهودية داخل الحكومة العثمانية .

وفي أثناء الحرب العالمية الاولى لجأ الى مصر هربا من مظالم جمال باشا ، ولكن السلطات البريطانية اعتقلته بسبب حكاية لا اصل لها ، واستمر الاعتقال اكثر من سنتين في معتقل الجيزة منذ سبتمبر ١٩١٥ الى اواخر ١٩١٧ . ثم عمل في جريدة الكوكب ، التي كانت تصدرها في مصر الحكومة الحجازية الهاشمية ويراس تحريرها الشيخ محمد القلقيلي .

وبعد الحرب عاد الى فلسطين ، التي خضعت للاحتلال البريطاني العسكري ، وحين كان اليهود يصدرون الجرائد بفلسطين ، وبكل اللغات ، شارك في تحرير جريدة سورية الجنوبية التي كانت تصدر في القدس ، الا انه كان على صلة بدمشق، مقر الحكومة العربية ، وكان يراسل صديقه احمد شاكر الكرمي الاديب الفلسطيني الذي كان يقطن دمشق . وعمل مديرا للبريد والتلغراف بنابلس فاطلع بحكم الوظيفة على أمور دلته بأن الحكومة كلها تكاد تصبح في أيدي الانكليز واليهود. أول حادث اصدار الاوامر بأن تتلقى ادارة التلغراف البرقيات باللغة العبرية ، وان تغلق مكاتب البريد والبرق بعد ظهر السبت وطول الاحد . ولما استفسر من المدير العام جاء الرد بأن يطيع الاوامر وان لا يتدخل فيما لا يعنيه . وحين تشكلت الحكومة المدنية برياسة هربرت صموئيل وعين مديري الادارات من الانكليز واليهود ، استقال من وظيفته ، وكانت الصحافة هي الطريقة التي كان يحلم باحترافها بعد أن خبرها ، واستحال تنفيذ الفكرة في فلسطين لقلة المتبرعين ، فرجع الى مصر ليعمل بالتجارة كي يدبر بواسطتها رأسمال يمكنه من اصدار الجريدة.

وفي القاهرة سعى لتشكيل اللجنة الفلسطينية ١٩٢٠ ، وكتب في عدة صحف عن فلسطين كان من جملتها مقالا نشره في جريدة (اللواء المصري) بحذر العالم العربي من كون الانجليز يستهدفون انشاء دولة يهودية في فلسطين لتصبح نقطة ارتكاز لاستعمارهم في الشرق الادنى وان (دولة اسرائيل) ستفصل العالم العربي في آسيا عن العالم العربي في افريقيا ، وذكر ان عدد اليهود بفلسطين بدأ يرتفع فزاد في عامين من ٤٠ — ٦٠ الفا وان حكومة فلسطين مع كونها بريطانية قد أصبحت في قبضة اليهود فعلا ، وكان على رأسهم يومها هربرت صموئيل المندوب السامي « الذي يعد من أدهى واخبث زعماء الصهيونية ، فكان اليهود في تلك الايام يلقبونه باسم اسرائيل الاول » .

كما نشأت علاقة بينه وبين الدكتور حسين هيكل ١٩٢٣ حين كان الاخير رئيسا لتحرير جريدة (السياسة) التي أصدرها الحزب الحر الدستوري (حزب الاعيان والاقطاعيين) ، فكان ينشر فيها دعاية فلسطين وسورية ومما كتبه فيها

عشرة فصول كبيرة عن القضية العربية في اواخر الحكم العثماني ومشاكل بلاد العرب ، وكان يعمل على توسيع نشر هذه الجريدة في العالم العربي وغرض الطاهر من ذلك التوسيع ، كما يقول(٢)، « أن يكثر عدد قرائي الذين انشر بينهم فكري وابث فيهم رأيي وكانت فائدة جريدة السياسة من ذلك أنها تتلقى مقالات مجانا ويتسع انتشارها عند قراء تلك الفصول في غير مصر ، لذلك كانت المصلحة بيننا مشتركة .. وكانت جريدة السياسة مكروهة عند الشعب بسبب حزبها لا لعيب في تحريرها ... » .

وفي عام ١٩٢٤ اصدر جريدة (الشورى) ، وقد وضع هويتها بسطر دائم كان ينشر في كل عدد منها وهو انها « جريدة تدافع عن سورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن » ولما اتسع مجال نشرها بدل الكليشيه السابقة وجعل وصف اغراضها بأنها « جريدة تبحث في شؤون البلاد العربية والاقطار المستعبدة » . وكانت تصدر مع الشورى نشرات مكتب الاستعلامات العربي الفلسطيني عن فظائع الاستعمار في خلال ثورات سورية وفلسطين ، ويبعث من ادارة الشورى الى لندن واوروبا وامريكا برقياته باسم اللجنة الفلسطينية ، فكانت البرقيات والنشرات والجريدة تؤلم الاستعماريين فمنعت الجريدة عن سورية ولبنان كما أن الانجليز منعوها عن فلسطين ، فصار يحتال على تهريبها بطبع طبعة ثانية منها باسم اخر وادخالها الى تلك البلاد ، وعلى هذا الوجه اتصل باحرار الامة العربية ، وكانت جريدته همزة الوصل في حقل الوطنية والعروبة في الوطن والمهجر ، ودخل ادارة الشورى زعماء الجهاد والفكر في العالم العربي يلتقون فيها وينشرون دعاياتهم على صفحاتها ، واصبح كثير منهم رؤساء وزارات او برلمانات . ووقف الطاهر خلف كفاح عمر المختار لحشد الانصار والمال ، كما عمل من أجل قضية مصر وقضية سورية وقضية العراق « ... يعمل ظاهرا في بعض المواقف وعاملا في الخفاء في مواقف اخرى » دون أن يشعر بأنه ابن قطر معين او بلد معين او لحساب جهة معينة .

وفي اغسطس ١٩٢٥ زار فلسطين ولاحظ ان بلدة العفولة قد محيت من عالم الوجود وقامت على انقاضها مدينة يهودية ، ولما رجع الى مصر نشر تفاصيل كل ما رأى ونعى الى « العالم الاسلامي والشعوب العربية اول بلدة عربية استشهدت » وانذر بأن هذا المصير سيكون مصير فلسطين كلها .

وفي عام ١٩٢٦ — ١٩٢٧ اراد الحصول على جريدة يصدرها بدلا من الشورى بسبب كثرة منع الاستعمار لها فاعاره محمود عزمي — دكتور في الحقوق والعلوم السياسية وصحفي وكاتب سياسي شهير — مجلة (الجديد) مجانا بلا قيد ولا شرط . وفي عام ١٩٢٨ علم بان الشورى ستمنع من فلسطين فبادر بتحضير جرائد اخرى تحل محل الشورى ، وارسلت باسم (الناس) فصودرت ، ثم باسم (المنهاج) فصودرت ، فاصدرت حكومة فلسطين قرارا آخر بمنع الجريدة العربية التي تصدر بالقاهرة باللغة العربية ويصدرها محمد علي الطاهر !

لاقت دعوته للقضية الفلسطينية في مصر عقبات كثيرة شرحها بقوله(٣). « كان بعض الناس يقولون له من هو الخواجه فلسطين وبعضهم يظن الصهيونية اسما لامرأة فيقول لي ماذا عملت معك هذه المرأة ، وشيخ عظيم قال لي ولمن معي فلسطين دي تبقى ايه وهناك شيخ عظيم مثله كان يستغرب ما يجري في فلسطين من جهاد ويظن المسلمين فيها متعصبين يضطهدون اليهود ! وشيخ ثالث هو مفتي الديار رفض اعطاء فتوى بكفر الفلسطيني الذي يبيع الارض » . جرائد عربية كانت ترفض نشر شيء عن فلسطين حتى لا يغضب اليهود ، وبعضها كان يرفض النشر عن الصهيونية الا اذا نشرت مقابل ذلك مقال يهودي بالرد عليه ، وهناك جرائد كانت ترفض نشر مقالاته رفضا أصليا بحجة انها لا تريد ان تتدخل في المسائل الطائفية ، وبعضها يرفض ان تنشر الا اذا عرضته على قسم الاعلانات فان وجدت ان هناك يهوديا يعلن عن بضائعه فيها او عن احدى الشركات اليهودية فمصير ما يكتب الاهمال . واعتقله اسماعيل صدقي (وزير داخلية) عام ١٩٢٥ بسبب صيحة صاحها في محطة القاهرة بوجود اللورد بلفور صاحب الوعد لما مر بطريقه لفلسطين لتدشين الجامعة العبرية ، ولما تمكن حزب الدستوريين بمساعدة الانجليز من حكم مصر منفردا خلال سنتي ١٩٢٨ و١٩٢٩ وقعت

ثورة فلسطين المشهورة ، فاذا بجريدة (السياسة) تقف ضدها ، ويكتب حسين هيكل (رغم ان العلاقة بينهما كانت مستمرة) مقالا افتتاحيا يهدده فيه ويهدد زملاءه الذين يقومون معه بنشر مظلمة فلسطين بالطرد من مصر بحجة انهم غرباء يقومون « بتهييج الراي العام على مواطنيه اليهود المصريين »(٤).

وظل الطاهر يعيش في مصر مدة ثلاثين عاما بدون جنسية لان الانجليز قد ارادوا ذلك تأديبا له على عدم الاعتراف بشرعية استعمارهم ومحاربة نظائعهم « ليسهل عليهم مطاردته واخراجه من مصر أيام السلم ويمكنهم من حبسه ان وقعت الحرب ، طول مدة الحرب » حتى لقب (بالعربي التائه)(٥).

واعتمدت الحركة الوطنية في فلسطين على الطاهر وهو في مصر ، بتسهيل امر الدخول والتعريف بالثورات وخاصة مشكلة البراق ، كما ساهم بالاعداد للمؤتمر الاسلامي ١٩٣١ — ١٩٣٢، وكانت جريدته نصيرا ومرجعا . وفي اول اغسطس ١٩٣١ حين « كانت حكومات الشرق هائجة على الجرائد هياجا شديدا وبالاخص الحكومات الواقعة تحت الحكم الاجنبي » ففضل ان يوقف الشورى قبل ان تتعطل وذهب الى لبنان بطريق فلسطين في اغسطس ١٩٣١ .

وسجل بعد عودته مجموعة مذكرات هي عبارة عن خلاصة ملاحظاته وخواطره وبعض مشاهداته وتأثراته ، وكان هدفه من كتاب «نظرات الشورى» كما جاء في مقدمته « ان الناس الذين يأتون بعدنا قد يشوقهم أن يعرفوا صورة حقيقية عن جانب من حياة زماننا بما فيها من عوج او سخافات او شيء من فضائل الصفات » وجعل الكتاب دون تبويب او ترتيب لانه يظن « ان الناس قد سئموا الكتب المرتبة المنظمة فيجب أن يجربوا غير المرتبة وغير المنظمة » . وعلى حد قوله الكتاب « كشكول لحوادث ووقائع وملاحظات وخواطر » ..

بعد أن درس الحالة في فلسطين وجد « ان فلسطين لم تشعر بشيء غير طبيعي في حياتها الا بعد أن (شرفها) الانجليز بانتدابهم السعيد ... فالصهيونية لولا انكلترا لا تعد شيئا يؤبه له ، ولكن بريطانيا تريد مخالفة النواميس الطبيعية وأبسط قواعد الانسانية بأن تزيل بقوتها وجبروتها اهل فلسطين من فلسطين وان تقتلعهم اقتلاعا لتسكنها اليهود على ظن منها العالم سيكونون عدتها على الامة العربية »(٦).

ووجد أن بريطانيا تعمل بخطى سريعة على تهويد البلاد كي تضمن « جعل البلاد الفلسطينية في حالات اقتصادية واجتماعية لتسهل بناء الوطن القومي فيها لليهود » ، وعددت الاساليب التي تتبع لادخال اليهود وطرد العرب « للتعجيل في جعل فلسطين يهودية لحما ودما » ، بل أن الحكم البريطاني « قد أشغلنا عن العمل لوطننا ولانفسنا وجعلنا ننهمك في الاشتغال بمقاومته وبالدفاع عن حياتنا »(٧). فاهل فلسطين منذ ١٩١٧ الى عام ١٩٣٢ « لم يطلبوا شيئا فاجيبوا اليه وما شكوا من نكبة فخففت عنهم ، بل ان جميع مطالبهم قد ضرب بها الاحتلال مرض الافق ان لم أقل كعب الحذاء »(٨). وفي حين دعمت الشركات اليهودية، ووضعت رسوما جمركية عالية لحماية المصنوعات اليهودية ، وتولت اقامة المعارض الصهيونية ، وحولت الطرق عن القرى العربية لتمر في وسط القرى والمزارع اليهودية. فبريطانيا هي التي تخلق الاسباب لاثارة الفلسطينيين حتى اذا رفعوا رؤوسهم بالشكوى عملت على ضربهم بالنار والحديد ، « والثورة التي قامت هي ثورة وطنية كان الباعث عليها حب البقاء من ناحية وحب السيطرة والغطرسة واذلال الامة العربية من الناحية الاخرى » ، وليس على اهل فلسطين الا ان يتخلصوا من الانتداب لينجوا منه ومن الصهيونية ايضا « لان الصهيونية ملحقة بالانتداب وهو الذي جاء بها »(٩).

ما هو مؤسف حقا ان عملية سلب حقوق أهل فلسطين لا يزال مستمرا والصهيونية تتقوى يوما بعد يوم « والزمن هو عدو فلسطين فكلما توالت الايام ضعفوا وازدادت قوة الصهيونية بل ان عدد اهل فلسطين هو انفسهم ما داموا يسكتون على ضياع حقوقهم ويشتغلون في النهش ببعضهم » .

وقد صور له الوضع تصويرا حقيقيا ، موظف عربي في الحكومة قال له « .. نحن العرب في حكومة فلسطين مثل الميزان فان كانت الامة متحدة شعرنا بالعزة أمام الانجليز وصاروا يحترموننا

وان كانت الامة منشقة شعرنا بالذل وصـــاروا يحتقروننا ولا يبالون بنا »(١٠).

دراسة الحالة في فلسطين لم تعطه أملا كبيرا ولم يعف اهل فلسطين من المسؤولية ، فهـــو يشبههم « بالقط الذي يلحس المبرد يتلذذ بالدم الذي يسيل من لسانه وهو لا يدري ان دمـــه ذلك لان اهل فلسطين يعيشون من رأس مالهم اي انهم يبيعون الارض والعقار الى اليهـــود وينفقون ثمنه وسوف يأتي يوم وهو قريب لا يجدون ما يبيعونه فيصبحوا على لا شيء والسعيد منهم من يجد اجرة راحلة تنقله الى الصحراء هذا اذا لم يمت جوعا وكمدا » .

ويوجه هجوما كبيرا لحزب المعارضة « المعارضة التي سكتت عن كل ما انزله الاحتلال والصهيونية على البلاد واقتصرت على معارضة الامة في امانيها وفي نهضتها » . وبمناسبة الضجة التـي اثارها راغب النشاشيبي بسبب سرقة المصحف من المتحف الاسلامي في المسجد الاقصى يتســاءل الطاهــر « .. ولكن ماذا يقول أهل فلسطين عنكم وانتم تمسكون هذه المسألة باليمين وبالشمال وتسكتون على ضياع فلسطين بمالها وملايينها واهلهـــا وكرامتهـــا وحقوقها وشرفها .. »(١١). يقـــول الطاهر « لكنني كمعارض للاحتلال ساخط مما حل ببلادي لسببه لا يسعني الا ان اخاصم كـــل أصدقاء الاحتلال » .

ومن هؤلاء القائمون على امارة شرق الاردن التي يرى انها « قد خلقت لتكون سورا للوطـــن القومي اليهودي ، اي لمنع تسرب اخواننا الاشقاء اهل شرق الاردن لفلسطين ســـواء للسكنـي ومساعدتنا على الكثرة امام الغزوة اليهوديـــة او لمنعهم من اغاثتنا عندما تغتالنا الغوائل .. » ولعل اقرب ما حدث هو ما جرى في ثورة ١٩٢٩ وما جرى ١٩٣١ لما منعهم الامير عبدالله مـــن الوصول الينا . وحكومة شرق الاردن ، كمـــا يقول ، « والتي خلقت لتحمي بوجودها الوطن القومي اليهودي في حاجة الى من يحميها مـــن قبائل الصحراء » .. اذن فيجب اغتيال ٢٣٢ الف جنيه من اموال اهل فلسطين لتنفق على صيانة تلك الحدود ! اي صيانة حدود السياج الـــذي يحمي الصهيونية »(١٢).

ولم يكن الطاهر يؤمن بجدوى جمعية الامم فقواعد « ولسن الخيالية اوهمت النـــاس ان جمعية الامم ستكون لخدمة الامم الضعيفة فاذا هي عصابة شديدة لا عمل لها الا تسويغ اعتداءات الاقوياء على الضعفاء » .. فيجب ان لا نعرف جمعية الامم فهي « هيئة ضالة فيجب بالاول ان نشكو منها لاننا جربناها طويلا منذ ١٢ سنة فاذا هي اغشم من الدول المستعمرة ولا تحترم الا من كان عنده مدافع ودبابات ، فهل عندكم مدافـــع ودبابات ؟ »(١٣).

ما ينقذ فلسطين التي « تذوب العربية فيها الان ذوب الشمع ، ويجري فيها اليوم ما جرى في الاندلس بالامس ، وان اختلف الاسلوب » عدم تخلي العرب عنها حتى لا يندموا بعد فـــوات الاوان ، لذا يقترح الطاهر قيام حركة عربية يكون هدفها « المبادرة من كل عربي في الاجزاء الاخرى من ارض الشام على الاخص لمشترى ما يستطيع ان يشتريه من اراضي فلسطين الزراعية التـي يرغم الظلم او الحاجة الماسة اصحابها علـــى بيعها » . وردا على تساؤل البعض عما تستطيع مصر ان تصنعه لفلسطين وهي منكوبة ايضـــا بالاستعمار يقول الطاهر(١٤) « .. ان ارتفـــاع الصوتين معا ليردع الظالم مهما تجلد وتظاهـــر بالقوة وعدم المبالاة فالتهاون في نصرة فلســـطين وهي درع لمصر ان كانت فلسطين حرة ، وشوكة في جنبها ان خرجت من أيدي العرب ، انما هو مثل التهاون في حق مصر » .

وقبل أشهر من نشوب ثورة فلسطين الكبرى عاد الطاهر لزيارة الوطن القديم فلسطين ، واخذ اذنا بالاقامة سنة فانذرته السلطات بالخروج من فلسطين والا اتخذت معه الاجراءات القانونية على اعتبار انه اجنبي ولما احتج قيل له انه القانون فكان رده « بأي حق تعتبرني لندن اجنبيا وكل شيء يشهد بأني ابن هذه البلاد بينما قانون لندن يعتبر اليهودي البولوني المهاجر فلسطينيا »(١٥).

ويوم كانت ثورة فلسطين الكبرى على أشدها جمع اخبار فظائع الانكليـــز واليهود ورســـوم الشهداء في كتاب سماه «فلسطين ارض الشهداء» ليوزع مجانا لانه دبر نفقاته منه ومـــن بعض الاصدقاء وكانت المطبعة قد انجزت ٣٦ الف ملزمة فصادر البوليس الكتاب والكليشهات ، مع انه

لا يتعلق بأمور مصر الداخلية ، وكان مصير الكتاب الحرق لم يبق من آثاره الا البروفات كدليل وحيد باق .

ولم تتوقف مساعيه في مصر من اجل فلسطين وخاصة في اوساط حزب الوفد وهم خارج الحكم او في السلطة ، ولما زار وفد من شباب يافا مصر ١٩٣٦ سهل الطاهر لهم الزيارة وحضر مصطفى النحاس حفلة تكريم للوفد ونوه مكرم عبيد خلالها الى ان محمد علي الطاهر هو « سفير الاقطار العربية في مصر » فقاطعه النحاس « وسفير مصر في الاقطار العربية » . وكان النحاس وهو رئيس وزارة ١٩٣٧ اول رئيس حكومة مصرية دافعت عن فلسطين رسميا في عصبة الامم بجنيف . وللطاهر فضل في جعل الصلة تنعقد بين النحاس وبين مناضلي فلسطين عند عودتهم من منفاهم بجزيرة سيشل « على اعتبار ان ابطال مصر في سيشل ١٩٢٢ اولى بالصداقة مع ابطال فلسطين الذين كانوا بعد ذلك في سيشل ١٩٣٧ — ١٩٣٩ وهو تأييد عربي للجانب الوفدي له معناه في تلك الايام »(١٦).

وكان الطاهر خلال تلك الفترة قد أعاد اصدار جريدة الشورى باسم مستعار وهو (الشباب) أصدرها نحو عامين وقد أعاره اياها محمود عزمي بلا شرط ولا أجر كما فعل منذ عشر سنوات « ليشرف على تحريرها وادارتها بمطلق حريته دفاعا عن الحقوق العربية » راجيا ان يساهم بعض المساهمة في نصرة القضية العربية الكبرى وطلب منه العودة الى جهاده الصحفي المقدور في سبيل العروبة والحرية .

ومع تأزم الموقف الدولي قبل نشوب الحرب الثانية اغتنم الطاهر فرصة اضطراب الانجليز وخوفهم من الحرب وطنطنة صحفهم بصداقة مصر والعرب ليبعث الى علي ماهر (رئيس الوزارة) برقية في ١٩٣٩/٨/٢٧ يقول فيها بأن « الموقف الدولي المضطرب الان والذي أثر في اتجاهات السياسة الانجليزية في الشرق والغرب يجعله يقترح اغتنام الفرصة لمراجعة الدولة البريطانية لحل القضية الفلسطينية حلا عادلا وهو يعتقد ان الدولة البريطانية لن ترفض طلب مصر حليفتها وهي في هذا الظرف الدقيق لتكسب رضاء مصر وتأييد ملايين العرب والمسلمين وان قيام الازمة الدولية من شأنه ان يبرر لبريطانيا اي عمل سريع وحاسم لحل قضية فلسطين واهل فلسطين يعلقون اكبر الامال للعمل على انقاذهم مما يقاسونه من شدائد وشقاء » . وقد أكد له علي ماهر بأن اهتمامه بقضية فلسطين يقوم على اعتبارات دائمة من الجوار والحسنى « تدعوه في مختلف الظروف والمناسبات للسعي في حلها بما يرضي اعتقادنا بعدالتها »(١٧).

وقد أراد الطاهر ان يقاوم الدعاية الانجليزية التي تصور الانجليز اصدقاء العرب بطريقة مبتكرة فأخرج عشرات الالاف من النسخ القديمة من جريدة الشباب والعلم اللتين كان يصدرهما قبل الحرب عن فظائع الانجليز في فلسطين وصار يعطيها تدريجيا لبائع جرائد ويأخذ ثمنها « .. فكان الناس يقابلون بين اذاعات الانجليز ونشرياتهم في اثناء الحرب وبين ما يقرأون عن فظائعهم القديمة .. فيذكرهم ذلك بحقيقة الانكليز » .

تجاربه على ضوء ما عرفه ولقيه في الحرب الاولى جعلت الطاهر يفهم تماما ما سيلقى من الاحكام العرفية بعد وقوع الحرب ، ومنعا لتحريك ضغن الانكليز اوقف جريدة (العلم المصري) التي كان يصدرها بدلا من الشورى وأعلن حل اللجنة الفلسطينية والغاء مكتب الاستعلامات الفلسطيني وأوقف كل نشاط سياسي مترقبا نتيجة الحرب ، كما أحرق ما يمكن الاستغناء عنه من اوراقه ووزع الباقي على دوسيهات اودعها لدى اصدقاء . الا أنه سعى لتأليف لجنة بالاتفاق مع عبدالستار الباسل عضو مجلس الشيوخ للسعي في انقاذ المعتقلين السوريين والفلسطينيين من أيدي الانكليز والفرنسيين ، وربما احس الانكليز ، كما يقول الطاهر(١٨) « انه يقوم بنشاط سياسي لا يريدونه فكان ذلك هو السبب في تحريك حقدهم » .

وبعد مرور سنة على اعلان الحرب اوعزت السلطات البريطانية في مصر بالقبض عليه ضمن الذين قبض عليهم سياسيا واودع احد المعتقلات سنة ١٩٤٠ ، ويعلق الطاهر على هذا الاعتقال بقوله « .. الان اصبحت منكوبا مثل اخواني وأقاربي اهل فلسطين الذين نكبوا جميعا ولم يبق من المنسوبين لفلسطين احد بقي بدون حبس الا أنا، فأستطيع الان ان ارفع رأسي امامهم شامخا». وقد أشار احد كبار الانكليز الى « ان مشكلتنا مع محمد علي الطاهر مشكلة لا علاج لها ، فهو اذا

حبسناه هاج اصحابه علينا ، وان تركناه هيج الراي العام علينا » .

وقد اصيب الطاهر بمرض في السجن فنقل الى احد المستشفيات واستطاع ان يهرب وتنكر واختفى احد عشر شهرا عملت الوزارة جهدها للاهتداء اليه فعجزت حتى ظهر فجأة في رئاسة مجلس الوزراء اثناء اجتماع النحاس بالصحفيين في مارس ١٩٤٢ . وقد سطر خلال الهرب ، كما يقول(١٩) « .. مذكرات وملحوظات وخواطر وملاحظات متناثـرة وبعض الشجون والشؤون والتجـارب والمطالعـات والتعليقات من سياسية وتاريخية وادبية وبوليسية ونظرات في الاستعمار واحوال الامم المظلومة » أخرجها جميعا في كتاب ظلام السجن بعد ان اضاف لها ملاحظات وخواطر جديدة صادفته حتـى طبع الكتاب نهائيا ١٩٥١ بصورة تجعل القارىء « يرافقه في تلك الفترة من الحياة كأنه يستعرض فصـلا سينمائيا متعاقب الحوادث ، متلاحق الصـور والمناظر .. » وهو لا يزعم انه يسطر كتابا في العلم او في الهندسة .

في كتابه يحمل بريطانيه مسؤولية مـا حـل بفلسطين فلسطين ما كانت معادية لبريطانيه ، ولكن بريطانيه استولت عليها بالحديد والغـدر وادعت انها وصية تريد ان تمدن البلاد والعرب لهم العذر في بعض بريطانيه وتمنيهم انكسارهـا أثناء الحرب ، ما ذلك الا لانهم جاءوا بالصهيونيين اليهود الى فلسطين لجعلها « دولة يهودية تحت رعايتها لتحمي لها قناة السويس من الشمـال ويحرس لها الشعب اليهودي ارض فلسطين لتكون محطة لطياراتها .. » . وأقلقته اخبار تدفق اليهود وتعجب « اذ لا عمل لهؤلاء الانكليز حكومة وشعبا الا خدمة اليهود وحماية اليهود » ، والغريب ان الانكليز في خلال الحرب وفي الايام التـي كانوا ينهزمون فيها أمام الالمان كانت بريـطانيـة لا تتستر في عطفها على اليهود ولا تكتم سوء نيتها نحو العرب واصرارها على اعطاء فلسطين لليهود واقامة الدولة اليهودية فيها(٢٠) لذلك كان يمني نفسه بأن انكسار انكلترا في الحرب سيحل مشكلة اليهود وسيهربون من فلسطين قبل خروج الانكليز منها ، بل حتى انه « لا يمكن للعالم ان يعيش بسلام الا اذا ارغمت دولة بريطانيا على الانكماش في جزيرتها ورفع سيطرتها عن الدنيا التي تتسلط عليها فيزول الاستعمار من الدنيا بأسرها لانها هي أم الاستعمار وهي التي علمت فرنسا وايطاليا فن الاستعمار ، بعد ان تعلمته مـن هولندا وورثت مستعمرات المانيا »(٢١).

الموقف ذاته وتنه من دول الاستعمار كلها : فرنسا التي تحتل العالم العربي المغربي في تونس والجزائر ومراكش ، وأهم مناطق العالم العربي الشرقي كسوريه ولبنان ، وبمناسبة سقوط باريس عدد ما ارتكبته فرنسا مـن فظائع في هذه البلاد « .. المستعمرون دائما هم هم ، تبطرهم النعمة وتصلحهم النقمة ولا ينفع معهم الا سحقهم ومحقهم الى أبد الابدين »(٢٢).

أما أمريكا « .. ثالثة الاثافي دولة الدولارات والماكينات واسهم الشركات اليهودية.. التي تطفلت على السياسة الدولية اخيـرا بفضل (الدولار والمدفع) ، والتي ظهر من سياستها وتصرفاتها وافاعيلها انها لا تعرف دينا الا القوة ، وانها لا تنصر الا الظلم والعدوان لاننا لم نرها في جانب الحق مرة واحدة .. ولا لحظة مطلقا ، منذ عرفناها في الحرب العظمى حتى هذه الساعة، ويكفي احتضانها لليهود ، او احتضـان اليهود لها وسيطرتهم عليها ، وعلى رئيسها ، وعلى حكامها ونوابها وعلى عقول شعبها وضمائر أهلها »(٢٣).

وكان الطاهر يتعاطف مع كل الشعوب المضطهدة اذ « تكفي نظرة واحدة الى خارطة الشرق الاقصى حتى تأخذه الدهشة من ظاهرة مهينة للشرق كله ، .. حيث تتحكم بريطانيا وامريكا وفرنسا وروسيا وهولندا والبرتغال .. فهذه الدول الطفيلية الكبيرة منها والحقيرة تأتي من كل انحاء العالم لتستعبد ذلك الشرق فتسلب وتسرق وتقتل وتذبح .. »(٢٤).

لم يكن غريبا اذن ان ينحاز الطاهر بعواطفه الى المعسكر الثاني اذ ان « كل شيء يهون في نظرنا الابقاء الانكليز » ، ولذلك حين بلغه وهو في السجن انه متهم بالاتصال بالطليان لتشويه سمعته قال « .. ولكن ماذا علي لو اتصلت بالطليان والالمان ليساعدونا على الخلاص من الانكليز ؟ ألم يقل المستر تشرشل انـه مستعد لان يستعـين بالشيطان ليخلص انكلترا من الالمان ؟ » ، وبينما كانت الدنيا غارقة في مصائب الحرب « وكان انتصار الالمان على الانكليز برا وبحرا وجوا يشرح صدورنا

كنت اقول يا رب هل يستريح العالم من انكلترا واستعمارها ؟ لنفرض ان الالمان كانوا اشرارا ان انتصروا وحكموا مصائر البشر بدلا من الانكليز ، فهل يمكن ان يكونوا شرا من الانكليز ؟ اما اذا كان الالمان مثل الانكليز فلا نكون قد خسرنا شيئا »(٢٦). وحين سمع بذهاب الامير عبدالله الى الملك عبد العزيز ليتفق معه على منع الالمان من النزول في البلاد العربية بدلا من ان يفكر في اخراج الانكليز الموجودين فعلا في بلاده يقول الطاهر « .. لقد كان نزول الالمان في البلاد العربية هو غاية ما نرجوه للتخلص من الانكليز ، وان قال قائل ، كيف ترجو ان يحل الالمان محل الانكليز ؟ أقول انني افضل ان يجتاح البلاد العربية كل من يستطيع ان يخلصها »(٢٧).

كان يرى ان معركة ستالنغراد (اوائل ١٩٤٢) ستقرر مصير العالم الى مئات السنين فلو هزم الالمان لربحت انكلترا الحرب على حساب روسيا ، كما تربحها امريكا بعد الحرب على حساب انكلترا لان هذه ستتفق مع امريكا وتلجأ اليها بعد الحرب .. ولا يمكن الا هذا ، ولن تسمح امريكا للروس بأن يشاركوها السيادة على العالم .. وقد قال العرب قديما « .. ما اجتمع فحلان على مذود الا فتك احدهما بالاخر »(٢٨).

لقد كان يفهم من معاني انتصار الانكليز والحلفاء اشياء كثيرة « ويكفي منها بقاء الاستعمار في الدنيا على صورته البشعة واساليبه المروعة .. وستصير فلسطين طعمة لليهود ، والويل للعالم العربي من انكلترا ، والويل للامم الضعيفة ما دامت هذه الدولة موجودة في الدنيا فهي أم الاستعمار وبؤرة العدوان ومثار الحروب » لقد كان يتوقع « ان انكلترا في حالة الانتصار ستتنمر ، وان فرنسا ستأسد ، وان الاستعمار سيكشح في عدواته علينا ... » .

لذا فقد انعشته اخبار ثورة رشيد عالي الكيلاني التي سمعها في اثناء فراره « .. اذ تنذر بأن ساعة الانكليز قد دنت ، وها هو العراق قد تحرك وليس بعد ذلك الا قيام العالم العربي على الاستعمار .. »(٢٩). لقد كان كل شيء في ذلك الحين يؤذن باستسلام بريطانيا بين يوم وآخر ». واعتبر الطاهر انتصار بريطانيا على حركة العراق هزيمة للعالم العربي بأسره « .. ومما يؤلم ويسود وجه التاريخ العربي ان هذا العالم العربي قد خذل العراقيين وحركتهم التحررية خذلانا واضحا وكانت حكومة شرق الاردن المحسوبة على العرب بأنها منهم قد نجحت ضد العراق وساقت جيوشها العربية ودباباتها الانكليزية وطعنت العراق من الخلف فأعادوها الى كنف الاستعمار وأبقوها معهم تحت كلكله »(٣٠).

كان يطمح وهو يسمع اخبار الهزائم البريطانية امام الالمان ان تقوم حركة عليهم في الهند او مصر او بلاد العرب تكون كافية لفض مشكلتهم معهم وخلاصهم من الاستعمار الى الابد . لقد كان يتصور لو ان العربي والمسلم الذي يسكن هذا الشرق قد تحرر من انكلترا فان حجتها تسقط فورا حين تقول « انها تتخذ قنال السويس خطا دفاعيا عن الشرق خوفا من روسيا ، لان البلاشفة يستطيعون تدمير قنال السويس بضربة هوائية واحدة »(٣١). ولكن العالم العربي والاسلامي « ظل نائما ينتظر ان يهبط عليه الاستقلال من السماء مكتفيا بالفرجة على الامم التي تتطاحن في سبيل المجد والسيادة والسيطرة ، غافلا عن الحقيقة وهي ان هذه المذبحة الدائرة على وجه الارض انما تدور من اجل التسلط عليه وخنقه الى يوم البعث » . بل لقد وجد ان بعض اجزاء من العالم العربي والاسلامي لشدة غفلته وتفككه تسابق في مساعدة بريطانيه على كسب الحرب ، مع انه قد سبق له ان خدع بكذب تلك الدولة في الحرب الاولى « .. فاذا كانت الغفلة قد استحوذت على الامم المقهورة اكثر من مرة في خلال ربع قرن بينما لا يزال ابناء ذلك الجيل احياء فما اجدر ابناء الاجيال المقبلة بالسخط على الجيل الذي انخدع في ربع قرن مرتين »(٣٢).

ظروف الحرب العالمية الثانية قد اوجدت مؤسسة جديدة في العالم العربي هي الجامعة العربية وسجل الطاهر في (ظلام السجن) قيام الجامعة فكان من اول الداعين ومن اشد الذين صوبوا لها النقد . لقد كان خوف بريطانيا في أوائل ١٩٤٣ ، كما يقول الطاهر في كتابه(٣٣)، مما يتمخض به العالم العربي من حركات استقلالية وفورات حقوقية ، بينما كانت في الوقت نفسه تعاني الهول من الحرب ، فساورها القلق من قيام العالم العربي عليها بحركة تزيد في دقة مركزها الحربي مع الالمان فرأت ان تقوم بخديعة تشغل البال عنها كعادتها كلما نكبت بنكبة عالمية ،

فاعلن ايدن في مجلس العموم ان حكومته لا تعارض في تاليف جامعة عربية ، فاشغل هذا التصريح ذهن الشعوب العربية فقوبل بالارتياب الذي يقابل به كل مشروع انكليزي .. » . وفي اثناء الاستشارات بين النحاس والشخصيات العربية الرسمية حول انشاء الجامعة سأل الطاهر محمد صلاح الدين سكرتير مجلس الوزراء ، وكان من أهم الشخصيات التي لها اثر ازاء تأليف الجامعة ، « هل اخذتم من بريطانيا الثمن قبل ان تباشروا القيام بهذه العملية .. » ويعني به ان يكون النحاس قد ربط الانكليز بوثيقة رسمية واخذ منهم عهدا قبل ان يشغل فكر العالم العربي بهذه الجامعة ومفاوضاتها سنة أو سنتين ، حتى اذا خرجت انكلترا من الحرب منتصرة تنكرت لمصر وللعرب ، وتصبح فلسطين والبلاد العربية ضحية للانكليز مرة اخرى. برأي صلاح الدين ان الحكومة المصرية « قد وجدت اعترافا انكليزيا تأخذه على منطوقه وتقوم بالمشروع فعلا بدون ان تقيم وزنا لنوايا الحكومة البريطانية». وبرأي الطاهر « ان شعوب العالم العربي لا تثق بحكوماتها الحاضرة فكلها مؤلفة على هوى الانكليز وباشرافهم وتدريبهم وتأييدهم » ، الا ان صلاح الدين كان يرى « اننا امام حكومات عربية قائمة فلا بد من دعوتها بقطع النظر عن كونها موجودة برضاء الشعوب ام غير ذلك ، ولكن الايام ستصحح هذه الاوضاع وتتداول المسألة حكومات كثيرة الى ان تتولاها الحكومات التي ترضى عنها الشعوب ، ونكون نحن على كل حال قد كسبنا هذه الجامعة التي ستصبح مع الايام حقيقة واقعة يحسب حسابها » .

وأسر الطاهر الى صلاح الدين «ان قيام الجامعة بدون فلسطين تصبح شوهاء » فوعده صلاح الدين بأنها ستدعى للاشتراك وسيكون لها المقام المفضل، واجابه الطاهر انها لن تشترك الا اذا أعادت بريطانيا المنفيين من روديسيا وغيرها « فنصدق حينئذ ان بريطانيا ستغير سياستها مع العالم العربي » . وقد أصر الانكليز على رفض اعادة المبعدين برغم توسط النحاس وتمسك اهل فلسطين برفض الاشتراك في الجامعة الا اذا عاد المبعدون ، « والظاهر ان هذا الاصرار قد والق هوى في نفوس الانكليز فاشتدوا في رفض الافراج عن المبعدين حتى لا تظهر فلسطين على المسرح.. » .

وقد أقر اخيرا ان يستدعي النحاس شخصا من فلسطين لتمثيلها في تلك الجامعة وعند حضوره يطرح هو مسألة المبعدين في اجتماعها الرسمي . « وستنحل العقدة تدريجيا لخوف الانكليز من اثارة مسألة كهذه في مجتمع كهذا .. » . وقد اوعز الطاهر – كما جاء في ظلام السجن – الى صلاح الدين ان يعمل على ترشيح موسى العلمي وبمساعي قنصل مصر في القدس حصل موسى العلمي على توكيل من رؤساء الاحزاب الفلسطينية الستة ، ودخل العلمي الجامعة وحضر مداولاتها باسم فلسطين ولكن تمثيله فلسطين لم يدم لاسباب كثيرة وقد حضر بعد الافراج عن معتقلي روديسيا جمال الحسيني لحضور مجلس الجامعة باسم فلسطين .

ما حدث بعد ذلك اقالة وزارة النحاس وسقوط الوزارات العربية الاخرى ووجدت الوزارات الجديدة نفسها أمام الامر الواقع ولم يسعها الا المضي في مشروع الجامعة العربية فسارت فيه على « شكل اعوج وعن طريق متعرج » . وفي ٢٢ مارس ١٩٤٥ امضى ممثلو البلاد العربية ميثاق الجامعة وهو دون بروتوكول الاسكندرية في روعته وقوته ، فقد تدخل الانكليز في أمر الجامعة ووصل تأثيرهم الى مسخ البروتوكول واسقاط فلسطين من عداد الدول العربية ، وهكذا ظهرت فلسطين في الميثاق بشكل مبهم وضعيف ، ولما سأل الطاهر عزام في حفلة تكريم الوفود « .. لماذا مسختم قضية فلسطين في الميثاق مع انها كانت اقوى وأبرز واظهر في البروتوكول » فقال « الخواجات ماوزين كده وكانوا بريدون شقلبة المشروع فرضينا بما قدرنا عليه ... »(٣٤).

كان رأي الطاهر يوم اسست الجامعة « انها يجب ان تكون وان تبقى وان نؤيدها ونعضدها بكل الوسائل بعد ان تمنيناها » . ولكن بعد مضي العام الاول على قيام الجامعة « وعندما كان العالم العربي لا يزال مأخوذا بها.. تنبهت الى حالها... وتوقعت ضياع فلسطين على يدها فبادرت وكتبت ما لاحظته في جريدة مصر الفتاة بالقاهرة ، وأرسلته الى جرائد فلسطين قبل ان تضيع ... لانبه العالم العربي الى حقيقة الجامعة .. وحذرت الامة العربية من الركون الى الجامعة حتى لا تضيع فلسطين من ايدينا ... »(٣٥).

ولعل أبرز ما كان يؤاخذ عليه جامعة الدول

العربية « انها هيئة قوالة اكثر منها فعالة » وقد ادى الكلام الكثير في الجامعة الى الاضرار بقضية فلسطين وخصوصا في مسألة الاراضي .. فقد صدق اليهود ان جامعة الدول العربية ستنقذ الارض فبادر اليهود الى الاستيلاء على الاراضي بأساليب شتى ، بل ان حكومة فلسطين صدمت فصارت تهب الارض لليهود بمساحات واسعة ... فكانت النتيجة ان اليهود استولوا على الكثير بدون ان تنقذ جامعة الدول شيئا بل اقتصرت جهودها على درس المقترحات ووضع الخطط على الورق والكلام .. مع ان انقاذ الاراضي من اسهل المشاريع لو اخذت مليون جنيه وأمدت به صندوق الامة بصفة قرض مستعجل . وظهر عجز الجامعة في مقاطعة البضائع اذ عقدت اللجان ووضعت القرارات ولكنها لم تنجح في تنفيذ شيء منها »(٣٦).

انتهت الحرب العالمية الثانية وعاد العالم العربي يضطهد من جديد « ليرى كل الوعود والعهود التي قيلت في هذه الحرب لم تكن الا خداعا وتغريرا وضحكا على الشعوب » . لقد وجد الطاهر ان النتيجة التي اسفرت عنها الحرب قد آلمت الدنيا كلها « .. لا محبة بالالمان واليابان ولكن أسفا على الدولتين الفتيتين المانيا واليابان وخروجهما من الميدان الدولي العالمي ، بعد ان كان وجودهما كافلا لحفظ التوازن بين الدول وكان يخيف دول الاستعمار على الاخص ، واما الان فان الكرة الارضية كلها قد باتت نهبا للانكليز والفرنسيين فيتحكمون في أهلها ويهددون الامن العام بين دول المعمورة ، بحماية امريكا وبمالها وقوتها الفنية وعقول اليهود الذين أصبحوا أسيادها »(٣٧).

واقتربت كارثة فلسطين وأقر مشروع التقسيم فكتب الطاهر « .. هذه اول مرة — وآخر مرة بلا شك — يسجل فيها التاريخ ان مصير امة برمتها يوضع في سوق المزاد العلني وتعطى فيه الرشوة جهارا . وأول مرة يعرض فيها مستقبل أمة في ميدان الاقتراع . انني اشير على كليات الحقوق في العالم كله بأن تلغي فيبرامجها قوانين حقوق الامم ومعاهدات الدول ما دام ان مصير الامم يقرر في ساحات البورصة وامام صناديق الاقتراع ! وأطلب من كل دولة دستورية في الدنيا ان تحذف من دستورها كل كلمة تتعلق بقانون حقوق الانسان ». لقد كانت هيئة الامم المتحدة « أعجب خدعة تمت في تاريخ العالم » . ويضيف الطاهر « .. لم اعرف معنى المثل القديم رمتني بدائها وانسلت الا بعد جريمة تقسيم فلسطين ، فبريطانيا التي لم يعرف التاريخ البشري لنفاقها مثيلا والتي أفسدت اخلاق الدول والامم وأوقعت البغضاء بين سكان الارض جميعا ، رأيناها اليوم تتسلل من دائها الذي رمت به فلسطين وتنادي ببراءتها مما صنعت وتبرهن على ذلك بالوقوف عند التصويت على التقسيم موقف المحايد البريء وتمتنع عن اعطاء صوتها لليهود » .

أورد الطاهر ذلك في كتاب طبع في مارس ١٩٤٨ أطلق عليه اسم (أوراق مجموعة — كتاب أحمر عن فظائع الانكليز في فلسطين وغدر اليهود وصبر العرب) وهو مجموعة من الوثائق المقتطعة مما استطاعت صحف فلسطين نشره تحت الرقابة البريطانية عن الحرب الدائرة في فلسطين ، وهذه الاخبار هي نموذج لحوادث الشهور الثلاثة وبعضها من اوراق ووثائق سابقة ، يضاف اليها عدد من المقالات كان الطاهر قد نشرها في صحف كثيرة في القاهرة وامريكا ، أورد هذا كله بدون ترتيب ولا تبويب .

خطورة الاحداث الجارية هو عدم وجود جبهة للحرب في فلسطين فالقتال يدور « بين عدوين يتساكنان في المدن والقرى وفي الشوارع والحارات المشتركة فالقتال اذن يدور في كل مكان وفي الليل والنهار ، فلا استراحة ولا هدنة ولا استجمام ، فالتقتيل في فلسطين عام والذبح شامل .. فلا يدري الانسان كيف يقتل ولا متى يتهدم بيته على رأسه »(٣٨).

أصابع الاتهام تشير الى الانكليز فهم المسؤولون امام العالم بأسره على ما يجري في فلسطين من فظائع ضد العرب ، « ولا شك في ان العالم العربي ليس مؤمنا » كما يذكر الطاهر « .. لانه مكن للسياسة البريطانية من ان تلدغه مرتين ، ففي الحرب الكبرى (١٩١٤ — ١٩١٨) صدق العرب وعود لويد جورج والدكتور ويلسون عن حريات الشعوب وتقرير المصير ، فساعدوا الحلفاء فكان جزاؤهم التمزيق او الاستعمار والانتداب ... وفي الحرب العظمى الاخيرة وقع العالم العربي مرة اخرى في نفس الغلطة وساعد تشرشل وروزفلت فكان جزاؤه من حكومتيهما الانقضاض على فلسطين بأبشع مما جرى في الحرب الاولى ، وهذا بلا ريب

أبلغ عقاب لمن يثق بدول الاستعمار ... » .

ان مبتكرات حكم الانكليز في فلسطين لا يمكن الاحاطة بها لكثرتها ، كما لا يمكن حصر فظائع هؤلاء المستعمرين في الثلاثين سنة الماضية فالمهمة « التي مارسها الانكليز واليهود ضد العرب كانت مهمة قتل أمة وقلعها من ارضها ووطنها وطمس آثارها وازالة مقابرها ومساجدها ومحو تاريخها .. » . واستعمل الانكليز واليهود أعجب الوسائل لقتل هذه الامة ومنها سلب الارض وسن القوانين لتسويغ الاعتداء، والغوا المحاكم وأقاموا السجون لتنفيذه ، ... واستعملوا مع العرب طرق القمع الاجماعي بنسف المدن وتدمير القرى وشكلوا هيئة الجاسوسية للارهاب بوسائل التعذيب(٣٩).

ويعطي الطاهر أمثلة عديدة عن المعاملة المتناقضة بين العرب واليهود التي تتبعها السلطات البريطانية « فقد مضى على وجود انكلترا بفلسطين ٣٠ عاما فلم يحدث انها اجابت العرب الى رفع مظلمة عنهم مطلقا ولكنها دائما تلبي لليهود اوامرهم وتدللهم »، لقد رأى ان الجيش البريطاني مشغول بخدمة اليهود في كل شيء حتى عن نفسه ، مشغول بمقاتلة العرب لحماية اليهود ويمكنهم من اسلحته ايضا ليفتكوا بالعرب ... وقد بلغ من نفاق بريطانيا ان أعلنت انها لا تسمح ببيع السلاح لليهود ولا للعرب « وقد صدمت لانها تهب لليهود المدافع وبراميل الديناميت والدبابات وتنزع سلاح العرب .. » . بل ان الانكليز في فلسطين « قابلوا كل ما صنعه بهم يهود الصهيونية بصدر رحب وصبر جميل ، فلم يقتلوا يهوديا ولا نكلوا بحي ولا أعدموا قاتلا ، اذن فبريطانيا لم تغضب ولم تثر ولم تتحرك لوضع حد للارهاب اليهودي حتى ولو فتك اليهود بجنودها وخطفوا قضاتها وجلدوا ضباطها البواسل بالكرباج ، واما العرب اصحاب البلاد الذين نصروا بريطانيا في الحربين . فان بريطانيا تعدم العربي ان حمل سلاحا وتنسف القرية العربية ان أطلقت منها رصاصة وتشرد زعماء فلسطين السياسيين الى مصر وسيشل وروديسيا ، وتضع بعضهم في سجون فلسطين بضع سنين بلا سبب ولا تهمة ولا محاكمة .. وهكذا فان الانكليز في فلسطين مشغولون عن اليهود الذين يسفكون دمهم النبيل الشريف بسلب اراضي العرب وتقديمها كهدايا ومكافآت لليهود فهل يمكن لاحد ان يعلل هذا الا ان يكون اليهود قد استأجروا بريطانيا لخدمتهم ، وكلما قصرت عاقبوها بالفتك بجنودها وتقتيلهم»(٤٠).

وفي خلال التنكيل بالعرب وتدليل اليهود يزيد عدد هؤلاء من ٥٠ الفا الى ٩٠٠ الف اي « ان عدد سكان فلسطين اليهود قد ساوى عدد العرب في اقل من ثلث قرن فبعد ثلث قرن اخر ماذا يبقى للعرب في فلسطين » . والانجليز هم الذين جلبوا اليهود لفلسطين ولا يزالون حتى الساعة يجلبونهم بشتى الوسائل « .. هذا مهاجر شرعي وذاك غير شرعي وهذا عابر طريق ، وهذا قادم للنزهة ، والخلاصة ان المسألة كلها عند الانجليز هي جلب يهود لفلسطين بقدر الامكان ، والنتيجة هي اخذ البلاد وطرد اهلها منها » . في حين تصدر احكام بالسجن على عرب بتهمة الدخول الى فلسطين بصورة غير مشروعة وبالابعاد « ويبدو ان ما قد حلل لليهود قد حرم على العرب ، وان السجن هو جزاء العربي الذي يدخل بلاده ، واما معتقلات الترفيه والانسجام من حظ اليهود » .

جزء كبير من المسؤولية تحمله امريكا وتعليقا على تصريح وكيل الخارجية الامريكية ان الهجوم العربي في فلسطين خطر على سلامة الولايات المتحدة ويهدد الامم المتحدة بالزوال . يقول الطاهر (٤١). « .. الى هذه الدرجة من السفالة السياسية وصل الامر بالامريكيين ، فهم بعد ان اعتدوا على الدنيا كلها وسببوا دمارها بحجة ان المانيا خطرا على امريكا ، اصبحوا ينادون بان دفاع فلسطين عن نفسها خطرا على امريكا : يعني يجب ان يصدق الناس ان المليون عربي بفلسطين الذين يدافعون عن رقابهم وعن ذراريهم وارضهم يسببون خطرا على امريكا المسلحة التي يزيد عدد سكانها عن اهل فلسطين بمائة واربعين مرة .. »

« .. لماذا لا يكون توجيه هؤلاء اليهود المساكين المظلومين الى الولايات المتحدة الواسعة الغنية بدلا من فلسطين الفقيرة الضيقة التي لا تريدهم بينما ترومان يريدهم ؟ وكيف يجوز لرئيس امريكا ان يصلح ظلما وقع في المانيا فنظلم اهل فلسطين في اسيا الذين لا يد لهم فيما وقع من الالمان ضد اليهود في اوروبا ؟

بقي شيء واحد لم تحسب بريطانيا وامريكا حسابه « وهو العالم العربي الذي اعلن في مؤتمر

بلودان ١٩٣٧ (ان فلسطين ليست ملكا للفلسطينيين العرب وحدهم بل هي ملك العالم العربي جميعا)، ومعنى هذا ان اهل فلسطين ان فرطوا بفلسطين او عجزوا عن حمايتها فان الامة العربية لا تفرط، وستدافع عنها الى النهاية . فهل تريد بريطانيا وامريكا محاربة العالم العربي لتكفل قيام الدولة اليهودية ؟ وهل تتحرك جيوش الدولتين لسحق بعد ان انهزمت تلك الجيوش امام الالمان واليابان — ولولا القنبلة الذرية » .

ما اقلقه ان « الدول العربية ترى وتسمع دون ان تتحرك ، وجامعة الدول العربية واقفة تشهد وتتفرج دون ان تحتج او تعمل ، لانها مشغولة اليوم بتأليف كتاب عن الاندلس ! مع ان الاندلس الجديدة موجودة بجوارها تناديها وتسألها الغوث قبل ان تلفظ انفاسها ، حتى لا تفكر الجامعة بعد ذلك في وضع كتاب عن اثار العرب في فلسطين(٤٦)» هو يذكر العالم العربي ، ان حالة فلسطين اليوم اسوأ منها بالامس ، وستكون غدا اسوأ منها اليوم وهكذا .. اما سبب هذا التدهور فهو كثرة الكلام، كلام الصحف وكلام الساسة وكلام جامعة الدول العربية ... ولولا كثرة كلام الفصحاء لما ركن اهل فلسطين الى المساعدة الخارجية ولاعتمدوا على انفسهم واهل فلسطين مغدورون ما داموا يسمعون بمئات الوف المتطوعين لانقاذهم وبملايين الجنيهات لاسعافهم ثم يفتحون عيونهم فلا يرون احدا(٤٧). ويوجه نداء حارا الى العرب كافة بمساعدة عرب فلسطين الان قبل فوات الاوان « ولا تركنوا لوعود جامعة الدول العربية التي لا تنفذ والتي لا تخطو خطوة الا بعد ان تراجع القوانين والاصول الدبلوماسية ! في حين ان مجرمي اليهود والانكليز لا يفكرون في تتالهمُ لعرب فلسطين الا في ابادتهم بعد ان تجاهلوا القوانين ونسوا العرف وداسوا على ابسط قواعد الانسانية ... العالم يرى قوافل النجدة والعتاد من اليهودية العالمية ، ويسمع فقط مقررات الدول العربية فالى متى ؟... »

ومع ازدياد سوء الاحوال وقرب ضياع فلسطين اخذ يوالي الكتابة والتحذير بلهجة اشد واسلوب اوجع الى ان بلغت الحدة في مقال كتبه في اوائل مايو ١٩٤٨ اي قبل سقوط فلسطين بعشرين يوما، قدمه للصحف وجعل عنوانه مؤلما موجعا وهو « ان الهلع من الانكليز يوجب على جماعة جامعة الدول العربية ان يستقيلوا فورا او يغربلوا جيدا » وسأل الامين العام لجامعة الدول العربية « .. ماذا صنعتم بفلسطين اتهمكم بانكم بالغتم في الخوف من الانكليز ، واسرفتم في ايهام الناس عما لديكم من قوة لا وجود لها واوهمتم فلسطين بقدرتكم وقرب الفرج والانقاذ وتحرك الجيوش للبطش باليهود فصدقتكم واعتمدت عليكم ، ثم اتضح عندما جد الجد انكم اسرفتم في الكلام ، وغررتم بفلسطين واهلها ، وها هم اليوم يذبحون ذبح النعاج ، وتنهب اموالهم ، وتسقط منهم في ايدي وحوش اليهود بعد ان دمروا القرى ودكوا العمران ، وها هم يزيلون العرب من ارضهم ووطنهم ، ويشردونهم في افاق الارض ، فلو انكم كاشفتم الناس بحقيقة حال الجامعة وانها لا تكاد تحمي نفسها ، وان الواجب على الفلسطينيين ان يدبروا امرهم لدبروا امرهم .. »

ثم كانت نكبة الامة العربية بضياع فلسطين وشغل الطاهر بالكتابة في الصحف والمجلات واذاعة النشرات من مصرع فلسطين واسباب النكبة ووجه قرار الاتهام الى الذين تسببوا في ضياعها وجنوا على اهلها ، وتناقلت صحف كثيرة في سورية ولبنان والمغرب العربي والعراق وامريكا سلسلة مقالاته. ويرى الطاهر « ان في الفصول التي كتبها عن اسباب مصرع فلسطين قد صور للجيل المقبل صورة مصغرة عن ناجعة فلسطين التي لا مثيل لها في التواريخ ليحكموا بعدلهم على الجيل الحالي الذي سمح بوقوع الكارثة فسوف يحاسبه الاحفاد على تهاونه وتفريطه(٤٤). هويتهم رجالات العرب بالجهل واللامبالاة وعدم الجدية في تناول المسألة ، فقد كانوا في اول العهد بانشاء الجامعة يتبارون في ادعاء العمل لانقاذ فلسطين حتى ان رؤساء الوزارات الخارجة على امتها كانوا يتقربون الى شعوبهم باسم فلسطين ويضعون في برامجهم مهمة انقاذها ، فكانت هذه الشعوب تقبل هذا الدجل وتصبر على حكوماتها الكريمة اكراما لفلسطين(٤٥).

ولم تسارع الدول العربية الى نجدة فلسطين في الوقت المناسب ولما انجدتها لم تكن جادة في حربها كما لم تكن مخلصة في حلبة المعارك « لانها ما كادت تشتبك مع اليهود في معركة جدية حتى رأيناها تتخاذل وتقبل الهدنة .. ثم تنصرف عن قتال اليهود الى اظهار صولتها وغطرستها على سكان المناطق

العربية الذين سلموا اليها مدنهم سليمة حرة ، فراحت تعلن بتبجح انها استولت عليها بدون مقاومة !.. لان الجيوش المنقذة لم تحارب اليهود ولم تخرجهم من فلسطين بل اخرجت الفلسطينيين، ولم تدافع عما كان في حوزتها ، ولا هي تركت للاهالي المجاهدين سلاحهم ليدافعوا به عن انفسهم (٤٦).

ويقارن بين ما فعلته بريطانيا لليهود وفاء بوعودها اذ لم يخرجوا من فلسطين الا بعد ان اخمدوا العرب واقاموا الدولة اليهودية « .. اما وفاء العرب للعرب جعجعة وخطب وتهويلات وحفلات وقرارات ووعود خدرت اهل فلسطين واماتت روح الجهاد والمقاومة من نفوس العرب .. »

لقد كانت الدول العربية قبل الهدنة الاولى سائرة في الطريق الصحيح فلماذا بالهدنة الاولى تقع بعنته ، ولا يعرف السبب الحقيقي لقبول الحكومات الهدنة المخزية « .. زعموا ان امريكا وانجلترا قد هددتا الدول العربية واوعزتا اليها بالكف عن قتال اليهود والا ... فان امريكا وانجلترا تضربان دول العالم العربي . لو كان صحيحا فان واجب الشرف كان يقضي على من قبلوا معرة الهدنة ان يستمروا في الزحف على اليهود الى النهاية وهذا اشرف ، فاما ان يقضوا على دولتهم قبل ان تقوم او تتدخل امريكا وانجلترا صراحة وبالقوة فحينئذ يجوز قبول الهدنة ، وانه لاشرف لاصحاب الهدنة ان تكسرهم امريكا وانجلترا من ان يفروا فزعا ورعبا امام عصابات يهودية لا وزن لها في ذلك الحين » .

من هو المسؤول عن ضياع فلسطين ؟ يوجه اسئلته الى جامعة الدول العربية فيجدها مشغولة عنه بالحفلات والخطب وعقد الجلسات ونضها ونشر البيانات وطيها وايجاد المشاكل بين الدول العربية ذاتها ثم تسويتها على حساب فلسطين(٤٧). وبعد هزيمة العرب في ميدان الحرب والسياسة اراد بعضهم ان يستر سوء تصرفه فراح يتهم الفلسطينيين بالتقصير ويحملهم وزرا لا يدلهم فيه ، « فان هؤلاء قد نادوا وانذروا بالخطر قبل وقوعه وقاتلوا الانكليز واليهود مدة ثلاثين عاما .. ثم سفكوا دماءهم مرارا واستغاثوا تكرارا(٤٨). لقد كان الحل ، برأيه ، وعرب فلسطين يقتتلون بصورة مختلطة مع اليهود ولم يكن بامكان اليهود عمل جبهة حربية ذات نظام ان تمد الحكومات العربية اهل فلسطين بالعتاد والرجال وتخصص نجدات للجهات الضعيفة دون ان تتدخل رسميا ... لولا الجامعة التي دخلت في قضية فلسطين عن غير ايمان لبقينا الى الان نشهد المعارك الطاحنة تجري بين الفلسطينيين واليهود(٤٩).

ويعود الطاهر ليتساءل « .. ايقع الحق كله فيما اصاب فلسطين على العالم العربي وحده ؟ وهل كل اهل فلسطين كانوا ابرياء ؟.. والجواب كلا لان اهل فلسطين ايضا يحملون قسطهم من المسئولية ، فهم لم يبذلوا من اول الامر ما كان يجب عليهم بذله من جهود واموال وتعاطف وسهر ... فاهل فلسطين لم يستعملوا الصداقة مثلا مع خونة البلاد واعوان الانجليز واليهود .. وكان ذلك من الفلسطينيين تراخيا وجبنا واستهتارا ، ولم تجد فلسطين من جيلها الجديد الذي ولد ونشأ في ايام الاحتلال تأييدا جديا ، لان هذا الجيل الارعن المتفرنج قد تهالك بعضه على الوظائف عند الانجليز وأيد معظمهم الاحتلال الاجنبي ، وسخر من جهاد الجيل القديم الذي ورثته فلسطين عن ايام ما قبل الانتداب(٥٠).

المستقبل كان يبدو حالكا أمامه « اذ لا يجب ان ننسى ان نكبة فلسطين اذا كانت لا تجمع كلمة العرب للاحتفاظ بما في قبضتهم من اوطان مستقلة، واستهداف انقاذ فلسطين لغسل العار على الاقل فان دولة اليهود ستحكم دنيا العرب لا محالة »(٥١) ... لذا لما ترامى له ان بعض الدول العربية على وشك عقد الصلح مع اليهود بشر هذه الدول بأن « فرحها لن يطول لان اعتداءات اليهود على بلادها ومناوشة حدودها واقتحام تراها ونهبها لن ينقطع »(٥٢). لا ينقص اليهود الان شيء في فلسطين ، كما يقول سوى عمليات التطهير والتشطيب والقضاء على بقية العرب .. واما العرب فلهم ان يبعثوا بعد وقوع النكبة المقبلة ببرقيات الشكوى من فظائع اليهود الى وسيط هيئة الامم المتحدة في رودس ، وان لم يعجبهم ذلك فليشكوا امرهم الى هيئة الامم في امريكا ... » لقد كان يتصور ان عقاب العالم العربي سيراه الجيل الحاضر بعد بضع سنين فقط يوم تملأ (دولة اسرائيل) البحر الاحمر والبحر الابيض باساطيلها ... وتغطي الارض بدباباتها ، وتحجب

السماء بطياراتها ... واما حصار العرب لاسرائيل في المستقبل فهو برأيه « تخليط حمقى لان اليهود سيفرضوا انفسهم بالقوة البحرية والجوية والبرية على الشرق كله(٥٣).

يستدرك الطاهر بقوله « .. انا لا اخيف الناس من اليهود وبدون حق ولكني اصور لهم مستقبلنا الحالك على حقيقته .. » ما هو الحل اذن لانقاذ فلسطين ؟ يجيب بقوله « .. اذا كان العالم العربي يظن او يتصور ان اليهود يقبلون برجوع عربي واحد من المشردين الى فلسطين فهو في ضلال ، لان اليهود ينظفون فلسطين الان من كل عربي بقي فيها ... والنتيجة انه لا رجوع للعرب الى اوطانهم الا اذا مشى جيش مسلح في طليعتهم يفتح لهم الطريق الى وطنهم ، وكل مفاوضة بدون ذلك لا ينتج الا فناء اللاجئين تدريجيا وامتلاء انحاء فلسطين باليهود الذين يصلون اليها من الخارج بمئات الالوف ، ثم الاستيلاء على الباقي منها في ايدي العرب .. » في عام ١٩٤٩ كان الطاهر يقول « انه اذا كان العالم العربي لا يقضي الان على الدولة اليهودية وهي فلول من عصابات وقبل ان تتكتل وتصبح دولة قانونية حقيقية فانها ستقضي عليه غدا وان عجز العرب عن ذلك الان فهم غدا اعجز ..(٥٤). لقد كان الطاهر يبحث عن فلسطين وراء الافق من نافذة الطائرة التي اقلته الى دمشق « ... ان فلسطين كانت هنا وانا اعرفها ، وكانت في ايدينا فلم نعرف قيمتها ... » ولكن اين فلسطين الان ؟ يجيب « .. انها في ايدي اليهود ، وبذلك انقطعت الطريق بين العالم العربي في افريقيا عن شطره الاخر في اسيا ، وهذا ما كنت احذر من وقوعه قبل وقوعه بثلاثين عاما(٥٥).

---

١ ــ كان يشترك في تحرير الجريدة عارف الشهابي، عبد الغني العريسي ، محمد المحمصاني ، وثلاثتهم كانوا من ضحايا جمال باشا خلال الحرب العالمية الاولى .

٢ ــ معتقل هاكستب ، ص ٣٥١ .

٣ ــ **معتقل هاكستب** ، ص ٦٠٠ .

٤ ــ هذا لم يمنع هيكل في عام ١٩٣٧ (وكان خارج الوزارة ولكنه ظل سكرتير حزب الاحرار الدستوريين وعضو مجلس الشيوخ) ان يطلب من الطاهر مده بأسانيد في قضية فلسطين ليثير مسألتها في المجلس كما كتب في السياسة مقالا بعنوان « مسألة فلسطين » ، ولكن الطاهر كان يرى ان الدستوريين يثيرون المسألة نكاية بالوفديين وليس حبا بها ، وانهم لو عادوا للحكم فسيعودون الى اخفاء صوت فلسطين ومطاردته هو .

٥ ــ **ظلام السجن** ، مذكرات ومفكرات سجين هارب ، مصر ١٩٥١ ، ص ٩٤ .

٦ ــ **المصدر نفسه** ، ص ١٣٨ .

٧ ــ تعليقا على ما تراه الطاهر من دعوى اضطهاد هتلر لليهود كتب في **نظرات الشورى** ، ص ٢٥٢ « ... أنا كفلسطيني عربي يهمني عدم وجود باعث في جهة من جهات الدنيا يبعث اليهود على المجيء لفلسطين ... اذن فانا برغم انني ادعو لليهود في المانيا بكل خير ، أما ان فاز هتلر واضطهد اليهود ــ سلمهم الله هناك فقط ــ فيا لنكبة فلسطين لان جموعهم تفد عند ذلك على فلسطين كالجراد .

٨ ــ **نظرات الشورى** ، ص ٣٠ .

٩ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٨٠ .

١٠ ــ **نظرات الشورى** ، ص ٤٨ .

١١ ــ **المصدر نفسه** .

١٢ ــ **نظرات الشورى** ، ص ٣٦ .

١٣ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٢٣٥ .

١٤ ــ **المصدر نفسه** ، ص ١٤٤ .

١٥ ــ **ظلام السجن** ، ص ١٠٩ .

١٦ ــ **ظلام السجن** ، ص ٤٦٣ .

١٧ ــ **ظلام السجن** ، ص ٦٦ .

١٨ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٩١ .

١٩ ــ مقدمة كتاب **ظلام السجن** .

٢٠ ــ **ظلام السجن** ، ص ١٥٢ .

٢١ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٤١٦ .

٢٢ ــ **المصدر نفسه** ، ص ١٢٠ .

٢٣ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٨٥٣ .

٢٤ ــ **ظلام السجن** ، ص ٣٨٧ .

٢٥ ــ **المصدر نفسه** ، ص ١٠٦ .

٢٦ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٣٠٣ .

٢٧ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٣٩٥ .

٢٨ ـ **ظلام السجن** ، ص ٤٢٩ .
٢٩ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٢٨٦ .
٣٠ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٣٢٧ .
٣١ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٤٢٨ .
٣٢ ـ **ظلام السجن** ، ص ١٢ ، انتقد الطاهر عباس العقاد الذي خطب في راديو القاهرة بان الانكليز حلفاء طبيعيون للشرق العربي لان الشرق العربي حليف طبيعي للانكليز .
٣٣ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٥٦٢ .
٣٤ ـ **ظلام السجن** ، ص ٥٨٣ .
٣٥ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٧٩٢ .
٣٦ ـ **ظلام السجن** ، ص ٧٩٧ .
٣٧ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٨٥٠ .
٣٨ ـ **أوراق مجموعة** ، ص ١٣٧ .
٣٩ ـ **أوراق مجموعة** ، ص ٤١٣ .
٤٠ ـ **أوراق مجموعة** ، ص ٥٤ .
٤١ ـ **المصدر نفسه** ، ص ١٧٩ .
٤٢ ـ **أوراق مجموعة** ، ص ٥٦ .
٤٣ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٦٦ .
٤٤ ـ سجل الطاهر أهم تلك الفصول في كتابه **معتقل هاكستب** ، (مصر ١٩٥٠) ، وقد دفعت هذه المقالات وزارة ابراهيم عبد الهادي (من حزب السعديين) الى اعتقال الطاهر ، في معتقل (لهاكستب) في صحراء السويس وهو المكان الذي كان ابراهيم عبدالهادي يحبس فيه خصومه واعداء عهده . والهاكستب او (هاك ستيب) ضابط امريكي مشهور لما نزل الجيش الامريكي في الاراضي المصرية لانجاد الانجليز في الحرب العظمى الثانية ، عسكروا في الصحراء بين مصر الجديدة والسويس وأقاموا معسكرهم وسموه هاكستب .
٤٧ ـ كان الطاهر قد نادى قبل النكبة باخراج حكومة شرق الاردن من جامعة الدول لان «شبحها فقط كان مع العرب وعقلها مع الانجليز ، ثم اتضح فوق ذلك ان قلبها ايضا كان مع اليهود».
٤٨ ـ **معتقل هاكستب** ، ص ٤٤٦ .
٤٩ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٤٤ .
٥٠ ـ **معتقل هاكستب** ، ص ٣٦٣ .
٥١ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٦٢٥ .
٥٢ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٤١٢ .
٥٣ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٦٥٢ .
٥٤ ـ **معتقل هاكستب** ، ص ٣٧ .
٥٥ ـ **ظلام السجن** ، ص ٧١٨ .

مراجعات

Arnold Forster and Benjamin Epstein, **The New Anti-Semitism** (New York: McGraw-Hill Book Co., 1974).

يصدر هذا الكتاب في غمرة الحديث عن اللاسامية وتجدد ظهورها في الولايات المتحدة مع التذكير في الوقت نفسه بما عاناه اليهود على أيدي النازيين. وكان قد انعقد في شهر حزيران ١٩٧٤ في مدينة نيويورك مؤتمر كبير حول هذا الموضوع تحت عنوان « محاورة حول اوشفتز » اتخذ فيها معسكر الاعتقال « اوشفتز » كنموذج للاضطهاد النازي لليهود وافناء ستة ملايين منهم . والضجة هذه عادة تشجعها او توحي بها الاوساط الصهيونية اذ يبدو ان هنالك شعورا بالقلق لدى تلك الاوساط .

والكتاب الذي نحن بصدد مراجعته هو من ناحية احد بوادر ذلك القلق بسبب التغيير الذي بدأ يطرأ على نظرة الرأي العام الامريكي بشكل خاص والرأي العام العالمي بشكل عام الى الصراع العربي — الاسرائيلي بعد حرب ١٩٦٧ . ولا بد من الاسراع في القول هنا ان هذا التغيير ضئيل وجزئي، لكن استمرار احتلال اسرائيل للاراضي العربية وبروز العمل الفدائي وتصاعده ساهم في ايجاد مناخ يسهل فيه توجيه النقد لاسرائيل . بيد ان ذلك النقد كان مقصورا على اليسار الامريكي والى درجة ما على الاوساط الليبرالية خاصة بين الكتاب والمثقفين . غير ان القوى الصهيونية في الولايات المتحدة تعطي اهمية اكبر لاي نقد يصدر من جهات غير يسارية او جهات « ذي شأن » على حد تعبير الكاتبين بسبب تأثيره الاكبر على الرأي العام . لقد نجحت وسائل الاعلام الامريكي — التي تروج ايديولوجية النظام — بخلق صورة معينة لدى الامريكي العادي عن اليسار . فكلمة « راديكالي » أصبحت في ذهن الشخص العادي تقريبا تهمة موازية الى « مخرب » : شخص لا هم لديه سوى تقويض النظام والامن والاستقرار . وهذا يفسر الضجة الكبيرة التي أحاطت الخطاب الذي ألقاه دانيال بريجان في المؤتمر السنوي لجمعية الخريجين العرب الامريكيين الذي عقد في العاصمة الامريكية واشنطن في تشرين الاول ١٩٧٣ . وبريجان رجل دين ليبرالي واستاذ جامعي برز شأنه خلال مناهضته النشطة لحرب فيتنام في الستينات وأوائل السبعينات وهو يتمتع باحترام وتقدير في الاوساط الليبرالية في الولايات المتحدة . وكان بريجان قد وجه في خطابه نقدا حادا الى دولة اسرائيل لاحتلالها الاراضي العربية وبروزها بعد حرب ١٩٦٧ كدولة استعمارية . وما أن نشر خطابه حتى أثار فزعا في الاوساط الصهيونية التي أخذت تتهمه « باللاسامية » و « العجرفة اللااخلاقية » و« التحريض » وغيرها من التهم المختلفة . وقد كنا قد استمعنا للخطاب في واشنطن وقرأناه بعد نشره في الصحف والمجلات . وقد استغربنا هذه الحملة الصهيونية ضد بريجان لانه لم يوجه في خطابه اللوم فقط لاسرائيل وانما وجه نقدا لاذعا ومماثلا لانظمة الحكم العربية المختلفة . الا أن الاوساط الصهيونية أغفلت كعادتها ما تعرض له الجانب العربي من نقد وركزت على انتقاده لاسرائيل . ولسنا هنا بصدد الدفاع عن بريجان او تقييم نظرته لاسرائيل والدول العربية ، الا ان « اللاسامية » التي اتهم بها بريجان من قبل المدافعين عن اسرائيل هي نفس « اللاسامية الجديدة » التي حاول مؤلفا الكتاب التحدث منها .

الكتاب مبني على « وثائق » و « تسجيلات » صادرة عن « عصبة اللاتشهير اليهودية » التابعة « لمنظمة بناي بريث » التي تهدف على حسد قول

الكاتبين الى مكافحة التفرقة والتمييز العنصري والبحث عن العدالة والمساواة بين جميع الناس . ويهدف الكتاب الى عرض دراسة « اللاسامية » او العداء لليهود واليهودية على الصعيد المحلي الامريكي وعلى الصعيد العالمي وابراز مصادرها ومدى انتشارها في وقتنا الحاضر .

فالحديث عن « اللاسامية الجديدة » يتضمن بالضرورة اعادة تعريف بعض المفاهيم التقليدية عن اللاسامية وتبيان المصادر الجديدة لها . كذلك يبحث الكاتبان فيما يسميانه « بفقدان الحساسية والاهتمام » تجاه المشاكل المتعلقة بحياة اليهود وليس فقط مفهوم اللاسامية المتضمن عدم الاكتراث من قبل مؤسسات واشخاص ذوي مراكز هامة في امريكا والخارج تجاه مشاكل اليهود .

يمكن أن يقسم الهيكل التنظيمي للكتاب الى قسمين رئيسيين : اللاسامية داخل امريكا واللاسامية على الصعيد العالمي .

يستحوذ القسم الاول من الكتاب على الاهتمام الاكبر للمؤلفين حيث يخصصان له الجزء الاكبر من الكتاب . ولعل الضعف الرئيسي في الكتاب هو عدم محاولة التفريق بين العداء لليهود لكونهم يهودا اي اللاسامية التقليدية التي ما تزال آثارها «موجودة» في الولايات المتحدة وبين العداء لاسرائيل لاسباب سياسية مثلا وليس لاسباب دينية او عرقية . وهكذا يظهر الكتاب مثقلا بانصاف الحقائق ، ذلك التكتيك المفضل الذي ينعت على اساسه كل من ينتقد اسرائيل باللاسامية .

في معرض الحديث عن اللاسامية داخل امريكا ينعكس عدم التفريق بين العداء لليهود والعداء لاسرائيل في طريقة تقسيم الكتاب حيث يجمع الكاتبان عناصر اليمين المتطرف وعناصر الليبراليين من الكتاب والصحفيين ورجال الدين ، واليساريين على اختلاف اتجاهاتهم في بوتقة واحدة على انهم « لاساميون » .

يخصص الكاتبان فصلين لبحث العداء لليهود عند بعض عناصر اليمين المحافظ عبر كتابات جيرالد سميث وهو لاسامي بارز ظهر على المسرح من خلال صحيفته «الصليب والعلم» التي بدأ اصدارها سنة ١٩٤٢ وما زال يصدرها حتى الان . تبرز لاسامية سميث في الصاقه باليهود الصفات التقليدية كعدائهم للمسيح ومن ثم هدفهم ازالة المسيحية من وجه الارض ، وسيطرتهم على رؤوس الاموال العالمية ، ومحاولاتهم الدائمة للسيطرة على مقدرات العالم من خلال مؤامراتهم الخفية كما جاء في « بروتوكولات حكماء صهيون » . كذلك لا يتوانى سميث بالصاق فضيحة «الووترجيت» الى مؤامرات اليهود التي تحاك من وراء الستار . ويورد الكاتبان أمثلة أخرى لتبيان لاسامية بعض عناصر اليمين المحافظ مثل جماعة جون بيرش التي أسست في سنة ١٩٥٨ والحزب الامريكي وجون شميتز مرشح الحزب لانتخابات الرئاسة الامريكية سنة ١٩٧٢ . ان جماعات اليمين هذه تتهم اليهود باستغلالهم لقطاعات الشعب الامريكي المختلفة واقترانهم الاشتراكية والشيوعية كجزء من مؤامرة يهودية للسيطرة على العالم .

بعد معالجة اليمين المحافظ كأحد مصادر اللاسامية ينتقل الكاتبان الى بحث «عدم الحساسية تجاه مشاكل اليهود » عند بعض رجال الدين المسيحي في امريكا . ولعل اي نقد يصدر عن بعض رجال الدين لاسرائيل هو اكثر ازعاجا للاوساط الصهيونية من غيرهم ، فهذه جهات « محترمة » من حيث انها تستحوذ على اهتمام الناس اكثر من غيرها . ويأتي الكتاب على ذكر فرنسيس ساير وهو من رجال الدين البارزين في واشنطن العاصمة وحفيد الرئيس الامريكي ودرو ويلسون بسبب عظة كان قد ألقاها سنة ١٩٧٢ بمناسبة عيد الفصح ، وكان موضوع العظة مدينة القدس واشار فيها الى معاملة اسرائيل القاسية للسكان العرب في المناطق المحتلة والاجراءات القمعية التي تتخذها السلطات الاسرائيلية مستشهدا بما ورد عن « اسرائيل شاهاك » رئيس الرابطة الاسرائيلية لحقوق الانسان والاستاذ في الجامعة العبرية .

ينبري مؤلفا الكتاب لتفنيد « لا صدق » ساير وآخرين من رجال الدين أمثال فورست الكندي ومؤلف كتاب « الارض اللامقدسة » وطائفة الكويكرز التي كانت قد اصدرت في عام ١٩٧٠ كتيبا عن الصراع العربي — الاسرائيلي ركزت فيه على مأساة اللاجئين الفلسطينيين تحت عنوان « بحث عن السلام في الشرق الاوسط » والتي يصفها الكاتبان بأنها منحازة للعرب ، وقد اعتبر هذا الكتيب مصدر خطر أقض مضاجع الاوساط الصهيونية التي رأت ضرورة اصدار كتيب آخر تحت عنوان « الحقيقة

والسلام في الشرق الاوسط : تحليل نقدي لتقرير الكويكرز » نشر في عام ١٩٧١ .

ويمضي الكتاب لتخصيص فصل عـن « العرب والموالون للعرب » داخل الولايات المتحدة وخارجها. وكانت السنوات التي تلت حرب ١٩٦٧ قد شهدت تطورا ملحوظا في النشاط العربي الاعلامي داخل الولايات المتحدة كما ونوعا . وان كان هذا النشاط مقصورا الى درجة كبـيرة على الفئات المثقفـة والطلاب . فمثلا في سنة ١٩٦٨ اسست جمعية الخريجين العرب الامريكيين التي قامت على اساس تنظيم المثقفين العرب في امريكا لتسهيل الاتصال بينهم وتوثيق الصلات الثقافية بين الشعب الامريكي والعالم العربي . وللمنظمة نشاط اعلامي داخل امريكا حيث انها تعقد مؤتمرا سنويا يبحث بالمشاكل العربية ــ الامريكية وتصدر كتبا ونشرات حـول مواضيع مختلفة متعلقة بالعالم العربي بشكل عام وبالصراع العربي ــ الاسرائيلي بشكل خاص . ومع انه لم يمض على تأسيس الجمعية سوى سنوات قليلة فقد أصبحت قـوة فاعلة تؤرق الاوسـاط الصهيونية . فنجد ان الكتاب يصفها بأنها مصدر اكبر للقلق من غيرها . ثم يتحول الكاتبان الى الطلاب العرب في امريكا الذين هم عبارة عـن « جيش تهيئهم حكوماتهم وتمولهم وترسلهم الى الولايات المتحدة لنشر الدعاية العربية » . وتضم لائحة « المعادين لليهود » كذلك اشخاصا آخرين كمحمد تقي مهدي السكرتير العام للجنة العلاقات العربية ــ الامريكية ومحرر جريدة عمل . وكان مهدي قد تعرض مؤخرا لرابع اعتداء من قبل عناصر صهيونية في نيويورك حيث احرقت مكاتب صحيفته واعتدي عليه شخصيا مما ادى الى بقـائه فـي المستشفى اسابيع عديدة . وكان من جراء هذا الاعتداء ان توقفت صحيفته عن الصدور بعد أن تكبد خسائر تقدر بمئة وخمسين الف دولار .

تتضمن اللائحة بالاضافة الى العناصر العربية اشخاصا آخرين من كتـاب وصحفيين (كالفرد ليلينتال) الكاتب اليهودي المعروف ، ونورمـان داسي رئيس لجنة فلسطين الامريكية ، وروبرت بيربوينت مراسل شبكة التلفزيون سي.بي.اس. في واشنطن . وكان بيربوينت قد تجرأ وعلق حول عملية ميونخ وما تلاها من غارات اسرائيلية على مخيمات الفلسطينيين في لبنان قائلا « بأن الحكومة الامريكية تعير احداث العنف بمعايير مختلفة » . نحين أبدت الحكومة الامريكية استنكارها الشديد « لهول وفظاعة » عملية ميونخ لم تبد نفس الاسى تجاه الغارات الاسرائيلية على المدنيين الفلسطينيين او عند اسقاط الطائرة المدنية الليبية . وبسبب أهمية تعليق بيربوينت حيث انـه يذاع في ارجاء الولايات المتحدة قامت العناصر الصهيونية بحملة استنكار شديدة وكتابة الرسائل الـى شبكـة التلفزيون . والجدير بالذكر انـه لم يعد يسمح لبيربوينت أي تعـليق حـول الصـراع العـربي الاسرائيلي .

أما لائحة « المعادين لليهود » خارج امريكا فهي تضم مؤسسات او جمعيات مقرها بيروت مثـل « جمعية الخامس من حزيران » و« الامريكيون من أجل العدالة في الشرق الاوسط » و« لجنة السيدات العربيات للاعـلام » و« مؤسسـة الدراسات الفلسطينية » و« مركز الابحاث الفلسطينية » . ومن الصحف والمراسلين يشير الكتاب الى صحيفة المانشستر غارديان البريطانية ومراسلها في الشرق الاوسط (دافيد هيرست) و(بيتر جينكينز) مراسل الصحيفة في واشنطن ، ومايكل ادامـز المراسل السابق لصحيفة الغارديان ورئيس مجلس دعـم التفاهم العربي ــ البريطاني ، واخيرا وليس آخرا صحيفة « الكريستيان ساينس مونيتور » الامريكية.

بعد ذلك يخصص الكاتبان فصلا للحديث عـن اليسـار القديـم واليسار الجديد او اليسـار الراديكالي كما يوصف في مواقع مختلفة . يعتقد الكاتبان بأن اليسار الامريكي الذي ظهـر فـي الستينات كحركة قوية أصبح الآن ظـاهرة شـبه ميتة ، الا ان تأثيره على مظاهر الحياة الامريكية استمرت قوية بأفكارها وقيمها الجديدة . ان اليسار الجديد هو « جيل الحاضر الجاهل وغير المهتم بمشاكل اليهود من حيث انه يركز اهتمامه على مشاكل العنصرية والفقر والحرب ولكنه لا يهتم بمشاكل اللاسامية والعداء لليهود الذين يشكلون ضحايا هذا العداء » . وينعي الكاتبان على الكثير من اليهود الذين فشلوا في النظـر الى اليسار الراديكالي كحركة ذات خطر .

ان خوف هذا الكتاب من اليسار يتمثل في اثر هذه الحركة على جيل بأكمله من طلاب الجامعات في امريكا وخارجها الذين بداوا يحصلون على وظائف

في مجالات مختلفة تؤثر على الرأي العام مثل الخدمات الحكومية واجهزة الاعلام والتدريس ووظائف في مجالات الفن والادب والاقتصاد وغيرها من مجالات الحياة المختلفة .

يدعي الكاتبان بأن اللاسامية يمكن ان تظهر بأشكال مختلفة وهي بالتالي لا تشير حرفيا وبشكل دائم الى تعريف معين . فعلى سبيل المثال ، بالرغم من ان منظمات اليسار الراديكالي واعمال دعائية لدعم سياسات ذات اذى مباشر لليهود والتي يمكن ان تقود في النهاية الى خطر يهدد كينونة اليهود . والكتاب يميز بين نوعين من اليسار : اليسار الليبرالي الذي نما على تأييد الحركات المناهضة للاسامية . مثال لهذا اليسار الحركات الديمقراطية الاجتماعية في أوروبا وامريكا كحركة الاشتراكيين العالميين بقيادة فيلي برانت في أوروبا والديمقراطيين الاجتماعيين في امريكا بقيادة (يوجين ديبس ونورمان توماس) وهي جميعها تؤيد اسرائيل . اما النوع الاخر من اليسار فيتكون من المنظمات المتهمة بمعاداتها لاسرائيل وهذه تتضمن الحزب الشيوعي ومنظمات الشباب التابعة له ، حزب العمال الاشتراكيين ، والتحالف الاشتراكي للشباب ، حزب العمال العالمي ، منظمة الشباب ضد الفاشية والحرب ، حزب العمل التقدمي ، جامعة العمال ، وجامعة سبرتاكوس . ان هذه المنظمات تظهر عداءها لليهود كسلاح في صراعها السياسي . ان مثل هذه المنظمات تنظر الى اليهود كعقبة في سبيل أهدافهم الثورية وكجزء من المؤسسة الرأسمالية الامريكية .

وينتقل الكتاب للحديث عن اللاسامية على الصعيد الرسمي العالمي فهو مثلا يشير الى الموقف الفرنسي المتسم بتأييده للعرب حيث يظهر ذلك جليا بما تقوم به فرنسا من مد الدول العربية بالاسلحة في الوقت الذي ترفض فيه تزويد اسرائيل بما تحتاجه من اسلحة بالرغم من الاتفاقيات الموقعة من قبل الجانبين الاسرائيلي والفرنسي . ويحاول الكتاب أن يثير الفزع في نفس القارىء حيث يؤكد ان مثل هذه الاسلحة تعطى الى دول عربية تتسم بعدائها الشديد لاسرائيل (كليبيا مثلا) والتي يمكن ان تحول هذه الاسلحة الى دول المواجهة العربية . ثم يعرض الكتاب مثالا آخر وهو موقف الاتحاد السوفياتي المعادي لاسرائيل ، وبالتالي يمكن وصفه باللاسامي ، والذي يظهر جليا بمحاولاته الدائمة لتزويد اعداء اسرائيل بالاسلحة الثقيلة بينما يصب الافتراءات على اسرائيل في الامم المتحدة .

ثم يتعرض الكتاب بالنقد لمواقف وزارة الخارجية الامريكية والفاتيكان الذين يؤيدون « تدويل القدس » بغض النظر عن معنى القدس « المدينة اليهودية التاريخية » لليهود الذين « شكلوا اغلبية سكانها لفترة تزيد عن قرن من الزمن » .

ان هذه المناقشات في نظرنا استهزاء فاضح بالقارىء العادي لان الكتاب يرفض ان يجيب على أبسط انواع الاسئلة لاكثر الناس سذاجة وهو لماذا حدث هذا التحول في السياسة الخارجية الفرنسية وسياسة الاتحاد السوفياتي . أن تتهم فرنسا باللاسامية لانها انتقدت موقف اسرائيل العدواني بعد تحذير مستمر من محاولة بدء حرب حزيران ١٩٦٧ انما هو تعبير عن ضيق أفق وعقدة نرجسية تعمي الكاتبين عن رؤية حقيقة ان اسرائيل خرقت كل القوانين العالمية بطرد شعب بأكمله من ارضه واحتلال رقعة تزيد على ثلاثة اضعاف المساحة الاصلية المحتلة من فلسطين الام وأعمالها العدوانية المستمرة بعد حرب ١٩٦٧ ممثلة بأبشع صورها بتدمير مئات المنازل وعشرات القرى وسفك الدماء البريئة لنساء واطفال بغارات قمعية دموية بربرية. لقد كان التحول الفرنسي نتيجة غطرسة اسرائيلية غذاها الانتصار الخادع على رمال سيناء وفي هضاب الجولان وعلى امتداد الضفة الغربية .

أما تحول الاتحاد السوفياتي فكان نتيجة ازالة القناع عن وجه الحركة الصهيونية التي طالما تبجحت بالاشتراكية وبتطبيقاتها الفريدة من نوعها بانشاء المزارع التعاونية والجماعية . لقد ظهر واضحا للاتحاد السوفياتي خديعة الكذب والادعاء الاشتراكي لطبيعة المجتمع العنصري الاسرائيلي القائم على اعمدة الحكمة الصهيونية عندما اصبح معروفا ان الارض التي تطبق عليها الافكار الاشتراكية هي ارض اغتصبت بتآمر الغرب الامبريالي المدعوم بالقسر والقمع البربري الذي ادى الى طرد شعب فلسطين من ارضه ووطنه .

ان هذا الكتاب عبارة عن سرد « لحقائق » و« وثائق » شوهتها فصول الكتاب ضمن محاولات فاضحة مدعمة بقدرة بلاغية مذهلة هدفها تحويل محتوى وتركيب الحقيقة لتخدم هدف الصهيونية

الدعائي تحت دخان « اللاسامية » بدون اي اعتبار لاية قيمة علمية او ادبية . وبالرغم من أن الكتاب صادر عن منظمة تدعي محاربة التشهير فان ما جاء في فصوله عبارة عـــن محاولات تشهير واغتيـــال الشخصية لكل انسان موضوعي ونزيه سواء كان امريكيا او يهوديا . ان الكاتبين يبتعدان عن كل الحقيقة حين يقرنون انتقاد اسرائيل باللاسامية وهما بالتالي لا يفرقان بين المفهوم الرئيسي لفكرة اللاسامية القائمة على كره اليهود فقط لكونهم يهودا وبين المحاولات الهادفة والبناءة من قبل مفكرين ومثقفين لانتقاد وادانة الاعمال العدوانية الاسرائيلية القائمة على التوسع والعنصرية . ان مثل هذه الاتهامات تضع الكاتبين أمام مأزق النقد الموجه من مفكرين اسرائيليـــين ويهـــود لطبيعة السياســـة التوسعية الاسرائيلية . فهل يمكن ان يكون اليهودي ذاته او الاسرائيلي لاساميا ؟

يخرج الكاتبان مـــن هذا المأزق بوصف هـــذه الجماعات الاسرائيلية واليهودية بأنهـــا مصابة « بعقدة كره الذات » . فاذن ، حتى أولئك الذين لبوا نداء ضمائرهم من اليهود والاسرائيليين هم في نظر الكاتبين لاساميون . وهنا يبرز تخبط الكاتبين بمحاولات فاضحة لطمس الحقائق وتغيير المفاهيم لخداع القارىء الامريكي ولانزاع جبهة اليهـــود الامريكيين باطلاق صفارات الانذار ضد « الموجات الجديدة » من « اللاسامية » التي طالما استخدمتها الصهيونية العالمية كأحد اسلحتها المهمة في التأثير على نفسية اليهود في العالم . أمـــا تأثير هذا السلاح على الرأي العام الامريكي فيبرز واضحا في رسالة مرسلة الى صحيفة النيويورك تايمز من أحد رجال الدين المسيحي عبر فيها عن حيرته بين نداء ضميره الذي لا يستطيع البقاء صامتا على الاعمال الاسرائيلية القمعية المتصفـــة بالعدوانية واللاعقلانية وبين خوفه مـــن ان يتهم باللاسامية لمجرد انتقاده لهذه الاعمال الاسرائيلية .

ان صفارات الانذار المحذرة من الخطر اللاسامي في فصول هذا الكتاب مـــا هي الا محاولات ذكية وبارعة لكبح جماح تمرد الضمير الامريكي ضـــد الارهاب الصهيوني والاسرائيلي الذي ادى الى تدمير كينونة شعب بأكمله واقتلاعه من ارضه ووطنه بلا رادع من مبدأ أخلاقي او تأنيب ضمير . ان هذه الصفارات ربما تفلح في اسكات البعض الا ان جلاء الحقيقة ومعرفة الواقع ستقود الكثيرين من الامريكيين الى قـــول كلمة الحـــق تجاه الشعب الفلسطيني . وكما يقول صاحب رسالة نشرت حديثا في صحيفة الكريستيان ساينس مونيتور « انه على الرغم من انني انسان ناضج وراشد ، فانه اذا اغتصب شخص بيتـــي فانني سأتحول الـــى « ارهابي » وسيكون بالفعل غريبا اذا لم أتحول ».

عبدالإله ابو عياش
جورج جقمان

د. علي محافظة ، **تاريخ الاردن المعاصر ، عهد الامارة (١٩٢١–١٩٤٦)**
(نشر بمساعدة الجامعة الاردنية ، عمان ١٩٧٣)

على اثر الهجمة الرجعية الهاشمية على الشعب والمقاومة الفلسطينية عامي ١٩٧٠ و١٩٧١، أحاطت السلطة في الاردن انتصارها الدموي غير المشرف بمظاهر الاحتفال والاشادة الدعاوية المضادة للثورة، والمعبأة بروح العداء الاقليمي وتمجيد النزاعات الانعزالية الضيقة ، واستثارة عداء داخلي تجاه المحيط العربي ، اتخذ لبوس العزة والنخوة الوطنية .

لقد اقترن الصراع آنذاك بطابع الانقسام الاقليمي ، بين الفلسطينيين والاردنيين ، وكان دور الرجعية الاردنية العمل على تغذية واستثارة التفاف قسري من الجماهير الاردنية حول السلطة الهاشمية، يقابل الالتفاف الوطني حول المقاومة الفلسطينية ومؤسساتها. ولكي يكون لمثل هذا الالتفاف القسري والمفتعل منطقا مقبولا ، كان لا بد من جهة من اظهار النهوض الوطني الفلسطيني كمصدر خطر على الاردنيين ، وكان لا بد من جهة اخرى من اعادة الاعتبار الى السلطة الهاشمية ، ومؤسساتها كتجسيد دفاعي مشروع للاردنيين . وفي دفع السلطة الهاشمية لهذا الانقسام نحو نهاياته ، كان لا بد من تسليط الاضواء على الاخطاء في المعسكر المقابل لاظهار الخطر الفلسطيني ، خطرا حقيقيا ، وكان لا بد من خلق ميثالوجية مؤثرة ، تجعل من الدولة الاردنية ومن مؤسساتها مؤسسات مقبولة شعبيا ، كتعبير وتجسيد سياسي للوطنية الاردنية .

من ضمن العمليات التي تحاول تعزيز الميثالوجية الاردنية الجديدة ، العودة الى التاريخ الاردني كتاريخ للدولة ومؤسساتها. كانت ذكرى مرور نصف قرن على تأسيس الامارة الهاشمية ، مناسبة لجعل ذكرى تأسيس الدولة مظاهرة احتفالية لوحدة وطنية مزعومة . وهكذا خرجت سلسلة الكتب الرسمية ، مثل « تأسيس الامارة الاردنية » ، « الاردن في خمسين عاما » ، « ثقافتنا في خمسين عاما » ، « الوان من القصة الاردنية » ، « ألوان من الشعر الاردني » ... وعشرات الكتب والمنشورات الاخرى .

العودة الى تاريخ الاردن ، مهمة تنبهت اليها الاجهزة الرجعية الهاشمية في الاردن ، كجزء من عملية الصياغة الجديدة للميثالوجية الاردنية ، مثلما أعطتها الاقلام الوطنية الاردنية اهتمامها ، لكونها عملية اساسية لفهم قوانين الحركة التاريخية واتجاهاتها ، ومن اجل فعل ثوري فيها ومن أجل التغيير ومن أجل صنع مستقبل افضل .

وعلى الرغم من التعاكس الظاهر بين طبيعة المهمتين ، فان العديد من المساهمات الرجعية والتي تنطوي عن رغبة في التزوير وخلق الاوهام ، تتضمن — رغم كل ما فيها — مادة صالحة للعملية الثانية وهي عملية الكتابة التاريخية من منظور ثوري . ومن ادراك هذه الحقيقة ينبغي ان ننظر الى سلسلة الكتب التي ظهرت عن التاريخ الاردني كمواد قابلة للاشتقاق والاستفادة ، والامر كذلك مع كتاب علي محافظة الذي نحن بصدده .

يتكون الكتاب من مدخل وأربعة أبواب وخمسة ملاحق . أما المدخل فهو يقتصر على بضع صفحات عن الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في الاردن ابان العهد العثماني ، ووضع الاردن السياسي والاداري في فترة الحكم الفيصلي القصيرة، وبضع صفحات أقل عن السياسة البريطانية ومطالب الزعامات المحلية في فترة الحكومات المحلية (ايلول ١٩٢٠ — نيسان ١٩٢١) . وفي الباب الاول من الكتاب ، وهو عن فترة تأسيس الامارة الاردنية (١٩٢١ — ١٩٢٨) ، يتحدث محافظة عن قدوم الامير عبدالله الى شرقي الاردن ، انشاء الادارة المركزية ، الانتداب البريطاني ، المفاوضات مع بريطانيا ، الادارة والوضع المالي ، الجيش ، الوضع الداخلي ، العلاقات الخارجية ، والمعاهدة الاردنية — البريطانية لعام ١٩٢٨ . ويمكن القول ان المدخل والباب الاول من الكتاب ، لا يضيفان اي جديد بصدد الفترة التي ينصرفان لعرضها . انها اشبه بملخص سريع لما ورد تفصيلا في كتاب منيب الماضي وسليمان موسى « تاريخ الاردن في القرن العشرين » (عمان ، ١٩٥٩) ، كما لا يتضمنان اضافات أساسية ، ويفتقران الى رؤية وتمحيص تاريخي جديد. أما التفسيرات والاجتهادات التحليلية للاحداث فهي على قلتها قلبت عليها

العمومية والتسرع .

ان القسم المكرس لعرض الوضـــع الاردني الداخلي ، في فترة اتسمت بالانتفاض والعصيان في البلاد ، قد عرضت بشكل مشوه ومماثلة للسلطة . كما هو الحال في عرض وتفسير عصيان الكورة ، انتفاضة العدوان وغيرهما . أما عن مفاوضات عبدالله ـــ تشرشل ، فهي تخفي الاساس الحقيقي للاتفاق بينهما . فهو يكتفي بالرواية الرسميـــة الاردنية، ولا يعود الى الوثائق البريطانية المنشورة في هذا الصدد .

أما الباب الثاني وهو عن الفترة بين ١٩٢٨ ــ ١٩٤٦ ، والتي يسميها الكاتب دون وجه حق « عهد المؤسسات الدستورية » ، فقد انصرف الى عرض الفترة ضمن العناوين التالية : القانون الاساسي (الدستور) والمؤسسات الجديدة، الحياة النيابية، النضال السياسي وتشكيل الاحـــزاب ، الادارة والوضع المالي ، الجيش ، العلاقات الخارجية . ان هذا الباب دون شك هو أفضل بكثير من الباب السابق ، وان اتسم منهجيا بنفس العيوب . وجه الفضل فيه بضعة الاضافات والتقصيات التاريخية التي لم تشملها الكتب التأريخية الاخرى عـــن الاردن . ففي هذا الباب بضعة اقتباسات مـــن النقاش في المجلس التشريعي ذات الـــــدلالة السياسية ، تعداد القوانين المعطلة للحريـــات والحقوق المدنية ، مثل قانون الاجتماعات العامة ، قانون الدفاع عن شرقي الاردن ، قانون العقوبات المشتركة ، قانون النفي والابعاد ... ، وفي مجال عرضه للنضال السياسي والحزبي ، ثمة اشارات معينة الى ظاهرة نشوء النوادي الاجتماعية ذات الاهداف السياسية ، ثم قانون الجمعيات المعيق لحريات التنظيم ، ونبذ عن أشكال النضال الوطني السياسي والعسكري واشكال المعارضة .

هناك نبذ اخرى مفيدة وذات دلالة سياسية بالغة ، ففي القسم المتعلق بالادارة خلال فترة الامارة (١٩٢١ــ١٩٤٦) نتعرف على عدد الوزراء الذين عملوا في الاردن خلال ثماني عشرة حكومة خلال هذه الفترة (٣١ وزيرا من البلدان العربية مقابل ١٧ وزيرا اردنيا ، ثمانية أشخاص تولوا رئاسة الحكومة في الاردن في نفس الفترة غالبيتهم فلسطينيون وسوريون وواحد منهم سعودي وآخر لبناني ولا واحد منهم اردني !) . وكذا الحال مع الموظفين في الاردن . المعطيات المفيدة في الباب الثاني ايضا ، احتكار بضع عشائر التمثيل النيابي في المجالس التشريعية (١٥ أسرة او عشيرة كانت ممثلة بنسبة ٥ الى ٨ من أعضاء المجالس التشريعية الخمسة منذ ١٩٢٨ وحتى ١٩٤٦ م) . ان الكاتب يناقض نفسه عندما يسمي الفترة ١٩٤٦/٢٨ بعهد المؤسسات الدستورية ، فهو يقول « كان المجلس التشريعي طوال عهد الامارة على هامش الاحداث الكبرى التي مرت بالبلاد ... » (ص ٧٣) .

أما فيما عدا ذلك ، فغالبية أقسام الباب تكرر ما سبق ان عولج في كتب ومصادر اخرى لا تتضمن اسهامات جديدة .

الباب الثالث : وهو عن « الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عهد الامارة » ، يحاول الكاتب القاء الضوء على اوضاع الزراعة ، التجارة، الصناعة، الامتيازات الاقتصادية الاجنبية ، الضرائب ، الحياة الاجتماعية ، ومن المؤسف ان يكون مثل هـــــذا الموضوع البكر معالجا على هذا النحو من الضعف المنهجي وبالاخص ان يكون بهذا الفقر في المعلومات، رغم توفر مصادرها العربية والاجنبية للدارس .

وقد نعذر للمؤلف ما نعتبره قصورا في اوليات البحث المنهجية في الاقتصاد والاجتماع ، لكن ان يكون هذا الفصل فقيرا الى هذا الحد ، ويعتمد على مصادر ثانوية في البحث فهذا ما لا يمـــكن تسويغه. ففي الزراعة اقتصر الكاتب على العمومية الوصفية ، وعلى الارقام المتوفرة في الصحف آنذاك عن قروض المزارعين ، وعلى الاجراءات الادارية ، وعلى بعض التشريعات وعلى سرد بعض الاحداث.

أما تجارة شرقي الاردن،فقد قدمت بصددها بعض الجداول الجزئية والقاصرة عن اعطاء صورة وافية عن التجارة مع كافة البلدان ، وهناك اشارات الى بعض الاتفاقيات التجارية . عوضا عن اطـــلاق تعميمات بعيـــــدة عـــن الدقـــة وغـــير ممحصة . وبصـــدد الصنـــاعة اكتفى المؤلف بايـــراد مـــا يعنيـــه قـــانون « رخـــص الصناعـــات والمهـــن العـــام » (١٩٣٤) دون أي معـــلومات أخرى ، وتحدث عن اكتشاف مادة الفوسفات في بضعــــة سطور لا تكاد تفيد شيئا . أما عن الامتيازات الاقتصادية الاجنبية ، فقد اعاد المؤلف نشر ما

سبق ان اورده بهذا الصدد في كتاب سابق له هو « العلاقات الاردنية — البريطانية » (بيروت ١٩٧٣)، دونما تغيير يذكر او اضافية . أما عن الضرائب ، فقد سرد أنواع الضرائب في البلاد وطرح معطيات لا تفي القارىء بصورة واضحة عن دخل الدولة من الضرائب المحلية .

فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية ، يورد نبذ قصيرة عن « الفئات الاجتماعية » في البلاد من حيث أنماط معيشتهم ، وهم الفلاحون ، وسكان المدن والبدو . وينطبق على هذا القسم ما سبق قوله عن الاقسام الاخرى (نهجا ومعلومات) ، يقول مثلا في مطلع هذا القسم ان الفلاحين يشكلون ما يزيد عن ٨٥٪ من مجموع السكان . لا يقول لنا متى شكلوا هذه النسبة ؟ ولا طبقا لاي تقدير او مصدر . ولا حاجة للقول ان تقديره بعيد جدا عن الحقيقة ،لا في بداية المرحلة (١٩٢١) ولا في نهايتها (١٩٤٦) . وحتى لا نظلم الكاتب ، نقر ان هذا القسم تضمن بعض المعطيات والملاحظات التي يمكن اعتبارها جديدة للقارىء العادي ، لكنها دون ما هو متاح للمؤلف في المصادر المنشورة وفي الوثائق الرسمية وغيرها والتي كانت ستعطي كتابه قيمته كمؤلف تأريخي حديث .

ان الباب الرابع والاخير من الكتاب يلاحق اوجه تطور « التعليم في عهد الامارة » ، ويشتمل على مدخل عام عن انشاء اول مجمع علمي في البلاد وأهدافه والتشريعات التربوية والتعليمية وتقسيم المعارف اداريا وانواع المدارس . ثم يستعرض نمو التعليم في المدارس الاميرية ، المدارس الخاصة والطائفية ، المهنية ، ونبذة عن البعثات التعليمية، ان هذا الباب يعد مع الباب الثاني من أفضل ما في الكتاب من حيث كثافة المعلومات والتطورات التي يرصدها .

أما الملاحق فهي تشمل : نص صك الانتداب البريطاني على فلسطين ، المعاهدة الاردنية — البريطانية لعام ١٩٢٨ ، القانون الاساسي لشرق الاردن ، قائمة باعضاء المجالس التشريعية ثم اخيرا قائمة باسماء الوزراء ورؤساء الوزارات الاردنية . ان الملحقين الاخيرين يعطيان صورة عن أسر الاعضاء الذين تعاقبوا على المجالس التشريعية ، وعن طبيعة تركيب الحكومات الاردنية . ويفيدان من يدرس الحياة السياسية في البلاد خلال فترة ١٩٢١ — ١٩٤٧ .

ان كتاب علي محافظة ، ان من حيث منظوره ورؤيته للتاريخ ، ومن حيث نهجه لا يذهب كثيرا أبعد مما مثل كتاب « تاريخ الاردن في القرن العشرين » ، فهو أقرب الى التاريخ الرسمي ، والى السرد . والى اتخاذ مواقف تبريرية تخدم سياسة السلطة ونهجها ، الا انه فيما عدا الابواب المشار اليها ، لا ينطوي عن اضافة جديدة على الكتب التي سبقت . وقد يكون هذا الكتاب بعيوبه المنهجية ، وقصوره عن احاطة الموضوع بشمول ، موضع استغراب من مدرس في جامعة حديثة ، كالجامعة الاردنية ، وقد يكون نشر الكتاب بمساعدة من الجامعة ، ايضا موضع ذات الدهشة والاستغراب . لكن الكتاب ليس — من وجهة نظري — أكثر من مظهر لحالة موضوعية قائمة في ميادين البحث والدراسة في الاردن .

هاني حوراني

حرب اكتوبر ــ دراسات في الجوانب الاجتماعية والسياسية ــ
(المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة ومركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام ، ١٩٧٤)

بدا الكتاب بداية تشبه ما تذهب اليه بعض الدوريات ، وذلك بالقول ان ما جاء بالدراسات والعروض النقدية يعبر عن آراء كتابها ، ولا يحمل بالضرورة وجهة نظر اي من المركزين . وأعقب ذلك كلمة لاستاذنا الدكتور عبد الملك عودة الذي شغل مؤخرا منصب مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهــرام . وينقسم الكتاب الى تســمين الاول عن متغــيرات الصراع العــربي الاسرائيلي في ضوء حرب اكتوبر والثاني عــن عروض نقدية لمراجع اساسية ، ويقع القسم الاول في ١٤٦ صفحة ، ويقع القسم الثاني في ٥٩ صفحة، بالاضافة الى ذكر بعض المراجع الاساسية من المجتمع الاسرائيلي في حوالي خمس صفحات ثم بيان بمحتويات الكتاب ، اي يقع الكتاب في ٢١٣ صفحة. وهكذا تنحصر مساهمة المركز القومــي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالاشتراك مع مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية من حيث الدراسات في ١٤٦ صفحة .

وبدأت الدراسات بدراسة الدكتور احمد خليفة عن ٦ اكتوبر وممارسة العلم الاجتماعي ، ودراسة الدكتور عبدالعزيز الاهواني عن القومية العربية في حرب اكتوبر : نظرة نحــو المستقبل العربي ، ودراسة الاستاذ جميل مطر عــن صنع قرار ٦ اكتوبر ، ودراسة الاستاذ خيري عزيز عن الحرب الرابعة والوفاق بين الدولتين الاعظم ، ودراسة الدكتور عبد الوهاب المسيري عــن الصهيونية والوعي الزائف ، ودراسة الدكتور علي الدين هلال عن حرب اكتوبر وديناميات الصراع السياسي في اسرائيل ، ودراسة الاستاذ فيصل عبد المنعم عن نظرية الامن الاسرائيلي بعد حرب اكتوبر ، ودراسة الاستاذ السيد يسين عن صورة الشخصية العربية لدى الاسرائيليين ، عوامل النشأة وظروف التغير في ضوء حرب اكتوبر ، ودراســة الدكتور قدري حفني عن تأملات سيكولوجية حول حرب اكتوبر ، ودراسة الدكتور ابراهيم البحراوي عــن الحرب الرابعة وميكانزم استجابة الشارع الاسرائيلي ، ودراسة الدكتور علي عبد الرازق جلبي من تطبيقات النظــرية السوسيولوجية للتنظيــم في المجــال العسكري .

وفي القسم الثاني قامت الدكتورة هدى مجاهد بعرض كتاب الدكتور اسعــد رزوق « في المجتمع الاسرائيلي » ، وقامت الزميلة نادية سالم بعرض كتاب الاستاذ حاتم صادق « نظرة على الخطر » وقام الاستاذ عصام المليجي بعرض كتاب دكتور اسماعيل صبري عبدالله « في مواجهة اسرائيل » ، وقام الزميل مصطفى كمال بعرض كتاب جاليـنــا نيكيتينا عن « دولة اسرائيل » وقام الاستاذ عمر سيد الاهل بعرض كتاب الزميل عثمان محمد عثمان عن « نمو الاقتصاد الاسرائيلي » ، وقامت الاستاذة نجوى الفوال بعرض كتاب محمد العوينــي عــن « سياسة اسرائيل الخارجية في افريقيا » ، وقام الاستاذ السيد يسين بعرض كتاب روفائيل بتاي عن « العقل العربي » ، وقام الاستاذ عاطف فؤاد بعرض كتاب اديب ديمتري عن « الماركسية والدولة الصهيونية » ، وقامت الاستاذة منى انيس بعرض كتاب غسان كنفاني « في الادب الصهيوني » ، وقام الاستاذ محمد هويدي بعرض كتاب اميرة حبيبي عن « النزوح الثاني » ، وقام الاستاذ سيد عبد العال بعرض كتاب الدكتور قدري حفني عــن « تجسيد الوهم » . وفي النهاية أعد الاستاذ السيد يسين قائمة بمراجع أساسية عن المجتمع الاسرائيلي .

وهذه بعض الملاحظات بشكل موجز :

١ ــ هناك ملاحظــة عامة وهــي ان بعض الدراسات كتبها غير متخصصين واذا جاز ذلك في المجلات غير المتخصصة او الصحف او غيرها فمن الصعوبة قبول ذلك في الدراسات المتخصصة . فلا يتصور ان استاذا في الادب يستطيع ان يقوم بالتحليل السياسي بمثل كفاءة استاذ في العلوم السياسية له دراية بمثل هــذا التخصص ، ولا يتصور ان استاذا في الادب يستطيــع ان يقوم بالتحليل لوثائق تاريخية بمثل كفــاءة استاذ في التاريخ له دراية بمثل هذا التخصص ، والعكس بالعكس ، بمعنى وضع الباحث المناسب لكي يكتب في تخصصه المناسب . لا سيمــا ان هناك من

يستطيع أن يكتب بجدارة في مثل هذه الموضوعات .

٢ ــ هناك ثلاث دراسات جديرة بالذكر وهي دراسة الاستاذ مطر عن صنع قرار ٦ اكتوبر ، ودراسة الدكتور هلال عن حرب اكتوبر وديناميات الصراع السياسي في اسرائيل ، ودراسة الاستاذ السيد يسين عن صورة الشخصية العربية لدى الاسرائيليين .

٣ ــ هناك بعض الموضوعات التي لا تتمشى مع العنوان بشكل كبير ، فالدراسة وفقا للعنوان قاصرة على الجوانب الاجتماعية والسياسية ، فمثلا يلاحظ أن دراسة الاستاذ فيصل عبد المنعم اكثر ميلا نحو الجانب العسكري ، كما انه من البديهي ان عرض كتاب « نمو الاقتصاد الاسرائيلي » يتعلق بالجانب الاقتصادي اساسا ، كما ان كتاب « في الادب الصهيوني » يتعلق بالجانب الادبي ، لذلك يقترح تغيير عنوان الكتاب ليتمشى مع المضمون لو قدر له أن يطبع مرة ثانية .

٤ ــ هناك بعض الموضوعات لا تتعلق بحرب اكتوبر مثل دراسة تطبيقات النظرية السوسيولوجية للتنظيم في المجال العسكري ، كما ان هناك موضوعات لا تركز كثيرا على حرب اكتوبر مثل الصهيونية والوعي الزائف ، والقومية العربية في حرب اكتوبر .

٥ ــ هناك موضوعات كانت أكثر الحاحا ولم يتم بحثها ونرجو ان تكون هناك كتابات علمية في هذا الصدد مثل السلوك الدولي للقوى الكبرى تجاه الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة ، وموقف التكتلات السياسية ، والسلوك الافريقي تجاه هذه الحرب ، مع الاخذ في الاعتبار الرؤية المستقبلية ودور الدعاية في الحرب باعتبارها من الجوانب السياسية ومحصلات القوى العربية قبل وخلال وبعد الحرب ، وما يمكن عمله لزيادة قوتها بشكل مستمر .

٦ ــ يلاحظ ان الجانب الاجتماعي في الكتاب أكثر وضوحا ، اما الجانب السياسي فأقل ، حيث ان هناك موضوعات سياسية عولجت بشكل متسرع مع عدم الاعتماد على المراجع ، او عولجت من زاوية ايديولوجية ، والكتابة في اطار الانطباعات واللجوء الى الاسلوب الادبي والالفاظ الانشائية الرنانة ، وهناك بعض الالفاظ قد يساء فهمها مثل ما معناه ان يخطط لمستقبل المعارك مع العدو « حتى يلفظ آخر انفاسه » في ص ١٥ .

٧ ــ يلاحظ على دراسة « القومية العربية في حرب اكتوبر ــ نظرة نحو المستقبل العربي » انها تستعمل ألفاظا معينة مثل « ان الوهم حين يطول زمنه يصبح بالنسبة لصاحبه حقيقة » او « الصهيونية البغيضة » او « الاستغلال من مخالب الاستعمار » ، وكل ما جاء في الدراسة هو سرد تاريخي ولا نجد نظرة واضحة للمستقبل .

٨ ــ يلاحظ على دراسة صنع قرار ٦ اكتوبر انها من افضل الموضوعات السياسية المعروضة من حيث الطريقة العلمية في الكتابة ومع ذلك يبدو ان الموضوع اعد في عجالة كما لا توجد قائمة بالمراجع .

٩ ــ يلاحظ على دراسة الحرب الرابعة والوفاق بين الدولتين الاعظم انها ليست دراسة بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة ، فالدراسة تفترض الموضوعية وعرض وجهات النظر المختلفة ، ثم تفضيل الباحث لوجهة نظر دون اخرى اذا اراد ذلك مع تقديم المبررات ، اما هنا فاننا نجد تحيزا للاتحاد السوفيتي ومهاجمة للولايات المتحدة ، ويقول الكاتب مثلا في ص ٤ ان موقف الاتحاد السوفيتي على الدوام مؤيد للحقوق العربية في كل محفل دولي ويؤكد ذلك سجل التصويت السوفيتي في الامم المتحدة دون تحليل علمي للوقائع والمصالح ومع عدم الاخذ في الاعتبار موقف الاتحاد السوفيتي ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ في اطار المصلحة والرؤية ، وتطور الموقف في اطار متغيرات السياسة الخارجية ثم يتحدث عن تأييد الاتحاد السوفيتي قبل وبعد اجتماع موسكو بين نيكسون وبريجنيف في مايو ١٩٧٢ متناسيا ما تم الاتفاق عليه بشأن الاسترخاء العسكري ، وعندما تحدث تحت عنوان « نزاع الدولتين الاعظم يبلغ افاق المواجهة المسلحة» في ص ٤٠ وما بعدها وضع الجزء الايجابي ونحن نوافق عليه كدارسين ونقدره كعرب لكنه لم يتعرض للجانب الاخر الخاص بالموقف السوفيتي من السعي لوقف اطلاق النار منذ الساعات الاولى للقتال ورفض مصر ذلك حيث لم يكن قد تم بعد اي تقدم عسكري واضح ، وعدم ارسال اسلحة لمصر منذ وقف اطلاق النار ، وقد ذكرت ذلك القيادات المصرية .

انني هنا اتذكر ما قاله الاستاذ احمد بهـــاء الدين في بعض مقالاته عن بعض الكتاب الـــذين يكتبون في اطار ايديولوجي ويؤيـــدون الاتحـاد السوفيتي على طول الخط ويعارضون انتقاده حتى ولو كان هذا الانتقاد له مبررات .

كما يذكرني ايضا ببعض الانتقادات التي وجهت في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتـي ضد السياسـة السوفيتيـة في الشرق الاوسط وضرورة تدعيم الموقف العربي بشكل اكبر .

وفي اطار التحيز للموقف السوفيتي يقول الكاتب في ص ٤٥ ان الوفاق ليس تراجعا سوفيتيا وانمـا ادراك وتراجع امريكي ، ويقـول في ص ٤٧ ان ضغوطا اقتصادية دفعت الولايـات المتحدة الـى الوفاق ، وكان من الجدير بالذكر التعرض للضغوط الاقتصادية التي دفعت الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة معا نحو الوفاق .

وكان من الانسب ان يكـون عنوان الموضـوع « الوفاق بين الدولتين الاعظـم ــ وجهة نظـر سوفيتية » أما الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة فليس هناك معالجة لها بشكل دقيق وحقيقي .

١٠ ــ يلاحظ على دراسة الصهيونية والوعـي الزائف ان العنوان يمكن الجدال فيه ، كما انه عند تعريف الايديولوجية وبصرف النظر عن رأينا في ذلك رأيناه يتعرض للماركسية في هذا الصدد وما يتصل بذلك من البناء التحتي ثم البناء الفوقي للنظـام الرأسمالي . وفي ص ٥٦ يصف الكاتب الصهيونية بأنها بناء فوقي منسق هندسيا مع نفسه ، وهذا الاسلوب يذكرنا بكتابه عن نهاية التاريخ ــ مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيـوني اي ان الكاتـب متأثر بتخصصه يحبذ استخدام مثل هذه العبارات.

١١ ــ يلاحظ على دراسـة حرب اكتوبر وديناميات الصراع السياسي في اسرائيل انها عولجت بشكل علمي ، وتعد من افضل الموضوعات السياسيـة في الكتاب .

١٢ ــ يلاحظ على دراسة نظرية الامن الاسرائيلي انها تركز على الجوانب العسكرية ، وتتسـم بالوصف ، وهذا يذكرنـا بالـدراسة القيمة التي اعدها الدكتور ابراهيم شحاته عن نفس الموضوع تحت عنوان « الحدود الامنة والمعترف بها » .

١٣ ــ يلاحظ على دراسة صورة الشخصيـة العربية لدى الاسرائيليين انها عولجت بشكل علمي وهي من افضل الموضوعات المعروضة .

١٤ ــ يلاحظ على دراسة تأملات سيكولوجيـة حول دلائل حرب اكتوبر انها تتسم في كثـير من الحالات بالانطباعات ، وعدم وضوح المنهج وليـس هناك تركيز كاف على حرب اكتوبر ، كما ان مراجعة في هذا الجزء المتعلق بـــحرب اكـتوبر تتسـم بالعمومية .

١٥ ــ تقول دراسة الحرب الرابعة وميكانـزم استجابـة الشارع الاسرائيلـي بـين البيجنيـة والبن جوريونية انه لم يعد أمرا مقبولا ان يظل الباحث العربي في مجـــال الشئون الصهيونيـة والاسرائيلية واقعا في اسار المنهـج التجريدي . والكاتب متخصص في الادب العربي لا ندري من اين جاء له هذا المنهج ؟ وهل المناهج الفاظ يمكـــن اختراعها ؟ وكان من الافضل ان تترجم الميكانزم الى الحركية ، واذا كان الكاتب متخصصا في الادب العربي فنحن نلتمس له العذر ، فقـد وضعـت افكار في كثير من الاحيان على انها حقائق ، وهي في حقيقة الامر قابلة للجـــدل والنقاش والقبـول والرفض ، ولو طلب من الكاتب ان يكتب موضوعا في اطار تخصصه لكان الامر مختلفا .

١٦ ــ فيما يتعلـــق بالقسم الثاني الخـاص بالعروض النقدية ، يلاحظ ان الحكم عليها يقتضي قراءة هذه الكتــب ، وبالتالي سيكون رأينا مـن خلال ذلك ، ويلاحظ ان ذكر انه تم القيام بالعرض والتحليل لكل كتاب ، ولكن الواقع انه لا يوجـد تحليل بمعنى هذه الكلمة وكل ما حدث هو مراجعات لهذه الكتب ونحن نؤيد الزميلة نادية سالم عندمـا عرضت لكتاب الاستاذ حاتم صادق عن « نظرة على الخطر » وقالت بضـرورة الدراسة الموضـوعية لاسرائيل ، كما نوافق على رأيها الخاص بجدية هذه الدراسة واهميتها .

ويستمد كتاب « في مواجهة اسرائيل » اهميته من شخصية المؤلف والمناصب الوزارية التي تولاها في مصر ، كما ان عرض الاستاذ المليجي له اتسـم بتقديم النصائح للقارىء اكثر من التقييم .

واتسمت معالجة الزميل مصطفى كمال لكتـاب « دولة اسرائيل » بالموضوعية عندما قال ان الكتاب

يمثل وجهة النظر الماركسيـة السوفيتيـة الا ان التقييم كان مختصرا .

وفيما يتعلق بعرض كتـاب سياسة اسرائيـل الخارجية في افريقيا فقد اتسم بالتحيز وعدم الدقة فمثلا تقول الكاتبة معبرة عن رأيها في ص ١٧٤ ان اسرائيل قامت بتأييد من الدول الغربية بزعامـة الولايات المتحدة في مايو ١٩٤٨ متناسيـة ان دولا اخرى ساهمت في هذا التأييد ، وتتحدث الكاتبة عن رأي يقول ان العامل الاقتصادي ظل مؤثرا علـى سياسة اسرائيل مع افريقيا وغالبا على العوامـل السياسية حتى بداية السبعينات ، حيث بدا النفوذ الافريقي يتبلور من خلال مشروع القرار الـذي وافقت عليه الجمعية العامة ١٩٧١ » وهنا بـدأ التحول في سياسة اسرائيل تجاه افريقيا ... » أنظر ص ١٧٥ من كتـاب حرب اكتوبر محل هذه المراجعة . وهذا يؤكد ان كاتبة المراجعة لم تقرأ كتاب سياسة اسرائيل الخارجية في افريقيا بدقـة. ولو قرأت الكتاب لوضح لها الحجم الضئيل الذي تستحوذ عليه افريقيا في تجارتها الخارجيـة مـع اسرائيل ، والقروض الضئيلة التي كانت تقدمهـا اسرائيل بالاضافة الى اتفاقيات التعـاون الفني والمشروعات الاقتصادية ... الخ مما يوضح عدم صحة الرأي الذي يغلب العوامـل الاقتصاديـة على العوامل السياسية مع الاخذ في الاعتبار ان اسرائيل تعتمد على الخارج لتدعيـم وضعهـا الاقتصادي ثم تقوم ببعض الجوانب الاقتصادية في افريقيا خدمة للهدف السياسي . واذا كان هـذا الرأي يغلب العوامل الاقتصادية على العوامـل السياسية حتى بداية السبعينات فلم يوضح ادلة كافية على ذلك ، وبالرجوع الى كتاب سياسـة اسرائيل في افريقيا يمكن معرفة عدم صحة ذلك ، وتقول كاتبة المراجعـة في ص ١٧٧ ان مقياس القرارات ليس قاطعا ولا كافيا ونقول لها ان الكتاب لم يقل ان هذا المقياس قاطع وكاف وبالكاد لا يعـد ذلك انتقادا ، ونسيت كاتبة المراجعة ان هنـاك مقاييس اخرى موجودة في الكتاب ولو قرأت الكتاب بدقة لتبينت ذلك ، وتستثني الكاتبـة قـرارات الامم المتحدة من قرارات المنظمات الاخرى اذ نرى ان بعض قرارات الامم المتحدة لها بعض صفـة الالزام ... ولا ندري من أين أتت بهذا الكلام ! اذ ان اي طالب مبتدىء في دراسة التنظيم الدولي لا يوافق على ذلك . وتزعم الكاتبة أن الايام اثبتت خطأ النتيجة التي خرج بها الباحـث ، وتقول ان قطع كل الدول الافريقية فيما عدا النظم العنصرية والمستعمرات لعلاقاتها مع اسرائيل قبل وبعد حرب اكتوبر هو دليل قاطع على ان هذه الدول لـم تعد ترى في اسرائيل نموذجا للدولة النامية بقدر ما ترى فيها نموذجا للاستعمار الجديـد وهـذا يعني ان اعتراض هذه الدول لم ينصب على الحصول على مكاسب من العدوان فقط وانما يتعدى ذلك الـى حد التشكيك في الوجود الاسرائيلي ذاته ومـدى احقيته ... » مما يوضح الازمـة الحقيقية لمـن يتصدون لمراجعة موضوعات ليس لديهم دراية بها حتى لا يوجد الملم بالاساسيات ، فكل الـدول الافريقية لم تقطع علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل كما ان أغلبية هذه الدول لم تشكك في الوجـود الاسرائيلي ، ولو اطلعت الكاتبة على بيانات قطع هذه الدول لعلاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيـل لعرفت أسباب ذلك القطع ولعرفت انها لا تشكك في الوجود الاسرائيلي .. وبالتالي تقتنع انها لم تكن صالحة للكتابة في مثل هذه الموضوعات ولـم تدرك الكاتبة بديهيـة يعرفهـا دارسـو العلوم السياسية وهو ان التنبؤ يعتمـد على الفروض القائمة واذ تغيرت الفروض تغير التنبؤ ، وفي هذه الحالة تغيرت بعض الفـروض ودخـلت متغيرات جديدة أدت الى ما حدث في افريقيا قبـل وبعـد حرب اكتوبر ، ورغم ذلك فان كتاب سياسـة اسرائيل في افريقيا قال في ص ٣٦١ واذا حدث بعض التحول في الموقف الافريقي فهو يقتصر على وضع اسرائيل بالنسبة للمكاسب الاقليمية التي حصلت عليهـا في حرب يونيو ١٩٦٧ ، وهذا ما حدث بالفعل اذ ان الدول الافريقية غير العربية ما زالت تؤيد الوجود الاسرائيلي ، اما المتغيرات الجديدة فأوجدت عزلة سياسية لاسرائيل في افريقيا ، وكان على الكاتبة ان تأخذ في الاعتبار ان ما حدث هو قطع العلاقات الدبلوماسية وما زال هناك انواع اخـرى مـن العلاقات السياسية بين اسرائيل وافريقيا يمكـن الكاتبة ان تعرفها اذا رجعت للمنشورات التـي تصدر في افريقيا او الدوريات المتخصصة بالاضافة الى ان النشاط الاقتصادي الاسرائيلي مـا زال قائما بالاضافة وان التأثير الصهيوني على كثير من اجهزة الاعلام في افريقيا ما زال موجودا ... الخ.

ويمكن للكاتبة ان تجد دراسة باللغة الانجليزية عن افريقيا والحرب العربية الاسرائيلية الرابعة في العدد الخامس من مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ، كما قد يساعدها في تصحيح هذه المفاهيم .

وتلاحظ الكاتبة على الكتابات التي صدرت عن اسرائيل منذ نكسة ١٩٦٧ في « ذكر ايجابيات اسرائيل وعدم ذكر سلبياتها » وهذا الحكم يؤكد ما سبق ذكره ان الكاتبة لم تقرأ الكتاب بدقة في كثير من المواضيع ويبدو انها اقتصرت في كثير من الاحيان على قراءة العناوين ، فلو قرأت الكتاب بدقة لوجدت الايجابيات والسلبيات التي تبين سلبيات العمل الاسرائيلي ، كما تحدثت عن المنهج والترابط ولم تأت بادلة على ذلك ، كما تميز عرض بعض الكتب بالمجاملات مثل عرض الاستاذ سيد عبد العال لكتاب تجسيد الوهم .

*

وفي النهاية ان الهدف من العرض السابق هو تقديم ملاحظات سعيا وراء خدمة الحقيقة العلمية ، ولا يقلل ذلك من المجهودات التي بذلت في اعداد هذا الكتاب ، واذا كنا قد ركزنا على السلبيات فهذا لا يعني ان هناك ايجابيات يمكن الاستفادة منها ، وان التركيز على السلبيات يعكس سعينا الى ان يراعى ذلك في الدراسات القادمة لتكون أكثر شمولا ودقة وعلمية .

وملاحظة اخيرة اننا في حاجة الى دراسات تفيد بشكل واضح صانعي القرار السياسي بالتعرض للقضايا الملحة والبدائل المتاحة وما لها وما عليها وليس مجرد الحديث عما حدث ، وهذا يثير مسائل خاصة بعلاقة السياسة الخارجية بالواقع ، فاذا كانت وقائع الصراع العربي الاسرائيلي بعد ١٩٦٧ هي امتداد للوقائع التي ترتبت على حرب يونيو ١٩٦٧ ، واذا كانت هذه الوقائع قد تغيرت مع حرب اكتوبر ، الا ان حرب اكتوبر جاءت بعد هزيمة ١٩٦٧ ، مما يوضح الى انه لو جاءت حرب اكتوبر ولم تحدث هزيمة ١٩٦٧ لكانت الوقائع مختلفة ، وهذا يوضح أهمية دراسة هذا الموضوع.

ان الكتابات العربية في كثير من الدوريات أصبحت غالبيتها تعاني من ازمة حقيقية ، وهي الابتعاد عن الابتكار والخلق ، وعدم التركيز على قضايا المنطقة ، واللجوء الى الكم والعدد وعدم التركيز على الكيف ، بمعنى ان نشر بحث جديد في موضوع معين قد يفيد أكثر من عدة بحوث تفتقر الى التجديد او الخلق ، كما يلاحظ الاقتصار في كثير من الاحيان على الترجمة الى العربية ، على ان ينسب ذلك الى من قام بهذا العمل ، وهو في الواقع لم يقم بأكثر من الترجمة مع بعض التصرف ، بالاضافة الى الاقتصار في كثير من الاحيان على نقل المعلومات من مصادر مختلفة كأرشيف بعض المؤسسات ، على ان يطلق على ذلك اسم بحث او دراسة او مقال ... الخ ، وفي هذا الصدد يمكن لموظف الارشيف ان يقوم بهذا العمل ، ويؤخذ في الاعتبار ظاهرة احتكار الكتابة واقتصارها على أسماء معينة بغض النظر عما يكتب .

كل ذلك يبين أهمية مراعاة قضايانا ومشاكلنا وان تكون لمنشوراتنا سمة خاصة بها كالمنشورات الغربية ولا نكون مجرد ناقلين ، وان نستفيد من الكفاءات العربية المتوفرة ولا نقتصر على من احتكروا مثل هذه الانشطة لاسباب لا تتعلق بالكفاءة العلمية ، الامر الذي يجب النظر اليه بعين الجد لصالح العرب وقضاياهم في عالم متغير وتتصارعه العديد من القوى ، ويقوم فيه البحث العلمي في مختلف التخصصات بدور يتزايد باضطراد .

محمد علي العويني

المقدم الهيثم الايوبي وهشام عبدالله **ميزان القوى العربي — الاسرائيلي — ١٩٧٤**
(بيروت ، مركز الابحاث م. ت. ف. ، ١٩٧٤)

يعتبر ميزان القوى بين الاطراف المتحاربة أهم العوامل التي تدخل في تقدير الموقف على صعيد الاستراتيجية أو العمليات او التكتيك . وبناء على هذا التقدير الذي تقوم به هيئات الاركان على مختلف الانساق يتخذ القائد قراره في الهجوم والدفاع . ويكون القرار في هذه الحالة مبنيا على أرضية موضوعية (مادية ومعنوية) قريبة من الحقيقة، ومن المؤكد ان دقة معلومات الاستخبارات، الموضوعة بتصرف هيئة الاركان ، تساعد كثيرا على تصحيح الاخطاء الكامنة في أي ميزان للقوى محدد مسبقا ، وتساعد بالتالي على الوصول الى تقدير موقف افضل وقرار أصح . من هنا تنبع أهمية الكتب العسكرية التي تتحدث عن موازين القوى في منطقة ما .

ولقد صدر عن مركز الابحاث في مطلع هذا العام كتاب **ميزان القوى العربي — الاسرائيلي ١٩٧٤** . وهو أول كتاب عسكري عربي في هذا المجال ، رغم مضي ستة وعشرين عاما على اندلاع الصراع العربي — الاسرائيلي . ولكن عدم صدور كتاب من هذا النوع طوال هذه الفترة لا يعني ان هيئات الاركان العربية لم تكن تملك المعطيات اللازمة لتحديد ميزان القوى ، ولكنه يعني ان القارىء العربي ، الذي لم يكن قادرا على الاطلاع على نشرات مؤسسات الدراسات الاستراتيجية العالمية ، كان يجهل حقيقة ميزان القوى مع العدو الاسرائيلي ، ويقيم الوضع التسليحي في المنطقة تقييما ذاتيا لا يستند الى حقائق ثابتة ، ويستنتج من ذلك استنتاجات مغلوطة تتناسب مع حالته النفسية ، وتراوح بين وجود تفوق عسكري عربي لا يتم استخدامه ، او وجود تفوق عسكري اسرائيلي غامض لا يمكن قهره .

ويأتي كتاب **ميزان القوى العربي — الاسرائيلي ١٩٧٤** ليضع الامور في نصابها ، ويعمم المعرفة العسكرية على أوسع نطاق بين المثقفين العرب . وهو في نظرى **دليل علمي** لحساب ميزان القوى : فهو **دليل** ، لانه يقدم المعطيات اللازمة لايجاد العلاقة النسبية بين قوتين متجابهتين او مؤهلتين للمجابهة في المستقبل ، دون ان يقوم محل القارىء بعملية الحساب تاركا له امكان ادخال المعطيات الموضوعية الجديدة في لحظة اجراء المقارنة والحساب . وهو **علمي** لانه يقدم المعطيات التي تم الحصول عليها بعد العودة الى مراجع عديدة رصينة ، وتدقيقها ، ومقارنتها ، للوصول الى أقرب ما يمكن من الحقيقة في هذا المجال الشائك من مجالات النشاط الانساني ، مجال التسلح والقوة العسكرية .

وأول ما يلفت نظر القارىء في هذا الكتاب ، نظرته الشمولية الى الحرب ، اذ انه لم يكتف باعطاء المعلومات العسكرية فقط عن البلدان المذكورة فيه ، بل قدم ايضا مجموعة من المعلومات الديموغرافية والاقتصادية والثقافية ، مؤكدا ارتباط حساب ميزان القوى بكل هذه العوامل . ومؤكدا ايضا تأثير هذه العوامل بشكل ملموس على القوة العسكرية لاي بلد . خاصة وان ميزان القوى العسكرية هو ، في النهاية ، علاقة بين مجمل القوى المادية والحضارية والمعنوية لقوتين متصارعتين . وهناك عوامل عديدة لا تذكرها الجداول والارقام ، رغم اهميتها الكبيرة في حساب علاقات القوى ، ومن هذه العوامل القوى المعنوية، ومستوى التدريب ، والمستوى الثقافي للمقاتلين والملاكات (الكوادر) ، والمستوى التكنولوجي العام في الجيش ، والخبرة القتالية ، ومستوى صيانة المعدات الحربية والقدرة على تشغيلها ... الخ . ولقد جاء الكتاب على ذكر هذه العوامل بالتفصيل ، عندما قدم تحليلا كاملا ، للجيش الاسرائيلي ولكل جيش من الجيوش العربية الكبيرة على حدة ، معطيا بذلك صورة عن هذه العوامل ومدى تأثيرها .

ولقد انتبه الكتاب الى مسألة اسلحة التفوق ، ومدى تأثير هذه الاسلحة على ميزان القوى خلال المعركة ، اذ ان من المؤكد ان وجود طائرات تفوق لدى طرف من الاطراف يحد من حرية عمل طيران الطرف الاخر ، حتى ولو كان عدد طائراته اكبر ، كما أن وجود دبابة متفوقة يجعل القتال التصادمي للقطعات المدرعة غير متكافىء حتى ولو

كان عدد الدبابات المشتبكة في القتال متماثلا لـدى الجانبين .

ثم تاتي مسألة الميزات التكنولوجية لكل سلاح، واثرها على نتائج القتال . فالطائرات القـادرة على حمل حمولات حربية كبيرة مثلا ، تستطيـع القيام ، في طلعة جوية واحدة ، بعمليات قصـف تفوق ما تقوم به طائرات تحمل حمولات حربيـة اقل ، واذا كان لدى طرف من الاطراف طائـرة تحمل اربعة اضعاف ما تحمله طائرة الطـرف الاخر من القنابل والقذائف الصاروخية ، نجم من ذلك تفوق الطرف الاول في عمليات القصف بنسبـة اربعة الى واحد ، في حالة تساوي عدد الطائرات لدى الطرفين ، وتسـاوي مستوى التدريـب ، والقوة المعنوية ، والخدمات الارضية .. الـخ لدى الجانبين ، واذا كان مدى عمل الطائرة اطول، وقدرتها على البقاء في الجو اكبر ، كانت الطلعـة الجوية التي تقوم بها تعادل اكثر من طلعة جويـة تقوم بها طائرات ذات مدى عمل اقصر . ويلعب العيار ومدى الرمي والقدرة على الحركـة دورا هاما في حساب موازين القوى النارية في المدفعية ، كما يلعب عيار رمي المدفع في الدبابة ومدى رميـه المجدي على الدروع وقدرة الدبابة على الحركة ، وسرعتها ، والمسافة ، التي تستطيع قطعها دون التموين بالمحروقات ومستوى أجهزة التسديد والرؤية الليلية والنهارية ، وعدد القنابل التي تحملها في داخلها ، دورا في حساب موازين القوى المدرعـة في القتالين الليلي والنهاري . واخيرا فان القدرة الحركية للقطعات بصورة عامة ، وارتفاع مستوى الاتصالات ،يؤثران على مسائل الحشد، والمناورة، والمفاجأة ، كما يؤثران على المسائل اللوجستيـة ومسائل الاتصال خلال المعركة . ولقد جاء الكتاب على ذكر هذه الامور ، وقدم ، في النهاية، مجموعة من الملاحق التي تحدد الصفات التكنولوجية لكـل سلاح موجود في جيوش الشـرق الاوسط ، او يحتمل وجوده في هذا العام ، حتى لا يضطر القائم بحساب موازين القوى الى مراجعة المصـادر المتعددة بحثا عن هذه المعلومات الدقيقة اللازمة .

ومن الملاحظ ان طبيعـة الصراع العربـي ــ الاسرائيلي ، وكونه منذ عام ١٩٥٥ نقطة ساخنة في التنافس العالمي بين المعسكرين العملاقين ،وحصول الطرفين المتنازعين على احدث الاسلحة والمعدات الحربية من ترسانات الدول الصناعية المتقدمـة ، قد جعل ميزان القوى المحلي يتأثر بالدعم العسكري الظاهر والخفي الذي تقدمه الدول العظمى . ولقد التفت المؤلفان الى هذه النقطة ، وحددا في الفصل الاول ، الدعم الخفي الذي تقدمه الدول العظمى لدول المنطقة ، باعتبار ان الدعم الظاهر واضـح من طبيعة الاسلحة والمعدات والذخائر المتطـورة الموجودة في جيوشها .

وكان الطبيعي ان لا يدرس كتاب ميزان القـوى العربي ــ الاسرائيلي مجمـل القوى العسكرية العربية ، بل القوى العسكـرية التي يمكن ان تشترك في الصدام . ولا تدخل في هذا الحساب جيوش الدول العربية المجـاورة لاسرائيل (دول المواجهة) فحسـب ، بل تدخل أيضا جيـوش الدول البعيـدة عن بؤرة الصراع ، والمعنيـة بالصراع بشكل مباشر . ولقد دأب الاسرائيليون في الماضي على تجاهل هذه النقطة ، واجراء جمـع رقمي لكل الجيوش العربية ، ومقارنة الرقـم الناتج مع حجم القوات الاسرائيلية ، والخروج من هذا الحساب المغلوط باستنتاجات بعيدة عـن الصحة ، والاستناد الى هذه الاستنتاجـات في حملتهم الاعلامية المضادة للعرب . ولقد كشـف الكتاب هذه المغالطة ، وحدد جيوش دول المواجهة المعنية بالصراع والمؤهلة لدخوله منذ بدايتـه ، والدول التي ينبغي اسقاط جيوشها من الحساب بسبب مواقفها من الصراع ، وعدم استعدادهـا لخوضه ، كما حدد حجم القوات التي يمكن لدول المساندة تقديمها الى مسارح العمليات ، والزمـن اللازم لزجها في المعركة ، والصعوبات التكنولوجية والجغرافية التي تعترض هذه العملية ، ومـدى تأثير كل ذلك على سير الحرب وادارتها في الحالة التي تكون فيها الحرب قصيرة سريعة ، او فـي الحالة التي تسمح فيها طبيعة العمليات والظروف الدولية الضاغطة باطالة أمد الحرب الى الحدود الممكنة في هذه المنطقة الحساسة من العالم . الامر الذي يجعل القارىء قادرا على تقييم الوضع فـي حالة ملموسة معينة ، وتحديد القوات المسلحـة العربية التي تدخل القتال في كل مرحلة من مراحله، وهي بالطبع اقل بكثير من المجموع الرقمي للجيوش العربيـة .

وهكذا يجمع كتاب ميزان القوى بين المعلومـات

والتحليل ، فهو لا يقدم الارقام المجردة بشكلهــا البارد ، لكنه يعطيها الحياة ، ويحولها من دبابات وطائرات ومدافع ، الى أسراب وفـرق والويـة تتحرك في الزمان والمكان ، وتأخذ حجمها الحقيقي الكامن في نوعية تسليحها ومستـوى تدريبهـا ، وطبيعة قياداتها ، وقدراتها الفعلية على القتال في الحرب الحديثة ، وهو لا يكتفي بذلك بل يقدم ، في الفصل الثاني ، منهج حساب ميزان القـوى العربي ــ الاسرائيلي ، وهو منهج ذو خصوصية معينة نابعة من خصوصيات الصراع العربـي ــ الاسرائيلي . ثم يشير في نهاية المطاف الـى ان الحساب سيعتمد اولا واخيرا على العقائد الحربية والاستراتيجيات العسكرية التي يحتمل ان يطبقها الطرفان المتنازعان في الصدام . لان هذه العقائد وتلك الاستراتيجيات تؤثر بشكـل جـذري علـى أساليب استخدام القوى ، وعلى التوجه أساسا « نحو القوة المادية او القوة المعنوية ، وعلـى الاعتماد على استراتيجية الافناء (الحرب القصيرة الخاطفة) او استراتيجية الاجهاد (الحرب الطويلة الامد) ، وعلى الجيوش التقليدية او الجيـوش الشعبية . »

وبالرغم من اهمية الكتاب ، والخدمة التـي يقدمها للقارىء العربي ، عسكريا كان أم مدنيا ، فانه يبقى من الكتب التي لا تعطي ثمارها دفعـة واحدة ؛ ولا تقدم الفائدة المرجوة منها الا اذا حققت الاستمرارية ، وظهرت بشكل سنوي لان تسليـح الدول وتحالفاتها واوضاعها ومواقفها تتبدل من عام الى عام ، وتتبدل معها موازين القوى وطـرق استخدامها واساليب حسابها .

المقدم ياسين سويد

ثقافة

الياس خوري

الايقاع الشعبي داخل الحلم

يتكىء الحلم على الحلم ، فينفجر الواقع منبسطا ومأساويا . يمتد شاسعا في الارض ، يحفر فيها قنوات ماء ولا ينكسر الماء بحد السيف . فالماء حين يجري ، يحيط الارض ، يتراجع ولا يجف ، لانه ينبع منها ويتراجع اليها . من الحلم ينهمر الواقع كحلم لكنه يبقى في أصالته رديف مستقبل بركاني القسمات . واذا كانت البساطة الشعبية تتغابى ، أو توحي بذلك ، فان الغبي هــو السيف الذي ستكسره ملايين حبــات الرمال ، حــين تكتشف اشجارها التي نبتت على ضفاف آلاف القنوات التي حفرتها الارادة وقد لبست شعبا بأكمله . في رواية اميل حبيبي الثانية ، هذا الافق وقد ابتل بالدماء واصبح بلون خمرة الذاكرة .

تخرج الالاف وقد حملت ليلا لتعود به . فالذين شردوا ليل ١٩٤٨ يعودون او يحاولون العودة ، ليكتشفوا ارهابا متقزما بجلدهم وهم يستطيلون . تفرغ المدن والقرى ، وتكبر السواعد . فالمتشائل البسيط حين يعود وعلى رأسه « كيس خيش » ، يطمره الكيس ويسحقه ذله مرة ثانية . فيلجأ الى النكتة السوداء ، ويختبىء خلف ذاكرته المفقودة ، لكنها تعود مع ابنه ومع ابن حبيبته على شكل نداثي ينجر وينفجر . فتنحني الرواية : تتقوس وتتمهل. تنشر في الفضاء ترابا بركانيا اسود اللون، تنمو الطحالب على أطرافه . ثم حين نعيد لمس صفحاتها ، يقذف البركان انفجاراته . في المستوى الاول نداءات فعل وذكريات ممارسة ، وفي المستوى الثاني فعل حجمه التاريخ حين يحسم . بين هذين المستويين ، تنساب رواية متتالية الفقرات ، كأنها مقامات موسيقى شرقية عتيقة لتحفر في ثقافتنــا مجرى جديدا بدأ مع **سداسية الايام الستة** ، ويأخذ اليوم ملامحه الكاملة . هذا المجرى الذي يأتي قريبا كالدماء ، يبقى بعيــدا ومتفردا ، تفــرد تجربة العرب في « اسرائيل » . فهو رواية اخرى لها ملامحها الخاصة التي لا نستطيع تقليدها ، لانها تنبت في تربة خاصة حيث تحضــر المواجهة المباشرة ايقاعها .

مسائل الحياة اليومية : تتمحور الرواية حول شخصية شعبية مركزية ، وتلتقط همومها في ثلاث دوائر متتالية . الاساسي هنا هو أن هذه الشخصية تحمل معنى مثلث الدلالات : فهي تجريد للشعب ، كما تحمل هموم ومعاناة المتعاون مع الاحتلال تحايلا، وتحمل أخيرا صوت المؤلف الذي يكشف الغطاء عن عناصر تعددها . نبدأ ببطــل الرواية يقدم نفسه : « اوصى الي سعيد ابو النحس المتشائل قال : بلغ عني أعجب ما وقع لانسان منذ عصا موسى وقيامة عيسى وانتخاب زوج الليدي بيرد رئيسا على الولايات المتحدة الاميركية » . يقسم الكتاب الاول **يعاد** الى عشرين مقطعا تبدأ بـ « سعيد يدعي التقاء مخلوقات من الفضاء السحيق » لتنتهي بـ « الجرح المفتوح » . وبين هذين الحدين يروي لنا المتشائل حكايته منذ ولادة دولة « اسرائيل » . يتحلق الكتاب الاول حول مسألة أساسية : تقديم

---

* اميل حبيبي : **الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد ابي النحس المتشائل — ثلاثية — في الجديد** شباط ٧٢ وكانون الاول ٧٢ ونيسان — ايار ١٩٧٤ . ويمكن مراجعة الكتاب الثالث في **شؤون فلسطينية** — ٣٨ — .

الشخصية الرئيسية . فنعرف ان سعيدا ينتسب الى مسبية قبرصية من حلب ، من سبايا تيمورلنك ، سباها جده الاكبر أبجر بن أبجر . ويفسر كنية العائلة : المتشائل على انها ادغام للكلمتين المتفائل والمتشائم . يبدأ الكتاب بأسلوبية تشابه رواية السير البطولية ، لنكتشف بعد قليل ان البطل ليس بطلا ، بل هو انسان عادي يقوده حس التكيف . هذا الحس هو الذي يحمل البعد الشعبي الخاص في الرواية بأسرها . يحاول المتشائل بعد هجرته الاجبارية من فلسطين العودة اليها . فتبدأ رواية المأساة الجماعية في ظل ايقاع فكاهي : « فأنا أول انسان على ما أعهد ، أنقذه حمار محرن لا يسابق ريحا » . يذهب بحثا عن سفسارشيك المسؤول الصهيوني الذي أوصاه والده بالبحث عنه . ثم يقاد الى عكا لينام في المسجد . هنا نكتشف مأساة العائدين — المبعدين . ونستمع الى قصص القرى العربية التي دمرت . يأخذ التداعي مجراه الاساسي باعتباره سياقا ، فيتذكر سعيد قصة حبه ليعاد عندما كان طالبا ، ثم يخرج الى شوارع عكا ، فيتذكر محاولته الفاشلة للذهاب الى بيروت مع اصدقائه لجلب الاسلحة عام ١٩٣٩ . ثم يروي اسرار عائلته واصرارها على البحث عن الكنز . في دياميس عكا، يعود الحس الشعبي الى الارتفاع، فنعيش في أجواء حكاية شعبية من حكايات الخوارق تروي لقاءه برجل الفضاء الذي يلقي عليه درسا في النضال . غير ان ضرورات التكيف تفرض عليه تعاملا مع العدو في اتحاد عمال فلسطين . ويسوقنا تطور الاحداث الى مجيء يعاد الى منزله في حيفا بحثا عن والدها الذي سلمه المتشائل او والده وهو يضع على رأسه كيسا من الخيش حتى لا يعرف . فيأتي البوليس ويطردها وراء الحدود .

يريد هذا التلخيص السريع والمبتسر للكتاب الاول التأكيد على ثلاث مسائل :

١ — تقديم الشخصية الشعبية بوصفها تمتلك احساسا هائلا بالتكيف ، هذا النوع من التكيف التعاملي مع المحتل ، سوف يكشف تناقضاته الداخلية واستحالته ، ليحل مكانه تكيف آخر من طبيعة مقاومة .

٢ — التداعي **المكاني** الذي يفرض منطقه على زمن الرواية . فالامكنة هي مستودع الذاكرة الجماعية التي تعيد تأريخ نفسها انطلاقا من هنا .

٣ — الاشارة الى بذرة الرمز الاساسي الذي سيوقع احداث الرواية . فالكنز الذي تبحث عنه عائلة المتشائل يأخذ حجما مختلفا مع زوجته باقيه وابنه ولاء ، ليصبح اشياء الارض وقد استحالت سلاحا وقتالا .

نتابع في الكتاب الثاني « **باقية** » مغامرات سعيد المتشائل . لكن هذا الكتاب أقل انسيابا من الكتاب الاول ، لانه يتمحور حول مسألة واحدة — الزواج من باقية الطنطورية والبحث عن كنزها الضائع — فتأتي جميع العناصر التفصيلية التي يحسن حبيبي صياغتها بحس نادر يمزج الفكاهة بالمأساة لترفد هذا الجانب الاساسي . « في الربيع التقيت الطنطورية ، وفي الخريف ضيعت ابنها ، وحياتي بينهما خلسة من الزمان ». ثم تأتي العناصر الثقافية — كنديدو اخوان الصفاء ، ... لترفد العمق التاريخي للاحداث ، ولتقعر المستوى المباشر بامتداد تاريخي . تبدأ بالبحر والصيد حيث تم اللقاء بباقية ، لتعتقل أكثر اللحظات مأساوية في حياة عرب « اسرائيل » : « فكلما تكاثرت ليالي حزيران على العرب ، تكاثر صيادو السمك الهواة منهم ، فقيل يهربون من هموم أزواجهم » . لقاء المتشائل بالطنطورية ومن ثم زواجهما ، يفجر لحظة السر — الكنز في الرواية على شكل من الممارسة السياسية . فبعد محاولات سعيد الفاشلة للعثور على كنز زوجته وتركيز المؤلف الشديد على موضوعة الكنز ، حين يقذف بنا الى ما بعد ١٩٦٧ مباشرة ليروي قصة ثريا عبد القادر مقبول التي عادت الى بيتها ووجدت كنزا مطمورا سرقته منها الحكومة لقاء وصل . ويصل التوتر ذروته حين يتمرد ولاء ويكتشف الكنز الذي هو عبارة عن بنادق وينضم الى الفدائيين . ويطوق في المغارة . فيذهب اليه والداه لاقناعه بتسليم نفسه . هنا يقيم المؤلف لاول مرة في روايته هذه ، حوارا مأساويا بالغ التوتر والدلالات ، ينقل هموم المواطن البسيط واحساسه الثوري الحاد . ثم تلتحق به أمه . هنا نفاجأ بخاتمة تشبه خاتمة الحكاية الشعبية . اذ يتمكن الولد وأمه من الهرب عبر البحر . وينضمان الى المقاومة .

الكتاب الثالث — **يعاد الثانية** ، هو اكثر اجزاء هذه الثلاثية طرافة ودلالات . فهو الدائرة الثالثة التي تستوعب الدائرتين الاولتين ؛ لتقوم بالغاء الحدود بين الخيال والواقع ، بين الجنون وعدمه ،

ولترسم خيطا دمويا يقود الى البدايات الحقيقية . تتوتر علاقة سعيد برؤسائه يعقوب والرجل القصير القامة . فيجلس على خازوق لا يستطيع النزول عنه الا مناضلا . يرفع البطل علما ابيض عندما يسمع المذيع يدعو العرب الى رفع الاعلام البيضاء بعد حرب حزيران . فيتهم بأنه لا يعترف بسيادة اسرائيل على حيفا ويقاد من سجن الى آخر . هنا تعود الرواية الى التوتر حين يلتقي في سجن شطة الرهيب بفدائي يحمل اسم سعيد مثله ، يلقي عليه بشكل غير مباشر درسا في الوطنية والنضال ، ثم يلتقي بشكل مفاجيء يعاد الثانية شقيقة هذا الفدائي التي أتت تبحث عن شقيقها . بعد ذلك يذهبان الى قرية السلكة — حيث نتعرف على مآسي التطويق ومآسي العمل في الكيبوتس والوجود غير الشرعي . لتنتهي الرواية بعودة سعيد ويعاد الى حيفا حيث تطرد كما طردت يعاد الاولى ، بعد أن شكلت مؤشرا نضاليا جديدا . وتنتهي الرواية باعترافات من المؤلف بأن هذه الرواية هي رسائل وصلته من مجنون في مستشفى عكا للامراض العقلية .

في الكتاب الثالث ، يمتد الاحساس الشعبي دون انسياب ، فهو موقع حول موضوعة مركزية : استحالة استمرار علاقة سعيد بالاجهزة الاسرائيلية . ترسم هذه الاستحالة خطها البياني عبر تبسيط لشخصية البطل — حيث يبدو كرجل لا حول له بشكل كامل — وتعقيد العلاقات التي تدفعه الى بداية فصم علاقته هذه . لكن الخط الاساسي ، خط الانسياب من خلال التداعي ، يبقى الهيكل الاساسي لبنية الرواية ، حتى يقوم المؤلف بتدخله الذي يوقف الانسياب ويقودنا الى نقطة البداية . ان النقطة التي يجب الاشارة اليها هنا ، هي التركيز حول مسائل الحياة اليومية ، التي تأخذ حجمها الكبير من خلال شبكة العلاقات والتداعيات التي ترسمها الرواية بعناية .

الايقاع الروائي الجديد . في توسطها بين السيرة والحكاية الشعبية ، ترسم رواية اميل حبيبي خطا بيانيا جديدا ، يعتمد أساسا على الايقاع الروائي . يستمد هذا الايقاع عناصره الاساسية من الاصرار على **الدلالة** . لكن الدلالة هنا ليست مباشرة او مسطحة . انها دلالة سياسية — ثقافية ، تنطلق من المباشر الى العام ، وتبتعد عن الوعظية ، لتنسج لنفسها رداء بنائيا يعتمد على العديد من العناصر . فحين أشرنا الى كون التداعي هو الحجر الاساسي في المسار الروائي ، فان أقنيته المتعددة ، هي التي تسمح بهذا الفن التعبيري المذهل :

١ — **الراوي** : الراوي هنا ليس المؤلف كما في **سداسية الايام الستة** . لكنه البطل نفسه . لذلك تنساب الرواية بلغة المخاطبة التي تسمح بمسرحة هذا العمل . ولكن الرواية على لسان البطل ، لا تعني اندماجية درامية . فحبيبي يحافظ على خطه « البرشتي » لكنه يستعيض عن تدخله بالعلاقات ، وباستغلال أوسع لجميع امكانيات شخصية البطل . فتبقى المسافة العقلية قائمة ، وتسمح بالاستدلال . خلف شخصية البطل — الراوي ، وتداعياته وعلاقاته ، تقع المسألة الاساسية التي تطرحها هذه الرواية ، **البنية الاستدلالية** التي تؤطر علاقات واسعة ، تفتتها لتعيد تركيبها من جديد ، من خلال البطل — المرآة .

٢ — **الجناس** : يلعب الجناس دورا هاما ، فهو يبسط اللغة ، ويقيم لها ايقاعات موسيقية ، تتحاشى الابتذال بتحاشيها للسجع . « فعاد معلمي واتكأ حيث كنت متكئا على المزولة وقد زاولني التلق » . وقد تصل الامور الى حد استنباط كلمات جديدة : « استفرغني الفراغ » ، رغم انها تأتي هنا مفتعلة . لكنها تحمل في أماكن أخرى العديد من الدلالات ، لانها تلخص سلسلة احداث مأساوية ، بلفظة واحدة ، « قرية برطعة ، في المثلث ، مقطعة » .

٣ — **التكرار** : التكرار هو ميزة كل قصة شعبية ، لانه يقيم من جهة أولى ايقاعا خاصا رتيبا ومألوفا ، فيترسب في ذاكرة السامع او القارىء ، ويقدم اشارات تحمل مداليل مختلفة لا تتحدد الا في السياق : « فلما نزلت عن الحمار ، رأيتني أطول من الحاكم العسكري ، فاطمأنت نفسي حين وجدتني اطول منه بدون قوائم الحمار » . هنا تأتي الفكاهة لتغطي عجزا من جهة ولتؤشر الى امكانية مستقبلية من الجهة الثانية . او قد تحمل معنى مأساويا مباشرا : « جاءت النهاية حين استيقظت في ليلة بلا نهاية » .

٤ — **الكلمات العامية** : يجري داخل هذا السياق ، استخدام كلمات عامية ، تختصر حركة كاملة : « هذا يهش وذاك يكش » . أو تسترجع

مثلا شعبيا : « كل شيء في وقته يعسل » .

٥ ــ **ايقاع الجملة** : تتداخل هــذه العناصر **الايقاعية** ، لتشكل ايقاعا خاصا بالجملة النثرية . فيجري ادغام الجناس والتكرار والكلمات العامية داخل بنية جملة **متوازية** : « فذلك حين أفرطت في الولاء حتى أصبح في عرفهم تفريطا » . أو يجري التركيز على عنصر ايقاعي واحد ــ حرف يتكرر ــ ليستخرج من عناصره نكتة سوداء . نقرأ في الكتاب الاول هذا المقطع :

« ــ نحن من الكويكات التي هدموها وشردوا أهلها ، فهل التقيت أحدا من الكويكات .

فأعجبني ترديد الكاف في الكويكات . فعاجلت ضحكتي قبل أن تنطلق لولا صوت امرأة جاء من وراء المزولة غربا :

ــ البنت ليست نائمة يا شكرية ، البنت ميتة يا شكرية » .

الكاف التي كادت تضحك المتشائل وتضحكنا تتحول في « شكرية » الى كاف مأساوية .

٦ ــ **الصورة ــ الحركة** : حين تقترب الرواية من السيرة ، فانها تأخذ بعض عناصر السيرة لتقوم بتأطيرها بشكل جديد . وتلعب الصورة ــ الحركة في هذه الرواية دورا تشكيليا هاما ، لانها تمد الواقع في مساحة كبيرة ثم ترفعه الى مستوى الرمز . ففي لقاء الحاكم العسكري بالمرأة التي تحاول العودة الــى قريتها ــ البروة ــ تصبح الصورة الشاملة ، مدخلا تشكيليا مليئا بالرموز : « فكلما ابتعدت المرأة وولدها عن مكاننا ، الحاكم على الارض وأنا في الجيب ، ازدادا طولا حتــى اختلطا بظليهما في الشمس الغاربة . وصارا أطول من سهل عكا . فظل الحاكم واقفا ينتظر اختفاءهما وظللت أنا قاعدا انكمش . حتى تساءل مذهولا : متى يغيبان ؟ »

٧ ــ **الحركة ــ الكاريكاتورية** : تستعين الرواية كثيرا بالاشارات الكاريكاتورية ، تضخم ، ثم تعود الاشياء الى حجمها الطبيعي ، « فمنذ أن أصبح سر باقية سري ، أصبحت الحذر مجسما يمشي على اثنتين . فلما أدركت ان الحذر هو من ذوات الاربع ، رحت أمشي على أربع » . ثم تتمسرح هذه الحركة كما في رقصة العلم والمكنسة . أو تصبح مشهدا سينمائيا يشبه الافلام الصامتة كما في مشهد مجيء يعاد الاولى .

تتداخل هذه العناصر الايقاعية ، في بنية موحدة تتشكل في مستويين :

أ ــ **دائرية النص** التي تحيل الرتابة الى حركة تتقدم . فهذه الدائرية التي تؤكد على التكرار : استعادة لحظة ماضية لتقوم انطلاقا منها بالتقدم : الانطلاق في سبيل كشف حدثي جديد . هكذا يتقدم النص في دائريته ، دون ان يتوقف عند ذروة مركزية توحد . فالعامل الموحد هو شخصية البطل .

ب ــ **الرمز الشامل** الذي ينطلق مــن وقائع عينية ليقوم باعطائها بعدا يمتـد على مساحـة الرواية . ــ **الكنز** الذي يتحول من مجرد حلم شعبي الى واقع سياسي . أو **انتظار يعاد** الذي يصبح انتظارا للوطن .

هكذا يأتي الايقاع الروائي **لغويا** وقادرا على الامتداد في حيز يعتقل أزمنـة متعددة في توال شخصي ، يهيمن عليه الحلم المأساوي .

الرؤية واطارات الواقع : تنطلق هذه الرواية من اطارات محددة ، حيث يلعب التراث ، والحكمة الشعبية ، دورا متزايدا ، في مواجهة قمع قومي عنيف . لذلك فهي حين تقترب من السيرة ، تقترب كذلك من شروطها التاريخية . فلقد نشأت السيرة ــ سيرة عنترة تحديدا ــ زمن الغزو الصليبي . وهي حين تلتقط من الحكاية الشعبية الكثير مــن عناصرها ، فانها تقترب من التراث الشعبي الذي يلعب دورا تقدميا في مكان محدد . لكنها في اقترابها من هاتين الصيغتين تحافظ على استقلالية فنية واسعة . تلتقطهما لتصبهما في قالب من الرؤية الاستدلالية الواقعية وتوظفهما في خـدمة مقترب سياسي . هكذا تأتي الابعاد المتعددة في شخصية سعيد أبي النحس المتشائل ، وأنماط علاقاتها ، وذكرياتها لتقدم نمطا يجمع المكر الشعبي ــ على نمط جحا ــ الى السذاجة الكاملة . لكن هذه الشخصية حين تتقلب وتمر بتجارب متعددة ، فانها تغتني بالافاق التي يطرحها الواقع . تصبح علامة فنية تسمح للمستوى التشكيلي للرواية بالتقدم ، كما تقدم امكانيات تعليمية سياسية ، لا تتوقف عند الحد الانفعالي بل تعقلنه : « ولكن الامر لم يقف عند هذا الحد . فقد رحت أتعجب من جهل العامل اليهودي باللغة العبرية ، حتى أقنعت نفسي ان

هذه الدولة ليست بنت معيشة . فلماذا لا أحفظ خط الرجعة » . وتقدم للممارسة السياسية بعدها الرمزي التاريخي : « أدركت سركم ، يا استاذ ، فكل واحد منكم اذن لديه صندوق حديسدي في طنطورته ، حيث أخفى والده كنزه الذهبي » .

ثلاثية اميل حبيبي ، هي أدب سياسي خاص ، يتجاوز السياسة الى الانسان . يلتقطه في ملامحه الخاصة جدا ، ويقيم لهذه الملامح صورة مستقبلية. هذه الرواية مثال آخر على قدرة القوى الحية على اكتشاف نقطة ارتكازها والانطلاق منها الى أقصى الابعاد . انها اشارات من الومض في فضاء الثقافة ، تقدم أدبا للتحدي ، يحمل مستقبله الخاص ولغته الجديدة . فهو حين يجدد ويبحث ، يصبح ممارسة جماهيرية حقيقية ، تنطلق من الواقع الى ما يتجاوزه ، وتلتقط من الحكمة الشعبية ما تضيف عليها . فالعناصر الديمقراطية في الثقافة الشعبية ، هي سلاح في لحظات المواجهة التاريخية .

النقد والنقطة المحددة

بعد أن نشر ترجمته لرواية يائيل دايان « غبار » (الموقف الادبي ، أيار ، ١٩٧٤) ، يقدم هاني الراهب دراسة نقدية عن تطور الشخصية الصهيونية في الرواية الانكليزية . والموضوع ، كاختيار ، يشكل امتدادا هاما للدراسات « الاسرائيلية » التي تحاول اكتشاف أواليات تحرك الواقع الاسرائيلي في فلسطين المحتلة ، وفي الفروع والمراكز الصهيونية المنتشرة في العالم . وأهمية هذا الكتاب ، هي في اضاءته جانبا هاما من المستوى الايديولوجي : الادب . فالصلة غير المباشرة التي للادب بالواقع ، تعطي دراسته بعدا غير وظيفي — بالمعنى المحدد — لانها تسمح بدراسة الايديولوجيا في احدى أكثر مناطقها تعقيدا ، حيث تبرز التناقضات الحقيقية التي يحاول المستوى السياسي حجبها دائما . ان النقطة الايديولوجية التي يتوقف عندها المؤلف في كتابه بأسره ، تسمح بأن تكون مؤشرا حقيقيا لتطور الايديولوجيا الصهيونية في بريطانية بشكل خاص . فالرواية حين تعكس الايديولوجيا لا تقوم بذلك بشكل مباشر ، انما تضعها داخل حقل علاقات اجتماعية ، تسمح باضاءة الكثير من جوانبها الغامضة . هنا ينتقل النقد من نقد ايديولوجي الى نقد سوسيولوجي ، أو يمزج بينهما ، وهذا ما حاوله هاني الراهب في ملاحقته التفصيلية والمتمهلة لموضوعة واحدة تخترق فترة زمنية طويلة نسبيا .

من الوصف الى التحليل : يقدم هذا الكتاب لوحة بيانية شاملة للرواية باللغة الانكليزية في تعاملها مع نقطة ايديولوجية محددة. **الشخصية الصهيونية.** فيبدأ من البدايات الحديثة، ١٨١٧، التي حاولت قلب معادلة شايلوك الشكسبيرية، ليصل الى شخصيات اسرائيلية معاصرة كما تقدمها روايات يائيل دايان. ان تعامل مراجعة نقدية ، مع نص بهذه السعة ، يبقى ناقصا . لذلك سنحاول ان نقدم رؤوس أقلام تصلح كتمهيد لقراءة هذا الكتاب ، مع ابداء بعض الملاحظات المنهجية .

يقسم الكتاب الى ثمانية فصول ، تبدأ بمقدمة نظرية تحاول تحليل الظاهرة الصهيونية بشكل سريع جدا ، لكنه يلتقط مفاصلها الاساسية ، باعتبارها حركة استعمارية ، وهي « طلقة أوروبية أكثر منها يهودية » . والواقع ان الكتاب بأسره يحاول ان يبرهن على هذه النقطة الاساسية . فالصهيونية هي حركة استعمارية أوروبية تلبس ثيابا ثيوقراطية .

يشير الفصل الثاني : **اليهودي الطيب** ، الى بدايات تحول الوعي الايديولوجي عن الثابت الشايلوكي ، الى محاولة اكتشاف « اليهودي الطيب » ويظهر هذا في روايتين : الاولى لماريا ادجورث **هارنغتون** (١٨١٧) والثانية هي رواية

---

* هاني الراهب: الشخصية الصهيونية في الرواية الانكليزية . مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية، ووزارة التعليم العالي في سوريا، تموز ١٩٧٤ .

والترسكوت الشهيرة **ايفانهو** (١٨١٩) . « الحالة اليهودية في هارنغتون وايفنهو تقريبا واحدة . فمن ناحية ، ثمة المجتمع المسيحي المعادي ، باستثناء قلة متزايدة من المتسامحين من نوع بطلي الروايتين، ومن ناحية اخرى ، ثمة اليهود الباحثين عن قبول لائق في المجتمع » . المؤشر الاساسي الذي يطبع هاتين الروايتين هو رغبة اليهودي في **الاندماج** . يقوم الفصل الثالث : **ما قبل الصهيوني** بمراجعة مستفيضة لروايات دزرائيلي مع تشديد على حياته الشخصية ، على اعتبار وجود تطابق بينها وبين شخصيات رواياته . في سبيل الوصول الى بدايات تحول اليهودي الى صهيوني . في الفصل الرابع : **الصهيوني مكتشفا للذات** تقدم شخصيات رواية جورج اليوت **دانييل ديروندا** مثالا على محاولات تأسيس نوع من اكتشاف الذات ، يكون مقدمة لاستعمار فلسطين . فهي تتكىء على مبدأ دانييل كاريزي في الاتصال والانفصال ، لتؤكد على مسألتين : أ — اليهود هم عرق ولكن كبقية العروق ، مختلف ولكن ليس اسمى ولا أدنى .

ب — ان مكونات القومية اليهودية هي الصدق والدين والتقاليد . ونصل مع المؤلف الى استنتاج رئيسي : « يهودها مستمدون من وعيها الاخلاقي المطعم بالتعاطف والغيبية » . نبدأ مع الفصل الخامس : **الصهيوني رائدا ومستعمرا** التعرف على الصهيوني في بدايات تكون هذا المفهوم عمليا مع رواية اسرائيل زانغويل : **ابناء الغيتو** (١٨٩٤) حيث نتعرف من خلال انقسام يهود لندن في ناحيتين الشرقية والغربية الى وجهي الهجرة والاندماج من خلال شخصيات محسوسة . ويصل الروائي الى استنتاج اساسي : العرق والدين والتقاليد هي مقومات القومية . ثم يصف جوزف باراتز في روايته **قرية عند الاردن** حياة الرواد ، من خلال مستعمرة داغانيا وبطولاتها الاسطورية المسرحية ! ضرورة اعادة بناء الذات في سبيل استعمار فلسطين حيث الاطار الجغرافي « كان مكانا موحشا ومن أسوأ مستنقعات الملاريا في البلاد. كان العرب كلهم مرضى ، وقد عانت النساء اكثر من غيرهن . وفي الليل كان البعوض يهجم والحمى ترتفع » . ونصل مع رواية آرثر كوستلر : **لصوص في الليل** الى احدى الجذور العنصرية للايديولوجية الصهيونية ، فيجري التشديد على العرق بدل الدين ، ويستعمل الوصف لغاية سياسية هي تقديم العرب بصورة حيوانية . « لم يكن ثمة بيت هنا ، كانت صحراء ومستنقع نتن وفلاحون مسفلسون . كنتم كلاب الشرق الشاردة ... انهم (اليهود) لم يسلبوكم بوصة واحدة من ارضكم ، لكنهم سلبوا منكم الملاريا والتراخوما .!! » أما الفصل السادس : **الصهيوني صابرا** فانه ينطلق من عدة روايات تغلب عليها السمة الدعائية . **الخروج** ليوري يوريس ، **والينبوع** ليتشزو **ونجمة في الريح** الخ... للوصول الى ثلاث نتائج : —

أ — تربية الصابرا على ازدراء العاطفة واعتبارها عرضا من اعراض الضعف .

ب — التركيز على الارض ورفض الدين : هناك الحاح على اهمية الارض والتوراة من اجل التأكيد على الاستمرارية التاريخية للصلات العرقية والروحية بين الصابرا والعبريين .

ج — التأكيد على مبدأ القوة الاسطورية ، من خلال استطالات ايديولوجية على بطولات خارقة لم تحدث .

يناقش الفصل السابع : **الصهيوني اسرائيليا** روايات يائيل دايان الاربع : **وجه جديد في المرآة** ، **اغبط الخانعين** ، **غبار** و **ولدان للموت** من خلال مسألتين اساسيتين : —

١ — التربية الاسرائيلية الاسبارطية ، وانهيارها الانساني بشكل مخيف .

٢ — الموت . الذي يصبح عالما واسعا من الدلالات الاجتماعية والسياسية ، حيث نكتشف اتجاها للنقد الذاتي .

تلخص الخاتمة الاتجاهات الرئيسية للشخصية الصهيونية بأربع صفات :

— الصهيوني هو مثال وليس واقعا .

— النفور من الحياة اليهودية .

— احساس نفاذ بالعزلة عن بقية البشر .

— **الصابرا والاسرائيلي هو اليهودي العصامي** الذي يعاني في نفس الوقت من استحالة قدرته على اقامة علاقات سوية (ليني في غبار) .

تقدم هذه الفصول ، لوحة عامة لتطور نقطة محددة من خلال معادلة نقدية لها طرفان : الوصف، الذي يقوم بملاحقة الموضوعة الرئيسية للكتاب ووضعها في اطارها الروائي . والتحليل ، الذي يدمج المستويات المختلفة للمعالجة النقدية عبر

حول قضية « البيان العاجل »

كان للبيان المشترك الذي أصدره أدباء عرب ويهود في الارض المحتلة ــ الاتحاد ٧ ــ ٦ ــ ٧٤ ، والذي يفهم منه مساواة للارهاب الصهيوني بالمقاومة الفلسطينية ، صدى كبير . اذ انـــه فتح أبواب النقاش واسعة في موضوع الادب الفلسطيني . ثم كان لتراجع ادباء الارض المحتلة عن هذا البيان ، بعض الترحيب . غــير ان الشــكل الــذي بدأ ياخــذه النقاش بعد مقــال محمود درويش السياسي « ادباء المقاومة ضد المقاومة » ــ المحرر ٢٥ ــ ٧ ــ ٧٤ ــ والذي حاول فيه طرح المسالة بشكل سياسي وموضوعي هادىء ، قد تحول من نقاش سياسي الى نقاش بلا هدف ، وخاصة في الرد الشخصي الذي كتبه أحد الموقعين على البيان في الارض المحتلة في جريدة « الفجر » . ومن موقع الحرص على أدبنا الفلسطيني ، وثقافتنا الثورية ، فاننا نشير الى ثلاث ملاحظات :

أولا : لقد كان للادب القادم من ظلام الاحتلال الاسرائيلي ، ايقاع البشارة بالنسبة لنا . فهذا الجزء من شعبنا ، الذي يعيش داخــل الغيتو القمعي الاسرائيلي ، ينتفض ، ويرفع صوته ، ويقاوم . وكان ترحيبنا ، يتفهم ظروف هذا الادب ومبلغ معاناته . لذلك ، لم نكن لنطالبه فنيــا وسياسيا باكثر مما يستطيعه ، أو باكثر مما يسمح له الواقع الموضوعي الذي يعيش في ظلاله . ويبقى هذا الادب ، جزءا من تراثنا النضالي ، الذي يجب ان نحافظ عليه وندعمه ونهيىء له أفضل الظروف التي نستطيعها . ان هذا الموضوع المبدئي ، لا يمــكن ان يخضع لاي نقــاش . لكن هــذا لا يعني حصانة مطلقة ، لا نخال احدا يطلبها . فهذا الادب هو جزء من كل ، ويحق للاجزاء والافراد ، النقاش سياسيا حول مسائل قد تبدو خاطئة ، أو قد تكون خاطئة فعلا ، كما في البيان الاول الذي نشرته ــ الاتحاد ــ . ان البقاء داخل الارض المحتلة ، رغم العسف والاضطهاد ، هو أمر مشرف ونضالي . لكن الاقامة خارجها ، ليست عارا ولا عيبا . فلقد فرضت هذه الاقامة على أكثرية شعبنا ، وثورتنا تنطلق من الخارج . لا حصانــة لاحد ــ لاسباب جغرافية ــ ولكن للجميع حصانة شرف الكلمة التي تناضل في الخارج وفي الداخل معا . ان جدارة الادب الفلسطيني تحدد بالتزامه بحركة الشعب الفلسطيني وثورته .

ثانيا : ان الحوار الديمقراطي ، هو ميــزة المناضل بالبندقية والكلمة . فالتعدد لا يعني تبعثرا، بل يعني اننا أعضاء في جسد سليم ، تدور فيه فصول الحياة ، وتشرق عليه شمسها . لذلك يستطيع هذا الجسد تقويم اخطائه . غــير ان للحوار الديمقراطي ، شروطا لا يمكن التخلي عنها. فيجب ان نتجاوز الانانيات الفردية لتصل فعلا الى قدرة على المخاطبة والرجوع عن الخطأ . لكن هذا الحوار ، لا يمكن أن يجري ، الا بلغة حملت دماء شعبنا طويلا ولا تزال تحمله . فاللغة الثوريــة المناضلة ، لا تتخلى عن الدماء وتتلهى بحبر مسموم وسطحي . ومن هذه الزاوية نرى من الواجب ان نستنكر الاسلوب الذي رد به أحد شعراء الارض المحتلة على زملائه في الخارج ، فنزل بالنقاش من المستوى الفكري الى المستوى الشخصي .

ثالثا : ان للكلمة ايقاعا نضاليا لا يمكن ان نتخلى عنه أو نفرط به . الكلمة سلاح من أجل المستقبل ، وليست في أيدي ثقافتنا الفلسطينية سوطا قمعيا . لذلك فان للنقاش بالكلمة شروطا أولها التواضع الذي نتلقاه درسا ، من أبنــاء شعبنا ، الذين يسجلون أروع لحظات تاريخنــا في عرس دموي ومجاني ، وبلا شروط سوى الوصول الى جسد الوطن .

ان النقاش السياسي والثقافي ، ضروري وفعال . شرط ان لا ينزلق الى مواقع السائد القمعي .

لا تريد هذه الملاحظات سوى أن ترفع صوتا ، يؤكد الحقائق التي اصطلحنا عليها بالممارسة . فثقافتنا الثورية هي رؤيا ومستقبل : رؤيا لسلام تصنعه الجماهير الثورية المقاتلة ، ومستقبل ثقافي نصل فيه الى القدرة على التعبير عن انفسنا بلغة جديدة . تغسل بقع الظلام عن الافق .

عقد المقارنات والدراسة السوسيولوجية السياسية الاولية واضفاء طابع موحد تسلسلي من خلال التقاط نقاط ارتباطه الاساسية . بين طرفي هذه المعادلة تتحدد الرؤية النقدية التي تضبط الكتاب بأسره ، وتجعله سياقا موحدا في سبيل الاطلال على ناحية بالغة الاهمية وشبه مهملة في الكتابات الفلسطينية .

المستوى الايديولوجي . يحاول الكتاب ، في منهجيته ربط مستويات التحليل المختلفة . لكن ملاحظتنا الاولى تأتي على الطابع الاكاديمي الصارم الذي منع ربط تطور النظرة الى الشخصية الصهيونية في الرواية مع تطور الايديولوجية السائدة في اوروبا ومع تطور الايديولوجيا الصهيونية . فرغم محاولة الكتاب في بعض الاحيان اكتشاف هذه العلاقة ، فانها بقيت شبه مهملة ، ولم يجر تركيبها بشكل متداخل . ربما كان هذا الغياب يعود في المقابل الى تصور نقدي محدد . لكن غياب المقدمة المنهجية يبقي هذه النقطة معلقة. تكتسب هذه المسالة اهمية بالغة في الفصول الاخيرة ، حيث تصبح الحاجة ماسة اليها . فهل تعبر روايات دايان عن منحى عام في الايديولوجيا الصهيونية ، وما هي عناصره ؟ في كتاب الراهب لا نعثر على اجابة محددة على تساؤلنا . هنا تأتي ملاحظتنا الثانية على الفصول الاخيرة من الكتاب ، حيث يحصر النموذج الاسرائيلي بروايات دايان (لسبب منهجي طبعا ، باعتبارها تكتب بالانكليزية). لكن من اجل ايضاح اكبر لهذا الموضوع كان لا بد من عقد مقارنات مع روائيين اسرائيليين اخرين . ولو ادى هذا الى خلخلة جزئية للمعادلة المنهجية — شكلا — من اجل الوصول الى صورة اكثر وضوحا ، والى احكام اكثر شمولية ودقة .

رغم هاتين الملاحظتين ، يبقى كتاب « الشخصية الصهيونية في الرواية الانكليزية » ، عملا نقديا بالغ الاهمية ، ليس فقط لانه يقدم لنا دراسة في ميدان لا يزال مغلقا ، ولكن لانه يؤشر الى قدرة النقد التحليلي الذي ينطلق من علاقات الشخصيات في الرواية ، على الكشف عن حقل واسع من العلاقات . فالنقد هو اساسا تعامل مع النص انطلاقا منه . فالموضوعية المحددة التي انطلق منها الكتاب لم تحجب ضرورات النقد الاساسية ، ولم تورطه في تعامل ايديولوجي دعائي . بل بقي النقد ممارسة ايديولوجية تكشف وتؤكد وتنمذج .

رياح عز الدين القسام

كيف تأتي البشارة ، بعد الوعد بها ؟. في مجموعته الشعرية السابقة **خماسية الموت والحياة،** حمل محمد القيسي الصوت الشعري على ايقاع الممارسة المباشرة . وقف بين لحظة الشعر ولحظة الموت يترقب البدايات ، يدخل المعاناة الشعرية كصوت محمول على مرجعه النضالي . حمل « قمر الثورة » مع الفقراء ، وسقط وجهه بين التعاسات معلنا بشارة الولادة . لذلك كان للهجته طعما رومانسيا بطيئا ، ينتقل بين اللحظات ، دون ان يوحدها . يبشر ولا ينفجر . وعندما تصل بشارته لحظة توهج ، يرفع الشعر الى تخوم الوعد بالنبوءة :

« علني ابعث من هذي التعاسات
نبيا
بين عينيه البشارة » .

في مجموعته الشعرية الثالثة : رياح عز الدين القسام . يخفت الصوت النبوي وترتفع المأساة ، لكن الفجيعة التي تحترق داخل نار ايلول والاحراش لا تزال أولية ، بالغة السخونة . لذلك يأتي الشعر ليسلبها لا ليضيف اليها . فاللغة الشعرية هي حيز بنائي يوتر اللحظات داخله . اي انه ليس صدى ، بل هي اللحظات المتوترة في داخله اصداء قدرته على الصهر والتشكيل . لذلك لا تأتي القصيدة تنويعا على الواقع — بالمعنى المباشر للكلمة — بل يأتي لون الواقع كخلفية للوصول الى مصطلح متكامل . هكذا يصبح **الانفعال** عنصرا ، ولا يعود مركز القصيدة . لكننا هنا ، امام فجيعة

---

* محمد القيسي : **رياح عز الدين القسام** ، منشورات وزارة الاعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٧٤ ، ديوان الشعر العربي الحديث (٤٢).

تسحق ولا تسمح للشعر بحيز أكبر . وعد النبوة يتراجع امام وعد الحزن الاتي بوصفه « شارة المذبحة » . حول اشارة المذبحة يتحلق الشعر ، يصيغ مرات للزمن عندما يخون ، يستلهم التراث والحكاية الشعبية ، ثم يمتد في مخاطبة واضحة ومباشرة تمزج الصراخ بالبكاء . هنا لا مكان سوى لايصال يجلس في مكمن الذكريات ، يوقظها ، ويقيم حولها عرسا شعريا له ايقاع جنائزي . رتابة الايقاع هي رتابة ايصال مباشر يحاول اختراق كثافة اللحظات دون ان يوحدها ، يأتي الشعر تنويما ، ويصبح الصوت الفلسطيني رجع الدماء والحلم حين يمتزجان على ارضية الموت .

الحزن الفلسطيني : تلقي تجربة ايلول والاحراش ، بثقلها على النتاج الفلسطيني الجديد ، ففي القصة القصيرة والشعر ، يرتفع الحزن الممزوج بطعم رماد الحرائق ، ليغطي حيزا واسعا من المساحة الفنية . يحرق الشعر ويصل الى الكآبة . هكذا يعود الصوت الفلسطيني ، او اجزاء واسعة منه على الاقل ، الى رومانسية البدايات ، وقد امتلأ ثقوبا فجيعية ، وتراجعا امام الهزيمة . فيدور حول نفسه في نقطة ايديولوجية محدودة ، مستصرخا البدايات :

« واستطلعي وجهي المحنى بالتراب

وما كتبت عن الذي يأتي

فما سمعوا

وما أنذا تضج بين البلاد ويكبر الوجع » .

امام الحزن الفلسطيني الشاسع ، يصبح جسد الشعر ، بحثا عن مصطلحاته وعن لغته . أي لا وجود لنقطة محددة يجري البحث عنها ، بل هناك سيل من الانفعالات المتموجة تبحث لنفسها عن وعاء .

المصطلح الشعري : في بحثه عن مصطلحه الشعري ، يقع محمد القيسي على ثلاثة اطارات : **القصيدة الدرامية** التي تظهر في الحوار ، وفي التطور المفترض لبطلها الرئيسي . يظهر هذا الاصطلاح في قصيدتين : « حين قال سامرلا في المواجهة الاولى » : حيث نقع على المباشرة الصارخة التي تحيل الصورة الشعرية الى صدى ، وتشل الحركة الداخلية للحوار . فالتطور « الرمزي » المفترض مرسوم سلفا . اي ان الحركة الدرامية لا تتموج ، تبقى في خط سيرها العادي ، لذلك فهي مليئة بالثقوب التي تحتاج الى الشعر كي يملأ فراغاتها ، اي ان الحركة الدرامية في القصيدة ليست بنية . انها مجرد اطار . هكذا يحصل التفاوت بين الشعر وبين اطاره ، عوضا عن ارتفاع صوت الشعر في سبيل تفجير اطار جامد ، فانه يتأقلم داخل اطاره هذا ، ويبقى مجرد اشارات مليئة بالانفعال . الانفعال المباشر والحاد هو السمة الرئيسية لهذه القصيدة ، لذلك نعثر على الدلالة فيما نفتقد الاشارة ، أي نصل الى النتائج بوصفها معطى : « فلتنفتح يا سيدتي أبواب السجن ، طفح الحزن !! » .

وفي القصيدة الثانية « عز الدين القسام جزء من حديث ذات ليلة باردة » . نعثر على محاولة تخطي هذا الاطار المطابق . يأتي الشعر هنا اكثر حرارة ، لكن المقترب الشعري هو مقترب يعيش في الذاكرة . اي ان القسام لا يحضر ، يستحضر كي يعيد جسده حرارة الاشياء . فينساب الشعر منبسطا ، رومانسيا ، وحنيني الايقاع . يدور داخل الصدى ، دون ان يستطيع اختراق الذاكرة . مرة ثانية نعود الى اطار ثابت ، لا يستمد حركته من توتر درامي . بل يستمدها من خط مستقيم يبدأ حيث ينتهي ، مشعلا بعض مناطق الذاكرة الشعبية دون ان يفجرها :

« احمل تذكارات الامس

مواويل الجبل وصورا للاطفال الباكين

فأنا منذ قتلت

هاجرت الى مملكة الاعشاب » .

المرجع الواضح : يتوكأ الشعر هنا على مرجع سياسي واضح . فهو يلتقط بعض صور الحياة اليومية ، لكنه يكتفي بتسجيلها ، تاركا اياها تنساب خارج القصيدة . فالمرجع الواضح حين يصبح مجرد امتداد عار لتصور محدد ، فانه لا يضيف على القصيدة الا التماعات لا تخترق بنيتها الدرامية . لكنها لا تستطيع الوصول الى رمز حقيقي حين تستوعب الاسطورة الشعبية في ثناياها . فتضمين الشعر العامي في قصيدة « القسام » ، ينقل الذاكرة الشعبية الى الواقع اليومي . غير ان الملاحظة الاساسية على المرجع الواضح هو في

سهولته المفترضة : فهذه السهولة توحي بالقدرة على استيعابها مع ان هذا الاستيعاب هو احد اعقد الامور في بنية الشعر ، لانه ينقل هذه البنية الى التعدد ، والتعدد لا يمكن ان يكون وحيد الجانب . من هنا فهي تستدعي تعددا آخر وبنية مختلفة . هي بنية القصيدة التي تمتزج فيها الاصوات ، ولا تتكىء على شكل من اشكال المخاطبة . اما الاطار الثالث للمصطلح الشعري في هذه المجموعة فهو **الصورة الشعرية** . طبعا يمكن دراسة الصورة الشعرية بشكل مستقل ، لكننا سنأخذها هنا بوصفها جزءا من كل . فلنأخذ ثلاثة امثلة على الصورة الشعرية في المجموعة : (شرفة الحلم) (طفح الحزن) (حقول البكاء) . تنتمي هذه الصور الى نسق واحد . هو النسق المباشر . تفترض علاقة بين اشياء لا علاقة لها ببعضها مبدئيا . لكنها تبقى صورا مستقيمة .

أي لحظات داخل القصيدة . فلا وجود هنا ، للصورة الشاملة التي تعيد بناء القصيدة بوصفها جزءا منها .

الفجيعة والبنية الشعرية . لا تزال التجارب الشعرية الجديدة عاجزة عن اختراق المصطلح الشعري الذي جرت صياغته من قبل « الرواد » . فلا يزال هذا الشعر في اغلبه ينوع على موضوعات سابقة ، بلغة شعرية تفترض امامها نموذجا . والقيسي عندما يحاول الوصول الى فجيعتنا ، لا يقيم لهذه الفجيعة لغتها الخاصة . ينوع داخل حقل المدى الفلسطيني الذي اعطى الكثير في ثقافتنا المعاصرة . لكن الشعر حين يريد ان لا يكون مجرد صدى ، لا يستطيع التخطي الا عبر لغة جديدة ، تبررها بل تفرضها ممارسة مختلفة هي ممارستنا الفلسطينية في السنوات العشر الاخيرة .

حول القصة الجديدة

تطرح رواية الشاعر يوسف الصائغ «المسافة» مسألة الشكل الروائي بشكل حاد وحاسم . فهي ليست استكمالا لمحاولة دمج الرواية بالشعر ، او ليست محاولة لاستعارة بنية القصيدة داخل الرواية . انها تدمر الشكل الروائي بشكل وحشي ولا شاعري فعشوائية العناصر التي تقوم بدمجها — المسرح . السينما ، السرد ، المونولوج ، الحجم — تفرض شعورا حادا بالغربة . هنا نعثر على محاولة جدية للانتماء الى الرواية الجديدة . لكن قراءة ثانية لهذا العمل ، تجعل من العشوائية المفترضة ضوابط صارمة لتجربة حقيقية تبعثر الشكل وتضغط اللحظة السيكولوجية الى اقصى الدرجات . فيتحشرج « البطل » لحظة الخطيئة الاولى ، ويسدل الستار على تداع من نوع خاص تفرضه شهوة الحياة وقد لبست ثوب الجلاد .

تبدأ الرواية ببعثرة هائلة . مجموعة من العناصر (من ضمنها البطلان : هو والبطل) تأتلف وتتمايز داخل حقل شاسع ، يسمح للانفعالات بالوصول الى اقصى درجاتها . ويدخل ايقاع العناصر — المطر بشكل خاص — بوصفه حلقة من توازيات الفعل البشري . يمتد لتنفتح للبداية مداخلا عدة لشكل التبلور في الرواية . ثم يبدأ المدى يضيق، يتحول المسرح الى حالة ، والسيناريو الى اطار وصفي ، حتى نصل الى حلقة ضيقة يجتمع فيها رجلان وحولهما المأساة والموت . تصبح المداخل مجرد كوى يمكن الاطلال منها ، لكن الحالة تتوحد في سياق محدد بخط مستقيم يوحد الرجلان في محاولة بسيطة وواضحة هو البطل . وتبدأ الدلالات بالتراجع لتحصر نفسها ضمن اشكالية واحدة للقراءة . فالرواية لا تتعدد . وتضيق حتى العودة الى بداية جميلة مرعبة . اذا اردنا تبسيط الرواية نستطيع ان نقول انها تحاول ان ترسم حالة الخائن وحالة « البطل » حين يتوحدان امام الموت . هنا حيث لا مكان سوى لهذا النوع من المواجهة ، تنحل العلاقات ، وتعود بسيطة او مبسطة . لذلك يأخذ الشكل الجديد في هذه الرواية بعدا شكليا — ولا نقول مجانيا — لان شكليته ليست صفة لشكله، بل هي الشكل نفسه ، وقد حاول فتح منفذ للرؤية

---

* يوسف الصائغ : المسافة . منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ١٩٧٤ .

الاساسية التي تضبط حركة الرواية وتعطيها بعدها الروائية العربية ، التي تحتـاج الى الكثير مـن المنافذ .

العناصر والشخصيات : نبدأ أمام مسرح تحتله ثلاث شخصيات . انا وهو والقتيل (البطـل) . وهناك جمهور واسع يعلق على الحوار ، وذكريات تخترق جدران المسرح لتنقلنا الى البدايات . بداية الهرب وبداية الخيانة . (هو) : خائـن قتـل البطل بوصفه سجانا . و (أنا) هـي شخصية المؤلف التي تعلق . الرواية باسرها تدور حـول محاولة (هو) تبرير عمله . يقفز رجل من الجمهور على المسرح ويعاد تمثيل الجريمة . (هو) سجين يريد من البطل الخيانة ليصبح خائنا مثله . يأخـذ مهلة خمسة ايام ليجعله يتعاون مع السلطـــة . هنا يبدأ أكثر فصول الرواية توترا و (تقليدية) ، ثم يقوم الخائن بقتل البطل كي ينقذه . حول هـذا الخط الواضح والبسيط تأخذ لعبة الشكل في الرواية مدلولاتها الكاملة . ثم تأتي العناصر — المطـر ، التبول ، التغوط ، البرد — لتلعب دورا مساعدا للشخصيات الثلاث . تقوم بوظيفة الخلفية التـي تشحن الحركة بمدى القدرة على التبلور .

انـا	هو	القتيل	الجمهور، المراة، المطر، السجن
اقدم	يروي	ميدان الفعل	
أعلق	يسرد	انفعـالات	صدى الحركة
	يفعل	مبـاشرة وبسيطة	

يستطيع هذا الشكل ان يحدد العلاقات داخل الرواية . فالراوي (أنا) هو المؤلف الذي يكتفي بدور التقديم ، دور الحكواتي على المسرح ، ثم يعلق بشكل سريع ومختصر . (هو) أساس الحركة في الرواية ، نقطة التقاطع . يروي الحدث ، ثم يسرده بشكل مسرحي (مونولوغ) أو بشكل روائي (سرد بصيغة المفرد) ثم يقوم بالفعل الاساسي : القتل . (القتيل) هو ميدان الفعل ، يتنقل بين الشخصية الحقيقية والصورة . أما بقية الشخصيات فهي مجرد صدى لعلاقة (هو) (بالقتيل) . بقية العلاقات هذه التي تتمحور على شخصيتين فقط ، تسمح للشكل بأن يأخذ مداه الكامل . لكن الاطار المحدد — القتل — الذي يفرض على الرواية بوصفه اطارا وحيد الجانب ، يعيق تحرك العناصر التشكيلية المختلفة ويشلها أمام حدث واحد ، لا يفتح العالم الداخلي ، بل يقوم باغلاقه . غياب العالم الداخلي — الحلم — لا يعني ان الاشياء تحتل الجزء الاساسي في الرواية ، كما في الرواية الجديدة . فالاشياء هنا **وظيفية** بشكل كامل . ليست عالما ، بل هي عناصر خارجية لعالم التوتر السيكولوجي الحاد الذي يطبع الرواية . هكذا تنحل تعقيدات الخيط الروائي تصبح خطا واضحا ومستقيما . وحين نعيد قراءة الرواية ، لا نكتشف من جديد سوى وضوح المقدمات وبساطتها .

من السرد الى الحجم : العناصر الكلاسيكية التي نتوقعها في بنية أية رواية موجودة هنا . لكنها تفقد دلالتها القديمة ، لتأخذ دلالة مختلفة . **فالحوار** هو حوار مسرحي كامل . حتى الاضاءة موجودة . يتخلل هذا الحوار **مونولوغ** مسرحي . (هو) يخاطب الجمهور ثم يخاطب زميله على المسرح . ثم يبرز المونولوغ الداخلي على شكل نتوء مسرحي . أي انه نتوء يحاكي السرد القصصي دون أن يندمج فيه ، اذ يبقى على صيغة المخاطبة: « شعرت لاول مرة باليقظة . انني كنت مخدوعا وفقدت كل طاقة على الغضب والخوف والحزن . شيء واحد يبقى ، الهرب . كان الهرب معقولا ومبررا » . أو قد يأخذ صيغة الغائب : « خيل اليه ان قنينة الغاز في الحديقة جسم حي » . ثم يدخل **السرد العادي** ، وكأننا في قصة عادية . فهو سرد بصيغة الماضي .يؤدي معنى اضافيا محددا: « ولم يعد القتيل يستطيع كبح جماح حاجته الى التبول » . ثم يدخل عنصر **السيناريو السينمائي** . يأتي هذا العنصر كاشارات ممكنة لاخراج مقاطع من العمل سينمائيا : « المنظر يرى من سطح الدار، يبدوان من الاعلى أصغر حجما ، حركتهما مرتبكة (هو) الى الامام وهي وراءه ... والمطر » . اشارات السيناريو هذه تتحول في مشهد لاحق الى مشهد سينمائي حقيقي يؤدي وظيفة **الذاكرة** . حتى نصل الى **مباشرة مسرحية** عادية جدا . هنا يرتفع صوت البطل كما في المسرح التعليمي ، يستخلص منطقه او منطق علاقات المسرحية بشكل علني وأمام الجمهور : « يا أيها الناس هل أنتم واثقون أنكم لو خضتم تجربتي ، وعانيتم عذابي وضعفي ... وقوتي ، لكنتم مؤهلين للخروج من كل ذلك بالبطولة ؟ ها ؟ أجيبوني » . لكن العناصر

التشكيلي الجديد ، هي عناصر جديدة ، لم تستعمل قبلا او لم تستعمل الى جانب بعضها في البنية الروائية السابقة هي :

١ ـ **الايقاع الثابت** الذي يبدو وكأنه الصوت الخارج من الرواية . انه الثابت الاساسي الذي يوقع الحالة السيكولوجية ضمن مدلولاتها . فالحالة السيكولوجية ليست وليدة مجانية في العلاقات . انها وليدة توتر حقيقي ، تعود عناصره الى التذكر الدائم بنفسها . فتضبط حركة العلاقات بشكل ثابت ، ولا تسمح لها بالجموح التخيلي :

« آلة تسجيل تعيد المقطع

ــ أفعل ما تريدون ...

ــ تخون ؟.

ــ أجل ...

ــ قلهـا ...

ــ ماذا أقول ؟.

ــ قل أخون ... ».

٢ ــ **الصورة** : لا تدخل الصورة هنا بوصفها عنصرا خاصا ، انها جزء من المونولوغ . لكنه جزء يحمل حس المفاجاة والقعر الداخلي . فهي اما ان تكون تشبيهيا حسيا : « يبدو كم السترة مثل يد مشنوق » ، او تتوتر في تشبيه حاد وفاعل « بدائيين مثل الخطيئة الاولى » ، لكنها تبقى اضافة تقيم توازنا داخل التجدد الروائي .

٣ ــ **التعدد** الذي لا يأخذ مداه ، ضمن بنية مضغوطة الى هذا الحد ، الا في لحظات قصيرة . فينفتح نافذة ، كانت تستطيع الرواية لو وسعت مداها الوصول الى ما بعد الآني ــ السيكولوجي . فهي حين تصف علاقة (هو) بالمرأة ، تصل الى ذروة لا تتخطاها : « وفي غمرة من حماستي تذكرت ان الفجر سيكون مخيفا وصعبا ... وقاتلا . فأغمضت عيني ... وسقطت ... وظل الهواء يحملني مسافة كاملة . ورحت انتظر بحماسة اللحظة التي احس بها الارض ... (فجاة يسمع صوت جسم يسقط ... يضاء المكان ...) ».

٤ ــ **الحجم**: ربما كان الحجم هو المبرر الاساسي لهذه اللعبة التشكيلية . فنحن نصل الى التحجيم الذي يقترب من محاولات القصيدة المعاصرة . اذ يحتل الحجم حيز السرد في بعض الاحيان، او يسمح للقراءة بأن تاخذ شكل الحالة السيكولوجية دون ان يقوم الكاتب بوصف هذه الحالة : « هو : (ينظر اليها لا يجد كلاما يقوله ... ما تزال به حاجة الى الهرب).

المطر : يزداد

الحديقة : تلتمع » .

الرواية بأسرها هي محاولة لقراءة النص بوصفه شكلا أو حجما . لذلك تقوم العين المباشرة بدور المخيلة . وتأتي العناصر المختلفة لتقوم بتعدد لا تسمح به رتابة المواجهة بين (هو) والقتيل .

الرواية ومسافة التجديد : تأتي رواية يوسف الصائغ ، لتنقل هما عاما ، بضرورة تجاوز الاطارات الثابتة من ضمن خروج الرؤية الروائية من قوقعة الحدث والسرد ، لتشدك في صياغة الشكل الجديد، الذي يجيب على طموحات فنية مشروعة . لكنها لم تسمح لنفسها بالامتداد داخل عالميها : الحلم ، والاشياء . لامستهما في بنية تتحكم بها ضوابط بالغة الاتقان ، واستطاعت رغم هذا ان تكشف عالما خاصا ، عالم السجن ، دون رومانسية مفتعلة او وعظية عبثية، بل حاولت ان تحافظ على الحدود بين الموت وشهوة الحياة . وقدمت لحظات بالغة التوتر : « كنت أضغط على رقبته ... وكان مطر يسقط في مكان من روحي . مطر ولذة تعدل السقوط والخيبة واليأس ... كانت الحياة تنخر في صدري آه ... اه ... كنا بدائيين مثل الخطيئة الاولى ... وصوته ... اع ... خ ... وعندما انتهى كل شيء ... أحسست بالراحة ... وبدأ مطر كثير بالسقوط » .

هذه الرواية هي اشارة نحو روايات لا تنفد من قراءة اولى ، بل تتسع لعالم يمتد ليحضن تجربتنا الحقيقية التي لم تكتب سوى أحرفها الاولى.

عيون في الحلم

في مجموعة عبد الرحمن الربيعي القصصية ، اصرار على الحب المجاني ، فهو حين يتنقل بين مآسي وهموم أبطاله ، ويتعامل معها ببساطة وواقعية لا يدعو الى شيء سوى الى الحب . يدفع القارىء الى الابتسام بحنان شفاف أمام أبطال يعيشون أوجه المأساة دون ان يجعلوا من مأساتهم حيزا تراجيديا صراعيا . فالمأساة التي تدفع الى السخرية هي الوجه الآخر للواقع ، وهي ايضا المقترب الآخر للقصة القصيرة او للرواية . نتعرف على نماذج لا تطلب شيئا منا ، لانها لا تطالب الحياة بأكثر من خيباتها . الانسان كما هو ، حين تأخذه تفاصيل حياته اليومية ، ولا تدع له مجالا للتفكير بمصيره . وحين يطرح مأساة هذا المصير ، فانه يطرحها بشكل مبسط وهادىء ، يتعامل مع « فرنيه » بحنان ، وتخرج ابتسامته لتغطي حيزا تراجيديا فقد قدرته على قتال الحياة ، فرضي بها كما هي دون تفلسف مفتعل ، وابتدأ ينسج علاقاتها من جديد .

الحس المأساوي الثاني : خلف البسمة التي ترتسم على المستوى الاول لهذه القصص، يقع حس مأساوي مرهف وبالغ الحساسية . لا يأخذ من المأساة حجمها المباشر ، ولكنه يتوقف عند قدرتها على رسم شخصيات عادية لا تنسى . هنا تقع قيمة هذه القصص في مرحلتنا التأسيسية هذه ، حيث نفاجأ بأبطال يبتون في الذاكرة بوصفهم يحملون احساسا عاما ، ثم ينتشرون على مساحة علاقاتنا اليومية . تتوقف امامهم وتبدأ من خلال علاقاتك اليومية بهم اكتشاف المأساة الحقيقية التي تلف حياتهم . يظهر هذا جليا منذ القصة الاولى « مملكة الوعول » ، حيث لا يزال الحس المأساوي في المقدمة ولم يختف بعد خلف النكتة السوداء بشكل كامل . فسعدي السجين ، يخرج من السجن ليكتشف ان زوجته التي يحبها قد أصبحت مومسا : « وتناقلت الافواه والآذان همسات سرية أخذت تقصه وتقطعه اوصالا ثم تنشر اشلاءه على حبل طويل » . لكنه يكتشف استحالة الثأر لشرفه او حتى ترك زوجته . فيبقى الى جانبها مستسلما وراضيا بدور القواد التي تعصف في رأسه ذكريات النضال . وحين يأتي السرد القصصي ليتعامل معه بشكل نهائي ، فانه يحيل الحس المأساوي الى سخرية مريرة : « وعندما هز رأسه شعر به ثقيلا كرخامة كبيرة . وامتدت يده لتتحسسه فاصطدمت بقرنين صغيرين » . لكن هذه السخرية هي التعبير الاساسي عن الحس المأساوي الثاني ، حيث تأتي استسلاما أمام اوجاع لا تحصى لا تتوقف أمام الوجع ، بل تتركه ينساب على مساحة العلاقات الانسانية . ففي قصة « صفحات منكسرة من تاريخ المدن التي انتصرت »، نتعرف على شخصية « طاهر عبدالله العيسى » في موقف الهرب والتشرد . لكن هذا الموقف ليس حالة خاصة او متعذرة . لذلك يتعامل معه المؤلف بحنان وقسوة . فالاختفاء من أعين السلطة هو في الوقت نفسه تحد للـزمن والاشياء . لذلك يأتي السرد القصصي ليلخص : « انعطف في زقاق جانبي لم يسلكه من قبل ، وعندما وصل الى نهايته وجده مسدودا . كان الزقاق فارغا تماما . وعندما تلفت لم تسقط عيناه على وجه او نافذة ففتح ازرار بنطاله وأخذ يتبول على الجدار » . وفي قصة « الوقيعة » نتوقف طويلا أمام شخصية عباس النداف . فهو نموذج عادي ويومي للرجل الذي تسحقه علاقاته ، حتى زواجه من فاطمة يتحول الى مدخل لانقاذ حياته اليومية من قمعها له .

قد تكون هذه النماذج الثلاثة مثلا واضحا على الحس المأساوي الذي يستقطب القصة دون ان يلقي بظلاله عليها . يأتي هذا الاستقطاب في حركتين أساسيتين : **الحوار** العادي جدا والذي يرسم اطارات العلاقة الاجتماعية . **والسرد** الختامي التدخلي ، الذي يرفع هذا الاستقطاب الى مستوى الحلم اليومي . يتدخل الكاتب في السرد ليرسم النهاية ، او يستنطق أحد ابطاله هذه النهاية

---

* عبد الرحمن مجيد الربيعي : **عيون في الحلم** ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق . ١٩٧٤

العادية التي تعيد انتاج القصة بوصفها مأساة .

الشخصيات : في قصته الاخيرة « عيون في الحلم » ، نتعرف على ثلاث شخصيات رئيسية : سالم ، رشيد ونوري ، في علاقتهم ، دون ان نتعرف على ملامحهم خارج اطار شبكة محددة رسمها المؤلف بدقة . لذلك نبقى في حيز القصة القصيرة ولا ننتقل الى الرواية . الاساسي في هذه القصة هو القدرة على رسم الشخصيات بشكل دقيق . سالم ينقل مدرسا الى احدى القرى النائية، ورشيد مجرد سكير ، ونوري رسام يبحث عن شخصيته الفنية . العلاقة بين هؤلاء ليست علاقة توتر ، انها علاقة يومية تتعامل مع المشاكل بشكل واقعي . لكن المأساة تقع هنا خلف واقعيتهـــا المفترضة . فمعاناة سالم التي تتوتر بين ليلى ومنى ، هي معاناة سياسية في الدرجة الاولى . انه داخل بحثه عن شخصيته يبحث عن شعبه في وجوه تلامذته الفقراء . « أنتم لا تختلفون اليوم عن حيوانات الحقل بشيء ... ان لم تدركوا هــذا اليوم فستدركونه غدا ... اسمعتم ما أقول » . غير ان هذه المعاناة السياسية ، لا تبقى معزولة عن اطار علاقة الثلاثة ببعضهم . فهذه العــلاقة هي صدى الهم السياسي وان لم يأخذ هذا الهم حجما كبيرا في داخلها ، فهي تعبر عن معانـــاة حقيقية ، حيث العزلة والبأس والخمرة . غير ان روح الدعابة تصل هنا الى حد خلق شــخصية كاريكاتورية هي شخصية عبد الجبار . ورغم ان هذه الشخصية تستند الى بعض عناصر نموذج الاستاذ الريفي لكنها تأتي هنا وكأنها تنويع مبالغ فيه للحس الفكاهي في هذه المجموعة : « بلا مؤاخذة ولو انا قصير الباع قليل الاطلاع في مثل هذه الامور لكنني لا أشرب الخمرة فهي رجس من عمــــل الشيطان » . تنساب الشخصيات في علاقات مجانية ، لا هدف لها سوى الوصول الى جزء من لوحة تصور أشياء الواقع . كذلك تبقى بعيدة عن القدرة على الوصول الى لحظة توتر تعيد خلق الشخصيات ضمن اطارات متعددة . فضغط الاطار الذي وضعه المؤلف بشكل مسبق ، لا يسمح سوى لنهاية مفاجئة تقطع حبل القصة وتتركها معلقة في فراغ رسم شخصيات طريفة وموحية : « يشق رجال الشرطة طريقهم صوب المدرسة . وجوه مقفلة على حقد ونتن . الطلاب مصطفون . نحن أشبال صغار . نحن جند للبلاد . وان سقطت شهيدا . اقرأ أنت . لا تتقاعس . أريد حنجرة صلبة . يتوقف النشيد .

ــ نريد المعلم سالم عباس درويش .

الرؤية والنفاذ : تؤطر هذه المجموعة القصصية الرؤية الفنية داخل حقل التقاط هموم مباشرة . تلتقطها وترصفها الى جانب بعضها في محـــاولة للوصول الى شخصيات طريفة وموحية . شخصيات تعلق بالذاكرة دون ان تطالبها بمعاناة جديدة . فالمعاناة هي معاناة أبطال القصص الذين يرسمون مسافة لا يستطيع القارىء اجتيازها . فكأننا أمام مسرح تعليمي فيه مجانية اللحظة ومأساتها في آن معا . غير ان اطار هذه الرؤية يعجز عن النفاذ نحو خلفيتها ، أو هو يضع حدودا صارمة بين القصة القصيرة والشعر . فتبقى القصة زاوية لرؤية محددة الاطارات ، لا يخترقها سوى حس مأساوي يقبع خلف علاقاتها . وتتحرك الشخصيات في محاولة للبقاء ضمن ايقاع يتلون بانقطاعـــات الحركة وبالمفاجأة الاخيرة . هنا تفتح القصة منفذا للشعر ، لكنه منفذ ضيق يحافظ على الحـــدود الصارمة ، ويؤشر الى امكانية تحول القصـــــة القصيرة باتجاه الرؤية المباشرة التي تطفو لحظة ثم يغمرها توالي الاحداث اليومية .

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

البيان الثلاثي

عقد في القاهرة يومي ٢٠ و٢١ ايلول الماضي اجتماع ضم وفودا مصرية وسورية وفلسطينية برئاسة اسماعيل فهمي وعبد الحليم خدام وفاروق القدومي على التوالي وفي نهاية الاجتماع صدر بيان انطلق من مقررات مؤتمر القمة العربي السادس واتفق فيه المجتمعون على ما يلي : « ١ — الاستمرار في العمل لتحقيق هدف النضال العربي في الانسحاب من جميع الاراضي العربية المحتلة واستعادة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني . ٢ — عدم قبول اية محاولة لتحقيق اية تسوية سياسية جزئية انطلاقا من وحدة القضية الفلسطينية . ٤ — تأكيد اقامة السلطة الوطنية الفلسطينية المستقلة على الارض الفلسطينية التي يتم تحريرها سياسيا وعسكريا . ٥ — الاستمرار في تقديم الدعم لمنظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ومساعدتها من أجل ضمان الصمود داخل المناطق المحتلة . ٦ — تم الاتفاق على التنسيق كما يلي : أ — التنسيق الدوري بين مصر وسوريا شهريا . ب — التنسيق الدوري بين مصر وسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية . ج — التنسيق والاتصال مع الدول العربية الاخرى ... » . وقد عقب الاخ فاروق القدومي ، رئيس الدائرة السياسية في منظمة التحرير على هذا البيان (في حديث لاذاعة صوت فلسطين من القاهرة ، وفا ٩/١٢) بقوله « لقد سويت مسألة تمثيل الشعب الفلسطيني تماما لصالح منظمة التحرير الفلسطينية ، كما سويت ايضا مسألة فك الارتباط على الجبهة الاردنية لصالح اقامة السلطة الوطنية فوق كل شبر من الارض يتم تحريره وانتزاعه من الاحتلال» ، كذلك أكد الاخ ياسر عبد ربه ، رئيس دائرة الاعلام والتوجيه القومي في منظمة التحرير ، عضو الوفد الفلسطيني الى الاجتماع الثلاثي « ان الاسس التي اتفق عليها تجعل أي حديث عن فك الارتباط من خلال الاردن او غيره او أي حديث عن ادعاء تمثيل جزء من الشعب الفلسطيني حديثا لاغيا ، حيث ان الجميع قد اتفقوا على ان الشعب الفلسطيني وحدة واحدة لا تتجزأ بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية الممثلة الشرعية والوحيدة لهذا الشعب » (المصدر نفسه) .

وهكذا بالبيان الثلاثي اختتمت مرحلة ابتدأت بالبيان المصري — الاردني المشترك الصادر في الاسكندرية في ١٨ تموز الماضي اثر محادثات الملك حسين والرئيس السادات والذي « أشرك » الاردن في مسألة تمثيل الشعب الفلسطيني وأعطى الضوء الاخضر للنظام الاردني لتجربة حظه في « فك الارتباط » على الجبهة الاردنية . واذا كان هذا التراجع في الموقف المصري يعزى في احد أسبابه الى النضال السياسي الذي خاضته منظمة التحرير في أعقاب صدور بيان الاسكندرية للمحافظة على حقها المشروع في تمثيل الشعب الفلسطيني ولان يكون لها الحق كذلك في تقرير مصير الارض الفلسطينية المحررة مستقبلا ، فان ما يجب الاشارة اليه هو ان التبدل في الموقف المصري كان انعكاسا ونتيجة ، في جزء منه كذلك ، للمتغيرات الدولية التي حدثت بعد صدور بيان الاسكندرية والتي نلم بها كما يلي :

لقد حققت منظمة التحرير الفلسطينية أكبر

انجازاتها على صعيد عالمي بالنسبة لمسألة التمثيل الفلسطيني عندما اعترف بها الاتحاد السوفياتي ممثلة وحيدة للشعب الفلسطيني وما تبع هذا الاعتراف من مواقف مماثلة من جانب دول المنظومة الاشتراكية جميعا . وقد جاء هذا الاعتراف بعد أيام قلائل من بيان الاسكندرية . وقد أكسب هذا الامر منظمة التحرير وضعا جعل أي موقف عربي لا يسلم بحق المنظمة فيتمثيل جميع الشعب الفلسطيني موقفا متعذرا وغير قابل للتفسير . كذلك جاء تبني جامعة الدول العربية لمسألة طرح القضية الفلسطينية بندا مستقلا في جدول أعمال الجمعية العمومية للامم المتحدة وما قد يتبع هذا الامر من توجيه دعوة لمنظمة التحرير ، باعتبارها ممثلة الشعب الفلسطيني ، لمناقشة هذه القضية لدى طرحها ، كل ذلك جعل التراجع عن بيان الاسكندرية واعادة التأكيد العربي على الاعتراف بوحدانية التمثيل الفلسطيني امرا غير قابل للنقاش .

بالاضافة الى ذلك ينبغي الا يقلل من أهمية عامل بدأت بوادره تظهر مؤخرا وهو ما يمكن ان يوصف بأنه الاحباط المصري تجاه الامال التي علقت على السياسة الاميركية ازاء تسوية النزاع في الشرق الاوسط . فقد ظهر منذ ما بعد حرب تشرين الاول ان الرهان المصري على الحصان الاميركي كان رهانا استراتيجيا بأمل ان تقوم الولايات المتحدة بممارسة ضغوط على اسرائيل تجبرها على الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة . غير ان عددا من الدلائل بدأت تشير الى ان هذه «الضغوط» التي ترجمتها الوحيدة كبح مصادر التسليح والتموين عن اسرائيل ، ليست واردة. وكان من هذه الدلائل ما نقلته وكالات الانباء (٩/١٥) عن مصادر رسمية في واشنطن من ان الولايات المتحدة ستنتهي من عملية تعويض طائرات الفانتوم الخمسين التي فقدتها اسرائيل في حرب تشرين الاول قبل نهاية الصيف المقبل كذلك ما ذكرته هذه الوكالات عن الاتفاق الذي توصل اليه الرئيس الاميركي فورد ورئيس الحكومة الاسرائيلية اسحاق رابين في اثناء زيارته الاخيرة الى الولايات المتحدة على ان اسرائيل ستتلقى بين ٢٠٠ و٢٥٠ دبابة باتون أم ٦٠ وعددا غير محدد من طائرات الهليكوبتر (كوبرا) وقنابل سمارت الموجهة بأشعة لايزر خلال فترة لا تتعدى سنة . كما ذكرت انباء لاحقة (١٠/٢) ان مجلس الشيوخ الاميركي تبنى تعديلا تدمه السناتور الاميركي والتر مونديل يقضي بزيادة المساعدة الاقتصادية الى اسرائيل بمعدل ٢٥٠ مليون دولار في السنة بدلا من ٥٠ مليون دولار وبتحويل ١٠٠ مليون دولار من أصل ٣٠٠ مليون في السنة رصدت في شكل قروض لمبيعات عسكرية ، تحويلها الى منحة . وكان لا بد ان تنعكس هذه السياسة الاميركية في الموقف الاسرائيلي من الانسحاب من الاراضي المحتلة انعكاسا متصلبا . وكان دليل ذلك ما أعلنه رابين في ٩/١٥ من ان اسرائيل أبلغت مصر بواسطة الولايات المتحدة اقتراحاتها للتوصل الى اتفاق لالغاء حالة العداء بين البلدين كشرط لانسحاب اسرائيلي جديد من سيناء . وذكر رابين ان عناصر هذا الاتفاق تشمل : * انهاء حالة العداء على الصعيد العسكري وعلى الصعيدين الاقتصادي والدبلوماسي . * انهاء المقاطعة العربية . * تعهد مصري بعدم اغلاق مضيق باب المندب مجددا أمام الملاحة الاسرائيلية . * اقامة اتصالات بريدية وهاتفية بين البلدين .

هذه الشروط المستحيلة أظهرت الى أي مدى يمكن السير في الشوط الاميركي الى نهايته . ولكن ما هو تأثير ذلك على الموقف من مسألة التمثيل الفلسطيني ؟

ان التقارب الاميركي المصري كان لا بد ان ينعكس ايجابا على الموقف من الاردن بهدف اشراكه في التسوية واعطائه دورا في تقرير مصير الارض الفلسطينية (فلسطين الوسطى او الضفة الغربية تحديدا) من خلال دفعه الى خوض تجربة فك الارتباط الذي يعني سياسيا عودة النظام الاردني الى التسلط ، ولو مدنيا، على الارض الفلسطينية. غير ان مصر يمكن ان تكون في حل من امرها تجاه هذه المسألة اذا ثبت بالتحليل ومن خلال المعلومات التي تتداولها اوساط المقاومة ، ان ثمة وقفة مراجعة بالفعل للانجراف المصري باتجاه الرهان على الموقف الاميركي الذي تميزت به المرحلة الماضية . وقد ظهرت بوادر هذه المراجعة بشكل مباشر من خلال البحث عن اعادة العلاقات الى حالتها الطبيعية مع الاتحاد السوفياتي (زيارة وزير خارجية مصر الى موسكو في ١٠/١٤ وما تردد عن توسط الرئيس الاسد بين القاهرة وموسكو) كما تظهر بشكل غير مباشر في عودة مصر عن موقفها

بالنسبة لفك الارتباط على الجبهة الاردنية وتسليمها بحق منظمة التحرير في تقرير مصير الارض الفلسطينية التي تنسحب منها اسرائيل دون ان يشاركها هذا الحق النظام الاردني ، الامر الذي يستتبع تأكيد الاعتراف بأن منظمة التحرير تمثل جميع الفلسطينيين بمن فيهم فلسطينيو الاردن .

لقد جاءت ردة الفعل الاردنية تجاه البيان الثلاثي حادة لان البيان أخرج النظام الاردني فعلا من كل ما له علاقة بفلسطين الوسطى ارضا وشعبا . وقد أصدرت الحكومة الاردنية بيانا (٩/٢٢) أعلنت فيه اعتبارا من تاريخه « تجميد كل نشاط او تحرك سياسي اردني جاء انطلاقا من قبول الاردن المشاركة في أعمال مؤتمر جنيف والنشاطات المنبثقة عنه او جاء نتيجة قبول الاردن قراري مجلس الامن الدولي الرقمين ٢٤٢ و٣٣٨ ودعوته الى حضور مؤتمر جنيف من قبل كل من حكومتي الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة باعتباره دولة احتلت أجزاء من اراضيها في حرب حزيران ١٩٦٧ » . غير ان الحكومة الاردنية مع هذا القرار أبقت الباب مواربا للعودة منه الى المناورة فقد اعتبر البيان « ان قرار التجميد ياتي كخطوة مرحلية حتى يتم لقاء القمة العربي المقبل » كذلك « هدد » البيان بـ « ان الاردن الذي ينتظر انعقاد مؤتمر القمة العربي المقبل ليقرر مسبقا ان تبني البيان المذكور [الثلاثي] سيعني اعفاءه من كل مسؤولية سياسية وعلاقة مباشرة خاصة بالقضية وستتحمل مسؤولية هذا القرار ونتائجه والتبعات المترتبة عليه مجموعة الدول العربية الشقيقة كافة » .

العلاقات الفلسطينية الداخلية

شهدت الساحة الفلسطينية خلال الشهر الماضي توترا في العلاقات الداخلية تمثل في انسحاب الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية . ولم يكن هذا الحدث غير ختام مرحلة من الحوار الفلسطيني الذي شهدته حركة المقاومة بشكل كثيف بعد حرب تشرين والذي دار أساسا حول نتائج الحرب وما يمكن ان تسفر عنه التحركات السياسية الفلسطينية والعربية والدولية التي أعقبتها . ففي ٩/٢٦ عقد الاخ ابو ماهر ، عضو قيادة الجبهة ورئيس دائرة التنظيم الشعبي في منظمة التحرير مؤتمرا صحافيا في مقر الجبهة في مخيم شاتيلا تلا فيه بيانا صحافيا أعلن فيه هذا الاجراء الذي اتخذته قيادة الجبهة مبينا في ثماني نقاط التبريرات التي رأتها الجبهة أسبابا لانسحابها من اللجنة التنفيذية دارت في معظمها حول موقف الجبهة من التسوية ومؤتمر جنيف العتيد وهو موقف كررته ادبيات الجبهة منذ ما بعد حرب تشرين .

قبل الانتقال الى ردود الفعل تجدر الاشارة الى ان البيان لم يعلن انسحاب الجبهة من منظمة التحرير الفلسطينية فقد جاء فيه « اننا اذ ننسحب من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير فاننا سنبقى في المجلس الوطني الفلسطيني وفي الاتحادات والمنظمات الجماهيرية وفي اللجان الشعبية للمخيمات » . كذلك أكدت « الهدف » الناطقة باسم الجبهة (١٩٧٤/١٠/٥) « ان انسحابنا من اللجنة التنفيذية والمجلس المركزي لا يعني انسحابنا من منظمة التحرير التي هي الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني » .

أما ردود الفعل فكانت كما يلي :

أعلنت جبهة التحرير العربية انها تفهم الخطوة التي اتخذتها الجبهة الشعبية « التي نلتقي واياها على ارضية مشتركة واحدة هي ضرورة مقاومة اطروحات التسوية الهادفة الى تصفية قضيتنا » ، كذلك أعلنت الجبهة الشعبية — القيادة العامة انها « ترى ان من حق الجبهة الشعبية او أي تنظيم آخر اتخاذ الموقف الذي يراه مناسبا ومتلائما مع رؤياه السياسية في مسألة العلاقة مع منظمة التحرير . اننا نلتقي مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين على ارضية سياسية واحدة رافضة للتسوية الاستسلامية ، ولكل ما يتعلق بها ، وندين معا كل التوجيهات المنحرفة فلسطينيا وعربيا...» .

على صعيد اللجنة التنفيذية فقد أصدرت بيانا (٩/٢٦) قالت فيه انها تأسف « للبيان الصادر عن الجبهة الشعبية بشأن انسحابها من عضوية اللجنة في وقت تخوض فيه منظمة التحرير الفلسطينية أضخم معاركها السياسية والعسكرية

ضد قوى الاعداء وتحقق انتصارات على الصعيدين العربي والدولي وتكرس وحدة الشعب الفلسطيني حول قيادته الموحدة . ان اللجنة التنفيذية وهي تؤكد حرصها على وحدة الموقف الفلسطيني بما يخدم أهداف الثورة الفلسطينية وتتمسك بمقررات المجالس الوطنية وتواصي المجلس المركزي في دورته الاخيرة ، تدعو الجبهة الشعبية الى تقدير مسؤولية المرحلة ومهماتها والعودة عن موقفها الذي اتخذته. ان البيان الصادر عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين يستند الى معلومات غير صحيحة وقد عرضت في المجلس المركزي وجرى دحضها وتفنيدها وهي لا تستحق الالتفات اليها » . كذلك أصدر المجلس المركزي للمنظمة بيانا في ١٠/١ عقب اجتماع عقده في اليوم السابق « لمناقشة قرار الجبهة بالانسحاب من اللجنة التنفيذية والمجلس المركزي » وقد ذكر هذا البيان انه « تبين للمجلس بأن الوقائع التي أتى على ذكرها بيان قيادة الجبهة الشعبية في تبرير الانسحاب قد ثبت انها وقائع غير صحيحة ولا تنسجم مع المنطق ، وانها ليست أكثر من معلومات دستها على قيادة الجبهة الشعبية جهات مشبوهة وغير بريئة ، وانها لا يمكن ان تشكل تهمة ضد أحد » . وقد أكد المجلس في بيانه على ضرورة محاورة الجبهة الشعبية ، و « كلف لجنة خاصة من اعضائه للقيام بهذه المهمة من أجل عودة الجبهة الشعبية الى الصف الوطني الموحد داخل منظمة التحرير الفلسطينية » .

غير ان الجبهة كما يبدو من خلال بياناتها السياسية ومواقفها وتحركاتها مصممة على موقفها الذي أعلنته في بيانها الاول عن الانسحاب . فقد أصدرت بيانا — ردا على قرارات المجلس المركزي (الهدف ١٠/٥) قالت فيه « ان بيان المناشدة الذي صدر عن المجلس المركزي هو محاولة لتجنب معالجة القضايا السياسية المركزية التي شكلت حيثيات قرار الانسحاب من اللجنة التنفيذية ... ان تصميمنا وتأكيدنا على صحة موقفنا لا تثنيه تحذيرات او مساومات ، والجبهة على أشد ما تكون من الاستعداد لتحمل النتائج ... » ، ومن التحركات السياسية التي قامت بها الجبهة لتدعيم موقفها اشتراكها بوفد ضم أعضاء من أربع منظمات هي بالاضافة الى الجبهة الشعبية ، الجبهة الشعبية — القيادة العامة ، جبهة التحرير العربية ، جبهة النضال الشعبي ، قام بزيارة الى العراق انتهت يوم ١٠/١٣ . وقد جاء البيان الذي اوردته وكالة الانباء العراقية (الرسمية) عن هذه الزيارة عاما لم يشر الى خصوصية المناسبة التي تمت فيها الزيارة . فقد جاء في هذا البيان ان الوفد أجرى « مباحثات سادها جو من التفاهم مع وفد من حزب البعث العربي الاشتراكي برئاسة السيد علي غنام، عضو القيادة القومية للحزب ، وجرى خلالها استعراض عام وتبادل في وجهات النظر حول الاوضاع الفلسطينية والعربية والدولية » .

عصام سخنيني

(٢) القضية الفلسطينية دوليا

يمكننا تلخيص التطورات التي طرأت على السياسة الدولية بالنسبة للقضية الفلسطينية في الشهر الماضي بالنقاط التالية : (١) الزيارة الاولى التي قام بها اسحق رابين الى واشنطن بعد توليه رئاسة الوزارة في اسرائيل . (٢) افتتاح الدورة الحالية لهيئة الامم المتحدة وما جرى خلالها من تطورات تتعلق بادراج القضية الفلسطينية على جدول أعمال الجمعية العمومية ودعوة منظمة التحرير للمشاركة في مناقشتها بالاضافة الى التهديدات التي أطلقتها الولايات المتحدة ضد الدول العربية المنتجة للبترول من على منبر الجمعية العمومية . (٣) الجولة الجديدة التي قام بها كيسنجر في المنطقة . وسنتناول كل واحدة من هذه النقاط على حدة .

● في الاسبوع الثاني من شهر ايلول قام رابين بزيارته الاولى كرئيس للوزراء الى واشنطن . وجاءت زيارته هذه استكمالا لسلسلة من الزيارات المشابهة التي قامت بها بعض الزعامات العربية ووزير خارجية اسرائيل الى واشنطن خلال شهر آب . ومن جملة من شاركوا في هذه السلسلة الملك حسين ورئيس وزرائه ، وعبد الحليم خدام وزير خارجية سوريا ، واسماعيل فهمي وزير خارجية مصر ، وعمر السقاف المسؤول عن الشؤون الخارجية في المملكة العربية السعودية . وكان الهدف المعلن لهذه الزيارات اجراء مشاورات ومباحثات مع الرئيس الاميركي ووزير خارجيته بصدد المرحلة المقبلة من مساعي التسوية السلمية للنزاع العربي الاسرائيلي . وبالنسبة لرابين فقد ادلى بتصريح قبل سفره الى الولايات المتحدة ذكر فيه بأنه سيقابل الرئيس فورد وكيسنجر ووزير الدفاع الاميركي ووليم سايمون وزير الخزانة بالاضافة الى عدد من الشخصيات النافذة في هرم السلطة الامريكية . واوضح رابين بانه سيبحث في اجتماعاته في واشنطن في كل ما تحتاج اليه اسرائيل من الدعم الاميركي . وفي واشنطن شدد رابين في التصريحات التي ادلى بها بعد اجتماعاته المطولة بالزعامات الامريكية على طبيعة الخطوة المقبلة في المسيرة نحو تسوية الازمة وعلى مسالة المساعدات العسكرية الامريكية الى اسرائيل . وهذا يعني على ما يبدو ان المناقشات تناولت موضوع ما اذا كان يجب اعطاء الاولوية في التحرك الاسرائيلي المباشر الى مسألة اجراء مفاوضات ثنائية مع مصر أم الى التوصل الى اتفاق « لفك الارتباط » مع الاردن قبل أي تحرك آخر . ويبدو ان النقاش جرى على أساس الجمع بين وجهة نظر رابين القائلة بأن تحقيق التفاهم مع الاردن سيكون أسهل بكثير اذا تمت مفاوضات ناجحة مع مصر اولا ، وبين الميل الاميركي الى ارضاء مطالب الملك حسين بصورة من الصور في المرحلة الحالية بتحقيق فك ارتباط ما على الجبهة الاردنية وذلك وفقا الى ما ألمح اليه البيان المشترك الاميركي الاردني الذي صدر عقب زيارة الملك حسين الى واشنطن في شهر آب المنصرم . اما بالنسبة للمساعدات العسكرية فلم يخف رابين بأن اسرائيل تريد الحصول عليها بأسرع ما يمكن لتتمكن « من التحرك نحو السلام من مركز قوة » على حد قوله . وذكرت مصادر مطلعة ان رابين يريد الحصول على مساعدات عسكرية تقدر قيمتها بمليار ونصف المليار دولار سنويا . ومن المسلم به ان رابين قد بحث خلال زيارته في موضوع امكانات الحؤول دون حصول منظمة التحرير الفلسطينية على اعتراف من الجمعية العمومية للامم المتحدة بصفتها كحركة تحرر وطني . وعلى اثر اجتماع رابين بالرئيس فورد أوضح ناطق باسم البيت الابيض ان طبيعة المرحلة المقبلة من المفاوضات ستتحدد خلال جولة كيسينجر المقبلة في الشرق الاوسط على اعتبار ان زيارة رابين هي استكمال لسلسلة الزيارات التي مر ذكرها معنا . كذلك ذكر الناطق بأن الرئيس فورد أكد مجددا الصداقة القائمة بين الولايات المتحدة واسرائيل وتأييدها الكلي لامنها ورخائها . وبعد عودة رابين الى تل ابيب لم يكن قد اتضح بعد ما اذا كانت زيارته قد توصلت الى أية نتائج حاسمة بعد أم لا . مع ذلك فقد أعلن رابين في مؤتمر صحافي عقده لدى عودته بانه توصل الى اتفاق مع الولايات المتحدة « حول الشريك المقبل في مفاوضات السلام » . ثم اضاف بأن « اسم هذا الشريك لن يعلن الا بعد أسابيع » . وقد فسر المراقبون تصريحه على انه اشارة الى اتفاقه مع المسؤولين الامريكيين على التوجه نحو مفاوضات جديدة مع مصر تتبعها

مفاوضات مع الاردن . كذلك أوضح في مؤتمره ان المرحلة المقبلة من المفاوضات العربية الاسرائيلية لن تعقد في جنيف وان كيسينجر لن يعود في المستقبل القريب الى ممارسة الديلوماسية المتنقلة التي قام بها لتحقيق اتفاقيات فك الارتباط . وشدد علــى انه قبل تحديد موعد انعقاد مؤتمر جنيف يجب اجراء مفاوضات تحضيرية تشكل الاساس الذي ستجري دعوة المؤتمر استنادا اليه . وبالنسبة لمسألة مناقشة القضية الفلسطينية في الجمعيـة العمومية قال رابين انه شرح للزعامة الامريكية بأن القضية الفلسطينية يجب ان تحل ضمن اطــار المفاوضات مع الاردن اذ لا مكان لدولة ثالثة بين الاردن واسرائيل ، وان منظمة التحرير الفلسطينية لا يمكن ان تكون محاورا مقبولا او شريكا معترفا به في المفاوضات بالنسبة لاسرائيل . وأكد ان الحكومة الامريكية فهمت تماما وجهة النظــر الاسرائيليــة هذه . في الواقع ذهب رابين الى أبعد من ذلك في تأكيداته هذه حيث قال انه عاد من واشنطن وهو مقتنع بأن الامريكيين يتفقون مع اسرائيل على ان حل المشكلة الفلسطينية يجب ان يتم عن طريق مفاوضات بين الاردن واسرائيل . وبالنسبة لمسألة اثارة القضية الفلسطينية في الجمعية العمومية قال بأنه يجب على اسرائيل أن تفعل كل ما في وسعها « لتثبت للعالم ان منظمة التحرير تعمل للقضاء على دولة اسرائيل وان المنظمة هي العنصر المتطرف في العالم العربي مما يعني ان كل من يرغب في التحدث عن السلام عليه عدم الاعتراف بالمنظمة او منحها حق التمثيل الذي تدعيه لنفسها » . الا انه اعترف بأن اسرائيل لا تستطيع ان تمنــع مناقشة القضية في الجمعية العمومية . وفيما يتعلق بالنشاط الفدائي أكد رابين ان اسرائيل ستواصل نشاطها للقضاء عليه في كل وقت عن طريق ضرب قواعده في لبنان « بكل الوسائل وبلا كلل حينما وحيثما يبدو لنا ذلك مناسبا ». أما بالنسبة لموضوع التسلح فقد أوضح ان الولايات المتحدة استجابت لطلبات اسرائيل للحصول على معدات حربية جديدة وخاصة في مجال الاسلحة المتطورة . وبهذا الصدد ذكرت مصادر صحافية مطلعة ان رابين أبلغ مصر بواسطة الولايات المتحدة اقتراحات اسرائيل حول التوصل الى اتفاق يتم بموجبه الغاء حالة العداء بين البلدين وذلك كشرط لانسحاب اسرائيلي جديد من سيناء . وذكرت هذه المصادر ان الاقتراحات الاسرائيلية شملت : (أ) انهاء حالة العداء على الاصعدة العسكرية والاقتصادية والدبلوماسية . (ب) انهاء المقاطعة العربية . (جـ) تعهد مصري بعدم اغلاق مضيق باب المندب مجددا في وجه الملاحة الاسرائيلية . (د) اقامة اتصالات بريدية وهاتفية بين البلدين . وفي مقابل تحقيق هذا الاتفاق ستقدم اسرائيل على انسحاب جديد من سيناء بدون أي تحديد حالي لمدى هذا الانسحاب . وفي اواخر شهر ايلول أكد وزير الاعلام الاسرائيلي آهارون ياريف في تصريح له ما كان قد تردد حول تفاهم رابين والزعامة الامريكية على ان تكون الخطوة المقبلة في المفاوضات مع مصر وليس مع الاردن واعتبر ان المفاوضات من اجل تحقيق هذه الخطوة الجزئية قد بدأتفعلا مع الزيارات التي قامت بها الزعامات العربيــة والشخصيات القيادية الاسرائيلية الى واشنطن في الشهرين الاخيرين . وفي الاسبوع الثاني من شهر تشرين الاول أعلن رابين في الكنيست ان اسرائيل مستعدة لتقديم تنازلات في الاراضي المحتلة كثمن للسلام مع الدول العربية شرط الا يطلب منها العودة الى خطوط ٤ حزيران ١٩٦٧ . كما أكد ان حكومته مستعدة للتقدم نحو السلام على مراحل وليس في مرحلة كبيرة واحدة وانها ستواصل اجراء المفاوضات مع الاردن بهذا الصدد ولكنها لن تتخذ أية اجراءات انسحابية فعلية من الضفة الغربية قبل اجراء انتخابات عامة حول هذا الموضوع .

● في هيئة الامم انصبت جهود الوفود العربية (باستثناء الوفد الاردني) بالتعاون مع ممثلي عدد من الدول الاشتراكية والاسيوية والافريقية الصديقة على كسب التأييد من أجل ادراج القضيـــة الفلسطينية كبند مستقل في جدول أعمال الجمعية العمومية مما سيعني حلول مناقشة القضيــة الفلسطينية في هذه الدورة محل « مشكلة الشرق الاوسط » التي كانت تناقش في السنوات الاخيرة . وبناء على ذلك فقد تقدمت ٤٣ دولة عربية وغير عربية بطلب الى فالدهايم لادراج القضية الفلسطينية « كمادة مهمة وعاجلة » في جدول اعمال الجمعية العمومية . ومن المتوقع ان تبدأ مناقشة هذا البند بعد انتهاء المناقشة العامة في الجمعية العمومية بفترة قصيرة مما يعني ان الدعوة ستوجه الى منظمة التحرير لحضور المناقشة بصفتها كمراقب . وفي ما يلي نثبت لائحة بالدول غير العربية التي وقعت على هذا الطلب بالاضافة الى نص المذكرة

التوضيحية المرفقة به وذلك بسبب الاهمية التاريخية لهذا الحدث :

افغانستان وبلغاريا وبوروندي وتشاد والكونغو وكوبا والمانيا الشرقية وغينيا الاستوائية وغينيا والهند ومدغشقر وماليزيا ومالي ومنغوليا والنيجر وباكستان ورومانيا والسنغال وسيراليون وتانزانيا وأوغندا ويوغوسلافيا وزئير .

لقد عرضت القضية الفلسطينية على الجمعية العمومية منذ نيسان ١٩٤٧. ونتيجة لبعض القرارت الاولى التي أصدرتها الجمعية العمومية والمتعلقة بهذه القضية فان عددا كبيرا من الفلسطينيين نقلوا من أرضهم واضطروا الى معاناة وضع اللاجئين . كما ان الشعب الفلسطيني منع من ممارسة حقوقه الثابتة بما فيها حقه في تقرير المصير وفقا لميثاق الامم المتحدة والقواعد المعترف بها من القانون الدولي . لكن يبقى انه خلال أكثر من عشرين سنة غابت المسألة الفلسطينية وغابت مسألة وضع الشعب الفلسطيني وحقه عن جدول أعمال كل دورات الجمعية العمومية ، وذلك رغم ان الجمعية العمومية وسواها من أجهزة الامم المتحدة عالجت مختلف جوانب القضية الفلسطينية وتشعباتها ونتائجها خلال هذه الفترة . ومنذ ١٩٤٨ اعترفت الجمعية العمومية وأكدت حق اللاجئين الفلسطينيين بالعودة الى أراضيهم ، ومنذ ١٩٧٠ اعترفت وأكدت الحقوق الثابتة لشعب فلسطين ومن ضمنها حقه في تقرير المصير . كما اعترف المجتمع الدولي، خارج اطار الامم المتحدة ، في السنوات الماضية بهذه الحقوق في أشكال مختلفة .

وحيث ان الامم المتحدة تحمل منذ انشائها مسؤولية تاريخية سياسية وقانونية تجاه القضية الفلسطينية ، فعلى الجمعية العمومية ان تبحث في القضية الفلسطينية كقضية فلسطينية شكلا ومضمونا ، وان تدرج بالتالي في جدول أعمالها مسألة عنوانها « القضية الفلسطينية » .

وقد أدت موافقة الجمعية العمومية على هذا الطلب الى ردة فعل عنيفة من جانب اسرائيل عبر عنها المندوب الاسرائيلي بقوله ان حكومته « لن تقف مكتوفة اليدين لان في ذلك (أي قرار الجمعية العمومية) تهديدا لمصالحها الحيوية وحياة مواطنيها » . كما صرح المندوب الاسرائيلي ان الولايات المتحدة أكدت لحكومته بأنها لا تعتبر منظمة التحرير الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني وانها ما زالت تعترض على انشاء دولة فلسطينية بين اسرائيل والاردن . وبهذه المناسبة أكد الزعيم السوفياتي ليونيد بريجنيف في رسالة بعثها الى رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ان بلاده ستؤيد تأييدا كاملا الموقف الفلسطيني عند مناقشة القضية الفلسطينية في الجمعية العمومية . وذكرت مصادر صحافية مطلعة ان رسالة بريجنيف أكدت مجددا نظرة الاتحاد السوفياتي الى القضية الفلسطينية باعتبارها كقضية وطنية تحررية وكمسألة حق تقرير مصير ، وان الدبلوماسية السوفياتية ستضع كل ثقلها لدعم الموقف الفلسطيني في الامم المتحدة . وفي الواقع تقدمت ٧١ دولة عربية واجنبية بمشروع قرار الى الجمعية العمومية لدعوة منظمة التحرير لارسال وفد لها للمشاركة في مناقشة القضية الفلسطينية . وفيما يلي نص مشروع هذا القرار الهام :

« ان الجمعية العمومية ، اذ تعتبر ان الشعب الفلسطيني هو الفريق الرئيسي المعني في مسألة فلسطين ، تدعو منظمة التحرير الفلسطينية ، وهي ممثلة الشعب الفلسطيني ، للمشاركة في مناقشات الجمعية العمومية حول مسألة فلسطين في الجلسات العامة » . وقد حاز هذا القرار تأييدا ساحقا من الدول الاعضاء اذ تم اقراره بأكثرية ١٠٥ أصوات شملت دول اوروبية رئيسية ومهمة مثل فرنسا وايطاليا والنرويج وايرلندا ولم تصوت ضده سوى٤ دول هي الولايات المتحدة واسرائيل وبوليفيا وجمهورية الدومينيك كما امتنعت ٢٠ دولة عن التصويت بما فيها بريطانيا والمانيا الغربية . وبناء على هذا القرار وجه رئيس الجمعية العمومية عبد العزيز بوتفليقه برقية الى منظمة التحرير دعاها فيها الى المشاركة في مناقشة القضية الفلسطينية في مطلع شهر تشرين الثاني (نوفمبر). وواضح ان لهذا القرار أهمية كبرى لانه يعترف رسميا وللمرة الاولى منذ ١٩٤٧ بكون الشعب الفلسطيني هو الطرف الرئيسي في قضية فلسطين باعتبارها كقضية دولية ، كما يعترف بمنظمة التحرير كممثل شرعي لهذا الشعب ، مما يعني ضمنا الاقرار بأن السلام والاستقرار في الشرق الاوسط مستحيلان بدون ضمان الحقوق الوطنية

للشعب الفلسطيني وفي مقدمتها حقه في تقـــرير مصيره . كذلك يشتق هذا القرار أهميته التاريخية من كون دعوة منظمة التحرير الى حضور اجتماعات الجمعية العمومية هي الاولى من نوعها في تاريخ الامم المتحدة اذ لم يحصل حتى اليوم ان تكلم أمام الجمعية العمومية سوى ممثلي الدول والحكومات أما ممثلو حركات التحرير الوطنية وممثلو الشعوب المستعمرة فكانوا دائما يخاطبون لجان الجمعية . بعبارة اخرى لقد منحت الجمعية العمومية لاول مرة حركات التحرير حق مخاطبتها . يضاف الى ذلك انه ليس من المستبعد ان يسهل هذا القرار الى حد ما مهمة الاطراف المصرة على دعوة منظمة التحرير الى مؤتمر جنيف ــ هذا اذا جرى عقده ، وان يسهل كذلك عملية الاعتراف بالحكـــــومة الفلسطينية في المنفى عندما يجري تشكيلها . ومن الواضح ايضا ان قرار الجمعية العمومية سيعطي المنظمة قوة جديدة في مؤتمر القمة العربي المقبل في الرباط وفي أية محادثات قد تتم بين الولايات المتحدة والقيادة الفلسطينية كما سيؤدي الى تمثيل المنظمة في المستقبل بصورة دائمة في الامم المتحدة بانتظار قيام الحكومة الفلسطينية . وليس مـــن المستبعد ان يخلق هذا القرار شيئا من الاحراج لموقف الاردن والولايات المتحدة في رفضهما الاعتراف بمنظمة التحرير كممثلة للشعب الفلسطيني . وعلى اثر صدور هذا القرار صرح كورت فالدهايم ان قرار الجمعية العمومية يشكل : « نقطة تحول في تاريخ المنظمة الدولية لانها المرة الاولى التي تقرر فيها هذه الجمعية الاستماع الى مندوبين لا يمثلون دولة او حكومة » . وشدد الامين العام لهيئة الامم على ان القرار يشكل خطوة مهمة « لان الجمعية العمومية اعترفت بان الموضوع الفلسطيني ضروري لايجاد أي حل لازمة الشرق الاوسط » . كما عبر عن امله في ان يساهم هذا القرار في تسوية الازمة في المنطقة .

في الكلمات الافتتاحية التي القيت أمام الجمعية العمومية تطرق عدد من الخطباء الكبار الى موضوع التسوية السلمية في المنطقة ومستقبل مؤتمر جنيف . دعا وزير الخارجية السوفياتي بقوة الى استئناف مؤتمر السلام هذا واتهم اسرائيل بأنها لا تعتبر اتفاقات فصل القوات في سيناء والجولان كخطوة اولى نحو التسوية الشاملة بل تنظر اليها كمناورة تهدف الى تجميد الموقف مجددا . وأكد غروميكو ان انسب منبر للنظر في مشكلة المنطقة ولتقديم الحلول المرضية لها هو مؤتمر جنيف . كما دعا الى اشراك ممثلي الشعب الفلسطيني في المؤتمر وأعلن ان بلاده تساند المطالب العربية الشرعية المتعلقـــة بانسحاب اسرائيل من كل الاراضي المحتلة عـــام ١٩٦٧ . وجدير بالاشارة الى ان تأكيد غروميكو على الضرورة العاجلة والملحة لاستئناف انعقاد مؤتمر جنيف جاء في وقت ظهر فيه تحول مفاجىء في موقف فالدهـــايم من المؤتمر وفائدته بالنســـبة للتسوية في المنطقة . فبعدما كان فالدهايم يصر على ضرورة عقد المؤتمر في أسرع وقت ممكن ويعتبر تأجيله الى أبعد من نهاية ١٩٧٤ نكسة لجهود التسوية السلمية في المنطقة أخذ يدعو الان الى تأجيل انعقاده وتكرار ما يقوله الجانب الاميركي ــ الاسرائيلي حول « ضرورة الاعداد بعناية للمؤتمر وتنسيق مواقف الاطراف المعنية مسبقا » لضمان نجاحه . ولا شك ان هذا التحول في موقف فالدهايم ناتج عن الاصرار الاميركي على الا يكون مؤتمر جنيف سوى اطار علني وشكلي للتصديق على اتفاقيات يتم التوصل اليها في مفاوضات سرية ثنائية تحت الاشراف الامريكي . أما اسماعيل فهمي وزير خارجية مصر فقد أكد في خطابه (أ) ان مصر لا تقبل حالة لاحرب ولاسلم جديدة لانها تريد سلاما عادلا ودائما . (ب) ان مصر ما زالت تعتقد ان مؤتمر جنيف هو المكان المناسب للبحث في كل نواحي ازمة الشرق الاوسط والوصول الى حل شـــامل ودائم لها . (جـ) ان بلاده ترحب « بالتغيير السياسي في الموقف الاميركي نتيجة حرب تشرين » . (د) ان مصر تواقة الى اعطاء السياسة الامريكية « كل الفرص لتصبح منسجمة مع الحق والمبـــادىء والقانون » . أما وزير خارجية اسرائيل فقد أكد في خطابه رفض حكومته الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية واصرارها على ضرورة حل مسألة الهوية الفلسطينية ضمن نطاق المفاوضات بـــين اسرائيل والاردن باعتباره يشكل الوطن القومي للفلسطينيين . وابلغ الجمعية العمومية بأن أي حل يعترف بطلبات منظمة التحرير ستعتبره اسرائيل « غير شرعي وغير ملزم بأي شكل من الاشكال » .

وعلى صعيد آخر استخدمت الولايات المتحـــدة منبر الجمعية العمومية لتوجيه تهديدات شـــديدة اللهجة الى الدول العربية عامة والدول المنتجة

للنفط بصورة خاصة . ففي الخطاب الذي القاه الرئيس فورد في هيئة الامم أعلن بصورة غير مألوفة دعمه الكامل لكيسينجر وأكد ثقته التامة به وذلك في تحرك من قبله للرد على الحملة التي أخذ يتعرض لها وزير خارجيته في الولايات المتحدة على اثر انكشاف الدور الذي قام به كيسينجر شخصيا (من خلال وكالة الاستخبارات المركزية) في عملية الاطاحة بالنظام اليساري السابق في التشيلي ، هذا بالاضافة الى التفاعلات السلبية التي أسفرت عنها السياسة الامريكية في ضرب نظام مكاريوس في قبرص . وبعد ان أخذ كيسينجر هذا التأييد المطلق من رئيسه اعتلى منصة الجمعية العمومية ليوجه تهديداته الى الدول المنتجة للنفط حيث قال ان العالم لا يستطيع ان يتحمل مستوى السعر الحالي للبترول او الزيادات التي ستطرأ عليه مؤكدا انه كما جرى رفع سعر النفط بقرار سياسي يجب خفضه الان بقرار سياسي مماثل . كذلك اعتبر رفع أسعار النفط من قبل الدول المنتجة مقدمة محتملة لازمة اقتصادية عالمية كبيرة شبيهة بتلك التي حدثت في العام ١٩٣٠ ملقيا بذلك مسؤولية وقوع مثل هذه الازمة في المستقبل على عاتق الدول النفطية . واتضحت مرامي هذه الجوانب من خطاب كيسينجر في الامم المتحدة عندما ألقى فورد في اليوم نفسه خطابا شديد اللهجة حول موضوع البترول وأسعاره قال فيه انه حصل في السابق ان خاضت الامم حروبا حول أشياء حيوية مثل المواد الخام والماء والغذاء والممرات البرية والمائية الخ . وحذر بنفس اللهجة الدول النفطية بأن الدول ذات السيادة لا يمكن ان تسمح لقوى خارجية بأن تفرض عليها سياساتها . ولم تكتف السلطات الامريكية بعبارات التهديد وحدها بل أخذت خطوات هامة على طريق تكتيل الدول الراسمالية الصناعية الكبرى في جبهة متماسكة بهدف مواجهة الدول المنتجة للبترول . أما فيما يتعلق بأزمة الشرق الاوسط فقد ذكر كيسينجر في خطابه ان الطريق الى السلام ما زالت طويلة .

● قبل انطلاق كيسينجر في جولته الشرق أوسطية الجديدة جرى اعداد الجو الاعلامي المناسب من قبل المسؤولين الامريكيين بحيث لا تبنى أية توقعات كبيرة على النتائج التي ستؤدي اليها الجولة . وكان هذا الاعداد متوقعا عند الاخذ بعين الاعتبار تصاعد لهجة التهديد الامريكية ضد الدول العربية والتصلب الذي أخذت تبديه اسرائيل بوضوح متزايد بالنسبة لموضوع الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة بالاضافة الى تهيئة نفسها عسكريا لمواجهة الجانب العربي . لذلك أعلن مسؤول امريكي رفيع عشية سفر كيسينجر الى المنطقة بانه يجب عدم توقع تحقيق تقدم كبير باتجاه التسوية السلمية خلال الجولة الحالية للوزير الامريكي . ووصف المسؤول هذه الجولة بأنها تهدف الى اجراء محادثات تعتبر خطوة نحو المفاوضات لا أكثر . كانت اول عاصمة عربية يزورها كيسينجر هي القاهرة حيث اجرى محادثات مع الرئيس السادات ووزير خارجيته اسماعيل فهمي . وحدد الجانب الامريكي الهدف الرسمي للجولة بأنه البحث في خطط المرحلة المقبلة للسلام وتجنب تأزم الوضع في المنطقة وتعزيز العلاقات الامريكية مع الدول المعنية . وجدير بالذكر هنا ان كيسينجر أعلن في المطار قبل مغادرته للولايات المتحدة بأنه لا يفكر في الاجتماع الى ياسر عرفات او أي مسؤول فلسطيني خلال هذه الجولة . كما عاد الى تأكيد ما كان قد صرح به المسؤول الامريكي الرفيع اثناء اعداد المناخ المناسب للجولة بقوله انه يجب عدم توقع سفور هذه الجولة عن « نتائج ملموسة » أو امور مثيرة وانه لا يحمل معه الى الشرق الاوسط أية أفكار جاهزة عن المراحل المقبلة للتسوية بل ان هدفه من الزيارة هو تعجيل عملية المفاوضات وتحديد برنامج زمني مع المسؤولين العرب والاسرائيليين لمراحل التفاوض المقبلة . وأصر الوزير الامريكي على عدم تحديد تصوره للمرحلة المقبلة لمفاوضات السلام . كذلك عاد الى طرح موضوع النفط مجددا بقوله ان العنصر الوحيد الذي يمكن ان يدخل تغيرا هاما على معطيات « أزمة النفط » هو ترابط اكبر بين الدول المستهلكة الكبرى ، أي شدد كيسينجر مجددا على تكتيل الدول الصناعية الراسمالية في مواجهة الدول المنتجة للبترول . وبطبيعة الحال لم ينف ان محادثاته الشرق اوسطية ستتناول موضوع البترول مع انه أشار الى ان المناقشات السياسية المتعلقة بالتسوية السلمية « يجب ان تجري الى حد ما في معزل عن المناقشات حول أسعار النفط وشحناته » . كذلك أكد كيسينجر الانباء التي ترددت حول العقبات التي اصطدمت بها المفاوضات الامريكية مع مصر واسرائيل حول

تزويد البلدين بالمفاعلات النووية حيث ذكر كيسينجر ان مصر واسرائيل رفضتا على السواء الاقتراحات الامريكية الداعية الى تقديم ضمانات اضافية حول الاستعمالات التي ستوضع هذه المفاعســلات في خدمتها . وعند وصوله الى القاهرة أدلى كيسنجر بتصريح قال فيه ان بلاده تواصل مساهمتها في سبيل التقدم نحو السلام في الشرق الاوسط . وعلى أثر اجتماعه بالرئيس المصري ووزير خارجيته وصف كيسينجر المحادثات بأنها « كانت جيدة جدا وتناولت الوضع بأكمله » . كذلك أدلى الرئيس السادات بتصريح قال فيه ان المحادثات تناولت كامل الموقف بما في ذلك مؤتمر جنيف وان زيارته المقبلة الى واشنطن غير مرتبطة بمؤتمر جنيف . وعلى الرغم من التصريحات العلنية المتفائلة حول محادثات كيسينجر في القاهرة أفادت الانباء التي تسربت حول الموقف الامريكي بما يلي : (أ) ان أحد الاهداف الرئيسية لجولة كيسينجر هو اقناع الرئيس السادات بعدم الالحاح على عقد مؤتمر جنيف بسرعة والاستعاضة عنه باجراء اتصالات عربية اسرائيلية تحت الاشراف الامريكي . ومن شأن مثل هذه الخطوة ان تبقي الاتحاد السوفياتي خارج اطار مفاوضات التسوية السلمية على غرار ما جرى بالنسبة لاتفاقيات فك الارتباط . (ب) ان كيسنجر اقترح ثلاث احتمالات لتحل محل مؤتمر جنيف في الوقت الحاضر وهي : اما ان يعقد وزراء خارجية الدول المعنية (مصر وسوريا والاردن واسرائيل) اجتماعات في واشنطن ، او ان يبقى جوزيف سيسكو في المنطقة ليتنقل بين العواصم المعنية على طريقة كيسنجر المشهورة ، او ان يتم اجراء محادثات بين ممثلين عن الدول العربية المعنية واسرائيل دون مستوى وزراء الخارجية (مثلا رؤساء البعثات في هيئة الامم) . (ج) ان الرئيس السادات عرض على كيسينجر حله لقضية فك الارتباط في الجبهة الاردنية والذى يقضي بأن تتولى القيادة العسكرية المصرية بشكل رئيسي التفاوض حول الانسحاب الاسرائيلي من الضفة الغربية على ان تجري هذه المفاوضات بواســطة امريكا وتحت اشرافها مما يضع الاتفاق الاردني الاسرائيلي على مستوى الاتفاقات السورية والمصرية المشابهة . (د) ان السادات يعتبر التوصل الى مثل هذا الاتفاق شرطا لاستئناف مؤتمر جنيف وانه طلب من كيسينجر نقل هذا الاقتراح الى السلطات الاسرائيليــة وممارسة الضغط اللازم عليهــا كي تقبله . (هـ) ان الرئيس السادات لم يقبل بوجهة نظر كيسينجر بالنسبة لمؤتمر جنيف معتبرا ان عدم الاسراع في عقد المؤتمر يعني العودة بالمنطقة الى حالة اللاحرب واللاسلم التي ترفضها مصر ولذلك أصر أمام كيسينجر على ضرورة انعقاد المؤتمر قبل نهاية هذا العام على ان تشارك فيه منظمة التحرير الفلسطينية . (و) ان الرئيس السادات وافق على تجديد مهمة القوات الدولية في سيناء واعطاء الاولوية في المفاوضات المقبلة للجبهة المصرية باعتبار ان وضعها أسهل من وضع الجبهتين الســورية والاردنية. (ز) ان كيسينجر وعد الرئيس السادات بأن يعود الى القاهرة بعد زيارة تل ابيب وهو يحمل « الاقتراحات الاسرائيلية حول الانســحاب من سيناء مدعمة بخرائط تبين طبيعة هذا الانسحاب ومداه » . (ح) ان الرئيس السادات طمأن الوزير الامريكي حول رغبة مصر وسوريا بتجنب اندلاع القتال وان كيسينجر أكد للرئيس المصري ان بلاده قادرة على منع اسرائيل من بدء الاشتباكات . (ط) ان الموقفين المصري والامريكي بشــــأن الفلسطينيين واحتمالات استئناف مؤتمر جنيف ظلا متباعدين .

وجدير بالملاحظة ان اسماعيـــل فهمي ادلى بتصريحات مهمة على هامش زيارة كيسينجر لمصر كان أهم ما فيها قوله بالنسبة لتأكيد منظمة التحرير انها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلســطيني بأن عبارتي « شرعي ووحيد » ما هي الا « عبارات تدخل في نطاق الصياغات والمراوغات » مدعما وجهة نظره بالاشارة الى ان قرار هيئة الامم لا يصف منظمة التحرير بهتين الصفتين . كذلك أكد فهمي ان مصر مصممة على اشتراك الفلسطينيين في مؤتمر جنيف « في الوقت المناسب » لان لهم دورهم في حل المشكلة ولكنه أكد في الوقت نفســه ان مصر لا تستطيع ان تتجاهل دور الاردن كدولة عربية وانها تحاول حل الاشكالات بين الاردن والمنظمة . ثم بين ان سياسة مصر تحاول تحييد امريكا ، الامر الذي يحتاج الى وقت طويل كما عبر عن اعتقاده بأن « أمريكا عندما ستكتشف ان الضغط الصهيوني — اليهودي قد تجاوز حدوده ستتخذ قرارها في الوقت المناسب لتضع مصلحتها القومية في الصـــــدارة وتكتشف ان موقف الانحياز لاسرائيل هو موقف

خاطىء يتعارض مع مصلحة امريكا القومية » . كما أكد ان مصر تتفاوض حاليا مع امريكا لانه ليس هناك اسلوب آخر اذ ان امريكا هي الدولة الوحيدة التي تستطيع الضغط على اسرائيل سياسيا . واشار بهذا المعرض الى « التحرك الكبير مع امريكا الذي ارجو ان يتطور الى ما يحقق مصالح الامة العربية » .

بعد القاهرة زار كيسينجر دمشق حيث قابل الرئيس حافظ الاسد ووزير خارجيته عبد الحليم خدام . وعلى أثر انتهاء اجتماعاته ذكر كيسينجر بأن المحادثات تناولت العلاقات الثنائية « التي تتحسن بسرعة » بين البلدين وفرص السلام في الشرق الاوسط . وذكرت مصادر مطلعة ان المحادثات تناولت في الواقع مؤتمر جنيف ومسألة التمديد لقوة المراقبة الدولية في الجولان خاصة وان الجانب السوري يرى انه لا يمكن التفاهم حول هاتين النقطتين ما لم تظهر دلائل ملموسة على حدوث تقدم نحو الوصول الى الهدفين الاساسيين اللذين تعمل سوريا من أجل تحقيقهما وهما : انسحاب اسرائيل من كل الاراضي المحتلة وضمان الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني. كذلك أشارت الانباء الصحافية ان الرئيس الاسد أبلغ كيسينجر بهذا الموقف وعن استياء سوريا من موقف الولايات المتحدة بالنسبة لمناقشة القضية الفلسطينية في الدورة الحالية للامم المتحدة .

في الاردن تناولت محادثات كيسينجر مع الملك حسين خاصة مستقبل الضفة الغربية بصورة خاصة والموقف العام من القضية الفلسطينية . وذكرت مصادر الوفد الامريكي انه من غير المتوقع ان تجري أية تحركات على صعيد المفاوضات بين الاردن واسرائيل قبل انعقاد مؤتمر القمة العربي في الرباط. وان الاردن وافق من جديد على المشاركة في جهود التسوية السلمية شرط ان يكون متأكدا من استمرار الدعم الامريكي لموقفه . وان كيسينجر اراد ان يعرف رأي الملك حسين حول ما اذا كانت قمة الرباط ستسفر عن أية تغيرات مهمة في الموقف العربي .

بعد الاردن وصل كيسينجر الى تل ابيب حيث أعلن وزير الخارجية الاسرائيلية آلون ان حكومته ستتعاون تعاونا كليا مع كيسينجر على تحقيق السلام في المنطقة . ورد كيسينجر على ذلك بقوله بأنه متأكد بأنه سيتوصل الى اتفاق مع المسؤولين الاسرائيليين « يكون في مصلحة كل شعوب هذه المنطقة ، وقبل كل شيء في مصلحة اصدقائنا هنا في اسرائيل » . وحتى الان لم تتسرب أية انباء حول مجرى محادثات كيسينجر مع رابين وبقية المسؤولين الاسرائيليين باستثناء القول ، اولا بأن هناك اتجاها داخل الحكومة الاسرائيلية يرى بأن المرحلة المقبلة من المفاوضات يجب ان تكون مع الاردن بدلا من مصر وذلك تخوفا من تزايد قوة مركز منظمة التحرير بشكل عام ، وثانيا بأن الحكومة الاسرائيلية طلبت من كيسينجر اثارة موضوع الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفياتي اثناء زيارته المقبلة لموسكو . وقبل مغادرته تل ابيب الى المملكة العربية السعودية صرح الوزير الامريكي « بأنه اتفق مع المسؤولين الاسرائيليين على المبادىء والاجراءات المتعلقة بالمرحلة المقبلة من محادثات السلام » وانه وجد اسرائيل مستعدة للعمل من أجل السلام بثبات واخلاص .

في الرياض قابل كيسينجر الملك فيصل وتباحث معه لمدة زادت على الساعتين في موضوعات النفط والتسوية السلمية في المنطقة . وقبل مغادرته السعودية باتجاه القاهرة مرة اخرى أعلن الوزير الامريكي « بأنه وجد الملك فيصل متفهما بالنسبة الى خطوات التسوية السلمية واسعار النفط » وانه اتفق مع الملك على متابعة تقوية العلاقات بين البلدين خاصة بعد ان قام بشرح وجهة النظر الامريكية حول التأثير السلبي الكبير الذي تتركه أسعار النفط الحالية على بنيان الاقتصاد العالمي بكامله وعلى استقرار النظام الدولي بأسره . وعاد كيسينجر الى التأكيد بأن « موقف جلالته كان بناء ومتفهما » وانه يغادر الرياض وهو مقتنع بأنه كان بين اصدقاء . وذكرت المصادر الامريكية بأن كيسينجر اعتبر زيارته لجدة « نقطة تحول في جولته الحاضرة » وذلك بسبب تلقيه وعودا من الملك فيصل بالعمل على اقناع الدول النفطية بخفض أسعار البترول . وستتركز جهود فيصل في المرحلة الاولى على تجميد الاسعار حيث هي الان على ان توازي هذه الجهود نشاط كيسينجر في التوصل الى تحقيق انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة . وأكدت هذه المصادر ايضا انه على الرغم من دعوات الوزير اليماني السابقة لتخفيض أسعار

النفط كانت هذه هي المرة الاولى التي يتعهد بها الملك فيصل بنفسه ببذل جهوده الشخصية في هذا الاتجاه . وقد أشارت صحيفة الواشنطن بوست في منتصف شهر تشرين الاول الى انعقاد محادثات سرية بين العربية السعودية وايران من أجل الوصول الى موقف موحد حول خفض أسعار النفط .

ووفقا لما كان قد صرح به كيسينجر عاد الى القاهرة حيث اجتمع مجددا بالرئيس السادات ووزير خارجيته بينما انطلق سيسكو الى عمان في مهمة مماثلة حيث اجتمع بالملك حسين . ومن المعتقد ان هدف هاتين الزيارتين هو اطلاع الرئيس السادات والملك حسين على نتائج محادثات كيسنجر في اسرائيل . وقبل مغادرته القاهرة الى دمشق ادلى كيسنجر بتصريح قال فيه : (أ) بأن هدف عودته الى القاهرة هو احاطة الرئيس السادات بنتائج محادثاته مع الزعماء الذين اجتمع بهم في المنطقة وبأنه تحدث معه حول الاستنتاج الذي توصل اليه بوجود دلائل ايجابية تشير الى حدوث تقدم نحو سلام عادل في المنطقة . (ب) بأنه سيعود الى المنطقة في الاسبوع الاول من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) للعمل على تحقيق تقدم نحو السلام على أسس متينة وثابتة. (ج) ان المحادثات لم تتناول أية خرائط حول الانسحاب الاسرائيلي المتوقع من سيناء على اعتبار ان مناقشاته في هذه المرحلة لم تدخل في التفاصيل بل اقتصرت على البحث في الاطار العام للتحرك نحو السلام واحتمالاته . (د) ان حكومته تعتبر ان المفاوضات حول مستقبل الضفة الغربية يمكن ان تجري على أفضل وجه بين الاردن واسرائيل. (هـ) ان الرئيس السادات سيزور الولايات المتحدة في مطلع ١٩٧٥ . وفي دمشق عاد كيسينجر الى مقابلة الرئيس الاسد ووزير خارجيته وذكرت مصادر صحفية ان المباحثات تناولت المرحلة المقبلة من انسحاب اسرائيل من الجولان وبالتخصيص جلاءها عن التلال الستراتيجية الثلاثة المحيطة بمدينة القنيطرة وهو موضوع أصرت سوريا على ضرورة انجازه . وقبل مغادرته دمشق شكر كيسينجر السلطات السورية على استقبالها له وبين انه عرض مع الرئيس الاسد التطورات في المنطقة « التي تشير في اتجاه السلام والتسوية النهائية » وان المشكلة الان تكمن في وضع هذه الامور موضع التنفيذ . وجدير بالاشارة الى ان مصادر صحفية عربية ذكرت انه على الرغم من التصريحات المتفائلة الواقع هو ان مهمة كيسينجر واجهت صعوبات في القاهرة ودمشق حيث لم تلق مقترحاته كثيرا من الترحيب . على سبيل المثال اصرار كيسينجر على استبعاد مؤتمر جنيف واصرار كل من الرئيسين السادات والاسد على ضرورة انعقاده بحضور الاتحاد السوفياتي وممثلي الشعب الفلسطيني . كذلك ذكرت هذه المصادر (أ) ان كيسينجر اقترح انسحابا جزئيا من الجولان لمسافة ٦ كيلومترات لا أكثر وهو أمر لا يمكن ان تقبل به القيادة السورية . (ب) الانسحاب من سيناء بمعدل ٥٠ كيلومترا شريطة موافقة سوريا على الانسحاب الجزئي المذكور في الجولان وموافقة كل من الدولتين على اعلان انهاء حالة العداء مع اسرائيل . (ج) ان كيسينجر رفض المطالبة العربية باشراك ممثلي الشعب الفلسطيني في مؤتمر جنيف مؤكدا معارضة حكومته لهذه الخطوة وتأييدها لمشروع فك الارتباط على الجبهة الاردنية . أما المصادر الامريكية فقد أكدت من جانبها ان كيسنجر مرتاح لجولته لانه اولا ، وجد ان جميع الذين التقى بهم يعترفون بأن الولايات المتحدة وحدها قادرة على تسهيل ايجاد حل تدريجي للنزاع ، ثانيا ، ان أحدا من هؤلاء لم يعترض على صيغة المفاوضات المرحلية مع اسرائيل وهي الصيغة التي أعدها كيسينجر خلال جولته والتي سيعرضها السادات على مؤتمر القمة وفقا لما تقوله هذه المصادر ، ثالثا ، ان احتمالات امتناع الدول النفطية عن رفع اسعار البترول هي أفضل الان من أي وقت مضى .

وقد أنهى كيسينجر جولته بزيارة الجزائر والرباط وقد كشف الرئيس بومدين في حديث صحفي له انه أبلغ كيسينجر بأنه على الولايات المتحدة تحديد موقفها من نقطتين اساسيتين من دون ابطاء هما : موعد قاطع لانسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة والموقف العملي من القرار الفلسطيني باقامة السلطة الوطنية المستقلة في الضفة الغربية وغزة . أما المصادر الامريكية فقد أكدت ان زيارة الجزائر كانت « أكثر الزيارات ايجابية » في هذه الجولة .

(٣) المناطق المحتلة

بنتيجة النضال على صعيديه ، العسكري والسياسي ، استطاع الشعب الفلسطيني ان يحقق المزيد من الانتصارات الباهرة . فخلال الفترة القصيرة الماضية ، تحقق بجهود حثيثة وكفاح سياسي صلب ، اعادة الالتزام العربي الجماعي بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني كما نصت على ذلك قرارات قمة مؤتمر الجزائر في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي . وبادارة دقة التحالفات الفلسطينية — العربية ، والصداقات الفلسطينية — الدولية ، على افضل وجه ، خطت القضية الفلسطينية عبر الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة خطوة ، اعتبرها العدو قبل الصديق ، نقلة ذات دلالات هامة على طريق نيل الشعب الفلسطيني لكامل حقوقه الوطنية والتاريخية على ترابه الوطني . وخلال ذلك كله كان النضال والكفاح البطولي الذي تخوضه الجماهير الفلسطينية في الوطن المحتل ، يرفد الشرعية الفلسطينية بدم جديد ، ويبلور الهوية الوطنية المستقلة للشعب الفلسطيني ويدفع بحقه في اقامة كيانه الوطني المستقل خطوات هامة على الطريق . ولم تحد من اشراق الصورة النضالية الفلسطينية هذه ، اجراءات العدو وقمعه ضد الجماهير الفلسطينية ، بل كانت على العكس ، تزيد من اشراق هذه الصورة وتعزز من حضورها .

عرض القضية على الامم المتحدة

بعد أن تقدمت منظمة التحرير الفلسطينية الى الجامعة العربية ، بطلب ادراج القضية الفلسطينية كبند مستقل في الدورة التاسعة والعشرين لهيئة الامم المتحدة ، تبنت الجامعة العربية — على مستوى وزراء الخارجية — طلب المنظمة هذا ، بتحفظ واحد من قبل الحكومة الاردنية . وقد عكس هذا الطلب واقراره من قبل الجامعة ارتياحا فلسطينيا داخل الارض المحتلة ، وفي الضفة الغربية على وجه التحديد . فقالت جريدة الشعب في تعليق لها : « كثيرون هم الذين انكروا وجود الشعب الفلسطيني . صعاب ومخاطر وأشواك تعرضت لها مسيرة هذا الشعب لاثنائه عن مسيرته وعدوله عن تطلعاته وأمانيه . حكام تامروا على هذا الشعب واعتقدوا انه يرضى بعيشة الذل في الخيام وانه لن يرفع رأسه » . واستشهدت الصحيفة بتصريحات عدد من الزعماء الاسرائيليين الذين اعتقدوا ذلك وبنوا مواقفهم السياسية وفق ذلك الاعتقاد . ثم تستتبع «الشعب» قائلة : « واليوم ، ها هي اسرائيل تصرخ وتناشد حلفاءها وأسيادها من خطورة الخطوة البارعة التي أقدمت عليها منظمة التحرير الفلسطينية ، ممثلة هذا الشعب ، بعرض القضية الفلسطينية التي أصبحت ملك شعبها على دورة الجمعية العامة للامم المتحدة . ها هو الشعب الفلسطيني اليوم ، الذي انكرتم وجوده ، وتآمرتم عليه ، يخطو خطوة جبارة من خطوات تحركه السياسي جنبا الى جنب مع استمرار المسيرة . ها هو شعبنا الفلسطيني يفقأ عيون كل اعدائه معلنا ومتمسكا بأن له المقومات السياسية والادارية والعسكرية ، وان محاولات طمس شخصيته حتما فاشلة » (الشعب ٧٤/٩/١٠) .

وخصصت « الشعب » في عدد اخر لها ، افتتاحيتها الرئيسية للتعليق على هذا الحدث البارز . فكتبت تحت عنوان « الامم المتحدة ومسؤولية السلام العالمي » تقول : انه كان من واجب المسؤولين العرب ادراج هذه القضية كقضية سياسية تقوم على أساس سياسي لشعب ووطن قبل هذا التاريخ . ثم اضافت قائلة : « غير اننا على يقين من ان الامر لم تكن اثارته ممكنة في ظل الاوضاع التي كانت تسود المنطقة قبل انطلاقة الثورة الفلسطينية كأنبل وأشرف ظاهرة برزت بعد هزيمة حزيران في العالم العربي، وقبل وقوع زلزال تشرين العظيم الذي غير من دول العالم مفاهيمها القديمة وأطار والى الابد الاساطير العتيقة عن القوة التي لا تقهر وما ران على المنطقة من جمود ظنه الخصوم على كثرتهم انه مخلد وليس امام العرب من سبيل الا الركوع والاستسلام » . وتطرقت الصحيفة الى صلب الموضوع قائلة : « وقد لا نعدو الصواب ان قلنا ان الطلب واقراره سيفوز بأغلبية ساحقة ، وذلك ان هذا الطلب الشرعي كان المجتمع الدولي قد وافق عليه في أكثر من قرار ، منذ ان عرضت عليه قضية فلسطين على الامم المتحدة قبل عام ١٩٤٧ وبعده ، وليس فيه من جديد على المنظمة

الدولية وعلى الدول المنتظمة فيها ، والتي عاشت القضية وما زالت تعيشها وتحسها على اساس انها أخطر القضايا الدولية التي تمتحن فيها الامم المتحدة منذ تأسيسها وحتى اليوم ، بوصفها القضية الوحيدة الباقية التي ما زالت تعرض السلام العالمي الى الخطر المحدق الكبير » . وفي معرض تقييمها للخطوة الفلسطينية هذه قالت الصحيفة: « ونحسب انها مناسبة فلسطينية وعربية تتكشف فيها اوراق المجتمع الدولي لكي يعرف العرب ومن مركز القوة والتمكن والقدرة ، من هي تلك الدول التي معها في الحق والعدل ومن هي تلك التي تناصبها العداء في اكبر وأهم واعظم قضاياها المصيرية ، حتى اذا وقعت الواقعة ولا بد انها قادمة ، نكون قد فرزنا العدو من الصديق . فما زلنا لا ننسى بعض الدول التي صرخت لتوقيف البترول عن مصانعها وبيوتها في حين انها نسيت هي وعلى مدار ربع قرن وجود مظلومين يعيشون في الكهوف ويلتحفون خيام الذل والهوان . وعندئذ تكون هذه الدول بما كسبت رهينة » (الشعب ٧٤/٩/١٦) .

وكانت « الشعب » قد تناولت موضوع ادراج القضية الفلسطينية على الدورة الحالية لهيئة الامم المتحدة ، في افتتاحية رئيسية اخرى قائلة ، ان قرار منظمة التحرير بذلك جاء وفق ظروف مواتية ، وان المنظمة لم تقدم على هذه الخطوة « الا بعد التأكد من عوامل النجاح فيها ، وان الثورة الفلسطينية تسعى لاقامة السلطة الوطنية فوق الارض المحتلة » . وقالت ان تصريحات ياسر عرفات حول هذا الموضوع « ليس الا توكيدا جديدا للاصرار الفلسطيني الذي لم يتوقف رغم كل العراقيل التي قامت في وجهه من كافة القوى الحاقدة والمضادة ، ورغم كل المحاولات التصفوية التي بذلت على كل المستويات . فقد جاءت النتيجة لاسقاط وافشال جميع هذه المحاولات ليجد المتآمرون في النهاية ان الارادة الفلسطينية بقيت أقوى من كل هذه القوى وان ارادة الشعوب هي دوما ميثاق الحق والعدل » . وتناولت ردود الفعل ازاء هذه الخطوة في العواصم المعادية للشعب الفلسطيني فقالت : « اما الاصوات التي بدأت تولول في تل أبيب فتتجاوب معها بالعويل واشنطن وبعض الأنظمة الرجعية في المنطقة ، فليست الا الدليل على صحة وعمق الرؤية الفلسطينية ، وان خط السير الفلسطيني بعد قيام ثورته وبعد ان اثبتت وجودها فلسطينيا وعربيا ودوليا هو الخط السليم الذي منع شعبنا فيما مضى من حق ممارسته كحق من حقوقه ومطلب قومي تاريخي لامته » (الشعب ٧٤/٩/١٢).

أما صحيفة « البشير » التي تصدر في بيت لحم، فقد وصفت الدورة الجديدة للجمعية العامة، بأضخم معركة سياسية ، وقالت ان هذه الدورة « سوف تشهد معركة سياسية دبلوماسية عربية اخرى هي استمرار للمعارك التي خاضها العرب في ساحة الامم المتحدة وفي قلب جمعيتها العامة سنة بعد سنة منذ عام ١٩٤٧ . غير ان المعركة الجديدة في الجمعية العامة يدخلها العرب في ظروف جديدة مواتية صنعها العرب أنفسهم في الشرق الاوسط وفي الميدان الدولي. فحين نطرح قضية الشرق الاوسط هذه المرة في الجمعية العمومية لا يكون طرحها خاضعا للروتينية التي خيمت على بحث القضية في السنوات السابقة لتشرين ١٩٧٣ ، بل ان القضية سوف تثار الان بعد أن اكتسبت حيوية دافقة ، وبعد ان تحركت وبعد ان دفعها العرب الى خارج حالة اللاحرب واللاسلم » . واضافت « البشير » قائلة ان القضية سوف تثار هذه المرة « بعد أن وضعتها حرب تشرين في اطارها الشرعي السليم وبعد ان جعلت العالم كله يحس الى اعمق اعماق حياته اليومية السياسية والاقتصادية مدى خطورة هذه القضية ومدى تأثيرها على السلام والامن الدوليين. فالعالم كله يذكر مقاومة العرب للاحتلال وللعدوان واللاشرعية بعد العدوان الذي حدث في الشرق الاوسط والذي هز العالم سياسيا واقتصاديا وأمنيا، وكيف استنفرت القوتان العظيمتان قواتهما في لحظات احس فيها العالم كله ، انه على حافة البركان » . وختمت الصحيفة تعليقها بالقول : « والى جانب القضية العربية الكلية ، فانه سوف تطرح على الجمعية العامة للامم المتحدة ، قضية فلسطين كبند مستقل كقضية شعب له حقوقه الشرعية . وتشير الدلائل الى ان غالبية الدول في العالم سوف تؤيد طرح قضية فلسطين على هذا النحو » (البشير ٧٤/٩/٢١) .

أما صحيفة « الفجر » التي غدت تصدر يوميا في القدس ، فقد وصفت قرار جامعة الدول العربية بادراج القضية الفلسطينية على الامم المتحدة ، بأنه « امتداد طبيعي لما انجزته الحركة الفلسطينية على مدى خمسة وعشرين عاما من العمل ، وهو امتداد لقرارات مؤتمر القمة الذي عقد في الجزائر،

ومؤتمر الشعوب الاسلامية في لاهور ، وامتداد مكمل للبيانات المشتركة التي كانت تصدرها أطراف دولية متعددة مؤيدة الحق الفلسطيني . وهذا الامتداد يأتي ليضع في النهاية قرارا دوليا بشرعية الحركة الفلسطينية وشرعية منظمة التحرير الفلسطينية . ومثل هذا القرار سيترك اثارا بعيدة على كافة المستويات الدولية ، وستكون له نتائج بعيدة الاثر ، تتاثر بها بلدان كثيرة » . وقالت الصحيفة ان قرار الامم المتحدة لن يحل المشكلة ، غير انه سيكون « قرار الشرعية » . وقالت ان قرارا كهذا « سيعطي الحركة الفلسطينية طاقة ومقدرة على التحرك الدولي . وهو من ناحية ثانية لن يلزم اسرائيل او الدول الامبريالية ، ولكنه سيوجه أنظار العالم نحو القضية الفلسطينية بشكل جيد وبمدلولات جديدة من خلال اطار الشرعية في العمل والتحرك السياسي » . واضافت « الفجر » قائلة بان قرارا من الامم المتحدة « بشرعية الحركة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية ممثلة لها، من شأنه ان يفشل دوليا كل ادعاءات اسرائيل في عدم وجود حقوق للشعب الفلسطيني في هذه الارض ، ويفشل نظريا كل مخططات التوطين والاسكان والتهجير ، كما انه يلزم اسرائيل — نظريا ايضا — بحق عودة اللاجئين الفلسطينيين الى ديارهم » . وتنبأت الصحيفة بموقف الولايات المتحدة الاميركية في الجمعية العامة فقالت ، ان الولايات المتحدة « ستعمل جاهدة على عدم اقرار أي شيء من شأنه ان يخدم القضية الفلسطينية ويساعد على ابراز شرعيتها . لذلك فانها ستقف بكل قواها وأتباعها ضد القرار وهي ستعمل على افراغ القرار في النهاية من مضمونه وتحاول تطويقه بشكل يتلاءم مع مصالحها وأطماعها في المنطقة » .

وفي ختام تعليقها قالت « الفجر » ان دخول الفلسطينيين الى الامم المتحدة يعني اشياء كثيرة وجديدة . فهو « يعني انهم أصحاب حق لا يمكن لاحد ان يتجاهله ، ويعني ان اصحاب هذا الحق هم الان مستقلون برأيهم ويتحركون ويعملون من خلاله ، وان وصاية او ولاية الدول العربية او بعضها او محاولة فرض هذه الوصاية او الولاية لا يمكن ان يتم او يستمر ، وان علاقة الفلسطينيين بالدول العربية هي علاقة الاخوة والتلاحم والعمل الواحد ضد كل من يحاول العبث او الاعتداء على مقدرات وخيرات الشعوب العربية ونهبها . ويعني ايضا الارتباط العضوي والتلاحم الكامل مع كل حركات التحرير الوطني ومعسكر الشعوب في شتى ارجاء الارض . ان قرار شرعية الحركة الفلسطينية رغم انه جاء متأخرا هو في النهاية اثبات الدور الاصيل الواعي الذي سارته القضية الفلسطينية بثبات وصبر وطول النفس لتصل الى هذا الانجاز الدولي في النهاية ، وبعد ان استطاعت ان تجمع حولها كل ابناء الشعب الفلسطيني والشعوب العربية كلها ، وبعد ان استطاعت اقامة جسر صداقة وفهم مشترك مع كل قوى العالم المتحررة » (الفجر ١٩٧٤/٩/٢٠).

الاعتقالات والمحاكمات

شهدت المناطق المحتلة في الفترة الماضية ، تصاعدا ملحوظا في النضال العسكري شمل مختلف مناطق الوطن المحتل . والى جانب ذلك تواصل النضال الجماهيري ضد الاحتلال فشمل مختلف طبقات الشعب الفلسطيني وفئاته الوطنية . وانعكس ذلك في جملة المحاكمات وحملة الاعتقالات التي شهدتها المناطق المحتلة ، والتي لم يكن اعتقال المطران ايلاريون كبوجي والفتاتان الهولنديتان ، هي آخر فصول حملة الاعتقالات والمحاكمات هذه . والشيء البارز من النضال السياسي في الارض المحتلة خلال الفترة الماضية ، الاضرابات التي قام بها المعتقلون الفلسطينيون في مختلف سجون ومعتقلات الاحتلال . وقد نشرت صحف الضفة الغربية وصحف اسرائيلية وغيرها اخبارا متتالية عن مظاهر نشاطات القمع الاسرائيلية والنضالات الوطنية الفلسطينية بالمقابل .

أ — اضراب السجناء

كتبت صحيفة « الفجر » حول الانباء المتكررة عن حالات اضراب المعتقلين الفلسطينيين في سجون الاحتلال تقول : « ان المعاملة التي يلقاها السجناء العرب في السجون الاسرائيلية دفعتهم الى اعلان الاضراب عن الطعام في محاولة لتحسين اوضاعهم ومعاملتهم معاملة حسنة ترضى بها انسانيتهم . وقضية الاضراب تمضي والصحافة الاسرائيلية لا تعيرها أي انتباه ، وكأن الامر يحدث في بلاد الواق واق، لا تحت أنف وأذن وبصر الصحافة الاسرائيلية.

والادهى من ذلك ان تأتي واحدة من هذه الصحف لتغير من مضمون الاضراب وتبرزه بشكل يتصف معه القارىء ان الاضراب لا يخرج عن التشبث بمطلب غير معقول وهو اشتراط الا تفتح الطرود التي يتلقونها من الاهل » . وقالت الصحيفة ان مسألة الطرود هي بالفعل واحدة من مطالب السجناء ، ولكنها ليست هي المسألة الوحيدة كما ذكرت ذلك صحيفة اسرائيلية . وقالت ان المعتقلين « يطالبون بالمساواة في كيفية ونوعية استلام الطرود كالسجناء الاسرائيليين تماما».واضافت : اما المطالب الاخرى للسجناء فهي حول « الطعام وتنظيم الزيـــارات وزيادة وقت الفسحة اليومية . لقد حاول السجناء التوصل الى مطالبهم هذه بكل الوسائل الممكنة قبل ان يعلنوا اضرابهم ، ونحن نذكر القضية التي أقامها المهندس كمال النمري حول تحسين أوضاع السجناء عن طريق القضاء » (الفجر ١٩٧٤/٩/١٤).

وكانت « الفجر » قد ذكرت في وقت سابق ، ان ثمانية عشر معتقلا سياسيا موقوفين في سجن بيت ليد ، قد اضربوا لمدة اربعة ايام احتجاجا على سوء احوالهم الصحية ومعاملتهم من قبل سلطات السجن . وقالت : « ان معظم هؤلاء السجناء من الشيوعيين من المناطق العربية المحتلة او أصحاب آراء يسارية ». وقالت ان السبب المباشر للاضراب هو تعرض المعتقل حسين ابو غربية لمضايقات واهانات من قبل سلطات السجن، كما ان السلطات هذه قدمت أغذية للسجناء المضربين بالقوة « وذلك باستخدام انابيب من البلاستيك وادخالهـــا في اجوافهم » . ونقلت المحامية فيليتسيا لانجر عن السجناء قولهم لها بعد زيارتهم ، انهم ماضـــون « في نضالهم داخل السجن ضد الاعتقال التعسفي ورفضهم لمعاملة سلطات السجن لهم ، ومواصلة تصديهم لها محافظين بذلك على كرامتهم ووحدة صفهم » (الفجر ١٩٧٤/٩/٥) .

وذكرت صحيفة الشعب من جانبها ان المساجين العرب في سجن الدامون قد أعلنوا الاضـــراب « احتجاجا على قرار سلطة السجون منع اقرباء المسجونين من ادخال رزم الهدايا والامتعة التي أحضروها لهم وابقوها في الخارج . وكان قد جرى اضراب مماثل في سجن الرملة فـــي اوائل شهـــر ايلول (سبتمبر) الماضي » (الشعب ١٩٧٤/٩/١١). وفي عددها في اليوم السابق كانت جريدة « القدس » قد أعلنت نبأ اضراب السجناء العرب في سجن الرملة وقالت ، ان السجناء « رفضوا التوجه الى الورش للعمل. ويحتج السجناء على قرار السلطات الاسرائيلية الاخيرة الخاص بالغاء الوجبات الغذائية التي كان يسمح للسجناء ان يتلقوها من الخارج ». وكانت السلطات الاسرائيلية قد قررت هذا الاجراء بزعم « النقص في العاملين في مراقبة الوارد من الوجبات » . وتشير السلطات في زعمها ايضا « ان مراقبي الوارد من الوجبات الغذائية قد اكتشفوا في الاشهر القليلة الماضية وجود حشيش وافيون وسكاكين وآلات حادة بل ومسدس ايضا داخل الاواني التي كانت تحتوي على الوجبات الغذائية المرسلة الى السجناء » (القدس ١٩٧٤/٩/١٠).

من ناحية اخرى، كان اهالي السجناء والمعتقلين في سجن الرملة المركزي قد بعثوا الى قيادة الحكم العسكري الاسرائيلي ، بمذكرة يحتجون فيها على قرار السلطات الاسرائيلية ذلك ، وما نجم عنه من تردي احوال المعتقلين في السجن المذكور . وطالب الاهالي في مذكرتهم هذه بتحسين اوضاع ابنائهم المعيشية ومعاملة سلطات السجن لهم . واضافت صحيفة الفجر التي نقلت تلك الانباء « ان السجناء الفلسطينيين في سجن الرملة ما زالوا مضربين عن الطعام ، وامتنعوا في الاسبوع الماضي عن مقابلة اهاليهم الذين حضروا لمشاهدتهم ، مما دفع بالاهالي الى الاحتجاج ووقوع اشتباكات بالايدي مع رجال الشرطة الاسرائيليين » (الفجر ١٩٧٤/٩/٧) .

ب — المحاكمات والاعتقالات

ذكر مستشار وزير الشرطة الاسرائيلي للشؤون العربية في الاول من شهر ايلول (سبتمبر) الماضي، انه تم « اطلاق سراح جميع الموقوفين الاداريين العرب من سكان اسرائيل ، وانه بقي الان في الاعتقال الاداري ٥٠ شخصا فقط من سكان المناطق ومن القدس القديمة » . ونفى ما كانت قد ذكرته في وقت سابق صحيفة نيويورك تايمز الاميركية من ان اسرائيل تعتقل ١٢٠٠ من سكان المناطق المحتلة. وقال انه في أوج النشاط الفدائي عام ١٩٧٠ وصل عدد المعتقلين فقط الى اكثر من الف شخص (يدعوت أحرونوت ١٩٧٤/٩/١) . غير ان صحيفة يدعوت أحرونوت نفسها عادت فذكرت ان عدد المعتقلين الامنيين في سجون اسرائيل بلغ ٢٤٣٤ معتقلا منهم ٢٤٧٤ من المناطق المحتلة والباقي من

عرب عام ١٩٤٨ . وقالت ان من بين المعتقلين حوالي ٦٠ امرأة وفتاة ، ١٧ منهن من المناطق المحتلة والباقي من عرب عام ١٩٤٨ . وقالت الصحيفة ايضا ان هذا الرقم « يعتبر قياسيا فكان حتى نهاية عام ١٩٧٣ فقط ١٨٢٥ معتقلا . ويفسر ذلك ازدياد عدد رجال المنظمات في المناطق وبانه جاء نتيجة التغيير الذي طرأ على موقف الشيوعيين في المنطقة ، فقد تركوا طريق العمل السياسي ودخلوا طريق الكفاح المسلح » (الشعب ١٩٧٤/٩/٥، نقلا عن صحيفة يدعوت أحرونوت الاسرائيلية).

ولم يتوقف عدد المعتقلين الفلسطينيين عند هذا الرقم . ففي كل يوم كانت الارض المحتلة تشهد مزيدا من الاعتقالات والمحاكمات . فقد ذكرت « يدعوت أحرونوت » في عددها يوم ١٩٧٤/٩/١ انه تم اعتقال اربعة مشبوهين بالقاء قنبلة يدوية على مقهى في شارع ينث بيانا في اواخر شهر آب (اغسطس) الماضي . وفي ١٩٧٤/٩/٦ ذكرت جريدة الفجر ان المحكمة العسكرية في رام الله قد حكمت بالسجن لمدة ١٨ عاما على شاب من سكان قرية بيت اومر بمنطقة الخليل ، بتهمة ان الشاب غادر الضفة الى احدى الدول العربية حيث تدرب على استخدام السلاح والمواد المتفجرة ثم تسلل الى اسرائيل . واتهمته المحكمة باطلاق قذائف بازوكا على كفر عصيون ووضع متفجرات قرب قناة للمياه وعمود كهرباء في نفس المنطقة (الفجر ١٩٧٤/٩/٦) . وفي طولكرم حكمت المحكمة العسكرية بالسجن مددا تتراوح بين سنتين وتسعة أشهر على خمسة من شباب قرية كفر الديك بتهمة مقاومة الاحتلال . والشباب الخمسة هم جمال جواد الديك ، نادر علي أحمد ، فواز علي أحمد ، احسان الديك وعبد الرحمن الديك . وزعمت المحكمة ان الشباب اعترفوا بالتهم الموجهة اليهم وهي الانتماء الى الجبهة الوطنية الفلسطينية والحزب الشيوعي الاردني . ومن ناحية اخرى فقد حكمت المحكمة نفسها بالسجن على عمر موسى الصوص لمدة سنة وأجلت محاكمة أسامة طاهر حشيمة واكتمال طه وسمر بهساني قطينة الى اواخر شهر تشرين الاول (اكتوبر) ، نظرا لعدم اعترافهم بالتهم الموجهة اليهم وهي الانتماء الى الجبهة الوطنية الفلسطينية (الفجر ١٩٧٤/٩/٥).

وحكمت المحكمة العسكرية في اللد على رجلين بتهمة الانتماء الى المنظمات الفدائية بالسجن المؤبد، وهما محمود شحادة وجميل مصطفى ذياب (الشعب ١٩٧٤/٩/١٠) .

وفي غزة حكمت المحكمة العسكرية بالسجن لمدد مختلفة على اربعة أشخاص بتهمة الاتصال بالمنظمات الفدائية وحيازة أسلحة وتوزيع منشورات . وهؤلاء المعتقلون هم : كارم زكي العطار ، يحي محمد البهنساوي ، عبدالله محمد شحادة وشحدة أحمد ناصر (الشعب ١٩٧٤/٩/٩) . وحكمت المحكمة العليا على حسن الصمد من القدس بالسجن مدة عشر سنوات منها ثلاث سنوات مع وقف التنفيذ وعلى مروان خضر من جنين بالسجن سبع سنوات منها سنتين مع وقف التنفيذ . وكانت محكمة العدل العليا قد قبلت الاستئناف الذي قدمته النيابة العامة على الحكم الذي أصدرته المحكمة المركزية بحق الشابين بتهمة طعن أحد الجنود الاسرائيليين وأخذ سلاحه (الشعب ١٩٧٤/٩/٩) .

وفي اللد ايضا أصدرت المحكمة العسكرية احكامها بحق الدفعة الثانية من الشبان المتهمين بالانتماء الى « الجيش الجمهوري الفلسطيني » الذين اعتقلوا في الثامن عشر من شهر شباط (فبراير) الماضي . وهم : فايز الدميري ، فتوح السكافي . وتأجل اصدار الحكم بحق كمال غيث وواصف دنديس. أما سرين ازحيمان ومحمد السراج فقد تأجلت محاكمتهما الى شهر تشرين الاول (اكتوبر). وكانت التهم قد تضمنت توزيع منشورات تدعو الى عدم دفع الضرائب وتحذير العمال من العمل في مصانع اسرائيل والتحريض ضد الانتخابات والدعوة الى محاكمة المتعاونين مع السلطات الاسرائيلية . وكانت المحكمة قد أصدرت أحكامها في الاول من ايلول (سبتمبر) بحق الدفعة الاولى من المتهمين في هذه القضية وهم ، محمود صلاح الشريف ، ابراهيم عبد الرحيم الشريف ، طلال حماد ، محمد نجيب صندوقة ، محمد المونس ، مروان سنقرط ومهيب ابو سرية (الشعب ٩/٩/ ١٩٧٤) .

وصادقت محكمة الاستئناف العليا في القدس على الحكم الصادر من المحكمة المركزية في بئر السبع بتاريخ ١٩٧١/٥/٢١ ، الصادر ضد المتهمين الستة الذين القي القبض عليهم بتهمة دخول « المياه الاقليمية وحيازة أسلحة في قارب بالبحر ».

والاشخاص هم : مهدي علي بسيسو ، صلاح محمد الريفي ، محمود هاشم شراب ، علي فارس بصلة، صبري محمد العبد البياري ومحمد رياض صافي (جريدة الانباء الاسرائيلية ١٩٧٤/٩/١١).

وفي اللد ايضا حكمت المحكمة العسكرية على حسن حسن علي بالسجن مدة خمس سنوات بتهمة الانتماء الى منظمة فتح . وحسن هذا يبلغ من العمر ١٩ سنة وهو من حيفا وكان قد عبر الى لبنان قبل اربع سنوات ثم عاد الى حيفا مع اربعة أشخاص آخرين ، واتهمته السلطات الاسرائيلية انه حضر للقيام بأعمال مسلحة في كرمئيل واحتجاز رهائن في احدى دور السينما بغية الافراج عن عدد من المعتقلين (الشعب ١٩٧٤/٩/١٢).

وفي نابلس قدم خمسة أشخاص للمحاكمة هم : صالح عبد الرحمن ، عبد العال محمود ، عادل سعيد ، نبيل هاشم عبدالله وغسان عبد الوهاب بتهمة القيام بعمليات عسكرية في منطقة نابلس (الفجر ١٩٧٤/٩/٢٠) .

جـ ــ المذكرات والاحتجاجات

ذكرت جريدة الشعب ان امهات وزوجات المعتقلين الاداريين حاولن الاعتصام في مقر الامم المتحدة على جبل المبكر قرب القدس ، الا ان الشرطة حالت دون ذلك بالقوة وطاردت المعتصمات . غير ان هؤلاء وجهن مذكرة الى مدير مكتب الامم المتحدة جاء فيها ، اننا نستنكر الاعتقالات الادارية التي شملت الموظفين والمثقفين والاطباء والنقابيين والعمال ورجال الدين . وأوردت المذكرة أسماء بعض المعتقلين وهم : سليمان النجاب ، خليل حجازي ، خلدون عبد الحق ، جمال فريتخ ، عباس عبد الحق ، حسين ابو غربية ، بشير البرغوثي ، يعقوب فراج ، فاروق السلفيتي ، حسني حداد ، عبد المجيد حمدان، عادل البرغوثي، غسان حرب، المطران كبوشي ، تيسير العاروري ، ابراهيم الجولاني وعبدالله البياع . وطالبت المذكرة بتقديم الموقوفين الى المحاكمة ومعرفة التهم الموجهة اليهم . وقد وجهت نسخ من المذكرة الى كل من هيئة الامم المتحدة والصليب الاحمر والصحف المحلية في الضفة الغربية . وقد وقعت المذكرة كل من : بهية ابو غربية ، وداد ابو غربية ، ليلى النجاب، عفاف حرب ، عطاف حمدان ، محفوظة رشماوي ، نجلاء حداد ، أمنه فراج ، نائلة السرياني ، سميرة حجازي ، حفيظة ابو غربية ، نعوم ابو غربية ، أمنه شقيرات ، نفوذ البياع وزينب الجيلاني .

وكانت مجموعة مكونة من ٥٠ شخصا قد قامت ، بدعوة من اللجنة « ضد الاعتقالات الادارية في المناطق المحتلة » بمحاولة لتسليم ممثل الامم المتحدة ولجنة حقوق الانسان والمواطن ، كتاب تضامن مع عائلات واقارب المعتقلين الاداريين في المناطق المحتلة . ولدى وصول الجماعة هذه الى جبل المكبر حيث مقر الامم المتحدة ، حالت قوة من الشرطة بالقوة والتهديد بالاعتقال من وصولها . وكان الكتاب قد تضمن احتجاج موقعيه ضد الاعتقال الاداري لتسعين مواطنا من سكان القدس العربية والمناطق المحتلة . كما تضمن المطالبة بلجنة تحقيق دولية (الشعب ١٩٧٤/٩/٦) .

من ناحية اخرى ، وجهت زوجة المعتقل بشير البرغوثي كتابا مفتوحا لوزير الشرطة من على صفحات جريدة الشعب جاء فيه : « لقد اعتقل زوجي بشير البرغوثي ولم يمض على وجودنا وطفلينا في الضفة الغربية سوى أربعة أشهر . وكان ذلك بتاريخ ١٩٧٤/٧/٣١ ، حيث اعتقل اثناء عودته الى البيت ومن وسط الشارع الرئيسي برام الله وفي وضح النهار . ولم أعرف مكان وجوده ولا التهمة التي وجهت اليه برغم الجهود التي بذلت بهذا الخصوص » . واضافت زوجة السيد البرغوثي في كتابها ، انها بعد الاتصالات العديدة ، حدد لها يوم ١٩٧٤/٨/١٨ لمقابلته. كما ان المحامية فيلسيا لانجر قد قابلته يوم ٨/١٢ واثناء مقابلة لانجر له وضح لها ان بشير « لم يبلغ بمدة توقيف او حكم أو اية تهمة تبرر اعتقاله ، وانما وجهت اليه أسئلة عادية حول رسالة يطالب فيها (بالتضامن مع الطبقة العاملة الاسرائيلية وذوي النوايا الطيبة والراغبين في سلام عادل) . فهل هذه جريمة يعتقل من أجلها بشير او أي انسان يرغب في العيش على ارضه في ظل سلام عادل » (الشعب ، ١٩٧٤/٩/١٥) .

عيسى الشعيبي

(٤) اسرائيليات

[١]
زيارة كيسنجر الى المنطقـة
وموقف اسرائيل من مساعي التسوية

مع اقتراب موعد زيارة وزير الخارجية الاميركي، هنري كيسنجر ، للمنطقة خلال الاسبوع الماضي ، وهي الزيارة التي وصفها أكثر من مصدر مسؤول في اسرائيل بأنها جس نبض واستطلاع رأي دول المنطقة بشأن المرحلة المقبلة من التسوية أو من محادثات جنيف ، كثرت في اسرائيل التصريحات التي يبدو منها وكأن الحكومة الاسرائيلية قد غـيرت مواقفها السابقة نوعا ما او انها على أبواب سياسة جديدة تجاه حل ازمة المنطقة . وكان من ابرز تلك التصريحات ، التي تبارى كبار المسؤولين الاسرائيليين في اطلاقها ، خاصة رئيس وزراء اسرائيل يتسحاق رابين ووزير خارجيتها يغئال آلون ، الاعلان عن ان لدى اسرائيل خرائط مفصلة للانسحاب من المناطق المحتلة ، ستعرض في أية مفاوضات للسلام مع الدول العربية ، وان اسرائيل مستعدة ايضا للانسحاب من تلك المناطق او بعضها ، بما في ذلك الضفة الغربية ، لقاء اعلان العرب عن انهاء حالة الحرب معها ، دون التوقيع على اتفاقيات سلام شاملة . وهذه التصريحات ، وان كانت جميعها مشروطة برفض اسرائيل العودة الى حدود ٤ حزيران ١٩٦٧ ، فانها على الرغم من ذلك تشير الى موقف يختلف عن المـواقف الاسرائيلية المعلنة التي عهدناها حتى الان .

لقد اثارت التصريحـات ردود فعل عديدة في اسرائيل ، كان من بينها ، كما هو متوقع ، ازدياد هجوم المعارضة على الحكومة . ولكن رابين عاد وأكد موقف حكومته هذا في معرض رده على اقتراح لجدول الاعمال تدمته كتلة ليكود الى الكنيست طالبة بحث تلك التصريحات ، بقوله ان سياسة حكومته « تدمج المجهودين ، اعداد الدولة لاحتمال وقوع حرب جديدة ، والاستعداد والتأهب والسعي لاحلال السلام سواء عن طريق التحول مرة واحدة من حالة الحرب الى حالة السلام ، أم عن طريق التقدم على مراحل ، معتمدة في ذلك على الايمان بأن علينا العمل وبذل كل شيء دون أية علاقة لما يسمع من الجانب الاخر ، لدراسـة الاحتمالات والامكانات لاحلال السلام » (ر.أ.أ.، ٩/١٠/١٩٧٤) . واضاف « ليس من الواجب رفض أي اقتراح ، كما لا حاجة لاظهار انفسنا تجاه الداخل والخارج كرافضين لاية فكرة . انني أرى ان من واجب الحكومة في الدرجة الاولى ، البحث عن أية وسيلة معقولة ، وأرى ذلك لكوني اؤمن بأننا حتى اذا لم نحرز السلام ، فان من واجب هذا الشعب ان يكون مقتنعا ، بأن قيادته طرقت جميع السبل للتقدم نحو السلام ، وبحثت عن جميع الطرق لمنع الحرب » (المصدر نفسه) . غير انه يبدو ان هذه ليست هي الاعتبارات الوحيدة التي تكمن وراء تصريحات المسؤولين الاسرائيليين الاخيرة ، اذ ان هناك عوامل أخرى ، منها ما يتعلق بالاوضاع الدولية والاوضاع في المنطقة ومنها ما يتعـلق بالاوضاع الاسرائيلية الداخلية ، تدفعهم الى السير في هذا الاتجاه .

التأثير الاميركي

يبدو ان احد العوامل التي دفعت المسؤولين الاسرائيليين الى الاعلان عن سياستهم « الجديدة » هذه هو الموقف الاميركي من التسوية في المنطقة ، الذي كان رابين وآلون قد اطلعا عليها عن كثب اثناء زياراتهم الاخيرة للولايات المتحدة ، التي تمت خلال الشهر الماضي والشهر الحالي . وكان أكثر من معلق اسرائيلي قد لفت النظر الى تغير لهجة رابين بعد عودته من زيارته لاميركا في منتصف الشهر الماضي ، وفي هذا الصدد كتب ، مثلا ، متتياهو بيليد (معاريف ، ٤/١٠/١٩٧٤) يقول : « كان لدى الكثيرين منا أمل بأن تكون حكومـة يتسحاق رابين قادرة على معالجة عملية لامكانية التوجه نحو طريق ، تؤدي في نهاية الامر الى تعايش بيننا وبين الدول العربية ، الى سلام على المدى البعيد وايقاف حالة الحرب على المدى

القصير . وقد قوى هذا الامل بشكل خاص بعد عودة رئيس الحكومة من الولايات المتحدة، وازداد قوة بعد ان أعلن رئيس الحكومة صراحة ان لديه خرائط مفصلة ، بالنسبة لحالة السلام او لحلول مرحلية على الطريق نحو السلام » . واستطرد بيليد وامتدح تصريحات رابين بأن لديه خرائط للتسوية لان موقف اسرائيل السابق بشأن عدم وجود خرائط لديها ، الذي كان القصد من ورائه زرع الفوضى في معسكر العدو قد عاد بالضرر عليها . أما دان مرغليت ، مراسل هآرتس (١٩٧٤/١٠/٩) في واشنطن فيضيف ان آلون حاول اقناع كيسنجر خلال زيارته الاخيرة لاميركا بوجهة النظر الاسرائيلية ، ولكنه لم ينجح في ذلك ، وهذا على الرغم من أن مركز كيسنجر قد تضعضع ، بحسب رأيه ، بسبب التغييرات التي طرأت على الحكم في اميركا ، بحيث يمكن الضغط عليه اكثر من السابق . بينما يضيف اوري دان ، المراسل العسكري لصحيفة معاريف (١٠/٧/ ١٩٧٤) عوامل اخرى تدفع في هذا الاتجاه ، « فالدولتان الكبيرتان تخشيان حاليا خطر حرب جديدة في المنطقة ، ولذلك فان الاثنتين مهتمتان بمنع الجمود السياسي والتوجه نحو عقد مؤتمر جنيف ، باشتراك مصر والاردن على الاقل ، حتى قبل نهاية العام » ، بينما يسعى العرب « من خلال استعداد كامل للحرب لاستنفاذ المرحلة السياسية حتى نهايتها » . ويستطرد دان معلقا على موقف اسرائيل بقوله : « ان احدا لا يتنازل عن سلام حقيقي ، ولكن من « السلام » انتقلنا الى « فصل القوات » ومن « فصل القوات » الى «انهاء حالة الحرب» ، وبما انه ليس هناك من هو على استعداد ... لمنحنا « انهاء حالة الحرب » ، من الممكن أن نبدأ بسرعة الحديث عن « هدنة طويلة » ... ان الحديث اذن ليس عن «تضم» او «انزلاق» طرأ على الموقف الاسرائيلي ، وانما على انهياره. والعرب يعرفون ذلك ... ولهذا من الواضح اذن ان العرب معنيون بعقد مؤتمر جنيف – وبأقرب فرصة ممكنة – لكي يحاولوا الحصول هناك على كل ما تستطيع اسرائيل منحه ، مقابل اقل من الحد الادنى الذي تطالب به بكثير » (المصدر نفسه) .

مجابهة التحرك الفلسطيني

أما العامل الثاني الكامن وراء التصريحات الاسرائيلية « المتساهلة » هذه فيهدف الى مجابهة التحرك الفلسطيني ومحاولة احتوائه بواسطة الاعلان عن تقديم التنازلات للدول العربية لاضعاف تأييدها للفلسطينيين ومحاولة دق اسفين بينهم . « فقوة الفلسطينيين العسكرية محدودة حتما ولا تمكنهم من مجابهة الاردن ، ولا اسرائيل بالطبع . ولكنهم ، على الصعيد السياسي ، يسيرون من انتصار الى انتصار . ان بيان التنسيق الثلاثي (مصر – سوريا – م.ت.ف.) الذي صدر في القاهرة جعل من منظمة التحرير الفلسطينية الابن العزيز على العالم العربي . كما أن المركز الرسمي الذي منح لـ – م.ت.ف. في اليونسكو ومنظمة الطيران الدولية والامم المتحدة وكل مؤسسات المجموعة الدولية يوسع التعاطف ويعمق الولاء للمؤسسة الفلسطينية بين السكان في المناطق التي تحكمها اسرائيل وربما في الاردن ايضا » (دانيئيل روبنشتاين – دافار ، ١٩٧٤/١٠/٩) . وفي الوقت نفسه يضيف معلق اخر (يهوشاع تدمور – دافار ، ١٩٧٤/١٠/٧) « اننا بالمعارضة والسلبية فقط،دون سياسة بديلة حقيقية لن نحل اية(مشكلة). كذلك لن يكفي هذا لصد ضغط م.ت.ف. المتزايد ، التي حصلت على الشرعية من قبل اكثرية ساحقة من الاعضاء في الامم المتحدة . وعندما ستصل الامور الى التصويت في الجمعية العمومية سيتضح لنا انه بالرغم من ان م.ت.ف. لن تحظى باعتراف كممثلة وحيدة للفلسطينيين ، فان معظم دول العالم ستؤيدها شرط الا يذهب مشروع الاقتراح بعيدا . وهكذا ستخلق اذن حقيقة سياسية جديدة : اعتراف دولي بـ – م.ت.ف. » ويضيف تدمور : « في مثل هذه الظروف – ومن لا يعترف بها يعيش في حلم – تحاول حكومة رابين ... بلورة سياسة حقيقية . وهناك دلائل واضحة للحركة والمرونة والتغيير » لانه اذ اتضح ، كما تأمل اسرائيل ، ان مصر قادرة على التحرك نحو التسوية السلمية لوحدها دون ارتباط بسوريا وم.ت.ف. « فسيكون هذا اختراقا عظيما » (المصدر نفسه) . والواضح ان هذا « الاختراق العظيم » هو أحد الاهداف التي تسعى اليها اسرائيل من وراء موقفها الاخير ، ذلك « ان حجر العثرة الرئيسي » – كما يشير شموئيل سيجف ، مراسل معاريف (١٩٧٤/١٠/٧) في واشنطن – « على الطريق لتجديد محادثات السلام كان ، ولا يزال ، الفلسطينيين . وعلى الرغم من

أن كل الاطراف يؤجلون اتخاذ خطواتهم الى ما بعد التصويت في الامم المتحدة ... وبعد مؤتمر القمة العربي في الرباط ، فمن الواضح الان ان تغييرا كبيرا طرأ على موقف مصر بشأن اشراك م.ت.ف. في مؤتمر السلام في جنيف » . ويضيف سيجف « ان السادات يطالب حاليا باصرار بدعوة الفلسطينيين ، ولكي يزيل شكوك الاميركيين تجاه م.ت.ف. يحاول « بيع » الفكرة (القائلة) بأن الفلسطينيين موالون للاميركيين بنفس مدى موالاتهم للروس » . بينما يعلن زميله اوري دان (المصدر نفسه) « ان مشكلة كيسنجر في سلسلة زياراته الحالية هي ايجاد صيغة لاشراك ممثلين فلسطينيين في الوفد الاردني ، وصيغة تلزم حكومة اسرائيل بالبحث في جنيف عن تسوية جزئية في غور الاردن ، ولو تم ذلك بالنسبة لمدينة اريحا فقط » .

« حمائم » اسرائيل يتحركون

اضافة الى العوامل الخارجية الكامنة وراء المواقف الاسرائيلية الاخيرة ، التي أشرنا لها ، هناك ايضا عوامل داخلية تدفع في الاتجاه نفسه. وتشير الانباء الى أن معسكر « الحمائم » في اسرائيل ، بزعامة « الرجل القوي » في الجهاز الحزبي المبائي ، بنحاس سابير ، الذي يشغل حاليا أيضا منصبي رئيس الوكالة اليهودية ورئيس الادارة الصهيونية ، يتحرك للضغط على حكومة اسرائيل وحملها على تغيير مواقفها . ويتحدث يوسف حاريف ، المقرب من الدوائر الحاكمة في اسرائيل ، عن نشاط « الحمائم » هناك (معاريف ، ١٩٧٤/١٠/٤) قائلا « ان ... بنحاس سابير قد اجتمع الى يتسحاق رابين ... يوم ٢٢ ايلول واسمعه آرائه السياسية حول الشؤون الخارجية وشؤون الحزب . هذه المرة دعا سابير نفسه لزيارة رابين من اجل الهدف الواضح. ومن السهل ان نقدر النتيجة المترتبة على اراء سابير الشخصية في الشؤون السياسية . انه ذلك الخط الحمائمي الذي اتبعه في الماضي ايضا — التنازل كثيرا (لمنع الخطر السكاني) — وبتأكيد متزايد (هذه المرة)تستلزمه، بحسب رأي سابير، دروس حرب يوم الغفران . ان سابير ليس مستعدا ، بحسب رأيه ، لحرب جديدة — « هل أنا بحاجة الى الاف الضحايا الاخرى !؟ » .

ويستطرد حاريف : « ان المقربين لاحظوا ان «صبر سابير يكاد يصل الى نهايته » ... ، وهو لا يعتقد ان الحكومة « تستطيع الاستمرار في اللعب » بهذا الشأن لوقت طويل . ومن المعقول ان نفترض ان سابير طرح شيئا من هذه الاراء على مسامع رئيس الحكومة . اننا لا نقول ان كل تصريحات رئيس الحكومة الاخيرة ، منذ ٢٢ ايلول ... هي ثمرة « املاء » سابير ... ولكن لن نكون مبالغين ، كما يبدو ، اذا افترضنا ان بعض صيغ يتسحاق رابين الاخيرة جاءت لتهدئة اولئك الذين يفكرون مثل سابير ... (وان مثل هذا الخط) يحظى دون شك برضى معسكر الحمائم الذي يتمتع اليوم بأكثرية في الحكومة » (المصدر نفسه) .

أما مراسل يديعوت احرونوت (١٩٧٤/١٠/٧)، اريبه تسيموكي ، فقد تطرق الى هذا الموضوع من ناحية اخرى قائلا « ان رئيس الحكومة اعلن ، حقا ، انه « رسم » خرائط لنفسه وانه على استعداد لعرضها على أي زعيم عربي يريد التفاوض معه في محادثات سلام ، ولكن الحكومة لم تجر بحثا وهي تجلس الى طاولة نشرت عليها الخرائط . ان الرأي المسيطر في الحكومة يلزم ابداء استعداد من قبل اسرائيل لتسويات اقليمية، في اطار اتفاقيات سلام مع الدول المجاورة . ان الرأي هو انه من المفضل السعي الى اتفاق سلام شامل ، ولكنهم يتقبلون عمليا بالخط الاميركي القائل بأنه ، نظرا لعدم وجود امكانية للتغلب على الفجوة الكبيرة في مواقف الاطراف من اتفاق السلام ، من المفضل الدخول في مفاوضات للوصول الى اتفاقيات جزئية . ان الرأي السائد في الحكومة هو انه لا ينبغي الاكتفاء بالتصريحات « الجوفاء » بشأن استعداد اسرائيل للمفاوضات دون شروط مسبقة ، لان مثل هذا الاعلان لا ينم عن شيء . ان تصريحات رئيس الحكومة ووزيري الخارجية والاعلام ، بشأن استعداد اسرائيل لتسويات جزئية على اساس تنازلات ، تتناسب مع جوهر ما قاله معظم اعضاء الحكومة » . ويختتم تسيموكي مقالته بقوله : « من الواضح اذن أن الصراع سيدور من الان لا على سياسة الحكومة تجاه المرحلة الثانية من المفاوضات فقط ، وانما على مصير هذه الحكومة ايضا » .

ان ضعف الحكومة الاسرائيلية ، على الصعيد الداخلي ، وخوفها من أن يؤدي اي تنازل للعرب

بالانسحاب من المناطق المحتلة ، وخاصة من الضفة الغربية ، الى اجراء انتخابات جديدة تطيح بها كان من بين الاسباب الرئيسية ، بحسب رأي العديدين من المعلقين الاسرائيليين ، الذي دفع حكومة رابين الى التشبث بالمواقف الاسرائيلية التقليدية المتصلبة، حرصا على مستقبلها . ولكن يبدو ان ثقة رابين بحكومته قد ازدادت في الاونة الاخيرة ، بعد أن استطاع استمالة غولدا مئير الى جانبه ، بينما يظهر له ، من ناحية ثانية ، انه « كلما تمر الايام يزول الخوف من موشي ديان ، المنهمك بكتابة مذكراته ، دون ان يكون واضحا بماذا يستطيع ان يفاجىء (الحكومة) » (يوسف حاريف — معاريف، ١٠/٤/ ١٩٧٤) . كذلك فان ضم الحزب الديني القومي (المفدال) الى الحكومة ، الذي يبدو انه شبه مؤكد ، وهو ما وعد سابير رابين بتحقيقه لتقوية مركز الحكومة في مواجهة أية معارضة من الداخل ، يزيد من ثقة الحكومة بنفسها وبمنحها حرية المناورة في أية مفاوضات سياسة قد تتم في المستقبل . فسابير يعتقد « انه ينبغي على الحكومة ان تتوجه الى تسويات اقليمية جدية » . وحول سابير يلتف اليوم اولئك الذين « من بين ذوي التأثير في زعامة مباي سابقا ، الذين يريدون ارجاع «مباي التاريخي» الى مجده السابق ، واحد خصائصهم الواضحة هو ذلك الخط الحمائمي الصريح ، الذي يريدون استنادا اليه خوض انتخابات جديدة » (المصدر نفسه) .

الموقف الاسرائيلي من التسوية

لوحظ ان النقاش داخل اسرائيل حول ماهية المرحلة المقبلة من التسوية كان هذه المرة خافتا للغاية ، وذلك — كما يبدو — نتيجة لاعلان عدد من المسؤولين الاسرائيليين ان جولة كيسنجر الحالية ليست الا خطوة لاستطلاع آراء الاطراف المعنية ، تمهيدا لمرحلة مقبلة . وقد تركزت معظم ردود الفعل والتعليقات ، عدا عن الهجوم التقليدي الذي تشنه ، عادة ، المعارضة على الحكومة في مثل هذه الاحوال ، على الدعوة الى اتباع «سياسة عملية» وعدم التشبث بمواقف مسبقة ، تجنبا لنشوب حرب جديدة ، « والسبب الاساسي لذلك هو أن حربا جديدة ، حتى اذا انتهت مثل حرب ١٩٦٧ ، لن تساهم في حل الخلاف ... وستحسن اسرائيل صنعا اذا اقترحت مفاوضات مع كل جيرانها ، لقاء المطالبة (بتنازلات) معقولة من كل واحدة منهن . وان كان انهاء حالة الحرب ينبغي ان يكون صيغة الافتتاح ، او ان هذا يجب ان يكون النتيجة النهائية لمجرى المفاوضات ، فان هذه مسألة هامة ولكنها ليست حاسمة . ان ما يقرر هو طابع الاتفاق الذي يراد التوصل اليه : يجب ان يكون ويظهر كتسوية يضحي بها كل طرف بجزء من الممتلكات التي في حوزته والتي يرغب بها الطرف المضاد ضمن صفقة التبادل. وعلى اسرائيل الا تكتفي بأقل من ذلك » (ابراهام شفايتسر — هآرتس ، ٧٤/١٠/١١) .

غير أنه على الرغم من الوضع الذي وصفناه ، كان هناك من تطرق الى بعض التفاصيل . ففي دافار (١٩٧٤/١٠/٤) طالب احد معلقي الصحيفة، حغاي ايشد ، اسرائيل بعدم التنازل عن ابار النفط في ابو رديس ، داعيا اياها الى التفاوض على اتفاق نفط اسرائيلي — مصري ، يؤمن لاسرائيل تزويدا منتظما من نفط ابو رديس ،مرفقا بترتيب مالي ملائم بين اسرائيل ومصر . ويجب أن يبقى هذا الاتفاق ساري المفعول خلال كل الفترة التي تستمر بها حرب النفط العالمية » ، وهو ما يتطلب « ايجاد ترتيبات سياسية وعسكرية ومالية ، تؤمن مصالح اسرائيل الحيوية والسيادة المصرية » . بينما أشار ماتي غولان ، مراسل هآرتس (١٠/٧/ ١٩٧٤) للشؤون السياسية ان اسرائيل لن تقترح الانسحاب من ابو رديس في المرحلة المقبلة .

أما شموئيل سيجف (معاريف ، ١٩٧٤/١٠/٧) فقد تطرق الى مفهوم اسرائيل لانهاء حالة الحرب ، بقوله ان اسرائيل تتوقع من وراء طلبها هذا نزع السلاح في سيناء وفي كل منطقة اخرى ينسحب منها الجيش الاسرائيلي . « وكذلك تعهدا من جانب مصر بعدم تاييد النشاط الارهابي ضد اسرائيل . وفي المجال الاقتصادي تتوقع اسرائيل انهاء المقاطعة الاقتصادية رسميا ، التعهد بالسماح للبضائع الاسرائيلية بالمرور في قناة السويس ، التعهد بعدم التعرض للمواصلات الجوية والبحرية في مضائق باب المندب ، واعلام كل المؤسسات الدولية رسميا انه لم تعد هناك حالة حرب اقتصادية بين اسرائيل وبين جيرانها العرب » .

صبري جريس

[٢]
نقاش أسرائيلي حول دروس حرب تشرين

مع مرور عام على حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، تجدد النقاش في اسرائيل حول نتائج تلك الحرب وتأثيرها على الاوضاع الاسرائيلية ، داخليا وخارجيا ، وكذلك ابعادها المحلية والدولية ، ثم الدروس المستخلصة منها بالنسبة للمستقبل .

والنقاش الاسرائيلي حول حرب تشرين ، الذي بدأ مباشرة بعد موافقة الاطراف المتحاربة على ايقاف اطلاق النار ، لم يتوقف ، عمليا ، منذ ذلك التاريخ ، وان كان قد مر في « مراحل » مختلفة. فخلال الاشهر الاولى التي تلت الحرب مباشرة ، كانت ردود الفعل الاسرائيلية عبارة عن انتقادات لاذعة موجهة الى النظام الاسرائيلي بأكمله، حكومة وجيشا واحزابا ومؤسسات وقيما ، بل ان هذه الانتقادات لم تترك ناحية من نواحي الحياة ، العامة او الخاصة ، في اسرائيل الا وتعرضت لها، فيما ظهر وكأنه كفر بالمسلمات واعادة نظر شبه شاملة في المواقف السابقة ، وذلك نتيجة لما أسماه بعض الاسرائيليين « الطوفان » او « الزلزال » الذي حل بهم خلال الحرب . غير انه مع مرور الوقت ، ومع عودة الهدوء الى المنطقة بعد توقف القتال اثر توقيع اتفاقيات فصل القوات، على الجبهتين المصرية والسورية ، ثم التركيز على النشاط السياسي ، راحت تلك اللهجة تتغير وحلت بدلا منها نغمة اخرى ، اكثر « اتزانا » و«هدوءا»، تتجه الى تقييم النتائج والاوضاع من خلال وجهة نظر اكثر « عمقا » و« شمولا » ، بينما ازداد ، في الوقت نفسه ، الاهتمام بالدروس المستخلصة من الحرب وتأثيرها على استراتيجية اسرائيل ومواقفها في المستقبل . وسنقدم فيما يلي عرضا للاراء التي طرحت خلال هذه المرحلة الثانية، «مرحلة الهدوء»، وخاصة تلك المتعلقة منها بالدروس « النهائية » التي تم استخلاصها، وبابعادها المستقبلية وتأثيرها على الصراع العربي — الاسرائيلي .

« المرآة غير معوجة ... ونحن لسنا جميلين »

يكاد لا يختلف اسرائيليان فيما بينهما ، كما يتضح من مجمل المناقشات التي دارت حول حرب تشرين منذ انتهائها وحتى اليوم ، ان تلك الحرب قد أثرت بصورة واضحة ، على الاوضاع الاسرائيلية الداخلية والخارجية ، وبشكل فاق تأثير اي حادث اخر في اسرائيل منذ انشائها . غير أن الاختلاف في وجهات النظر يظهر في ردود الفعل ، التي تنقسم — عامة — الى تيارين ، يبدو أن الاول منهما قد اتعظ بنتائج الحرب وراح يدعو الى اتباع سياسة اسرائيلية اكثر واقعية تجنبا لوقوع حرب اخرى ، في حين يركز التيار الاخر اهتمامه على الدعوة الى صقل القوة الاسرائيلية وتلافي الاخطاء التي وقعت في الحرب السابقة ، استعدادا للحرب القادمة التي ينبغي ان يدفع العرب خلالها ثمن ما الحقوه باسرائيل من خسائر، مادية ومعنوية ، خلال الحرب الاخيرة .

ان الدروس التي استخلصها الاسرائيليون من الحرب عديدة ، اولها ذلك الذي فتح اعينهم على واقع جديد ، كادوا ينسونه عقب انتصار ١٩٦٧ . « فحتى يوم الغفران ، او على الاصح حتى الساعة الثانية من ظهر ذلك اليوم...اعتاد (الاسرائيليون) على النظر من فترة لاخرى في المرآة لكي يشبعوا نرجسيتهم القومية . والصورة التي انعكست هناك كانت جميلة ، ذات شرايين وملامح ذكية . لقد نظر الاسرائيليون في المرآة ثم حدثوا انفسهم بأن وضعهم لم يكن مرة احسن مما هو عليه ... ولكن منذ الحرب بدا غير واضح لهم ما اذا كانت المرآة معوجة — او أنهم لم يكونوا جميلين ومحقين وحكماء واقوياء الى الحد الذي تصوروه . ان عدم التأكد هذا يمزقهم الان اكثر من أي مسألة اخرى ... بعضهم يلقي بالمسؤولية على المرآة ، وهو متأكد من صحة تشخيصه ، لدرجة انه يحاول احيانا الهجوم عليها لتحطيمها ... ولكن عدد اولئك الذين راحوا يصلون الى النتيجة ، صعبة القبول ، بأن المرآة بحالة جيدة ، آخذ في الازدياد — وهي النتيجة التي تترك في أنفسهم الحساسة ندبا صعبة ... ويظهر لهم المستقبل ، في ضوء هذا الاكتشاف، شاحبا ومحفوفا بالمخاطر » (اهرون بيخار — ملحق يديعوت احرونوت ، ١٩٧٤/٩/٢٠) . اما الاسباب الكامنة وراء هذا الشعور فانها عديدة ، منها — كما يشير احد الاطباء النفسانيين الاسرائيليين ، البروفسور رفائيل موزس (معاريف، ١٩٧٤/٩/١٣) — اكتشاف الجندي الاسرائيلي بأنه

عرضة للاصابة ، بعد أن كان في السابق يذهب للحرب « مقتنعا بأن شيئا لن يحدث له » ، ثم « الشعور بالحداد على تلك المساحات من الاراضي التي اخذت او ستأخذ منا » ، وكذلك « تجاهلنا عمليا لعدة حقائق اساسية ، وللخطر الذي يحيط بنا ... ولكن حدث شيء ما اجبرنا على النظر الى الامور على حقيقتها والتوقف عن تجاهلها ... » وقد أدى هذا كله حدوث تغيير في العقيدة ، بحيث « اصبحت الصهيونية كلمة شائنة . ومع الحرب نتحنا اعيننا مرة واحدة ، وكان هناك من سأل نفسه ما حاجتي لكل هذا ، لماذا يجب ان اقتل ؟ اريد ان اهاجر » . ولكن مورس يضيف في نهاية حديثه : « اعتقد على العموم اننا بدأنا نستعيد توازننا » . اما زميل مورس ، البروفسور نواح ميلغرام ، فيشير الى أسباب اخرى : « كان من المسلم به بالنسبة لنا اننا اقوى قوة عسكرية في المنطقة ، وان قوتنا الرادعة ستمنع العرب من شن الحرب ، وانهم اذا ما تجرأوا على ذلك — سنكسر عظامهم . كان واضحا بالنسبة لنا أننا نتمتع بالتفوق في كل المجالات ، واعتقدنا بأن العرب لن يتحدوا ابدا ، ولكنهم في مسألة النفط بالذات توحدوا واصبح ذلك عاملا حاسما . كذلك فان رجال الاستخبارات ، الذين كانوا ملزمين بتقييم نوايا العرب ، قد خدعوا لانهم عاشوا في تلك المسلمات . وكان من بين ما اتضح لنا ، ان حقيقة تعرضنا للهجوم لا تكسبنا حقا اخلاقيا » (المصدر نفسه) . كذلك يضيف ميلغرام عوامل اخرى تقف وراء ذلك الشعور ، اذ « اتضح ان الحياة الطبيعية في اسرائيل هي حياة تجنيد دائم وخوف مستمر من الحرب » ، خاصة « بعد أن سببت لنا الحرب صدمة ، لم ننجح حتى الان في التغلب عليها » . والاهم من هذا كله « انه اتضح للعديدين بعد الحرب ان الجيش الاسرائيلي ليس اكثر كفاءة من شركة « ايجد » (شركة احتكارية للمواصلات) ، فاولئك هم الاشخاص أنفسهم ، ولا يمكن الفصل والتمييز بين كفاءاتهم عندما يلبسون الملابس المدنية او العسكرية ... »

« تيار تاريخي — سياسي في الاتجاه المعاكس »

مع ازدياد عدد المشتركين في النقاش حول حرب تشرين ونتائجها ، وتنوع خلفياتهم ، تتنوع ايضا الاراء التي يدلون بها لجهة تأثير تلك الحرب على الاسرائيليين . فالكاتب بوعز عفرون ، احد محرري صحيفة يديعوت احرونوت (١٩٧٤/٩/١٦) يرى ان هناك شعورا « بالكآبة والحزن » في اسرائيل ، ناجما عن حقيقتين « احداهما وهمية : لقد اعتاد هذا الشعب ، منذ ١٩٦٧ ، على الشعور بأننا نعمل في فراغ من القوة ، واننا نستطيع ... ان نفعل ما نشاء . حتى انه كان هناك حديث عن كوننا الدولة الكبرى الثالثة في العالم » . اما الحقيقة الثانية ، الموضوعية ، فهي « انه اتضح لنا في تشرين ١٩٧٣ اننا لا نعيش في فراغ من القوة ، وان هناك مقاومة ، عسكرية ايضا ، تحظى بتأييد الدول الكبرى ... وتيارا تاريخيا — سياسيا في الاتجاه المعاكس . ان هذين الاكتشافين هما سبب الشعور بالكآبة ... وهذا ، بحسب رأيي ، مصدر الصدمة » . اما البروفسور ميخائيل فيلدمان ، الاستاذ في معهد وايزمان ، فيرى ان هناك أزمة لا تزال تتفاعل في اسرائيل ، سببها ان الاسرائيليين عاشوا في شعور « من الثقة بالنفس مبالغ به ، استند على الاعتقاد بأن الفجوة بيننا وبين العرب كبيرة وانها ستصبح اكبر . ولكن اتضح للكثيرين ان الفجوة بيننا وبين العرب ليست كبيرة ، بل انها صغيرة . عشنا مع شعور ان بقاء الوضع الراهن ، ان احببناه ، متعلق بنا ، ولكن اتضح لنا فجاة ، ان بقاء الوضع الراهن غير متعلق بنا . اعتقدنا ... ان الوضع الراهن هذا يؤدي الى الاستقرار ، واتضح لنا عكس ذلك . لهذا فاننا نقف اليوم امام خيارات سياسية جديدة كل واحدة منها حبلى بالمخاطر ... » كذلك يضيف فيلدمان سببا اخر للازمة التي تعاني منها اسرائيل الان ، بحسب رأيه ، وهو ان الجيل الحالي ، على عكس جيل الاباء — المؤسسين من قدامى الصهيونيين ، لا يعرف ماذا يريد ومن الصعب عليه اتخاذ القرارات بشأن تصرفاته ، ثم أن اسرائيل ليست الا دولة جديدة ، معظم سكانها من المهاجرين ، وتنقصها التقاليد العريقة التي تستطيع ان تساعدها في التغلب على مثل هذه الازمات (من ندوة في معاريف ، ١٩٧٤/٩/١٦) . غير أن الاهم من ذلك كله هو « الشعور السائد بأن كل حل سياسي يحمل في طياته امكانية كبيرة جدا بأن يؤدي بنا الى حرب او حروب اخرى ، الا اذا تغير الواقع السياسي حولنا ... ولكن لا وصفة عادية لدي يمكن بواسطتها

تغيير هذا الواقع بمبادرة منا » (معاريف ، ٢٥/٩/١٩٧٤) . اما زميل فيلدمان ، البروفسور اليعيزر شفايد ، استاذ الفلسفة اليهودية في الجامعة العبرية بالقدس ، فيرى « اننا نجابه اليوم شعورا واضحا جدا لدى الجمهور بانه يقف امام مشاكل اقتصادية واجتماعية وسياسية وعسكرية ، وهو غير مستعد لمواجهتها على الاطلاق. اننا ، ببساطة، لا نعرف ماذا ينبغي عليه ان يفعل وكيف يجب ان يستعد . بل على العكس ، ان الشعور هو ان الجمهور مستعد للعيش في وضع يختلف كليا عن الوضع الذي يمر فيه حاليا ... ان الشعور بالخطر اكبر اليوم لان الجمهور غير مستعد لمجابهة هذه المشكلة » (معاريف ، ١٦/٩/٧٤) . وفي الوقت نفسه يعلن زميل ثالث لفيلدمان وشفايد ، البروفسور زئيف ليف ، استاذ العلوم الطبيعية في الجامعة العبرية ، بانه يعيش مع بعض زملائي من رجال العلم ، مع شعور باننا نقف امام حالة طوارىء كتلك التي كانت قائمة في دنكيرك .ونعتقد، دون الدخول الى التفاصيل ، اننا لسنا محاطين بالاعداء فقط ، مثل السنوات الماضية ، وانما يوجد هنا ايضا ازمتان اخريان اضافة الى ازمة الثقة الداخلية . الاولى ناجمة عن وجود قوة اقتصادية كبيرة تحيط ، حاليا ، باسرائيل وعلى استعداد لخنقها . والثانية تكمن في خطر (حدوث) ازمة مالية عالمية ... » ويضيف ليف : « اعتقد ان شيئا ما حدث بعد حرب يوم الغفران ، ليس بسبب التقصير ، وانما نتيجة للقوة التي يتمتع بها عالم المال العربي حاليا . ارى ان هذه هي المشكلة الكبرى . باستطاعة العرب شراء كل شيء . وتكمن هنا مشكلة دولية صعبة بالنسبة لدولة اسرائيل وللشعب اليهودي باكمله ... ولكن لا الحكومة ولا الجمهور ولا المجتمع مستعدون لمواجهة هذه المخاطر » .

انهيار عامل الردع الاسرائيلي ، وافلاس مفهوم الحدود الامنة .

اضافة الى الاراء التي اشرنا لها ، التي تتحدث بمعظمها عن الازمة داخل اسرائيل ، هناك ايضا اتجاه اخر يركز على الانجازات التي حققها العرب خلال حرب تشرين او بسببها ومساهمتها في ضعضعة اوضاع اسرائيل واستراتيجيتها .فالدكتور امنون كابليوك ، مراسل صحيفة عل همشمار (٢٥/٩/٧٤) للشؤون العربية يرى ، مثلا ، ان العوامل الثلاثة « العسكري والسياسي والاقتصادي قد عملت بشكل فعال ومنسق في حرب تشرين » ضد مصلحة اسرائيل . « فالعامل العسكري معروف ولا حاجة للحديث عنه كثيرا . هذه المرة كانت هناك استعدادات دقيقة وتنسيق عربي . اما بالنسبة للعامل السياسي ، فان المصريين قد ربحوا الحرب لدى الرأي العام باكثريته بعد اطلاق الرصاصة الاولى . فقد عرضوا الحرب وكأنها معركة لتحرير اراضيهم المحتلة وكثيرون قبلوا هذا الادعاء ... كذلك فان « سلاح النفط » كان فعالا ، لان استعماله تم بصورة حذرة ووجه للمس بنواح معينة ومحدودة ولانه كان ، الى حد ما ، ذا قيمة دعائية هائلة » . اما العميد (احتياط) يشعياهو غافيش ، احد الضباط القدامى الذين دعوا الى الاشتراك في حرب تشرين بعد ان اشتدت معاركها ، فيعلن انه « علي ان اعترف بان العرب حققوا جزءا كبيرا (من اهدافهم) . لقد اثبتوا ان باستطاعتهم التغلب على عنصر الخوف وشن الحرب ثم القتال . اثبتوا انهم قادرون على عبور القناة والدخول الى هضبة الجولان ، وقيادة قوة كبيرة جدا مع تنسيق عسكري على الجبهات ، بمستوى تخطيط استراتيجي معقول ومن خلال تنسيق سياسي عجيب . كذلك نجحوا باسترجاع جزء من المناطق بواسطة احتلالها ... ولاسفنا الشديد ، استولوا على القناة بقوة السلاح ... ان التحرك العسكري لم يكن الا مرحلة اولى ، والمراحل التالية ستتبعه ... اعتقدنا انه باستطاعتنا ان نردع الطرف الاخر من شن الحرب ... ولكننا لم نردعهم » (من ندوة في يديعوت احرونوت ، ١٦/٩/٧٤) . كذلك يتفق العميد (احتياط) مئير عميت ، رئيس « الموساد » ، المؤسسة المركزية للخابرات والمهمات الخاصة سابقا (١٩٦٣ — ١٩٦٨) ومدير شركة كور الهستدروتية حاليا ، مع زميله غافيش في رأيه ، ولكنه يحذر في الوقت نفسه من قوة العرب الاقتصادية وامكانات استعمالها في المستقبل بشكل اكثر فعالية ضد اسرائيل . غير ان عميت يذهب ابعد من زملائه الاخرين ، اذ يعرب عن اعتقاده بان العرب احسنوا صنعا ، بالنسبة لاسرائيل ، بعدم تأجيل حربهم ضدها بضعة سنوات اخرى ، « لان لو تم

مثل هذا الامر بعد بضعة سنين لكان تجميعهم لقواهم اكبر بكثير مما هو عليه الان ، ولكان سباتنا اكثر عمقا . كنت منذ مدة متيقظا للحقيقة ، التي رآهــا الان اناس كثيرون ، باننا كنا خلال ست سنــوات (منذ نهاية حرب الايام الستة وحتى حرب يــوم الغفران) غارقين في احلام وردية » (من مقابلــة مع حوتام ، ٧٤/٩/٢٠) .

وليست هذه هي الانجازات الوحيدة التي حققها العرب خلال حرب تشرين ، فالبروفسور شمعــون شامير ، مدير معهد شيلواح للدراسات الشرقية في جامعة تل ابيب يرى (مقابلة مع يديعوت احرونوت، ٧٤/٩/١٦) ان العرب حققوا خمســة انجازات رئيسية بسبب الحرب ، اولها انهم استطاعــوا احداث تغيير ، غير مريح لاسرائيل ، في سياســة الولايات المتحدة ، وثانيها انهم جعلوا الخيــار العسكري حقيقة واقعة ، وهو ما يلزم اسرائيــل ببذل مجهود اكبر في استغلال طاقاتها ، وثالثها انهم استطاعوا الوصول الى مستوى عال من التعاون العربي ، على الصعيدين العسكري والاقتصادي ، وان كانوا قد لجأوا خلال الحرب الماضية الــى استعمال سلاح النفط ، فقد يلجأون في المستقبــل الى استعمال سلاح المال ، ورابعهــا ان مصر استعادت لنفسها حرية الحركة بين الدول الكبرى، التي فقدتها قبل نحو عشر سنوات ، وخامسها ان العرب تحرروا من صدمة الهزيمــة سنة ١٩٦٧ واصبحوا اكثر « فعالية » . وفي سياق حديثــه يتطرق شامير الى المفهوم الاسرائيلي للحدود الامنة، الذي كان سائدا حتى الحرب ، فيشير الــى ان « الحدود الامنة مفهوم جدي للغاية ، خــاصــة بالنسبة لدولة مثل اسرائيل . ولكن كان هناك مفهوم مبسط للحدود الامنة يقول ... ان حدود وقــف اطلاق النار آمنة لحد لا حاجة معه للتعب كثيــرا لكي نؤمن مستقبلنا . ان هذا المفهوم قد افلس . ان حدودا آمنة مجردة ، لا تأخذ بالحسبان الطرف الثاني والتفاعلات التي تثيرها لديه ، يمكــن ان تصبح حدود حرب دائمة ، وهو ما حدث بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، ولم ينته حتى اليوم » (المصدر نفسه). اما هرون بيخــار (ملحق يديعــوت احرونوت ، ٧٤/٩/٢٠) فيشير الى فقدان ثقة الاسرائيليين بقوة جيشهم الــرادعة بقوله : « ان (نظرية) رعاية الطاقة العسكرية باعتبارها عنصرا رادعا يستطيع منع الحرب ، تبدو الان كالساق المكسورة . لا يزال الاسرائيليون يؤمنون بقدرتهم على التغلب علــى العرب في اي صراع اخر معهم — ولكن ثقتهم بقدرة جيشهم على منع صراع كهذا قد تضعضعت . لقــد سقطت ضربة يوم الغفران على رؤوسهم بالــذات في اللحظة التي بدا لها فيها وكان العرب قد تنازلوا مسبقا عن كل محاولة لتغيير الوضع الراهــن ، الطيب ، بحيث آمن اسرائيليون عديدون ... بــأن سنوات هدوء طويلة في انتظارهم » . ويضيــف بيخار : « على خلفية نتائج هذه الحرب ، تسيــر الحياة في البلد في ظل شعور ثقيــل بان الحــرب القادمة على الابواب . لقد رافق فرحة الانتصــار بعد الايام الستة شعور واضح بان عهد حــروب اسرائيل قد انتهى ، وان ميزان القوى الجديد في المنطقة هو الضمان المثالي لسلام ابدي ودائم . ان هذا الاعتقاد الذي اضاف بعدا جديدا الى فرحــة النصر ، استبدل الان بشعور عدم — مقدرة محتم . يصعب على اسرائيل الان ان تهرب من الاستنتــاج وكأنه كتب عليها ان تعيش من حرب لأخرى — وحكم المصير هذا يضفي عليها طابعا حزينا » (المصدر نفسه) .

ان معظم اصحاب الاراء التي قدمناها يكتفــون عادة بالحديث عن الداء دون الاشارة الى الدواء ، ويصفون المشاكل التي تعاني منها اسرائيل دون تقديم الحلول لها . غير ان واحدا منهم على الاقل، هو « المنظر » الصهيوني يهودا غوتهيلف ، قــد شذ عن هذه القاعدة . وتحت عنوان « لا بديل عن السلام » كتب غوتهيلف في دافار (٧٤/٧/١) : « اننا لا نستطيع تغيير الزمان والمكان ، اللذيــن انشئت وتبنى فيهما دولة اسرائيل ، وعلينااستخراج الحلو من المر ... ينبغي الا نكتفي بسياسة الوضع الراهن والسكوت على الانزلاق نحو الحرب ، او الحروب القادمة ، التي قد تستعمل فيها اسلحــة فتاكة للغاية — الا اذا تبنينا كهدف نهائي الفكــرة الحلوة (القائلة) : « علي وعلي الفلسطينييــن والشعوب العربية الاخرى » . ويضيف غوتهيلف : « علينا ان نميز بين تنازلات اجبارية وبين تنازلات اخرى ينبغي تقديمها لمصلحتنا ومن طيبة خاطر ... تنازلات توفر علينا ضم مليون عربي اخر وتنقذ طابع الدولة اليهودية — الصهيوني ... ان ازدهــار امة ما ثقافيا واقتصاديــا لا يتوقف علــى عدد

الكيلومترات المربعة التي تسيطر عليها ، وانما بمستوى ثقافتها وعصمتها الاخلاقية وقدرتها على الانتاج » . ويختتم غوتهيلف مقالته بقوله انه حتى لو اتجه العرب الى شن الحروب ضدنا ، فلا ينبغي « ان نجيب على الجنون بالجنون . علينا ابداء القوة والمقدرة في اية حرب تفرض علينا ، ولكن بين حرب واخرى علينا ان نتصرف بطريقة ذكية ، بالاشارة الى مخاطر الحرب وامكانات السلام — وعدم صب الزيت على نار هذا النزاع اللاعقلاني » (المصدر نفسه) .

« تحويل اسرائيل الى ... قلعة عسكرية »

اذا كانت معظم الاراء السابقة ذات طابع « حمائمي » ، او ان اصحابها اقتربوا من وجهة النظر « المعتدلة » ، فان هناك — كما اشرنا — تيارا اخر من الاراء ، تأثر حاملوه مثل سابقيهم بحرب تشرين وما نجم عنها ، ولكنهم وصلوا الى نتائج مغايرة لتلك التي وصل غيرهم اليها . واحد اولئك هو امنون روبنشتاين ، عميد كلية الحقوق في جامعة تل ابيب . وروبنشتاين ايضا لا يختلف عن سابقيه في تقييمه للمجتمع الاسرائيلي الذي ساده ، بحسب رأيه ، الوهن والعودة الى الروتين واللامبالاة والتذمر والشكاوى والاتهامات نتيجة للحرب (هآرتس ، ٧٤/٦/٢٨) . بل ان الاخطر من ذلك كله هو « تلك التصريحات الواضحة التي تثير الشك وتنمي التفكير بالكفر في حقنا في الوجود ،وبرسالتنا اليهودية والصهيونية» ، وهي تصريحات سببها « خطر النزاع المسلح الدائم بين شعب صغير وبين محيط من الكره (العربي) يحيط به » (هآرتس ، ٧٤/٧/٢) . ولهذا يرى روبنشتاين انه لا مناص لاسرائيل الا « الاستعداد للحرب ضد التحالف الروسي — العربي ، رغم مصادره التي لا تنضب من الاموال والاعتدة والقوى البشرية . ان مصادر تمويل الحرب ضد اسرائيل تمتد من آبار الكويت حتى ... مصارف زوريخ ، ومخازن اجهزة وتسليح الجيوش العربية موجودة في شرق اوروبا وغربها . والقوى البشرية التي تجابهنا تجند من المغرب حتى كوبا وشمال فيتنام » (هآرتس ، ٧٤/٧/٣) . ويضيف : « ان الجواب الوحيد للتهديد العسكري المتجدد ضد اسرائيل — هو تقويتها خلال السنين القادمة وتحويلها الى قلعة عسكرية » وذلك بالاضافة الى الحفاظ على علاقات حسنة مع دول العالم والخروج من العزلة السياسية التي اشتدت بعد حرب ١٩٦٧ ، » وتلك الجسور ، التي ستبقى مفتوحة ان اتبعت اسرائيل سياسة خارجية واقعية ومعتدلة ، ستجعل منا قلعة حقيقية . ان القلعة العسكرية لا تعني اسوارا محصنة وانما قوة ردع عسكرية . وينبغي ان تكون هذه القوة ذات ابعاد تزيد كثيرا عن مدى خلاف حدود محلي . على اسرائيل ان تختزن قوة ، تصل ابعادها ونوعيتها الى حد يصبح معه التغلب عليها مرهونا بزلزال شامل . وبكلمات اخرى : علينا ان نخلق وضعا يكون معه من المصلحة العالمية ومن مصلحة الدول الكبرى ، منع التغلب على اسرائيل . وهكذا فقط يمكن ان ينجم تناسق بيننا وبين الدول العربية . هكذا فقط يمكن ان نخلق ضمانا معينا بمنع امكانية سقوطنا ، وذلك الى جانب الضمانات القائمة عمليا ضد سقوط عربي . ان اسرائيل القلعة تعني بانه يتوجب تركيز قوة جبارة على كل قطعة ارض صغيرة ، تستطيع في الايام العاصفة وعند الامتحان ان توضح للعالم بأن اسرائيل لن تسقط ، دون ان تسبب هزات عنيفة ذات ابعاد دولية . علينا ان نخلق وضعا يكون معه من مصلحة كل الدول الكبرى ، وعلى رأسها الاتحاد السوفييتي ، منع مجرد المحاولة لقهر اسرائيل عنوة » (هآرتس ، ٧٤/٧/٤) .

قد يكون روبنشتاين متشائما اكثر من غيره ، وربما كانت الحرب قد أثرت فيه اكثر من تأثيرها في غيره . غير ان هذه ليست حال باقي مؤيديه في الرأي . فاليعيزر ليفنه ، رجل حركة ارض — اسرائيل الكاملة ، التي تضم غلاة التوسعيين والمتطرفين الاسرائيليين يرى (هآرتس ، ٧/١٠/ ٧٤) ان اهداف الصهيونية الراهنة تنحصر في ست نقاط : الهجرة ، استيعاب الهجرة ، الطلائعية بمفهومها الانتاجي ، « الاستيطان في كل انحاء ارض — اسرائيل » ، اليقظة الامنية والتماثل مع التقاليد اليهودية ، وهي النقاط التي « تقوى المجتمع الاسرائيلي وتصقله » . وليفنه لا يترك مجالا كبيرا للشك في ان الحرب تساعد الصهيونية على تحقيق تلك الاهداف ، « لانه في اللحظة التي نتوقف فيها عن الشعور بالتوتر الامني نبدأ بالتفكك من الداخل والاهتزاز من الخارج . بل ان شعور التوتر هذا ساري المفعول بالنسبة للمهجر ايضا »،

وعليه فان الحرب ، بحسب رأيه ، لم تتعارض تماما مع المصالح والاهداف الاسرائيلية .

واذا كان ليفنه يتردد ، الى حد ما ، في الدعوة صراحة الى الحرب فان صديقه ، الكاتب المعروف موشي شامير ، صاحب الآراء « غير الحميدة » عن العرب يكاد «يحترق شوقا» اليها . « لاننا اذا فحصنا ميزان قوتنا ونشاطنا » — يقول شامير — « فليس هناك ما نخجل منه . يبدو أن الاندفاع الكبير ، الثوري ، الذي دخل حياتنا مع حرب الايام الستة قد اصيب باهتزاز ، ولكنه لم يخرج عن اطاره .. ولا تزال هناك حركة واندفاع نحو التقدم » (معاريف ، ٧٤/٩/٤) . ويستطرد شامير : « ان كل من يهتم بشؤون الامن حاليا له نظرة واحدة لكل نشاطاتنا السياسية : ربح الوقت لكي نكون اكثر استعدادا للحرب القادمة ، التي يبدو انها غير بعيدة » ، ذلك « اننا خرجنا من حرب يوم الغفران مع شعورين عميقين ، لن يمحيا من ذاكرة حاملي السلاح بيننا الاول ، ان الحرب على الحدود البعيدة ، الحرب على « المناطق » ، هي حرب على البيت ... والثاني شعور الغضب والعار والانتقام لكرامتنا المهانة ... » (المصدر نفسه) . اما زميل شامير ، الكاتب والشاعر ابا كوفنر ، فيرى — على عكس زملائه الاخرين — « اننا نسير نحو مصير يهودي افضل من ذاك الذي عرفناه ولو مرة واحدة في التاريخ اليهودي . وهناك مؤشران يمنحاني هذا الاعتقاد ويشهدان على ذلك. لنكن تحديات العصر ما كانت ، فهذه هي المرة الاولى التي نجابه بها تلك التحديات دون ان نتصرف وكأنه لا حول لنا ... والامر الثاني ، بناء على معلوماتي عن التاريخ اليهودي على الاقل ، فانني لا اذكر تضامنا يهوديا كذلك الذي اتضح حاليا ، رغم كل نواقصه » (معاريف ، ٧٤/٩/١٦) . ويضيف كوفنر في مناسبة اخرى : « لقد خلقنا شيئا ما ، وان هدم ، سيهدم معه العالم بأسره ... هذه مسالة لا تتعلق بالشرق الاوسط (فقط) ... هناك امبراطورية الشعب اليهودي » (معاريف ، ٧٤/٩/٢٥) .

يتضح ، من ناحية ثانية ، ان الحرب قد عززت ايضا رأي بعض تلك الفئات التي كانت تدعو سابقا الى عدم الانسحاب من المناطق المحتلة . فالعميد (احتياط) يشعياهو غافيش يناقش الادعاء القائل بوجوب التنازل عن المناطق مقابل السلام ، معلنا: « ان رأيي معاكس لذلك . لانه كلما عظمت القوة العربية ، يقترب الامتحان ... ولن تكون المجابهة عددية ، ولهذا نجد انفسنا في وضع يصبح معه عامل الارض احد العوامل الجدية في ميزان القوى. اذا تنازلت عن عامل الارض فستحصل ربما على سلام معين ، لمدة سنة او سنتين ، او ثلاث سنوات ونبقى في رفح ورام الله . ولكن بعد ذلك ، سيطرحون أمامنا مشروع التقسيم لسنة ١٩٤٧ . ولا اعرف الى اين سنصل ... اعتقد انه يتوجب علينا ان نحتفظ بكل المناطق (المحتلة) » (يديعوت احرونوت ، ٧٤/٩/١٦) . وهذا ايضا هو رأي زميل غافيش ، عضو الكنيست من قائمة التكتل (ليكود) اليميني ، العميد (احتياط) ابراهام يافيه ، رجل ما يسمى « حركة العمل من اجل ارض — اسرائيل الكبرى » (المصدر نفسه) . اما زميلهما ، العقيد (احتياط) الدكتور اهرون دليدي ، احد القادة العسكريين الذين افرزتهم العمليات الاسرائيلية الانتقامية ضد الدول العربية في مطلع الخمسينات ، فلا يرى اية علاقة « بين الناحية العسكرية من الحرب وبين الانجازات السياسية ... ان فشلنا السياسي يعود الى تعاظم قوة العرب ، ولانه اصبح من غير المفيد للدول الكبرى ان تؤيد اسرائيل ... ولخجلي الشديد ، فان جزءا من الشعب اليهودي الذي يقطن هنا قد انهار . ويجد هذا الانهيار تعبيرا عنه في طرق مختلفة ، (منها) الركض وراء سلام وهمي ... » (المصدر نفسه) . بينما يعلن ضابط سابق اخر ، وزير الاعلام اهرون ياريف ، « انني اومن بمستقبلنا شرط ان نكون على استعداد لصراع دائم ... انني ايضا على استعداد لتحمل مخاطر عدم الاستقرار في المستقبل . انني مستعد لتحمل مخاطرة حروب اخرى . انني مستعد للمخاطرة شخصيا ، ما دمت قادرا على ذلك ، على الاشتراك في تلك الحروب ، وان يشترك ابني ايضا في حروب كهذه » (معاريف ، ٧٤/٩/٢٥) . اما الطريق الوحيد المفتوح امام الاسرائيليين لمواجهة تحديات المستقبل، بحسب رأي ياريف ، فهي « استغلال كل طاقاتهم » (المصدر نفسه) . اما العقيد (احتياط) اوري بن — ارى فيحذر من النظر الى « الحرب القادمة استنادا الى « عبر » الحرب الماضية فقط ، وانما في ضوء الاهداف الاستراتيجية والعسكرية لدولة

اسرائيل ، وان ... نخلق ونطور مفاهيم عسكرية واساليب قتال تضرب العدو في الحرب القادمة في المكان والزمان — واساسا في الاسلوب » (يديعوت احرونوت ، ٤/١٠/٧٤) .

ان الاراء التي قدمناها لا تشمل ، بالطبع ، كل ما قيل ويقال عن حرب تشرين واثارها في اسرائيل ، ولا تعكس كذلك كل ردود الفعل الاسرائيلية . ولكن النتيجة الواضحة التي تعكسها هذه الاراء ، اذا ما قورنت مع تلك التي كان يطرحها اولئك الاشخاص انفسهم قبل الحرب ، هي ان « المعتدلين » في اسرائيل ازدادوا — بعد الحرب — اعتدالا ، والمتطرفين ازدادوا تطرفا .

ص. ج.

[٣]

حكومة رابين بين ديان وسابير

شهدت الحياة السياسية في اسرائيل خلال الاشهر الاربعة الاولى من تولي يتسحاق رابين رئاسة الحكومة تطورات جذرية واساسية على صعيد العلاقات بين كافة الاطراف ذات العلاقة بالعمل السياسي : من الرأي العام الى الكنيست الى الوزراء ورئيس الحكومة وحتى ما يمكن تسميته بـ « مراكز القوى » في اسرائيل .

ولعل هذه التطورات على صعيد العلاقات هي الامر الوحيد الذي يفسر التقلبات الملحوظة في مواقف رابين السياسية ، والتي لا ينكرها هو أصلا ، واطلاقه التصريحات التي تتناقض مع بعضها البعض ، خاصة لجهة موقف اسرائيل من التسوية مع الدول العربية .

« ... وفيما يتعلق بسوريا ، فانه ليس هناك مجال لمرحلة متوسطة بعد اتفاقية الفصل بين القوات وتنفيذها نصا وروحا » .

هكذا قفل يتسحاق رابين ، وفي بيانه الوزاري الذي نال عليه ثقة الكنيست يوم ١٩٧٤/٦/٣ ، باب المفاوضات مع سوريا ، حيث يعني تعبير « المرحلة المتوسطة » في قاموس السياسة الاسرائيلية ، خطوة جديدة على طريق التسوية ، تنسحب فيها اسرائيل جزئيا من الاراضي العربية المحتلة المعنية ، وتكون هذه المرحلة متوسطة لانها تفصل ، او تشكل جزءا من الخطوات التي تفصل بين اتفاقية فصل القوات الاولى والتسوية النهائية التي لا يتردد مسؤولو اسرائيل في تسميتها السلام .

هذه السياسة الاسرائيلية التي فسرها المراقبون الاسرائيليون على أنها علامة بارزة على حرص رابين اظهار التشدد ، لمحو ما كان معروفا عنه من « اعتدال » قبل واثناء تكليفه تشكيل حكومته الاولى ، ازدادت وضوحا مع الاسابيع الاولى من حياة حكومته الى درجة باتت معها متصودة بحد ذاتها ، لا غطاء لموقف اكثر « اعتدالا » او مجرد محاولة لكسب الوقت ، وتجنب تحدي المتشددين في اسرائيل الى حين تصبح فعالية العراقيل التي قد يضعونها في طريقه قليلة ، يمكنه اجتيازها وتخطيها بجهود معقولة .

وفي مطلع شهر ايلول الماضي ونهاية الشهر السابق ، اي عشية سفر رابين الى الولايات المتحدة ، وفي الفترة التي شهدت مناورات عسكرية مكثفة ، تجلى تشدد رابين بشكل مبالغ به ، وصل حد اقفاله باب التفاوض نهائيا مع سوريا ، واعلانه ما ردده بعده شمعون بيريز وزير الدفاع ومردخاي غور رئيس الاركان من أنه « ليس لدى سوريا ما تبيعه » .

ومع تصاعد اصوات المتشددين ، بدأ المعلقون الاسرائيليون يوردون تواريخ نشوب الحرب المقبلة حسب توقعاتهم ، وحددوا لها احد موعدين : نهاية فترة الاشهر الستة الاولى لتواجد قوات الطوارىء الدولية في المنطقة العازلة في الجولان في نهاية شهر تشرين الثاني المقبل ، او في الربيع الذي يليه ، وراح اولئك المعلقون يبحثون ايضا عن أسباب وضرورة اخذ توقعات مسؤوليهم نشوب الحرب بجدية كاملة ، بينما اكد احدهم (يوئيل ماركوس — هآرتس ، ١٩٧٤/٩/٦) « ان في اسرائيل عاملا لم يكن قائما من قبل ، وهذا العامل هو وجود رغبة متأججة لدى الضباط الجدد « لمحو فشل السادس

من أكتوبر » ... وعاملا اخر هو أن وزراء حكومة رابين يعنيهم للغاية اثبات انفسهم وقدرتهم على التصدي بقوة للمسائل الخطيرة ، وهم يعملون كالمجانين من اجل عدم العودة والوقوع في اخطاء حكومة مئير » .

غير انه يبدو ان رابين ، استنادا الى تصريحاته الاخيرة ، قد غير رأيه قليلا ، وراح يتحدث حتى عن امكان الوصول الى تسوية سياسية مع سوريا . وفي مقابلة مع معاريف ، (١٩٧٤/٩/٢٥) رد على سؤال وجه اليه حول رأيه بشأن قيام وضع « تحارب سوريا وحدها اسرائيل ، في حين تتركها كل من مصر والاردن منفردة ، وتظلان هما بانتظار اتفاقيات سياسة جديدة مع اسرائيل ؟ » بقوله : « اريد أن آمل اولا ان يفهم السوريون بأنه لا يجدر بهم ان يبادروا الى حرب ضد اسرائيل ، ولا الى حرب سورية اسرائيلية بالذات . يصعب علي ان اومن بأن تخرج سوريا الى محاربة اسرائيل دون أن تكون على علم بأن مصر ، وربما دولا عربية اخرى ، ستنضم اليها في حربها هذه . ان هناك أهمية للجهد المبذول للتقدم نحو تسويات مع مصر ومع الاردن ، وانا اومن في الوقت ذاته بأن هناك ايضا مجالا لتسوية بين اسرائيل وسوريا » .

كما صرح رابين في المقابلة ذاتها بامور اخرى لم يكن قادة اسرائيل يجرؤون على التطرق اليها من قبل ، مثل قوله ان لديه خريطة مفصلة وواضحة لحدود اسرائيل في التسوية السلمية التي يسعى اليها ، وخرائط مشابهة للتسويات الجزئية .

والواضح ان هذا التغيير في وجهة نظر رابين ناجم عن دوافع عديدة ، خارجية وداخلية .

والمصدر الخارجي الذي له الاثر في اسرائيل هو الولايات المتحدة التي زارها رابين ، ثم عاد منها مباشرة ليغير وجهة نظره .

لقد أجرت جريدة دافار مقابلة مع رابين على مرحلتين ، اولاها عشية سفره الى واشنطن ، وثانيتهما اجراها مراسل الصحيفة في نيويورك ، ناحوم برناع ، ونشرت الحلقتان يوم ١٩٧٤/٩/١٦ .

وكان من بين ما قاله رابين في الجزء الاول من المقابلة « ان السلام على مراحل مع مصر ، ومع الاردن ممكن ، اما مع سوريا فلا . ولو ان السوريين جاءوا وقالوا اننا مستعدون للدخول في مفاوضات سلام ، فانه كان بالامكان ان نتفاوض ، ولكن بالنسبة لهضبة الجولان فانني لا أرى امكانية للتنازل عنها . واعتقد انه حتى في اتفاقية سلام يجب أن تظل هضبة الجولان ضمن حدود اسرائيل ، واشدد : هضبة الجولان ... لقد تم الاستيطان في هضبة الجولان على اساس قرارات الحكومة ، انطلاقا من أنها تعبير عن قرار ابقاء هضبة الجولان بحيازتنا » .

وفي الجزء الثاني من المقابلة ، لم يجب رابين على سؤال برناع : « هل خرجت بانطباع بأن التقارب الذي تم مؤخرا بين الولايات المتحدة والدول العربية بما في ذلك مصر قد الحق ضررا « بمكانة اسرائيل كـ « حليفة » للولايات المتحدة ؟ » واكتفى في رده على السؤال بالقول : « لقد استهدفت السياسة الاميركية منذ سنين اعادة مكانة اقوى للولايات المتحدة في الدول العربية . وحتى اثناء اشغالي منصب سفير اسرائيل في واشنطن حاولت اكثر من مرة ان احذر بأن الولايات المتحدة لا ترى أن علاقاتها مع اسرائيل هي سياستها الشرق اوسطية الوحيدة . والى جانب دعم اسرائيل تعززت مكانة الولايات المتحدة في بعض الدول العربية بعد حرب يوم الغفران ، وسيكون غير صحيح ان نتجاهل وجود تفكير اميركي بضرورة ترسيخ مكاسب اميركا في الدول العربية . من هذه الناحية فان وحدانية الدعم لاسرائيل التي كانت قائمة حتى حرب يوم الغفران قد تغيرت . اننا لم نطالب الولايات المتحدة قط بأن لا توثق علاقاتها بالدول العربية ، طالما ان ذلك لا يتم على حساب مصالح اسرائيل الحيوية » .

كذلك قال رابين ردا على سؤال اخر ما اذا كان هناك مبرر للغضب من جراء بعض ما تكشف من علاقات الولايات المتحدة مع الدول العربية : « انني افترض ان اسباب الغضب ، بمقدار ما هي معروفة لدي ، مرتبطة بالاختلاف الذي حصل في شبكة علاقات اميركا بالشرق الاوسط بعد حرب يوم الغفران . حتى الحرب ، كان هناك شعور لدى الجمهور (الاسرائيلي) بأننا نحن « الابن الوحيد » للولايات المتحدة في الشرق الاوسط . والواقع ان ذلك لم يعد صحيحا الان . وربما تكون بعض التعبيرات التي صدرت عن مسؤولين اميركيين قد

ساعدت على تناسي هذا الغضب لدى الجمهور الاسرائيلي . ان علينا ان نرى الواقع كما هو : ان للولايات المتحدة الان اهتماما حقيقيا اكبر في تنمية علاقاتها مع الدول العربية » .

هل يمكن الاستدلال من ذلك — من قول رابين ان اسرائيل لم تعد « الابن الوحيد » لاميركا ، ومن حدوث تحول في لهجة رابين — على أن رئيس حكومة اسرائيل قد سمع في الولايات المتحدة ما لم يكن يرغب في سماعه ؟

قد يكون الامر كذلك ، خاصة وان العديد من المصادر الاسرائيلية ركزت على ان رابين اخذ وعودا قاطعة مريحة لاسرائيل بشأن تزويدها بالسلاح ودعمها اقتصاديا ، ولكن كانت هناك — وظلت — خلافات في وجهات النظر بشأن السياسة التي يجب اتباعها للتقدم على طريق التسوية ، وهي السياسة التي لا تتقاطع خطوتها مع ما أعلنه رابين ، وما فسره الاسرائيليون — وكيسنجر — على أنه تشدد واضح (معاريف ، ١٣/٩/ ١٩٧٤) .

اما المصدر الداخلي للدوافع التي ادت الى تغيير مواقف رابين المعلنة ، فيبدو انه يعود الى مركز رابين شخصيا وتأثير القوى المتصارعة داخل النظام الاسرائيلي على تلك المواقف . وقبل الخوض في هذا الموضوع ، لا بد من العودة، ولو باختصار ، الى ملاحظة ان وزن حكومة رابين أقل كثيرا من وزن ما سبقها من حكومات في اسرائيل ، الامر الذي ادى — حتى الان — الى ازدياد نسبة اهمية المؤسسات السياسية الاخرى في اسرائيل ومن اهمها الكنيست ، التي رد الدكتور شيفح فايس (على همشمار ، ١٢/٩/١٩٧٤) ازدياد وزنها الى اسباب عديدة ابرزها :

١ — اهتزاز القيادة التقليدية في بعض الاحزاب الاسرائيلية وخاصة حزبي العمل والمفدال .

٢ — اضطرار جميع الاحزاب تقريبا الى الاستعانة بالمؤسسات البرلمانية لترشيح واختيار ورثة لاشخاص تلك القيادة التقليدية .

٣ — عدم خوف من تبقى من اعضاء الكنيست من الزعامة الجديدة التي تفتقر — بمجملها — الى قوة الشخصية .

٤ — اضطرار حكومة رابين ، من جراء ضيق قاعدتها الائتلافية في الكنيست ، الى متابعة كل عضو وعضو والاهتمام به .

٥ — انتقال عدد من زعماء الاحزاب من مقاعد الحكومة الى مقاعد اعضاء الكنيست ، ومن أبرز هؤلاء سابير ، الموغي ، بورغ ، رفائيل ، حزاني وغيرهم .

وما يصح على الكنيست ، ينطبق على الوضع داخل الحكومة نفسها ، وان يكن بمقاييس عديدة اقل .

ولقد لاحظ ارييه تسيموكي (يديعوت احرونوت، ١٣/٩/١٩٧٤) « ان ١٤ وزيرا شارك في النقاش السياسي في جلسة الحكومة التي عقدت عشية سفر رابين الى واشنطن ، الامر الذي يشهد ... على التطور الذي طرأ على شكل وطبيعة حكومة رابين بالمقارنة مع حكومة مئير . وفي النقاش السياسي هذا الاسبوع اظهر الوزراء جرأة في الاعتراض على مسلمات سياسية ، وفي الانتظار بدون رحمة لاقوال رئيس الحكومة ووزراء اخرين ، وفي اقتراح بدائل سياسية جديدة ، وفي محاولة تشكيل موقف متفق عليه بشأن الخطوات السياسية المقبلة » .

ويتابع تسيموكي : « لا يجوز ان ننسى ان رئيس الحكومة ليس هو الشخصية المقررة في الحكومة ، والذي يقلل الاخرون من الاعتراض على مواقفه . وكلماته هي من نوع « انظر وبارك » . ان رئيس الحكومة لا يخفي كذلك تردده ولا يخشى الاعتراف بأنه اخطأ في تقديره السابق ، وانه يغير رأيه على ضوء المعرفة الجديدة . ولقد انضم السيد رابين في جلسة هذا الاسبوع الى وجهة النظر التي رفضت التصريحات القائلة بأنه ليس هناك ما يمكن التحدث بشأنه مع سوريا ، علما بأن رئيس الحكومة نفسه هو الذي صرح قبل نحو شهرين بأن ليس هناك ما يمكن التحدث بشأنه مع سوريا ... »

واضافة الى شخصية رابين ، المتردد وغير الواثق بنفسه ، وتزايد نشاط الكنيست واعضائها وكذلك علامات تجرؤ وزراء حكومته عليه ، فان رابين المعني للغاية بتأجيل موعد الانتخابات المقبلة، ريثما يكون قد بذل الجهود لترسيخ نفسه في الموقع الاول في حزبه (حزب العمل) ، فانه دون شك لا يجرؤ على مواجهة مراكز القوى داخل حزبه، وابرزها حتى الان بنحاس سابير رجل مباي القوي

سابقا ، ورجل حزب العمل القــوي بالتالي ، والشخص الاساسي الذي مكن رابين من الوصول الى كرسي رئاسة الحكومة .

وفي الاسبوعين الماضيين بدأت تظهر في اسرائيل علامات على عودة سابير الى النشاط داخل البلد، بعد أن قضى اسابيع عديدة في امريكـا اللاتينية وغيرها لدرس امكانات الهجـرة من تلك البلدان .

وكان بدء هذا النشاط ، عبر مقابلة مع يوسف شنيط نشرتها يديعوت احرونوت ، (١٩٧٤/٩/٦) ، وقال فيها « ان كل هذا الكلام عن حرب جديدة ، يشكل عاملا رادعا للهجرة » ثم اتضحت ملامح حملة سابير بوضوح في مقال كتبه يوسف حاريف (معاريف، ١٩٧٤/٩/١٣) ، ونسب فيه الى سابير اقوالا عديدة ، قال ان المقربين منه يرددونها .

وبعد ان يقول حاريف ان كيسنجر غير مرتاح الى سياسة حكومة رابين ، يصل الى القول « ان الامر ذاته ينطبق ايضا بالنسبة الى بنحاس سابير، فهو كذلك على ما يبدو غير مرتاح لـ « الموقف المتشدد » ليتسحاق رابين ، والذي يبدو وكأنــه طبعة ثانية من موقف غولدا مئير ، وكان سابير يرغب ان يرى حكومة اسرائيل تتقدم على طريق اكثر اعتدالا ، وهو لن يخفي ذلك عــن رئيس الحكومة لدى عودته من الولايات المتحدة » .

ويتابع حاريف « وبعد فترة تأقلم جديد اثر عودة سابير من جولته الطويلة ، فانه يبدو مصرا على أن لا يكتفي بالسماع فقط ، وانما على ان يسمع صوته كذلك ، او كما قال في مناسبة ما هذا الاسبوع : لن أتمكن طويلا من الجلوس دون الاعراب عــن رأيي .

وعندما يقرر سابير فانه لا ينتظر المناسبات ، وانما يخلقها هو بنفسه ، وينوي أن يدير حديثا مع رابين بعد عودته من واشنطن ، ولن يتحدث اليه هذه المرة بصفته رئيسا للادارة الصهيونية ، وانما بصفته بنحاس سابير السياسي ، رجل الحزب ، صاحب وجهة النظر السياسية المعروفة ، التــي تحولت الى « مدرسة » ، سمها « حمائمية » او « اعتدال » او مجرد « وجهة نظر سابير » .

ينتهي حاريف ، المقرب من الاوساط الحاكمة في اسرائيل الى القول : « ان هنــاك شيئا ما آخذا في التشكل في اسرائيل ، شيئا ما هدفه دفــع الحكومة الى اظهار الاعتدال ومنع واضعي الخط السياسي داخل الحكومة من التمترس خلف مواقف « متشددة » ، شيئا ما لم نشهده طوال كـل السنوات السبع الاخيرة بين حرب الايام الستة وبين حرب يوم الغفران ، ومنذ ذلك الحين وحتى الان .

« ان الانطباع هو أننا نقف على عتبة مواجهــة داخلية قوية في الحزب الحاكم ، حيث لن تكون تلك مواجهة بين « مدرسة سابير » وبين « مدرســة رابين » الذي يشكل اقلية داخل الحكومة اذا وزنا الامور بموجب ما اتضح من توجهات متساهلة فيها أثناء جلستها هذا الاسبوع — وانما بين « مدرسة سابير » وبين « مدرسة دايان » .

وينتهي حاريف من كل ذلك الى القول ، « ان « معسكر الحمائم » الذي كان حتى الان أشبه ما يكون بقطيع بلا راع ، سيجد لنفسه زعيما ذا تأثير سياسي ، لن يتردد في مواجهة رئيس الحكومة ، خاصة وانه لا يرغب في الاطاحة به ، وهذا الزعيم هو بنحاس سابير ، الذي لا يطالب لنفسه بشيء — اشارة الى رفض سابير ترشيح نفسه لرئاســة الحكومة ، وتقديمه الدعم لرابين — الا انه يعتقد ان ساعة حسم الحكومة قد حانت ، وانه لم يعد امامها مجال للتمركز ، مثل الحكومات السابقة، خلف قرار عدم اتخاذ القرار، والدافع الايديولوجي، اذا صح التعبير ، لتشكيل « ائتلاف حمائمي » هو أنه في الوضع السياسي الذي طرأ يجدر عدم الانتظار الى ان تأتي « جرافة ما » وتخرج اسرائيل بالقوة ، وانما يجب التقدم بضع خطوات الى الامام ، و«تقديم مبادرة كبيرة» كما قال احد المقربين من سابير » .

« هذه هي الان مشكلة رابين : اراد ان يؤمن نفسه في مواجهة معسكر ديان ، وها هو يجــد نفسه في مواجهة معسكر سابير ، وهذا المعسكر كبير ومركب ، يمكن ان ترى داخل اطاره شخصيات مثل اربيه الياف ، ابراهام عوفر ، ابا ايبن ، يتسحاق بن اهرون ، يوسف سريد ، حاييــم تسادوك ، بل وحتى يغئال الون بالاضافة الــى حزبي مبام والاحرار المستقلين ، وجميع هــؤلاء مستعدون لتسوية اقليمية » .

في مقابل هذا الوضع المركب والمعقد الــذي

يواجهه رابين ، رأى بعض المعلقين ان محاولات ادخال حزب المفدال الى الائتلاف الحكومي ، بادرة من رابين لتقوية جناح الصقور داخل حكومته ، الا ان ما لاحظه يشعياهو بن نورات (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٤/٩/٦) هو ان دخول الوزراء المتدينين « الصقور » لا يخيف حمائم حكومة رابين، بدليل ان وزير العدل حاييم تسادوك ، وهو من ابرز واكبر « الحمائم » وضوحا وصراحة كان اول من دعا وساعد رابين في جهوده لتوسيع حكومته بادخال وزراء من المفدال اليها .

عماد شقور

[٤]

الجيش الاسرائيلي يعيد تنظيم نفسه ويدخل مرحلة جديدة

تعمل اسرائيل حاليا على اعادة تنظيم جيشها واعداده لمهام جديدة ، في ضوء التجربة التي مر بها خلال حرب تشرين ، مستغلة فترة الهدوء التي سادت الجبهات منذ بداية حزيران ، بعد توقيع اتفاق فصل القوات على الجبهة السورية . وكان اول عمل قامت به القيادة العسكرية الاسرائيلية اعادة تنظيم الوحدات التي تعرضت لاصابات كبيرة خلال الحرب ، وذلك على مرحلتين « ففي المرحلة الاولى لم يجر تشديد على انسجام الوحدات ، ولا حتى على مستوى التدريب ، وكانت هناك حاجة لتنازلات عديدة من الناحية المهنية . ثم بدأت المرحلة الثانية لتحسين المستوى المهني واعطاء الاطر الجديدة مضمونا ، ويبذل في هذه المرحلة الكثير لتحسين مستوى القادة واضافة مواضيع كثيرة الى الدورات » (هآرتس ، ١٩٧٤/٨/١) .

التجنيد حتى اخر رجل

ان اول ما يلفت النظر في الاجراءات الاسرائيلية الهادفة الى اعادة تنظيم الجيش هو التركيز على استغلال الطاقة البشرية في اسرائيل على أحسن وجه . وقد أعلن في هذا الصدد عن خطة لاعادة دراسة اوضاع تلك الفئة من الاسرائيليين ، الذين كانوا قد اعفوا من الخدمة في الجيش لاسباب صحية أساسا . وكان العقيد يتسحاق روزن ، رئيس مركز التجنيد في الجيش ، قد أصدر في اوائل أيلول ، امرا (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٤/٩/١٠) يدعو فيه «كل مواطني اسرائيل او السكان الدائمين فيها من الرجال الذين تتراوح اعمارهم بين ١٨ و٥٤ سنة ، من غير التابعين للقوات النظامية او قوات الاحتياط لجيش الدفاع الاسرائيلي» الى التوجه لاجراء الفحوصات الطبية ، تمهيدا لالحاقهم بوحدات معينة في الجيش . كذلك اعلن عن الحاق عدد كبير من المتخلفين لاسباب طبية معينة الى الجيش دون اجراء الفحوص ، وذلك من اجل تعزيز الوحدات . وهناك من بين الالاف الذين يعملون في الدفاع المدني جنود صالحون للخدمة ، يستعد الضابط الصحي الرئيسي لاجراء فحوص شاملة لهم تمهيدا لالحاق من كان منهم يتمتع بصحة جيدة بالخدمة في المعسكرات الداخلية، بينما سيعنى الفنيون من بينهم باصلاح وسائط النقل . كذلك تم في لقاء جرى بين رئيس الاركان ورئيس شعبة القوى البشرية ورئيس مؤسسات التعليم العالي ورئيس اتحاد الطلبة ، الاتفاق على تفاصيل تجنيد طلبة الجامعات لسنة واحدة للخدمة في الجيش الدائم (رال ، ١٩٧٤/٩/٣٠) . وتقرر أيضا تأخير تسريح الفنيين من الجيش وتجنيد عدد اخر منهم من بين صفوف الناحال ، بينما طلب من عدد من المصانع والورش الكبيرة المساعدة في اصلاح الاليات ، بعد ان تم تجنيد طلاب المدارس المهنية للعمل في ذلك . وحدد موعد لانتهاء العمل (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٤/٨/١٣) . كما ويضع الجيش خطة لتجنيد الاف الاسرائيليين الموجودين خارج البلاد ، الذين يقدر عددهم حاليا بـ ١٥٠ الف اسرائيلي . وبناء على تقديرات شعبة القوة البشرية يمكن تجنيد بضع عشرات الالاف منهم (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٤/٩/٢٠) . وهناك مشروع قيد الدرس وهو زيادة مدة خدمة الفتيات في الجيش . وكان رئيس الاركان الاسرائيلي ،

اللواء مردخاي غور ، قد لخص حصيلة هذا النشاط في لقاء مع جنوده ، بقوله « انه منذ حرب يوم الغفران ، الحق جيش الدفاع الاسرائيلي عشرات الالاف من الرجال في وحدات جديدة » . واضاف انه «اقيم في هذه السنة عدد من التشكيلات الجديدة يفوق ما اقيم في السنوات الاربع الاخيرة . ويعتبر هذا احد اكبر الجهود التي قام بها الجيش الى جانب الاستصلاح الواسع لالاف وسائط النقل والمعدات الحربية الاخرى » (معاريف ، ١٦/٨/١٩٧٤) .

وبالاضافة الى اعادة تنظيم الجيش يجري العمل على اعادة تنظيم وزارة الدفاع ، فمع دخول بيريس الى الوزارة طلب من العميد (احتياط) رحبعام زئيفي (الذي عين مؤخرا مستشارا لرئيس الحكومة لشؤون الارهاب) وضع خطة عمل لاعادة تنظيم وزارة الدفاع ، فعين موشي نيتسر ، الذي كان رئيسا لشعبة الشبيبة والناحال في وزارة الدفاع ، في منصب منسق لشؤون الاستيطان الامني بكل فروعه . أما الحانان ياسي ، الذي كان سكرتيرا لبن غوريون والذي شغل مناصب عدة في وزارة الدفاع في السنوات الاخيرة ، فسيعمل على نقل المصانع الحربية الى مستوطنات الحدود لانعاشها . الا ان هذه اجراءات اولية فقط وستعقبها اجراءات اخرى (معاريف ، ٢٨/٧/١٩٧٤) . وعلى الصعيد التنظيمي ايضا اقيمت شعبة للدراسات الاستراتيجية ، وهي شعبة جديدة (انشئت بعد الحرب) وعين البروفسور زومسمان رئيسا لها ، ثم استبدل بالعميد يهوشفاط هركابي . كذلك فقد عرضت لجنة وزارية على الحكومة مشروع القانون الاساسي للجيش الاسرائيلي وذلك لتصحيح الوضع الدستوري الحالي ، الذي لا يحدد بوضوح صلاحيات كبار المسؤولين في الجهاز الامني . ويتألف مشروع القانون هذا من ثلاثة اقسام ، يبحث الاول منها في سيادة السلطة المدنية على السلطة العسكرية ، والثاني باسلوب انتخاب رئيس الاركان ، بينما يحدد الثالث طرق اقامة تنظيم عسكري بحت (را ، ١٥/٨/١٩٧٤) . هذا وما زالت الجهود تبذل لتعزيز القيادة العليا للجيش، التي فقدت معظم جنرالاتها قبل واثناء وبعد الحرب، وذلك بسبب التغيرات الروتينية قبل الحرب ، ثم تقرير لجنة اغرانات الذي أدى الى استقالة رئيس الاركان ورئيس الاستخبارات وعدد من ضباطه وقائد المنطقة الجنوبية ، واخيرا حرب الجنرالات التي اشتدت بعد انتهاء القتال . وتم في هذا الصدد تعيين العميد طال ، نائب رئيس الاركان السابق الذي كان قد استقال من منصبه بسبب خلافات بين كبار ضباط الجيش الاسرائيلي ، قائدا لتشكيلة احتياط كبرى ، وتجدد النقاش حول تعيين مماثل للعميد شارون ، الذي كان قد «اخرج» من الجيش بعد ان اشترك في الحرب الاخيرة ، لخلافات مع القيادة السياسية الاسرائيلية (دافار، ٢/٨/١٩٧٤) .

وقد تطرق المراسل العسكري لصحيفة معاريف (٢٧/٩/١٩٧٤) ، اوري دان ، الى هذا الاتجاه الذي يسود الجيش والمسؤولين الاسرائيليين والداعي الى اعادة الضباط القدامى ، الذين اشتركوا في الحروب السابقة ، الى الجيش بقوله « ليست الدبابات والطائرات التي سنتلقاها من الولايات المتحدة هي المشكلة الرئيسية لجيش الدفاع الاسرائيلي ازاء خطر نشوب حرب جديدة ، بل المشكلة هي وضع افضل القادة على رأس الجيش ... ان الذي سيحدد وجه الحرب القادمة هم قادة الفرق وقادة الجبهات بشخصياتهم ، بتجاربهم ، بقيادتهم وبتأثيرهم على تحقيق اهدافنا في الحرب ... يجب ان يكون قادة الفرق وقادة الجبهات من افضل ما اخرجه هذا الشعب » . وأضاف : « ... اننا لا نستطيع ان نسمح لانفسنا ان نجرب في ساحة المعركة فريقا جديدا من القادة مهما كانوا جيدين ، فمن أجل تنفيذ مهام الحرب القادمة علينا أن نعيد جميع القادة الجيدين والقدماء الذين « جربناهم » و« امتحناهم » في الحروب السابقة ... » . ويضيف : « لا يمكن القيام بهذا قبل نشوب الحرب بوقت قصير او اثناء سير المعارك ، فقد لمسنا مقدار الاضرار التي اصبنا بها من جراء تعيين جنرالات في مناصب غير محددة اثناء الحرب السابقة » .

ولكن اعادة البناء هي واحدة من عدة مجالات يعمل فيها الجيش الاسرائيلي ، فهناك ايضا مشاكل أخرى ، منها التحصين ، وبناء قوة مدربة ، وتعويض خسائر الحرب ، والتسلح على المدى البعيد ، والحرب اليومية ضد الفدائيين ، والاستعداد للحرب القادمة .

التحصينات :

بدأت القوات الاسرائيلية في تحصين الخطوط الجديدة التي انسحبت اليها ، على الجبهتين المصرية والسورية ، نتيجة لاتفاقيات فك الارتباط ، وذلك قبل أن تبدأ عمليا في الانسحاب والتراجع الى تلك الخطوط . وقد أعلن قائد سلاح الهندسة العقيد يتسحاق بن دوف : « لقد انتهت التحصينات الاولية في خطوط فصل القوات الجديدة علـى الجبهات المختلفة ولكنها لم تنته بعد بشكلها الكامل ، ذلك ان هذا العمل يتم على مراحل ، وهناك الكثير الذي يمكن عمله في هذا المجال » (دافار ، ٧٤/٨/٨) . واضاف : « اننا نخلق شبكة هندسية فاصلة على طول حدود الدولة » . وهذا يعني حفر خنادق مضادة للدبابات واقامة الاسيجة وزرع الالغام . كذلك أعلن بن ـــ دوف ان فترة ما بعد الحرب هي فترة حرجة جدا لانها تتطلب جهدا كبيرا من رجال سلاح الهندسة ، بحيث سيستدعى رجال الاحتياط للخدمة ٧٠ يوما في هذه السنة (المصدر نفسه) . الا ان هذه ليست هي المهـام الوحيدة لسلاح الهندسة ، فهو يعمل في مجالات مديدة ومتنوعة ، مثل عبور الموانع المائية ، بناء الجسور ، زرع الالغام ، النسف ، شق الطرق ، ازالة القذائف والتمويه بالاضافة الى اقامة التحصينات والعوائق. واستطاع هذا السلاح تطوير عدد مـن الاجهزة مهمتها التوفير في القوة البشرية ، للافادة منها في القيام بمهمات اخرى . وقد عرضت ، بمناسبة يوم سلاح الهندسة ، بعض الاجهزة امام المراسلين العسكريين والتي يتوقع ان تحتل مكان الصدارة في الجهود الهندسية في الحرب القادمة ، منها مثلا عرض عملية حفر خندق مضاد للدبابات بعرض ٦ امتار وعمق ٣ امتار خلال ثانية واحدة ، وذلك بواسطة تفجير كمية كبيرة من المتفجرات . كذلك شقت طريق صالحة لعبور الدبابات في منطقـة صخرية ، وذلك بعد أن فجرت مجموعة من الجنود ٣٠٠ كغم من المتفجرات ثم مرت جرافة وشقت الطريق خلال زمن قصير . وفي اطار عرض المعدات الجديدة عرضت آلة لزرع الالغام تستطيع القيام بكل عملية زراعة اللغم ، وتزرع ١٦٠٠ لغم يوميا . كذلك عرضت مجموعـة اخرى من الوسائـل الهندسية، منها كاسحة الغام تدفعها دبابة أمامها، وقنبلة خارقة تزن ٢٠٠ كغم من المتفجرات ، تخترق التحصينات وتنفجر داخلها ، وطريقة لاختراق حقول الالغام وذلك بدخول الجنود الى الحقل بواسطة الدوس على فراش مـن الاسفنج ، يقلص وزن الجندي الذي يمشي فوقه بحيث يستطيع وضع المتفجرات فوق حقل الالغام ، ثم تفجيره ، وبهذا يشق طريقا بعرض ٦ امتار تدخل الدبابات منها . (هآرتس ، ٧٤/٨/٨) .

وتحدثت بمحانيه (٧٤/٨/١٩) ، مجلة الجيش الاسرائيلي الاسبوعية ، عن خطوط الفصل الجديدة التي أقامها سلاح الهندسة مشيرة « بأنه وضعت في هذه الخطوط كل المعرفة والدروس التي تعلمناها من الخطوط السابقة . فقد حفرت خنادق مضادة للدبابات ، بعد ان كانت هذه الخنادق قد اثبتت فاعليتها في الايام الاولى من حرب يوم الغفران . كما وضع سياج من الاسلاك مـن نوع جديـد يستخدمها الجيش لاول مرة ، ويجري شراء كميات كبيرة منه من المانيا » . اما عن خط الفصل مع سوريا ، فقد ذكرت المجلة نفسها « ان من يحاول عبور هذا الخط سيواجه في البداية سياجا مزدوج الانحدار ، ثم سياجا من الاسلاك الدائرية ، ثم سياجا آخر مزدوج الانحدار وعشرات الامتـار المزروعة بالالغام المضادة للدبابات والافراد ، ثم قطاعا آخر من سياج مزدوج الانحدار ، وخندقا مضادا للدبابات ، ثم حاجزا ترابيا للحماية مـن القنص » .

اما معاريف (٧٤/٩/٣) فقد تحدثت عن خطوط التحصينات الجديدة ، فأشارت الى انه : « أقيم بدلا من خط بارليف خط جديد يعتمد على المدرعات والوحدات المتحركـة وعلى خطـوط الاسـلاك والالغام » . وأضافت الصحيفة : « ... ان هذا الخط يختلف عن سابقه ، ذلك ان قناة السويس ـــ أكبر خندق مضاد للدبابات في العالم ـــ لم تعد تخدمنا ، كما وان خط المواقع لم يعد يشكل ساترا لمقاتلي الخط الاول ، وقد قصرت فتـرة الانذار بشكل كبير ، ذلك انه بناء على تقديرات مختلفة ، يستطيع المصريون نقل خمس فرق الى الضفـة الشرقية للقناة خلال ساعات معدودة . الا أن هناك ايجابيات ايضا للوضع الجديد في سيناء ، وهي اننا لم نعد ملتزمين بقطاع معين من الصحراء ، فاذا أردنا نستطيع الاستعداد لصد العدو عند الخط الجديد ، او الخروج لملاقاته في منطقة الفصل

وما وراءها . ويمكننا عند الحاجة ترك الخط ونصب الكمائن للجيش المصري داخل الصحراء الواسعة ، وفي أماكن ملائمة جدا لمعارك الدروع » . وكانت الصحيفة نفسها قد ذكرت في عدد سابق (٧/٣١/ ٧٤) : « ان الخط الجديد يختلف عن سابقه ، فهو لا يعتمد على مجموعة من التحصينات الامامية بل محاط بدفاع مرن ، يجمع وسائل متعددة » .

اما خط التحصينات مع لبنان فهو خط مكثف على طول امتداد الحدود ، يهدف الى ضمان أمن المستوطنات في الشمال وحماية العمق الاسرائيلي من عمليات التسلل التي يقوم بها الفدائيون . وشبكة الدفاع هذه هي من احدث الشبكات التي عرفتها اسرائيل ، واتضح من التجارب التي اجريت عليها ان اجتياز هذا السياج يستغرق فترة زمنية معينة ، بحيث ان استمرار الدوريات العسكرية التي تتحرك على طول هذا الخط بصورة محسوبة تجعل من غير المعقول حدوث تسلل دون ان تكتشفه احدى الدوريات (ولكن على الرغم من ذلك فقد استطاع الفدائيون عبور هذا الخط أكثر من مرة) وبالاضافة لهذا فقد زود ذلك السياج بأجهزة انذار وكشف الكترونية من أحدث الاجهزة في العالم . وفي مستوطنات الشمال نفسها يجري شق طرق حول كل مستوطنة ، بعد ان اضيئت المستوطنات اضاءة كاملة ، ووضع حول هذه الطرق سياج أمني شبيه بالذي وضع على الحدود نفسها ، وأقيمت شبكة اتصالات حديثة للغاية ، فخلال دقائق معدودة يستطيع اي حارس ان يبلغ كل مراكز التجمع عن آي حادث . كذلك اقيمت شبكة انذار تمكن اي حارس ان يشغل من المكان الذي يوجد فيه شبكة مكبرات للصوت وضعت في الاماكن العامة ، كما وعين في كل مستوطنة ضابط كبير في الجيش ليقوم بتنسيق عمليات الدفاع او الهجوم اذا اقتضى الامر . (ر ا ا ، ٧٤/٨/٨) .

الافادة من دروس حرب تشرين :

أعلن في اسرائيل ان عملية استخلاص دروس الحرب قد استكملت ، ويجري العمل على اتمام تطبيقها . فقد بدأت الحكومة الاسرائيلية بعد ظهر يوم ٧٤/٨/١٨ البحث في الدروس والعبر المستفادة من حرب تشرين واستمعت الى تقرير قدمه اربعة عمداء ، كل في مجال عمله . وقد قدم التقارير كل من رئيس شعبة العمليات العميد هرتسل شفير ، ورئيس شعبة المخابرات العميد شلومو غازيت ، وقائد سلاح البحرية العميد بنيامين تيلم ، وقائد سلاح الطيران العميد بنيامين بيليد . (ر ا ا ، ٧٤/٨/١٨) .

وبعد أن انتهى الجيش من اعادة بناء نفسه تنظيميا واستكمال بناء التحصينات واستخلاص دروس الحرب اخذ يخصص جهدا كبيرا للتدريبات التي تطبق فيها دروس الحرب الاخيرة ، بينما يجري التشديد على شكل المعارك المتوقعة في الحرب القادمة . وتشمل المناورات جزءا كبيرا من التشكيلات الميدانية للجيش الاسرائيلي ، التي سلحت بمعدات حربية جديدة . ففي ٧٤/٨/٢٥ جرت مناورة لاستدعاء الاحتياط ، وبعد ذلك بيومين انتهت في سيناء اكبر مناورة قام بها سلاح المدرعات منذ حرب تشرين ، واستمرت هذه المناورة ٤٨ ساعة ، عبرت الفرقة خلالها حاجزا مائيا عريضا ، مستعملة عدة وسائل ، وذلك بالاضافة الى عبور حواجز اخرى ، منها حقول الغام وقنوات مياه . وفي ٧٤/٨/٩ اختتمت مجموعة من المظليين مناورة تدريبية بالتعاون مع المدرعات ، جرت في الضفة الغربية ، واعلن رئيس الاركان غور على اثرها « اننا مستعدون لاي اختبار في اية لحظة ». وفي ٧٤/٩/٩ جرت مناورة مدرعات ضخمة في هضبة الجولان ، اشتركت فيها وحدات مدرعة ووحدات من المشاة ، تم في اثنائها تجربة معدات قتالية جديدة في ظل ظروف المنطقة الصعبة (ر ا ا ، ٧٤/٩/١٠).

ومن المقرر ايضا ان تجري مناورات اخرى ، تشمل جزءا كبيرا من التشكيلات الميدانية للجيش الاسرائيلي ، التي سلحت بمعدات حربية جديدة .

والواضح ان الهدف من تلك المناورات لم يكن عسكريا بحتا ، وهناك ايضا اعتبارات اخرى ، منها رفع المعنويات المتدهورة . وقد علق وزير الدفاع شمعون بيرس ، بعد انتهاء مناورة تجنيد الاحتياط ، على ذلك النشاط بقوله : « لقد انتقلنا من الكآبة الوطنية الى الانتعاش والثقة » (ر ا ا ، ٧٤/٨/٢٧) . بينما ذكرت يديعوت احرونوت (٧٤/٨/٢٨) : « هناك اهمية اخرى للتدريب ، وهي انه يضفي على الجمهور احساسا بالخطر والحرب التي تقترب » . وكانت الصحيفة نفسها قد ذكرت قبل ذلك بيوم واحد « يجب علينا ان نعيد

للشعب الشعور بالاطمئنان ، وللعرب شعور الردع » .

التسليح :

ان المشكلة الملحة ، التي لقيت اهتماما شديدا لدى الجيش منذ الايام الاولى من الحرب ، هي مشكلة الاسلحة التي تحتاجها اسرائيل والتي يفترض ان تشكل حلا للمشاكل التي برزت خلال حرب تشرين . وقد ذكرت معاريف (٧٤/٨/١٩) بهذا الصدد : « اذا كانت مشكلة المشتريات العسكرية ملحة في ضوء ما حصل في حرب يوم الغفران ، فانها اصبحت اكثر خطورة في ضوء حرب قبرص ، ذلك ان احدى دروس الحرب الواضحة هو انه في المنطقة التي تتفق الدول الكبرى بشأنها على عدم التدخل يكون الحسم فيها نتيجة لتوازن القوى المحلي . وهذا ما يفسر تشديد اسرائيل في مطالبتها الولايات المتحدة بتنفيذ تعهداتها في مجال الامدادات ، وقبل ان توافق على الذهاب الى جنيف ، او خارج جنيف ، في المرحلة الثانية من التسويات ، سواء مع الاردن او مع مصر ، وذلك كي لا تجد نفسها في وضع شبيه بما حصل في حرب يوم الغفران عندما كان مصيرها يتعلق بالجسر الجوي ، ولكي لا تحاول الولايات المتحدة الضغط بواسطة الامدادات للحصول على تنازلات من جانب اسرائيل » . كما دعت الصحيفة الى عدم الذهاب الى جنيف ما لم يكن هناك اثبات قاطع بأن المعدات « مؤمنة في جيب اسرائيل » .

ولا تزال الاسلحة الاميركية تتدفق على اسرائيل منذ حرب تشرين ، وتشمل أنواعا لم تكن اسرائيل تملكها قبل الحرب . ومن بين هذه الاسلحة صواريخ سبارو ــ ٣ الموجهة بالرادار ، وصواريخ سايدوايندر جو ــ جو الموجهة بالاشعة تحت الحمراء ، وصواريخ تاو المضادة للدبابات والموجهة سلكيا ، وصواريخ مافريك ــ جو ــ ارض موجهة بالتلفزيون ، وهي فعالة ضد الدبابات ، وصواريخ شرايك الموجهة والمعدة لتدمير اجهزة الرادار التي تدير بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات . كذلك تحصل اسرائيل على قذائف موجهة بأشعة لايزر ، من نوعي مارك ــ ٨٢ ومارك ــ ٨٤ وقذائف ول آي وقذائف روكاي المضادة لجنود المشاة ، التي يمكن اطلاقها من الطائرات او المدافع . وهذه القنابل تنقسم الى أعداد كبيرة من القنابل الصغيرة عند اطلاقها وتغطي مساحات واسعة . ومن بين ما تحصل عليه اسرائيل ايضا صواريخ ارض ــ جو من نوع ستاندارد ، واجهزة للتشويش على الرادار ، وطائرات فانتوم وسكايهوك جديدة ومن أنواع متطورة ، و١٥٠ دبابة م ــ ٦٠ مزودة بأجهزة قياس تعمل بأشعة لايزر ، وصواريخ كوندور جو ــ ارض وهي من أحدث انواع الصواريخ الموجهة .

وقد تم ، نتيجة للامدادات الجديدة هذه ، تعويض اسرائيل عن كل ما فقدته في الحرب ، اذ أعلن وزير التجارة والصناعة ، حاييم بارليف ، في مقابلة مع الاذاعة انه : « اذا قارنا نسبة القوى في حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ مع نسبة القوى الحالية ، نرى ان نسبة القوى بين الجيش الاسرائيلي والجيوش العربية بقيت على حالها من ناحية الكم » (ر ا ا ، ٧٤/٨/٣١) .

وبالرغم من ان اسرائيل عادت الى التوازن الذي كان قائما قبل الحرب ، فانها لم تكتف بهذا وواصلت طلب المزيد من السلاح ، وتوالت زيارات المسؤولين الاسرائيليين الى واشنطن لعقد اتفاقيات للتسلح على المدى القصير والبعيد . فقد تم خلال زيارة رابين الاخيرة لواشنطن الاتفاق على الصفقة لهذه السنة ، والتي تبلغ قيمتها ٢ر٢ مليار دولار وتمت مصادقة الكونجرس عليها . وبناء عليه فستتسلم اسرائيل حتى الصيف القادم ٥٠ طائرة فانتوم و٢٠٠ ــ ٢٥٠ دبابة باتون م ــ ٦٠ وعددا من الطائرات العمودية لم يحدد بعد (معاريف ، ٧٤/٩/١٥) . كما ذكر ان اسرائيل ستشتري من بريطانيا ٤٠٠ دبابة سنتوريون ورادارا ومعدات الكترونية اخرى (ر ا ا ، ٧٤/٩/١٥) .

أما بالنسبة للمساعدات العسكرية الاميركية لاسرائيل على المدى البعيد فقد صرح مسؤولون اسرائيليون بأن اسرائيل تحتاج لخطة امدادات على المدى البعيد يتلخص حدها الادنى بـ ٥ر١ مليار دولار سنويا ، وذلك على مدى خمس سنوات . وقد أعلن ان الرئيس الاميركي قد أوضح لرابين بانه يوافق مبدئيا على ذلك، ولكنه أشار الى انه لا يستطيع الالتزام باتفاقية طويلة الامد ، لان الكونجرس يصادق على الميزانيات المخصصة للمساعدات الخارجية سنويا (دافار، ٧٤/٩/١٥). ولكن فورد وعد بتقديم مشروع ميزانية للكونجرس

بقيمة ٤ر٥ مليار دولار للمساعدات العسكرية لاسرائيل على مدى ثلاث سنوات ، وذلك بعد ان تجري الانتخابات للكونجرس في تشرين الثاني (نوفمبر) القادم . وستبدأ اسرائيل في استلام هذه المساعدات — اذا أقرها الكونجرس — اعتبارا من تموز ١٩٧٥ (معاريف ، ٧٤/٩/١٥) . ومن جهة اخرى ، قلصت الصناعة العسكرية الاسرائيلية انتاج الاسلحة والذخائر المعدة للتصدير ، وذلك لتستطيع تلبية طلبات وزارة الدفاع المتزايدة وتجديد احتياطي الجيش من الذخائر والاسلحة . وتقدر طلبات وزارة الدفاع من الصناعة العسكرية الاسرائيلية لهذه السنة بخمسة مليارات ليرة اسرائيلية (يديعوت احرونوت ، ٧٤/٩/٤) .

وفي اطار استكمال الاستعدادات على الجبهة الداخلية ، انتهى وزير المواصلات جاد يعقوبي من وضع الترتيبات الجديدة في وزارة المواصلات لحالة الطوارىء ، مستندا الى التجربة التي مرت بها اسرائيل خلال حرب تشرين ، اذ اتضح ان المواصلات البرية تشكل احدى الاسباب الرئيسية التي ادت الى اضرار خطيرة في الاقتصاد ، وذلك بسبب تجنيد السيارات المدنية لفترات طويلة لم تكن متوقعة . كذلك عملت السلطات الاسرائيلية على تفادي أزمة النقل التي جابهتها خلال الحرب الاخيرة وعانى منها الاقتصاد الاسرائيلي فترة غير قصيرة . وقد تم شراء ٢٥٠٠ شاحنة ، زادت قدرة النقل البري بثلاثة اضعاف ونصف الضعف . كما تم الاتفاق مع السلطات العسكرية على ان لا تجند في حالة الطوارىء عددا اكبر من السيارات المدنية ، وانما الكمية نفسها التي جندت في حرب تشرين ، بحيث يستطيع الاقتصاد المدني العمل في حالة الطوارىء بـ ٤٥ — ٥٥ ٪ من قدرته في الايام العادية (يديعوت احرونوت ، ٧٤/٨/٢٥) .

النقص في بعض انواع الاسلحة وتضعضع الجبهة الداخلية :

بالرغم من كل هذه التدابير وتصريح رئيس الاركان الاسرائيلي (يديعوت احرونوت ، ٧٤/٩/١٤) « بأن الجيش يتغلب على أزمات حرب يوم الغفران » ، فان المؤسسة العسكرية الاسرائيلية لا تزال تعاني من عدد من المشاكل ، منها الفنية ومنها مشاكل اخرى متعلقة بالجبهة الداخلية والطاقة البشرية والجيش الدائم والمعنويات .

ان ابرز المشاكل الفنية هي مشكلة فاعلية اجهزة الدفاع العربية المضادة للطائرات ، وهو ما دفع البنتاغون الى رصد موارد خاصة لايجاد الحلول لعدد من المشاكل الخطيرة التي ظهرت في قدرة الاسلحة الاميركية على مواجهة شبكات الدفاع الجوي العربية . أما نقاط الضعف فهي : انعدام القدرة على تحديد بطاريات الصواريخ بدقة ، والنقص في الصواريخ ذات المدى الذي يمكنها من تدمير بطاريات الصواريخ المضادة عن بعد يفوق مدى هذه الصواريخ ، وبطء الصواريخ الحالية الذي يسمح باكتشافها والعمل على مقاومتها ، وانعدام وجود رؤوس قوية لهذه الصواريخ يمكنها من تدمير محطات الرادار وبطاريات الصواريخ المعادية تدميرا تاما ، وعدم معرفة نوع رادار التوجيه للصواريخ الروسية وهو ما لم يساعد على تطوير وسائل الكترونية مضادة وملائمة للتشويش على هذه الصواريخ ، وعدم العمل على التقليل من الاشعة تحت الحمراء للطائرات مما يسهل على الصواريخ ذات التوجيه بالاشعة تحت الحمراء اكتشافها .

وعلى الرغم من التحسين المستمر في اجهزة التشويش الالكتروني يبدو ان الاجهزة المتوفرة لدى اسرائيل لا تملك سوى قدرة مشكوك فيها على اكتشاف اطلاق صواريخ سام — ٦ وتحذير الطيار منها . كما لا يعرف عن أجهزة اميركية قادرة على التشويش على رادار الدفع المضاد للطائرات زد — يو — ٢٣ ذي التوجيه الراداري بشعاع ضيق جدا، يمنع اكتشافه والتهرب منه .

اما المشكلة الثانية فهي مشكلة الجبهة الداخلية. فقد صرح وزير الشرطة شلومو هيلل « ان الملاجىء تكفي لنصف السكان فقط وستكون الجبهة الخلفية اكثر انكشافا في الحرب المقبلة » (ر ا ا ، ٧٤/٨/١) . وقال في مناسبة اخرى : « يتوجب علينا ان نأخذ بالحسبان الخطر الناجم عن تجدد الحرب ، لان الجبهة الداخلية ستكون مكشوفة امام الصواريخ العربية والاعمال التخريبية على طول الحدود » (ر ا ا ، ٧٤/٨/٨) .

وفيما يتعلق بالطاقة البشرية صرح رئيس الحكومة : « لقد وصلنا الى وضع اصبحت فيه الطاقة البشرية تقيدنا أكثر من أي عامل آخر ،

سواء في المجال الاقتصادي ام الامني ، وما لم ندرك اهمية استغلال الطاقة البشرية بصورة أفضل فلن نكون مستعدين لحالة الطوارىء » (ر ا ا ، ١٩٧٤/٨/٨) ، بينما اعلن في مناسبة اخرى ، بعد اربع جولات قام بها في جميع الجبهات بصحبة وزير الدفاع ورئيس الاركان « ... اود الاشارة خصوصا الى زيادة العنصر الدائم في الجيش ، هذا العنصر الذي يشكل الهيكل القيادي والمهني ، ذلك ان هناك اليوم حاجة اكثر من اي وقت مضى الى المزيد من الرجال ، الرجال الافضل للانخراط في خدمة الجيش الدائم... ومن الضروري أن نعمل كل ما في وسعنا لزيادة الجيش الدائم ، اليوم وليس غدا » (دافار ، ٧٤/٨/٢٣) .

أما أهم المشاكل التي يعاني منها المجتمع منذ الحرب وحتى اليوم فهي مشكلة المعنويات المتدهورة . وقد أجاب ، مثلا ، حاييم بارليف ، وزير التجارة والصناعة، على سؤال حول معنوياته بقوله : « انني أحد أفراد الجمهور ايضا ، فمن الواضح ان كل من ينكر يجد اسبابا كافية كي تتدهور معنوياته . فالوضع الاقتصادي رديء بعض الشيء والوضع الامني السياسي ليس على ما يرام والوضع الاخلاقي لا يشجع كثيرا . واذا نظرنا الى الوضع برمته فمن الطبيعي ان تتدهور المعنويات » (ر ا ا ، ٧٤/٨/٣١) .

الا ان هذا كله لا يعني ان الجيش الاسرائيلي لا يستطيع خوض الحرب اذا نشبت ، ولكنه « سيكون اكثر استعدادا كلما طال الوقت » (هآرتس ، ٧٤/٨/٢) .

سمير جريس

[٥]

الاستيطان في المناطق المحتلة
انعكاس للمخططات الاسرائيلية التوسعية تجاهها

تقوم السلطات الاسرائيلية منذ حرب حزيران ١٩٦٧ ، بنشاط واسع لزرع المستوطنات الاسرائيلية في المناطق المحتلة ، استمرارا لسياسة خلق الحقائق في تلك المناطق ، ووضع العرب في مواجهة الامر الواقع . وقد وضعت عدة مشاريع للاستيطان في عدة مناطق من الاراضي المحتلة ، نجح بعضها ، وفشل او جمد البعض الاخر . وكان الرأي السائد ، ان المستوطنات ، بالاضافة الى كونها دليلا على الوجود الاسرائيلي في المناطق المحتلة ، فانها ستساهم في الحفاظ على أمن اسرائيل ، الى ان جاءت حرب تشرين ١٩٧٣، وثارت الشكوك في اعقابها حول الجدوى الامنية لتلك المستوطنات ، بسبب ما تعرضت له من هجمات وتصف ، وخاصة في هضبة الجولان . وقد ظهر اثناء الحرب ان تلك المستوطنات ليس انها لا تساهم في الحفاظ على أمن اسرائيل فحسب ، بل تشكل عبئا عليها في حال نشوب قتال . وكاد يبدو ، لاول وهلة ، بعد الحرب الاخيرة ، وكأن تغييرا قد ادخل على تلك الخطط الاستيطانية في بعض المناطق ، ولكن الامور سرعان ما انتظمت بعد ذلك ، مع ادخال بعض التغييرات . وسنحاول هنا تتبع هذا النشاط خلال السنة الاخيرة ، في المناطق المحتلة قديما وحديثا ، ورصد التغييرات، ان تمت، ثم الوقوف على اهداف الاستيطان في كل منطقة .

منذ ان بدأت عمليات الاستيطان في المناطق المحتلة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ ، والاختلافات في الرأى بين الاسرائيليين بشأن هذا الموضوع تتصاعد من فترة الى اخرى ، وخاصة على الصعيدين الرسمي والحزبي . ومحور الخلافات لم يكن السماح بالاستيطان او منعه تماما ، وانما تركز حول الاماكن التي يجب ان تستوطن ، في نظر الاسرائيليين . فهناك اتفاق شامل في الراي حول الاستيطان في المناطق المحتلة منذ عام ١٩٤٨ ، وخاصة في النقب والجليل ، بينما لا تزال الخلافات قائمة حول طبيعة الاستيطان في مختلف المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ . ورغم هذا الاختلاف ، فان الاستيطان في هذه المناطق ، يبقى انعكاسا لسياسة الحكومة الرسمية ، ولا يتم الا بتصديق

منها ، عامة ، رغم النشاط الكبير الذي تقوم بـه مختلف الاحزاب والتنظيمات بهدف السماح لاعضائها بالاستيطان في الاماكن التي يرغبون فيها .

الاستيطان انعكاس لسياسة الحكومة تجاه المناطق

يبدو من المشاريع الاستيطانية التي اعلن عنهـا خلال الفترة الاخيرة ، ان الحكومة بدأت تركز في سياستها الاستيطانية على بعض المناطق ، التـي تعلن انها لن تنسحب منها حتى بعد تحقيق تسويـة مع العرب ، ومنها هضبة الجولان ، غور الاردن، مشارف رفح ومنطقة شرم الشيخ . وقد وضعـت السلطات الاسرائيلية فعلا خططا استيطـانية واسعة ، باشرت بتنفيذها في تلك المناطق ، اذ اعلن رئيس قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية ، رعنان فايتس ، امام اجتماع مركز حركة الموشافيم، عن مشروع لاقامة ١٤ مستوطنة في السنة المقبلة : سبع منها في المناطق المحتلة قديما (اربع في الجليل وثلاث في النقب) وسبع في المناطق المحتلة حديثـا (اربع في مشارف رفح واثنتان في هضبة الجـولان وواحدة في غور الاردن) (دافار ، ٧٤/٩/١٤) . وذكر اهرون بريئيل ، مراسل معاريف (٩/١٣/ ٧٤) ان اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطـان صادقت على اقامة تسع من بين تلك المستوطنـات الاربع عشرة . اما في المناطق الاخرى ، مثـل السامرة ومنطقة سيناء الداخلية ، فقد ظهـر ان الحكومة لا تسمح باقامة مستوطنات جديدة فيهـا وتعمل على تصفية المستوطنات القائمة ، بقطـع المساعدات عن المستوطنين ، وعدم تقديم الخدمات لهم ، كما حدث مع مستوطنة ناحل — يام الواقعة على بحيرة البردويل ، فقد قررت الحكومة والوكالة اليهودية عدم تزويدها بالاموال هذه السنة . ويبدو ان الحكومة قررت منذ اقامة تلك المستوطنة عـدم تحويلها الى مستوطنة دائمة . « فقد ورد في قرار اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان ان اعضاء هذه المستوطنة يستطيعون العمل في الصيد ، بشرط ان يعترفوا بالحقيقة ، انه في يوم من الايام سيخلون المكان . وكل مستوطن يقدم الى هنا ، يوقع علـى وثيقة بهذا المعنى » (اهرون بريئيل — معاريف ، ٧٤/٧/٢٨) . ويبدو ايضا ان الحكومة الاسرائيلية تعمل على تصفية الاستيطان في منطقة ابو رديس (مستوطنتي شلهيفت والطور) . وقد اعلن وزيـر المالية ، يهوشواع رابينوفيتش في الكنيسـت ، ردا على اقتراح لجدول الاعمـال قدمه عضـو الكنيست ايتان ليفني (ليكود) حول عدم اعـادة المستوطنين الى ابو رديس ، بقوله : « انـه في تاريخ ٦ اكتوبر ١٩٧٣ ، تم اخلاء الخمسين عائلة المستوطنة في شلهيفت ، بموجب امر من السلطات. واضاف ان اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطـان لم تقرر قط اقامة مستوطنة في شلهيفت ، والحكومة لا تعترف ابدا بهذه المستوطنة . ان شلهيفت ليست مقدسة . انها ليست جزءا من ارض الوطـن » (الياهو عميكام — يديعوت احرونوت ، ٧/٢٥/ ٧٤) .

كما تمانع الحكومة الاسرائيلية ، في هذه الفترة ، بالاستيطان في منطقة السامرة ، في الضفة الغربية من نهر الاردن . وتعمل على احباط كل محاولة للاستيطان هنالك ، تقوم بها مجموعات متطرفة . وقد أثارت قضية سبسطية ، عندما حاولت مجموعة من اليهود المتدينين يساندهم بعض اعضاء الكنيست من كتلة ليكود والحزب الديني القومي ، الاستيطان بالقوة قرب نابلس ، في ٧٤/٧/٢٥ ، ردود فعل عنيفة في اسرائيل . ولكن الحكومة لم ترضـخ للمستوطنين ، واتخذت قرارا بالاجماع يقضي بمنع أية محاولة للاستيطان بدون موافقتها (ر.أ.ا. ، ٧٤/٧/٢٦) ، وذلك في نفس الوقت الذي قـام الجنود الاسرائيليون فيه بنقل المستوطنين عنوة من المكان الذي وصلوا اليه ، دون ان يبدي اولئك أية مقاومة (ر.أ.ا. ، ٧٤/٧/٢٧) .

الاستيطان في الضفة الغربية — تنفيذا لمشروع آلون

تركز الحكومة سياستها الاستيطانية في الضفة الغربية ، على الغور ، حيث انشىء هناك حتى الان ١٢ مستوطنة ، تسع منها أسسها الناحال ، وقد تحولت خمس من تلك المستوطنات التسع الى مستوطنات مدنية ، بينما لا تزال الاربع الباقية تحت اشراف الناحال (يعكوف ارز — معاريف ، ٧٤/٧/٢٦) . كما اعلن مدير قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية ، يحيئيل ادموني ، انه ستقام مستوطنة اخرى في الغور في العام المقبل (دافار ، ٧٤/٩/١٦) .

أما في منطقة الخليل فلم تسمح الحكومـة الاسرائيلية الا باعادة استيطان غوش عتصـيون

والاستيطان المديني في الخليل (كريات اربع) الذي تم بدون اذن من السلطات الاسرائيلية في بدايته (شموئيل شفايتسر — معاريف ، ٧٤/٧/٢٨) ، وعلم مؤخرا أن الحكم العسكري وافق على منح كريات اربع ادارة مدنية (يديعوت أحرونوت ، ٧٤/١٠/٤) . بينما لم يسمح حتى الان باقامة أي مستوطنة في منطقة السامرة ، رغم المحاولات الكثيرة التي تبذلها الاحزاب والفئات المتطرفة للضغط على الحكومة بهذا الشأن .

أما بالنسبة للمنطقة القريبة من القدس ، فقد علم ان هناك اكثر من مئة وخمسين عائلة تنتظر منذ سنتين السماح لها بانشاء مدينة في معاليه هآدوميم ، قرب القدس ، في منطقة وادي التلط ، في مكان يبعد ١٠ كم عن اريحا و١٩ كم عن القدس ، وستسمى المدينة يريحو عيليت (أريحا العليا) (أهرون دولف — معاريف ، ٧٤/٧/١٩) .

ويضيف دولف ان واضع « مشروع الون » ، اعتبر معاليه هآدوميم جزءا لا يتجزأ من مفهوم سياسي كامل ، يهدف الى انشاء « مؤخرة » من المستوطنات اليهودية المحيطة بالقدس — بوشر في اقامة جزئين منها : كريات اربع في الخليل ، ومستوطنات غور الاردن . ولكن الحكومة الاسرائيلية أعلنت عن معارضتها لاستيطان المنطقة، وصرح الوزير غليلي أمام المرشحين للاستيطان هناك ، ان السبب في ممانعة الحكومة ، هو مالي ، وان معاليه هآدوميم هي في حضيض سلم الافضليات الذي وضعته الحكومة بالنسبة للاستيطان ، اذ أن التركيز الان على هضبة الجولان ومشارف رفح (المصدر نفسه) .

يعتقد بعض المعلقين الاسرائيليين ، بناء على تصرف الحكومة هذا بالنسبة للاستيطان في الضفة الغربية ، انها ماضية في تنفيذ « مشروع الون » . « ان الاستيطان يخلق حقائق ، وعدم الاستيطان يخلق حقائق ايضا . ان سياسة الاستيطان التي اتبعتها الحكومة بالنسبة للضفة الغربية ، خلال السنين السبع الاخيرة ، خلقت حقائق في اتجاه واحد فقط — وهو تنفيذ « مشروع آلون » وترك جبل السامرة » (شفايتسر — معاريف ، ١٩٧٤/٧/٢٨) .

الهدف في مشارف رفح — فصل غزة عن سيناء

تعتبر خطة الاستيطان في مشارف رفح ، التي تركز عليها اسرائيل الان ، جزءا من الخطة الاستيطانية الشاملة في ما يسمى قطاع أشكول ، الذي كان يعرف في الماضي بقطاع البيسور ، وهو جزء من المنطقة الشمالية الغربية في النقب . ويضم هذا القطاع حوض وادي شنيق (ناحال بيسور) الذي يكون امتدادا لوادي الخلصة (بيسور) : وهو من اودية النقب الغربية) والمساحات الواقعة جنوب شرق قطاع غزة ، ومنطقة مشارف رفح . وتتبع جميع مستوطنات هذا القطاع مجلسا اقليميا واحدا ، يشمل ١١ كيبوتسا ، وثمانية موشافيم ، ومستوطنتين تعاونيتين (باروخ ادلر — هتسوفيه ، ١٩٧٤/٩/١٣) .

ان الاستيطان الجديد في هذه المنطقة موجه الان في الاساس الى مشارف رفح ، حيث بوشر باقامة المركز الاقليمي للمنطقة (مدينة يميت) . وحسب قرار الحكومة ، هناك ٣٠٠ وحدة سكنية سينتهي بناؤها حتى عام ١٩٧٦ . كما توجد ١٨٥ وحدة سكنية في طور البناء ، سينتهي بناؤها خلال ٨ — ١٠ أشهر.« اما الخطة الموضوعة فتتحدث عن اضافة ٦ مستوطنات زراعية الى مشارف رفح ، وحتى عام ١٩٨٠ سيكون في المنطقة ٥٠٠ وحدة زراعية و١٥٠ وحدة خدمات للمستوطنات الزراعية . كما أن هناك اقتراحا لاقامة شبكة من المستوطنات الزراعية في منطقة سوميري (غديشيم) في قطاع غزة ، تشمل مستوطنتين زراعيتين ومركز كتلي لتزويد الخدمات . كما ستتحول مستوطنات الناحال في قطاع غزة ، الى مستوطنات مدينية » (المصدر نفسه) .

وكما ذكرنا ، فقد أعلن رئيس قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية رعنان فايتس ، عن اقامة ٤ مستوطنات في مشارف رفح خلال هذا العام ، وذلك ضمن الخطة الاستيطانية الجديدة (معاريف، ١٩٧٤/٩/١٣) . هذا بالاضافة الى المستوطنات الثلاث القائمة هنالك — سدوت ، نتيف هعسراه وديكله . وقبل شهر تقريبا اقيمت في مشارف رفح ٣ نقاط استيطانية للناحال ، هي (١) سوخوت، التي اقيمت على تلة جنوب الطريق المؤاي الى يميت ، وعلى بعد ٣ كم من الطريق الرئيسي الى

شمال سيناء ، وستتحول في المستقبل الى كيبوتس تابع لاتحاد الكفوتسوت والكيبوتسيم .
(٢) مسوره ، التي اقيمت شمال — شرق مستوطنتي سدوت ونتيف هعسراه في مشارف رفح.
(٣) اشل ، التي اقيمت على بعد ٤ كم جنوب — شرق مستوطنة سدوت (معاريف ، ٨/٢٠/ ١٩٧٤) .

وهناك تركيز الان على تنفيذ المرحلة الاولى من مدينة يميت ، وتشمل هذه المرحلة اقامة المركز الاقليمي اشلوم (تخليدا لذكرى افشلوم فاينبرغ، احد أعضاء خلية التجسس نيلي التي عملت لصالح المخابرات البريطانية في فلسطين خلال الحرب العالمية الاولى ، وقتل في تلك المنطقة) وتستعد مجموعة من المهاجرين من الاتحاد السوفياتي للسكن في هذا المركز ، حيث انتقلت الان مؤقتا الى المركز الكتلي في سدوت ، انتظارا للانتهاء من البناء . ويقوم هؤلاء بالتخطيط للمشاريع التي سيقيمونها في مركز افشلوم ، وفق متطلبات منطقة الاستيطان في مشارف رفح . كذلك من المتوقع ان تصل مجموعة من خمسين عائلة من يهود الولايات المتحدة للاستيطان في يميت . وقد زار اعضاء هذه النواة المنطقة قبل سنتين ، واظهروا اهتماما بالمشاريع الاستيطانية هنالك (اهرون دولف — ملحق معاريف ، ١٩٧٤/٧/١٩) .

تهدف اسرائيل من وراء اقامة هذا العدد من المستوطنات في مشارف رفح ، خلق سلسلة من المستوطنات تمتد بين قطاع غزة وسيناء (باروخ ادلر — هتسوفيه ، ١٩٧٤/٩/١٣) بهدف فصل غزة عن سيناء . ويصف اهرون دولف هذا النشاط بقوله : « اقيمت (مستوطنة) سدوت ، منذ ثلاث سنين تقريبا . وهي طليعة الكتلة الاستيطانية الجديدة في رفح . وقد اعتبرتها المؤسسات العاملة في حقل الاستيطان ، جزءا غير منفصل من استمرارية اقليمية ، تمتد من قطاع أشكول (في المنطقة المحتلة سنة ١٩٤٨) في الجنوب الشرق ، وتنتشر الى الامام ، الى الشمال الغرب ، حتى التلال الصفراء في ارض الجمال والبدو الرحل » في جنوب قطاع غزة (ملحق معاريف ، ٧/١٩/ ١٩٧٤) .

أما السبب الاخر للتركيز على هذه المنطقة فهي الاراضي الواسعة المتوفرة فيها ، « لقد وقع اختيار المؤسسات على هذا القطاع ، في الاساس ، بسبب مساحات اراضيه الشاسعة : مليون دونم مع « امكانية » للتوسع في ملايين الدونمات من الاراضي الصحراوية المجاورة ، التي يمكن تحويلها الى اراضي زراعية ، اذا توفرت الحلول لمشكلة المياه .

« والعامل الاخر ، الذي أخذ بعين الاهتمام ، هو اعتدال الطقس ، بسبب قرب المنطقة من البحر ... خلافا لوادي عربه والاغوار — تقع مشارف رفح على منفذ البحر المتوسط » (المصدر نفسه) .

الاستيطان في منطقة شرم الشيخ (منطقة شلومو)

تطلق السلطات الاسرائيلية اسم منطقة شلومو على الجزء الجنوبي من شبه جزيرة سيناء ، وتضم مساحة ما يقارب من ٢٤ الف كم٢ ، اي أنها تزيد بنحو ٣٠٠٠ كم٢ عن مساحة اسرائيل ما قبل حرب ١٩٦٧ . ويوجد في المنطقة ثروات طبيعية (ابو زنيمة ، ابو رديس) وتعيش فيها قبائل بدوية ، يبلغ عدد سكانها ١٢ الف نسمة (ابراهام باز — هآرتس ، ١٩٧٤/٧/١٩) .

وضعت اسرائيل خطة رئيسية للاستيطان في منطقة شرم الشيخ، تعتمد على استغلالها سياحيا، واحد ركائزها ، هي اقامة مدينة اوفيرا في شرم الشيخ ، واقامة مراكز اصطياف لجذب السواح (نفيعوت ، دي زهاف) . وفي سبيل تنفيذ تلك الخطة عين رؤوفين الوني ، نائب مدير مديرية عقارات اسرائيل سابقا ، مسؤولا عن اعمال التطوير في المنطقة . « فحتى قبل اقل من سنتين ، كانت ادارة المنطقة تابعة لوزير الدفاع ، على غرار جميع المناطق خارج الخط الاخضر . في عام ١٩٧٢ وصل موشي ديان الى استنتاج ، ان الوقت قد حان لنقل الادارة المدنية — التي كانت خاضعة للجيش حتى ذلك الوقت — الى « وزير مدني »، وذلك على ضوء المصالح الرسمية التي تتطلب نشاطا تطويريا كبيرا في سبيل توطين عائلات اسرائيلية كثيرة في المنطقة . وقد رحبت غولدا مئير، رئيسة الحكومة سابقا ، والوزير غليلي الذي كان مسؤولا عن الاستيطان في المناطق ، بالفكرة ، وتسلم حاييم غفاتي (وزير الزراعة انذاك) المسؤولية البرلمانية على هذا المشروع (المصدر نفسه) .

من المقرر ، حسب الخطة الرئيسية ، ان يسكن اوفيرا حتى سنة ١٩٨٥ نحو ٤٠٠٠ عائلة ، وفي اعتقاد الوني ، ان المدينة ستستوعب الف عائلة بعد اربع سنوات . اما اليوم فيعيش بها بصورة دائمة ١٥٠ شخصا فقط . وقد أعلن الوني ان الحكومة ستستثمر نحو ٦٠ مليون ليرة في تطوير المدينة . وبعد سنة ونصف السنة سيكون بها ٥٠٠ وحدة سكنية جاهزة (دافار ، ١٢/٩/١٩٧٤) .

كما تضمنت الخطة الرئيسية لتطوير منطقة شلومو اقامة مناطق سياحية الى جانب المناطق السكنية والصناعية . وفي سبيل ذلك تم تعيين ٣ نقاط : نفيعوت (١٦٠ كم شمال شرم الشيخ) ، دي زهاف (٨٠ كم عن شرم الشيخ) وشاطىء نعمه على امتداد ٣ كم على خليج مرسى العيط على الساحل الشرقي من سيناء (حبيب كنعان — هآرتس ، ٢٢/٧/١٩٧٤) .

بلغ مجموع ما استثمرته اسرائيل في تطوير واستيطان منطقة شرم الشيخ حتى الان ، ١٨٠ مليون ليرة اسرائيلية . فقد استثمر ٦٥ مليون ليرة في شق الطريق من ايلات حتى اوفيرا على امتداد شاطىء البحر (٢٦٠ كم) . واستثمر في اوفيرا ونعمه ٨٠ مليون ليرة « ولكن رغم هذا التباطؤ يشعر كثيرون انه ليست هناك دلائل تشير الى ان اسرائيل تفكر في الانطواء في جنوب سيناء » (حبيب كنعان — هآرتس ، ٢١/٧/١٩٧٤) .

هضبة الجولان — اقامة مدينة جديدة

تعلن اسرائيل انها لن تتنازل عن هضبة الجولان في المستقبل . وعلى هذا الاساس تخطط سياستها الاستيطانية في هذه المنطقة للمدى القصير والبعيد. ويكفي أن نذكر ، مثلا ، ما اعلن عنه وزير الاسكان ، ابراهم عوفر ، خلال زيارته للهضبة في ١١/٧/١٩٧٤ ، من « ان هذه المنطقة ستبقى جزءا من دولة اسرائيل ، حتى في اطار اتفاقات سلام مع جاراتها » (معاريف ، ١٢/٧/١٩٧٤) ، لكي ندرك اصرار اسرائيل على تنفيذ خططها الاستيطانية .

أقامت شعبة البناء القروي في وزارة الاسكان ، منذ صيف ١٩٦٧ ، ١٦ مستوطنة (٧ كيبوتسات ، ٧ موشافيم ، ومركزين اقليميين : بني يهودا وحسفيت) في هضبة الجولان . وسيبلغ مجموع ما استثمرته وزارة الاسكان في هذا المشروع الاستيطاني الضخم في الهضبة (حتى نهاية السنة المالية ١٩٧٤ / ١٩٧٥) نحو ٣٢٨ مليون ليرة » (مئير هرؤوفيني — معاريف ، ١٧/٧/١٩٧٤).

اتضح لمخططي الاستيطان في الجولان ، ان الهضبة محدودة من ناحية قدرة الاعتماد على الاستيطان الزراعي فقط . كما أن الاستيطان الزراعي محدود من ناحية تأثيره على سرعة اسكان الهضبة . « فكل مستوطنة في الجولان مخططة لاستيعاب ٦٠ عائلة (تضم على الاكثر ، ٣٠٠ — ٤٠٠ شخص) نحتى اذا استنفدت جميع الامكانات الكامنة في الاستيطان الزراعي في الهضبة (وليس هناك امكانات لانشاء اكثر من ٢٠ مستوطنة) ، ستصل الى ٧٠٠٠ — ٨٠٠٠ نسمة ، على الاكثر. ولكن حتى اذا امتلأت هذه المستوطنات بالسكان اليهود ، سيكون عددهم أقل من عدد السكان الدروز في القرى الدرزية الاربع ، الواقعة في شمال الهضبة » (المصدر نفسه) .

ولذلك ، وفي سبيل حل مشكلة اسكان الهضبة ، وخاصة في القطاع الاوسط منها تقرر اقامة مدينة صناعية ، لجذب السكان اليهود الى المنطقة . ويبرز هرؤوفيني امر اقامة المدينة بقوله : « ان حرب يوم الغفران (ابتداء من مرحلة اندفاع المدرعات السورية الى عمق الهضبة ، وخاصة في القطاع الاوسط والجنوبي ، وحتى مرحلة تنفيذ اتفاقات فصل القوات) ، أظهرت انه لا يمكن تحريك الحدود الى الوراء في المكان الذي تقوم عليه مستوطنة ، وزادت من ضرورة وسرعة اقامة مستوطنة مدينية في مركز الجولان .

« واثناء النضال السياسي الذي قام به ممثلو مستوطنات الجولان (قبل اتفاقات الفصل) بهدف التأثير على الحكومة لعدم التنازل عن مناطق للسوريين في الهضبة ، طالبوا بالاسراع في توطين الجزء المركزي من الهضبة ... وقد حذر اعضاء لجنة الطوارىء التي شكلتها مستوطنات الهضبة ، من انه طالما ستبقى هذه المنطقة خالية من المستوطنات ، سيسهل على السوريين التقدم بمدرعاتهم ، في حال تجدد المعارك . وبالطبع ، سيكون في استطاعتهم المطالبة ، اثناء تجدد المفاوضات ، بانسحاب اسرائيلي كبير في هذه المنطقة ، اذا بقيت خالية من المستوطنات .

وبالاضافة الى المدينة ، طالبت المستوطنات باقامة ٤ — ٥ مستوطنات صغيرة (جديدة) في هذه المنطقة .

« لقد وجدت هذه المطالب اذانا صاغية في الحكومة . وكانت النتيجة هي التصديق (مع الاعتماد المالي) على البدء باقامة المركز المديني في الجولان . كما سيقام في تلك المنطقة ٣ قرى صناعية » (معاريف ، ١٩٧٤/٧/١٧) .

عين مكان اقامة المدينة في الجزء الاوسط من هضبة الجولان ، على بعد ١٤ كم من خط فصل القوات ، وأطلق على المكان اسم كاسارين . واعلن المهندس يسرائيل غودوفيش ، المسؤول عن التخطيط القروي في وزارة الاسكان ، ان المدينة ستكون صناعية . « في المرحلة الاولى ستقام مساكن لمئتي عائلة . وفي مرحلة متأخرة ... لن يكون بها سوى ٥٠٠٠ عائلة ، او ٢٠ الف نسمة على الاكثر . ومع بناء البيوت الاولى ، ستقام مدرسة ، اذ أن الهدف هو جذب عائلات مع اولادها . وستنشأ في المراحل المقبلة صناعة شمال شرق المدينة ، التي ستضم حسب التخطيط ٥ احياء » (معاريف ، ١٩٧٤/٨/١٣) .

وقد حدد وزير الاسكان ، ابراهم عوفر ، الهدف من اقامة هذه المدينة ، التي تعتبر مركزا اقليميا صناعيا في الهضبة ، بقوله : « انها بمثابة فتح الطريق لاسكان سريع للهضبة ، لا يتم بواسطة مستوطنات زراعية صغيرة، كذلك فانها تسد الثغرة التي يبلغ عرضها ٣٠ كم في مركز الهضبة ، غير المأهولة ابدا بسبب الظروف غير الملائمة للاستيطان الزراعي، وايضا لاقامة مركز اقليمي يوفر الخدمات الاقتصادية والاجتماعية لسائر المستوطنات في هضبة الجولان . كما أنها رد على اعتبارات امنية وسياسية » (معاريف ، ١٩٧٤/٧/١٢) .

تهويد الجليل

« ينقسم الجليل من ناحية قومية الى ٣ قطاعات: الجزء الجنوبي، الجزء الاوسط، والجزء الشمالي. في الجزء الجنوبي ، ومركزه الناصرة ، يعيش ٤٢ ٪ من السكان « غير اليهود » (اي العرب)، في الجليل ، في الجزء الاوسط ، ومركزه كرميئيل ، يعيش ٣٦ ٪ من هؤلاء السكان ، والباقي — في الجزء الشمالي ، ومركزه معلوت . ان النسبة بين السكان العرب واليهود في منطقة الناصرة هي ثلثان من العرب مقابل ثلث من اليهود . اما الوضع في اواسط الجليل وشماله ، فهو أسوأ. ويبدو لي ، انه يجب استيطان الجليل لمصلحة جميع سكانه يهودا وعربا » . هذا هو الوضع في الجليل كما وصفه رئيس المجلس المحلي في الناصرة العليا ، في مقابلة اجراها معه يوئيل دار في دافار (١٩٧٤/٧/١٦) .

لذلك تركز الحكومة الاسرائيلية ، شأنها شأن الحكومات السابقة ، على قضية تهويد الجليل ، وقد وضعت خططا في الماضي لاقامة مدن الاعمار والمستوطنات اليهودية في انحاء الجليل ، نجح معظمها في زيادة عدد السكان اليهود هنالك بنسبة كبيرة . ولكن رغم ذلك ما زال الوضع غير مرض بالنسبة للسلطات الاسرائيلية نظرا لعدد السكان العرب المتزايد في الجليل . لذلك وضعت خطة واسعة لاسكان ٧٠ الف يهودي اخر في المنطقة : ٥ الاف في مستوطنات قروية ، و٦٥ الفا في مدن الاعمار : الناصرة العليا ، كرميئيل ، معلوت ، شلومي ، صفد ، حتسور وكريات شمونه .

وقد تحدث يحيئيل ادموني ، مدير عام قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية ، عن هذه الخطة، في حديث اجراه معه ارييه افنيري ، ونشر في دافار (١٩٧٤/٩/١٦) ، بقوله : « ستقام في السنة المقبلة ، في اطار خطط اسكان الجليل مستوطنتان قرويتان في منطقة تيفن ، ومستوطنتان قرويتان في منطقة سيجف (والمنطقتان تقعان في وسط الجليل) ومركز كتلي مأهول (يختلف عن مركز الخدمات ، الذي لا يسكنه العاملون في المكان) في ميرون .

« ان اقامة المستوطنات الخمس في الجليل ، هي جزء من خطة خمسية لاقامة ١٨ مستوطنة قروية في الجليل ، مع سكان اضافيين، يبلغ عددهم ١٤٠٠ عائلة (٥٠٠٠ نسمة) . حسب التقسيم التالي : ٦٠٠ عائلة في ٤ قرى صناعية ، ومركزين محليين، ٤٠٠ عائلة لتوسيع مستوطنات قائمة ، و٤٠٠ عائلة في مراكز محلية » .

وذكر ادموني ان هذه الخطة القروية هي جزء من الخطة الشاملة لاضافة ٧٠ الف يهودي الى الجليل .

واضاف « انه في سبيل ذلك نتعاون في التخطيط مع وزارة الاسكان ، التي ستبدأ بناء ١٠ الاف وحدة سكنية في الجليل (وهي ٢٥ ٪ من مجموع الوحدات السكنية التي ستباشر وزارة الاسكان ببنائها في السنة المقبلة) . وبالاضافة الى ذلك، يجري التخطيط لاقامة ٣ مراكز صناعية اقليمية في الجليل : الاول في الجليل الغربي يخدم معلوت ، شلومي ونهاريا ، الثاني في منطقة كرميئيل ، والثالث شرقي روش بينا ، الذي سيخدم صفد وحتسور . كما ستقام مراكز اصغر في كريات شمونة ، غورن وتيفن . وتقوم وزارة التجارة والصناعة بالتخطيط لاقامة هذه المراكز » .

ومن الجدير بالذكر ان تنفيذ المشاريع السابقة، ادى الى مصادرة الكثير من الاراضي العربية في الجليل . ويحتمل ان يؤدي تنفيذ الخطة الجديدة ، الى اعادة الوضع السابق ، الذي تمثل بمصادرة الاف الدونمات من اراضي عرب الجليل .

حنه شاهين

(٥) القضية الفلسطينية عسكريا

١ – حول الصناعة الحربية الاسرائيلية

لقد برهنت حرب تشرين الاول على أمور كثيرة تتعلق بالصناعة الحربية المحلية ، وكشفت اهميتها بالنسبة الى تحرير الارادة السياسية والعسكرية للدول الصغرى ، ومدى تأثيرها على حجم عمليات النقل الجوي الخارجي التي تتم خلال القتال ، وعلى امكانية استمرار القتال بوتيرة عالية من قبل التطلعات المحاربة . وتدل أنباء العدو الاسرائيلي على ان قيادة القوات المسلحة أخذت تبذل منذ انتهاء الحرب جهودا واسعة لتعزيز الصناعة الحربية . ويرجع هذا الاهتمام المتزايد الى الاسباب التاليــة :

١ – فشل الصناعة الحربية السابقة في تقديم المعدات والذخائر والاسلحة اللازمة لمجابهة المعضلات التكتيكية والتكنولوجية التي طرحتها معارك تشرين الاول .

٢ – عدم كفاية الانتاج الاسرائيلي لتعويض الخسائر الضخمة التي تعرضت لها قوات العدو على الجبهتين .

٣ – عدم قدرة الانتاج الحربي على امداد القوات المحاربة بالذخائر اللازمة لمتابعة حرب طويلة الامد نسبيا ، خاصة وان الاسرائيليين استخدموا خلال القتال تكتيكات تعتمد على غزارة الرمي ، ظنا منهم بأن الحرب ستكون قصيرة الامد ، وان كثافة الرمايات قادرة على تحطيم معنويات الجندي العربي .

٤ – اقتناع الاسرائيليين الكامل بعد انتهاء القتال بأن مصيرهم غدا مرهونا بالولايات المتحدة بصفتها مصدرهم الوحيد للحصول على الذخائر والاسلحة ، واحساسهم بمدى الضغط التسليحي الذي يمكن لواشنطن ان تمارسه على اسرائيل ، اذا ما استطاعت الاستراتيجية الاقتصادية العربية اقناع الاميركيين عمليا ، بأن مصلحتهم القومية متناقضة في الشرق الاوسط مع مصالح الدولة الصهيونية .

٥ – ارتفاع تكاليف الجسر الجوي الاميركي الذي بدأ في يوم ١٣ تشرين الاول (اكتوبر) ، ووصلت اولى شحناته الى مطار اللد في الساعة ٢٢٤٠٠ من يوم ١٤/١٠ ، ونقل ٢٢ الف طن من المعدات والذخائر مستخدما طائرات « ستارليفتر C. 141 » و « غالاكسي C.5 - A » ، وكانت طاقته ٢٤٠ مليون طن/كيلومتر ، على اعتبار ان متوسط مسافة النقل ١١ الف كيلومتر .

٦ – انخفاض احتياطي العملة الصعبة في اسرائيل من ١٧٤ مليار دولار في بداية العام ١٩٧٣ الى أقل من ١٤١ مليار دولار في شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٧٤ (يديعوت أحرونوت، ٧٤/٩/٨).

٧ – ازدياد العجز في ميزان المدفوعات . فلقد بلغ هذا العجز في الاشهر السبعة الاولى من العام ١٩٧٤ حوالي ١٣٠٢ مليون دولار مقابل ٨٢٥ مليونا خلال الفترة المقابلة من العام ١٩٧٣ ، أي بزيادة قدرها ٥٨٪ . وهذا يعني ان معدل العجز الشهري في ميزان المدفوعات خلال النصف الاول من العام ١٩٧٤ يعادل ١٨٥ مليون دولار مقابل ١٥٥ مليون دولار شهريا خلال النصف الاول من العام ١٩٧٣ (دافار ، ٧٤/٩/٣) .

ويبدو من الواضح أن اهتمام اسرائيل بالصناعة الحربية يعكس رغبة الحكومة الصهيونية في تخفيف حجم تبعيتها التسليحية للولايات المتحدة الى حد ما ، واقلال الوزن العام لاي جسر جوي انقاذي اميركي مقبل ، وتوفير جزء من العملة الصعبة المخصصة لاستيراد الاسلحة ومعدات القتال الذي سيستهلك ١٫٥ مليار دولار من المساعدة الاقتصادية – العسكرية السنوية الاميركية (٢ مليار دولار)، بالاضافة الى تعديل خلل المدفوعات عن طريق بيع جزء من انتاج المصانع الحربية الى دول اميركا اللاتينية والدول العنصرية في افريقيا .

ومن الجدير بالذكر ان الصناعة الحربية الاسرائيلية تنتج عددا من الصواريخ (صاروخ جو – جو « شفرير » ، وصاروخ سطح – سطح « غبرييل » وصاروخ أرض – ارض « جيريكو »)، وتصنع او تعدل عددا من القذائف الصاروخية ، وتصنع الذخائر الخفيفة والثقيلة ، والاسلحة الخفيفة (بنادق ، مسدسات ، قنابل يدوية ، هاونات) ، والعربات المدرعة ، وطائرات من طراز « عرفة » و « باراك » . بالاضافة الى

التجهيزات الميدانية ، والمعدات الاليكترونيسة ، وأجهزة الاتصال ، وقطع الغيار ، وعدد من المعدات اللازمة للقتال . ويذكر المهندس ميخائيل شور ، مدير الصناعة الحربية في اسرائيل ، ان احدى عبر الحرب الرابعة كانت « زيادة احتياط الذخيرة على انواعها لحساب الجيش ، وقد بذل منذ انتهاء الحرب جهد مركز لهذا الغرض » (دافار ، ٩/٤).

ويظهر اهتمام اسرائيل بتدعيم الصناعة الحربية من الظواهر الثلاث التالية : ١) استمرار فترة الطوارىء في هذه الصناعة حتى الان ، رغم انتهائها في بقية قطعات ومصالح الجيش (دافار ، ٩/٤)؛ ٢) ووضع خطة لزيادة عدد العاملين فيها من ١٠ آلاف شخص في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٤ الى ١١ ألف شخص في نيسان (ابريل) ١٩٧٥ ، ٣) شراء عدد من الشركات الاميركية المهتمة بالصناعات الحربية الخاصة بالاجهزة الاليكترونية او أجهزة الاتصال ، وفتح فروع لعدد من الشركات الاميركية في اسرائيل . ونذكر على سبيل المثال ان شركة تاديران للصناعة الاليكترونية الاسرائيلية قد اشترت مؤخرا شركة الكتروسبيس الاميركية التي تصنع أجهزة اتصال عسكرية ، بعد ان أعلنت هذه الشركة افلاسها في حزيران (يونيو) ١٩٧٤ . وصار بوسعها انتاج الاجهزة التي كانت تنتجها شركة الكتروسبيس وهي : جهاز الاتصال الميداني الخفيف PRC-77 ، وبعض قطع جهاز الاتصال VSC-13 المستخدم في طائرات الاستطلاع ، وجهاز كزيتون للرؤية VSS-R الذي يركب على دبابات الاستطلاع وسيارات الجيب وطائرات الهليكوبتر ، وجهاز الاتصال التكتيكي GRC-10 ، وبعض قطع جهاز تيلي تايبرايتر MGC-9 ، وجهاز الهاتف الميداني TTC-7 (دافار ٩/٤) .

ورغم تزايد الانتاج الحربي المعادي ، والجهود الكبيرة التي تبذلها اسرائيل لتصدير منتجاتها الحربية ، فان من غير المتوقع ان تستطيع الصناعة الحربية تعديل ميزان المدفوعات الاسرائيلي ، نظرا لان هذه الصناعة تركز على سد حاجات القوات المسلحة الاسرائيلية . ولقد ذكر المهندس شور ان قيمة الصادرات الحربية كانت قبل حرب ١٩٧٣ تعادل ١٠٠ مليون ليرة اسرائيلية سنويا ، وان هذا الرقم سينخفض في عام ١٩٧٤ الى ٧٠ مليون ليرة فقط ، رغم وصول عائدات الصناعة الحربية الى ٨٠٠ مليون ليرة (يديعوت أحرونوت، ٩/٤) . بيد ان الاسرائيليين يأملون تعديل ميزان المدفوعات عن طريق بيع منتجات صناعة الطائرات . ولقد ذكرت معاريف (٩/١٥) ان اسرائيل ستعرض في معرض طهران معدات الكترونية وجوية وأجهزة حساسة أخرى دون ان تعرض أية طائرة ، وان الاكوادور تنوي شراء طائرتين من طراز بوينغ ٧٢٠ رممت في اسرائيل بمبلغ ٤٤٧ ملايين دولار.وستعقد مع صناعة الطائرات الاسرائيلية اتفاق صيانة وتدريب لمدة ثلاث سنوات . وكانت اسرائيل قد اشتركت في معرض لوس انجلوس الجوي ، وكشفت بعض التفاصيل التقنية لطائرة « وستويند ١١٢٤ » التجارية ، التي تعتبر تطويرا لطائرة « وستويند ١١٢٣ » (معاريف ٩/٢٤) . وذكرت الصحيفة ان شركة افييشن اتلانتيك التي تساعد اسرائيل على صنع هذه الطائرة منذ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢ ستوسع نشاطها في اسرائيل خلال الثمانينات ، وانها ستستلم اولى طائرات « وستويند ١١٢٤ » في مطلع عام ١٩٧٦ . ومن الجدير بالذكر ان شركة أفييشن اتلانتيك التي تملك حق توزيع طائرات وستويند في اميركا وكندا قد باعت في الولايات المتحدة حتى اليوم ١٨ طائرة ، وان ٥ طائرات اخرى بيعت في أماكن اخرى في العالم . وان من المنتظر بيع ١٨ طائرة « وستويند ١١٢٤ » في عام ١٩٧٦ بسعر ١٫٥ مليون دولار للطائرة الواحدة .

وتمثل الصناعات المعدنية والالكترونية أمل اسرائيل الثاني في هذا المضمار ، ومن المحتمل ان ترتفع قيمة صادراتها في العام ١٩٧٤ الى ١٧٠ مليون دولار مقابل ١٣٦٫٨ مليونا في العام ١٩٧٣ ، و ١١٤٫٤ مليونا في العام ١٩٧٢ (معاريف ٩/١٩). ولكن هذه الصناعة نفسها تتعرض لصعوبات كبيرة، تتمثل في نقص الطاقة البشرية المؤهلة ، ونقص المواد الخام ، والتضخم النقدي في اسرائيل ، وارتفاع الاسعار ، وتقلص شبكة العلاقات الاسرائيلية مع دول العالم ، واغلاق اسواق عالمية كثيرة في وجه الصناعة الاسرائيلية واحجام رؤوس الاموال الاجنبية عن القدوم الى اسرائيل بعد حرب ١٩٧٣ .

ان للصناعة الحربية الاسرائيلية اكثر من هدف ، فهي تخلق النواة التقنية اللازمة لتطوير

الانتاج الحربي في المستقبل ، وتؤمن الى حد ما استقلال الارادة السياسية ، وتخفف حجم الدعم الاميركي المطلوب، وتؤمن تعديل الاسلحة والمعدات لتتلاءم مع طبيعة مسارح العمليات في الشـــرق الاوسط ، وتزيد القدرة على اصلاح الاسلحـــة وصيانتها خلال الحرب ، وتجعل من الممكن الافادة بسرعة من الاسلحة التي يتم الاستيلاء عليهـا بعد ادخال التعديلات عليها ، وهي بالاضافة الى كل ذلك عامل اقتصادي يمتص ١٠ آلاف يد عاملة تقنية وغير تقنية ، ويوفر جزءا من العملات الصعبـة اللازمة لاستيراد الاسلحة والمعدات والذخائر ، ويعدل الخلل في ميزان المدفوعات ، ويفتح الباب أمام التغلغل السياسي الاسرائيلي في بلدان العالم الثالث . ولا يمكن رصد تطور هذه الصناعة ونموها بسلبية ، والرد الوحيد العملي على وجودها ، هو خلق صناعة حربية عربية متطورة تتلاءم مع مستوى الخطر المتوقع والمعركة الحتمية المنتظرة .

٢ ــ رحلة رابين الى اميركا

بدأ الاعلام الاسرائيلي ، قبل زيارة رئيس وزراء العدو اسحاق رابين الى الولايات المتحدة ، بشن حملة ترتكز حول ضخامة الاسلحة التي يحصل عليها العرب من الاتحاد السوفياتي ، وضـرورة تعديل موازين القوى بصفقات أسلحة اميركية ، واستعداد الجيش السوري لشن هجوم خاطف على اسرائيل وجر مصر والدول العربية الاخرى الى حرب خامسة ، وضرورة خلق اسرائيل القويـة لضمان الاستقرار والسلام في الشرق الاوسـط ، مع الحد من تغلغل الاتحاد السوفياتي في المنطقة .

وكان بعض المراقبين يتوقع ان لا تقع واشنطن في « فخ » الاعلام الاسرائيلي ، وان تكون أمينة لتأكيدات الرئيس جيرالد فورد حول « التزامها [الولايات المتحدة] بمساعدة الفرقاء المعنيين لتحقيق سلام عادل ودائم في المنطقة » ، وان تعي بعد حرب تشرين الاول ، ان « اسرائيل القوية » التي كانت تدعي قبل الحرب الرابعة انها قادرة على تأمين السلام ، والحفاظ على المصالح الاميركية ، وابعاد النفوذ السوفياتي، لم تفشل في تهديد العرب وقهر ارادتهم فحسب ، بل حثهم ايضا على خلق قوة عسكرية كبيرة وشن حرب مفاجئة عرضت الامن والوجود الاسرائيليين لخطر ماحق ، باعتراف قادة العدو أنفسهم . ووسعت نطاق النزاع وجذبت اليه دولا عربية جديدة ، وزادت ارتباط عدد من الدول العربية مع موسكو .

وكان وزير الدفاع شمعون بيريس قد سبق رئيس الوزراء الاسرائيلي الى اميركا وكندا ليهيء له الجو ، وصرح في مونتريال ان على اسرائيل « ان تتبنى جيلا جديدا من القوة الاسرائيلية مدعوما بأحدث الاسلحة العصرية لمجابهة الخطر الكـبير والوشيك لحرب جديدة » (رويتر ، ٩/٦) .

وفي العاشر من شهر ايلول (سبتمبر) توجه رابين الى الولايات المتحدة بغية الحصول عـلى مزيد من المساعدات الاميركية خلال العام الحالي والاعوام المقبلة ، والحصول على أسلحة جديدة متطورة لموازنة التسليح العربي ، وتوضيح موقف اسرائيل من مؤتمر جنيف والشعب الفلسـطيني والمرحلة المقبلة من المفاوضات مع الدول العربية .

ويهمنا في هذا المجال الحديث حول البند الثاني : « **الحصول على أسلحة جديدة متطورة لموازنـة التسليح العربي** » . فلقد حاول رابين خلال بحث هذا البند اقناع المسؤولين الاميركيين بأن « اسرائيل القوية » وحدها قادرة على احلال السلام في الشرق الاوسط ، متجاهلا الحقيقة التاريخية التي تؤكد ان « اسرائيل القوية » عجزت عن تحقيق السلام خلال ٢٦ عاما ، وان انتصاراتها العسكرية في حروب ٤٨ و٥٦ و٦٧ لم تدفعها نحو السلام بل دفعتها على العكس نحو مزيد من التطرف ، وفتحت شهيتها للتوسع وضم الاراضي العربية ، وان الانجازات الحربية العربية في العام ١٩٧٣ جعلت المنطقة اقرب الى السلام مما كانت عليه بعد حرب ١٩٦٧ .

ورغم ايمان الولايات المتحدة بأن عليها حماية أمن اسرائيل ووجودها ، ورغم قناعة البيت الابيض بأن « اسرائيل القوية » ضرورية لاحلال السلام في المنطقة ، فقد كان هناك تباين في وجهتي النظر الاميركية والاسرائيلية حول معنى تعبير « اسرائيل القوية » . ذلك لان الاسرائيليين يرون ان هذا التعبير يعني « اسرائيل المسلحة بأحدث الاسلحة الاميركية لموازنة القوة العسكرية للدول العربيـة مجتمعة ، والمتسعة حتى حدود يمكن الدفاع عنها » على حين كان الاميركيون يرون انه يعني « انسحاب اسرائيل مـن معظـم الاراضي العربية المحتلة ،

وذلك بعد تسليحها لموازنة القوة العسكرية لمصر وسورية فقط ، وخلق مناطق حدودية معزولة السلاح ، وضمان أمن اسرائيل وسلامة اراضيها دوليا » .

ويذكر زئيف شيف في هذا المجال « أية اسرائيل تريد واشنطن ان ترى في العالم العربي الذي تعود اليه باندفاع ؟ والى أي مدى ترغب في ان تكون لدى اسرائيل قدرة هجومية كبيرة ؟ من الواضح ان هناك خلافات في الرأي بيننا وبين الولايات المتحدة حول معنى « اسرائيل القوية » ، دون ان يقال ذلك بصراحة للقادة الاسرائيليين الذين زاروا واشنطن خلال الاشهر القليلة ، او لممثلي الجيش الاسرائيلي . ويترجم خبراء الجيش الاسرائيلي عبارة « اسرائيل القوية » بصورة الحد الاقصى — وفي رأيهم لا توجد مبالغة هنا في ضوء عبر حرب يوم الغفران [حرب رمضان] ، والقوة المالية التي تراكمت لدى العرب . ويرى الاميركيون هذه الامور من خلال نظرة أخرى ، ومن خلال مصالحهم السياسية الاكثر شمولا » (هآرتس ٩/١٩) .

ولقد طالب رابين وخبراؤه العسكريون بتغطية نفقات جميع خسائر حرب ١٩٧٣ ، وردم الثغرات التي ظهرت في ميزان القوى العربي — الاسرائيلي خلال هذه الحرب ، وخاصة في مجال المدفعية والاسلحة المضادة للدبابات ، وتحديث الجيش الاسرائيلي الذي لا تزال بعض وحداته (مشاة ، مدرعات ، مدفعية) مزودة بأسلحة من جيل الخمسينات . والتخلص من تنويع الاسلحة في القوات المسلحة الاسرائيلية ، وتوحيد هذه الاسلحة بعد الاستغناء عن الاسلحة الفرنسية والبريطانية والسوفياتية (غنائم) الموجودة فيها ، والاستعاضة عنها بأسلحة اميركية ، والاسراع في تسليم الاسلحة نظرا لاحتمال اندلاع القتال في العام ١٩٧٥ رغم عدم موافقة البنتاغون على هذا التقييم ، وزيادة مخزون اسرائيل من الاسلحة والمعدات والذخائر استعدادا لحرب طويلة نسبيا ، والحصول على الاسلحة وفق خطة تسليحية طويلة الامد .

وكانت الطلبات الاسرائيلية كبيرة جدا . ويذكر زئيف شيف « ... فالكميات بالنسبة الى بعض الانواع ، كبيرة الى درجة ان ممثلي الدولة العظمى [الولايات المتحدة] ذهلوا عندما استمعوا الى الاعداد المطلوبة . وبالنسبة الى سلاح معين فقد زعم الاميركيون اننا طلبنا كمية تماثل ما هو موجود لدى الجيش الاميركي بأسره » (هآرتس ٩/٢٠) .

وخلاصة القول ان اطماع اسرائيل وفهمها لدورها في المنطقة دفعت رابين الى مطالبة واشنطن بأسلحة ومعدات حربية تسمح للدولة الصهيونية ببناء قوة هجومية قادرة على مجابهة قوات دول الطوق ، والقوات المسلحة العربية التي يمكن ان ترفدها ، والحفاظ على السلام عن طريق التهديد بالهجوم والقدرة على تنفيذه ، على حين رأت الولايات المتحدة ان من الضروري تزويد اسرائيل بأسلحة تجعلها قادرة على الدفاع عن نفسها ، شريطة ان تحتفظ واشنطن بحق الرقابة على الجيش الاسرائيلي حتى لا يخرج عن مجال سيطرتهم ، وحتى لا تؤدي تصرفاته الانفعالية المحكومة بنظرة ذاتية ضيقة الى توريط الولايات المتحدة في اوضاع سياسية او عسكرية تتعارض مع السياسة الاميركية العليا. « وبكلمات اخرى تريد الولايات المتحدة ان تكون اسرائيل قوية بما فيه الكفاية ، كي تستطيع الذهاب الى المفاوضات مع الدول العربية ، وتقدم تنازلات اقليمية كبيرة من خلال ثقتها بقوتها ، لا ان تأتي الى المفاوضات من موقف قوة يمنحها الاحساس بأنها قادرة على السماح لنفسها بخوض حرب أخرى ، على الا تتنازل مقابل تسويات ، واتفاقات لا تشكل سلاما كاملا » (هآرتس ٩/١٩) .

ولقد نجم عن زيارة رابين ، التي استمرت حتى ٩/١٥ ، **حصول اسرائيل على مساعدات عسكرية مشروطة بضرورة احراز التقدم على طريق التسوية السياسية** . وتذكر صحيفة معاريف (٩/١٥) ان هذه المساعدات ستشمل ٤٢٥مليارات من الدولارات خلال ثلاث سنوات ، بدلا من الـ ٧٢٥ مليارات التي طالبت اسرائيل بالحصول عليها خلال خمس سنوات . وان هذه المساعدات ستخصص لشراء ٢٠٠ — ٢٥٠ دبابة من طراز « م — ٦٠ » ، و ٥٠ طائرة فانتوم « ف — ٤ اي » وقنابل موجهة بالليزر ، وطائرات هليكوبتر « هيوكوبرا » مسلحة بصواريخ « تاو » المضادة للدبابات والتحصينات . وعدد من المدافع والعربات المدرعة والمعدات العسكرية الاخرى .

فاذا أضفنا الى هذه الاسلحة ٤٠٠ دبابة سنتوريون اشترتها اسرائيل من واشنطن (صنداي

تلغراف ٧٤/٩/١٥) وجدنا ان اسرائيل التي عوضت خسائرها في حرب تشرين الاول (اكتوبر) من الدبابات ، ورفعت عدد دباباتها من ١٧٠٠ دبابة قبل الحرب الرابعة الى ١٩٠٠ دبابة (ميزان التسليح العربي الاسرائيلي منذ حرب اكتوبر) ستمتلك عند اتمام الصفقتين الاميركية والبريطانية ٢٥٠٠ — ٢٥٥٠ دبابة معظمها من دبابات «م —٦٠» الاميركية الصنع و «سنتوريون» البريطانية الصنع. مقابل أكثر من ٢٠٠٠ دبابة مصرية ومغربية وجزائرية وحوالي ١٦٠٠ دبابة سورية ، معظمها من طراز « ت — ٦٢ » و « ت ٥٥ أو ٥٤ » . وسيكون عدد العربات المدرعة الاسرائيلية ٢٥٠٠ عربة مقابل ٢٥٠٠ عربة مدرعة مصرية و ١٤٠٠ عربة مدرعة سورية .

ويبدو من مقارنة السلاح المدرع الاسرائيلي مع السلاحين المدرعين المصري والسوري ان الجانب العربي متفوق على الجانب المعادي عدديا. ويدعي الاسرائيليون انهم قادرون على تعديل هذا التفوق بفضل امتياز طواقم دباباتهم ، وامتياز دباباتهم نفسها . ولكن هذه الادعاءات لا تستند الى اساس من الصحة ، فلقد اثبتت الطواقم العربية ارتفاع مستواها في معارك تشرين الاول (اكتوبر) ، كما ناقش الاخ محمود عزمي المسألة التقنية في ميزان القوى المدرع العربي — الاسرائيلي في مجلة شؤون فلسطينية ، عدد رقم ٣١ ، آذار (مارس) ١٩٧٤، وعدد رقم ٣٨ ، تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤ ، وأثبت بطلان الادعاءات الاسرائيلية حول الامتياز التقني للدبابات الاميركية او البريطانية الصنع بالنسبة الى الدبابات السوفياتية .

والحقيقة التي لا جدال فيها، هي ان الاسرائيليين يسعون الى تعديل ميزان القوى المدرع بفضل خمسة عوامل هي : ١) الاعتماد على الدعم الجوي الكثيف ، ٢) استخدام القنابل الذكية « سمارت بومب » الموجهة بالليزر ، والصواريخ الموجهة تلفزيونيا « مافريك » ، و « وول آي » ، وكلها أسلحة دقيقة الاصابة ، ٣) الاعتماد على الصاروخ الموجه المضاد للدبابات « تاو » ، الذي يمكن استخدامه على قاعدة ثابتة ، او على سيارة جيب او عربة مدرعة او من طائرة هليكوبتر ، ويستطيع ضرب الدبابات بفعالية من مسافة ٢٠٠٠ متر . ولقد حصل الاسرائيليون على هذا السلاح في حرب ١٩٧٣ ، ٤) الاعتماد على طائرات الهليكوبتر المسلحة ، ٥) الاعتماد على الاحتياط المضاد للدبابات المحمول بطائرات الهليكوبتر ، والقادر على التحرك بسرعة ومرونة في مسارح العمليات .

اما على صعيد الطائرات المقاتلة ، فان حصول اسرائيل على ٥٠ طائرة فانتوم « ف — ٤ اي » ، سيرفع عدد طائراتها المقاتلة (صف اول) الى ٢٠٠ طائرة فانتوم ، و ١٥٠ طائرة سكاي هوك « أ — ٤ أي/هـ » ، بالاضافة الى عدد من طائرات « ميراج — ٣ سي » التي كانت اسرائيل تفكر باخراجها من سلاحها الجوي نظرا لنقص قطع غيارها بسبب تدابير الحظر الفرنسي ، والتي أصبح من الممكن اليوم ابقاؤها في الخدمة بعد رفع الحظر .

ويدل اهتمام الولايات المتحدة بتعويض خسائر اسرائيل من طائرات « الفانتوم » خلال الحرب ، ورفع عددها من ١٠٠ طائرة في عام ١٩٧٣ الى ١٥٠ طائرة في بداية عام ١٩٧٤ ، ووصول هذا العدد الى ٢٠٠ طائرة في نهاية عام ١٩٧٤ ، على ان حرب تشرين الاول (اكتوبر) ، واستخدام الصواريخ المضادة فيها على نطاق واسع، قد دفع الاسرائيليين الى الاقلال من اعتمادهم على طائرة « سكاي هوك » في مهمات الدعم الارضي ، وتركيز اهتمامهم على طائرة « فانتوم » القاذفة — المقاتلة ، نظرا لان سرعة هذه الطائرة (٢،٢ ماك مقابل ٠،٨٢ ماك في « سكاي هوك ») ، وتقدم اجهزتها التكنولوجية ، يجعلها أقدر من « السكاي هوك » على تنفيذ مهمات القصف الجوي خلال الدعم التكتيكي والعملياتي ، وأقل منها عرضة للاصابة بالصواريخ الموجهة المضادة للطائرات .

ورغم قلة مجموع عدد الطائرات المقاتلة الاسرائيلية ، بالنسبة الى مجموع عدد الطائرات المقاتلة المصرية والسورية ، فان التفوق بالحمولة الحربية هو لصالح اسرائيل نظرا لامتلاكها طائرات قاذفة — مقاتلة متعددة المهمات وكبيرة الحمولة وذات قدرة على التحليق مدة طويلة في الجو . ولقد عدلت الجيوش العربية هذا التفوق في حرب ١٩٧٣ بفضل تدعيم شبكات الدفاع الارضي المضاد للطائرات ، والتنسيق الكامل بين شبكات الدفاع الارضي وأسراب الطائرات المعترضة «ميغ — ٢١». ومن المؤكد ان هذا التعديل سيظهر بشكل أوضح في أي صدام مقبل نظرا لحصول الطيران السوري

على عدد من طائرات « ميغ ــ ٢٣ » القــادرة على تقليص حرية عمل طــائرات « الفانتوم » الاسرائيلية ، الامر الذي دفع الاسـرائيليين الى مطالبة الولايات المتحــدة بطائــرات « تومكات ف ــ ١٤ » او « ايغل ف ــ ١٥ » الحديثة القادرة على مجابهة طائرات « ميغ ــ ٢٣ » . وتذكر مجلة افييشن ويك (١٠/٧) ان الاسرائيليين سيشترون من ٢٤ الى٤٨ طائرة من طراز «تومكات ف ــ ١٤»، او « ايغل ف ــ ١٥ » ، وانهم لم يحددوا بعــد النوع الذي يرغبونه رغم ان الطيارين الاسرائيليين جربوا النوعين المذكورين وزاروا مصانع تجميعهما. وتضيف المجلة ان سعر الطائرة « ايغل ف ــ ١٥ » سيكون أرخص من سعر الطائرة « تومـكات ف ــ ١٤ » بمقدار مليون دولار اذا ما كان عدد الطائرات المشتراة ٤٨ طائرة . ومن الجدير بالذكر ان ايران اشترت في عام ١٩٧٣ ثلاثين طائرة من طــراز « تومكات ف ــ ١٤ » بسعر ٣٠ مليون دولار للطائرة الواحدة مع قطع غيارها وأجهزتها التقنية المختلفة .

وهكذا نرى ان زيارة رابين للولايات المتحدة قد حققت جزءا من أغراضها العسكريــة ، وامنت لاسرائيل امكانية الحصول على الاسـلحة التي تجعلها « قوية » بالمفهوم الاميركي لا الاسرائيلي للكلمة . وعليها الان ان تدفع الثمن الســياسي الذي سيطالبها به كيسنجر خلال جولته الشرق أوســطية التي بدأت في يوم ١٠ تشرين الاول (اكتوبر) . فهل ستدفع اسرائيل الثمن ، أم ستتهرب كما تهربت في عام١٩٦٩ بعد صفقة الفانتوم الاولى ، التي استخدم لاول مرة في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠ خلال حرب الاستنزاف ؟ هذا ما ستكشفه نتائج جولة كيسنجر .

المقدم الهيثم الايوبي

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٩/١٦ – ١٩٧٤/١٠/١٢

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	جريح	مفقود	المصدر: البلاغ العسكري	تاريخه
١	٩/١٩	—	تل ابيب/شارع بن يهودا	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير مخزن لاسطوانات الغاز	—	—	—	رقم٧٤/٢٥٢	٩/٢٠
٢	٩/١٨	—	مستوطنةكديما/ ضواحي ناثانيا	القاعتبلة	تنبلة يدوية	غيرمحدد	تحطيم زجاج مقهى يرتاده ضباط ومخابرات العدو	—	—	—	رقم٧٤/٢٥٣	٩/٢٠
٣	٩/١٥	—	بيت عوا/ قضاء دورا	هجوم	أسلحة رشاشة وقنابل حارقة	— —	تدمير مكتب العمل الصهيوني واحراق محتوياته	—	—	—	رقم٧٤/٢٥٤	٩/٢١
٤	٩/١٥	—	بين بيت عوا ودورا	هجوم	أسلحة رشاشة وقنابل حارقة	غيرمحدد	تدمير باص لشركة ايجد	—	—	—	رقم٧٤/٢٥٤	٩/٢١
٥	٩/١٨	—	تل ابيب/منطقة ياد الياهو	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير بعض أجزاء من محل تجاري	—	—	—	رقم٧٤/٢٥٥	٩/٢١
٦	٩/٢١	—	جنين	هجوم	أسلحة رشاشة	غيرمحدد	مهاجمة بعض افراد العدو في سوق الخضار بالمدينة	—	—	—	رقم٧٤/٢٥٦	٩/٢٢
٧	٩/٢١	—	كنار جلعادي/ الجليل الاعلى	تفجير	تنابل حارقة	غيرمحدد	اشعال النيران على جميع محتويات مستودعات للالبسة العسكرية	—	—	—	رقم٧٤/٢٥٧	٩/٢٢
٨	٩/٢١	—	بيت لحم	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	اصابة جزء كبير من مبنى بنك لئومي باضرار	—	—	—	رقم٧٤/٢٥٨	٩/٢٢
٩	٩/٢١	—	تل ابيب	هجوم	أسلحة مختلفة	غيرمحدد	مهاجمة مدرسة اوريم في منطقة اوريهودا واحراق المكتب وجميع محتوياته	—	—	—	رقم٧٤/٢٥٩	٩/٢٢
١٠	٩/٢٣	—	عسقلان	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	— —	تدمير سيارة عسكرية والذخيرة واصابة المباني المجاورة بأضرار	—	—	—	رقم٧٤/٢٦٠	٩/٢٣

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
١١	٩/٢٢	—	نابلس	القاعقنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		اعطاب سيارة عسكرية واصابة افرادها	—	—	—	رقم٧٤/٢٦١	٩/٢٣
١٢	٩/١٩	—	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اصابة مقهى بأضرار	—	—	—	رقم٧٤/٢٦٢	٩/٢٤
١٣	٩/٢٠	—	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير جزء من منزل لاحد ضباط المخابرات	—	—	—	رقم٧٤/٢٦٢	٩/٢٤
١٤	٢٤—٩/٢٥	—	ناؤت هكيكار/ جنوب البحر الميت	قصف	صواريخ ثقيلة	غيرمحدد		اصابة منشآت ومصانع للعدو	—	—	—	رقم٧٤/٢٦٣	٩/٢٦
١٥	٩/٢٣	٢١٤٣٠	نابلس	هجوم	قنابل يدوية وحارقة	—	—	تدمير اثاث مكتب العمل الصهيوني واحراقه	—	—	—	رقم٧٤/٢٦٤	٩/٢٧
١٦	٩/١٥	١٨٤٠٠	رأس زويره/ النقب الشمالي	كمين	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	٢	—	تدمير سيارة عسكرية والاستيلاء على بعض الاسلحة	—	—	—	رقم٧٤/٢٦٥	٩/٢٧
١٧	٩/٢٧	—	كيبوتس جعتون/ الجليل الاعلى	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير مستودعات للذخيرة التابعة لمعسكر المدفعية	—	—	—	رقم٧٤/٢٦٦	٩/٢٨
١٨	٩/٢٧	—	شمال ايالات/النقب	كمين	أسلحة رشاشة وصاروخية	غيرمحدد		معركة واسعة استمرت أكثر من ست ساعات	٢	١	—	رقم٧٤/٢٦٧	٩/٢٨
١٩	٩/٢٤	—	منطقة ديشوم	اشتباك	أسلحة مختلفة	غيرمحدد		—	—	—	—	رقم٧٤/٢٦٨	٩/٢٨
٢٠	٩/١٩	٨٤٠٠	محطة هيلون	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير جزء كبير من باص لشركة ايجد	—	—	—	رقم٧٤/٢٦٩	٩/٢٩
٢١	٩/٢٤	—	بيت جاليم/شارع سيداروكر	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير جزء كبير من محل لبيع التحف واصابة المباني المجاورة بأضرار	—	—	—	رقم٧٤/٢٧٠	٩/٢٩
٢٢	٩/٢٤	—	حيفا/ساحة باريس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	اكتشف العدو العبوة قبل انفجارها وقام بابطال مفعولها	—	—	—	رقم٧٤/٢٧١	٩/٢٩
٢٣	٩/٢٩	—	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	اكتشف العدو العبوة داخل باص شركة ايجد وأبطل مفعولها	—	—	—	رقم٧٤/٢٧٢	٩/٣٠
٢٤	٩/٢٩	٢٢٤٠٠	القدس/حي بيت جان(١)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اشعال النيران في مشاغل مؤسسة الشبيبة الصهيونية وتدمير قسم التجارة وقسم الالكترونات والمكتبة	—	—	—	رقم٧٤/٢٧٣	٩/٣٠
٢٥	٩/٣٠	—	كريات جات/بئر السبع(٢)	تفجير	شبكة الغام	غيرمحدد		تدمير عربات من قطار بعد تفجير الخط الرئيسي وتوقيف حركة سير القطارات	—	—	—	رقم٧٤/٢٧٤	٩/٣٠
٢٦	٩/١٢	—	منطقة الريسه/سيناء	كمين	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	—	٨	تدمير سيارة باور وجن	—	١	—	رقم٧٤/٢٧٥	١٠/١
٢٧	٩/٣٠	١٤٠٠	عين ياها/البحر الميت	اشتباك	أسلحة مختلفة	غيرمحدد		معركه واسعة لمدة ساعة ونصف بعد اكتشاف المجموعة وهي في طريقها الى هدفها	١	—	—	رقم٧٤/٢٧٦	١٠/٢
٢٨	١٠/٣	٢١٤٣٠	القدس/سوق محني يهودا(٣)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اصابة بعض المحلات التجارية والمباني بأضرار	—	—	—	رقم٧٤/٢٧٧	١٠/٤
٢٩	٩/٢٩	—	دورا	هجوم	رشاشات وقنابل حارقة	—	—	تدمير واشعال النيران في مكتب العمل الصهيوني	—	—	—	رقم٧٤/٢٧٨	١٠/٥
٣٠	١٠/٦	—	غزة/سوقفراس	القاعقنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		اعطاب سيارة عسكرية واصابة من فيها	—	—	—	رقم٧٤/٢٧٩	١٠/٧

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
٣١	١٠/٢	٢٠،٣٠	نابلس/قرب المنتزه	هجوم	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد		تدمير آلية واعطاب سيارة	—	—	—	رقم٧٤/٢٨٠	١٠/٧
٣٢	٩/٢٤	—	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اصابة مطعم للعدو بأضرار وقتل وجرح عدد من الصهاينة	—	—	—	رقم٧٤/٢٨١	١٠/٨
٣٣	١٠/٧	—	القدس/جيفان شابيرا(٤)	تفجير	قنبلة حارقة	—	—	احراق جميع محتويات مكتبة .	—	—	—	رقم٧٤/٢٨٢	١٠/٨
٣٤	١٠/٣	—	بئر السبع	—	—	١	—	تنفيذ حكم الاعدام بعميل المخابرات ابراهام كروئيل	—	—	—	رقم٧٤/٢٨٣	١٠/٩
٣٥	١٠/٩	—	حيفا	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير الكابلات الرئيسية للهاتف وقطع الاتصال بين حيفا ومعظم المدن	—	—	—	رقم٧٤/٢٨٤	١٠/٩
٣٦	١٠/٨	—	عكا/معسكر كردانة(٥)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير مستودع للذخيرة حيث توالت الانفجارات لمدة ثلاث ساعات متواصلة وأدى ذلك الى اشعال النيران في المنطقة	—	—	—	رقم٧٤/٢٨٥	١٠/١٠
٣٧	١٠/٨	١٧،٠٠	مدينة ناثانيا(٦)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اشعال النيران في مستودع للاخشاب وتدمير المستودع وامتداد النيران الى عدد من ورش النجارة والمباني الصناعية المجاورة	—	—	—	رقم٧٤/٢٨٦	١٠/١٠

---

١ ــ اعترف العدو بأن حريقا هائلا قد شب في كريات هنوعر (قرية الشباب) في حي بايت وجان ؛ وان النيران قد امتدت الى جميع أجزاء قسم الورشة الذي يضم منجرة وورشة للالكترونيات ومطبعة . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٦٤٦ ، ص ٦٧٩ ، تاريخ ١٩٧٤/٩/٣٠) .

٢ ــ أدعى العدو بأنه ونسبب عطل فني ! خرجت عن الخط عربتان من قطار شحن وبأن الرحلات على هذا الخط قد توقفت (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٦٤٦ ، ص ٦٨٩ ، تاريخ ١٩٧٤/٩/٣٠) .

٣ ــ رغم ان العدو قد اعترف بانفجار العبوة في نشرته باللغة العبرية الساعة ٢٣ عاد وذكر في نشرته الساعة ٨ من صباح اليوم التالي بأن الحادث هو خلافات وتصفية حسابات وليس هناك أية عملية تخريب . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٦٥٠ ، ص ١٠٣ ، تاريخ ١٩٧٤/١٠/٤) .

٤ ــ اعترف العدو بمقتل المرض افراهم كورئيل بظروف غامضة (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٦٥٣ ، ص ١٦٧ ، تاريخ ١٩٧٤/١٠/٨) .

٥ ــ اعترف العدو بأن حريقا شب في غابة « احي هود » شرقي عكا وبأن أربع سيارات اطفاء قد عملت طوال الليل لاخماد النيران (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٦٥٤ ، ص ١٩٢ ، تاريخ ١٩٧٤/١٠/٩) .

٦ ــ اعترف العدو بأن حريقا هائلا قد شب في المنطقة الصناعية في نتانيا وأتت النيران على منجرتين وعلى مستودع للاخشاب تابع لمنجرة ثالثة . وقد عمل رجال الاطفاء طيلة اثنتي عشرة ساعة لاخماد النيران (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٦٥٤ ، ص ١٩٢ ، تاريخ ١٩٧٤/١٠/٩) .

ملاحظة : تصدر البلاغات العسكرية عن الاعلام العسكري في القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية .

جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٩/١٦ — ١٩٧٤/١٠/١٢

الرقم	تاريخ العملية اليوم	تاريخ العملية الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	خسائر العدو البشرية جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	خسائر المقاومة جريح	خسائر المقاومة مفقود	المصدر	تاريخه
١	٩/١٦	٨٤٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف حاملي العبوة والقاء القبض عليهما	—	—	—	ن.عدد٦٣٥ص٤١٧	٩/١٦
٢	٩/٢٠	—	تل ابيب/شارع بن يهودا	تفجير	عبوة ناسفة	—	٢	اصابة المباني بأضرار	—	—	—	ن.عدد٦٣٩ص٤٨٩	٩/٢٠
٣	٩/٢١	—	بيت لحم	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	انفجار عبوة قرب بنك لئومي حيث لم تقع اصابات	—	—	—	ن.عدد٦٤١ص٥٥١	٩/٢٣
٤	٩/٢٣	—	نئوت هكيكار/ البحر الميت	قصف	قذائف هاون	—	—	لم تقع أية اصابات	—	—	—	ن.عدد٦٤٣ص٦٠٥	٩/٢٥
٥	٩/٢٨	—	منطقة العربة	—	—	—	—	تم اكتشاف عملية تسلل لمجموعة من الفدائيين واعتقال فدائيين	—	—	—	ن.عدد٦٤٦ص٦٧٦	٩/٣٠
٦	٩/٢٨	—	شمال فلسطين	اشتباك	غير محدد	١	—	قتل الملازم اول جاد راف في اشتباك مع الفدائيين	—	—	—	ن.عدد٦٤٦ص٦٨٠	٩/٣٠
٧	٩/٢٩	٦٤٢٠	حولون	تفجير	عبوة ناسفة	١	٢	تدمير باص لشركة ايجد	—	—	—	ن.عدد٦٤٦ص٦٨٣	٩/٣٠
٨	٩/٢٩	—	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوة في باص لشركة ايجد وأبطل مفعولها	—	—	—	ن.عدد٦٤٦ص٦٨٤	٩/٣٠
٩	١٠/١	—	جبل دوف	اشتباك	أسلحة رشاشة	—	—	—	٢	—	—	ن.عدد٦٤٨ص٣٧و٣٨	١٠/٢
١٠	١٠/١	—	عين ياهف/ البحر الميت	اشتباك	أسلحة رشاشة	١	—	—	١	—	—	ن.عدد٦٤٩ص٣٨	١٠/٢
١١	١٠/٣	—	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	—	١	اصابة بعض المحلات التجارية في سوق محنيه يهودا بأضرار	—	—	—	ن.عدد٦٥٠ص١٠١	١٠/٤
١٢	١٠/٦	—	نابلس	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	ادعى العدو بأن اثنين من السكان المحليين قد قتلا بعد انفجار العبوة بين ايديهما	—	—	—	ن.عدد٦٥٢ص١٦١	١٠/٧
١٣	١٠/٧	—	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	اشعال النيران في كنيس يقع على التلة الفرنسية في القدس	—	—	—	ن.عدد٦٥٣ص١٧٤	١٠/٨
١٤	١٠/٧	—	زرعيت	قصف	أسلحة رشاشة	—	—	—	—	—	—	ن.عدد٦٥٣ص١٧٨	١٠/٨

ن — نشرة رصد اذاعة اسرائيل التي تصدر يوميا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

غازي خورشيد

قضايا اسرائيلية

ملف يعنى بالشؤون الاسرائيلية والصهيونية

يصدر مرة كل اسبوعين ، ابتداء من اول تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤

« قضايا اسرائيلية » ملف اخباري تحليلي ، يتابع الشؤون الاسرائيلية والصهيونية ، الداخليـة والخارجية ، مع امتداداتها وأبعادها داخل اسرائيل وداخل الحركة الصهيونية ، وفي العلاقات بين اسرائيل ودول العالم ، وتأثير كل ذلك على الصراع العربي الاسرائيلي .

« قضايا اسرائيلية » يقدمه قسم الدراسات الاسرائيلية والصهيونية في مركز الابحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية، من خلال متابعته لكل ما يصدر في اسرائيل من صحف يومية ومجلات ودوريات متخصصة ونشرات وكتب، باللغة العبرية او بغيرها ، وما تبثه الاذاعة الاسرائيلية من أخبار وبرامج، وكذلك ما يصدر خارج اسرائيل وله علاقة بالشؤون التي يهتم هذا الملف بمعالجتها .

تقرأ في العدد الاول :

طرح القضية الفلسطينية في الامم المتحدة يفسد المخططات الاسرائيلية — الوضع السياسي في اسرائيل : حكومة رابين بين ديان وسابير — رومانيا وصراع الشرق الاوسط : الدور الحائر بين « الخدمات الحميدة » ونقل المعلومات — مساعي رابين لتوسيع قاعدة حكومته بضم الحزب الديني القومي اليها — اسرائيل تستعد لاستيعاب اعداد كبيرة من المهاجرين الجدد .

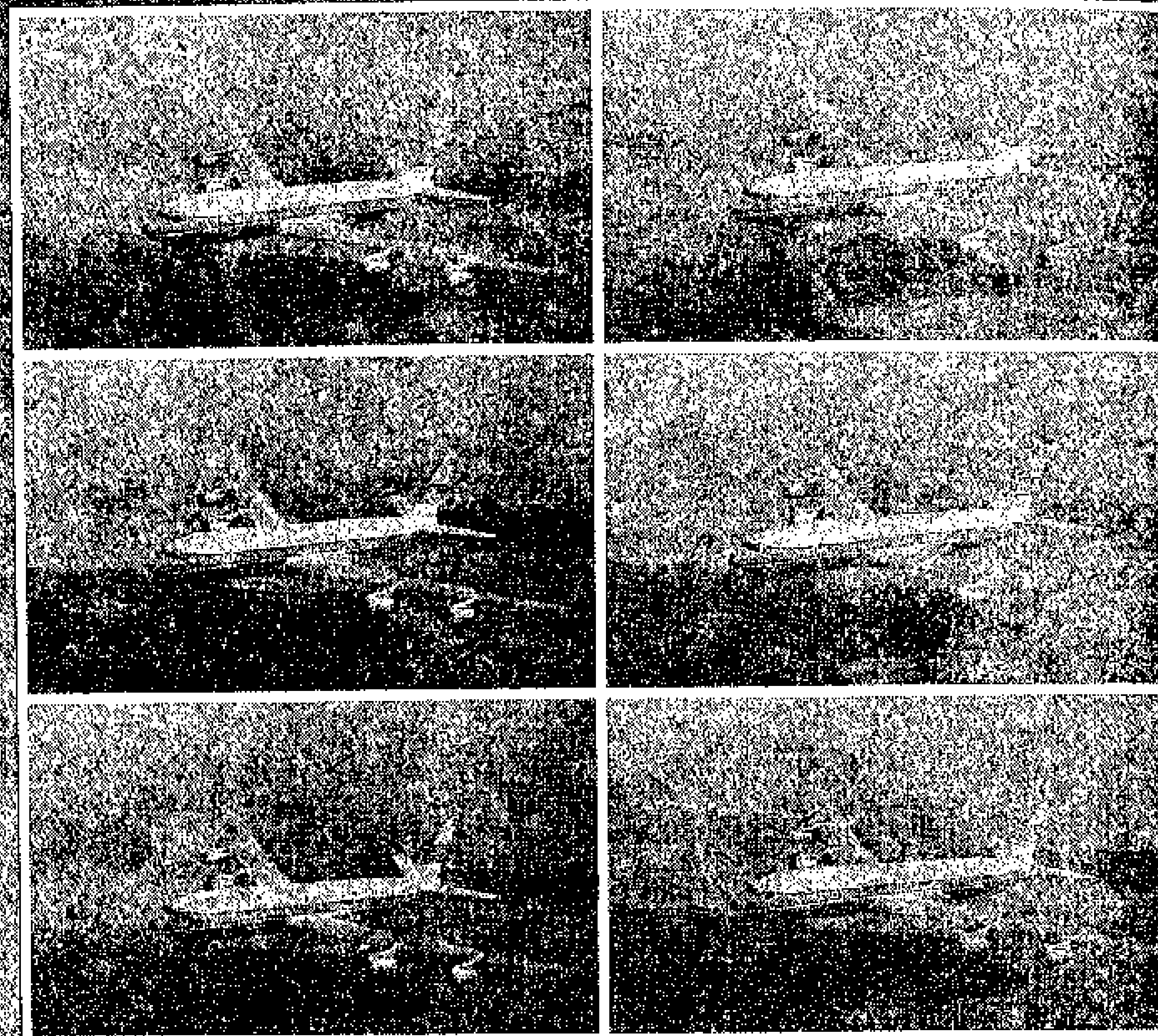
وتقرأ في العدد الثاني :

زيارة كيسنجر الى المنطقة وموقف اسرائيل من مساعي التسوية — ردود الفعل الاسرائيلية على طرح القضية الفلسطينية في الامم المتحدة : استمرار التخبط... والانتقادات — الجيش الاسرائيلي يعيد تنظيم نفسه ويدخل مرحلة جديدة — الاستيطان في المناطق المحتلة انعكاس للمخططات الاسرائيلية التوسعية تجاهها — نقاش اسرائيلي حول دروس حرب تشرين .

رئيس التحرير : صبري جريس

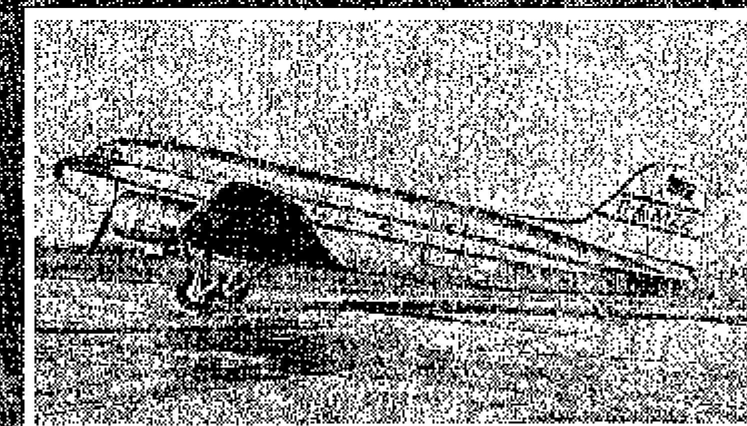
العنوان : ص.ب ١٦٩١ ، بيروت — لبنان ، تلفون ٣٥١٢٦٠/١

بدل الاشتراك السنوي : للحكومات ٩٠ ل.ل. ، للمؤسسات ٦٠ ل.ل. ، للافراد ٣٠ ل.ل.





الخطوط الجوية الكويتية



قضايا عربية

شهرية فكرية مفتوحة لمختلف الاتجاهات العربية والتقدميـــة ، تعالج الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية والعلمية في الوطن العربي ، من خلال نظرة مستقبلية وبروح البحث العلمي .

للاشتراكات يرجى مراسلة ادارة المجلة، ص.ب ٥٤٦٠، بيروت ـــ لبنان

تقرأ في العدد السادس (عدد خاص)

سعر النســـخة ٣ ليرات لبنانية او ما يعادلها

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor,* Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon L L 40, Syria S.L 50, other Arab countries LL 50 or equivalent, Africa and Europe LL 65, elsewhere LL 90; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World LL 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٣ ١/٢ ل.ل. في لبنان
٤ ١/٢ ل.س. في سوريا
٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق
٤ ١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية

شؤون فلسطينية

٤٠

كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٤



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٤٠ — كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٤

شهرية فكرية لمعـــالجة أحداث القضية الفلسطينية وشـــؤونها المختلفـــة .
تصـــدر عـــن مـــركز الابحـــاث في منظمـــة التحرير الفلســـطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **مدير التوزيع** : غازي خورشيد .

العنوان : بنايـــة الدكتـــور راجي نصر ، شـــارع كولومبـــــاني (متفرع مـــن الســـــادات) ، رأس بـــيروت ، بـــيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرأبحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٣١/٢ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٤١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٤٠ ل.ل. في لبنان ، ٥٠ ل.س. في سوريا ، ٥٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٦٥ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ٩٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

المحتويات

١٥٧ **رسائل** : (١) رسالة من بروكسل : عندما لا تفي أرض الميعاد بوعودها ، أو قضية اليهود السوفيات الفارين من اسرائيل ، نعيم خضر . (٢) من أمستردام : الرأي العام الهولندي والقضية الفلسطينية ، عقيل هاشم . (٣) من ستوكهولم : حول التصويت لجانب منظمة التحرير الفلسطينية ، هـ. د. (٤) من نيويورك : الحملة الاعلامية الصهيونية ومحاضرة دايان في جامعة نيويورك ، سلمى حداد . (٥) من موسكو : الصحف السوفياتية والقضية الفلسطينية خلال شهر اكتوبر ١٩٧٤ ، ساميه النونو .

١٨٣ **تقارير** : (١) مقارنة تكنولوجية بين طائرتي « ميغ — ٢٣ » و« ميغ — ٢٥ » وطائرات « الفانتوم » و« توم كات » و« ايغل » ، محمود عزمي. (٢) ردود الفعل الاردنية تجاه بيان مؤتمر القاهرة الثلاثي ، ع. ش . (٣) الرئيس فورد والنزاع العربي — الاسرائيلي ، الدكتور عوده أبو ردينه . (٤) تحليل لاتجاهات الدعاية الصهيونية اغسطس (آب) وسبتمبر (ايلول) ١٩٧٤ ، أ. خ.

٢٠٠ **شهريات** : (١) المقاومة الفلسطينية ، عصام سخنيني . (٢) القضية الفلسطينية دوليا. (٣) المناطق المحتلة، عيسى الشعيبي وحمدان بدر. (٤) اسرائيليات ، ص. ج. ويوسف حمدان وحنه شاهين وعماد شقور . (٥) القضية الفلسطينية عسكريا ، المقدم الهيثم الايوبي . (٦) جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية وآخر بالعمليات التي اعترف بها العدو الصهيوني من ١٣/١٠ — ١٢/١١/١٩٧٤ ، غازي خورشيد .

شؤون فلسطينية

الدكتور انيس صايغ

المسيرة الفلسطينية تثبت جداربها . والشعب الفلسطيني ، الصامد الثائر المعطاء ، يفرض نفسه . والبندقيه الفلسطينيه ، التي ارهبت العدو في الارض المحتله وخارجها، تصرح بصوت اعلى فيسمعها العالم كله . وفي مدى شهر واحد يسير حقنا نحو اهدافه البعيده والساميه خطوات وخطوات ، ان عنـد تصويت مندوبي الدول في الجمعية العموميه للامم المتحده على مشروع قرار مناقشة القضية الفلسطينية وتمثيل الشعب الفلسطيني ، او في مباحثات ، ثم قرارات ، مؤتمر القمة العربي في الرباط ، أو ، اخيرا ، في يوم فلسطين ، يوم المجد ، في قاعة الجمعية العموميه ، حينما تكلم قائد الثورة نيابه عن ثلاثه ملايين وربع المليون فلسطيني ، تكلم باسمهم وبصوتهم وبرأيهم وبعزمهم وبصدقهم . ويعبر الملايين الثلاثة والربع مع قائدهم ، في يوم فلسطين ، من مرحلة النكبة والنكسه والشتات الى مرحلة الشروع في النصر . والنصر مراحل ، والنصر خطوات ، والنصر مثابرة واستمرار في الجهد والتضحيات . لكننا في الثالث عشر من نوفمبر وضعنا اقدامنا في عتبته . فقد عاشنا العالم بأسره . وسمع صوتنا ، جليا وحازما ، ورأى بندقيتنا وفهم معناها . ولم نعد نحتاج الى جواز مرور . فقد فرض صمودنا نفسه .

واذ ينظر الفلسطيني اليوم الى المستقبـل ، يتلمس الطرق لمواصلة المسيرة واستئناف الانتصارات ، ويضع الخطط ليكون الغد اكثر اشراقا وليكون التحرير أقرب منالا ، يلتفت الفلسطيني في الوقت نفسه الى الوراء التفاتة اعتراف وتقدير ، حتى لا ينسى ان الشوط الذي قطعه انما تمكن منه بالبذل : بالشهداء وبالدماء وبالمشاق . والثمن الغالي الذي قدمناه لنصل الى حيث نحن مطلوب منا ، والمزيد منه ايضا ، لنحقق اشراقة الغد ولنحرر الارض بعد ان حررنا النفس . وقد لا نقدر على تلمس الطريق الممتد امامنا ، وقد نعجز عن استيعاب هذه الانتصارات التي نحياها ، ما لم ندرك أهمية تحرير النفس ودوره المباشر في تجرير الارض — أي ما لم ندرك حقيقة الثورة التي نخوضها منذ عشر سنوات ، والاثر الذي خلفته فينا وفي العدو وفي العالم وفي الاحداث . ومن هنا رأت « شؤون فلسطينية » ان تكون مشاركتها في الاحتفال بيوم فلسطين بجهد خاص تبذله ، بمحرريها وكتابها ، لرصد آثار الثورة الفلسطينية في عشر سنوات ، في مختلف النواحي والمجالات ، بعدد ممتاز يصدر في الذكرى العاشرة لأطلاق الرصاصات الاول ، في اليوم الاول من يناير . أما هذا العدد فاننا نحاول أن نرصد فيه خفايا دخول فلسطين ، قضية ومنظمة ، الجمعية العمومية للامم المتحدة ، من جهة ، والابعاد المباشرة لقرارات الرباط بالاعتراف بالمنظمة ممثلا شرعيا وحيدا لشعب فلسطين . ويسرنا ان نفتتح العدد بخطاب قائد الثورة الفلسطينية في الامم المتحدة بنصه الحرفي الرسمي . وهو ، في نهـاية الامر ، أبلـغ من أي تفسير له أو تعليق عليه . فقد كان صوت فلسطين الصحيح ، صوت الايمان بالحق وبالثورة وبالعدالة وبالخير .

الخطاب التاريخي للاخ ابو عمار في يوم فلسطين

الحرب تندلع من فلسطين والسلم يبدأ من فلسطين

سيدي الرئيس ،

اشكر لكم دعوتكم منظمة التحرير الفلسطينية لتشارك في هذه الدورة من دورات الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة . واشكر كل الاعضاء المحترمين في هيئة الامم المتحدة الذين اسـهموا في تقرير ادراج قضية فلسطين على جدول اعمال هذه الجمعية وفي اصدار قرار بدعوتنا لعرض قضية فلسطين .

انها لمناسبة هامة ان يعود بحث قضية فلسطين الى هيئة الامـم المتحدة . واننا نعتبر هذه الخطوة انتصارا للمنظمة الدولية كما هو انتصار لقضية شعبنا . وان ذلك يشكل مؤشرا جديدا على ان هيئة الامم اليوم ليست هيئة الامم الامس ، ذلك لان عالم اليوم ليس هو عالم الامس .

فقد أصبحت هيئة الامم اليوم تمثل ١٣٨ دولة واصبحت تعكس بصورة نسبية اوضح ارادة المجموعة الدولية ، ومن ثم فقد اصبحت اكثر قدرة على تطبيق ميثاقها ومبادىء الاعلان العالمـي لحقـوق الانسان ، واكثر قدرة على نصرة قضايا العدل والسلام .

وهذا ما بدأ يلمسه شعبنا وتلمسه شعوب آسيا وافريقيـا وامريكا اللاتينية ، الامر الذي أخذ يعلي مكانة هذه المنظمة الدولية في عيون شعبنا وعيون بقية الشعوب ، ويزيد من الامال التي تعلقها شعوب العالم على مساهمة هيئة الامم المتحدة في نصرة قضايا السلم والعدل والحرية والاستقلال ، وتشييد عالم خال مـن الاستعمار والامبريالية والاستعمار الجديد والعنصرية بكافة اشكالها بما فيهـا الصهيونية .

سيدي الرئيس ،

اننا نعيش في عالم يطمح للسلام والعدل والمساواة والحريـة ، يطمح الى ان يرى الامم المظلومة الرازحة تحت الاستعمار والاضطهاد العنصري وهي تمارس حريتها وحقها في تقرير المصير ، يطمح الى ان يرى العلاقات الدولية بين الدول كافة تقوم على أساس المساواة والتعايش السلمي وعدم التدخل في الشؤون الداخلية ، وتأمـين السيادة الوطنية .

وما زالت دول آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية تواجه اعتداءات ضارية على نضالها من أجل تغيير النظام الاقتصادي العالمي الحالي بنظام اقتصادي عالمي جديد اكثر معقولية ومنطقية ، وقد عبرت هذه البلدان عن ذلك في مؤتمر « المواد الاولية والتنمية » حيث لا بد من أن يوضع حد لعمليات النهب والاستغلال وامتصاص ثروات الشعوب الفقيرة وعرقلة جهودها من أجل التنمية والسيطرة على ثرواتها ورفع الحيف عن أسعار موادها الاولية .

وكذلك فان هذه الدول ما زالت تواجه عراقيل امام مطالبها العادلة المعبر عنها في مؤتمر البحار في كراكاس ، ومؤتمر السكان، ومؤتمر التغذية ، ولا بد للهيئة الدولية من أن تقف بحزم الى جانب النضال من أجل احداث تغييرات جذرية في النظام الاقتصادي العالمي لان ذلك وحده يتيح للشعوب المتخلفة امكانية التقدم بسرعة . ولا بد لهذه الهيئة من أن تقف بحزم ضد القوى التي تحاول تحميل مسؤولية التضخم المالي على كاهل البلدان النامية ، خاصة البلدان المنتجة للبترول ، وان تشجب التهديدات التي تتعرض لها هذه البلدان بسبب مطالبها العادلة .

سيدي الرئيس ،

ما زال السباق على التسلح على أشده في العالم ، الامر الذي يهدد العالم بضياع ثرواته وتبديد جهوده على هذا السباق ، فضلا عن ابقائه في خيار انفجارات مسلحة خطيرة . ان الحد من السباق على التسلح ، وصولا الى تدمير الاسلحة النووية وتخصيص ما يصرف من مبالغ طائلة على مجالات التقنيات العسكرية في ميدان تقدم العلوم وزيادة الانتاج وتحقيق الرفاه للعالم . هذا ما تتوقع الشعوب ان تعمل هيئة الامم المتحدة باتجاهه . وما زال الاضطراب على أشده في منطقتنا . فالكيان الصهيوني متشبث بالاراضي العربية التي احتلها ويتابع عدوانه علينا بجانب استعداداته العسكرية المحمومة بشن حرب عدوانية جديدة ستكون الخامسة من سلسلة حروبه العدوانية ولنا أن نتحسب مع ما يصدر من اشارات عنه من أن تكون حربا نووية تحمل الفناء والدمار .

سيدي الرئيس ،

ان العالم بحاجة الى اقصى الجهود من أجل تحقيق مطامحه في السلم والحرية والعدل والمساواة والتنمية وفي مكافحة الاستعمار والامبريالية والاستعمار الجديد والعنصرية بكافة اشكالها بما فيها الصهيونية لان هذا هو الطريق الوحيد لتحقيق آمال الشعوب كافة بما في ذلك شعوب الدول التي تعارض هذا الطريق . انه طريق لتكريس مبادىء ميثاق هيئة الامم المتحدة والاعلان العالمي لحقوق الانسان . اما بقاء الوضع الحالي فلن يفعل اكثر من ان يبقى العالم معرضا لاخطر الصراعات المسلحة ، للكوارث الاقتصادية والانسانية والطبيعية .

سيدي الرئيس ،

رغم هذا الوضع المتأزم الذي يسود العالم برغم ما في عالمنا من قوى ظلام وتأخر فان عالمنا اليوم يعيش اياما مجيدة . انه يشهد انهيار العالم القديم عالم الاستعمار والامبريالية والاستعمار الجديد والعنصرية بكافة اشكالها وابرزها الصهيونية ويشهد الاتجاه التاريخي العظيم لشعوب العالم نحو انبثاق عالم جديد تنتصر فيه القضايا العادلة ، واننا واثقون من انتصار هذه القضايا .

سيدي الرئيس ،

ان قضية فلسطين تدخل كجزء هام بين القضايا العادلة التي تناضل في سبيلها الشعوب التي تعاني الاستعمار والاضطهاد ، واذا كانت الفرصة قد اتيحت لي ان اعرضها امامكم فانني لن أنسى ان مثل هذه الفرصة يجب ان تتاح لكل حركات التحرر المناضلة ضد العنصرية والاستعمار . ولهذا فانني باسم هؤلاء المناضلين من أجل الحرية وحق الشعوب في تقرير مصيرها، أدعوكم انتعيروا قضاياهم، كما قضيتنا ، من همومكم واهتمامكم الاولوية ذاتها مما يشكل مرتكزا أساسيا لحماية السلم في العالم وتكريس عالم جديد تعيش الشعوب في ظلاله بعيدا عن الاضطهاد والظلم والخوف والاستغلال ، ولهذا فانني سأعرض قضيتنا ضمن هذا الاطار وفي سبيل هذا الهدف .

واننا حين نتكلم من على هذا المنبر الدولي فان ذلك تعبير في حد ذاته عن ايماننا بالنضال السياسي والدبلوماسي مكملا معززا لنضالنا المسلح وتعبير عن تقديرنا للدور الذي يمكن للأمم المتحدة ان تقوم به في حل المشكلات العالمية ، بعد ان تغيرت بنيتها في صالح أماني الشعوب وفي حل مشكلتنا التي تتحمل فيها هذه المؤسسة الدولية مسئولية خاصة .

ان شعبنا يتكلم وهو يتطلع الى المستقبل اكثر مما هو مقيد بمآسي الماضي واغلال الحاضر . واذا كنا ، ونحن نتحدث عن الحاضر نعود الى الماضي فلاننا نريد أن نوضح بداية الطريق الذي نشقه الى المستقبل المشرق مع كل شعوب العالم عامة ، وحركات التحرير خاصة . واذا كنا نعود الى جذور قضيتنا فلانه ما زال بين الحاضرين هنا من يحتل بيوتنا ويرتع في حقولنا ويقطف ثمار أشجارنا ويدعي أننا اشباح لا وجود لها ولا تراث ولا مستقبل . ولان هنالك من كان يتصور ، والى وقت قريب ، وربما حتى الان ، ان مشكلتنا هي مشكلة لاجئين ، او ان مشكلة الشرق الاوسط هي مشكلة خلاف على حدود بين الدول العربية وبين الكيان الصهيوني أو يتصور ان شعبنا يدعي حقوقا ليست له ويقاتل دونما سبب معقول ومشروع الا الرغبة في تعكير السلام وارهاب الاخرين . ولان هناك بينكم وأعني الولايات المتحدة الاميركية وغيرها من يمون عدونا بطائراته وقنابله وكل أدوات الفتك والتدمير ويقف منا موقف العداء ويعمد الى تشويه حقيقة المشكلة ، كل ذلك على حساب الشعب الاميركي وعلى حساب

رفاهيته وعلى حساب الصداقة التي نتطلع اليها مع هذا الشعب العظيم الذي نكن له ولتجاربه في النضال من اجل حريته ووحدة اراضيه كل تقدير .

وانني لانتهز هذه المناسبة لاتوجه الى الشعب الاميركي واخاطبه من مكاني هنا أن يقف مع شعبنا الشجاع المناضل . أن يقف مع الحق والعدالة . ان يتذكر بطله جورج واشنطن الذي ناضل لاستقلال امريكا وحريتها . ويتذكر ابراهام لنكولن الذي وقف مع المحرومين والمعذبين ويتذكر وصايا ويلسون الاربع عشرة والتي يتبناها شعبنا ايمانا بهذه المبادىء الانسانية العظيمة .

واتوجه الى الشعب الاميركي واتساءل ! هل هذه التظاهرات المعادية التي تنطلق في الخارج هي وجهه الحقيقي . وما هي الجريمة التي ارتكبها شعبنا ضد الشعب الاميركي ...

لماذا هذا الوجه المعادي . هل هو لصالح اميركا . هل هو لصالح الجماهير الاميركية . حتما لا . وارجو ان يتذكر الشعب الاميركي أن صداقته مع أمتنا العربية هي أهم وهي أبقى وهي أنفع .

سيدي الرئيس ،

ان شرحنا لجذور قضيتنا نابع من ايماننا بأن العودة الى اصول القضايا التي تشغل العالم امر ضروري عند تلمس الحلول لها . وهذا منهج نطرحه على السياسة الدولية لتأخذ به بعد ان عانت الكثير وعانت الشعوب معها من محاولات تجاهل الاصول والقفز عليها او انكارها رضوخا واستسلاما للامر الواقع .

ترجع جذور المشكلة الفلسطينية الى اواخر القرن التاسع عشر او بكلمات اخرى الى ذلك العهد الذي كان يسمى عصر الاستعمار والاستيطان وبداية الانتقال الى عصر الامبريالية حيث بدأ التخطيط الصهيوني ــ الاستعماري لغزو ارض فلسطين بمهاجرين من يهود اوروبا كما كان الحال بالنسبة للغزو الاستيطاني لافريقيا . في تلك الحقبة التي توطدت فيها سطوة عتاة الاستعمار القادمين من الغرب الى افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية للاستيطان واقامة المستعمرات وممارسة أشد اشكال الاستغلال والاضطهاد والنهب لشعوب القارات الثلاث . انها الحقبة التي ما زلنا نشهد اثارها العنصرية البشعة في الجنوب الافريقي وكذلك في فلسطين .

وكما استخدم الاستعمار والمستوطنون افكار «التمدين والتحضير» لتبرير الغزو والنهب والعدوان في افريقيا وغيرها . كذلك استخدمت هذه الذرائع لغزو فلسطين بموجات المهاجرين الصهاينة . وكما استخدم الاستعمار والمستوطنون الدين واللون والعرق واللغة لتمرير عملية استغلال الشعوب واخضاعها بالتمييز والتفرقة والارهاب في افريقيا ، كذلك استخدمت هذه الاساليب لاغتصاب الوطن الفلسطيني واضطهاد شعبه ومن ثم تشريده .

وكما استخدم الاستعمار ، وقتئذ ، المحرومين والفقراء والمستغلين كوقود لنار عدوانه ، ومرتكزات للاستيطان ، كذلك استخدم الاستعمار العالمي والقادة الصهاينة اليهود المحرومين والمضطهدين في اوروبا كوقود للعدوان ومرتكزات للاستيطان والتمييز العنصري.

ان الايديولوجية الصهيونية التي استخدمت ضد شعبنا لاستيطان فلسطين بالغزاة الوافدين من الغرب استخدمت في الوقت ذاته لاقتلاع اليهود من جذورهم في اوطانهم المختلفة ولتغريبهم عن الامم . انها ايديولوجية استعمارية استيطانية عنصرية تمييزية رجعية تلتقي مع اللاسامية في منطلقاتها، بل هي الوجه الاخر للعملة نفسها. فعندما نقول أن تابعي دين معين هو اليهودية ، ايا كان وطنهم ، لا ينتسبون الى ذلك الوطن ولا يمكنهم ان يعيشوا كمواطنين متساوين مع بقية المواطنين من الطوائف الاخرى ، فان ذلك التقاء مباشر مع دعاة اللاسامية ، وعندما يقولون ان الحل الوحيد لمشكلتهم هو ان ينفصلوا عن الامم والمجتمعات التي هم جزء منها عبر تاريخ طويل ، ثم يهاجرون ليستوطنوا ارض شعب اخر ويحلوا محله بالقوة والارهاب يأخذون من غيرهم الموقف نفسه الذي اخذه دعاة اللاسامية منهم .

ومن هنا نلاحظ مثلا العلاقة الوثقى بين رودس وهو يبسط استعماره الاستيطاني في جنوب شرقي القارة الافريقية وبين هرتزل الذي راح يخطط ويصمم لاستعماره الاستيطاني على ارض فلسطين. وعندما حصل هرتزل على شهادة حسن سلوك استعماري استيطاني من رودس قدمها للحكومة البريطانية ليستصدر منها قرار التأييد والدعم مقابل ان يبني على أرض فلسطين قاعدة للاستعمار تؤمن مصالحه في اهم النقاط الاستراتيجية في الشرق الاوسط .

وهكذا باشرت الحركة الصهيونية متحالفة مع الاستعمار العالمي غزوتها لبلادنا . واسمحوا لي أن اوجز بعض الحقائق التالية حولها :

● كان عدد سكان فلسطين عند بداية الغزوة عام ١٨٨١ وقبل قدوم أول موجة استيطان حوالي نصف مليون نسمة كلهم من العرب ، مسلمين ومسيحيين ومنهم حوالي عشرون الفا من يهود فلسطين يعيشون جميعا في كنف التسامح الديني الذي اشتهرت به حضارتنا .

● وكانت فلسطين ارضا خضراء معمورة بشعبها العربي الذي يبني الحياة في وطنه ويغني ثقافته .

● وعمدت الحركة الصهيونية الى تهجير حوالي خمسين الف يهودي اوروبي بين عامي ١٨٨٢ و١٩١٧ لاجئة الى شتى اساليب الاحتيال لتغرسهم في ارضنا . ونجحت في الحصول على تصريح بلفور من بريطانيا ، فجسد التصريح حقيقة التحالف الصهيوني الاستعماري . وعبر هذا التصريح عن مدى ظلم الاستعمار للشعوب حيث أعطت بريطانيا وهي لا تملك وعدا للحركة الصهيونية وهي لا تستحق . وخذلت عصبة الامم بتركيبها القديم شعبنا العربي وتبخرت

وعود ومبادىء ويلسون في الهواء وفرضت علينا قسرا الاستعمار البريطاني بصورة الانتداب . وتعهد صك الانتداب الذي أصدرته عصبة الامم المتحدة صراحة بالتمكين للغزوة الصهيونية من ارضنا .

● وعلى مدى ثلاثين عاما بعد صدور تصريح بلفور نجحت الحركة الصهيونية مع حليفها الاستعماري في تهجير مزيد من يهود اوروبا واغتصاب اراضي عربفلسطين . وهكذا اصبح عدد اليهود فيفلسطين عام ١٩٤٧ حوالي ستماية الف يملكون اقل من ٦٪ من اراضي فلسطين الخصبة . بيمنا كان تعداد عرب فلسطين حوالي مليون وربع المليون نسمة .

● وبفعل تواطؤ الدولة المنتدبة مع الحركة الصهيونية ودعم الولايات المتحدة لهما صدر عن هذه الجمعية وهي في بداية عهدها التوصية بتقسيم وطننا فلسطين في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ وسط تحركات مريبة وضغوط شديدة ، فقسمت ما لا يجوز لها ان تقسم : ارض الوطن الواحد . وحين رفضنا ذلك القرار فلاننا مثل ام الطفل الحقيقية التي رفضت ان يقسم سليمان طفلها حين نازعتها عليه امراة اخرى . ومع ذلك فقد منح قرار التقسيم المستوطنين الاستعماريين ٥٤٪ من ارض فلسطين . وكأن ذلك لم يكن كافيا بالنسبة اليهم ، فشنوا حربا ارهابية ضد السكان المدنيين العرب واحتلوا ٨١ ٪ من مجموع مساحة فلسطين وشردوا مليون عربي . مغتصبين بذلك ٥٢٤ قرية ومدينة عربية . دمروا منها ٣٨٥ مدينة وقرية تدميرا كاملا محاها من الوجود . وحيث فعلوا ذلك أقاموا مستوطناتهم ومستعمراتهم فوق الانقاض وبين بساتيننا وحقولنا .

ومن هنا يبدأ جذر المشكلة الفلسطينية ، ان هذا يعني أن اساس المشكلة ليس خلافا دينيا او قوميا بين دينين او قوميتين وليس نزاعا على حدود بين دول متجاورة ، انه قضية شعب اغتصب وطنه وشرد من ارضه لتعيش اغلبيته في المنافي والخيام .

وقد استطاع هذا الكيان الصهيوني وبدعم من دول الاستعمار والامبريالية وعلى رأسها الولايات المتحدة الاميركية ان يتحايل على هيئة الامم لقبوله في عضويتها ومن ثم على شطب قضية فلسطين من جدول اعمالها ، وتضليل الراي العام العالمي بتصوير المشكلة كمشكلة لاجئين بحاجة الى عطف المحسنين او اعادة توطينهم في بلاد الاخرين .

على ان هذه الدولة العنصرية التي قامت على أساس الاستعمار الاستيطاني لم تكتف بكل ذلك حيث جعلت من نفسها قاعدة للامبريالية وراحت تتحول الى ترسانة من الأسلحة لاكمال مهمتها في اخضاع الشعوب العربية والعدوان عليها طمعا في المزيد من التوسع على الارض الفلسطينية والاراضي العربية . فالى جانب عشرات الاعتداءات التي شنتها هذه الدولة ضد البلاد العربية قامت بحربين توسعيتين كبيرتين عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ عرضت خلالهما السلم العالمي لخطر حقيقي .

فقد كان من نتائج العدوان الصهيوني في حزيران ١٩٦٧ ان احتل العدو سيناء المصرية حتى مشارف السويس ، واحتل الجولان السورية فضلا عن احتلاله للارض الفلسطينية حتى نهر الاردن ، الامر الذي شكل وضعا جديدا في منطقتنا وخلق ما يسمى بمشكلة الشرق الاوسط . ومما جعل الوضع يتفاقم اكثر اصرار العدو على استمرار الاحتلال وتكريسه ، مشكلا راس حربة للاستعمار العالمي ضد امتنا العربية . وقد ضرب عرض الحائط بكل قرارات مجلس الامن ونداءات الراي العام العالمي للانسحاب من الاراضي التي احتلها بعد حزيران ولم تجد كل المساعي السلمية والدبلوماسية لردعه عن هذه السياسة التوسعية ، فما كان امام امتنا العربية وفي مقدمتها دولتا مصر وسوريا الا ان تبذل الجهود المضنية في الاستعداد العسكري من اجل الصمود اولا في وجه هذه الغزوة الهمجية المسلحة بالقوة ، وثانيا من اجل تحرير تلك الاراضي واستعادة حقوق الشعب الفلسطيني بعد استنفاد كل الوسائل السلمية . وضمن هذا الاطار اندلعت الحرب الرابعة ، حرب تشرين لتؤكد للعدو الصهيوني عقم سياسته الاحتلالية التوسعية واعتماده على شريعة القوة العسكرية ، ولكن رغم ذلك فان قادة الكيان الصهيوني ما زالوا بعيدين عن الاتعاظ بهذه الدروس ، فهم يعدون العدة للحرب الخامسة ليعودوا من جديد الى سياسة مخاطبة العرب بلغة التفوق العسكري سياسة العدوان والارهاب والاخضاع والحرب .

سيدي الرئيس ،

لشد ما يتألم شعبنا حين يسمع تلك الدعايات التي تقول ان اراضيه كانت صحراء فعمرها المستوطنون الاجانب ، وان وطنه كان خاليا من السكان ، وانه لم يتضرر احد من بني البشر نتيجة قيام هذا الكيان الاستيطاني . لا . . يا سيدي الرئيس ، يجب أن تدحض هذه الاكاذيب من على هذا المنبر العالمي ، ويجب ان يعرف الجميع ان فلسطين كانت مهدا لاقدم الحضارات والثقافات واستمر شعبها العربي ينشر الخضرة والبناء والحضارة والثقافة في ربوعها طوال الاف السنين ويرفع لواء التسامح الديني ضاربا المثل على حرية العقيدة وحارسا أمينا على مقدسات جميع الاديان في وطنه . وانني كأحد أبناء بيت المقدس احتفظ لنفسي ولشعبي بذكريات جميلة وصور رائعة عن مظاهر التآخي الديني التي كانت تتألف في مدينتنا المقدسة قبل حلول النكبة بها . ولم ينقطع شعبنا عن ذلك الا بعد تمكن الغزوة الصهيونية الهمجية من اقامة دولة اسرائيل وتشريده . ولكنه ما زال مصمما على الاستمرار في اداء دوره الحضاري والانساني على ارض فلسطين ، ولا يسمح بأن تتحول هذه الاراضي الى بؤرة للعدوان على الشعوب ، والى معسكر عنصري ضد الحضارة والثقافة والتقدم والسلام . ولهذا فان شعبنا لا يستطيع الا ان يواصل تراث اجداده في الكفاح ضد الغزاة ، وان يحمل شرف المسؤولية في الدفاع عن وطنه وعن امته العربية وعن الثقافة

والحضارة ومهد الديانات السماوية . وتكفينا نظرة سريعة لمواقف اسرائيل العنصرية عندما دعمت منظمة الجيش السرية في الجزائر، وفي دعمها للمستعمرين في افريقيا سواء في الكونغو وانغولا وموزمبيق وزمبابوي وروديسيا وجنوبي افريقيا وفي وقوفها الى جانب حكومة فيتنام ضد الثورة الفيتنامية ، فضلا عن مواقفها المتتابعة في هذا السياق الى جانب الاستعماريين والعنصريين في كل مكان وعرقلتها لعمل لجنة تصفية الاستعمار ورفضها التصويت لمصلحة استقلال بلدان افريقيا ووقوفها ضد مطالب بلدان آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية وبلدان عديدة اخرى في مؤتمرات « المواد الاولية والتنمية »، و« قانون البحار » و« السكان » و« التغذية » . كل ذلك يعطي دليلا اضافيا على صورة العدو الذي اغتصب بلادنا ، ويكشف عن شرف النضال الذي نخوضه ضده . اننا ندافع عن حلم المستقبل ، وهو يدافع عن اساطير الماضي .

سيدي الرئيس ،

ان لهذا العدو الذي نواجهه سجلا حافلا ضد اليهود انفسهم فهنالك في داخل الكيان الصهيوني تمييز عنصري بشع ضد اليهود الشرقيين . واذا كنا ندين بكل ما أوتينا من قوة مذابح اليهود تحت الحكم النازي ، فان القادة الصهاينة كان يبدو ان همهم الاكبر حينذاك هو استغلالها لتحقيق الهجرة الى فلسطين .

سيدي الرئيس ،

لو كان تهجيرهم الى فلسطين بهدف العيش كمواطنين متساوين معنا بالحقوق والواجبات لكنا افسحنا المجال لهم ضمن امكانات وطننا ، كما حدث مع عشرات الالاف من الارمن والشركس الذين ما زالوا بيننا اخوة مواطنين مثلنا تماما ، اما أن يكون هدف ذلك اغتصاب ارضنا وتشريدنا وتحويلنا الى مواطنين من الدرجة الثانية وانزال المعاملة نفسها بنا فهذا ما لا يمكن ان ينصحنا احد القبول به او الاذعان له . ولهذا فان ثورتنا منذ البداية لا تقوم على اسس عرقية او دينية عنصرية ، وليست موجهة للانسان اليهودي من حيث كونه انسانا وانما هي موجهة ضد العنصرية الصهيونية وضد العدوان . وبهذا المعنى فان ثورتنا هي أيضا من أجل الانسان اليهودي . اننا نناضل من أجل ان يعيش اليهود والمسيحيون والمسلمون بمساواة في الحقوق والواجبات وبلا تمييز عنصري أو ديني .

أ — اننا اذن يا سيادة الرئيس نفرق بين اليهودية وبين الصهيونية . وفي الوقت الذي نعادي الحركة الصهيونية الاستعمارية ، فاننا نحترم الدين اليهودي واننا نحذر اليوم ، وبعد قرابة قرن من بروز هذه الحركة العنصرية ، من ان خطرها يتزايد ضد اليهود في العالم ، وضد شعبنا العربي وضد أمن العالم وسلامته . فالصهيونية لا تزال

متمسكة بتهجير اليهود من أوطانهم واصطناع قومية لهم يستبدلون بها قومياتهم الاصلية . ان الصهيونية تتابع نشاطها التخريبي هذا على الرغم من ظهور فشل الحل الذي قدمته ، وان ظاهرة النزوح من التجمع الاسرائيلي المستمرة منذ قيامه والتي ستقوى مع سقوط قلاع الاستعمار الاستيطاني العنصري في العالم ، لدليل على هذا الفشل .

ب — اننا ندعو جميع الشعوب والحكومات لمجابهـة مخططات الصهيونية الرامية الى تهجير مزيد مـن يهود العالم من أوطانهم ليغتصبوا وطننا . وندعوهم في الوقت نفسه للوقوف في وجـه اي اضطهاد للانسان بسبب دينه او جنسه او لونه .

ج — وانني أتساءل يا سيادة الرئيس، لماذا يتحمل شعبنا ووطننا مسؤولية مشكلة الهجرة اليهودية اذا كانت لا زالت مثل هذه المشكلة في مخيلة البعض ؟. وأتساءل لماذا لا يتحمل المتحمسون لهذه المشكلة، ان وجدت ، المسؤولية فيفتحوا بلادهم الكبيرة الرقعة والقادرة لاستيعاب هؤلاء المهاجرين ومساعدتهم ؟.

سيدي الرئيس ،

ان الذين ينعتون ثورتنا بالارهاب ، انما يفعلون ذلك لكي يضللوا الرأي العام العالمي عن رؤية الحقائق ، عن رؤية وجهنا الذي يمثل جانب العدل والدفاع عن النفس ووجههم الذي يمثل جانب الظلـم والارهاب .

ان الجانب الذي يقف فيه حامل السلاح هو الذي يميز بين الثائر والارهابي ، فمن يقف في جانب قضية عادلة ومن يقاتل من أجل حرية وطنه واستقلاله ضد الغزو والاحتلال والاستعمار لا يمكن أن تنطبق عليه بأي شكل من الاشكال صفة ارهابي والا اعتبر الشعب الامريكي حين حمل السلاح ضد الاستعمـار البريطاني ارهـابيا واعتبرت المقاومة الاوروبية ضد النازية ارهابا ، واعتبـر نضال شعوب آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ارهابا . لا يا سيدي الرئيس ان هذا هو الكفاح العادل والمشروع والذي يكرسه ميثاق هيئة الامم والاعلان العالمي لحقوق الانسان . أما الذي يحمل السلاح ضد القضايا العادلة .. الذي يشن الحرب لاحتلال أوطـان الآخرين ونهبهم واستغلالهم واستعمارهم فذلك هو الارهابي وأعماله هي التي يجب أن تدان وينسحب عليه لقب مجرم حرب ذلك ان عدالة القضية هي التي تقرر عدالة السلاح .

سيدي الرئيس ،

ان الارهاب الصهيوني الذي ارتكب بحق الشعب الفلسطيني لاجلائه عن وطنه واقتلاعه من أرضه مدون لديكم في وثائق رسمية وزعت في الامم المتحدة . لقد ذبح الالاف من أبناء شعبنا في قراهم ومدنهم واجبر عشرات الالوف تحت نـار البندقية وقصف المدافع

والطائرات أن يتركوا بيوتهم وما زرعوا في أرض أجدادهم . وكم من مرة أجبر فيهـــا ابناء من شعبنا نساء واطفالا وشيوخا على الخروج من دون زاد او ماء وأرغموا على تسلق الجبال والتيه في الصحراء. ان الكوارث التي حلت عام ١٩٤٨ بأهالي المئات من القرى والمدن في السهل والجبل ، في القدس ويافا واللد والرملة والجليل ، لم ولن ينساها من عانى أهوالها لحظة رغما عن التعتيم الاعلامي العالمي الذي نجح في اخفاء هذه الاهوال كما أخفى اثر ٣٨٥ قـــرية ومدينة فلسطينية دمرت في حينه وأزيلت من الوجود . ان نسف ١٩ الف منزل على مدى السنوات السبع الاخيرة أي ما يساوي تدمير مائتي قرية فلسطينية اخرى تدميرا كاملا والاعداد الضخمة مـــن مشوهي الارهاب والتعذيب ومن في السجون لا يمكن ان يطمسه التعتيم الاعلامي . لقد وصل ارهابهم الى الحقد حتى على شجرة الزيتون في بلادي التي اعتبروها علما شامخا يذكرهم بسكان البلاد الاصليين ، يصرخ ان الارض فلسطينية ، فراحـــوا يعملون على اقتلاعها او قتلها بالاهمال والتحطيب . ماذا يمكن ان يسمى تصريح غولدا مائير عندما عبرت عن « قلقها من الاطفال الفلسطينيين الذين يولدون كل صباح » . انهم يرون في الطفل الفلسطيني والشجـــرة الفلسطينية عدوا يجب التخلص منه . يا سيادة الرئيس ، طيلة عشرات السنين وهم يتعقبون قيادات شعبنا الثقافية والسياسية والاجتماعية والفنية بالارهاب والتقتيل والاغتيال والتشريد . لقد سرقوا تراثنا الحضاري ، وفولكلورنا الشعبي وادعوه لهم ومدوا ارهابهم الى مقدساتنا في مدينة السلام القدس الحبيبة وعمدوا الى افقادها طابعها العربي المسيحي الاسلامي من خلال تهجير سكانها وضمها لدولتهم ، ولا حاجة لان نسترسل في ذكر المسجد الاقصى وسرقة ثروات كنيسة القيامة والتشويه الذي لحق بعمرانها وطابعها الحضاري .. فالقدس بروعتها وبالعبق التاريخي المسيطر عليها تشهد لاجيالنا المتعاقبة التي مرت عليها تاركة في كل ركن من أركانها اثرا خالدا وبصمة حنونة ولمسة حضارية ونبضة انسانية .

وليس غريبا ان تتعانق في سمائها الرسالات السماوية الثلاث وتتهادى في ركبها وآفاقها تنير للبشرية طريق جلجلتها وهي تحمل أشواكها وآلامها لترسم مستقبلها بكل ما فيه من آمال وأمانـــي ومعطيات .

سيدي الرئيس ،

ان العدد القليل من العرب الفلسطينيين الذين لم يستطع العدو تهجيرهم من أرضهم عام ١٩٤٨ هم الان لاجئون على أرضهم وقد عوملوا في القانون الاسرائيلي كمواطنين من الدرجة الثانية ، بل والثالثة باعتبار أن اليهود الشرقيين هـــم مواطنو الدرجة الثانيـــة ومورست ضدهم كل أشكال التمييز العنصري والارهاب وصودرت أراضيهم وممتلكاتهم ، وتعرضوا لمذابح دامية كما حدث في قـــرية كفرقاسم ، وهجروا من قراهم وحرموا من العودة لها كما حدث

لاهالي قريتي كفربرعم وأقرت . كما ان أهلنا عاشوا هناك ثمانية عشر عاما تحت الحكم العرفي لا يحق لهم الانتقال من مكان الى مكان مجاور دون اذن مسبق من الحاكم العسكري . تصور ، يا سيادة الرئيس ، في الوقت الذي يسن فيه المشرع الاسرائيلي قانونا يعطي حقا تلقائيا بالمواطنية لاي يهودي يهاجر الى أرضنا فور أن يطأها ، يسن قانونا آخر يعتبر الفلسطينيين الذين بقوا في فلسطين ولم يكونوا في قراهم أو مدنهم ساعة احتلالها محرومين من المواطنية .

سيدي الرئيس ،

ان سجل حكام اسرائيل الحافل بجرائم الارهاب يمتد ليشمل عددا من أبناء أمتنا العربية الذين بقوا تحت الاحتلال في سيناء أو الجولان كما ان ذكرى جريمة قصف مدرسة بحر البقر ومصنع ابوزعبل في مصر العربية ما زالت ماثلة للاذهان ، وأما تدمير مدينة القنيطرة السورية ما زال شاهدا لكل من يريد ان يرى ما يفعله الارهاب ، واذا فتح سجل الارهاب الصهيوني على جنوبي لبنان وهو الارهاب الذي ما زال مستمرا ، فسوف تقشعر الابدان من هول ما يرتكب من أعمال القرصنة والقصف والعدوان ، بما في ذلك تهجير المدنيين وتدمير بيوتهم وخطفهم وحرق مزارعهم الى جانب الاعتداءات المستمرة على سيادة الدولة اللبنانية ، والاعداد لسرقة مياه نهر الليطاني . ولنذكر في هذا المجال بالمقررات العديدة التي صدرت عن هذه المنظمة ، والتي تدين اسرائيل بارتكاب الاعتداءات ضد الدول العربية وبالاعتداء على حقوق الانسان ، وفيما يتعلق بضم القدس وتغيير وضعها السابق للاحتلال وادانتها لمخالفات متعددة لبنود اتفاقيات جنيف في حالة الحرب .

سيدي الرئيس ،

ان التأمل بكل هذه الاعمال لا يمكن أن يطلق عليه من وصف غير وصف الارهاب الهمجي ، ومع ذلك يتجرأ اولئك الارهابيون الغزاة العنصريون على تسمية نضالات شعبنا العادلة بالاعمال الارهابية . هل يوجد ثمة تجرؤ على الباطل والتزييف أشد من هذا . واننا نقول ان على أولئك الذين اغتصبوا أرضنا وارتكبوا من جرائم الارهاب والتمييز العنصري أكثر مما فعل ويفعل العنصريون في جنوبي افريقيا ، ان يتذكروا قرار الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة الذي أعلن طرد جنوبي افريقيا من عضويتها ، لان ذلك هو المصير المحتوم لكل الدول العنصرية التي تطبق شريعة الغاب وتغتصب وطن الاخرين وتضطهدهم .

سيدي الرئيس ،

لقد قاوم شعبنا الفلسطيني خلال ثلاثين عاما تحت الاحتلال البريطاني والغزو الصهيوني كل محاولات انتزاع أرضه ، وناضل

في ثورات ست ، ومن خلال عشرات الانتفاضات الشعبية ومن أجل أحباط المؤامرة ليبقى على ارضه وفوق تراب وطنه ، قدم في سبيل ذلك ولغاية ١٩٤٨ ثلاثين الف شهيد (أي ما يوازي ٦ ملايين امريكي بالنسبة لعدد السكان اليوم) .

وعندما اقتلعت غالبيته من الارض الفلسطينية التي احتلت عام ١٩٤٨ ظل يقاوم في ظروف صعبة محاولات افنائه . وحاول شعبنا بكل الطرق استمرار نضاله السياسي من أجل حقوقه ، دون جدوى. وناضل للحفاظ على وجوده فتعلم ابناؤه في النزوح والشتات وكدحوا تحت أصعب الظروف ليستطيعوا الاستمرار ، وأصبح لدى الشعب الفلسطيني آلاف الاطباء والمهندسين والاساتذة والعلماء توجهوا بعملهم وأمكانياتهم للاقطار العربية المحيطة بوطنهم المغتصب فساهموا في البناء والتعمير والتطوير وحصلوا على دخل استخدموه لمساعدة أقربائهم الصغار والعجائز الذين استحال عليهم مغادرة مخيمات النزوح . علم الاخ أخاه وأخته وحافظ على والديه وربى أولاده ولكنه ظل يحلم في قلب ذاته بالعودة الى فلسطين .. ظل فلسطينيا متمسكا بوطنه لا يهتز ولاؤه لها ولا تهن عزيمته ولا يفتر حماسه . لم يغره شيء للتخلي عن فلسطينيته ووطنه فلسطين . لا ولم ينسه الزمن اياها كما توقع المتوقعون .

وعندما خابت آمال شعبنا بالاسرة الدولية التي نسيته وتغافلت عن حقوقه وثبت لشعبنا عجز النضال السياسي وحده عن استعادة شبر ارض من وطنه لجأ شعبنا الى الثورة الفلسطينية وأعطاها كل امكانياته المادية والبشرية وخيرة شبابه .. وواجه شعبنا ببسالة ارهابا اسرائيليا لا يتخيله بشر ليثنيه عن طريق النضال .

لقد قدم شعبنا في السنوات العشر الاخيرة من نضاله آلاف الشهداء وأضعافهم من الجرحى والمشوهين والاسرى والمعتقلين من أجل الا يفنى او يذوب ومن أجل انتزاع حقه في تقرير مصيره على وطنه وفي عودته الى ترابه .

وتعيش جماهير شعبنا الان تحت الاحتلال الصهيوني تقاوم بكل الكبرياء المتأصلة فيها ، بكل الشموخ الثوري الملازم لها سواء من زج منها في السجون والمعتقلات او من يعيش داخل السجن الكبير في قفص الاحتلال . يقاومون من أجل البقاء والوجود . يناضلون من أجل أن تبقى الارض عربية ويكافحون الطغيان والظلم والارهاب بشتى صوره المأساوية الخطيرة .

ومن خلال ثورة شعبنا المسلحة تبلورت قيادته السياسية وترسخت مؤسساته الوطنية وبنيت حركة التحرير الوطنية التي تضم كل فصائله وتنظيماته وقدراته والتي جسدتها منظمة التحرير الفلسطينية .

ومن خلال حركة التحرير الوطنية الفلسطينية نضج نضال شعبنا وتعددت أساليبه فشمل النضال السياسي والاجتماعي بالاضافة للنضال المسلح، واندفعت منظمتنا تساهم في بناء الانسان الفلسطيني

المؤهل لبناء المستقبل الفلسطيني وليس فقط لتعبئته لمواجهة تحديات الحاضر .

وتعتز منظمة التحرير الفلسطينية بأنها وهي تخوض المعارك المسلحة وتواجه قساوة الارهاب الصهيوني ، قامت بمآثر عديدة حضارية وثقافية فشكلت مؤسسات البحث العلمي ، والتطوير الزراعي والرعاية الصحية واحياء التراث الحضاري لشعبنا ، وتطوير الفولكلور الشعبي ، وخرجت من بين صفوفها عددا من الشعراء والفنانين والكتاب الذين يسهمون في تطوير الثقافة العربية، وربما امتد ذلك الى الثقافة العالمية ، وكان المحتوى لكل ذلك يحمل طابعا انسانيا عميقا أثار اعجاب كل الاصدقاء الذين اطلعوا عليه وكنا بذلك النقيض لعدونا الذي قام على هدم الحضارة والثقافة بترويج الافكار العنصرية والاستعمارية وكل ما هو معاد للشعوب والتقدم والعدل والديمقراطية والسلام .

سيدي الرئيس ،

لقد اكتسبت منظمة التحرير الفلسطينية شرعيتها من طليعتها في التضحية ومن قيادتها للنضال بكافة أشكاله، واكتسبتها من الجماهير الفلسطينية التي أولتها قيادة العمل واستجابت لتوجيهها ... واكتسبتها من تمثيل كل فصيل ونقابة وتجمع وكفاءة فلسطينية في مجلسها الوطني ومؤسساتها الجماهيرية . وقد تدعمت هذه الشرعية بمؤازرة الامة العربية كلها لها . كما تكرس هذا الدعم في مؤتمر القمة العربي الاخير بتأكيد حق منظمة التحرير الفلسطينية في اقامة السلطة الوطنية المستقلة على كل الاراضي الفلسطينية التي يتم تحريرها بصفتها الممثلة الشرعية الوحيدة للشعب الفلسطيني .

كما ان شرعيتها تعمقت من خلال دعم الاخوة في حركات التحرر ودول العالم الصديقة المناصرة التي وقفت الى جانب المنظمة تدعمها وتشد ازرها في نضالها من أجل حقوق الشعب الفلسطيني .

وهنا لا بد أن أعلن بكل اعتزاز شكر ثوارنا وشعبنا للمواقف المشرفة التي وقفتها مع نضال شعبنا دول عدم الانحياز والدول الاشتراكية والدول الاسلامية والدول الافريقية والدول الصديقة في اوروبا وكذلك الاصدقاء في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية .

سيدي الرئيس ،

ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني وهي بهذه الصفة المعبرة عن رغبات وأماني هذا الشعب وهي بهذه الصفة تنقل اليكم تلك الرغبات والاماني وتحملكم مسؤولية تاريخية كبيرة تجاه قضيتنا العادلة .

سيدي الرئيس ،

لقد تعرض شعبنا لويلات الحرب والدمار والتشريد سنين

طويلة ، ودفع شعبنا من دماء أبنائه وأرواحهم ما لا يعوّض بثمن . وعانى من الاحتلال والتشريد والنزوح والارهاب ما لم يعان منه شعب آخر . ولكن ذلك كله لا يجعل شعبنا حاقدا يحلم بالانتقام ، كما انه لا يجعلنا يا سيادة الرئيس نقع في سقطة عدونا العنصرية او نفقد الرؤية الحقيقية في تحديد أعدائنا واصدقائنا .

اننا ندين كل الجرائم التي ارتكبت ضد اليهود وكل انواع التمييز الصريح والمقنع الذي عانى منه معتنقو اليهودية .

سيدي الرئيس ،

انني ثائر من أجل الحرية . وأعرف ان كثيرين من الجالسين في هذه القاعة كانوا في مثل المواقع النضالية التي أقاتل منها الان . واستطاعوا من خلال نضالهم أن يحولوا أحلامهم الى حقائق . انهم شركائي في الحلم اذن . من هنا أسألهم أن نمضي في تحويل الحلم المشترك بمستقبل السلام في هذه الارض الفلسطينية المقدسة الى حقائق ساطعة .

لقد وقف المناضل اليهودي أهود اديف في المحكمة العسكرية الاسرائيلية قائلا : انا لست مخربا ... أنا من المؤمنين باقامة الدولة الديمقراطية على هذه الارض . انه الان في غياهب سجون الزمرة العسكرية الصهيونية مع زملاء له .

ويمثل الان ، أمام هذه المحاكم ذاتها، أمير شجاع من امراء الكنيسة المسيحية هو المطران كبوجي . انه يرفع اصابعه بعلامة النصر — شعار ثوارنا — ويقول : « انني أعمل من اجل السلام في فلسطين ليعيش الجميع على أرض السلام بسلام » . وسيلقى هذا الامير الراهب المصير ذاته في غياهب السجون .

فلماذا لا أحلم ، يا سيادة الرئيس ، وآمل ، والثورة هي صناعة تحقيق الاحلام والامال . فلنعمل معا على تحقيق الحلم في أن أعود مع شعبي من منفاي لاعيش مع هذا المناضل اليهودي ورفاقه ، ومع هذا المناضل الراهب المسيحي واخوانه في ظل دولة واحدة ديمقراطية يعيش فيها المسيحي والمسلم في كنف المساواة والعدل والاخاء .

ألا يستحق هذا الهدف الانساني النبيل أن أناضل من أجل تحقيقه مع كل الشرفاء في العالم ؟ ولعل أروع ما في هذا الهدف العظيم هو انه من أجل فلسطين .. ارض القداسة والسلام. ارض الاستشهاد والبطولة .

لقد ناضل اليهود يا سيادة الرئيس في أوروبا وهنا في اميركا من أجل أوطان لا طائفية تنفصل فيها الدول عن الكنيسة وقاتلوا ضد التمييز على أساس الدين . فكيف يمكن لهم أن يرفضوا هذا النموذج الانساني المشرف على الارض المقدسة ، أرض السلام والمساواة ؟ وكيف يمكن لهم أن يستمروا في دعم أكثر دول العالم انغلاقا وتمييزا وتعصبا ؟

انني أعلن أمامكم هنا كرئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية وقائد للثورة الفلسطينية اننا عندما نتحدث عن آمالنا المشتركة من أجل فلسطين الغد فنحن نشمل في تطلعاتنا كل اليهود الذين يعيشون الآن في فلسطين ويقبلون العيش معنا في سلام ودون تمييز على أرض فلسطين .

انني بصفتي رئيساً لمنظمة التحرير وقائداً لقوات الثورة الفلسطينية أدعو اليهود فرداً فرداً ليعيدوا النظر في طريق الهاوية الذي تقودهم اليه الصهيونية والقيادات الاسرائيلية وهي التي لم تقدم لهم غير النزيف الدموي الدائم والاستمرار في خوض الحروب واستخدامهم كوقود دائم لها .

اننا ندعوكم للخروج الى مجال الاختيار الرحب بعيداً عن محاولات قيادتكم لغرس عقدة المسادا وجعلها قدراً لكم .

اننا نقدم لكم أكرم دعوة .. أن نعيش معاً في اطار السلام العادل في فلسطيننا الديمقراطية .

انني كرئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية وكقائد للثورة الفلسطينية أعلن هنا اننا لا نريد اراقة نقطة دم يهودية أو عربية ... ولا نستعذب استمرار القتال دقيقة واحدة اذا حل السلام العادل المبني على حقوق شعبنا وتطلعاته وأمانيه .

انني كرئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية وكقائد للثورة الفلسطينية اتوجه اليكم أن تقفوا مع نضال شعبنا من أجل تطبيق حقه في تقرير مصيره . هذا الحق الذي كرسه ميثاق منظمتكم وأقرته جمعيتكم الموقرة في مناسبات عديدة .. وانني أتوجه اليكم أيضاً أن تمكنوا شعبنا من العودة من منفاه الاجباري الذي دفع اليه تحت حراب البنادق وبالعسف والظلم ليعيش في وطنه ودياره وتحت ظلال اشجاره حراً سيداً متمتعاً بكافة حقوقه القومية ليشارك في ركب الحضارة البشرية وفي مجالات الابداع الانساني بكل ما فيه من امكانات وطاقات وليحمي قدسه الحبيبة كما فعل دائماً عبر التاريخ ويجعلها قبلة حرة لجميع الاديان بعيداً عن الارهاب والقهر .

كما اتوجه اليكم بأن تمكنوا شعبنا من اقامة سلطته الوطنية المستقلة وتأسيس كيانه الوطني على أرضه .

لقد جئتكم يا سيادة الرئيس بغصن الزيتون مع بندقية الثائر .. فلا تسقطوا الغصن الاخضر من يدي .

سيادة الرئيس ...

الحرب تندلع من فلسطين والسلم يبدأ من فلسطين .

القصة الكاملة لادراج القضية في الامم المتحدة

الدكتور نبيل شعث

ارتبطت الامم المتحدة بالنسبة للشعب الفلسطيني بالتقسيم وبالقرار رقم ٢٤٢ مرورا بعشرات القرارات والادانات لاسرائيل التي صدرت عن أجهزة الامم المتحدة والتي لم يكن لها تأثير فعلي على مجرى الاحداث . لهذا كان من الطبيعي ان تثار تساؤلات وتحفظات عديدة عن جدوى الطلب باعادة عرض القضية الفلسطينية مجددا وكبند مستقل على جدول أعمال الدورة التاسعة والعشرين للامم المتحدة . لكن الحقيقة ان هناك مجموعة من المتغيرات التي لا بد وان نأخذها بالاعتبار ومنها :

أولا : ان الامم المتحدة في العام ١٩٧٤ ليست الامم المتحدة عام ١٩٤٧ حين كانت المنظمة الدولية مجرد صنيعة اميركية ، وكانت الدول الاعضاء أساسا هي الدول الغربية ودول اميركا اللاتينية وحفنة من دول آسيه وافريقيه مما اضطر الدول الغربية الى اعطاء الاتحاد السوفياتي صوتين اضافيين (روسيا البيضاء واوكرانيا) بغية زيادة عدد أصوات الدول التي لا تدور في الفلك الاستعماري . أما اليوم فهناك ١٣٨ دولة عضوا في الامم المتحدة معظمها من دول العالم الثالث . صحيح ان بعض هذه الدول ضعيف التأثير وفقير الى درجة ان بعض الدول لا تستطيع ان تدفع ثمن تذكرة سفر لوزير خارجيتها لحضور الدورة العادية للجمعية العامة . المهم ان عدد الدول التي انضمت الى الامم المتحدة حديثا هي دول تحررت بعد صراع دموي طويل كان آخرها غينيا بيساو . وهذا مما جعل الامم المتحدة من حيث نوعية أعضائها مختلفة عن الامم المتحدة التي كانت عام ١٩٤٧ حين أصدرت توصية بتقسيم فلسطين . ويبلغ عدد الدول غير المنحازة والدول الاشتراكية الاعضاء ٨٧ عضوا .

ثانيا : حين كنا نذهب الى الامم المتحدة بعد العام ١٩٤٨ ، كنا نتحدث عن شعب فلسطين اللاجىء المشرد الجريح . لم يكن هناك ثورة تناضل وشعب له وجود ملموس تمثله قيادة سياسية واحدة . لم يكن هناك نضال مسلح مما جعل من الذهاب الى الامم المتحدة بديلا للنضال وليس مؤازرا بينما يمثل الذهاب الى الامم المتحدة في هذه الفترة أحد أوجه النضال في الوقت الذي لا يزال فيه الوجه الرئيسي والاساسي للنضال هو النضال المسلح في ظل ثورة مسلحة .

ثالثا : لقد حدث تغير فعلي في وزن المجموعة العربية في الامم المتحدة فبالاضافة الى وجود ٢٠ دولة عربية عضو في الامم المتحدة ، وبالاضافة الى القوة الاقتصادية الهائلة والضاغطة التي تمثلها ، هناك مظاهر اخرى لهذه القوة منها مثلا ان رئيس الجمعية

---

* هذا المقال مستمد من ندوة مغلقة عقدها الدكتور نبيل شعث رئيس الوفد الفلسطيني التحضيري للدورة التاسعة والعشرين للامم المتحدة بعد عودته من نيويورك وعقب ادراج القضية في جدول اعمال الدورة .

العامة لهذه الدورة التاسعة والعشرين عربي ، وان اللغة العربية أصبحت لغة رسمية في الامم المتحدة ، وان هناك أربعة من نواب السكرتير العـــام للامم المتحدة عرب ، وأخيرا فان السكرتير العام فالدهايم يدين بانتخابه للعرب وبالتحديد للفلسطينيين ذلك انه شخصيا يعرف أن الاخوة الدكتور فايز صايغ وسعدات حسن وبرهان حماد هم الذين كتلوا الدول العربية لاسقاط منافس فالدهـــايم الفنلندي جاكنسون المواليـــي للصهيونية .

رابعا : ان الذهاب الى الامم المتحدة هذه المرة هو محصلة موقف فلسطيني قوي لانه نتاج ثورة مسلحة لا زالت منذ عشر سنين تقاتل وتواجه الصعاب وتجتاز المحن . في العام الماضي وحده حصلت منظمة التحرير الفلسطينية على اعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني وعلى انها ممثلة هذا الشعب في أربع مؤتمرات دولية هي مؤتمر القمة العربي السادس ومؤتمر عدم الانحياز ومؤتمر القمة الافريقي ومؤتمر القمة الاسلامي.

وبسبب هذا الموقف القوي ، فان منظمة التحرير حين ذهبت هذه الدورة الى الامم المتحدة ، فانما ذهبت لتطور ولتحدث قفزة في نوعية القرارات الايجابية والهامة التي تعترف للشعب الفلسطيني بحقه في تقرير المصير وحقه في العودة والتي صدرت سنويا منذ العام ١٩٦٩ .

كان ممثل المنظمة في الامم المتحدة لا يتمتع بأية صفة ، وانما كان بحكم عضويته الشكلية في احد الوفود العربية ، يدخل الامم المتحدة ، وكانت تعطى له فرصة التحدث أمام اللجنة السياسية الخاصة عندما يبحث تقرير المفوض العـــام لوكالة الغوث ، بالاستناد الى صيغة قانونية مفادها أن هناك من يريد أن يضيف الى معلومات اللجنة السياسية الخاصة شيئا جديدا . وهذا يعني انه لم يكن لمنظمة التحريـــر اية صفة رسمية ولم يكن معترفا لها بأي دور أساسي ، وانما كانت تعتبر طرفا مهتما يسمح له ، بعد تقديم طلب من احدى الدول الاعضاء ، بالتحدث أمام اللجنة السياسية الخاصة لمرة واحدة فقط ولكن ليس كممثل للشعب الفلسطيني . اكثر من ذلك ، فان كلام ممثل المنظمة لم يكن يسجل في المحاضر الكاملة للامم المتحدة .

منذ عام ١٩٦٩ وحتى عام ١٩٧٣ تصاعدت القرارات المناصرة لحقوق الشعب الفلسطيني تصاعدا مستمرا . في البداية صار هناك اقرار ان للشعب الفلسطيني حقوقا مشروعة ثم ترجمت هذه الحقوق المشروعة لتعني حق العودة ، ثم أضيف لها حق تقرير المصير ومن ثم حق النضال بما في ذلك الكفاح المسلح ، لكن هذا لم يحدث تحت بند فلسطين وانما اضيفت في اللجنة القانونية السادسة التـــي تناقش قضايا الشعوب المضطهدة والمستعمرة . هنا اضيفت فقرة اعتبـــر الشعب الفلسطينـــي بموجبها من ضمن الشعوب المضطهدة التي لا تتمتع بحق تقرير المصير والتي لها الحق بالنضال بمختلف الوسائل بما في ذلك الكفاح المسلح من أجل تقرير المصير . وفي العام ١٩٧٣ وحين كانت الظروف السياسية مؤاتية بعد حرب تشريـــن مباشرة حيث ان قضية فلسطين تبحث عادة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) في الامم المتحدة اي بعد ثلاثة أسابيع من حرب اكتوبر وبعد أيام قليلة من نهاية الحرب ، لذلك صدر اقوى قرار بالنسبة لحقوق الشعب الفلسطيني ونال أكبر عدد من الاصوات اي ٨٧ صوتا . وكان هذا أكبر عدد من الاصوات يحصل عليه قرار يتعلق بالشعب الفلسطيني ، لكن هذا القرار جاء ايضا تحت بند « مشكلة اللاجئين الفلسطينيين » كما جاء بشكل غير مباشر حيث ان مناقشة حقوق الشعب الفلسطيني تثار دائما من خلال استذكار القرار ١٩٤ الصادر عام ١٩٤٨ الذي يعطي الشعب الفلسطيني الحق في العودة . وكل القرارات

التي تأتي هي فعــلا تأكيد وتأييد وتصعيد لهذا القرار بأن حقيقة مشـــكلة اللاجئين الفلسطينيين لا يمكن بحثها بدون تأكيد حق الفلسطينيين في العودة حيث ان أهم حل لمشكلتهم هو العودة ، وبالتالي فلا عدل ولا سلام في المنطقة الا بعودة الفلسطينيين وممارسة حقهم في تقرير المصير . كان ذلك يأتي متفرعا عن قرار بعودة اللاجئين صدر عام ١٩٤٨ . من جملة كل ذلك نجد اننا كنا في العام ١٩٧٤ ، بصدد تحول هام وتصعيد رئيسي بالنسبة لما نطلبه من الامم المتحدة .

رابعا : لماذا الامم المتحدة الان وبهذه الصيغة ؟ اضيف لكل ما قلته انه بطبيعة الحال هناك ظروف موضوعية مؤاتية لان تطرح الثورة الفلسطينية قضيتها بشكل أكثــر وضوحا وأكثر عمقا عام ١٩٧٤ وهي ظروف رحبة تعطي للثورة الفلسطينية قدرة على أن تحصل على عدد أكبر من الاصوات وان تحصل على دعم كبير يساهم في دعـــم النضال الفلسطيني اضيف الى ذلك ان الذهاب الى الامم المتحدة بهذا الشكل وبهذا الاطار يعطي للثورة القدرة على التحرك في جبهات أقوى عديدة وليس فقط في جبهة الامم المتحدة ، بمعنى ان قرارا يصدر عن الامم المتحدة يؤكد شرعية النضال الفلسطيني وشرعية تمثيله للشعب الفلسطيني هو قرار يلزم مؤيديه الزاما ادبيا بأن يسمحوا للثورة الفلسطينية بالعمل بين ظهرانيهم وبالحصول على دعم متصاعد من جماهيرهم. مثلا فان موافقة ايطاليا على أن منظمة التحريـــر الفلسطينية هـــي الممثل للشعب الفلسطيني يعطي منظمة التحرير الفلسطينية خطوة هامة للمطالبة بأن تعمل منظمة التحرير للحصول على دعم الجماهير الايطالية بدون ملاحقة البوليس الايطالي ، بل هي تعطي القوى الثورية والتقدمية في ايطاليا سلاحا تقاتل به من أجل شرعية عملها في دعم الثورة الفلسطينية وتعطي هذه القوى سلاحا في حصار العدو الاسرائيلي . وبالتالي فان خطوة مثل هذه ، اذا أحسن استغلالها ، تعطي للثورة مدا في الحصول على منابر في دول مختلفة بل وحتى في الدول الصديقة التي كانت تؤيد او تدعم الثورة دعما لفظيا عاما ، يمكن تعميق دعمها ويمكن حصار العدو الاسرائيلي من خلالها بعد تصعيد القرارات الداعمة للثورة الفلسطينية والشعب الفلسطيني . كذلك فان تأكيد الحقوق التاريخية للشعب الفلسطيني هو بالضرورة عامل معاكس لكل الحلول التصفوية الاستسلامية التي تحاول اميركا فرضها على المنطقة من خلال تحالفهـــا مـــع الأردن واسرائيل وهو أمر تتنبه اليه اسرائيل تماما وتنبهت اليه اميركا تماما . ان اسرائيل واميركا تريان في قرار مثل القرار الذي حصلنا عليه عنصرا معرقلا بل وناسفا لكـــل محاولات التسوية التصفوية الامريكية الاسرائيلية الاردنية التي تجري في هذه المرحلة. ان قرارا بالاضافة الى ذلك يدعم حقوق الشعب الفلسطيني ويؤكد ان قضيته قضية سياسية اي قضية ارض وشعب وقيادة وثورة هو بالضرورة عنصر هـــام في ضرب المخططات الاسرائيلية الرامية الى تصفية الوجود الحقيقي للشعب الفلسطيني ويبرز الرابطة بين الشعب الفلسطيني والارض الفلسطينية . واظن ان ذلك واضح تماما من ردود فعل العدو الاسرائيلي . وهو ما سأتعرض له فيما بعد . ان قرارا مثل هـــذا يعطي الثورة الفلسطينية اسلحة تناور بها وتحاول بها أن تتصدى للمناورات المعاكسة التي تسعى فعلا لاسكات الصوت الفلسطيني والتي تحاول اخماد القدرة الفلسطينية على التصدي عربيا ودوليا وفلسطينيا .

وبالتالي فان هناك عوامل عديدة تجعل الذهاب الى الامم المتحدة في هذه المرحلـــة عملا نضاليا وهاما وذا اثر تاريخي .

طبعا هناك السؤال اليس من سلبيات ؟ هناك في الذهاب الى الامم المتحدة بطبيعة الحال سلبيات محتملة لو اننا ، اولا جعلنا انتصاراتنا في الامم المتحدة تشكل قناعات

رئيسية بأن هذا النضال هو اسهل واجدى وافعل . ولو ان هذا ادى الى تراخ وفتور في العمل الجماهيري بين الجماهير العربية والفلسطينية والعمل العسكري المسلح على الارض الفلسطينية . لو ان انتصاراتنا تؤدي الى هذا فبطبيعة الحال يكون الذهاب الى الامم المتحدة سلبيا ، الا ان هذه القضية مرتبطة بما سنفعله نحن بهذه الانتصارات وليست متعلقة بالانتصارات ذاتها . ثانيا لو ان انتصاراتنا في الامم المتحدة تجعلنا نميل الى الانغماس في العمل السياسي الدولي وتجعلنا اقرب الى القبول بالتسويات الدولية التي تحرم الشعب الفلسطيني من حقوقه وهي نتيجة معكوسة لما يجب ان تؤدي اليه هذه القرارات — ولكن يمكن دائما تصور امكانية ان يعكس الانسان النصر الى هزيمة — وكم من جيوش انتصرت ولكن قياداتها خسرت المعركة بعد الانتصار وكم جيوش انهزمت وتمكنت قياداتها هي وجماهيرها من الاستمرار من ان تحول الهزيمة الى نصر . **وبالتالي فان السلبيات الرئيسية للعمل في الامم المتحدة لا تكمن في الانتصار ذاته وانما تكمن في ان يجر هذا الانتصار الى التراخي والتهاون ، فيتصرف بالانتصار تصرفا يحبط النتائج الايجابية له . وهذه في حقيقة الامر قضية ذاتية راجعة لقوانا ، لقوى الثورة وفي ماذا تفعل بهذا الانتصار .**

بطبيعة الحال كانت هناك اراء تتصور ان الذهاب الى الامم المتحدة في هذه المرحلة سيجر الفلسطينيين الى الاعتراف بالعدو الاسرائيلي . يجب ان ننظر الى هذه القضية بمنظار واضح . ذهاب الثورة الفلسطينية الى الامم المتحدة لا يعتبر على الاطلاق اعترافا بالعدو الاسرائيلي لمجرد ان العدو الاسرائيلي ممثل في الامم المتحدة . هناك مئات الامثلة التي أصبح فيها الوضوح القانوني لا يشوبه شك في ان اي عضو في الامم المتحدة لا يفترض قبوله في الامم المتحدة اعتراف بقية الاعضاء به . والدول العربية كلها لا تعترف باسرائيل وهناك دول لا تعترف بالصين كما ان الصين لا تعترف بدولة اسرائيل مثلا ، ومع ذلك جميعها في الامم المتحدة .

ليس خطرا ان تعترف بي دول تعترف بعدوي الصهيوني ، بالعكس هذا انتصار لنا . اننا ننتقل من مرحلة حيث الاعتراف بالعدو الصهيوني يعني نزع الاعتراف بالشعب الفلسطيني الى مرحلة حيث اطراف ثالثة تعترف بنا وبعدونا الصهيوني حتى نستطيع ان نصل المرحلة الثالثة وهي ان الاعتراف بنا يجب ان يشكل الغاء للاعتراف بالعدو الصهيوني وهو الذي نسعى اليه بمعنى اننا نسعى الان لكي نحصل من الامم المتحدة على اعتراف بان الثورة الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد لكل الشعب الفلسطيني لتكون الخطوة الثانية ان الثورة الفلسطينية هي الممثل الشرعي لكامل التراب الفلسطيني . والخطوة الاولى يجب ان تكون المقدمة الطبيعية للخطوة الثانية وبالتالي فقد تنبأ معظم المعلقين السياسيين والصحافيين بان قرارا بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية هو التوطئة الاساسية والاولى لطرد اسرائيل من الامم المتحدة . ولذلك فانه بمجرد صدور هذا القرار خرج مندوب اسرائيل تيكواه من قاعة الامم المتحدة لكي يقول للصحافيين : « سننسحب فورا من الامم المتحدة » . وسارعت السفارة الاسرائيلية تطوق هذا الاعتراف وتمنع وكالات الانباء من نشره ومع ذلك فقد صدر بصورة تعليق من وكالة انباء C. B. S. التي قالت ان الامم المتحدة قد ادخلت صوتا جديدا ولكنه لن يمثل اضافة صافية لاصوات الامم المتحدة لان دخول الصوت الفلسطيني سيعقبه خروج الصوت الاسرائيلي .

ان قرار عزل جنوب افريقيا من الامم المتحدة هو قرار فسرته كافة وكالات الانباء والمراقبين الدوليين بانه يعطي المثل ويعطي السابقة بطرد وعزل اسرائيل من الامم المتحدة . طالما ان الشعب الفلسطيني وثورته تصر على عدم الاعتراف بالعدو بل على

النضال ضده حتى التحرير فهذا هو الشرط والضمان الاساسي . **لا يهمني ان يعترف بي من يعترفون بعدوي ولكن الذي يهمني ان لا ادفع انا ثمنـــا لاعــتراف العدو بي اعترافي به . هذا هو الشرط الاساسي الذي يجب ان نتمسك به طيلة نضالنا حتى يتم تحرير كامل التراب الفلسطيني .**

هناك ايضا مقولة تقول بان الذهاب الى الامم المتحدة والحصول على انتصار من الامم المتحدة هو انتصار زائف ، هو انتصار سيجير لصالح من يطالبون بجنيف والدولة الفلسطينية على جزء من التراب الفلسطيني والاعتراف بسياسة اسرائيل والدخول بالتسوية والى غير ذلك من المقولات . هذه المقولة انتشرت بشكل كبير حتى عنــد ذهابي الى امريكا ومناقشتي مع الاخوة العرب أبناء الجالية العربية هناك . كان هذا التصور يشق الجالية ويشتتها ويحيرها ويبلبلها بشكل كبير ولكن الحقيقة اذا اخذنــا بهذا التصور الذي يرى ان انجازا هاما للشعب الفلسطيني وللثــورة الفلسطينية في الامم المتحدة هو شيء سيء لانه بانتصار منظمة التحرير في الامم المتحدة تقوى قدرتها على المســاومة وبالتالي تقوي قدرتها على الدخول في خطوات الحل الســلمي في التسوية ، وبالتالي تزداد قدرة قياداتها على تحقيق الدولة الفلسطينية الى غير ذلك ، لو طبقنا هذا المنطق ــ وبالمناسبة انا لا أقول انه منطق تصوري بل هو المنطق المطروح تماما ــ فان نفس المنطق سيقول ان اية معركة عسكرية نكسبها في فلسطين هـــي ايضا تقوي قدرة الثورة الفلسطينية على المساومة ، ويمكن تجييرهـــا الى الحــل السلمي . وانها تجعل المنظمة اقرب الى الدولة الفلسطينيـــة . ولو قلنـــا ايضا ان الوحدة الوطنية الفلسطينية في اطار منظمة التحرير في هذه المرحلة هي ايضا تقـــوي قدرة المقاومة على المساومة وبالتالي يمكن تجييرها الى الحل السلمي وبالتالي تقرب من الدولة الفلسطينية . اذن نخرج بالنتيجة الاتية : علينا ان نخسر معركتنا السياسية وعلينا ان نخسر معاركنا العسكرية وعلينا ان نشق وحدة الشعب الفلسطيني وعلينا ان نقضي على كل انتصار فلسطيني وعلينا ان نحجم عن كل عمل نضالي لان هـــذه الاعمال اذا تمت من خلال اطار منظمة التحرير الفلسطينية تمكن القيادة من ان تجيرها للحل السلمي ولزادت قدرة المنظمة على المساومة واقتربت الدولة وحلت الكارثة . هذا المنطق في الحقيقة منطق خطير ومنطق مرفوض تماما لانه عندئذ يصبح على الثورة الفلسطينية ان تضرب استراتيجيتها الرئيسية خوفا من نوايا قيادتها التي قـــد تؤدي الى انحرافات تكتيكية يعني ان توقف الكفاح المسلح لئــلا تستخدمـــه القيـــادة في الانحراف ، أن توقف العمل النضالي خوفا من ان يجير مرحليا لعمل غير مرض عنه وهكذا . هذا المنطق منطق مرفوض . المنطق الصحيح في هذه المرحلة هو ان الثورة الفلسطينية تسعى بكل قواها وكوادرها لتعميق الكفاح المسلح لتدعيم الوحدة الوطنية الفلسطينية ، للحصول على انتصارات استراتيجية لان هذه الانتصارات تمكن الثورة الفلسطينية والشعب الفلسطيني بل والشعب العربي كله ان يستفيد منها باستمرار النضال وتعميقه . وهي مكاسب نضالية تغذي وتنمي قدرة الثورة على الاستمرار . ومن يقول بأنه غير قادر على استثمارها يطرح طرحا عاجزا او يقول بأنه غير قـــادر على الاستمرار بالثورة .

والاستمرار بالثورة يكون اكثر امكانية لو انتصرت الثورة مما لو انهـــا انهزمت . وتحقيق الانتصارات السياسية والعسكرية هو سلاح من يريدون الاستمرار بالثورة وليس سلاحا بأيدي من يريدون ايقافها ، او على الاقل فقط من يتصور انهم يريـــدون ايقافها . هذه هي الحقيقة في الموقف النظري والطرح الرئيسي الذي ميز ذهابنا الى الامم المتحدة وبالتالي كان الذهاب من هذا المنطق تماما ، وكان تحركنا في الامم المتحدة

كله من هذا المنطق وكان التاكيد دائما : **نحن لسنا قادمين للامم المتحدة لكي نعقد صفقات او نوقع على تسويات او ندخل في مفاوضات . نحن قادمون الى تلك المنظمة الدولية التي اخرجتنا عام ٤٧ لاجئين بلا وطن ، نعود اليها لكي نؤكد ان مشكلة الشعب الفلسطيني ليست مشكلة لاجئين وانما هي مشكلة شعب وثورة وحركة تحرير على ارض اغتصبت** . وان على منظمة الامم المتحدة ان تؤكد هذا الحق التاريخي لان مسؤوليتها في نزع الصيغة الفلسطينية عن الارض الفلسطينية لا تقل عن مسؤولية غيرها من الدول والمنظمات . كان طرحنا دائما ان الثورة الفلسطينية التي تناضل الان من اجل شرعيتها وتأكيد حق الشعب الفلسطيني في النضال (بطبيعة الحال لا داعي للتكرار نقول مئة مرة ان شرعيته هي أمر أعطته اياها سواعد المقاتلين ونحن لسنا ذاهبين الى الامم المتحدة لنحصل على الشرعية) . كان ضروريا تأكيد ذلك ولكنه امر واقع . ونحن نذهب الى الامم المتحدة لكي نؤكد شرعيتنا النضالية بشرعية سياسية دولية تمكننا من استمرار النضال واننا اذ نحصل عليه سيعطينا القوة على الاستمرار حتى تحرير فلسطين وانشاء الدولة الديمقراطية الفلسطينية التي تشكل الحل الوحيد لقضية فلسطين .

ننتقل الان الى الحديث عما تم انجازه فعلا .

الادراج

تم ادراج بند فلسطين وذلك بتوافق الآراء . هناك فرق بين التوافق والاجماع .

ففي الامم المتحدة صيغة اسمها صيغة التوافق Consensus هذه الصيغة لا تعني الاجماع Acclamation كل الذي تعنيه ان الدول لا تريد التصويت على بند معين وهي تعفي نفسها مشقة التصويت لكنها تقول في الوقت نفسه انها غير مستعدة لمنع حدوث شيء معين . هي ليست بالضرورة موافقة عليه . لكن هي على غير استعداد لمعارضته . عندما مر ادراج قضية فلسطين بالتوافق Consensus كان معنى ذلك ان الولايات المتحدة الاميركية ومن يدور في فلكها لم ترد ان تدخل المعركة مبكرا . بل قالت فلتدرج فلسطين في جدول الاعمال دون تصويت حتى لا يتم الفرز الان . بمعنى ان الولايات المتحدة حاولت في البداية ان لا تفرز لان عملية التصويت تفرز بشكل واضح من مع ومن ضد . عملية التوافق لا تعطي دلالة على موازين القوى انما كل الذي تقوله اننا لسنا مستعدين لخوض المعركة الان . قد كان ذلك ضروريا من وجهة نظر الولايات المتحدة الاميركية ، العدو الرئيسي او القطب الرئيسي لمعسكر العدو في هيئة الامم المتحدة . الادراج سبق وصول كيسنجر الى المنطقة . كانت الولايات المتحدة تريد ان يذهب كيسنجر الى المنطقة اذ كان ذهابه اليها جزءا هاما من الاستراتيجية الاميركية في هذه المرحلة دون ان تعطي مسبقا رأيا واضحا بتصويت واضح حول ادراج قضية فلسطين . وواضح تماما ان العدو الاسرائيلي لم يقبل هذا طبعا . العدو الاسرائيلي يفهم تماما التناقض الرئيسي . اي ليس لديه اية غموض حول التناقض الرئيسي والتناقض الثانوي ، العدو الاسرائيلي يفهم تماما ان التناقض الرئيسي والاساسي هو مع الثورة الفلسطينية ومع الشعب العربي لذلك فالعدو الاسرائيلي عارض قضية الادراج ولكن رئيس الجلسة العامة الذي هو الاخ بوتفليقة لم يأخذ معارضة مندوب العدو الصهيوني في الاعتبار ، وقال (موافقة بالتوافق) مع ان موقف المندوب الاسرائيلي بشكل واضح كان ضد عملية التصويت . وبالتالي مرت قضية الادراج بسهولة . قضية الادراج وقع عليها ٥٤ دولة ثم لحقها ٩ دول اخرى في تبني القرار ثم التصويت على القرار . لاحظوا ان التسع دول الاخرى هي دول

معظمها من الدول الاشتراكية . والواقع ان الاتحاد السوفيتي لم يوقع القرار وان ايده . ذلك لان صيغة ادراج قضية فلسطين نقدت موقف الامم المتحدة عام ٤٧ والاتحاد السوفيتي اعتبر ان ذلك النقد يشمله لان الاتحاد السوفيتي عام ٤٧ كان مع قرار التقسيم . لذلك الاتحاد السوفيتي لم يكن من الدول التي وقعت على قرار الادراج . قرار الادراج كان هاما جدا في حد ذاته لان قرار الادراج ينص على :

ان القضية المطروحة في البند ١٠٨ هي قضية فلسطين The Question of Palestine وليس المشكلة الفلسطينية او القضية الفلسطينية حيث ان هناك مشكلة فلسطينية في لبنان ومشكلة فلسطينية في قطر ومشكلة فلسطينية في كاراكاس . ولكن هناك قضية فلسطين واحدة . وهذا يفسر لنا لماذا جن جنون العدو الاسرائيلي لان دعوة منظمة التحرير بعد ذلك كانت باعتبار ان الشعب الفلسطيني هو الطرف الرئيسي في قضية فلسطين وان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل للشعب الفلسطيني . وبالتالي لو اردنا ان نأخذ القرار بصيغة قانونية فان هذا القرار حقيقة يلغي الوجود الاسرائيلي قانونا طبعا . (لا نريد الدخول في تأكيد ان الوجود الاسرائيلي لا يلغي قانونا انما يلغي بالتحرير على ارض الوطن) ولكنا نقول ان حقيقة ان القرار خطير جدا لهذه الاعتبارات . ان الادراج تم تحت بند قضية فلسطين . وتمت الدعوة بصفة ان الشعب الفلسطيني الطرف الرئيسي في قضية فلسطين ومن هنا كانت اهمية الخطوة الثانية وهي دعوة المنظمة ، وهي التي مرت في الواقع في مراحل عديدة .

الدعـــوة

كان البند (١٠٨) اخر بند في الامم المتحدة . ومع ذلك فقد تم تقديم البند من ١٠٨ الى واحد وذلك من خلال الاتصال بمكتب الرئاسة اي الرئيس بوتفليقة الذي خدمنا في انه اعفانا من معركة تصويت اجرائي . فقدم بند ١٠٨ الى واحد ثم حول البند واحد الذي ظل اسمه ١٠٨ الى الهيئة العامة .

علينا ان نلاحظ الفرق بين الهيئة العامة والجمعية العامة . الهيئة العامة هي Plenary Session الذي نسميه بالعربية الجمعية العامة . لكن بالانجليزية كلمة General Assembly تعني الجمعية العامة ، وكل اللجان المتفرعة منها . اذن عندما نقول ان منظمة التحرير دعيت الى الجمعية العامة قد نفسر هذا ليس فقط الى الهيئة العامة وانما الكلام في اية لجنة من اللجان . لذلك اضطررنا الى خوض معركة بتوجيه قضية فلسطين الى الهيئة العامة ومررناها بالكواليس ، اي لم يحدث تصويت عليها . وبعد تحقيق ذلك كان لا بد ان نضيف الى قرار دعوة المنظمة كلمتي In Plenary Session حتى يتم كلام منظمة التحرير في الهيئة العامة وليس في احدى اللجان الخاصة . هنا كانت المشكلة الرئيسية لان هذه اول سابقة في تاريخ الامم المتحدة . لم يسبق لمنظمة ليست دولة ان تحدث مندوبها في الجمعية العامة . وسبق فقط لدولة ليست عضوا وهي الفاتيكان ان قداسة البابا بولس السادس تحدث في الهيئة العامة وكان أول رئيس دولة ليست عضوا يتحدث في الهيئة العامة ولكنه تحدث فقط ولم يشارك في المناقشات . وبالتالي لم يكن هناك وفد للفاتيكان ، لم تكن هناك مقاعد للفاتيكان ، لم يكن هناك صيغة تستطيع الفاتيكان ان تمارس من خلالها العمل في الامم المتحدة . لذا فان قرار دعوة منظمة التحرير الى الهيئة العامة هو سابقة دولية خطيرة في حد ذاتها .

بدأت المعركة اذن وبدأنا في صياغة القرار بدعوة المنظمة . كانت المعركة عربية اولا ، المعركة العربية أخذت عدة اشكال منها شكل عدم اضافة كلمة In Plenary

وجعل القضية مائعة اي دعوة الجمعية العامة للمنظمة باعتبار انه ما دمنا قد قررنا ان قضية فلسطين ستدرس في Plenary اذن لا بد لمنظمة التحرير ان تتحدث في Plenary ولكن هذا ليس صحيحا لان قضية قبرص ستطرح هذا العام In Plenary ولكن ممثل الاتراك في قبرص لن يسمح له بالتحدث في اللجنة العامة في الجمعية العامة وانما ستخصص جلسات للاستماع اليه في اللجنة السياسية الاولى ثم تعود الجلسات الى الانعقاد كجمعية عامة . وقد تم التصويت على قبرص وفسرت هذه القضية فيها. وكان يخشى ان تكون تلك سابقة تحرمنا نحن من الدخول ولكنا اوضحنا ان قبرص شيء وفلسطين شيء اخر لان المتكلم هو ممثل اقلية تركية داخل دولة عضو في الامم المتحدة معترف بها تريد ان تتحدث بالرغم من وجود مندوبها الشرعي . بينما نحن الشعب الفلسطيني لسنا قادمين كالاقلية الفلسطينية في اسرائيل ، نحن قادمون كالشعب الفلسطيني الذي ينازع اسرائيل على كامل التراب الفلسطيني وبالتالي نحن لسنا قادمين كاقلية داخل حكومة شرعية . لذا لا يمكن تطبيق ما طبق على قبرص علينا . وقد نجح هذا الطرح الى حد كبير في استقطاب عدد كبير من الدول منهم قبرص واليونان وتركيا الدول الثلاث التي وقعت في مشكلة اين تتحدث قبرص . الثلاثة صوتوا مع قرار دعوتنا الى الهيئة العامة .

كانت هناك صيغة التمثيل . بطبيعة الحال كان القرار الاول يشير الى تمثيل المنظمة على ان مؤتمر القمة العربي وعدم الانحياز الافريقي والاسلامي كلها اعترفت بمنظمة التحرير ممثلا شرعيا وحيداً . كان الاردن يقف ضد ذلك . ولم يكن الاردن وحده لاعتبارات عديدة . مثلا كان هناك بعض الوفود العربية التي رأت اننا لو اصررنا على اضافة الصيغ التي ووفق عليها في المؤتمرات الاخرى وكلها مؤتمرات آسيوية وافريقية اساسا ، ان ذلك سيمنع الدول الغربية والامريكية اللاتينية من التصويت الى جانب القرار . ومع ذلك فقد تمكنا من الوصول في النهاية الى الصيغة التي طرحت وتقول « ان الجمعية العامة اذ تعتبر ان الشعب الفلسطيني هو الطرف الرئيسي في قضية فلسطين تدعو منظمة التحرير الفلسطينية الممثل للشعب الفلسطيني الى الاشتراك في مداولات الهيئة العامة . وكلكم تدركون الفرق بين ممثل، و « الممثل » وما نزال نذكر جميعا قرار ٢٤٢ ومشكلة الـ التعريف هذه . بالنسبة لنا كان التعبير بالانجليزية هو The Representative اي « الممثل » للشعب الفلسطيني .

ان صيغة الممثل الشرعي الوحيد صيغة غير موجودة في الامم المتحدة. وكان اصرارنا على كلمة The واضحا جداً وبالفعل تمكنا من التغلب على الصعاب الناتجة عن ذلك.

التوقيع على مشروع الدعوة

ننتقل الان الى مرحلة التوقيع على مشروع الدعوة . حسب قوانين الامم المتحدة ليس من الضروري اطلاقا ان يوقع على قرار ما اكثر من دولة واحدة ، يعني قرارنا هذا كان يمكن لاي دولة ان تقدمه ، ويكفي ان تتقدمه ليصبح مشروعا لقرار يجب مناقشته تحت البند ١٠٨ . ولكن اصرارنا على ان يوقعه ٦٩ دولة وهو ما يساوي الاغلبية المطلقة كان يعني حقيقة ضربة سياسية . كنا نريد ان لا نقدم هذا القرار للهيئة العامة الا وقد تم التصويت عليه لان الدول التي تتبنى قرارا ملتزمة بالتصويت معه بل ليس من حقها التكلم ضده او شرح تصويتها عليه . في الامم المتحدة صيغة اسمها شرح التصويت Explanation of vote . من حق كل دولة ان تتكلم لصالح مشروع معين أو ضده ولكن من حقها ايضا سواء تكلمت او لم تتكلم ان تشرح أسباب تصويتها على القرار قبل التصويت او بعده .

هناك دول عديدة مستعدة لان تصوت معك وقد ظهر هذا واضحا اذ حصلنا على ٦٩ موقعا للتبني بينما حصلنا على ١٠٥ أصوات صوتت مع القرار عندما طرح . الفرق هو في حساسية موضوع التبني . من يتبنى قرارا يجعل نفسه في زمرة الموافقين متضامنين متكافلين كلجنة مشتركة من أجل قضية ما بل يجعل عليهم ان يعملوا كجماعة واحدة تنتخب من يمثلها الذي هو أول من يقدم القرار وتنتخب من يذهب بالقرار رسميا الى السكرتير العام وتنسق العمل فيما بينها . هناك العديد من الدول التي كان من الصعب ان نحصل على توقيعها لكنها بعد ذلك كانت مستعدة للتصويت على القرار . بالنسبة لوفد الاردن رفض التوقيع ، وطيلة فترة الاعداد للتصويت ، كنا نقدر انه لن يصوت مع القرار . ولكنه فاجأ الجميع بالتصويت مع القرار . حتى ان وكالات الانباء نقلت الخبر اولا بأنه ضد رغم صورة تصويته بالموافقة على لوحة التصويت .

الدول التي تحدثنا معها كانت تقول ان الضغط الاردني كان يحدث مباشرة على العواصم ولم يكن يحدث من خلال الاستشارات مع الوفود . الصين وقعت على القرار وقالوا لنا بالنسبة لفلسطين يجوز لها ما لا يجوز لغيرها .

الدول التي وقعت على طلب الدعوة في النهاية تمثل كل الدول الاشتراكية ما عدا البانيا (رفض مندوب البانيا التوقيع ، بسبب موقفهم السياسي من الاتحاد السوفييتي وعدم مشاركته التوقيع على شيء) ، كل الدول الافريقية الهامة ما عدا كينيا . عندما أقول ما عدا كينيا فان ذلك يعني بالاضافة الى الاربع دول التي لا توقع لنا أبدا وهي ملاوي وسوازيلاند وبوتسوانا وليسوتو وهي كلها لها علاقات مع جنوب افريقيا . كينيا هي الدولة الافريقية الوحيدة التي لم توقع على القرار . ولا دولة اوروبية تبنت القرار وكذلك امريكا اللاتينية لم يوقع القرار منها الا جامايكا وترينيداد ، انتيدو وجويانا وكوبا وهي كلها دول صغيرة بسبب رفض الدول الكبيرة تبني القرار .

يوم التصويت حدثت فعلا المظاهرة الإمريكية بكل ثقلها . حتى يوم التصويت كان الامريكان يدعون لمن يسألهم من الوفود انهم لن يصرحوا بموقفهم لاحد وان موقفهم سيقررونه يوم التصويت . طبعا الامريكان حاولوا أربع محاولات : أولها كان دور الوفد الامريكي الاساسي في محاولة احباط قضية التصويت على القرار ، وفعلا قالوا للوفد اللبناني ومعظم الوفود العربية الاخرى : لماذا تريدون التصويت ولماذا تريدون القرار ؟ لماذا لا نمرر القضية كما مررنا قضية الادراج أي تكتب منظمة التحرير رسالة للرئيس بوتفليقة سيقرأها للجمعية العامة ويقول لقد استلمت رسالة من منظمة التحرير الفلسطينية تقول نرجو دعوتنا للاستماع الينا عند مناقشة قضية فلسطين ويقول ولا أعتقد ان لديكم اعتراضا على ذلك فلا يعترض الا المندوب الاسرائيلي وتتم كتلك المرة ويتم بالتوافق .

وبالفعل حاولت كل الدول الضغط على الدول العربية من أجل ذلك ، الا اننا وقفنا أي ناضلنا نضالا كبيرا داخل المجموعة العربية ثم داخل المجموعات الاخرى ضد هذا الأجراء لانه يحرم اولا منظمة التحرير من قرار يذكر ان الشعب الفلسطيني هو الطرف الرئيسي ، يحرمنا من قضية ان منظمة التحرير هي الممثل للشعب الفلسطيني ويصبح القرار اجرائيا بحتا أي لا معنى له .

بعد ان فشلوا في ذلك لجأوا الى محاولة ثانية، قالوا: ليحضروا ولكن ليكن حضورهم الى اللجنة السياسية وليس في الهيئة العامة وعندما افشلنا هذه المحاولة ، دخلوا في محاولة تأجيل البند كله للعام القادم . تعرفون ان بند ازمة الشرق الاوسط في العام الماضي أجل لهذا العام بحجة ان كيسنجر يقوم بعملية فك الارتباط وان هناك جهودا

حثيثة من أجل السلام في المنطقة قد تؤدي الى قرار جديد في مجلس الامن فلا داعي للجمعية العامة ان تعطل هذا الاجراء . وقد حاولوا ذلك قبل عملية الاقتراع بالنسبة لنا ، قائلين ان كيسنجر ذاهب للمنطقة فاصبروا حتى تحل القضايا الخ... ولا داعي الى الاصرار على عملية الاقتراع هذا العام ، فليمر القرار ونعترف بمنظمة التحرير ثم نؤجل المناقشة للعام القادم . أحبطنا هذه المؤامرة ايضا . وعند احباط جميع المناورات تحولت امريكا الى الهجوم السافر المباشر . الهجوم بدأ يوم وصول كيسنجر الى تل ابيب ، ثم يومي السبت والاحد في غياب الجمعية ، عن طريق اتصالاتها بالعواصم. يوم الاثنين يوم القرار ، من التاسعة صباحا حتى الخامسة والنصف ساعة التصويت على القرار كان الوفد الامريكي يتكون على الاقل من ثلاثين شخصا منتشرين داخـل القاعات وفي الدهاليز من أجل الضغط على الدول بالوقوف ضد القرار بأي طريقة كانت وبأي شكل كان . استعملت امريكا كل اللعب والحيل التي استخدمتها عام ١٩٤٧ ولكن الوضع اختلف بين ٤٧ ، ٧٤ . وحتى لا نخدع أنفسنا فان امريكا ايضا نجحت . طبعا كان يمكن ان نحصل على الـ ١٥٠ صوتا ولكننا حصلنا على ١٠٥ أصوات ضد أربعة ، وعشرين امتناع وتسعة تغيبوا . أي ان هناك في الواقع ٣٣ دولة اما امتنعت عن التصويت او صوتت ضد او لم تأت الى الجلسة في يومها . وكان هذا حصيلة الفعل الامريكي وليس الفعل الاسرائيلي . وزير خارجية غواتيمالا كان مثلا مرشحا لرئاسة منظمة الدول الاميركية . قال له الامريكان : لن نؤيدك اذا صوت مع مشروع القرار الفلسطيني . استجاب ولم يحضر الجلسة . هندوراس الدولة التي تعاني من أسوأ كارثة فيضانات هددت بوقف عمليات الاغاثة فاختفى مندوبها بعد ان كان من اشد المتحمسين لمشروع القرار .

تعرفون ان قرار جنوب افريقيا فاز بأغلبية ١٢٥ صوتا أي كان من الممكن لنا ان نحصل على ١٢٥ صوتا لولا النشاط الامريكي المكثف . استخـدموا كل الوسائل في الضغط ضغطا سافرا ومكشوفا ، شخصيا وسياسيا واقتصاديا خصوصا على دول امريكا اللاتينية حتى نجحوا في تغيير مواقف بعض الدول التي كانت قد أعلنت تأييدها لنـا .

وقد ارسل مندوب كولومبيا رسالة شخصية ألقيت في قاعة الجلسة على اثر تلقيه أمرا من حكومته بالغاء تكليفها بالتصويت معنا . قال فيها انهم مع قضية فلسطين ومع الشعب الفلسطيني ، وانهم كانوا ضد التقسيم وانه لا يجوز ان تنتزع أرض من شعب وان تبنى دولة معادية غريبة على هذه الارض بموافقة دول تبعد آلاف الاميال عـن هذه الارض ، وقال ان فلسطين ليست ارضا على أطلس ، وانما هي ارض وشعب ونحن مع هذا الشعب ، مع حقه على كامل ارضه ، وحقه ان تمثله ثورته ، ونحن نعترف بهذه الحقوق جميعها ، ونحن معها حتى النهاية . وقال انه يمتنع عن التصويت بسبب الضغوط الاميركية التي تريد ان تعيد العالم الى الحلف المقدس الذي كان في القرن التاسع عشر وان تحول هذا المكان الى مكان رياء ونفاق ، وان تنتزع من الشعوب حقها في تقرير مصيرها » .

التصويت

وكانت آخر مناورة للوفد الامريكي بعد ان انتهت قائمة المتحدثين وبلغت الساعة الخامسة والنصف ، ان بدأ هو وعدد من وفود الدول التابعة بتسجيل طلب شرح التصويت قبل اجرائه ، بهدف اضاعة الوقت وتأجيل التصويت . طبعا كانت هنـاك بعض الوفود الصديقة التي ارادت ان تلقي خطابات مطولة ولكننا نجحنا في ثنيها عن

ذلك حتى لا نقع في المطب الامريكي . ولكننا كنا قد شكلنا لجانا من الاخوة أعضـاء الوفود العربية والصديقة لضمان تواجد الاعضاء في قاعة الجلسة لحظة التصويت كما ان رئيس الجمعية العامة أجل شرح التصويت الى ما بعده ، وبذلك فوت هدف الوفد الامريكي .

وبالتالي في الخامسة والنصف تماما أجري التصويت وحصلنا على المائة وخمسة أصوات . بطبيعة الحال لما انتهى التصويت او ظهرت النتيجة كان هناك شعور عجيب جدا في القاعة لانه حقيقة انتصار تاريخي . الوفود كانت تعانق بعضها وصاح عضو في الوفد التنزاني بأعلى صوته : تحيا فلسطين . . .

كان الموقف موقفين : اسرائيل حتى تلك اللحظة كان موقفها عنيفا جدا ولكن لا يقارن بموقفها عند التصويت . كان آلون قد تكلم في الجمعية العامة وبعد ذلك نشرت السفارة الاسرائيلية وثيقة « هامة » ضد منظمة التحرير ، المهم ان هذه الوثيقة أعطيت للجامعة العربية كوثيقة للامم المتحدة فحولتها الجامعة العربية لنا للرد عليها . لم يكن ممكنا الرد عليها فهي تقول الآتي : يقول ميثاق منظمة التحرير انها ضد بقاء دولة اسرائيل ، وانها تعتمد الكفاح المسلح كطريق وحيد لتحرير فلسطين ، والنقاط العشرة الاخيرة التي صدرت في المجلس الوطني تصر على استمرار الكفاح المسلح حتى تحرير كامل التراب الفلسطيني وانشاء الدولة الديموقراطية على كامل التراب الفلسطيني وبالتالي فمنظمة التحرير هي دولة هدفها تدمير دولة عضو في الامم المتحدة . بعد ذلك تعرض الوثيقة ٦٥ عملية قامت بها المنظمة كمثال انها منظمة تستهدف قتل دولة . المهم في هذه الوثيقة انها تعتبر مقتل وصفي التل مثلا عملية فدائية موجهة ضد اسرائيل . وكل ما ورد في المذكرة صحيح .

مثلا قال آلون : ان يطلب منا ان نعترف بالمنظمة هو كمن يطلب من دولة ان تنتحر، ان نعترف بمنظمة التحرير وان نقبل بقرار دعوة منظمة التحرير هو قرار بالانتحار وكيف تطلبون منا الانتحار بل ان مناقشة قضية فلسطين في هذه الجمعية يهز في حد ذاته الجذور الاساسية التي ارتكزت عليها اسرائيل فكيف تطلبون منا الموافقة عليها . دكتور فايز صايغ كان رئيس وفد الكويت في اثناء بحث قضية فلسطين وكان آخر المتحدثين وما قاله هو فقط ما قاله آلون . قال : يقول آلون ان الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية هو انتحار لاسرائيل ويقول آلون ان مناقشة قضية فلسطين في حد ذاته يهز الاسس التي نشأت عليها اسرائيل ونحن نوافق تماما .

أعتقد ان الموقف الامريكي كان موقفا تكتيكيا بمعنى ان امريكا كانت تحاول تأجيل التصويت لليوم الثاني حتى تضمن عشرين صوتا آخر . امريكا حاولت ان تفعل ذلك لانها تريد ورقة مساومة حتى يبقى الاردن الطرف الرئيسي للتعاون معه . لكن الموقف بالنسبة لاسرائيل غير تكتيكي ، بالنسبة لاسرائيل أي اعتراف بالشعب الفلسطيني او بمنظمة التحرير ينسف فعلا الجذور الرئيسية والاساسية التي ترتكز عليها اسرائيل وهو بذلك قرار تاريخي هام يجب علينا ان نتمسك به وان نناضل لتصعيده وان نستفيد منه في صراعاتنا ونضالاتنا المستقبلية . من التفاصيل الخاصة بمواقف بعض الدول هناك بريطانيا التي كان موقفها معاديا وتسندها في ذلك المانيا الغربية بدرجة كبيرة والدانمارك بدرجة أقل ، وقفت هذه الدول داخل مجموعة السوق الاوروبية لتبتز من فرنسا موقفا محايدا لان بريطانيا والمانيا هددتا فرنسا ان هي وقفت مع القرار ان يصوتا ضد القرار فان هي امتنعت عن التصويت امتنعوا عن التصويت وبالتالي فقد كان الموقف ابتزازا لفرنسا ، مع ذلك فرنسا وقفت ضد الابتزاز البريطاني وصوتت

مع القرار وجذبت معها من داخل السوق ايرلندا وايطاليا ومن خارج السوق فنلنده والنرويج والسويد والنمسا . بطبيعة الحال تغير موقف البرتغال بعد الانقلاب ووقفت معنا اسبانيا واليونان ومالطا وهي دول تقف معنا عادة . اليابان وقفت معنا موقفا بتروليا . قال المندوب الياباني في معرض رده عن استفسار من أحد المندوبين العرب عما اذا كان سيصوت الى جانب مشروع القرار « ان الحكومة اليابانية هي دائما مع العرب » . ولما الح عليه المندوب العربي أجاب « لا أستطيع ان أجيب عن التصويت فعلي ان أستشير حكومتي لكننا لم نغير موقفنا من العرب أبدا » . عندها كتب له المندوب العربي ورقة فيها ما يلي : « سعادة السفير : لا تصويت ، لا بترول » . فصوتت اليابان معنا .

ختاما لا بد من القول انها كانت جولة ، وكانت جولة فيها انتصارات وشارك فيها مشاركة هائلة الاخوة من هنا بالاتصال المباشر مع الاخوة اعضاء الوفد هناك . كما شارك فيها اخواننا في حركات التحرير والدول الاشتراكية والافريقية والاسيوية مشاركة هامة جدا كانت في رأيي تمثل خطوة على المسيرة . لكن للمرة الـ ١٠٦ أكرر ما لا يحتاج الى تكرار **التحرير هو أساسا عمل نضالي مسلح جماهيري يتم هنا ويتم على ارضنا المحتلة ويتم في كل أماكن تواجد شعبنا الفلسطيني وحيث هناك نقاط صراع بين الشعب العربي وبين العدو الاسرائيلي والامريكي وبالتالي فان استمرار النضال هو الشرط الاول والاساسي لتحقيق النصر .**

قمة الرباط واحتمالات الموقف الاسرائيلي

صبري جريس

كان من بين القرارات التي اتخذها مؤتمر القمة العربي السابع ، المنعقد في مدينة الرباط في اواخر تشرين الاول ١٩٧٤ ، قراران مهمان للغاية : اولهما ذلك الذي يدعو الى « تاكيد حق الشعب الفلسطيني في العوده الى وطنه وتقرير مصيره ، وتاكيد حق الشعب الفلسطيني في اقامة السلطه الوطنية المستقلة بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، على اية ارض فلسطينية يتم تحريرها ، وتقوم الدول العربية بمساندة هذه السلطة عند قيامها في جميع المجالات وعلى جميع المستويات ... » ، وثانيهما ذلك الذي يعلن « التزام الدول العربية كلها بتحرير جميع الاراضي العربية المحتلة واستعادة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني » ، ثم التأكيد على « عدم قبول اي محاولة لتحقيق اي تسويات جزئية ، انطلاقا من القضية القومية ووحدتها » . واهمية هذه القرارات من حيث ارساؤها اسس العمل العربي الجماعي الموحد ، استعدادا لمجابهة المحاولات التي تبذل لايجاد حل للازمة في المنطقة ، واضحة للغاية .

أن كلا من القرارين المذكورين مهم بحد ذاته ، فالقرار الاول الذي يؤكد حق الشعب الفلسطيني في العودة الى وطنه ، ثم حقه في اقامة سلطته الوطنية المستقلة على الارض الفلسطينية التي يتم تحريرها ، بينما تتعهد دول المواجهة العربية بمساندتها لهذه السلطة عند قيامها ليس الا خاتمة المطاف لجهود طويلة ومضنية قدمها الشعب الفلسطيني في الماضي ، من خلال ممارسته كفاحه في سبيل الحصول على حقوقه الوطنية ، بأساليب مختلفة . وقد اثرت هذه الجهود ، وبشكل خاص خلال السنتين الاخيرتين ، في مناسبات عديدة عندما اعترف العديد من الدول العربية والاسلامية والافريقية والاشتراكية بحقوق الشعب الفلسطيني هذه ، الى ان وصلت موجة الاعترافات الى قمتها مع تصويت ١٠٥ دول ، من بين الـ ١٣٨ دولة الاعضاء في الامم المتحدة مؤيدة دعوة منظمة التحرير الفلسطينية ، بصفتها ممثلة الشعب الفلسطيني ، الذي هو « الطرف الرئيسي في قضية فلسطين » ، للاشتراك في بحث القضية الفلسطينية في الامم المتحدة ، فيما يمكن اعتباره وكأنه شبه اعتراف من قبل تلك الدول بحقوق الشعب الفلسطيني الوطنية وبحق منظمة التحرير الفلسطينية في تمثيله . كذلك لا تخفى اهمية مثل هذا القرار وتأثيره في دعم الانجازات التي حققها الشعب الفلسطيني لجهة الاعتراف بحقوقه على الصعيد الدولي ، بعد حسم الخلافات العربية حول هذه المسألة ، خاصة بعد ما تردد اخيرا من موقف الاردن بشأنها ، ثم الخروج بموقف عربي موحد منها ، يحظى بتأييد كل الدول العربية ، دون استثناء ، ويقطع الطريق على اية محاولات قد تبذلها القوى المعادية للالتفاف حول هذا الاعتراف العالمي والعربي بالشعب الفلسطيني وبحقوقه الوطنية . واذا كان قرار الاعتراف هذا على هذه الدرجة من الاهمية ، فأن القرار الثاني الداعي الى عدم قبول اي محاولة لتحقيق اي تسويات جزئية ، من خلال تأكيد التزام الدول العربية كلها بتحرير

جميع الاراضي العربية المحتلة واستعادة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ، لا يقل اهمية عنه ، ان لم يكن يزيد على ذلك ، خاصة في ضوء الظروف الراهنة التي تمر بها المنطقة بشكل عام والقضية الفلسطينية بشكل خاص والمحاولات الدائمة التي تبذلها القوى المعادية للوصول الى حلول جزئية للازمة الحالية .

ان الموقف العربي الموحد الناجم عن القرارين المذكورين ، والذي يحظى بتأييد عدد كبير من دول العالم ، ليس الا فاتحة عهد جديد بالنسبة للنشاط الفلسطيني ، اذ يضع القضية الفلسطينية في موضعها الصحيح باعتبارها قضية العرب الاولى ، وبالتالي يفرض على الشعب الفلسطيني وقيادته مسؤولية كبيرة ، بعد ان حصل على موافقة عربية ودولية لتسلم مقاليد اموره بنفسه ، مما يضعه بالتالي في مواجهة صدامية حادة مع اسرائيل والقوى الامبريالية التي تدعمها ، باعتباره رأس الحربة العربية الموجهة ضد هذه القوى ، ويجبره على اتخاذ خطوات وقرارات كان حتى الان ، احيانا ، في حل من القيام بها رغم علاقتها الوثيقة بحاضره ومستقبله .

بعد ان ربح الشعب الفلسطيني جولته على الصعيدين العربي والعالمي ، يجد نفسه الان وجها لوجه — نظريا على الاقل — في مقابل اطماع اسرائيل ومخططاتها الهادفة لابتلاعه او « تقرير مصيره » حسب ما يحلو لها ، تؤيدها في ذلك ، على الاقل ، دولة واحدة من الدول الكبرى ، هي اميركا ، مع ما تتمتع به من نفوذ في المنطقة او خارجها ، على الصعيد العالمي . ومن هنا لا بد من محاولة للوقوف على ما يمكن لاسرائيل ان تتخذه من خطوات لمجابهة هذا الوضع الجديد .

لا شك ان قرارات مؤتمر الرباط قد قلبت مخططات اسرائيل بالنسبة للتسوية الراهنة رأسا على عقب ، بدلالة تلك التصريحات التي اطلقها العديد من المسؤولين الاسرائيليين ، وما تنطوي عليه من تهديد ووعيد ، يذكرنا بلهجة الحديث التي كانت سائدة في اسرائيل قبل حرب تشرين ١٩٧٣ . ولا شك ايضا ان حراجة الموقف الاسرائيلي ، بعد الاعلان عن هذه القرارات ، تكاد تشبه ذلك الوضع الذي طرأ بعد حرب تشرين مباشرة ، ان لم تكن تزيد عنه صعوبة . فمنذ تشرين وحتى اليوم ، مرورا باتفاقيات فصل القوات على الجبهتين المصرية والسورية والمرحلة الاولى من مؤتمر جنيف ثم الزيارات التي قام بها وزير الخارجية الاميركي للمنطقة لايجاد حل للازمة ، استطاع الاسرائيليون بلورة موقف خاص بهم لمجابهة الوضع الجديد الذي طرأ على المنطقة أثر الحرب . وليس من الصعب الوقوف على حقيقة الموقف الاسرائيلي « الجديد » هذا ، رغم الغموض الذي يكتنف بعض جوانبه ، اذ انه لا يزال عمليا ، امتدادا للمواقف الاسرائيلية السابقة السائدة منذ حرب حزيران ١٩٦٧ ، بل منذ التوقيع على اتفاقيات الهدنة بين العرب واسرائيل لسنة ١٩٤٩ ، ويركز اساسا على الوصول الى حلول جزئية لازمة المنطقة ، تستطيع اسرائيل بموجبها تأمين مصالحها بواسطة اتفاقيات منفردة مع كل دولة عربية على حدة ، خاصة مع دول المواجهة المباشرة الثلاث : مصر وسوريا والاردن . ويظهر هذا الموقف على أشد ما يكون وضوحا بالنسبة لمصر بالذات ، حيث يبدو ان اسرائيل ، ورغم التصريحات التي يطلقها بعض المسؤولين الاسرائيليين من حين لاخر حول ضرورة الاحتفاظ بهذا الجزء او ذاك من سيناء ، مستعدة في نهاية الامر الى الانسحاب من معظم انحاء سيناء ، وربما كلها — وحاليا مقابل موافقة مصر على انهاء حالة الحرب معها فقط ، بعد ان كان في السابق اصرار اسرائيلي على عقد سلام كامل بين البلدين . والواضح ان اسرائيل تأمل ، باتخاذها هذا الموقف ، اخراج مصر من حلبة الصراع في المنطقة وتحييدها ، وبالتالي ابعاد دول المغرب العربي والسودان ، وقطع الطريق

عليها لمنعها من التدخل بشكل فعال في أية أزمة قد تنشب في المستقبل ، كذلك تستطيع اسرائيل بهذه الطريقة ضمان الهدوء على حدودها الجنوبية ، مما يمكنها من توجيه كامل قواها ، عند الضرورة ، نحو دول المشرق العربي . اما بالنسبة للموقف من سوريا ، فلا تزال اسرائيل تعلن حتى الان — رسميا على الاقل — انه لا مكان هناك لانسحاب اسرائيلي آخر في الجولان ، رغم الاصوات التي سمعت مؤخرا والداعية الى اعادة النظر في هذا الموقف من سوريا والاتجاه نحو تقديم تنازلات اخرى في الجولان ، لاضعاف امكان نشوب حرب جديدة بمبادرة من السوريين والحد من حماسهم في تأييدهم للفلسطينيين .

واذا كان الموقف الاسرائيلي على هذه الدرجة من « الوضوح » و « البساطة » بالنسبة لمصر وسوريا ، فأنه ليس كذلك بالنسبة للضفة الغربية وقطاع غزة . فهذه المناطق ، بحسب المفهوم الصهيوني ، ليس الا « جزءا من ارض — اسرائيل » — وعلى الاصح « أرض — اسرائيل الغربية » — وهناك قطاعات واسعة من الاسرائيليين « المتطرفين » الذين يطالبون بالاحتفاظ بها وضمها الى اسرائيل نهائيا ، بينما يميل « المعتدلون » الى عدم اتخاذ مثل هذه الاجراءات الحادة ، مفضلين بدلا من ذلك ايجاد ترتيبات معينة للابقاء على « علاقة » ما بتلك المناطق خاصة وانها ، مع المناطق المحتلة سنة ١٩٤٨ ، تضم نحو نصف ابناء الشعب العربي الفلسطيني . وليس هناك ، على حد علمنا ، موقف اسرائيلي « رسمي » معلن وواضح تجاه مصير هذه المناطق ومستقبلها ، غير انه ليس من الصعب الوقوف على أسسه ، من خلال ما صدر عن حكام اسرائيل من تصريحات وتعليقات واجراءات وردود فعل خلال السنوات السبع الاخيرة . ويبدو ، استنادا الى هذا ، ان الموقف الذي قد يحظى بموافقة اكثرية الاسرائيليين ، وان كانت اكثرية ضئيلة ، على الصعيدين الرسمي والشعبي ، هو ذلك الذي يدعو الى عدم ضم هذه المناطق بأكملها رسميا الى اسرائيل ولسبب واحد على الاقل وهو المحافظة على طابع اسرائيل اليهودي — الصهيوني وتأمين حكم الاكثرية اليهودية فيها في المستقبل ، والاكتفاء بضم القدس القديمة مع ضواحيها ، مع الاتجاه للمطالبة بتعديل الحدود في وسط اسرائيل ، بمحاذاة مثلث جنين — طولكرم — نابلس لمنح اسرائيل عمقا في تلك المنطقة ، رغم الصعوبات التي تعترض ذلك بسبب كثافة السكان العرب هناك وعدم الرغبة في ضمهم الى اسرائيل وزيادة سكانها العرب . كذلك تتجه اسرائيل ، بالاضافة الى ذلك ، الى الاصرار على الاحتفاظ بقوات عسكرية في المناطق الحساسة داخل الضفة الغربية ، وخاصة على امتداد الحدود مع نهر الاردن « لضمان أمنها » ، والسماح باستيطان الاسرائيليين في أماكن معينة هناك ، خاصة منطقة الاغوار . وحتى تكتمل الصورة ، لا بد ايضا بعد الانسحاب الاسرائيلي من المنطقة ، من الابقاء على الحدود مفتوحة بينها وبين اسرائيل والسماح بانتقال البضائع والعمال من منطقة لاخرى ، وذلك في نفس الوقت الذي تبقىفيه الجسور مفتوحة بينالضفتين الغربية والشرقية ايضا، مما يكفل لسكان الضفة الغربية ، ومن ورائهم سكان قطاع غزة — ولسكان اسرائيل بالطبع — منفذا الى العالم العربي . ولقد ظهر بعد الحرب وكأن تغييرا ما قد طرأ على الموقف الاسرائيلي هذا ، عندما قام حزب العمل الحاكم باقرار برنامج انتخابي جديد ، اعلن فيه ان هناك مكانا لاقامة دولة واحدة الى الشرق من اسرائيل وحتى الصحراء ، يجد فيها الاردنيون والفلسطينيون تعبيرا عن هويتهم القومية — وكانت هذه ايضا أول مرة يذكر فيها الحزب كلمة « الفلسطينيين » في وثيقة رسمية تصدر عنه — ولكن يبدو ان هذا « التغيير » لا يحمل أي معنى حقيقي ، ويتضح أنه أثر باعتباره تسوية مقبولة لدى

معظم أجنحة الحزب المتصارعة ، في وقت لم يستطع فيه أي جناح حسـم الموقف لصالحه .

انطلاقا من مثل هذا المخطط تجاه الضفة الغربية ، لم يكن غريبا ان جاءت ردود الفعل الاسرائيلية على قرار مؤتمر الرباط المؤيد اقامة سلطة وطنية فلسطينية على أية أرض يتم انسحاب اسرائيلي منها ، عصبية للغاية ومفعمة بالتهديد والوعيد . وسبب ذلك واضح للغاية ، اذ ان اقامة مثل هذه السلطة يقلب المخطط الاسرائيلي بالنسبة للضفة الغربية وقطاع غزة رأسا على عقب ، حيث ان سلطة كهذه لا بد ان تمارس حقوق سيادة كاملة على تلك الارض الفلسطينية ، وهي الحقوق التي تتعارض ، جملة وتفصيلا ، مع المخططات الاسرائيلية من اساسها. كذلك فان مجرد اقامة هذه السلطة لا يمكن الا ان تكون الخطوة الاولى على طريق اعادة فتح الملف الفلسطيني ، وابتداء من اول ورقة فيه ، بما يحتويه من حقوق ومطالب فلسطينية تجاه الحركة الصهيونية واسرائيل ، تسبق قيام اسرائيل بنحو نصف قرن من الزمن ، ان لم يكن أكثر من ذلك . وان لم يكن من الممكن القيام بهذا في المرحلة الحالية ، حيث ينصب الاهتمام العالمي والغربي أساسا على تصفية نتائج عدوان ١٩٦٧ ، فان المستقبل كفيل بايجاد المناسبة الملائمة لذلك ، وهذا في نفس الوقت الذي لا تستطيع اسرائيل مطالبة تلك السلطة الفلسطينية بعقد « سلام » معها ، ما دام الشعب الفلسطيني لم يحصل على حقوقه الكاملة ، خاصة بالنسبة للمناطق المحتلة من فلسطين سنة ١٩٤٨ .

ان حراجة الموقف الاسرائيلي بعد مؤتمر الرباط واضحة للغاية ، اذن ، ولدرجة تجبر المرء على التساؤل عن طبيعة الاجراءات التي قد تتخذها اسرائيل للخروج من هذا المأزق . وهذا على الرغم من ان الاسرائيليين أنفسهم يعملون على زيادة موقفهم حراجة ، ليس فقط باعلانهم انهم يرفضون الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسـطينية واصرارهم على عدم وجود علاقة بينها وبين الفلسطينيين في المناطق المحتلة ، وانمـا بتأكيدهم ايضا انهم يرفضون حتى التفاوض مع الاردن بشأن مصير تلك المناطق ، اذ اتضح ان اي اتفاق اسرائيلي معه قد يجير فيما بعد لصالح منظمة التحرير ، او ان الاردن ينوي اشراك المنظمة في حكم تلك المناطق بعد انسحاب اسرائيل منها . ولكن مثل هذه التصريحات ، من ناحية ثانية ، لا يمكن ان تشكل بحد ذاتها موقفـا اسرائيليا متماسكا يمكنه الوقوف في وجه تحديات مؤتمر الرباط ، واستنادا الى ردود فعل فقط ، اذ لا بد ايضا من المبادرة الى اتخاذ اجراءات اسرائيلية مضادة لمواجهة قرارات هذا المؤتمر او محاولة تطويقها والتخفيف من وقعها . ويبدو من ردود الفعل الاسرائيلية الفورية على قرارات مؤتمر الرباط من جهة ، ومن مخططات اسرائيل ومواقفها في الماضي من محاولات تسوية ازمة المنطقة من جهة اخرى ، ان هناك أربعة خيارات امام اسرائيل ، للعمل ضمنها لمواجهة الوضع الراهن في المنطقة .

ان اول تلك الخيارات هو ذلك الذي يحظى بموافقة غلاة التوسعيين الاسرائيليين، الداعي الى « انهاء » الاحتلال الاسرائيلي لتلك المناطق بطريقة « بسيطة » للغاية ، وذلك بفرض القانون الاسرائيلي عليها وضمها رسميا الى اسرائيل . وقد ظهر تأثير هذا الاتجاه على الصعيد الرسمي ، حالا بعد الاعلان عن قرارات مؤتمر القمة ، عندما تبنى بعض المسؤولين الاسرائيليين تلك الدعوات المنادية بتقوية الاستيطان الاسرائيلي في المناطق المحتلة ، دعما للوجود اليهودي فيها وخطوة على الطريق نحو ضمها . غير أن نظرة أشمل الى طبيعة مثل هذه الاجراءات تظهر انها لا يمكن ان تصل الى درجة من الجدية ، يمكن معها اعتبارها ردا على قرارات مؤتمر الرباط . ان ضم الضفة الغربية وقطاع غزة الى اسرائيل لا يزال يعتبر حتى الان من بين الاجراءات التي لا

تحظى بموافقة أكثرية الاسرائيليين ، وان تكن هذه — مرة اخرى — أكثرية ضئيلة ، اذا ان الخوف مما قد تجره مثل هذه الخطوة من تاثير على طابع اسرائيل اليهودي في المستقبل والاصرار على تجنب « الخطر السكاني » العربي لا يزال في محله، والنظريات الصهيونية العنصرية التي تفضل دولة يهودية « نقية » قدر الامكان ، وان كانت صغيرة الحجم على دولة كبيرة ، مهما بلغ حجمها ، لا يشكل اليهود أكثرية مطلقة فيها ، لا تزال نافذة المفعول . كذلك فان الظروف الموضوعية غير مناسبة لاتخاذ مثل هـذا الاجراء ، وان كانت اسرائيل قد امتنعت عن تنفيذه منذ ١٩٦٧ وحتى اليوم ، وخاصة بعد الحرب بالذات عندما اكتفت باعلان ضم القدس القديمة وضواحيها فقط اليها ، تاركة مصير المناطق الاخرى ليحسم فيما بعد ، فمن المستبعد ان تتخذ هذه الخطوة الان وعيون العام بأسره مفتوحة على ما يجري في تلك المناطق ، وعلى موقف اسرائيل من القضية الفلسطينية عامة ، في حين يبدو ان اميركا — آخر حلفائها — تطالبها باتخاذ

موقف أكثر ليونة وواقعية تجاه هذه القضايـا . والشيء نفسه ينطبق على تقويـة الاستيطان اليهودي في تلك المناطق ، اذ ليس سرا ان عمليات الاستيطان هناك ، وخاصة في الضفة الغربية ، لم تتخذ مرة طابعا « جديا » رغم الضجة الكبيرة التي تثار حولها ، عربيا او اسرائيليا ، من حين لآخر ، ولا يزال النشاط الاستيطاني هناك يترنح بين مد وجزر . كذلك يبدو ، من ناحية ثانية ، ان « سلاح الاستيطان » التقليدي هذا ، الذي خدم الصهيونية كثيرا في الماضي بمساعدتها على مجابهة عرب فلسطين بسياسة الامر الواقع ، بواسطة اقامة المستوطنات اليهودية في قلب المناطق العربية الصرفة لايجاد موطىء قدم للتوسع الصهيوني فيها فيما بعد ؛ قد فقد الكثير من قوته السحرية، اذ ان مطالبة اسرائيل بالانسحاب من المناطق المحتلة تتم اليوم ، الى حد ما ، بسبب اقامة المستوطنات اليهودية في تلك المناطق بالذات . وعليه يبدو ان اسرائيل لا تستطيع الرهان على اتخاذ اجراءات ضم المناطق المحتلة اليها او تقوية الاستيطان اليهودي فيها للخروج من المأزق الذي يواجهها .

وفي مقابل الخيار الاول ، الداعي الى الضم والتوسع، هناك ايضا اتجاه ثان مناقض له يدعو الى انسحاب اسرائيلي ، من طرف واحد ، من تلك المناطق مع الاحتفاظ بأجزاء صغيرة منها ضرورية « لتعديل » حدود اسرائيل ، ويؤيد هذا الاتجاه تيار آخر يدعو الى منح الاستقلال الذاتي لسكان تلك المناطق من الفلسطينيين ، بعد العمل عـلى تصحيح الخطأ الذي ارتكبته السياسة الاسرائيلية في تعاملها معهم بالسـعي نحو « خلق » زعامة محلية لهم تستطيع التفاوض مع اسرائيل بشأن مصيرهم . غير انه يبدو ان هذا الاتجاه ليس أوفر حظا من اتجاه الضم والتوسع ، ان لم يكن اقل منه . فالمطالبة بانسحاب اسرائيلي ، من جانب واحد ، من تلك المناطق لا تحظى الا بتأييد قلة من الزعماء الاسرائيليين لا يزيد عددها على عدد أصابع اليد الواحدة ، رغم ما كانت — وربما لا تزال — تتمتع به من نفوذ في اسرائيل ، وليس في مقدورها بالتالي تحريك السياسة الاسرائيلية الرسمية في هذا الاتجاه . كذلك فان المطالبـة بمنح الاستقلال الذاتي لسكان المناطق المحتلة او الموافقة على اجراء المفاوضات معهم ، والتي لا يمكن ان تتم الا بعد اعتراف بهم من قبل اسرائيل ، وان كان اعترافا ضمنيا على الاقل ، باعتبارهم جهة مؤهلة للتفاوض بشأن حل المشكلة الفلسطينية ، قد تكون غير حميدة العواقب او مأمونة الجانب بالنسبة لاسرائيل . فاعتراف اسرائيلي باولئك السكان ، او بزعامتهم ، باعتبارهم طرف « صالح » للتفاوض مع اسرائيل لا يحتم ، بالطبع ، تصرفهم على النحو الذي تريده هي بالضبط ، والذين قد يطالبون عندئذ ، مثلا ، بمنحهم الاستقلال الكامل او اعلانهم انهم يعتبرون منظمة التحرير الفلسطينية

ممثلا لهم ، بحيث قد تجد اسرائيل نفسها في وضع تعود معه المنظمة « ومخربيها » الى مواجهتها من شباك الاعتراف بسكان المناطق المحتلة ، بعد ان حاولت طردها من باب الاصرار على مفاوضة الدول العربية والاردن . وعليه يبدو ايضا ان الخيار الثاني هذا غير واقعي بالنسبة للتحركات الاسرائيلية .

اضافة الى الاتجاهين الذين مر ذكرهما ، هناك ايضا اتجاه ثالث ، هو ذلك الذي يدعو الى اللجوء لاستعمال القوة ، مرة اخرى ، واستغلال اول فرصة مناسبة لشن الحرب على الدول العربية ، في محاولة لاعادة ترتيب اوضاع المنطقة بشكل مريح لاسرائيل ، ينقذها من ورطتها الحالية . وهناك دلائل كثيرة تشير كلها الى ان دوائر عديدة في اسرائيل ، منها ما يتمتع بنفوذ وتأثير واضحين لدى صانعي القرارات هناك ، تسعى للوصول الى صدام مسلح مع العالم العربي او تقوم بالاستعدادات الواسعة لمجابهة مثل هذا الوضع . فعسكر اسرائيل ، منذ نهاية حرب تشرين او على الاقل منذ توقيع اتفاقيتي فصل القوات بين اسرائيل من جهة ومصر ثم سوريا من جهة اخرى ، وبعد ان استتب الهدوء على تلك الجبهات ، راحوا يشحذون سيوفهم بهمة ونشـاط بالغين . والاستعدادات العسكرية الاسرائيلية جارية على أسرع ما يكون ، بعد ان قامت المؤسسة العسكرية باعادة تنظيم شامل لكافة أجهزتها ، في ضوء دروس حرب تشرين ، وتم دعمها بالمال والرجال واحدث الاعتدة الحربية . كذلك يشتم من تصريحات بعض الزعماء الاسرائيليين ، وعلى رأسهم عدد من العسكريين البارزين ، شوق وحماس حارين لخوض حرب جديدة مع العرب ، والانتقام منهم لما ألحقوه باسرائيل من اهانة وخسائر مادية وبشرية خلال حرب تشرين ، ومن ثم اعادة فرض هيبة العسكرية الاسرائيلية على المنطقة من جهة واعادة اعتبارها لها داخل اسرائيل من جهة اخرى . غير انه ، في مقابل ذلك ، هناك تخوف واضح لدى العديدين من « عقلاء القوم » في اسرائيل من امكان نشوب حرب جديدة ، ومبررات تخوفهم هذا وجيهة للغاية . فالحرب السابقة ، حرب تشرين ، ادت الى مقتل نحو ٢٥٠٠ اسرائيلي ، بحسب البيانات الاسرائيلية الرسمية ، وكان هذا العدد من القتلى كافيا لاحداث زلزال اصاب النظام الاسرائيلي في أسسه ، ودفع بالعديدين ، وعلى رأسهم بعض المفكرين وقادة الرأي في اسرائيل ، الى ابداء شكوكهم علنيا حول جدوى المشروع الصهيوني في فلسطين ، بينما كاد يظهر وكأن هناك محاولة لاعادة نظر شاملة في المواقف الاسرائيلية الاساسية برمتها . ولهذا ، وبما ان هناك شبه قناعة لدى معظم الاسرائيليين ان حربا جديدة ، مهما كانت نتائجها ، لا بد ان تؤدي الى سقوط عدد آخر من القتلى لا يستهان به ، يتجه اولئك الى العمل نحو منع نشوب تلك الحرب ، التي قد لا تحمد عقباها لجهة تأثيرها على الكيان الاسرائيلي . كذلك فقد كان للحرب الاخيرة تأثير سيء على اوضاع اسرائيل الاقتصادية ، ولدرجة يبدو معها وكأن المساعدات الاميركية السخية التي تتلقاها اسرائيل لا تكفي لانقاذ اقتصادها ، الذي يتدهور يوما بعد يوم . ولهذا يخشى ان تؤدي حربا جديدة الى انهيار كامل في الاقتصاد الاسرائيلي ، يشل قدرة اسرائيل على استيعاب المهـاجرين الجدد ويدفع المهـاجرين القدامى الى ترك البلد ، مما قد يسـدد ضربة حادة الى أحد الاسس المهمة التي تقوم اسرائيل عليها . الا ان الاهم من هذا كله هو شعور العديدين من الاسرائيليين ان حربا جديدة ، حتى وان انتهت بانتصـار اسرائيلي ساحق مثل ذلك الذي حدث سنة ١٩٦٧ — وهناك الكثيرون ممن يبدون شكوكهم في امكان انهاء حرب أخرى بين اسرائيل والعرب على غرار ما حدث سنة ١٩٦٧ ، خاصة بعد تعاظم القوة العسكرية العربية — فان انتصارا كهذا ، ان تم ، لن يستطيع حل المشاكل السياسية المعلقة بين العرب واسرائيل ، تماما كما لم يستطع

انتصار ١٩٦٧ حلها . يضاف الى هذا ان هناك تخوفا ملموسا للغاية من لجوء العرب، في حالة كهذه ، الى استعمال سلاح النفط ثم سلاح المال ، مما قد يجر ازمة طاقة او ازمة مالية عالمية ، تضطر اسرائيل الى دفع ثمنها غاليا ، بحيث قد تجد نفسها في عزلة تامة في العالم ، تفوق تلك التي ذاقت طعمها خلال حرب تشرين ، على ما يجره مثل هذا الوضع من خطر عليها . وعليه يبدو ان سير اسرائيل في اتجاه الحرب مع العرب ، وان كان له ما يؤيده من وجهة النظر الاسرائيلية ، فهناك أيضا ، في مقابل ذلك ، ما يدفع في عكس هذا الاتجاه ، بحيث يبقى احتمال الحرب واحدا من الخيارات المفتوحة أمام اسرائيل .

اما الخيار الرابع — والاخير — فانه ليس الا محاولة المحافظة على الوضع الراهن والاستمرار في المساعي الاسرائيلية الهادفة للوصول الى حلول جزئية مع الدول العربية ، رغم قرارات مؤتمر الرباط ، ومن خلال اتجاه للتفاوض مع كل دولة عربية على حدة من جهة واخراج الفلسطينيين ومنظمة التحرير الفلسطينية من الحلبة من جهة اخرى . ويبدو ان هذا هو الخيار الوحيد المفتوح أمام اسرائيل حاليا ، ولدى الزعماء الاسرائيليين ، استنادا الى تجاربهم الماضية على الصعيدين العالمي والعربي ، ما يكفي من الاسباب الموجبة التي تدفعهم لمحاولة الاستمرار في هذا الاتجاه . فعلى الصعيد العالمي ، اولا ، ورغم تصويت ١٠٥ دول في الامم المتحدة الى جانب دعوة منظمة التحرير الفلسطينية للاشتراك في مناقشة القضية الفلسطينية ، يصعب القول ان هذا التطور كان مفاجئا للغاية بالنسبة لاسرائيل ، فسجلات الامم المتحدة ، منذ عرض قضية فلسطين عليها سنة ١٩٤٧ وحتى اليوم ، تحتوي على العديد من القرارات والتوصيات المؤيدة لحقوق الفلسطينيين ، بهذا الشكل او ذاك ، وهي القرارات التي استطاعت اسرائيل بمناوراتها ابطال مفعولها بأكملها والاستمرار في اتباع السياسة الخاصة بها وكأن شيئا لم يكن . ولهذا ، وان كانت القرارات التي صدرت او التي ستصدر عن الدورة الحالية للجمعية العمومية للامم المتحدة أكثر «قسوة» من القرارات السابقة ، لا يزال يراود اسرائيل الامل بأنها لن تعدم حيلة للتملص من نتائجها . والشيء نفسه ينطبق ، ثانيا ، على مقررات مؤتمر القمة في الرباط على الصعيد العربي، فسجلات مؤتمرات القمة العربية — وعلى رأسها لاآت الخرطوم الثلاث — وكذلك سجلات النشاط العربي السياسي ، في علاقات الدول العربية مع بعضها بعضا ، تحتوي على العديد من البيانات والتصريحات والمواقف التي لا تقل شدة عما صدر عن مؤتمر الرباط ، ولكن على الرغم من ذلك استطاعت اسرائيل ان تجتاز تلك المراحل بسلام . ولهذا لا يستغرب المرء ان تعود اسرائيل ، بعد امتصاص صدمة الاعلان عن قرارات مؤتمر الرباط بفترة قصيرة ، الى لهجتها السابقة معلنة ان الكلمة الاخيرة في الموقف العربي الموحد من مساعي التسوية الحالية لم تقل حتى الان في العالم العربي ، وانه لا زال هناك مكان لمحاولة الوصول الى حلول جزئية ، ومع كل دولة على حدة ، وان اسرائيل تستطيع التملص من نتائج « القرارات الفلسطينية » التي أصدرها المؤتمر وتحييد منظمة التحرير الفلسطينية وحصر تأثيرها بواسطة استمرار المحاولات للوصول الى حل مع الاردن بشأن الفلسطينيين ، رغم اعلان الملك حسين عن التزامه بقرارات المؤتمر . وينبغي الا نستغرب ايضا ان رأينا اسرائيل تتقدم بعروض « سخية » جديدة لدول المواجهة العربية المحيطة بها ، وتلمح الى استعدادها عن تقديم « تنازلات » اخرى لتلك الدول لزعزعة موقفها الموحد . ومن الواضح ، من ناحية ثانية ، ان مثل هذا الاتجاه ينم على تحديات جديدة للفلسطينيين عامة ولمنظمة التحرير الفلسطينية وقيادتها خاصة ، لا بد من مواجهته بتجاوز مرحلة ردود الفعل والانتقال الى مرحلة

المبادرة بالفعل ، وذلك بتثبيت الانجازات التي حصلت عليها على الصعيدين العالمي والعربي وتحويلها الى واقع ملموس ، يصعب على الصديق والعدو معا تجاهله . ولهذا يبدو ان ضرورة اقامة حكومة فلسطينية مؤقتة ، تحول التعاطف والتأييد العربي والعالمي للفلسطينيين وحقوقهم الى اعتراف عملي واضح منجانب تلك الدول، أصبحت الآن حاجة ملحة أكثر من أي وقت في الماضي ، خاصة وان مثل هذه الحكومة قد تحظى باعتراف عدد كبير من دول العالم ، يزيد على عدد تلك الدول التي تعترف باسرائيل نفسها ، بينما تقطع اقامة مثل هذه الحكومة خط الرجعة على أية محاولة لتمييع التأييد الممنوح للفلسطينيين من قبل هذه الدولة او تلك ، او التراجع عنه في المستقبل انطرأت ظروف جديدة . كذلك لا بد من التذكير الى انه في الوقت الذي اصطلحت فيه شعوب العالم ، منذ بداية ما يسمى بعصر القوميات ، على التعامل مع بعضها البعض بواسطة ما يعرف بأنه حكوماتها ، يبدو انه لا بد من اقامة حكومة للشعب الفلسطيني ، أسوة بباقي الشعوب .

آفاق دولية بعد الرباط

سمير عطاالله

« ان ما يحدث الآن هو انتقام من اوروبا القرن التاسع عشر » .

فاليري جيسكار ديستان

هذا الكلام قاله الرئيس الفرنسي في المؤتمر الصحافي الشهير الذي تخطى فيه مواقف الجنرال ديغول نفسه عندما أصبح ، اول زعيم اوروبي مسؤول ، يتحدث عن الوطن الفلسطيني ، ملزما فرنسا بذلك ، وربما الاسرة الاقتصادية الاوروبية كلها ، بأول اعادة اعتراف رسمية بفلسطين .

وعندما تحدث جيسكار ديستان عن « الانتقام من اوروبا القرن التاسع عشر » لم يشر الى العرب علنا بالطبع ، لكنه لم يكن يقصد أحدا غيرهم . كان يقصد هذه القوة الهائلة التي نبتت فجأة لتعود واحدة من أهم القوى العالمية ، بعدما ظلت ، طوال قرون عدة ، تنتقل من نير استعماري الى آخر ، وكان يقصد بالتأكيد هذا الشعب الذي خرج مفاجأ ومهزوما من حرب ١٩٦٧ ، لكي يتحول خلال سنوات قليلة الى قبضة حقيقية تعصر راحتها عنق اسرائيل وتعصر أطراف أصابعها عنق العالم الغربي كله ، أمام الاطلسي وخلفه .

الى عامين خليا ، كان مثل هذا الكلام يبدو شعرا او ضربا من فنون الخطابة . لكنه الآن يبدو دون الحقيقة بكثير : لم يعد هناك متفرجون في النزاع العربي — الاسرائيلي . لم يعد هناك حياد ولم تعد القضية الفلسطينية مسألة قابلة للتأجيل ، فهي ، اخيرا قد اقتحمت العالم .

كيف ؟ ولماذا ؟ هل هو النفط ؟ هل هو الفلسطينيون ؟ هل هو حرب تشرين ؟

الثلاثة معا . ومعهم ايضا ، وهذا الاهم ، بروز الامة العربية للمرة الاولى ، بحكامها وليس بشعوبها فقط كما كانت العادة من قبل ، أمة واحدة موحدة من المحيط الى الخليج . هذه المرة لم تترك امارة واحدة خارج القضية ، ولم يبق أحد خارج القضية . واذا كان امتداد الجبهة العسكرية قد انحصر في الجولان والسويس ، فان الجبهة القومية كانت مفتوحة على امتداد الوطن العربي كله ، برغم مفارقاته التنظيمية والايديولوجية وحتى الاجتماعية .

هكذا قام ، بالنسبة الى الغرب ، واقع جديد . فقد كان من بديهيات التكوين الاستعماري ، انه يتكل على تفسخ الشعوب والامم . وقد مارس الاستعمار البريطاني هذا التفسخ في البلاد العربية أكثر من أي مكان آخر ، كذلك مارسته فرنسا ، أحيانا منفردة واحيانا بالاشتراك مع بريطانيا . ثم جاء استعمار فوستر دالاس بينما كانت الامة العربية في بداية النهضة من الكبوة الطويلة ، ومارس السياسة نفسها ، طارحا هذه المرة فكرة الاحلاف والمعاهدات .

لكن عاما بعد آخر أخذت الدول العربية تتجه في خط الوحدة العامة ، كلما ازداد

وعيها لواقعها من جهة وكلما تعاظم وعيها لقضيتها من جهة اخرى . ولا نظلم رسل الوحدة العربية اذا قلنا ان هذه الوحدة وصلت الى ذروة تكاملها العام ، مع وصول القضية الفلسطينية الى ذروة الادراك في عقول الشعب العربي . فالواضح ان البعد القومي لحرب تشرين لا ينتهي في الجولان وسيناء بقدر ما يمتد الى فلسطين نفسها ، والحرب لم تكن لاستعادة « أراض » مفصلة في القرارات الدولية بقدر ما كانت حرب استعادة الارض . اعادة التاج الى الام ، الى الرمز .

هذه ، كانت الصورة ، منذ صباح السادس من تشرين . يومها ، قدر لي ان أكون في الامم المتحدة بالذات ، وهناك شاهدت عملاقا عربيا يخرج من القمقم . مرة واحدة. هناك شاهدت العالم يعترف بالوطن العربي — بعضه مرغم وبعضه عن حب — وهناك بعد عام ، سوف يعترف هذا العالم بالجزء العربي الذي كان يرفض قبل الان ان يصدق انه يراه فعلا ! فلسطين .

● في بداية ١٩٧٣ جاء وفد صحافي من المانيا الغربية بدعوة رسمية الى بيروت. وبين المقابلات التي شملتها الزيارة واحدة مع محرري «النهار» . كان أعضاء الوفد يسألون والمحررون يجيبون . وكان الموضوع واحدا طبعا : فلسطين والفلسطينيون .

كان معظم أعضاء الوفد الالماني من الصحافيين المتقدمين في السن ، كما كان معظمهم يبدو وكأنه يريد ان يفهم فعلا او على الاقل ان يتفهم . غير ان واحدا منهم ، وكان الاصغر سنا ، بدا وكأنه يريد ان يناقش لا ان يسمع .

وقد سألني هذا عما اتوقعه كصحافي يكتب في القضايا الدولية . وكان فحوى الجواب : ان الجسم الكوني شبيه الى حد كبير بالجسم البشري والتاريخ يدل ، وخصوصا تاريخ هذا الجزء من العالم ، ان الجسم الكوني ، كالجسم البشري ، لا يلبث ان يرفض الاجسام الغريبة والمزروعة مهما طالت المدة او مهما كانت عملية الزرع ناجحة . ولكي لا أبعدك كثيرا عن اوروبا أحب ان اعطيك ايرلندا الشمالية كمثال . فقد بدا لزمن طويل ان الايرلنديين قبلوا او تقبلوا المستوطنين الذين جيء بهم من اسكوتلندا وغيرها خلال مرحلة اذلال ايرلندا . لكن فجأة قامت ثورة الوطنيين ولا تزال قائمة حتى الآن ... وبالتالي فان أبسط ما نتوقعه هو انتفاضة في الداخل من الوطنيين ضد المستوطنين ، تدعم او توازي الثورة التي شهرها الذين شردوا من الفلسطينيين ، في وجه العالم ، مع العلم طبعا ان الغزو الاسرائيلي بعد حرب ١٩٦٧ لم يعد غزوا لفلسطين وحدها بل كشف ما كنا نقوله للعالم عن كونه غزوا استيطانيا يهدد العالم العربي كله ...

ولم يرق هذا الجواب كثيرا للصحافي الالماني الغربي الذي جاء ... يناقش . وكان هذا ، بالفعل ، موقف معظم الالمان ، وبالطبع موقف معظم الاوروبيين الذين غسلت أدمغتهم طوال ربع قرن بدعاية صهيونية مركزة . أما المانيا الرسمية ، المانيا الدولة ، فلم يكن موقفها بعيدا ايضا عن هذا الموقف . كانت هناك قناعة اوروبية عامة ، باستثناء الموقف الفرنسي الموضوعي الذي اتضح في ايار ١٩٦٧ ونما بعد ذلك ، بأن العرب قوة مفككة سوف يظل من السهل على اسرائيل قهرها ، خصوصا ما دامت هذه مدعومة بالقوة الاميركية بدون حساب .

... ثم وقعت حرب تشرين . أدركت اوروبا قبل غيرها — وخصوصا المانيا الغربية — انها مخطئة كثيرا في حساباتها وانه أصبح من السهل جدا الان على العرب قهر اسرائيل برغم القواعد الدولية القائمة وانهم استطاعوا ان يحطموا اسطورتها العسكرية برغم الجسر الجوي الاميركي الذي لا سابقة له ، بعدما استطاعوا عزلها

نهائيا على الصعيد السياسي، العزل الذي وصل الى ذروته هذا العام في الامم المتحدة.

المهم ، انه في نيسان الماضي عقدت في الامم المتحدة دورة استثنائية تاريخية للبحث في الموارد الطبيعية ردا على مؤتمر مواجهة الدول المنتجة للنفط الذي عقد في واشنطن في شباط ١٩٧٤ . وجاء وزير خارجية المانيا الغربية آنذاك ورئيسها الحالي فالتر شيل لكي يلقي كلمة السوق الاوروبية في الدورة .

وفوجىء الكثيرون « بنعومة » الخطاب ، خصوصا وان الرئيس هواري بومدين كان قد القى اطروحة تاريخية في الدفاع عن العالم الثالث ضد مطامع الدول الصناعية.

... وتبين فيما بعد ان فالتر شيل وضع خطابه بعد التشاور مع الزعيم الجزائري، وحرص على صياغته بصورة لا تغضب الدول العربية .

وكما يقول المثل العامي « هاالله هاالله يا دني ... » فالدولة التي ضحت بكل العلاقات العربية من أجل الرغبات الاميركية والاعتراف باسرائيل في الستينات ، صارت تشاور واحدا من أكثر الزعماء العرب تصلبا .

في عام واحد تطور الموقف الالماني من عدائي الى اقل عداء الى متفهم ... مع انه لا يزال بعيدا جدا عن ان يكون موقفا موضوعيا .

لقد اخذنا التطور في الموقف الالماني كمثال واحد في طبيعة وتطور الرؤيا الدولية الى القضية الفلسطينية خصوصا والقضية العربية عموما . وهو مثال على نوعية واحدة من البلدان الاوروبية والغربية ، لا يزال عددها مع الاسف كبيرا . لكن ثمة ثلاثة مواقف جوهرية ، على صعيد الافاق الدولية ، تستحق الدرس والمقارنة .

اولها الموقف السوفياتي (ومعه طبعا الكتلة الاشتراكية) لكونه مؤيدا تماما ، وثانيها الموقف الفرنسي ، لكونه أكثر المواقف الغربية انفتاحا واستقلالية ، وثالثها الموقف الاميركي لكونه الاكثر عداء .

ان في المواقف الثلاثة تطورا أساسيا مهما بدا في الظاهر وكأن هذه المواقف لا تزال واحدة. فالواقع ان القوى الثلاث عدلت كثيرا في جوهر نظرتها الىالقضية الفلسطينية، مع ان منطلقاتها في ذلك لا تزال واحدة .

● للموقف السوفياتي من القضية الفلسطينية منطلق واحد، هوالمنطلق الايديولوجي، برغم ما يرافق هذا الموقف من تطلعات للدولة السوفياتية نفسها ، أي التطلع الى المصالح التي قامت او يمكن ان تقوم مع عالم عربي متطور .

لكن الموقف السوفياتي الجوهري لم يتغير ولم يتعدل . عندما بدا في احدى المراحل ان المصالح السوفياتية مهددة بالخطر ، بل على العكس ازداد تأييدا ودعما لـدول المواجهة وللثورة الفلسطينية خصوصا وللدول العربية المنفتحة على موسكو بصورة عامة . اذ لم يكن ممكنا ولن يكون ممكنا للاتحاد السوفياتي ان يتخذ مواقف تتناقض مع فكره وتركيبه وتاريخه ، مهما فرضت المواقف المعاكسة عليه ، او مهما بلغ شأن سياسة الانفراج والوفاق مع الولايات المتحدة الاميركية .

والدليل طبعا ان مسار الموقف السوفياتي ظل كما هو ، او بالاحرى ازداد تعمقا ، بعد تغير القيادة السوفياتية وذهاب نيكيتا خروشوف الذي سجل اول توجه جدي نحو العالم العربي عندما كانت الثورة المصرية في بداياتها .

لكن لا بد من ملاحظة التطورات الايجابية التي طرأت على الموقف السوفياتي من « صفقة الاسلحة التشيكية » الى السد العالي الى حرب ١٩٦٧ الى الموقف اليوم ، الموقف المتكامل من الثورة الفلسطينية .

في العام ١٩٥٦ اتخذ نيكيتا خروشوف « موقف الصواريخ » الشهير ضد محور العدوان الثلاثي على مصر . غير ان ذلك الموقف لم يأخذ صداه العالمي لان موسكو كانت غارقة آنذاك في أتون الحرب الباردة مع العالم الرأسمالي . ومن هنا فان قطع العلاقات الديبلوماسية مع اسرائيل خلال حرب حزيران ، مع انه لم يصل الى حد سحب الاعتراف بالكيان الصهيوني ، كانت له أهمية أضخم بكثير . ذلك ان الظروف الدولية كلها كانت قد تغيرت في العقد الذي مضى على العدوان الاول ، وكان الاتحاد السوفياتي قد فرض نفسه فعلا دولة كبرى متفوقة عسكريا وعقائديا وسياسيا في تزعم العالم ، ولذا فان قطع العلاقات مع اسرائيل كان ، بين امور اخرى ، تكريسا لانقسام العالم فعلا للمرة الاولى حول ما كان العالم قد اقترفه قبل عشرين عاما تماما من ذلك التاريخ : تقسيم فلسطين .

هذا الموقف ايضا وضع الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية في صف المواجهة المعلن الى جانب الدول العربية في وجه اسرائيل من جهة ، وفي وجه الولايات المتحدة من جهة اخرى . وبالتالي فان اي خطوة مقبلة كان سيتخذها الاتحاد السوفياتي سوف تكون خطوة الى الامام . وهكذا ، بالفعل ، لم يعد الدعم السوفياتي مقتصرا على تأييد الدول العربية في استعادة الاراضي المحتلة ، بل تعداها تدريجا الى حد التعامل مع الثورة الفلسطينية على اساس كونها السلطة الوطنية الحية .

ومن قبيل الانصاف والبديهيات التاريخية ، ان الدولة السوفياتية لم تذهب في تأييد قضية ما ، المدى الذي ذهبته في تأييد القضية العربية ، الا ربما في كوبا ، مع اختلاف الظروف والمضاعفات بين الوضعين .

الموقف السوفياتي كان ، من دون اي شك ، بداية العزلة الاسرائيلية على المسرح الدولي . ومع انه لم يكن عنصرا مباشرا ، مثلا ، في مقاطعة القارة الافريقية لاسرائيل ، فان موقفه اثر بالتأكيد ، والى حد بعيد جدا ، على نظرة القارة الاوروبية الى الصراع العربي — الاسرائيلي في السنوات العشر الاخيرة على الاقل .

الى أين تذهب موسكو من هنا ؟ وماذا بعد هذا التعاقد العاطفي والسياسي الذي لا يوازيه حجم اي تعاطف آخر بين السوفيات وبين اي أمة اخرى ؟ وماذا الآن ، خصوصا الآن ، بعد قيامة الوطن الفلسطيني ؟

ان اي حديث عن « النوايا » السوفياتية هو في الواقع تشكيك في عشرين عاما من الدعم السوفياتي . وان اي محاولة للمقارنة او اي محاولة لطرح القضية العربية في مزاد الانفراج والوفاق الدولي ، هي ايضا ضمن نطاق هذا التشكيك . اذ ليس منتظرا ان تتخلى موسكو عن القضية الفلسطينية في ذروة آمالها ، هي التي لم تتخل عنها في ذروة آلامها .

بل ان اي تقييم للموقف السوفياتي يظل ضمن نطاق البديهيات . فالمرء لا يترقب اصدقاءه على مفترق الطرق . انه يتوقع اعداءه فقط .

● بعضنا يرد الموقف الفرنسي من القضية الفلسطينية الى العام ١٩٦٧ ، اي يوم وقف الجنرال ديغول يعلن حظر الاسلحة على الدول المتقاتلة في الشرق الاوسط بينما كان يعلن هذا الحظر عمليا ، وانطلاقا من رؤيا تاريخية واضحة ، على اسرائيل ، باعتبارها كانت تعتمد على السلاح الفرنسي الى حد بعيد .

لكن الواقع ان حرب حزيران كانت مجرد فرصة لاظهار رؤيا قديمة . أو كانت ، على الاصح ، فرصة لاظهار تحول أسبق ، في نفس القائد الفرنسي الذي اشتهر

باستقراء المستقبل . هذا التحول بدأ في العام ١٩٦١ ، يوم انتقل الجنرال ديغول من صفوف الذين ينادون « بالجزائر الفرنسية » الى تزعم المستقلين الفرنسيين المنادين بمنح الجزائر حريتها ولو كان الثمن حربا أهلية في فرنسا نفسها ... او محاولة انقلابية يقوم بها بضعة جنرالات فاشلين .

اذ هنا لا بد ان نلاحظ ان تجربة الجزائر لم تغير رؤيا ديغول بالنسبة الى حريات العالم الثالث وحده ، بل هي غيرت رؤياه ، في صورة جذرية ، الى مجمل وطبيعة العلاقات مع كل المعسكرات في العالم ، وخصوصا الى طبيعة العلاقات مع الولايات المتحدة من جهة ومع سائر أعضاء الاسرة الاوروبية من جهة اخرى .

مع قرار اطلاق رصاصة الرحمة على الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، تبين للجنرال الذي خاض حربين عالميتين ، ان عالما جديدا قد ولد . والعالم الجديد هذا أصبح يقتضي اعادة النظر في بنية العالم القديم كلها ، وبالاخص في كل أخطاء وخطايا العالم القديم الذي كان هو ، في مراحل مختلفة ، واحدا من اركانه .

وانا من الذين يقولون — في كل تواضع — ان تجربة الجزائر ، وليس الواقع الاوروبي الجديد ، كانت وراء معاهدة الصلح الالمانية — الفرنسية التي وقعت في العام ١٩٦٣ ، على الاقل من الناحية النفسية . اذ حيث اثبت شعب صغير أعزل ، مثل الشعب الجزائري ، انه قادر على قهر قوة كبرى مثل فرنسا ، لم يعد من الممكن الاستمرار في اخطاء المتعاليات القديمة ... تلك التي كانت باريس مسؤولة عنها وتلك التي لم تكن .

فالخوف الحقيقي بالنسبة الى ديغول أصبح واحدا : الخوف من ان تظل فرنسا ضعيفة . فاذا تحولت الى قوة فعلية لن تعود في حاجة الى الاعتماد كليا على « المظلة النووية الاميركية » التي كان يقول دائما انه لا يعرف متى تسحب من فوق رأس فرنسا ، ومن هنا أنشأ القوة النووية الضاربة وبدأ في بناء قوة عسكرية قادرة على الاستقلال عن الحلف الاطلسي تماما .

هذا الجنرال المتوسطي كان يعرف جيدا كيف يتطلع حوله : عبر الاطلسي رأى حليفا راغبا في التسلط بينما هو راغب في الاستقلال ... فقام وسافر الى الاتحاد السوفياتي ليقيم اول علاقات خاصة بين البلدين منذ سقوط ثلوج الروسيا على رأس نابوليون . وعبر المتوسط أيضا رأى ان تلك البلدان التي عذبها الاستعمار الفرنسي ذات زمان ، بدأت تعود اليها سواعدها، فانصرف الى تحسين العلاقات بقدر المستطاع مع المغرب العربي ثم مع المشرق العربي ، محاولا ان يفتح لفرنسا صفحة جديدة مكتوبة بحبر المستقبل .

والواقع ان الموقف الفرنسي في حرب حزيران ، كانت قد سبقته اقامة علاقات طبيعية بين باريس والعواصم العربية، بعيدة عن ذكريات الجزائر وبنزرته والسويس.

لكن هل ذهب ديغول الى حد اتخاذ موقف فلسطيني ؟

الجواب يتوقف على كيف نفسر رؤيا الرجل . وانا بين الذين يعتقدون ان اول تمهيد للموقف الفلسطيني الذي أعلنه جيسكار ديستان في الشهر الماضي ، كان اشارة ديغول بعد حرب حزيران او بالاحرى تفسيره ، لطبيعة اليهود في العالم ، ذلك التفسير الذي اقام عليه حملات اعلامية رهيبة في الغرب .

فقد كان ذلك الكلام ، اول اقرار غربي على هذا المستوى ، بأن ظلما حقيقيا قد الحق بالشعب العربي في فلسطين ، وكانت قيمته ان ديغول هو الذي يقوله كما كانت قيمته في انه يصدر عن رجل يعرف سلفا ما سوف يواجه من حملات .

في أي حال ، لقد وضع ديغول بلاده على الطريق الصحيح . وعندما استقال وجاء بومبيدو خلفا له ، توقع الكثيرون ان تذهب الديغولية مع ديغول ، وتوقع الكثيرون ، في صورة خاصة ، ان يظهر التحول في السياسة الفرنسية ، في الشرق الاوسط .

لكن الذي حدث ان جورج بومبيدو لم يكن ، في أي وقت ، أقل موضوعية من سلفه . وبينما كانت القضية الفيتنامية تصل الى مرحله التكامل ، كان بومبيدو يتحدث في كل مناسبة عن حقوق الشعب الفلسطيني . ولعل بومبيدو تعرض أكثر من سلفه لحملات الصهيونية التي وصلت الى ذروة وقاحتها خلال زيارته للولايات المتحدة ، حيث لقي من الاوساط الصهيونية بذاءات اضطرت ريتشارد نيكسون الى الاعتذار عنها شخصيا .

بعد وفاة بومبيدو كانت المعركة طاحنة بين فاليري جيسكار ديستان ، مرشح الديغوليين ، وبين فرنسوا ميتران ، مرشح اتحاد اليسار .

وكانت الدول العربية تراقب معركة الانتخابات الفرنسية هذه المرة وهي اكثر اهتماما وترقبا من اي مرة سابقة . فقد بدا لفترة انه سواء فاز جيسكار ديستان او ميتران ، فان السياسة الفرنسية تجاه العرب مقبلة على تغيير لن يكون في مصلحتنا .

فالاول ليس من الحزب الديغولي نفسه بل هو زعيم الجمهوريين المستقلين الذين يدعمون الاكثرية الديغولية . وفوق ذلك فقد تعاطى دائما في شؤون المال والاقتصاد وبالتالي ليست له أي مواقف سياسية واضحة . ثم ازدادت المخاوف خلال الحملة عندما أدلى جيسكار ديستان فعلا بأقوال يمكن تفسيرها ببساطة على انها تأييد لاسرائيل . أما فرنسوا ميتران ، من جهته ، فهو مشهور بتأييده لاسرائيل وبأن الذين حوله من مؤيدي اسرائيل ، مع العلم طبعا ان تحالفه مع الحزب الشيوعي كان سيشكل ضوابط معينة اذا ما وصل الى الاليزيه .

من هنا ان تصريحات ومواقف جيسكار ديستان الفلسطينية كانت مفاجئة حقا ، اذا لم نقل مذهلة . فقد تخطى الرجل في الواقع كل المواقف التي ذهب اليها سلفاه في تزعم الجمهورية الخامسة ، عندما أصبح أول زعيم غربي في الحكم ينادي بحقوق الشعب الفلسطيني ، بمعناها الشرعي والقومي .

لقد طالب ديغول وبومبيدو من قبل بوجوب الاعتراف بهذه الحقوق غير انهما لم يصلا الى حد المطالبة باعادة قيام الوطن الفلسطيني بالصورة التي رآها الرئيس الفرنسي الحالي . والسبب واضح طبعا : ان رؤيا الرئيسين السابقين لم تكن أقل تعاطفا او رغبة في العدل ، لكن رؤيا الرئيس الحالي وجدت في الثورة الفلسطينية التي وصلت الى ذروة التكون ، تجسيدا عمليا لما يمكن ان تلزم فرنسا نفسها بها من موقف حاضري ومستقبلي ، او بالاحرى الموقف الرؤوي .

هنا ايضا لا بد من النظرة « التاريخية » الى الموقف الفرنسي : ان قرب فرنسا من المنطقة العربية وكونها شهدت « من الداخل » المظالم الاستعمارية التي بدأت مع وعد بلفور ، بالاضافة الى انها شاركت في هذه المظالم خلال مرحلة ما ، كما شاركت في التقسيمات — ان هذه العوامل التاريخية بالاضافة الى مسارعة فرنسا في تقبل وقائع العالم الجديدة ، هي التي أملت الموقف الفرنسي الموضوعي تجاه القضية الفلسطينية في مرحلتها الحاضرة .

ولا يمكن بالطبع ، وفي صورة عامة ، ان نفصل نطلع فرنسا الى مصالحها ، مثلها مثل أي دولة كبرى او صغرى . والواقع انه لو ادركت كل دولة اوروبية مصالحها الحقيقية ، او لو استطاعت هذه الدول ان تتخطى النفوذ الصهيوني المتركز في معظم

دوائرها ، لاستطاعت تلقائيا ان تفتح أعينها في نظرة اكثر موضوعية على طبيعة الصراع في الشرق الاوسط .

ان الموقف الفرنسي ، في أي حال ، يظل الموقف الوسط ، أي انه ، برغم أهميته واصالته ، يظل بعيداً عن الموقف السوفياتي ، لكنه في الوقت نفسه يظل أهم واجمل موقف غربي من القضية الفلسطينية حتى الآن — واكثرها جراة بالطبع .

● أخيرا ، لا آخرا ، الموقف الاميركي .

وفي هذا الموقف كتبت مجلدات ضخمة حتى الان . وفوق المجلدات كتب الشعب العربي في كل مكان ، ردة فعله تجاه الموقف الاميركي منذ هاري ترومان حتى جيرالد فورد ، أحيانا بالتظاهرات واحيانا بأعمال العنف واحيانا بالشعر العامي واحيانا بالغناء واحيانا بالاجتماعات وأحيانا بالصمت وأحيانا بكل الاشكال .

لكن ، الان ، بعد قمة الرباط وبعد دخول فلسطين الى الامم المتحدة في اضخم تظاهرة من نوعها في تاريخ المنظمة الدولية ، والان وقد اصبحت فلسطين على حافة هويتها ، بعد هذا كله ، هل تغير الموقف الاميركي ؟

لقد قيل الكثير في تغير الموقف الاميركي ، خصوصا بعد ازمة الطاقة وبعد ان جعل النفط العربي كل مواطن اميركي يشعر بأنه لن يكون في امكانه بعد الان ان يتجاهل الشعب العربي وحقوقه وآماله وتطلعاته ورغباته في ان يعيش ، بعد كل هذه القرون المظلمة ، بعيداً عن السيطرة الاستعمارية .

وكثيرون اعتقدوا ، خصوصا ، بعد ان فتحت اميركا بعض أبوابها أمام رسل الرأي العام العربي ، ان تغييرا جذريا قد طرأ على الموقف الاميركي . وزاد في هذا الاعتقـــاد ان وزير خارجية الولايات المتحدة الزم نفسه برعاية الحل السلمي في المنطقة ومن اجل ذلك قام بست جولات زار خلالها الزعماء العرب ، معلنا دائما أن الغاية من زياراته هي تأمين حل « تدريجي » لمشكلة الاراضي العربية المحتلة .

لكن ، ايضا وايضا ، هل تغير فعلا أي شيء ؟ ان اكثر الاجوبة ايجازا وافادة على هذا السؤال ، هو جواب ابو عمار في حديثه الى التلفزيون الاميركي عندما قال « لقد طرأ تعديل طفيف على الرأي العام الاميركي » .

وهذا ، على الارجح ، كل شيء . اذ ليس واضحا حتى الآن ان هناك أي تغيير آخر في الموقف الاميركي ، خصوصا فيما يتعلق بالنظرة الى فلسطين وشعب فلسطين والثورة الفلسطينية .

ولا تزال الادارة الاميركية تتصرف حتى الآن وكأنها تفاجأ عندما يقال لها ان هناك شعبا فلسطينيا وان هناك وطنا فلسطينيا لا يزال في المنفى مع ان هذا الوطن قد وصلت حدوده الى قلب نيويورك نفسها . ان الموقف الاميركي ، في كلام آخر ، لا يزال قائما على رفض القبول بالشعب الفلسطيني وتطلعاته وحقوقه البسيطة والبديهية والعادلة .

وهل يمكن لنا ، اذن ، ان نتوقع أي تغيير في الموقف الاميركي غير التعديل الطفيف على الرأي العام ؟

حتى الآن ليس هناك ما يدل على ذلك . حتى الآن لا تزال واشنطن ترسم سياساتها في الشرق الاوسط بعقلية الثلاثينات . ولكن حتى هذا الموقف لم يعد مهما . فالتصويت الاخير في الامم المتحدة لم يكرس فلسطين ويعزل اسرائيل فحسب ، بل ان ١٠٥ دول كرست فلسطين وعزلت اسرائيل والولايات المتحدة معا . وعملية العزل مستمرة ما دام الموقف الاميركي مستمرا .

قمة الرباط في المنظور الغربي

ادريس الخالدي

اعتادت وسائط الاعلام الغربي على تناول الصراع العربي ــ الاسرائيلي بأكبر قدر من الجهل وتشويه مدروس . وفيما عدا استثناءات قليلة ، فان تغطية هذه الوسائط لاحداث العالم العربي تأثرت بقوة لضغط صهيوني كبير ، كمــا تأثرت بعداء الغرب الطبيعي للحركات المعادية للامبريالية والاستعمار على شتى انواعها، ولقد انطبق هذا الموقف بصورة خاصة على قضية فلسطين .فعبر سنوات طوال،عكست صحف ومجلات اوروبا والولايات المتحدة بصورة قوية الاساطير الصهيونية عن «لا وجود» الشعب الفلسطيني ، فلقد كان نفي وجود الهوية الفلسطينية لازمة ضرورية للدعم الغربـــي للدولة اليهودية . ذلك ان هذا الدعم جرت فلسفته وجرى تبريره على الدوام من خلال مقولة حق اليهود بتقرير المصير ، وعلى هذا فان اي اعتراف او تسليم بوجود شعب فلسطيني ، كان سيقود الى تناقض صارخ .

وعلى مدار اكثر من ربع قرن من الزمان ، لم تكن فلسطين تعني بالنسبة لمعظـــم الغربيين ، سوى أنها المنطقة الجغرافية التي أسس فيها اليهود دولتهم . انما مؤخرا، وعلى الاخص منذ اكتوبر ١٩٧٣ ، بدأ هذا المفهوم بالتغيير . وتعود جذور هذا التغيير الى مذابح ايلول الاسود ، والعمليات الفدائية التي سبقت ولحقت تلك المذابح . لقد كانت ردود الفعل الاولية على هذا العنف الموجه للفلسطينيين سلبيا الى حد كبير، فيما عدا موقف قطاعات شعبية قليلة العدد والشأن ، معادية للصهيونية والامبريالية . ومع ذلك فان البذرة زرعت ، وأوجدت أساسا لاعتراف عميق بالهوية الفلسطينية في وقت لاحق . وهكذا يمكن تسجيل بدء الاعتراف بالهوية الفلسطينية الذي كان الـــى حد كبير استجابة لتغير الظروف الموضوعية السياسية والاقتصادية . أن مدى هذا الاعتراف ، وكذلك حدوده ، يتجسدان بوضوح في ردود فعل وسائط الاعلام الغربية على قمة الرباط التاريخية .

في الانجليزية مثل معروف يقول « لا شيء مثل النجاح » . ان هـــذا ليس مسلمة بدهية، اذ انه يعكس الحقيقة الموضوعية القائلة ان التقدم يستولد اندفاعه الذاتي ، كما يعكس كذلك ، الميل الغربي اللافت للنظر للارتباط بما هو « فائز » .

لقد شهدت السنوات الاخيرة سلسلة متتابعـــة مـــن الانتصارات السياسيـــة والدبلوماسية البارزة التي حققها الشعب الفلسطيني على الصعيد الدولي . بدأ ذلك بالقمة العربية في الجزائر التي اعلنت غداة حرب اكتوبر ، اعترافها بمنظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، وكانت ذروة تلك الانتصارات ، دعوة الجمعية العامة للامم المتحدة لمنظمة التحرير الفلسطينية . ولقد وجدت الصحافة الغربية نفسها مضطرة (واحيانا ميالة) لاعطاء قدر متزايد باستمرار من الاعتراف بالهوية الفلسطينية ، واعترافها تدريجيا بحق الفلسطينيين بتقريــر المصير .

ومع ذلك ، فلقد بقيت هناك التباسات تحيط بموقف الحكومات العربية تجاه الدور المستقبلي لمنظمة التحرير الفلسطينية فيما يتعلق بتحرير وادارة فلسطين المحتلة ، ولقد استغلت هذه الالتباسات بصوره قوية من جانب المعلقين المساندين للصهاينة ، وكذلك من جانب العناصر الرجعية المؤيده لاستمرار الوصاية الهاشمية على الضفة الغربية . ولقد تأملت هذه القوى ان يحدث تنكر — بطريقة ما — للمطلب المشروع لمنظمة التحرير الفلسطينية بفرض السلطة الوطنية المستقلة على اي منطقة يتـم تحريرها ، وان يبقى دور النظام الاردني باعتباره المفاوض الرئيسي ، والطرف الذي يبسط سيادته على الضفة الغربية ، محفوظا .

من هذا الواقع ، انطلقت **الديلي تلجراف** البريطانية المحافظة المتطرفة يـوم ٢٨ اكتوبر لتكتب ما يلي :

« ان الزعيم العربي الاعظم تحضرا ، الملك حسين ، هو في الوقت الحاضر ، العنصر الرئيسي في قضية الضفة الغربية للاردن . أما نفوذ ياسر عرفات فأمر بغيض . واذا احبط القادة العرب في الرباط مطامح عرفات ، فان هذه ستكون فرصة للرياء العربي ازاء الفلسطينيين ، ليخدم قضية السلام » .

على أن **الديلي تلجراف** لم تكن وحدها التي تتمنى انتصار الاردن في الرباط ، فان عدة صحف امريكية أطلقت تمنيات مماثلة ، مؤكدة ان اقتراب كيسنجر من « تسوية سلمية لنزاع الشرق الاوسط » ، يقوم نجاحه على استمرار الدعم العربي لموقـف حسين باعتباره الطرف الذي سيتسلم في النهاية اية منطقة يتم تحريرها من الضفـة الغربية . (وكما سنرى لاحقا ، فان دبلوماسية كيسنجر تستحوذ على اكبر قدر من الاستغراق والاهتمام ، في تعليقات الصحافة الامريكية على قمة الرباط ، مع اعطاء اهتمام اقل — في الغالب — للموضوعات الكبيرة المطروحة في القمة) .

لقد كانت وسائط الاعلام الغربية حساسة بصورة خاصة لمجريات قمة الربـاط ، وهذا أمر مفهوم ، لوقوعها في أعقاب دعوة الامم المتحدة لمنظمة التحرير الفلسطينية . أضف الى ذلك ، ان الخارجية الامريكية اعلنت بكل وضوح ان الخطوة التالية في مفاوضات كيسنجر « السلمية » ، تتوقف على القرارات المنتظرة من قمة الرباط ، وحين خرجت القمة بقراراتها على الملأ ، ذهل عدد من المعلقين الغربيين . لقد تنبأ عدد كبير من الصحف بحدوث شقاق مرير بين اطراف القمة ، بل أنهم قالوا بحق ان الحكومات العربية تتمتع بقدرة خارقة على تأجيل المحتوم ، خاصة عندما يتعلق الامر المحتوم بقضية الشعب الفلسطيني المتفجرة . على ضوء هذا كتب ايفانس ونوفاك ، محررا العمود المشهور الذي يظهر اسبوعيا في عدة صحف في الوقت نفسه علـى امتداد الولايات المتحدة .

« احدى المفارقات العميقة في قمة الرباط الاخيرة ، انه لا أحد هنا ، بدءا من ناظر الخارجية وانتهاء بالمراتب الادنى ، أعطي أي تلميح او فكرة [من قبل الحكومـات العربية] ان العالم العربي كانت لديه أية مؤشرات (من قبل الحكومات العربية) الى ان العالم العربي بأسره بما في ذلك حسين ملك الاردن وحليف الولايات المتحدة العريق والوفي ، سيتكتل وراء منظمة التحرير الفلسطينية » .

على أن بعض الصحف لم تستطع قبول الحقيقة الجديدة . وان الامريكيين بصورة خاصة ، اصيبوا بالارتباك والتحفظ بسبب القرار الاجماعي الجلي بأخذ الضفـة الغربية من حسين ، واعادة تقرير مصيرها المستقبلي لايدي الشعب الفلسطيني .

ولقد عاجلت ((**انترناشينال هيرالد تريبيون**)) الى القول ان الاجماع الذي يقوم عليه القرار ، ((موضع شبهة ، وان تخلي الاردن الظاهري عن مطالبه بالضفة الغربية ، خلف وراءه جوا من الحيرة في مؤتمر الرباط ، غريبا ولافتا للنظر ، وشعورا بأن تحفظات لم تعلن ولم تنشر قد اضيفت الى البيان)) .

ولقد عكست **النيويورك تايمز** رفضا مشابها لتصديق نتائج قمة الرباط الكاملة . لقد انتهجت هذه الصحيفة خطا ثابتا مؤيدا للصهاينة وداعما للملك حسين طوال السنوات الماضية ، وكانت الصوت المعبر عن خطة كيسينجر لاعادة الضفة الغربية للسيادة الهاشمية ، ولهذا فان تعليقها على قمة الرباط ، يحمل قدرا غير مألوف من عدم الواقعية . فبعد اشارتها الى حجة الملك حسين امام القادة العرب (ان من غير المحتمل ان تبحث اسرائيل مسأله الانسحاب مع م. ت. ف.) الامر الذي يؤكده كيسينجر والاسرائيليون ، فان الصحيفة خلصت الى القول :

((المسألة الان هي ما اذا كانت الاكثرية الفلسطينية المقيمة في الاردن سوف تسمح للملك حسين ، بكل ما في الكلمة من معنى ، بأن ينفض يديه من قضيتهم بكل هذه البساطة)) .

لكن هذا الاستغراق في الخيال الذي ميز ردود فعل الصحف الامريكية الاكثر تعصبا للصهيونية ، لم يمثل بالتأكيد موقف وسائط الاعلام الغربي على وجه الاجمال . فاذا نظر الى قرار الرباط من زاوية شاملة ، يبدو واضحا ان القرار كان مفاجئا بقوته وجلائه ، ونظر اليه المعلقون باعتباره ذا اهمية رئيسية بالنسبة للمجرى المقبل للصراع العربي — الاسرائيلي ، وكفاح الشعب الفلسطيني .

على ان هناك بالطبع تفاوتا بين تقييمات وتحليلات الصحافة الغربية بعد قمة الرباط . ومع ذلك فان دراسة ما كتبته صحف ومجلات الغرب الرئيسية يكشف قدرا ملحوظا من الاجماع في الرأي في عدة جوانب . وسنتناول هذه النقاط على حدة ، ونوضحها مدعومة بالامثلة والاقتباسات .

فيما عدا استثناءات قليلة ، اتفقت صحافة الغرب على أن قرار الدول العربية اعطاء الدعم الكامل لمنظمة التحرير الفلسطينية ، كان من ناحية **حتميا** ، ومن ناحية ثانية ، **مبررا كليا** . بل ان بعض المعلقين أشار الى ان مثل هذا القرار كان يمكن أن يكون قد صدر منذ أمد بعيد ، **فالاكونومست** ، المجلة الاسبوعية البريطانية القوية النفوذ ، توجز هذا الرأي ببراعة حين تقول :

((لقد كشف القادة العرب اغطية التمويه عن أساس العلة لنزاعهم مع اسرائيل الذي استمر حتى الان ٢٦ عاما ... لقد قدم العرب في الرباط لانفسهم خدمة تأخر أوانها كثيرا ، وذلك بترتيب سلم الاولويات ، لقد انتهى الان الوقت الذي اعتادوا فيه المراوغة بتغطية القضية المركزية باطلاق الشعارات الجوفاء عن ((مشكلة اللاجئين)) الفلسطينيين)) .

ان في هذا النص قدرا كبيرا من الرياء البادي للعيان ، ذلك ان وسائط الاعلام الغربي ارتكبت خطيئة المراوغة ذاتها منذ أمد بعيد .

ومع ذلك فان المعلقين الاكثر واقعية وموضوعية ، بغض النظر عن مدى معارضتهم لمنظمة التحرير الفلسطينية في الماضي ، اضطروا الى التسليم تحت وطأة الاحداث ، بأنه **لم يكن هناك بديل اخر** وان هناك ملاحظة تتكرر في عدد من الصحف والمجلات ، وهي أن قرار الرباط ، كان نتيجة طبيعية **للتعنت الاسرائيلي** منذ ١٩٦٧ .

وانه لما يثير السخرية ، ان بيان الرباط كان السبب بظهور عدد من أعنف الانتقادات التي ظهرت في الصحافة الغربية ، للسياسة الاسرائيلية . وان السبب بسيط : فلو ان اسرائيل استجابت لعروض حسين في وقت أبكر ، وأتاحت له اعادة فرض سيطرته على معظم الضفة الغربية ، لكان هذا قد أنهى كليا مسألة منظمة التحرير الفلسطينية . ظهر هذا الرأي في تحليل ايفانس ونوفاك اللذان قالا بعد اشارتهما الى الرفض الاسرائيلي المتواصل لتقديم اي تنازلات لحسين في الضفة الغربية .

« انهم الان يقطفون الثمار المرة لهذه السياسة . ان رفض اسرائيل التفاوض بنية صافية مع حسين ، كان هو ذاته السبب الحقيقي لتراجع حسين امام ضغوط معظم الدول العربية ، تراجعه عن اصراره المعلن طويلا على انه هو فقط القادر على تحقيق تنازلات اقليمية من اسرائيل ، وبعد سبع سنوات ونصف السنة ، كان صفر اليدين » .

وتستشهد المقالة بما قاله أحد رسميي الخارجية الامريكية من « اننا ناشدنا الاسرائيليين ، وتوسلنا اليهم ، وانذرناهم طوال اعوام ان يتفاوضوا من أجل عودة الضفة الغربية » .

وتدعم **« التايمز »** اللندنية ، في مقالة لمحررها المختص بشؤون الشرق الاوسط ، ديفيد هولدن ، هذا التحليل . وينتقد هولدن السياسة الاسرائيلية تجاه الضفة الغربية منذ ١٩٦٧ ، بكل حدة ، قائلا ان اسرائيل اقفلت باب المفاوضات ، وقضت على «القيادة البديلة» لمنظمة التحرير الفلسطينية بين سكان الضفة الغربية، ورفضت حتى توقيع اتفاقية لفصل القوات مع حسين . وهكذا بينما يعتقد هولدن واخرون بأن قمة الرباط وضعت الخطوات التالية لمفاوضات السلام بين العرب والاسرائيليين امام « طريق مسدود » ، فانهم يجمعون على القول ان المأزق او الطريق المسدود **« هو من صنع أيدي اسرائيل نفسها »** .

والاهم من هذا النقد للسياسة الاسرائيلية ، هو الخلاصة التي يرتبها بعض المعلقين عليه . وعلى حد قول هولدن فان « الاستمرار برفض م.ت.ف. يعني بكل بساطة الان ، مضاعفة هذه الاخطاء » .

ويتفق عدد كبير من المعلقين بصورة لافتة للنظر ، على أن قمة الرباط اعادت الصراع العربي — الاسرائيلي ، أخيرا ، الى أبعاده الحقيقية ، وذلك بوضع الفلسطينيين والاسرائيليين وجها لوجه . **فالتايمز** اللندنية (٣٠ اكتوبر) التي أشارت الى ان كلا من كيسينجر ورابين لا بد ان يكونا قد انزعجا من بيان الرباط ، اوضحت ان الموقف — على الاقل — اصبح الان واضحا ، لانه « وضع اسرائيل وجها لوجه امام قضية فلسطين ، التي هي مفتاح كل النزاع بين اسرائيل والعرب » . **واللوموند** اوسع الصحف اليومية الفرنسية تأثيرا ، كاشفت الاسرائيليين بكل صراحة ، اذ تساءلت يوم ٣ نوفمبر :

« تبقى هناك مسألة مبدئية لا بد من الاجابة عليها ب نعم او لا : هل للفلسطينيين الحق بتنظيم انفسهم على رقعة فلسطين ؟ ان الاسرائيليين الذين رفضوا التسليم بهذه الحقيقة ، قاموا اخيرا بعمل القفزة : انهم يسلمون الان بأن هناك فعلا قضية فلسطينية . لكنهم لا يعرفون كيف يعالجون هذه القضية دون ان يعرضوا بلدهم لخطر جديد . ومن لا يتعاطف معهم ؟ لكن اليسوا في الواقع يهدرون وقتا ثمينا ، وقتا لا يعمل في صالحهم ؟ » .

وهكذا فان هناك اعتقادا واسعا بأن قرار الرباط القى العبء على كاهل الاسرائيليين : الخطوة التانية — هكذا يقال — يجب أن تاتي من جانبهم . فالانقسام بين العرب حول مسالة فلسطين قد يسوى اخيرا ، وان قرار الرباط ينهي اخر حجة « شرعية » استعملتها اسرائيل لرفض حق الفلسطينيين بتقرير المصير . لقد كان لهذه الحقيقة وقع عظيم — في بعض الحالات — على بعض الصحافه الغربية .

مجلة « **تايم** » كبرى مجلات « الاخبار » الاسبوعية في الولايات المتحدة ، كرست لقمة الرباط « موضوع الغلاف » الذي جعلته بعنوان « الفلسطينيون » . ولقد تعاطف هذا التحقيق الطويل ، من حيث المبدأ ، مع الشعب الفلسطيني، مشتملا على شعر لمحمود درويش ، وقصة مؤثرة لاسرة طردت من فلسطين عام ١٩٤٨ ، مع اطراء وتعريف ايجابي بأبي عمار وقيادة م. ت. ف. وعلى وجه التحديد ، فان المجلة لم تترك مجالا للشك فيما يتعلق بأهمية قمة الرباط بالنسبة لمستقبل الصراع :

« بغض النظر عن المشاعر (الاسرائيلية) تجاه قائد م. ت. ف. ، فلقد اعترف به زملاؤه العرب الان على انه الصوت السياسي للفلسطينيين اينما كانوا . ومع أن كلا من القدس وواشنطن لا تزالان تأملان ان يكون قد بقي للملك حسين دور رئيسي في المفاوضات من اجل الضفة الغربية ، فانه وببساطة لا يمكن اغفال عرفات في اي حل قد يمكن ايجاده لقضية الفلسطينيين ... فالحرب على فلسطين ستستمر الى ان يقبل الاسرائيليون التحدث مع عرفات ، والى ان يقبل عرفات التحدث مباشرة اليهم ... وبلا شك يريد الاسرائيليون السلام مع جيرانهم العرب ، على امتداد الحدود الامنة التي ينص عليها قرار الامم المتحدة . لكنهم لن يحصلوا على السلام أبدا الا اذا قبلوا بتقديم بعض التنازلات للفلسطينيين » .

ومما ضاعف من صعوبة القرارات التي تواجه الاسرائيليين الان ، حقيقة ان بيان الرباط ، وجه ضربة قاسية لمنهج كيسنجر : تسويات تدريجية ومنفردة على مختلف الجهات . لقد أغاظت هذه الحقيقة بعض الصحف الامريكية التي كانت تفضل ابقاء الهوية الفلسطينية مغمورة تحت رعاية عمان ، كما تمنى كيسينجر ان يحقق بكل وضوح .

الانترناشينال هيرالد تريبيون (٣٠ اكتوبر) التي أقرت على مضض ان م.ت.ف. غدت بصورة بارزة « عاملا حاسما لا يمكن تجنبه ، مبدئيا على الاقل » ، أصرت مع ذلك على انه لا يزال هناك مجال « للدبلوماسية عبر الخطوط الرشيدة » . ومع ذلك فان المقال الافتتاحي يستنتج انه « لا بد من التسليم بأن هذا قد غدا أمرا أبعد منالا بالنسبة لقوة حجم او تأثير قمة الرباط » .

التايمز اللندنية (٣ نوفمبر) كشفت بكل وضوح العقبات امام المفاوضات الثنائية على جانبي الطاولة : فالتعليق يقول انه طالما قد جرى استبعاد حسين من الصورة ، فان « فصل القوات » على جانبي نهر الاردن الذي سعت اليه الولايات المتحدة ، لم يعد واردا ، وانه « اذا لم يعد هناك مجال لتقدم في التسوية بالنسبة للضفة الغربية، فانه يصبح امرا مشكوكا به الى أبعد الحدود على الصعيد السياسي ، ان يقدم الرئيس السادات على خطوات اخرى نحو تسوية في سيناء » . هذه الحقائق تقود **التايمز** الى استخلاص ان مقررات الرباط « يجب اعتبارها نكسة رئيسية لسياسة التسوية المرحلية والجزئيــة التي يتبناها كل من اسرائيل ودكتور كيسينجر » .

هذه الحقيقة ، كشفت مضامين سياسات الدوائر الأسرائيلية الحاكمة ، واخطرها

انه لم يعد من مجال في أن تبقى الهوية الفلسطينية مطموسة في ظل التاج الهاشمي . وكما أشرنا آنفا ، فان الصحافة الغربية تدرك هذه الحقيقة جيدا . فحتى **الديلي تلجراف** الصحيفة البريطانية اليومية ذات الاتجاه الرجعي الداعم للنظام الهاشمي ، التي أشرنا سابقا الى ما كتبته من تمنيات بانتصار الاردن في الرباط ، غيرت لهجتها بعد انتهاء المؤتمر ، ففي صباح ٣ نوفمبر ، اقرت بمرارة « انه لا بد من اعادة فلسطين الى خريطة الشرق الاوسط بطريقة ما ، حتى ولو كانت جمهورية باسم م. ت. ف. » .

الصحف الاكثر تعصبا للصهيونية ، وخاصة الفرنسية ، ارعبتها هذه الحقيقة . **فالاكسبرس** (التي يلفت النظر في موضوع غلافها عن القمة انه يبدأ بتقرير من القدس بدلا من الرباط) ، كشفت عن تحيزها العميق والمتواصل للخط الاعلامي الصهيوني . وعلى حد قول مراسلها ، فان تتابع الانتصارات التي حققتها م.ت.ف. ، خلق جوا « كابوسيا » في اسرائيل ، وفرض على الاسرائيليين الاستعداد لشن حرب :

« لكن الضربة الاخيرة جاءت من الرباط . فالعدو اللدود ، م.ت.ف ، ظفرت هناك، لقد انتهى احتمال حل قضية فلسطين بواسطة الملك حسين ... فالذي كان يرهبه الاسرائيليون اكثر من اي شيء اخر في العالم ، الذي لم يخطر على بال اكثر افتراضاتهم تشاؤما .. قد حصل : اسرائيل تجد نفسها وجها لوجه مع عرفات . لقد وقع المأزق . ان البلد ترفض هذه المواجهة مهما كان الثمن . وفي النهاية ، لا شيء سوى ضغوط وكوارث غير محسوبة الان ، قد تجبر اسرائيل على مواجهة هذا الامر ... حين يضيف السيد عرفات ، الذي اثمله الانتصار ، ان القمة المقبلة ستعقد في القدس. واسرائيل المتوترة تشعر اكثر من أي وقت مضى ، بانها تكافح من اجل بقائها . ولا يبقى في هذه الحالة من مخرج غير الحرب ، لصنع القدر ، لكسب الوقت » .

ان التعليقات الاكثر رصانة ، تتفق على ان احتمال الحرب في الشرق الاوسط، غدا بعد الرباط اعظم من قبل . لقد كتب مراسل **التايمز** اللندنية (**٣ نوفمبر**) من اسرائيل يقول ان احتمال ان تغير اسرائيل قريبا موقفها الرافض للتفاوض مع م.ت. ف ، هو في الحقيقة « احتمال غير قائم على الاطلاق » . ولقد أشار المراسل الى ان العرض الذي تقدم به ياريف وزير الاعلام ، والقائل ان اسرائيل قد تفاوض م. ت. ف ، اذا اعترفت باسرائيل وتخلت عن مطالبتها بكل فلسطين ، هذا العرض رفضه بقية زملائه في الحكومة بصورة قاطعة ويصف المراسل « الجو » بعد قمة الرباط قائلا : « ان روح مسادة تستحضر (بصيغة المجهول) من جديد » .

ان بعث الهستيريا الشوفينية لا يجد تفسيره فقط كوسيلة لرفع المعنويات المتدنية . فان الغرب يرى ان الاسرائيليين مذعورون حقا من المعاني الاهم لمقررات الرباط . ان هذه الهزيمة السياسية والدبلوماسية ، يرى عدد من المراقبين الغربيين استكمالا لها في ترد محتمل للموقف العسكري من حيث المجابهة مع المقاومة . فلقد أشاد محرر في **نيويورك تايمز** في تحليل نشر في ٤ نوفمبر « ان موقف اسرائيل العسكري مال كما يبدو نحو التردي كنتيجة لقرار حسين ملك الاردن والقادة العرب الاخرين » الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، ومساندة خلق دولة فلسطينية . وتتكهن المقالة « بتعاظم وتكثيف عمليات م.ت.ف العسكرية في الضفة الغربية . وبالاضافة الى ذلك فان الكاتب يجري مقارنة تاريخية مهمة ، فقرار الرباط ، كما يرى ، قد يؤدي الى :

« تعزيز الجذب السياسي الذي تستقطبه م. ت. ف بين الفلسطينيين في الضفة الغربية ، تماما كما تزايد تأثير الفييت كونج (جبهة التحرير الوطني لجنوب فيتنام)

في صيف ١٩٦٩ بعد تشكيل الادارات الحكومية الخاضعة للشيوعيين في المناطق التي كان يسيطر عليها المتمردون ... ومن المتوقع أن يؤدي خطر تكثيف حرب العصابات في الضفة الغربية كذلك الى تسريع الجهد الاسرائيلي لبناء الطاقة البشرية العسكرية » .

ومع اتفاق المراقبين الغربيين على ما تشكله مقررات الرباط من ضغط على اسرائيل ، فانهم يجمعون على ما خلقته من التزامات على م. ت. ف كذلك . ان هذه الحقيقة اساسية بالنسبة لاي مراقب يتفهم رد الفعل الغربي على انتصارات م. ت. ف الاخيرة . وكما اشرنا في مطلع هذا التقرير ، فبينما تحسنت صورة الفلسطينيين في المنظار الغربي بصورة فائقة في العام الاخير ، توجد في الوقت الراهن تحديدات ملازمة لمدى الدعم الذي يمكن ان يناله الفلسطينيون في الغرب . فبينما يوجد الان ، ولاول مرة منذ ٢٦ عاما ، اعتراف واسع بحق الفلسطينيين بتقرير المصير ، فلا أحد في الغرب يفهم هذا على انه يعني الهزيمة الكاملة للصهيونية ، واقامة دولة ذات بنية سياسية ديموقراطية علمانية على كل أرض فلسطين . فالغرب يبقى ملتزما بقوة بوجود اسرائيل . ورغم ان هذا قد يكون شديد الوضوح ، الا انه يحمل معان مهمة بالنسبة للزاوية التي يتناول بها الاعلام الغربي اهمية الرباط ، والدور المستقبلي لمنظمة التحرير الفلسطينية . لقد نشأت آمال جديدة . وعلى حد قول ديفيد هولدن في **التايمز اللندنية** (٣ نوفمبر) فان رفض اسرائيل مفاوضة م. ت. ف بحجة ان هذه المنظمة تعلن التزامها بتدمير اسرائيل « لم يعد حجة مقبولة » .

وجهة النظر هذه ليست معزولة . فان المعلقين الاخرين ، وخاصة الاكثر تعاطفا مع الصهيونية ، يأخذون التزام م. ت. ف بتحرير كامل فلسطين ، بجدية او خطورة اكبر ، لكن جميع الاراء تلتقي على انه اذا اعترفت اسرائيل بان م. ت. ف تمثل الشعب الفلسطيني ، فان م. ت. ف بالمقابل ، ستكون مضطرة لتقديم تنازلات رئيسية من جانبها . ويتنبأ عدد من التعليقات بان اسرائيل ستجد نفسها محل ضغط امريكي قوي لتقوم بذلك الاعتراف . ان **الديلي تلجراف** تعبر عن هذا الرأي (٨ نوفمبر) ، ويقول ايفانس ونوفاك ان على كيسنجر ان يعاجل الى توجيه اهتمامه لاجبار اسرائيل على « أن تعترف بالوضع الجديد للضفة الغربية » . وكانت **الاكونومست** قد دعت م. ت. ف بصراحة حتى قبل قمة الرباط ، الى اعادة صياغة سياستها المعلنة . ففي ٢٦ اكتوبر ، حثت هذه المجلة قيادة م. ت. ف على « الاقرار بحق اسرائيل في الوجود » ، الامر الذي تزعم البلدان العربية الاخرى ، انها أقرته . فمن خلال تمسك م.ت.ف بقرارات الامم المتحدة ، وايقاف « الحديث عن دولة فلسطينية في الضفة الغربية تكون مرحلة اولى لاستعادة كامل فلسطين » لن يكون هناك مجال للشك في ان الصحافة الغربية سترحب بخطوة م. ت.ف. بكل حرارة .

وبعبارة ابسط ، فان هذا يعني ان وسائط الاعلام الغربية توصلت الى استنتاج ان على م. ت. ف ان تقدم في النهاية هذا التنازل عن الحقوق . انهم لا يتوقعون حدوثه على الفور . فكما بينا آنفا ، فان الاثر الفوري لقمة الرباط انها واجهت الاسرائيليين بمطالب جديدة ، لكن اذا رضخ الاسرائيليون لضغط امريكي متوقع ، وقدمت اي اعتراف لفظي ، ولو كان ذا طابع مؤقت او تجريبي ، بان م. ت.ف هي الطرف الملائم لبحث مستقبل الضفة الغربية معه ، فان جميع العيون سوف تشخص على الفور ناحية الفلسطينيين . ومن الطريف ، ان بعض المعلقين ، رغم تصريحات

قادة م. ت. ف المتكررة عن ثبات المنظمة على غاياتها ، يلتقطون مؤشرات على ان تغييرا في اهداف المنظمة ، قد **حصل فعلا** . ومن هذا ما خلصت اليه التايمز في مقالها يوم ٣٠ اكتوبر :

« فالمسألة اذن ، هي ما اذا كان السلام بين اسرائيل وم. ت. ف ممكنا . ظاهريا، جواب الطرفين سلبي . ومع ذلك فان كلا من الطرفين قد ألمح الى ان موقفه ليس نهائيا او متحجرا ، بل يتوقف على الموقف السلبي للطرف الاخر » .

ويمكن النظر الى هذه الملاحظات ببساطة على انها تمنيات المراقبين في الصحافة الغربية . ومع ذلك فان اغفالها ، دون الاهتمام بمغزاها بالنسبة للتفهم الغربي المستقبلي للصراع الجاري من حيث محتواه ، ومداه يكون خطأ فادحا . ان اقامة دولة عربية ديمقراطية علمانية في كل فلسطين ، أمر يبدو في نظر جميع المراقبين الغربيين مستحيلا عمليا . ومن الجانب الايجابي ، فان التطورات الاخيرة قادت عددا من المعلقين الى ان يصدقوا اخلاص م. ت. ف في سعيها وراء مثل هذا الحل ، وانها ليست مجرد منظمة ارهابية نذرت نفسها لابادة الشعب الاسرائيلي ، كما يريد الصهاينة ان يقنعوا العالم الغربي . لكنهم يعتبرون الدولة اليهودية حقا للاسرائيليين، وان هذا الموقف غير ممكن التغير في الوقت الحاضر .

ورغم ذلك ، فان بيان الرباط ، كانت له ابعاد محتملة لتغير بعيد حتى بالنسبة لهذا المعتقد الاساسي في الصحافة الغربية . ان للاحداث منطقها الذاتي ، واذا كانت الشهور الاثنا عشر الاخيرة تقدم دلالة ما ، فانه سيكون جمودا غير مبرر افتراض ان الدعم الغربي العام للدولة اليهودية ، غير قابل للتزحزح . فقبل عام واحد ، لو قيل ان **الاكونومست** ، أو **تايمز اللندنية** ، او **تايم** الامريكية ، قد تعلن دعمها لانشاء سلطة وطنية فلسطينية في الضفة الغربية ، لكان كاتب هذه السطور سيصاب بالذهول . أما الان فان هذا حقيقة واقعة . أضف الى ذلك ان مقررات الرباط أجبرت المراقبين الغربيين ، اخيرا وبصورة درامية ، على الاقرار بالغطرسة الصهيونية ، والروحية الاكتسابية (التوسعية مجازا) ، التي طبعت الاعوام الستة والعشرين الاخيرة .

الان ، وبوجود الفلسطينيين والاسرائيليين وجها لوجه ، يدرك الغرب الاساس الشرعي لكثير مما كان الفلسطينيون يقولونه طوال الوقت ، والاعظم اهمية ، انه اصبح بصورة غير معتادة ، اكثر حساسية ازاء الرفض الاسرائيلي التقليدي لمواجهة الحقيقة . واذا ما واصل الاسرائيليون دفن رؤوسهم في الرمال ، فمن المحتمل ان يكون هناك تحول غربي عن تأييد اسرائيل . وكما قال ايفانس ونوفاك في تحليلهما من واشنطن :

« بالنسبة للولايات المتحدة ، ان تكاليف الصلة الطويلة والحميمة باسرائيل آخذة بالازدياد يوما بعد يوم . وليس هناك ما يدعو للشك بان هذه العلاقة ستبقى وطيدة ، رغم ان بعض صانعي سياسة الرئيس فورد يقولون بصورة خاصة ، ان هذه العلاقة تورط المصالح الامريكية في مخاطر تتجاوز اسرائيل ذاتها » .

ان الغرب يتوقع من الاسرائيليين تنازلات مهمة في المستقبل القريب . **لوموند** (٣٠ اكتوبر) تدعو الاسرائيليين « الى ترتيب تعايشهم مع الفلسطينيين الذين قد يألفونهم اكثر مما يعتقدون عامة » . لكن المقالة تحذر ايضا من ان الوقت يضيع على الصهاينة وتقول : « لن يربحوا شيئا بتأجيل ساعة الحقيقة ، باستخلاص الاستنتاج المناسب من ميزان القوى الجديد » . ان هذا التحذير يجد صداه في مواقع اخرى في صحافة الغرب . فان ديفيد هولدن يجمل الوضع جيدا حين يكتب قائلا انه اذا قام الاسرائيليون

••

بالاعتراف بان الصراع هو الان بينهم وبين الفلسطينيين :

« فانه قد يكون لا يزال في وسعهم ان ينتزعوا السلام من مخالب الجحيم . واذا لم يفعلوا ذلك ، فلن يكون بوسعهم ان يلوموا احدا سواهم اذا هم لم يحصلوا في النهاية على اي سلام على الاطلاق » .

ان المعنى واضح : ما لم تستوعب اسرائيل بطريقة ما المعنى الحقيقي لقمة الرباط، وما لم تتجاوز تعنتها التقليدي ، فانها ستخسر بسرعة الدعم الاساسي الذي لا تزال تناله من صحافة الغرب . فلقد ولى ذلك الزمن ، حين كان الصهاينة يراهنون على صبر بلا حدود ، وتسامح بلا حدود ، ودعم بلا حدود ، حتى لاعمالهم الوحشية . وانهم الان يخاطرون ، ولو بدرجة ضئيلة ، بكسب عداوة كاملة من قبل العناصر الاكثر استنارة وموضوعية في وسائط الاعلام الغربية .

ضم فلسطين الوسطى الى شرقي الاردن
١٩٤٨ ــ ١٩٥٠

عصام سخنيني

الضم تنفيذا لقرار التقسيم

منذ اللحظة الاولى التي بدأت فيها بريطانيه بوضع الاسس لتكوين امارة شرقي الاردن في مطلع العقد الثالث من هذا القرن تحددت لهذه الدولة وظيفة كيانية في شكل مفصل ودقيق . وقد كان صلب هذه الوظيفة ومحورها الاساسي تسهيل مهمة بريطانيه في تنفيذ سياستها الفلسطينية(١). وقد جاء قرار التقسيم في العام ١٩٤٧ محكا عمليا لهذه الوظيفة . فعلى الرغم من ان بريطانيه امتنعت عن التصويت لدى طرح مشروع قرار التقسيم في الجمعية العمومية للامم المتحدة ، الا ان أي مراجعة لسلوكية الانتداب البريطاني في فلسطين تشير بوضوح الى ان بريطانيه وان كانت قد تعهدت (بتصريح بلفور ثم بصك الانتداب) باقامة « وطن قومي » لليهود في فلسطين ، الا انها كانت حريصة على ابقاء سيطرتها الفعلية على جزء من فلسطين حتى بعد قيام هذا «الوطن» وذلك كجزء من استراتيجيتها شرقي قناة السويس . وقد أوضحت بريطانيه رسميا في كتاب أبيض أصدره تشرشل ، وزير المستعمرات البريطاني آنذاك ، توجهها هذا . فقد لفتت الحكومة البريطانية في هذا الكتاب الى « ان عبارات التصريح المنــوه بها [تصريح بلفور] لا تشير الى تحويل فلسطين **بجملتها** وجعلها وطنا قوميا لليهود ، بل انها تعني بأن وطنا كهذا يؤسس **في فلسطين** »(٢). أما بقية فلسطين فقــد اتجــهت السياسة البريطانية الى ابقاء نفوذها الفعلي فيها عن طريق ربطها بشرق الاردن الخاضعة بنظام حكمها الهاشمي خضوعا مباشرا لبريطانيه . وقد توضحت هــذه الاتجاهات البريطانية عمليا في مشروع التقسيم الذي اقترحته لجنة بيل في العام ١٩٣٧ والذي أوصى بأن يكون الجزء العربي من فلسطين جزءا متحدا مع شرق الاردن . وقد حرك هذا المشروع شهية الامير عبدالله فقدم مشروعا آخر للجنة ودهيد التي الفتها الحكومة البريطانية لتحقيق وسائل التقسيم وشكله (زارت فلسطين بين نيسان وتموز ١٩٣٨ وأعلنت ان التقسيم غير عملي) لحل المشكلة الفلسطينية تتشكل بموجبه « مملكة موحدة عربية من فلسطين وشرقي الاردن تحت يد ملكية عربية قــادرة على القيام بمهمتها وتنفيذ تعهداتها » « وتعطي هذه المملكة ادارة مختارة لليهــود في المناطــق اليهودية التي تتعين خريطاتها بواسطة لجنة تتألف من رجال بريطانيين وعرب ويهود ، ويكون هذا التكيف لمدة عشر سنوات » . وقد حافظ عبدالله في مشروعه على مصالح بريطانيه في المنطقة فـ « لا اعتراض على بقاء الجيش البريطاني مدة العشر سنوات هذه » و « ان ما لبريطانيا العظمى من مصالح تجري المذاكرة فيها من الان كمشروع معاهــدة تهيأ لتبرم عند نهاية العشر سنوات(٣). غير ان الظروف المحلية (رفض الشعب الفلسطيني لمشاريع التقسيم ومقاومته لها) والظروف الدولية (نشوب الحرب

العالمية الثانية) أجلت تنفيذ اقتسام فلسطين بين الحركة الصهيونية وبريطانيه الى العام ١٩٤٧ عندما أخذت بريطانيه « الشرعية » الدولية بقرار التقسيم .

استعملت بريطانيه الكيان الاردني أداة لها في اقتسام فلسطين ، وقد تكثفت في هذه الاداة الوظيفة الكيانية لشرق الاردن كما لم يحدث من قبل . وقد اوضحت مذكرة نسبت الى البريجادير تشارلز كلايتون بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٩٤٧ موجهة الى السفير البريطاني في القاهرة ملامح الدور الاردني في التقسيم(٤) . فقد ذكر كلايتون في مذكرته التي تحدث فيها عن مباحثاته مع زعماء البلاد العربية انه تبين له ان توفيق أبـــو الهدى ، رئيس وزراء الاردن آنذاك ، لا يعارض التقسيم وادلى اليه « باقتراحات لو نفذت لامكن تقسيم فلسطين التقسيم الذي نص عليه قرار منظمة الامم المتحدة دون ان تعترض البلاد العربية ... وترى الاقتراحات ... انه عند اتمام جلاء القوات البريطانيـــة عن فلسطين . . . تنسحب منها القوات الاردنية المعسكرة في فلسطين ومتى تم انسحابها يقدم الضباط الانجليز الذين يعملون في جيش شرق الاردن استقالتهم ويعتزلون العمل رسميا في الجيش على أن يبقوا في البلاد . ومما لا شك فيـــه ان الثورة ستشتد في فلسطين وسيتدفق عليها المتطوعون من جميع البلاد العربية وعندئذ تعلن الحكومـــة الاردنية عن قرارها بزحف القوات الاردنية على فلسطين بحجة تخليصهـــا مـــن الصهيونيين ... وكلما تم لهذه القوات احتلال بلدة من بلدان فلسطين يعلن ضمهـــا الى المملكة الاردنية ، وستعمل القوات الاردنية جاهدة على احتلال البلاد التي تقع في القسم العربي . وقد أكد لي سعـــادة رئيس وزراء شرق الاردن ان القوات الاردنية ستتحاشى مهاجمة القرى اليهودية » . وقد « أبرمت » هذه الاقتراحات في اتفـــاق توصل اليه توفيق ابو الهدى مع بيفن ، وزير خارجية بريطانيه ، في اثناء زيارة وفد رئسه ابو الهدى الى بريطانيه في الفترة من ٤٨/١/٢٤ الى ١٩٤٨/٢/٢٢ ، وقد سجل الجنرال غلوب الذي كان عضوا في الوفد الاردني ، هذا الاتفاق كما يلي : « طلب ابو الهدى مقابلة خاصة مع بيفن ... وقد طلب مني ان أصحبه كمترجم ... وقد أوضح ابو الهدى انه اذا استمرت الحالة كما هي فتد يحدث أحد أمرين (عندما ينتهي الانتداب) : اما ان يتجاهل اليهود مشروع التقسيم ويستولوا على جميع فلسطين حتى نهر الاردن ، او يعود المفتي ويحاول ان يجعل من نفسه حاكما لفلسطين العربية، وكلا الخيارين لا يناسبان بريطانيه ولا شرق الاردن ... وتقترح الحكومة الاردنية ان ترسل الفيلق العربي عبر نهر الاردن عند انتهاء الانتداب البريطاني ليحتل ذلك القسم من فلسطين المخصص للعرب ... وقد أجاب بيفن انه من الواضح ان هذا ما يجب عمله لكن لا تهاجموا المناطق المخصصة لليهود »(٥) .

وهكذا تم الاتفاق مع وزارة الخارجية البريطانية على الا يتغلغل الفيلق العربي في المناطق اليهودية لدى احتلاله الاقسام العربية كما حددها قرار التقسيم ، وقد أشار بيفن في وقت لاحق أمام مجلس العموم البريطاني الى ان الفيلق العربي « قد تدخل فقط في المنطقة التي خصصتها الامم المتحدة للعرب »(٦) . كذلك جرت اتصالات بين الاردن والولايات المتحدة بشأن كيفية حدوث التقسيم بمساعدة من عبدالله مقابل ان تعترف الولايات المتحدة بشرق الاردن(٧) .

على الجانب الاخر كان عبدالله قد أجرى اتصالات قبيل صدور قرار التقسيم مع جولدا مايرسون (مئير فيما بعد) مديرة المكتب السياسي في الوكالة اليهودية في منتصف تشرين الثاني ١٩٤٧ في منزل بنحاس روتنبرغ في جسر المجامع وقد اكد عبدالله لمايرسون انه لن يحارب اليهود في حال صدور قرار بالتقسيم بل سيكتفي باحتلال القسم العربي من

فلسطين(٨). وقد وافقت الوكالة اليهودية مع عبدالله على ان يضم الاجزاء العربية الى مملكته على ان يبقى اليهود في أمان فيماخصص لهم(٩). وعندما راجت الانباء ان عبدالله كان على وشك الانضمام الى الدول العربية في الحرب بعثت مايرسون رسالة تستوضحه عما اذا كان اتفاقهما لا يزال ساريا « وقد حمل رسول من عبدالله جوابا مطمئنا طلب فيه عبدالله من مايرسون ان تتذكر ثلاثة أشياء : انه بدوي شريف ، وانه ملك ، وانه لا يخلف وعدا قطعه لامرأة »(١٠).

كان هناك اذن اتفاق ثلاثي (بريطاني ، اردني ، اسرائيلي) لاخراج « طبعة جديدة » من قرار التقسيم بحيث تستعمل الوظيفة الكيانية لشرق الاردن في أكفأ صورة ممكنة . ولتنفيذ ذلك انسحبت القوات الاردنية التي كانت في فلسطين بمعاونة القوات البريطانية قبل انتهاء مدة الانتداب ، وبقيت بعض المقرات والقطعات في بعض المناطق التي خصصت للعرب بموجب قرار التقسيم : في رام الله بقي مقر لواء ومقر كتيبة وبعض السرايا ، وفي نابلس سرية وفي اريحا مقر كتيبة وبعض السرايا وفي الخليل بقيت سرية(١١). وفي ١٥ ايار ١٩٤٨ عبر الجيش الاردني مرة اخرى نهر الاردن لاخراج قرار التقسيم في صورته الاردنية .

لم يتمكن الجيش الاردني من توسيع رقعة احتلاله للارض الفلسطينية وظل عمله محصورا في منطقة القدس — أريحا . وعلى ميمنة الجيش الاردني في الشمال كان مسرح عمليات الجيش العراقي وعلى ميسرته في الجنوب كان الجيش المصري . وعلى حساب هذين الجيشين كان توسع عبدالله في الشمال والجنوب . ففي الشمال حاول عبدالله مع الحكومة العراقية في شباط ١٩٤٩ تأسيس ادارة مدنية أردنية في نابلس وجنين وطولكرم التي كانت جميعا بيد الجيش العراقي(١٢)، كما طلب من الوصي على عرش العراق سحب الجيش العراقي من الاماكن التي يحتلها في فلسطين لكي يحل محلها الجيش الاردني في محاولة لمد سلطة شرق الاردن الى أراض فلسطينية جديدة(١٣). وبعد توقيع اتفاقية الهدنة الدائمة تم تسليم الجبهات العراقية الى الجيش الاردني كما يلي : ٦ نيسان ١٩٤٩ تم تسليم قاطع دير نظام ، ٧ نيسان منطقة المجامع، ٧ و ٨ نسان قاطع طولكرم — قلقيلية — كفرقاسم ، ٨ نيسان منطقة وادي المالح ، ٩ نيسان المنطقة الواقعة بين وادي المالح وطرق جنين العفولة ، ١١ نيسان بقية قاطع جنين — العفولة حتى باقة الغربية ، وفي ٢٥ نيسان أغلق مقر القيادة العراقية في نابلس(١٤). أما في الجنوب ، منطقة عمليات الجيش المصري ، فقد أرسل عبدالله قواته الى بيت لحم والخليل واحتلهما مغتنما فرصة انشغال المصريين في مجابهة العدو في أواخر تشرين الاول ١٩٤٨(١٥). وفي أواخر نيسان ١٩٤٩ وجهت القيادة المصرية في بيت لحم مذكرة الى مفتش عام الجهاد المقدس أعلمته فيها « انه تقرر جلاء القوات المصرية عن هذه المنطقة من فلسطين وتركها أمانة في عنق حكومة شرق الاردن لحراستها لصالح أهلها العرب وسيتم ذلك في الثاني من شهر مايو ١٩٤٩ »(١٦).

وبذلك فلم يمض سوى اقل من عام على دخول الجيش الاردني ارض فلسطين حتى كان بيد هذا الجيش معظم فلسطين الوسطى التي اطلق عليها فيما بعد اسم « الضفة الغربية » منفذا بذلك جزءا مما اتفق عليه مع وزارة الخارجية البريطانية .

محاولة اكتساب الشرعية الفلسطينية

كان أكثر ما يقلق عبدالله من ناحية سياسية وهو يسعى الى ضم المناطق الفلسطينية التي تحت ادارة جيشه الى حكمه ان الهيئة العربية العليا كانت هي الجهة الرسمية التي تعترف بها الجامعة العربية ممثلة للشعب الفلسطيني ، وهو أمر يجعل مهمة

عبدالله في التصرف بمصير جزء من الشعب والوطن الفلسطينيين بالغ التعقيد . وفي المقابل فان « تفويضه » فلسطينيا بالنطق باسم الفلسطينيين كان يمكن ان يسهل هذه المهمة ويعطيها الغطاء « الشرعي » . لذلك فمنذ دخول الجيش الاردني فلسطين في منتصف ايار ١٩٤٨ أعلن عبدالله « ان الهيئة العربية العليا لم تعد تمثل عرب فلسطين »(١٧). وقد تعقدت هذه المسألة عندما أعلن في ١٩٤٨/٩/٢٢ عن تشكيل « حكومة عموم فلسطين » التي اعترفت بها دول الجامعة العربية باستثناء الاردن . وقد أبرق عبدالله الى عبد الرحمن عزام ، أمين عام الجامعة العربية في أعقاب اعلان حكومة عموم فلسطين موضحا رأيه بهذه المسألة « بما ان الجبهة الوسطى الى السهل فرام الله هي في عهدة الجيش العربي الاردني ولا تزال الامور معقدة فانا لا نستطيع ادخال يد ثانية ضمن مسؤوليات حكومتنا العسكرية وبالاخص الاشخاص الذين يرغبون في الحكم ويسعون الى ذلك ، ولحفظ الاخاء ولصيانة عصمة الجامعة العربية نصرح بأننا سوف لا نتساهل لاي تكييف أو تشكيل في أماكن **أمان الحكومة الاردنية من حدود المملكة المصرية الى حدود سوريا ولبنان** عدا ان تشكيل حكومة كهذه هو أمر يفرض على أهل فلسطين بدون اختيارهم ، وهذا لا نوافق عليه وسنجادل عنه »(١٨).

مؤتمر عمان : ولاكتساب « الشرعية الفلسطينية » اختار عبدالله وقتا مناسبا لعقد « مؤتمر فلسطيني » في عمان في اليوم نفسه الذي عقد فيه مؤتمر غزة (١٩٤٨/١٠/١) الذي دعت اليه حكومة عموم فلسطين لعرض برنامجها السياسي ونيل الثقة . وسنعرض فيما يلي لاهم جوانب « مؤتمر عمان » :

١ ــ تشكلت اللجنة التحضيرية للمؤتمر من : الشيخ سليمان التاجي الفاروقي والشيخ سعدالدين العلمي وعجاج نويهض وحكمت التاجي الفاروقي والشيخ مصطفى الانصاري وعزت الكرزون . اما هيئة المؤتمر فشكلت على النحو التالي : الشيخ سليمان التاجي الفاروقي رئيسا ، الشيخ سعد الدين العلمي نائبا للرئيس ، عجاج نويهض سكرتيرا ، هاشم الجاعوني والدكتور نور الدين الغصين كاتبي المؤتمر(١٩).

٢ ــ مارست الحكومة الاردنية وممثلوها في الضفة الغربية (المناطق التي يسيطر عليها الجيش الاردني) أشد أشكال القمع لمنع المندوبين الفلسطينيين من الذهاب الى غزة لحضور مؤتمر حكومة عموم فلسطين من جهة ولاجبار المواطنين الفلسطينيين على التوجه الى عمان لحضور مؤتمرها من جهة ثانية . ونذكر فيما يلي بعض البرقيات التي اطلع عليها الباحث الحالي والتي تشير الى هذه المعاملة(٢٠):

أ ــ برقية بتوقيع منيف الى الفتياني بتاريخ ٤٨/١٠/٢ تنص على ما يلي : « الملك عبدالله احتجز جمال الحسيني بأريحا وبدلا من السماح لمندوبي اريحا بالحضور نقلهم حاكمها العسكري ذوقان الحسين بالقوة المسلحة الى عمان فجر امس لحضور الاجتماع المزيف الذي أقيم فيها » .

ب ــ برقية من القدس بتاريخ ٤٨/٩/٢٦ الى رئيس حكومة فلسطين في غزة وقعها يعقوب الحسيني وزكي عبد الرحيم وعبد الرحمن عريقات واديب الريماوي وشحادة حسونة ، نصت على ما يلي : « منعنا من قبل السلطة الاردنية الحضور الى غزة . نؤيدكم وأعضاء حكومتكم » .

ج ــ برقية بالتاريخ نفسه الى الجهة نفسها بتوقيع كامل عريقات ذكرت انه « فهم من مصادر موثوقة ان كل شخص يذهب لاجتماع غزة سوف يوضع عند عودته في المعتقل وسوف لا يصرح له بالعودة الى بلدته من قبل السلطات الاردنية » .

وهكذا هيأت الحكومة الاردنية الجو المناسب لمؤتمر عمان .

٣ ـ قرارات المؤتمر : أصدر المؤتمر عددا من القرارات في اختتام اجتماعه ، غير ان القرارين ١٢ و ١٣ هما صلب المؤتمر والغاية من انعقاده .

القرار ١٢ : « نظرا للصلات الوطنية والروابط القومية بين فلسطين والمملكة الاردنية الهاشمية فان المؤتمر يعلق على صاحب الجلالة الملك عبدالله المعظم اكبر الامال في حفظ حقوق عرب فلسطين وصيانة عروبتها ومقدساتها . والمؤتمر واثق كل الثقة من ان جلالته لن يقبل أن تفرض على عرب فلسطين حلول من قبل تلك الفئة من مترعمي فلسطين سابقا الذين ضج الشعب الفلسطيني خلال الثلاثين عاما الماضية من سوء تصرفاتهم وانانيتهم . **والمؤتمر يفوض جلالته تفويضا تاما مطلقا في أن يتحدث باسم عرب فلسطين ويفاوض عنهم ويعالج مشكلتهم بالشكل الذي يراه . وهو الوكيل عنا في جميع شؤون مستقبل فلسطين كما ان المؤتمر يؤيد جلالته في كل خطوة يخطوها في سبيل حل قضية فلسطين ويعتبره المرجع الوحيد لعرب فلسطين الذين منحوه كل ثقتهم واخلاصهم وأكيد ولائهم ووفائهم** » .

القرار ١٣ : « يقرر المؤتمر ارسال برقية للهيئة العربية العليا يشعرها **بانه نزع منها ثقة عرب فلسطين فهي لا تمثلهم ولا يحق لها أن تنطق باسمهم أو تعبر عن رأيهم** لان الحكومات العربية قد احتضنت قضية فلسطين ، وهي أصبحت وديعة بين أيدي ملوك العرب الذين يطمئن الشعب الفلسطيني الى مساعيهم في سبيل صيانة عروبتها وتحقيق حريتها » .

بايجاز ، كان مؤتمر عمان الخطوة الاولى التي خطاها الملك عبدالله نحو اقتناص « تفويض » شعبي فلسطيني لتمثيل الفلسطينيين والتصرف بقضيتهم ، وفي الوقت نفسه الاستناد الى هذا « التفويض » من أجل عدم الاعتراف بحكومة عموم فلسطين التي كانت تطالب بأن تشمل صلاحياتها جميع الاراضي الفلسطينية . وهكذا في ١٠/١٥/ ١٩٤٨ طالب عبدالله بحل حكومة عموم فلسطين وفي ١١/١ من العام نفسه أبلغ البرلمان الاردني ان اختلافه مع الدول العربية بشأن هذه الحكومة هو « مسألة مبدأ » ، وقد توضحت « مسألة المبدأ » هذه عندما زار القدس في ١٥ تشرين الثاني ونادى به المطران القبطي فيها « ملكا للقدس »(٢١) .

مؤتمر أريحا ١٩٤٨/١٢/١

اذا كان مؤتمر عمان هو الخطوة التمهيدية فقد كان مؤتمر اريحا الاجراء الاكثر تقدما لانتزاع موافقة شعبية فلسطينية على ضم الاجزاء العربية من فلسطين الى شرق الاردن . ولاهمية هذا المؤتمر في التاريخ الفلسطيني سنتحدث عنه هنا بتفصيل :

كان الوضع الاداري في فلسطين حتى انعقاد مؤتمر اريحا هو كما يلي : في أعقاب دخول الجيش الاردني منطقة القدس عين ابراهيم هاشم (في ١٩٤٨/٥/١٩) « حاكما عسكريا عاما لجميع المناطق في فلسطين التي يوجد فيها الجيش العربي الاردني أو يقوم بمحافظة الامن والدفاع فيها » . وفي الرابع والعشرين من الشهر نفسه أصدر الحاكم العسكري العام اعلانا رقم (١) أعلن فيه انه « عملا بالانابة الموجهة الي من فخامة رئيس وزراء المملكة الاردنية الهاشمية قد باشرت السلطات المخولة لي **بموجب قانون الدفاع عن شرق الاردن لسنة ١٩٣٥ والانظمة الصادرة بمقتضاه** »(٢٢) (في ٤٨/١٠/١٨) عين عمر مطر حاكما عسكريا عاما بدلا من ابراهيم هاشم(٢٣) . وكانت المناطق التي يشملها الحكم العسكري الاردني آنذاك هي القدس ورام الله والخليل ، أما سائر المناطق فكانت اما تحت الحكم العسكري العراقي أو المصري .

ان ما أردنا ابرازه في الفترة السابقة هو انه عشية مؤتمر اريحا كانت شرق الاردن تحكم الاجزاء الفلسطينية حكما عسكريا بموجب قانون الدفاع الذي يضع جميع السلطات بيد الحاكم العسكري ويعطيه صلاحيات واسعة في كافة المجالات السياسية

والعسكرية والادارية . كذلك فان منطقة الاحتلال الاردني كانت محدودة ولا تشمل الا مساحة ضيقة من فلسطين .

من جهة ثانية كان الجيش الاردني قد قام قبيل المؤتمر بحملة واسعة ضد جيش الجهاد المقدس مما يعني غياب القوة المنظمة الفاعلة القادرة على مقاومة المخططات الاردنية . ومن جهة ثالثة فقد مهد عبدالله للمؤتمر « بأن وضع اتباعه في المراكز العليا في فلسطين فجعل مناصب حكام الالوية ورؤساء البلديات في ايدي اتباعه . أما رجال الحزب العربي الفلسطيني [المعارض لسياسة عبدالله] ... فقد أقصاهم عن البلاد وقيد حركات من يخالف منهم ... وفرض عليهم رقابة شديدة »(٢٤).

اما الوضع القتالي فكان كما يلي : كانت الهدنة الثانية قد أعلنت في ٤٨/٧/١٨ وفي ١١/١٦ قرر مجلس الامن أن يقيم الفرقاء هدنة دائمة . وفي ١١/٢٨ جرى اجتماع بين موشيه ديان والقائد الاردني عبدالله التل لوضع هدنة بدل اتفاق ايقاف اطلاق النار وأمر الملك التل أن يوقع على الاتفاق بسرعة ففعل الاخير ذلك في آخر أيام تشرين الثاني اي في اليوم السابق لمؤتمر اريحا .

في هذه الظروف انعقد مؤتمر اريحا في اليوم الاول من كانون الاول ١٩٤٨ . وحضره كما يقول عارف العارف زهاء الف شخص أكثرهم من اللاجئين الذين نزحوا عن ديارهم ونزلوا الاردن(٢٥). ولكن كيف حضر هؤلاء ؟ يقول عبدالله التل : « قبل اليوم المعين لانعقاد مؤتمر أريحا تجول كلوب باشا على كتائب الجيش في فلسطين واجتمع بالضباط العرب والانجليز واطلعهم على أهمية هذا المؤتمر بالنسبة لسياسة عمان التي ترمي الى انهاء مشكلة فلسطين في أسرع وقت . وطلب كلوب من الضباط أن يؤيدوا المؤتمر ويقوموا بالدعاية اللازمة له بين الاهلين ثم يساعدوا كل من يرغب في السفر الى اريحا في ذلك اليوم ويقدموا السيارات العسكرية لنقل الوفود وعلاوة على مساعي كلوب فقد أوعزت الحكومة الاردنية الى الحاكم العسكري العـــام أن يتصل بالحكام العسكريين ويوصيهم بتأييد المؤتمر واتخاذ الوسائل التي تساعد على نجاحه ... وكان اكبر الوفود وفد الخليل لان الشيخ الجعبري استطاع أن يحشد عددا كبيرا من المسافرين الذين لا يمانعون في قضاء عطلة يوم او يومين على حساب الحكومة . ولو كان السفر على حساب الوفود نفسها لما جاء الى اريحا سوى القلائل »(٢٦). بل أكثر من ذلك فقد ذكر العارف أن عمال الملك وحكام البلاد العسكريين اتخذوا كل ما يمكن من تدابير لنقل المخاتير والموظفين ومن لم يحضر المؤتمر أو يؤيده من الموظفين اقالوه من عمله أو أرغموه على الاستقالة(٢٧). وقد كتبت « الاهرام » « انه جيء بأعضاء المؤتمـــر في سيارات الجيش الاردني أو على نفقة الحكومة الاردنية وكانت قوى هذا الجيش تدير المؤتمر بالسوط »(٢٨).

افتتح المؤتمر عجاج نويهض فتحدث عن « المؤتمر الفلسطيني العربي الاول » الذي عقد في عمان وقال « ان الاحداث الجسام العسكرية والسياســـية التي طرأت على قضية فلسطين في هذه المدة قد دعت الى عقد هذا المؤتمر لتقرير مصير البلاد » وقال « ان الشعب الفلسطيني العربي يعلق على جلالة الملك عبدالله الآمال الكبار لصيانة فلسطين وحماية مقدساتها وتحقيق أمانيها وانه يفوض الملك تقرير مصيره » . وتبعه الشيخ محمد علي الجعبري ، رئيس بلدية الخليل ، بكلمة انتقد فيها الاخطاء التي ارتكبت في تسيير دفة القضية الفلسطينية . ثم تعاقب عدد من الخطباء على الكلام(٢٩).

اما بالنسبة لرئاسة المؤتمر فقد ذكر التل أن الحكومة الاردنية كانت قد استدعت الشيخ الجعبري (قبل المؤتمر) وأعطته تفاصيل الخطة والغاية من عقد المؤتمر ، ثم

عينته رئيسا للمؤتمر ووضعت له بالاشتراك مع الملك في الشونة المواد التي سيعلن المؤتمر أنه قررها بالاجماع(٣٠). وهكذا جرى « انتخاب » لجنة عليا في المؤتمر من الجعبري رئيسا والمحامي فؤاد عطاالله نائبا للرئيس وابراهيم نجم ومصطفى دباغ وفخري الشامي وسليم كمال مقررين(٣١)، كما اختيرت لجنة للمقترحات من حكمت التاجي وعثمان محمديه وكمال حنون ويحيى حموده(٣٢).

على الرغم من تركيب المؤتمر الذي جلب أعضاؤه بالقوة فهو لم يمر دون محاولة معارضة داخلية قمعت بقوة . فحينما طالب الشيخ الجعبري بمبايعة الملك عبدالله نهض بعض الشباب الفلسطينيين يشترطون لذلك ان يعمل الملك عبدالله على تحرير جميع فلسطين ، وعند ذلك أمر عمر باشا مطر (الحاكم العسكري العام الذي كان يدير أمور المؤتمر بشكل فعلي) بالقا ءالقبض عليهم واخراجهم من الاجتماع بالقوة(٣٣). كذلك كتب التل الذي كان قائدا عسكريا لمنطقة القدس انـه حين ابلغ أمر الحاكم العسكري العام باتخاذ الوسائل التي تساعد علـى نجاح المؤتمر « جمعت نخبة من الشباب ورجالات القدس المخلصين واطلعتهم على نوايا عمان بشأن المؤتمر . وبعد أن تبادلنا الآراء أقر الجميع أن يسافر عن القدس وفد ينتخب لغايتين : الاولى للتظاهر بأن القدس لم تشذ عن أمر عمان والثانية ليحاول هذا الوفد التأثير في المؤتمر بادخال بعض المواد الهامة في المقررات . وقد انتخب الوفد برئاسة الدكتور موسى عبدالله الحسيني ومن جملة الاعضاء السيد علي الدجاني والاستاذ يحيى حموده... واتفقنا مع الدكتور موسى أن يتدم في المؤتمر بعض المقترحات التي تتعلق باستفتاء الشعب الفلسطيني لتقرير مصيره ثم الدعوة لاستئناف القتال لانقاذ فلسطين . وألقى رئيس المؤتمر كلمة طويلة انهاها بتقديم المقترحات الموضوعة فوافق عليها الجميع ما عدا وفد رام‌الله ووفد القدس الذي اقترح زيادة بعض المواد . وقدم مقترحـات القدس الدكتور موسى الحسيني فوافق عليها الجميع ولكن عندما قدمت المقترحات للحكومة الاردنية خلت من بعض مقترحات القدس وخاصة مادة الاستفتاء الحر »(٣٤).

ويدل هذان الشاهدان اللذان أوردناهما على ان ثمة فئة وطنية صغيرة شاركت بالمؤتمر لتنقذ ما يمكن انقاذه . ويؤكد عجاج نويهض أن قصد الاقلية الوطنية كان أن توجد لفلسطين من يحميها ويدافع عما تبقى من أرض عربية فيها وأن تدعو « الدول العربية بلا تمييز لاكمال تحرير فلسطين بالسيف » . لذلك كان توفيق أبو الهدى ، كما يقول نويهض ، يعرقل نشاطات تلك الفئة الوطنية من وراء ستار ليحول غاية المؤتمر نحو الاغراض التي أرادها هو وعبدالله أي محو اسم فلسطين بالمرة(٣٥). وهكذا لم تنجح هذه الاقلية الوطنية في مسعاها واستطاعت الحكومة الاردنية ان تمرر القرارات التي أرادتها في المؤتمر . وقد نصت هذه المقررات كما وردت في برقية أرسل بها المؤتمر الى هيئة الامم المتحدة على ما يلي(٣٦):

« المقرر الاول : لما كانت فلسطين جزءا من سوريا الطبيعية وكان الانتداب الذي فرض عليها بغير رضى من أهلها واستمر حتى ٤٨/٥/١٥ حائلا دون وصولها الى الاستقلال أو انضمامها الى أحد الاقطار الشقيقة المستقلة ، ولما كان أهل فلسطين اليوم يرون على ضوء الواقع من الاوضاع السياسية والعسكرية في فلسطين أن الوقت قد حان للعمل الحاسم لصيانة مستقبلهم وتقرير مصيرهم النهائي والاشتراك مع البلاد العربية المجاورة في حياة مستقلة حرة ، فان هذا المؤتمر يقرر أن تتألف من فلسطين والمملكة الاردنية الهاشمية مملكة واحدة وأن يبايع جلالة الملك عبدالله بن الحسين ملكا دستوريا على فلسطين .

المقرر الثاني : يشكر المؤتمر الدول العربية على ما بذلته من جهود عسكرية وسياسية لحفـظ عروبة فلسطين ومقدساتها ويحيي جيوشها العربية المرابطة في مختلف أنحاء البلاد ويطلب من الدول العربية أن تتم مهمة التحرير التي أعلنتها عند دخول فلسطين .

المقرر الثالث : يطلب المؤتمر من دول الجامعة العربية ومنظمة الامم المتحدة المبادرة الى اتخاذ الوسائل الفعالة لاعادة النازحين من عرب فلسطين الى بلادهم بأقرب وقت ممكن واعطائهم التعويض المالي الكافي عما أصابهم من خسائر .

المقرر الرابع : يقرر المؤتمر أن يرفع قرار المبايعة التي أعلنت بالاجماع في هذا المؤتمر وقرار طلب توحيد البلدين الشقيقين الى حضرة صاحب الجلالة الملك عبدالله بن الحسين ، عاهل المملكة الاردنية الهاشمية ، بعد ارفضاض المؤتمر بلا تراخ وان يتم تبليغ المقررات بجملتها الى دول الجامعة العربية ومنظمة الامم المتحدة والممثلين السياسيين في عمان »*.

وقد حمل وفد يمثل المؤتمر المقررات هذه الى الملك عبدالله في قصره في الشونة فرحب بها ثم عرضت على مجلس الوزراء الاردني الذي أصدر بيانا اثر ارفضاضه جاء فيه :

« درس مجلس الوزراء المقررات التي اتخذها المؤتمر الفلسطيني العربي الثاني المنعقد في اريحا يوم ٣٠ من شهر محرم سنة ١٣٦٨ الموافق اليوم الاول من شهر ديسمبر ١٩٤٨ فقرر ما يلي : اولا — ان حكومة المملكة الاردنية الهاشمية تقدر كل التقدير الرغبة التي أبداها المجتمعون وغالبية اهل فلسطين فيما يتعلق بتوحيد البلدين الشقيقين ونراه متفقا مع أهدافنا، وهي ترحب به وتسعى للوصول اليه بالوسائل الدستورية والدولية ولتنفيذه في الوقت المناسب وفيما تقضي به اساليب تقرير المصير . ثانيا — اخذت الحكومة علما برغبة المؤتمر في أن تتم الدول العربية مهمة التحرير التي أعلنتها عند دخول فلسطين وهي ترى ان الجهود قد بذلت ولا تزال تبذل لتحقيق الغاية المنشودة ، وتعتقد ان من المصلحة الوصول الى حل ملائم لهذه القضية في أسرع وقت مستطاع . ثالثا — تشارك الحكومة رغبة المؤتمرين في السعي لدى هيئة الامم المتحدة لاعادة اللاجئين الى بلادهم في أقرب وقت وتعويضهم ماليا ، وهي دائبة في مسعاها لتنفيذ هذه الرغبة . رابعا — بالنظر لما لهذا القرار من علاقة بكيان البلاد ومستقبلها ترى الحكومة ان يعرض علـى مجلس الامة ليبدي رأيه فيه »(٣٧).

وفي ٤٨/١٢/١٣ اصدر مجلس الامة الاردني بيانا جاء فيه :

---

* هذا النص الذي أثبتناه في المتن وجدناه في أكثر من مصدر الا أن ثمة مصادر أخرى أوردت القرارات في شكل مختلف . فقد أورد عبدالله التل القرارات كما يلي : « (١) يشكر المؤتمر الدول العربية على ما بذلته من جهود وتضحيات ويطلب منها جميعا مواصلة القتـال لانقاذ فلسطـين . (٢) القول بالوحدة الفلسطينية الاردنية ويعتبر المؤتمر فلسطين وحدة لا تتجزأ وكل حل يتنافى مع ذلك لا يعتبر حلا نهائيا . (٣) لا يمكن للبلاد العربية ان تقاوم الاخطار التي تجابهها وتهدد فلسطين الا بالوحدة القومية الشاملة ويجب البدء بتوحيد فلسطين وشرق الاردن مقدمة لوحدة عربية حقيقية . (٤) يبايع المؤتمر جلالة الملك عبدالله ملكا على فلسطين كلها ويحييه ويحيي جيشه الباسل والجيوش العربية التي حاربت ولا تزال دفاعا عن فلسطين . (٥) التشديد بضرورة الاسراع بارجاع اللاجئين الى بلادهم والتعويض عليهم. (٦) يقترح المؤتمر على جلالته الاشارة بوضع نظام لانتخاب ممثلين شرعيين عن عرب فلسطين يستشارون في أمورها . (٧) تبلغ هذه القرارات الى منظمة الامم والجامعة العربية والدول العربية وممثلي الدول الاخرى » . أما صحيفة « الرواد » (٤٨/١٢/٣) فقد أوردت ان المؤتمر اتخذ سبعة قرارات هي : « ١ — سحب الثقة من الهيئة العربية العليا وابلاغ الجامعة العربية . ٢ — انتخاب هيئة عربية عليا جديدة بدلا من القائمة حاليا . ٣ — ان حكومة غزة لا تمثل فلسطين . ٤ — الطلب الى الحكومة الاردنية تغيير اسمها بحيث تصبح المملكة العربية الهاشمية مع ازالة الحدود بين فلسطين وشرق الاردن . ٥ — مبايعة الملك عبدالله ملكا على المملكة الهاشمية . ٦ — تعيين يوم لاجراء البيعة . ٧ — اضافـة بعض الاعضاء الفلسطينيين الى مجلس الامة الاردني » .

« ان مجلس الامة الاردني يرى في قرارات مؤتمر اريحا فيما يتعلق بتوحيد شرق الاردن وفلسطين تحت تاج جلالة الملك عبدالله ما يحقق ويلائم أهداف شرق الاردن التي تتجه نحو توحيد عربي أوسع نطاقا . وقد رأى مجلس الامة الاردني المبادرة بتنفيذ هذا التوحيد واتخاذ الخطوات الدستورية والدولية اللازمة لتحقيقه»(٣٨).

ماذا كان الموقف الاسرائيلي من قرارات مؤتمر أريحا ؟ ذكرنا سابقا ما ورد عن اتفاق عبدالله مع جولدا مايرسون حول التقسيم ونضيف ان الكونت برنادوت ، الوسيط الدولي ، ذكر انه في اثناء اجتماعه مع موشيه شرتوك في ٥ آب ١٩٤٨ أقر له هذا الاخير بأن ثمة « فوائد معينة » في توحيد فلسطين العربية مع شرق الاردن(٣٩). وقد استتبع ذلك أن يكون « هناك تفاهم ضمني بين عبدالله والاسرائيليين علـــى مسألة مقررات اريحا »(٤٠). وقد كشف عبدالله التل عن جانب من المفاوضات التي أجراهـــا الملك عبدالله مع الاسرائيليين ليضمن موافقتهم النهائية على هذه المقررات . فقد ذكر ان الملك بعث برسالة الى الياهو ساسون (أملاها على طبيبه الخاص الدكتور شوكت الساطي في الشونة في ١٩٤٨/١٢/١١) طلب فيها ان « قرار مؤتمر اريحا يجب ان يكون بالغ الاحترام » . وفي ١٩٤٨/١٢/١٣ تم اجتماع بين الدكتور الساطي وعبدالله التل وساسون في القدس وأملى ساسون على الساطي رسالة الى الملك عبدالله اجابة على رسالته السابقة . وقد جاء في هذه الرسالة :

« (١) اذا كان جلالة سيدنا يرغب في تنفيذ مقررات اريحـــا فلا اعتراض لنا علـــى ذلك . ونظن ان المستحسن ان ينفذها في أسرع وقت ممكن حتى يضع خصومه وأصدقاءه أمام الامر الواقع . وللامر الواقع أهمية كبرى عند دول أوروبا وأمريكا وقد جربنا ذلك بأنفسنا . (٢) في حالة اقدامه على تنفيذ هذه المقررات نرجو ان لا يتعرض للناحية اليهودية لا بخير ولا بشر ، ويكتفي بالقول بأنه يقدم على ذلك لانقاذ ما يمكن انقاذه ولاعادة الهدوء والسعادة الى الشعب العربي الفلسطيني . (٣) نرجوه في حالة اقدامه على تنفيذ المقررات ان لا يحدد موقفه النهائي من ناحية مصير القدس لا القديمة ولا الجديدة ... (٤) ننصح لسيدنا باعلان الهدنة الرسمية الطويلة — هدنة دائمة ... (٥) نحن ننصح لسيدنا أن يعمل بسرعة على سحب القوات العراقية من الحدود واحلال قوات أردنية محلها للمحافظة على الامن الداخلي فقط ... (٦) ننصح لسيدنا أن يسعى جهده لسحب القوات المصرية من جنوب القدس والخليل... (٧) ننصح لسيدنا ان يتجنب بقدر الامكان وساطة الاجانب لتسوية الامور بيننا وبينه وان يفضل مثلنا المباحثات المباشرة ... (٨) اذا أعرب سيدنا عن موافقته على النقاط السبعة السالفة فان في استطاعتنا أن نؤكد له بأننا سوف نقوم بالدعاية لمقررات اريحا في جميع انحاء العالم »(٤١).

لقد رفضت حكومة عموم فلسطين ، بطبيعة الحال ، قرارات مؤتمر أريحا ونددت بدعواه النطق باسم الشعب الفلسطيني(٤٢). أما الدول العربية فمن خلال علاقات بعضها غير الطيبة مع الاسرة الهاشمية في الاردن من جهة وبسبب اعترافها بحكومة عموم فلسطين من جهة ثانية وجدت نفسها مضطرة لرفض قرارات المؤتمر . فقد عقد الامين العام لجامعة الدول العربية مؤتمرا صحافيا ندد فيه بمؤتمر اريحا وأعلن رفضه قراراته وانكر حقه بالتكلم باسم الشعب الفلسطيني. وفي مصر استدعى رئيس الديوان الملكي ممثلي الحكومات العربية وأبلغهم رسالة من الملك جاء فيها « ان الملك تلقى انباء تفيد أن مؤتمرا عقد في اريحا وشهده اللاجئون وقد اتخـــذ هؤلاء المجتمعون قرارات طالبوا فيها بضم فلسطين الى مملكة الاردن وان الذين شهدوا المؤتمر هم قلة بالنسبة لمجموع عرب فلسطين ، وانهم ليسوا في وضع وظروف تمكنهم من ابداء آرائهم بحرية واختيار كاملين ، وان عملهم استبداد بالاكثرية »(٤٣). كذلك ندد بالقرارات وزيـــر الخارجية السوري في بيان أصدره في ١١ كانون الاول ١٩٤٨ . أما الملك عبد العزيز بن سعود فقد ارسل رسالة (٤٨/١٢/٢٤) الى كل من الملك فاروق والملك عبدالله اكد فيها معارضته لضم فلسطين العربية الى شرق الاردن(٤٤). وقد بذل العراق وسوريا

المساعي مع الملك عبدالله في سبيل حمله على التريث في الخطوات التنفيذية لقرارات المؤتمر ، وجاء وفد عراقي مؤلف من نوري السعيد وجميل المدفعي الى عمان لهذا القصد فأدت هذه المساعي الى اقناع الملك بتاجيل الخطوة حيث نشر تصريح عن لسانه يعلن فيه رغبته في « مواصلة التكاتف مع الدول العربية » وموافقته على التريث في الخطوة النهائية(٤٥) .

لم تكن مواقف الدول العربية « الغاضبة » هذه اكثر من ستار يخفي عجزها عن ايجاد حل حقيقي وفي الوقت ذاته كانت مجاراة لمواقف الجماهير العربية التي أدانت الملك عبدالله ووصمته بالتواطؤ مع العدو في حرب ١٩٤٨ ، وبذلك كانت الدول العربية تبرىء ذمتها من تهمة الاشتراك مع عبدالله في هذا التواطؤ (سنعود الى استعراض مواقف الدول العربية في فترة لاحقة) .

على كل حال فان الظرف الذي كان يحيط بمؤتمر اريحا لم يكن مواتيا للقيام بخطوات تنفيذية لالحاق ما بيد الجيش الاردني من ارض فلسطينية الحاقا مباشرا بشرق الاردن فقد كان ما بيد هذا الجيش آنذاك لا يتجاوز محور اريحا — القدس بالاضافة الى الخليل بينما كانت المنطقة في الشمال (منطقتا نابلس وجنين) بيد الجيش العراقي وكان الجيش المصري ما يزال متواجدا في الجنوب (بيت لحم) ، كما كان لا يزال هناك بقايا من جيش الجهاد المقدس ، كذلك لم تكن الهدنة الدائمة مع اسرائيل قد وقعت بعد . في هذه الاجواء كان القرار الاردني أن يكون الضم بخطوات تدريجية مع خلق « وقائع جديدة » في الاجزاء التي يسيطر عليها الجيش الاردني في فلسطين تجعل الضم أمرا واقعا . وهكذا صرح توفيق ابو الهدى في عمان بأن شرق الاردن وافقت من حيث المبدأ على القرارات التي اتخذت في مؤتمر اريحا ولكنه **قرر ألا يعجل باتخاذ قرار لتحقيقها**(٤٦) .

الاوضاع في ((الضفة الغربية))* في فترة الضم

١ — **الاوضاع الاجتماعية** : في اثناء حرب ١٩٤٨ وبعدها تدفق على مدن « الضفة الغربية» وقراها أعدادكبيرة من اللاجئين بلغت في العام ١٩٤٩، ٤٥٠ الف شخص بحيث زاد عددهم عن عدد السكان الاصليين هناك (٤٠٠ الف)(٤٧) . وقد تسبب ذلك في نشوء اوضاع اقتصادية واجتماعية معقدة وفي غاية السوء . فقد عم الفقر وانتشرت الامراض السارية في مختلف المناطق الفلسطينية(٤٨)، وفقد الامن وقد عبر كمال ناصر في مجلته « الجيل الجديد » التي كان يصدرها حينئذ عن فقدان الامن بقوله « تعددت حوادث السرقات وخطف السيارات واصحاب الاموال حتى ان اكثر اهالي فلسطين توقفوا عن العودة الى منازلهم خوفا من هذه الاعمال»(٤٩) .وتوضح مذكرة قدمها سكان رام الله الى الفريق صالح صائب الجبوري ، رئيس اركان الجيش العراقي ، الصورة التي كان يعيش فيها سكان هذه البلدة تحت الحكم الاردني ويصح تعميم ما جاء فيها على جميع مدن « الضفة الغربية » وقراها . جاء في هذه المذكرة ما يلي :

---

* اصطلحنا على هذا التعبير منهجيا تيسيرا للاستعمال وان كان لنا تحفظ سياسي عليه ونفضل « فلسطين الوسطى » بديلا له . ولم يرد هذا التعبير « الضفة الغربية » رسميا في الوثائق الاردنية الا بعد مضي سنة على مؤتمر اريحا فقد ورد اول مرة في الامر رقم ٢١ لسنة ١٩٤٩ الصادر بمقتضى نظام الدفاع رقم ٦ لسنة ١٩٣٩ والذي نص على ما يلي : « يسمح بتصدير الاغنام والماعز الى الضفة الغربية من المملكة الاردنية الهاشمية » (الجريدة الرسمية عدد ١٠٠٢ بتاريخ ١٩٤٩/١٢/١) . اما الاصطلاح الذي كان يطلق رسميا على المنطقة الفلسطينية التي تحت الحكم الاردني فهو « المنطقة الغربية » ، او المناطق الغربية او « فلسطين » .

« ان حالة قضاء رام الله يرثى لها من جميع الوجوه فالطرقات دمرت والامـراض انتشرت وشـؤون الاهلين فيها مضطربة لابعد حد والحالة الاقتصادية فيها تدعو الى مزيد من القلق ، خاصة ان اكثر اللاجئين يقطنون فيها ، وشؤون التموين مهملة فيستغلها اكثر المسؤولين لمصالحهم الشخصية ومنافعهم المادية، والامن فيها مهمل اهمالا لا حد له ، وشؤون الدفاع عنها غير مطمئنة بالمرة ، فلا هم للحكام الاداريين والعسكريين والمسؤولين عن الامن الا جمع النقود وصرف الرواتب »(٥٠).

وقد زاد الحالة الاقتصادية ، وبالتالي الاجتماعية ، سوءا ان هناك دلائل تشير الى ان الحكم في عمان مارس عملية حصار اقتصادي على سكان « الضفـة الغربية » . واذا كان المجال لا يتسع هنا لفحص هذه الحقيقة في شكل مفصل فسنكتفي هنا بايراد فقرات من مذكرة قدمتها الغرفتان التجاريتان في كل من القدس ونابلس الى رئيس مجلس الوزراء الاردني تمس هذا الواقع . فقد جاء في هذه المذكرة ما يلي :

« اخذت التجارة تتركز في مكان معين وايد معينة ... علمنا الان ان النية اتجهت لالغاء صلاحيات دائرة التجارة في الضفة الغربية فيما يتعلق بالاستيراد وتحويل شؤونها الى مراقبة الاستيراد والتصدير في عمـان لتكون المرجع الوحيد لتجار الضفتين الغربية والشرقية ... اننا نطالب عن حق بضرورة ابقاء جهاز مسؤول في الضفة الغربية يكون خاضعا لاشراف الوزارة المختصة في عمان ... **ان النكبة التي اصابت بلادنا اسفرت ضمن ما اسفرت عنه عن انتعاش اقتصادي تركز في مدينة عمان وعاد عليها بالفائدة بسبب قصر الاستيراد عليها طيلة المدة السابقة** »(٥١).

وقد اوردت الصحف ان بعض المستوردين الفلسطينيين ذكروا ان دائرة مراقبـة العملة في عمان ترفض منح الاذونات الى عدد كبير من حاملي رخص الاستيراد الصادرة عن دائرة التجارة في الضفة الغربية(٥٢). وقد ابرق الشيخ عبد الباري بركات ، رئيس الغرفة التجارية في القدس ، الى رئيس الوزراء الاردني يتهم الحكومة بالتمييز . فقد جاء في نص هذه البرقية ما يلي :

« اطلع التجار في الضفة الغربية بمزيد من الدهشة والاستغراب على نبأ اعطاء الاولوية لتجار الضفة الشرقية في الاستيراد . والغرفة اذ تعتبر هذا الاجراء مجحفا بحقوق تجار الضفة الغربية طالما انهم مواطنو مملكة واحدة تحتج عليه بشدة وتصر على ابطال هذا الاجراء حالا لاصدار الرخص باكملها للضفتين في وقت واحد »(٥٣).

يمكن الاستنتاج من هذه الاجراءات التي اتبعتها عمان ان القصد من ورائها كان ما يلي : (١) تجويع المواطن الفلسطيني من خلال منع الاستيراد وبالتالي رفـع كلفـة المعيشة ، بهدف وضعه امام حالة لا يجد مناصا فيها من التسليم بوضع مصيره في يد حكام الاردن لانقاذه من هذه الحالة . (٢) ربط الاقتصاد الفلسطيني بالاقتصاد الشرق ـــ اردني كخطوة عملية مـن خطـوات الحاق « الضفـة الغربية » بشرق الاردن . (٣) يجب ألا نهمل هنا أيضا ان نظام الحكم في شرق الاردن كان يمثل حينذاك مصالح كبار التجار والوسطاء الشرق ـــ اردنيين ، وهي طبقة استغلت ظروف الحرب لزيادة ثرائها ، وكان حصر الاستيراد فيها واحدا من الاساليب التي اتبعتها لتوسيـع نطاق اعمالها الاقتصادية .

٢ ـــ **الادارة** : بجانب هذه الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية السيئة كان هناك فساد في الادارة . وقد أعتمد عبد الله في ادارة « الضفة الغربية » على رجال حزب الدفاع (حزب النشاشيبي المعارض للحركة الوطنية) واعوانه ومؤيديه ومريديه من وجهـاء البلاد واقطاعييها ومشايخ قبائلها ومن موظفي حكومة الانتداب السابقة . وكان معظم هؤلاء قد بدأ يدعو لعبد الله وللضم ولسوريا الكبرى من قبل ان تشتعل حرب فلسطين رسميا ، وخاصة في نصف السنة بين اعلان تقسيم فلسطين في الامم المتحدة ودخـول

القوات النظامية ارض فلسطين(٥٤). وفي مقال نشرته مجلة « الميثاق » التي كان يصدرها شفيق ارشيدات حينذاك بعنوان « الوظائف والتوظيف في فلسطين » جاء ما يلي :

« كثر الحديث في فلسطين عن السياسة المتبعة في التوظيف وانتقاء الموظفين ... يقولون ان الحزبية والعائلية والعوامل السياسية لعبت دورا كبيرا في هذا الموضوع حتى في الوظائف الفنية وفي تخطي الكفاءات والحقوق المكتسبة ، وصارت الوظائف وقفا على طبقة من الناس دون غيرهم ، مما اوجد الشكوى وبعث التذمر . وقد علمنا ان لجنة وزارية في عمان هي التي تتولى تمشية هذا الامر . فهي تنسب بمعرفتها ، وبصورة كيفية تكتسب قراراتها الصفة القانونية بمجرد التنسيب »(٥٥).

وقد دفع هذا الامر كمال ناصر الى ان يصرخ في مجلته : « مولاي المعظم ، لفتة منك نحو الادارة الجديدة ترى انها تكتظ باسماء عائلات محدودة ، هذه العائلات محسوبة على العرب والعروبة بأنها عريقة في المجد والسلطات »(٥٦).

وفي الحقيقة ، فقد نجحت هذه السياسة التي اتبعها عبد الله في الادارة في خلق طبقة ارتبطت مصالحها بمصالح الحكم في عمان وبالتالي كانت حريصة على تنفيذ سياسة الضم .

٣ ــ **الوضع السياسي** : منذ ما قبل مؤتمر اريحا مهد عبد الله للضم بتصفية العناصر والقوى الفلسطينية المعارضة لحكمه وبالتالي الرافضة الحاق فلسطين بشرق الاردن من جهة وبمحاولة خلق تنظيمات سياسية تسانده شعبيا في سياسته تجاه « الضفة الغربية » . وقد استمر عبد الله في هذا الاتجاه طيلة الفترة التي تمم فيها اجراءات الضم ، وسنعرض فيما يلي ابرز ملامح هذا الاتجاه .

أ ــ **تصفية القوات الفلسطينية المسلحة** : كان مسرح عمليات جيش الجهاد المقدس في منطقة الجيش العراقي في دير نظام وفي منطقة الجيش الاردني في القدس ومنطقة الجيش المصري في بيت لحم وضواحيها(٥٧). ومن اجل تنفيذ عملية الضم تنفيذا تاما كان يجب تصفية هذه القوات الفلسطينية التي يمكن ان تمثل مصدر ازعاج للقوات الاردنية في المنطقة وتشكل عقبة في سبيل ضمها الى شرق الاردن . وقد ذكر القائد الاردني عبد الله التل انه تلقى رسالة بتاريخ ٤٨/٩/٢٨ من الفريق جلوب يطلب منه تنفيذ « مصادرة اسلحة الجهاد المقدس في القدس ومنطقة الخليل والتعاون مع وكيل القائد لوكيت (البريطاني) لتحقيق هذه الغاية » وقد استعان الملك بالانكليز الذين اخذوا يطاردون المجاهدين في جميع المناطق التي يحتلها الجيش العربي ، وقد استعمل الضباط الانجليز في الجيش العربي الشدة واكرهوا في كثير من الحالات جنود الجيش العربي على الاشتباك مع اخوانهم المجاهدين الفلسطينيين(٥٨)، وأكد جلوب ذلك فقد ذكر انه تلقى في ٣ تشرين الاول ١٩٤٨ امرا خطيا من وزير الدفاع يأمره فيه بأن تخضع جميع التنظيمات المسلحة في المنطقة التي يحتلها الجيش الاردني لاوامر الجيش الاردني او ان تحل وتجرد من السلاح « وفي ضوء حقيقة ان جيش الجهاد المقدس التابع للمفتي يرفض التعاون معنا على الرغم من وجوده في منطقتنا فقد صدرت الاوامر بتطويقه وتجريده من السلاح »(٥٩)، ويصف المؤرخ الفلسطيني الراحل عارف العارف واحدة من عمليات الحصار هذه بقوله « في ١٨ كانون الثاني ١٩٤٩ حاصرت عند منتصف الليل سرية من سرايا الجيش العربي قرية بيرزيت واحتلت الدار التي كان رجال الجهاد المقدس قد اتخذوها مقرا لاعمالهم ... واستولت القوة على كل ما عثرت عليه في مخازن فرقة الجهاد المقدس من سلاح وعتاد وساقت امامها من وجدته من رجالها مكبلين بالحديد ... وبعد هذا الحادث ببضعة ايام قام رجال الجيش

العربي بمثل هذا العمل في القطاع الجنوبي وداهموا مقر قيادة جيش الجهاد المقدس في بيت لحم »(٦٠). وقد استمر الضغط على الجهاد المقدس الذي رفض ان يستسلم لعبد الله ولم يتهاون امام تهديداته الى ما بعد الهدنة الاولى ، فكانت القوات الاردنية تغير على مراكز المجاهدين في القدس ورام الله وبيرزيت وتعتقل او تطرد من تعثر عليه منهم حتى هرب معظمهم الى بيت لحم حيث حماهم الفدائيون المصريون الى ان انسحبوا من المنطقة وعندها حل الاردنيون المنظمة المجاهدة نهائيا اذ لم يعد لها من يحميها من غضب عبد الله(٦١).

ب ـــ قمع المعارضة السياسية : كان عبدالله قد مهد لمؤتمر اريحا كما ذكرنا باقصاء رجال الحزب العربي الفلسطيني عن البلاد وتقييد حركات من بقي منهم وفرض الرقابة الشديدةعليهم، وكان الهدف منذلك تصفية القيادة السياسية التي قادت الحركةالوطنية الفلسطينية في فترة الانتداب . وعلى الرغم من النجاح الذي أحرزه عبدالله في ذلك الا انه يبدو ان قيادة فلسطينية شابة كانت قد أخذت في التبلور فيظل غياب القيادة الوطنية التقليدية . وقد ظهر من رموز هذه القيادة الشابة كمال ناصر الذي أنشأ في رام الله منظمة عرفت باسم منظمة « الجيل الجديد » تقول « ان غايتها هي وحـــدة الشعوب العربية وتكتيل قواها لانقاذ فلسطين »(٦٢). وقد أصدر كمال ناصر مجلة عرفت بهذا الاسم « الجيل الجديد » استمرت متقطعة في النصف الثاني من العام ١٩٤٩ حتى بداية ١٩٥٠ . وعلى الرغم من اضطراب الخط السياسي الذي كانت تعاني منه المجلة الا انها كانت تعبر في معظم مواقفها عن رفض الخضوع لمشيئة عمان . وقـــد تعرض كمـــال لسجن اكثر من مرة بسبب مواقفه هذه ، وفي احدى المـــرات كتب في مجلتـــه « هم موقفوني منذ أيام ، فبأي حق أوقفوني . . . ألأنهم حكومة شرعية في حطام وطني ، وهم انفسهم لم يعترفوا بعد بصفتهم هذه ولم يحملوا بعـــد عبئا واحـــدا من اعبـــاء مسؤوليتهم هذه ؟ »(٦٣). ومن هذه الرموز كذلك كان عبدالله الريماوي وعبـــدالله نعواس اللذان اعتقلا مع كمال ناصر في صيف ١٩٤٩ ونفوا جميعا الى باير فيالصحراء الاردنية(٦٤). وقد وجه الحكم الاردني همه كذلك الى هذه الرموز واضطهدها وقد اثار عبد الله نعواس هذه المسألة في اول جلسة عقدها البرلمان الاردني الذي جاء نتيجـــة الانتخاب في الضفتين فقد ذكر في خطابه في هذه الجلسة :

« لقد لمست في الضفة الغربية ان الدستور ينتصه الاحترام في بعض الاحيان ، وان لنا شبابا في السجون مضى عليهم خمسون يوما ولم يقدموا للمحاكمة ، وفي هذا مخالفة للدستور ولا نقره ابـــدا . ولقد مـــرت الصحافة بالضفة الغربية بمحنة قاسية ولا تزال »(٦٥).

والظاهر ان هـــذه المحنة التي تعرضت لها الصحافة في الضفة الغربيـــة بموجب قانون الدفاع المعمول به كانت تشمل ايضا الصحافة الوطنية في شرق الاردن خاصة تلك التي تعالج الشأن الفلسطيني . ففي العدد العاشر من مجلة « الميثاق » التي اشرنا اليها ورد عنوان مقال « ومن احق من الفلسطينيين بتقرير مصيرهم ؟ » بتوقيع المحامي شفيق ارشيدات ، وقد حذف المقال جميعه وترك مكانه بياض بعنوان وتوقيع فقط .

على الرغم من القسوة التي عوملت بها القيادة الفلسطينيـــة الوطنيـــة التقليدية والتضييق الذي فرض على القيادات الشابة فقد كان الشارع الفلسطيني قادرا علـــى التحرك . ففي اعقاب سقوط اللد والرملة تظاهرت الجماهـــير في شوارع رام اللـــه ورجمت ضباط الجيش الاردني وجنوده بالحجارة(٦٦). وفي شهر ايـــار ١٩٤٩ بعـــد توقيع اتفاقية رودس وتســـليم المثلث للاسرائيليين تظـــاهرت الجماهـــير في نابلـــس وطولكرم وجنين وقذف المتظاهرون دار الحكومة في نابلس بالحجارة واشتبكوا مـــع

الجيش في جنين(٦٧) . غير ان تحرك الشارع الفلسطيني كان يقمع بشدة عندما كان الجيش يتصدى للمتظاهرين .

ج ــ **محاولة خلق منظمات متعاونة** : بجانب القمع الذي تعرضت له الحركة الوطنية الفلسطينية حاول الحكم في عمان ايجاد تنظيمات سياسية « شعبية » تعمل على تهيئة الاوضاع في « الضفة الغربية » للمساعدة على الضم . وفي رسالة من مراسل صحيفة « الحياة » في القدس صورة عن هذا المسعى ، فقد كتب ما يلي :

« من يوم عقدت مؤتمرات اريحا ورام الله ونابلس [المؤتمران الاخيران عقدا بعد مؤتمر اريحا لتأييد قراراته] والنشاط السياسي بازدياد في فلسطين . وقد عقد كثير من الهيئات الفلسطينية المعروفة اجتماعات متعاقبة اسفر عنها تشكيل احزاب ومنظمات وجبهات شعبية تعمل على اساس مقررات المؤتمرات السابقة اي على اساس ضم فلسطين الى شرقي الاردن والعمل على ازالة الحدود الاصطناعية . وفي مقدمة هذه الحركات الجديدة حزب سياسي اطلق عليه اسم حزب الاحرار غايته ضم فلسطين الى شرقي الاردن والعمل للوحدة العربية الكبرى ... ولقد تقرر ان تكون نابلس مركز المعارضة السياسية في السابق المركز الرئيسي للحزب الجديد ... وفي القدس عقد ما يقرب من ٥٠٠ شاب من شباب القدس وقضائها وبعض المدن العربية الاخرى اجتماعا قرروا فيه تأليف جبهة باسم الجبهة الشعبية مركزها الرئيسي القدس. وغاية الجبهة تأييد الملك عبد الله في جميع الخطوات التي يتخذها كما انها التمست من جلالته ان يكون رئيسا فخريا لها . وقد اصدرت امانة الشعبة السياسية للجبهة بيانا يتلخص في النقاط التالية : ١ ــ تحية الملك عبد الله . ٢ ــ المطالبة برفض الاعتراف بلجنة التوفيق الثلاثية . ٣ ــ المطالبة باتباع الطرق الفعالة التي تحفظ عروبة القدس . ٤ ــ تحية الجيوش العربية ومطالبتها بمواصلة الجهاد حتى النهاية »(٦٨) .

وكان عميد حزب الاحرار هو احمد الخليل متصرف لواء السامرة(٦٩) . وقد دمج الحزب بعد فترة قصيرة بحزب « النهضة » الاردني وكتبت عنه « الجيل الجديد » انه « ثبت للراي العام ان الحزب المذكور كان يهدف الى الاستيلاء على الوظائف الكبرى في البلاد كخطوة اولى الى كرسي الحكم »(٧٠) .

اجراءات الضم

مارست الحكومة الاردنية ضم « الضفة الغربية » بتدريج وسنعرض فيما يلي لابرز الاجراءات السياسية والادارية التي اتبعت في ذلك :

أ ــ **اشراك الفلسطينيين في الوزارة** : كان الهدف السياسي من اشراك الفلسطينيين في الوزارة خلق واقع جديد يتحمل فيه الفلسطينيون باعتبارهم « ممثلين » في الحكم مسؤولية المشاركة في صنع القرار المتعلق بالضم ، وفي الوقت نفسه اظهار ان الضم قد استوفى جانبه السياسي بجانب اجراءاته الادارية الاخرى التي اتخذت .

ولتنفيذ ذلك قدمت وزارة توفيق ابو الهدى استقالتها وعهد اليه نفسه بتشكيل وزارة جديدة في ٧ ايار ١٩٤٩ فشكلها ضاما اليها ثلاثة وزراء فلسطينيين هم روحي عبدالهادي للخارجية ، خلوصي الخيري للتجارة والزراعة ، موسى ناصر للمواصلات(٧١) . وقد كان اسناد وزارة الخارجية لشخص فلسطيني يحمل دلالة خاصة اظهرت الى اي مدى كان حرص شرق الاردن على اظهار نواياه في الضم للرأي العام العربي والدولي ايضا . ولا بد ان اجراء ضم فلسطينيين الى الوزارة الاردنية قد اثار استغراب الرأي العام الفلسطيني الداخلي فقد كتبت « الجيل الجديد » :

« قررت الحكومة الاردنية الجديدة ضم بعض العناصر الفلسطينية اليها . ولا نعلم على أي أساس كان هذا الضم وشرقي الاردن نفسها وجميع بلاد العالم لم تعترف بعد بادماج الجزء العربي من فلسطين معها ادماجا تاما »(٧٢) .

بجانب ذلك فقد ادخل الوزارة فلسطيني آخر فيما بعد عندما استحدثت وزارة باسم وزارة اللاجئين في آب ١٩٤٩ وعين راغب النشاشيبي (الذي كان الملك قد منحه في وقت سابق لقب باشا) وزيرا اليها . وقد الغيت هذه الوزارة في أول كانون الثاني ١٩٥٠ عندما استكملت اجراءات الضم وعين النشاشيبي وزيرا للدولة .

٢ ـ **الاجراءات الادارية** : منذ دخول الجيش الاردني الى فلسطين خضعت الاجزاء التي كانت بيد الجيش الى نظام الحكم العسكري . ففي ١٩٤٨/٥/١٩ عين ابراهيم هاشم حاكما عسكريا عاما لجميع المناطق التي يوجد فيها الجيش الاردني او يقوم بمحافظة الامن والدفاع فيها (وقد خلفه في تشرين الاول ١٩٤٨ عمر مطر حاكما عسكريا عاما) . وقد عين عدد من الحكام العسكريين في القطاعات التي يعمل فيها الجيش الاردني : في القدس ورام الله والخليل . وقد استمر هذا الحكم العسكري حتى آذار ١٩٤٩ عندما الغي وحل محله « قانون الادارة العامة في فلسطين رقم (١٧) لسنة ١٩٤٩ » . وقد نص هذا القانون على ما يلي :

« ١ ـ يسمى هذا القانون المؤقت (قانون الادارة العامة في فلسطين ويعمل به من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية .

٢ ـ تلغى وظائف الحكام العسكريين الاردنيين في فلسطين ويتولى أعمال الادارة فيها موظفون مدنيون .

٣ ـ جميع سلطات المندوب السامي السابق التي كان يتولاها الحاكم العسكري العام في فلسطين تمارس بارادات ملكية خاصة يعرضها الوزير المختص بموافقة رئيس الوزراء .

٤ ـ كل رئيس دائرة في فلسطين يرجع بأعماله الى الوزير المختص مباشرة او بواسطة الحاكم الاداري العام في حال وجوده .

٥ ـ جميع القوانين والانظمة التي كان معمولا بها حتى نهاية الانتداب على فلسطين تظل نافذة المفعول الى ان تلغى او تعدل .

٦ ـ هيئة الوزراء مكلفة بتنفيذ هذا القانون »(٧٣).

وقد صدرت ارادة ملكية في اعقاب نشر هذا القانون بتعيين عمر مطر (شرق اردني) الحاكم العسكري العام في فلسطين « حاكما اداريا عاما فيها يشرف على شؤون الادارة في المناطق ويكون مرتبطا بوزارة الداخلية » وبتعيين عبدالله التل متصرفا للواء القدس وأحمد الخليل متصرفا للواء السامرة ونعيم طوقان متصرفا للواء الخليل . وقد تعاقب على وظيفة الحاكم الاداري بالاضافة الى عمر مطر ، فلاح المدادحة (شرق اردني) اعتبارا من ١٩٤٩/٦/١٦(٥٤). وكان وزيرا للعدل ومنتدبا لهذا المنصب ، ثم راغب النشاشيبي (رئيس حزب الدفاع الموالي للملك الذي كان وزيرا للاجئين) اعتبارا من ١٩٤٩/١١/١(٧٥) الى منتصف شهر كانون الاول عندما انهيت مهمة الحاكم الاداري العـــام .

وقد اوضح القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٤٩ صلاحيات الملك بالنسبة لادارة المناطق الفلسطينية ، فقد نصت المادتان الثانية والثالثة على التوالي من هذا القانون على ما يلي :

« * لجلالة الملك ان يمارس ويتمتع في فلسطين بجميع الصلاحيات التي كان يتمتع بها جلالة ملك بريطانيا ووزراؤه والمندوب السامي في فلسطين بموجب مرسوم دستور فلسطين لسنة ١٩٢٢ وتعديلاته .

« * لجلالة الملك ان يعين شخصا أو أكثر لتولي أعباء الادارة في فلسطين لمنصب الحاكم الاداري العام

او باي لقب آخر يفوض اليه او اليهم جميع صلاحيات جلالته ، وتنفيذا لهذه الصلاحيات لجلالته ان يصدر اليه او اليهم من حين لآخر التعليمات التي يراها ضرورية »(٧٦).

أما بالنسبة للقوانين التي كانت تنفذ بموجب نظام الحكم الاداري فقد وضحتها المادتان ٥ و٦ من القانون المذكور كما يلي :

« * جميع القوانين والانظمة والاوامر الصادرة بموجبها التي كان معمولا بها حتى انتهاء الانتداب على فلسطين تبقى نافذة المفعول الى ان تلغى او تعدل .

* ان جميع القوانين والانظمة والاوامر وسائر التشاريع الاخرى التي اصدرها جلالة الملك او الحاكم العسكري او الحاكم الاداري العام تعتبر انها كانت ولم تزل نافذة ومعمولا بها . وتعتبر كافة الاعمـال التي تمت بمقتضاها بجميع ما نصت عليه من القيود نافذة وصحيحة » .

وقد الغي نظام الحكم الاداري اعتبارا من ١٦ كانون الاول ١٩٤٩ وارتبطت ادارة المنطقة بوزير الداخلية الاردني مباشرة . فقد صدرت ارادة ملكية في التاريخ المذكور نصت على ما يلي :

« ١ — يرتبط متصرفو الالوية في المنطقة الغربية بوزير الداخلية في جميع اعمالهم .

٢ — يشرف وزير الداخلية على الاعمال في المنطقة الغربية يعاونه في ذلك مدير الادارة في تلك المنطقة .

٣ — يخول وزير الداخلية جميع الصلاحيات التي كان يتمتع بها المندوب السامي بمفرده بمقتضى القوانين والانظمة التي لا زالت متبعة ، أما الصلاحيات التي كان يمارسها في المجلس التنفيذي أو المجلس الاستشاري فيمارسها رئيس الوزراء بقرار من مجلس الوزراء .

٤ — تنتهي مهمة الحاكم الاداري العام ويرجع مديرو الدوائر في المنطقة الغربية الى الوزراء المختصين كل بما يخص دائرته »(٧٧).

ويلاحظ في « الارادة » هذه، وهو ما يجب ان يظل ماثلا عند الحديث عن الانتخابات، انها اجراء أعلن رسميا من جانب واحد ضم الاجزاء الفلسطينية التي تحت الحكم الاردني الى شرق الاردن التي زعم ان مجلس الامة الذي نتج عنها هو الذي اعلن « وحدة » الضفتين ، فقد الغى اسم فلسطين كما كان يرد في القوانين السابقة واستعاض عنها بتعبير « المنطقة الغربية » التي ربطها كسائر الالوية في شرق الاردن بوزير الداخلية .

٣ — **تجنيس الفلسطينيين بالجنسية الاردنية** : كانت حكومة شرق الاردن حريصة بجانب مسعاها في الحاق الارض الفلسطينية ، على « ضم المواطنين الفلسطينيين » اليها ايضا من خلال تجنيسهم بجنسيتها . وقد مثلت الجنسية للمواطن الفلسطيني اغراء يتاح له من خلالها التنقل والسفر بحرية . وكما في اجراءات الضم الاخرى فقد تم تنفيذ عملية تجنيس الفلسطينيين اردنيا بالتدريج . ففي شهر شباط من العام ١٩٤٩ صدر ذيل مؤقت لقانون جوازات السفر رقم ٥ لسنة ١٩٤٢ باسم قانون رقم ١٩٤٩/١١ نصت المادة الثانية منه على ما يلي :

« بصرف النظر عما جاء في المادة الثانية من قانون جوازات السفر رقم ٥ لسنة ١٩٤٢ **يجوز** لاي شخص عربي فلسطيني يحمل جنسية فلسطينية الاستحصال على جواز سفر اردني بموجب قانون جـــوازات السفر رقم ٥ لسنة ١٩٤٢ ».

واذا كان هذا القانون قد اعطى **الخيار** للمواطن الفلسطيني بحمل جواز السفر الاردني فقد كانت الخطوة اللاحقة اصدار قانون آخر اعتبر فيه جميع الفلسطينيين الذين لجأوا الى شرقي الاردن والفلسطينيين المقيمين في فلسطين الواقعة تحت الحكم الاردني اردنيين . هذا القانون هو ما سمي (قانون اضافي لقانون الجنسية الاردنية

رقم ٥٦ لسنة ١٩٤٩) والذي بدأ العمل به منذ ١٩٤٩/١٢/١٣ ، وقد نصت المادة الثانية منه على ما يلي :

« جميع المقيمين عادة عند نفاذ هذا القانون في شرق الاردن او في المنطقة الغربية التي تدار من قبل حكومة المملكة الاردنية الهاشمية ممن يحملون الجنسية الفلسطينية يعتبرون انهم حازوا الجنسية الاردنية ويتمتعون بجميع ما للاردنيين من حقوق ويتحملون ما عليهم من واجبات »(٧٨).

٤ ـــ **اجراءات اخرى** : وقد اتخذت بجانب هذه الاجراءات اجراءات أخرى لاستكمال عملية الضم :

١ ـــ في تموز ١٩٤٩ صدر قانون رقم ٣٥ لسنة ١٩٤٩ شرع ليوضع موضع التنفيذ اعتبارا من ١ كانون الثاني ١٩٥٠ قضى بأن يكون الدينار الاردني وحدة النقد في المملكة الاردنية(٧٩).

٢ ـــ في الشهر نفسه صدرت ارادة ملكية بتحصيل ضريبة الاملاك في فلسطين(٨٠).

٣ ـــ وفي تموز ايضا اغلقت القنصلية الاردنية في القدس « بعد ان اصبحت القدس تابعة للادارة الاردنية »(٨١).

٤ ـــ في ايار ١٩٤٩ صدر قرار لمجلس الوزراء تضمن « ان تكون دار الاذاعة الفلسطينية مرتبطة بوزارة الخارجية »(٨٢).

٥ ـــ واعتبارا من ١٩٤٩/١٠/١ وبموجب ارادة ملكية الف مجلس اسلامي أعلى في فلسطين تولى اعمال الرئاسة فيه امين عبد الهادي وعهد « للشيخ حسام الدين افندي جارالله بمنصب مفتي فلسطين »(٨٣).

٦ ـــ وفي كانون الاول ١٩٤٩ الغيت اجراءات الجمارك بين الضفتين(٨٤).

وهكذا بانتهاء العام ١٩٤٩ كانت جميع اجراءات الضم قد استكملت واصدر رئيس الوزراء في مطلع ١٩٥٠ بيانا جاء فيه :

« بمناسبة رفع الحواجز فيما بين الضفتين الشرقية والغربية من المملكة الاردنية الهاشمية ، أصبح لا مجال لاعتبار البلاد الواقعة في الضفة الغربية بلادا أجنبية ... وتعتبر البلاد الواقعة في الضفتين المذكورتين وحدة واحدة » .

وبذلك انطوى اسم فلسطين وحل محله تعبير الضفة الغربية ، وكما كان ضم هذه الاجزاء من فلسطين الى شرق الاردن بقوانين ، وضم سكانها ايضا بقوانين ، فقد صدرت قوانين كذلك في الاردن الغت اسم فلسطين ، ونشير هنا الى واحد منها هو « نظام البريد رقم (١) لسنة ١٩٥٠ » الذي نصت المادة الثالثة منه على ما يلي :

« تلغى كلمة فلسطين كصفة للضفة الغربية من المملكة الاردنية الهاشمية اينما وردت في الانظمة والقرارات والتعليمات المذكورة في المادة الاولى من هذا النظام »(٨٥).

الانتخابات النيابية ١٩٥٠/٤/١١

في نهاية العام ١٩٤٩ رتبت جميع الاوضاع السياسية والادارية لضم « الضفة الغربية » الى شرقي الاردن وقد اسقكملت الاجراءات السياسية في نهاية ذلك العام باعلان حل مجلس النواب (بموجب ارادة ملكية في ١٩٤٩/١٢/١٣) اعتبارا من ١٩٥٠/١/١ وباجراء انتخابات جديدة(٨٦) يتاح بموجبها ادخال عناصر فلسطينية الى مجلس النواب الاردني . ولتحقيق هذه الغاية عدل قانون الانتخاب المعمول به في شرق الاردن بالقانون رقم ٥٥ لسنة ١٩٤٩ (قانون اضافي لقانون الانتخاب لمجلس النواب)(٨٧) وقد نصت المادة الثانية من هذا القانون على ما يلي :

« ينضم الى النواب المعينة أعدادهم ودوائرهم في المادتين السابعة عشرة والثامنة عشرة من قانون الانتخاب لمجلس النواب عشرون نائبا ينتخبون عن المنطقة الغربية التي تدار من قبل حكومة المملكة الاردنية الهاشمية » .

وقد حددت المادة الثالثة الدوائر الانتخابية في تلك المنطقة كما يلي :

« أ ــ عن قضاء القدس مع اريحا نائبان مسلمان ونائب مسيحي واحد .
ب ــ عن قضاء بيت لحم نائب مسلم ونائب مسيحي .
ج ــ عن قضاء الخليل أربعة نواب مسلمون .
د ــ عن قضاء نابلس أربعة نواب مسلمون .
هـ ــ عن قضاء جنين نائبان مسلمان .
و ــ عن قضاء طولكرم نائبان مسلمان .
ز ــ عن قضاء رام الله نائبان مسلمان ونائب مسيحي واحد » .

وقد اعلن يوم ١١ نيسان ١٩٥٠ موعدا لاجراء الانتخابات القادمة .

ماذا كان موقف الفلسطينيين من الانتخابات ؟ لقد حددت الهيئة العربية العليا موقفها في بيان أصدره رئيسها السيد محمد امين الحسيني جاء فيه(٨٨) :

« ان هذه الانتخابات الصورية التي تعتزم السلطة الاردنية اجراءها في فلسطين ما هي الا تنفيذ للمؤامرة التي حاكتها السياسة البريطانية لتصفية قضية فلسطين تصفية نهائية واعادة ما بقي من فلسطين تحت نير استعمارها عن طريق شرق الاردن ، والتخلي عن القسم الآخر لليهود لينشئوا فيه دولة اسرائيل ... ثم ان البرلمان الذي تدعو السلطة الاردنية أهل فلسطين الى دخوله ليس الا برلمانا صوريا فريدا في بابه لا يقوم على اساس تمثيلي صحيح ولا يتمتع بأي حق من حقوق البرلمانات في العالم ، فالوزارة غير مسؤولة أمامه ولا يملك حق نزع الثقة منها ولا الاشراف على شيء من أعمالها* ... وما الانتخابات التي ستجريها حكومة شرق الاردن في القسم العربي من فلسطين ... الا انتخابات باطلة لانها تقوم على تزييف ارادة الشعب وانتزاع الصفة التمثيلية منه بأساليب الضغط والاكراه في اقسى الظروف وأشدها » .

هذا بالنسبة للهيئة العربية العليا ، غير انه في الداخل كان يدور حوار واسع قسم الرأي العام الفلسطيني الى قسمين : قسم يدعو الى الاشتراك في الانتخابات وخوض معركتها وقسم يرفض هذه المسألة من الاساس (بالاضافة طبعا الى شريحة واسعة ارتبطت مصالحها بمصالح النظام في شرق الاردن وتضم كبـــار الموظفين في الادارة الجديدة وبقايا حزب الدفاع ومخلفات ادارة الانتداب) . وقد عبر كمال ناصر عن طبيعة هذا الحوار في مقال كتبه في مجلته عشية الانتخابات ، جاء فيه :

« وزعت في البلاد خلال الاسابيع الاخيرة منشورات سوداء خطيرة تدعو دعوة مباشرة الى مقاطعة الانتخابات النيابية في البلد ولم تقتصر هذه المناشير على الدعوة الى المقاطعة وانما تعدتها الى التهديد والوعيد ... هم يقولون ان القضية لم تنته بعد وان دخولنا المعركة النيابية معناه الاعتراف بالامر الواقع في البلاد وان فلسطين بهذا تكون قد ضاعت للابد ... وانا أقول هل نقف مكتوفي الايدي لتحل قضيتنا الايام ، وهل نترك غيرنا يتصرف بشؤوننا وقد نخسر بذلك كثيرا ... وهل دخولنا البرلمان يعني باننا سنسلم بقية البلاد ؟... ان دخول عناصر قوية الى البرلمان على اكتاف الشعب معناه ان الشعب له حق تقرير مصيره ومصير بلاده ونحن ندخل على هذا الاساس لنعرف ماذا يدور من حولنا ... ان دخولنا مجلس النيابة معناه اننا سنشترك

---

* في كلمة وجهها عبدالله « الى الشعب » قبل بدء الانتخابات قال « اننا معتزمون باذن الله على أن يكون المجلس مجلسا تتحمل الحكومة امامه جميع مسؤولياتها الحكومية على المقتضى المقرر من هذه الاصول ويتطلب ذلك اجراء تعديل في الدستور بعد خروج البلاد من الوضع الحاضر الثقيل الاعباء وبعد ان تنتهي البلاد من بعض ارتباطات لا ناقة لها فيها ولا جمل »(٨٩).

في تكييف المجتمع الذي نعيش فيه ، فان استطعنا ذلك وهو بالامكان بقينا ، والا فلا شيء يقوى على العمل ضد رغبتنا نحن اهل البلاد ... دعوني أطرق الموضوع من ناحية ثانية ... ان الانتخابات في حد ذاتها أمر واقع لا بد منها . ولنفرض جدلا اننا لا نرضى عنها ولا نريدها ، ومع ذلك فالانتخابات ستجري ان شئنا أم أبينا ، وفي هذه الحالة هل نترك الميدان للصعاليك تصول وتجول وتتصرف بأمور الشعب عن غير فهم أو معرفة ، أم نحاول ابراز عناصر قوية مخلصة طيبة نستفيد منها ونستطيع مواجهة التيار »(٩٠).

ويبدو ان هذا الحوار كان يدور على أكثر من صعيد فقد كتبت صحيفة « الدفاع » ان « المجلس الاعلى لمؤتمر اللاجئين العام » عقد جلسة يوم ١٣/١/١٩٥٠ في رام الله وجرى البحث فيه في موضوع الانتخابات وقد تكونت نتيجة المداولة ثلاثة مقترحات : « اولا — ان لا يتدخل المؤتمر في شأن الانتخابات وتترك الحرية للافراد الذين يرغبون الاشتراك فيها . ثانيا — ان يقاطع اللاجئون الانتخابات وان يترك لكل فرد حرية الاشتراك على مسؤوليته الشخصية . ثالثا — دعوة اللاجئين لتسجيل اسمائهم في قوائم الناخبين »(٩١). وقد ذكرت الصحيفة ان الاقتراح الاول هو الذي فاز بالتصويت بينما لم ينل الاقتراح الثالث سوى صوت واحد ، وربما يعتبر ذلك دليلا صحيحا على رفض الرأي العام الفلسطيني لفكرة الالتزام بالانتخابات . ويؤكد هذا الاستنتاج حوادث العنف الشعبية التي حدثت قبيل الانتخابات وفي اثنائها في الخليل ونابلس والقدس(٩٢). وكان أعنف هذه الحوادث تلك التي حدثت في نابلس في اجتماع عقدته الجماهير والقيت فيه خطب تهاجم الاردن واختتم بتظاهرة توجهت الى مبنى المتصرفية في نابلس حيث فرقتها قوة من الجيش الاردني بالقوة والقت القبض على نحو ثلاثين شخصا من المتظاهرين واقتادتهم على الاقدام الى معسكر للاعتقال وقد توفي واحد من هؤلاء (من عائلة الكيلاني) في الطريق الى هذا المعسكر من جراء الارهاق(٩٣).

لقد كان أوضح المواقف واكثرها حسما تجاه الانتخابات موقف الشيوعيين الفلسطينيين وقد نبع موقفهم من موافقتهم على قرار التقسيم للعام ١٩٤٧ ودعوا الى اقامة دولة فلسطينية في الاقسام التي خصصها هذا القرار للعرب . وقبيل الانتخابات أصدرت عصبة التحرر الوطني بيانا قالت فيه : « ان الشعب لا يهتم بمهزلة الملك عبدالله الانتخابية . الغالبية العظمى تقاطع الانتخابات لان الشعب يعارض ضم البلاد الى المستعمرة البريطانية التي تسمى شرق الاردن . ان نداء العصبة لمقاطعة الانتخابات قد قوبل باهتمام كبير ... »(٩٤).

لا شك ان ثمة عناصر وطنية قد شاركت في الانتخابات وكان هدفها من ذلك « انه لو تمت هذه المقاطعة من بعض الطبقات فاننا لن نعدم من يخوض هذه المعركة وفي هذه الحالة قد يبرز مرشحون فاسدون يسيئون الى القضية ويمثلون الامة شر تمثيل »(٩٥). لقد فرضت الانتخابات فرضا وكان هم هذه الفئة « انقاذ ما يمكن انقاذه » ووجهت معركتها نحو تغيير الدستور . وفي الجلسة الاولى لمجلس النواب المنتخب علق عدد من النواب الفلسطينيين الشباب (منهم أنور نسيبه وعبدالله الريماوي وعبدالله نعواس) موافقتهم على « الوحدة » على تغيير الدستور(٩٦) فـ « نحن أبناء الشعب لن نستعجل في اعطاء رأينا [في قضية التوحيد] وانما نريد ان نحقق رغباتنا كاملة في هذا الخصوص فلنا شروط ولنا طلبات ... ان تعديل الدستور الحالي هو كل ما يرجوه ابناء الضفتين »(٩٧).

ولقد عملت السلطات الاردنية على ابعاد هذه العناصر الوطنية قدر استطاعتها وسعت الى حرمانها من دخول المجلس النيابي وقد اتبعت أساليب الضغط بواسطة رموزها والمتعاونين معها كما حدث في الخليل فقد تدخل الشيخ الجعبري « تدخلا مباشرا في الانتخابات النيابية ... واستعمل الضغط في أكثر من مناسبة ضد المحامي

الشاب عبد الخالق يغمور »(٩٨). كذلك استغلت السلطة قانون الانتخاب الذي يتيح لافراد الجيش الادلاء بأصواتهم في انجاح العناصر المتعاونة معها فقد كان في « الضفة الغربية » في اثناء الانتخابات لواء من الجيش الاردني ادلى أفراده بأصواتهم(٩٩). وقد اعترف جلوب بأنه كان يعرض على الجنود قائمة بأسماء المرشحين فيها اشارات مقابل اسماء مرشحي الحكومة كما أشار اشارات واضحة الى الاساليب التي اتبعت في تزييف الانتخابات(١٠٠). لذلك فلم يكن بمستغرب ان عدد الذين أدلوا بأصواتهم في بعض الدوائر الانتخابية كان أكثر من ١٠٠ بالمئة(١٠١).

بجانب وسائل الضغط والتزوير فان السيطرة على نتائج الانتخابات كانت تتم ايضا من خلال توزيع المقاعد بين الضفتين . فالتساوي بالمقاعد (٢٠ لكل ضفة) كان غبنا للضفة الغربية فعدد الناخبين في الضفة الشرقية كان ١٢٩ الفا بينما كان عددهم في « الضفة الغربية » ١٧٥ الفا(١٠٢). وبينما خصص للمنطقة الجنوبية من الاردن (بلغ سكانها في العام ١٩٥٤، ٩٠ الفا) خمسة مقاعد في البرلمان أعطيت القدس (١٥٠ الفا) ورام الله (١٢٠ الفا) ثلاثة مقاعد لكل منهما ومنطقة نابلس (١٧٥ الفا) أربعة مقاعد. كذلك أعطيت المناطق « الاكثر ضمانا » عددا من المقاعد يفوق تلك المخصصة للمناطق المشكوك في ولائها . فقد اعطيت الخليل (١٣٥ الفا) التي اعتبرت مضمونة اربعة مقاعد بينما القدس (١٥٠ الفا) ثلاثة مقاعد فقط(١٠٣). وبهذه الوسيلة ضمنت الحكومة ان ترسل الى مجلس النواب عناصر يمكن الاعتماد عليها في تمرير مشاريعها ، وأجرت الانتخابات في ١٩٥٠/٤/١١* وهي واثقة من انها قادرة على السيطرة على المجلس . وقد قدرت بعض المصادر عدد النواب الموالين للحكومة من الضفة الغربية بأربعة عشر نائبا من عشرين(١٠٤).

وفي اليوم التالي للانتخابات صدر مرسوم ملكي بتعيين وزارة جديدة برئاسة سعيد المفتي تم فيها تعيين خمسة وزراء فلسطينيين هم : روحي عبد الهادي للعدلية ، راغب النشاشيبي للزراعة ، احمد طوقان للاشغال العامة والانشاء والتعمير ، انسطاس حنانيا للبرق والبريد ، وسعيد علاء الدين للتجارة والجمارك(١٠٥).

وفي ٢٤ نيسان ١٩٥٠ بدأت الجلسة الاولى لمجلس الامة (بهيئتيه النواب والاعيان) ، وكان واضحا منذ بدء الجلسة ان الحكومة تريد قرارا سريعا بالضم (او التوحيد كما اصطلح) ، بينما كان رأي عدد من النواب الفلسطينيين التريث في ذلك الى ما بعد تعديل الدستور وقد حدثت مشادة بين هؤلاء وابو الهدى (الذي انتخب رئيسا للمجلس) انسحب على اثرها عدد من النواب الفلسطينيين (منهم خلوصي الخيري ، انور نسيبه، عبد الله الريماوي ، عبد الله نعواس ، رشاد مسوده ، رشاد الخطيب ، سعيد العزة ، كامل عريقات ، موسى ناصر) كما انسحب تضامنا معهم عدد من نواب الضفة الشرقية** (شفيق الرشيدات ، عبد الحليم النمر ؛ الدكتور محمود حجازي ، عاكف

---

* النواب الذين فازوا هم : عبدالله نعواس ، كامل عريقات ، أنور نسيبه (عن قضاء القدس) ، توفيق قطان ، عبد الفتاح درويش (بيت لحم) ، عبدالله بشير عمرو ، رشاد الخطيب ، رشاد مسوده، رشيد عبد الفتاح العزة (الخليل) ، قدري حافظ طوقان ، حكمت المصري ، دكتور مصطفى بشناق ، عبد المجيد ابو حجله (نابلس) ، عبد الرحيم جرار ، تحسين عبد الهادي (جنين) ، دكتور كمال حنون ، حافظ الحمد لله (طولكرم) ، موسى ناصر ، خلوصي الخيري ، عبدالله الريماوي (رام الله).

** محاضر جلسات مجلس النواب (ملحق الجريدة الرسمية الاردنية) تجاهلت هذا الامر الحيوي واكتفت بالتركيز على القرار الذي اتخذه المجلس في نهاية جلسته . وقد كشفت « الجيل الجديد » (١٩٥٠/٥/١) حقيقة ما جرى داخل المجلس .

الفايز ، سلمان القضاة ، عطاالله المجالي) . وعند عودتهم (بعد التوسط) « اقترح احد النواب تأجيل البحث لجلسة اخرى فقال الرئيس لنصوت على ذلك ، اي على تأجيل البحث ، وتمت عملية التصويت ففشل اقتراح التأجيل بأكثرية جلها من الاعيان [المعينين تعيينا] بينما انقسم المجلس الى قسمين وهكذا اعتبر فشل اقتراح التأجيل موافقة على اقتراح الضم »(١٠٦). وتعتبر هذه الحادثة ذات دلالة خاصة فمجلس النواب الاردني لم يصوت على قرار الضم ، وتمكن ابو الهدى من تمرير هذا القرار بالشكل الذي سلف . وقد نص قرار الضم على ما يلي :

« تاكيدا لثقة الامة واعترافا بما لحضرة صاحب الجلالة عبدالله بن الحسين ملك المملكة الاردنية الهاشمية من فضل الجهاد في سبيل تحقيق الاماني القومية ، واستنادا الى حق تقرير المصير ، والى واقع ضفتي الاردن الشرقية والغربية ووحدتهما القومية والطبيعية والجغرافية وضرورات مصالحهما المشتركة ومجالهما الحيوي يقرر مجلس الامة الممثل للضفتين في هذا اليوم الواقع في ٧ رجب ١٣٦٩ الموافق ٢٤ نيسان ١٩٥٠ ويعلن ما ياتي :

اولا : تأييد الوحدة التامة بين ضفتي الاردن الشرقية والغربية واجتماعهما في دولة واحدة هي المملكة الاردنية الهاشمية وعلى راسها حضرة صاحب الجلالة الهاشمية الملك عبدالله بن الحسين المعظم ، وذلك على اساس الحكم النيابي الدستوري والتساوي في الحقوق والواجبات بين المواطنين جميعا .

ثانيا : تاكيد المحافظة على كامل الحقوق العربية في فلسطين والدفاع عن تلك الحقوق بكل الوسائل المشروعة وبملء الحق وعدم المساس بالتسوية النهائية لقضيتها العادلة في نطاق الاماني القومية العربية والتعاون العربي والعدالة الدولية .

ثالثا : رفع هذا القرار الصادر عن مجلس الامة بهيئتيه الاعيان والنواب الممثل لضفتي الاردن الى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم واعتباره نافذا حال اقترانه بالتصديق الملكي السامي .

رابعا : اعلان وتنفيذ هذا القرار من قبل حكومة المملكة الاردنية الهاشمية حال اقترانه بالتصديق الملكي السامي وتبليغه الى الدول العربية الشقيقة والدول الاجنبية الصديقة بالطرق الدبلوماسية المرعية »(١٠٧).

وهكذا إكتملت الصيغة « الدستورية » من اجراءات الضم ، بعد أن وقعها الملك في اليوم نفسه .

عود على بدء

كانت تلك خاتمة فترة ابتدأت بقرار التقسيم في العام ١٩٤٧ واستطاعت بريطانيه ان تنفذ القرار باداة اردنية وبذلك ابقت نفوذها من خلال الكيان الاردني والاسرة الهاشمية على جزء من فلسطين بجانب اسرائيل . وقد اوضح وزير الدولة البريطاني في مجلس العموم (١٩٥٠/٤/٢٧) ان « حكومة جلالته قررت ان تعترف رسميا بهذه الوحدة [بين الضفتين] وهي تغتنم هذه المناسبة لتعلن انها تعتبر مواد المعاهدة البريطانية ـــ الاردنية للعام ١٩٤٨ منطبقة على جميع المنطقة التي شملتها الوحدة »(١٠٨). وقد اكدت بريطانية اعترافها بالضم بمذكرة رسمية موجهة الى وزير الخارجية الاردني اعادت فيه تصريحها « بأنها تعتبر نصوص معاهدة الصداقة البريطانية ـــ الاردنية لسنة ١٩٤٨ شاملة لجميع المناطق الداخلة في نطاق ذلك التوحيد » واعتبرت فيها حدود الاردن هي الخطوط المبينة في اتفاقية الهدنة الموقعة بين الاردن واسرائيل في ١٩٤٩/٤/٣ ، كما بينت المذكرة ان الحكومة البريطانية لا تعترف بسيادة المملكة الاردنية على منطقة القدس « ومع ذلك فهي تعترف بأن الاردن تمارس سلطة فعلية في الجزء الذي تحتله »، كذلك اشارت المذكرة الى ان الحكومة البريطانية « لا تنوي طلب اقامة قواعد حربية زمن السلم في ذلك القسم من فلسطين الذي توحد الان مع المملكة الاردنية »(١٠٩).

اما بالنسبة لاسرائيل فقد ذكرنا عددا من الدلائل تشير الى انها ترغب في ضم الجزء العربي من فلسطين الى شرق الاردن . وفي ٢٤ نيسان ١٩٥٠ (يوم اعلان مجلس النواب الاردني قرار الضم) اعلن ناطق باسم الحكومة الاسرائيلية « ان هذه خطوة من جانب واحد لا تلزم حكومة اسرائيل بأي شيء . نحن مرتبطون مع حكومة المملكة الاردنية الهاشمية باتفاقية وقف اطلاق النار ونحن مصممون علىالالتزام به بدقة،ولكن هذه الاتفاقية لا تشمل أية تسوية سياسية نهائية ، ولا يمكن التوصل الى اي تسوية نهائية دون مفاوضات وعقد سلام بين الطرفين . لذلك يجب ان يكون واضحا ان مسالة وضع المناطق العربية غربي الاردن بقيت بالنسبة لنا مسألة مفتوحة »(١١٠) ولم يكن مثل هذا التصريح يعني رفض الضم ، بل اكثر من ذلك كما ذكر مئير فلنر ، عضو الكنيست ، اثناء نقاش بيان الناطق الرسمي باسم الحكومة الاسرائيلية في جلسة الكنيست التي خصصت لهذا الشأن « ان الحكومة ــ عمليا ــ موافقة على الضم ، وفوق هذا فقد عملت الحكومة كل ما في وسعها ليعلن الضم »(١١١). وقد وافقت الكنيست في جلستها ١٩٥٠/٥/٤ على سياسة الحكومة تجاه ضم فلسطين الى شرقي الاردن(١١٢).

الضم في الجامعة العربية

قبل ان تدخل الجيوش العربية فلسطين بوقت كاف اتخذت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية قرارا بالاجماع في ١٢ نيسان ١٩٤٨ نص على « **ان دخول الجيوش العربية لفلسطين لانقاذها يجب ان ينظر اليه كتدبير مؤقت خال من كل صفة من صفات الاحتلال او التجزئة لفلسطين وانه بعد اتمام تحريرها تسلم الى اصحابها ليحكموها كما يريدون** » . غير ان ما رسم من دور لعبد الله كان يجب أن يضعه في طرف نقيض مع ذلك القرار فقام بخطواته التدريجية في ضم الاجزاء التي احتلها الجيش الاردني الى شرق الاردن . وقد بينا في فقرة سابقة من هذه الدراسة بعض ردود الفعل العربية « الغاضبة » على مؤتمر اريحا ، غير ان هناك من الدلائل ما يشير الى ان ردود الفعل هذه لم تكن اكثر من « تسجيل موقف » علني منسجم انسجاما تظاهريا مع موقف الجماهير العربية التي كانت قد اتخذت موقفا معاديا من عبد الله وأعماله العسكرية والسياسية تجاه فلسطين . وقد ظهر ذلك جليا في خفوت الضجة الاعلامية وزوالها بعد فترة قصيرة من مؤتمر اريحا ولمدة استمرت اكثر من سنة وضعت خلالها اجراءات الضم الادارية والسياسية موضع التنفيذ . بل اكثر من ذلك فقد كشف توفيق ابو الهدى في وقت لاحق (في جلسة افتتاح مجلس الامة الاردني في نيسان ١٩٥٠) انه كان قد اجرى اتصالات في العام ١٩٤٩ مع عدد من الدول العربية ضمن فيها تأييدها لضم « الضفة الغربية » الى شرق الاردن عندما يعرض الامر على مجلس الجامعة العربية في تشرين الثاني ١٩٤٩(١١٣). ومن خلال الاطلاع على وثائق تلك الفترة يتضح انه كان ثمة تعمد لابعاد حكومة عموم فلسطين عن دورة الجامعة تلك ، وهذا التعمد يعزز ما ادعاه ابو الهدى عن التفاهم الذي حدث مع بعض الدول العربية حول الضم . وقد بدأ هذا الامر يتكشف منذ شهر اب ١٩٤٩ ، ففي الرابع منه عمم الحاج امين الحسيني مذكرة على الدول العربية « بشأن سلوك الحكومة الاردنية الشاذ في فلسطين » أوضح فيها ان المملكة الاردنية اخذت في ضم المناطق الفلسطينية التي تسيطر عليها القوات الاردنية اليها « اداريا واقتصاديا وقضائيا ، وهي اليوم شارعة في العمل لضمها اليها سياسيا وجعلها قسما منها ، وهذا امر يؤدي ليس الى حرمان الفلسطينيين من حقوقهم في الاستقلال فحسب بل الى منح بقية بلادهم الى اليهود بسخاء منقطع النظير ... والى توسيع رقعة البلاد العربية التي يسيطر عليها

الاستعمار البريطاني بموجب المعاهدة الاردنية ــ البريطانية »(١١٤)، وناشدت المذكرة « الدول العربية الموفرة التدخل لوضع حد لعبث المملكة الاردنية بمصير عرب فلسطين وحقوقهم ومصالحهم » . وكان من الواضح انه قصد من تلك المذكرة ان تكون تمهيدا لطرح المسالة في اجتماع اللجنة السياسية للجامعة المقرر عقده في ٢٠ اب نفسه . غير ان الامانة العامة للجامعة العربية لم توجه الدعوة الى حكومة عموم فلسطين لحضور الاجتماع على الرغم من ان هذه الحكومة « ذكّرت » الامانة العامة للجامعة غير مرة بحقها في ذلك واظهرت « دهشتها من عدم دعوتها »(١١٥). وقد تكرر هذا الامر عندما لم توجه الدعوة الى حكومة عموم فلسطين لحضور اجتماعات مجلس جامعة الدول العربية في دورته الحادية عشرة في ١٧/١٠/١٩٤٩ ، فقد « اهملت دعوة حكومة عموم فلسطين مراعاة (شرق الاردن الذي أصر على عدم تمثيل فلسطين وعدم ضرورته ، وتمثيل وزارته لفلسطين »(١١٦). وقد ذكر ابو الهدى انه كان عازما على أن يبحث في هذه الدورة مسألة ضم فلسطين الى شرق الاردن بعد ان كان قد تفاهم على ذلك مع سوريا ولبنان والعراق ومصر . « وقد طلبت باصرار عدم اشتراك احد من حكومة عموم فلسطين او أي احد باسم فلسطين الى ان يبحث الموضوع بمجموعه . وقد انقضت الدورة ولم يشترك فيها احد من هؤلاء ، ولكنها انقضت ايضا دون ان نتمكن من بحث هذا الموضوع لان لجنة خاصة الفت باسم لجنة فلسطين كان علينا ان ننتظر درسها وتقريرها ولم يصل ذلك الا في اخر لحظة حيث امكن بحث امور مستعجلة اخرى وانقضت الدورة (١١٧). وكما حدث في صيف العام نفسه احتجت حكومة عموم فلسطين على عدم دعوتها لحضور المجلس واعتبرت « ان عدم اشتراك هذه الحكومة في مجلس الجامعة في دورته الحالية التي تبحث فيها قضية فلسطين وتتخذ فيها قرارات حاسمة تهم الفلسطينيين قبل ان تهم سواهم وتعنيهم بالذات قبل ان تعني غيرهم ، سابقة خطيرة تضيع على عرب فلسطين حقهم الشرعي في بسط رايهم وقول كلمتهم في تقرير مصير بلادهم ، **وتؤيد بطريق مباشر وفي سياسة صريحة الامر الواقع الذي يمزق وحدة الوطن الفلسطيني** »(١١٨).

كان هناك صمت تواطئي اذن من جانب الدول العربية على الاجراءات التدريجية التي قام بها عبد الله في عملية الضم . وربما يجوز الاعتقاد بأن عدم بحث مجلس الجامعة العربية في دورته الحادية عشرة هذه المسألة مواجهة على الرغم من تهيئة الاجواء المناسبة باستبعاد ممثلي حكومة عموم فلسطين وتحويلها الى لجنة « لتقتلها بحثا وتمحيصا » كما جرت العادة ، هو من قبيل عدم التورط بمواقف معلنة لن تكون في كل الاحوال لمصلحة الدول العربية التي ستوافق على الضم علنا . ويقوي هذا الاعتقاد ما اشار اليه ابو الهدى عن مقابلة تمت بينه وبين حسين سري باشا رئيس الحكومة المصرية في ١/١٠/١٩٤٩ فقد ابلغهم الاخير « انه لا يعتقد بامكان قيام دولة عربية مستقلة في فلسطين لان الاوضاع قد تغيرت والواقع لا يجعل ذلك مستطاعا **وان من الضروري ارجاء اعلان هذا الرأي الى الوقت المناسب ، غير ان ذلك لا يمنع ان نعقد اتفاقا سريا بيننا لاعلانه وتنفيذه في الظرف المواتي** »(١١٩).

كان يمكن لهذا الصمت ان يستمر ما دامت اجراءات الضم تتم بصمت هي ايضا . غير ان نهاية العام ١٩٤٩ شهد اخر خطوات عملية الضم التي كان يجب أن تختتم « بالاجراء الدستوري » نعني الانتخابات النيابية التي لا يمكن الا ان تكون معلنة . وقد ترافق ذلك مع عودة حزب الوفد الى الحكم في مصر نتيجة الانتخابات العامة التي حدثت في كانون الثاني ١٩٥٠ . وقد قاد الحزب لدى تسلمه السلطة حملة اعلامية عنيفة ضد عبد الله كجزء من سياسته العامة ضد السياسة البريطانية(١٢٠). وكان

ذلك ايذانا بأن تفتح مصر (وبالتالي جامعة الدول العربية) ملف مسألة الضم من جديد خاصة وان الدورة الثانية عشرة لمجلس الجامعة كانت على الابواب .

في مطلع اذار ١٩٥٠ وجهت حكومة عموم فلسطين مذكرة الى الامانة العامة للجامعة العربية وصفت « بالعواقب الوخيمة » اغفال دعوتها الى الاشتراك في دورات مجلس الجامعة ، فأن ذلك يفسح المجال « لمن يحاولون اصطناع النطق باسم عرب فلسطين وانتحال تمثيلهم »(١٢١). وقد ذكرت « الاهـرام » « ان مفتي فلسطين طلب بالحاح تمثيل بلاده في اجتماعات الجامعة العربية المقبلة وان رفعة النحاس باشا [رئيس الوزراء المصري] وافق على ذلك »(١٢٢). وقد انعكست الموافقة المصرية في قرار اتخذه مجلس الجامعة في الجلسة الثانية لانعقاده (١٩٥٠/٣/٢٧) بدعوة « حكومة عموم فلسطين لارسال ممثلها لحضور اجتماعات مجلس الجامعة وان لحكومة عموم فلسطين ان تنتخب عنها مندوبا او اثنين او ثلاثة »(١٢٣).

كان واضحا ان اتجاه سياسة مصر الوفدية الخروج بقرار من الجامعة العربية يدين شرق الاردن مما يحرج هذه الاخيرة وهي مقدمة على اجراء انتخابات نيابية تختتم بها اجراءات الضم . ويبدو ان ذلك الموقف المصري الجديد لم يكن متوقعا من جانب شرق الاردن ، ففي بيان اصدرته الحكومة الاردنية في اليوم التالي لقرار الجامعة بدعوة حكومة عموم فلسطين الى المشاركة في اعمالها بينت الحكومة الاردنية انه وصل اليها « اشارات الى اتجاهات جديدة والى وجود شيء من العزم والتصميم ، فيما يتعلق بأمور كانت متفقة في جميع الابحاث التي جرت بشأنها في عهد الحكومات المصرية المتتابعة منذ اواخر سنة ١٩٤٩ حيث اتفق مبدئيا على مصير القسمين العربيين الشرقي والجنوبي من فلسطين ، وعلى التعاون للحصول على أرض تصلهما بل وعلى مبدأ الاستفادة من ميناء غزة ، وان هذه المبادىء كانت كذلك مقبولة لدى الحكومتين السورية واللبنانية حسبما تبين من احاديث جرت معهما في خلال شهر سبتمبر ١٩٤٩ كما كانت غير معترض عليها من الحكومة العراقية »(١٢٤). كان الموقف المصري الجديد مفاجئا لشرق الاردن « ولا سيما وقد تقرر دعوة رئيس حكومة عموم فلسطين على الرغم مما هو معروف من موقف هذه البلاد بشأنها » ، كما ذكر ذلك البيان ، لذلك رأت الحكومة الاردنية « ان تكتفي بأن يمثلها لدى مجلس الجامعة وزيرها المفوض بالقاهرة على ان يتجنب بحث الامر الذي لا تستطيع ان تقره وان يشترك في غيره من الامور » . وكان واضحا لعبد الله ، كما في حديث له الى « التايمز » اللندنية « انه عند النظر في المشكلة الفلسطينية فأن اي اقتراح لضم القسم العربي من فلسطين الى المملكة الاردنية الهاشمية سيلقى معارضة »(١٢٥)، وكان ذلك صحيحا باطلاق، فتأثيرات مصر في الجامعة العربية كانت بغير حاجة الى نقاش . وهكذا اقر مجلس الجامعة العربية بجلسته السادسة في ١٩٥٠/٤/١٣ القرار التالي :

« نظر المجلس في موقف الدول العربية من المسألة الفلسطينية في وضعها الراهن وقرر ما يلي :

اولا : تأكيد القرار الذي اتخذته اللجنة السياسية باجماع الدول الاعضاء في ١٢ ابريل [نيسان] ١٩٤٨ وهو القرار الذي ينص على ان دخول الجيوش العربية لفلسطين لانقاذها يجب ان ينظر اليه كتدبير مؤقت خال من كل صفة من صفات الاحتلال او التجزئة لفلسطين وانه بعد اتمام تحريرها تسلم الى اصحابها ليحكموها كما يريدون .

ثانيا : اعتبار هذا القرار نافذا ومعبرا عن السياسة الحالية للدول العربية في هذا الشأن .

ثالثا : اذا اخلت اية دولة من الدول العربية بهذا القرار تعتبر ناقضة لتعهدها ولاحكام ميثاق جامعة الدول العربية ، وذلك وفقا للفقرة الاولى من المادة الثانية من الميثاق وللملحق الخاص بفلسطين .

رابعا : عند وقوع هذا الاخلال تدعى اللجنة السياسية للاجتماع واتخاذ ما يلزم من اجراء وفقا لاحكام الميثاق » .

وقد اعتبر القرار الذي اتخذه مجلس الامة الاردني في ٢٤ نيسان ١٩٥٠ « بوحدة الضفتين » « اخلالا بقرار الجامعة العربية » فطلبت حكومة عموم فلسطين في اليوم التالي لاجتماع مجلس الامة الاردني « دعوة اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية ... وذلك لمعالجة الحالة الخطيرة التي نتجت عن القرار الذي اصدره مجلس نواب المملكة الاردنية الهاشمية يوم أمس » (١٢٦). وفي ١١ ايار ١٩٥٠ اجتمعت اللجنة وفي ١٥ منه اتخذت القرار الاتي :

« بناء على القرار الذي اصدره مجلس جامعة الدول العربية في ١٣ نيسان ١٩٥٠ ، وبناء على طلب الحكومة المصرية اجتمعت اللجنة السياسية للنظر في الموقف المترتب على ما أقدمت عليه حكومة المملكة الاردنية الهاشمية من ضم شرق فلسطين الى ارضها . وبعد مناقشة الموضوع من جميع نواحيه سجلت اللجنة باجماع الآراء ما عدا المندوب الاردني ان ما وقع من حكومة المملكة الاردنية الهاشمية هو اخلال بقرار مجلس الجامعة المؤرخ في ١٣ نيسان ١٩٥٠ السابق الاشارة اليه . ثم نظرت اللجنة في الاجراء الذي يتخذ مع حكومة المملكة الاردنية الهاشمية وفقا لاحكام ميثاق الجامعة فوافق مندوبو الجمهورية السورية والمملكة السعودية والجمهورية اللبنانية والمملكة المصرية على توصية مجلس الجامعة بفصل المملكة الاردنية من عضوية مجلس الجامعة تطبيقا للفقرة الثانية من المادة ١٨ من ميثاق الجامعة . أما مندوبا المملكة العراقية والمملكة المتوكلية فقد طلبا تأجيل الاجتماع حتى يتمكنا من الرجوع الى حكومتيهما في هذا الشأن . بناء عليه تقرر دعوة مجلس جامعة الدول العربية للاجتماع في أجل أقصاه يوم الاثنين ١٢ حزيران ١٩٥٠ لعرض الامر عليه »(١٢٧).

كان رد الفعل الاردني على القرار جلسة عقدها مجلس الامة في ١٩٥٠/٥/٢٨ قرر فيها « تمسكه المطلق بقرار الوحدة التاريخي الصادر عن مجلس الامة بتاريخ ٢٤ نيسان ١٩٥٠ »(١٢٨)، كذلك صدر بيان عن رئاسة الوزراء بتاريخ ١٩٥٠/٥/٣١ اعلن ان وجهة نظر حكومة المملكة الاردنية الهاشمية « انتهت ... الى اعتبار قضية الوحدة امرا منتهيا لا محل للبحث فيه »(١٢٩).

وفي ١٢ حزيران ١٩٥٠ عقد مجلس الجامعة العربية اجتماعا في الاسكندرية (قاطعته شرق الاردن) طلبت فيه مصر مرة اخرى بطرد الاردن من الجامعة وقد أيدتها في ذلك سوريا ولبنان والسعودية ، بينما عارض ذلك العراق وطلبت اليمن مهلة من الوقت للتفكير . وبناء على اقتراح من توفيق السويدي ، رئيس الوفد العراقي، حولت جلسات المجلس لتصبح اجتماعا للجنة السياسية . وهي التي تعتبر قراراتها توصيات(١٣٠) . وقد عرضت في الاجتماع صيغة لمعالجة الموضوع اعتبرت مقبولة من الجميع وقد نصت على ما يلي : « لما كانت الدول العربية قد اعلنت استمساكها بعروبة فلسطين واستقلالها وسلامة اقليمها تحقيقا لرغبات سكانها الشرعيين ورفضت كل حل يقوم على اساس تجزئتها فأن المملكة الاردنية الهاشمية تعتبر ان ضم الجزء الفلسطيني اليها انما هو اجراء اقتضته الضرورات العملية وانها تحتفظ بهذا الجزء وديعة تحت يدها على ان يكون تابعا للتسوية النهائية لقضية فلسطين عند تحرير اجزائها الاخرى بكيانها الذي كانت عليه قبل العدوان ، وعلى ان تقبل في شأنه ما تقرره بالاجماع دول الجامعة العربية(١٣١) .

---

١ — أنظر محاضر جلسات اجتماع القدس بين عبدالله وتشرشل (٢٨ — ٣٠ آذار ١٩٢١) في: سليمان الموسى ، **تأسيس الامارة** (عمان ١٩٧٢) ص ص ١٠٤ — ١٢٩ . كذلك من وظيفة شرقي

الاردن انظر :
Alec Kirkbride, *A Crackle of Thorns*, (London 1956) p. 19.

٢ — وزارة الارشاد القومي (الهيئة العامة للاستعلامات) ، **ملف وثائق فلسطين** (القاهرة ١٩٦٩) الجزء الاول ، ص ٣٢٥ .

٣ — عبدالله بن الحسين ، **الآثار الكاملة للملك عبدالله بن الحسين** (بيروت ؟) ، صص ٣٩٠ ، ٣٩١ .

٤ — نص الوثيقة في **محفوظات مركز الابحاث** (بيروت) ، كذلك اورد ملخصها أنيس صايغ ، **الهاشميون والقضية الفلسطينية** (بيروت ١٩٦٦)، ص ٢٤٤ .

٥ — John B. Glubb, *A Soldier With the Arabs*, pp. 62-66.

٦ — George Kirk, *Survey of International Affairs: The Middle East 1945-1950*, (Oxford 1954), pp. 270, 271.

٧ — Urabi Mustafa, *The United States and Jordan*, (Ph. D. Degree thesis, American University of Washington 1966), p. 68.

٨ — أنيس صايغ ، المصدر المذكور ، ص ٢٣٢ ، نقلا عن
Zeef Sharef, *Three Days*, (London 1962), pp. 72-67.

كذلك انظر :
Aqil Hyder Abidi, Jordan: *A Political Study 1948-1957*, p. 27.

٩ — Clinton Baily, *The Participation of the Palestinians in the Politics of Jordan(* (Thesis for the degree of Ph. D., Colombia University 1966), p. 62, Quoting: Marie Syrkin, *Golda Meir: Woman With a Cause*, (New York 1963), pp. 195, 196.

١٠ — Abidi, *op. cit.*, pp. 28, 29.

١١ — صالح صائب الجبوري ، **محنة فلسطين وأسرارها السياسية والعسكرية** (بيروت ١٩٧٠) ص ١٦٢ .

١٢ — **المصدر نفسه** ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ .

١٣ — **النهار** ، ١٩٤٩/٢/٩ .

١٤ — الجبوري ، **المصدر السابق** ، صص ٣٨٣، ٣٨٤ .

١٥ — صايغ ، **المصدر السابق** ، ص ٢٦٩ .

١٦ — رسالة من : رئاسة القوة الخفيفة جنوبي القدس ، رقم القيد ١/٤٩ ، بيت لحم في ٢٩/
١٩٤٩/٤ (**محفوظات مركز الابحاث**) .

١٧ — Kirk, *op. cit.*, 280, 281.

١٨ — **الاهرام** ، ١٩٤٨/٩/٢٦ .

١٩ — **مقررات المؤتمر العربي الفلسطيني المنعقد في عمان في ١ تشرين الاول ١٩٤٨** (مطبعة الاستقلال ، عمان).

٢٠ — نسخ من البرقيات في **محفوظات مركز الابحاث** .

٢١ — Abidi, *op. cit.*, p. 353.

٢٢ — نقابة المحامين الاردنية ، **موسوعة التشريع الاردني** .

٢٣ — **الجريدة الرسمية الاردنية** ، عدد ٩٥٦ ، ١٩٤٨/١٠/١٨ .

٢٤ — صايغ ، **المصدر السابق** ، ص ٢٧٢ .

٢٥ — عارف العارف ، **النكبة** (صيدا ١٩٥٩) ، الجزء الرابع ، ص ٨٧٧ .

٢٦ — عبدالله التل ، **كارثة فلسطين (مذكرات عبدالله التل)** (القاهرة ١٩٥٩)، صص ٣٧٥، ٣٧٦ .

٢٧ — العارف ، **المصدر السابق** ، ص ٨٧٧ .

٢٨ — **الاهرام** ، ١٩٤٨/١٢/١٥ .

٢٩ — **الحياة** ، ١٩٤٨/١٢/٢ .

٣٠ — التل ، **المصدر السابق** ، ص ٣٧٦ .

٣١ — **الحياة** ، ١٩٤٨/١٢/٢ .

٣٢ — التل ، **المصدر السابق** ، ص ٣٧٧ .

٣٣ — **الاهرام** ، ١٩٤٨/١٢/١٥ .

٣٤ — التل ، **المصدر السابق** ، صص ٣٧٥ — ٣٧٨ .

٣٥ — صايغ ، **المصدر السابق** ، ص ٢٧٣ نقلا عن سلسلة مقالات لعجاج نويهض في مجلة **الصياد** (بيروت ، النصف الاول من ١٩٦٢) .

٣٦ — **الاهرام** ، ١٩٤٨/١٢/٩ .

٣٧ — **المصدر نفسه** .

٣٨ — **المصري** ، ١٩٤٨/١٢/٢٤ .

٣٩ — Folk Bernadotte, *To Jerusalem*, (London 1951), p. 210.

٤٠ — Abidi, *op. cit.*, p. 56.

٤١ — التل ، **المصدر السابق** ، صص ٤٤٠ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ .

٤٢ — انظر Menahem Mansoor, *Arab World, Political and Diplomatic His-*

tory: A Chronological Study, Volume 2, (Washington 1972), Dec. 12, 1948.

كذلك *Keesing's Contemporary Archives,* (1948 - 1950) p. 9748.

٤٣ — محمد عزة دروزة ، **القضية الفلسطينية في مختلف نواحيها** ، الجزء الثاني (صيدا — بيروت ١٩٦٠) ، ص ٢١٤ .

٤٤ — Keesing's *op. cit.*, p. 9748.

٤٥ — Mansoor, *op. cit.*, Dec. 24, 1948.

٤٦ — دروزة ، **المصدر السابق** ، ص ٢١٦ .

٤٧ — Naseer Aruri, *Jordan: A Study In Political Development 1921 - 1965*, (The Hague 1972), p. 67.

٤٨ — **الدفاع** ، ١٩٥٠/١/١٢ .

٤٩ — **الجيل الجديد** ، عدد ٤ ، ١٩٤٩/٤/٢٤ .

٥٠ — الجبوري، **المصدر السابق** ، صص ٢٦٨، ٢٦٩ .

٥١ — **الدفاع** ، ١٩٥٠/٢/٢٦ .

٥٢ — **الدفاع** ، ١٩٥٠/٣/٢ .

٥٣ — **الدفاع** ، ١٩٥٠/٤/١١ .

٥٤ — صايغ ، **المصدر السابق** ، ص ١٥٤ .

٥٥ — **الميثاق** ، عدد ١٠ ، ١٩٤٩/٩/١٧ .

٥٦ — **الجيل الجديد** ، عدد ٩ ، ١٩٤٩/٥/٢٩ .

٥٧ — الجبوري ، **المصدر السابق** ، ص ٢٦٨ ، ٢٧٢ .

٥٨ — التل ، **المصدر السابق** ، صص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

٥٩ — Glubb, *op. cit.*, p. 192.

٦٠ — العارف ، **المصدر السابق** ، ص ٨٤٠ .

٦١ — صايغ ، **المصدر السابق** ، ص ٢٥٨ .

٦٢ — **الحياة** ، ١٩٤٩/٢/٥ .

٦٣ — **الجيل الجديد** ، عدد ١١ ، ١٩٤٩/٦/١٢ .

٦٤ — Baily, *op. cit.*, p. 130.

٦٥ — **مذكرات مجلس النواب** ، **ملحق الجريدة الرسمية** ، العدد ١ ، ١٩٥٠/٤/٢٩ .

٦٦ — Glubb, *op. cit.*, p. 162.

٦٧ — *Ibid*, pp. 241 - 243 and Mansoor, *op. cit.*, May 5 and 12, 1949.

٦٨ — **الحياة** ، ١٩٤٩/٢/٥ .

٦٩ — **الجيل الجديد** ، عدد ١١ ، ١٩٤٩/٦/١٢ .

٧٠ — **الجيل الجديد** ، عدد ١٣ ، ١٩٥٠/١/٣٠ .

٧١ — **الجريدة الرسمية**، عدد ٩٨١ ، ٤٩/٥/٧ .

٧٢ — **الجيل الجديد** ، عدد ٦ ، ١٩٤٩/٥/٨ .

٧٣ — **الجريدة الرسمية** ، العدد ٩٧٥ ، ١٦ آذار ١٩٤٩ .

٧٤ — **المصدر نفسه** ، العدد ٩٨٦ ، ٤٩/٦/١٦ .

٧٥ — **المصدر نفسه** ، ١٩٤٩/١١/١ .

٧٦ — **المصدر نفسه**، العدد ١٠٠٢ ، ٤٩/١٢/١.

٧٧ — **المصدر نفسه** ، العدد ١٠٠٣ ، ١٩٤٩/١٢/١٧ .

٧٨ — **المصدر نفسه** ، العدد ١٠٠٤ ، ١٩٤٩/١٢/٢٠ .

٧٩ — **المصدر نفسه** ، العدد ٩٨٧ ، ٤٩/٧/١٢ .

٨٠ — **المصدر نفسه** .

٨١ — **المصدر نفسه** ، العدد ٩٨٨ ، ١٩٤٩/٧/٦.

٨٢ — **المصدر نفسه** ، العدد ٩٨٤، ١٩٤٩/٦/١ .

٨٣ — **المصدر نفسه** ، العدد ١٠٠٢ ، ١٩٤٩/١٢/١٢ .

٨٤ — دروزة ، **المصدر السابق** ، ص ٣٠٧ .

٨٥ — **الجريدة الرسمية** ، العدد ١٠١٢ ، ١٩٥٠/٣/١ .

٨٦ — **المصدر نفسه**، العدد ١٠٠٦، ١٩٥٠/١/٢.

٨٧ — **المصدر نفسه** ، العدد ١٠٠٤ ، ١٩٤٩/١٢/٢٠ .

٨٨ — **بيان للشعب العربي الفلسطيني الكريم من الهيئة العربية العليا** ، (٢٣ شباط ١٩٥٠) ، طبع بمطبعة احياء الكتب العربية بالقاهرة .

٨٩ — **الدفاع** ، ١٩٥٠/٣/١٩ .

٩٠ — **الجيل الجديد** ، العدد ١٩، ١٩٥٠/٣/١٣.

٩١ — **الدفاع** ، ١٩٥٠/١/١٥ .

٩٢ — Kirk, *op. cit.*, p. 311.

٩٣ — Walter Z. Laquer, *Communism and Nationalism in the Middle East,* (London 1961), p. 127.

٩٤ — *Ibid*, p. 127.

٩٥ — **الجيل الجديد** ، العدد ١٢ بلا تاريخ .

٩٦ — **المصدر نفسه** ، العدد ٢٤ ، ١٩٥٠/٥/١.

٩٧ — **المصدر نفسه** ، العدد ٢٣ ، ١٩٥٠/٤/٤ .

٩٨ — **المصدر نفسه** .

٩٩ — Baily, *op. cit.*, p. 123.

١٠٠ — Glubb, *op. cit.*, pp. 350, 351.

١٠١ — Kirk, *op. cit.*, p. 311.

١٠٢ — Abidi, *op. cit.*, p. 67.

١٠٣ — Baily, *op. cit.*, pp. 118 - 120.

١٠٤ — *Ibid*, p. 124.

١٠٥ ــ **الجريدة الرسمية** ، العدد ١٠١٨ ، ١٢/ ١٩٥٠/٤ .

١٠٦ ــ **الجيل الجديد**، العدد ٢٤، ١٩٥٠/٥/١ .

١٠٧ ــ ادارة الصحافة والنشر بعمان ، **وحـــدة ضفتي الاردن** ، **وقائع ووثائق** ، (عمان ١٩٥٠) ص ٦ .

١٠٨ ــ Marjorie M. Whiteman, *Digest of International Law*, Vol. 2, (Washington 1963), pp. 1167, 1168.

١٠٩ ــ ادارة الصحافة والنشر بعمان ، **المصدر السابق** ، ص ٢٧ .

١١٠ ــ **محاضر الكنيست** (بالعبرية) ، الجلسة ١٣٥ للكنيست الاولى ، ٣ أيار ١٩٥٠ .

١١١ ــ **المصدر نفسه** .

١١٢ ــ Mansoor, *op. cit.*, May 4, 1950.

١١٣ ــ أنظر نص خطابه عن هذا الموضوع في : ادارة الصحافة والنشر بعمان، **المصدر السابق**، صص ٧ ــ ١٤ .

١١٤ ــ نسخة من المذكرة في **محفوظات مركـــز الابحاث** .

١١٥ ــ بعثت حكومة عموم فلسطين بمذكرتين الى الامانة العامة بهذا الخصوص ، الاولى بتاريخ ١٩٤٩/٨/١٠ ، والثانية بتاريخ ١٩٤٩/٨/٢٠ ، المذكرتان في **محفوظات مركز الابحاث** .

١١٦ ــ دروزة ، **المصدر السابق** ، ص ٢١٨ .

١١٧ ــ ادارة الصحافة والنشر بعمان ، **المصـــدر السابق** ، ص ١٣ .

١١٨ ــ مذكرة من وزارة خارجية حكومة عموم فلسطين رقم حعف/١٩٤٩/٣، بتاريخ ١٠/٣٠/ ١٩٤٩ الى مجلس جامعة الدول العربيـــة ، **محفوظات مركز الابحاث** .

١١٩ ــ ادارة الصحافة والنشر بعمان ، **المصدر السابق** ، ص ١٣ .

١٢٠ ــ أنظر Kirk, *op. cit.*, p. 310.

١٢١ ــ مذكرة من وزارة خارجية حكومة عمـــوم فلسطين رقم ح ع م /٥٠/٣ ، بتاريخ ١ مارس ١٩٥٠ ، الى الامانة العامة لجامعة الدول العربية ، **محفوظات مركز الابحاث** .

١٢٢ ــ **الاهرام** ، ١٩٥٠/٣/٢١ .

١٢٣ ــ جامعة الدول العربية ، **قرارات مجلس جامعة الدول العربية الخاصة بقضية فلسطين منذ الدورة الاولى حتى الدورة الخمسين** ، (القاهرة ١٩٧٠) ، ص ٨٨ .

١٢٤ ــ **الدفاع** ، ١٩٥٠/٣/٢٩ .

١٢٥ ــ **الدفاع** ، ١٩٥٠/٣/٢٨ .

١٢٦ ــ مذكرة من وزارة خارجية حكومة عموم فلسطين الى الامانة العامة لجامعة الدول العربية رقم ح ع ف/٥٠/٣ بتاريخ ٢٥ ابريل ١٩٥٠ ، **محفوظات مركز الابحاث** .

١٢٧ ــ دروزة ، **المصدر السابق** .

١٢٨ ــ ادارة الصحافة والنشر بعمان ، **المصدر السابق** ، ص ٢٨ .

١٢٩ ــ **المصدر نفسه** .

١٣٠ ــ Keesing's Contemporary Archives (1950-1952), p. 10812.

١٣١ ــ دروزة ، **المصدر السابق** ، ص ٣١٥ ، أنظر كذلك **الاهرام** ، ١٩٥٠/٨/٢٦ .

وسائل الاعلام الاميركية وحرب تشرين

الدكتور ميشيل سليمان

ربما كانت أهم نتائج حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ بين العرب واسرائيل هي « تحطيم الاساطير » حول النزاع الرئيسي في الشرق الاوسط . وبالفعل ، ستجادل هذه المقالة بأن الحرب نفسها كان يمكن تجنبها لولا شيوع وقبول افتراضات خاطئة معينة بين الزعماء الاسرائيليين وانصارهم الغربيين ؛ وبخاصة الولايات المتحدة . وكما كتبت في مكان آخر ، فقد حققت اسرائيل نجاحا كبيرا (بينما فشل العرب فشلا ذريعا) في جهودها لحمل الغربيين على النظر الى الشرق الاوسط وشعوبه من خلال عيون الاسرائيليين(١) . ان ما يعنيه هذا هو ان الشعب الاميركي وزعماءه السياسيين كانوا مقتنعين ، حتى تشرين الاول ١٩٧٣ على الاقل ، بان الرواية الاسرائيلية لتطورات الشرق الاوسط هي في آن معا أكثر « موضوعية » او « واقعية » وأكثر فائدة في دفع مصالح الولايات المتحدة الى الامام في المنطقة من تقييم الحالة الذي تقدم به العرب او حتى أصدقاء اميركا من العرب . وقد حطمت حرب ١٩٧٣ الكثير من الاساطير الاميركية الرائجة حول الشرق الاوسط وقوضت تقويضا خطيرا الافتراضات المختلفة التي كانت السياسة الخارجية الاميركية ترتكز اليها . لذا من المفيد ان نبدأ بوصف وتعداد تلك الاساطير ، التي تحطم بعضها في الغرب وبين بعض الاسرائيليين .

الافتراضات الاسرائيلية والاميركية حول الشرق الاوسط

في حين ان جميع الحركات القومية هي ، بمعنى من المعاني ، محاولات في اعادة تحديد صور الشعوب عن نفسها فان الصهيونية ، الحركة القومية اليهودية خلال القرن الماضي، يكاد يكون من غير الممكن تحديدها على هذا النحو فقط. يعني ان الدافع الرئيسي وراء الحركة الصهيونية كان رغبة أساسية في تغيير الصورة التي يحملها غير اليهود عن اليهود فضلا عن الصورة التي يحملها اليهود عن أنفسهم . وتتضح الكثير من الاعمال الصهيونية والاسرائيلية في الحرب وفي السياسة الخارجية والدعاية وتصير مفهومة أكثر اذا ما نظرنا اليها من هذا المنظور .

بادىء ذي بدء ، كان التوكيد على تغيير صورة اليهودي كشيلوك ، كتاجر ومراب لا يرحم . ومن هنا الحملة للعودة الى الارض ، سعيا وراء استعادة الشباب والتجدد وفرصة ليثبتوا لليهود أنفسهم ولغير اليهود ايضا انهم « مختلفون ». كذلك كان لا بد من مقاومة صورة اليهودي كجبان أو كغير مقاتل . وهنا كان يصار الى غرس قدر كبير من التشديد على « الشجاعة » و « عدم معرفة الخوف » في نفوس الشبيبة ، أحيانا الى حد فقدان العواطف الاخرى ، بما فيها المحبة واللطف(٢). وبالاضافة الى التربية كان يصار الى اتخاذ كل تدبير وقائي ليكونوا على **يقين تام تقريبا** من النصر في أية معركة عسكرية متوقعة مع العدو . وقد انطوى هذا على ممارسة **التفوق العددي** على قوات العدو حيث كان ذلك ممكنا(٣). ثم بعد النصر كان التكتيك هو استخدام دعاية واسعة

النطاق لنشر ما يوصف بأنه معركة بين داود وجوليات انتصر فيها « الضعيف » أو « ضحية الظلم » . وبهذه الطريقة وخلال فترة من الوقت ، أخذ الاسرائيليون والكثيرون من اليهود خارج الدولة يكسبون ثقة في قدرة الاسرائيليين على القتال وبسالتهم(٤). ولكن عندما ولّد هذا الموقف ثقة مفرطة في النفس وغطرسة ، صار الزعماء اليهود يستخفون بالعدو ، ويتجاهلون خيارات الحل الوسط الممكنة ، ويغالون في تقدير قدرة قواتهم على الرد السريع والفعال في حالة حربية ؛ ويستخدمون اقوالا طنانة رنانة ومبالغا فيها وأحيانا كاذبة في مخاطبة شعبهم وفي مخاطبة العدو — وهو شبيه الى حد ما بالسلوك الذي بدر من بعض الزعماء العرب في ١٩٤٨ — ١٩٤٩ ، ومرة ثانية في ١٩٦٧(٥).

واذا ما تحولنا على وجه التخصيص الى الفترة التي تسبق مباشرة حرب تشرين ، نجد ان الاسرائيليين وأنصارهم الغربيين ، وبخاصة الاميركيين ، نظروا الى الحالة على هذا النحو . لقد كان موقف الاسرائيليين من العرب داخل اسرائيل وخارجها هو موقف التشامخ ، وخصوصا بعد حرب ١٩٦٧ . فالعربي لم يكن جنديا صالحا في نظرهم ، فهو لم يكن فعالا ولا شجاعا . والامر الاكثر مدعاة للقلق هو الشعور بأن العربي في هذه الصفة وغيرها من الصفات ليس من المحتمل ان يتغير لفترة مقبلة من الوقت — هذا اذا تغير على الاطلاق . وكما لاحظ ا.ف.ستون فمن سخرية القدر ان يكون شعب قاسى قرونا من الاذلال والقمع والاضطهاد كجماعة أقلية قد ابتدأ ، حالما صار أكثرية في اسرائيل ، يطور موقف « التشامخ المزدري »(٦). والامر الاهم بكثير ما ينطوي عليه هذا من سخرية هو الخطر الذي يشكله على السلام والثمن الذي كان على الاسرائيليين انفسهم ان يدفعوه لمثل هذا الخطأ في التقدير .

وفقا للرأي الاسرائيلي — الغربي الذي كان سائدا آنذاك ، لم يكن العربي جنديا رديئا فحسب بل ان آلة القتال العربية بأسرها كانت منظمة غير فعالة(٧). وزعم ان سبب هذا يعود الى نقص مـا في البنية النفسية العربية بحيث ان اعتزاز العربي « بالفردية » وتوكيده عليها يعنيان ان العمل التعاوني في منظمات كبيرة مثل القوات المسلحة يصعب ، ان لم يكن يستحيل ، المحافظة عليه لفترات طويلة من الوقت . وبالاضافة الى ذلك ، كان هذا الرأي يستشهد بحساسية العرب للنقد ، وعـدم استعدادهم لنقل الاخبار السيئة وسيطرة الولاءات البدائية (أي القبلية والعشائرية والعائلية) عوض الولاءات القومية « كدليل » اضافي على عجز العرب عن تأليف قوة مقاتلة فعالة(٨). وكان يعتقد انه اذا كان من الصعب تحقيق هذا الهدف ضمن أية دولة عربية محددة ، فمن غير الممكن توقع مثل هذا التعاون على نطاق واسع يشمل العالم العربي بأسره . وبكلام آخر ، كان من غير الممكن للعرب ان يتحدوا في معركتهم ضد اسرائيل وانصارها بصرف النظر عما اذا كان السلاح الذي وقع الاختيار عليه عسكريا او اقتصاديا ، أي النفط . وفي ما يتعلق بقضية المقاطعة النفطية بنوع خاص ، قبلت الولايات المتحدة على وجه التخصيص بالرأي الاسرائيلي القائل ان البلدان العربية المنتجة للنفط كانت «محافظة» ولن تنضم ، على الارجح ، الى الدول العربية «المتطرفة» في حظر النفط ضد الغرب . وثمة عنصر أخير يكمل الصورة القديمة للنظرة الاسرائيلية والغربية الى العرب ، وهو ان العرب لا يسعهم كتمان الاسرار . ولذا كان يجادل بأنه حتى ولو لم تكن الافتراضات الاخرى حول الاعمال العربية المحتملة ، فان أي تحضير للحرب من جانب العرب سيتسرب خبره الى الغرب والاسرائيليين(٩).

وبالاضافة الى جميع الافتراضات المغلوطة السالفة الذكر ، كان هناك افتراض ربما

فاقها جميعا من حيث الاهمية ـ ومع هذا كان الافتراض الـذي آمن به الغـرب والاسرائيليون بمزيد من الثبات واليقين . كان هذا هو الاعتقاد بأن نظرة العرب الى ما يشكل «عقلانية» في النزاع العربي ـ الاسرائيلي هو نفسه الذي يفهمه الاسرائيليون والغربيون . ومن هنا عدم التصديق التام من جانب الزعماء الاسرائيليين بأن مصر وسوريا شنتا هجوما كبيرا بالفعل ! ولا بد من الافتراض بأن قول رئيسة الوزراء الاسرائيلية السابقة غولدا مئير بأن العرب « مجانين » لكونهم ابتدأوا حربا كهذه كان قولا « صادقا » وقد ردده تكرارا مراقبون اسرائيليون وغربيون آخرون(١٠). وقبل اندلاع الحرب اتخذ هذا التوكيد شكل انذارات ، تهدد العرب بنكبات جديدة لا حد لها. وكان الهدف ثلاثيا : (١) لتطمين المرء وتطمين شعبه الى القوة العسكرية الهائلة للدولة الاسرائيلية ـ وبالتالي الى أمن السكان والمهاجرين المقبلين ، (٢) لاقناع الغرب بأنه من غير المحتمل نشوب حرب كبيرة في المنطقة وبالتالي لا داعي للغرب ، وبخاصة للولايات المتحدة ، بأن يضغط على اسرائيـل لاجبارها على القيام بأية تنازلات او تسويات ، (٣) لترويع العرب بالتهديد ومنعهم من القيام بأي عمل ودفعهم الى تجنب القتال كوسيلة لاستعادة بعض أراضيهم او كلها .

وقد بثت الرسالة فوصلت بصوت مرتفع واضح . ولم يكن ثمة مجال لفجوة في الاتصال هنا . بيد انه لم يكن للرسالة الوقع الذي كان قـد توقعه الاسرائيليـون وانصارهم الغربيون . فوفقا لطريقة تفكيرهم ، على ما يبدو ، اذا كانت النتيجة النهائية للحرب معروفة سلفا معرفة يقينية واذا كانت تعني كارثة أكيدة وكبرى لاحد الجانبين ، فان ذلك الجانب سيكون « مجنونا » اذا ابتدأ معركة في ظروف كهذه . ولذا كان الاستنتاج الذي توصل اليه الغرب واسرائيل هو ان العرب **لن** يخوضوا حربا لانهما افترضا بأنهم ليسوا « مجانين » .

ولا حاجة الى القول ان العرب كانوا وما يزالون سليمي العقل تماما . الا ان بعض مواقفهم وسلوكهم يختلف ، بالطبع ، عن المواقف والسلوك التي توجد في الثقافات الغربية ـ ولهذا الامر تأثيره على الطريقة التي يتصرف العرب بها في حالة نزاع . وانه بالفعل لتعقيب كئيب على الدراسات الغربية حول العرب والشرق الاوسط بوجه عام ان تكون كل هذه الاساطير الخاطئة والمضللة الكثيرة قد نشأت او سمح لهـا بالاستمرار . وهكذا فانه بالفعل أمر « منطقي » و « عقلاني » في الغرب ألا يقدم شخص ضعيف على بدء قتال مع فرد أقوى منه بكثير ، حتى عندما يشعر الاول ان الحق والعدل الى جانبه . غير ان هذا السلوك ليس « منطقيا » ولا « عقلانيا » في العالم العربي . ولذا اذا شعر الشخص او قيادة بلد من البلدان انهما تعرضا لخدعة او معاملة سيئة او لافتراء واهانة بوجه عام ، فان الشرف والواجب و « المنطق » تملي عليهما ان يقاتلا، بصرف النظر عن النتيجة ، وبكلام آخر انه من « الافضل » ، أي انه أكثر « منطقية » و « عقلانية » ، في حالة كهذه ، ان يقاتل المرء وينهزم من ان لا يقاتل على الاطلاق(١١). ولو كان الامر خلاف ذلك لكان تم قمع الفلسطينيين منذ عهد بعيد نظرا الى رجحان الكفة كثيرا ضدهم . كما ان هذا يفسر اخفاق سياسة القوة التي تنهجها اسرائيل بوصفها اللغة الوحيدة التي يفهمها العرب . على انه في هذه الحال قد يكون الذين يسمون صقورا اسرائيلية ، بقيادة ديفد بن غوريون وموشي دايان وغولدا مئير ، قد فهموا سيكولوجيا العرب فهما حسنا . واذا صح هذا فان استراتيجية « العنف بوصفه اللغة الوحيدة » **لا** يقصد بها انهاء النزاع بل زيادته حدة وتزويد اسرائيل بفرصة للمزيد من التوسع والفوائد الاخرى .

وكانت النظرة الى الاسرائيليين كما أدركوها هم انفسهم والغرب بوجه عام موضوعة جنبا الى جنب مع النظرة الاسرائيلية — الغربية الى العربي قبل تشرين الاول ١٩٧٣ . كانت هذه النظرة هي الصورة المنعكسة سلبيا في مرآة لما أعتقدوا انه العربي . وهكذا كان الاسرائيليون جنودا ممتازين وابطالا ، وكانت آلتهم العسكرية بين الافضل ، ان لم تكن الافضل بالفعل ، ليس في المنطقة فحسب بل في العالم كله . وكان الجنود والضباط يعملون على نحو حسن معا وما من تضحية كانت أعظم من ان تبذل من أجل الدفاع عن الوطن . فالاسرائيليون ، خلافا للعرب ، الذين كان دافعهم الرئيسي هو كره الاسرائيليين ، وجدوا مصدر قوتهم في **حب** مواطنيهم وارضهم(١٢). ولم تكن ثمة انقسامات داخل اسرائيل تضعف تصميم الشعب . وفي الواقع كان الاسرائيليون من القوة بحيث انهم ابتدأوا يقنعون الآخرين وأنفسهم بأنهم لا يقهرون .

والى جانب نقل الصور السالفة الذكر عن أنفسهم وجيوشهم الى الغرب ، كان ما يزال على الاسرائيليين ان يقنعوا انصارهم الغربيين بأن مصالح الغرب ستصان وتحسن في المنطقة ، وقد فعلوا ذلك بتقديم الحجج التالية : اولا ، العرب ضعفاء جدا (**ويدركون** انهم ضعفاء جدا) بحيث انهم لن يجازفوا بحرب رئيسية قد توجد مواجهة بين الدولتين المتفوقتين — هو أمر كان الغرب يريد بكل تأكيد تجنبه . ثانيا ، ان **الوضع القائم** قبل تشرين الاول يخدم مصالح الولايات المتحدة والغرب على نحو افضل اذ ان التسوية ، حتى ولو كانت جزئية ، ستؤدي الى فتح قناة السويس ، الامر الذي سيعزز بصورة رئيسية الوجود العسكري السوفياتي في المنطقة وحول العالم . ثالثا ، كانت اسرائيل (هي وايران) مستعدة للعمل نيابة عن الولايات المتحدة في مقاومة او قمع أية حركات او انظمة « متطرفة » اي « مناهضة للغرب » ، في المنطقة . وبما ان العرب لا يستطيعون كتمان الاسرار ، أو ان شئت التعبير على نحو آخر ، بما ان شبكات الاستخبارات الاميركية والاسرائيلية لا يمكن ان تفشل ، فان أي عنف متوقع من الجانب العربي سيقضى عليه في المهد قبل تدويل القضية او قبل ان تشكل خطرا على سلام العالم .

ومع ان الحكومات الاوروبية بوجه عام كانت مستعدة للضغط على الاسرائيليين للتوصل الى تسوية مقبولة ما ، خاصة بالنظر الى حاجتها الاكبر الى قناة سويس عاملة وبالنظر الى اعتمادها الاعظم على النفط العربي ، فان النظرة الاسرائيلية — الاميركية السائدة كانت تعتبر ان المصالح « الغربية » لا تتجزأ . ومما لا ريب فيه ان تلك المصالح كانت تشمل النفط . وكما قلت سابقا ، فان النظرة المسيطرة كانت ان العرب غير مستعدين ، أو عاجزون عن استخدام سلاح النفط بصورة فعالة . ولكن اذا استخدم **فعلا** بصورة فعالة ، فانه في الواقع لن يؤذي الغرب ، وبخاصة الولايات المتحدة . وكما كتب رتشارد ب. مانك ، وهو أحد كبار الاقتصاديين في فرقة العمل الخاصة المنبثقة عن الحكومة الاميركية لشؤون النفط في ١٩٦٩ — ١٩٧٠ واستاذ القانون والاقتصاد في جامعة ميشيغان : « يخيل الي في الخلاصة انه من غير المحتمل ان يؤدي كره سياستنا الشرق اوسطية الى خطر عام لمبيعات النفط العربي : اولا لان الولايات المتحدة لن تكون الضحية الرئيسية ، وثانيا لان اعضاء اوبيك من غير العرب سيكونون المستفيدين الرئيسيين(١٣) .

ولا حاجة الى القول انه صار من الواضح ، حالما ابتدأت الحرب ، ان الولايات المتحدة وحليفاتها الغربيات لا تنظر الى مصالحها في الشرق الاوسط بالطريقة نفسها ،

اذ لا تستطيع اوروبا البقاء بمجرد الاعتماد على « التأكيدات » الاميركيـــة ، وحتى الولايات المتحدة صارت تشعر بالضائقة من حظر النفط .

قبل حرب تشرين كان الاسرائيليون قد نجحوا في منع أنصارهم الغربيين من القيام بأية محاولة لتحطيم الورطة واخراج الحالة من المأزق الذي وصلت اليه . وبكلام آخر أفلح الاسرائيليون في منع أي تغيير في **الوضع القائم** ، باستثناء دفع مصالحهم الخاصة الى الامام . وقد سبق لنا أن عددنا ووصفنا الاجزاء المختلفة للصيغة التي اتبعهـــا الاسرائيليون بنجاح تام لتحقيق أهدافهم . وكان أحد الاجزاء الاخرى الاكثر أهميـــة لتلك الصيغة هو اقناع الدول الغربية بقبول النظرة الاسرائيلية الى **طبيعة** المشكلة في الشرق الاوسط . وهكذا ، وفقا لهذه النظرة ، كانت المشكلة الاساسية هي مشكلة « لاجئين عرب » و « أمن » اسرائيلي . ويعني ذلك ، بالتالي ، ان كل قضية أخرى هي اضافية او هامشية سطحية او مصطنعة . وينتج عن هذا « المنطق » ايضا ، وفي محاولة لتعزيزه ، ان تستطيع غولدا مئير ان تعلن في لندن : « ليس هناك شيء اسمه فلسطينيون ... وليس الامر وكأنه كان هناك شعب فلسطيني في فلسطين يعتبر نفسه شعبا فلسطينيا فجئنا نحن وطردناه وأخذنا بلاده منه ، لم يكن لهم وجود »(١٤).

واذا لم يكن ثمة شعب فلسطيني فلا حاجة بالاسرائيليين وأنصارهم ، اذا ، ان يصابوا بوخز الضمير حول تشتيت شعب آخر للافساح في المجال « للدولة اليهودية ». وكذلك ، اذا كانت المشكلة هي مشكلة **لاجئين عرب** ، فان حل المشكلة يكون باعادة توطينهم بين اخوانهم خارج فلسطين او اسرائيل . والى ذلك ، بما ان الفلسطينيين لا يؤلفون أمة ، فانهم لا يحتاجون او لا يستحقون دولة خاصة بهم ــ وهي نظرة تستمر القيادة الاسرائيلية في تبنيها(١٥).

يستخدم الزعماء في جميع الدول « الامن الوطني » كذريعة او تبرير لاعمال كثيرة ، الا ان « الامن » أضحى هاجسا مستحوذا على الاسرائيليين ، حتى باعترافهم أنفسهم. وفي حالة كهذه يتوجب على المراقبين الخارجيين ان يقرروا ما اذا كانت القيادة تستخدم « الامن الوطني » في أنه حالة معينة لتغطية أغراض أخرى أقل مقبوليـــة ــ أعني التوسعية . وليس من المهم هنا تقرير ما اذا كان أصدقاء اسرائيل الغربيين ادركوا وجود دافع خفي وراء الادعاء الاسرائيلي « بالامن الوطني » ، في اقامة مستوطنات عديدة في أجزاء مختلفة من الاراضي المحتلة على سبيل المثال . فالأمر المهم هو أنهم لم يفعلوا شيئا لمنع قيامها . وبما ان الدول العربية **المعتدلة** ، اي الدول الموالية للغرب ، أخفقت في اثارة اهتمام الغرب ، ولا سيما الولايات المتحدة، في اية خطة معقولة لتحقيق انسحاب اسرائيلي وتسوية عادلة، فقد أضحت تضمينات الاعمال الغربية (أو انعدامها) واضحة ، أي ان الولايات المتحدة على وجه التخصيص لم تكن مستعدة لان تتحدى بصورة فعالة رأي الزعماء الاسرائيليين بأن الاراضي التي استولي عليها من العرب عام ١٩٦٧ تشكل أفضل أمن لاسرائيل وتخدم افضل مصالح الولايات المتحدة كما يراها الزعماء الذين في السلطة .

الرأي الاميركي وحرب ١٩٧٣

ليس عجيبا ، اذا ، ان تكون كل من اسرائيل وانصارها الغربيين ، وبنوع خاص الولايات المتحدة ، قد باغتتهم الاحداث التي وقعت في اوائل تشرين الاول ١٩٧٣ . وأدركوا بعد فوات الاوان ان معظم الافتراضات التي ارتكزت عليهـــا الســـياســـة الاسرائيلية والاميركية كانت خاطئة . وهذه هي الظاهرة التي وصفتها وسائط الانباء

الاميركية بأنها « تحطيم الاساطير » حول الشرق الاوسط . على انه من المهم ان نلاحظ هنا ان وسائل الاعلام الاميركية عكست المواقف السائدة لراسمي السياسة الاسرائيلية والاميركية ، فقدمت صورة الشرق الاوسط من المنظور **القديم** لاسبوع او اسبوعين بعد بدء الحرب . ولم يحصل التغيير ، المنعكس في الجداول ادناه ، الا بعدما صار واضحا ان الخسائر الاسرائيلية مرتفعة وانه من غير المتوقع تحقيق نصر اسرائيلي سريع. وكان أحد المواضيع المهمة ، الذي لا يظهر في الجداول ، هو توكيد الصحف على ان العرب **ابتدأوا** الهجوم . وما كان هذا التشديد ليعتبر غير اعتيادي او متحيزا في الحالات الطبيعية. الا ان الانحياز الى اسرائيل يصير واضحا عندما نقابله بالوضع عام ١٩٦٧. فخلال ذلك النزاع عمدت المجلات التي هي قيد المراجعة اما الى تجاهل قضية من شن الهجوم الاول فعلا او الى « لخبطته » وتشويشه(١٦). وبيت القصيد هو انه اذا كان تحديد من الذي وجه الضربة الاولى مهما كناية لتتكلم عنه المجلات وتشدد عليه ، فانه كان عليها ان تفعل هذا في **كلا** الحالين، والا كان عليها ان تتجاهله في **كلا** الحالين ايضا.

وتظهر الجداول بوجه عام تحيز الصحف الاميركية في روايتها للنزاع العربي ـ الاسرائيلي خلال العقدين الماضيين من الزمن(١٧). والادلة واضحة على ان سنة ١٩٦٧ اشارت الى انحسار التقارير الصحافية غير المتحيزة الى ادنى مستوى ، ولكن سنة ١٩٧٣ شهدت بداية التحرك نحو التوازن .

اذا نظرنا الى كل من الجدول الاول والثاني بمفرده لوجدنا ان وسائل الاعلام الغربية قد توقفت بوجه عام عن ربط العرب بحياة البداوة ومستوى التعليم المتدني او مستوى المعيشة المنخفض . الا ان الاشارات اليهم بوصفهم كاذبين ، غير صادقين او غير جديرين بالثقة ما تزال كثيرة ، وجيء ايضا على ذكر خلافاتهم والمنافسات فيما بينهم. الا ان مجلة **تايم** ، والى حد اقل مجلة **نيوزويك** ، اشارتا مرارا الى الصفات « الحسنة » للعرب خلال حرب ١٩٧٣ . كما كتبت المجلات عن أعمال العرب ونواياهم المزعومة بتفهم أكبر ، ان لم يكن بعطف ، كما يظهر الجدول رقم ٢ .

وهكذا اكتشف مراسلو **تايم** ، على الاقل ، ان العرب أيضا يتوقون الى السلام والامن . بيد ان التغيير الاهم ظهر في الاعمدة المعنونة « انجازات العرب » و « تسويغ أعمال العرب ». وباستثناء مجلتي **نيشن ونيو ريبابليك،** اخذت المجلات الاسبوعية التي هي قيد الدراسة تبدي اهتماما بوجهة النظر العربية وحساسية لها . وحملت تقارير مستفيضة عن المنجزات العربية في ساحة القتال . والامر الاكثر دلالة هو ان الاعمال او الآراء العربية سوغت على نحو واف ووضعت في سياقها الصحيح او شرحت شرحا كافيا . وهكذا تكون التقارير الصحافية جيدة بالطبع ، الا ان هذا الاجراء كان في الماضي مخصصا للتقارير الصحافية عن اسرائيل كما يمكننا ان نرى من الجدولين الرقمين ٢ و٣ . وقد طبق على كلا الجانبين عام ١٩٧٣ . واذا ما استمر هذا الاتجاه الجديد ، فان جمهور القراء الاميركي سيصير حتما أفضل اطلاعا على الشرق الاوسط ومشكلاته ، وستكون مشكلات المنطقة أقرب الى حل !

واذا تحولنا الى التغطية الصحافية الاميركية لاسرائيل أظهر لنا الجدول رقم (٤) ان **تايم** هي المجلة الوحيدة قيد الدراسة التي تشدد على صفات البطولة والاعتماد على الذات والاجتهاد في العمل والكفاءة للاسرائيليين في ١٩٧٣ . غير انه جيء ايضا على ذكر الصفات الاسرائيلية « السيئة » كانعدام استعدادهم وثقتهم الزائدة بالنفس واستخفافهم بالعدو . ونقول ثانية انه اذا كانت هذه بداية اتجاه ستتبعه **تايم** ومجلات الاخبار الاخرى ، فانه تطور مهم وصحي ـ وينسجم مع الهدف الاساسي للصهيونية ،

وهو تغيير صورة اليهودي بحيث يعامل (هو او هي) كانسان . بيد ان الصهيونية لفرط حماستها افلحت ، في تصاريحها **العامة** على الاقل ، في تغيير صورة اليهودي من كائن « دون البشر » الى كائن « فوق البشر » . وهذا خطأ خطير جدا ، وستستمر المشكلة قائمة بالنسبة الى اليهود وغير اليهود على السواء، في الشرق الاوسط والمناطق الاخرى ، الى ان يعامل اليهود كما تعامل جميع الكائنات البشرية — أي الى ان ينظر اليهم كبشر ذوي صفات حسنة ورديئة ، قادرين على العظمة ولكنهم قادرون ايضا على الخطأ ، مزيج من القوة والضعف ، من اللطف والوحشية ، من الشجاعة والجبن ، الخ . . .

الجدول رقم (٥) يعكس مدى التحسن في التقارير الصحافية الاميركية عن الشرق الاوسط في ١٩٧٣ . وهكذا لم يكن ثمة شجب للزعماء العرب — ويمثل هذا تغييرا ملحوظا عن الاعوام السابقة . في الماضي ، بالطبع ، كان الرئيس عبد الناصر ، هدفا سهلا ينحى عليه باللوم لجميع « المتاعب » في الشرق الاوسط . ويبدو ان خلفه أنور السادات قد تجنب اثارة عداء وسائل الاعلام الغربية . وفي الواقع ، تلقى السادات بعض الثناء ، وان يكن ثناء ضئيلا ، من أوساط معينة . وربما كان الامر الاهم هو أنه لم يتعرض لاي نقد في أعمدة افتتاحيات هذه المجلات(١٨)!

ويظهر تحليل الجداول ان وسائل الاعلام الاميركية لم توقف بحال من الاحوال كل النقد أو الشجب للدول العربية المختلفة . الا ان كمية التقارير الصحافية الموالية للعرب ، في حال **النيويورك تايمز** على الاقل ، كاد يوازي المواد المنتقدة للعرب — وهذا تحسن كبير ! كذلك في حين يستمر اعتبار انتقاد اسرائيل محرما ، فانه واضح من جداولنا ان انخفاضا أكيدا ومهما في الموقف الموالي لاسرائيل سابقا قد حصل في ١٩٧٣ ، باستثناء التقارير الصحافية في مجلة **نيشن** . ومن الواضح ان تفتيت التحيز لاسرائيل لم يؤد الى كسب الموالاة للعرب . بدل ذلك ، وبحق ، تحولت وسائل الاعلام الى موقف حيادي — متوازن أكثر حول قضايا الشرق الاوسط . ولا يعني هذا ان الحالة مثالية ، بل يعني ان بداية قد تحققت في محاولة عرض العرب كبشر — وليس كمجرد أعداء لاسرائيل أو كمثيري متاعب للولايات المتحدة والغرب بوجه عام . ومع هذا يبقى من الواجب تحقيق أشياء كثيرة قبل ان تتم الصحافة واجباتها على نحو صحيح . مثال ذلك انه في حين اقرت وسائل الاعلام بوجه عام « بتحطيم الاساطير » حول الشرق الاوسط، فانها لم تكد تثير الاسئلة المهمة التالية ، ناهيك ببحثها في العمق : ١ — من الذي خلق وشجع هذه الاساطير وكيف ؟ ٢ — ماذا كانت النتائج السياسية التي ترتبت على مثل هذه الافتراضات الخاطئة ؟ ٣ — ما هي الاساطير الاخرى التي تحتاج الى تحطيم **قبل** ان يفضحها نزاع رئيسي آخر ؟ ٤ — هل هناك أساطير جديدة تتطور وتزداد انتشارا ؟ ٥ — ماذا يمكن فعله لايقاف خلق الاساطير والشروع في تقديم تقارير دقيقة صحيحة عن الشرق الاوسط ؟ ٦ — الا ينبغي على المعارضة السياسية ان تنتقد وتوبخ الحكومة لاخفاقها الذريع هذا في تقييم وضع خطر في منطقة استراتيجية ؟

ان سؤالا واحدا على الاقل (هو الاول) لم يطرح لان الجواب كان معروفا ومحرجا تماما ، وكانت وسائل الاعلام نفسها ، كما أظهرنا ، بعلمها او بغير علمها ، وسيلة رئيسية لخلق وبث الاساطير حول الشرق الاوسط . وقد حطمت حرب ١٩٧٣ بعض هذه الاساطير الى حد ان وسائل الاعلام **اضطرت** الى الانتباه اليها . ولكن ماذا بشأن الاساطير الاخرى ؟ مما لا ريب فيه انه حان الوقت لاطلاع الشعب الاميركي على الطبيعة الحقيقية للمشكلة في الشرق الاوسط . من هم الفلسطينيون ؟ وكيف أضحى

معظمهم « لاجئين » ؟ وماذا سيحل بهم ؟ هل ان حلا من الحلول يقبلون به هو معقول وممكن التنفيذ أو حتى مرغوب به ؟ هذه اسئلة يبقى على الصحافة الاميركية ان تعالجها معالجة وافية . كذلك ، ورغم الادلة التي تناقض ذلك ، ما يزال الرأي الشائع في الولايات المتحدة هو ان « اللاجئين العرب » تركوا وطنهم في فلسطين طوعا ومن غير اكراه أو عن طريق حض الزعماء العرب في البلدان المجاورة لهم . كما انه ما يزال يعتقد بوجه عام بأن العرب مصممون على تدمير اسرائيل وقتل اليهود . والتفسير الذي يعطى عادة — وهو تفسير أسوأ حتى من الزعم نفسه — هو ان العرب يكرهون الاسرائيليين لانهم معادون لليهود بوجه عام . وبما انه لا يقال بأن الاسرائيليين يكرهون العرب ، فالتضمين هو ان الكره من جانب واحد ولا عقلاني . الا ان هذا الكره العربي المزعوم لليهود يفسر أحيانا في اطار الحسد الذي يزعم انه وليد مستوى المعيشة الادنى لدى العرب وبالافتراض (الاسطورة) ان فلسطين كانت في الاساس صحراء قاحلة الى ان جاء اليهود وجعلوها تزهر .

هذه الفكرة بأن العرب لا قضية قوية لهم (هذا اذا كان عندهم أية قضية على الاطلاق) في نزاعهم مع اسرائيل هي فكرة واسعة الانتشار وتعرض في أشكال مختلفة. وهكذا خلال حرب ١٩٧٣ وبعدها أعربت حكومات عديدة في العالم عن استنكارها للاعمال الاسرائيلية اما عن طريق التصاريح الانتقادية العامة أو عن طريق استدعاء ممثليها الدبلوماسيين من تل ابيب . وفي كل الحالات تقريبا كان التفسير المعطى في الصحف يتفق مع الزعم الاسرائيلي بأن مثل هذا التغيير في السياسة انما يعود الى « ابتزاز » من جانب البلدان العربية . وان شئنا التعبير بطريقة أخرى ، قلنا ان هذه الحجة تزعم انه اذا ما تصرفت أية حكومة تصرفا مؤيدا للاسرائيليين ، فانها تفعل ذلك لانه العمل اللائق والصحيح . وبما ان لا قضية للعرب او يفترض بأنهم على خطأ ، فان أي عمل مؤيد لهم من قبل فرقاء ثالثين يفترض بأنه نتيجة ضغط « لا اخلاقي » او غير شرعي . وبطريقة من الطرق يفترض بأن الحقوق الشرعية للعرب والمصالح الوطنية لحكومات الفريق الثالث هي غير موجودة او غير مهمة .

وحتى في الوقت الذي كان يجري تحطيم بعض الاساطير ، راح الاسرائيليون يعملون بنشاط على نشر أساطير جديدة يقصد بها تدعيم صورتهم الذاتية وخفض درجة عدوهم. مثال ذلك ان النكسات الاولى التي تكبدتها القوات الاسرائيلية صورت على ان سببها هو الغدر العربي (أي الهجوم المفاجىء) او الاستخبارات الاميركية الخاطئة او القرار الاسرائيلي بعدم توجيه الضربة الاولى . وكان من الواضح ان هذه الحجة تهدف الى احياء او تدعيم اسطورة الاسرائيلي الذي لا يقهر والى الادعاء بأن النجاحات العربية الاولى هي غير قياسية ولا يمكن تكرارها .

وحول مسألة النفط ، صور الحظر على انه شكل من أشكال الابتزاز — وعلى حكومة الولايات المتحدة الا ترضخ له أو تعدل سياستها في الشرق الاوسط بأية طريقة من الطرق(١٩) . وفي أية حال فان فكرة المقاطعة لم تأت من العرب بل من الاتحاد السوفياتي — وفي هذه الحال ينبغي على الولايات المتحدة ان تتدخل وتحرم السوفيات من تحقيق نصر في هذه المنطقة . الا انه افترض هنا ايضا بأنه لم يكن لدى العرب ما يدعوهم الى الغضب من الولايات المتحدة . وفي الواقع لم تكن لهم أية مظلمة على الاطلاق — وانما كانوا ينفذون أوامر السوفيات فحسب ! وملاحظات ستانلي كارنو توضح هذا الرأي : « وباختصار : كان الهدف السوفياتي هو تشجيع الوحدة العربية الموجهة ضد الولايات المتحدة على أمل الحد من استيرادات النفط الاميركية »(٢٠) .

الولايات المتحدة والشرق الاوسط ــ علاقة جديدة ؟

بما اننا اكتشفنا تغيرا في تقارير المجلات الاميركية الاسبوعية عن أخبار الشرق الاوسط في حرب ١٩٧٣ ، فاننا بحاجة الى ان نسأل ما هي العوامل التي سببت التغيير وما اذا كانت عابرة زائلة أو جوهرية(٢١). لا شك في ان العرض العربي المتحسن في حرب تشرين أرغم الولايات المتحدة ، والغرب عامة ، والاسرائيليين الى حد ما ، على القيام « باعادة تقييم اليمة » للحالة ولافتراضاتهم الاساسية (أساطيرهم) المتعلقة بها . وبكلام آخر ، ايقاظهم بعنف من نومهم الطويل . وقد سبق لنا ان بحثنا هذا الوجــه .

وبصرف النظر عن الحرب نفسها ، فان مواقف العرب والاسرائيليين والاميركيين تحتاج الى فحص من أجل ادلة ممكنة . ففي أعقاب حرب ١٩٦٧ قبلت بلدان عربية معينة (مصر والاردن على وجه التخصيص) علنا ولاول مرة بامكانية التعايش السلمي مع اسرائيل عندما التزمت بالقرار رقم ٢٤٢ الصادر عن مجلس الامن التابع للامم المتحدة في الثاني والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ، ١٩٦٧ . وكان هذا بالفعل تحولا رئيسيا في الموقف وتنازلا كبيرا لاسرائيل . وتبنت معظم البلدان العربية ، لا كلها قطعا ، موقف « لننتظر ونر » لتقرير ما اذا كان الاسرائيليون سينسحبون فعــلا من الاراضي التي احتلوها عام ١٩٦٧ مقابل الاعتراف العربي . وكانت «سلبية» الاسرائيليين عينها حول هذه القضية هي التي دفعت الكثيرين من الناس ، بمن فيهم زعماء بلدان عديدة ، الى السخط على الاسرائيليين . وفيما استمر الاسرائيليون يعززون قبضتهم على الاراضي المحتلة عن طريق تشييد طرقات جديدة واقامة مستوطنات جديدة واقتراح السماح للاسرائيليين الافراد بشراء الاراضي ، صار للادعاء الاسرائيلي بأن « كل شيء قابل للتفاوض فيه » نبرة كاذبة . ومن هنا العدد الساحق من البلدان التي صوتت لشجب اسرائيل في الثاني والعشرين من آذار (مارس) ، ١٩٧٢ (لجنة الامم المتحدة حول حقوق الانسان) وفي تموز (يوليو)، ١٩٧٣ (مجلس الامن التابع للامم المتحدة). كما ان قرار مجلس الامن الرقم ٢٤٢ ، وخطة وزير الخارجية الاميركية وليم روجرز ، ومهمة غونار يارينغ أخفقت جميعها لان الاسرائيليين اظهروا أنهم يؤثرون الارض على الانسحاب ، والاعتراف على السلام . وعندما اندلعت الحرب وطال أمدها ، أشــار الكثيرون من الصحافيين الغربيين الى التصلب الاســرائيلي السابق كســبب جزئي للحرب . كذلك ، قطعت الكثير من البلدان الافريقية علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل للسبب نفسه .

وفي وقت واحد تقريبا مع التطورات الآنفة الذكر ، كان الراي العام الاميركي يتصلب ضد أي تورط عسكري اميركي جديد في الخارج ، بعد الاختبار الذي ترك جراحا عميقة في الفيتنام . ومع ان الاميركيين كانوا بوجه عام يشعرون بالعطف على اسرائيل ، فقد أخذوا يخشون الانجرار الى « حرب برية اخرى » في آسيا . والى ذلك لم يكن ثمة شك في انه كان بوسع اسرائيل ان تحمي نفسها بصورة أكثر من وافية ولم يكن هناك خوف من تدمير اسرائيل ومن « رمي الاسرائيليين في البحر » .

ويبدو ان عاملين آخرين ساعدا في احداث التغيير الملاحظ في الجداول المنشورة . كان العامل الاول هو الوفاق ــ أي سياسة التفاهم مع الاتحاد السوفياتي لكي تتعاون الدولتان المتفوقتان في مختلف المسائل الاقتصادية والسياسية وحتى قضايا الاسلحة الاستراتيجية . وهذه هي الاستجابة الايجابية للخوف من مواجهة نووية بين البلدين حول منطقة توجد فيها مشكلات مثل الشرق الاوسط . وبكلام آخر أخذ الكثيرون من

الاميركيين يتبنون الرأي القائل بأن الخلافات والشجارات العربية ـــ الاسرائيلية او حتى المواجهات العنيفة بينهما يجب عدم السماح لها بالتصاعد والتحول الى حــرب نووية . والبديل هو تسوية سلمية ـــ حل وسط لا بد وان يشمل الفلسطينيين ويتطلب تنازلات تتمنع اسرائيل عن قبولها ان لم تكن غير راغبة فيها . ومن هنا التضايق من الاعمال الاسرائيلية وانتقادها . وهذا يساعد أيضا في تفسير ان الحماسة والتــأييد لاسرائيل عام ١٩٧٣ جاءا بصورة رئيسية (وكلية تقريبا) من الجالية اليهودية الاميركية ـــ الامر الذي يظهر فرقا ملحوظا عما كانت عليه الحال عام ١٩٦٧ عندما جاء التأييد السياسي والاقتصادي والعاطفي والرمزي من جميع قطاعات المجتمع الامـــــيركي تقريبا(٢٢).

واخيرا لعبت قضية النفط دورا غير محدد وغير أكيد في تغيير المواقف ـــ علما بأنها لعبت دورا أكثر أهمية ويقينا في تغيير السياسات الحكومية في كل من الولايات المتحدة والغرب بوجه عام .

خلاصة واستنتاجات

الفرضية الاساسية لهذا البحث هي ان البلدان الغربية ، وبخاصة الولايات المتحدة، بقبولها النظرة الصهيونية ـــ الاسرائيلية الى العرب والاسرائيليين وطبيعة المشكلات في الشرق الاوسط ، وجدت نفسها تصيغ سياسات ترتكز على افتراضات خــاطئة (أساطير) . ونظرا الى اساءتها فهم الوضع ، فقد أخفقت في انتهاج سياسات ربما كانت منعت نشوب الجولة الرابعة من القتال العربي ـــ الاسرائيلي . وخلال حرب تشرين أعلن عن « تحطيم » الكثــير من الافتراضات (الاساطير) التي كانت مقبولة سابقا . الا انه من غير المؤكد ، للاسف ، ان تكون هذه الاساطير « المحطمة » قــد أزيلت بصورة تامة من وعي راسمي السياسة والصحافيين الغربيين ، أو على الاصح من وعيهم الباطني . والى ذلك ، فحتى وان تبين ان العديد من الافتراضات كانت خاطئة ، فان أحداً لم يقم بمحاولة شاملة لتقرير ما اذا كان ثمة افتراضات غربية **أخرى** حول الشرق الاوسط غير صحيحة . وقد تضافرت عوامل مختلفة لجعل المـــــواقف الاميركية من شعوب الشرق الاوسط والتقارير الصحافية الاميركية حول الشــرق الاوسط أقل تحيزا (أي أقل موالاة لاسرائيل) . وسوف يستمر بعض هذه العوامل في التأثير على راسمي السياسة لتبني اقترابا أكثر « انصافا » في معالجة الاختلافات العربية الاسرائيلية . الا ان راسمي السياسة يعملون ضمن قيود معينة ، ومن بينها الرأي العام . ويستمر نشر الآراء الموالية لاسرائيل في تأليف ذلك الرأي حول الشرق الاوسط الى حد كبير . ولذلك ينبغي تطبيق محاولة السعي الى عرض أكثر تــوازنا للحقائق حول الشرق الاوسط في جميع وسائل الاعلام : الصحافــة ، الراديــو ، التلفزيون ، الافلام السينمائية ، الكتب المدرسية ، الروايات الرائجة ، الخ...

الجدول رقم (١)

صفات نسبت الى العرب في مجلات اميركية معينة*

تموز ــ كانون الاول (يوليو ــ ديسمبر) ١٩٥٦ ، أيار ــ حزيران (مايو ــ يونيو) ١٩٦٧ ، وتشرين الاول ــ تشرين الثاني (اكتوبر ــ نوفمبر) ١٩٧٣

اسم المجلة	حياة البداوة			مستوى معيشة منخفض			مستوى تعليم منخفض			توجيه غير ديموقراطي			عدم الصدق وعدم الجدارة بالثقة			خلاف منافسة			صفات « حميدة »		
	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣
النيويورك تايمز	١٢	١٥	٠	١٧	١	٠	٥	١	٠	٢	٣	٠	٠	١٨	١	١٢	٢٤	١	٤	٥	٣
يو اس نيوز اند ورلد ريبورت	٤١	٣	١	٤٢	١٥	٠	٣١	٠	٠	١٠	٠	٠	١٦	١٥	٥	٢٠	٤١	٦	٠	٥	٠
نيشن	٣	٠	٠	١٠	٠	٤	٧	٠	٢	٦	٠	٠	٤	٠	١	١	١	٠	٨	٠	٠
نيو ريبابليك	٠	٠	٠	٩	٠	٠	٤	٠	٠	٥	٠	١	٨	٢	١	٥	٣	٠	٠	٠	٠
نيوزويك	٢٤	٢	٢	١٦	٢	٥	١	٠	٠	٢	٣	٢	٠	١١	١١	٢	٩	٢	٠	١٠	١٠
تايم	١٨	٥	١٥	١٦	٠	٣	٢	٠	٠	١	٠	٣	١٠	٢٠	٢٥	١٨	١٠	٥	٥	١٢	٤٢
المجموع	٩٨	٢٥	١٨	١١٠	١٨	١٢	٥٠	١	٢	٢٦	٦	٦	٣٨	٦٦	٤٤	٥٨	٨٨	١٤	١٧	٣٢	٥٥

* الارقام تشير الى عدد المرات التي جيء فيها على ذكر الصفة .

الجدول رقم (٢)

صفات تميز العرب والدول العربية في مجلات امريكية معينة*

تموز ـــ كانون الاول (يونيو ـــ ديسمبر) ١٩٥٦ ، ايار ـــ حزيران (مايو ـــ يونيو)

١٩٦٧ ، وتشرين الاول ـــ تشرين الثاني (اكتوبر ـــ نوفمبر) ١٩٧٣

المجلــة	ذكر اللاجئين العرب			رغبة العرب في السلام والامن			انجازات العرب			اسرائيل «تسيء معاملة» العرب			تسويغ اعمال العرب		
	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣
النيويورك تايمز	٥	١٩	٣	٠	٠	١	٢	٠	١٠	٣٦	٤	٢	٩	٤	١٣
يو اس نيوز أند ورلد ريبورت	١	١	٢	٠	٢	٠	٠	٠	١٢	٠	٨	٣	٠	+	٢٠
نيشـــن	٣	٥	٢	٠	٠	٠	٥	٠	٠	٤	١	٠	٠	٠	٠
نيو ريبابليك	٢	٣	١	٠	٠	٠	٠	٠	٢	٣	١	١	٢	+	٠
نيوزويـــك	٢	١٣	٥	٠	١	٢	٠	٠	٢٤	٦	٧	٦	٠	+	٢
تـــايم	١	١٤	٢٤	٠	٠	١٤	٤	٠	٤٦	١٧	٣١	٨	٣	٨	٢٧
المجمـــوع	١٤	٥٥	٣٧	٠	٣	١٧	١١	٠	٩٤	٦٦	٥٢	٢٠	١٤	١٢	٦٢

* الارقام تشير الى عدد المرات التي جيء فيها على ذكر الصفة .

+ لم يوضع فيها تقرير .

الجدول رقم (٣)

صفات تميز اليهود واسرائيل في مجلات اميركية معينة*

تموز ــ كانون الاول (يوليو ــ ديسمبر) ١٩٥٦ ، ايار ــ حزيران (مايو ــ يونيو)

١٩٦٧ ، وتشرين الاول ــ تشرين الثاني (اكتوبر ــ نوفمبر) ١٩٧٣

مجــلات	سوء معاملة سابقة لليهود			رغبة اسرائيل في السلام والامن			انجازات اسرائيل			اسرائيل ضحية ظلم صغيرة ولكن قوية**			العرب مصممون على تدمير اسرائيل			العرب (يسيئون معاملة) اسرائيل			تسويغ أعمال اسرائيل		
	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣
نيويورك تايمز	٣	٠	١	٣٢	٢٤	١١	١٥	٣٠	١٥	٣	١١	٣	٢٤	١٨	٣	١٣٧	٤٧	١٥	٣٦	٥٨	١٣
يو اس نيوز اند ورلد ريبورت	١	١	٣	٢١	٦	٢٠	٢٤	٤	٦	١٩	٣٤	٣	٥٠	٢٦	١٢	٦٤	٢٩	١٥	٦٠	١٩	١٧
نيشــن	١٢	٠	١	١٥	٣	١٢	٩	٠	٤	٤	١	٤	٨	٧	٢	٢٥	٩	٥	٢٣	٥	١٠
نيو ريبابليك	٠	٠	٠	١٣	٠	٤	١	١	١	٤	١	١	٢٤	٢	٣	٤٩	٤	٤	١٨	٣	٥
نيوزويــك	١٥	٤	٤	٣	٨	٧	١	٢	٢٧	٠	٠	٣	٢	٥	٣	١١	٢٢	٢٠	٤	٧	٣٩
تــايم	٣	١٢	١٤	١١	٢٠	١٧	٩	١١	٣٧	٠	٣	٧	٩	٣٠	١٧	١٠	٤٧	٤١	١٨	٣٠	٣٦
المجمــوع	٣٤	١٧	٢٣	٩٥	٦١	٧١	٥٩	٤٨	٩٠	٣٠	٥٠	٢١	١١٧	٨٨	٤٠	٢٩٥	١٥٨	١٠٠	١٥٩	١٢٢	١٢٠

* الارقام تشير الى عدد المرات التي جيء فيها على ذكر الصفة .

** هذه الفئة كانت تسمى « بين جيران معادين » في دراسة عام ١٩٥٦ .

الجدول رقم (٤)

صفات نسبت للاسرائيليين في مجلات اميركية معينة*

تموز — كانون الاول (يوليو — ديسمبر) ١٩٥٦ ، ايار — حزيران (مايو — يونيو)

١٩٦٧ ، وتشرين الاول — تشرين الثاني (اكتوبر — نوفمبر) ١٩٧٣

اسم المجلة	مستوى حديث مرتفـــع من التعليم			بطوليون ، يعتمدون على النفس مجتهدون ، اكفاء			صادقون ، غير حسودين			ديموقراطيون وشبيهون بالغربيين			صفات « رديئة »		
	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣
النيويورك تايمز	٠	٠	٠	+	١٥	١	+	٦	٠	١	٠	٠	٠	٢	١
يو اس نيوز أند ورلد ريبورت	٠	٤	٠	+	٣٧	٢	+	٢	٣	٠	١	٠	٠	٢	٠
نيشـــن	١	٠	٢	+	١	٣	+	٠	٢	٦	٠	٠	٠	٠	٣
نيوريبابليك	٤	٠	٠	+	٧	٠	+	٠	٠	٣	٠	٠	٠	٠	٠
نيوزويــك	٠	٥	٠	+	٤	٥	+	٥	٣	٠	٣	٠	٠	٠	٣
تــايم	٠	٩	٠	+	١٧	٢٦	+	٤	٢	٠	-	١	٠	٣	١٩
المجمــوع	٥	١٨	٢	+	٨١	٣٧	+	١٧	١٠	١٠	٤	١	٠	٧	٢٦

* الارقام تشير الى عدد المرات التي جيء فيها على ذكر الصفة .

+ لم يوضع فيها تقرير .

الجدول رقم (٥)

النسبة المئوية للمواد من جميع التقارير الصحافية حول الشرق الاوسط في مجلات اميركية معينة*

تموز — كانون الاول (يوليو — ديسمبر) ١٩٥٦ ، ايار — حزيران (مايو — يونيو) ١٩٦٧ ، وتشرين الاول — تشرين الثاني (اكتوبر — نوفمبر) ١٩٧٣

المجـلات	مؤيدة لزعيم عربي			مؤيدة للعرب			مؤيدة لاسرائيل			مؤيدة للغرب			ضد زعيم عربي			ضد العرب		
	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣
النيويورك تايمز	٠٪	٠٪	٤٪	١٪	٠٪	١١٪	٨٪	٣١٪	١٦٪	٦٪	١٢٪	٢٪	١٢٪	٣١٪	٠٪	١٪	١٢٪	١٦٪
يو اس نيوز أند ورلد ريبورت	٢	٢	٧	٣	٠	٣	١٦	٤٠	١٦	١٨	٠	٣	٤٤	٣٠	٠	٨	٣٦	١٦
نيشـــن	٠	٠	٠	٦	٠	٠	٣٢	٠	٥٧	١٨	٠	٠	٦	٦٠	٠	٣	٢٠	١٤
نيو ريبابليك	٠	٠	٠	٦	٠	٠	١٥	٣٣	١٣	٢	٠	٠	١١	٣٣	٠	١٥	١٧	٥٠
نيوزويــك	٠	٠	٠	١	٤	٠	٨	٣٧	١٥	١٤	٠	٠	٢٠	٤٤	٠	٣	٧	١٥
تـايم	١	٠	٩	٠	٠	٢	١	٥٠	١٧	١٠	١٠	٠	٩	١٠	٠	٥	٥٠	١٣
النسبة المئوية المتوسطة	٠٫٥	٠٫٨	٤٫٥	١٫٨	١٫٧	٣٫٩	٩٫٥	٢٥٫٩	١٧٫٣	١٠٫٨	٣٫٤	١٫١	١٨	٣٣	٠	٤	١٩	١٦

المجـلة	ضد اسرائيل			ضد البلدان الغربية			ضد الاتحاد السوفياتي			متوازن			محـايد			مجموع عدد المواد		
	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣	٥٦	٦٧	٧٣
النيويورك تايمز	٠٪	٠٪	٠٪	٠٪	٪	٤٪	+	٠٪	٤٪	٥٧٪	٢٣٪	٢٩٪	٢٣٪	٨٪	٣٦٪	١٨٧	٢٦	٤٥
يو اس نيوز أند ورلد ريبورت	٣	٢	٠	٦	٢	٠	+	٩	١٣	١٧	٢	٢٣	٢٨	١٩	٣٢	١٠٠	٤٣	٣١
نيشـــن	٠	٠	٠	٣٣	٠	٠	+	٤٠	٠	١٩	٠	٢٩	٢٦	٢٠	١٤	٣١	٥	٧
نيو ريبابليك	٠	٠	٠	٤	٣٣	٠	+	١٧	٥٠	٢٦	٠	١٣	٢٦	٠	٢٥	٤١	٦	٨
نيوزويك	٠	١٥	٢	٢	٤	٠	+	١٥	٢	٣١	٠	٤٢	٤٢	١١	٣٧	١٠٣	٢٧	٤١
تـايم	١	٠	٠	٥	١٠	٠	+	١٠	٠	٤٦	٠	٢٣	٢٤	٠	٤٥	٩٥	١٠	٤٧
النسبة المئوية المتوسطة	٠٫٧	٤	٠٫٦	٤٫٥	٥	١	+	١٠	٦	٣٩	٦	٢٨٫٥	٢٧٫٥	١٢	٣٦٫٣			

* ما عدا العمود الى اقصى اليسار والصف الاسفل ، فان جميع الارقام تشير الى النسبة المئوية (في عدد المواد) من التغطية الصحافية لكل فئة . واذا ما جمعت افقيا ، فان المجموع يزيد على ١٠٠ بالمئة لان المادة نفسها يمكن ان تكون مؤيدة لفريق وضد فريق آخر .

+ لم يوضع فيها تقرير .

الحواشي :

١ — Michel Suleiman, «National Stereotypes as Weapons in the Arab-Israeli Conflict», *Journal of Palestine Studies*, Vol.III, No.3, (Spring, 1974),, pp. 109 - 121.

٢ — أنظر: Yael Dayan, *Envy the Frightened* (London: Widenfeid and Nicholson, 1961).

٣ — لاجل ارقام حول عدد قوات كل جانب عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧ ، أنظر :
John Bagot Glub, *A Soldier with the Arabs,* (London: Hodder and Stoughton, 1957), pp. 94-95; Peter Young, *The Israeli Campaign, 1967,* (London: William Kimber, 1967); and Edgar O'Ballance, *The Arab Israeli War,* 1948 (New York: Praeger, 1957), and *The Third Arab-Israeli War,* (Hampen, Conn.: Archon Books, 1972).

ولاجل روايات مراقبي - الهدنة التابعين للامم المتحدة والمتقاعدين عما يسمى غارات انتقامية وعن العنف العربي — الاسرائيلي بوجه عام ، أنظر :
E. H. Hutchinson, *Violent Truce* (New York: Devin - Adair Co., 1956); Carl Von Horn, *Soldiering for Peace,* (New York: David McKay, 1966), pp. 71-139; E. L. M. Burns, *Between Arab and Israeli* (London: George C. Harrap, 1962).

٤ — تجدر الملاحظة انه في حين أخذ بعض الغربيين في النظر الى الاسرائيليين « كجنود جيدين » او على انهم «مشربون بالروح العسكرية الحربية»، فان الفكرة نفسها لا تنتقل الى اليهود بوجه عام ، أنظر Michel W. Suleiman, «The Middle East in American High School Curricula: A Kansas Case Study», *Middle East Studies Association Bulletin,* Vol. 8, No. 2 (May, 1974), pp. 8 - 19.

٥ — وردت الملاحظة ذاتها في
«A War that Broke the Myths», *News Week,* October 22, 1973, p. 60.

٦ — I.F. Stone, *In A Time of Torment* (New York: Random House, 1967), p. 438.

٧ — أنظر : Terence Smith, «The October War Changed Everything: The First Israeli Revolution», *New York Times Magazine,* (Compact Edition), December 30, 1973, pp. 120 - 121, 129-131.

وقبل ذلك كان المؤلف نفسه قد كتب يقول : « لقد مالوا (أي الاسرائيليون) أكثر فأكثر الى تجاهل العرب بوصفهم جنودا رديئين قد يحسنون معداتهم تدريجيا ولكنهم لن يستطيعوا ابـدا ان يجعلوا من أنفسهم قوة مقاتلة فعالة » . انظر :
«Explosions on Two Fronts», *New York Times,* October 14, 1973, Section E. p. 3.

٨ — لشرح هذه الآراء ، انظر :
Sania Hamady, *Temperament and Character of the Arabs* (New York: Twayne Publishers, 1960); Y. Harkabi, «Basic Factors in the Arab Collapse During the Six-Day War», *Orbis,* Vol. XI, No. 3, (Fall, 1967), pp. 677-691; and, to a Lesser Extent, Morroe Berger, *The Arab World Today* (New York: Anchor Books, 1964). For a Critique of These Views and Others as Well as the «Methodology», Benjamin Beit-Hallahmi, «Some Psychological and Cultural Factors in the Arab - Israeli Conflict: A Review of the Literature», *Journal of Conflict Resolution,* Vol. 16, No. 2 (June, 1972), pp. 269-280.

٩ — «The War that Broke the Myths», *Newsweek, op. cit.,* p. 60.

١٠ — وفقا لرسالة اخبارية نشرتها مجلة **يو اس نيوز أند ورلد ريبورت** ، في ٢٠ تشرين الاول ، ص ٢٧٠ ، فقد « شك الكثيرون من المراقبين العسكريين في حكمة القرار المصري تحطيم وقف النار الذي ابتدأ في آذار (مارس) ، ١٩٧٠ والذي حافظ على سلام ضعيف في الشـرق الاوسط ، **لقد سماها البعض (نزوة انتحارية)**» (التشديد غير وارد في الاصل).

١١ — هذا المفهوم يبدو « غريبا » تماما و « غير منطقي » بالنسبة الى الغربيين . وقد رفض أحد مراسلي **نيوزويك** اعتبـاره « طبيعيا » او « عقلانيا » ، ووصفه بأنه « يأس مفض الى التهور ». كما في الاقتباس التالي : « ربما كان هناك عنصر يأس مفض الى التهور في التحرك العربي . وعندما سئل وزير الخارجية المصرية محمد حسن الزيات اذا كان باستطاعة العرب

الانتصار ، قال : « بصراحة ، كلا ، ولكنك لا تناضل لان النجاح مضمون لك . بل تناضل لانك على حق » . نيوزويك ، ١٥ تشرين الاول ، ص ٤١ .

١٢ — هيربرت كروزني ، مراسل مجلة **نيشن** في اسرائيل ، يكتب في العدد الصادر في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٧٣ من مجلته ، ويستشهد بقول جندي اسرائيلي عن الجنود المصريين : « انهم مجرد سذج مساكين » . ومن ثم يصف السيد كروزني الجنرال الاسرائيلي بأنه ذكي و « مستعد للقيام بتلك المهمة ، مضحيا حتى بالحياة ، بما فيها حياته هو » . وقد فوجيء السيد كروزني بمدى « عمق روح الحب الشديد للبلاد » . والجندي الاسرائيلي ، وفقا لهذه الرواية ايضا ، « يبغض الحرب ... وربما كان كرهه للحرب هو الذي يدفعه الى خوضها على هذا النحو الحسن » . **في نفس المكان** ، ص ٥٥١ . ولا معنى للملاحظة الاخيرة ، حتى كاعتذار عما قد يبدو من « حب للحرب » لدى الاسرائيليين .

١٣ — Richard B. Mancke, «Blackmail by Oil», *New Republic*, October 20, 1973, p. 9.

١٤ — من مقابلة اجراها فرانك جايلز مع غولدا مئير ، **الصنداي تايمز** (لندن) ، ١٥ حزيران (يونيو) ، ١٩٦٩ .

١٥ — أنظر اول خطاب لاسحق رابين كرئيس وزراء لاسرائيل في الكنيست في ٣ حزيران ١٩٧٤، في *Middle East Monitor*, Vol. IV, No. 12, June 1974, pp. 4-6.

١٦ — Michael W. Suleiman, «American Mass Media and the June Conflict», in Ibrahim Abu Lughod, Ed., *The Arab-Israeli Confrontation of June 1967; an Arab Perspective* (Evanston, III: Northwestern University Press, 1970), pp. 138-154.

١٧ — المنهجية Methodology المتبعة في ال الثلاث منصلة في
Michael W. Suleiman, «an Evaluation of Middle East News Coverage in Seven American News Magazines. July-December, 1956», (University of Wisconsin, Madison, M. A. Thesis, 1961).

١٨ — من ١١ افتتاحية (٥ منها في **النيويورك تايمز**، ٣ في **نيشن** ، و٣ في نيو ريبابليك) ، كانت اثنتان نقط (في **النيويورك تايمز**) تنطويان على انتقاد للدول العربية . ولم تتعرض اسرائيل لاي انتقاد .

١٩ — أنظر مجلة **تايم** ، ١٩ تشرين الثاني ١٩٧٣، ص ٨٨—٩٥ ، والافتتاحية في **النيويورك تايمز** ، ٢٨ تشرين الاول ١٩٧٣ .

٢٠ — Stanley Karnow, «Russion Roulette», *New Republic*, October 27, 1973, p. 13.

٢١ — بحث الاسباب المحتملة للتغير في المواقف الامريكية ظهر في مجلة **تايم** ، ٢٩ تشرين الاول ١٩٧٣ ، ص ٥٢ ، ٥٤ ، و**نيوزويك** ، ١٢ تشرين الثاني ١٩٧٣ ، ص ٥٤ .

٢٢ — أنظر **تايم** ، ٢٩ تشرين الاول ، ص ٥٢ ، ٥٤—٥٦ .

رمزية الدلالة في رواية القضية الفلسطينية

صالح ابو اصبع

نعني برمزية الدلالة هنا : تلك المعالجات الجزئية التي استخدمت الرمز ــ من خلال ما يمتلكه من قمة ايحاء ــ ليعمل على توضيح فكرة أو موقف أو للمساهمة في تفسير الرمز العام في الرواية الرمزية الخالصة . وجاءت تلك المعالجات الرمزية جزئية في الرواية ، واكتسبت اهميتها لما في دلالاتها الرمزية من القدرة على توصيل الافكار وتوضيح المعاني والمواقف . ورمزية الدلالة في الرواية لها دوران :

اولا : الدلالة الرمزية التي تساعد على فهم الرمز العام في الرواية الرمزية الخالصة كما جاء في روايتي « الكابوس » و« ستة أيام » .

ثانيا : الدلالة الرمزية التي جاءت تعبيرا عن فكرة او موقف واستعمالها جاء : اما لانها تعبر عن موقف لا يجوز الحديث عليه صراحة لان فيه ما يخدش الحياء والتقاليد مثل الحديث عن الامور الجنسية . كما جاء في « ستة أيام » او جاء تعبيرا عن معان سياسية قد تسيء الى الكاتب او تعرضه لبطش السلطات كما في رواية « أنت منذ اليوم » . وأما ان يأتي الكاتب بالرمز معاونا لتوضيح الفكرة والمعنى وجلاء الموقف . . . مثل ما جاء في (الابتر) و (عودة الطائر الى البحر) و (عرس فلسطيني) و (المزامير) .

والدلالة الرمزية أما ان تكون شفافة سهلة الادراك حيث يقوم الكاتب بتوضيح ابعادها كما جاء في (عودة الطائر الى البحر) و(عرس فلسطيني) أو أن يترك الرمز دون تفسير ولكن دلالاته تكون كافية لتوضيح مراميه ، كما في رواية « أنت منذ اليوم » مثل استخدامه لرموز (هجير) ، (عربي) ، (الزعيم) والنوع الثالث يصبح رموزا أو تهويمات خيالية صعبة الفهم والادراك، مثل بعض استخدامات الرمز في «المزامير».

دلالة الرمز على فكرة او موقف :

استخدمت الدلالة الرمزية لتساعد على جلاء فكرة او موقف في الروايات التالية : ١) الابتر ــ ممدوح عدوان ٢) أنت منذ اليوم ــ تيسير سبول ٣) عودة الطائر الى البحر ــ حليم بركات . ٤) عرس فلسطيني ــ اديب نحوي . ٥) ستة أيام ــ حليم بركات . ٦) الكابوس ــ أمين شنار .

ففي رواية (**الابتر**) تقابلنا الصخرة الغريبة التي ضربت (شروشها) في الارض ويعمل العجوز على اجتثاثها . والصخرة رمز للوجود الاسرائيلي في الارض العربية . واقتلاعها رمز لانهاء هذا الوجود . وبقاء الصخرة في الارض يعني قتل الارض وقتل اراض أخرى . بمعنى آخر وجود اسرائيلي في الاراضي التي احتلتها انما هو تهديد لوجود الوطن العربي كله . « هذه الصخرة اللعينة ، كيف سأرفعها ؟ كان يستطيع ان يدور بالساقية حولها . الا انه حين حسها في البدء بضربتين خفيفتين بالفأس تراءت له سهلة الاقتلاع ، لكنه عمل بها أمس اكثر من ساعة . وها هو اليوم يجهد نفسه بها

دون فائدة . ولم يمل . لن ادور بالساقية حولها . لماذا ابقيها في أرضي واقتل أرضا أخرى بالساقية ؟ »(١).

وتتضح دلالة الرمز حينما يقول : « آه لو كنت شابا . وتذكر الصخرة . لو كنت شابا لرفعت الصخرة . لكنني سأرفعها . هذه الصخرة ضربت شروشها في الارض لانها تركت هناك منذ زمن طويل جاءت من مكان ما . سقطت ، ربما ، من الجبل ثم ساعدها اهمالنا لها على ان تصبح قسما من الارض وعلى ان تعذبني نهارا كاملا »(٢).

فالصخرة اذن غريبة عن الارض ، وأصبحت جزءا من الارض لاهمال أصحاب الارض ، تماما كالوجود الصهيوني ، الذي تسلل الى فلسطين وساعد اهمال الشعب العربي على رسوخه في الارض واستيلائه عليها . وفي (المزامير) رمز يقترب من الصورة السالفة يرينا كيف تسلل اليهود الى فلسطين .

« وساد الصمت ، مرة اخرى ، تذكرنا راشيل . . جاءت منذ ثلاثة أعوام مع اسرتها ، واقاموا في طرف المدينة يصنعون السلال لاصحاب البيارات . ثم مضت الايام ، أقاموا محلا لبيع الحلوى للاطفال ومشروبات للكبار . وانضم اليهم اخرون ، وتاجروا في اشياء كثيرة منها ما يباع همسا لا نسمعه نحن الصغار، وسرعان ما اصبحوا أغنياء يملكون بيارة وسيارة وخمارة »(٣). (فراشيل) اسمها واضح الدلالة كرمز لليهود ، وامتلاكهم للبيارة والسيارة والخمارة ، دليل على صورة الاهمال التي لقيها اليهود في بداية تسللهم الى فلسطين واستيلائهم على أراضيها .

ونلتقي بصورة رمزية لتسللهم الى فلسطين في رواية (الكابوس) التي تعتبرهم غرباء كما كانت الصخرة غريبة عن الارض في رواية (الابتر) « لقد ظهر هذا الرجل في أزقة قريتنا فجأة . لا نعرف من أين جاء ولا نعرف ماذا يفعل في وجه التحديد . ولا نعرف لماذا سكت عنه الشيخ الكبير ولم يطرده ، حتى الان ، كما كان الناس يتوقعون . »

أغلب الظن ان هذا الرجل الغريب قدم من وراء الجبل ، فهو وان كان يتكلم بلساننا ويتقن لهجتنا الا انه ليس منا . يزعم ان اسمه موسى . لكن ما اسم ابيه ؟ وما اسم جده ؟ ولماذا لا يعرف المسنون من أهل القرية أباه وجده ، اذا كان ما يزعمه حقا من أنه من مواليد قريتنا وسافر مهاجرا منها ثم عاد ، لا . لا . . انه كاذب . وروايته هذه مختلقة ، كي يندس بها بين الناس »(٤).

فالرجل الغريب — موسى — هو اليهودي . . واسمه يحوي دلالة بينة ، وهو غريب عن هذه الارض التي يدعي ان له حقا تاريخيا بها .

وفي رواية (الابتر) نلتقي برمز دال على انبثاق فجر جديد للحياة من خلال الموت نفسه كما يقول العجوز في الابتر : « كان عليهم ان يعيشوا قدر ما عشت ليعرفوا الحياة على حقيقتها . . ليعرفوا كيف جاءت ثلجة الاربعين فلم تترك اخضر على وجه الارض وكيف نما الشجر من جديد . المهم أن الجذور كانت ما تزال في التربة »(٥).

ويتحدث (ممدوح عدوان) عن الامل في الانتصار يوما ما . حيث ان الحياة تخرج من حضن الموت . وان الموسم المحروق يصبح سمادا يخصب الارض : « ان الارض المدللة مقهورة ، وانها تلبس الحداد ، التراب باق لن يستطيعوا احراق التراب ، هذا الموسم المحروق سيصبح سمادا وستصبح الارض أكثر خصبا »(٦).

وسبق « حليم بركات » (ممدوح عدوان) في استخدام الرمز نفسه حينما يتحدث حليم بركات عن البلدة المحترقة التي تصبح رمادا ، وكل من الرماد عند حليم بركات ،

والسماد عند (عدوان) يخصب الارض وهذا يعني انبثاق الحياة من الموت ، والنصر من الهزيمة « الضابط يقول ساخرا . . . بعد قليل تتحول الى رماد .

ـــ الرماد يخصب الارض .

ـــ فنستغلها نحن .

ـــ لوقت قصير . ولكن كنت أتحدث عن شيء اخر »(٧).

نلتقي في (**ستة ايام**) بدلالات رمزية أخرى ، فالتخلف الحضاري رمز له بالســـاعة المتوقفة ، منذ زمن في دير البحر ، « عقربا الساعة الكبيرة لا يتحركان »(٨). ويستخدم حليم بركات الرمزية دلالة على الاتصال الجنسي « السارية تنشك في الرمل . يتسلق القمة بوحشية . يتمهل . يجب ان يصلا الى القمة معا . ويقول : نصل الى القمـــة معـــا »(٩).

تقابلنا في رواية (**عرس فلسطيني**) دلالات رمزية . وحينما يســـتنطق اللاجئون (السيل الغادر) الذي جرف المخيم وأطفاله ، وجرف فاطمة مع من جرف . فان السيل الغادر يصبح ليس مجرد طوفان ، يغمر مخيم اللاجئين ، فيجرف اطفالهم . بل يصبح رمزا للوجود الصهيوني كله الذي جرف الفلسطينيـــين من فلسطينهم ، وحـــاول أن يقضي عليهم تماما . وكان ارتباطهم بالارض يمثله ارتباط أم فاطمة هنا ، فتندفع لمنع السيل من تحقيق أهدافه ، فظلت فاطمة باقية رمزا للصمود واصبحت بقايا ثوبها ، هي راية البصاويين أو هي راية اللاجئين ، لانها راية المقاومة . ويحكي لنا السيل كيف ان ام فاطمة انقذت ابنتها فاطمة لتكون رمزا لبقاء الفلسطينيين ومقاومتهم « لكنها كانت قد أصبحت هي والصخرتان صخرة واحدة . قلت القي بثقلي فوق يدها فقط ، حيث كانت تتدلى منها البنت فوق الهاوية ، علني أستطيع اقتلاعها من بين أصابعها . لا فـــائدة . كأنها نبتت هناك ، فجأة ، شجرة ، عمق جذرها في الارض مســافة لم أفهمها . لا يستطيع موجي اقتلاع الاشجار ذات الجذور العميقة باللاجئين . لا يستطيع فهل تقولوا لي من أين نبتت يد المغدورة ، تتحداني طيلة ليلة الطوفان فـــلا أستطيع أن اقتلع جذورها من الارض ، ولا حتى أن اسقط عن غصنها الثمرة ! هل تقولون لي يا لاجئون ، عن المسافة ؟ مسافة ما بين يد ام فاطمة وما بين جذورها، كم تبلغ ؟ لا أعرف لماذا أنني رغم كل جبروتي ، لم أستطع ان اقتلعها من وراء الصـــخور والقي بها الى الوادي ، ولا ان أسقط من غصنها ، الثمرة (١٠). فدلالات الرمز هنا واضحة : السيل الذي يرمز الى العدو الصهيوني ، وام فاطمة تمثل الصمود والمقاومة وفاطمة تمثل الامل والوجود الفلسطيني نفسه . وتتضح دلالة الرمز تماما حينمـــا يفسره لنا الكاتب .

قالوا : نعرفه . فهذا ثوب فاطمة التي كانت تلبسه ليلة الطوفان .

قال : « لا . بل هذه رايتكم يا بصاويون . ومن يد أم فاطمة ، رغم السيل والويل والليل ، لم تسقط الى الوادي »(١١). وفي نفس الرواية نشاهد احتفال عرس فهد ، حيث علقوا ثلاثا وعشرين لمبة كهرباء صغيرة . بعدد سنوات عمر فهد ، ولمبة كبيرة فوق العلم وفوق خارطة فلسطين « فبين العمودين ، مدوا شريطا طويلا . وفي الشريط الطويل ، علقوا ثلاثا وعشرين لمبة كهرباء صغيرة » .

قـــالوا :

بعدد سنوات عمر فهد . فكأننا الليلة ، نحتفل أيضا بعيد ميلاده . وعلى العمود المرتفع . نصبوا العلم ، وعلقوا ، فوق العلم ، في رأس العمود ، لمبة كهرباء كبيرة . . .

كبيرة ... خارطـــة فلســـطين . مرسومة على لوحة كبيرة : انها عربية »(١٢)... وتأخذ اللمبات دلالتها الرمزية ، حينما تبدأ « فاطمة » حبيبة فهد ، باطفاء لمبات سنوات عمر فهد ، وكأنها تطفىء شمعات عيد ميلاده . فما كان من اللمبة الكبيرة ، لمبة العلم وخارطة فلسطين الا ان توهجت . والدلالة الرمزية هنا واضحة : ان انطفاء لمبات عمر فهد ، انطفاء شمعات عيد ميلاده ، وهي في ذات الوقت اضاءة للمبة فلسطـــين الكبيرة ـــ بمعنى اخر : ان استشهاد فهد ، فيه حياة فلسطين .

« لكن احدا من اللاجئين . ولا من الضيوف . ولا من رفاق فهد . كان قد انتبه الى لمبة فلسطين الكبيرة ، التي كانت تزداد توهجا ، فوق الساحة ، كلما انطفأت سنة من عمر فهد . فعندما انطفأت لمبات فهد الثلاث والعشرون ووصلت اليهـــا ، كل طاقة الكهرباء المخصصة لانارة المخيم ، اذ لم يكن احد من اللاجئين ، يستهلك منها اي ذرة من النور . يا سلام ! فانها توهجت . وتوهجت بنور لم يشاهد مثله اللاجئون من قبل ، في هذا المخيم . بنور يشبه الان ، بقوته وتألقه نور النهار »(١٣).

ورواية (**أنت منذ اليوم**) رواية غنية بالدلالات الرمزية وغناهـــا جاء من طبيعة مضمونها السياسي الذي فرض على الكاتب استخدام الدلالات الرمزية امثال عربي ـــ هجير ـــ الزعيم ـــ الحزب ـــ الجنرال .. في الرواية نلتقي مع « عربي » وهو رمز لكل عربي يحكي الراوي لنا عنه احيانا . ويحكي هو عن نفسه ، وعـــن مشاهداته وتجاربه ، احيانا اخرى . وكل ما يحكيه ويشاهده التقطه الكاتب بعناية بالغة . لا يكاد تربطه أي صورة منطقية أو أي علاقة سببية . ولكن الرابط كان غير ذلك ، متمثلا بالحالة النفسية لعربي ، ان الرابط هو الحيـــاة الحقيقية لعربي يعيش حياة امة مهزومـــة .

أنت منذ اليوم قد عمدت حزبيا ، وماذا بعد اليوم ؟ حاول الكاتب بأسلوب الروايـــة الجديدة ان يتحدث عن ذلك التمزق الذي أصاب الامة العربية وتلك المشاكل التـــي صنعت النكسة . هناك ازمة الحزبية وتعصبها . وأزمة الجنس ، وأزمة القيادات التي أعطت أوامر الانسحاب ، أزمة المحارب الذي أصبح له كرش ويسرق عهـــدة الجيش وأزمة الضجيج الاعلامي الزائف . أزمة الانقلابات والانقلابيين الذين يفلسفون كل شيء . وصور لنا أزمة الديمقراطية التي نعانيها . لقد صور الكاتب هنا الانسان العربي ، وهو يعيش الواقع العربي . ان هذا الانسان انسان الانفصال ، وانسان الانظمة المباحثية الارهابية ، وانسان النكسة ايضا . وعربي هو هذا الانسان الذي عمد حزبيا ، في (الاردن) وعاش طالبا جامعيا في هجير (دمشق) بلا قناعات بالحزب . وحينما سقطت الوحدة ، كان يرى عكس ما يراه الحزب . ويعود الى بلده ، ليجد ان حركاته مرصودة من رفاقه في الحزب ، الذين كانوا عيونا للسلطة . ورغم تلـــك الامراض ، تكون فلسطين محورها ، ومحور كل الازمات . ويظل هناك الامل بالنصر والفرحة بالحرب لتغسل عار الامة العربية ، وتحل الهزيمة في حرب حزيران ٦٧ ، ولا يمتلك عربي الا ان يقف ليتفرج ، على مأساة بلاده . اهناك ضعف أقسى من هذا الضعف ؟! الم يكن الانسان العربي جديرا بأن يسقط في بئر اسمه النكسة ؟ . هذا ما تجيب عنه الرواية .

هذا المضمون الثائر الذي يدين الوجود السياسي والاجتماعي العربي كان لا بد للكاتب ان يستخدم الرمز للتعبير عنه ولم يكن بمقدوره ان يقول ما يريده صراحة ، في مجتمعات تخلو من حرية الكلمة ، وليس للانسان فيها كرامة .

أول هذه الدلالات الرمزية كما أشرنا هو اسم بطل الرواية . لقد اختاره الكاتب

ليكون دالا بكل ما تحمل أحرفه من معاني : عربي هذا هو الاسم ، الذي نلتقي بـــه ليتحدث بضمير المتكلم في بداية الرواية ثم يتحدث لنا الراوي عنه بعد ذلك « بينما كان خطباء الحزب يحددون أعداء الامة ويرسمون معالم الوحدة العربية الصحيحة ، جلسا يشربان العرق في البار الصغير الذي ليس أكثر من غرفة شحيحة الضوء . لغير ما سبب واضح يفضل عربي هذا البار »(١٤).

و (**هجير**) هي رمز لدمشق(١٥) والدلالات التي تشير الى ذلك كثيرة ويكفي ان تكون هجـــير هي المدينة التي وقع فيها الانفصال لتكون دالة على دمشق . « وفيما كان عربي يتناول طعام الغذاء ، في مطعم الطلاب الصغير المكتظ، أعلن المذيع ان الانقلابيين سيعارضون الزعيم لتصحيح الاخطاء . ففرح بعض الشعب وابتأس بعض الشعب . وصمت كثيرون غير ان المذيع طالب الناس الا يحزنوا . ووعد بوحدة صحيحة تقوم بين كل العرب »(١٦). و« **الزعيم** » في الرواية هو جمال عبد الناصر الـــذي يقول عنـــه الانقلابيون : (لسنا ضد الزعيم بل ضد الحاشية المستغلة التي قادت الانحراف)(١٧) « في الشوارع حمل بعض الناس صورة الزعيم وساروا : هيك علمنا الزعيم ... الخ »(١٨). وحينما يقع الانفصال يقول الزعيم ، (وفق الله ذلك الشطر الحبيب ... والسلام عليكم ورحمة اللهوبركاته قال الزعيم.وحزن عربي لهذه الجملة الوداعية)(١٩). وفي فقرات مكثفة غنية بالرمز يصف لنا تيسير سبول معركة ١٩٦٧ حيث يقول « لا بل ان الجنرال تكرم واعطى الامان للارواح والاموال . وليس صحيحا ما يروون من ان جنوده قد رموا الى النهر بمكتبة المدينة . وليس صحيحا أن ماء النهر قد اسود ثلاثة أيام بكاملها . هب ان هذا صحيح ، الم يعد ماء النهر صافيا بعد تلـــك الايـــام الثلاثـــة ؟ .

ـــ ثلاثة ايام لا غير »(٢٠).

وترمز هذه الفقرة على قصرها الى عدة مواقف :

اولا : ان العدو متقدم حضاريا حيث ان (جنود العـــدو لم يرموا مكتبة المدينة في النهر) . وعدم قذف المكتبة في النهر ـــ وهذه اشارة الى همجية المغول .

ثانيا : ان الحرب لم تستمر سوى ثلاثة ايام (ثلاثة أيام لا غير) .

ثالثا : ان الحرب لم تؤثر في كياننا العربي (حيث ان ماء النهر عاد صافيا) بعد تلك الايام الثلاثة ـــ أيام الحرب ـــ وكأن شيئا لم يكن .

ولنذهب مع المواطن (عربي) الى الجسر ونشاهد معه بعين فاحصة ما رآه علـــى الجسر المحطم : « على الجسر المحطم كانوا يعبرون . الجندي لم يعبر معهم ، الجندي ميت منذ ثلاثة أيام . الجندي ملقى بكامل ملابسه الرسمية الصفراء بجانب الجسر . حذاؤه الثقيل لا يزال يلمع . ثلاثة ايام . رائحته نظيفة غير ان حذاؤه الثقيل يلمع وجنته على الارض . لم أر عينيه . ربما كانتا مفتوحتين . لم ارهما عندما لا يكون الجندي ميتا يأتي في الظهيرة حاملا البطاطا والبندورة والبصل .

الجسر فوق النهر. لا مزيد من البطاطا . الظهر يأتي والجندي بجانب الجسر »(٢١).

أما رواية (**عودة الطائر الى البحر**)(٢٢) لحليم بركات ، فهي تحمل عنوانا رمزيا ، يفســـره لنا ، عندما يوائم ما بين الهولندي الطائر ، والفلسطيني المهاجر ، وعـــودة الهولندي الطائر ، الى اليابسة بحثا عن حبيبة ، وعودة الفلسطيني المهاجر الى أرضه بحثا عن منقذ ـــ يفشل الهولندي في أن يجد حبيبة مخلصة فيرتد عائدا الى البحـــر ، على أمل العودة مرة اخرى ، للبحث عن حبيبة مخلصة . ويرتـــد الفلسطيني عائـــدا الى منافيه بانتظار المنقذ .

يقول حليم بركات « فجأة يتداعى الى ذهنه ان بلاده هولندي طائر . أصوات الكلاب تشبه أصوات البحارة عندما رأوا البر . أمس كان يصغي لهذه الاوبرا التي استوحاها فاغنر من أسطورة تدور حول سفينة مسحورة لا يمنكها الوصول الى ميناء ، وهي لا تزال تبحر منذ الازل . كان الهولندي الطائر قد اقسم انه سيدور حول جبل تحيط بـه العواصف العاتية . وان اضطر ان يبحر حتى يـوم القيامـة . وغضبت الالهـة أو الشياطين عندما سمعت قسمه فحكمت عليه أن يبحر منفيا الى الابد ولن تحل عنـه هذه اللعنة ما لم يجد امرأة تخلص له حتى الموت . الشياطين لا تؤمن بالمرأة، فسمحت للهولندي الطائر بالعودة الى البر كل سبع سنوات ليبحث عن امرأة تخلص لـه حتى الموت . مسكين هذا الهولندي الطائر في كل مرة زار البر ، كان يعود الى البحر اكثـر بأسا وخيبة . انه اليوم متعب من نفيه وتجواله العبثي اكثر من أي وقت مضى »(٢٣).

هذه هي قصة الهولندي الطائر . وهي تأخذ دلالتها الرمزية اذ تواكب سير احداث القصة فتكون مهمتها هنا توضيح المواقف . فاذا كان الهولندي الطائر يأخـذ فرصـة لايجاد امراة مخلصة كل سبع سنوات فان الفلسطيني المنفي يأخذ فرصة للعثور على المنقذ كلما تعلن حرب جديدة ويمتزج الرمز بالواقع حينما يقول حليم بركات « الحرب اعلنت الان . الهولندي الطائر يرى البر . مرة اخرى يشرق الامل . صخور شاهقـة ترتفع من بعيد . يبدو ان السفينة تستطيع ان ترسو بأمان . أصوات البحارة تشـق السماء اصوات طلاب الجامعة في بيروت امواج صاخبـة تتلاطـم وتتعالى مهللـة للعودة »(٢٤).

وهكذا تحمل قصة الهولندي الطائر في طياتها قصة العربي وحرب ١٩٦٧م . لقـد اعطى العربي فرصة جديدة في حرب ١٩٦٧ لايجاد المنقذ فكان يحمل الامل في النصر ، كما كان الهولنـدي يحمل الامل ، في ايجاد المرأة المخلصة . ولكن الحرب لا تكون في صالحه . والهولندي الطائر حينما ينزل الى البر ، لا يجد المرأة المخلصـة . ويعـود العربي نتيجة ذلك مدحورا ويحمل أملا جديدا ، في فرصة جديدة ، ليجد المنقذ ، ويحقق النصر . كذلك يعود الهولندي الطائر الى البحر ليدور من جديد بانتظار فرصة جديـدة لعله يلتقي بالمرأة المخلصة .

واستخدم الكاتب دلالة الالهة التي غضبت على الهولندي الطائر رمزا للاستعمـار الذي لا يسمح للارادة العربية بالتحرر ولا يرضى لها سوى الخضوع « الالهة لا تريد الهولندي الطائر ان ينعم بالسلم في بلاده . الالهة لا تريد السلم للذيـن لا يخضعون لارادتها . الذين حكموا على الهولندي الطائر بالعذاب الابدي هم أنفسهم الذين حكموا عليه أن ينسلخ عن بلاده وان تنسلخ بلاده عن وجودها ، وتقذفـه فوق البحر نحـو الغرب . الالهة لا ترغب ان يستقل البشر ويتحرروا . تريدهم بلا كبرياء وتقول لهـم ان يتمنعوا عن اكل التفاحة »(٢٥).

ان الاستفادة من هذه الاسطورة بدلالتهـا الرمزية ، واكبه كذلـك استفادة من الموروث الشعبي حيث اخذ قصة « الضبع والعروس » واكسبهـا دلالات رمزيـة ، فالقصة في الموروث الشعبي تحكي بأن هناك عرسا ، وركبت العـروس الحصـان ، وفي الطريق هجم عليها ضبع كبير وخطفها وحملها للمغارة . وينهشها الضبع ، فيسمع عريسها بذلك فيتناول بندقيته ، ويطلق الرصاص على الضبع ، فلا يصيبه . ويخرج الضبع ، ويهاجم العريس ، فيطلق النار عليه ولا يصيبه . ويركض العريس ، ويتسلق شجرة ليحتمي من الضبع . ويقوم الضبع بملامسة الشجـرة . يتبول ويرش علـى العريس ، الذي انضبع . فينزل عن الشجرة ، ويتبع الضبـع الـذي يلطـم راس

العريس بالصخرة فيشج راسه — ويسيل الدم منها ، فيستفيق العريس ويقوم بقتل الضبع وينقذ عروسه(٢٦).

هذه هي قصة الضبع والعروس التي حملها حليم بركات دلالات رمزية حينما يصبح الضبع هو العدو ، والعروس هي فلسطين ، والعريس هــو الشعب الفلسطيني . وحيث جعل خلاص العروس — فلسطين — من قبضة الضبع — العدو — يتم فقــط حينما يسيل دم العريس . بمعنى اخــر ان استرجــاع فلسطين لن يتم الا بالــدم والتضحية . وتصبح الشجرة ملاذ العريس هي الدول العربية ملجأ الفلسطيني ويربط حليم بركات هذا الرمز بالواقع اذ يفسره فيقول : « يفكر رمزي صفدي في بيروت ان فلسطين عروس اختطفتها الصهيونية . حمل الفلسطيني بندقيته في ١٩٤٨ ليسترجع عروسه . اطلق النار . . لم يصب الضبع تاه على وجهه مضبوعا تاركــا عروسه في المغارة . تسلق شجرة الدول العربية مرة ثانية يهاجم الضبع . لا بد لـــه من انقـــاذ العروس . انها عروسه شرعا وحبا . هل يضبع مرة ثانية ويهيم على وجهه »(٢٧).

استخدم (فتحي سلامه) الرمز الدلالي في روايته (**المزامير**) وكان — الغموض — العلامة المميزة له . اذ يكتنف جوانبه ، وبدلا من ان يأتي رمزه دلالة لتوضيح موقــف او فكرة وهو فعلا قصد جلاء مواقف نفسية لشخصية البطل — فان رموزه فشلــت فشلا ذريعا في تحقيق هذا الهدف . وكانت من أول الثغرات في بناء روايته كما سبــق وأشرنا . وأصبحت رموزه ليست الا مجرد تهويمات خيالية ، واحلام متعددة ، تقترب تماما من معاني الرمز في الشعر فاذا كانت « غاية الشعراء الرمزيين هي تجميع الالفاظ لا حسب المنطق لتحقيق معنى يفهمه الجميع ولكن وفق الحس الشخصي Sensation لاظهار انفعالات نفس الشاعر وحده . فهو لا يدرك الاشياء الا بالحس كما انه لا وجود لها بالنظر الينا الا بالحس ايضا »(٢٨) ، فان فتحي سلامه استخدم الرمز بمثل هــذا المعنى حيث نجد ان القطع الرمزية في الرواية ينطبق عليها وصف اسماعيل رســلان للرمزية الشعرية اذ يقول : (والقطعة الرمزية تنبسط في جو مبهم ليس من وضـــوح العقل بل من حالة حس مؤثر ، حيث الانفعالات والافكار توحي الواحدة بالاخرى بدلا من أن نعللها ونشرحها ، وهذا النوع من الايحاء الموسيقي الموزون لحالات النفــس الروحية »(٢٩). وهناك فارق بين ما يصفه (رسلان) في القصيــدة الرمزية . ومــا نعالجه هنا في الادب الروائي ، ودلالاته الرمزية .

ان التهويمات الخيالية التي لا نستطيع تفسير دلالاتها الرمزية كثيرة في (**المزامير**) حتى أفسدت البناء الروائي غير الرمزي الــذي كان عمــاده الاساسي الحدث . وفي الرواية احاديث طويلة وعديدة عن النسور والحيتان والدببة والافاعي والثعالب والفيلة والديدان والرخ . . وكلها لم توضح المواقف النفسية كما قصد الكاتب ولكنها جعلتنــا نتساءل ماذا يقصد الكاتب ؟ خذ مثلا حديثه عن الدببة والنسور والافاعي . . . الــخ حينما يقول : (عرفت معنى ان يكون الانسان لاجئا . لم تلعق الدببة وجهي ؟ ونسور جوعى تنهش لحمي وافاعي وجيش الحشرات ، وقنابل ومدافع تصرخ تتلوى ، ودماء تجري انهارا . . . لم انا لاجيء ؟ »(٣٠).

وخذ هذه الفقرة ايضا .

« — برعي مات .

صرخ الرعب في قلبي ، ارتفع عويل النساء ، سقطت من عيني ، دمعة . غطــت الضوء ، رأيت ظلاما ، وفي الظلام لمحت بئرا ، في البئر ثعبان يتلوى ، ارتطم بجــدران

البئر ، صرخ الثعبان وبكى في حزن ، ارتفع الدم الى راسي ... قدري منحوس ، من أحببته مات ، وقبله مات الحجر الابيض الراقد امام دارنا ، وارتفع الثعبان الى أعلى الجدران ، نظر الي في صمت خيل الي انه يقول شيئا او ربما سمعت صوتا آخر يأتي من بعيد ، قال الصوت : اقتل من قتله وادفع سكينا في صدره ليسيل دمه ، لتمسح به رأس المقتول ، ربما يساعده ذلك يوما ما »(٣١).

ولست افهم ماذا يقصد بالبئر وبالثعبان وبالحجر الابيض الذي مات ، والثعبان الذي يصرخ يبكي في حزن !؟

وفي الرواية نلتقي بدلالات رمزية نستطيع ان نفهمها اذ تساعد على جلاء المواقف ومنها حديثه عن الفيل وهو يمثل العدو ، والكلب الاجرب — ويرمز به للخائن — والقطة وترمز للشعب الفلسطيني ومن خلال اركان الرمز هذه يمكن ان نفهم القصة التالية : « وكان الويل للباقين على قيد الحياة ، ان كل جريمتهم في نظر اليهود انهم بقوا احياء ، ويقترب كلب اجرب يركب فيلا ، الفيل ضخم الجسم ضعيف العقل ، شرير النية ، لا يفهم الا عن طريق نابه ، والكلب الاجرب هزيل ضامر ، ولكنه يجلس فوق الفيل ويضع فمه في اذنه ، ويرى الكلب وهو في برجه الامن فوق الفيل قطة تلعق طبقا من اللبن ، فيهتاج الكلب الاجرب ، ولكنه اضعف من أن يهاجم القطة ، فيهمس في اذن الفيل ضعيف العقل .

— هذه القطة تسبك .

ويتحرك الفيل لكي يدوس القطة بقدمه العريضة الثقيلة ، ولكن القطة تفر هاربة ، ويغضب الكلب لنجاة القطة ، فيعض اذن الفيل حتى تدمى ويقول له : ها هي تقذفك بالحجارة حتى ادمت اذنيك ... ويثور الفيل ، فقد جرؤ كائن ضعيف وقذفه بالحجارة، وينطلق باحثا عن القطة التي فرت هاربة الى بيتها تحتمي به ، ولكن الفيل ضعيف العقل الدامي الاذن يهدم البيت ويبعثر محتوياته ويقذف القطة في شراسة فتسقط في حفرة تتألم وينزف جسدها دما ، والكلب الاجرب سعيد حيث هو على ظهر هذا الفيل ضعيف العقل »(٣٢).

وهناك رمز واضح الدلالة حيث تكون الارانب هي رمزا للفلسطينيين والتنين رمزا للعدو(٣٣). ان استخدام الرمز في هذه الرواية افسدها واضر ببنائها . بدلا من أن يخدمها ، كما جاء في الروايات الاخرى ، التي اشرنا اليها . وبينما جاء في تلك الروايات ليخدم الفكرة أو الموقف . فانه في — المزامير — في احيان كثيرة — جاء وكأنه رمز من اجل الرمز ليس الا .

والخلاصة : ان الدلالة الرمزية قد جاءت في الرواية اما لتخدم الرمز العام وتوضحه في الرواية الرمزية الخالصة كما جاء في روايتي (الكابوس) و (ستة ايام) واما لتوضح فكرة او موقفا برموز واضحة الدلالة بل ومفسرة أحيانا كما جاء في (عرس فلسطيني) و (عودة الطائر الى البحر) و (أنت منذ اليوم) و (الابتر) . أو أن هناك رموزا جاءت كتهويمات خيالية غامضة كما في رواية (المزامير) . وقد استخدم الكتاب الدلالة الرمزية لثلاثة اهداف : اولا : لما يحمله الرمز من قدرة على الايحاء وتوصيل الفكرة وتوضيح الموقف كما جاء في جميع الروايات السابقة . ثانيا : لتحميلها مضامين سياسية لا يستطيع الكاتب البوح بها صراحة مثل ما جاء في رواية (انت منذ اليوم) . ثالثا : او للتعبير عن مواقف جنسية يخجل الكاتب التعبير عنها صراحة كما في رواية (ستة ايام) .

الحواشي :

١ ـ **الابتر** ، ص ٢٦ .
٢ ـ **الابتر** ، ص ٦٦ .
٣ ـ **المزامير** ، ص ١٨ .
٣ ـ **الكابوس** ، ص ١٣ .
٥ ـ **الابتر** ، ص ٢٤ .
٦ ـ **الابتر** ، ص ٧٥ .
٧ ـ **ستة ايام** ، ص ٢٣١ .
٨ ـ **ستة ايام** ، ص ٢٥ .
٩ ـ **المصدر نفسه** ، ص ١٤٥ .
١٠ ـ **عرس فلسطيني** ، ص ٥٣ .
١١ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٦٣ .
١٢ ـ **المصدر نفسه** ، ص ١٥ ـ ١٦ .
١٣ ـ **المصدر نفسه** ، ص ١١٦ .
١٤ ـ **أنت منذ اليوم** ، ص ٩ ـ ١٠ .
١٥ ـ اعتبر (غالي شكري) ان هجير رامزة لكل العواصم العربية حيث يقول (وهو يختار للوطن العربي عاصمة ، رامزة لكل العواصم هـي (هجير) المترامية ـ دوما ـ على أطراف الصحراء ، كل ما فيها من بشر واحداث واشياء محكوم عليها كذرات الرمال كلما هبت عليهـا الرياح من أي اتجاه كان) ، مجلة **الطليعـة** العدد الثامن ، اغسطس ١٩٧١ ، ص ٤٤ . والحق ان الدلالة الرمزية واضحة تماما عـلى عاصمة محددة وهي دمشق التي لو خرجت من الجامعة فانك ستقابل المتحف وبعدها نهر بردى، أنظر **أنت منذ اليوم** ، ص ٢٤ .
١٦ ـ **أنت منذ اليوم** ، ص ٣٢ ـ ٣٣ .
١٧ ـ **أنت منذ اليوم** ، ص ٣٢ـ٣٣ .
١٨ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٣٢ .
١٩ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٣٣ .
٢٠ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٤٦ـ٤٧ .
٢١ ـ **أنت منذ اليوم** ، ص ٤٦ـ٤٧ .
٢٢ ـ نعيش في رواية « عودة الطائر الى البحر » من خلال وعي « رمزي » تجربة انسان مثقف يعيش بعيدا عن المعركة . فيرصد لنا جانبين . اولا : الانســان العربي بعيـدا عن المعركة ، وما يعانيه من تمزق نفسي وضياع ، وامراض ، وما يمتلكه رغم ذلك من أمل في النصر . ثانيا : الانسان العربي داخل المعركة في مواجهته للعدو بوجهيه ، الوجه الاول المشرق الصامد المتمثل بطيبة كنعان وعزمي عبد القادر الذي (سيحارب بنفسه، وسيحارب ولو وحيدا)، ص٧ . والوجه الآخر الجبان المضبوع الذي لا يمتلك الا الفرار في مواجهة العسف الاسرائيلي وقنابله وطائراته (كل شيء يتفكك وينفصل . لا روابط . الاقدام تتراكض . لا أحد يسيطر على أحد ، لا أحد يسيطر على نفسه . أمواج النازحين تتدفق من القدس والجليل ورام الله وغيرها عبر أريحـا الى الجسر . يزداد الذعر . مخيمات النويعمة وعقبة جبر وعين السلطان فرغت من سكانها . تتحول الى قبور صامتة) ، ص ٧٢ .
٢٣ ـ **عودة الطائر الى البحر** ، ص ٢٨ـ٢٩ .
٢٤ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٣٠ .
٢٥ ـ **عودة الطائر الى البحر** ، ص ٦٢ ، أنظر الى قصة الهولندي الطائر بدلالاتها الرمزية : أ ـ الامل في العودة . ولقاء المرأة المخلصة صفحات ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٤٠ . ب ـ خيب أمله حينما واتته الفرصة ولم يجد الشيء ، صفحات ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٨٩ . جـ ـ عودته الى البحر ثانية ، صفحات ١١٢ ، ١٤٠، ١٦١ .
٢٦ ـ **عودة الطائر الى البحر** ، صفحات ٢٦ ـ ٢٧ .
٢٧ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٢٧ ، أنظر ما يتعلق بقصة الضبع والعروس ودلالتها الرمزية ، صفحات ٧٠ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١١٣ .
٢٨ ـ اسماعيل رسلان، **الرمزية في الادب والفن**، القاهرة (د.ت) ص ١١ .
٢٩ ـ اسماعيل رسلان ، ص ١٢ .
٣٠ ـ **المزامير** ، ص ٤٠ .
٣١ ـ **المزامير** ، ص ٥١ ـ ٥٢ . كذلك أنظر الى الرموز غير المفهومة ، صفحات ٢١، ٢٧، ١٤٣، ١٤٤ ، ١٩٠ .
٣٢ ـ **المزامير** ، ص ٨٤ .
٣٢ ـ **المصدر نفسه** ، ص ص ٧١ ـ ٧٢ .

اثر قيام اسرائيل على وضع المنظمة الصهيونية العالمية

الدكتور كميل منصور

لا يخفى على أحد اهمية الترابط العضوي بين دولة اسرائيل والصهيونية العالمية التي تسعى الى جر الطوائف اليهودية خلف اهدافها الاستعمارية في منطقتنا العربية . وهذا الترابط يميز دولة اسرائيل عن اية دولة اخرى في العالم ، اذ يطغى على ايديولوجيتها وعلى سياساتها ويزيد من قوتها ومن طاقاتها . وكثيرا ما ندد المناضلون العرب بهذا الترابط معتبرين اسرائيل تارة كاداة في يد الصهيونية العالمية ، او على العكس ، متهمين الصهيونية بأنها اداة في يد اسرائيل .

من البديهي اننا في حاجة الى اكثر من هذه المقولات العامة وانه يتوجب علينا تكوين فكرة واضحة ومفصلة عن نوعية العلاقات بين الحركة الصهيونية ودولة اسرائيل : من يملك السلطة والمبادرة ؟ من يدفع ومن يستفيد ؟ كيف يؤثر كل فريق على الاخر ؟ ما هي قواعد (وضوابط) الصراع من اجل السلطة ؟ اي كيف تتحكم المصالح والايديولوجية بهذا الصراع ؟

ان الفترة التي يتوجب البدء بها للاجابة على هذه الاسئلة تقع دون ريب في السنوات التي رافقت خلق دولة اسرائيل : اذ في هذه الفترة بالذات تبلورت نوعية العلاقات بين الدولة الجديدةوالحركة الصهيونية العالمية بشكل طغى الى حد بعيد على الفترة اللاحقة حتى اليوم . اما بالنسبة الى عهد ما قبل الدولة ، فيبدو واضحا ان المنظمةالصهيونية العالمية كانت **السلطة الوحيدة** التي انيط بها ارساء « الييشوف » (التجمع اليهودي في فلسطين) وخلق الدولة الجديدة من جهة ، وتسخير امكانات يهود العالم من جهة اخرى .

ثمة ملاحظات منهجية تجدر الاشارة اليها قبل بدء البحث :

ــ سوف لا نتحدث مباشرة عن تبعية الصهيونية للامبريالية ــ وخاصة الاميركية ــ لانها بكل بساطة لا تدخل ضمن بحثنا . فعندما سنقول في معرض دراستنا ان اسرائيل بحاجة الى « الدياسبورا » (يهود « الشتات ») ، يجب الا يعني ذلك ان بقاء اسرائيل يتوقف على الدياسبورا اذ نعتقد ان الامبريالية هي العنصر الاكثر فعالية في تدعيم اسرائيل .

ــ ان هذه الدراسة التي تتناول تاريخ الماضي القريب لا يمكن ان تكون تهليلا وتمجيدا للحركة الصهيونية بحجة نقل (علميا !) ادعاءات زعمائها حول انجازاتها وقدراتها الهائلة وتنظيمها الدقيق ! فنحن لسنا بمؤرخي الصهيونية « المعتمدين » ولا يهمنا عدد المندوبين الى هذا المؤتمر او ذاك او التفاصيل التنظيمية للمنظمة الصهيونية او للوكالة اليهودية (او الفروق بينهما) ... الا بقدر ما تعبر عن قوى ومصالح ومناقشات ايديولوجية او ما تلزم للفهم . فدراستنا تهدف فقط الى فهم جانب من حقبة قريبة لا تزال تؤثر بشكل مباشر على التاريخ الحاضر . لذا حصرنا اهتمامنا **بالقوى الفاعلة** على الساحة الصهيونية في الفترة المدروسة (١٩٤٨ ــ ١٩٥٢) ، هذه القوى التي لا تزال تفعل في الحاضر على الساحة ذاتها . فيهمنا اذا لتفاعل وتصارع وتحالف هذه القوى

غداة اقامة اسرائيل ضروري كي نفهم الاوضاع الاسرائيلية — الصهيونية — اليهودية الحاضرة ونرسم سياستنا النضالية (كثورة معادية للصهيونية) على اساس موضوعي .

فليس علينا كبعض الكتاب العرب — لسوء الحظ — ان نكتب تاريخ الصهيونية مثلما يكتبه الصهيونيون بحجة الامانة العلمية ، اذ قد يكفي في هذه الحالة ان نضع يدنا على بعض المؤلفات الصهيونية القيمة (وهي كثيرة) التي تتناول تاريخ الصهيونية ونسعى الى ترجمتها من العبرية او الانكليزية ! فالماضي — شأنه في ذلك شأن الحاضر — بحاجة الى **تحليل نقدي دقيق والذي لا يعني بأي شكل من الاشكال تحوير التاريخ حسب العاطفة او الموقف الايديولوجي المسبق** ، بل يعني استقصاء الخلفيات الاقتصادية ، الاجتماعية ، الايديولوجية ، النفسية للتصريحات واللوائح الداخلية والمواقف والاحداث ، فهي تفهمنا معناها ومغزاها ومداها وتربطها ببعضها البعض في السببية التاريخية . ونأمل من جهتنا اننا تمكنا — ضمن هذا المنهج — من استغلال المعلومات (الجزئية والناقصة في بعض الاحيان) التي جمعناها من مكتبة مركز الابحاث .

ويمكن للقارىء الذي يريد التعرف الى اجهزة المنظمة الصهيونية ان يرجع الى كتاب اسعد عبد الرحمن « المنظمة الصهيونية العالمية — تنظيمها واعمالها (١٨٩٧ — ١٩٤٨) » وهو صادر عن مركز الابحاث . اما أسعد رزوق الذي عالج موضوعنا بالذات في شؤون فلسطينية (العددان ٢٠ و ٢٢) ، فانه يفعل ذلك بمنظار اخر وقد اعتمدنا على ترجمته الى العربية لبعض الوثائق الصهيونية — الاسرائيلية كما سيلاحظ القارىء في نهاية الدراسة .

١ — دور المنظمة الصهيونية قبل ١٩٤٨ :

كانت الوكالة اليهودية ، طيلة عهد الانتداب البريطاني على فلسطين ، البنية المعترف بها « رسميا »(١) لتنظيم جهود اليهود المهتمين بانشاء « وطن قومي يهودي » في فلسطين ، ولتمثيلهم والتحاور باسمهم مع السلطة المنتدبة في سبيل تحقيق هذا « الوطن اليهودي » . وقد تضمن صك الانتداب المصدق عليه من قبل عصبة الامم عام ١٩٢٢ في المادة الرابعة ما يلي : « يعترف بوكالة يهودية ملائمة كهيئة عمومية لاسداء المشورة الى ادارة فلسطين والتعاون معها في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الامور التي قد تؤثر في انشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين ولتساعد وتشترك في ترقية البلاد على ان يكون ذلك خاضعا دوما لمراقبة الادارة . يعترف بالجمعية الصهيونية كوكالة ملائمة ما دامت الدولة المنتدبة ترى ان تأليفها ودستورها يجعلانها صالحة ولائقة لهذا الغرض ويترتب على الجمعية الصهيونية ان تتخذ ما يلزم من التدابير بعد استشارة حكومة صاحب الجلالة البريطانية للحصول على معونة جميع اليهود الذين يبغون المساعدة في انشاء الوطن اليهودي »(٢).

هل هناك فرق بين المنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية التي أوصى الانتداب البريطاني بانشائها ؟ لقد انبثقت الثانية عن الاولى رسميا عام ١٩٢٨ ولكنها تطابقت معها بشكل كامل عام ١٩٤٧ . كان المراد من الوكالة اليهودية الايحاء بأن جميع يهود العالم مهما كانت ايديولوجيتهم يؤيدون الحركة الصهيونية عن طريق اشراك « اللاصهيونيين » في المهمات الصهيونية المنوطة بالوكالة . و« اللاصهيونيون » هم الافراد اليهود (او الجمعيات) الذين لم ينخرطوا تحت لواء المنظمات الصهيونية الرسمية ، بل يؤيدون عمليا برامجها ومشروعاتها . ولكن يبدو ان اللاصهيونيين لم يهتموا جديا بالمشاركة في الوكالة وعلى كل حال ان دستور الوكالة نفسه صيغ بشكل يبقي السلطة الفعلية بيد المنظمة الصهيونية التي كانت تمنح نفسها صلاحية تعيين اللاصهيونيين في الوكالة . ثمة فرق ربما بين المؤسستين : كانت المنظمة الصهيونية تستند على قاعدة عريضة من الاعضاء المنتشرين في التجمعات اليهودية في العالم وفي الوقت ذاته كان لديها اجهزة (المؤتمر الصهيوني ، المجلس الصهيوني العام ، اللجنة التنفيذية) تخطط وتقرر وتضع السياسة العامة للمنظمة في المجالات الداخلية والخارجية . أما الوكالة فكانت — كما تشير تسميتها — مجرد ذراع تنفيذي للمهمات العملية التي كانت توكلها اياها المنظمة الصهيونية اي : الهجرة ، الاستيعاب ، الاستيطان الزراعي، الاستثمار الاقتصادي . والجهاز المكون لها كان فقط جهازا اداريا من الموظفين يتقاضون رواتب

وينفذون أوامر . من الواضح ان هذا الفرق بين المؤسستين يعزز ما قلناه حول خضوع الوكالة للمنظمة الصهيونية(٣). ولذلك سوف لا نميز بينهما في دراستنا (الا اذا اقتضى الامر) .

ان صك الانتداب وتاريخ فلسطين **حتى عـام ١٩٤٨** يؤكد ان **المنظمة الصهيونية العالمية قادت بالفعل العمل الصهيوني في جميع مجالاته** . ليس هدفنا هنا استعراض تاريخ المنظمـة الصهيونية وتركيبها قبل عام ١٩٤٨ ، بل نود التأكيد على عدة سمات بارزة فيما يخص دور المنظمة ومكانتها خلال الانتداب البريطاني على فلسطين .

رغم ان التجمع اليهودي في فلسطين (الييشوف) طور باكرا اجهزته التمثيلية الخاصة به ، الا انه كان خاضعا لقيادة المنظمة الصهيونية العالمية ــ الوكالة اليهودية . كانت المنظمة مسؤولة ليس فقط عن رسم السياسة العامة للصهيونية وعن النشاطات الجارية خارج فلسطين (تجنيد يهود العالم ، تنظيم الهجرة ، جمع الاموال ، ممارسة الضغوط على الحكومات المختلفة ...) بل أيضا عن جميع التدابير المتعلقة بالاستيطان اليهودي في فلسطين (الاستيلاء على الاراضي وتوزيعهـا ، استيعاب المهاجرين ، النشاط الاقتصادي ، النشاط العسكري ــ الهاغاناه ــ ...) . اما « الفاعاد لئومي » (المجلس الملي العام)(٤) الذي مارس صلاحياته من عام ١٩٢٠ حتى تأليف الحكومـة الاسرائيلية المؤقتة في أيار ١٩٤٨ ، فكان بموجب « قانون تنظيم الطوائف الدينية » الصادر في ١ كانون الثاني ١٩٢٨ يمثل الطائفـة اليهودية في فلسطين امـام ادارة الانتداب ، ويدير شـؤون الطائفة (بالتعاون مع المجلس الرباني) ويحفظ سجلات الاحوال الشخصية(٥). ولكن رغـم ان الفاعاد لئومي تعدى بالفعل الصلاحيات المنوطة عادة بمجلس ملي خاص بطائفة دينية ، الا انه لم ينافس الهيئة التنفيذية للمنظمـة الصهيونية ــ الوكالة اليهودية .

لماذا لم يحدث صراع مـن اجل السلطة بين الفئات التي كانت تمثل الصهيونية العالمية وتلك التي كانت تمثل المستوطنين في فلسطين قبل ١٩٤٨ ؟ يبدو ان عدة اسباب ساهمت في حصر التناقضات الى أقصى حد :

أ ــ كان الييشوف بحاجة شديدة الى الدياسبورا من جميع النواحي . كان على الاستيطان اليهودي الناشىء والضعيف والقليل العدد والامكانيات ان يعتمد كليا على المنظمة الصهيونية العالمية من حيث اثبات الوجود (العسكري والسياسي والديبلوماسي) والتفاوض مع الحكومات والهيئات الدولية ، ومن حيث الامداد بالمال والرجال والسلاح . فما كان بمقدور الييشوف ــ حتى وان أراد ــ أن يملي الشروط على قادة المنظمة . والجدير بالذكر ان قادة المنظمة القاطنين في « الخارج » لم يشعروا البتة بخطر المنافسة ، بل على العكس ، منحوا كل صهيوني مقيم في فلسطين صوتين بدلا من واحد في الانتخابات الخاصة باختيار المندوبين للمؤتمـر الصهيوني .

ب ــ كان على الصهيونيين تقديم **محاور وحيد** للدولة المنتدبة (ومن ثم للولايات المتحدة والامم المتحدة) . وكون المنظمة المحاور الوحيد لم يكن يناقض طبعا توزيع الادوار حسب الحاجات المحلية: الاسلوب الديبلومـاسي للمفاوضين الصهيونيـين (كتعيين قياديين موالين لبريطانيا مثل وايزمان) ، التنظيم والعمل التخريبي للمستوطنين ، الضغط السياسي والنشاط الاعلامي التحريضي للجمعيات الصهيونية المختلفة في « الشتات » . كان على الصهيونيين في جهدهم لخلق الدولة المستقلة ان يزعموا انهم يمثلون ليس فقط المستوطنين «بالفعل»، بل أيضا المستوطنـين « بالقوة » اي كل اليهود الذين يدعون ان لهم الحق في الاستيطان بموجب صك الانتداب ولكنهم لا يقدرون على ذلك بسبب العراقيل التي توضع في وجههم .

ج ــ كان الصراع داخل المنظمة الصهيونية لا يجري على اساس الانتماء الجغرافي ، بل حسب التكتلات الحزبية التي كانت تتعدى غالبـا البلد الواحد (رغم انه سيبدو فيما بعد أن قوة حزب العمال في اسرائيل وقوة الصهيونيين العموميين في الولايات المتحدة لعبتا دورا هاما في تأزيم الموقف داخل المنظمة) .

د ــ يجب القـول أخيرا انـه مقـابل ضعف الييشوف ، برزت قوة صهيونيي الخارج ، وبالتحديد قوة الصهيونيين الاميركيين . هذا أمر معروف . ليست صدفة ان يكون للصهيونية البريطانية تأثير فعال عندما كانت بريطانيا الدولة الفاعلة في المنطقة وعلى الصعيد العالمي . وليست صدفة مـن ثم

وأيضا أن تكتسب الصهيونية الامريكية نفوذا بالغا عندما بدأت اميركا تحتل محل بريطانيا في العالم والمنطقة . على كل حال ، ليست فقط القوة الذاتية للصهيونية الاميركية (او البريطانية من قبل) التي اكسبتها دورا عالميا ، بل ايضا وبشكل رئيسي النفوذ العالمي للدولة التي تنتمي اليها (اميركا ومن قبل بريطانيا) . فقد كانت الصهيونية الاميركية عن طريق ضغوطها الناجحة على الادارة تضاعف من قوتها التأثيرية على الاحداث الخارجية(٦). من هنا اهمية الدور الذي لعبته الصهيونية الاميركية في خلق دولة اسرائيل منذ مؤتمر بلتيمور (نيويورك) عام ١٩٤٢ حتى قيام الدولة في ١٥ ايار ١٩٤٨ ، الى حد جعل الصهيونيين الاميركيين يشعرون ان نفوذهم (لدى الادارة وفي أروقة الامم المتحدة) ومالهم (التبرعات المرسلة الى فلسطين) هما اللذان خلقا دولة اسرائيل . من المفيد هنا ان نورد ما كتبته مجلة صهيونية اميركية عام ١٩٥١ وهي تجري مقارنة بين شعور الصهيونيين الاميركيين في ذلك الوقت (وسنتحدث عن هذا فيما بعد) وشعورهم حتى عام ١٩٤٨ : « من المشكوك فيه ان يعي أصدقاؤنا في اسرائيل اليوم طبيعة الازمة ومداها . لقد كان الصهيونيون في الشتات لعشرات السنين يعتزون بالمفهوم الهرتزلي القائل بأنهم والحركة التي يخدمونها جزء من الدولة اليهودية في طور التحقيق (Der Judenstaat Unterwegs).

لقد كانوا من الوجهة الفردية والجسدية في الشتات ، ولكنهم كانوا جماعيا وروحيا في صهيون. كانوا ينتخبون مندوبين الى المؤتمر — « برلمان اليهود » — والذي كان من المقرر ان يتخذ من القدس مقرا له ... انهم تغلغلوا في الطوائف اليهودية ، مدخلين العلم الصهيوني ، النشيد الصهيوني ، الثقافة العبرية ، طريقة الحياة الصهيونية . وقد اكتتبوا وباعوا سندات البنك الصهيوني الذي هو اليوم بنك اسرائيل القومي . وأنشأوا الصناديق القومية وأداروها عبر ممثلين منتخبين واشتركوا في التخطيط للاستيطان وللتطور الاقتصادي للوطن القومي ... ومرارا سنوا بالفعل قوانين اليشوف (...) وقد بلغت الذروة ربما عندما ظهر اعضاء اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية في الامم المتحدة في « ليك سكسس » بصفتهم ممثلين معتمدين ليس فقط لليشوف ، بل للشعب اليهودي »(٧).

لا غرابة اذا ان تكون المنظمة الصهيونية العالمية هي التي أعلنت تأسيس الدولة اليهودية في فلسطين في نيسان ١٩٤٨ (وليس « الفاعاد لئومي » — المجلس الملي العام — الذي كان يمثل يهود فلسطين فقط) . فقد اعلن المجلس الصهيوني العام المنعقد في تل أبيب بين ٦ و ١٢ نيسان ١٩٤٨ ما يلي : « لقد قررنا ، استنادا الى **سلطة الحركة الصهيونية** والى تأييد الشعب اليهودي بأسره ، ان يكون انتهاء الحكم المنتدب نهاية الحكم الاجنبي في فلسطين وان تظهر الى الوجود الهيئة الحاكمة للدولة اليهودية »(٨). اما بن — غوريون الذي أعلن قيام الدولة في ١٤ أيار ، فقد فعل ذلك باسم التجمع اليهودي في فلسطين **وبالوقت ذاته** باسم المنظمة الصهيونية اذ تقول « وثيقة الاستقلال » لدولة اسرائيل ما يلي : « وبناء عليه ، نجتمع هنا نحن اعضاء مجلس الشعب ممثلو **الطائفة اليهودية في أرض اسرائيل والحركة الصهيونية** في يوم انتهاء الانتداب البريطاني على ارض اسرائيل وبفعل حقنا الطبيعي والتاريخي وبقوة القرار الصادر عن الجمعية العامة للامم المتحدة نجتمع لنعلن بذلك قيام الدولة اليهودية في ارض اسرائيل والتي سوف تدعى « دولة اسرائيل » »(٩).

كان من الضروري التشديد على هذه النقاط حتى وان بدت بديهية ، غير ان الاحداث اللاحقة لخلق اسرائيل دلت على انها ليست بالضرورة من المسلمات: هل كان للمنظمة الصهيونية العالمية ان تظل بالفعل السلطة التي تسيطر على زمام الامور في اليشوف والدياسبورا ؟ ما كانت العلاقات المرتقبة بين المنظمة والدولة الجديدة ؟ وبشكل جوهري : ماذا عن مستقبل الايديولوجية الصهيونية بعد قيام اسرائيل ؟ للاجابة على هذه الاسئلة ، يتعين علينا استعراض تطور الاحداث بمناسبة اقامة الدولة ودراسة الاطراف الفاعلة في الميدان الصهيوني .

٢ — فصل أجهزة الدولة عن المنظمة :

ان الخطوات التي اتخذت على صعيد توزيع المهام التنفيذية بين نيسان وأيلول ١٩٤٨ تعطي بعض المؤشرات الاولية لاسس العمل الصهيوني اللاحق . اذ جرى في هذه الفترة نقاش حاد بين الاطراف الصهيونية (وخاصة بين صهيونيي فلسطين وصهيونيي الولايات المتحدة) حول مسألة اعتماد « مبدأ الفصل » (هفرادا) بين السلطات . فقد

تطلبت الظروف الجديدة الناجمة عن احتمال قيام الدولة تكوين هيئات جديدة تستطيع الادعــاء في الوقت اللازم على المسرح الدولي (بغية انتزاع الاعتراف السريع) بأنها الاجهزة الرسمية للدولة المزمع خلقها (أي « البرلمان » و« الحكومة ») . فأعلن المجلس الصهيوني العام في شهر نيسان تشكيل « مجلس الشعب » (موعيتسيت هاعم) و« ادارة الشعب » (اي الهيئة التي ستسمى في ١٥ أيار « الحكومة الموقتة ») على ان تكــون الهيئتان منبثقتين عن « الفاعاد لئومي » و« اللجنة التنفيذية » للمنظمة الصهيونية .

يبدو ان جميع الاطراف في الحركة الصهيونية اجمعت على ضرورة تكوين هذه الاجهزة التي ترمز الى تحول الصهيونية من « حركة » الى « دولة ». بيد انه كان واضحا ان خلق الدولة من شأنه ان ينقل أيضا مركز السلطة والنفوذ من الصهيونية العالمية الى التجمع الاستيطاني في فلسطين وان يفقد الصهيونيين الاميركيــين بنوع خاص دورهــم الطليعي في اتخاذ القرارات . ويبرز مؤشران على ذلك :

— لم تضم الاجهزة الجديدة الا اشخاصا كان يقع محل اقامتهم الدائم في فلسطين . فاذا اخذنا مثلا « ادارة الشعب » (الحكومة الموقتة) التي انبثق قسم من أعضائها مــن اللجنة التنفيذية الصهيونية ، نرى ان جميع هؤلاء كانوا يقيمون في فلسطين عام ١٩٤٦ (دافيد بن — غوريون ، بيرتز برنشتاين ، يتسحاق غرونباوم ، الحاخام يهوذا لايب فيشمان ، موشي شابيرا ، اليعازر كابلان) ما عدا موشي شرتوك (شاريت)(١٠).

— انتقل القسم الاكبر من الصلاحيات التي كانت من اختصاص (او على الاقل تحت اشراف) المنظمة الصهيونية الى حكومة اسرائيل المؤقتة : الدفاع ، الداخلية ، الخارجية ، الماليــة ، المواصلات ، التجارة ، الصناعة ... ولم يبق مــن الاعمال المنوطة بالمنظمة الا تلك التي كانت تخص النشاط الصهيوني في الخارج وشؤون الهجرة واستيعاب المهاجرين في الداخل مــع بعض الاعمال الخاصة كتطوير القدس . وكل هذه النشاطات التي بقيت في يد المنظمة يمكن تصنيفها بأنها لا تقتضي رسم سياسة شاملة بل فقط تقديم خدمات . فعلى سبيل المثال ، الغيت الدائرة السياسية التي كانت تابعة لرئيس اللجنــة التنفيذيــة (وألحقت بالوزارة الجديدة)(١١).

لقد وعى الصهيونيون الاميركيون مغزى تأليف « ادارة الشعب » من قبل المجلس الصهيوني العام. غير انهم لم يجدوا مفرا من ذلك . كانوا من جهة يريدون الاشتراك في الحكــم الجديد (هم الذين ناضلوا بفعالية من أجل خلق الدولة الجديدة) غير انهم من جهة اخرى كانوا يتخوفون من تهمة « الولاء المزدوج » في بلادهم اميركا(١٢). فاضطروا الى القبول بمبدأ الفصل (هفرادا) وباقامــة ادارة الشعب (الحكومة الموقتــة) في نيسان ١٩٤٨ والمكونة من الصهيونيين المحليين . ومن المفارقة انهم هم الذين أصروا بعــد حين (أي في أيلول ١٩٤٨) ان يطبق مبدأ الفصل تمامــا ، اي ان يستقيل وزراء الحكومة الموقتة من مناصبهم فــي اللجنة التنفيذية الصهيونية ، خوفا من سلطان الحكومة على اللجنة الصهيونية بعــد أن كانت منبثقة منها قبل بضعة اشهر .

ومن جهة ثانية ، وعلى العكس ، نادى صهيونيو فلسطين في المرحلة الاولى (نيسان — ايار ١٩٤٨) الى الفصل بين السلطات بغية تكوين حكومة التجمع الاستيطاني في فلسطين واعطائه طابع دولة(١٣)، ولكنهم في المرحلة التالية ، بعد أن قامت الدولة وكونوا الحكومة الموقتة ، رفضوا الاستقالة مــن مقاعدهم في اللجنة التنفيذية الصهيونية . الى أن اضطروا الى التخلي عنها تحت ضغط الصهيونيين الاميركيين ولاسباب ديبلوماسية(١٤). من الاكيد ان بن — غوريون وزملاءه قيموا الوضع على انه يسير في جميع الاحوال لصالحهم فقبلوا بهذا التراجع التكتيكي ، مقتنعين بأن مراكزهم في الدولة الجديدة كفيلة باحكام سيطرتهم على المنظمة الصهيونية فيما بعد . اما الصهيونيون الاميركيون فكانوا يريدون من هذا التراجع « الاسرائيلي » ان يكون خطوة أولى نحو اعادة نفوذهم في الشؤون الصهيونية — الاسرائيلية . وبالنتيجة ، يمكن القول ان الامور جرت وكأن كل فريق يقول للاخر وللاعتبارات ذاتها : انني مضطر أن أقبل باستقلالكم عني ، ولكنني أرجو ان يبقى شكليا وان تخضعوا لي .

من الواضح اذا ان المناقشات التي جرت حول مبدأ الفصل (هفرادا) ما كانت الا غطاء شكليا لنزاع من اجل السلطة . من الواضح كذلك ان

مسألة توزيع السلطات والمهمات كانت الحلقة الاولى في جملة من التطورات اللاحقة شهدت تضارب الفريقين الهامين على الساحة الصهيونية : الطرف الاسرائيلي والطرف الاميركي . ويقول ارثر هرتزبرغ في هذا الصدد : « كان جوهر النزاع عدم رغبة حكومة الدولة الجديدة التسليم بأية وصاية من قبل الحركة الصهيونية . أما الان وقد برزت الدولة الى الوجود ، من الواضح انه لم يعد بامكان الصهيونية ان تنخرط في نوع السياسة الدولية التي اعتادت عليه من قبل »[١٥]. غير ان مدى نجاح كل فريق للسيطرة على الاخر كان مرهونا بجملة من الوقائع الموضوعية ، منها مـا يمكن اعتباره ايجابيا في حوزة الصهيونية الاميركية ، ومنها ما يغذي سيطـرة اسرائيـل على المنظمـة الصهيونية العالمية . وسوف نلاحظ هذه الوقائع في مجرى دراستنا .

٣ — استحالة الاكتفاء الذاتي للدولة :

ان العنصر الاول الذي كان من شأنه ان يبقي نفوذ المنظمة الصهيونية العالمية كسابق عهدها كان بلا ريب حاجة الدولة الجديدة الى المساعدة . لقد شعر الجميع ان مجرد تبني قرار باقامة دولة لا يكفي لتأمين شروط الاستمرار والتقدم . كانت هناك حاجة الى شراء الاسلحة ، الى استقدام المتطوعين .. الخ ، ومن ثم ، بعد انتهاء الحرب الاسرائيلية — العربية ، الى متابعة تهجير اليهود من بلادهم (وخاصة من الدول العربية) والى استيعابهم ، عدا المساعدات المالية المباشرة . وقد اضطلعت المنظمة الصهيونيـة — الوكالة اليهودية بقسط لا بأس به من الجهود والمال . يتوجب علينا التوقف على هذه المسألة من خلال **مقارنة ميزانية الوكالة اليهودية[١٦] مع ميزانية الدولة الجديدة** (بالليرات الاسرائيلية) :

العـام	الوكالة[١٧]		الدولة[١٨]	
	الميزانية	المصروفات الفعلية	الميزانية	المصروفات الفعلية
٤٨—٤٩	٥١،٣٠٠،٠٠٠	٣٥،١٦٦،٧٠٠	١٩،٥٣٩،٠٠٠	٢٧،٢٨٨،٠٠٠
٤٩—٥٠	٤٠،٣١٠،٠٠٠	٣٣،٧٤٣،٨٧٧	٤٢،٤٠٥،٠٠٠	٤٢،٤٠٥،٠٠٠
٥٠—٥١	٤٢،٧٥٧،٠٠٠	١٦،٣٦٥،٦٩٨ (الاشهر الستة الاولى فقط)	٥٩،٤٦٥،٠٠٠	٥٩،٤٦٥،٠٠٠

ان نظرة سريعة الى هذه الارقام تشير الى انه — رغم خلق الدولة الجديدة — بقيت المنظمة الصهيونية — الوكالة اليهودية تمثل قوة مادية هامة الى جانب الادارة الحكوميـة في السنوات الاولى على الاقل بعد قيام الدولة . أما انخفاض ميزانية الوكالة في السنة ١٩٤٩ — ١٩٥٠ فيجدر الا يفسر فقط بأنه بداية فقدان الوزن السياسي (وهذا صحيح خاصة اذا قارنا توقعات ميزانية ١٩٤٨ — ١٩٤٩ بالمصروفات الفعلية لعام ١٩٤٩ — ١٩٥٠) فانه يعبر ايضا عن تحول بعض المهام من الوكالة الى الحكومة (تمويـل الجيش والنشاط السياسي في الخارج) ، ولكنه يخفي زيادة المهمات الملقاة على عاتق الوكالة في ميدان استيعاب جماهير المهاجرين والاستيطان الزراعي بعد طرد اصحابها الفلسطينيين . ويمكن ملاحظة هذه الامور في الجدول التالي :

مصروفات الوكالة اليهودية(١٩) (بالليرات الاسرائيلية)

العــام	الهجرة واستيعاب المهاجرين	الاستيطان الزراعي	الشؤون الدفاعية والسياسية	نشاطات اخرى	المجموع
٤٦—٤٧	٤،٩٧٤،٠٠٠ ٪ ٤٣،٢	٢،٥٠٢،٠٠٠ ٪ ٢١،٧	١،٥٨٠،٠٠٠ ٪ ١٣،٧	٢،٤٦٨،٠٠٠ ٪ ٢١،٤	١١،٥٢٤،٠٠٠ ٪ ١٠٠
٤٧—٤٨	٦،٦٣٣،٠٠٠ ٪ ٢٠،٢	٢،٦٠٧،٠٠٠ ٪ ٨	٢٢،١٥٠،٠٠٠ ٪ ٦٧،٦	١،٤٠٦،٠٠٠ ٪ ٤،٢	٣٢،٧٩٦،٠٠٠ ٪ ١٠٠
٤٨—٤٩	٢٥،٦١٢،٠٠٠ ٪ ٧٢،٨	٧،٤٢٢،٠٠٠ ٪ ٢١،١	— —	٢،١٣٣،٠٠٠ ٪ ٦،١	٣٥،١٦٧،٠٠٠ ٪ ١٠٠
٤٩—٥٠	١٧،٤٠٩،٠٠٠ ٪ ٥١،٧	١٤،٤٠٣،٠٠٠ ٪ ٤٢،٧	— —	١،٩٣٢،٠٠٠ ٪ ٥،٦	٣٣،٧٤٤،٠٠٠ ٪ ١٠٠
٥٠—٥١ الاشهر الستة الاولى	٧،٨١٥،٠٠٠ ٪ ٤٨،٦	٧،٣٥٦،٠٠٠ ٪ ٤٤،٨	— —	١،١٩٥،٠٠٠ ٪ ٦،٦	١٦،٣٦٦،٠٠٠ ٪ ١٠٠

نلاحظ ان الوكالة تحملت عام ١٩٤٧ — ١٩٤٨ اعباء خلق الدولة اذ كرست ٦٧،٦ ٪ من مصروفاتها الى الشؤون الدفاعية (تمويل الحرب) والسياسية بينما عادت ابتداء من عام ١٩٤٨ — ١٩٤٩ الى تخصيص جهودها (بنسبة ٩٥ ٪ تقريبا) للهجرة وانشاء المستوطنات(٢٠)، تاركة ميزانيـة الدفاع لحكومة اسرائيل . فقفزت المخصصات لبندي الهجرة والاستيطان من ٩،٢٤٠،٠٠٠ ل. ا. عام ١٩٤٧ — ١٩٤٨ الى ٣٣،٠٣٤،٠٠٠ ل. ا. عام ١٩٤٨ — ١٩٤٩ والى ٣١،٨١٢،٠٠٠ ل. ا. عام ١٩٤٩ — ١٩٥٠ ، اي بزيادة تتراوح بين ٢٤٤ و ٢٥٧ ٪ بالنسبة للعام المالي ١٩٤٧ — ١٩٤٨(٢١).

ما كانت مصادر الوكالة المالية ؟ يقول تقرير الوكالة المالي ما يأتي : « لقد ظـل الصندوق التأسيسي للمسلمين (كيرن هايسود) أهم مصدر للدخل . ان مخصصاته للوكالة اليهودية صعدت من ٦،٣٧٠،٠٠٠ عــام ١٩٤٦ — ١٩٤٧ الى ١٠ ملايين عام ١٩٤٧ — ١٩٤٨ والى ١٠،٥٠٠،٠٠٠ عام ١٩٤٨—١٩٤٩ ، ثم انخفضت الى ٨،٦٠٠،٠٠٠ عام ١٩٤٩ — ١٩٥٠ والى ٤،٢٠٠،٠٠٠ في الاشهر الستة الاولى للسنة المالية ١٩٥٠ — ١٩٥١ . وبلغت حوالي ٤٠ مليون ليرة للفتـرة بمجملها . **ان القسط الاكبر مـن التبرعات التي جمعهـا الصندوق أتى مـن الولايات المتحـدة (حوالي ٨٣ ٪)** »(٢٢). ان ذلك يسمح لنا بحصر اهتمامنا بالولايات المتحدة عندما نتكلم عن الصهيونية العالمية خارج اسرائيل .

٤ — القاعدة اليهودية هي الحلقة الهامة :

لا شك ان هذه المعطيات تكفي لابراز أهمية الدور الذي لعبته الاوساط اليهودية الموالية لاسرائيل في السنوات الاولى لتأسيسها . ومن الطبيعي القول انه ينتظر من هذه المشاركة في العطاء ان تؤدي الى مشاركة في تقرير السياسات . ان الذي يهب المال يريد مبدئيا ان يكون قيما على كيفية استعماله وان يضع شروط مساهمته . الا أن الصلة بين المشاركة في الجهود والمشاركة في السلطة ليست آلية او حتمية.فثمة عناصر اخرى تدخل في المعادلة ومن شأنها ان تعطل سعي المنظمـة الصهيونية للمساهمة في اتخاذ القرارات . يجدر ذكر هـذه العنــاصر :

— ان الجزء الاكبر من التبرعات لم يأت مـن

الجمعيات الصهيونية المنتمية رسميا الى المنظمة الصهيونية العالمية ، بل من اليهود (او المؤسسات اليهودية) الذين يبدون تعاطفهم مع اسرائيل بتكريس جزء من ميزانيات الطوائف لها . « ان جمع التبرعات بدأ يشمل اليهود من جميع الاراء بشكل متزايد ولم يكن العديد من الاكثر ثراء والاكثر سخاء صهيونيين بالمعنى الشكلي على الاقل . أما الهيئات التي كانت تجمع المال من اجل اسرائيل فلم تكن في كل مكان — وعلى الاخص ليس في الولايات المتحدة — تحت الاشراف الصهيوني حقا »(٢٣).

— ان اليهود الذين قدموا بكثافة الى فلسطين بعد قيام الدولة لم يكونوا « صهيونيين » بالمعنى القانوني للكلمة ، اي بالانتماء رسميا الى المنظمة الصهيونية العالمية . على كل حال لم تقع هجرة يهودية من البلاد التي كانت تأوي منظمات صهيونية قوية (كالولايات المتحدة وبريطانية وجنوب افريقيا وفرنسا) ، بل انطلقت مما تبقى من معسكرات اليهود في اوروبا بعد الحرب ومن الدول العربية والاسلامية ، اي انها كانت « هجرة طوارىء » .

ماذا تعني هذه الامور ؟ من البديهي انها تحمل معان معاكسة لكل من الفريقين : فبالنسبة لقادة اسرائيل ، ان وصول الموجات اليهودية « غير الصهيونية » وتدفق المال « غير الصهيوني » يشيران الى امكانية التوجه مباشرة نحو يهود العالم دون وساطة المنظمة الصهيونية العالمية . أما بالنسبة لهذه الاخيرة ، فانهما يشيران الى ضرورة استمرار اشرافها على المجهود اليهودي (الهجرة والمال) باعتراف من اسرائيل بالذات ، والا فقدت مكانتها في الدياسبورا وفي اليشوف ، لا بل علة وجودها بالذات .

لا شك اذا ان نجاح كل فريق في صراعه مع وضد الاخر لم يكن يرجع فقط الى قوة كل منهما الذاتية (وفي هذا المجال كانت الكفة راجحة بشكل واضح لصالح الدولة) بل كان يتوقف أساسا على تجاوب الرأي العام اليهودي في الخارج (وخاصة في اميركا) لصالح احدهما (وهنا لا مجال للافتراض الالي بأن عامة اليهود كانوا يرفضون التطلع الى اسرائيل من خلال المنظمة الصهيونية) . هكذا نرى كيف ان الصراع الذي برز بين المنظمة والدولة بسبب تفسير الطرفين المتباين حول حصيلة العهود السابقة (وكلاهما يسعى لتجييره لمصلحته) نرى كيف انتقل الصراع بشكل طبيعي الى الساحة اليهودية العريضة . اي انه كان على الساحة اليهودية (السخية بالمال والرجال) ان تعطي بعد قيام اسرائيل مؤشرات لصالح هذا الفريق او ذاك، بل ان تؤثر نوعا ما على ايديولوجية كل من الفريقين . وهذا يتطلب من الان القاء **نظرة الى يهود العالم تجاه الصهيونية واسرائيل** ، قبل التطرق الى تحرك الدولة والمنظمة .

ان الايديولوجية الصهيونية شددت منذ مؤتمر بازل (١٨٩٧) على الركائز التالية : ان جميع اليهود رغم تشتتهم يكونون **امة واحدة ولا** يمكنهم الخلاص كأمة وكأفراد (خطر اللاسامية) الا بوضع حد **لمنفاهم** وباعادة تكوين **دولتهم** على أرض اسرائيل . على هذا الاساس قامت المنظمات الصهيونية في العالم وسعت الى « غزو » الطوائف اليهودية (على حد تعبير الصهيونيين انفسهم) بادعائها تمثيل « الشعب » اليهودي الساعي لانهاء « منفاه » في الشتات وخلق دولته في « وطنه » . وقد أثار ادعاء الصهيونيين التمثيلي وبرنامجهم تحفظات العديد من اليهود ومعارضة البعض الاخر . ان « غير الصهيونيين » (وهم عمليا عامة اليهود) كانوا قبل ١٩٤٨ يتأرجحون بين قطبين :

— رأي يرفض الصهيونية جملة وتفصيلا اي انه ينبذ الحديث عن « قومية يهودية » وعن « منفى » يهودي وبالتالي يعارض قيام دولة يهودية في فلسطين ولا يريد الاسهام في خلقها ولو عن طريق « المساعدات الانسانية » التي يمد بها اليهودي أخاه اليهودي أينما وجد .

— رأي يرفض العقيدة الصهيونية (أي انه لا يعتبر نفسه في المنفى ولا يريد لنفسه الهجرة الى فلسطين) ولكنه يقبل بالمساهمة في المشروع الاستيطاني على اساس « الشرعية الدولية »(٢٤) المستمدة من صك الانتداب المعترف به من قبل عصبة الامم . وقد دخل هذا الطرف بالفعل الوكالة اليهودية عام ١٩٢٩ .

بين الرافض قطعا الى الملتزم «اللاصهيوني»(٢٥)، توزعت عاطفة عامة اليهود وتبرعاتهم على درجات : التبرع لاسباب محض انسانية ، تأييد هجرة اليهود المضطهدين (سواء كان الملجأ فلسطين او غيرها)، الدفاع عن طائفة يهودية شقيقة (سواء كانت

الطائفة في فلسطين او في مكان آخر) دون الدعوة الى ضرورة خلق دولة خاصة ... كل هذا لا ينفي طبعا ان الاقلية الفاعلة والمنظمة — الحركة الصهيونية — هي التي استطاعت دائما الانتفاع سياسيا وماديا (يعني لتنفيذ برامجها) من الاخوة العضوية القائمة بين يهود العالم . بكلمة اخرى يمكن القول ان العديد من اليهود ساعدوا البرنامج العملي الصهيوني دون التسليم بمقوماته الايديولوجية .

ثم أدت اقامة الدولة عام ١٩٤٨ الى تبلور وضع جديد في الدياسبورا . ان الاحداث « الدراماتيكية » التي تلاحقت في العقد الخامس من هذا القرن ونجاح البيشوف في ميدان الحرب ومجرد قيام الدولة جعلت أكثرية يهود العالم — وحتى العديد من الذين كانوا يعارضون المشروع الصهيوني او لا يبالون به — يبدون تعاطفهم مع الدولة الجديدة ويمدونها بالمساعدة . لا يمكن التقليل من عمق الاثر النفسي الذي تركه « بعث » « الامة » اليهودية في شكل دولة وذلك سنوات قليلة بعد ابادة ملايين اليهود على يد النازيين الالمان ، مع ما عنى ذلك من صدمة نفسية وشعور بالفاجعة والفشل وقد كان للحرب العالمية الثانية اثر آخر . كانت اوروبا الشرقية في أواخر القرن الحالي وأوائل هذا القرن مصدر هجرة كثيفة (عدة ملايين) نحو اوروبا الغربية واميركا وافريقيا الجنوبية . وأصبحت مراكز اوروبا الشرقية اليهودية العلمية منها والدينية بمثابة قطب روحاني وعاطفي يحن اليه المهاجرون. ولكن بعد ان قضت الحرب العالمية الثانية على الوجود اليهودي في اوروبا الوسطى والشرقية ، صب هؤلاء المهاجرون الشديدو التعلق بدينهم وبتقاليدهم حنينهم وعاطفتهم نحو مركز روحاني جديد ألا وهو تصورهم لاسرائيل(٢٦).

من جهة ثانية ، اصبحت اسرائيل عام ١٩٤٨ أمرا واقعا وليس مجرد حلم رومانسي يناضل من اجله بعض الملتزمين المنعزلين وحلت بالفعل دولة اسرائيل الصاعدة محل الحركة الصهيونية في مجال استقطاب الحماس اليهودي وحل « التضامن اليهودي العام مع دولة اسرائيل » محل الالتزام الفردي بأهداف المنظمة الصهيونية العالمية . بل احتلت الدولة مواقع جديدة في الطوائف اليهودية لم تستطع الحركة التوغل فيها من قبل . ان « الامر الواقع » يفرض نفسه بطبيعة الحال على المترددين وحتى على جزء كبير من الرافضين السابقين(٢٧) عندما لم يكن هذا « الامر الواقع » سوى مشروع قد لا يتحقق . وكما يقول بن هالبرن (ولكن مع بعض المبالغة) : « منذ قيام اسرائيل ، لم تعد المعارضة المطلقة لوجود دولة يهودية معترفا بها في الاجماع اليهودي (Consensus)كموقف شرعي ... كان على المعارضين الايديولوجيين ان يكيفوا أنفسهم بطريقة او بأخرى مع الوضع الجديد»(٢٨).

هذا الوضع الجديد الذي خلق لليهود العرب مأزقا خطيرا (جعلهم « يهربون الى الامام » بدل مواجهة الواقع الجديد القاسي بالتضامن مع اخوانهم العرب) طرح على اليهود الغربيين اسئلة مصيرية كان لا بد من مواجهتها . ان هم صفقوا لقيام الدولة او قبلوا بها مرغمين (ايديولوجيا) ، هل يعني ذلك انهم حملوا حقائبهم ليتجهوا الى « أرض الميعاد » ؟ طبعا لا . ليس المجال هنا لمعالجة موضوع هجرة يهود العالم الغربي (اوروبا الغربية ، اميركا الجنوبية والشمالية ، افريقيا الجنوبية) الى اسرائيل ، ولكننا نكتفي بالقول انهم يرفضون الهجرة ويعتبرون انفسهم مواطنين كاملين في بلدانهم . ان عامة يهود الغرب يؤيدون اسرائيل ولكنهم يرفضون — ضمنا او صراحة ، وعلى الاقل ببقائهم خارج اسرائيل — الايديولوجية الصهيونية التي تجسدها المنظمة الصهيونية العالمية ودولة اسرائيل . اجل ان هذا الموقف لمتناقض ، الا انه قائم وموجود . ويبدو ان زعماء اليهود في العالم يبحثون عن مخرج لهذا التناقض — المأزق بتوجيه جملتين من المطالب للحكم الاسرائيلي .

— من جهة ، يطلب يهود العالم من اسرائيل ان تكف عن القول بأنها تمثلهم وبأنهم في (المنفى)(٢٩) وعليهم واجب الهجرة . وجل ما يمكنها ادعاؤه وما يقبلون به هو انها لا تمثل الا يهود اسرائيل وان اسرائيل هي على الاكثر ملجأ لليهود المضطهدين (خارج العالم الغربي على حد زعمهم) . ان زعماء الجمعيات اليهودية في الغرب مستعدون مقابل هذا التنازل الايديولوجي من قبل اسرائيل لتوفير اقصى المساعدات الاقتصادية والسياسية للدولة الجديدة.

— ان ادعاءات المنظمات الصهيونية — المكونة اساسا بعد خلق اسرائيل من جزء من يهود الشتات — بأنها تمثل الوجه القومي ليهود العالم

(وخاصة في تعاملهم مع اسرائيل) علاوة على ايديولوجيتها المعلنة (الهجرة طريق الخلاص الوحيد وواجب اليهودي المقدس) ، ان هذه الادعاءات تثير عند يهود الغرب تذمرا عميقا لانها تشعرهم « بعقدة ذنب » بسبب بقائهم في بلدانهم . فاصبحت المنظمة الصهيونية العالمية بعد قيام الدولة حاجزا ايديولوجيا متحجرا يفصل بين يهود العالم واسرائيل بدل ان يوصلهما . فما كان من زعماء اليهود الغربيين (وخاصة الاميركيين منهم) الا ان يتجهوا مباشرة نحو اسرائيل وان يطالبوا حكمها بعدم توسيط المنظمة الصهيونية في تعاملهم مع الدولة ، بل ان تعلن الدولة صراحة ان المنظمة لا تمثل يهود العالم . وقد ذهب البعض (ومن بين مؤيدي اسرائيل الحميمين) الى حد اقتراح حل المنظمة الصهيونية لزوال فائدتها .

الامر يبدو اذا وكأن يهود العالم الغربي يريدون التعويض عن رفضهم الهجرة الى اسرائيل بافراطهم في تأييد الدولة شريطة ان تبتعد ايديولوجيا وتنظيميا عن الحركة الصهيونية . ونجد خير تعبير عن هذا الموقف لدى « اللجنة اليهودية الاميركية American Jewish Committee . التي عدلت برنامجها في كانون الثاني ١٩٤٩ من جراء قيام الدولة . وتقول الفقرة الخاصة باسرائيل : « اننا نعتبر اقامة دولة اسرائيل حدثا ذا مغزى تاريخي ونحيي الاعتراف بها من قبل حكومتنا وحكومات اخرى . اننا نتطلع الى احتلال اسرائيل مكانتها كاملة في الاسرة الدولية كدولة تضمن المساواة لجميع سكانها بغض النظر عن العرق او العقيدة او الاصل القومي ، وتدافع عن الحرية والسلام في الشرق الادنى وسائر انحاء العالم . ان مواطني الولايات المتحدة اميركيون ومواطني اسرائيل اسرائيليون . اننا نقول ذلك بكل ما ينطوي عليه من نتائج ، وكما ان حكومتنا لا تتحدث الا باسم مواطنيها ، فأن اسرائيل ايضا تتحدث باسم مواطنيها فقط . ضمن اطار المصالح الاميركية سنساهم في بناء اسرائيل كمركز روحاني وثقافي حيوي وفي تطوير امكانياتها كي تؤمن حياة حرة كريمة للذين يريدون ان يجعلوا منها مسقط رأسهم »(٣٠). وفي تقرير اللجنة السنوي لعام ١٩٤٩ ، نقرأ ما يلي : « رغم تعاطفنا السابق والحالي مع بناء اسرائيل ، شعرنا ان الدولة الجديدة قد تخلق لنا مشاكل جدية . وقد اعربنا عن مخاوفنا بصراحة للسيد بن غوريون ولرسميين اسرائيليين اخرين . لقد طالبنا خاصة ان تلتزم اسرائيل في جميع الظروف بالتمييز الواضح بين مواطنيها اليهود والمواطنين اليهود في البلدان الاخرى ، وان تقدم نفسها بأنها لا تتحدث رسميا الا باسم الاولين . وشددنا على القول ان عليها ان تتجنب بدقة التدخل في الشؤون الداخلية لليهودية الاميركية ، كأن تشجع مثلا هجرة جماعية من هذه البلاد باسم الواجب نحو اسرائيل او باسم الهرب من اللاسامية الاميركية التي يبالغ بوجودها العديد من الاسرائيليين مع ان حكامهم لا يحذون حذوهم في ذلك لحسن الحظ »(٣١).

واتخذت اللجنة ايضا في وقت لاحق موقفا بالمعنى ذاته مع التشديد على امور اخرى : « اننا نعتبر مغلوطا تماما وغير واقعي الرأي القائل ان بامكان اليهود الاميركيين ان يقتنعوا بأن اسرائيل هي المكان الوحيد حيث يستطيع اليهود العيش بأمان وكرامة . اننا نرفض الادعاء — مهما كان مصدره — بأن اليهود الاميركيين « منفيون » بمعنى او بآخر . اننا نعلن ان القيام ببرامج تربوية لدى اليهود الاميركيين هو من مسؤولية المؤسسات الاميركية فقط . وفي حين نحبذ مواصلة المساعدة الليبرالية لاسرائيل تمشيا مع السياسة التي وضعتها اللجنة حتى الان ، الا اننا نعارض تحوير الاموال المخصصة لهذه المساعدة لبرامج ونشاطات في اميركا لا تتماشى مع آرائنا هذه »(٣٢).

ولكن رغم هذه التحفظات التي كانت تبديها دوما الجمعيات اليهودية ، كان توجهها **العفوي** نحو اسرائيل يبقى غالبا في جميع الاوقات ولم تكف يوما عن ارسال المعونات والتعبير عن المساندة . وسوف نرى كيف سهل ذلك تحرك الدولة ازاء المنظمة الصهيونية ومنع هذه الاخيرة من الوقوف على أرض صلبة عندما كانت تطالب بامتياز تمثيل يهود العالم، بل ترى نفسها تواجه احتمالات الاستغناء عن خدماتها وتضطر الى الدفاع عن نفسها باسم دورها السابق . فلنبدأ بالطرف الاسرائيلي .

٥ — تحرك الدولة

لا ريب ان مركز القوة الفعلي انتقل الى الدولة وان ذلك كان من شأنه ان يعطيها مبادرة التحرك

والمناورة . الا ان ذلك لا يعني ان الدولة كانت طليقة اليدين في افعالها واقوالها ويمكن التساؤل ما اذا لم تكن حبيسة الايديولوجية الصهيونية التي مهدت لوجودها . وكما رأينا كان عليها ايجاد شكل من التوافق بين المنتمين الى المنظمة الصهيونية وبين عامة اليهود المؤيدين لاسرائيل . لا يعني ذلك ان ثمة تناقضا في نظرنا بين العضوية الصهيونية والتأييد اليهودي لاسرائيل . ولكن في هذه المرحلة الانتقالية الدقيقة ، كان على القوى المنظمة ان تتصارع من اجل السلطة حتى وان كان من الممكن التنبؤ بأن الدولة كانت الاوفر حظا في هذه المنافسة اللامتكافئة .

لقد بدأت معالم التحرك في الاجتماع الشهير للمجلس الصهيوني العام في اب — ايلول ١٩٤٨ عندما حاولت الحكومة الاسرائيلية عدم تطبيق الفصل بين السلطات . ولكن يبدو انها فشلت في هذه المحاولة امام اصرار الصهيونيين الاميركيين العموميين (وخاصة **ابا هيلل سلفر وعمانوئيل نيومان**) . فاعترفت الحكومة الاسرائيلية ان هناك فرقا في الوظيفة بين المنظمة الصهيونية العالمية والدولة رغم ان بن غوريون ادعى بعدئذ ان اكثرية المجلس افشلت محاولة بعض الزعماء الصهيونيين الاميركيين للفصل بين الدولة اليهودية والشعب اليهودي(٣٣).

ولكن كان بيد الحكومة الاسرائيلية ان تتجاهل مطاليب المنظمة الصهيونية لمنحها « وضعا قانونيا خاصا » (بشكل اجراء تشريعي في الكنيست و « ميثاق » بين المنظمة كممثلة ليهود الخارج ودولة اسرائيل) الى ان تنجلي الامور في الخارج . وكانت هذه الامور تسير كما رأينا (وعلى الاخص في الولايات المتحدة) في اتجاه منح التأييد لاسرائيل دون الانتماء بالضرورة الى المنظمة الصهيونية . فوجدت الحكومة الاسرائيلية ان باستطاعتها الاعتماد على سخاء يهود العالم دون اعطاء المنظمة الصهيونية الوضع القانوني الخاص الذي كانت تطلبه بحجة اتمام مهمتها على اكمل وجه ، لا بل وجدت الحكومة الاسرائيلية ان عليها تلطيف حدة الشعارات التي تتضمنها الايديولوجية الصهيونية خوفا من اثارة حفيظة الارضية اليهودية العريضة (وعلى الاخص وعلى سبيل المثال « اللجنة اليهودية الاميركية »(٣٤). « فقد طالبت اللجنة بضمانات رسمية وحصلت عليها بالفعل بأن اسرائيل مهما فعلت لحماية الحقوق اليهودية في الخارج عن طريق الوسائل المتاحة لها كدولة ذات سيادة ، لا تفعل ذلك كسلطة شرعية باسم الدياسبورا ، وبأن منحها الوكالة اليهودية او المنظمة الصهيونية وضعا قانونيا خاصا لممارسة اعمالها في اسرائيل ، لا يمكن ان يعني في مطلق الاحوال اعترافا بهذه المؤسسة كالممثلة الشرعية للشعب اليهودي او ليهود الدياسبورا بصفتهم وحدة متكاملة ذات ارادة مستقلة . وبالمناسبة ، ان هذه الضمانات (التي اعطتها اسرائيل للجنة اليهودية الاميركية) انكرت للوكالة اليهودية وضعا قانونيا كانت تتمتع به برضى عام (وان كان ضمنيا في بعض الاحيان) في ظل الانتداب على فلسطين »(٣٥).

هذا وقد وجه بن غوريون دعوة الى جاكوب بلاوشتاين رئيس اللجنة اليهودية الاميركية لزيارة اسرائيل في نيسان ١٩٤٩ تبنى فيها بن غوريون بشكل علني مطاليب بلاوشتاين الايديولوجية (أي عمليا « اللفظية ») مقابل تأييد اليهود الاميركيين التام لاسرائيل . ان الدلالة في هذه الدعوة لزيارة اسرائيل تكمن في انه لم تقابلها دعوة مماثلة موجهة لزعماء المنظمات الصهيونية الاميركية . كما ان بن غوريون قام بجولة في الولايات المتحدة عام ١٩٥١ واجتمع بزعماء الجمعيات اليهودية ولكنه حرص بدقة على الا يلفظ كلمة « صهيونية » في جميع لقاءاته(٣٦)، بل رفض دعوة لحضور مأدبة عشاء صهيونية(٣٧).

ولكن رغم خطورة تبسول بن غوريون (ولو « اللفظي ») بالتخلي عن شعارات الايديولوجية الصهيونية التقليدية ، فقد وقعت سلسلة اخرى من الاحداث ادت الى استقالة زعيمين بارزين في « منظمة اميركا الصهيونية »(٣٨) (وهي كبرى المنظمات الصهيونية في اميركا وتنتمي الى الصهيونيين العموميين) سلف ذكرهما : ابا هيلل سلفر وعمانوئيل نيومان(٣٩). ان المسألة التي ادت الى استقالة سلفر رئيس المكتب الاميركي للوكالة اليهودية ونيومان رئيس م. ا. ص عن منصبهما في اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية ، كانت تتعلق بالاشراف على الاجهزة المالية في اميركا . ويبدو واضحا مما سبق ان الحكومة الاسرائيلية كان يهمها

ان يشارك جميع اليهود مهما كانت ايديولوجيتهم (اي « اللاصهيونيون » ايضا) في مسؤولية الدفاع عن اسرائيل ، او بكلام ادق ، في مسؤولية الاشراف على جمع التبرعات وعلى ارسالها الى الوكالة اليهودية في اسرائيل . وهذا يعني بالنسبة للصهيونية الاميركية ، انتقاصا من صلاحياتها ليس فقط في اسرائيل ، بل وايضا في دارها بالذات . وقد وقع النزاع في الشكل التالي :

انفجر الصراع في ١٠ ايلول ١٩٤٨ داخل « النداء الفلسطيني الموحد » الذي كان منوطا به جمع التبرعات من الولايات المتحدة لامر « الكيرن هايسود » و « الكيرت كيمت » (اي عمليا الى ميزانية الوكالة اليهودية في القدس) ، عندما استقال هنري منتور من منصبه كنائب رئيس اللجنة التنفيذية في « النداء الفلسطيني الموحد » ، متهما م. ا. ص. باستعمال اموال « النداء لاغراض سياسية(٤٠). تبلت اللجنة التنفيذية للنداء الفلسطيني الموحد استقالة منتور ، واعلنت انها تحظى بتأييد الوكالة اليهودية في القدس . غير ان منتور لاقى دعما قويا من هيئة تدعى « لجنة المتبرعين والعمال » التي طالبت بتطبيق المبدأ التنظيمي التالي في المستقبل : جعل الوكالة اليهودية في القدس مسؤولة مباشرة عن ادارة « النداء الفلسطيني الموحد » وليس عن طريق مكاتبها في نيويورك التي كانت تحت اشراف المنظمات الصهيونية الاميركية . وكانت حجة هذا الفريق في اقتراحه التنظيمي انه لا يجوز ادارة تبرعات يهود اميركا بواسطة الاحزاب الصهيونية الاميركية التي قد تستعمل هذه الاموال كأداة ضغط على اسرائيل في حياتها السياسية الداخلية(٤١).

رغم بعض الوساطات اليهودية الاميركية لاعادة الامور الى مجراها الطبيعي ، بقي التوتر سائدا في الاجهزة المالية الاميركية بل تفاقم عندما اشترط هنري مورجنتو رئيس حملة ١٩٤٨ لجمع التبرعات ، عودة هنري منتور الى منصبه القديم ، كي يستمر هو في رئاسة حملة ١٩٤٩ . فكان لا بد من التوجه الى اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية في القدس كي تحسم الامر . غير ان م. ا. ص. عارضت بشدة تدخل الوكالة من القدس ، ولكن دون جدوى. فجاء قرار اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية لصالح مورجنتو ومنتور ، مؤديا في الوقت نفسه الى استقالة ابا هيلل سلفر وعمانوئيل نيومان من عضويتهما في اللجنة التنفيذية ، ومن ثم (في ايار ١٩٤٩) الى استقالة نيومان ايضا من منصبه كرئيس م. ا. ص. وحل محله في هذا المنصب الاخير دانيال فريش الذي كان اكثر موالاة لحكومة بن — غوريون .

ماذا يمكن ان نستخلص من هذه الوقائع ؟ ربما عدة امور :

آ — لقد آثرت اسرائيل ارضاء الجمعيات اليهودية الاميركية بدلا من الحفاظ على علاقات طيبة مع م.ا.ص .

ب — اضطرت الوكالة اليهودية في القدس الى اتباع الرأي الاسرائيلي بعد ان ساندت في مرحلة اولى م. ا. ص.

ج — ضعف نفوذ الصهيونيين الاستقلاليين (سلفر ، نيومان) داخل منظمتهم بالذات ، اي انه كان لا بد للمنظمة من المساومة في سبيل الابقاء على علاقات معقولة مع اسرائيل . سنرى فيما بعد لماذا كانت م. ا. ص. عاجزة في جميع الاحوال عن مقاطعة الحكومة الاسرائيلية ومضطرة الى ان تكون حريصة على علاقات طبيعية مع اسرائيل .

كانت النتيجة المنطقية لمحاولات حكومة اسرائيل ابعاد المنظمة الصهيونية عن التصرف بالمال الوارد من الخارج انشاء « هيئة مشتركة للتطوير » (في ايار ١٩٥٠) برئاسة بن غوريون رئيس الوزراء وبعضوية متساوية بين ممثلي الحكومة والوكالة اليهودية ، الى جانب ممثل عن الصندوق القومي اليهودي . و « رغم ان وظيفة الهيئة لم توضح كاملا وبدقة ، افترض ان انشاءها كان يعني ان الحكومة سوف تلعب دورا اكبر في تحديد السياسات المتعلقة بصرف العائدات من الخارج وربما ان اعتمادات حكومية اضافية ستخصص لنشاطات كانت تقع ضمن مهمات الوكالة اليهودية »(٤٢).

اما عن التطورات اللاحقة في العلاقات بين اسرائيل والمنظمة الصهيونية ، يجدر الرجوع الى تقرير اعدته مجلة جويش نيوزلتر الاميركية (غير صهيونية) في تشرين الثاني ١٩٥٠ : « عقد هذا الاسبوع اجتماع هام للجنة التنفيذية للوكالة

اليهودية . ويمكن وصف الاجتماع بانه تعبير عن ثورة الصهيونيين الاميركيين ضد الزعماء الاسرائيليين وضد طريقتهم للسيطرة على الحركة الصهيونية . كان هدف الاجتماع الرسمي تطبيق مقررات واشنطن للتخطيط . غير ان الهدف غير الرسمي للدعوة الى الاجتماع كان — حسب ما اوضحته الصحافة الصهيونية — الاعراب عن الشكاوى والاشمئزاز والمرارة التي تجمعت لدى الصهيونيين الاميركيين فيما يخص ادارة الشؤون الصهيونية في الدياسبورا . كان الاجتماع سريا ولم يصدر حتى الان بيان عنه ، بيد انه من المعروف ان مسألة تعيين هنري منتور على رأس « سندات اسرائيل » شغلت الجزء الاكبر من المناقشات العاصفة . وقد احتج بقوة ان تعيين شخص هو رمز المعارضة ضد الصهيونية الاميركية بغية ادارة الاكتتاب السنوي الاول لسندات اسرائيل ، ان هذا التعيين لطمة على وجه الصهيونيين الاميركيين . اما الفريق الاسرائيلي فقد اجاب ان البوندس (السندات) ليست من ضمن الصلاحيات الصهيونية بل تخص الحكومة الاسرائيلية التي تستطيع تعيين من تشاء لهذا المنصب ولا يحق للصهيونيين الاميركيين ان يتدخلوا »(٤٣).

يبدو جليا اذا ان بن — غوريون كان يهمه قبل كل شيء زيادة واردات بلاده دون الاضطرار الى اشراك مموليه في الحكم الاسرائيلي . وكان ذلك سهلا عليه اذ لم تكن الجمعيات اليهودية (الاميركية) المساعدة مرتبطة ببعضهـا البعض ضمن منظمة مالية متماسكة ذات ايديولوجية سياسية وأهداف مشتركة واضحة مثل المنظمة الصهيونية العالمية .

ولكن كان على بن غوريون من جهة اخرى ان يبرر للمنظمة استخفافه بها ، او بالاحرى ان يجد الذريعة التي تمكنه من التوجه مباشرة نحو يهود العالم . بالنسبة لبن — غوريون ، ان دولة اسرائيل هي وريثة الحركة الصهيونية . لقد كانت من قبل هدف نضال الصهيونيين الاساسي لانها هي المركز ، هي القطب ، والان ، وقد تحققت ، يجب ان يتوجه جميع اليهود اليها ان بالتأييد السياسي أو بالمساعدة المادية او بالاقامة فيها . اما صهيونيو العالم الذين بفضلهم تأسست الدولة ، فما عليهم الا أن يتمموا الان مقتضيات انتمائهم الى الحركة ، اي « الصعود » الى اسرائيل . لقد اصبح هذا « الصعود » بعد قيام الدولة ممكنا ، فلم الانتظار؟ ان الصهيوني الحقيقي هو الذي يهاجر الى اسرائيل ولا يمكن ان ينعم بأي امتياز معترف به في الدياسبورا(٤٤). كان سلاح بن — غوريون القوي ان يقول لصهيونيي العالم : ان لم تقدموا الى هنا ما الفرق بينكم وبين سائر اليهود الذين يؤيدون اسرائيل بوسائل تفوق امكانياتكم بكثير . اننا نجد وصفا لموقف بن — غوريون الخاص بهذا الموضوع في مذكرات ناحوم غولدمان الذي يقول : « كان على بن — غوريون ان يستقيل من منصبه كرئيس اللجنة التنفيذية [للمنظمة الصهيونية] (...) . ثم ما لبث ان تبنى الموقف الايديولوجي التالي : الان وقد برز الوطن القومي الى الوجود ، لم تعد الصهيونية تعني شيئا الا الاستيطان الشخصي في اسرائيل . وبما ان معظم الصهيونيين — بمن فيهم زعماؤهم — لم يذهبوا الى اسرائيل ، بدأ حملة ضد المنظمة الصهيونية ، متهمـا اياها بخيانة برنامجها بالذات وبانعدام مبرر وجودها لا بل بسوء تأثيرها »(٤٥).

سنرى بعد قليل رد الصهيونيين (الاميركيين) على بن — غوريون . ولكن قبل ذلك يجدر طرح السؤال الاتي : هل انتقاد بن — غوريون العنيف للصهيونيين كان يعني حقيقة انه ينوي التخلي عنهم والسعي نحو حل المنظمة الصهيونية ؟ ربما درس بن — غوريون هذا الاحتمال ، ولكن كان يكفيه بكل تأكيد ان تساهم المنظمة في مساعدة الدولة دون ادمائها الاشتراك في حكم اسرائيل الداخلي . على كل حال ، هذا موضوع القسم الاخير من دراستنا . أما الان فيتعين علينا استعراض مطاليب الصهيونيين وردة فعلهم ازاء موقف اسرائيل والجمعيات اليهودية المؤيدة لها .

٦ — موقف الصهيونيين :

أ — **مطاليبهم** : كان الصهيونيون(٤٦) بادىء الامر يأملون بالحفاظ على نفوذهم فيما يخص مجريات الامور الاسرائيلية وذلك على الاقل بسبب حاجة الدولة الجديدة الى المساعدة الخارجية . وقد رأينا سابقا كيف انهم طالبوا في آب — ايلول ١٩٤٨ في اجتماع المجلس الصهيوني العام بتطبيق مبدأ الفصل بين السلطات (الاسرائيلية والصهيونية) بمعنى ان يستقيل اعضاء الحكومة الاسرائيلية من مناصبهم في اللجنة التنفيذية للمنظمة كيلا يستغلوا

توتهم الجديدة في اسرائيل للهيمنة على المنظمات الصهيونية في الدياسبورا .

وقد صاغ الصهيونيون الاميركيون مطاليبهم بشكل دقيق غداة قيام الدولة . فلنقرأ مثلا ما قاله عمانوئيل نيومان السالف الذكر حول هذا الموضوع: « لقد عبرت عن رأيي في اجتماع للمجلس الصهيوني العام الذي انعقد في القدس في آب ١٩٤٨ . واقترحت فيما يخص المهمات الواجب تنفيذها على **المسرح الاسرائيلي** ان تكتفي الوكالة اليهودية بالنشاطات والمسؤوليات التي تريد الحكومة ان توكلها بها او تلك التي لا تستطيع القيام بها بنفسها . ولكن أساس المشكلة الحقيقي كان يكمن في **الدياسبورا** . وفي هذا الصدد اقترحت بشكل غير رسمي حلا لم يطرح في جلسة علنية : ان يصار الى تنسيق جهود يهود العالم المنظمة من اجل اسرائيل من خلال او تحت اشراف المنظمة الصهيونية واجهزتها . وهذا يعني من قبل حكومة اسرائيل تقييدا طوعيا : أي أن تمتنع عن اقامة علاقات مباشرة مع يهود الدياسبورا وعن الاجابة لمحاولات التقرب المباشرة من قبلهم وعن التدخل في الاعمال التي هي ضمن صلاحيات المنظمة الصهيونية »(٤٧).

ومن جهة اخرى ، طالب الصهيونيون الاميركيون أن يخفض تمثيل الصهيونيين الاسرائيليين(٤٨) في اجهزة المنظمة كيلا يتحكموا بمقرراتها(٤٩) وان ينقل مركز الوكالة اليهودية الرئيسي من القدس الى نيويورك والا ترسل الحكومة الاسرائيلية مبعوثيها المزودين بالتوجيهات والتعليمات الجاهزة الى المؤسسات الصهيونية في طوائف العالم(٥٠).

بالخلاصة يمكن القول ان الصهيونيين الاميركيين طالبوا بأن يكون الحكم الاسرائيلي ممثلا للشعب اليهودي في اسرائيل فقط وان تكون المنظمة الصهيونية ممثلة الشعب اليهودي في الدياسبورا. وكان ذلك يعني في نظر الصهيونيين الحصول على ميثاق من قبل دولة اسرائيل تعترف فيه رسميا بصفة المنظمة التمثيلية وبالمهام المنوطة بها وتمنحها به صفة الهيئة الخاضعة للقانون الدولي التام على غرار صك الانتداب المتضمن الاعتراف بوكالة يهودية ذات صفة تمثيلية لليهود الذين يناضلون من أجل اقامة الوطن القومي . ولكن ذهب احد الزعماء الصهيونيين في اميركا الى حد القول بأن « على حكومة اسرائيل ان تعترف بالحركة الصهيونية العالمية كممثلة لليهودية العالمية . لا حاجة لمطالبة اسرائيل بمنح المنظمة الصهيونية العالمية وضعا قانونيا . ان الطفل لا يعطي والده وضعا قانونيا خاصا . فالصهيونية هي التي أنجبت الدولة ، الدولة لم تنجب الصهيونية »(٥١)!

ب — **اتهاماتهم** : ان انتزاع السلطة فجاة عام ١٩٤٨ من يد المنظمة الصهيونية كان كافيا بحد ذاته لاثارة نقمة الصهيونيين الاميركيين . ويبدو أن الحكام الاسرائيليين لم يراعوا شعور الصهيونيين بما فيه الكفاية . وقد وصف عمانوئيل نيومان حالتهم النفسية كالآتي : « كان من المحتم أن تحدث اقامة الدولة اليهودية صدمة جدية لشعورهم بالمشاركة والمسؤولية . اذ فجأة وعلى دفعة واحدة ، شهدت المنظمة الصهيونية انتزاع صلاحياتها السياسية وقسما كبيرا من سلطتها . كان لا مفر من ذلك ، ولكن الطريقة التي جرت بها الامور ، مع قليل من الاعتبار للحساسيات ، تسببت في تضخيم ردة الفعل بين صهيونيي الدياسبورا . لقد أصبحت الشعارات القديمة ذات سمعة مشكوك بها . لم يكن الصهيونيون منكسرين فقط ، بل ارتبكوا أيضا اذ افتقروا الى الفكرة الواضحة حول مكانهم ودورهم في الاطار الجديد »(٥٢).

لم يكن اذا غريبا علاوة على ذلك ان يتخوف الصهيونيون من توجه الحكومة الاسرائيلية المباشر نحو الجمعيات اليهودية الاميركية وتخليها عن خدمات المنظمة الصهيونية في كثير من الامور . وقد لاقت هذه المعاملة ايضا احتجاجات عنيفة ومتواصلة طوال السنين الاولى بعد قيام الدولة . ففي اجتماع للجنة التنفيذية في الوكالة اليهودية في تشرين الثاني ١٩٥٠ ، « كانت المناقشات طويلة ومريرة ووجهت اتهامات قوية من قبل زعماء مختلف الاحزاب الصهيونية بأن القادة الاسرائيليين يريدون تصفية الحركة الصهيونية لانها ظلت قائمة بعد زوال فائدتها .وأعيد ترداد بعض هذه الحجج علنا في مؤتمر المزراحي في اتلانتيك سيتي ، اذ ان السيد ا. ل. جلمان رئيس منظمة المزراحي العالمية وزعيم « الكتلة الدينية » السياسي هاجم بضراوة الحكومة الاسرائيلية على قضيتين : (ا) فقال انها تحاول تصفية الحركة الصهيونية في الدياسبورا وانها أجرت صفقة مع اللاصهيونيين لان بامكانهم جمع

مبالغ اكبر من المال ، (٢) وقال ايضا ان بن — غوريون ميع الفكرة القوميـة الصهيونية بقبولـه بتصريح بلاوشتاين(٥٣) القاضي بأن يهود اميركـا مميزون سياسيا عن يهود اسرائيل »(٥٤).

اما ناحوم غولدمان الذي قيل عنه ابان خلق الدولة بانه يسعى الى ايجاد المواقف التوفيقية بين الحكومة الاسرائيلية والصهيونيين الاميركيين(٥٥)، فما لبث ان اضطر هو أيضا عام ١٩٥٣ الى توجيه الاتهامات للحكومة بسبب استخفافها بالمنظمة . وقد قال : « اذا كان وجود الحركة الصهيونية ضروريا ، فلا يمكن ان يصح ذلك الا اذا قامت بتنسيق النشاطات بين الشعب اليهودي واسرائيل. ولكن اذا اعتادت الحكومة الاسرائيلية على التفاوض مباشرة مع الهيئات اليهودية المختلفة ، لا يوجد اي تبرير لوجود المنظمة . واذا دعت الحكومة يهودا من جميع انحاء العالم لحضور مؤتمر(٥٦) دون ان يكون للوكالة اليهودية اي دور في ابداء رأيها حول طريقة الدعوة اليه او حول مـن يشارك فيه ، انتفت علة وجودها (...) . لو وقع هذا النوع من الامور مرة او مرتين . لكانت المسألة دون اهمية . ولكن عندما يتحول الى عادة منتظمة ، فذلك يعني انه لم يعد للوكالة اليهودية اي دور قانوني وان عليها ان تفقد صلاحياتها ازاء الجمعيات اليهودية المختلفة وان تنحط الى ذيل دون فائدة . وبما انني لا اظن ان الحكومة قادرة على تنظيم الشعب اليهودي مباشرة ، وبما انني اعتقد انه ليس من المستحب بالنسبة اليها محاولة القيام بذلك ، يستنتج ان الوكالة اليهودية يجب ان تكون الهيئة المنسقة لهذا الغرض . والا فستكون فعلا في وضع مستحيل »(٥٧).

ج — **مبررات وجود الحركة الصهيونية** : ولكن من أجل الحصول على الوضع القانوني الخاص ، كان على الصهيونيين الادعاء بأن مهمتهم لم تنته بعد وان مجرد خلق الدولة لم يكن يعني تحقيق الاهداف الصهيونية كاملة . وقد حدد الصهيونيون عدة مبررات لاستمرار الحركة الصهيونية :

— ان اسرائيل لا يمكـن ان تجسد الضميـر الصهيوني بكل متطلباته . فانها مقيدة في المجتمع الدولي باعتبارات ديبلوماسية وتكتيكية لا تستطيع تجاوزها ، ولا يمكنها بالتالي ان تدعي ان جميع يهود العالم (وخاصة يهود الغرب الذين يبدون حساسية خاصة تجاه مسألة « الولاء المزدوج ») هم من مواطنيها ، أو انها ستواصل التوسع الى أن تستولي علـى كامـل ارض « اسرائيـل » التاريخية . بيد ان هذه القيود الديبلوماسية لا يمكن ان تنطبق على المنظمـة الصهيونية التـي تستطيع مواصلة الادعاء بأن يهود العالم يكونون امة واحدة وبأنها لـن تتنازل عن ارض اسرائيـل التاريخية(٥٨). من هنا ، حاجة اسرائيل الـى منظمة مرتبطة بها ومنفصلة عنها في الوقت ذاته لتجسيد هذه الامال علنا(٥٩).

— صحيح ان اليهود اللاصهيونيين يتفوقون على الصهيونيين من حيث حجم المساعدات المالية ولكن التأييد الحقيقي — التأييد المطلق وغير المشروط — لن يأتي الا من قبل الصهيونيين الملتزمين . ففي أوقات المحن (كأن تتعـارض مصالح الولايات المتحدة مع مصالح اسرائيل) لن يبقى الا اصدقاء اسرائيل الحقيقيين ، اي اعضاء المنظمة الصهيونية (أي في المثل نفسه ، يدعي الصهيونيون ان اليهود الاميركيين — وأكثريتهم غـير منتمية للمنظمـة الصهيونية طبعا — سيفضلـون الالتفاف حـول حكومتهم على المخاطرة بمواصلة التعاطف مـع اسرائيل)(٦٠). لهذا السبب ايضا ، ليس مـن مصلحة اسرائيل التخلي عن المنظمة .

— ان المهمات الخاصة التي تضطلع بها الحركة الصهيونية تتمثل بمـا يلي : التكرس مئة بالمئة للدفاع عـن اسرائيل (اما بالنسبة للجمعيـات اليهودية اللاصهيونية ، فلا يشكل تأييدها لاسرائيل الا نشاطا جانبيا ضمـن نشاطاتهـا الاجتمـاعية الاخرى) ، العمل لاضفاء **طابع قومي** على الطوائف اليهودية عن طريق بث التفكير والشعور القوميـين مباشرة ، تعليم اللغـة العبرية وثقافتها ، نشر المعرفة باسرائيل (تاريخها وجغرافية فلسطين) ، الاهتمام بحركات الشباب ، توثيق العلاقات اليومية والانسانية والثقافية بين اليهود ، استقدام حاخامين واساتذة من اسرائيل لمساعدة الطوائف اليهودية في الخارج ، تنظيم الرحلات الى اسرائيل ، توظيف الاموال في مشروعـات دائمة فيهـا ... ويقول الصهيونيون ان كل ذلـك يمثل برنامجا تثقيفيـا يتخطى الى حد بعيد البرامج التي يضعها مؤيدو اسرائيل اللاصهيونيون لمساندتها والتي لا تنم بحد ذاتها الا عن شعور « خيري » انساني لا قومي نحو اسرائيل(٦١).

د — **مواجهتهم لواجب الهجرة** : ولكن ازاء هذا التصور الصهيوني للمهمات المتبقية على الحركة ، لم يكن رد بن — غوريون كما رأينا الا القول بأن مكان الصهيوني بحكم انتمائه الى المنظمة هو في اسرائيل ليس الا ، وان بقاءه خارج اسرائيل لا يعطيه فضلا على اليهودي المؤيد للدولة . فكيف يمكنه ان يطالب بحق تمثيل يهود العالم وحق المشاركة في الحكم ، عندما يكون واجبه الاول القدوم الى اسرائيل ؟ فلنتوقف قليلا عند مسألة الهجرة هذه .

لا شك ان هناك تناقضا واضحا بين الانتماء الى المنظمة ذات البرنامج الصهيوني (مع ما يستتبع من مفاهيم محددة : كفكرة تكوين امة واحدة ، وفكرة الخلاص من الاضطهاد واللاسامية عن طريق انشاء دولة خاصة ، وفكرة البقاء خارج اسرائيل يعني البقاء في « المنفى » ...) وبين رفض الهجرة. وعلى العكس من « المنطقي » القول بأن واجب الذي ناضل من اجل تجميع يهود العالم فوق ارض فلسطين وتكوين دولة خاصة بهم ، واجبه الاستيطان فيها حالما تنشأ . لقد استطاع الصهيونيون في الغرب — قبل ١٩٤٨ — تجنب مسألة هجرتهم الشخصية الى فلسطين بحجة القيود التي كانت السلطة المنتدبة تضعها أمامهم. أما وبعد أن قامت الدولة وأعلنت حكومتها انها ترحب بكل يهودي يقدم الى اسرائيل ، وضع صهيونيو الغرب فجأة امام تحد ملح ولم يعد بمقدورهم تلافي المسألة . من قبل ، كانت المطالبة **بالحق في الهجرة** (فكان بالامكان التهرب دون تفسيرات) واليوم اصبح المطلوب تلبية **واجب الهجرة** (فوجب التبرير)(٦٢).

هنا يكمن ضعف الصهيونيين الاميركيين . كانوا يجيبون بأن فكرة « المنفى » صالحة لجميع البلدان غير الولايات المتحدة : ان دولة حرة مثل اميركا لا يمكن ان تصبح لاسامية وان تضطهد اليهود بسبب تقاليدها الديموقراطية العريضة وانتفاء ماض من العداء لليهود مثلما كان الحال في اوروبا في القرون الوسطى(٦٣). ان صهيونيي اميركا يعترفون انهم في « الشتات » ولكنهم ينكرون أن يكونوا في « المنفى »(٦٤).

ما معنى هذه الاجابة من قبل الصهيونيين الاميركيين ؟ يمكن القول **أولا** انها تعبير عن واقع يشترك فيه ايضا يهود الغرب : فان صهيونيي الولايات المتحدة مثل يهودها مندمجون في حياة بلادهم الاجتماعية (الاقتصادية على كل حال) وليس سهلا عليهم مغادرتها للقفز نحو المجهول وان كان محبوبا ومقدسا . وهذا يعلمنا على كل حال كيف ينبغي التفريق بين الاختيار الفكري ولو الصادق ، والاختيار الحياتي الذي قد يصعب — او ربما يستحيل — الاستجابة له في ظروف معينة . أما المعنى **الثاني** لرفض صهيونيي اميركا فكرة المنفى ، فانه بالغ الاهمية : انه تراجع ايديولوجي صريح من قبل الصهيونية الاميركية امام ضغط الراي العام اليهودي الاميركي .

ولكن هل هذا يعني ان لا فرق بين الصهيوني واللاصهيوني المؤيد لاسرائيل سوى انتماء الاول شكليا الى المنظمة الصهيونية ؟ وهل هذا يعني ان السبب الوحيد لاستمرار المنظمة الصهيونية في الوجود هو انطباق قانون « التصور الذاتي » (Law of Inertia) عليها ، بمعنى ان المؤسسات التي زالت وظيفتها تبقى على حيز الوجود لفترة معينة قد تطول؟(٦٥). لقد بينا سابقا ان الصهيونيين حاولوا التفريق بين رسالتهم القومية ونشاط سائر اليهود مناصري اسرائيل . وهم لذلك لم يستقبلوا تهكم بن — غوريون حول واجبهم في الهجرة الا باستياء وسخط عنيفين وقالوا : « ان الصهيوني الذي يهاجر الى اسرائيل يفقد صفته الصهيونية ويصبح اسرائيليا »(٦٦). وقد صرح برل لوكر ، رئيس اللجنة التنفيذية للمنظمة (عام ١٩٥٣) من جهته قائلا : « على الحركة الصهيونية ان تقوم بدور خاص . انني لا اوافق القول بأن فقط اليهودي الذي يأتي للاقامة في اسرائيل او ينوي الاقامة فيها في المستقبل القريب ، يمكن ان يدعى صهيونيا . علينا ان نأخذ الواقع بعين الاعتبار . ان تاريخ الحركة الصهيونية يعلمنا ان الجماهير اليهودية — حتى في الاوقات التي وصل فيها النشاط الصهيوني الى ذروته — لم تهاجر الى أرض اسرائيل طالما لم تكن خاضعة لضغط خارجي »(٦٧).

ان الموقف الصهيوني هذا ، الرافض للهجرة وفي الوقت ذاته المصر على خصوصية الصهيوني بالنسبة للاصهيوني المؤيد لاسرائيل ، يستدعي ملاحظة يجدر التطرق اليها لدى كل بحث عن علاقة اسرائيل

بالصهيونية العالمية . لا نظن انه بالامكان الفصل بين التثقيف القومي داخل التجمعات اليهودية وبين حمل هذه التجمعات الى مساعدة اسرائيل (او بعض المشاريع فيها) لان هذه المساعدة بالذات تؤدي دورا تثقيفيا (في الاتجاه القومي) على المدى البعيد . ومن جهة اخرى ، يبدو لنا مصطنعا عند تحديد كلمة « صهيوني » التفريق بين العضو المنتمي الى منظمة صهيونية رسمية والفرد غير المنظم الذي يبدي تأييده لاسرائيل بشتى الوسائل ، اذ النتيجة ، بالنسبة لنا نحن العرب ، تبقى هي هي : ترسيخ العدوان على ارضنا وضد شعبنا . ولكن رغم كل شيء ، من الواضح اننا ملزمون متهجيا باعتماد التمييز بين « الصهيوني » (عضو المنظمة الصهيونية) و« اللاصهيوني » (صديق اسرائيل) و« الاسرائيلي » ، اذ ان هؤلاء (وفي ظل الولاء لاسرائيل) يتصارعون ويتشابكون ويتحالفون فيما بينهم .

لنعد الى موقف الصهيونيين الاميركيين . فقد كانوا فعلا في مأزق : من جهة ، كانوا يريدون التقرب من اللاصهيونيين وكسب ثقتهم عن طريق التريث في قبول فكرة الهجرة الجماعية الى اسرائيل ، ومن جهة ثانية ، كانوا يريدون الظهور أمام الحكم الاسرائيلي وكأنهم يختلفون عن سائر اليهود . ومن المفارقة انهم اختلفوا مع اشقائهم اليهود حيث ينتظر ان يتعاونوا (أي في جمع التبرعات لصالح اسرائيل) واتفقوا معهم حيث ينتظر ان يختلفوا (مسألة الهجرة و«المنفى»)(٦٨). وفوق ذلك كانوا يدعون تزعم جميع يهود العالم (رغم اختلاف المهمات على حد قولهم) . فكانوا متزلقين بين تراثهم الايديولوجي ووضعهم المادي المتناقضين .

هـ — **وسائلهم للضغط على اسرائيل** : لقد رأينا كيف استطاع بن — غوريون ممارسة ضغوط سهلة لاخضاع المنظمة الصهيونية باستغنائه عن خدماتها لا أكثر . ولكن يجدر التساؤل ان كان للصهيونيين الاميركيين — بالمقابل — وسائل فعالة للضغط على الحكومة الاسرائيلية من أجل الحصول على الوضع القانوني الخاص الذي كانوا يطالبون به . يمكن تصور وسيلتين لهذا الغرض : التهديد بتقليص المساعدة ، التهديد بالتدخل في السياسة الاسرائيلية نفسها . ماذا حصل في الواقع بالنسبة لاستخدام هاتين الوسيلتين ؟

١ — هل كان بامكان المنظمة الصهيونية التهديد بتقليص المساعدات للدولة اليهودية ؟

طبعا لا . كان من الواجب استيفاء شرطين لا غنى عنهما لاطلاق هـذا التهديد بفعالية : شرط عملي وشرط ايديولوجي .

— الشرط العملي : كان من المفروض ان تكون المنظمة الصهيونية (وخاصة م. ا. ص.) هي المسؤولة عن ادارة المساعدات اليهودية كي تتصرف بها . ولكن كما رأينا ، كان نفوذ الجمعيات اليهودية الاميركية قويا الى حد جعلها تشرف في نهاية الامر على الصندوق من اجل اسرائيل .

— الشرط الايديولوجي : لم يكـن من الممكن ايديولوجيا التهديد بالفتور نحو اسرائيل . لقد نشأت الحركة الصهيونية مـن اجل ايجاد دولة يهودية . ثم عندما قامت هذه الدولة ، أعلنت الحركة ان مهمتها لم تنته بعد . فكان عليها — من اجل ازالة شكوك الاسرائيليين — ان تثبت بالفعل انها بمستوى المسؤولية التي ألقتها على نفسها .

وهكذا لم يكن بوسع الصهيونيـين الاميركيين مقاطعة الحكومة الاسرائيلية او على الاقل التهديد بالكف عن اداء مهمتهم عندما ظهرت بوادر الاتصال المباشر بين يهود العالم واسرائيل . بل كان عليهم كلما ازدادت الشكوك (اي كلما ظهرت علامات الاستغناء عن خدماتهم) ان يضاعفـوا جهودهم (المساعدات وعلامات التأييد للدولة) لازالة هذه الشكوك(٦٩).

ولكن — وهنا يكمـن ضعف المنظمة — رغـم مضاعفة الجهود ، لم يستطع القادة الصهيونيون التوصل الى مواقـع أكثر تقدما فـي الطوائف اليهودية . ففي اميركا مثلا ، خسرت م. ا. ص. التي كانت تضم حوالـي ٣٠٠٫٠٠٠ عضو عـام ١٩٤٩ ، بين ٤٠٫٠٠٠ و٩٠٫٠٠٠ عضو منذ خلق الدولة حتى أيلول ١٩٤٩(٧٠). ان قسما من اليهود الذين كانوا يعملون قبل ١٩٤٨ من أجل اقـامة دولة يهودية وانخرطوا من أجل ذلك في المنظمات الصهيونية ، رأوا بعد قيام الدولة ان مواصلة تأييدهم لم يعد يحتاج الى متابعـة الانتماء الى

المنظمات الصهيونية ، عدا عن شعور البعض بأن الهدف المرجو قد تحقق .

كانت شكوك القادة الاسرائيليين مزدوجة اذا . فمن جهة ، لم يكترثوا جديا باحتجاجـات المنظمة الصهيونية ، بل وثقوا من انتفاء خطر « الطلاق » ومن استمرار التزام المنظمة الصهيونية باسرائيل مهما كان استخفافهم بها . ومن جهة ثانية ، وثقوا من قدرتهم الذاتية على تأمـين التأييد اليهودي العالمي وشكوا في قدرة المنظمة على تجنيد يهود العالم حتى اقصى حد[٧١]. فجاء الهبوط في تأييدها — كما ونوعا — ليس نتيجة لضغط مارسته بل لعجز لم تستطع تخطيه . من هنا مطلبها الحيوي باعتراف رسمي من قبل الحكومة كممثلة وحيدة لجميع يهود الدياسبورا المؤيدين لاسرائيل . فهذا المطلب — بصفته حيوي — ينم عن ضعف المنظمة وليس عن قوتها .

هل الوسيلة الثانية التي تصورناها كانت ممكنة؟

٢ — هل كان بامكان المنظمة الصهيونية التهديد بالتدخل في السياسة الداخلية الاسرائيلية ؟

ان هذا السؤال يدعونا الى الرجوع الى فترة ما قبل الدولة . من المعروف ان المؤتمر الصهيوني — السلطة العليا في المنظمة — يشتمل على ممثلي الاحزاب الصهيونيـة حسب قوتها في قواعدهـا الانتخابية . وكان الحزب الاقوى قبـل الحرب العالمية الثانية « الاتحاد العالمي لعمال صهيون » اذ كان مجموع مندوبيه في المؤتمر الواحد والعشرين (جنيف ١٩٣٩) يبلغ ٢٣٤ بينما كان الحزب الذي يليه اي حزب الصهيونيين العموميين أ (وهو يضم م. ا. ص. السالفة الذكر مرارا) يشغل ١٥٩ مقعدا . غير ان الصورة انقلبت في مؤتمر بازل (١٩٤٦) بسبب نتائج الحرب علـى الطوائف اليهوديـة الاوروبية وتعاظـم دور الصهيونيـين الاميركيين في تلك الفترة . فانحصر دور حزب العمال في فلسطين وهكذا لم يتمكن الا بارسال ١٠١ مندوب الى مؤتمر بازل ، بينما أوفد الصهيونيون العموميون ومعظمهم من اميركا ١٢٣ مندوبا . وهذا يعني ان المنظمة الصهيونية العالمية كانت قبل اقامة اسرائيل تابعة لنفوذ الصهيونيين العموميين او عمليا لنفوذ الصهيونيين في الدياسبورا . وبينما كانت الصهيونية في فلسطين تريد تجسيد اماني اليهود العمال الذين يتطلعون — او على الاقل جزء منهم — الى علاقات ودية مع الشرق الاشتراكي[٧٢]، كان الصهيونيون العموميون ذوي منحى يميني غربي : التحالف مع الغرب ، الاقتصاد الحر ، لا لصراع الطبقات ، لا لتسلط الاحزاب على المؤسسات الاجتماعيـة في الييشوف (الجهاز التربوي ، الضمان الصحي) . لا ريب ان التناقض بين ما سمي اليمين الصهيوني واليسار الصهيوني تناقض ثانوي (بالنسبة لنا أو بالنسبة للمطامع الصهيونية في بلادنا) ، ولكن من الطبيعي ان يزيد من حدة التناقض (الذي يوازيه) بين الدياسبورا والداخل .

عندما نشأت الدولة ، كان للاحزاب الصهيونية دور مزدوج : فمن جهة شاركت في الحكم كأحزاب اسرائيلية وفي الوقت ذاته ظلت ممثلة في المنظمة الصهيونية . غير ان هذا الامـر لم يكن يعني بالضرورة ان مراكز الاحزاب الرئيسية كانت ستتبع كلها في فلسطين المحتلة . ان هذه الملاحظة تنطبق بشكل خاص على الصهيونيين العموميين : فمركز الصدارة كانت تحتله م. ا. ص. بينما لم يلعب اخوانهم في اسرائيل دورا ذا اهمية . أما بالنسبة لاتحاد العمال الصهيونيـين ، فكانت الصـورة معكوسة : حزب حاكم في اسرائيل ومسيطر على الفروع في الشتات .

بما ان م. ا. ص. تمثل التنظيم الصهيوني الاقوى في الدياسبورا والمتنافس مع الحزب الحاكم الاسرائيلي ، يمكننا حصر اهتمامنا بها (هنا ايضا) لدى تساؤلنا عن احتمال تدخل المنظمة الصهيونية العالمية في السياسة الداخلية الاسرائيلية .

لم تكن الصلة متينة بين مختلف فروع الصهيونيين العموميـين وبشكـل خاص بـين م. ا. ص. والصهيونيين العموميين في فلسطين . لقد كونوا تجمعا مهلهلا قابلا للانشقاقات العديدة أكثر ممـا كانوا حزبا منظما . وتعـود نشأتهم بالفعل الى رفضهم الانتماء الى الاحزاب الصهيونية التي قامت في الحركة ... ان انتفاء العلاقـات التنظيمية الوثيقة بين م. ا. ص. والصهيونيين العموميين في فلسطين منع تسلطا فعالا مـن قبل الفرع القوي (في اميركا) على الفرع الضعيف (في فلسطين).

عندما قامت دولة اسرائيل وأخـذ الصهيونيون العموميون في اميركا يشعرون بخطر زوال نفوذهم في تقرير السياسة الصهيونية — الاسرائيلية وبخطر

اتجاه الدولة نحو المعسكر الاشتراكي وابتعادها عن الولايات المتحدة(٧٣)، درسوا احتمال تقوية الصهيونيين العموميين في اسرائيل كوسيلة (من بين وسائل اخرى) لابعاد هذه « الاخطار » . لم تكن محاولة ربط العموميين في امـيركا باخوانهم الحزبيين في اسرائيل مجرد نتيجة لتحليل موضوعي، بل كانت ايضا حاجة عاطفية ماسة . ان اقامة الدولة (وبالتالي استقلالها التنظيمي عن الحركة الصهيونية) صفعت م. ا. ص. في الصميم . ربما حصل الامر نفسه للمنظمات الصهيونية الاميركية الاخرى ، ولكن بدرجة أقل بالتأكيد ، اذ كانت مرتبطة بشكل او بآخر بمهمات او بمؤسسات محددة في فلسطين : مشروعات خيرية معينة (وهذا صحيح بالنسبة لجمعية هاداسا مثـلا) ، حملات تبرع للهستدروت (كان يقوم بها حزب عمال صهيون في اميركا) ، اواصر دينية (مزراحي ...)(٧٤)... أما م. ا. ص. فكانت علاقتها بفلسطين علاقة عامة ولم تكن مرتبطة بمشروع خيري أو استيطاني او ديني معين يمكن متابعة الاضطلاع به بغض النظر عن وجود الدولة اليهودية او عدم وجودها . وهكذا لبت محاولة الارتباط اللاحقة بالصهيونيين العموميين الاسرائيليين مطلبا عاطفيا الى جانب مطاليب اخرى تكتيكية . لقد تقرر هذا الاتجاه رسميا في مؤتمر م. ا. ص. في تموز ١٩٥١ ومن المناسب هنا ان نورد ما كتبه مراقب اميركي حذق (وهو الِمر برغر يهودي معاد للصهيونية) حول هذا الموضوع في آب ١٩٥١ :

« لقد حافظت م. ا. ص. حتى الان على وجودها المستقل عن الحزب الصهيوني العمومي الاسرائيلي الصغير . غير ان م. ا. ص. قررت رسميا في مؤتمرها الاخير انهاء عزلتها هذه . ان الاستراتيجية وراء هذه المناورة تتصل بالنزاع بين بن — غوريون وسلفر وم. ا. ص. وبالتغازل القائم بين بن — غوريون والاميركيين « اللاصهيونيين » .

ان صهيونية م. ا. ص. تمثل من الناحيـة الاقتصادية رأسمالية الطبقة الوسطى . ان البعض من زعمائها منزعجون من اشتراكية بن — غوريون. اما بن — غوريون فهو من جهته لا يرغب في رؤية هؤلاء الصهيونيين العموميين الاميركيين يرتبطـون بالجماعة الصهيونية العمومية في اسرائيل ويمدونها بالمساعدة .

فبن — غوريون معني بالامر لانه من الممكن ان يضطر الى دعوة الصهيونيين العموميين الاسرائيليين الى الاشتراك في حكومة ائتلافية جديدة. ان ورود هذا الاحتمال نابع من نجاحات الصهيونيين العموميين في الانتخابات المحلية الاخيرة في اسرائيل ومن الازمة الناشبة بين بن — غوريون وشركائه السابقين في الحكومة الائتلافية اي اعضاء الكتلة الدينية (...). بامكان بن — غوريون اذا ان يأمل فقط ألا ترتبط الجماعة الصهيونية العمومية الاقوى في العالم اي م. ا. ص. بالصهيونيين العموميين الاسرائيليين الذين ما زالوا ضعفاء ومنقسمين فيما بينهم .

ان استراتيجية سلفر — كما هو منتظر — على العكس تماما . لقد أراد مـن جولته الاخيرة في اسرائيل تقوية الصهيونية العمومية هناك . ويقال ايضا انه حمل معه بالفعل أموالا اميركية لمساعدة الصهيونيين العموميين الاسرائيليين فـي حملتهم الانتخابية . ان سلفر يعي المأزق الحالي الذي يواجهه بن — غوريون فيما يخص تأليف حكومة جديدة ، ويريد بالتالـي ان يكون اشتـراك الصهيونيين العموميين المحتمل في الحكومة الجديدة قويا حتى اقصى حدود الممكن . وتأمل م. ا. ص. بهذه الطريقة الحصول على وضع ارقى في دولة اسرائيلية تصبح اقل اشتراكية مما هي الان . ويعتقد زعماء م. ا. ص. انهم اذا ما حسنوا مكانتهم في اسرائيل فسيستردون نفوذهم — ولا نتكلم عن امكانياتهـم المالية — هنـا في الولايـات المتحدة (...) . ان هذه الاهداف قـد يسهل تحقيقها اذا منحت المنظمة الصهيونية العالمية وضعا قانونيا خاصا في اسرائيل ، اذ قد تصبح المنظمة في هذه الحالة الوكالة التي تمثل في اسرائيل الشعب اليهودي الذي يعيش خارج اسرائيل . ويترتب على ذلك ان تمر كل المساعدات الموجهة لدولة اسرائيل او للاسرائيليين مـن خلال أيـاد صهيونية منظمة . وطالما ان اسرائيل ستظل بحاجة الى تأييد اليهود من خارج الدولة (وبن — غوريون نفسه يقر اليوم أن الحاجة هذه ستدوم عشر سنين على الاقل) ، يتضح ان منح وضع قانوني خاص للمنظمة الصهيونية العالمية سيجعل بن — غوريون او اية حكومة اسرائيلية خاضعة للحركة الصهيونية. وعندئذ — كما يأمل زعماء م. ا. ص. — اذا ما فقد الاسرائيليون حقهم في التمتع بصوتين بدل من

الصوت الواحد في المؤتمر الصهيوني ، ستتمتع م. ا. ص. على الارجح بميزان القوى لصالحها في الصهيونية العالمية .

(...) ولكن من سوء حظ سلفر ونيومان وم. ا. ص. ان بن — غوريون يعلم كل ذلك أيضا، وكذلك من سوء حظ سلفر ونيومان وم. ا. ص. ان السيد بلاوشتاين ورفاقه « اللاصهيونيين » لا يعون الدور الذين يلعبونه . اذ من دونهم لما كان باستطاعة بن — غوريون ان « يتعالى » على سلفر ونيومان وم. ا. ص. (...) أن بن — غوريون يمسك زمام المبادرة بمساعدة « اللاصهيونيين » . لقد قضت الحركة الصهيونية على نفسها بخلقها دولة اسرائيل اذ أن الدولة تسيطر على الحركة عن طريق سيطرتها على الوكالة اليهودية »(٧٥).

بيد أن الاحداث اللاحقة (التي أيدت تحليلات برغر في مجملها) لطفت نوعا ما من تنبؤاته في هذا المقال . اذ اضطر بن — غوريون ان يدخل الصهيونيين العموميين في حكومته الجديدة واسترجعت م. ا. ص. جزءا من نفوذها السابق (وخاصة بعودة ابا هيلل سلفر منتصرا الى م. ا. ص. في شباط ١٩٥٣)(٧٦). غير ان حدود هذه التطورات واضحة لانه لم يكن من المأمول بتاتا ان تستطيع المحاولة الوحيدة الجدية التي اجرتها قوى داخل المنظمة الصهيونية العالمية للتأثير على السياسة الداخلية الاسرائيلية (هذه المحاولة الصادرة عن م. ا. ص.)(٧٧) اعادة العلاقات الى ما كانت عليه قبل خلق الدولة ، بل كان جل ما يمكن ان تؤدي اليه هو ان تبرهن ان م. ا. ص. لن تكف عن السعي الى الافلات من السيطرة الاسرائيلية المطلقة . ان النزاع الذي دار بين م. ا. ص. والحكم الاسرائيلي يشير في جميع جوانبه الى أمر يتعدى الفترة القصيرة اللاحقة لقيام اسرائيل : فرغم الشروط الموضوعية التي تحتم تفوق اسرائيل على المنظمة الصهيونية العالمية ، ستظل قوى معينة داخل المنظمة تعاكس التسلط الاسرائيلي عليها لانها هي أيضا تمثل مصالح موضوعية « دياسبورية » لا تتطابق ضرورة مع المصالح الاسرائيلية . او بعبارات اخرى : ان ميزان القوى الذي سيبقى دوما لصالح اسرائيل لا يستطيع بالوقت ذاته القضاء نهائيا على محاولات الصهيونية الدؤوبة للاستقلال الذاتي . سنرى بعد قليل كيف انعكس هذا **التوازن اللامتكافىء بشكل دائم على** العلاقات القانونية بين المنظمة العالمية واسرائيل وعلى الايديولوجية الصهيونية نفسها (علاقات وايديولوجية التي كان لا بد من تحديدها — ولو موقتا — في نهاية المرحلة الانتقالية) .

[علينا ان نتوقف قليلا على ملاحظة ربما لا تدخل في سياق تحليلنا هنا ولكنها ترد الى ذهن القارىء بعد قولنا ان م. ا. ص. لم تستطع التأثير بفعالية على السياسة الداخلية الاسرائيلية . يجدر الا يعمم هذا القول بسرعة ويؤول بمعنى ان الحركة الصهيونية العالمية لا تؤثر على بنية النظام الاسرائيلي . بل على العكس : ان تأثير الصهيونية العالمية على النظام الاسرائيلي تأثير جوهري وشامل وليس تأثير عرضي وجزئي . كيف يحصل ذلك ؟ نستعين بالشرح الذي يعطيه اوري افنيري للمسألة : « **على الاحزاب الاسرائيلية ان تظل صهيونية** لان الصهيونية تمدها بالمال اللازم لنشاطها ... ان المال هذا يصل الى اسرائيل بواسطة الوكالة اليهودية ... فالوكالة كناية عن اتحاد احزاب بكل تدقيق وبكل بساطة ... انها ترسل بضعة ملايين من الدولارات مباشرة الى الاحزاب الصهيونية التي فوضتها مهمة جمع التبرعات في الولايات المتحدة. ان الوكالة اليهودية، بتمويلها منظمات الشباب والنشاطات الثقافية ودوائر الدعاية او سائر المؤسسات التي تملكها الاحزاب الصهيونية ، الوكالة اليهودية تساعد هذه الاحزاب على تثبيت اجهزتها ونفوذها في اسرائيل والخارج ... لا عجب اذا ان كانت الصهيونية مقدسة بالنسبة لجميع الاحزاب »(٧٨). فلا قوة لحزب اسرائيلي ولا أمل له أن يصل الى الحكم اذ أعلن معاداته للصهيونية . بيد انه رغم كل ذلك ، من الواضح ان المساعدة المباشرة من قبل حزب صهيوني في الدياسبورا الى الحزب الشقيق في اسرائيل ، لها نتائج محدودة يصعب تخطيها ، اذ تقابلها مساعدات اخرى مباشرة من قبل كل من الاحزاب الصهيونية الاخرى في الدياسبورا الى شقيقاتها في اسرائيل . وهكذا نجد ان اللعبة بين الاحزاب الاسرائيلية لا تتأثر الا قليلا بتدخل هذا الطرف الصهيوني الخارجي او ذاك(٧٩).]

٧ — التحديـد الايديولوجـي والقانوني للمنظمـة الصهيونية العالمية :

ان جميع العناصر التي تمكنا من جمعها حول القوى الموجودة علـى الساحة الصهيونيـة — الاسرائيلية تشير دون ريب الى ضرورة صياغـة قواعد جديدة للتعامل تكون متناسبة مـع الاوضاع المستجدة التي رافقت قيام دولة اسرائيل . وليس من شأن هذه القواعد ان تحل جميع الاشكالات ولا حتى ان تجمد التناقضات ، بل كان من المراد بها التأكيد على نقاط الالتقاء والتعبير عن التراجعات التي كـان لا بد منهـا والاتفاق على تأجيل البت في بعض الامور كي يحكم التاريخ حكمه . وقد أقرت هذه القواعد في مناسبات ثلاث : المؤتمر الثالث والعشرين للمنظمة الصهيونية العالمية (١٩٥١) ، التشريع الاسرائيلي المتعلق بوضع المنظمة القانوني (١٩٥٢) ، الميثاق الموقع من الطرفين (١٩٥٤) .

أ — المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون :
انعقد المؤتمر في القدس من ١٤ الى ٣٠ آب ١٩٥١ بعد تأجيلات عديدة اذ كان من المفروض ان ينعقد أصلا في اواخر ١٩٤٨ . لم تكن الاحداث الجارية في فلسطين هي فقط التي أخرت انعقاد المؤتمر ، بل كانت الصراعات الداخلية عاملا هاما في التأجيل . على كل حال ، بعثت الاحزاب الاسرائيلية ٢١٠ مندوبين بينما أرسلت الدياسبورا ٢٥٦ مندوبا . أما الكتلتان الهامتان من الناحية الحزبية فكانتا : عمال صهيون (١٦١) ، العموميون (١١٨) .

ليس هدفنا استعراض دقائق المؤتمر(٨٠)، بل ما يهمنا هو النتيجة التي توصل اليها فيما يخص تحديد مفهوم الصهيونية بعد قيام الدولة . كانت هذه المسالة بالفعل الحلقة التي دارت حولها جميع المناقشات . وكان المفروض في الاصل ان يتوصل المؤتمر الى اعلان « برنامج القدس » كي يحل محل « برنامج بازل »(٨١) الذي اعلـن في المؤتمـر الصهيوني الاول عام ١٨٩٧) وكان من المفروض ايضا ان يحدد ليس فقط مهمات الحركة الصهيونية بل هدفها النهائي . غير ان التناقضات القائمة بين المندوبين الاسرائيليين (الذين كانوا يؤيدون صيغة قومية متشددة) والمندوبين الاميركيين ، وحـرص الاسرائيليين رغم كل شيء على بلوغ شبه اجماع في مسودة البرنامج ، والتخوف من ردة فعل يهودية اميركية عنيفة(٨٢) ازاء تحديدات قومية متطرفة ، كل ذلك حال دون تبني برنامج جديد يلغي برنامج بازل . فأجلت المسألة الى المستقبل وبقي برنامج بازل ساري المفعول . غير ان المؤتمر نجح في اتخاذ قرار يحدد مهمة الصهيونية كما يلي : « تقوية دولة اسرائيل ، وتجميع المنفيين في ارض اسرائيل ، وتنمية وحدة الشعب اليهودي »(٨٣).

قد يقال ان المهمة الصهيونية ، حسب ما عبر عنها المؤتمر تكفي ان تنعت بالتطرف القومي . هذا صحيح (بالنسبة لنا) ، ولكن اذا قيست بالمشروع الاولي ، يمكن اعتبارها « معتدلة » . لقد قدم الصهيونيون الاسرائيليون والتحريفيون مشروع قرار يقترح الصيغة التالية : ان **هدف** الصهيونية هو **خلاص** الشعب اليهودي **من خلال** تجميع المنفيين في ارض اسرائيل .

ما الفرق بين الصيغتين ؟ ان الصيغة الثانية — أي المشروع غير المتبنى — يشير الى ان الخلاص لا يكمن الا في الدولة وان تجميع المنفيين هو الوسيلة الوحيدة للخلاص (وهذا واضح من عبارة « من خلال ») وان الشعب اليهودي بأسره هو في المنفى طالما بقي خارج اسرائيل . اما الصيغة الاولى التي اقرها المؤتمر فعلا ، فانها تكتفي بسرد ثلاث مهمات مستقلة عن بعضها بعضا بعلامة فاصلة (؛) دون اجراء ربط بينها . فالربط يجعل من الرابط « وسيلة » الزامية ومن المربوط هدفا ، الامر الذي كان يرفضه الصهيونيون الاميركيون(٨٤). اما المهمات الثلاث المذكورة جنبا الى جنب ، فكانت تحظى باجماع الجميع (مع بعض التحفظ ربما من قبل اليهود الاميركيين) اذ كانت تتطرق اما الى برامج عملية (مساعدة الدولة ، تسهيل الهجرة لطالبي الهجرة) او الى تصريح طوباوي (وحدة الشعب اليهودي) . وأكثر من ذلك : ان الصيغة المعتمدة تشير الى عدم الوضوح المقصود : فعبارة وحدة الشعب اليهودي قد تعني وحدة روحية (التفسير اليهودي الاميركي)، او تعني وحدة قومية (التفسير الصهيوني الاسرائيلي) ، وعبارة « تجميع المنفيين » قد تشمل جميـع يهود الدياسبورا (التفسـير الاسرائيلي) كما يمكن ان تشتمل فقط على اليهود الذين يحتاجون الى الهجرة الفعلية دون غيرهم ممن لا يعتبرون انهم في المنفى (التفسير الاميركي) . أما كلمة « خلاص » ، فحذفت من المقررات النهائية نزولا عند رغبة الصهيونيين الاميركيين الذين رفضوا ان « يخلصوا »(٨٥).

من الواضح اذا ان مسألة الهجرة كانت اساسية في المؤتمر اذ ما المناقشات حول كلمات « منفى » ، « خلاص » ، « أمة يهودية » الا تعابير ايديولوجية لمسألة الهجرة الى اسرائيل . غير ان المؤتمر تطرق لها ايضا بشكل صريح واتخذ قرارا بهذا الصدد هذا نصه: «ان المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرين يناشد تلك الجماعات اليهودية التي لا تزال الهجرة من وسطها الى اسرائيل على نطاق صغير ، ولا سيما الجماعات الموجودة في نصف الكرة الغربي ، الانضمام الى حركة الهجرة صوب اسرائيل . هذا النداء موجه بنوع خاص الى الشبيبة في تلك الجماعات . فالمنظمة الصهيونية والهيئات القائمة في البلدان المعنية مطالبة بالحاح للتشجيع والمساعدة في تنظيم النشاطات لاجل زيادة الهجرة الى اسرائيل من اوساط تلك الجماعات . على ان تعطى الافضلية لهجرة الرواد الطلائعيين من الشباب ، والاشخاص من اصحاب المهن والمهارات ، والذين يملكون الوسائل المالية »(٨٦).

يبدو ان الصهيونيين الاميركيين انفسهم صوتوا الى جانب هذا القرار(٨٧). بيد انه يجدر الانتباه الى ان القرار لا يتكلم عن الهجرة الجماهيرية ، الجماعية ، بل فقط عن هجرة رائدة ، طلائعية ، فردية ، لا تغير من معالم الطوائف اليهودية الغربية . فيجب اذا تفسير القرار بأنه حل وسط بين الصهيونيين الاسرائيليين والصهيونيين الاميركيين .

المسألة الثانية الهامة التي تدارسها المؤتمر كانت تخص الوضع القانوني الخاص المطلوب منحه من قبل الدولة . اذا كان علينا ان نصنف القوى الاساسية حسب حماسها لمبدأ الوضع القانوني الخاص ، يمكننا عرض الترتيب التالي (من الاكثر حماسا الى أقله) : اولا : الصهيونيون الاميركيون، ثانيا : الصهيونيون الاسرائيليون ، ثالثا : الحكم الاسرائيلي ، رابعا : اليهود الاميركيون .

اليهود الاميركيون (وهم المعارضون للوضع القانوني الخاص) لا يشتركون طبعا في المؤتمر ولكنهم يكونون الطرف الخفي الذي يضغط على الحكومة الاسرائيلية . أما الحكومة فهي تنعم بنفوذ قوي في المؤتمر — على الاقل من خلال المندوبين الاسرائيليين وخاصة « العمال » . على ان للحكومة اعتبارات (ضبط المنظمة) ومصالح آنية (ضغوط يهود اميركا) لا يخضع لها بالضرورة او بشكل آلي المندوبون الاسرائيليون . فكان بامكان هؤلاء ان يتمتعوا بهامش من التحرك سمح لصهيونيي الخارج ان يحصلوا على قرارات واضحة فيما يخص المطالبة بوضع قانوني خاص . ويمكن اعتبار هذه القرارات بمثابة توصيات موجهة للحكومة الاسرائيلية كي تسن قانونا يكرس هذا الوضع الخاص حسب مطاليب المؤتمر(٨٨). وهذا يعني ان هذه القرارات لم تلزم الحكومة رغم انه من المفترض انها حظيت برضاها (برضاها ليس ضرورة في مضمون جميع بنودها ، ولكن كمطلب معقول قد تأخذه بعين الاعتبار) . ونقتطف منها ما يلي :

« يرى المؤتمر من الجوهري ان تقوم دولة اسرائيل ، عن طريق **الاجراء التشريعي الملائم** ، بمنح المنظمة الصهيونية العالمية **وضعا قانونيا** بصفة كونها **تمثل الشعب اليهودي في كافة الشؤون** المتعلقة بالمشاركة المنظمة من جانب يهود الشتات في تطوير البلاد وبنائها ، والاستيعاب العاجل للمهاجرين . فيما يتصل بجميع النشاطات التي تجري ممارستها لخدمة مصالح دولة اسرائيل داخل الجماعات اليهودية في الشتات انه لمن الجوهري ان تعمل حكومة اسرائيل ودولتها بالتشاور والتنسيق مع المنظمة الصهيونية العالمية »(٨٩).

من الاكيد انه كان من شأن هذه التوصيات ان ترضي كافة المنظمات الصهيونية . ولكن تجدر الاشارة الى ان المنظمة الصهيونية لم تذهب الى حد القول بأنها تمثل الشعب اليهودي بشكل مطلق وفي كافة المجالات ، بل انها تمثله فقط في الشؤون المتعلقة بمساعدة اسرائيل. رغم ذلك « التلطيف »، لم يكن بمقدور الجمعيات اليهودية المؤيدة لاسرائيل ان تقبل بهذا التمثيل . ويمكن افتراض حالة واحدة لقبولها : ان توسع المنظمة (ايديولوجيا وتنظيميا) كي تستوعب جميع اليهود « اصدقاء اسرائيل » . يجب الا ننسى هنا ان تجربة الوكالة اليهودية (بانضمام بعض اللاصهيونيين ولو شكليا اليها) كانت ماثلة للعيان وقد قدمت بالفعل بعض المقترحات (وخاصة من الصهيونيين الاميركيين) لاعادة تنظيم الوكالة والمنظمة في هذا الاتجاه (وخاصة بتكوين فدراليات وطنية تكون مستقلة عن الاحزاب ولا تجعل من الانتماء الى الاحزاب أمرا الزاميا ...)(٩٠) ولكن أجلت كلها الى المستقبل.

ب — **التشريع الاسرائيلي المتعلق بوضع المنظمة القانوني والميثاق** : كان هم الحكومة الاسرائيلية الشاغل ، وخاصة بوجود بن — غوريون ، كسب اكبر قدر ممكن من الدعم اليهودي ، وكبح جماح المنظمة الصهيونية ذات المطامح الضخمة بسبب دورها السابق في خلق الدولة . ولكن مجرى الامور تلص هذه المطامح الصهيونية كما رأينا الى حجم واقعي ولم بعد بمقدور المنظمات الصهيونية الا ان تسعى الى استقلالها الذاتي(٩١). وبناء عليه ، ما كان من مصلحة بن — غوريون حسم الصراع جذريا بين الصهيونيين واليهود الاميركيين ، بل كان ما يهمه توظيف جميع الامكانيات (حتى وان تصارعت) لصالح اسرائيل . فلم يكن عجيبا ان يغير موقفه كلما وجه كلامه الى هذا الطرف او ذاك وقد تجلى ذلك في مسألة سن التشريع المتعلق بمنح المنظمة الصهيونية وضع قانوني خاص . فبعد أن قدم مشروعا الى الكنيست بهذا الصدد وبعد أن أقرته في قراءة اولى ، سحب بندا من المشروع المذكور واستبدله بآخر . فماذا حصل بالفعل ؟

لقد كان المشروع الاصلي يتكلم عن المنظمة الصهيونية كممثلة للشعب اليهودي في الشؤون المتعلقة بمساعدة الدولة (تمشيا مع مقررات المؤتمر الصهيوني) . ولكن بسبب تدخل الجمعيات اليهودية الاميركية وتهديداتهم ، استبدلت عبارة « **ممثلة الشعب اليهودي** » بعبارة « **وكالة مخولة السلطات** »(٩٢). نذكر هنا على الاخص موقف اللجنة اليهودية الاميركية (تشرين الاول ١٩٥١) : « اننا نحذر دولة اسرائيل من عدم لياقة : آ) اعطاء أي نوع من الاعتراف الديبلوماسي لاية هيئة غير حكومية ، ب) اعطاء أي وضع قانوني سياسي داخل اسرائيل لاية منظمة غير اسرائيلية او لاية هيئة غير حكومية »(٩٣).

ان عبارة « وكالة مخولة السلطات » تجرد المنظمة من اية صفة تمثيلية وتجعلها مجرد أداة . على كل حال ، نذكر هنا بعض ما ورد في القانون (وقد أقرته الكنيست نهائيا في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٥٢) :

« تعترف دولة اسرائيل بالمنظمة الصهيونية العالمية على انها الوكالة المخولة السلطات والتي سوف تتابع اعمالها في دولة اسرائيل لاستيطان البلاد وتنميتها ، ولاستيعاب المهاجرين من الشتات، ولتنسيق الانشطة في اسرائيل والتابعة للمؤسسات والجمعيات اليهودية العاملة في تلك المجالات »(٩٤).

اما فيما يتعلق بتوسيع اطار المنظمة كي تتمكن من استيعاب « اللاصهيونيين » ، فيقول القانون : « ان دولة اسرائيل تتطلع صوب مشاركة جميع اليهود والهيئات اليهودية في بناء صرح الدولة ومساعدة الهجرة الجماعية اليها ، مثلما تعترف بالحاجة الى توحيد جميع الفئات والجاليات اليهودية لهذه الغاية . تتطلع دولة اسرائيل الى المساعي التي تبذلها المنظمة الصهيونية العالمية في سبيل تحقيق هذا التوحيد. وعندما تقرر المنظمة الصهيونية توسيع اطارها لاجل هذا الغرض ، وبعد موافقة الحكومة وتصديق الكنيست ، فان الهيئة الموسعة سوف تتمتع بالوضع الشرعي اياه والذي جرى منحه للمنظمة الصهيونية العالمية في دولة اسرائيل »(٩٥).

ومن جهة اخرى تتعهد اسرائيل بوضع ميثاق كي يوقعه الطرفان : « ان شروط الوضع الشرعي وشكل التعاون بين كل من المنظمة الصهيونية العالمية — كما تمثلها اللجنة التنفيذية الصهيونية والتي تدعى ايضا باللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية لفلسطين — والحكومة سوف يتم وضعها في ميثاق يجري ابرامه بين الحكومة واللجنة التنفيذية الصهيونية »(٩٦). ولكن القانون لا ينسى دعوة المنظمة الى « اقصى درجة من التعاون والتنسيق مع دولة اسرائيل وحكومتها **تمشيا مع قوانين الدولة** »(٩٧).

وينص القانون اخيرا على ان « اللجنة التنفيذية هي شخصية قانونية ويحق لها ابرام العقود والاستحصال على الاملاك والاحتفاظ او التصرف بها ، كما يحق لها ان تدخل طرفا في جميع المعاملات القانونية وغيرها » .

كانت الخطوة التالية الواجب اتخاذها عقد ميثاق بين الطرفين يتمشى مع قانون الكنيست الخاص بالوضع القانوني . ويتضمن الميثاق (الذي وقع عام ١٩٥٤) الصلاحيات التي تتنازل عنها حكومة اسرائيل لاناطتها باللجنة التنفيذية الصهيونية (او اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية) كما انه يحدد واجبات المنظمة الصهيونية ويرسي قواعد التنسيق بين الطرفين في المستقبل. نقتطف من الميثاق ما يلي:

« فيما يلي وظائف اللجنة التنفيذية الصهيونية كما يتضمنها هذا الميثاق : تنظيم الهجرة في الخارج ونقل المهاجرين وممتلكاتهم الى اسرائيل ، التعاون في استيعاب المهاجرين داخل اسرائيل ، هجرة الشبيبة والاحداث ، الاستيطان الزراعي في اسرائيل (...) ، المشاركة في انشاء وتوسيع المشاريع الانمائية داخل اسرائيل ، تشجيع التوظيفات لرؤوس الاموال الخاصة في اسرائيل (...) ، تنسيق النشاطات في اسرائيل للمؤسسات والمنظمات اليهودية العالمية ضمن حدود هذه الوظائف وعن طريق الصناديق المالية العامة . كل نشاط يجري تنفيذه في اسرائيل بواسطة اللجنة التنفيذية او بالاصالة منها على سبيل تأدية الوظائف المدرجة اعلاه ، او جزء منها ، سوف ينفذ وفقا لقوانين اسرائيل وتمشيا مع الانظمة والتعليمات الادارية التي يسري مفعولها من وقت الى آخر ، والتي تتحكم بنشاطات السلطات الحكومية ذات الوظائف المغطية للنشاط المعني او المتأثرة به (...) تتشاور الحكومة مع اللجنة التنفيذية بشأن التشريع الذي يطال وظائف اللجنة التنفيذية بنوع خاص ، وذلك قبل احالة هذا التشريع الى الكنيست »(٩٨).

ماذا يمكن الاستنتاج من الميثاق(٩٩) يبدو من الوهلة الاولى اننا هنا امام فريقين متساويين ، حدد كل منهما موقفه من طرف واحد (المنظمة الصهيونية من خلال قرارها في المؤتمر الثالث والعشرين ، دولة اسرائيل من خلال قانون الكنيست لعام ١٩٥٢) قبل ان تلتقي الارادتان في عقد ثنائي حر : الميثاق . ومن شأن هذا التفسير للميثاق أن يمنح المنظمة الصهيونية وضعا قانونيا دوليا على غرار وضع الوكالة اليهودية في عهد الانتداب (بل أكثر) . ولكن اذا أمعنا النظر في جميع بنود الميثاق وخاصة قانون الكنيست ، نلاحظ تشديدا خاصا على وجوب مراعاة قوانين وانظمة الدولة ، لا بل وجوب الانصياع الى التعليمات الادارية التي تعممها الحكومة على موظفيها . فنجد ان المسألة لا تتعدى **التفويض** من قبل حكومة اسرائيل لهيئة خاضعة لها وملزمة بالتنسيق معها كي تقوم بجملة من المهمات المحددة . على كل ، من الواضح ان جميع دوائر الوكالة اليهودية **داخل الدولة** (دائرة الهجرة ، دائرة الاستيعاب ...) تشبه الى حد بعيد دوائر الحكومة الادارية .

اما الوضع القانوني للمنظمة **خارج الدولة** ، فهو يخلو من الوضوح . ان الميثاق — عندما يتحدث عن المهمات خارج اسرائيل — لا يتكلم الا عن « تنظيم الهجرة في الخارج ونقل المهاجرين » . وتضيف المادة الثالثة المتعلقة بالهجرة التوضيح التالي : « تتصرف اللجنة التنفيذية في تنظيم الهجرة ومعالجة امور المهاجرين على اساس خطة متفق عليها مع الحكومة (...) وسوف يحتاج المهاجرون الى تأشيرات دخول بموجب قانون العودة (١٩٥٠) »(١٠٠). في مسألة الهجرة ايضا (حتى وان تعلقت بالنشاط الخارجي) لا يمكن الادعاء بأن المبادرة المطلقة هي بيد المنظمة كممثلة ليهود العالم المحتاجين الى « خلاص » ، بل تعمل المنظمة — الوكالة اليهودية باسم الحكومة الاسرائيلية كأية دائرة في سفاراتها الخارجية .

ولكننا نعرف من جهة اخرى ان الجهد الاساسي الذي يمكن المنظمة من اتمام عملها ان في الخارج او في اسرائيل يأتي من القاعدة اليهودية — الصهيونية في الدياسبورا . فيصبح من الواضح ان دولة اسرائيل بسنها التشريع الخاص بوضع المنظمة وبتوقيعها على الميثاق، انما توظف امكانيات يهود العالم لمصلحتها(١٠١) لا بل تسعى الى زيادة نفوذها بين يهود العالم دون ان تكون مضطرة الى الادعاء بأنها تمثل الشعب اليهودي داخل اسرائيل وخارجه . وفي هذا المضمار لا يمكن للمنظمة الا ان تناضل من وقت الى آخر لاثبات استقلالها ليس في اسرائيل وهذا مستحيل ، بل انطلاقا من قاعدتها في الدياسبورا . فطالما ان الوظيفة المعترف بها للمنظمة تنحصر في البحث عن الدعم لاسرائيل دون الحق في الاشتراك في تخطيط السياسة (الداخلية والخارجية على السواء) ودون الحق في تمثيل يهود العالم في جميع المجالات ، لا مفر من ان تكون بالفعل أداة اسرائيل في الدياسبورا ، حتى وأن فسر ميثاق ١٩٥٤ بأنه يعلن مساواة الطرفين القانونية او ان اسرائيل تتنازل عن تمثيل يهود العالم لاعتبارات ديبلوماسية شكلية . على كل حال ، ان قانون العودة (١٩٥١) الذي يعطي كل يهودي في الشتات الحق في الهجرة والحصول على الجنسية الاسرائيلية فور وصوله يعتبر اشارة ضمنية لنية اسرائيل في عدم التنازل بالفعل عن تمثيلها ليهود العالم .

ان هذه الاستنتاجات واضحة بجلاء في مقالة كتبها بن — غوريون في كانون الاول ١٩٥٣ في المجلة الرسمية للمنظمة الصهيونية . يقول بن — غوريون في هذه المقالة حيث يطلب دون ان يعطي : « على الحركة الصهيونية ان تعترف بكل حرية ومحبة بتفوق الدولة واوليتها بين وسائل الخلاص . ولكن في هذا التفوق بالذات للدولة يكمن مصدر محدوديتها وتكمشها . ان سيادة الدولة تنحصر داخل حدودها (...) فهي لا تستطيع التدخل في الشؤون الاعلية للطوائف اليهودية في الدياسبورا او التوجه اليها بتعليماتها او بطلباتها (...) ولكن في هذا المجال بالذات ، بامكان المنظمة الصهيونية المبنية على المشاركة الحرة وعلى الجهد الطوعي ، ان تفعل ما ليس بمقدور الدولة ولا من المخول لها . هذه هي مزية المنظمة على الدولة ، ولهذا السبب ايضا لم يؤد قيام الدولة الى نهاية المنظمة ، بل رفع مسؤوليتها ورسالتها فوق كل تصور »(١٠٢).

ان كلمات « مسؤولية » ، « رسالة » ، « مشاركة حرة » ، « جهد طوعي » لا تستطيع طبعا اخفاء ارادة بن — غوريون في استعمال المنظمة الصهيونية كأداة للسيطرة على الدياسبورا اليهودية . أما وعوده العلنية (من جراء قانون ١٩٥٢) المتعلقة بعدم الاستغناء عن المنظمة الصهيونية في تعامله مع الجمعيات اليهودية اللاصهيونية ، فهي لا تكلفه شيئا ولا تربطه الا معنويا اذ يستطيع خرق هذه الوعود (وقد حصل هذا بالفعل) دون أية مراقبة قانونية . أما المنظمة الصهيونية فيطالها القانون الاسرائيلي نفسه مبدئيا في حال تجاوزها صلاحياتها .

---

١ — اي من قبل الدول الاستعمارية .

٢ — حسب ترجمة « ملف وثائق فلسطين » ، وزارة الارشاد القومي (الجمهورية العربية المتحدة) ص ٢٩٠ .

٣ — انظر
Ernest Stock, «Jewish Agency» in *Encyclopaedia Judaica*, T. 10, p.30.

٤ — حسب الترجمة الرسمية في « قوانين فلسطين » (١٩٣٣) المجلد الثالث (القدس ١٩٣٦) ص ٢٦٦١ .

٥ — المصدر السابق ، ص ٢٦٦٥ . انظر أيضا «Va'ad Le'ummi» in *Encyclopaedia Judaica*, T. 16, p. 49.

٦ — لنأخذ مثلا حديثا : قضية اليهود السوفيات. لم يشكل نداء الصهيونية الاميركية من اجل هجرة يهود الاتحاد السوفياتي ضغطا مباشرا على هذه الدولة ، بل شكل بالاحرى ضغطا على الادارة الاميركية التي بتبنيها اياه ونطقها به ، اعطته قوة مؤثرة (أي قوة الولايات المتحدة ذاتها) .

٧ — Emanuel Neumann, «Towards the World Zionist Congress», in *The Zionist Quarterly*, Vol. I, No. 1, Summer 1951, p. 6.

٨ — Report of the Executives submitted to the 23rd Zionist Congress (Microfilm) p. 96.

٩ — ملف وثائق فلسطين ، الجزء الاول ، ص ٦٣٢ .

١٠ — Report of the Executives submitted to the 23rd Zionist Congress, p. 4.
بيد ان شرتوك كان مستوطنا صهيونيا في فلسطين منذ صغره ، ولكنه كان يقوم برحلات عديدة خارج فلسطين بسبب رئاسته للدائرة السياسية في الوكالة اليهودية .

١١ — Israel Goldstein, «Tasks of the Jewish Agency, in *Israel and Middle East* (Tel-Aviv), July-September 1949, Vol. I (XXI), No. 3-5.

١٢ — The Autobiography of Nahum Goldmann, New-York, 1969, p. 318.

١٣ — المصدر السابق .

١٤ — سنتطرق الى هذا الموضوع فيما بعد : كان على الحكومة الاسرائيلية الا تدعي انها تحكم يهود العالم ، بغية الحصول على الاعتراف من الدول .

١٥ — Arthur Hertzberg, «Zionism» in *Encyclopaedia Judaica*, T. 16, p. 1061.

١٦ — لا يعتد بميزانية المنظمة الصهيونية نفسها لانها لا تتعلق الا بالنفقات التنظيمية وهي لذلك زهيدة بالمقارنة مع ميزانية الوكالة اليهودية (ميزانية المنظمة مثلا عام ١٩٤٩ — ١٩٥٠ بلغت

٣٤٠,٠٠٠ ليرة في حين وصلت ميزانية الوكالة في السنة المالية نفسها الى ٤٠ مليون ليرة) .

١٧ — Report of the Executives, *op. cit.*, p. 823.

١٨ — *Israel Yearbook*, 1950-51.

١٩ — Report of the Executives, *op. cit.*, p. 828.

٢٠ — انشئت الوكالة بعد قيام الدولة حتى عام ١٩٥٢ ٢٥٦ مستوطنــة جديدة واستــوعبت ٦٠٠,٠٠٠ مهاجر . انظر المصدر السابق ، ص ٨٢٣ .

٢١ — انظر الملخص للميزانية الصهيونية في هذه الفترة في
J. Hodess, «The Zionist Budget», in *Israel and Middle East* (Tel-Aviv), January-April 1952, Vol. IV (XXIV), No. 1-2.

٢٢ — Report of the Executives, p. 825.

٢٣ — Arthur Hertzberg, *op. cit.*, p. 1061.

٢٤ — انظر الحاشية رقم ١ .

٢٥ — انظر حول كلمة « لا صهيوني » الصفحة الثانية من هذه الدراسة .

٢٦ — Ben Halpern, *The Idea of the Jewish State*, (Cambridge, Massachussetts, 1961), p. 225.

٢٧ — من الطبيعي أن يكون رفض الامر الواقع نضاليا من قبل المتضررين العرب وان يتلاشى بالنسبة للمعارضين اليهود السابقين .

٢٨ — Ben Halpern, *op. cit.*, p. 211.

٢٩ — ان التفريق بين « المنفى » و« الشتات » هام ايضا بالنسبة للمثقف العربي . من المقبول — الى حد معين — ان نتكلم عن يهود العالم بصفتهم يهود في الشتات . ولكن يجب ان نحرص دائما على عدم تبني عبارة « يهود المنفى » التي كثيرا ما يستعملها الاسرائيليون والصهيونيــون ولسوء الحظ بعض المثقفين العرب . ان الشتات حالة قائمة ولا ضير في الاعتراف بالواقع . اما « المنفى » فهو تعبير ايديولوجي هدفه خلق حالة نفسية عند اليهود وغير اليهود بغية تبرير تجميع « المشتتين » على الارض التي « نفوا » منها .

٣٠ — «Statement of Views» (American Jewish Committee in *American Jewish Yearbook*, 1950, Vol. 51, p.562.

٣١ — *American Jewish Yearbook*, 1951, Vol. 52, p. 527-8.

٣٢ — Jewish Newsletter, Vol. VII, No. 11, October 29, 1951.

٣٣ — The Council News, (Published by the American Council for Judaism), Vol. II, No. 10, October 1948.

٣٤ — انظر ص ١٠ من هذه الدراسة .

٣٥ — Ben Halpern, *op. cit.*, p. 220.

٣٦ — Herbert Parzen, *A Short History of Zionism*, (New York, 1962), p.124-5.

٣٧ — Jewish Newsletter, Vol. VI, No.15, June 11, 1951.

٣٨ — وهي
The Zionist Organization of America (Z.O.A.)
سنشير اليها من الان بكلمة م٠ا٠ص٠

٣٩ — انظر اعلاه .

٤٠ — Louis Shub, «Zionist and Pro-Israel Activities, in *A. J. Y. B.*, 1950, Vol. 51, p. 168.

٤١ — Arnold Gurin. in *A.J.Y.B.*, 1950, Vol. 51, p. 182.

٤٢ — Louis Shub in A.J.Y.B. 1951, Vol. 52, p. 130.

٤٣ — Jewish Newsletter, Vol. IV, No. 14, November 10, 1950.

٤٤ — Arthur Hertzberg, *op. cit.*, p. 1061.

٤٥ — Nahum Goldmann, *op. cit.*, p. 318-9.

٤٦ — سنحصر اهتمامنا بالصهيونيين الاميركيين اذ كانوا القوة الرئيسية في المنظمة بعد الصهيونيين الاسرائيليين .

٤٧ — Emanuel Neumann, *op. cit.*, p. 13.

٤٨ — — Louis Shub, «Zionist and Pro-Israel Activities», in *A.J.Y.B.*, 1951, Vol. 52, p. 112.
— Ben Halpern, *op. cit.*, p. 237.

٤٩ — Emanuel Neumann, *op. cit.*, p. 15.

٥٠ — المصدر السابق ، ص ١٤ .

٥١ — Max Bressler, See Jewish Newsletter, Vol. VII, No. 3, July 23, 1951.

٥٢ — Emanuel Neumann, *op. cit.*, p. 6-7.

٥٣ — انظر ص ١١ من هذه الدراسة .

٥٤ — Jewish Newsletter, Vol.IV, No. 14, November 10, 1950.

٥٥ — Jewish Newsletter, Vol. VI, No. 7, February 19, 1951.

٥٦ — اشارة ضمنية الى مؤتمر الاثرياء اليهود الذي انعقد قبل بضعة اسابيع من كلام غولدمان.

٥٧ — Nahum Goldmann, «The Zionist Movement, the People and the State», in *Session of the Zionist General Council* (4th Session after the 23rd Congress — Jerusalem — December 24-31, 1953). Published by the Organization Department of the Zionist Executive, Jerusalem.

٥٨ — Rubus Learsi, *Fulfillment, the Epic Story of Zionism*, New York, 1951 and 1972, p. 403.

٥٩ — من الواضح ان ذلك لا يعني بالنسبة لاسرائيل التخلي عن البرنامج الصهيوني الفظ ، بل فقط الامتناع تكتيكيا عن الافصاح عن هذه المطالبة الرسمية .

٦٠ — Council News, Vol. V, No. 8, August 1951.

٦١ — — Eliezer Livneh, *State and Diaspora*, Jerusalem, 1953, p. 77 s.
— Israel Schen, «The Zionist Scene», in *Zionist Newsletter*, Vol. III, No. 20, June 19, 1951.

٦٢ — Misha Lourish, «Restatement of Zionist Principles Needed» in *Zion* (Published by the World Zionist Organisation, Jerusalem), Vol. IV, No. 2, April - June 1954.

٦٣ — Arthur Hertzberg, *op.* cit., p. 1061 - 1062.
Jehuda Reinharz, «Zionism in the U.S.», in *Encyclopaedia Judaica*, T. 16, p. 1149.

٦٤ — Emanuel Neumann, *op. cit.*

٦٥ — Israel Schen, *op. cit.*,
J. Melkman, «The Doctrine of Moderation», in *Forum* for the problems of Zionism, World Jewry and the State of Israel, No. 1, December 1953, Published by the World Zionist Organization, Jerusalem.

٦٦ — *Jewish Newsletter*, Vol VII, No. 3, July 23, 1951.

٦٧ — Berl Locker, «Present and Future Activities of the Zionist Movement», in *Session of the Zionist General Council* (4th session after the 23rd Congress, Jerusalem, December 24-31, 1953).

٦٨ — J. Melkmann, *op. cit.*, p. 118.

٦٩ — *Council News*, Vol. V, No. 8, August 1951.

٧٠ — بينما قالت هارتس ان عدد المستقبلين بلغ ٩٠،٠٠٠ لم تعترف م.ا.ص. الا بـ ٤٠،٠٠٠ .
انظر :
Jewish Newsletter, Vol. III, No. 3. September 23, 1949.

٧١ — Emanuel Neumann, *op. cit.*

٧٢ — لا شك ان ذلك لا يشكل الا أمنية ذاتية اذ طبيعة الصهيونية (رغم اشتراكية بعض اعضائها « الداخلية ») تحتم التحالف مع الامبريالية الغربية .

٧٣ — نعرف كم كان هذا الخطر وهميا . أنظر الحاشية السابقة .

٧٤ — Emanuel Neumann, *op. cit.*

٧٥ — Elmer Berger, «Will Americans of Jewish Faith Allow History to repeat itself», in *Council News*, Vol. V, No. 8, August 1951.

٧٦ — *Jewish Newsletter*, Vol. IX, No. 4, February 16, 1953.

٧٧ — تجدر الملاحظة هنا ان الصهيونيين العموميين في اوروبا لم يشاركوا اخوانهم الامركيين في معارضتهم للماباي الاسرائيلي .

٧٨ — Uri Avneri, *Israël sans sionisme*, Paris, 1969, p. 155.
انظر ايضا دراستنا حول « أوري افنيري او الصهيونية المستحدثة » (مركز الابحاث ١٩٧١)، ص ١٥٦ — ١٥٧ .
نجد اشارة اخرى الى المساعدة التي تقدمها المنظمات الصهيونية في الدياسبورا الى الاحزاب الاسرائيلية في :
— Moses Lasky, *Between Truth and Repose*, San Francisco, 1956, p. 29-30.
— Nathan Weinstock, *Le sionisme contre Israël*, Paris, 1969, p. 346.

٧٩ — ربما حصلت الحالة القصوى (مؤخرا في شباط ١٩٧٤) عندما طلب حزب المفدال من الزعيم الارثوذكسي في اميركا الحاخام سولوفيتشيك اعطاءه المشورة حول دخوله حكومة مئير (بسبب مسالة من هو يهودي) .

٨٠ — انظر اسعد رزوق « المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون » ، شؤون فلسطينية ، عدد ٢٢ ، حزيران ١٩٧٣ .

٨١ — أقر مؤتمر بازل (١٨٩٧) القرار التالي : « ان هدف الصهيونية هو اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين يضمنه القانون العام » ،

ولتحقيق هـذا الهدف حدد المؤتمر الخطوات الاربع التالية : ١) تشجيع استيطان العمال الزراعيين والصناعيين اليهود في فلسطين وفقا لخطوط مناسبة . ٢) تنظيم اليهود وربطهم جميعا عبر مؤسسات مناسبة ، على الصعيدين المحلي والعالمي ، كل منها حسب قوانين البلد المعني . ٣) تقوية الحس والوعي القومي اليهـــودي وتعزيزهما . ٤) اتخاذ خطوات تمهيدية للحصول على موافقة الدول حيث يكون ذلك ضروريا ، لتحقيق هدف الصهيونية » . (من أسعد عبد الرحمن ، **المنظمة الصهيونية العالمية ، تنظيمها وأعمالها ١٨٩٧ — ١٩٤٨** ، مركز الابحاث ، ١٩٦٧ ، ص ٢٦ — ٢٧) .

٨٢ — يبدو ان زعماء الجمعيات اليهودية الاميركية كانوا يرسلون خلال المؤتمر البرقيات تلو البرقيات محذرين من مغبة تبني برنامج ايديولوجي يحل محل برنامج بازل . انظر :
Jewish Newsletter, Vol. VII, No. 9, October 1, 1951.

٨٣ — اسعد رزوق ، المصدر السابق، ص ١٧١.

٨٤ — *Council News*, Vol. V, No. 9, September 1951.

٨٥ — *Jerusalem Post*, August 28, 1951.

٨٦ — أسعد رزوق ، المصدر السابق، ص١٧٢.

٨٧ — *Council News*, Vol. V, No. 9, September 1951.

٨٨ — رغم ان وجود الحكومة كان فاعلا في المؤتمر، الا ان الحكومة كممثلة لدولة اسرائيل لم تشترك في التصويت .

٨٩ — أسعد رزوق ، المصدر السابق، ص ١٧٣.

٩٠ — Israel Schen, *op. cit.*,

٩١ — انظر ص ٢٠ من هذه الدراسة .

٩٢ — «Authorized Agency».

٩٣ — Jacob Sloan, «American Jewish Communis and Israel», in *A.J.Y.B.*, Vol. 55, 1954, p. 116-117.

٩٤ — اسعد رزوق ، المرجع السابق ، ص ١٧٣ — ١٧٤ .

٩٥ — المصدر السابق .

٩٦ — المصدر السابق .

٩٧ — المصدر السابق .

٩٨ — المصدر السابق ، ص ١٧٥ — ١٧٦ .

٩٩ — هناك دراستان قانونيتان حول الميثاق وقانون الكنيست المتعلق بوضع المنظمة :
— Moses Lasky, *Between Truth and Repose*, San Francisco, 1956.
— W. T. Mallison, Jr. «The Legal Problems Concerning the Juridical Status and Political Activities of the Zionist Organization — Jewish Agency» in *William and Mary Law Review*, Vol. 9, No. 3, Spirrng 1968.

١٠٠ — اسعد رزوق ، المصدر السابق، ص١٧٦.

١٠١ — *Jewish Newsletter*, Vol. VIII, No. 12, June 9, 1952.

١٠٢ — D. Ben Gourion, «The People and the State», in *Forum*, No. 1, December 1953.

مراجعات

ناجي علوش : **الحركة الوطنية الفلسطينية أمام اليهود والصهيونية ١٨٨٢ — ١٩٤٨**
(مركز الابحاث — سلسلة دراسات فلسطينية رقم ٩٩ — بيروت ١٩٧٤)

تميز موقف الحركة الوطنية الفلسطينية بعداء شديد تجاه الصهيونية ، رافضا اي تنازل معلنا ان التناقض مع الصهيونية هو تناقض أساسي . ولكن هذه الحركة سعت الى التمييز بين اليهودية والصهيونية . ويقف ناجي علوش أمام هذا الموقف عارضا تطوره التاريخي باحثا في جذور وتصاعد التناقض محددا لعمله الاهداف التالية كما جاءت في مقدمة الكتاب : « **اولا** : تقديم هذه القضية تقديما صحيحا لكشف مزايدات المزايدين وطعنات المغرضين ، وخاصة الذين اتهموا حركتنا الوطنية بالشوفينية والتعصب والعرقية . **ثانيا** : تبيان مواقع القوة والضعف في موقفنا ، ليكون ذلك عبرة لنا في نضالنا الراهن والمقبل من أجل تحرير ارضنا. **ثالثا** : بلورة موقف سليم وطنيا وأمميا ، من الاحتلال الصهيوني في بلادنا ومن مشكلة اليهود والصهيونية » .

كمدخل لتتبع مواقف الحركة الوطنية الفلسطينية يعرض المؤلف في الفصل الاول خلفية الصراع العربي — الصهيوني فيبرز تاريخ الصراع وتطوره ثم يحدد اسباب الصراع وأهدافه المتمثلة في الخطر على الاقتصاد العربي الوطني من جراء شراء الصهاينة للاراضي خصوصا لاراضي الاقطاع غير الفلسطيني او الحصول على أراضي اميرية تنازلت عنها حكومة الانتداب وما رافق شراء الاراضي من طرد للفلاحين العرب . وبرزت في الوقت نفسه المنافسة الصهيونية الشديدة في ميادين التجارة والصناعة يرافقها تهويد للعمل وطرد للعمال العرب. ونتج عن مجمل هذه السياسة تقليص مجال العمل أمام الطبقة البرجوازية الصغيرة والعاملة العربية. كان المجتمع الصهيوني ينمو على حساب تضييق المجال المعيشي لجميع فئات الشعب العربي الفلسطيني ما عدا قلة من الانتهازيين باعت أراضيها او عملت في مجال السمسرة .

ورافق وعد بناء الوطن القومي وتطبيقه من قبل سلطات الانتداب بروز خطر آخر للمجتمع العربي الفلسطيني وهو الخطر على المطامح السياسية في الحرية والاستقلال . فالسياسة الاستعمارية لكل من دولة الانتداب والصهاينة ارتكزت على مبدأ رفض الاعتراف بحق الاكثرية العربية في فلسطين بتوجيه زمام الحكم قبل وبعد الاستقلال .

وتجسد أمام عرب فلسطين خطر اكثر ضراوة وهو الخطر على الوجود القومي . تراءى لهم من خلال ممارسات السياسة البريطانية المستهترة بالحقوق العربية والعازمة على تنفيذ المخطط الصهيوني من فتح باب الهجرة على مصراعيه وتسهيل انتقال الاراضي الى المؤسسات الصهيونية ومن خلال الطبيعة العدوانية العرقية الاستفزازية للحركة الصهيونية لم تكتف الحركة الصهيونية بانكار حق الشعب العربي الفلسطيني بالوجود على أرضه ، بل تمسكت بشدة بحقها في استمرار الهجرة بلا حدود . واتبعت اساليب استفزازية مثل المطالبة بحقوق طقوسية جديدة في البراق وتنظيم تسليح اليهود . ووصل الاستفزاز الصهيوني اوجه من خلال انغلاق المجتمع الصهيوني تجاه المجتمع العربي معبرا عن عنصرية واحتقار للفرد العربي . جاء الرد العربي الفلسطيني عنيفا ومما زاد في عنفه التصاعد في الحركة الوطنية العربية نتيجة اتساع التيار العربي المناهض للاستعمار وتداخل الانتفاضات والثورات القطرية ضد الاستعمار وما ولدته من حركات تضامن عربية . وينهي المؤلف

الفصل الاول بتحديد اطراف الصراع وهي « الحركة الوطنية الفلسطينية ، تعضدهـا الجماهير الفلسطينية العريقة ، والجماهير العربية العريقة من جهة ، والحركة الصهيونية يدعمها الاستعمار البريطاني ثم الامبريالية الامريكية وكل الاوساط الاستعمارية الغربية ، مـا عدا المانيا الهتلرية وايطاليا الفاشية في السنوات (٣٣ — ٤٥) . وتدعمها ايضا كل جماهير اليهود في فلسطين ، وقطاعات واسعة من جماهير اليهود في العالم » (ص ٦٠) . أما طبيعة الصراع « صدام بين الاستعمار السياسي العسكري الاستيطاني من جهة وبين ارادة التحـرر والاستقلال والمحافظة علـى الوطن من جهة اخرى، ولقد فرضت طبيعة الجاليات الصهيونية ان يكون الصدام شاملا » (ص ٦٣) .

ويستمد الكتاب اسمه مـن الفصل الثـاني والاساسي فيسعى الى معرفة تطور وعي الحركة الوطنية تجاه الاستعمـار الصهيوني وعلاقتـه بالامبريالية . فبعد سرد الملامح العامة للفتـرات الثلاث وهي قبل مؤتمر بال ، قبل وعـد بلفور (١٨٩٧ — ١٩١٦) وحتى آخـر عهد الانتداب (١٩١٧ — ١٩٤٨) ، ينطلق الباحث في تتبع تطور الوعي الوطني من خلال مواقف الزعماء والتنظيمات المركزية والمحلية . فيستنتج خلال عرض المواقف في المرحلة الاولى ان الزعامة الوطنية رفعت منذ تلك الحقبة شعار « منع الهجرة وتحريم استملاك الاراضي » وسيظل هذان الشعاران مرفوعين حتى ١٩٤٧ . وبدأ الشعب يدرك الخطر الذي يهـدد وجوده متأكدا من تصرفات المهاجرين اليهود العليائية والاستفزازية . ووجد الاعلان التأسيسي للحركة الصهيونية اثر مؤتمر بال ١٨٩٧ صداه في فلسطين ، فبدأت حركة احتجاج ورفع عرائض ضـد سياسة الاستيطان الصهيوني . ومع صدور مجلة الكرمل في حيفا عام ١٩٠٨ بدأ نشاط عربي مكثف ضـد الاطماع الصهيونية . ثم تلتها جريدتا « فلسطين » في يافا و« الاقدام » في القاهرة ، مما دعا الصحافة العربية عامة للاهتمام بالموضوع . وظهرت بعض الدراسات عن الحـركة الصهيونية وأطماعها . ويستخلص المؤلف مـن موقف الحركة الوطنيـة الفلسطينية في المرحلة الثانية « ان ما يبدو واضحا هو قدرة الجماهير ، ممثلة بالصحافة والادب وممثلي الشعب ووجهائه وابنائه العـاديين ، حتى بدو بيسان، على ادراك خطورة الحركة الصهيونية على الوطن » (ص ١١٢) ، مما دعا الحركة الوطنية الى تصور عمل متعدد الاوجه لمجابهة هذا الخطر ويدخل ضمن هذا العمل الضغـط على السلطة واستعمال العنف أحيانا « ... لاجبار السلطة على اتخاذ القرارات او لرفض التراجع على الحـركة الصهيونية . هذا جانب . أما الجانب الاخر فهو محاربة الذين يسهلون الهجرة ويساعدون على بيع الاراضي ، وتعبئة الشعب سياسيـا واقتصاديا وتنظيميا ليتمكن من عملية المواجهة » . ومنذ تلك الفترة جرى تمييز بين الصهيونية واليهودية .

اتبعت الزعامة الوطنية هذا الخط بعد الحرب العالمية الاولى جاعلة الصهيونية العدو الاساسي والاوحد ، ساعية الى تحييد دولة الانتداب . بينما كانت الجماهير تتلمس يوميا حجم التشجيع البريطاني لبناء الوطن القومي . ووجهت هذه الجماهير قسطا من ضرباتها نحو الوجود البريطاني خلال انتفاضة عام ١٩٢٩ . وعندمـا أدركت الزعامة الوطنيـة التقليدية كره الجماهير للاستعمار البريطاني بدأت تحاربه بدورها مطالبة بالاستقلال ، الا أنها ظلت تطمح لتحييد دولة الانتداب واغرائها بعقد اتفاق معها بعد الاستقلال .

ومع ازدياد الهجـرة وتهويد العمل وتشريـد الفلاحين تصاعدت حدة التناقض مع الصهيونية بحيث أصبح مستحيلا ازالته سلميا . ويورد المؤلف مثلين لاستحالة ازالة التنـاقض بين عـرب فلسطـين والصهاينة . المثل الاول تجربة الحزب الشيوعي الفلسطيني ، الذي احتوى في البدء أكثرية يهودية واقلية عربية ولكنه ما لبث ان استعرب نتيجـة التصاق قسم كبير مـن الاعضاء اليهود بفكـرة الاستعمار الصهيوني ، ونبذ قسم آخر لهذا الوجود وتفضيل الرحيل عن فلسطين . واتضح للاكثرية العربية عام ١٩٤٣ استحالة التعاون مع الاقلية اليهودية ضمن الحزب فاختارت تأسيس حـركة جديدة وهي « عصبة العمل القومي » .

وجاء المثل الاخر مـع مسعى « جمعية عهـد السلام» المؤسسة عام ١٩٢٥ من قبل بعض المفكرين اليهود ، التي طرحت فكرة « ان فلسطين يجب الا تكون دولة عربية او يهودية ولكن دولة ثنائية القومية ... » . قوبلت هذه الجمعية بعداء شديد من الصهيونية مما دعا افرادها للتخلي عن الفكرة .

تأتي اهميــة الكتاب انه يحلل تطــور الموقف الاستراتيجي للحركة الوطنية الفلسطينية من خلال تحديدها لعدوها الاساسي وتحديد أساليب مكافحته. ويتبلور الموقف من خلال الوعي العــام والفئوي النابع من الظروف الموضوعية. فأظهر الكاتب اتفاق جميع افراد الشعب العربي الفلسطيني على تحديد الصهيونية كعدوها الاساسي وواجب مكافحته بجميع الوسائل . بينما وقفت الزعامة التقليدية مترددة أمام ربط سياسة الاستعمار البريطاني خاصــة والاستعمار عامة بتحقيق الاستعمــار الاستيطاني الصهيوني . لقد كان الوعي الجماهيري هو المحرك للاحداث مدركا عمق الخطر المواجه . لكن الظروف الاجتماعية الاقتصادية لم تفسح المجــال لبــروز التنظيم السياسي الثــوري النابع والملتحم مــع الجماهير الكادحة والبرجوازية الصغيرة والوطنية عامة وميزت الحركة الوطنية دائما بين اليهودية والصهيونية .

مع اهمية الكتاب والمجهود الكبير المعطى لكتابته نود ذكر بعض الملاحظات ، كنا نود لو عالج الكاتب قضية مفهوم المثقفين للاستعمار والدول الاستعمارية قبل الحرب العالمية الاولى ، اي اظهار التناقض بين موقف الحركة الوطنية الفلسطينية من الصهيونية وموقفها الايجابي من الدول الامبريالية الغربية . وما ولد هذا الموقف من سعي بعد الحرب لكسب بريطانيا بالرغم من مواقفها المعادية للعرب . ويجدر بنا الذكر هنا ان مجمل الابحاث التي تناولت الموقف العربي من الصهيونية قبل الحرب العالمية الاولى أهملت تحليل موقف هــذه الحركة من ظاهــرة الامبريالية الحديثة .

بالرغم من السعي الجدي لتضمين المرحلة الثالثة اكبر قدر من تصريحات وبيانات الحركة الوطنية من تنظيمات وافراد الا أن الكاتب اهمل التمييز بشكل منهجي بين مواقف الزعامة التقليدية الممثلة للوجاهة التقليدية والبرجوازية الكبيرة وبين مواقف ممثلي الطبقات الاخرى ، لابراز تطور الوعي الجماهيري وتعبيره عن تطور استراتيجية النضال . ولقد تميز الفصل الثاني عموما بتعثر في منهجية العرض خلافا للبناء التحليلي الدقيق في الفصل الاول . جاءت الاستشهادات وتكرارها احيانا دون هدف واضح . الا ان جميع هذه الملاحظات لا تقلل ابدا من أهمية الكتاب ومن المجهود الذي قام به ناجي علوش .

نبيل أيوب بدران

خالص عزمي ، نزار سليم (اعداد) ، **المؤتمر الاول للاتحــاد العام للفنانين التشكيليين العرب** (وزارة الاعلام العراقية ، بغداد ــ ١٩٧٣)

ينطوي الكتاب الوثائقي (نحو ٣٠٠ صفحة) الذي أصدرته مديرية الثقافة العامة في العراق ، ضمن السلسلة الفنية ، عن المؤتمر الاول للاتحاد العام للفنانين التشكيليين العرب ، عن أهمية بالغة بالنسبة للحركة الفنية العربية وللمعنيين بملاحقة أوجه التطور في الفن التشكيلي العربي المعاصر . ومثلما كان المؤتمر الاول للاتحاد ، ومعرض السنتين الذي رافقه ، حدث بارز على المستوى الثقــافي والتشكيلي العربي ، كــان الكتاب سجلا بأوجه النشاط والوثائق التي قدمت من خلاله ، حفظ جوانب من هذا الانجاز ، من خلال مجموعة كبيرة من التقارير والدراسات ووجهات النظر المتصلة بواقع وتطور الحركة التشكيلية في عدد من الاقطار العربية .

قد لا يهم القارىء العادي عدد من الفصول أو الاقسام في الكتاب ، انصرفت الى رصد التحضيرات التي سبقت انشــاء الاتحاد العــام للفنــانين التشكيليين ، او لتسجيل كلمات الوفود او لسرد مشاريع الاتحاد العام ومقرراته وتوصياته . بيد ان وقائع جلسات المؤتمر وخاصة تلك المخصصة لبحث موضوعات : التــراث والمعاصرة ، واقع الحركة التشكيلية في الاقطــار العربية ، الفــن

والقضايا المصرية ، تلقي الضوء على وجهات النظر والتيارات داخل الحركة الفنية العربية ، خاصة لدى الفنانين الذين ينمون عن رؤيا نظرية وبحثية معمقة . على ان أبرز ما في الكتاب ، هي وثائق المؤتمر ، والابحاث التي قدمت اليـه . شكلت الوثائق ، المقدمة غالبا من فروع الاتحاد ومـن التجمعات الفنية ، سجلا بواقع الحركة الفنيـة التشكيلية في كل من لبنان ، الجزائر ، سورية ، العراق ، مصر ، المغرب ، اليمن الديمقراطية ، وكذلك في فلسطين ولدى تجمعات الفلسطينيين في الاقطار العربية .

من المؤسف ان غالبية هذه التقارير ـ الوثائق ، قد اتسمت بطابع السرد المبتسر ، والمكتبي ، لواقع الحركة الفنية ، كما ان بعضها اقتصر على جوانب من اوجه هذه الحركة دون غيرها ، او غاص في العمومية . ويمكن ان تستثني من هذه التقارير ذلك الخاص بواقع الفن التشكيلي في الجزائر ، فقد تضمن التقرير المقدم من ابراهيم مردوج عضو الوفد الجزائري ، تعيينا لمصادر الفن الجزائري التشكيلي من فن التاسيلي بالهوقار (فن كهوف بدائي) الى الفن البربري ، ثم الى الفن الاسلامي ، التي بلورت تطويرات محلية ذات أصول اسلامية ، كفن المينياتور او التصغيري . وبصدد الاخير ، تضمن التقرير ـــ الدراسة سردا مسهبا في تطور تقاليد هذا الفن وابرز اعلامه الجزائريين (محمد وعمر راسم ، محمد تمام ورعيل آخر من ورثة هذا الفن التقليدي في الجزائر) منذ ١٩١٤ وحتى الان .

ثم يشرح التقرير المصادر الاخرى للفن الجزائري، كالمدارس الفنية الغربية وتطور التعليم الفنـي الاكاديمي منذ ١٩٢٠ وحتى الاستقلال . ويتناول الفنانين الذين برزوا في خضـم النضال الوطني والتصقوا بمشاهد الحياة اليومية للجماهير وأولئك الذين أسهموا في تطوير ملامـح وطنية في الفـن التشكيلي الجزائري.وأخيرا يتطرق التقرير الى تطور الجمعيات الفنيـة ودور الاتحاد الوطنـي للفنون التشكيلية .

ان التقرير الجزائري المار ذكـره ، وتقريرين آخرين عن واقع الحركة الفنية والحركة الفنيـة التشكيلية في اليمن الديمقراطية الشعبية يشكلون مصادر اولية لاطلاع الكثيرين من المعنيين على الفن التشكيلي في بلدين لا يتوافر حولهما كتابات وبحوث فنية كافية . ولا بد من التنويه الى ان التقرير الموجز عن الفن التشكيلي في المغرب ، كان انعكاسا في نضجه وعمقه لتطور الحركة التشكيلية في المغرب. فهو ينطوي على رؤية نظرية معمقة لدور الفـن وماهيته، كما يعالج الاشكال الايديولوجي والتعبيري الذي واجهته البلدان المستعمرة ، والتـي كانت ثقافتها وماضيها عرضة للقرضة والمحق . فقد شرح التقرير هذا الاشكال التاريخي من خلال تعيين نماذج التعاطي التقليدي ــ التجاري الذي يدعي التسجيل والتي عبرت عنه الرؤية الاستعمارية ، ونموذج الفن الساذج المالىء للفلكلور . وكما يتناول موقف الايديولوجية الاستعمارية المعادي لكل ما يشـكل اساس الشخصية القومية والمغربيـة ، وسرقة التراث الفني الاسلامي والشعبي ــ البربـري والمدني . وفي النهاية يسوق التقرير الطريق الذي يحاول الفن المغربي ان يشقه بالقول « ان الخلق التشكيلي المعاصر في المغرب يريـد ان يتجذر في الطموحات الوطنية والعربية ، وكذا في التناقضات التي تعيشها مجتمعاتنا ، دون اهمال التطورات التي تطبع على الفن والفكر ، ان هذا الخلق لا يريد ان تكون له اية وظيفة عدا المشاركة في الكفاح العام للوطـن العربي عـن طريق الاثار الفنيـة نفسها ... » .

ان القسم الابرز والاكثر اهمية من الكتاب ، هو البحوث المقدمة للمؤتمـر ، خاصة التي تنـاولت موضوعات ما زالت خاضعة للكشف ، مثل « اثر الفكر الاسلامي على الفن المصري الاسلامي، ومدى تأثر الحركة الفنية المعاصرة بالفنون الاسلامية » لابو صالح الالفي (مصر) ، « التراث والمعاصرة والفنان الشرقي » ، « رواد التحصيل الفنـي والصناعي في فلسطين من سنة ١٩٢٢ ـــ ١٩٤٧ » لعبد الرزاق بدران، « التراث والمعاصرة في الفن »، «ملاحظات اولية حول التراث والمعاصرة والاتجاهات الاسلوبية الجديدة » لفائز الزبيدي (العراق) ، وقدم الفنان شوكت الربيعي من العراق ، ما يشبه الشهادة الذاتية حول تجربته وحول فهمه للفن والقضايا المصرية ، فيما قدم الدكتور شمس الدين فارس عرضا لاهمية الفن الجداري ، مركزا على جدارية «نصب الحرية» للفنان العراقي جواد سليم في بغداد . وكانت ثمة مساهمات اخرى متفاوتة المستوى والاهمية من حليم جرداق (لبنان) حول

« الفنان في العالم العربي بين الحداثة والتراث » ، شاكر حسن ال سعيد (العراق) عن « الرؤية الفنية التأملية » ، د. صالح محمد رضا (مصر) عن « مقومات الفن التشكيلي العربي المعاصر » ، الصادق قمش (تونس) عن « الفنون التشكيلية ودورها في معركة المصير » ... الخ .

ان بعض « البحوث » ، لا تستحق هذا الاسم ، فهي سرد عمومي وتعرضي مسطح لموضوعات كبيرة وهامة ، وما تنطوي نظرتها الى الفن عن وجهة نفعية وظائفية محضة مثل « الفنان العربي ودوره الخلاق في بناء الدولة العصرية » و« دور الفن في القضايا العربية المصرية » ، « مفهوم للفن القومي » ، « دور الفن التشكيلي في خدمة الصناعة » ، كما ان البعض الاخر من البحوث تغرق في التعمية والميتافيزيقية ، كما هو الحال مع « الرؤية الفنية التأملية او مقدمة في معنى الحقيقة الكونية » لشاكر حسن ال سعيد وتستلهم مصادر عفى عليها الزمن في الفن والفلسفة . والى حد كبير ينطبق ذات الوصف على « الفنان في العالم العربي بين الحداثة والتراث » لحليم جرداق . على ان البحوث الاخرى تنطوي على اهمية خاصة كما هو الحال مع دراسة محمود صبري (العراق) التي تناولت الميكانيكية الداخلية لعملية استعانة الحاضر بالماضي ، بنظرة شمولية وتاريخية لفهم العلاقة بين التراث والمعاصرة .

أما مساهمة فائز الزبيدي ، رغم انها تتناول بعمومية مبدئية حميمة الاتجاهات الاسلوبية الجديدة في الفن ، الا أنها تنطوي عن جمود واسقاطات وقولبة غير مبررة . وتميزت شهادة شوكت الربيعي من حيث حرارة همومها ، ومن حيث لغتها الذاتية وتجربتها بطابع مميز عن باقي المساهمات . انها أحد الكشوف الداخلية لقضايا الفنان التشكيلي مع علاقته مع العالم ومع نفسه ومع صناعته . اما الدراسة المقدمة من ابو صالح الالفي (مصر) عن «اثر الفكر الاسلامي على الفن المصري الاسلامي»، تنطوي عن تحديدات اولية هامة في هذا النطاق . وربما كانت مساهمة عبد الرزاق بدران (فلسطين) عن رواد التحصيل الفني والصناعي في فلسطين من سنة ١٩٢٢ — ١٩٤٧ من ابرز المساهمات المقدمة ، رغم عيوبها المنهجية وقصورها وطابع رصدها الضيق . وذلك فقط لكونها احد المصادر الاولية القليلة والمحدودة عن الفن والفنانين الحرفيين في فلسطين في الفترة التي سبقت حرب ١٩٤٨ . لذا تستحق التنويه والعرض .

يروي السيد عبد الرزاق بدران في مساهمته ، التحاق اخيه جمال بدران في سنة ١٩٢٢ في مدرسة الفنون والزخارف في القاهرة القديمة، والفنون التي تعلمها ومساهماته في لجنة اعمار المسجد الاقصى والترميمات التي جرت عام ١٩٢٩ ، ثم عن كتاباته الكوفية وزخارفه وتعيينه مدرسا في الكلية العربية والرشيدية في القدس ثم مفتشا مساعدا للفنون في ادارة معارف القدس . وبعد ذلك دراسته في المدرسة المركزية للفنون في لندن ونعرف ان شقيق جمال ، خيري بدران كان قد تخرج من معهد الفنون التطبيقية بمصر .

ان جمال الذي عاد عام ١٩٣٧ من لندن الى عمله في معارف فلسطين قد تعلم على يديه معظم أساتذة فلسطين الذين تخرجوا من الكلية العربية والرشيدية بالقدس ، ومساهمته في عدد من المعارض . ثم خروجه بعد حرب ١٩٤٨ الى دمشق حيث درس في عدد من المعاهد فيها ، وتعاقده مع اليونسكو لمدة عشر سنوات كخبير فني قضاها في ليبيا ، اسهم خلالها في تخريج العشرات من الاساتذة والحرفيين. ثم اخيرا استقراره في رام‌الله واعتكافه هناك .

ويروي السيد عبد الرزاق بدران ، عن ايفاد شقيقه خيري بدران وزميله محمد وفا الدجاني الى مدرسة الفنون التطبيقية ، حيث تخصص خيري بالنسيج ، من طبع وتصميم وزخرفة ، وعمله في المجلة الكبرى، ثم عودته الى فلسطين عام ١٩٣٥ ، ثم دراسته عام ٣٧ في لندن وعودته ليعين مدرسا للنسيج في « مدينة النسيج اليدوي في فلسطين » ابان الحرب العالمية الثانية . وبعد ذلك انتقاله مع حرب فلسطين الى مصر ، فالكويت حيث ما زال مدرسا اول للمعارف في التربية الفنية .

اما عن محمد وفا الدجاني فذكر السيد عبدالرزاق بدران ان تخصصه كان في النجارة والاثاث ، وكان له انتاج في الحفر والنحت وفي الرسم الطبيعي ذا جدارة مهنية عالية . وانتقل بعد حرب ١٩٤٨ الى دمشق حيث عمل في تنظيم المتحف الوطني وفي عمل نماذج مصغرة للتماثيل الاثرية في صنع ماكيتات الهياكل الاثرية القديمة ، حيث انشغل فيها ، وقال

ان له دراسات حالية بالخطوط الاثرية والزخارف العربية تخص المتحف الوطني بدمشق .

يتحدث عبد الرزاق بدران عن دراسته عام ١٩٣٣ في مدرسة الصناعات الزخرفية ببولاق وحصوله على دبلوم بامتياز عام ٣٦ ، وانتقاله الى مدرسة الفنون التطبيقية بالجيزة ومتابعته الدراسة العليا لتخصص في الزجاج الزخرفي الملصق بالرصاص وقال ان تصميماته قد اتجهت الى الطبيعة في فلسطين والى استيحاء التراث القومي في الازياء. وتحدث عن تسجيل لوحاته ثورة ١٩٣٦ ، وعن رسمه الكاريكاتور في بعض صحف فلسطين في اثناء فترة انشاء مرسمه الفني في القدس من ٤٥ — ١٩٤٨ .

تخرج عبد الرزاق بدران عام ١٩٣٩ ، لكنه عاد الى نفس المعهد لدراسة التصوير الفتوغرافي ، حيث لم يجد مصدرا لمعيشته من تخصصه السابق وعاد في نهاية ١٩٤٠ واسس أول مرسم عربي في فلسطين يعتمد على الفن المجرد والتصوير الفوتوغرافي وبيع التحف الفنية في غزة ثم في القدس . وقال انه اسهم في التبشير بأهمية التخصص الفني والصناعي بين أبناء فلسطين ، وكان له أثر في ارسال العديد من الشبان للدراسة في مصر والتخصص في معاهدها .

ويروي عبد الرزاق بدران ، انه منذ مطلع عام ١٩٤٨ ولمدة ثمانية اشهر ، هرع الى الميدان يسجل بالكاميرا والقلم مآسي فلسطين وصورها المفزعة ، ثم كان نزوحه الى الكويت في مطلع عام ٤٩ ، حيث انخرط في سلك التعليم بادارة المعارف ثم انتدب الى جامعة الكويت عام ٦٧ لانشاء اول قسم للتصوير العلمي في الجامعة .

ويذكر عبد الرزاق بدران اسماء الذين تعيهم ذاكرته ممن تخصصوا في الفنون والفنون التطبيقية. مثل محمد وفا الدجاني المار ذكره ، فيصل الطاهر، الذي تخصص بالصناعات الزخرفية والتحق بثورة ٣٦ ، وخليل بدوية الذي التحق اثناء دراسته الفنية سنة ٣٦ بالثورة واستشهد . وآخرون مثل حربي حب الرمان وأديب الزعيم ، داود علي الجاعوني ، شريف الخضرا ، وآخرون غيرهم . كما يذكر اسماء عدد من الفنانين غير الدارسين اكاديميا ، مثل داوود زلاطيمو ، حيدر الخالدي وجبرا جرجورة .

مما مر يمكن القول ان الكتاب المتضمن وثائق وأبحاث وتقارير المؤتمر الاول للاتحاد العام للفنانين التشكيليين العرب ، يجمع كمية كبيرة جدا من المعلومات والتحليلات ووجهات النظر التي انطرحت اثناء انعقاد المؤتمر ، والتي تعكس الوضع العام للحركة التشكيلية العربية .

ان الكتاب بأوجهه المختلفة وثيقة هامة للفنانين والمثقفين والنقاد العرب . الا أنه يعكس ايضا جوانب القصور التي ما زالت تعانيها الحركة التشكيلية والنقد والدراسة التشكيلية . فمثلا لم تقدم اية دراسة حول الوضع المهني للفنانين التشكيليين. كما لم تناقش مسألة العرض والاتصال الجماهيري ، ولا قضايا التفرغ ودور الدولة في هذا النطاق . ويظهر الكتاب جوانب قصور اخرى ، في التقارير المقدمة عن واقع الحركة التشكيلية وتاريخها ، في عدد من البلدان ، مثل سورية ، العراق ، المغرب ، مصر ، لبنان ، وفلسطين . فهي اما تطرح خطوطا عامة سريعة ، أو تقتصر على بضعة أسماء ، أو هي غائبة تماما . كما غاب عن المؤتمر وابحاثه اسماء اعلام معروفة باسهامها التقليدي في هذا الميدان .

هاني حوراني

عيسى عبد الحميد ، ست سنوات من سياسة الجسور المفتوحة
(مركز الابحاث ، م. ت. ف. بيروت ١٩٧٣)

سياسة الجسور المفتوحة هي احدى الركائز التي يعتمدها النظام الاردني في محاولة منه لفرض استمرار تحكمه السياسي والاقتصادي في الضفة الغربية المحتلة ومحاولة اجتلاب قطاع غزة الى دائرة التحالف بين الطبقة البرجوازية في الضفة والقطاع وبين النظام الاردني محاولا من خلال هذه السياسة محاربة منظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني . وفي الطرف الاخر تقف اسرائيل من جانبها لتدعم سياسة الجسور المفتوحة لمصلحتها ، وهكذا تلتقي مصالح النظام الاردني ومصالح اسرائيل عند سياسة الجسور المفتوحة رغم التظاهر بأن كلا منهما يعمل على حدة ، فسياسة الجسور المفتوحة تصب في النهاية في الحلول الاسرائيلية والاردنية من خلال ترتيبها للمنطقة جغرافيا والسكان في اطار هذا الترتيب الذي تريده . وتقف البرجوازية في الضفة والقطاع لتساند هذه السياسة لتحافظ على مصالحها ولكنها تتردد أحيانا لتقف ضد سياسة الاردن واسرائيل اذا ما أحست انها لم تستفد من سياسة الجسور المفتوحة في بعض الاوقات .

كيف بدأت سياسة الجسور المفتوحة ؟ . « بعد انسحاب القوات العسكرية ، الاردنية والعراقية من الضفة الغربية اثر هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، قامت هذه القوات بعد اتمام عمليـة انسحابها بنسف الجسور الثلاثة القائمة على نهر الاردن ، لاعاقة تقدم القوات الاسرائيلية في حالة مواصلة اندفاعها الى الضفة الشرقية ، وبعد انتهاء المعارك بفترة قليلة أعادت كل من اسرائيل والاردن بناء تلك الجسور كل من ناحيتها ، لتسجيل عملية انتقال الافراد والبضائع باتجاه واحد في البداية ، من الضفة الغربية الى الضفـة الشرقية ، ويقول المؤلف : انه من الثابت ان القوات العراقية هي التي قامت بنسف الجسور الثلاثة وهي داميه ، اللنبي ، سويمه . وان سلاح الهندسة في الجيش الاردني هو الذي قام بموافقة اسرائيلية بترميم جسري اللنبي وداميه .

أما بالنسبة لاسرائيل فتهدف من وراء سياسة الجسور المفتوحة الى « الافلات من طوق المقاطعة العربية للاطلال على «المجال الحيوي لاسرائيل» وقد جاء في المنشور السنوي « ثلاث سنوات من الحكم العسكري » الذي تصدره وزارة الدفاع الاسرائيلية ان الخطوط الموجهـة للسياسات الاقتصاديـة والادارية الاسرائيلية في المناطق المحتلة هي ما يلي : ١ – عدم الحضور او التواجد ، ٢ – عدم التدخل ، ٣ – الجسور المفتوحة .

فسياسة عدم الحضور تقوم علـى اساس ان امكانية تقليل التصادم مـع المواطنين في الارض المحتلة تكون كبيرة ، عندما تصبح قوات الاحتلال في وضع لا تسمع فيه ولا تشاهد ، وسياسة عدم التدخل تمثل الفكرة المركزية لنظام اسرائيل في الحكم غير المباشر ، باظهار سكان المناطق المحتلة أمام الرأي العام العالمي وهـم يديرون شؤونهم الحياتية بأنفسهم وفي ظل القوانين والانظمة التي كانت سائدة قبل الاحتلال وابقاء المجالس البلدية والقروية والمؤسسـات الاقتصادية والاجتماعيـة والتعليمية تعمل علـى الاسس نفسها التي كانت تعمل عليها قبل حرب حزيران. أما سياسة الجسور المفتوحة فهي تقوم على اساس اعادة الحياة الى مجراها الطبيعي قبل الحرب .

يقسم الاستاذ عيسى عبد الحميد مؤلف الكتاب كتابه الى خمسة فصول :

١ – النتائج السياسيـة لسياسة الجسـور المفتوحة. ٢– النتائج الاقتصادية لسياسة الجسور المفتوحة . ٣ – قطاع غزة : علاقات سـياسية واقتصادية عبر الجسور . ٤ – حـركة انتقال الاشخاص والاموال عبـر الجسور المفتوحة . ٥ – الافراج عن الودائع واعادة فتح فروع البنوك الاردنية في الضفة الغربية .

ولنبدأ بالفصـل الاول « النتائـج السياسية لسياسة الجسور المفتوحة » حيث يقول المؤلف انه « اذا كانت اسرائيل لم تتخـذ خلال السنوات الست الماضية قرارها السيـاسي حول مستقبل المناطق المحتلة في حرب حزيران ١٩٦٧ ، فمن المؤكد انها اتخذت طوال هـذه السنوات ، الخطوات التنفيذية التي يصبح معها وبانتهائها ذلك القرار وكأنه تحصيل حاصل » . ثم يشرح المؤلف التصور

الاسرائيلي لهذا القرار فمن المؤكد ان وزراء الحكومة الاسرائيلية جميعا يقولون بعودة الضفة الغربية الى الحكم الاردني ، في اية تسوية سياسية قادمة مع بعض التعديلات ، غير ان هذا التصور الاسرائيلي هذا لمستقبل العلاقة بين الضفتين يظل قاصرا ، فلقد غدت العقدة الفلسطينية من خلال القصور الاسرائيلي ، أكثر تعقيدا من أي وقت مضى ، ليس بفعل بروز دور المقاومة الفلسطينية بقوة فحسب ، وانما لخضوع مليون ونصف المليون فلسطيني تقريبا تحت الحكم العسكري الاسرائيلي ، الامر الذي يهدد « نقاء » الدولة العنصرية اليهودية ومن هنا بدأت عملية البحث عن « قيادة فلسطينية » بالشروط والمواصفات التي تستطيع معها اسرائيل الوصول الى اتفاقية صلح نهائية . فمن خلال فحص كافة القوى السياسية في الضفة الغربية ومراقبة ردود فعلها تجاه الاحتلال ، وجدت اسرائيل ان الجماعة السياسية التي تشمل اعضاء المؤسسة الاردنية السابقة كالوزراء والسفراء السابقين واعضاء البرلمان والموظفين الكبار ورؤساء البلديات الكبيرة ، وكافة من تتصل مصالحهم المادية والسياسية بالحكومة الاردنية في عمان ، قد التزموا الصمت تجاه الاحتلال الاسرائيلي قائلين « ليس عندنا ما نقوله . ان حكومتنا في عمان اذهبوا وتفاوضوا معها » . اما الجماعة الثانية التي تشمل الاحزاب السياسية فقد عملت على تنظيم حركة عصيان مدني في البداية ومن ثم اخذت تجند الشباب في المنظمات الفدائية التي تنتمي الى احزابها . واما المجموعة الثالثة التي تشمل خريجي الجامعات والمثقفين غير الملتزمين الذين لم يسبق لهم ان مارسوا نقدا علنيا للنظام الاردني فقد وجدوا انفسهم قادرين على انتقاد النظام الاردني بعد الاحتلال وقادرين على التعبير عن آرائهم السياسية طالما كان الامر يقتصر على ابداء الرأي فقط دون الالتزام بموقف عملي .

هذا وقد حرصت الحكومة الاردنية بعد حرب حزيران ١٩٦٧ على التمسك نظريا بحقها في السيادة على الضفة الغربية ، الامر الذي يمكنها فيما بعد من حق التمثيل ومن ثم التفاوض باسم الشعب الفلسطيني الذي تسكن غالبيته العظمى ضمن اطار « السيادة الاردنية » . انطلاقا من هذا التصور قامت الحكومة الاردنية بترميم الجسور المنسوفة على نهر الاردن من الجانب الشرقي ونسفت اسرائيل ذلك من الجانب الاخر ، ولم تكن سياسة النظام الاردني تجاه الضفة الغربية على الاقل ، تتعارض مع سياسات اسرائيل الراهنة فيها بشكل تصادمي اذ يعتبر موشيه دايان ان الاردن في النهاية هو المحاور في اية مفاوضات من اجل السلام « مع الاردن تحاربنا ومعه سنعقد صلحا . والعاجز عن الحرب عاجز عن عقد معاهدة الصلح» .
ويصل الاستاذ عيسى عبد الحميد الى النتيجة التالية :

أن محاولات النظام الاردني لاستعادة وتكريس نفوذه في الضفة الغربية التي بدأت قبل نهاية عام ١٩٦٧ كانت بهدف تقوية مركزه التفاوضي مع اسرائيل اولا ، ولمواجهة الانفصاليين الفلسطينيين من دعاة الدولة الفلسطينية ثانيا ولقطع الطريق على حركة المقاومة التي بدأت نشاطها على نطاق واسع منذ ذلك التاريخ ثالثا .

لقد وضع النهوض الجماهيري الواسع الملتف حول اهداف وشعارات حركة المقاومة الفلسطينية، النظام الاردني وجها لوجه امام الحقائق الجديدة في الواقع الفلسطيني : ١ — تصاعد المقاومة ضد الاحتلال في الضفة الغربية وسائر المناطق العربية المحتلة ، واكتسابها الدعم والتأييد الشعبيين في هذه المناطق . ٢ — ازدياد الثقل العسكري والسياسي للمقاومة في الاردن واكتسابها شرعية التحرك والتواجد العلني بين مختلف التجمعات الفلسطينية في الضفة الشرقية . ٣ — اجماع شعبي عربي على حيوية الدور الفلسطيني ممثلا بحركة المقاومة في معسكر الثورة العربية .

كرست هذه الحقائق عبر الفترة الممتدة من ربيع عام ١٩٦٨ وحتى صيف عام ١٩٧١ حقيقة سياسية هامة في الاردن وهي وجود طرف فلسطيني قادر على ان ينتزع من النظام الاردني حق التمثيل السياسي للشعب الفلسطيني الواقع في اطار « السيادة الاردنية » . وقد جاء اعتراف النظام للمقاومة بهذا الحق الشرعي بتوقيعه على اتفاقية وبروتوكول عمان في ١٣/١٠/١٩٧٠ ، والتي جاء فيها أن « الشعب الفلسطيني وحده متمثلا في الثورة الفلسطينية هو صاحب الحق في تقرير مصيره » .

لقد كانت الاجراءات الاسرائيلية الضاغطة على

البرجوازية التجارية في الضفة الغربية تتصاعد بتصاعد نشاط حركة المقاومة . لقد كان لبروز دور المقاومة الفلسطينية في ذلك الوقت ،على الصعيدين السياسي والعسكري ، اكبر الاثر في بلورة حركة شعبية مناهضة للاحتلال الاسرائيلي ، اتخذت الى جانب الكفاح المسلح شكل التظاهرات والاضطرابات وكان طبيعيا في مثل تلك الظروف ان يتضاءل دور الزعامات الفلسطينية التقليدية ، محليا داخل الضفة الغربية وقطاع غزة ولدى الاوساط الاسرائيلية المحتلة . غير ان سلسلة الهجمات العسكرية التي شنها النظام الاردني ضد حركة المقاومة في الفترة من ايلول ١٩٧٠ وحتى تموز ١٩٧١ خلقت وضعا سياسيا جديدا على جانبي نهر الاردن .

ويصل المؤلف الى القول : ان الثمار التي اراد النظام الاردني قطفها من وراء سياسة الجسور المفتوحة لم تأت اكلها الا بعد ضرب حركة المقاومة في الضفة الشرقية . فقد جاءت نتائج هذه السياسة متطابقة مع الاهداف الاسرائيلية الكامنة وراء تبني اسرائيل هي الاخرى لسياسة الجسور المفتوحة . فلم يعد التنافس الاردني – الاسرائيلي قائما خلال هذه الفترة على مسرح اثبات الوجود في الضفة الغربية او قطاع غزة بعد ان طرح الملك حسين في اذار ١٩٧٢ مشروع « المملكة العربية المتحدة » الذي جاء نسخة منقحة من مشروع ييجال آلون نائب رئيسة الوزارة الاسرائيلية آنذاك .

لكن المؤلف لم يناقش مسألة اعلان « الاتحاد الوطني الاردني » والذي كان يهدف الى اعادة الثقة بالنظام الاردني بعد مجزرة ايلول وهو بمثابة حزب النظام المعلن ، ووضعت على قمة هذا الاتحاد عناصر فلسطينية عرفت وما زالت من خدم النظام : مصطفى دودين وعدنان ابو عوده وجمعة حماد ، بالاضافة الى اجراء انتخابات صورية استخدمت فيها الرشاوي وضغط النظام نفسه وهي محاولة لخلق « قيادة فلسطينية » بديلة للوجوه التقليدية الفلسطينية في الضفة الغربية التي اهترأت ، هذه القيادة الجديدة هي التي جاءت لتبارك مشروع المملكة العربية المتحدة ، ولاحقا بذلك غيرت الحكومة الاردنية اسم « الاتحاد الوطني الاردني » الى « الاتحاد الوطني العربي » مما يبين ان هذا الاتحاد خطط له ان يكون قائد مرحلة تطبيق مشروع المملكة العربية المتحدة في حالة أية تسوية . لم يناقش المؤلف هذه المسألة رغم انها في تحليلها الاخير تصب في صميم تطبيق سياسة الجسور المفتوحة .

ويناقش المؤلف اجراء الحكومة الاردنية وهو فرض ضريبة على منتوجات الضفة الغربية وقطاع غزة عبر الجسور المفتوحة بمقدار ١٢٪ من قيمة هذه المنتوجات في اواخر عام ١٩٧٢ فيتعرض للسياق التاريخي الذي جاءت فيه هذه الخطوة وهي الحقائق السياسية التي يسعى النظام لخلقها في اطار مشروع « المملكة العربية المتحدة » وثانيا الحقائق الاقتصادية التي ترتبت على سياسة فتح الجسور مع المناطق المحتلة .

والمؤلف يرى ان المدلول السياسي لضريبة الـ ١٢٪ على منتوجات المناطق المحتلة المصدرة الى الاردن هو انه انطلاقا من تمسك النظام باستمرار سيادته على الضفة الغربية بعد احتلالها في حزيران ١٩٦٧ ، ظل يعتبر المنتوجات والبضائع المتجهة شرقا وغربا عبر الجسور المفتوحة على نهر الاردن عملية تتم ضمن اطار السوق الاردنية الواحدة ، مما لم يستدع معه الامر فرض ضرائب ورسوم جمركية على حركة هذه المنتوجات . ولهذا فان اقدام السلطات الاردنية على فرض ضريبة على وارداتها من الضفة الغربية في اواخر العام ١٩٧٢ لا يمكن ان يكون ، في ضوء التحليل الذي اورده المؤلف ، الا خطوة على طريق خلق اساس مادي جديد للعلاقة المستقبلية بين « اقليمي المملكة العربية المتحدة » . وهذا الامر ينسجم تماما مع بعض الاتجاهات في الحكم الاردني ، الداعية الى تحمل التزامات ليس لها صفة الخصوصية تجاه الضفة الغربية والقضية الفلسطينية عموما والتعاطي معها على اساس الالتزامات العربية الاخرى .

وقد اشار المؤلف الى ردود فعل برجوازية الضفة الغربية تجاه القرار واشار الى ان الحكومة الاردنية ارادت ان تمتحن موقف البرجوازية الفلسطينية في المناطق المحتلة من القرار وكان يجب ان يشبع هذه النقطة شرحا تفصيليا افضل فقرار ضريبة الـ ١٢٪ جاء بعد مجازر ايلول ١٩٧٠ وجرش ١٩٧١ كما اشار المؤلف وهذا يعني بالتالي

ان النظام الاردني بالاضافة الى انه يطرح القرار كامتحان للبرجوازية في المناطق المحتلة فهو ايضا يطرحه كاعادة للسيطرة الاردنية على المناطق المحتلة واعطائها صفة « الشرعية والحق » أي انها بالاضافة الى كونها « جس نبض » للبرجوازية فهي ايضا محاولة عملية لتثبيت « شرعية الامر الواقع » بعد مجازر ايلول وتموز .

أما النتائج الاقتصادية التي ترتبت على سياسة فتح الجسور وانعكست بصورة سلبية على اوضاع الاقتصاد الاردني ، فيلخصها المؤلف فيما يلي :

اولا : هناك عجز ثابت في الميزان التجاري بين الضفتين لغير صالح الضفة الشرقية بلغ خمسة ملايين دينار عام ١٩٧٠ ، ثم ازداد في العام التالي الى ستة ملايين دينار ونصف المليون .

ثانيا : ازداد تسرب الدينار الاردني الى الضفة الغربية ومنها الى البنوك الاسرائيلية .

ثالثا : كان استمرار فتح الجسور امام مختلف المنتوجات القادمة من المناطق المحتلة بكميات تفوق ما كان ينتج قبل حرب حزيران ادى الى ازدياد الضغط من قبل اصحاب المزارع الكبيرة وشبه الاقطاعيين في غور الاردن على الجهات صاحبة الاختصاص في الحكومة الاردنية لوضع حد لهذه السياسة التي تضر بتسويق محصولاتهم على الصعيدين المحلي والخارجي .

ثم يناقش المؤلف عنوانا فرعيا «منتوجات المناطق المحتلة امام مكتب مقاطعة اسرائيل ومجلس جامعة الدول العربية » ويورد حقائق عن عدم التزام الاردن بمقررات المكتب والى تعمد الحكومة الاردنية لعرقلة اعمال المكتب .

وفي الفصل الثاني (ص ٦٧) يناقش المؤلف النتائج الاقتصادية لسياسة الجسور المفتوحة ويتحدث عن ميزات اقتصاد الضفة الغربية ثم يتحدث عن العوامل والاعتبارات الاقتصادية التي جعلت الاردن يتخذ قراره بفتح الجسور مع الضفة الغربية : « فبعد حرب حزيران مباشرة كان على سلطات الاحتلال الاسرائيلي ان تتخذ قرارا سريعا فيما يتعلق بالاحتمالات الممكنة امام اقتصاديات الضفة الغربية لمواصلة نشاطها « العادي » في ظل الاحتلال . وكان الهاجس الاساسي بالنسبة لاسرائيل هو تجنب ازمة سياسية قد تترتب على وقوع ازمة اقتصادية تهيء الشروط الموضوعية لنمو وتصاعد المقاومة الشعبية ضد الاحتلال . وامام الاحتمالات المتعددة وجدت اسرائيل نفسها أمام الخيارات الصعبة التالية :

١ — اقفال الاسواق الاسرائيلية والعربية شرقي نهر الاردن امام فائض الانتاج الزراعي والصناعي للضفة الغربية ، سوف يؤدي الى تعميق حدة الآثار السلبية التي تركتها الحرب على اقتصاديات الضفة ، مما سيؤدي في النهاية الى المزيد من المتاعب « الامنية » لقوات الاحتلال .

٢ — فتح الاسواق الاسرائيلية في وجه فائض المنتوجات من الضفة الغربية سوف يؤدي الى مضاربة شديدة للمنتوجات الاسرائيلية المماثلة لمنتوجات الضفة الغربية .

٣ — السماح لمنتوجات الضفة الغربية بعبور نهر الاردن شرقا الى اسواقها العادية امر مرهون بموافقة السلطات الاردنية دون غيرها .

وهكذا جاء القرار الاردني معتمدا استراتيجية استمرار التكامل الاقتصادي بين الضفتين ، على الرغم من واقع الاحتلال الذي ترزح تحته الضفة الغربية انطلاقا من ممارسة النظام الاردني «لحقه» النظري بالسيادة على الضفة الغربية . وبعد وقوع الضفة الغربية تحت حكم الاحتلال العسكري الاسرائيلي ، وامام الافاق الجديدة لعملية تصريف المنتوجات الاسرائيلية التي طرحتها واقعة الاحتلال تبنت اسرائيل سياسة حرية انتقال البضائع من اسرائيل الى الضفة الغربية ، لقد كانت اسرائيل — في راي المؤلف — تبغي من خلال هذه السياسة الاقتصادية تحقيق ثلاثة اهداف هي :

الاول : حصولها على عائدات وموارد للخزينة في شكل ضريبة شراء ورسوم جمركية يدفعها التجار العرب .

الثاني : وهو الاهم ، فتح اسواق جديدة امام الصادرات الاسرائيلية « ضمن المجال الحيوي لاسرائيل » .

الثالث : حصولها على بضائع رخيصة نسبيا تدفع ثمنها بالليرة الاسرائيلية بدل ان تضطر لاستيرادها من الخارج بالعملة الصعبة .

وقد انعكست هذه السياسة بالضرورة على عمليات التبادل التجاري بين الضفتين .

ويصل المؤلف الى النتائج التالية :

اولا : آثار سياسة الجسور المفتوحة على الاقتصاد الاردني :

١ ـ ساهمت حركة التبادل التجاري بين الضفتين بعد حرب حزيران من خلال الجسور المفتوحة تزويد الضفة الشرقية باحتياجاتها من المنتوجات الزراعية .

٢ـ أدى ارتفاع المستوى العام لاسعار منتوجات الضفة الغربية بعد حرب حزيران الى ارتفاع اسعار هذه المنتوجات في الضفة الشرقية .

٣ ـ ساهمت حركة انتقال المنتوجات الزراعية الى الضفة الشرقية في الحد من آثار انخفاض حجم عرض المنتوجات الزراعية في سوق عمان المركزي .

٤ ـ أفادت حركة انتقال المنتوجات من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية في امداد السوق الاردني بمنتوجات مهمة ذات جودة عالية .

٥ ـ كان لاستمرار صادرات الضفة الغربية عبر الاردن الى الاسواق الخارجية اثر واضح في تخفيض عجز الميزان التجاري الاردني مع العالم الخارجي الذي يعاني من عجز دائم ومستمر . ٦ ـ ان استمرار علاقات التبادل التجاري بين الضفتين قد ساهم في بعث النشاط التجاري في الضفة الشرقية .

٧ ـ كان للقطاع المصرفي في الضفة الشرقية حظ كبير من استمرار حركة انتقال البضائع بين الضفتين .

٨ ـ ان استمرار تزويد الضفة الغربية ببعض حاجاتها من السلع والمنتوجات المستوردة من خارج الاردن مثل الاغنام والحبوب ادى الى استمرار تزويد صناعات الضفة الغربية بمواد خام ارخص بكثير مما لو استوردتها عن طريق اسرائيل .

٩ ـ رغم ان استيراد بعض المنتوجات ، خاصة الصناعية ، للضفة الغربية من خارج الاردن يساهم في الضغط على ارصدة الاردن من العملات الاجنبية الا ان ذلك يقابله تزويد الضفة الغربية للضفة الشرقية ببعض المنتوجات الصناعية .

١٠ ـ رغم ان التجارة بين الضفتين تسجل عجزا كبيرا ومستمرا لصالح الضفة الغربية فان العجز مرتبط بالظروف الهيكلية للاقتصاد الاردني في الضفة الشرقية الذي يعتمد على الضفة الغربية .

ثانيا : آثار سياسة الجسور المفتوحة على اقتصاديات الضفة الغربية :

١ ـ ادت سياسة الجسور المفتوحة الى تمكين الضفة الغربية من تسويق فائض انتاجها من النواكه والخضروات وبعض المنتوجات الصناعية الاخرى الى اسواق تصريفها العادية في الضفة الشرقية . ٢ ـ ساهمت هذه السياسة في استمرار حصول الضفة الغربية على احتياجاتها من المواد التموينية . ٣ ـ ادى نقل منتوجات قطاع غزة الى الضفة الشرقية عبر الضفة الغربية الى قيام تجارة ترانزيت نشطة في هذه الاخيرة . ٤ ـ حققت سياسة الجسور المفتوحة لبعض صناعات الضفة الغربية استمرار استيراد موادها الخام عن طريق الضفة الشرقية التي وفرت لها هذه المواد بالعملات الصعبة .

ثالثا : آثار سياسة الجسور المفتوحة على الاقتصاد الاسرائيلي : ١ ـ ساعدت الاقتصاد الاسرائيلي على التخلص من فائض الانتاج الزراعي للضفة الغربية . ٢ ـ اصبحت الضفة الغربية سوق تصريف رئيسية لكثير من منتوجات وبضائع الصناعة الاسرائيلية . ٣ ـ أدت الرسوم الجمركية المرتفعة على واردات الضفة الغربية عبر الجسور المفتوحة الى ايجاد مورد جديد ومهم لعائدات الخزينة الاسرائيلية . ٤ ـ ساهمت حركة انتقال البضائع والاشخاص الى تسرب جزء كبير من العملة الاردنية الى البنوك الاسرائيلية . ٥ ـ تمكنت اسرائيل عبر سياسة دعم وتشجيع وتصدير منتوجات المناطق المحتلة عبر الجسور الى الاسواق العربية من تسرب بعض منتوجاتها المماثلة لانتاج الضفة الغربية وقطاع غزة . ٦ ـ تمكنت اسرائيل من الحصول على بعض احتياجاتها من المنتوجات الزراعية من طريق الاردن .

أما الفصل الثالث فيفرده المؤلف لقطاع غزة وسياسة الجسور المفتوحة فلقد كان اقدام السلطات الاردنية على معاملة منتوجات قطاع غزة معاملة

منتوجات الضفة الغربية بداية مخطط جديد للتعامل مع قطاع غزة سياسيا على نفس الاساس السياسي الذي تتعامل به السلطات الاردنية مع الضفة الغربية وذلك من اجل احتواء القطاع في اية تسوية قادمة . فقد تجلى ذلك في « مشروع المملكة العربية المتحدة » وفي انتخابات « الاتحاد الوطني العربي » الذي جعل فيه لسكان قطاع غزة ممثلين عنهم في مجالس الاتحاد ومؤتمراته ويشرح المؤلف اهداف زيارات الشوا الى عمان وتصريحاته حول ضرورة ارتباط قطاع غزة بالضفة الغربية .

بعد ذلك يتحدث المؤلف عن حركة انتقال الاشخاص والاموال عبر الجسور المفتوحة فيقدم المؤلف امثلة للتعاون الاسرائيلي الاردني حول هذا الموضوع سواء بصرف جوازات سفر جديدة او بصرف رواتب موظفي الدولة في الضفة الغربية من الجانب الاردني او مسألة التصاريح منقبل اسرائيل بالاضافة الى المردود الاقتصادي الذي يجيء لاسرائيل من وراء زيارات الصيف وقد جاءت هذه التسهيلات بعد ضرب المقاومة الفلسطينية في الاردن كذلك بعد اعلان الملك حسين عن مشروع « المملكة العربية المتحدة » .

وفي فصل اخر يتحدث المؤلف عن « الافراج عن الودائع واعادة فتح فروع البنوك الاردنية في الضفة الغربية » فيطرح معالجة الازمة المالية والنقدية والاقتصادية من قبل الاردن فقد اتخذت قرارا بناء على توصية من لجنة الامن الاقتصادي والبنك المركزي الاردني وفي ظل الاحكام العرفية باغلاق جميع فروع البنوك المرخصة في الضفة الغربية اعتبارا من ١٩٦٧/٦/٥ ، كما جمدت الودائع وقيدت جميع عمليات السحب من مراكز وفروع البنوك في الضفة الشرقية بمبلغ لا يتجاوز مئة دينار اردني شهريا .

وفي عام ١٩٦٩ ظلت سلطات الاحتلال تكرر محاولاتها الرامية الى اعادة فتح فروع البنوك الاردنية في الضفة الغربية وقد اعادت الحكومة فتح البنوك بعد مذابح جرش ١٩٧١ ويصل المؤلف الى النتيجة التالية : « يمكن القول انه اذا كان قرار السلطات الاردنية بتجميد ارصدة وودائع البنوك الاردنية بعد الحرب قد جاء كتدبير احترازي ضد تعرض هذه البنوك لحملة سحوبات واسعة تهدد توازنها المالي ، فان استمرار حجز ودائع مواطني وتجار الضفة الغربية في وقت سمحت فيه للمودعين من الضفة الشرقية بسحب كامل ارصدتهم بعد ذلك لم يكن بهدف تشكيل ضاغط مادي وسياسي ايضا على جمهور واسع من المواطنين ، فقد اراد النظام الاردني من خلال الاستمرار في تجميد تلك الودائع ان يكثف الاحساس لدى ذلك القطاع من المواطنين بسيطرته المادية ومن ثم السياسية عليهم وبالتالي فليس غريبا ان تعود السلطات الاردنية عن قرارها السابق وتدعي ان الظروف تستدعي فتح فروع البنوك في الضفة الغربية لاسباب « وطنية وقومية » .

عز الدين المناصرة

ثقافة

الياس خوري

وجه الشاعر

يعود وجه الشاعر عبد الرحيم محمود ، وقد تبلل بندى التراب ، محمولا على قصائده التي يجمعها ، لاول مرة ، بشكل متكامل تقريبا كتاب واحد . يعود ، لنقف أمامه ، نقرأ الشعر الذي كتب بالبنادق والدماء ، ولا نستمع الى الشعر . نرى شكلا هو أجمل من كل القصائد ، جسد الشاعر وهو يرسم في سقوطه على الارض ، لوحة ثقافتنا الفلسطينية الجديدة . لم تنتج فلسطين أدبا عظيما ، بل انتجت ادباء عظماء . عظمتهم انهم لم يذهبوا الى الادب ، ذهبوا الى الحرب ، فجاء الادب اليهم وقد تبلل بدمائهم . ذهبوا الى الثورة، وعلى ايقاع دماء الجماهير التي قاتلت وتقاتل ، جاء الشعر نشيدا ، ودعاء . هذا الشعر الذي يفجر ولا ينفجر ، يمطر ولا يعصف ، هو شعر البدايات التي عادت فنبتت في صوتنا الشعري ادبا مقاتلا ، يفجر بنية الادب فيما ينفجر جسد الاديب على التراب . هذه المعادلة رسمتها ممارسة عميقة الجذور في التراب ، هي ممارسة الجيل الذي لم يحصد من الشعر سوى مجد الموت . رفاق القسام الذين حددوا الطريق الذي يسير عليه كل وطني من بعدهم. هذه الكوكبة من فرسان تاريخنا ، الذين بنوا بأجسادهم امكانية الخروج من ذل يطوقنا ، هم الذين أصبحوا في كلمات عبد الرحيم محمود نشيدا مستقبليا .

بين الوطن والموت ، هناك حد واحد هو جسد الشاعر :

« سأحمل روحي على راحتي
والقي بها في مهاوي الردى
فاما حياة تسر الصديق
واما ممات يغيظ العدى
ونفس الشريف لها غايتان
ورود المنايا ونيل المنى »

هذا الحد ، هو الكلمة المختصرة التي تلخص. لا تبدع او تفجر ، لكنها تحمل تجربة حقيقية ، ومعاناة شعبية كاملة . فهو « الفتى » الذي يحتقر الموت ، ويمد له جسده . فحين يصف مصرعه في الفلاة ، يقيم احتقارا للموت نفسه ، من خلال موقف وطني :

« وبان على شفتيه ابتسام
معانيه هزء بهذي الدنى »

الشعر ، الخطابة ، والالتزام

في صوت عبد الرحيم محمود ، تقف مرحلة كاملة ، كان الشعر فيها هو ميدان الخطابة الامثل . كان الشعر هو الخطابة حين تأخذ معنى تراثيا عميق الجذور . فحين يأتي شعره الخطابي مليئا بالالتزام ، وداعيا الى وضع النقاط على الحروف تحت شعارات مرحلة وطنية ، فانه يأتي تعبيرا عن هذه المرحلة واستشرافا لافاقها . فالشعر حين يريد أن يكون سلاحا مباشرا ، يلجأ الى تراثه القديم ، ويصبح نشيدا للقتال . ففي الثلاثينات والاربعينات حين كتب محمود غالبية أشعاره ، كان المقياس الاساسي للشعر هو مدى قدرته على الخروج من شروط الانحطاط ، ومدى قدرته في الوقت نفسه على التعبير عن هموم

---

* ديوان عبد الرحيم محمود . جمع القصائد وقدم للديوان الدكتور كامل السوافيري . اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين — دار العودة، بيروت ١٩٧٤ .

ومشاعر وطنية ، كانت قاسما مشتركا للاكثرية الساحقة من أبناء الشعب الذين شاركوا في نضالات طويلة ضد الاحتلال . هنا يأتي تفرده ، بوصفه يحمل قضية فريدة . فهو أول شاعر عربي حديث ، يحمل الموت في شعره هذا المعنى المركزي المرتبط بالنضال الوطني . وهو صوت الثورة ، أو لغتها مع أقرانه الذين رسموا في الثلاثينات لوحة مضيئة لشعرنا . الخطابة اذن ، هي مرحلة استجماع للذات الجماعية في مواجهة أعدائها . من هنا تركيزها على الرموز التقافية (القرآن أساسا) ووقوفها طويلا امام الرموز النضالية الحية ، الثورات ، الانتفاضات ، التي وجدت في عزالدين القسام رمزها الاساسي :

« هذي طريقك في الحياة فلا تحد
قد سارها من قبلك القسام »

الخطابة ، هي نشيد قتال . يأتي الشعر الخطابي ، ليصبح صورة القتال ، ومركز الذاكرة الجماعية . جماعية الذاكرة هنا ، هي المبرر والحافز لكتابة شعر خطابي في ملمحه الاساسي . فالذاكرة الجماعية في لحظات التهديد الجدي بالاقتلاع والنفي ، تصبح أكثر محافظة ، لكنها تحمل في الوقت نفسه قدرة هائلة على التكيف مع ظروف القتال الجديدة . تلجأ الى تراثها ، وترسم أناشيد قصيرة هي رجع لايقاع المعارك المنتظرة ، او دعوة لخوض غمارها :

« دعا الوطن الذبيح الى الجهاد
فخف لفرط فرحته فؤادي
وسابقت النسيم ولا افتخار
أليس علي ان أحمي بلادي »

الارض ومعاناة الاقتلاع

لم يكن الاقتلاع والتشرد حقيقة واحدة ، لكنه كان ماثلا كل لحظة في الاذهان . لذلك اكتسبت الارض وفي وقت مبكر جدا ، بعدها الشعري الجديد ، الذي سيصبح عنوان مرحلة شعرية لاحقة . فالارض الفلسطينية هي مكان الصراع ، وهي التي يجري من أجلها الصراع . من هنا بدأت تأخذ حجما مختلفا عن الحنين « الثوري » الذي اجتاح الادب المهجري في بدايات القرن . انها هنا رمز ووجود حقيقي . لذلك كانت النبرة الوطنية تتوتر بمضمون البعد المكاني الذي هو لحظة انفجار الزمن داخل صراع لا رحمة فيه . هنا يعود الشعر الى لهجته الاولى فهو صوت القبيلة التي تتوحد :

« شعب تمرس بالصعاب ولم تنل منه الصعاب
متمرد لم يرض يوما ان يقر على عذاب »

وهو كذلك ، صوت الفلاح الذي يتشبث بأرضه فيما يشعر انها تتحرك من تحت قدميه . يعود الفلاح الى اغانيه القديمة ويرسم بها خريطة حركته الانفعالية داخل لهب القتال . يعود الى التراث ويلتجىء الى لغة المتنبي ، حيث تجيب هذه اللغة على طموح مزدوج : طموح الشاعر الذي يرى نفسه فتى القبيلة والناطق باسمها ، وطموح القتال ، الذي هو وحده طريق الخلاص الوطني . لذلك فحين يتوقف عبد الرحيم محمود طويلا عند لغة المتنبي ، فان لهذا التوقف دلالة جماعية . دلالة ضرورة قتال الاعداء ودلالة روح الفروسية التي كانت نتاج تلك المرحلة .

الارض ، ونشيدها . تلك هي علامة بدايات الشعر الفلسطيني . وداخل هذه البدايات ، كان تفرد عبد الرحيم محمود ، هو تفرد الالتزام الكامل ، الذي حول الشعر الى ممارسة دموية ، فهو ليس مخاطبة في فراغ ، وليس امتدادا بغير قدمين ثابتين . انه الارض وقد رسمت ملامحها في كلمات شاعر ، فجاءت الكلمات وكأنها تلال مخضبة بالدماء . وأصبح الشعر مدخلا الى الموت .

ان صوت هذا الشاعر ، هو صوت بداياتنا التي يجب دراستها بشكل متأن ومستفيض . فتلك المرحلة ، التي حملت نضالا أجهض من الداخل والخارج، كانت كذلك مرحلة الالم الشعبي الكبير، الذي لا يتراجع . ففي أصوات شعراء هذه المرحلة ، بذور النمو لشعر الالتزام الوطني ، من موقع الممارسة الثورية .

فحين سقط عبد الرحيم محمود في معركة الشجرة ، ٤٨/٧/١٣ جنديا قائدا من قادة شعبنا ، ترك اوجاع الولادات التي عادت لتنمو على جذوعه ، وتنضج أدب الموت والثورة ، وهو يحمل جمال الموت داخل لهب الدماء .

الشاعر ، الجميل ، حين أمسك بندقيته ، ترك لشعره حرية القتال . وأمام هذه الحرية ، بدأت قافلة الشهداء تزداد ، ودخلت الكلمات لهب الموت لتشهد على ولادة جديدة .

صوت الادب الفلسطيني

حين يرتفع صوت الادب الفلسطيني ، يختلط الصوت برجع الدماء . أو هكذا نفترض حين نقرأ عنوانا كاملا لعدد خاص تصدره مجلة أدبية كمجلة « الآداب » . فالصوت الفلسطيني ، ليس فلسطينيا ، الا بمقدار قدرته على تكثيف تجربة الرؤية الثورية العربية في الثقافة والادب ، داخل حقل ممارسة دموي ، رسمت خريطته آلاف الانتفاضات ، وأجساد الرجال الذين سقطوا وعيونهم تفيض بالحلم الثوري . حلم تأسيس رؤية جديدة . فالحقل الثقافيالعربي ، هو حقل صراع داخلي هم مركزي ، هو هم اكتشاف الذات الواقعية . أي هم اكتشاف منافذ جديدة للرؤية التي تصاغ على ايقاع ممارسة جماهيرية صاخبة، لتكون هذه الرؤية صوت الممارسة او اقرب الاصوات اليها ، ولتحاول اعادة تلك الوحدة التي فقدناها تحت ضربات قرون الذل والاغتراب. لذلك كانت فلسطين احدى اكثر المحطات أهمية ومركزية . فعلى أطرافها ، من سيناء الى الجولان الى الجنوب اللبناني ، تشتعل الارض بصراع يلخص مجمل صراعاتنا ويكثفها في نقطة تحدي الوجود الكبيرة، الذي تفرضه علينا صليبية جديدة، استطاعت ان تمزق شعبنا لحظة ، ثم كانت فاتحة لمرحلة الانتفاضات الثورية العربية الجديدة .

بهذا المعنى ، يكون كل ادب عربي ، يحمل هموم مسيرة المطابقة ، فلسطينيا ، بمقدار ما هي فلسطين رمزنا الدموي . واذا كانت الاحتفالية العربية بمولد الادب الفلسطيني المقاوم ، كانت تعبر ، من جملة اشياء اخرى ، عن فرح النهر باكتشاف احد روافده . فانها في المقابل حملت خصوصية **المكان** الى أدبنا المعاصر . فأتى هذا المكان ، من موقع هموم يومية تتمركز في بؤرة صراع هي كثافة التاريخ وهو يحمل أصوات الشعوب في مواجهة أعدائها . لذلك كان المكان نقطة صدام ، ولم يكن حنينا فولكلوريا . كان وهج الرياح الساخنة . نقل نفسه من تمحور جغرافي حنيني الى زمن تاريخي يبشر بالولادات . هكذا نفهم صوت الشعر الرؤيوي الذي يصيغه الوعي المأساوي الفلسطيني في أكثر لحظاته جدلية ومعاناة . أو هكذا يرتفع صوت « المتشائل » في تلخيصه لآفاق الصراع الذي يشير اليه حوار « الاعمى والاطرش » وهما يكتشفان ثورتهما الممكنة من جديد .

الولادات في زمن الموت ، هي رؤيتنا الجديدة للعناصر التي تولد وهي تحمل اشارات دمائنا . لذلك نولد لحظة النزع ، وتتفجر اجساد الرجال شعرا جميلا ، وهي ترسل أنينها الاخير .

العدد الخاص

لا تصلح هذه المقدمة ، مقياسا نقديا ، لعدد خاص أصدرته الآداب ، وحشدت فيه أكثر الاسماء الفلسطينية . لكنها تصلح كمؤشر نقدي لمناقشة معنى هذا العدد الخاص ، حين لا يحمل سمات الحلم الثوري وهو يحتضن تجربتنا المأساوية بشكل شامل . فحين تصدر مجلة ثقافية ، عددا خاصا ، حول موضوع معين ، فانها تكون بذلك ، قد أرادت أن تضيف شيئا جديدا الى قناعاتنا حول الموضوع الذي جرى اختياره. أو هي تريد في أبسط الاحوال أن تعيد تقييم أدب معين بمقاييس جديدة تضيف الى تقييمنا السابق . لكن أي قراءة متأنية لعدد « الآداب » الاخير ، لا تشير الى احد هذين الاحتمالين . فالعدد تجميعي عشوائي ، لا يجمعه مقياس واحد ، او هو بغير مقاييس نقدية او فنية، نرى الاسماء وقد وضعت خلف بعضها ، وتتوالى القصائد والقصص القصيرة والدراسات النقدية ، لتشكل عودة الى الوراء . فاذا كنا ، على المستويين الابداعي والنقدي ، بدأنا رحلة الخروج من « قدسية » الادب الفلسطيني ، لنقوم باعادة تقييمه بمقاييس علمية فنية ، او لتأتي الاصوات الابداعية مضيفة اليه نفس التعدد والابعاد الشاملة . فان هذا العدد هو خطوة الى الوراء. لانه يكرس البعد الرومانسي، والرداءة ، بوصفهما مقاييس جديدة للادب الفلسطيني . ان رحلة البحث التي يخوضها أدبنا العربي المعاصر ، بحثا

---

* مجلة **الآداب** . بيروت . العدد ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٤ .

عن صوته الجديد ، وعن امكانية تفجير الاشكال الادبية السائدة ، في سبيل اكتشاف اشكال قادرة على حمل رؤيتنا الثورية الجديدة ، تختفي هنا ، ليأتي السائد بكل عناصره القديمة ، وكأنه هو صوت هذه المرحلة .

طوفان المستقبل

في الافتتاحية التي كتبها محمود درويش لهذا العدد «لا تعود الى الماضي حين تذهب في العودة»، استكمال للخط النثري التأملي ، الذي استطاع فيه درويش ان يمزج الشعر بالنثر ، وأن يقيم سلسلة دوائر بلا حدود ، ينساب داخلها الماء الشعري ، وكأنه حلم يأتي داخل حلم سابق . لذلك فحين تمتزج الاسلوبية القصصية باستدارة الشعر ، فانها تحايل ، بصوغه الوعي الفلسطيني في معركته من اجل الوجود . فدرويش حين يؤكد على مستقبلية العودة . « الانسان الذي تخلقه الثورة هو انسان منجز لا وارث » . يتابع محاولته لصياغة الوعي الفلسطيني في أكثر لحظاته توترا وصفاء . لذلك يلتقي صوته في هذا العدد بصوت أحمد دحبور « وأشهد انني أصل انفجاري بالولادة » . هنا تتحد الرؤيا المستقبلية بوصفها رؤيا الطوفان الذي سيأتي على سواعد الفقراء « أقول : ان قبيلة الفقراء تحفظ حكمة الطوفان ». بين هذين الحدين : المستقبل الذي يصنعه وعي تاريخي مأساوي تقوم الثورة بصياغته ، وملامحه التي تأتي لحظة الموت . الولادة ، داخل طوفان تصنعه الجماهير المقاتلة، تتحدد بعض ملامح الوعي الفلسطيني في رحلته داخل سفينة الثورة الى البحر الواسع . لكن هذين الحدين ، اللذين نلمحهما في بداية العدد ، يختفيان بشكل مأساوي . لنعود الى النغم القديم بعد أن خلع رداءه الموسيقي ولبس صوتا خشنا غير قادر على الاقناع .

قصائد هذا العدد ، هي تنويع على الماضي . ولولا اللحظات الانفجارية التي يضعها دحبور في قصيدته ، لاستطاعت الرتابة التكرارية أن تضمها هي الاخرى . لكن هذه القصيدة في تقدمها داخل لغة شاعرها السابقة ، تستطيع ان تومض في لحظات قليلة ، قدرة على التجاوز من خلال نقطة محددة استطاع صوت دحبور تطويرها في شعرنا الفلسطيني . هي نقطة الزمن الجديد الذي بصيغة الفقراء . فالفقراء ، هي احدى الكلمات — المفاتيح ، التي تضيء اشكالية التداعي في شعر دحبور . لكن بعض المقاطع الشديدة المباشرة في القصيدة ، لا تخدم بنيتها الفنية ، بل تؤكد على الدلالة الخارجية التي لا تفسح لحقل التداعي الدلالي في القصيدة بالتوسع عاموديا . وهذا ما يحاوله محمد القيسي في قصيدته « فاتحة العذاب وفاتحة الاغاني » . لكنه في موسقته الخارجية القصيرة ، لا يعطي لابعاد رؤيته الفنية مجالا رحبا للتشكل . فتأتي قصيدته وكأنها تحمل في داخلها امكانية رؤية شعرية متقدمة تؤشر في لجوئها الى عناصر الطبيعة ، الى قدرة هذه العناصر ، على تشكيل ميدان رحب لرؤية فنية متقدمة .

ما عدا هذين الصوتين الشعريين ، تأتي بقية القصائد ، وكأنها مجبولة برؤية مفتتة . رؤية غير قادرة على توحيد اللحظات الشعرية ، داخل لحظة فنية متكاملة . فتأتي بعض الفترات او الاسطر الشعرية ، لتضيء مساحة لا تستطيع القصيدة في بنيتها احتمالها ، فتضيع اللحظات الشعرية ، داخل صخب نثري ، لا يحمل اية دلالات جديدة . هل يعود هذا الى ظاهرة عامة في الشعر الفلسطيني ، ام انه مجرد لحظة ؟ ربما كان السؤال خاطئا . فهذه الاصوات الشعرية التي تجتمع في هذا العدد ، تفتقد من حيث المبدأ قدرتها التمثيلية الشاملة. فلا توجد قصيدة واحدة لشعراء الارض المحتلة . وهذا خطأ او خطيئة وقعت فيها هيئة تحرير « الآداب » . فكيف نتحدث عن صوت الادب الفلسطيني الحديث ، وأصوات شعراء الارض المحتلة غائبة بشكل كامل ؟ ثم جاء هذا الحشد الشعري ليمثل تجارب لم تنضج فنيا بشكل متكامل . ان عدم النضج ليس خطأ او عيبا . لكن الخطأ هو في وضع تجارب لم تستكمل عدتها بصفتها تعبر عن الصوت الشعري الفلسطيني . فأصوات الكثير من الشعراء هنا تحمل قدرة مستقبلية على العطاء ، لكنها ليست هي واقع الشعر الفلسطيني . من هنا سوء التفاهم المبدئي بين القارىء وبين هذا العدد . كما يجب من ناحية ثانية ، تسجيل ملاحظة مبدئية: فهذا الشعر الذي يجيء في اغلبه مباشرا ، وملتقطا من الممارسة السياسية طرفا واحدا من معادلتها المتعددة ، يقع في تسطح معانيه . فالممارسة الثورية ، ليست مجرد فعل سياسي بالمعنى المباشر للكلمة ، بل هي

فعل شامل ، يلتقط المعاناة الانسانية بأسرها . لذلك حين يأتي الشعر الى هذه الممارسة ، وهو يطمح ان يكون معبرا عنها ، فانه ان لم يعش في أعماقها ، ويرسم من خلال لغتــه وقدرته على اكتشاف روافدها العميقة ، لتقوم هذه الروافد بدور منجر عناصر البنية الفنية في سبيل بنية اكثر قدرة على التعبير ، يبــقى في مجــال التحريض الخطابي الذي يلعب دورا تعليميــا في افضــل الاحوال . لكنه لا يقدم لهذه الرؤية عنصرهــا الشعري الجديد . من هنا منشأ التخبط الشعري في هذه المجموعة الكبيرة من القصائد ، التي لم تكتشف لغتها الخاصــة ، فاستندت على تجارب جاهزة ، أو حاولت نقل وجهة نظر سياسية ، اكثر مما حاولت التعبير عن معاناة فنية متكاملة . فأتى الشعر وقد صيغ بلغة البيان السياسي . او بقي عند حافة تجربته الخاصة ، لا يخوض فيها ولا يستطيع ان يقدم عناصره الفنية المتفردة . قد يكون منشأ هذا الخلل في معادلة القصائد عائد في المقابل ، الى تصور عن دور الشعر . فالشعر هو صوت التجربة الجماهيرية النضالية ، لذلك فهو ليس مجرد بنية فنية تحمل هما ثقافيا بالمعنى السيىء للكلمة . انه ممارسة سياسية من طبيعة خاصة . هذا صحيح ، والذي نشير اليه ، هــو الغياب النسبي لكون الشعر ممارسة سياسية من طبيعة خاصة . انه وعاء تجربة جماعية ، يقوم من خلال لغته ، بنقل هذه التجربة والتنويع عليها ، في سبيل صياغة اناشيدها . فالتجربة الجماعية هي فعل وحركة . والشعر لا يستطيع ان يكون صوتها الساكن . او صوتها المباشر انه صوت عناصرها المتحولة ، لذلك فهو لغة هذا التحول التي تتحول الى تغير في عالم الدلالات ، وعالم البنى . لذلك فهو تجريبي ، يبحث عن صوته وعن آفاق هذا الصوت . ان الغنائية وحدها ، لا تنتج شعر مرحلة ، مليئة بالتحولات . فمرحلة التحولات الثورية والتقدم والتراجع ، تنتج شعرا متحولا .

البطل الفلسطيني

قد تكون قصة « سر البري » لعلي زين العابدين الحسيني ، مدخلا لدراسة الملامح الجديدة التي بدأت تخطوها القصة الفلسطينية القصيرة . لكن نبرتها التعليمية البالغة الوضوح ، وهي قصة كتبت أصلا للاطفال ، ولم نعثر على اشارة في النص لهذا ، تحجب من شخصية البري عمقها التي استطاع المؤلف ان يشير اليه افقيا ، دون أن يوسع مدى اشارتــه لتشمل جميع عنــاصر شخصيته . لكنها كقصة تعليمية كتبت للاطفال ، تحمل ملامح البساطة الشعبية لحظات عــرس شعبي كبير متــاوم . فالمقاومة هي الممارســة الجماهيرية في أعلى مراحلها ، مرحلــة الكفاح الشعبي المسلح ، لذلك فحــين تأتي النبــرة التعليمية في البداية لتؤطر هذه القصة ، فانها ترسم ملامح بطولة شعبية شاملة ، يتخللها جو شعري ، يذكر بالقصة الشعبية التي يتعــود الاطفال على سماعها ، بعد أن تغير مضمونها ، لتعبر عــن هموم جــديدة هي همــوم الثــورة الفلسطينية . البطل ليس فردا ، انه الجماعة ، هكذا تشير قصة الاطفال ، وهكذا ايضا تشير قصة محمود الريماوي «محمد الصغير في الدائرة». ورغم ان هذه القصة تفتقر الى حرارة أسلوبية الريماوي السابقة ، فانها تأتي لتؤشر الى نفس المفهوم الواسع للبطولة . فمن خلال لغة طفل ، يكتشف واقع الاحتلال ، تمتد البطولة ، لتشمل الجميع ، ولترتفع عاليا صوت لحظة جماعية هي أفق نضالي واسع ، يلف الجميع لحظة مواجهة الاعداء . هكذا يمتد مفهــوم البطولة ، ليشمل شعبا بأكمله ، وتصبح **العلاقات** بالمعنى الشامل هي الزاوية التي يتطور منهــا منظور القصــة القصيرة . فالقصة ليست لحظة او موقفا او حالة نفسية . انها ميدان واسع لعلاقــة طرفين ، الشعب والاعداء ، ومن خلال الجدل الصدامي والدموي بينهما ، تجري الولادات الجديدة .

الفقرات والمباشرة : في قصتي يحي يخلف «مقامة من كتاب الزيت » ، ورشاد ابو شاور « مربعات فلسطينية » ، محاولة لكتابة القصة القصيرة ، من خلال فقرات ، تشكل استدارات ثم تتوحد هــذه الاستدارات في بنية متكاملة . والواقع ان قصة ابو شاور اكثر قدرة على التحكم بعناصر وحدتها البنائية من خلال قدرة الاستدارة التي يختلط فيها عاملان . الرمز الكامل الذي يستعير من « رجال في الشمس » رمز الخزان ، ويمده على مساحة الواقع الفلسطيني بأسره . واللحظات المباشرة التي تقترب من الانتقائية التسجيلية في رسمها لمجازر عمان الرهيبة . وبين هذين الحدين ، تقيم القصة توهجها الخاص الذي يمسك جيدا بجميع

العناصر التي تشكل القصة . في حين يقع يحي يخلف في عدة القدرة على الامساك الدقيق بتوازن عناصرها الداخلية ، ففي حين يفتتح القصة بمقطع رمزي شديد الوضوح ، يستعير مرجعه من الواقع المباشر ، فانه ينحدر بعد أن يمر بالمقطع الثالث البالغ الدلالات والذي ينفذ هذه القصة ، الى مباشرة فجة كما في خاتمة المقطع الرابع « ولا بأس من أن أذكر انه لا يحب المزاح ، ويحب فتاة اسمها زاهرة ، ويحلم بشكل متواصل في بناء الحزب الثوري » . عند هذا الحد تفقد المقاطع سبب وجودها ، وتنحل الى مجرد حالات لا تستطيع الامساك بلحظة الوحدة في القصة . من هنا تأتي الفقرات ، وكأنها حد فني للقدرة على صياغة حقل رؤيوي موحد .

اللوحة القصصية : ترسم قصة توفيق فياض « المنجد » لوحة قصصية من واقع الاحتلال الاسرائيلي . تقف هذه اللوحة على لحظة توتر واحدة في العلاقات . انكشاف خيانة رب العائلة . ثم تنساب الاحداث وكأن القصة القصيرة ليست سوى ذريعة ، لا ضوابط لها . عالم العلاقات ينحل الى سرد من طبيعة ثانوية ، لذلك تأتي اللوحة وكأنها لا تريد سوى ان تقول موقفا. في المقابل تأتي قصة محمود الخطيب « حكاية الازعر الكوكباوي » ، لتروي من داخل لوحة واقعية ، علاقات القمع واحلام الخروج من تحت مظلته وصولا الى اشكال الرفض والتمرد . لكن المقدمة الطويلة التي صاغهـا المؤلف وكأنها نوع من المونولوغ بصيغة الغائب تعرقل حركة الفصل في القصة . غير ان هذه الحركة نفسها ، تعود الى التبلور في سياق الحوار والحلم والسرد الذي يرسمه المؤلف بدقة ليقدم لوحة قصصية لا تخرج عن المألوف ، لكنها تحمل لمحة فنية لا تزال حارة وقادرة على التشكل .

بين هذين الحدين البنائين تقف بقية قصص هذا العدد ، لتحاول ان تبحث عن البطل الفلسطيني في علاقاته وطموحاته .

تسمح هذه المجموعة الكبيرة نسبيا من القصص برفع ثلاث ملاحظات :

١ ــ الغياب الكامل للرواية الفلسطينية . فما عدا دراسة نقدية قصيرة جدا وسريعة ، كتبها عادل أديب آغا حول رواية رشاد ابو شاور الاخيرة « البكاء على صدر الحبيب » . ان هذا الغياب ليس تعبيرا حقيقيا عما يجري فعلا . لكننا نميل الى الاعتقاد انه جاء نتيجة تقصير المشرفين على هذا العدد . فالرواية الفلسطينية واقعيا ، روايات كنفاني وحبيبي وجبرا ، هي اكثر اهمية على المستوى الفني من العطاء الفلسطيني في حقل القصة القصيرة . وحين تغيب الرواية بهـذا الشكل ، فان هذا يعطي مؤشرات مسيئة لانها غير صحيحة .

٢ ــ لا نزال في حقل القصة القصيرة ، ندور حول الشيء في غالب الاحيان دون ان نخترقه . فالقصة العربية القصيرة مع يوسف ادريس وزكريا تامر ، استطاعت ان تصل اطراف التجربة الشعرية الحادة المشتعلة بحدث هو من طبيعة شعرية كاملة كما عند تامر ، او بجو شعري عام كما في قصص ادريس . واذا كانت اضافات كنفاني بالغة الاهمية، فاننا لا نزال عند الوصف الخارجي ولم نستطع الاختراق الى توحيد اللحظة الآنية بأبعادها . أي ان نمط الشخصيات والعلاقات لا تزال عند الموحد الخارجي ، الحيز ، ولم تنتقل الى الفعل الشامل الذي ينقل اكثر ما في المقاومة من عناصر انسانية شاملة ويسحبها على تجربة الانسان العربي .

٣ ــ لا تزال التجربة القصصية الفلسطينية ، أسيرة المستوى التشكيلي الذي وصلته القصة العربية . أي انها تفتقد العنصر التجريبي الذي بدأ في القصة والرواية ، محاولا كسر الشكل القديم وصولا الى بنية جديدة . وقد تكون اضافة بعد الحكاية الشعبية التي بدأها اميل حبيبي في روايته الاولى « سداسية الايام الستة » هي مفتاح الجديد في التجربة الفلسطينية هنا ، لكننا لا نزال أمام بدايات هذا ، اي ان التقدم في هذا الخط الذي يستطيع ان يكون اجابة على ضرورة كتابة القصة النضالية المباشرة . غير ان واقع القصص الفلسطينية القصيرة ، لا تزال بعيدة عن القدرة على الاستفادة من امكانيات كهذه . ان القصة « الواقعية » حين لا تستطيع ان تتشكل ، فارضة من داخل تجربتها اطاراتها الخاصة ، فانها لا تستطيع ان تكسر رتابة العادة التي تحجب عنها قدرة الوصول الى انجاز حقيقي . « فالمقاومة »

ليست جواز مرور ادبي بشكل مجرد . انها اطار تستطيع التجربة الادبية ان تنفجر في داخله ، لترسم ابعادها الجديدة .

ان ما يوحد هذه الملاحظات السريعة، بالملاحظات حول الشعر ، هو غياب الطابع التجريبي في أكثرية الاعمال الادبية المنشورة . واذا اخذنا بعين الاعتبار ان هذه الكتابات هي في اغلبها لكتاب جيلنا الادبي ، فاننا نصاب بخيبة امل . فهذا الطابع المستسلم أمام الكتابة المتعارف عليها ، والذي لا يخطو اية خطوة الى الامام تكون بمثابة مغامرة ادبية ، لا يستطيع ان يتطور باتجاه بلورة مصطلحات جديدة ، تحمل تجربتنا الثوريـة في ممارستها وطموحها .

النقد ، الغائب

ما عدا دراسة يوسف اليوسف « محاولة رقم ٧ لمحمود درويش ، دراسة تحليلية نقدية » . لا نكاد نعثر على اي اثر للنقد الادبي في هذا العدد. فعدا عن غياب اية دراسة نقدية شاملة ، تحلل وتقيم مسيرة الادب الفلسطيني ، والتي لا غنى عنها في عدد بهذا الطموح . فاننا لا نعثر سوى على محاولة نقدية سريعة لاحسان عباس ، ودراسة لهاني الزعبي عن « أزمة المضمون والشكل في الرواية الفلسطينية » ودراسة طويلة جدا لنزيه ابو نضال « الشعر والجماهير » . ومقابلة مع توفيق فياض . ولست ندري اين نضع مقال معين بسيسو القصير . فهو ليس محاولة نقدية ، انه مقال صحافي قصير يحاول ان ينبه الى مزالق النقد الذي تجاهل الشعر العربي الثوري بأسره بعد ٦٧ ليهرب الى دراسة شعر المقاومة .

لن نقوم بدراسة مفصلة لهذا النقد المنشور لكننا نكتفي بمجموعة من الملاحظات : —

١ — لماذا غياب الدراسات النقدية الشاملة. فاذا كانت دراسة هاني الزعبي تدعي هذا الشمول ، فانها بكل بساطة حين تحذف كنفاني وحبيبي وجبرا من الرواية ثم تدعي دراسة ازمة الرواية ، فماذا عساها تدرس ؟؟ اما محاولة نزيه ابو نضال ، فانها تحتاج الى مناقشة واسعة جدا ، لانها تبسط العلاقة بين المستويات الى درجة الاندغام الكامل . وهي جزء من كتاب سوف يصدر قريبا ، نأمل ان نناقشه كاملا حين صدوره .

٢ — ان لغياب الدراسات النقدية الجادة ، دلالة واضحة . فلا يزال النقد الفلسطيني الحديث في المراحل الاولى من تطوره . ولا تزال الدراسات النقدية المتكاملة التي تواكب تجربتنا الادبية في بدايات تلمس مفاهيمها ومقترباتها . لكن هذا الغياب النسبيلا يبرر هذا الشكل من الركالة والفقر المدقع البارزين في هذا العدد بشكل واضح .

٣ — تبقى دراسة يوسف اليوسف ، التي تنحو منحى بنائيا . اي تدرس مجموعة شعرية بوصفها بنية متكاملة . وتقوم بدراسة علاقة عناصرها ببعضها . هذه الدراسة الهامة تستحق وقفة نقدية طويلة . لانها تطرح امكانية دراسة الشعر بوصفه حالة سيكولوجية فردية وجماعية .

أما ملاحظات عادل اديب آغا على رواية أبو شاور ، فانها لا تتعدى قراءة نقدية سريعة ، تصل الى الاحكام قبل دراسة بنية الرواية .

هذا الادب !

ليس هذا الادب ، هو الصوت الفلسطيني ، فالرداءة ، لا يمكن ان تكون شعار مرحلة ادبية كاملة . فهذا العدد الذي اتى ليضيف مساحة جديدة فارغة الى ممارستنا الادبية وانتاجنا الثقافي . لا يعبر الا عن لحظات تستطيع التجربة الادبية باصواتها الاصيلة والملتزمة ان تمحوها من الذاكرة . فليست كل محاولة شعرية قصيدة، وليس اي نوع من الكتابة نقدا . ان التجربة الادبية الفلسطينية هي التعبير الحقيقي والاصيل عن معاناتنا ومعاناة الجماهير داخل حقل الكفاح الثوري الذي لن يتوقف . فلا شيء يستطيع ان يوقف مسيرة النهر الجماهيري . والادب ، حين يلتصق بهموم الطبقات والفئات التي يعبر عنها ، يستطيع ان يستشرف الافق المستقبلي الذي لا تحدد اطرافه سوى الممارسة الثورية .

من هنا، كان الاديب مقاتلا في ابداعه . فالابداع واختراق السائد وتدميره ، وسحق الفكر الرجعي ، هو المهمة المركزية لكل انتاج ثقافي ، يريد أن يكون معبرا عن هموم الطبقات المسحوقة.

الادب الفلسطيني ، هو كل صوت عربي ، يبحث ويضيف ، من موقع النضال الوطني .

رسائل من الخارج

[١] رسالة من بروكسل
عندما لا تفي « أرض الميعاد » بوعودها
او قضية اليهود السوفييت الفارين من اسرائيل

منذ عام ونيف غادرت اسرائيل عائلة يهودية سوفييتية متجهة الى بلجيكا . وما ان وصلت بروكسل حتى اتصلت بمنظمة يهودية تطلعها على عدم رغبتها في العودة الى اسرائيل وتطلب منها الدعم والمساعدة لكي تتمكن من الاستقرار نهائيا في بلجيكا . وتم اتصال عاجل بين المسؤول في هذه المنظمة اليهودية ورؤسائه . واتصل هؤلاء بالسفارة الاسرائيلية في بروكسل واتصلت هذه الاخيرة في الحال بوزارة الخارجية البلجيكية . وانتهى الامر بترحيل العائلة اليهودية السوفييتية الى اسرائيل على متن اول طائرة متوجهة الى تل ابيب . ولم تستغرق العملية كلها اكثر من يومين . وعلى أثر هذا الحادث تسرب نبأ مفاده ان هناك اتفاقا ضمنيا ومبدئيا بين الحكومة الاسرائيلية والحكومات الاوروبية الغربية يقضي بالا تسمح هذه الاخيرة لاي يهودي سوفييتي بالاقامة على اراضيها بشكل دائم وذلك لعدم تشجيع الهجرة المضادة من اسرائيل . خصوصا وان دول اوروبا الغربية لا ترغب بمثل هؤلاء المهاجرين اولا لانهم سوفييت وثانيا لانهم يهود . ولكن لم يؤكد هذا النبأ احد لا في وزارة الخارجية البلجيكية ولا في اوساط المنظمات اليهودية .

وفي مطلع شهر ايلول الماضي تسرب الى الصحافة خبر يفيد بانه يوجد في بلجيكا حوالي ستمائة يهودي سوفييتي هجروا اسرائيل نهائيا ولا يريدون العودة اليها بتاتا . وتأكد الخبر . وبدأت تعرف تفاصيله. ويبدو ان هؤلاء اليهود السوفييت قد أخذوا يتوافدون الى بلجيكا ابتداء من مطلع شهر تموز الماضي . وظل عددهم يتزايد بشكل مستمر حتى أن هناك من يؤكد انه يبلغ حاليا ٨٠٠ شخص(١). ولو لم تقفل الحكومة البلجيكية الحدود في وجههم لاصبحوا الان يعدون بالالاف اذ ما أن تمكن بعضهم من الاستقرار في بلجيكا حتى انتقل الخبر الى اسرائيل فأخذ يتوافد الى مطار زافنتيم (مطار بروكسل الدولي) من ١٠ الى ٢٠ لاجئا يهوديا سوفييتيا كل يوم قادمين من اسرائيل(٢).

لماذا وقع خيارهم على بلجيكا ؟ لانها كانت البلد الاوروبي الوحيد الذي فتح لهم حدوده في بادىء الامر على الاقل . فقد سافر عدد منهم الى فرنسا او ايطاليا او المانيا الغربية . ولكن هذه الدول أغلقت أبوابها في وجوههم الواحدة تلو الاخرى وعملت حتى على ترحيل بعضهم بالقوة . فاستقر بعضهم في بلجيكا . ووجدوا منظمات خيرية تهتم بهم وتقدم لهم الاكل والمأوى . وما أن استقر هؤلاء في بلجيكا حتى بدأ يعمل « الهاتف اليهودي » على حد قول صحيفة بلجيكية وانتشر الخبر انتشار النار في الهشيم اليابس بين الاهل والمعارف في اسرائيل فأخذوا يتوافدون على مطار بروكسل جماعات جماعات .

يقول الصحفي البلجيكي هوج لوبيج* لقد تمكن هؤلاء اليهود من مغادرة الاتحاد السوفييتي قبل عام او ما يزيد عن العام بقليل . وكانت اسرائيل وجهتهم وهدفهم . ولكن « أرض الميعاد لم تف بوعدها » . فتركوا اسرائيل لاسباب عديدة ومختلفة وعاودوا المسيرة من جديد يبحثون عن جنة اخرى .

---

* يستند هذا المقال على ما نشره هوج لوبيج بمجلة لا روليف ١٩٧٤/٩/٢٨ .

ويضيف السيد لوبيج ان قصة هؤلاء اليهود تثير الدهشة ، ولكن المذهل في الامر هو التعتيم الحقيقي الذي فرض على وجودهم في بلجيكا . فبينما لم تحتج قوى الامن لاكثر من يومين لتكشف النقاب عن وجود مئة عامل باكستاني دخلوا البلد بطرق غير شرعية وتقوم بابعادهم بالقوة لم تلاحظ وجود عدة مئات من اليهود السوفييت الذين يقيمون في البلد منذ ما يزيد عن شهرين . لم يعلم احد بذلك او على الاقل لم يتحدث عن ذلك احد .

وكان احد المخبرين قد اطلع السيد لوبيج في ٨ ايلول على وجود هؤلاء المهاجرين السوفييت في بلجيكا . وكان المخبر نفسه قد علم بالامر على سبيل الصدفة . وبعد يوم كامل من البحث والتحري والاستطلاع تمكن الصحفي من اذاعة الخبر ولاول مرة في النشرة الاخبارية للاذاعة البلجيكية . ولفت ذلك انتباه بعض الصحف البلجيكية للموضوع . فنشرت في الايام التالية بعض الايضاحات الاضافية . ولكن معظم الصحف اليومية والمجلات استمرت في تجاهل الامر تجاهلا تاما . وكان قد مضى على اذاعة الخبر اسبوع كامل عندما نشرت صحيفة لوسوار الكبيرة وفي عددها الصادر في ١٥–١٩٧٤/٩/١٦ وعلى الصفحة الاولى مقالا طويلا تحدثت فيه عن « الاوديسة المدهشة للفارين من اسرائيل » .

اما السيد لوبيج فقد كان قد تأكد من الخبر منذ التاسع من شهر ايلول . واعترف له أحد المسؤولين في منظمة « كاريتاس كاتوليكا » المسيحية وعلامات التردد والتخوف بادية على وجهه ان منظمته تهتم فعلا بمئتي مهاجر سوفييتي قادم من اسرائيل . وكانت مؤسسة تولستوي تهتم بعدد اخر منهم يقدر بمئتين وخمسين . اما الباقون فيقيمون عند أصدقاء او معارف او في فنادق وضيعة على حسابهم الخاص . ومؤسسة تولستوي منظمة للروس البيض تم تأسيسها بعد ثورة ١٩١٧ وتشرف عليها حاليا كما يبدو حفيدة الكاتب الروسي المشهور الذي تحمل المؤسسة اسمه بالتعاون مع جهات اميركية . وهدف هذه المؤسسة الاهتمام بلاجئي دول المعسكر الشرقي ومساعدتهم . ويقال حتى ان المسؤولين عن هذه المؤسسة معروفون بميولهم اللاسامية . ولكن معاداتهم للاتحاد السوفييتي تغلبت في هذه الحالة بالذات على معاداتهم للسامية . وقد رفض المسؤولون في هذه المنظمة الافشاء بأية معلومات او استقبال أي صحفي او الادلاء بأي تصريح حول هذا الموضوع . وقد توجه السيد لوبيج مثلا الى مقر هذه المؤسسة وقرع الباب . فلم يفتح له احد . ولكن نافذة فتحت في الطابق الاول واطلت منها عجوز شرسة طردت الصحفي بفظاظة .

وتقوم منظمة كاريتاس ومؤسسة تولستوي باعالة ٤٠٠ او ٤٥٠ مهاجرا سوفييتيا قادمين من اسرائيل فتقدمان لهم المسكن والمأوى وبعض الملابس . وقد اسكنت منظمة كاريتاس الذين تهتم بهم في مصيف يقع على شاطىء البحر تابع للنقابات المسيحية بينما اسكنت مؤسسة تولستوي القسم الاخر في مركز تابع لها في بروكسل او في بعض الفنادق الواقعة في الاحياء الشعبية بالقرب من المحطة الجنوبية . وتقوم المنظمتان باعداد ملفات لهؤلاء اللاجئين تمكنهم من تقديم طلبات هجرة الى الولايات المتحدة او كندا او استراليا، كما أن هناك عددا منهم يرغب في البقاء في بلجيكا ولا بد من ترتيب اموره من الناحية القانونية .

وأن اكثر ما يثير الدهشة في هذا الموضوع ان المنظمات اليهودية البلجيكية لم تبد أية رغبة في مساعدة هؤلاء اللاجئين اليهود . وقد اتصل السيد لوبيج في التاسع من ايلول بلجنة التنسيق للمنظمات اليهودية البلجيكية . فأكد له المسؤولون انه لا علم لهم بهذا الموضوع . ولكنه لم يفتأ ان وقع على شخصيتين يهوديتين أكدتا له الخبر بعد أن اعربتا عن دهشتهما البالغة لانه توصل الى الاطلاع على الامر بالرغم من جدار التكتم الشديد الذي اقيم حول هذا الموضوع . وهذا يعني ان الاوساط المعنية كانت حقا تريد اخفاء الموضوع عن الرأي العام. وطلبت هاتان الشخصيتان اليهوديتان من الصحفي بالحاح الا يتطرق الى الحديث عن هذا الموضوع بتاتا لان ذلك يشكل على حد رأيهما خطرا في الظرف الحالي على مصير ومستقبل هؤلاء المهاجرين ومن المحتمل ان يعرقل المساعي التي تبذل حاليا لترتيب امورهم من الناحية القانونية .

والواقع ان هؤلاء اليهود السوفييت يعيشون الان وضعا دقيقا . فقد دخلوا بلجيكا بجواز سفر

او وثيقة مرور عادية . وككل اسرائيلي يدخل بلجيكا لم يكونوا بحاجة الى تأشيرة دخول . ولكن دخول البلد بهذه الطريقة لا يعطيهم الحق في الاقامة الدائمة في البلد ولا يسمح لهم قانونيا بممارسة اي عمل . فهم يعتبرون سياحا ويحق لهم ان يقيموا في بلجيكا مدة ثلاثة شهور عليهم بعد ذلك ان يغادروا البلد والا تعرضوا مبدئيا للطرد او الابعاد . وقد مضى على وجود بعض هؤلاء المهاجرين في بلجيكا اكثر من ثلاثة شهور . ولكن الحكومة البلجيكية لم تتخذ اي قرار حتى الان بشأنهم . فالسلطات البلجيكية لا ترغب في ترحيلهم الى اسرائيل بالقوة (كما فعلت مع الباكستانيين) لئلا تتهم باللاسامية وتثير الرأي العام . وهي مع ذلك لا تريد تسهيل امورهم لئلا تغيظ السلطات الاسرائيلية اذ هي بذلك تشجع الهجرة من اسرائيل ولئلا تثير سخط بعض الاوساط التي ستقارن بين تسامح الحكومة مع اليهود السوفييت وشدة معاملتها للباكستانيين والعرب . ولذا تتصرف السلطات البلجيكية بترو لكي تتوصل الى اتفاق حول هذا الموضوع مع الحكومة الاسرائيلية اولا . وعليه نرى المسؤولين البلجيكيين يعالجون الامر بسرية وتكتم. ومن المتوقع ان توافق السلطات البلجيكية على منح الاقامة للمهاجرين الموجودين حاليا في بلجيكا بشكل نهائي او مؤقت ريثما يتمكنون من الهجرة الى مكان اخر . ولكنها لن تسمح بدخول اي مهاجر جديد سواء جاء من اسرائيل او من أية دولة اوروبية اخرى . وهكذا تكون قد وجدت مخرجا من الازمة التي وضعها فيها هؤلاء الهاربون من اسرائيل بدون أن تشجع الهجرة المضادة واثارة سخط السلطات الاسرائيلية والصهيونية وحلفائها الكثيرين .

لماذا هذا التكتم ؟ هناك من يدعي ان اثارة أية ضجة حول هذا الموضوع تشكل خطرا على امن هؤلاء المهاجرين . يخشى البعض مثلا ان يقوم العرب بعمليات « ارهابية » ضد هؤلاء المهاجرين. ولكن مثل هذا التفكير بعيد عن المنطق . فهل هناك ما يبرر قيام العرب بعمليات ضد يهود تركوا اسرائيل وساهموا بتحطيم خرافة « ارض الميعاد » وكذبوا النظرية الصهيونية التي تعتبر اسرائيل وطنا لكل اليهود ؟ وهناك من يخاف على هؤلاء المهاجرين من عمليات ارهابية تقوم بها ضدهم اوساط صهيونية انتقاما منهم لمغادرتهم اسرائيل واقناعا لغيرهم من اليهود السوفييت الذين ما زالوا يعيشون في اسرائيل ويرغبون في الهجرة بالعدول عن هذه الرغبة . ولا شك ان السلطات الاسرائيلية ساهمت في حملة التعتيم هذه خوفا من أن يزعزع هذا العدد الكبير من المهاجرين السوفييت العقيدة الصهيونية لدى عدد من الطائفة اليهودية البلجيكية . كما هي تخشى أن يصبح هؤلاء الهاربون من اسرائيل حجة دعائية يستغلها الفلسطينيون لمهاجمة النظرة الصهيونية وتستغلها السلطات السوفييتية للحد من هجرة اليهود الى اسرائيل . والجدير بالذكر ان عددا من هؤلاء اليهود السوفييت قد توجهوا الى السفارة السوفياتية في بروكسل يطلبون السماح لهم بالعودة الى الاتحاد السوفييتي . وقد أكد ذلك مستشار في السفارة المذكورة في حديث خاص ان عددا من الطلبات ارسلت فعلا الى موسكو ليتم النظر فيها .

ولم يتلق هؤلاء المهاجرون أية مساعدة تستحق الذكر من المنظمات اليهودية البلجيكية . وجدوا بعض التعاطف لدى بعض اليهود كأفراد . اما المنظمات فقد تجاهلتهم تماما حتى ان بعضها ناصبهم العداء جهارا . ولا شك ان لهذا التصرف مدلولا خاصا خصوصا والكل يعلم هنا مدى وقوة وفاعلية التضامن اليهودي . وقد صرح بعض هؤلاء المهاجرين ان المنظمات اليهودية رفضت مساعدتهم رفضا قاطعا وان بعضها يعتبرهم خونة لانهم غادروا اسرائيل ويشكلون حجة يستعملها اعداء اسرائيل للدعاية المضادة للهجرة نحو « الدولة اليهودية » . كما ان مغادرتهم لاسرائيل على حد قول هذه المنظمات تعتبر نوعا من التكذيب للنظرية الصهيونية . ولذا فهي تعرض عليهم نوعا واحدا من المساعدة : ان تشتري لهم تذكرة عودة الى اسرائيل[٣].

واليهود السوفييت يعلمون جيدا ان المنظمات اليهودية البلجيكية ناقمة عليهم . فقد ذهب بعضهم في بادىء الامر الى كنيس بروكسل الكبير للصلاة.لم يطلبوا شيئا من احد . ولكنهم شعروا انهم غير مرغوب فيهم حتى في ذلك المكان فغادروه . وبعد ذلك بايام جاء بعض اليهود البلجيكيين بشكل

فردي لرؤيتهم والتحدث اليهم . ولكنهم لم يعودوا. يتحدث اليهود السوفييت عن ذلك بمرارة(٤).

وقد قال احد هؤلاء اليهود السوفييت : « هم يكرهوننا جميعا : السوفييت والعرب واليهود . نعم حتى اليهود يكرهوننا لاننا نحرجهم اذ نحطم الرواية التي اخترعوها بأنفسهم ليقدموها للعالم الخارجي اعني ادعاءهم ان اسرائيل هي الوطن — الجنة لكل اليهود ... وهم يكرهوننا لاننا غادرنا اسرائيل ».وقد رفض المتحدثون من بينهم ذكر اسمائهم او الكشف عن هوياتهم خوفا من ان يتعرض اهلهم في اسرائيل الى المضايقات او الانتقام(٥).

والكل يعلم — على حد قول صحفي بلجيكي اخر — ان هذه الهجرة تزعج الاوساط الصهيونية، فهي تدحض الحجج الاساسية في نظريتهم القائلة بأن اسرائيل هي وطن كل اليهود المشتتين في العالم . ويتساءل الصحفي : ماذا سيكون مصير هذه النظرية بعد ان يثبت ان اسرائيل عاجزة عن تلبية متطلبات عدد كبير من هؤلاء اليهود الى درجة يضطرهم الى محاولة الهجرة مهما كلف الثمن؟(٦).

والجدير بالذكر ان هؤلاء المهاجرين من اليهود السوفييت كانوا قد اتصلوا حال وصولهم الى بلجيكا بمسؤول في منظمة اجتماعية يهودية بلجيكية طالبين العون والمساعدة . الا ان هذا المسؤول لم يعتبر اليهود السوفييت اهلا لتلقي مساعدة من منظمة يهودية فأرسلهم الى منظمة كاريتاس الكاثوليكية(٧) واللجنة المركزية للمنظمات الاجتماعية اليهودية في بلجيكا ترفض من الناحية المبدئية تقديم اي عون الى اليهود الذين يغادرون اسرائيل نهائيا(٨). وتعتبر الاوساط اليهودية هذه مغادرة اسرائيل أمرا يتنافى مع مبادىء الصهيونية وقد صرح السيد ستراسبيرج رئيس « الاتحاد العام للصهيونيين الاحرار » انه ليس من الممكن مساعدة هؤلاء اليهود السوفييت من قبل المنظمات اليهودية لانهم خانوا اسرائيل واستغلوا هجرتهم اليها ليتمكنوا من الهجرة في نهاية الامر الى كندا او الولايات المتحدة(٩). كما ان هناك طبيبا يهوديا بلجيكيا ذهب الى ابعد من ذلك وشكك في«يهودية» هؤلاء المهاجرين واكد أنهم ادعوا انهم يهود ليتمكنوا من الهجرة .

ويعترف السيد دافيد سوسكند رئيس لجنة التنسيق للمنظمات اليهودية البلجيكية واحد كبار المشرفين على الحملة من أجل هجرة اليهود السوفييت الى اسرائيل بأن المشكلة محرجة لا بل أنها « مشكلة ضميرية » . فالامر على حد قوله لا يتعلق باناس طردوا من بلدهم . فقد استقبلتهم اسرائيل بعد أن صرفت مبالغ طائلة لتمكنهم من مغادرة الاتحاد السوفييتي . وبعد ذلك اختاروا بمطلق الحرية ان يغادروا اسرائيل . فلماذا نساعدهم ؟(١٠) وكان السيد سوسكند نفسه قد صرح امام بعض هؤلاء المهاجرين : اذا كانت نفسي تريد مساعدتكم فهي لا ترغب في الحاق اي ضرر باسرائيل(١١) ويقول الاستاذ مارسيل ليبمان ان المؤسسات الاجتماعية اليهودية قادرة على مد يد المساعدة لهؤلاء اليهود السوفييت . ولكنها تتردد في تقديم المساعدة او حتى ترفض تقديمها لانها تخشى ان فعلت أن تسيء الى اسرائيل(١٢).

واتضح ان التضامن اليهودي مسخر لخدمة الصهيونية واسرائيل . وان المنظمات اليهودية ترفض تقديم اي عون ليهودي اذا ما ادركت ان تقديم مثل هذا العون لا يخدم المصلحة الاسرائيلية. والجدير بالذكر أن الطائفة اليهودية البلجيكية لم توافق على مثل هذا التصرف . ولذا نشرت مجلة بلجيكية تصدر بانفيرس وتعتبر الناطقة الرسمية بأسم المنظمات اليهودية الموالية لاسرائيل واسمها « المجلة الاسبوعية البلجيكية الاسرائيلية » مقالا تنتقد فيه رفض المنظمات اليهودية تقديم المساعدة لليهود السوفييت . كما انتقد المقال الحكومة الاسرائيلية لانها استعملت حق النقض — على حد قول كاتب المقال — لتحمل المنظمات اليهودية على الامتناع من مد يد المساعدة لهؤلاء المهاجرين(١٣). ولكن كاتب المقال يضيف انه ليس من السهل اتخاذ قرار حول هذا الموضوع اولا لان الطائفة اليهودية لا تتعاطف مع هؤلاء المهاجرين وثانيا لان معالجة هذا الموضوع تحتاج الى مبالغ طائلة .

عندما كشفت الصحف النقاب عن الهجرة المضادة من اسرائيل اخذت الاوساط الصهيونية تحاول تقليص اهمية هذه الهجرة وتفريغها من محتواها السياسي وتحويلها الى أمر عادي لا

يستحق اي اهتمام خاص . فقال مثلا بعض المسؤولين في المنظمات اليهودية انه يجب اعتبار مشكلة اليهود السوفييت كمجموع مواقف فردية وليس كظاهرة جماعية . وانه لا يجوز بسبب هجرة هؤلاء اليهود مهاجمة سياسة الهجرة الاسرائيلية . فقد هاجر الى اسرائيل على حد قولهم منذ ١٩٦٨ حوالي ١٠١ الف يهودي سوفييتي . ونسبة الفشل بين هؤلاء المهاجرين ضئيلة جدا اذ لا تزيد نسبة الذين يغادرون اسرائيل منهم عن ٥ر٢٪ . وهذه نسبة منخفضة جدا في نظرهم اذا ما قورنت بنسبة الفشل بين المهاجرين الى اي بلد اخر غير اسرائيل .

وقد أصدرت السفارة الاسرائيلية في بروكسل بيانا صحفيا اكدت فيه أن كل يهودي يملك الحق والحرية في الهجرة الى اسرائيل وفي الهجرة من اسرائيل نحو بلدان اخرى . ويضيف البيان انه من بين المئة الف يهودي الذين استقروا مؤخرا في اسرائيل ١٧٠٠ فقط لم ينجحوا في التكيف مع المجتمع الاسرائيلي وان ذلك امر طبيعي اذ تلاحظ نفس الظاهرة في أية هجرة وفي اكثر الاحيان بنسب أعلى بكثير . ويقول البيان ايضا ان الحكومة الاسرائيلية لا تعتقد انه من حقها او من واجبها التدخل في قرارات المنظمات اليهودية في الخارج وخاصة في بلجيكا . ولذا فالخبر الذي نشر حول استعمال حق الفيتو من قبل الحكومة الاسرائيلية مناف للحقيقة ...(١٤).

هذا وقد بعث السيد دافيد سوسكند رئيس لجنة التنسيق للمنظمات اليهودية البلجيكية برسالة الى صحيفة بلجيكية حول هذا الموضوع جاء فيها: منذ عام ١٩٧٣ وحتى مطلع شهر ايلول من العام الحالي وصل الى اسرائيل ٩٦٥٣٠ يهوديا سوفييتيا . وبالاضافة الى ذلك هناك ٣٥٩٠ فضلوا البقاء في فيينا وسافروا من هناك الى الولايات المتحدة او كندا او استراليا للالتحاق في أكثر الاحيان باقارب لهم يعيشون هناك منذ زمن طويل. ومن بين ٩٦٥٣٠ يهوديا غادر اسرائيل منهم ٢٩٥٠ يهوديا لاسباب مختلفة : صعوبة التكيف ، الطقس ، اللغة ، صعوبة معادلة الشهادات ، ممارستهم لمهن غير موجودة في اسرائيل الخ ... ويضيف السيد سوسكند بأن اسرائيل بلد ديموقراطي لا يغلق حدوده يوما واحدا . ولذا يستطيع كل من يهاجر الى اسرائيل ولا يجد فيها السعادة ان يغادرها حين يشاء والى البلد الذي يشاء . واليهود السوفييتو الاصل المتواجدون حاليا في بلجيكا هم مواطنون لبلد حر لهم فيه كل الحقوق . فهم ليسوا لاجئين ولكنهم نساء ورجال يريدون لاسباب تتعلق بهم وحدهم تحسين اوضاعهم . وعليه يجوز اعتبار هؤلاء المواطنين الاسرائيليين كالمواطنين البلجيكيين الذين يذهبون للبحث عن الثروة في فرنسا . ويقول ايضا السيد سوسكند ان المنظمات اليهودية ستقوم بواجبها لمساعدتهم وان الاشاعات حول تدخل السفارة الاسرائيلية او الحكومة الاسرائيلية خالية من الصحة وان ذلك يجب الا يمنع الرأي العام من « متابعة النضال ليفتح الاتحاد السوفييتي ابوابه واسعة امام اليهود الذين يرغبون مغادرته الى اسرائيل وهم يعدون بمئات الالاف »(١٥) وينهي السيد سوسكند رسالته قائلا : « يجب الا تخفي الشجرة الغابة » .

سنعود فيما بعد الى الحديث عن الحرية التي يتمتع بها اليهود السوفييت لمغادرة اسرائيل متى يشاؤون والى البلد الذي يشاؤون . كما سنتطرق الى الحديث عن تدخل السفارة الاسرائيلية والحكومة الاسرائيلية لدى المنظمات اليهودية البلجيكية لمنعها من مد يد المساعدة لهؤلاء المهاجرين ولدى السلطات البلجيكية لحملها على قفل حدودها في وجه « الفارين من اسرائيل » . واما الان فنكتفي بنقل رد الصحفي البلجيكي هوج لوبيج على حجتين قدمتها الاوساط الصهيونية . ويجوز التعبير عن هاتين الحجتين بسؤالين : هل يجوز اعتبار الهجرة الى اسرائيل كأية هجرة اخرى الى كندا او الولايات المتحدة مثلا ؟ وهل الارقام التي اوردتها الاوساط الصهيونية صحيحة ؟ ولا بد من الاشارة هنا الى الاختلاف بين الارقام التي قدمتها السفارة الاسرائيلية في بيانها والارقام التي ذكرها السيد سوسكند .

يقول السيد لوبيج ان سياسة الهجرة الاسرائيلية تقوم على قانون العودة الذي يتجه مبدئيا الى كل يهود العالم ويشكل فعلا احد الاسباب الرئيسية التي اوصلت القضية الفلسطينية الى الطريق المسدود الذي تتواجد فيه حاليا . وحتى اذا كان اليهود السوفييت المقيمين حاليا في بلجيكا او في

غيرها من الدول الاوروبية قد غادروا اسرائيل لاسباب مختلفة (اللغة والطقس والخوف من الحرب والنقص في العمل ...) وحتى اذا كانت خيبة الامل ظاهرة منتشرة عادة بين المهاجرين فاننا لا نستطيع اعتبار حجم هذه الهجرة من اسرائيل كمجموعة من المواقف الفردية او المصادفات التعيسة . يجب أن لا ننسى أن الهجرة الى اسرائيل لا تشبه غيرها من الهجرات . فالمبررات القومية والسياسية والدينية هي عادة عميقة جدا في نفوس الذين يقررون تلبية نداء قانون العودة ، وهذه المبررات اعمق من التي تحمل اي شخص عادي على الهجرة ليجرب حظه تحت سموات اكثر رحمة . فقانون العودة لم يعد اذن الان في اتجاه واحد . وهذا ما يبرر قلق المنظمات الصهيونية والحكومة الاسرائيلية .

واما الاستاذ مارسيل ليبمان فيقول انه اذا كانت اسرائيل تتردد في الاعتراف بالواقع (الهجرة المضادة) فلان هذا الواقع « يشكل تكذيبا لادعاءين تجعل اسرائيل منهما اساس وجودها واساس سياستها . الا تقدم اسرائيل نفسها كأنها دولة كل اليهود وحامية كرامتهم ومصالحهم ؟ الا تقدم نفسها كذلك كأنها البلد — الملجأ لكل يهود العالم ؟ ولكن نجد أن عددا كبيرا من الذين اعتبروها البلد — الملجأ يحاولون مغادرتها وتذهب محاولتهم عبثا في بعض الاحيان . وتدل هذه المشكلة على الاقل بأن دولة اسرائيل ،مهما كان الحكم الذيتصدره على سياستها ، لا تشكل وحدة جوهرية لا مع مصير يهود الشتات ولا مع مصالحهم . وانه من الممكن ان توجد تناقضات صارخة بين مصالح دولة اسرائيل ومصالح هؤلاء اليهود[16] .

فلا يجوز اعتبار هجرة اليهود الى اسرائيل كهجرة المواطنين البلجيكيين الى فرنسا . وفشل اسرائيل في استيعاب اليهود السوفييت لا يقارن بفشل كندا مثلا في استيعاب المهاجرين . لان كندا لا تدعي وجود روابط بينها وبين المهاجرين اليها من لبنان مثلا مثل الروابط التي تدعي وجودها اسرائيل بينها وبين كل يهود العالم . والهجرة المضادة من كندا مهما بلغ حجمها لا تشكل خطرا على وجود الدولة الكندية . بينما الهجرة المضادة من اسرائيل تهدد الوجود الصهيوني في المنطقة وتنسف النظرية الصهيونية من اساسها .

وتواجه سياسة الهجرة الاسرائيلية منذ بعض الوقت صعوبات كثيرة . ويقول السيد لوبيج انه يكفينا للتأكد من ذلك ان نرجع الى التصريحات الرسمية الاسرائيلية . فقد صرح وزير الاستيعاب الاسرائيلي نفسه في ١٦ آب الماضي بأن « الانخفاض في الهجرة الذي نلاحظه حاليا يعود الى صعوبات الاستيعاب في البلد وبشكل خاص الى النقص في المساكن والعمل والى مشاكل التكيف الاجتماعي » . وقد اعطى الوزير بعض الارقام : لقد هاجر الى اسرائيل في الاشهر الاولى من العام الحالي ٩٧٢٢ يهوديا سوفييتيا مقابل ١٤٥٢٥ في الفترة نفسها من العام الماضي ١٩٧٣ . ومن بين هؤلاء الـ٩٧٢٢ يهوديا سوفييتيا هناك الف غادروا البلد بعد فترة وجيزة . و١٢ ٪ من اليهود السوفييت الذين وصلوا الى فيينا في الفترة نفسها اختاروا الهجرة الى بلد غير اسرائيل .

ويضيف السيد لوبيج : اما فيما يتعلق بمجموع المهاجرين الى اسرائيل (من اليهود السوفييت وغيرهم) فقد بلغت نسبة الانخفاض ٣٠ ٪ في عام واحد : فقد هاجر الى اسرائيل في الاشهر الستة الاولى من العام الحالي ١٦٨٠٠ شخص مقابل ٢٤٤٠٠ للفترة نفسها من العام الماضي ١٩٧٣ . وقد صرح مؤخرا السيد لودلين امين صندوق الوكالة اليهودية انه من اصل المئة الف يهودي الذين تمكنوا من مغادرة الاتحاد السوفييتي بقي ٤٠٠٠ منهم في اوروبا الغربية بينما غادر ١٧ الف اسرائيل بعد أن استقروا فيها بعض الوقت . فأين نحن من نسبة ٣٫٥ ٪ من الفشل التي تحدثت عنها الاوساط الصهيونية ؟ وتضيف مجلة « بريس نوفيل » اليهودية التي تصدر في باريس والتي استقى منها السيد لوبيج هذه المعلومات ان نسبة اليهود السوفييت الذين كانوا يفضلون البقاء في اوروبا على الهجرة الى اسرائيل بعد وصولهم الى فيينا كانت لا تزيد عن ٤ ٪ عام ١٩٧٣ ولكنها ارتفعت الى ١٠ ٪ في شهري اذار ونيسان من العام الحالي وبلغت ١٧ ٪ في شهري ايار وحزيران من العام نفسه . ويقول ايضا السيد لوبيج ان هذه الارقام تفسر الازعاج الذي يسببه اليهود السوفييت الذين وصلوا بلجيكا لبعض المنظمات الصهيونية .

لماذا غادر هؤلاء اليهود السوفييت اسرائيل ؟

هذا سؤال كانوا يرفضون الاجابة عليه في بادىء الامر . لا بل ابدى هؤلاء اليهود تخوفا من الصحفيين والمصورين وناصبوهم العداء . لماذا هذا التخوف وما الذي يبرر هذا العداء ؟ هناك طبعا مشاكل امنية . ولا يريد هؤلاء اليهود اثارة ضجة حول وجودهم في بلجيكا . ولكن السبب الاساسي الذي يفسر تخوفهم من الصحافة هو أن بعض الصحفيين سارعوا لمقابلتهم لا للاستفسار عن احوالهم والسؤال عن الاسباب التي حملتهم على الهجرة ولكن ليكيلوا لهم اللوم قائلين : « لماذا هجرتم بلدكم ؟ هل نسيتم حركة الدعم التي بدأناها: هنا لصالحكم ؟ » . وهذا ما حمل سيدة يهودية سوفييتية على مواجهة صحفي جاء لمقابلتها بهذا القول : « ماذا تريد ! لا حاجة لان تأخذ قلمك . لن أقول شيئا . تريد ان تعرف لماذا غادرنا اسرائيل ؟ لان الطقس هناك حار جدا . الموضوع موضوع طقس . لم نتمكن من احتمال الاختلاف في الطقس بين الاتحاد السوفييتي واسرائيل »(١٧).

لماذا غادرتم اسرائيل ؟ « لعدة أسباب » . ما هو وضع اليهود في الاتحاد السوفييتي ؟ «صعب». ويضيف احدهم بأن اللاسامية موجودة في كل مكان . وينتهي الحوار . لا يرغبون في العودة الى الاتحاد السوفييتي ولا الى اسرائيل (مع العلم ان بعضهم تقدم بطلبات الى السفارة السوفييتية للعودة الى الاتحاد السوفييتي) . الى اين سيذهبون ؟ الى الولايات المتحدة . وهناك من يفضلون البقاء في بلجيكا . كما أن هناك من يرغبون في الهجرة الى كندا او الى استراليا او حتى الى جنوب افريقيا .

ولكن بعض الصحفيين تمكنوا من التحدث الى هؤلاء المهاجرين بعد ان اقنعوهم أنهم يريدون فقط تفهم مشاكلهم لشرحها للرأي العام . ويقول الصحفي جان بول بروكيرير ان محدثيه اصروا قبل التحدث اليه بصراحة على التأكيد من أنه ليس يهوديا بما يدل على تخوفهم من اليهود . فما هي الاسباب التي دفعتهم على الهجرة ؟ « كان بيننا كثير من الشباب . ولم يغادر هؤلاء الاتحاد السوفييتي ليصبحوا جنودا في اسرائيل . ولكن هذا ما حدث في الواقع . فلم يمض على وجودهم في اسرائيل بضعة شهور حتى وجدوا أنفسهم يرابطون في الكيبوتسات القريبة من الحدود ويرتدون البزة العسكرية . واستطيع حتى ان اروي قصة شاب اعفي من الخدمة العسكرية في الاتحاد السوفييتي بسبب عجز في بصره . وعندما هاجر الى اسرائيل اجبروه على تأدية الخدمة العسكرية. وعندما رفض القته السلطات في السجن ... »(١٨).

ولم تكن الخدمة العسكرية والخوف من الحرب التي تهدد بالاشتعال كل يوم المشاكل الوحيدة التي واجهتهم . فقد كانوا يأملون ان يجدوا عملا في اسرائيل . والكثيرون من هؤلاء اليهود السوفييت أصحاب مؤهلات عالية . ولكنهم واجهوا صعوبات عديدة في هذا المجال بالذات . وفيما يلي بعض الامثال التي ساقوها لاحد الصحفيين : امرأة في الثامنة والعشرين كانت تعمل في مختبر في الاتحاد السوفييتي . لم تستطع ايجاد اي عمل في اسرائيل. وكان زوجها مهندسا في الاتحاد السوفييتي . واضطر الى العمل في الميناء كعامل بسيط . ومن بين المهاجرين مهندسون سابقون اشتغلوا عمالا عاديين في اسرائيل . وتقول امرأة : « أنا مختصة بالكيمياء أصبحت خدامة في اسرائيل ... الرواتب منخفضة في الاتحاد السوفييتي . ولكن العمل متوفر للجميع . ويستطيع كل فرد ان يجد العمل الذي يتماشى مع اختصاصه وكفاءته »(١٩). بينما امرأة اخرى — وصفها الصحفي بأنها تشبه اديت بياف — كانت موسيقية مبدعة في الاتحاد السوفييتي لم تجد لها اسرائيل عملا سوى مدرسة لقراءة الالحان وطالبين(٢٠).

وقال أيضا احد هؤلاء اليهود السوفييت : «كنت مدير مصنع في لينينغراد . ولكنني لم أعد مديرا في اسرائيل . اضطررت الى العمل في الكيبوتس . وهذا عمل غير جيد » . وقال غيره « كنت اهتم بالثقافة والسينما والمسرح عندما كنت في لينينغراد. واما في اسرائيل فقد وضعوني في كيبوتس حيث لا ثقافة ولا سينما ولا مسرح »(٢١). لماذا اذن تعمل السلطات الاسرائيلية على تسهيل هجرتهم الى اسرائيل بينما هي تعلم تماما انها لن تستطيع ان تؤمن لهم وضعا لائقا ؟ ويجيب احدهم على هذا السؤال بقوله : « اسرائيل بحاجة الى المزيد من السكان لكي تتمكن من المطالبة بالمزيد من الاراضي. وهي بحاجة الى المزيد من الشبان للحرب »(٢٢).

ومن بين الاسباب التي ذكرها هؤلاء المهاجرون

ايضا : الاختلاف في النظام الاقتصادي بين الاتحاد السوفييتي (نظام اشتراكي واقتصاد موجه ونظام يهتم بالانسان منذ ولادته وحتى وفاته) واسرائيل (نظام رأسمالي يقوم على العمل الشاق والمنافسة الشديدة). وهناك ايضا الحالة النفسية وتوتر الاعصاب بسبب حالة الحرب الدائمة والخوف من حرب جديدة ومن العمليات الارهابية والقاء القنابل(٢٣). وتقول صحيفة اخرى : كانوا يعتبرون اسرائيل ارض الميعاد ولكنهم وجدوها بلدا كغيرها من البلدان لا بل بلدا يعيش في حالة حرب مستمرة يفرض على مواطنيه اعلى درجات الالتزام ، بلدا يقوم على اسس دينية مما يتنافى مع ثقافتهم السوفييتية(٢٤).

وقد صرح بعض اليهود السوفييت : « لم نكن نشعر في هذا البلد الجديد (اسرائيل) اننا حقا في بلدنا . ولم نكن مرتاحين في علاقاتنا مع الاسرائيليين المقيمين هناك منذ زمن طويل . كانوا يسموننا « اليهود » في الاتحاد السوفييتي . واما في اسرائيل فقد اطلقوا علينا تسمية « الروس » . هل تفهم الان لماذا غادرنا اسرائيل ؟ كنا نبحث عن الحرية . لم نجدها في الاتحاد السوفييتي . ولكننا لم نجدها في اسرائيل »(٢٥).

وتحدث بعضهم عن علاقة المهاجرين من اليهود السوفييت بالصابرا الاسرائيليين فقالوا : «يتصرف الصابرا وكأن البلد بأكمله ملك لهم . ويقولون لنا: انتم الروس تصلون الى البلد فتسلمكم الحكومة في الحال بيتا بينما نعمل نحن الصابرا بمشقة ولا نحصل على بيت » . ويضيف هؤلاء : كنا في الاتحاد السوفييتي مواطنين من الدرجة الثانية لاننا يهود . واما في اسرائيل فهم يعتبروننا روسا وشيوعيين خطرين(٢٦).

وتقول كريستينا بينير في مجلة نوفيل اوبسيرفاتير ان المرء يلمس في اقوال هؤلاء اليهود « شعورا بعدم الانتماء الى المجتمع الاسرائيلي » . وتنقل الصحفية قول ربة عائلة من بين هؤلاء المهاجرين : « كنا هناك غرباء (في اسرائيل) . كانوا يسموننا « الروس » . ومع ذلك فنحن يهود . الا أنهم كانوا يحملوننا على الشعور بأننا مختلفون . العلاقات الاجتماعية في الاتحاد السوفييتي سهلة وبسيطة . لا يوجد اخوة في اسرائيل . هل تفهم ؟ انكم أقرب الينا انتم الاوروبيين من هؤلاء الناس».

وتضيف الصحفية بأن « هؤلاء الناس » هم اليهود الشرقيون . العرب اليهود الذين كان يجهل اليهود السوفييت وجودهم . فقد اكتشفوهم لدى وصولهم الى اسرائيل . وكل شيء يفرق بين هاتين الفئتين الاجتماعيتين اللتين لا تستطيعان حتى التقارب من خلال ديانة مشتركة لان عددا كبيرا من اليهود السوفييت ملحدون. ويعتبر اليهود الشرقيون هؤلاء الذين يسمونهم باحتقار « الروس » ابناء النظام المدللين الذين يحصلون على المزيد من العناية ويتمتعون بامتيازات كثيرة ، وما اليهود الشرقيون في نظر اليهود السوفييت سوى «عرب» او « مغاربة » كما يقولون . ولا يستطيع اليهود السوفييت التفاهم معهم لا بل يشعرون بعدائهم . ولا شك أن هذه الظاهرة تشكل اكبر خطر يهدد اسرائيل . ويعلق على ذلك شاب غادر اسرائيل لانه لم يرد قضاء ثلاث سنوات في الخدمة العسكرية : « اسرائيل مكونة من اناس شديدي الاختلاف فيما بينهم لديهم من المبررات ما يحملهم على الموت معا ولكن ليس لديهم من المبررات ما يكفي لحملهم على الحياة معا »(٢٧).

ويمكن تلخيص المشكلة التي تواجه المهاجرين الروس ، كما يقول فؤاد موياتي ، بعبارة قالها أحدهم : « جئت الى هنا وانا اعتقد ان جميع الاسرائيليين اصدقاء في ما بينهم . لكنني اكتشفت أنهم ليسوا كذلك » . وينقل الصحفي رأي يهودية شرقية حول النفور القائم بين المقيمين والمهاجرين: « أنا وزوجي هنا منذ الخمسينات عندما هاجرنا من المغرب . وقد عانينا مصائب ثلاث حروب . وفي الحرب الاخيرة أصبح زوجي اقل من نصف رجل. (جرح زوجها على الجبهة السورية في ١٣ تشرين الاول ١٩٧٣ فقطعت يده اليسرى واصيب بعطل عام بنسبة ستين بالمائة شل ذراعه وركبته اليسرى) . فلماذا ندفع نحن ثمن الرفاهية التي تغدق مجانا على المهاجرين الجدد الذين لم يضحوا بأي شيء في سبيل اسرائيل » ؟(٢٨).

وقد شرح أحد اليهود السوفييت الذين لجأوا الى بلجيكا لصحفي بلجيكي الاسباب الرئيسية التي دفعته الى النزوح عن اسرائيل فقال وردد ذلك مرارا على حد قول الصحفي ان الذنب ليس ذنب اسرائيل (وهنا نلحظ محاولات الاوساط الصهيونية لتطويق الموضوع ومحاولة حصره لئلا يشكل خطرا

على النظرية الصهيونية) . يعود نشلهم في التكيف مع المجتمع الاسرائيلي على حد قوله الى كونهم اناسا ضعيفي الالمام بالواقع الاسرائيلي وليس لهم في أكثر الاحيان هوية واضحة يذهبون لملاقاة شعب ما زال في مرحلة التكوين النهائية له منزل استولى عليه بصعوبة وله تقاليده وعاداته وتصرفاته وحتى بعض التعصب احيانا الذي يجعله ينظر الى القادم الجديد بنوع من الحذر ... ويتحدث الرجل عن البيروقراطية الثقيلةفي اسرائيل وصعوبة الاستيعاب وكثرة المثقفين وبالتالي صعوبة ايجاد عمل يتناسب مع كفاءاتهم . ثم يتحدث عن استقبال الاسرائيليين لهم فيقول : انه لم يكن دائما اخويا . صحيح ان الصابرا والفاتيكيم عاشوا في البداية تحت الخيام وعملوا بشدة قبل التمكن من بناء البيت الذي يحصل عليه المهاجرون الجدد بسهولة . ولكن الظروف تختلف الان . فبينما كان هؤلاء يهربون من الاضطهاد واللاسامية والحرب بعد أن فقدوا كل شيء في اوروبا نرى اليهود السوفييت يتخلون عن الرفاهية وعن عمل شيق في الاتحاد السوفييتي وذلك ليتخلصوا من الدكتاتورية واللاسامية وليخدموا اسرائيل ... ويضيف ايضا ان هناك لدى الصابرا نوعا من المعاداة السلافية يعتبرها اليهود السوفييت مماثلة للاسامية التي كانوا يعانون منها في الاتحاد السوفييتي . وينهي اللاجىء اليهودي كلامه قائلا بحزن : « كنا يهودا في روسيا وروسا في اسرائيل »(٢٩).

اقامت المنظمات اليهودية البلجيكية اتصالات عاجلة مع السلطات الاسرائيلية لدراسة امكانية معالجة الموقف دون الحاق أي ضرر بالصهيونية واسرائيل . وقد بعثت المنظمات مندوبا عنها الى اسرائيل لمعالجة الموقف . كما عقد مجلس الوزراء في اسرائيل اجتماعا خاصا لبحث مشكلة اليهود السوفييت الذين وصلوا بلجيكا . ويؤكد السيد لوبيج ان السلطات الاسرائيلية تدخل بهذا الموضوع بشكل متزايد ومباشر . فقد عرضت على هؤلاء المهاجرين دفع تكاليف عودتهم الى اسرائيل. ولكن يبدو ان ليس هناك مرشحين للعودة ، مع ان احدهم صرح ان البعض على استعداد للعودة الى اسرائيل اذا ما وافقت السلطات على شروطهم . وتدخلت السلطات الاسرائيلية لدى المنظمات اليهودية البلجيكية لتحملها على عدم مد يد المساعدة لهؤلاء « الخونة » . وقد فضحت هذا التدخل الذي بلغ درجة استعمال « حق النقض » مجلة صهيونية .

ولم تنظر السلطات الاسرائيلية بعين الرضا الى المساعدة التي قدمتها منظمة كاريتاس ومؤسسة تولستوي لهؤلاء اليهود . فكتب مراسل احدى الصحف البلجيكية من تل ابيب يقول بأن السيد موشي ريفلين المدير العام للوكالة اليهودية قد عبر عن قلقه الشديد بسبب المساعدة التي تقدمها منظمات غير يهودية الى اليهود الذين يغادرون اسرائيل او لا يرغبون في الهجرة الى اسرائيل(٣٠) كما عاب ايضا على هاتين المؤسستين المساعدة التي تقدمانها للاجئين من اليهود السوفييت السيد ستراسبيج رئيس الاتحاد العام للصهيونيين الاحرار(٣١).

وتدخلت الحكومة الاسرائيلية لدى السلطات البلجيكية . فاغلقت بلجيكا حدودها في وجه المهاجرين الجدد . وقد وصل الى مطار بروكسل الدولي عشرات من اليهود السوفييت قادمين من اسرائيل او من دول اوروبية غربية فقامت قوى الامن البلجيكية بطردهم او ابعادهم او اعادتهم الى البلد الذي جاءوا منه . كما طلبت الحكومة البلجيكية من شركة سابينا بأن تمتنع عن نقل اي يهودي سوفييتي هاجر مؤخرا الى اسرائيل ويريد السفر الى بلجيكا . بينما أصدرت الحكومة الاسرائيلية تعليمات الى شركة العال(٣٢).

والجدير بالذكر ان اليهود السوفييت الذين يهاجرون الى اسرائيل لا يحصلون على جواز سفر اسرائيلي مباشرة . تمنحهم السلطات الاسرائيلية في بادىء الامر وثيقة مرور تستبدلها بجواز سفر بعد مضي ستة شهور او سنة او سنتين . وقد تم الاتفاق مع السلطات البلجيكية بالا تسمح هذه الاخيرة لاي مهاجر يحمل فقط وثيقة مرور بدخول بلجيكا دون الحصول سلفا على تأشيرة من السفارة البلجيكية في تل ابيب . ولا شك ان السفارة البلجيكية تلقت تعليمات مشددة تقضي برفض منح مثل هذه التأشيرة لاي يهودي سوفييتي يشتبه فيه انه يرغب في مغادرة اسرائيل نهائيا . وقد اعترفت اوساط وزارة الخارجية البلجيكية بذلك واضافت بأن الاسرائيلي الذي يحمل جواز سفر او وثيقة مرور مع تأشيرة يستطيع دخول بلجيكا على

أن لا يقيم فيها اكثر من ثلاثة شهور وان يملك من المال ما يكفي لسد حاجاته وان يكون حاملا لتذكرة سفر للعودة الى اسرائيل(٣٣). وعليه نرى السلطات البلجيكية توافق على التمييز بين الاسرائيليين حسب نوعية وثيقة السفر التي يحملونها وقد اثار ذلك سخط بعض الجهات التي تهتم بحماية حقوق الانسان والتي تنوي الاحتجاج علنا على هذا التصرف المنافي لحقوق الانسان ولحرية الفرد في التنقل .

ويعترف اليهود السوفييت الذين تمكنوا من الوصول الى بلجيكا انهم واجهوا صعوبات كثيرة قبل ان يتمكنوا من مغادرة اسرائيل . فقال احدهم: « لم يكن الخروج من اسرائيل امرا هينا . فكان علينا قبل كل شيء ان نصفي حساباتنا مع الدفتر الازرق ، وهو دفتر تسجل عليه كل ديوننا ونستلمه لدى وصولنا الى اسرائيل . الدين الاول : تكاليف السفر . وبعدها علينا ان ندفع تكاليف دروس اللغة ... ومن المستحيل ان نتمكن من مغادرة اسرائيل قبل أن نقوم بتسديد كل هذه الديون . ويشكل ذلك في اكثر الاحيان عقبة كأداء في وجه من يرغب في السفر . ولكن البعض جاءوا من الاتحاد السوفييتي مع بعض الاثاث او جهاز تلفزيون او بسط ، فيبيعونها ليتمكنوا من مغادرة اسرائيل ... »

ويضيف الصحفي الذي نقل هذا الكلام : ما هو وضع الذين يرغبون في مغادرة اسرائيل ولكنهم لا يستطيعون التغلب على العقبات التي تضعها السلطات الاسرائيلية في طريقهم ؟ فبعد المظاهرات التي اقيمت لصالح اليهود في الاتحاد السوفييتي هل ستقام الان مظاهرات لصالح الروس في اسرائيل ؟(٣٤).

نعيم خضر

---

١ — صحيفة **لو سوار** بتاريخ ١٩٧٤/٩/٢٨ .
٢ — صحيفة **لو سوار** بتاريخ ١٩٧٤/٩/١٣ .
٣ — La Relève عدد ٣٩، بتاريخ ١٩٧٤/٩/٢٨.
٤ — مجلة La Relève نفس المرجع .
٥ — مجلة **بانوراما** عدد ٣٩ بتاريخ ١٩٧٤/٩/٢٨.
٦ — Journal d'Europe ٢٤—١٩٧٤/٩/٣٠
٧ — صحيفة Het Laatste Nieuws بتاريخ ١٩٧٤/٩/١٣ .
٨ — النشرة الاخبارية في الاذاعة الهولندية بتاريخ ١٩٧٤/٩/١١ .
٩ — مجلة Nieuwe Gids بتاريخ ١٩٧٤/٩/٣٠ .
مجلة La Relève نفس المرجع .
١١ — صحيفة **لو سوار** بتاريخ ١٥ — ١٩٧٤/٩/١٦ .
١٢ — مجلة Europe 74 hebdo عدد ١ بتاريخ ١٩٧٤/١٠/٣ .
١٣ — Belgische, Israelische Weekblad بتاريخ ١٩٧٤/١٠/٣ .
١٤ — النشرة الاخبارية من الاذاعة البلجيكية بتاريخ ١٩٧٤/٩/٢٤ .
١٥ — صحيفة **لو سوار** بتاريخ ١٩٧٤/٩/٢٨ .
١٦ — مجلة Europe 74 hebdo نفس المرجع .
١٧ — مجلة Journal d'Europe ٢٤ — ١٩٧٤/٩/٣٠ .
١٨ — **المرجع نفسه** .
١٩ — **المرجع نفسه** .
٢٠ — صحيفة **لو سوار** بتاريخ ١٥ — ١٩٧٤/٩/١٦ .
٢١ — مجلة **بانوراما** ، المرجع نفسه .
٢٢ — مجلة Journal d'Europe المرجع نفسه .
٢٣ — مجلة **بانوراما** ، المرجع نفسه .
٢٤ — صحيفة Het Laatste Nieuws ١٩٧٤/٩/١١ .
٢٥ — Journal d'Europe المرجع نفسه .
٢٦ — مجلة **بانوراما** ، المرجع نفسه .
٢٧ — مجلة Le Nouvel Observateur عدد ٥١٧ ، بتاريخ ٧ — ١٩٧٤/١٠/١٣ .
٢٨ — مجلة **الديار** ، بتاريخ ٧ — ١٩٧٤/١٠/١٣.
٢٩ — صحيفة **لو سوار** ، بتاريخ ١٩٧٤/١٠/٩.
٣٠ — صحيفة De Standaard بتاريخ ١٩٧٤/٩/٢٤
٣١ — صحيفة **لو سوار** ، بتاريخ ١٩٧٤/١٠/٣ .
٣٢ — صحيفة **لو سوار** ، بتاريخ ١٩٧٤/٩/٢٨ .
٣٣ — صحيفة Het Laatste Nieuws بتاريخ ٢١ — ١٩٧٤/٩/٢٢ ، وصحيفة **الثورة** السورية بتاريخ ١٩٧٤/٩/٢١ .

[٢]
رسالة من امستردام
الرأي العام الهولندي والقضيــة الفلسطينيــة

شاءت الظروف ان تتيح للشعب الهولندي على مدى الشهرين الماضيين ، بعض الفرص ليتأمل من جديد في صحة تلك العلاقة العضوية والروحيـة التي تربطه باسرائيل وشعبها والتي تكونت مـع الزمن بفعل عوامل خارجة عن ارادته . ذلك ان امستردام ، العاصمة الهولندية ، كانت على مدى القرون ملجأ لليهود المضطهدين في غرب اوروبـا وشرقها ، كما أن ابناءها واكبوا عمليات اضطهـاد النازيين لليهود في الحرب الاخيرة دونما حماس كبير من جانبهم لحماية اليهود والدفاع عنهم . فـاذا اضيف لذلك حقيقة ان عائلات يهودية هولندية كثيرة أصبحت منذ الخمسينات تتنسم هولندا واسرائيل كأوطان لها وانها تتخذ من سوق امستردام التجارية وبالتالي صحفها ووسائل اعلامها مطية لها ، يصبح سهلا على الانسان تصور هذه العلاقة واسبابهـا ودوافعها. ونعرف بطبيعة الحال ان هولندا بحجمها المحدود ومكانتها المتواضعة على خارطة القـارة الاوروبية لا تؤثر في الموازين التي تتحكم بصراع الشرق الاوسط . ومع ذلك من المفيد ان نتعرف على ما يجري بهذا الشأن في الاقطار الغربية التي كانت الى وقت قصير مضى تدعم اسرائيل معنويا وتبرر اخطاءها ومخازيها ، واصبحت اليوم تعيد النظر في هذا كله بعد أن توفرت لها أدلة لا تدحض على أن اسرائيل دولة عسكرية تطمح للتوسع والعـدوان لا للسلام ، وان العرب عامة والفلسطينيين خاصة طلاب حقوق مشروعة تطاول عليها المعتدون واجترحوا الاثام على مدى عشرات السنـين لاغتصابهـا وابتلاعهـا .

وفي طبيعة الحال لم تحدث هذه التغيرات بـين ليلة وضحاها . فقد استغرقت سنوات كثيرة لعب فيها الاعلام العربي دوره ولعب فيها التضامـن العربي دوره ، ولعبت فيها حرب تشرين اهـم الادوار . انما ما يلفت النظر في هذا كله ان امستردام المدينة الاوروبية المفتوحة التي كـانت سركا صهيونيا تسرح فيه خيول الصهاينة علـى هواها، تحولت الى حلبة صراع بـين أنصـار الصهيونية وخصومها الهولنديين ، على مختلـف اتجاهاتهم السياسية وانتماءاتهم العقائدية ومهنهم أيضا . وبينما كانت قاعات المحاضرات في المدينة مسدودة الابواب أمام المدافعين عـن القضيـة الفلسطينية والشعب الفلسطيني بفعـل اساليب الارهاب والتخويف ، اصبحت هذه القاعـات نفسها تكاد لا تستقبل حاليا محاضرا يدافع عـن اسرائيل . اكثر من ذلك ان الصحف الامستردامية التي كانت تسند اسرائيل بدون تحفظ ، أصبحت تحاسب اسرائيل بعسر واحيانا بعنف.ولعل في هذا النموذج الاوروبي المصغر دلالة اخرى على أن من واجب العرب ان يثقوا وان يعوا بأن تضامنهم المشرف في تشرين وما نجم عنه من مكاسب عسكرية وسياسية واقتصادية ، احدث تغييرات واضحة في خارطة العالم وسيحدث فيها تغييرات اعمق فيمـا اذا حافظوا على هذه المكاسب وارتقوا الـى مستواهـا .

ولكن .. لنعد الى تلك الاحداث ، نتابعها بشيء من التفصيل في سبيل تفحص مكوناتها.في مطلع شهر تشرين الاول من هذا العام ، اعتقلت سلطات الامن الاسرائيلية في رام الله في الضفة الغربيـة فتاتين هولنديتين تنتميان للجنة فلسطين الهولندية، وشابا هولنديا متزوجا من فتاة فلسطينية وينتمي أيضا للجنة فلسطين الهولندية . الثلاثة كانوا في سياحة في الشرق الاوسط ، وعندما اعتقلوا على يد بوليس اسرائيل ، قيل في التهمة الموجهة اليهم انهم حملوا من سوريا تعليمات سرية مكتوبة بحبر خفي وموجهة الى الفدائيين الفلسطينيين داخـل الاراضي المحتلة . ولم تعلن اسرائيل النبأ الا بعد أيام من حدوثه . فلما سمعت به الصحف الهولندية عالجته باهتمام ملحوظ . قالت صحيفة الخمين داخ بلاد الصادرة في روتردام يوم الرابع من تشرين الاول في مقابلة اجرتها مع السيد هندريكس سكرتير لجنة فلسطين الهولندية : ان اعتقـال الفتـاتين والشاب كان على الاغلب مناورة اسرائيلية لتأليب الرأي العام داخل اسرائيل وهولندا على لجنـة فلسطين الهولندية . وقالت الصحيفة أن مـن الصعب تصديق الخبر لان من عادة اللجنة اصدار التعليمات لاعضائها بأن يمتنعوا عن القيام بأي عمل

سياسي عندما يكونون في اجازات في اقطار الشرق الاوسط . يوم الخامس من تشرين الاول قالت صحيفة تلغراف الصادرة في امستردام والمعروفة بميولها الاسرائيلية : تبين حسب اخر المعلومات ان محامية الدفاع عن المعتقلين الهولنديين لم تستطع الاتصال بهم بعد . وعلى الاثر اثيرت اسئلة في البرلمان الهولندي من جانب بعض الاحزاب السياسية اليسارية حول مدى اهتمام الحكومة بالامر . في عدد الصحيفة نفسها بتاريخ الحادي عشر من تشرين الاول صدرت مقالة مطولة من مراسل هولندي شهد المحاكمة يوم العاشر في رام‌الله ، وجاء في المقالة قوله ان الشاب اطلق سراحه لثبوت براءته وان الفتاتين بقيتا في سجن انفرادي وبدون محام وبدون معرفة شيء عما يجري لمدة ثلاثة عشر يوما . وفي المحاكمة قالت الفتاتان انهما لا تعرفان شيئا عن النص المكتوب بحبر خفي في دفتر مذكراتهما ، وقد يكون النص كتب بواسطة شخص معين في غفلة منهما . كما اعلنتا في المحكمة ان طعامهما سيء جدا ، يصيب احداهما باسهال مستمر ، وان المعاملة التي يلقيانها داخل السجن في غاية السوء ، وانه لم يسمح لهما طيلة ثلاثة عشر يوما بالاتصال باحد . تلك المحاكمة تأجلت حتى السابع والعشرين من تشرين الاول . يوم الثامن والعشرين ، صدرت معظم صحف امستردام بترويسات واضحة في اماكن بارزة تعلن ان الفتاتين الهولنديتين ادلتا بما ادلتا به من تصريحات للمحققين بين المحاكمتين تحت الضغط والتخويف .

في هذه الفترة نفسها ، دعت لجنة فلسطين الهولندية الدكتور شاحاك رئيس رابطة حقوق الانسان في اسرائيل لالقاء محاضرة في امستردام عن كيفية تطبيق القانون المدني في اسرائيل على العرب. الدكتور شاحاك يعمل ايضا مدرسا في الجامعة العبرية ومعروف عنه مواقفه الصلبة ضد السلطات الاسرائيلية في مجال معاملتها للعرب داخل اسرائيل وللمساجين الفلسطينيين في سجون الاراضي المحتلة. قالت صحيفة الفولكسرانت يوم ٣٠ تشرين الاول :لقد اتضح من الحقائق التي اوردها الدكتور شاحاك انه يشبه القوانين الامنية في اسرائيل بقوانين جنوب افريقيا على أساس انها قوانين عنصرية وتفرقة جنسية ضد العرب .

ومما يستحق التسجيل لهذه المحاضرة ان يهوديا اسرائيليا معروفا على النطاق الدولي ، جاء الى الهولنديين في عقر دارهم ليطلعهم في قلب حصن من الحصون الصهيونية المنيعة ، على حقائق مذهلة ومرهقة للعقل والضمير عن « الديموقراطية الاسرائيلية » وكيف تطبق بالفعل . وقد سرد على الحضور امثلة كثيرة . قال ان عربي يقيم في اسرائيل كمواطن يحمل الجنسية الاسرائيلية ، يمكن أن يتسلم في صباح اي يوم أمرا فوريا بمغادرة البلاد او بالبقاء محتجزا في بيته لمدة ستة شهور قابلة للتجديد . قال ايضا انه يعرف شخصا عربيا مقيما في الناصرة حاول ولمدة سنة كاملة الحصول على تصريح لزيارة ابنته المقيمة في يافا مع زوجها واطفالها . لكن طلبه لم يجب ابدا . قال أيضا انه يعرف عربيا يسعى لدخول السجن حتى يجنب اطفاله مغبة الجوع . ذلك انه ملزم بالبقاء في بيته بأمر من البوليس ، ولا يستطيع على هذا الاساس العثور على عمل ، وخير ما يفعله هو دخول السجن بأمل تعهد السلطات بطعام ابنائه . قال ايضا ان عربيا حصل على اذن لمراجعة طبيب الاسنان في مدينة مجاورة ، لثماني مرات ، لكن التصريح سحب بعد الزيارة الرابعة بتهمة ان هذا الشخص قام بالتجول في الحي المجاور لطبيب الاسنان ولم يدخل العيادة فورا عندما ذهب اليها اخر مرة . قال أيضا ان المدن الجديدة في اسرائيل تابعة للصندوق القومي اليهودي،والسكنى في هذه المدن وقف على اليهود الاطهار . أما غير اليهود من عرب ويهود لا تجري في عروقهم دماء يهودية نقية ، فلا يحق لهم زيارة هذه المدن . وبعد ذلك تحدث المحاضر بالتفصيل عن عمليات تعذيب العرب في سجون الاراضي المحتلة ، وطالب بتشكيل هيئات دولية مستقلة تضغط على حكومة اسرائيل لتسمح لها بدراسة اوضاع هؤلاء المساجين .

بعد المحاضرة قام رئيس لجنة يهودية لا صهيونية في بلجيكا كان بين المدعوين ، باعتلاء منصة الخطابة لتأييد ما قاله شاحاك ، وتحميل اسرائيل اوزار سوء الوضع في الشرق الاوسط . ثم تحولت القاعة فجأة الى تظاهرة تضامن رائعة بدأت تتوالى عليها برقيات التأييد من المنظمات واللجان الهولندية الانسانية ومن لجنة الدفاع الهولندية الديموقراطية عن تشيلي ومن لجنة تحرير ايران في هولندا ومن

منظمة الطلاب اليسارية اسفا ، ومن عدة لجان جامعية ومن لجان العمال المغاربة والاتراك ومن لجنة الدفاع عن استقلال ارلندا الشمالية .

وجدير بالذكر ايضا ، ان الصهاينة الذين احاطوا بالعمارة وتسربوا الى صفوفها ليخربوها لم يقدروا على ارهاب احد ولم يقبل احد من الحضور تسلم اي من نشراتهم . وعندما دخل رجل امن مدني ، يطالب سكرتير اللجنة هندريكس باخلاء القاعة لان تهديدا تلفونيا أعلن وجود قنبلة في القاعة ، رد هندريكس بكل شجاعة انه ينتظر من الحضور ان يبقوا في اماكنهم لان ارهاب الصهيونيين لا يفيد مع لجنة فلسطين . وهنا دوت القاعة بتصفيق حاد ، ولم يغادرها اي انسان من مجموع ستمائة شخص أو اكثر .

يوم التصويت في الجمعية العامة التابعة للامم المتحدة ، على قبول منظمة التحرير الفلسطينية كناطق وحيد بأسم القضية الفلسطينية عند بحث القضية الفلسطينية في الجمعية العامة في دورة هذا العام ، وقف مندوب هولندا بجانب الدول الممتنعة عن التصويت . وكانت هولندا بهذا تتصرف تصرفا مخالفا تماماً لما تعودت عليه في المحافل الدولية . وفي السابق كانت في المؤتمرات الدولية تصوت دائما في جانب اسرائيل في كل صغيرة وكبيرة . اليوم وقفت ممتنعة عن التصويت في اهم قرار دولي يتخذ في غير صالح اسرائيل . ورغم ذلك لم تقم اية صحيفة هولندية بانتقاد او تجريح موقف الحكومة .

تعليقا على مؤتمر الاقطاب العرب الاخير في الرباط ، قالت صحيفة الفولكسكرانت الواسعة الانتشار التي تمثل يسار الوسط ومعظم الرأي التقدمي في هولندا : ان اسرائيل تواجه الان المطالب العربية الموحدة دفعة واحدة . بعد اليوم مطالب العرب في الجولان والضفة الغربية وسيناء سوف تقدم غير مجزأة . ونتيجة لهذا ستظل محاولات البحث عن السلام بواسطة مؤتمر جنيف وغيره من المنابر الدولية مجرد محاولات ، ما لم تقبل اسرائيل بمبدأ افساح المجال للفلسطينيين بالتعبير عن مطامحهم الوطنية والقومية .

ليلة الخميس الموافق ٣١ تشرين الاول ، طلع رابين رئيس وزراء اسرائيل على الشعب الهولندي ليقول في مقابلة تلفزيونية ان اسرائيل احتلت الجولان لتبقى فيه الى الابد . قال هذا بدون ان ترتجف له رمشة عين . كذلك راح يكيل التهم القاسية الممزوجة بالابتزاز « اللاسامي » للاوروبيين ، بسبب تخليهم عن اسرائيل مفضلين عليها المال والبترول على حد قوله . اكثر من ذلك انه شبه الاعتدال الاوروبي الحالي بأنه انحراف تام نحو العرب يشبه انحراف اوربا الغربية نحو النازيين عندما باعوها تشيكوسلوفاكيا في ميونيخ. الى اخر ذلك الكلام المجوج الذي سئمه الاوروبيون من كثرة ترديده طيلة ربع القرن الاخير . وطبعا ، أساء رابين لنفسه بهذه التصريحات كثيرا وخسر اكثر مما جنى ، وترك مئات الوف المشاهدين مصعوقين لا يصدقون ما يسمعون .

هذه الحوادث كانت ايجابية النتائج في طبيعة الحال ، جاءت متلاحقة لتحقن الهولنديين بكمية جديدة من اكسير التحرر من قيد الصهيونية الذي يكبل اعناقهم . باستثناء حادثة واحدة ادت منتوجا فاسدا وتستأهل مع ذلك الاشارة اليها للاستفادة من دروسها . هذه الحادثة كان بطلها فلسطينيا يدعى نوري ويقيم منذ ثمانية شهور في سجون هولندا مع زميل له اسمه تميمه . الاثنان اختطفا في بيروت في شهر اذار المنصرم طائرة ركاب لشركة الخطوط الجوية البريطانية في طريقها من باكستان الى لندن . وقبل الوصول الى لندن امرا قائدها بالهبوط في مطار امستردام . وبعد اخراج جميع ركابها اشعلا النار في الطائرة ثم سلما نفسيهما واسلحتهما للبوليس . قالا عندئذ انهما ينتميان الى احدى منظمات التحرير الفلسطينية وانهما يريدان الانتقام من الحكومة البريطانية على مواقفها الموالية لاسرائيل .. وكفى المؤمنين شر القتال . وجرت محاكمتهما في تموز وصدر الحكم بسجنهما مدة خمس سنوات . مساء يوم السبت الموافق ٢٦ تشرين الاول ، فاجأ نوري الهولنديين باستيلائه على كنيسة سجن لاهاي الذي يقيم فيه ، عندما كان يؤمها فريق من الموظفين وعائلاتهم وابنائهم . كان يشاركه العملية سجينان هولنديان متهمان بجرائم عادية وبسجين جزائري الاصل فرنسي الجنسية متهم باقتحام مخزن للاسلحة . أما تميمه فكان في ذلك الوقت في مبنى مستشفى السجن يعاني من الارهاق الذي حل به نتيجة لاضرابه عن الطعام.

وبينما كان عدد الرهائن ٢٦ شخصا ، انخفض مع الوقت الى ١٥ رهينة بعد اطلاق سراح النساء والاطفال . وعرف اثناء المفاوضات المرهقة التي جرت بين نوري وزملائه من جهة وموظفي وزارة العدل من جهة اخرى ، انه كان يطالب بنقل زميله تميمه من المستشفى الى الكنيسة وان تميمه كان يرفض ذلك ، وانه وزملاءه يطالبون بطائرة تنقلهم الى بلد اخر مقابل اطلاق سراح الرهائن . وقد استغرق التفاوض اكثر من مائة ساعة ، في جو مرهق حلق فوق هولندا ، وكان الناس يضعون أيديهم على قلوبهم خشية ان ينتهي الحادث باسالة دماء كثيرة . هذا الا ان الحكومة الهولندية اثبتت في عملية سابقة قام بها قبل مضي وقت غير بعيد نفر من الشبان اليابانيين احتلوا سفارة فرنسا في لاهاي لاطلاق سراح زميل لهم مسجون في فرنسا ، انها في هذه الحالات تؤثر التفاوض على العنف . على هذا الاساس ، كان الاعتقاد السائد رغم الرهبة ، ان العملية ستنتهي بهروب السجناء العصاة . ولكن طلع الراديو على الناس صباح الخميس الموافق الحادي والثلاثين من الشهر ، ليعلن أن السجناء استسلموا دون مقاومة بعد أن داهمتهم زمرة من جنود البحرية في ساعات الصباح الباكر وهم شبه نيام . فألقوا مسدساتهم على الارض مستسلمين دون اطلاق رصاصة واحدة .

المهم، المدعو نوري الذي ادعى انه يمثل الثورة الفلسطينية لم يطلق رصاصة واحدة وكأنه كان يعلم ان تمثيليته ستفشل . كذلك لم يحاول الاستفادة من الحادث ليفرض على الصحف ووسائل الاعلام الاخرى تصريحات مفيدة . اكثر من ذلك انه سمح لنفسه بالاشتراك في العملية مع مساجين مجرمين عاديين ، يعرف عنهم الشذوذ الذهني ولا يعرف عنهم اي ارتباط ثوري . ثم ان الحادثة ابتدأت يوم بدء مؤتمر الاقطاب العرب في الرباط . واذا عدنا بالذاكرة الى ما حدث يوم افتتاح مؤتمر الاقطاب العرب قبل الاخير في الجزائر ، فاننا سنستعيد حادثة اختطاف طائرة ركاب هولندية على يد ثلاثة من الفلسطينيين قالوا حينئذ انهم يحاولون الانتقام من حكومة هولندا على مواقفها المساندة لاسرائيل . كما اننا سنستعيد ما حدث حينئذ في مجال التغطية على مؤتمر الاقطاب . فالطائرة راحت تجوب اجواء الاقطار العربية في افريقيا ، ونجح خاطفوها في لفت انظار العالم اليهم وصرف الانظار عن مؤتمر الاقطاب . ولعل المقصود من حادثة سجن لاهاي لا يختلف عن ذلك كثيرا . فالتوقيت ، وللمرة الثانية ، كان واضح الاهداف ولا يعقل أن يكون صدفة . لكن .. لحسن الحظ لم تأبه الصحف العالمية كثيرا بالحادث هذه المرة ، كأنها احست باللعبة وبأن الحادثة فردية الاهداف والدوافع . ولعل اجهزة الاعلام العربية ان لا تغفل هذا الموضوع ولا تقلل من شأنه . عليها ان تكشف عن دور اجهزة المخابرات الاسرائيلية في هذا كله ، أو دور بعض المنظمات التي تدعي الانتماء للثورة الفلسطينية وتقوم بأعمال لا تشرف اسم هذه الثورة المجيدة وسمعتها بأي حال من الاحوال .

عقيل هاشم

[٣]

رسالة من ستوكهولم

حول التصويت لجانب منظمة التحرير الفلسطينية

كان الانتصار السياسي الذي حققه الشعب الفلسطيني نتيجة التصويت الذي تم في الامم المتحدة والذي تمخض عنه تقديم الدعوة الى منظمة التحرير الفلسطينية للمناقشة العامة التي ستدور حول « قضية فلسطين » اثرا كبيرا في السويد على الصعيد السياسي الرسمي وغير الرسمي . اما على الصعيد الرسمي فكانت اهمية القرار معالجة المناقشات الدبلوماسية والسياسية التي عقبت اتخاذ الحكومة السويدية قرارها بالتصويت لصالح منظمة التحرير الفلسطينية . فمن الناحية الدبلوماسية فقد شهدت العاصمة السويدية عدة اتصالات بين اعضاء السفارة الاسرائيلية ووزارة الخارجية ، حاول الطرف الاسرائيلي خلالها معرفة وجهة النظر السويدية ومن ثم التأثير على القرار السويدي في حالة الايجاب . ونتيجة فشل هذه المحاولات جرت اتصالات على مستوى اعلى بين وزير الخارجية الاسرائيلية ووزير الخارجية السويدية لدى تواجد الاثنين في الولايات المتحدة خلال شهر تشرين الاول (اكتوبر) . الا ان دوائر سويدية مطلعة قد اعربت سلفا عن اسف الحكومة الاسرائيلية في حالة اتخاذ قرار سويدي يؤدي الى منح الثقة بمنظمة التحرير الفلسطينية . وان دل هذا على شيء فانه يؤكد معرفة اسرائيل بالقرار السويدي قبل عملية التصويت . ومن ناحية اخرى فلقد اشارت الصحف السويدية بان مسؤولين في وزارة الخارجية السويدية والوفد السويدي لدى الامم المتحدة قاموا بالاتصال بعدد من المسؤولين الفلسطينيين بمنظمة التحرير الفلسطينية عن طريق غير مباشر (بواسطة دول صديقة) لمعرفة وجهة النظر الفلسطينية قبيل اتخاذ قرار نهائي بشأن التصويت .

ان وجهة النظر السويدية الرسمية من القضية الفلسطينية قد تغيرت كثيرا نتيجة التصويت التاريخي في الامم المتحدة ، وان هذا التغيير في السياسة السويدية جاء تدريجيا لدى اقتناع السويد في السنوات الاخيرة بان قضية الشعب الفلسطيني قضية سياسية بالدرجة الاولى اضافة الى انها قضية انسانية . والاعتبار الاخير بأن المشكلة تحتاج الى تفهم انساني فقط كان قد حكم السياسة السويدية تجاه الصراع في الشرق الاوسط خلال ربع القرن الماضي . ان هذا التحول في السياسة السويدية له اهمية عظمى ليس فقط لكسب صوت واحد في الامم المتحدة وعلى نطاق المؤتمرات الدولية وحسب ولكن لكسب دولة حيادية لها اثر هام في الامم المتحدة وفي السياسة الدولية . وانه نتيجة لهذا الدور المهم الذي تلعبه « دولة صغيرة » مثل السويد ونتيجة لثقل قرار سياسي كهذا لصالح منظمة التحرير ، ان احدث التصويت (بنعم) ضجة عاصفة في البرلمان السويدي ولدى الصحافة والراديو والتلفزيون .

لقد شن الحزب اليميني والليبرالي حملة ضد الحكومة لدى افتتاح جلسة البرلمان الخريفية . لقد تركز نقاش المعارضين من نقطة انطلاق تترجم معنى قرار التصويت (بنعم) ليس بالمفهوم الفلسطيني بل بالمفهوم السويدي منح منظمة التحرير الفلسطينية حق تمثيل الشعب الفلسطيني ، وهذا يعني :

١ — القبول بالقرارات السياسية الصادرة عن منظمة التحرير الفلسطينية .

٢ — عدم قبول قرار ٢٤٢ الصادر في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ .

هذا ولقد ذكر وزير خارجية السويد « سفن اندرسون » لدى افتتاح دورة البرلمان اهمية دعوة منظمة التحرير للمشاركة في دورة الامم المتحدة حيث ان المنظمة حسب قوله اكثر التنظيمات السياسية تمثيلا للشعب الفلسطيني ولذلك فانه من غير العدل ومن السخف ايجاد حوار مجد ومفيد ومناقشة فعالة عادلة لقضية فلسطين دون تواجد اهم طرف في الصراع — اي الطرف الفلسطيني — لذلك وجدنا اهمية التصويت لصالح منظمة التحرير الفلسطينية لاعطاء الفرصة للمنظمة ان تناقش قضية فلسطين من خلال اطار الامم

المتحدة عن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني. واعرب وزير الخارجية عن ان الحكومة السويدية ترى الاهمية السياسية الناتجة عن الحوار السياسي دون استعمال « الارهاب والعنف » للحصول على الحقوق الشرعية .

ادت وجهة النظر هذه الى تعرض وزير الخارجية والحكومة لعدد من الاتهامات التي اشارت الى الدور « الارهابي » الذي تمارسه منظمة التحرير والى ان السويد بتصويتها لدعوة المنظمة فانها بذلك تشارك بشرعية (اعمال منظمة ارهابية) وقامت بدعوة منظمة للتحدث عن اعمالها في الامم المتحدة . واما عضو البرلمان الليبرالي — والمعروف بمعاداته الشديدة للعرب — بيد المسارك وصف القرار السويدي بانه قرار محزن واتهم الحكومة بتأييدها لاكثر المنظمات تطرفا وبان مثل هذا التأييد يترجم بمساندة حرب ارهاب ضد اسرائيل .

وفيما يتعلق بالراديو والتلفزيون فلقد قدم كل منهما برامج خاصة نستطيع القول بانها كانت مؤيدة لحقوق الشعب الفلسطيني موضحة من خلال المناقشات والصور والوثائق والخرائط التوسع الاسرائيلي على حساب فلسطين وشعبها .

اما الصحافة السويدية فلقد عالجت المشكلة بطريقة مختلفة ومعادية على الاغلب لقرار التصويت (بنعم) . هذا وعالجت معظم الصحف القرار السويدي واعطته اهمية كبيرة من ناحية وجهة النظر الرسمية لدى الحكومة السويدية اولا والمضمون السياسي للقرار . لقد اكدت الصحف من معالجتها للموضوع النقاط التالية :

١ — تغيير جذري لمفهوم السويد لقضية فلسطين . ٢ — اهمية هذا التغيير وتأثيره في الامم المتحدة . ٣ — اهمية الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية بتمثيلها للشعب الفلسطيني ونتيجة ذلك على الصراع في الشرق الاوسط . ٤ — امكانية انهاء محاولات كيسنجر للتوصل الى حل الصراع . ٥ — موقف اسرائيل من السويد مستقبلا . ٦ — محاولة تفريغ اهمية القرار السويدي .

هذا وان انجراف الصحافة في حملة ضد الحكومة كان محاولة فاشلة لربط التغير في السياسة السويدية تجاه الفلسطينيين بالبترول العربي . الا ان وزير الخارجية شجب وجود اي تأثير للبترول على القرار السويدي واعطى مثلا على ذلك بان قرار النرويج بالتصويت بنعم يسند وجهة نظر الحكومة السويدية ، حيث ان النرويج منتجة ومصدرة للنفط ولا تحتاج قط للبترول العربي ليؤثر في تقرير سياستها الخارجية .

من المؤكد ان السويد ابدت منذ نشوب ازمة الطاقة في العام الماضي تقربا ملحوظا من الدول العربية لا سيما المصدرة للنفط . ودليلا على ذلك زيادة التعاون بين السويد والسعودية والكويت وليبيا والجزائر ، وتبادل الزيارات على اعلى المستويات الرسمية ، الا ان السويد بالرغم من تعاطفها وتأييدها لاسرائيل وشجبها لعدد كبير من عمليات المقاومة فانها تحاول دائما ان تصل الى قراراتها على صعيد السياسة الخارجية بوضع يسمح لها الظهور بسياسة الحياد . وقد ظهر ذلك واضحا بعد عملية معلوت حيث رفضت السويد شجب العملية دون شجب اعمال العنف الاسرائيلية ، فقد ذكرت وزارة الخارجية اسفها لجميع عمليات العنف في المنطقة وبالطبع عمليات قصف مخيمات الفلسطينيين في لبنان . وقد اثارت هذه التصريحات غضب الجهات الاسرائيلية والصهيونية والمتعاطفين مع اسرائيل ، ومن بينهم رئيس وزراء السويد الاسبق وزوجته اللذين وقعا على عريضة تشجب فقط ، اعمال « الارهاب » الفلسطيني .

ولقد تميزت الحملة الصحفية ايضا بمحاولة ذكية لتفريغ اهمية القرار السويدي بالتصويت لصالح الفلسطينيين . فلقد ذكرت الصحف على لسان رئيس الوفد السويدي للامم المتحدة السفير أولف ريدبك قوله بان القرار السويدي لا يعني ان السويد اتخذت موقفا سياسيا من وجهة نظر منظمة التحرير السياسية ، وزيادة على ذلك فان السفير السويدي حسب ما اوردته الصحافة شدد على ان السويد لم تتخذ قرارا فيما يتعلق بادعاء منظمة التحرير بتمثيلها للشعب الفلسطيني . ان القرار السويدي يعني فقط رغبة السويد في اعطاء الحق لاحد الاطراف المعنيين بابداء رأيه في الامم المتحدة . ان تفسير ريدبك لقرار التصويت يختلف عن تفسير وزير الخارجية وذلك يعود الى ان سفير السويد لدى الامم المتحدة لا ينتمي الى الحزب الحاكم .

[٤]

رسالة من نيويورك
الحملة الاعلامية الصهيونية ومحاضرة دايان في جامعة نيويورك

في الوقت الذي تدخل فيه منظمة التحرير الفلسطينية الى هيئة الامم المتحدة كتسوة معترف بها عالميا ، وتعترف فيه المنظمة الدولية بالطابع السياسي للقضية الفلسطينية ، وتسجل الثورة الفلسطينية انتصارا سياسيا على صعيد « المناورة الخارجية » يمثل في جوهره حصيلة التراكمات الطويلة للنضال الفلسطيني المسلح ، تتصرف اسرائيل والصهيونية العالمية بعصبية بالغة ، وخاصة في نيويورك ، معقل الصهيونية الاميركية وحصنها الحصين ، وتشن حملة دعاية مضادة على مختلف المستويات . ففي الاسبوع الاول من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٤، غطت الاعلانات الصهيونية صفحات الصحف النيويوركية وجدران الجامعات والمؤسسات العامة معلنة عن سخطها لحضور منظمة التحرير الفلسطينية الى الامم المتحدة . ولم تتحل الدعاية الصهيونية هذه المرة بمكرها المعهود واساليبها الذكية المخادعة ، بل كانت تتسم بالانفعالية ، وتدل على ان الصهاينة يحسون بالخطر الذي يتهددهم . ولقد بدا ذلك واضحا ايضا في الهتافات التي هاجموا بها منظمة التحرير الفلسطينية ورئيسها ياسر عرفات خلال المهرجان ، واثناء الحفلات الخطابية والمقابلات المتعددة . . .

ويلاحظ المراقبون الذين تابعوا الاحداث في الولايات المتحدة منذ حرب تشرين الاول (اكتوبر) حتى الان ، ان الصهيونية تعيش فترة قلق وعدم ارتياح . ولا يعني هذا ان القلعة الصهيونية قد انهارت بشكل كامل ، او ان القضية العربية حققت انتصارا ساحقا في الولايات المتحدة ، ولكنه يعني ان هناك بدايات انحسار في الاعلام الصهيوني ، ودلالات لا شك فيها عن حبوط المعنويات الصهيونية .

ولا يزال الصهاينة الاميركيون رغم كل شيء اقوياء ، فلقد ظهرت قوتهم خلال مشاركتهم الفعالة في الحملة الانتخابية الاميركية ، كما ظهرت في تصريحات المرشحين البارزين للكونغرس . ويؤيد هؤلاء الصهاينة اسرائيل دون تحفظ ، وهم على استعداد لتخريب الولايات المتحدة في سبيل سلامة اسرائيل . وهذا هو في الحقيقة جوهر المأزق الاميركي الذي لا يجهله الساسة الاميركيون وعلى رأسهم الدكتور هنري كيسنجر . وانه لمما يساعد الصهيونية ويدعم قوتها في الولايات المتحدة اعتمادها على خداع الانسان الاميركي العادي الذي يشكل الاكثرية الساحقة في المجتمع الاميركي . فهو ساذج ، يتسم بقسط كبير من اللامبالاة حيال سياسة بلاده الخارجية ، الا اذا كانت هذه السياسة ستقود الولايات المتحدة الى خوض غمار الحرب في مكان ما من العالم . ويبدو ان الاكثرية الاميركية المعنية قد تخلت عن دورها في رسم سياسة البلاد الخارجية ، ولا تلعب سوى دور المراقب السلبي ، الامر الذي يجعلها هدفا سهلا للدعاية الصهيونية .

ورغم مرور الصهيونية عبر ازمة عصيبة ، فان اعلامها يحاول استغلال سذاجة الاميركي العادي لاقناعه بأن مشاكل الشعب الاميركي الاقتصادية ، والصعوبات اليومية التي تجابهه ، ناجمة عن ارتفاع اسعار النفط ، والمقاطعة النفطية التي فرضها العرب خلال حرب تشرين الاول (اكتوبر). وتتجه هذه الدعاية نحو التأكيد على اتهام العرب واعتبارهم سبب ارتفاع الاسعار المذهل والتضخم النقدي المتزايد وتدهور قيمة الدولار . ولقد بدا ذلك واضحا خلال السجال التلفزيوني الذي جرى في ١٩٧٤/١١/٣ بين مرشح الحزب الجمهوري لمجلس الشيوخ عن ولاية نيويورك جاكوب جافيتز (وهو زعيم صهيوني اميركي كبير) ، ومنافسه مرشح الحزب الديمقراطي رمزي كلارك ، والتي كان فيها التفوق الى جانب جافيتز . فلقد اقترح جافيتز على الشعب الاميركي عدة وسائل لمحاربة التضخم النقدي ، وكان على رأسها تخفيض استهلاك الطاقة بنسبة ١٥٪ او اكثر . ولقد قال جافيتز ان هذه الوسيلة ستجعل الاميركيين

قادرين على مجابهة التحدي العربي . ولم يكن كلارك يتمتع بالكفاءة الاقتصادية اللازمة للرد على جافيتز . ولو انه كان ملما بعلم الاقتصاد لرد عليه بان هذا التدبير سيؤمن على العكس مصلحة الدول العربية المنتجة للنفط ، لان تخفيض الطلب يؤدي الى تخفيض الانتاج، الامر الذي يضمن الحفاظ على الاحتياطي النفطي العربي مدة اطول ، خاصة وان المملكة العربية السعودية والكويت غير مضطرة ماليا لبيع كميات كبيرة من البترول ، في الوقت الذي تبحث فيه عن اماكن توظف فيها اموالها الطائلة ومدخراتها من العملات الصعبة ، كما انه ليس من مصلحة الدول النفطية الحصول على دولارات تنخفض قيمتها سنة بعد اخرى مقابل النفط الذي ستزداد قيمته مع الايام. والملاحظ خلال السجال ان كلا من كلارك وجافيتز تسابقا في مهاجمة منظمة التحرير الفلسطينية ، واعربا عن تأييدهما المطلق لاسرائيل .

وتستهدف الحملة الاعلامية الصهيونية احباط مهمة منظمة التحرير الفلسطينية ، وسرقة الاضواء من الوفد الفلسطيني المدعو الى الامم المتحدة ، وتخفيف اثار الانتصار السياسي العالمي الذي حققته المنظمة بعد قرار الجمعية العامة بدعوتها للاشتراك في المناقشة العامة التي بدأت في الثالث عشر من تشرين الثاني . ولقد كان يوم الرابع من تشرين الثاني يوم « التجمع الصهيوني » في ساحة داغ همرشولد قرب مبنى الامم المتحدة ، اذ نظمت ٣٢ منظمة صهيونية اميركية في هذا اليوم مهرجانا خطابيا كبيرا حضره حوالي ١٠٠ الف شخص ، غصت بهم الطرقات والساحات المؤيدة الى مبنى الامم المتحدة . وكان نداء « التجمع » هو « اذا لم تشاركوا ، فسوف تشاركوا بسكوتكم في اطلاق صوت الارهاب الفلسطيني » . ولقد تجاوب اليهود الاميركيون مع هذا النداء ، وجاءوا من جميع الولايات الاميركية ليبرهنوا « كيف يؤيد اليهود اسرائيل » .. على حد تعبير احد المشتركين .

ويبدو ان الصهيونية اختارت يوم ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) لعرض عضلاتها في شوارع نيويورك ، لانه يقع مباشرة قبل موعد الانتخابات الاميركية (٧٤/١١/٥) . وبالفعل ، استقطب المهرجان المرشحين المتنافسين من الحزبين الجمهوري والديمقراطي ، كما استقطب عددا من الشخصيات الاميركية التي جاءت لتأييد اسرائيل ومهاجمة منظمة التحرير الفلسطينية وهيئة الامم المتحدة . وكان من بين الخطباء موشي دايان ، وابا ايبان ، وجاكوب جافيتز ، ورمزي كلارك ، وروي ويلكنز مدير اللجنة الوطنية لتطوير الشعب الملون ، ولين كيركليند الذي يشغل منصب امين سر اتحاد العمال الاميركي وامين صندوقه ، والاب الدكتور ارنولد اولسن رئيس الكنيسة الانجيلية الاميركية الحرة ، وابراهام بيم محافظ نيويورك . وظهر بين الحضور كبار المرشحين للانتخابات الاميركية مثل هيو ل. كاري ، وبول اوديوير ، وهريسون ج. غولدن ، وبرسي ساتون ، ولويس ج. لفكويتز ، وروبرت ابرامز . ويمكن تصور طبيعة هذا المهرجان ، والخطب التي القيت فيه اذا عرفنا ان الهتافات التي انطلقت خلاله كانت « منظمة التحرير الفلسطينية هي الجريمة الدولية » ، و « الامم المتحدة ترضخ للمجرمين » ، و « اسرائيل ، نعم . منظمة التحرير ، لا » .

ولم تكتف الصهيونية بهذا المهرجان ، بل كلفت الزعماء الاسرائيليين بالقاء الخطب والمحاضرات على طلاب الجامعة الاميركية . وكان موشي دايان من نصيب جامعة نيويورك ، ولقد القى محاضرته في مساء الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر) . وكان دايان قد القى في ظهر اليوم نفسه خطابا حماسيا في المهرجان المذكور . وسبقت محاضرة دايان حملة دعائية واسعة ، وغطيت جدران الجامعة بعبارات معادية للعرب والثورة الفلسطينية بصورة خاصة . وجرى بيع البطاقة للطلاب بسعر ١٫٥ دولار ، ولغير الطلاب بسعر ٣ دولارات . ولكن البطاقات اختفت منذ اليوم الاول . ويرجع ذلك الى ان اليهود والاميركيين اقبلوا على شرائها لحضور المحاضرة . لذا كانت نسبة الطلاب بين الحاضرين ١٥٪ فقط . على حين كانت بقية الحضور من اليهود والاثرياء الذين جاءوا الى المحاضرة يعتمرون قبعة « اليارمولكا » التقليدية . ولم يسمح لاحد من الطلاب العرب دخول قاعة المحاضرة لاسباب امنية ، وكان من المنتظر — حسب العادات السائدة في الجامعة — ان يتابعوا المحاضرة من خلال مكبرات الصوت واجهزة التلفزيون الموجودة في القاعة الكبيرة

المؤدية الى قاعة المحاضرات . ولكن « العادات » تبدلت خلال محاضرة دايان ، وطلب من الطلاب العرب متابعة المحاضرة في قاعة خاصة جهزت بأجهزة تلفزيونية . على ان يدفع كل طالب دولارا مقابل دخول هذه القاعة . وبدأت المحاضرة وسط تدابير امنية مشددة اتخذتها الشرطة الاميركية واجهزة الامن التابعة للجامعة . ونتش الداخلون الى القاعة تفتيشا دقيقا . ولم يكن دايان نجم هذه الامسية ، اذ نافسته على هذا المركز القوى الطلابية التقدمية في الجامعة . ولقد نظم هؤلاء الطلاب مظاهرة ضخمة معادية لاسرائيل ، شاركت فيها « جمعية الطلاب الايرانيين » التي تعتبر من انشط العناصر في الجامعات الاميركية ، و « لجنة يوم فلسطين » ، و « فرقة الطلاب الثوريين » ، و « مجموعة التحرير الايريترية » ، و « لجنة مساندة العمال في جامعة بروكلين » ، و « لجنة التضامن الاميركية ــ الهند صينية » ، و « جمعية الشباب المعادين للحرب والفاشية » و « جمعية خمير المقيمين في اميركا » ، و « منظمة طلاب تاهيتي » ، و « الشباب الافريقي للتحرر والوحدة » ، و « جماعة الاسيويين الاميركيين للعمل » . واستمرت هذه المظاهرة التقدمية طوال محاضرة دايان ، وكانت تهتف ضد اسرائيل والولايات المتحدة على السواء » ، ومن هتافاتها والشعارات التي رفعتها : « عارضوا العدوان الاميركي ــ الاسرائيلي على الفلسطينيين » ، و « اوقفوا التسليح الاميركي لاسرائيل » ، و « فلسطين ، نعم . اسرائيل ، لا » ، و « النصر لمنظمة التحرير الفلسطينية » ، و « فليسقط الاستعمار الاسرائيلي » ، و « اهلا وسهلا بمنظمة التحرير الفلسطينية » ، و « اوقفوا التهجم الصهيوني على الشعب الفلسطيني » ، و « من معالوت الى لبنان ، محاكمة جريمة موشي دايان » ، و « الشعب الفلسطيني يدافع عن حقه » ، و « الولايات المتحدة خارج الشرق الاوسط » ، و « عاش التضامن الدولي مع منظمة التحرير الفلسطينية » ، و « اشجبوا الارهاب الاسرائيلي » ، و « الولايات المتحدة ، ارفعي يدك عن البترول العربي » ، و « كيسنجر و فورد ودايان يتابعون خطة نيكسون » ، و « اكسون ، غولف ، موبيل اويل ، ليس لها حق في البترول العربي » . ولقد تجمع المتظاهرون امام المبنى الذي القى فيه دايان خطابه. وانضمت اليهم جماهير غفيرة ، وكانت الشرطة تجد صعوبة في احتواء المتظاهرين .

وكان دايان في ذلك الوقت يخطب بالانكليزية متابعا سلسلة اكاذيبه وتبجحاته . ولكن حديثه نم عن العصبية والاضطراب ، ولقد بدا بمظهر الرجل الذي يتحدث من مركز الضعف ، ويتملق الحضور بشكل ساخر . ولقد ركز في محاضرته على نقطة واحدة هي « ان هناك خطرا يتهدد اليهود والسلام في المنطقة ، وهو الاتحاد السوفياتي » . ضاربا بذلك على وتر حساس لدى المواطن الاميركي الساذج ، ومدغدغا مشاعر هذا المواطن الغارق في مشاغله ومخاوفه اليومية ، ومتحدثا باللغة التي يريد الاميركي سماعها . ولقد تعمد دايان ان يستخدم كلمة « انتم » كلما اراد ذكر الولايات المتحدة . وعند الحديث عن دور روسيا في الشرق الاوسط قال « اذا كنتم لا تريدون تزويدنا بالسلاح ، فانه لن يوجد احد يقول لروسيا كلمة لا » . ثم تحدث دايان عن حرب ١٩٧٣ ، وعن تسليح الاتحاد السوفياتي للعرب ، وقال انه زود العرب بـ ٥٥٠٠ دبابة ، و ١٠٥٠ طائرة ، وصواريخ مضادة للطائرات ، وصواريخ مضادة للدبابات . وقارن هذه الارقام بعدد الدبابات التي كانت في حوزة الالمان في افريقيا خلال الحرب العالمية الثانية . ثم قال مازحا بان الاسرائيليين ليسوا كالفرنسيين ، وحمد الله لان العرب ليسوا كالالمان !

وكانت المحاضرة مملة بشكل قاتل ، اذ كان دايان يكرر نفسه ، ليعود بعد الاستطرادات المملة الى موضوع الاتحاد السوفياتي ، الذي قال بأنه يتمتع الان في الشرق الاوسط بمركز اقوى مما كان عليه قبل عشرين عاما ، وهو ينافس الغرب في هذا المجال سياسيا وعسكريا . وذكر ان في سورية ٣٠٠٠ عسكري سوفياتي يعملون باسم خبراء ، وان في العراق ١٠٠٠ ، وان في مصر عدة مئات ، ثم اضاف « وعندما اندلعت الحرب [الحرب الرابعة] كان جنودهم وعملاؤهم هناك. والسؤال الان هل الروس أحرار للعمل دون أي تدخل اميركي ؟ لا يمكن لاحد ان يتحدى روسيا الا أنتم . نحن هنا ، ولكننا لا نستطيع تهديد

روسيا » . وذكر ان العرب لم يكونوا وحدهم خلال حرب ١٩٧٣ . فلقد ساعدهم اصدقاؤهم من كوريا الشمالية ، وفيتنام الشمالية ، والمانيا الشرقية ، وتشيكوسلوفاكيا ، وبولونيا ، وزودوهم بالخبراء والطيارين والسلاح . واعاد الى الاذهان حادثة اشتباك الطيارين السوفييت مع الطيارين الاسرائيليين فوق سيناء في عام ١٩٧٠ .

وعندما حلل دايان حالة التأهب النووي التي أعلنتها السلطات الاميركية خلال حرب ١٩٧٣ ، قال « كانت هناك معلومات تفيد بأن الاتحاد السوفياتي ينوي التدخل في الحرب لصالح مصر عن طريق ارسال قوات محمولة جوا ، وهذا ما دفع الولايات المتحدة الى اعلان حالة التأهب النووي » . ثم عاد الى تملق الحضور ودغدغة عواطفهم بالحديث عن قوة السوفييت في الشرق الاوسط ، والتي لا يستطيع أحد ان يقاومها ، وسأل الحضور ان كانوا على استعداد لتحدي الاتحاد السوفييتي اذا ما قررت موسكو ان ترسل الى المنطقة أشخاصا غير الخبراء [قطعات مسلحة] .

ثم انتقل دايان الى الحديث عن دور الولايات المتحدة في المنطقة ، واشار الى انها لا تعتبر نفسها « شرطيا عالميا » ، ولكن هناك الاتحاد السوفياتي ، « فان لم تفعلوا شيئا ، فليس هناك من يفعل أي شيء » . **وقال بانه ليس هناك أي بديل للتدخل الاميركي في الشرق الاوسط . والقوات الدولية نفسها عاجزة عن القيام باي عمل** . واعاد الى الذاكرة كيف طلب الرئيس جمال عبد الناصر من هذه القوات ان تنسحب في العام ١٩٦٧ . وبالرغم من اشادته بالدور الاميركي ، فقد ذكر دايان **ان الولايات المتحدة لم تتدخل بعد بما فيه الكفاية** ، وهاجم الرؤساء الاميركيين السابقين الذين فشلوا في تأمين حرية الملاحة لاسرائيل وخاصة في باب المندب . وقال ان كيسنجر يحاول اجراء مفاوضات ، وان اسرائيل طلبت منه بحث موضوع الممرات الدولية « ولكنكم لا تودون التعهد بشيء » ... « ان روسيا تساعد العرب . ونحن لا نطلب منكم ان تحاربوا من أجلنا . وسيكون يوما بائسا بالنسبة الى اسرائيل اذا ما اضطر الشباب الاميركي للحرب من أجلها » . وكرر دايان هذه الجملة عدة مرات ، فهو يعرف ان الشعب الاميركي لا يزال يعيش كابوس تدخله العسكري في فيتنام . وكان يخشى أن يظهر وكأنه يطلب من الاميركيين التدخل المباشر في الشرق الاوسط . « نحن نستطيع حماية أنفسنا ، وان نوقف العرب . ولكننا لا نستطيع ذلك بدون سلاح . كما لانستطيع ان نبقي روسيا خارج المنطقة . فهل تستطيعون ابقاءها خارج المنطقة ؟ ما عليكم الا ان تقولوا لها : اذا أتيت فسنأتي » .

ولم يترك دايان مناسبة الا وامتدح فيها الشعب الاميركي : « أنتم الاولون في كل المجالات ، في العلم ، في غزو القمر ... الخ » .. « أنتم أمة عظيمة . وهذا يعني ان على ممثليكم في الامم المتحدة ان يرفعوا أصابعهم » ... « أنتم مهتمون بأزمة الطاقة ، وارتفاع الاسعار ، والتضخم المالي ، وتودون تحسين علاقاتكم مع العرب للحصول على البترول بأسعار منخفضة . أما هم، فيطلبون منكم ان تضغطوا علينا ، وان تحشرونا. ونحن أقوياء قادرون على مجابهة العرب عسكريا، فهل تستطيعون الوقوف في وجه ضغط العرب ؟ ». وهنا بدأ دايان يتزلف بشكل مهين لاي رجل ، وخاصة بالنسبة الى قائد عسكري كان يتمتع قبل حرب تشرين الاول (اكتوبر) بسمعة اسطورية . وقال ان الاسرائيليين مستعدون للاستماع الى الاميركيين وشكرهم على مساعدتهم خلال حرب تشرين الاول (اكتوبر) . ولكنه يخشى ان يقال للاسرائيليين عندما سيطلبون « الفانتوم » بأن الولايات المتحدة بحاجة لصداقة الملك فيصل وغيره من الحكام العرب ، وان تزويد اسرائيل بالفانتوم يخرب العلاقات الاميركية مع العرب . وعندما قال دايان « **انني قلق فيما يتعلق بالمستقبل** » ارتسمت حالته النفسية السيئة على تعابير وجهه ، وأحس الحضور بأن وزير الدفاع السابق متشائم يشعر بقبضة العرب الفولاذية حول عنق اسرائيل .

وتطرق دايان الى اجتماع الرباط ، وخطورة الوضع الذي خلقه . وفكر ان العرب يحاولون خنق اسرائيل لانهم أغنياء ، وعبر عن أمله بالتوصل الى اتفاق منفصل مع مصر . وقال انه اذا تم ذلك بقيت سورية لوحدها عاجزة عن محاربة اسرائيل ، وذكر ان هذا الامر ينطبق على الاردن ايضا . ووصف منظمة التحرير الفلسطينية بأنها

عصابة «ارهابيين» لا قوة عسكرية ، وانها لا تشكل خطرا على اسرائيل . وهنا وقع دايان في أشنع تناقضات محاضرته ، لان اعطاء منظمة التحرير الفلسطينية هذا الوصف يتناقض مع الحملة الهستيرية ضدها ، والقلق الكبير الذي نجم عن دعوتها الى هيئة الامم المتحدة . وربما نسي دايان انه حضر ظهر اليوم نفسه مهرجانا اعتبره الصهاينة حدثا « تاريخيا » ، وقالوا بأنه « أكبر مهرجان صهيوني » ، ونسي أن هذا المهرجان ما عقد الا للاحتجاج على وجود منظمة التحرير الفلسطينية « الضعيفة التي لا تخيف » في الامم المتحدة !

وحاول دايان ان يقنع مستمعيه بأن جميع العرب داخل اسرائيل يرحبون بالاحتلال الاسرائيلي، وانهم لا يظهرون ترحيبهم خوفا من انتقام الفدائيين منهم ومن اقربائهم في الضفة الغربية وغزة . وأشاد بعدد من الزعماء العرب في اسرائيل مثل انور نسيبة ، وأنور الخطيب ، والشيخ محمد علي الجعبري ، ورشاد الشوا . وختم دايان محاضرته بالتركيز على ان منظمة التحرير الفلسطينية لا تتمتع بالحجم الذي تريد اعطاءه لنفسها ، وانها لا تمثل الا نفسها ، ولا تشكل أي خطر على المنطقة ، باستثناء خطف «الاطفال» والطائرات وغيرها من الاعمال الارهابية . ثم عاد ليكرر نفسه مرة اخرى متسائلا بشكل ابتزازي « هل ستستمرون في تزويدنا بالسلاح حتى ولو لم يقبل العرب بذلك ؟ هل ستأخذون حصتكم في محاربة الروس ؟ » .

وتلى المحاضرة أسئلة متعددة ، ورغم تدابير الامن المشددة ، واستبعاد الطلاب من المحاضرة ، وحضور غالبية من اليهود الامركيين ، فقد وجهت الى دايان أسئلة محرجة . ومن بينها سؤال **حول شرعية انشاء المستعمرات في الضفة الغربية .** وأجاب دايان على ذلك « ان كل ما تفعله اسرائيل هو العودة الى الديار » . وكان السؤال الثاني **حول التفاوض مع الفلسطينيين** . ولقد أجاب عليه دايان بأنه لا مانع من التفاوض مع زعماء الفلسطينيين الموجودين في الاردن او الضفة الغربية أو غزة ، ولكن ليس مع منظمة التحرير الفلسطينية . ثم اضاف بأنه ليس هناك زعيم عربي عاقل يعتقد بامكانية وجود دولة جديدة في المنطقة . وان بوسع الفلسطينيين الذهاب الى جنيف مع الوفد الاردني . وعندما سئل: **هل رفض التفاوض مع المنظمة أمر مطلق** ، اجاب بحدة « نعم » .

وطرح على دايان سؤال أمني **يتعلق بقدرة اسرائيل على البقاء اذا ما وقعت حرب جديدة مع العرب** . فأجاب بأن الحرب غير متوقعة في الوقت القريب ، وعبر عن أمله في ان لا تكون اسرائيل في حالة الحرب وحيدة . ثم عاد الى التزلف المشين بقوله « ان الولايات المتحدة قادرة على اركاع اسرائيل » ، ثم استطرد مازحا « اذا حدث ذلك فسوف نصرخ، ونذهب الى كل جامعاتكم لنحاضر».

وكان هناك سؤال **حول السلاح النووي** ، رد عليه دايان بأنه ليس عالما ليعرف التفاصيل ، وانه لا يوجد لدى اسرائيل سلاح نووي . وعندما سأله أحد الحاضرين **ماذا ستفعل اسرائيل اذا حصل العرب على سلاح نووي** ، أجاب : « سنحاول ان نعمل ما نقدر عليه » .

وفي معرض الرد على سؤال **يتعلق بالمفاوضات مع الاردن** ، أجاب بأنه كان هناك مفاوضات مع الاردن على أساس مشروع آلون ، وأضاف بأنه ليس من الواقعية في شيء عقد اتفاقية منفصلة مع الاردن . وعندما سئل عن **الدرس الذي استخلصته اسرائيل من استخدام العرب للصواريخ المضادة للطائرات** ، اجاب دايان سائله بقوله : « لا أعتقد انك مطلع على قضايا التكنولوجيا العسكرية ، وليس هناك جواب سهل حول الدفاع ضد الطائرات . وعلى كل حال فانه لم يكن هناك شيء خاص حول الصواريخ التي استعملت خلال الحرب » ، ولقد بدا رده في هذا المجال غامضا مشوشا ، حاول فيه الاقلال من أهمية شبكة الصواريخ العربية المضادة للطائرات ، واغفال دورها في حرب ١٩٧٣ ، رغم انها استطاعت الحد من حرية عمل سلاح الطيران الاسرائيلي الى حد بعيد ، وكبدته خسائر تفوق تقديراته . وسئل دايان **فيما اذا كان هناك ضغط اميركي على اسرائيل للانسحاب من سيناء** ، فأجاب بأنه ليس هناك أي ضغط ، وانه شخصيا « قد حبذ الانسحاب بضعة أميال لكي يتسنى لمصر فتح القناة. وانه لن يتم اي انسحاب جديد الا ضمن اتفاقية سلام » . أما السؤال الاخير فكان **حول موقف**

الفاتيكان من القدس . ولقد كان جواب دايان عليه غريبا ومثيرا للسخرية بآن واحد . ذلك انه قال بأن كل ما يهم الفاتيكان هو ان يكون مسؤولا عن الاماكن المسيحية المقدسة . وهذا أمر لا تعارضه اسرائيل . لان تدخل الفاتيكان في القدس أكثر من ذلك سيجعله مضطرا لمواجهة مشكلة الامـــاكن الاسلامية المقدسة. ثم تساءل ما اذا كان المسلمون يقبلون ان يضع الفاتيكان يده على أماكنهم المقدسة. وأشار الى ان الفاتيكان لم يطالب بالقدس ، بل طالب بالاماكن المسيحية المقدسة فقط . ثم أعاد الى الاذهان ان الملك عبدالله لم يقبل اتخاذ القدس عاصمة له ، بل اختار عمان . وعندما جعلت اسرائيل من القدس عاصمة لها ، ثار العرب وطالبوا بالقدس .

ولم يقبل بعد ذلك أسئلة أخرى ، وانتهت المحاضرة في الساعة العاشرة وسط تصفيق جمهور مختار بعناية ومعد لهذا الغرض . وكنت أول الخارجين من الصالة التي تابعت فيها محاضرة الجنرال المهزوم الذي يحـــاول ان يلعب دور السياسي ، بعد ان تخلى عن يساريته المزعومة ، واتجه أكثر فأكثر نحو اليمين الليكودي المتعصب . وكنت أفكر خلال سيري كم كنت مخطئة عندمـــا اعتقدت في الماضي بأن وزير الدفاع الاسرائيلي شخص ذكي ، فلقد بدا أمامي شخصا عاديا مصابا باضطراب عصبي أكيد ، ولا يتمتع بأية حصافة أو لباقة سياسية ، وقلت في نفسي لقد نجحت الدعاية الصهيونية في اختيار المكان والزمان ولكنها أخطأت هذه المرة في اختيار الرجل المناسب . وقطع سلسلة أفكاري رجل الشرطة الذي يحرس الباب ، فلقد استوقفني متسائلا « كيف كانت المحاضرة » ، فأجبته : « مريعة ! تصور انني عربية » . وتابعت سيري دون ان التفت نحوه . وتوجه الشرطي نحو رفاقه قائلا «عربية ، عربية» ، وكانت هذه آخر كلمة سمعتها في هذا المبنى الذي اهتزت جدرانه طوال ساعتين لاكاذيب دايـــان المكشوفة ، وتهريج المصفقين المتعامين عن حقائق التاريخ .

سلمى حداد

[٥]

كيف عالجت الصحف السوفياتية القضيـــة الفلسطينية خلال شهر اكتوبر سنة ١٩٧٤

شـــهدت القضية الفلسطينية تطورات هـــامة وخطيرة في شهر اكتوبر ، وقد كانت الصحافـــة السوفياتية مهتمة بشكل أساسي بهذه التطورات وأولتها التحليلات والتعليقات الوافية وقد كان محور تركيز الصحافة السوفياتية يدور حول عدة قضايا رئيسية أهمها :

١ — قرار الامم المتحدة بالسماح لوفد من منظمة التحرير لعرض ومناقشة القضية في الجمعية العمومية للمنظمة الدولية . ٢ — قرار مؤتمر الرباط باعتبار منظمة التحرير الممثل الشـرعي الوحيد للشعب الفلسطيني والدعوة لاقامة سلطة وطنية على الاراضي التي ستنسحب منها القوات الاسرائيلية . ٣ — جولة كيسنجر في الوطن العربي والمقترحات الامريكية لحل ازمة الشرق الاوسط . ٤ — مؤتمر جنيف وضرورة الاسراع بعقده لمتابعة بحث تسوية ازمة الشرق الاوسط . ٥ — السياسة النفطية العربية واثرها على الغرب ومن أجل ايجاد حل للازمة في منطقة الشرق الاوســط . ٦ — كما ركزت بعض الصحف ووكالات الانباء على تعليقات لمعلقين سوفيات حول الحركة الصهيونيـــة وسياستها الارهابية وارتباطها مع هتلر من أجل تنشيط هجرة اليهود لفلسطين في الثلاثينـــــات والاربعينات من هذا القرن . وكذلك محاولات الصهيونية الدائبة لاعادة علاقات اسرائيل مـــع دول افريقيا النامية والتي قطعت علاقاتها مع اسرائيل مؤخرا .

فتحت عنوان « الجمعية العمومية للامم المتحدة والمسألة الفلسطينية » كتب معلق وكالة أنبـــاء نوفستي بوريس يانوف يقول : « ان القرار المتخذ من قبـــل الجمعية العموميـــة يؤدي منطقيـــا الى الاعتراف من قبل الدول الاعضاء بالامم المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثـــل الشرعي الوحيد للشعب الذي يناضل في سبيل اقامة دولة خاصة به وفي سـبيل وجـــــــوده القومي... ».

ويتابع المعلق تحليله للوضع الناتج بعد قرار الجمعية العمومية ليقول : « وقد عارض رئيس الوزراء الاسرائيلي رابين المسألة في التلفزيـــون الاسرائيلي ، اذ قال : « ألا تعتقدون انه بعد قرار الجمعية العمومية للامم المتحدة تجاه الشعب الفلسطيني ستصبح مواقف الحكومة الاسرائيلية دون قيمة ؟ » ان اسرائيل تريد تأزيم الوضع وزيادة التوتر . ان اعانات الولايات المتحدة والمساعدة الانكلو — فرنسية بالسلاح تشجع رابين على الادلاء بتصريحات عدوانية وتشجع الجيش الاسرائيلي على شن اعتداءات ضد سوريا ولبنان ، ولكن لا يغامر احد اليوم على ان يعلن بأعلى صوته تأييـــده لسياسة الحكومة الاسرائيلية » . ويتابع المعلق تحليلاته للوضع ليستشهد بخطاب اندريه غروميكو في الجمعية العمومية قائلا : « وأكد وزير الخارجية السوفياتي عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي اندريه غروميكو ، في خطابه أمـــام الدورة التاسعة والعشرين للجمعية العمومية للامم المتحدة ان المسألة الفلسطينية هي مسألة مبدأ عالمي كبير » . ويستطرد المعلق قائلا : « وفيما يتعلق بالحاجات والامال الوطنية لعرب فلســطين التي يجب تلبيتها ، يناضل الاتحاد السوفياتي من أجل ذلك لا بالاقوال بل بالافعال ... » ويختتم مقاله بكلمة للاخ ابو عمار اذ يقول المعلق : « وقال ياسر عرفات ، رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمـــة التحرير الفلسطينية في حديث ادلى به لمجلة **شؤون فلسطينية** الشهرية « ان الاتحاد السوفيـــــاتي والبلدان الاشتراكية تقف الى جانب شعب فلسطين في كل الندوات الدولية ونحن لا ننسى أبدا ان السوفياتيين كانوا ويظلون الاصدقاء الحقيقيـــين الاوفياء لنضـــال شعبنا الفلسطيني وكل الامـــة العربية ضد النازية الجديدة الممثلة بشـــــخص اسرائيل » .

وحول موقف الاتحاد السوفياتي والاســـــرة الاشتراكية من قضية الشعب الفلسطيني يقـول فينوغرادوف بعد ان يستعرض نتائج التصويت في الامم المتحدة وموقف الدول الاربع التي صوتت ضد مصالح الشعب الفلسطيني : « ومنذ أكثر مـــن

٢٥ عاما والشعب العربي الفلسطيني محروم من امكانية استخدام حقه المشروع في تقرير المصير ، وهو حق اعترفت به وأكدته قرارات عديدة لمنظمة الامم المتحدة ، ويكمن سبب ذلك في السياسة العدوانية للاوساط الحاكمة الاسرائيلية وموقف القوى الامبريالية والصهيونية الدولية التي تحمي اسرائيل وتدعم أطماعها التوسعية في الشرق الاوسط » . ويتابع فينوغرادوف مقاله حول دعم الاتحاد السوفياتي لحركة المقاومة على مختلف الاصعدة مستشهدا بما جاء في خطاب للرفيق بريجنيف اذ يقول : وأعرب عن نفس وجهة النظر الامين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ليونيد بريجنيف اذ قال : « من الضروري تنفيذ قرارات منظمة الامم المتحدة وضمان انسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة ، وتلبية المصالح المشروعة للشعب العربي الفلسطيني وحقه في وطن مستقل ، ويجب ان يتحقق ذلك دون مماطلة اذا اردنا ان يقوم سلم وطيد في الشرق الادنى ، ان تأجيل حل هذه المسألة والابقاء على الوضع الراهن ، الذي يفيد المحتلين الاسرائيليين فقط ، يعني الجلوس فوق برميل من البارود يمكن ان ينفجر في كل لحظة » .

وحول مؤتمر جنيف وضرورة استئناف أعماله أولت الصحافة اهتماما بذلك وكتب المعلقون حول هذا الموضوع مقالات متعددة وكلها تنطلق من منطلق اساسي واحد وهو ضرورة الاسراع بعقد المؤتمر من أجل بحث مشاكل الشرق الاوسط ، ويجمع كل المعلقين على ضرورة مساهمة الفلسطينيين بالمؤتمر فيقول بيرسادا وهو معلق سياسي معروف تحت عنوان « استئناف اعمال مؤتمر جنيف هو المهمة التي يتوقف عليها حل أزمة الشرق الاوسط » : « وفي نفس الخطاب الذي القي في دورة الجمعية العمومية للامم المتحدة أعلن وزير خارجية الاتحاد السوفياتي « ان الاتحاد السوفياتي يرى انه ينبغي ان تتخذ دون تأخير ، تدابير تهدف الى تسوية سياسية جذرية لنزاع الشرق الادنى ، ويتعلق الامر بالاستئناف الفوري لاعمال مؤتمر جنيف حول السلم في الشرق الادنى ، هذه الندوة التي هي أفضل ما يكون من أجل بحث مسألة الشرق الادنى بكل تعقدها ، والعثور على حلول تقبلها الاطراف المتنازعة ، ويشمل ذلك ايضا الشعب العربي الفلسطيني الذي يجب ان يأخذ ممثلوه المكان العائد اليهم بحق في المؤتمر » .

هذا واوردت معظم الصحف الرسمية البرقية التي بعثها ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية الى ليونيد بريجنيف والذي يعبر فيه عن شكره العميق للموقف الحازم الذي يقفه الاتحاد السوفياتي والاسرة الاشتراكية دعما للشعب الفلسطيني وتضيته العادلة .

وتحت عنوان « اسرائيل تسلك طريقا خطرا » كتبت صحيفة النجم الاحمر مقالا محللة فيه ردة الفعل الاسرائيلية في أعقاب اتخاذ قرار الامم المتحدة حول دعوة منظمة التحرير لمناقشة القضية في الجمعية العمومية ، واوردت الصحيفة الناطقة باسم الجيش السوفياتي مقتطفات من خطاب ليونيد بريجنيف المشار اليه في مكان سابق من التقرير كما اشارت الى المساعدات العسكرية الامريكية التي تقدم باستمرار لاسرائيل ومحاولات اسرائيل لزيادة التوتر في المنطقة وعرقلة أعمال مؤتمر جنيف . وقالت الصحيفة : « ان الانتصار الاول هو انه يستحيل بعد الان ان يناقش في جنيف او في أي مكان آخر ، أي اتفاق دون اشراك الفلسطينيين . والانتصار الثاني هو ان هذه التسوية لا يمكن تصورها دون الاعتراف بحق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير المصير » .

وعن مؤتمر القمة العربي وقراراته فقد كتبت معظم الصحف السوفياتية البرقية التي بعثها القادة السوفييت للمؤتمر وكتبت تعليقات كثيرة حول التضامن العربي والموارد الاقتصادية لدى الدول العربية والتي بامكانهم استخدامها للضغط على الولايات المتحدة والدول الغربية الاخرى من أجل ايجاد تسوية سياسية لازمة المنطقة .

وتحت عنوان « أهمية مؤتمر القمة العربي الذي يعقد في الرباط » كتبت الازفستيا بقلممراسلها الخاص كوريافين : « ويجب ان تكرس كل جهود الدول العربية الى الاهداف الرئيسية الواجب تحقيقها فيما يتعلق بالتسوية في الشرق الادنى ، وهذه الاهداف هي سحب القوات الاسرائيلية من كل الاراضي العربية المحتلة وتلبية الحقوق الوطنية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني » ويواصل كوريافين مقاله في الازفستيا قائلا : « ويتوجب على

البلدان العربية ايضا حل مهمة هامة كالنضال في سبيل تعزيز استقلالها الوطني ، وتولى أهمية رئيسية ، على هذا الصعيد الى مسائل التحرر من تسلط الاحتكارات الغربية ، وبالدرجة الاولى الاحتكارات النفطية » .

وفي اثناء عرضها للاحداث الدولية كتبت صحيفة برافدا تحت عنوان : « زيارة كيسنجر الى الشرق الادنى لم تحقق تغيرات ذات شأن في المنطقة » ، تقول البرافدا : « وقد انتهت مؤخرا الرحلات التي قام بها هنري كيسنجر في الشرق الادنى ، وقد زار خلالها اسرائيل والبلدان العربية . ولدى وصوله الى واشنطن ، أعلن كيسنجر ان مهمته كانت ناجحة لانها قربت مرحلة جديدة من المحادثات العربية الاسرائيلية ، وقال بأن الولايات المتحدة ستواصل القيام بدورها . وتعليقا على هـــذا النشاط الديبلوماسي ، تطلق الصحافة الامريكيـــة مختلف الآراء حول مدى جدواها . ولكن هنـــاك شيئا واضحا هو ان الديبلوماسية الوحيدة الجانب او الديبلوماسية الصامتة كما تسمى ايضا ، لم تحقق تغيرات ذات شأن في هذه المنطقة من العالم». وتواصل البرافدا في سياق عرضها للاحداث الدولية قائلة : « ان انسحاب القوات الاسرائيلية من كل الاراضي العربية واعادة الحقوق المشروعة للشعب العربي الفلسطيني هما وحدهما اللذان يمكن ان يحملا سلما وطيدا ودائما الى الشرق الادنى . وهذه المهمة الحسية بالتحديد هي التي تطرح أمام مؤتمر السلام حول الشرق الادنى ، المؤتمر الذي يجب ان يستأنف أعماله في جنيف » .

أما معلق وكالة أنباء نوفوستي اندريه دولغوف فيقول حول زيارة كيسنجر للمنطقة : « علق بعض السياسيين العرب آمالا معينة على الرحلة الاخيرة التي قام بها وزير خارجية امريكا الى الشرق الادنى ، ومع ذلك ، يبدو بأن زيارته الى تل ابيب والى العواصم العربية قد خيبت الامال » . ثم يواصل دولغوف تعليقه حول ما اذيع ونشر عن احتمال التوصل لاتفاقات جزئية بين اسرائيل وبعض الدول العربية تقوم على اثرها اسرائيل بمزيد من الانسحاب من اراض محتلة مقابل تنازلات سياسية عربية قائلا: «وهل يمكن ان تقرب الاتفاقات الجزئية الجديدة التسوية النهائية او انها لن تفعل سوى الابقاء على الوضع الراهن أو حتى جعله أكثر خطرا ؟ تثبت تجربة العام الماضي ان اتفاقات مماثلة لم تستطع ان تغير الوضع جديا . وفضلا عن ذلك فان المحادثات المنفصلة والقرارات الجزئية التي يجري التفكير بها ، يمكن ان تخدم اولئك الذين يريدون استبعاد منظمة التحرير الفلسطينية عن عملية التسوية » .

وعن الحركة الصهيونية تواصل أجهزة الاعلام والصحافة تخصيص أمكنة خاصة على صفحاتها من أجل فضح الحركة الصهيونية بأيديولوجيتهـــــا وسياستها ومحاولاتها منذ تأسيسها على محاربة الشعب الفلسطيني وانتهاج سياسة الارهاب ضده فتحت عنوان « تطورات الصهيونية » تقول وكالة أنباء نوفوستي : « في اوائل سنة ١٩٧٠ تقدم شاليت ، أحد سكان اسرائيل ، الى الحكومـــة الاسرائيلية شكوى ضد مجلس الحاخامات الذي رفض الاعتراف باولاده كيهود ، وبالتالي كمواطنين اسرائيليين بحجة ان أم اولاده غير يهودية . وبعد مناقشات عاصفة صدق البرلمان الاسرائيلي على قرار مجلس الحاخامات وأعلن « ان اليهودي من ولد من أم يهودية » ، لقد دلت قضية شاليت بصورة رسمية على ان التمييز القومي أصبح في اسرائيل سياسة رسمية تقوم على أساس المفهوم الصهيوني للدولة التي تعتبر وطنا « لليهود » ، ولليهود وحدهم » . وبعد ان يشرح المقال عنصرية الحركة الصهيونية ويبين عداءها للشعوب حسبما وضح لينين ذلك قبل سبعين عاما ، يتطرق لعلاقة الحركة الصهيونية مع النازية قائلا : « ففي سنة ١٩٢٩ وضع بنك «مندلسون وشركاه» في امستردام تحت تصرف هتلر مبلغ عشرة ملايين دولار جمعتها المنظمات الصهيونية ومعظمها من المنظمات الامريكية، وفي سنة ١٩٣١ وضع ١٥ مليون دولار اخرى ، وبعد استيلاء الهتلريين على السلطة في المانيا نال زعيمهم بمثل هذه الطرق مبلغ ١٢٦ مليون دولار ». ويستطرد المقال الى القول : « وأشار غولدمان الى ان عددا من الشركات الصهيونية كانت عميلة للشركات الالمانية التي حققت اعادة تسليح المانيا . ووفقا للاقتراح الذي قدمه بواسطة ايخمان المفوض الخاص للحكومة الفاشية لـ « حل المســـألة اليهودية النهائي » نظم الزعماء الصهيونيون سنة ١٩٣٣ — ١٩٣٤ في البلدان الاوروبية حملات دعاية للدفاع عن النظام الفاشي » . ويتابع المقال :

« وقد تحدث نائب البرلمان الاسرائيلي ج. لاندوا سنة ١٩٦٦ عن واقع ان رؤساء الصهيونية عرفوا في ذلك الوقت خير المعرفة جميع تفاصيل سياسة ابادة اليهود التي نهجها رؤساء النازية ولكن زعماء الصهيونية التزموا الصمت حول ذلك وحاولوا ارغام غيرهم على التزام الصمت ايضا ». ثم يتحدث المقال عما ادت اليه جرائم هتلر من مصلحة لصالح الحركة الصهيونية في تنشيط الهجرة اليهودية لفلسطين ، فيقول : « وكان الصهيونيون يأملون من وراء ذلك بأن تؤدي جرائم الهطريين الى تزايد سيل المهاجرين الى فلسطين فتنشأ بالتالي المهدات لتحقيق أحلامهم في انشاء دولة يهودية موحدة ، وقد تحققت آمال الصهاينة ، واذا كان عدد المهاجرين الى فلسطين قد بلغ في سنوات ١٩٢٩ — ١٩٣١ بصورة متوسطة ٤ — ٥ آلاف شخص سنويا ، فبعد ان وصل الهطريون الى الحكم بلغ عدد المهاجرين لفلسطين سنة ١٩٣٣ ٣٠٣٢٧ شخصا، وفي سنة ١٩٣٤ ٤٢٣٥٩ شخصا، وفي سنة ١٩٣٥ ٦١٨٥٤ شخصا » . ويتابع المقال : « وبعد انشاء دولة اسرائيل ، تجلى بصورة أوضح الجوهر الرجعي للصهيونية ، وبالدرجة الاولى بالنسبة الى علاقاتها بسكان فلسطين العرب الاصليين . ان رؤساء دولة اسرائيل اذ أنشأوا مشكلة العرب الفلسطينيين يحلونها الآن عن طريق الطرد القسري للعرب الى ما وراء حدود البلاد . وليس من قبيل الصدفة ان يتم في مدينة القدس العريقة تدمير ١٥٣ بيتا تخص العرب الفلسطينيين بحجة تنظيف الساحة امام جدار المبكى . كما دمر في اسرائيل أكثر من سبعة آلاف بيت تخص العرب الفلسطينيين » . وبعد تحليل لظروف العمل الصعبة التي يعاني منها العمال الفلسطينيون والمواطنون الآمنون بحجة حماية أمن الدولة ينهي الكاتب مقاله قائلا : « وفوق ذلك ، فان الشعب المختار نفسه ينقسم الى فئة عليا وفئة دنيا ، أما الفئة العليا فانها تتألف من « الصابرا » أي اولئك الذين ولدوا في اسرائيل ، و « أشكينازيم » وهم الذين انتقلوا اليها من اوروبا الغربية وامريكا ، والفئة الدنيا تتألف من « سفارديم » وهم اليهود الاسيويون والافريقيون — السود — وكذلك المنتقلون من بلدان اوروبا الشرقية . وعلاوة على ذلك ينقسم اليهود الى يهود أنقياء ، اي المولودون من يهودي ويهودية والى يهود غير انقياء ، أي المولودون من زواج مختلط. وان افراد الفئة الدنيا وهم غير انقياء يتعرضون للتمييز في جميع ميادين الحياة الاجتماعية في البلاد ». ومن سياسة اسرائيل في افريقيا ومحاولاتها الدائبة لاعادة علاقاتها السياسية والاقتصادية مع دول افريقيا فقد كتبت تعليقات عدة . فهذا المعلق « ديفيت » يكتب قائلا : « تنشر الصحف الاسرائيلية من حين الى آخر أخبارا تزعم بأن الدول الافريقية تستعد لاعادة علاقاتها الودية مع اسرائيل ، وتشير الصحف الاسرائيلية حتى الى أسماء بعض الزعماء الافريقيين الذين يقفون هذا الموقف » . ويستطرد ديفيت قائلا : « وغرض اسرائيل من تدخلها في شؤون افريقيا هو ان تكون جسرا بين الدول الاستعمارية السابقة وبين المستعمرات السابقة » . ويتابع القول : « وعلاوة على كون اسرائيل نفقا لتغلغل الشركات الاحتكارية الامبريالية الى البلدان النامية ، فان اسرائيل تنفذ كذلك مشاريعها الاستعمارية الجديدة الخاصة، ويسعى ارباب العمل في اسرائيل الى الاغتناء على حساب استثمار بلدان آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية . ويمد الرأسماليون الاسرائيليون ايديهم الى الثروات الطبيعية المستخرجة من هذه البلدان مثل الماس ، البوكسيت ، وفلز النحاس والحديد والاخشاب والمطاط وغيرها » .

كانت تلك أهم الموضوعات المتعلقة بالقضية الفلسطينية والتي عالجتها الصحافة السوفياتية ابان شهر اكتوبر سنة ١٩٧٤ .

ساميه الفونو

تقارير

[١]

مقارنة تكنولوجية وتكتيكية بين طائرتي ((ميغ ـ ٢٣)) و ((ميغ ـ ٢٥)) وطائرات ((الفانتوم)) و ((توم كات)) و ((ايغل))

منذ ان حصلت اسرائيل على الدفعة الاولى من صفقة طائرات الفانتوم الامريكية في ايلول (سبتمبر) ١٩٦٩ ، وبدأت في استخدامها ضد مصر خلال حرب الاستنزاف في ٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠، والحديث يدور في العالم العربي حول ضرورة حصول مصر وسورية على طائرات « ميغ ـ ٢٣ » من الاتحاد السوفييتي ، حتى يتحقق التوازن الجوي مع طيران العدو .

ونتيجة لنقص المعلومات الدقيقة عن هذه الطائرة، خلطت المراجع العلمية الاجنبية المتعلقة بشؤون الطيران بين « الميغ ـ ٢٣ » (التي يسميها حلف الاطلسي « فلوجر ») و « الميغ ـ ٢٥ » (التي يسميها حلف الاطلسي « فوكس بات ») وتسرب هذا الخطأ الى الصحافة العربية لفترة طويلة ، ومن ثم كتب دائما عن « الميغ ـ ٢٥ » (ونشرت صورتها كذلك) على انها « الميغ ـ ٢٣ » ، خاصة فيما يتعلق برحلات الاستطلاع الجوي التي قامت بها الميغ ـ ٢٥ فوق اسرائيل قبيل حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ من ارتفاعات شاهقة ولم تستطع اجهزة الرادار الاسرائيلية ان ترصدها سوى مرتين حاولت خلالهما طائرات « الفانتوم » ان تطاردها وتسقطها فلم تنجح في كلتا المرتين نظرا للسرعة الهائلة التي كانت تطير بها « الميغ ـ ٢٥ » والارتفاع الكبير الذي كانت تحلق عليه والذي لم تستطع صواريخ « الفانتوم » من طراز « سبارو » ان تصل اليه (ويقال ان هذه الطائرات كانت تؤدي هذه المهام بواسطة طيارين سوفييت من قواعد جوية مصرية) ، وعقب زيارة الرئيس السوري حافظ الاسد للاتحاد السوفياتي التي جرت في النصف الاول من نيسان (ابريل) ١٩٧٤ ترددت انباء حول احتمال تزويد سورية بطائرات « ميغ ـ ٢٣ » وذلك ضمن سياسة الاتحاد السوفييتي التي تستهدف زيادة القدرات العسكرية العربية في مواجهة السياسة العسكرية العدوانية الاسرائيلية المدعومة بقوة من الولايات المتحدة الامريكية . وتؤكد المصادر الامريكية والاسرائيلية ان لدى سورية حاليا أكثر من ٢٤ طائرة « ميغ ـ ٢٣ » (ر.١٠١، العدد ٦٠٢ ، ص ٢٣١) .

وعلى اثر قيام « شمعون بيرس » وزير الدفاع الاسرائيلي بزيارة للولايات المتحدة الامريكية في اواخر حزيران (يونيو) الماضي قال « جيمس شليسينجر » وزير الدفاع الامريكي يوم ٢٦/٦/١٩٧٤ في كلمة القاها امام لجنة الاعتمادات في مجلس الشيوخ « ان تفوق اسرائيل وتدريب جنودها لا يتعادل مجددا مع الاسلحة المتطورة الموجودة في حوزة مصر وسوريا » . وكتبت صحيفة « واشنطن بوست » في اليوم نفسه تقول ان اسرائيل تريد الحصول على طائرات متقدمة من انواع « ف ـ ١٤ » ، أي « توم كات » ، و « ف ـ ١٥ » ، أي « ايغل » ، وفي ٢٨/٦/١٩٧٤ قالت الاذاعة الاسرائيلية ان مصادر موثوقا بها قد صرحت في ذلك اليوم بواشنطن ان الولايات المتحدة وافقت على بيع اسرائيل، طائرات من طراز « ف ـ ١٤ » القادرة على مواجهة « ميغ ـ ٢٣ » (ر.١٠١، ، عدد ٥٦٨ ، صفحة ٥٤٤) . وتزايدت الانباء بعد ذلك مؤكدة نية الولايات المتحدة في تزويد اسرائيل

بهذا النوع من الطائرات الحديثة بالاضافة الى احتمال تزويدها بطائرات « ف ــ ١٥ » أي «ايغل» وطائرات « واي ف ــ ١٦ » و « واي ف ــ ١٧ » التي ستبدأ انتاجها على نطاق واسع قريبا ، بعد اعتماد نتائج اختباراتها الاخيرة بواسطة السلاح الجوي الامريكي .

وعلى هذا الاساس أصبح من المؤكد ان الشهور القادمة ستشهد بدء تزويد اسرائيل بطائرات « ف ــ ١٤ » ، على الاقل ، لمواجهة طائرات « الميغ ــ ٢٣ » التي زودت بها سورية (والتي ستزود بها مصر غالبا في وقت قريب ، خاصة وانه قيل مؤخرا ان الاتحاد السوفييتي يدرب بعض الطيارين المصريين على استخدام هذه الطائرات وطائرات ميغ ــ ٢٥ ، وذلك كما ورد في مجلة « افياشين ويك » عدد ١١/٣/١٩٧٤) .

ومن الممكن الافتراض احتمال حصول اسرائيل بعد ذلك على طائرات « ف ــ ١٥ » وحصول سوريا ومصر على طائرات « ميغ ــ ٢٥ » خلال السنوات القليلة القادمة ، ولذلك يصبح من المفيد اجراء مقارنة تكنولوجية وتكتيكية بين طائرتي «الميغ ــ ٢٣» و « الميغ ــ ٢٥ » من جهة وطائرات « الفانتوم » التي تملكها اسرائيل حاليا وطائرتي « ف ــ ١٤ »، « ف ــ ١٥ » من جهة اخرى .

والواقع ان اي دراسة مقارنة من هذا القبيل تواجه صعوبتين اساسيتين ، الاولى متعلقة بنقص المعلومات المفصلة عن مثل هذه الطائرات الحديثة التي تحرص كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي على حجبها او حجب جوانب معينة منها، فضلا عن ان الاختبار او التقييم الحقيقي لقدرات أية طائرة ، خاصة القدرات التكتيكية ، مسألة يصعب الوصول اليها قبل اختبار الطائرات المعنية في سلسلة من الاعمال القتالية الفعلية التي تكشف عن نواحي الضعف والقوة في الطائرة المستخدمة .

والصعوبة الثانية التي تواجه مثل هذه الدراسة المقارنة ، هي ان كل من الدولتين المنتجتين لهذه الانواع من الطائرات تصمم طائراتها وفقا لنظريات وعقائد قتالية تكتيكية مختلفة مفروض ان يجري استخدامها ضمن اطارها ، الامر الذي يؤدي الى اختلاف في الخصائص الفنية والقدرات القتالية لا بد من مراعاته ، عند اجراء أي مقارنة ، ومع اخذ هاتين المسألتين في الاعتبار سنجري المقارنة بين الانواع المذكورة من الطائرات السوفييتية التي لدى العرب (أو التي ستكون لديهم) والطائرات الامريكية التي لدى اسرائيل (أو ستكون لديها) .

« الميغ ــ ٢٣ » :

طائرة مقاتلة معترضة بمقعد واحد ذات اجنحة متحركة مزودة بمحرك توربيني نفاث قوة ١٢٧٠٠ كلغ تقريبا في حالة استخدام حراق خلفي ، وتقدر سرعتها القصوى على ارتفاع سطح البحر بنحو ١٣٩٠ كلم في الساعة (أي ١٫٢ ماك) وتقدر سرعتها القصوى على ارتفاع ١٢٠٠٠ متر بنحو ٢٤٤٦ كلم في الساعة (أي ٢٫٣ ماك) وذلك في حالة عدم حملها لاي صواريخ جو ــ جو ، اما في حالة تسليحها الكامل بالصواريخ المذكورة ، (٤ صواريخ متطورة من طراز «اناب» الموجهة بالرادار او صاروخين من النوع المذكور وصاروخين آخرين من الصواريخ الموجهة بالاشعة تحت الحمراء) ، فان سرعتها القصوى تصبح نحو ١٨٠٠ كلم في الساعة (أي ١٫٧ ماك) ، ويقدر مداها القتالي في حالة تزويدها بخزاني وقود اضافيين بنحو ١١٢٦ كلم ، واقصى ارتفاع عملي لها يبلغ ١٥٢٥٠ مترا. كما يقدر وزن الطائرة عند اقلاعها وهي تحمل صاروخين جو ــ جو فقط بنحو ١٣٦٠٨ كلغ ، وبالاضافة الى الصواريخ الموجهة جو ــ جو التي تستطيع ان تحملها في مهام الاعتراض القتالي فان الطائرة مسلحة بمدفعين رشاشين عيار ٢٣ مم او ٣٠ مم ، وهي مزودة بأجهزة ومعدات الكترونية مماثلة (من حيث قدراتها ومهامها) لتلك الاجهزة الموجودة بطائرات « الفانتوم » ، واجنحة « الميغ ــ ٢٣ » ذات هندسة متغيرة ، بمعنى انها تستطيع ان تفرد او تضم أجنحتها وفقا للمتطلبات التكتيكية الذي يتطلبها الموقف الذي تواجهه، ذلك لانها عندما تفرد الاجنحة (وهو الوضع العادي لطيرانها) تقلل من سرعتها وتزيد من قدرتها على حمل الحمولات الخارجية من وقود او ذخيرة جوية كما تقلل من استهلاكها للوقود ، وعندما تضم أجنحتها تزيد من سرعتها وقدرتها على المناورة في القتال الجوي ، ولذلك فان تصميمها على هذا النحو يوفر لها ميزة طائرة احراز التفوق الجوي ، وهناك طراز آخر منها يعرف بالميغ ــ ٢٣ ب به بعض التعديلات في التصميم يتيح لها القيام بدور المقاتلة الضاربة لقصف الاهداف الارضية .

وقد حلقت هذه الطائرة للمرة الاولى كنموذج تجريبي خلال عام ١٩٦٧ وبدأ انتاجها في اوائل عام ١٩٧١ ويعتقد انها دخلت الخدمة الفعلية بالسلاح الجوي السوفييتي في بداية عام ١٩٧٣ بكميات محدودة نسبيا . وهي تعد من طائرات الصف الاول في هذا السلاح .

« الميغ — ٢٥ » :

طائرة مقاتلة معترضة بمقعد واحد مزودة بمحركين نفاثين قوة كل منهما ١١٠٠٠ كلغ تقريبا في حالة استخدام الحراق الخلفي ، وتبلغ سرعتها القصوى التقريبية لفترة طيران قصيرة نحو ٣٣٨٠ كلم في الساعة (أي ٣٫٢ ماك) وذلك على ارتفاع ١٢٠٠٠ متر ، وأقصى سرعة متصلة لها على الارتفاع المذكور تقدر بنحو ٢٨٦٥ كلم في الساعة (اي ٢٫٧ ماك) ، اما سرعتها القصوى على ارتفاع ١٥٠٠ متر فقط فتقدر بنحو ١٥٧٠ كلم في الساعة (أي ١٫٤٣ ماك) ، ويصل مداها القتالي العادي نحو ١١٢٥ كلم (أي بدون خزانات وقود اضافية وبتسليح عادي للقتال الاعتراضي) ، وتستغرق للارتفاع الى ١٠٩٧٠ متر مدة ٢٫٥ دقيقة ، واقصى ارتفاع عملي لها هو ٢٤٣٨٥ مترا . ويقدر وزنها بحمولة عادية من الاسلحة الخاصة بالاعتراض الجوي نحو ٣٢٦٨٠ كلغ او ٣٤٩٥٠ كلغ .

ويعتقد ان الطائرة تسلح بأربعة صواريخ جو — جو ، ذلك لان هناك ٤ نقاط تعليق على الاجنحة لصواريخ جو — جو ولكن لا توجد معلومات عن نوع هذه الصواريخ ، كما يعتقد ان الطائرة مسلحة برشاشين عيار ٢٣ مم او ٣٠ مم موضوعان في فجوات الهواء بالجزء الامامي لمداخل الهواء على كلا الجناحين ، وفي حالة قيام الطائرة بمهـــــام الاستطلاع توضع اجهزة التصوير في امـــــاكن الرشاشات . وقد جاء في دراسة اسرائيلية نشرت عن « الميغ — ٢٥ » في مجلة « جيل خا أفير » ، أي سلاح الطيران ، في العدد ٨٦ الصادر في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧١ ، ان هذه الطائرة تسلح بأربعة صواريخ جو — جو توجه بالرادار يصل مدى عملها الى ٦٥ كلم وانها تستطيع ان تحمل ٢٣٠٠ كلغ من القنابل او القذائف الصاروخية في حالة استخدامها للقصف الارضي ، وانها مزودة برادار بحث ومراقبة نيران مداه ٨٠ كلم ، وانها ذات كفاءة مثالية في القتال الاعتراضي عـــــلى الارتفاعات التي تزيد عن ١٨٠٠٠ متر وبسرعة تبلغ ٢٫٨ ماك .

تلك هي أبرز الخصائص التقنية لطائرتي « الميغ — ٢٣ » و « الميغ — ٢٥ » ويتضح منها ان كل من الطائرتين مهمتها الرئيسية هي الاعتراض الجوي واحراز التفوق في القتال ، وان دور القصـــف الارضي هو دور ثانوي ، كما ان قدرات الاستطلاع الجوي ليست هي الهدف الاساسي لطائرة « الميغ — ٢٥ » التي تعتبر مقاتلة معترضة مخصصة لجابهة الطائرات التي تطير على ارتفاعات كبيرة وبسرعات عالية ، على حين ان « الميغ — ٢٣ » مخصصة لمجابهة الطائرات التي تطير على ارتفاعات متوسطة واكثر قدرة في الغالب على المناورة في مثل هذه الارتفاعات ، وبطبيعة الحال فان كل من الطائرتين تعدان من المقاتلات الثقيلة ذات المعدات الالكترونية الاكثر تعقيدا وتطورا من «الميغ — ٢١» التي تعتبر مقاتلة خفيفة ذات كفاءة مناورة عالية وقدرات قتالية ممتازة في ظروف معينة وضد الانواع العادية من الطائرات ، وينبع هذا من ان العقيدة التكتيكية السوفييتية لا تميل الى تصميم واستخدام طائرة تجمع كل القدرات من قتال اعتراضي ومطاردة وقصف ارضي واستطلاع كما سارت سياسة تصميم وانتاج الطائرات الامريكية في الخمسينات والستينات وكانت قمتها هي « الفانتوم » المعقدة التصميم المرتفعة التكلفة والتي أسفرت خبرات استخدامها الرئيسي في حرب فيتنام عن ثبوت عدم اقتصادية مثل هذا الاستخدام كما سنورد عند حديثنا عن الطائرة الفانتوم .

طائرة « فانتوم ف — ٤ أي » :

مقاتلة قاذفة معترضة بمقعدين صالحة للقتال في جميع الاجواء (مثلها مثل طائرات الميغ ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥) مزودة بمحركين نفاثين قوة الواحد منهما ٨١٢٠ كلغ مع حراق خلفي ، وتبلغ سرعتها القصوى بدون خزانات وقود اضافية ١٤٦٤ كلم (أي ١٫٢ ماك) في الساعة على ارتفاع ٣٠٥ أمتار ، اما عـــلى ارتفاع ١٢١٩٠ مترا فتبلغ أقصى سرعة لها ٢٤١٤ كلم في الساعة (أي ٢٫٢٧ ماك) ، ويصل مدى عملها التكتيكي في القتال الاعتراضي ، الذي تتسلح فيه بأربع صواريخ جو — جو من طراز « سبارو ٣ » ، واربعة صواريخ جو — جو من طراز « سايد ويندر » ، الى ٢٢٥ كلم فقط لانها لا تحمل في هذه

الحالة اي خزان وقود اضافي ، أما في حالة حملها خزان اضافي سعة ٥٠٠ غالون فان مدى عملها المذكور يصل الى ٣١٥ كلم ، أما في حالة قيامها بمهمة قصف ارضي ، تحمل فيها ٤ قنابل زنة الواحدة ٤٥٠ كلغ واربعة صواريخ جو — جو و٣ خزانات وقود اضافي بها ١١١٦ غالونا ، وتطير خلالها على ارتفاعات عالية ومنخفضة وعالية فان مدى عملها يصل الى ١٠٥٦ كلم . ويبلغ وزنها عند الاقلاع وهي تحمل ٤ صواريخ «سبارو ٣» ٢١٥٠٠ كلغ ، وهي مسلحة بمدفع رشاش دوراني ذو ٦ مواسير عيار ٢٠ مم من طراز فولكان (الذي يبلغ معدل سرعة نيرانه ٦٠٠٠ طلقة في الدقيقة) وفي حالة قيامها بمهمة قتال اعتراضي يضم أقصى تسليح لها ٦ صواريخ « سبارو » أو ٤ صواريخ سبارو و ٤ صواريخ « سايد ويندر » ، اما اقصى حمولة لها من القنابل فتبلغ ٧٢٥٧ كلغ. وهي مزودة بعدد من الاجهزة الالكترونية المتطورة من رادارات وحاسبات الكترونية مختلفة تمكنها من القتال النهاري والليلي والقصف الجوي المحكم الخ ...

و « الفانتوم » هي أقصى تطور عملي وفعال بلغته طائرات جيل الستينات الامريكية القائمة على أساس صلاحيتها لكل المهام القتالية الدفاعية والهجومية ، ولكن خبرة حرب فيتنام اثبتت ان استخدام الطائرة المذكورة في مهام القتال الجوي هو أفضل استخدام يتلاءم مع قدرات الطائرة ، ذلك لانها في كل مرة كانت تقوم بمهام قصف جوي اضطرت لالقاء حمولتها من القنابل والخزانات الاضافية عند مهاجمتها بواسطة المقاتلات الفيتنامية من طراز « ميغ — ٢١ » (التي كثيرا ما كانت تقترب من تشكيلات الفانتوم لتجبرها على القاء حمولتها من القنابل ثم تفر منها ولا تشتبك معها في قتال جوي) ولذلك كانت مهام القصف الجوي الرئيسية يعهد بها في المراحل الاخيرة من الحرب المذكورة الى قاذفات القنابل « ب — ٥٢ » والقصف التكتيكي القريب كان يعهد به الى طائرات الهجوم « كورسير » على حين تقوم « الفانتوم » بالحراسة الجوية .

ومن الواضح ان « الميغ — ٢٣ » تتفوق على « الفانتوم » في السرعة القصوى على ارتفاع كبير (١٢ الف متر) اذ تبلغ سرعة الاولى ٢٤٤٦ كلم تقريبا والثانية ٢٤١٤ كلم ، مع ملاحظة ان « الميغ — ٢٣ » لها محرك واحد و « الفانتوم » لها محركين كما ان وزن «الميغ — ٢٣» أقل من وزن «الفانتوم» وكذلك مسطح جناحيها أصغر ، لذلك فان من المعتقد ان « الميغ — ٢٣ » ذات قدرات أفضل في المناورة من « الفانتوم » . كما يبدو ان كلا الطائرتين على درجة متقاربة للغاية بالنسبة للمعدات الالكترونية ، تبقى للفانتوم ميزة واحدة متمثلة في زيادة نسبة تسلحها بالصواريخ جو — جو بالقياس للميغ — ٢٣ (الاولى تستطيع ان تحمل ٦ صواريخ « سبارو » والثانية تحمل ٤ صواريخ) ولكن ذلك التسلح الاكبر عددا سيكون على حساب انخفاض سرعة الطائرة نسبيا بالقياس لسرعة «الميغ — ٢٣» التي تحمل حمولة أخف . ونظرا لشعور المسؤولين في السلاح الجوي الامريكي بتفوق الميغ — ٢٣ ، او على الاقل فقدان الفانتوم لتفوقها السابق على « الميغ — ٢١ » في القتال الجوي ، فقد عمدوا الى تصميم وانتاج طائرة مقاتلة متعددة المهام هي « غرومان ف — ١٤ أ توم كات » .

الطائرة « ف — ١٤ أ توم كات » :

تعد « التوم كات » من أحدث طائرات جيل السبعينات الامريكية ، اذ طارت لاول مرة في ١٩٧٠/١٢/٢١ ودخلت الخدمة العملية بسلاح البحرية الامريكية في اواخر ١٩٧٣ ، ومن المتوقع ان تحل محل « الفانتوم » خلال السنوات القليلة القادمة ، وهي بديل أحدث وأدق تصميما من الطائرة « ف ١١١ » ذات الاجنحة المتحركة التي فشلت في فيتنام ، وهي وان كانت ذات قدرات في الدعم التكتيكي القريب الا انها اساسا طائرة تفوق جوي واعتراض للطائرات التي تهدد السفن بصواريخ جو— سطح بعيدة المدى ، ولذلك روعي في تصميمها ان تكون قادرة على حمل واطلاق ٦ صواريخ ثقيلة جو — جو من طراز « فونيكس » الذي يزن الواحد منها ٣٨٠ كلغ ويستطيع ، نظريا، اصابة هدف طائر يبعد نحو ١٢٦ كلم من الطائرة التي أطلقته ووجهته بالرادار . (قالت مصادر البحرية الامريكية انه أمكن لهذا الصاروخ ان يصيب هدفا كان يطير بسرعة ١٥٩٠ كلم ، أي ١٠٥ ماك ، من مسافة ١٠٠ كلم في احدى الاختبارات) كما يقال ان الطائرة تستطيع ، من الناحية النظرية ، ان تطلق الصواريخ الستة

دفعة واحدة على ٦ أهداف مختلفة ، بيد ان هذه الميزة لا تزال بحاجة للتحقق منها والتأكد من صحتها . وقد روعي في تصميم الطائرات ان تكون ذات قدرة عالية على احراز التفوق الجوي في القتال القريب dog - fight الذي يعتمد على مناورات الالتفاف حول ذيل الطائرة المعادية ، وذلك على ضوء الدروس المستفادة من حرب فيتنام التي اثبتت خطورة الاعتماد المطلق على الاشتباك الجوي من بعيد بواسطة الصواريخ جو — جو (استطاعت الميغ ١٧ و ٢١ ان تسقط الفانتوم في مناورات القتال القريب بالرشاشات) ولهـذا فان تسليح « التوم كات » يتضمن ، مثل الانواع الاخيرة من الفانتوم ، الرشاش « فولكان » عيار ٢٠ مم السداسي السبطانات . وقد اختبرت قدرة « التوم كات » في احراز التفوق الجوي خلال اسلوب الاشتباك القريب مع طائرة « فانتوم » اثناء مناورة تجريبية جرت في شباط (فبراير) ١٩٧٣ بدأت بوضع تتمتع فيه الفانتوم منذ البداية بميزة الطيران خلف التوم كات الا ان الاخيرة استطاعت بعد ١٥ ثانية ان تغير الموقف والتفت حول مؤخرة الفانتوم. و « التوم كات » مزودة بمحركين نفاثين قوة الواحد منهما ٩٣٤٤ كلغ مع حراق خلفي ولها مقعـدان واجنحتها متحركة، وتبلغ سرعتها القصوى التقريبية على ارتفاع سطح البحر (وهي تحمل ٤ صواريخ « سبارو ») ١٤٧٠ كلم (أي ١٫٢ ماك) ، وتصل سرعتها القصوى بدون خزانات وقود اضافي او صواريخ جو — جو الى ٢٤٨٦ كلم في الساعة وذلك على ارتفاع ١٢١٩٠ مترا (أي انها متقاربة في السرعة مع سرعة الميغ — ٢٣ التقديرية في هذه الحالة والتي تبلغ ٢٤٤٦ كلم/ساعة) ، ويبلغ مدى القتال التكتيكي لهذه الطائرة (وهي مسلحة بأربع صواريخ « سبارو » وبدون خزانات وقود اضافي ومع توفر دقيقتين للقتال الجوي على ارتفاع ٣٠٥٠ مترا) ٧٢٥ كلم (لاتتوفر معلومات عن مدى الميغ ٢٣ في هذه الحالة وانما يقدر مداها القتالي مع خزانات وقود اضافي بنحو ١١٢٦ كلم ، ولذلك نعتقد ان مدى الميغ — ٢٣ في الحالة السابقة متقارب مع مدى « التوم كات » على الاغلب) .

وتزن « التوم كات » عند اقلاعها لمهام قتال اعتراضي وهي مسلحة بأربعة صواريخ « سبارو » ٢٤٩٤٨ كلغ (على حين تزن الميغ — ٢٣ وهي مسلحة بصاروخين « اناب » ١٣٦٠٨ كلغ فقط) وتبلغ مساحة جناحي « التوم كات » ٥٢٫٥ مترمربع (على حين تقدر مساحة اجنحة الميغ — ٢٣ بنحو ٣٩٫١٠ متر مربع) واذا ما وضعنا في اعتبارنا قوة المحركات ووزن الطائرة ومساحة الاجنحـــة بالنسبة لكل من « التوم كات » و « الميغ — ٢٣ » فانه يبدو لنا ان الاخيرة ذات قدرات تقنية أفضل في المناورة . (وهذا هو شأن المقاتلات السوفييتية عامة) وتسلح « التوم كات » ، بالاضافة للرشاش فولكان ، بأربعة صواريخ « سبارو » و٤ صواريخ « سايد ويندر » (ذات المدى القصير) أو ٦ صواريخ « فونيكس » وصاروخين « سايد ويندر » في حالة القتال الاعتراضي . وفي حالة قيامها بمهام قصف جوي تسلح بـ ١٤ قنبلة مارك ٨٢ و٨ قنابل مارك ٨٣ او ٤ قنابل مارك ٨٤ . و « التوم كات » مجهزة بعديد من أجهزة الرادار للملاحة الليلية وتوجيه الصواريخ وضبط النيران ورادار انذار بالدخول في نطاق رادار معادي والتأهب لاخـذ الموقف المناسب ، بالاضافة الى المعدات الالكترونية المعقدة الاخرى ، الامر الذي يرفع ثمنها الى أكثر من ١٧ مليون دولار (وتصل قيمتها مع قطع الغيار الى ٣٠ مليون دولار) .

وتقول المصادر الامريكية انها أجرت اختبارا عمليا اعترضت خلاله طائرة « توم كات » كانت تطير بسرعة ١٫٣ ماك نموذجا لطائرة «ميغ — ٢٥» كان يطير على ارتفاع ٢٥٠٠٠ متر بسرعة ٢٫٢ ماك واستطاعت ان تسقطه بصاروخ أطلق من مسافة ١٤٣٢٦ مترا (مجلة الطيران والبحرية الدولية عدد ٦ عام ١٩٧٤ ، صفحة ٧٠) ، وبطبيعة الحال فان هذه التجربة ، على فرض صحة بياناتها ، تؤكد قدرة « التوم كات » على التصدي « للميغ — ٢٥ » على ارتفاع كبير ، ولكنها لا تعني بالضرورة امكان ضمان تفوقها على الميغ — ٢٥ او الميغ — ٢٣ لان النماذج التي تطلق عليها الصواريخ مجرد نماذج صماء لا تملك قدرة المناورة او الرد على الطائرة التي تطلق عليها الصواريخ . ولهذا فنحن نعتقد ان « التوم كات » متقاربة القدرات مع « الميغ — ٢٣ » وخطورتها الاساسية هي في قدرة اسلحتها البعيدة المدى والكثرة النسبية لاسلحتها الصاروخية جو — جو عموما ، أما بالنسبة للميغ — ٢٥ فانه من الواضح انها متفوقة على « التوم كات » في

السرعة والارتفاع ، اما القدرة على المناورة فغير معروفة بوضوح ، خاصة وان الطائرتين متماثلتين تقريبا في الوزن (التوم كات تزن ٢٤٩٤٨ كلغ في القتال الاعتراضي وهي مسلحة بأربعة صواريخ «سبارو» و« الميغ — ٢٥ » تزن في هذه الحالة نحو ٢٤٩٥٠ كلغ على الاكثر) .

الطائرة « ف — ١٥ ايغل » :

صممت لمواجهة « الميغ — ٢٥ » أساسا وهي لا تزال في مرحلة الاختبار وانتجت منها ٢٠ طائرة فقط ، وهي مقاتلة بمقعد واحد لاحراز التفوق الجوي ، مزودة بمحركين نفاثين قوة الواحد ١٢٢٤٧ كلغ ، وتبلغ اقصى سرعة تقريبية لها لفترة طيران قصيرة ٢٦٥٥ كلم في الساعة (اي ٢٥٠ ماك) على ارتفاع ١٠٩٧٥ مترا ، واقصى سرعة مستمرة لها على هذا الارتفاع ٢٤٤٦ كلم/ساعة (اي ٢٣٠ ماك) ، أما على ارتفاع ٣٠٥ امتار فتقدر أقصى سرعة لها بنحو ١٤٧٠ كلم/ساعة (أي ١٢٢ ماك). وتزن عند اقلاعها في مهمة اعتراض جوي نحو ١٨١٤٤ كلغ وهي مسلحة بمدفع « فولكان » عيار ٢٠ مم وسيجري استبداله بمدفع من طراز « فيلكو — فورد » عيار ٢٥ مم ، الذي يستخدم طلقات ليس لها فوارغ ، بالاضافة لاربعة صواريخ « سبارو » وأربعة « سايد ويندر ». ويقال ان لها قدرة صعود عمودي بسرعة تفوق الصوت ، وانها تستطيع ان تزيد سرعتها في حالة الطيران من أقل من سرعة الصوت الى سرعة ١٦٥ ماك (أي ١٥٩٠ كلم) في مدة تقل عن دقيقة واحدة ، وينتظر ان تدخل خدمة السلاح الجوي الامريكي في ١٩٧٥ ومن المعتقد انها ستكون طائرة الصف الاول الامريكية في مجال طائرات التفوق الجوي حتى عام ١٩٨٥ ، وينوي السلاح الجوي الامريكي شراء ٧٢٩ طائرة منها في ميزانيات ١٩٧٤ — ١٩٧٧ .

ومن الواضح ان « الميغ — ٢٥ » تتفوق على « ف — ١٥ » في السرعة القصوى في جميع الحالات (الميغ — ٢٥ سرعتها القصوى لفترة قصيرة ٣٣٨٠ كلم مقابل ٢٦٥٥ كلم للايغل ، ٢٨٦٥ كلم في السرعة المتصلة مقابل ٢٤٤٦ كلم للايغل ، ١٥٧٠ كلم للسرعة على ارتفاع ١٥٠٠ متر مقابل ١٤٧٠ كلم على ارتفاع ٣٠٥ امتار للايغل) ، ومن الصعب معرفة الفروق في قدرات المناورة التكتيكية ، وان كان من الواضح ان وزن « الميغ — ٢٥ » يزيد عن وزن « الايغل » (٢٤٩٥٠ كلغ مقابل ١٨١٤٤ كلغ) . ويبدو ان تصميم كل من الطائرتين يختلف من حيث الغرض ، فالميغ — ٢٥ مقاتلة معترضة للاجواء العالية وطائرة استطلاع و « الايغل » مقاتلة تفوق جوي .

والخلاصة اننا نعتقد ان « الميغ — ٢٣ » تفوق في قدراتها الاعتراضية « الفانتوم » ويمكنها ان تواجه تحدي «التوم كات» (وان كان ذلك يتطلب على الاغلب درجة أكبر من المهارة المطلوبة في حالة التصدي للفانتوم) الا انها أقل قدرة على مواجهة « الايغل » وان كان هذا لا يعني انها ستكون عاجزة امامها ، وعموما فان نتائج المعارك الجوية لا تتوقف فقط على القدرات التقنية والتكتيكية للطائرات المتجابهة ، وانما تعتمد في جوهرها على كفاءة التدريب الفردي والجماعي والتنظيم القتالي الذي تجري به المعركة وكفاءة محطات المتابعة الارضية وشجاعة الطيارين وقدرة قيادتهم .

محمود عزمي

[٢]

ردود الفعل الاردنية تجاه بيان مؤتمر القاهرة الثلاثي

[أ]

بقدر ما تعود سياسات الحكم الاردني الفلسطينية عليه بدعم مادي وسياسي من قبل الامبريالية ، قادته هذه السياسات طوال فترة السنوات الماضية ، الى قطيعة عربية شاملة على المستوى الشعبي وجزئية على المستوى الرسمي . وباعتبار ان مصر اولا وسوريه ثانيا ، هما مفتاح علاقات الاردن العربية ، فانه يمكن القول بأن الحكم الاردني عاش طوال فترة ما بعد مجازر الاحراج والاغوار عام ١٩٧١ ، ضمن دائرة شبه كاملة من القطيعة العربية . ولم تشهد علاقاته أي تحسن ملموس الا في أعقاب مؤتمر القمة الثلاثي الذي عقد في القاهرة عشية حرب تشرين الاول . غير ان احجام الحكم الاردني عن المساهمة الجدية في الحرب ، قطع أيام الانفراج المحدودة في علاقاته العربية ، واعاده مرة اخرى الى اجواء العزلة الحقيقية . وكان شاهدا على ذلك الفوز السياسي الكبير الذي حققته منظمة التحرير الفلسطينية في مؤتمر قمة الجزائر ، وردود الفعل والمواقف الانفعالية التي صدرت في عمان ، ازاء اصدار مؤتمر القمة قراره باعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني .

وفي فترة لاحقة استطاع الحكم الاردني أن يتجاوز جزئيا نطاق عزلته العربية ، من خلال الاجتماع الذي عقده الملك حسين والرئيس السادات بالاسكندرية في شهر تموز (يوليه) الماضي ، والذي صدر بنتيجته البيان الشهير ، حيث يتم بموجبه تقسيم تمثيل الشعب الفلسطيني بين المنظمة والحكم الاردني .

بصدور بيان الاسكندرية ذلك ، اكتسب النظام الاردني تغطية عربية خولته السعي بدأب لتحقيق ذلك الارتباط على الجبهة الاردنية ، غير انه لم يتمكن ، لاسباب متعددة ، من تحقيق غايته هذه .

من ناحية اخرى بذلت منظمة التحرير الفلسطينية من جانبها جهودا سياسية متواصلة ، على الصعيدين العربي والدولي ، لتعديل الموقف المصري من مسألة التمثيل الفلسطيني . واستطاعت المنظمة تحقيق ذلك مؤخرا في الاجتماع الثلاثي ، الذي عقد في القاهرة في ٢٠ و٢١ ايلول (سبتمبر) الماضي ، وحضره وزيرا خارجية كل من مصر وسوريا ورئيس الدائرة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية .

ردود الفعل الرسمية

ازاء صدور بيان القاهرة المثلث الاطراف ، شهدت العاصمة الاردنية ردود فعل عنيفة ، عبرت عن نفسها بمجموعة من المواقف الرسمية وشبه الرسمية . ودخل الحكم بنتيجة ذلك مرة اخرى في اجواء العزلة الرسمية العربية .

ففي اليوم التالي على صدور بيان القاهرة ، جاءت ردة الفعل الاردنية ، عبر بيان حكومي مسهب ومليء بالمرارة ، يعلن عن اتخاذ الحكم الاردني لقرار تجميد نشاطاته السياسية وتحركاته المنبثقة عن قبوله مؤتمر جنيف وقراري مجلس الامن الدولي رقم ٢٤٢ ، ٣٣٨ . فبعد ان أعلن البيان قرار الحكومة الاردنية ذلك ، ذكر ان الملك حسين أبلغ قرار تجميد تحركه هذا ، الى سفيري الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، وان « قرار التجميد يأتي كخطوة مرحلية حتى يتم لقاء القمة العربي المقبل المقرر عقده في المملكة المغربية » . واعتبر البيان ان ما تضمنه بيان القاهرة « قرارات خطيرة لا يملك ازاءها الا ان يتخذ موقفه المذكور » . واضاف ان الاردن ينتظر انعقاد القمة العربية « ليقرر مسبقا ان تبني المؤتمر للبيان المذكور سيعني اعفاءه من كل مسؤولية سياسية وعلاقة مباشرة خاصة بالقضية » . وحمل البيان بعد ذلك « هذا القرار ونتائجه والتبعات المترتبة عليه مجموع الدول العربية الشقيقة كافة » . وفي الختام ذكّر البيان بموقف الاردن « النضالي » الذي ظل يصر على ضرورة استعادة الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ وعودة السيادة العربية على القدس ، « ومن ثم تمكين الشعب الفلسطيني وتحت اشراف دولي محايد من ممارسة حقه الكامل في تقرير مصيره ». (جريدة الرأي الاردنية ، ١٩٧٤/٩/٢٣) .

ومن الجدير بالذكر ان وزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام كان قد وصل الى عمان يوم صدور

البيان الثلاثي في ١٩٧٤/٩/٢٢ . واثر مغادرته لعمان في اليوم نفسه ، اصدرت الحكومة الاردنية بيانا آخر اعتذرت فيه عن قبول الدعوة التي حملها خدام لحضور « مؤتمر تنسيق رباعي يضم كلا من مصر وسورية والاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية». وجاء في بيان الحكومة الاردنية ، ان هذا الرفض يأتي نتيجة « للظروف التي نشأت عما سمي بمؤتمر التنسيق الثلاثي ... والبيان المشترك الصادر عنه » (**الرأي** ، المصدر نفسه) .

لم تتوقف ردود الفعل الاردنية عند هذين البيانين الرسميين ، فتوالت ردود شبه رسمية من مختلف المؤسسات الرسمية ، وأبرزها مجلسي « الاعيان والنواب » . فقد ذكرت جريدة الرأي شبه الرسمية ان مجلس النواب الاردني سيعقد قبل ظهر يوم ٩/٢٤ اجتماعا « غير عادي » بدعوة من رئيسه كامل عريقات . وقالت انه سيتم في هذا الاجتماع « استعراض التطورات الاخيرة التي نشأت في أعقاب المقررات التي تضمنها البيان الذي صدر عن مؤتمر التنسيق الثلاثي ... وقرار الحكومة الاردنية بتجميد نشاطاتها وتحركاتها السياسية المتعلقة بمؤتمر جنيف وقراري مجلس الامن ردا على المقررات المذكورة. وأضافت « الرأي » انه في اليوم السابق — ٩/٢٣ — كان عدد من الاعيان والنواب قد عقدوا اجتماعا تدارسوا خلاله النتائج التي « ستترتب على مقررات مؤتمر التنسيق المذكور ورد الحكومة الاردنية على هذه القرارات » . وذكرت الصحيفة ان الدكتور سامي جوده عضو مجلس « النواب » عن لواء رام الله ، قد بعث ببرقية الى الملك حسين « أعرب فيها عن استنكاره لقرارات القاهرة التي جاءت للتفريق وطعنة في ظهر كل عربي في ضفتي المملكة ». ونقلت على لسانه انه قد أعرب عن «تأييده لمواقف الحسين وسياساته المعلنة » ، وعن « استنكاره للاساليب التي أتبعت في اجتماع القاهرة لابعاد الاردن عن المسرح السياسي وحرمان أصحاب الحق الشرعي والدولي من الدفاع عن جزء لا يتجزأ من المملكة بضفتيها اللتين يجمعهما الهدف الواحد والمصلحة الواحدة بدستور نموذجي عال » . وأكد في برقيته للملك ان الفلسطينيين « المتواجدين في الاردن لا يقبلون غير جلالة الحسين ممثلا لقضيتهم والدفاع عنها في جميع المحافل الدولية والعربية ، قناعة وايمانا منهم وعن تجربة بمواقف الحسين » (**الرأي** ، ١٩٧٤/٩/٢٤).

الى جانب ذلك أصدر من يسمون أنفسهم بنواب الضفة الغربية بيانا آخر جاء فيه وصف لبيان الاسكندرية الذي صدر عن اجتماع السادات — حسين ، بانه كان قد « وضع الامور في نصابها » ، الا ان بيان القاهرة الثلاثي « عاد فاتبع الاساليب المألوفة في رفع الشعارات والابتعاد عن الحقيقة والجوهر والمضمون » . وبالنظر لما تضمنه بيان القاهرة الثلاثي من « خطر » ، فقد توجه نواب الضفة الى الامة العربية مهيبين بها ان « تتدارك الاخطاء » . وبعد ذلك أعلنوا وقوفهم وراء الملك ومساندتهم لحكومته . (جريدة **الدستور** الاردنية ، ١٩٧٤/٩/٢٥) .

ومرة اخرى لم تتوقف ردود الفعل الاردنية ذات الطابع الانفعالي عند هذه الحدود . اذ قرر مجلس « النواب » الاردني في قرار دراماتيكي آخر ، الغاء سفر وفده الى مؤتمر البرلمانيين الذي كان من المقرر عقده في العاصمة اليابانية في ذلك التاريخ ، وذلك « نتيجة للبيان الثلاثي » كما ذكر كامل عريقات في برقيته الى رئيس الحكومة ، والمتضمنة نص القرار ذلك . (**الرأي** ، ١٩٧٤/٩/٢٥) .

بعد ذلك ، اخذت الصحف الاردنية من جانبها ، تعبر من خلال اخبارها وتعليقاتها الرئيسية عن ردود الفعل الحقيقية للنظام . فذكرت جريدة اللواء الاسبوعية ، فيما بدا انه خبر للتهويش وجس النبض ، ان اتصالات مكثفة تجري في « هذه » الايام بين عدد من الشخصيات الفلسطينية ، تمهيدا لاتخاذ خطوات هامة ردا على بيان القاهرة الثلاثي. واضافت ان عددا من « شخصيات » الضفة الغربية سيتوافدون خلال الايام المقبلة على عمان ، « وستتم خطوات تمهيدية لعقد اجتماع شعبي كبير في عمان يضم ابناء الضفتين من المملكة للبحث في ابعاد بيان المؤتمر الثلاثي » . وقالت الصحيفة نقلا عما أسمته مصادر حسنة الاطلاع ، ان عددا من الشخصيات الفلسطينية المقيمة في البلاد العربية « استدعي للمشاركة في هذا الاجتماع وخاصة الشخصيات التي تقيم في بيروت ودمشق ومصر » . وذكرت « اللواء » كذلك ان الشخصيات الفلسطينية المقيمة في الضفة الغربية، « تجري حاليا مشاورات موسعة لاصدار بيان تمهيدي يتعلق ببيان المؤتمر الثلاثي التنسيقي ، وسيكون هذا البيان من

الخطوات التمهيدية للاجتماع الشعبي الذي سيتم عقده في عمان في وقت قريب » (جريدة **اللـــواء** الاردنية ١٩٧٤/٩/٢٥) .

وفي نبأ آخر ذكرت « اللواء » ان الجهـــات المسؤولة في الحكم الاردني « تدرس بعناية فائقة الموقف الذي يجب ان يتخذه الاردن » ازاء الزيارة المقررة لوزير الخارجية الاميركي للمنطقة في ٩/١٠/١٩٧٤ . وقالت ان « البعض يرى عدم تشجيع مثل هذه الزيارة انطلاقا من قرار تجميد جميع نشاطات الاردن المتعلقة بالتسوية السلمية ... في حين يرى البعض الاخر ان تجميد النشاطات لا يعني الانعزال، وبالتالي فان زيارة كيسنجر للاردن تتيح للمسؤولين التعرف على ما قد يطرأ من تطورات على مدائن كل من تل ابيب والقاهرة ودمشـــق » (**اللواء** ، المصدر نفسه) .

ردود الفعل الصحافية

بالنظر الى السيطرة الحكومية على الصـــحف الاردنية ، فان رصد ومتابعة ما جاء فيها حول البيان الثلاثي ، يعتبر ملاحقة لتفاصيل المـــوقف الاردني ، وتسجيلا لخلجات وانفعالات الرسميين ، على مختلف نزعاتهم .

فقد وصفت جريدة الراي اليومية شبه الرسمية بيان القاهرة الثلاثي ، بأنه موجه « لنسف القاعدة التي يتحرك الاردن منها» ، وجعل التحرك السياسي هذا « غير ذي موضوع » . (**الرأي** ، ٩/٢٣/ ١٩٧٤) . أما صحيفة الدستور فقد قالت ان البيان الثلاثي « نقض مجموعة من الاتفاقات السابقة » وانه قد « أخرج الاردن فعلا من اطار المبـــادرة السياسية ولم يترك له دورا يمارسه » . وطالبت الدول العربية بالسعي لايجاد « حل وسط يحقق جميع المصالح للفرقاء » . (**الدستور** ، ٩/٢٣/ ١٩٧٤) .

في اليوم التالي ، وبعد ان فرغت صحيفتا الاردن اليوميتان الرئيسيتان من شرح الخطوة الاردنية ازاء بيان القاهرة ، انبرت للرد على ما جاء من نقد لخطوة الاردن تلك في صحيفة الاهرام القاهرية . فقالت « الرأي » تحت عنوان « اعلام ما قبـــل ١٩٦٧ » ، ان صحيفة الاهرام « أخذت في التراجع الى الاسلوب الاعلامي السابق » على حرب تشرين الاول ، ثم أبدت تعجبها من « دهشة » الاهرام للخطوة الاردنية وقالت : ان الذي يثير الدهشة هو « عملية الزوغان » من بيان الاسكندرية « قبل ان يجف مداده » . وقالت ايضا ان الاهرام قـــد تعلم شيئا عن تلك « الاتفاقية الخاصة التي تتعلق بالتفصيلات » والموقعة بين زيد الرفاعي واسماعيل فهمي ، وان « مضمون هذه الاتفاقية سيكشف في الوقت المناسب حين يفرض على الاردن هـــذا الكشف » (**الرأي** ، ١٩٧٤/٩/٢٤). أما صحيفة الدستور فقد أبدت أسفها لسلسلة « المغالطـــات والتشويه » التي وقعت فيها الاهرام وهي تناقش الخطوة الاردنية . وتساءلت : كيف يمكن قبـــول بيان القاهرة الثلاثي وقد « نسف الاتفاق الاردني — المصري » وجرد الاردن من « كافة المسؤوليات » ؟. وذكرت « الدستور » كذلك ، ان البيان الثلاثي يشكل تراجعا عن « الاتفاق السري » الذي اشارت اليه جريدة الرأي . (**الدستور** ، ١٩٧٤/٩/٢٤).

ومن الملاحظ ان تعليقات الصحيفتين الاردنيتين الرئيسيتين ، قد تناولت في يومين متتاليين — كل على حدة — شرح الخطوة الاردنية ازاء البيان الثلاثي ، والتهويل بالخطر الناجم عن ذلك ، ثم استنكارها لما ورد في بيان القاهرة وما اعتبر نسفا لقاعدة الموقف السياســي الاردني . ثم تناولت الصحيفتان في اليوم التالي موقف الاهرام الانتقادي من تجميد الاردن لتحركه السياسي ، وذكرتا باعلام ما قبل حرب تشرين ، وأصرتا على وجود اتفـــاق سري بين مصر والاردن ، وان بيان القـــاهرة قد تجاوز ذلك .

ومن الملاحظ كذلك ، توقف الحملة الرسمية والصحافية الاردنية حول بيان القاهرة بعد يومين من بدئها . وهي أمور كلها تشير الى رغبة رسمية أردنية في عدم قطع الحوار مع القاهرة ، تحسبا من خطورة أجواء العزلة والقطيعة العربية الخانقة. وحتى عندما عادت « الرأي » الى التعليق على خطاب الرئيس السادات الذي القاه في الذكرى الرابعة لوفاة الرئيس الراحل عبد الناصر، خصت بالتركيز ما جاء في خطاب السادات حول التضامن العربي . وقالت ان عبد الناصر ضحى بحياته من أجل الوحدة العربية ، « وكانت آخر وصية له هي التشديد على توحيد الجهد العربي » لمواجهة العدو . واضافت : لعل الرئيس السادات ، وهو رئيس الدولة المعنية بأزمة المنطقة « يدرك الاهمية

الخاصة لضرورة التضامن العربي وتوحيد جهود الامة العربية في صف واحد لمواجهة متطلبات المرحلة القادمة بوعي ووضوح تامين ، وضمان التنسيق الكامل بين الاطراف العربية تجاه سائر القضايا ، وعلى الصعيدين الدولي والقومي » . وتابعت الصحيفة الاردنية تركيزها على الجانب الوحدوي من خطاب السادات قائلة : « ولم تكن اشادة السادات الصريحة بمواقف الاشقاء العرب الذين هبوا في حرب تشرين ، ومدوا يد العون بالرجال والمال ودفعوا بها الى ساحات المعارك ، وكذلك استعمال سلاح النفط بحكمة من قبل الدول المنتجة له ... وليس هذا الا دلالات واضحة على ما لتوحيد جهود الامة من اثر في المعركة ودور في احراز النصر » . وانتقلت « الرأي » الى موضوع آخر من خطاب السادات ، وهو موضوع تحرير الارض، واهملت ما جاء فيه عن عودة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ، فقالت ان موضوع تحرير الارض يتقدم على سائر المواضيع « وليس هناك ما هو أكثر أهمية من هذا الموضوع » ، وتقصد بذلك موضوع التمثيل الفلسطيني . وختمت « الرأي » تعليقها على خطاب السادات بالقول : « ان هدف أمتنا في هذه المرحلة هو تحرير الارض وتأمين انسحاب اسرائيل عن جميع الاراضي العربيـــة المحتلة .. وان كل جهد يجب ان يكرس في هذا الاتجاه ومن أجل تحقيق هذه الغاية » . ونسيت صحيفة الحكم الاردني شبه الرسمية ان عودة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ، الى جانب تحرير الارض ، هما الهدفان المعلنان لحرب تشرين، وان الامة العربية قد قاتلت من أجل تحقيق هذين الهدفين المعلنين ، بينما تخلف الحكم الاردني عن المشاركة من أجل ذلك. أما وصفها لموضوع التمثيل الفلسطيني بأنه يثير « نقاشا » و « خلافا » بين الاشقاء وبالتالي يجب ان يؤجل « الى مراحل قادمة » ، فليس ذلك الامن قبيل وضع اليد على الارض الفلسطينية ، وبالتالي اعادة مصـــــادرة الحقوق الوطنية الشرعية للشعب الفلسطيني .

[ب]

بقي الحكم الاردني على موقفه المعلن ، غــداة صدور البيان الثلاثي المشترك ، وحتى عشية انعقاد مؤتمر القمة العربي السابع في الرباط ، حيــث اعاد الحكم طرح كافة مفاهيمه السابقة حول «حقه» في تمثيل جانب من الشعب الفلسطيني ، و «حقه» في التفاوض على الضفة الغربية ... الخ .

ظل هذا الطرح قائما داخل مؤتمر الرباط من قبل الوفد الاردني الى المؤتمر ، ومن خلال كافة وسائل الاعلام الاردنية خارج المؤتمر . ونورد هنا جزءا من الخطاب الـــذي القاه الملــك حسين في اجتماعات قمة الرباط ، للدلالة على مدى تعلــق الحكم الاردني بطرحه الســـابق وتشبثه بموقعه التفاوضي على مستقبل الضفة الغربية . فقد قال: لا نستطيـــع « التسليم بان منظمـــة التحريــــر الفلسطينية تمثل جموع الفلسطينيين الذين تواجدوا في المملكة الاردنية الهاشمية واصبحوا من مواطني الدولة وجزءا كبيرا من شعبها في الضفتين وحملـــوا جنسيتها واندمجوا اندماجا عضويا في كل مناحـــي الحياة ودوائرها وميادينها ومؤسساتها . لا نستطيع ان نقبل ان حكومة هؤلاء المواطنين لا تمثلهـــم ولا تنطق باسمهم ولا تتولى قضيتهم ولا تتبنى امالهـــم وامانيهم ، وانما تقوم بكل ذلك ومن فوق سلطـــة الدولة وحقها ، منظمة التحرير الفلسطينية ... اننا نريد ان نسأل عن الدوافع والاسباب التـــي اوجدت فكرة ان تكون منظمة التحرير الفلسطينيـــة هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني؟... وما هي الغاية من طرح هذه الصيغة خصوصا بعد ان اعترف الاردن مع غيره من الاشقـــاء بمنظمـــة التحرير ممثلا شرعيا للشعب الفلسطيني ولكـــن ليس الممثل الوحيـــد للشعـــب الفلسطيني ! » . واضاف الملك ما اعتبر بيت القصيد في خطابـــه : « لئن كان الاخوة العرب في هذا المؤتمر العالمـــي يرون ان المملكة الاردنية الهاشمية ليست لها صفة شرعية التكلم باسم الفلسطينيين الذين يعيشـــون في كنفها ويحملون جنسيتها والذين أصبحوا جزءا من مؤسساتها ، ولا الدفاع عن حق هذا الشعب ولا مسؤولية العمل لاستعادة ارضه المغتصبة ورفع الاحتلال عنه وازالة العدوان . واذا كانوا يرون

ان هذه الصفة الشرعية منحصرة في منظمة التحرير الفلسطينية وحدها ، فانني باسم المملكة الاردنية الهاشمية احملهم وحدهم مسؤولية رايهم وقرارهم وكل النتائج المترتبة عليه ، واعتبره اعفاء لنا من مسؤولياتنا السياسية الاساسية الراهنة ، ونترك الحكم على هذا القرار ان صدر للتاريخ ... عندها ايها الاخوة يصبح من المحتم علينا ان ننسحب من الاشتراك بمؤتمر جنيف ومن كل عمل او نشاط دبلوماسي او دولي دخلنا فيه » (صحيفتا الرأي والاقصى الاردنيتان ١٩٧٤/١٠/٣٠) .

ولدى صدور قرارات قمة الرباط على عكس ما اشتهى وعمل النظام الاردني ، كان اول رد فعل رسمي له ، وضع تهديداته موضع التنفيذ ، حيث صرح « مصدر اردني مسؤول » في الوفد الاردني بالرباط بان الاردن « لن يشترك في محادثات جنيف القادمة الخاصة بالشرق الاوسط بعد ان نقل مؤتمر القمة العربي مسؤولية الضفة الغربية الى منظمة التحرير الفلسطينية بعد تحريرها » (الرأي ٣٠/ ١٩٧٤/١٠) .

اعذر من انذر

ان الحجة التي ارتكز عليها الحكم الاردني في مطالباته بالتفاوض على مستقبل الضفة الغربية ، هو ان اسرائيل لن تتنازل عن الضفة لصالح منظمة التحرير ، وبالتالي فان توصية مؤتمر الرباط حول التمثيل الفلسطيني سوف تكون عقبة حقيقية في وجه استعادة الارض .

كان هذا هو فحوى المناقشات الاردنية خلال جلسات قمة الرباط ، وكان هذا ايضا هو ملخص ما حملته الصحف الاردنية من تعليقات وافتتاحيات حول قرارات المؤتمر . واوضحت الصحف هذه في سائر تعليقاتها ان الموقف الاردني في مؤتمر الرباط جاء حرصا على وحدة التضامن والصف العربي وليس عن قناعة بحق منظمة التحرير الفلسطينية بتمثيل الشعب الفلسطيني كطرف وحيد . فقالت صحيفة الرأي في افتتاحيتها الرئيسية الصادرة غداة صدور قرارات قمة الرباط ، ان الملك حسين عرض « ما يؤمن بانه الحق ، وانه العدل ، وانه الصحيح ، وترك اتخاذ القرار الى الاشقاء العرب ليقولوا ما يرون وما يشاؤون ... وسيبقى الحكم — كما قال الحسين نفسه — للتاريخ والاجيال » (الرأي ٧٤/١٠/٣٠) .

ووردت صحيفة الاقصى عبارة « الحكم للتاريخ وحده » عبر افتتاحيتها الرئيسية التي ذكرت فيها ان الملك حسين بسط امام مؤتمر الملوك والرؤساء المشاكل « ووضع لها الحلول المناسبة ونصح باتباع الطرق المثلى والموصلة الى الاهداف التي يسعى العرب لتحقيقها ، والتي يفوتون فيها ان سلكوها الفرص على الاعداء ويحولون دون تمكينهم من تحقيق مكاسب جديدة على حساب الخلافات العربية » (الاقصى ٧٤/١٠/٣٠) .

وعادت « الرأي » في اليوم التالي مكررة التحذير من نتيجة قرارات قمة الرباط بقولها : « ونحن لا نحب ان نناقش قرارات القادة العرب ، فالتاريخ وحده هو الحكم الفصل عن مكانها من الخطأ او الصواب ، ولكننا نحب ان نقرر حقيقة تاريخية لا يخالفنا فيها احد ، وهي ان وحدة اي شعب او انفراط صفه لا يكون بالقرارات وانما يكون بارادة افراد هذا الشعب الذي له ان يثبت هذه الوحدة او يرضى بالانفصال » . وختمت الصحيفة شبه الرسمية تعليقها بمرارة واضحة : بالرجاء ان « لا يكتب التاريخ على قادتنا ان اجماعهم لم يتم الا على فصم وحدتنا ! انها لحظات تهز المشاعر ، وتلون الرؤيا بضباب الدمع ، غير انه مما يهدهد النفس ان الحسين الذي لم يتخلف يوما عن الوفاء بالوعد ، قد اعطى العهد ان يبقى كما كان دائما ، معنا ، ولنا ، هنا (الضفة الشرقية) ، وهناك (الضفة الغربية) ، في سويداء القلب واعماق الضمير » (الرأي ٧٤/١٠/٣١) .

اما صحيفة اللواء الاسبوعية فقد استفاضت من جانبها بالتعبير عن مشاعر عدم الارتياح لقرارات قمة الرباط ، وبرزت بين سواها من الصحف الاردنية بالتشكيك بجدوى قرارات المؤتمر وبحكمتها. فتحت عنوان « غياب العقل » نشرت تعليقا وضعته بامضاء « مصدر فلسطيني كبير » اوردت فيه اشد عبارات النقد والامتعاض لقرارات الرباط قائلة : « ان غياب العقل عن معالجة هذه القضية ، سيعرضها لكارثة افدح من كارثة ١٩٤٨ ونزوح مليون ونصف المليون لاجىء الى خارج وطنهم » واضافت الصحيفة : « ان حملة المزايدات الكلامية وغياب المنطق في النكبة الاولى ، التي

حولها غباء السياسيين الى مادة دسمة لاطــلاق تصريحاتهم وخطبهم من فوق المنابر في الوقت الذي كان فيه اصحــاب الارض يكتوون بنار الاحتــلال والتشرد » . واضافت ان « المقارنة بين الوضــع قبل نكبة ٤٨ وما يحدث الان ، نلمس بوضـوح ان المزايدات السياسية واللعب بالعواطف لا زالــت تتحكم بمن ولتهم الامة مقاديرها » . وأضــافت الصحيفة على لسان « المصدر الفلسطيني الكبير »، ان الذين « يحاولون تقرير مصير الوحدة في الاردن لا يعلمون شيئا عن مدى الاندماج والتلاحم بــين ضفتي البلاد منذ النكبة الاولى » . وحــذرت من الخطوات التي تستتبع قرارات الرباط — وهي مــا اقدم عليها الحكم فيما بعد — بقولها : « ان عملية الفصل تعني اعادة النظر في جميع مؤسسات البلاد بما فيها الجيش والامن والادارة المدنية على جميع المستويات » . ووصفت نتيجة ذلك — أي طرد العاملين الفلسطينيين في الدولــة مــن وظائفهم واعمالهم — بــ « كارثة تهون امامها كل ما لحقنا من كوارث » . واختتمت اللواء تعليقها باستنكــار المصدر الفلسطيني « الكبير » ، ان يكون « قيام كيان فلسطيني هو الحل للقضية » ، ووصفت قيامه بنكبة للشعب الفلسطيني « فاقت كل نكباته الاخرى» (جريدة اللواء الاسبوعية ٧٤/١٠/٣٠) .

« مبروك » ووداعا ايها الفلسطينيون

على عكس ما كتبته « اللواء » تحت امضاء « مصدر فلسطيني كبير »، نشرت على صدر صفحتها الاولى تعليقين آخرين، الاول تحت عنوان «مبروك»، والثاني تحت عنوان « رسالة وداع » رحبت من خلالهما مع التحفظ بقرارات قمــة الرباط . ففي تعليقها الاول قالت الصحيفة : « من أعماق قلوبنا، نقولها لاهلنا واخواننا الفلسطينيين : مبروك والف مبروك . فقد حقق لهم العرب احدى الاماني القومية المشروعة : بأن يكون لهم وطن وأرض ، مثلهم مثل أي شعب آخر على وجه الارض . ومن الاعماق نقول لهم ألف مبروك ، اذ آن الاوان ، لان يجلس المحارب ، ليمسح على جروحه ، وينظر في حساب الربح والخسارة » . وبعد اعتراف الصحيفة بصحة تطلع الفلسطينيين الى وطنهم وكيانهم الخاص بهم، وبعد اعترافها بتضحيات الفلسطينيين من أجل ذلك، تحفزت على الفور لتسجل باسم التاريخ « لبعض قادة وزعماء العرب صفحات تروي قصة اقذر مؤامرة ، على أقدس وحدة يمكن ان تقوم بين أبناء الشعب العربي الواحد » . وأضافت الصحيفة ذات النزعة الاقليمية الواضحة ، واصفة قرارات الرباط بأنها « أكبر جريمة وأعظم خيانة في التاريخ العربي، لانهم (الحكام العرب) ، في الوقت الذي يتشدقون فيه ويتباكون على الوحدة العربية، اقدموا بأعصاب باردة ، وخبث لا مثيل له في تاريخنا ، على اغتيال النموذج الوحدوي الوحيد واليتيم » . وتابعت الصحيفة « تبريكاتها » للشعب الفلسطيني ، مشددة على نهجها الاقليمي الواضح بقولها : « فالواجب القومي يحتم عليهم (الفلسطينيين) ان يحملوا أمتعتهم وان يتوجهوا الى وطنهم وبيوتهم وترابهم في الضفة الغربية » وذلك حتى لا تكون النتيجة « شعب بلا قادة وأرض محتلة بدون رجال [!] » (اللواء ١٩٧٤/١٠/٣٠) .

وتحت عنوان « رسالة وداع » كتب مدير التحرير في الجريدة يقول : « واخيرا وقع المحذور ووقفت كل الاقلام عاجزة عن ان تخط كلمة الوداع الذي لم نرده ولكن الاقدار أرادت ما لم نرد ». وجاء في رسالة الوداع المفتوحة حديثا مباشرا للفلسطينيين قال فيه الكاتب : « وانتم تحزمون أمتعتكم للعودة الى بيتكم الذي لم يزل بعد في خيالات من تولوا قيادتكم ، نهمس في اذنكم ... ان الاذرع التي احتضنتكم ستظل مفتوحة لكم رغم كل ما فيها من جراح » . ثم يهمس همسة اخرى تنم عن روح عنصرية متأججة ، حين يقول : « في وداعنا لكم نهمس في آذانكم بأننا لسنا بني أمية فلا تكونوا بني العباس ، فلنا عندكم قبور كثيرة فلا تنبشوها [!] لانها قبور الاطهار من أبنائنا الذين دفعتهم عقيدتهم وحبهم لكم ليرووا أرض بلدكم بدمائهم الزكية لانهم يؤمنون أبدا انها بلدهم وان النهر الخــالد سيظل دائما اقوى من دول الكرنتينة التي تحاول ان تحكمكم » . ويخلص من كل ذلك الى القول : « ونحن لنا عندكم حساب فلا تغضبوا منا اذا تحاسبنا ليصل كل منا الى حقه . فنصف كيان دولتنا عندكم ونصف ميزانيتنا بين ايديكم ومعظمكم في أجهزة مؤسساتنا ... ولقد انتهى المشوار معنا ». وجاء في ختام رسالة الوداع التمننية : « سنظل نرحب دائما بكل المطرودين من أرضهم الباحثين عن جنسية تعجز منظمتهم عن منحها لهم » (اللواء ١٩٧٤/١٠/٣٠) .

وعادت « اللواء » في عددها الاسبوعي التالي تكتب تحت عنوان « الاحتجاج الصامت » افتتاحية بقلم مدير التحرير نفسه ، يقول فيها : « ان القرار الاخير الذي اتخذه مؤتمر القمة صنع مأساة انسانية لا يدركها الا الذين يعيشون في هذا البلد ... ان المواطنين هنا (في الاردن) شجبوا محاولة الفصم بأسلوب أبلغ من التصريحات والاحتجاجات » وتبرر الصحيفة عدم بروز حالات الاحتجاج تلك الى « الخوف والانتهازية » . الا انها تطالب بأن يعلن الناس « استنكارهم وخاصة اولئك الذين تصدروا الواجهة السياسية » (اللواء ١٩٧٤/١١/٦) . وتحت عنوان آخر جاء في اللواء تساؤل حول « مين الحكمة » في قرار مؤتمر الرباط . ثم رددت ما جاء في خطاب الملك حسين وتصريحاته من ان « الزمن وحده كفيل باظهار الحقائق » . وما قاله ايضا في مناسبة اخرى : « نحن لسنا شعبين . اننا شعب واحد » (اللواء ١٩٧٤/١١/٦) .

ع٠ش

[٣]

الرئيـــس فورد والنزاع العربي ــ الاسرائيلي

مع تغيير الحكومة في واشنطن يحسن بنا ان نقوم بعملية جرد لمصالح اسرائيل في الولايـــات المتحدة .

لقد كان الرئيس فورد منذ عهد بعيد نصيرا متحمسا وصريحا لما يسمى « بحق اسرائيل في الوجود الآمن »(١). ومعنى هذا ان لاسرائيل الحق في التوسع ارضيا ، ولم يكن موقف فورد من اسرائيل يعود بصورة رئيسية الى أصوات اليهود أو أموال اليهود او تأثير اليهود على وســـائل الاعلام ، بل ان شعوره نحو اليهود ينشأ عن شعور عميق الجذور لليهود بوصفهم « شعـــــبا تعرض للتمييز والاضطهاد »(٢). وتعزز تأييـــده لاسرائيل نتيجة للصداقة التي نمت بينه وبين ماكس فيشر وميلتون فريدمان . وفيشر هو أحد كبار الذين يجمعون الاموال لاسرائيل ، وفريدمان عمـــل سنوات عدة كمراسل لوكالة التلغراف اليهودية في واشنطن . وفريدمان حاليا هو أحد كبار كتاب الخطب لفورد . وان مراجعة ســـجل فورد في الكونغرس تظهر تأييدا قويا لاسرائيل .

كان فورد ، عام ١٩٥١ ، احد جماعة من رجال الكونغرس الذين أيدوا اول طلب تقدمت به اسرائيل للمعونة الاقتصادية . وعام ١٩٥٥ قاد فورد المعركة لحظر بيع الاغذية لمصر . وعام ١٩٦٧ ، عندما طلب الرئيس عبد الناصر من قوة الامم المتحدة الانسحاب من سيناء ، حث فورد الامم المتحـــدة على اعادة تأسيس نفسها بالقوة . وعام ١٩٦٧ ، ايضا ، اثنى فورد على « اسرائيل الصغيرة » بوصفها الامة التي منعت الاتحاد السوفياتي من السيطرة على الشرق الاوسط . وعام ١٩٦٨ قال ان اسرائيل تطلب من ادارة جونسون ٥٠ طائرة فانتوم نفاثة واضاف ان هذه الطائرات « يجب ان تكون في طريقها » الى اسرائيل . وعام ١٩٦٩ تكلم فورد ضد قيام الدول الكبرى بفرض تسوية على اسرائيل . وعام ١٩٧٠ اشترك فورد في قـــرار للكونغرس دعا الى اجراء مفاوضات مباشرة بين دول الشرق الاوسط وأكد على وجوب عدم اضعاف قوة اسرائيل الرادعة . وفي العام نفسه شدد فورد على الحاجة الى تقوية اسرائيل وأوصى بأن يزور الاسطول السادس الاميركي المـــــــوانيء الاسرائيلية لاظهار التأييد . وعام ١٩٧١ ساعد فورد في حشد التأييد من أجل تجديد اتفاقيـــات الاسلحة الاميركية ــ الاسرائيلية التي كان مقررا ان تنتهي . وعام ١٩٧٣ تبنى فورد بقوة استمرار تقديم القروض العسكرية والمعونة المساندة والمنح الخاصة لاعادة توطين المهاجرين اليهود السوفييت في اسرائيل .

وخلال زيارة رابين الاخيرة الى الولايات المتحدة تلقىتوكيدات بالمزيد من الاعتدة العسكرية الاميركية. وقال رابين بعد اجتماعه بفورد : « ثمة التزام من جانب الولايات المتحدة باسرائيل قوية واعتقــد ان هذا التصريح سيترجم الى افعال »(٣). وقال السيناتور جاكوب جافيتز ، الذي اجتمع هو الآخر

بكيسنجر خلال زيارة رابين : « أعتقد ان المعونة العسكرية ستتقدم ، لا أعتقد ان أمل اسرائيل سيخيب في الجوهر ، وستبذل الولايات المتحدة قصارى جهودها لتساعد وتفيد »(٤).

وقد وعد فورد رابين في أول اجتماع لهما في الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) ، ١٩٧٤ ، قائلا « سنستمر في الوقوف مع اسرائيل . فنحن ملتزمون ببقاء اسرائيل وامنها »(٥). وفي نهاية رحلة رابين الى الولايات المتحدة اعلنت واشنطن أنها ستزود اسرائيل بخمسين طائرة فانتوم نفاثة قبل الصيف القادم .

وبالاضافة الى طائرات الفانتوم ، فان قرار فورد يعني ان اسرائيل ستتلقى ، قبل الصيف القادم ، ما بين ٢٠٠ دبابة و٢٥٠ دبابة ميدان من طراز باتون م ٦٠ ، وعددا غير مقرر من طائرات الهليكوبتر المسلحة من طراز كوبرا ، وقنابل « سمارت » الموجهة بالليزر ومجموعة اخرى من الاعتدة(٦).

ويعتبر هذا كله معونة للمدى القصير وستضم الى المخصصات الاضافية الراهنة البالغة ٢،٢ بليون دولار التي اقرها الكونغرس عام ١٩٧٣ .

وفي ما يتعلق بطلب اسرائيل التزاما سنويا بمبلغ ١،٥ بليون دولار على اساس المنح (اي مجاني) ، حصل الاسرائيليون على اقل من المبلغ الذي طلبوه ، ولكنهم كانوا راضين على ما يبدو(٧).

وفي مقابلة انيعت في الرابع والعشرين من ايلول (سبتمبر) عام ١٩٧٤ ، قال رابين ان الولايات المتحدة قد زودت اسرائيل بما يكفي من الاسلحة لمنع نشوب حرب . واضاف : « اعتقد ان لا شك هناك في العقل الاميركي بأنه لا بد لنا من الحصول على القدرة لمنع الحرب وكذلك لنكون قادرين على حماية انفسنا بأنفسنا . ويكون الجدل أحيانا حول مادة واحدة او مادتين ، ولكن موقف حكومة الولايات المتحدة في الاساس هو أن لا تغيير هناك على الاطلاق في استعدادها لترجمته الى افعال »(٨). ويمكن تفسير عبارة « لمنع الحرب » كما يستخدمها رابين هنا على أنها تعني ان الاسرائيليين يسعون الى تفوق عسكري على الدول العربية . كذلك قال رابين ان الوعود التي تلقاها في واشنطن اثناء رحلته « قد ترجمت الى افعال »(٩).

وفي الامم المتحدة اتخذ فورد موقفا شديدا جديدا . قال : « لم تكن سياستنا ان نستعمل الاغذية كسلاح سياسي رغم حظر النفط وقرارات اسعار وانتاج النفط الاخيرة »(١٠). وبدا كأن المعنى الضمني هو ان الولايات المتحدة ، بوصفها منتجا رئيسيا ، تستطيع استخدام الاغذية كسلاح ضد العالم العربي اذا استخدم العرب سلاح النفط مرة اخرى للضغط على واشنطن لحمل اسرائيل على الانسحاب من كافة الاراضي العربية المحتلة .

وعلى الرغم من سجل فورد حول اسرائيل في الماضي وخطابه الشديد في الامم المتحدة ، فان الولايات المتحدة وحليفاتها ليست في موقف يمكنها من تبني سياسة معادية للعرب اذا ما اوضح العالم العربي ، وخصوصا العربية السعودية ، للولايات المتحدة بأنه ما لم تنسحب اسرائيل من كافة الاراضي المحتلة ضمن فترة محددة من الزمن ، فسيبقى حظر النفط مفروضا وستسحب الاموال العربية من المصارف الاميركية في الولايات المتحدة وفي اوروبا . وعلينا أن نتذكر دوما بأن **اميركا ستستمر في تأييد التوسع الاسرائيلي ما لم يحول العالم العربي اسرائيل الى عائق بالنسبة للشعب الاميركي .**

وموقف الولايات المتحدة واضح في ما يتعلق بالشعب الفلسطيني . فلماذا تعترف الولايات المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية في حين يستمر الكثير من الحكومات العربية المنافقة في تقديم الولاء الكلامي الكاذب فقط لمفهوم كون المنظمة الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني ؟ لقد قام سفير الهند كاول ، وهو دبلوماسي يتمتع باحترام كبير في واشنطن ، بعمل ممتاز لشرح الموقف الفلسطيني للحكومة والكونغرس الاميركيين . وهو يرى ان على العالم العربي ان يقف موقفا موحدا بالفعل في دعمه لمنظمة التحرير الفلسطينية ، والا ظلت اميركا مترددة حول معاملتها للفلسطينيين .

الدكتور عوده ابو ردينه

[٤]

تحليل لاتجاهات الدعاية الصهيونية أغسطس (آب) وسبتمبر (ايلول) ١٩٧٤

نطرح فيما يلي أضواء على الموضوعات الدعاوية التي سادت الصحافة الصهيونية والعبرية في شهري أغسطس – آب وسبتمبر – ايلول . ولقد استقينا المادة التي يقوم عليها هذا التحليل من عدد من الصحف الصهيونية في اسرائيل والخارج ، وتشمل : **جويش بوست** ، **وجويش بوست أند اوبنيون** ، **وجويش اوبزرفر** ، **وجويش كرونيكل** ، **وآرش ومجلة الجيروزاليم بوست** . ولن نشير الى المرجع الا حيث تقتضي الضرورة .

كانت اسرائيل منشغلة تماما قبل الشهرين المذكورين بموضوعين رئيسيين : أحدهما زيارات المسؤولين العرب والاسرائيليين الى واشنطن عشية استقالة نيكسون . ولقد تميزت هذه الفترة بسيل عارم من الحرب الكلامية التي شنتها الدوائر الصهيونية ، وهو تكتيك محسوب استهدف خلق الجو المناسب بينما كان القادة الاسرائيليون يحاولون الحصول على دعم أعظم من الولايات المتحدة ، سواء من حكومتها أو من التجمعات اليهودية . ثم جاءت مشكلة الفلسطينيين لتطغى على ما عداها ، منذ أواخر اغسطس – آب وحتى أواخر سبتمبر – ايلول .

وان الدعوة المرتقبة لمنظمة التحرير الفلسطينية الى الجمعية العامة للامم المتحدة في نوفمبر – تشرين الثاني ، وكذلك الاعتراف العالمي المتزايد بمنظمة التحرير الفلسطينية ، ومبدأ الوطن القومي الفلسطيني، كل هذه واجهت الاعلاميين الاسرائيليين بمشكلات فريدة في طابعها . وسنتناول هذين الموضوعين فيما يلي :

فلسطين ومنظمة التحرير الفلسطينية والامم المتحدة

يبدو وفقا لما يتوله الناطقون الصهاينة ، وكأن فلسطين لم تكن موجودة أبدا قبل هذا العام ! ولا حاجة هنا لسرد سلسلة التصريحات المعروفة جيدا والتي أطلقها قادة اسرائيل والصهيونية البارزون . بيد ان هذا الموقف قد غدا بالنسبة للدوائر الحاكمة في اسرائيل ، موقفا يصعب الدفاع عنه ، بدءا من البيان المشترك الامريكي – المصري غداة زيارة نيكسون للقاهرة ، وتتويجا بالدعوة التي وجهتها الجمعية العامة لمنظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها تمثل الشعب الفلسطيني . ومرد ذلك جزئيا الضغط الامريكي ، اذ وجدت القيادة الاسرائيلية نفسها مضطرة للتسليم بأن الشعب الفلسطيني **موجود فعلا** . وهكذا فحينما أشارت البيانات المشتركة الصادرة في أعقاب زيارات المسؤولين العرب لواشنطن ، الى « المصالح المشروعة للشعب الفلسطيني » ، اشتكت صحيفة صهيونية من « انه لا يجوز للخارجية الامريكية في هذه الفترة الحاسمة ان تمضي باستخدام مصطلح «الشعب الفلسطيني» الذي يخلق – خطأ أو صوابا – انطباعا بأن الفلسطينيين هم فعلا شيء منفصل عن الاردن » – أنظر **الجيروزاليم بوست** ٨/٢٠ . وهكذا فسان الصحيفة حين تسلم تكتيكيا بأنه قد يكون هناك وجود للشعب الفلسطيني ، فانها تؤثر اغفال ذكر هذه الحقيقة الموجعة في الوقت الراهن . ولقد صدرت تصريحات مماثلة عن القادة الاسرائيليين ، رغم ان هؤلاء القادة – على وجه الاجمال – يسلمون مكرهين بوجود الفلسطينيين، ولو بلا أهلية او تحديد .

واذا كانت مثل هذه الاقرارات من جانب الرسميين الاسرائيليين البارزين تبدو اضطرارية ، الا انها ليست كذلك بالنسبة للقادة الصهاينة في الخارج . والواقع ان « التنازلات » الاسرائيلية اللفظية الاخيرة في مسألة الهوية الفلسطينية ، قد ووجهت بنقد زعماء الحركة الصهيونية البارزين في الولايات المتحدة ، الذين أصبحوا يجدون مهمتهم الاعلامية أكثر صعوبة – وبما لا يقارن – على ضوء المضامين السياسية المتفجرة . ولقد كشف الحاخام جوزيف شترنشتاين الرئيس الجديد للمنظمة الصهيونية الامريكية ، كشف في الآونة الاخيرة ، المعضلات البدئية الخطيرة التي أصبح يتسبب بها الاعتراف المتزايد بالهوية المستقلة للشعب الفلسطيني ، لصهاينة امريكا . وفي حملته على القادة الاسرائيليين بسبب « التنازلات غير الضرورية » ، أشار الى انه اذا توصل الشعب الامريكي الى الاقتناع بوجود الشعب الفلسطيني ، فانه سوف يميل الى الدفاع عن حق هذا الشعب بتقرير مصيره بنفسه . ولقد حث القادة الاسرائيليين

— في مطلع حملة نظمتها المنظمة الصهيونية الامريكية المذكورة على « الخرافة الفلسطينية » — حثهم على مساندته بالاصرار على عدم وجود شعب فلسطيني ، وعلى انه لم يكن هناك في أي وقت مثل هـــذا الشعب — أنظر **الجيروزاليم بوست** ٢/٨ و٤/٨ .

وبينما كان الضغط السياسي الموضوعي على اسرائيل لتقر بوجود وشخصية الشعب الفلسطيني، يتنامى ويتزايد ، فان ردة الفعل الاسرائيلية حرفت الموضوع من مسألة الهوية الوطنية الى مسألة التمثيل . ومؤخرا ، وبصورة فظة للغاية ، وصف بيرس وزير الدفاع الاسرائيلي وجهة نظر اسرائيل بالقول : « ان هناك نوعين من الفلسطينيين ، اولئك الذين تمثلهم منظمة التحرير الفلسطينية ، واولئك الذين يمثلهم حسين ... واني لآمل ان يتمكن أحد الفريقين عاجلا او آجلا من الظـــفر بالسيطرة على الفريق الاخر مما يتيح امكانية ايجاد تسوية معه » . لكن هذه « التسوية » التي يشير اليها بيرس ، تختلف كثيرا عما تفهمه م.ت.ف. ولقد تعهد رابين كرئيس لوزراء اسرائيل ، بأن اسرائيل لن تلاقي او تلتقي بمنظمة التحـــرير الفلسطينية في أي مكان سوى في ساحات الوغى .

لقد غدا الموقف الاسرائيلي ازاء م.ت.ف. أكثر صعوبة — وبما لا يقارن — بعد الاعتراف الدولي الواسع النطاق الذي ظفرت به المنظمة في الامم المتحدة . بيد ان الاسرائيليين ، كانوا حتى قبل التصويت التاريخي في الجمعيـــة العامة ، قد بدأوا يهيئون خطا اعلاميا جديدا لمعالجة التحـــدي الفلسطيني . ويمكن اجمال هذا الخط بالتالي :

ان الفلسطينيين موجودون ، انما ، وبسبب تشتتهم في أنحاء العالم العربي ، فان دولـــة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، لن تستوعب غير قطاع يسير منهم ، وان دولة كهذه ، لن تكون ، سياسيا واقتصاديا ، قابلة للحياة ، ولن توفر حلا راسخا للمعضلة الفلسطينية . بهذه المعطيات ، يصبح أكثر « واقعية » دمج أي كيان فلسطيني في اطار المملكة الهاشمية ، في ظل أية ترتيبات تكون ملائمة « للعرب » . وعلى أي حال ، فان م.ت.ف. ، في تركيبها الراهن ، ليست منظمة شرعية أو ممثلة ، انها ليست سوى « المنظمـــة الام » او « المنظمة — السقف » لخليط من « الارهابيين المتنابذين والمتعطشين للدماء الذين لا يفهمون غير العنف ، ولا يستهدفون غير ابـــادة الاسرائيليين » . وان أية عناصر معتدلة في قيادة م.ت.ف. ، سوف تنساق في تيار القواعد المتطرفة في الحركة وفي الدول الاخرى ، مما يجعل أي احتمال لوضع اتفاقات معها ، مستبعدا . ويخلص الاسرائيليون على أي حال ، الى ان شعب الضفة الغربية مذعور من « حكم العنف » الذي قد تقيمه م.ت.ف. ،وقد يضطرون الى الهرب اذا حصل فعلا.

سوف تحاول اسرائيل الدق على هذه «الحقائق» خلال الشهور المقبلة ، لكنهم ، اذا أكرهتهم القوى السياسية الموضوعية ، واذا بدت الحرب خيارا محفوفا بالمخاطر ، سيكونون مجبرين على تعديل خططهم ، بحيث يظهرون في موقف معقول ازاء م.ت.ف. ، مع طرح مطالب يعلمون جيدا اســتحالة تلبيتها . وكتمهيد محتمل لهذا الخط المفترض ، ما قاله وزير الاعلام الاسرائيلي ياريف، من ان اسرائيل ستكون مستعدة لمفاوضة م.ت.ف. اذا تخلت م. ت.ف. عن ميثاقها (وتخلت بالتالي عن مطالبتها بكل فلسطين) ، وكذلك اذا اعترفت بالسيادة الاسرائيلية ، واذا أوقفت الارهاب ، على ان مثل هذه « التنازلات » لا تزال مبكرة للغاية وقبل أوانها . فيتسحاق رابين تبرأ من هذا الموقف علنا قبل مضي ٢٤ ساعة على تصريح بيرس .

التهديدات الاسرائيلية بالحرب

بينما كانت الدفة الدولية تنقلب في غير صالح اسرائيل ، فان دوائرها الحاكمة بدأت تفكر مرة اخرى بالخيار الحربي . ومنذ اوائل أغسطس — آب ، بدأت تظهر في الصحافة الصهيونية في جميع أنحاء العالم ، تصريحات عدوانية واستفزازيـــة للرسميين الاسرائيليين . ولقد كان الخط هو نفسه فيها جميعا ، واستهدف توليد جو معـين بـين الاسرائيليين ، وانصارهم الصهاينة في الخارج ، وفي المجتمع العالمي على السواء .

وجرى تركيز الحملة الدعاوية الصهيونية في هذا الصدد ، على ان الدول العربية ، وســـوريا خصوصا ، تهيء لشن حرب جديدة . ولقد أطلقت تصريحات متعددة في هذا الاتجاه ، من قبل قـــادة اسرائيل ، ونشرت في الصحافة العالمية . وان « الدليل » على هذا ، ان سوريا تقوم بزيادة وتقوية جيشها ، وتقوم بتدريبات عسكرية حثيثة

لشن الحرب ، وان سوريا تراعي « نص » لا « روح » اتفاقية فصل القوات . وهكذا مضى الملفقون الصهاينة في محاولة توليد انطباع بأن اتفاقيات فصل القوات على كلا الجبهتين ، تعني أكثر من اتفاقيات فصل القوات . وعلى حد قول احدى هذه الصحف : « الواقع انه لم يتحقق أي تقدم سياسي عبر هذه الاتفاقيات التي ظهر انها لم تكن أكثر من اتفاقيات لوقف اطلاق النار على حساب انسحابنا». **الجيروزاليم بوست**، ٩/١٠ .

واستخدم الصهاينة ، في محاولة زيادة التوتر والقاء اللوم على العرب ، أساليب أخرى لتهيئة الرأي العام الداخلي والعالمي . أولا اوضحوا ان اسرائيل لن تتردد بتوجيه الضربة الاولى ، اذا اضطرت لذلك . ولقد أبلغ رابين وفدا ضيفا من قادة الصهاينة الامريكيين « اذا ذهبنا الى الحرب ، فانما لعدم وجود بديل آخر ... ونحن نعلم ان الحرب وشيكة » . وحذر بيرس ، في مقابلة نشرت على نطاق واسع في الصحافة الصهيونية من ان « المباغتة ، والمبادرة ، والخداع ، لا يمكن ان تبقى امتيازات لطرف واحد » .

ومن جهة ثانية ، فان الدوائر الحاكمة بدأت تعيد الى الحياة بعض الذرائع القديمة للمسلك العسكري التوسعي، ولا حاجة بنا هنا لاقتباس هذه الاقاويل. على ان أهميتها تكمن في ان القادة الاسرائيليين بدأوا يطرحونها من جديد .

وكان على رجال الدعاوة الصهيونية ، كجزء من استعدادات اسرائيل لمغامرة عسكرية محتملة ، ان يحلوا التناقض الجلي بين رغبتهم بمحادثات السلام مع العرب ، وبين النوايا العربية العدوانيــــة المزعومة . وضمن هذا الاطار طرح أحد الكتاب « تحليلا » مسهبا لتكتيكات الرئيس الســــادات « البراجماتية » ، في تعامله مع الولايات المتحدة ، واسرائيل ، والدول العربية الاخرى ، وخلص هذا الكاتب الى ان الرئيس السادات بينما يبدو في نظر بعض الاسرائيليين « مخلصا » وتواقا للسلام، فان هدفه النهائي يظل هو هو « الانتصار الكامل على اسرائيل » .

وهناك خط آخر ، فاذا اتخذ العرب بعـــض المواقف الدبلوماسية المعينة ، فان ذلك دليل على نواياهم العدوانية المبيتة . وهكذا قام يوسف تكواع المندوب الاسرائيلي في الامم المتحدة ، بابـــــلاغ المراسلين في أغسطس ــ آب الماضي ، قبـــل التصويت في الجمعية العامة ، ان أية محاولة لتقوية موقف م.ت.ف. ، فانها ــ من وجهة نظر اسرائيل ــ تناقض الرغبات السلمية العربية . وقال ان اجتماع الجمعية العامة للامم المتحدة سوف يكون « امتحانا » ، واضاف محذرا : « انه لامر مستحيل ، دعم م.ت.ف. ، والكفاح من اجــل السلام ، في الوقت نفسه ». وهكذا بينما يتظاهرون بالسلام ، ويهيئون المناخ للحرب ، فان الاسرائيليين يشوشون الرأي العام العالمي : فاذا اندلعت الحرب فعلا ، فانهم سوف يزعمون انهم فعلوا كل ما في طاقتهم لمنع وقوعها « أمام تصلب وعنـــــاد العرب » .

ملحوظة عن النفط

بالرغم من كل الادلة التي أثبتت العكس ، فان بعض الناطقين الصهاينة مصرون على ان يواصلوا القول بلا اقتناع ، ان « سلاح النفط » أثبت فشله. وانهم يزعمون في العادة ان النفط لا علاقة له بأزمة الشرق الاوسط ، وهم يأملون ان ينجحوا باقنـــاع العالم الذي لا يصدق ما يقولون . ان أسباب هذا الموقف جلية. وعلى أي حال فان هذا الموقف يكشف بصورة فاضحة الخط الاسرائيلي بهذا الخصوص . وهذا ما قالته **الجيروزاليم بوست** (٩/٢٥) بهذا الشأن : « تثبت الازمة المتصاعدة قبل كل شيء ، ان مشكلة النفط هي في الاساس ــ كما قـــالت اسرائيل مرارا وتكرارا ــ مسألة اقتصادية تتعلق بالاسعار ، أكثر مما هي قضية سياسية مرتبطة بأزمة الشرق الاوسط . وحين ووجهت حكومـــة الولايات المتحدة بمواقف منتجي النفط المتصــلبة والجشعة ، فانها أدركت هذه الحقيقة . ولقــد اخفقت المساعي السعودية والخليجية المستمرة لكسب سياسات معادية لاسرائيل ، مقابل عرض امدادات نفطية ثابتة بأسعار معقولة » .

---

* نشر هذا التحليل في نشرة الادارة العامة لشؤون فلسطين بجامعة الدول العربية ، عدد نوفمبر ١٩٧٤ .

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

فلسطين الوسطى تعود فلسطينية

أكثر من ربع قرن مضى على تزييف الهوية الفلسطينية لارض فلسطين الوسطى وشعبها ، حملت خلالها هذه الارض اسم « الضفة الغربية من المملكة الاردنية الهاشمية » ووضعت مقدراتها بيد النظام الهاشمي . وفي مؤتمر القمة العربي السابع في الرباط تمت الخطوة الاولى في عملية **تصحيح التاريخ** عندما استجابت القمة للنضال الفلسطيني ورفعت الوصاية الهاشمية عن هذا الجزء من فلسطين . ولم تكن الولادة سهلة ، كما هي الحال تماما لدى كل منعطف يتغير عنده التاريخ ، وانما كانت محصلة لنضال طويل ، شاق ، وفيه كثير من التضحيات ، اثبت فيه الشعب الفلسطيني وحدته اولا ، وحدته حيثما وجد، وقدرته ثانيا على التعامل مع قضيته والحفاظ عليها . وكانت الحرب السياسية التي خاضتها منظمة التحرير الفلسطينية لاثبات أهليتها وحقها في تمثيل الشعب الفلسطيني مستندة الى هذين الاساسين : وحدة الشعب وقدرته. وكانت الرباط المعركة الفاصلة في هذه الحرب التي سجلت تكريس منظمة التحرير ممثلة شرعية وحيدة للشعب الفلسطيني وانها هي صاحبة الحق في تقرير مصير الارض الفلسطينية ، كل الارض الفلسطينية ، بما في ذلك تلك التي مضى عليها أكثر من ربع قرن تحت الوصاية الهاشمية .

قاتل النظام الاردني معركته بجميع الوسائل المتاحة بين يديه حتى تلك المستهلكة منها في محاولة للتأثير على القرار الذي يمكن ان تتخذه قمة الرباط . فقبيل عقد المؤتمر « استكتب » النظام نواب « الضفة الغربية » مذكرة وجهوها الى الملوك والرؤساء العرب قالوا فيها « اننا نحن نواب الضفة الغربية نؤمن ايمانا عميقا بأن أية محاولة للفصل بين الضفتين الغربية والشرقية وبين شعبيهما هي محاولة عقيمة بل مستحيلة » وقالوا « الفلسطينيون الموجودون في ضفتي الاردن لهم وضعهم الخاص ... المملكة الاردنية الهاشمية هي وحدها صاحبة الحق الدستوري والقانوني في تمثيلهم ... أما سائر الاخوة الفلسطينيين المتواجدين في الاقطار العربية الشقيقة وفي الاراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٤٨ ... فاننا نعترف لمنظمة التحرير الفلسطينية بحقها في تمثيلهم » ، وطالبوا بـ « الاعتراف للمملكة الاردنية الهاشمية بحقها الدستوري والقانوني والشرعي بتمثيلها للفلسطينيين الموجودين في الضفتين الغربية والشرقية » (« الرأي » الاردنية ١٠/٢٣).

وقد صرح مصدر اعلامي فلسطيني على هذه « البادرة » بقوله « ان أصحاب هذه المذكرة هم مجموعة من سبعة نواب يعملون كموظفين في البرلمان الاردني منذ تعيينهم في هذا البرلمان قبل مدة تتجاوز عشر سنوات وتمتد الى ما قبل عام ١٩٦٧ . وطوال السنوات الماضية لم يتجرأ واحد من هذه المجموعة على التبشير بمواقفه خارج حدود الدائرة الرسمية وأجهزة الاعلام الاردنية في عمان وتعرض بعضهم عند زيارته للضفة الغربية — بتسهيلات اسرائيلية — الى الضرب والاهانة من المواطنين عندما حاول الدعاية لحكام عمان... ومن المفهوم ان تعمل هذه الحفنة لحماية مصالحها وارتزاقها على حساب مجموع الشعب الفلسطيني» (وفا ١٠/٢٣) .

ومن الاساليب العتيقة التي اتبعها النظام لتعضيد موقفه هذا المثال الذي كتبت عنه صحيفة

« الدستور » الاردنية (١٠/٢٦) ، « أمت الديوان الملكي الهاشمي صباح أمس وفود شعبية تمثل شيوخ ووجهاء اللاجئين والنازحين من عشائر التركمان والصقر والبشاتوة والكعابنة والتياها من فلسطين المحتلة والضفة الغربية ... وقد خطب أحد رؤساء الوفود فقال : اننا نأبى ... ان يرعى حمى الضفتين سوى الحسين ... ان وحدة الضفتين حقيقة كرسها الواقع التاريخي » . وقد مضغ النظام هذا الاسلوب « الوفود الشعبية » طويلا في تاريخه حتى لم يبق منه غير حثالة .

وفي المقابل كانت المؤشرات الى حقيقة الموقف الشعبي في فلسطين الوسطى تتلاحق وتدل دلالة قاطعة على ان عهد الوصاية الهاشمية قد انتهى هناك . من هذه المؤشرات المذكرة التي بعث بها الى ياسر عرفات ١٨٠ شخصا ممن يحملون صفات تمثيلية في فلسطين الوسطى (ممثلو هيئات ونقابات ومجالس بلدية وشخصيات وطنية) طالبوا فيها بـ « التأكيد ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد لشعبنا العربي الفلسطيني حيثما وجد ورفض ادعاء أي جهة اخرى حق تمثيل أي جزء من هذا الشعب الواحد والتحدث باسمه » (نص المذكرة واسماء الموقعين في « النهار » ١٠/٢٨) . ومن هذه المؤشرات كذلك التصريح الذي ادلى به أحمد كمال السعدي ، رئيس بلدية جنين ، الى وكالة « يونايتدبرس » وقال فيه « ان ٩٠ بالمئة من العرب الذين يعيشون في الضفة الغربية التي تحتلها اسرائيل يفضلون ان تصبح منطقتهم تحت سلطة منظمة التحرير الفلسطينية على ان تعود الى الملك حسين » .

وفي مؤتمر وزراء الخارجية العرب الذي عقد في الرباط تمهيدا للقمة العربية السابعة تمكنت المنظمة من ان تترجم هذا الموقف الشعبي الى قرار عربي، عندما اتخذ المؤتمر قراره (في ١٠/٢٥) الذي نص على ما يلي : « ان أي ارض من فلسطين يتم تحريرها عن طريق ممارسة الصراع بأساليبه المختلفة تعود لاصحابها الشعب الفلسطيني تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية مع التأكيد على حقه في اقامة سلطته الوطنية المستقلة على الارض التي يتم تحريرها ، وتقوم قوى المجابهة العربية بمساندة هذه السلطة عند قيامها في جميع المجالات وعلى كافة المستويات » . وطالب الوفد الاردني بحذف عبارة « تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، وعندما صوت الجميع مؤيدين بقاء هذه العبارة سجل الوفد الاردني تحفظه (« النهار » ١٠/٢٦) . وقد ذكرت « وفا » (١٠/٢٥) « ان الوفد الاردني حاول تمييع جلسات المجلس والماطلة بنفاد الوقت حتى لا ترفع ورقة العمل الفلسطينية الى مؤتمر القمة الا ان وفود سوريا ومصر واليمن الديمقراطية ، بطلب من الوفد الفلسطيني ، عمدوا الى قطع الطريق على التكتيك الاردني المكشوف ليجري التصويت علانية واستجابت رئاسة المجلس لهذا الضغط وأقرت ورقة العمل بالاجماع بتحفظ الاردن » .

كانت تلك جولة كسبتها المنظمة وناضلتلتكريسها في قمة الرباط العربية التي عقدت بين ٢٦ و٢٩ تشرين الاول ١٩٧٤ . وكان محور هذا النضال يدور حول نقطتين : وحدانية التمثيل الفلسطيني من واقع وحدة الشعب ، ومصير الارض الفلسطينية التي سوف يجلو عنها الاحتلال الاسرائيلي . أما الموقف الاردني من هاتين النقطتين فقد وضحهما حسين في الخطاب الذي القاه في جلسة مؤتمر القمة (١٠/٢٧) فقد أكد بالنسبة للنقطة الاولى انه لا يستطيع « التسليم بأن منظمة التحرير الفلسطينية تمثل جموع الفلسطينيين الذين تواجدوا في المملكة الاردنية الهاشمية وأصبحوا من مواطني الدولة وجزءا كبيرا من شعبها في الضفتين ، وحملوا جنسيتها ، واندمجوا اندماجا عضويا في كل مناحي الحياة ودوائرها وميادينها ومؤسساتها ... ثم من هم هؤلاء المواطنون الذين سيفرزون من الانتماء للدولة التي أصبحوا هم من عناصر بنائها ؟ هل هم الفلسطينيون الذين وفدوا من غربي النهر الى شرقيه عام ١٩٢٤ عندما تحددت الرعويات وشاركوا في تأسيس الدولة ؟ أم هم الذين لجأوا عام ١٩٤٨ ...؟ أم هم الذين نزحوا عام ١٩٦٧ ...؟ أم هم المواطنون الذين يسكنون الضفة الغربية فحسب وليس الضفة الشرقية ، أم هم الفلسطينيون الذين تشملهم الجنسية الاردنية خارج حدود المملكة الاردنية الهاشمية ! » أما بالنسبة للنقطة الثانية فقد حدد حسين موقفه كما يلي : « ان الاردن سيواصل العمل من أجل الانسحاب الاسرائيلي الكامل من سائر الارض المحتلة وفي مقدمتها القدس ... من أجل تحديد

موقف الاردن من الضفة الغربية بعد تحريرها فان الاردن يتعهد بأن يترك الخيار في هذا لابناء الضفة الغربية ليقرروا الوضع الذي يختارون والمصير الذي يريدون بحرية تامة وتحت اشــراف دولي محايد . وغير هذا فلست ارى ان من الحق ان نفرض على أهل الضفة الغربية وضعا لا يكونون فيه أصحاب الرأي واصحاب القول . ونحن اذ لا ندعي حق فرض أنفسنا عليهم بعد التحرير ، فانا بنفس الدرجة لا نرى من الحق ان يفرض غيرنا عليهم أي وضــــع لا يختــارونه ولا يقررونه هم أنفسهم » (من كراس أصدرته دائرة المطبوعـــات والنشر الاردنية بعنوان « مرتكزات الموقف الاردني: البيان القومي الشامل لجلالة الحسين في مؤتمر القمة بالرباط ») .

غير ان هذه الاطروحات كان قد تجاوزها الزمن فشرعية تمثيل المنظمة لوحدة الشعب الفلسطيني أصبحت احدى الحقائق الصلبة ليس في العالم العربي فحسب وانما في العالم أجمع ، وهكذا « أمام صلابة الموقف الفلسطيني والتضامن العربي الذي لقيه والى جانب الانتصارات التي سجلها النضال الفلسطيني في الاعوام والاشهر والايــام الماضية ، أمام كل هذا احبطت الضغوطات وتمكن مؤتمر القمة من الوصول الى قراراته التاريخية » (ياسر عبد ربه في مؤتمر صحافي عقده في مقــر « وفا » في ١١/٢) ، وكانت هذه القرارات : « ١ — تأكيد حق الشعب الفلسطيني في العودة الى وطنه وتقرير مصيره . ٢ — تأكيد حق الشعب الفلسطيني في اقامة السلطة الوطنية المستقــلة بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، على أية أرض فلسطينية يتم تحريرها . وتقوم الدول العربية بمساندة هذه السلطة عند قيامها في جميع المجالات وعلى جميع المستويات . ٣ — دعم منظمة التحرير الفلسطينية في ممارسة مسؤولياتها على الصعيدين القومي والدولي في اطار الالتزام العربي . ٤ — دعوة كل من المملكة الاردنية الهاشمية والجمهورية العربية السورية وجمهورية مصر العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية لوضع صيغة لتنظيم العلاقات بينها في ضوء هذه المقررات ومن أجل تنفيذها . ٥ — تلتزم جميع الدول العربية بالحفاظ عــلى الوحــدة الوطنية الفلســطينية وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للعمل الفلسطيني » .

وبذلك انتهت مرحلة من النضال السياسي توجت في القمة العربية السابعة باجماع عربي على رفع الوصاية الهاشمية عن فلسطين الوسطى عندما وضعت مقاديرها بيد الشعب الفلسطيني من جديد. غير ان قرارات القمة لم تكن تشمل مواطــــني فلسطين الوسطى ومستقبل ارضها فحسب وانما هي كرست كذلك تمثيل المنظمة تمثيلا شرعيا ووحيدا لجميع الشعب الفلسطيني بمن فيهم الفلسطينيون المقيمون في شرق الاردن والذين اكتسبوا الجنسية الاردنية . وهذا الجانب من الصورة هو الذي سيكون مادة الصراع مع النظــام في الاردن في قادمات الايام ، وهو صراع اختاره حسين نفســـه منذ اليوم التالي لاختتام أعمال القمة الســـابعة وألمح الى نتائجه في اطار تحذيري مقصود . ففي الخطاب الذي ألقاه حال عودته الى عمان في ١٠/٣٠ (نص الخطاب نشرته دائرة المطبوعات والنشر الاردنية في كراس بعنوان آفاق المستقبل في الخطاب التاريخي لجلالة الحسين عقب عودته من مؤتمر الرباط) قال « أنتم ايها الاخوة — مهاجرين وانصارا — أهل وعشيرة واسرة واحدة لا يفرقها قيام ظرف يقتضي التغيير . انكم وانتم من أكرم الشعوب وانبلها **لا يمكن ان ينزل منكم أحد الى مستوى الانحياز في المشاعر او النوايا او المعاملات** ولا ان يمس احدكم الآخر بأية جارحة من قريب او بعيد . واذا حدث لا سمح الله أي شيء من هذا ، وهو غير منظور ، فاني اعتبر ذلك مساسا موجها الي والى كل مواطن في شخصي ». وفي الخطاب نفسه خطط حسين الى هذا « الانحياز ... في المعاملات » ، فبعد ان تساءل « عمــا يترتب عن هذا القرار » أوضح « ان الاردن سيظل وطن كل عربي فلسطيني يختار ان يكون مواطنــا فيه له مثلما عليه من حقوق المواطن الكامــــلة وواجباتها ودون المساس بحقوقه الاصـــلية في فلسطين . وسيظل الفلسطينيون الذين يختارون الهوية الفلسطينية أخوة عربا أعزاء يتمتعون بما يتمتع به المواطنون من الاقطار العربية الشقيقة في هذا البلد العربي الاصيل » . وهذا التمييز أكده الملك في حديث له مع صحيفة « نيويورك تايمز » فأعلن انه ينوي اجراء تغيــيرات دســــتورية وحكومية لاردنة المملكة بعدما اعتبر مؤتمر الرباط

منظمة التحرير الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ووافق على اقامة سلطة وطنية بقيادتها ، وانه سيعيد تنظيم حكومته لاقصاء « ممثلي الفلسطينيين » الذين يقيمون في الضفة الغربية المحتلة كما سيجري تغييرات دستورية . (« النهار » ١١/٦) . وقد انصبت التغييرات الدستورية حتى الان على الامور المتعلقة بمجلس الامة الاردني ، واتجاه التغيير يسير في مجريين الاول اقصاء النواب الفلسطينيين من المجلس ، والثاني التمكن من حله دستوريا وعدم اجراء انتخابات جديدة لمهلة يتمكن فيها الملك من اجراء تعديل في اوضاع المملكة بمعزل عن السلطة التشريعية . وقد توضح هذا الاتجاه في المواد التي جرى تعديلها في الدستور والتي انحصرت في المادتين ٣٤ و٧٣ . ففي جلسة استثنائية عقدت يوم ١١/٩ (دعا اليها الملك في ١١/٥ لتعديل هاتين المادتين) أقر مجلسا النواب والاعيان وهما اللذان يتكون منهما مجلس الامة الاردني تعديل المادة ٣٤ من الدستور وهي المادة التي تعطي الملك حق حل مجلس النواب ، فاضيف اليها فقرة جديدة أعطت الملك الحق في « ان يحل مجلس الاعيان او يعفي أحد اعضائه من العضوية » . وهذا المجلس الذي يعين الملك اعضاءه تعيينا يضم ٣٠ عينا نصفهم من الفلسطينيين . وبذلك فان هذا التعديل يتيح للملك اعفاء هؤلاء الاعضاء من مناصبهم وتعيين خلفاء « اردنيين » لهم . كذلك أقر المجلس في الجلسة الاستثنائية نفسها تعديل المادة ٧٣ من الدستور والتي تنص الفقرتان الاولى والثانية منها على ما يلي : « ١ — اذا حل مجلس النواب فيجب اجراء انتخاب عام بحيث **يجتمع المجلس الجديد في دورة غير عادية بعد تاريخ الحل باربعة أشهر على الاكثر** ... ٢ — اذا لم يتم الانتخاب عند انتهاء الشهور الاربعة يستعيد المجلس المنحل كامل سلطته الدستورية ويجتمع فورا وكأن الحل لم يكن ويستمر في أعماله الى ان ينتخب المجلس الجديد » . وكان مشروع التعديل الذي تقدمت به الحكومة الى المجلس يتضمن اضافة فقرة جديدة تنص على ما يلي : « بالرغم مما ورد في الفقرتين ١ و٢ من هذه المادة **للملك ان يؤجل اجراء الانتخاب العام لمدة لا تزيد على سنتين** اذا كانت هنالك ظروف قاهرة يرى معها مجلس الوزراء ان اجراء الانتخاب أمر متعذر » (« الرأي » الاردنية ١١/١٠) . وقد أقر المجلس تعديل هذه المادة بحيث يكون تأجيل اجراء الانتخاب لمدة سنة واحدة وليس سنتين كما ورد في مشروع الحكومة (النهار — ١١/١٠) ومن المتوقع ان يجري حل مجلس النواب فتتحقق الغايتان معا: اقصاء النواب الفلسطينيين عنه واتاحة الفرصة للملك ونظامه في التصرف بمعزل عن السلطة التشريعية .

تمثلت ردة الفعل الفلسطينية الرسمية على هذه الاجراءات في الرسالة التي وجهها ابو اللطف، رئيس الدائرة السياسية في المنظمة ، الى المؤتمر الوطني العام لاتحاد طلبة الاردن الذي عقد في بغداد فقد جاء في هذه الرسالة (وفا ، ١١/١١) ما يلي : ان كل الاجراءات والتغييرات الدستورية والانتخابات والتسميات التي يراد بها التدليل على انفصال الشعب الواحد في الضفتين هي كلها زائفة ولا يمكن لها ان تأخذ مجراها في واقعنا اليومي . ليفعل الغرباء عن هذا الوطن ما يمكنهم ان يفعلوه فقوة شعبنا وصلابته في الضفتين ووحدته هي أقوى من كل اجراءاتهم وتسمياتهم . فالاردن لنا وفلسطين فلسطيننا وسوف نقيم على هذه الارض بكاملها كياننا الوطني بعد ان يتم تحريره كاملا من الوجود الصهيوني والوجود الرجعي العميل » .

ان هذه الاجراءات ان كانت مقصودة فعلا ولم تكن محاولات ابتزاز ستضع شرق الاردن حيث الفلسطينيون فيه هم الاغلبية ، على مدخل تحول جذري سياسي واجتماعي ، ان تحكم الملك في بدايته فان نهايته ستكون بالتأكيد محكومة بعوامل الصراع الموضوعية وقوانينه التي لن تكون بحال لمصلحة النظام .

العالم يقبل الحقيقة الفلسطينية

عندما صوتت ١٠٥ دول في ١٠/١٤ الى جانب القرار : « ان الجمعية العمومية ، اذ تعتبر ان الشعب الفلسطيني هو الفريق الرئيسي المعني بمسألة فلسطين ، تدعو منظمة التحرير الفلسطينية الممثلة للشعب الفلسطيني الى المشاركة في مناقشات الجمعية العمومية حول قضية فلسطين في الجلسات العامة » ، كان ذلك تكريسا لاعتراف العالم الرسمي والمعلن بالحقيقة الفلسطينية التي

لم يعد تجاهلها ممكنا بعد ان فرضت نفسها بكثافة وفاعلية على ضمير العالم وعقله ، وبعد ان اصبح أخذها بالاعتبار امرا محتما لدى صنع كل قرار لا يتناول شؤون المنطقة العربية فحسب وانما كذلك علاقات الدول خارج المنطقة بعضها ببعض ، مهما كان هذا القرار سياسيا او اقتصاديا او عسكريا. واذا كان معسكر الاعداء قد حاول طمس هذه الحقيقة طويلا وبمختلف الوسائل الابادية فان النضال الفلسطيني مشفوعا بالتأييد العربي قد تمكن من جلوها بفعل تضحيات كثيرة كانت دائما تجعل الحقيقة الفلسطينية أكثر سطوعا . وكان لا بد ان تسطع هذه الحقيقة على الامم المتحدة ، مجمع الدول ، التي تظل — مهما كان الرأي بقراراتها — احدى ميادين الصراع من جهة، ومرآة للعالم ، لحقيقة ما يجري في العالم ، من جهة اخرى . وكان لا بد من الناحية المقابلة ان يحاول معسكر الاعداء حجب هذه الحقيقة عن هذا الميدان، وعندما أحاط الفشل بهذه المحاولة (لاول مرة في تاريخ الامم المتحدة تحصر اسرائيل والولايات المتحدة في زاوية منفردتين معزولتين غير قادرتين على التأثير سوى بدولتين هامشيتين) تجري محاولة أخرى للتشويش ، وهي ملجأ العاجز المقهور ، بأساليب متعددة : الارهاب كان واحدا منها فجرى اعتداء على مكتب منظمة التحرير في نيويورك (١٠/٣٠) وهدد الوفد الفلسطيني بالقتل . كذلك لجأوا الى خلق جو من الاضطراب والفوضى في نيويورك نفسها لصرف الانظار عن حقيقة ما يجري فقامت تظاهرة صهيونية في ١١/٥ أمام مبنى الامم المتحدة « احتجاجا على دعوة منظمة التحرير الفلسطينية الى الجمعية العمومية للامم المتحدة » ، وهدد بتسيير تظاهرة اخرى تضم ربع مليون شخص في يوم عرض القضية . ولان لبنان وقع الاختيار على رئيسه ، سليمان فرنجيه ، ان يكون ناطقا باسم العرب في الدفاع عن القضية من على المنبر الدولي، أصاب لبنان قسط كبير من هذه المحاولات الرامية الى التشويش . ففي اليوم نفسه الذي خطب فيه فرنجيه « عوقب » لبنان بعملية انتقامية استهدفت النبطية في الجنوب وأسفرت عن قتلى وجرحى كثيرين . ولكن على الرغم من ذلك فقد استمع العالم الى الحقيقة الفلسطينية أعلنها ياسر عرفات في ١١/١٣ ، وصفق لها طويلا دليلا على القبول بها والتسليم ليس بواقعها فحسب وانما بنتائجها ايضا .

قبل ايام قليلة من عرض القضية على الامم المتحدة أجاب ابو عمار عن سؤال لمراسل التلفزيون الفرنسي عما اذا كانت مشاركة منظمة التحرير في مناقشات الامم المتحدة « ستجبركم على وقف العمليات الفدائية » ، اجاب بقوله « يجب ان نعرف ما هي الثورة ، الثورة هي عمل متكامل ، عمل عسكري ، عمل سياسي ، عمل دبلوماسي ، عمل شعبي ، وكل هذه تشكل الثورة ، لان البندقية منفردة لا تشكل شيئا ، ولكن البندقية المجتمعة مع هذه الاشياء التي ذكرت تشكل الثورة بمجموعها . من هنا يجب ان نفهم ان العمل الدبلوماسي الذي نقوم به داخل الامم المتحدة انما هو فرع وجهد من الجهد الذي نقوم به في عملنا السياسي والدبلوماسي والعسكري الذي يشكل في مجموعه الثورة الفلسطينية ، ومعنى هذا اننا لا يمكن ان نوقف عملياتنا العسكرية ، انما يجب ان نصعد هذه العمليات العسكرية أكثر فأكثر ، كما نصعد عملنا الدبلوماسي والسياسي . يجب ان نصعد عملنا العسكري الى ان نأخذ حقوقنا ، ونحن لسنا عنصريين ولسنا فاشيست ، نحن عبارة عن ثورة حضارية تدعو الى هدف حضاري وهو انشاء الدولة الديموقراطية الفلسطينية التي يتعايش فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون بمساواة وحرية واخاء » (وفا ١٠/٢٢). وكانت تلك بالفعل هي خلاصة الحقيقة الفلسطينية كما عرضها عرفات بتفصيل أمام المجتمع الدولي (نص خطاب أبو عمار صفحة ٥ من هذا العدد) .

عصام سخنيني

(٢) القضية الفلسطينية دوليا

لربما كان أهم تطور دولي طرأ على النزاع العربي ــ الاسرائيلي هذا الشهر هو بوادر تحرك العلاقات المصرية السوفياتية باتجاه التحسن وذوبان الجليد الذي يغلفها . وقد تمثل هذا التطور في الزيارة التي قام بها وزير خارجية مصر الى موسكو وفي تحديد موعد زيارة ليونيد بريجنيف للقاهرة . ولا بد من الاشارة هنا الى الخلفية التي انبثق عنها هذا التطور الايجابي . اولا ، أخذ الشعور المتزايد بجمود الوضع السياسي بالنسبة للتسوية السلمية ينتشر بقوة كما بدأ يظهر بوضوح ان السياسة الاميركية التي يقودها كيسنجر في المنطقة لم تعد متحمسة لانعقاد مؤتمر جنيف للسلام او لتحقيق أية انجازات جديدة باستثناء اغداق الوعود واطلاق التصريحات والتطمينات المغرقة في عموميتها . على سبيل المثال مع كل جولة يقوم بها كيسنجر في المنطقة (وقد قام بتسع جولات حتى الان) يعد بأنه سيعود بعد فترة قصيرة للاستمرار بجهوده السلمية. ثانيا ، الموقف الواضح والصريح أكثر من اي وقت مضى الذي أعلنه بريجنيف في الاسبوع الثاني من شهر تشرين الاول (اوكتوبر) بالنسبة لقضية الشعب الفلسطيني حيث أكد : (أ) ان اسرائيل تحاول جهدها التمسك بالاراضي العربية المحتلة معتمدة على « حماتها التقليديين » . (ب) ان اتفاقي فك الارتباط على الجبهتين المصرية والسورية كانا مفيدين كخطوة اولى الا انهما لم يحلا القضية التي تتطلب تسوية شاملة . (ج) ضرورة تنفيذ قرارات الامم المتحدة وتحرير الاراضي التي استولت عليها اسرائيل وتحقيق الكيان القومي للشعب الفلسطيني . (د) المطالبة بشدة باستئناف مؤتمر جنيف في أسرع وقت ممكن وبحضور جميع الفرقاء المعنيين بما فيهم منظمة التحرير الفلسطينية . ثالثا ، مبادرة الرئيس السادات الى منح وسام النجمة العسكرية من الدرجة الاولى الى كبير الخبراء العسكريين السوفيات في مصر « تقديرا لما قام به من أعمال ممتازة مع الخبراء السوفيات » قبل انهاء مهماتهم في تموز ١٩٧٢ . وكانت هذه المبادرة نوعا من رد الاعتبار الى الدور الهام الذي قام به الخبراء السوفيات في مصر .

بعد هذه المقدمات سافر وزير خارجية مصر ، اسماعيل فهمي ، على رأس وفد هام الى موسكو ضم رئيس اركان الجيش المصري ووزير التخطيط وعددا من كبار الخبراء السياسيين والعسكريين والاقتصاديين . وحمل فهمي رسالة « مهمة وطويلة » من السادات الى بريجنيف . وعند مغادرته القاهرة صرح فهمي قائلا ان زيارته تعتبر خطوة جديدة كبيرة على طريق العلاقات السوفياتية المصرية هدفها تطوير هذه العلاقات على أسس ثابتة وسليمة واستنادا الى تفاهم حقيقي يخدم مصلحة البلدين واستمرار الصداقة بينهما. وذكرت مصادر مطلعة ان محادثات فهمي مع غروميسكو وبريجنيف تناولت الموضوعات الرئيسية التالية : (أ) السعي الى تحسين العلاقات بين البلدين بعد التدهور الذي شهدته في السنوات الثلاث الاخيرة وبعد الهجوم العلني الذي تعرض له الاتحاد السوفياتي على يد الزعامة المصرية واجهزة الاعلام في البلد . (ب) الاتفاق على عدد من القضايا التجارية والمالية والصناعية والاقتصادية العالقة بين البلدين وخاصة مسألة تزويد الاتحاد السوفياتي لمصر بما تحتاجه من سلع ومعدات بالاضافة الى التفاهم حول مشكلة القروض التي استحقت على مصر للاتحاد السوفياتي . وبهذا الصدد صرح وزير التجارة الذي رافق الوفد المصري ان مباحثاته في موسكو ستتناول « تنمية التبادل التجاري وتحديد نوعيات السلع المتبادلة في السنوات المقبلة » وأكد بأنه لا بد وان يحاول الطرفان ازالة اية عقبة في طريق تنمية التبادل التجاري بين البلدين . (ج) الوصول الى اتفاق حول حصول مصر على مزيد من الاسلحة السوفياتية الجديدة وضمان وصول قطع الغيار واستمرار الدعم العسكري السوفياتي . ومن المفترض ان يناقش رئيس الاركان بالتفصيل احتياجات مصر من الاسلحة مع المسؤولين العسكريين السوفيات. (د) التمهيد لاجتماع القمة الذي سيتم عقده بين السادات وبريجنيف في القاهرة في الاسابيع المقبلة .

وقد اسفرت هذه الزيارة عن نتيجتين هامتين : اولا الاعلان رسميا عن موعد زيارة بريجنيف للقاهرة

(١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٥) . وقد اسفر بيان رسمي اذيع عقب اجتماع فهمي ببريجنيف الى تصميم الطرفين على تنمية علاقات صداقة وتعاون كاملة بين البلدين استنادا الى اساس صلب هو معاهدة الصداقة المصرية السوفياتية المبرمة في ايار (مايو) ١٩٧٠ كما أكد تأييد الاتحاد السوفياتي للشعوب العربية في نضالها ضد الامبريالية ومن أجل تصفية آثار العدوان الاسرائيلي واقامة سلام عادل ودائم في المنطقة . هذا بالاضافة الى تعبيره عن شكر جمهورية مصر العربية وامتنانها للاتحاد السوفياتي على مساعداته ودعمه لاقتصادها وتقوية قدراتها الدفاعية . وترددت انباء صحفية بهذا الصدد تقول ان بريجنيف سيزور ايضا سوريا والعراق والجزائر وانه سيترأس وفدا عسكريا وسياسيا واقتصاديا وحزبيا كبيرا، وان محادثاته مع الرئيس السادات ستتناول مجالات التعاون الثنائي بين البلدين . ومن المنتظر ان تؤدي الزيارة الى توقيع اتفاقات للتعاون الاقتصادي والتجاري والتقني والنووي والحزبي بين البلدين ، وان يساهم الاتحاد السوفياتي في خطة التنمية المصرية وان يوقع معها اتفاقات عسكرية لتزويدها بأسلحة ومعدات عسكرية جديدة . ثانيا ، صدور بيان مشترك ركز بصورة رئيسية على القضية الفلسطينية ولم يتطرق الى العلاقات الثنائية بين البلدين . وذكر البيان النقاط التالية : (أ) انه تم الاتفاق على ان التسوية السياسية النهائية والشاملة التي ينبغي التوصل اليها في مؤتمر جنيف غير ممكنة بدون ضمان الحقوق المشروعة لشعب فلسطين العربي ولا سيما حقه في انشاء كيانه الوطني. (ب) الاتفاق على ضرورة اشتراك ممثلين من منظمة التحرير الفلسطينية بصفة مستقلة وعلى قدم المساواة مع بقية الاطراف في مؤتمر جنيف . (ج) الاتفاق على ضرورة عمل الطرفين من أجل استئناف أعمال مؤتمر جنيف للسلام في أقرب وقت ممكن . (د) الاتفاق على التعبير عن ارتياح الطرفين الى القرار الذي أصدرته الجمعية العمومية للامم المتحدة بتوجيه الدعوة الى منظمة التحرير الفلسطينية للمشاركة في مناقشة القضية الفلسطينية . (هـ) الاتفاق على التعبير عن ثقة الطرفين بأن الجمعية العمومية ستتخذ قرارا بناء حول هذا الموضوع يسهم في ضمان الحقوق الفلسطينية المشروعة . ويبدو ان البيان المشترك لم يتطرق الى العلاقات الثنائية بين البلدين لان الاتحاد السوفياتي فضل الوصول الى نتائج ملموسة حول هذا الموضوع في اللقاء الذي سيجري بين بريجنيف والرئيس السادات . وقد ذكرت انباء صحفية ان الاتحاد السوفياتي وافق مبدئيا على تزويد مصر بمفاعل نووي لاغراض سلمية .

وجدير بالاشارة هنا انه على اثر زيارة فهمي شنت أجهزة الاعلام السوفياتية هجوما عنيف اللهجة على دبلوماسية هنري كيسينجر في الشرق الاوسط وذلك في وقت كان الوزير الاميركي يقوم بزيارة موسكو . وركز الهجوم على القول بأن سياسة كيسينجر لن تؤدي أبدا الى حل القضايا الجوهرية المطلوب حلها في أية تسوية سلمية في الشرق الاوسط . كما هاجمت الفكرة الاساسية التي يعمل كيسينجر استنادا اليها وهي فكرة اجراء المحادثات الثنائية المنفصلة بين اسرائيل والدول العربية المعنية وابرام الاتفاقات الجزئية « التي لا تؤدي الا الى اطالة أمد النزاعات » . وفي هذا الكلام نقد واضح لمحاولة الوزير الاميركي استبدال مؤتمر جنيف بهذا النوع من المفاوضات والاتفاقات .

تمثل التطور الدولي الهام الاخر في الزيارة التي قام بها وزير خارجية فرنسا سوفانيارغ الى كل من بيروت وعمان وتل ابيب والآثار التي تركتها زيارته . وكان الجانب المثير في هذه الجولة اجتماع الوزير الفرنسي الى رئيس منظمة التحرير ياسر عرفات . وقد فسر اجتماعه هذا بقوله ان فرنسا تضع القضية الفلسطينية في موقع الصدارة في تسوية ازمة الشرق الاوسط ، ولذلك ينبغي « الاستماع الى الفلسطينيين وبالتالي الى القائد الفلسطيني الذي يمثل أماني شعبه ويجسدها ». وبعد تصويت فرنسا الى جانب منظمة التحرير في هيئة الامم اعتبر اجتماع سوفانيارغ بعرفات اعترافا من جانب الحكومة الفرنسية بمنظمة التحرير كممثل للشعب الفلسطيني . وذكرت مصادر فلسطينية ان الحوار بينهما كان « صريحا ووديا ومباشرا ، كما كان حوار حليفين » . كما ذكرت هذه المصادر ان الوزير الفرنسي أكد النقاط التالية خلال محادثاته مع عرفات : (أ) ضرورة تفهم الثورة

الفلسطينية للواقع الدولي لكي تكسب المزيد من الدعم والاصدقاء . (ب) في الاهمية التي تنطوي عليها دعوة منظمة التحرير الى الامم المتحدة باعتبارها مكسب سياسي كبير . (ج) تأييد فرنسا للانسحاب الاسرائيلي الكامل من الاراضي العربية المحتلة . (د) مطالبة فرنسا باعطاء الشعب الفلسطيني حقوته الشرعية وتأييدها لوجود اسرائيل ضمن حدود آمنة . (هـ) تأييد فرنسا لاقامة سلطة وطنية فلسطينية مستقلة. (و) ضرورة اشتراك منظمة التحرير في مؤتمر جنيف باعتبار ان ذلك شرط اساسي لتحقيق أية تسوية عادلة . وعلى اثر انتهاء المحادثات ادلى عرفات بالتعليق التالي « كان اللقاء وديا وساده جو من التفاهم على الكثير من القضايا المطروحة ونتوقع ان يوصلنا هذا اللقاء الى المزيد من تطوير العلاقات الفرنسية ــ الفلسطينية . جاء اللقاء تتويجا للمواقف الفرنسية الايجابية تجاه القضية العربية عموما والقضية الفلسطينية خصوصا » . وفي هذه الاثناء أعلن ناطق رسمي باسم الحكومة الفرنسية ان الرئيس ديستان أكد في جلسة مجلس الوزراء صباح الاربعاء ٢٣ تشرين الاول (اكتوبر) ، ان السلام لا يمكن ان يعود الى الشرق الاوسط بدون اتفاق كامل يتضمن تسوية للقضية الفلسطينية وان هدف زيارة الوزير الفرنسي هي التأكيد على وجهة نظر فرنسا هذه . وعاد الرئيس ديستان الى تحديد الموقف الفرنسي الرسمي شخصيا عبر مؤتمر صحافي عقده خصص قسما كبيرا منه للحديث عن القضية الفلسطينية وشدد على ان مشكلة الفلسطينيين ليست مشكلة لاجئين لانهم « يشكلون كيانا وحقيقة وشعبا » . واضاف قائلا بأنه يجب ان يكون لهذا الشعب وطنه . وان بلاده تعتبر ان أية تسوية سلمية دائمة في المنطقة غير ممكنة بدون معالجة القضية الفلسطينية وحلها بشكل عادل ، وان المفاوضات يجب ان تبدأ من اجل الوصول الى هذا الحل على اساس تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ . مع ذلك وجه ديستان نقدا لهذا القرار لانه لا يتحدث عن الفلسطينيين الا في صيغة اللاجئين . كما دعا الى عقد مؤتمر كبير للطاقة في مستهل ١٩٧٥ تحضره البلدان المنتجة للنفط والبلدان الغربيــة الرئيسية المستهلكة له بالاضافة الى بلدان مستهلكة اخرى غير صناعية .

وفي طريقه الى اسرائيل زار سوفانيارغ عمان حيث صدر بيان رسمي ذكر ان محادثاته مع الملك حسين تناولت العلاقات الثنائية بين البلدين ووسائل دعمها وتطويرها بالاضافة الى تبادل وجهات النظر حول آخر تطورات الوضع الراهن في الشرق الاوسط .

في اسرائيل اتصفت زيارة الوزير الفرنسي بالحدة والاثارة والتصادم العلني في وجهات النظر بينه وبين المسؤولين الاسرائيليين . عند وصوله الى تل ابيب صرح سوفانيارغ قائلا بأنه جاء على أمل « بأن يتمكن من ازالة سوء التفاهم بين فرنسا واسرائيل » . وشدد على ان فرنسا تؤيد حق اسرائيل في الوجود ضمن حدودها التي كانت قائمة قبل حرب ١٩٦٧ . واشار كذلك الى لقائه بياسر عرفات قائلا بأن حكومته تعتقد بأنه ليس بالامكان حل مشكلة الشرق الاوسط بدون حل مشكلة مصير الشعب الفلسطيني الذي لم يعد بالامكان اعتباره مجرد مجموعة من اللاجئين . وظهرت الخلافات الحادة في وجهات النظر منذ وصول الوزير الى تل ابيب . اذ أكد آلون ، بمناسبة استقباله للزائر ، بأن اسرائيل لا يمكن ان توافق على العودة الى حدود عام ١٩٦٧ . وذكرت أوساط دبلوماسية مطلعة ان محادثات سوفانيارغ مع آلون ورابين لم تكن « محادثات » بالمعنى الدقيق للعبارة اذ ان كل طرف عرض وجهة نظره المتعارضة مع وجهة نظر الطرف الاخر . فقد بين الوزير الفرنسي ان السلام مستحيل اذا ارادت اسرائيل الاحتفاظ بالاراضي المحتلة وان السبيل الوحيد لحصول اسرائيل على حدود سلام حقيقية هو عدم اعتراض أحد على هذه الحدود وتحصينها بضمانات دولية ، وانه لا بد من ايجاد حل عادل لمشكلة الشعب الفلسطيني . كما اشار على اسرائيل من موقع الحرص على سلامتها ومستقبلها ان تعترف بالفلسطينيين ومنظمة التحرير لتفادي حرب جديدة اذ ان العرب يملكون طاقات هائلة واظهروا في الحرب الاخيرة امتلاكهم لارادة القتال والقدرة على تجنيد الاصدقاء في الحرب ضد اسرائيل . وأكد انه يقول هذا الكلام الى الاسرائيليين كصديق « يدعوهم الى التفكير بمستقبلهم » . أما الجانب الاسرائيلي فقد طرح موقفه المعروف على لسان رابين والذي يتلخص في

رفض اسرائيل ان يتوقف أمنها على ضمانات دولية ورفضها لخطوط عام ١٩٦٧ كحدود دائمة ورفضها لتسوية المشكلة الفلسطينية مع منظمة التحرير . بالاضافة الى ذلك حذر رابين ضيفه بأن السياسة الخارجية التي تنتهجها فرنسا في المنطقة يمكن ان تؤدي الى نشوب حرب جديدة . وقبل مغادرته اسرائيل عقد الوزير الفرنسي مؤتمرا صحافيا أعلن فيه انه لاحظ نتيجة محادثاته هناك بأن المسؤولين الاسرائيليين يعارضون معارضة تامة أية مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية . وعاد الى التأكيد من جديد على وجود الشعب الفلسطيني والواقع الفلسطيني الذي ينبغي أخذه بعين الاعتبار . وجدير بالاشارة الى ان الوزير الفرنسي خرج عن النص الرسمي لخطابه الوداعي (بسبب الهجوم الشديد الذي شنه عليه آلون في مأدبة العشاء الوداعية) بقوله ان موقف فرنسا يتعارض مع المصالح الحيوية لاسرائيل ويشجع على نشوب الحرب في المنطقة . كما ان سياسة تأييد الجانب العربي ستضعف من دور فرنسا في المنطقة) ليرد على اتهامات آلون فذكر مستمعيه بأن فرنسا لم تخترع القضية الفلسطينية وان سياستها تقوم على اعتبار ان أمن اسرائيل يستند الى قرارات الامم المتحدة والضمانات الدولية وليس الى احتلال الاراضي .

وفي معرض هذه الاشارة الى الموقف الفرنسي المستجد حول قضية الشعب الفلسطيني لا بد من ان نذكر الاعلان الذي أصدرته الحكومة البريطانية العمالية في الاسبوع الثاني من الشهر الجاري حول الموضوع نفسه . وقد جاء هذا الاعلان على لسان وزير الخارجية البريطاني في اجتماع للحركة الصهيونية العمالية في انكلترا . وأكد هذا البيان ان الفلسطينيين هم مركز الصراع في الشرق الاوسط وان اية محاولة لتجاهلهم او طرحهم جانبا ستقضي حتما على ما تم تحقيقه على صعيد مساعي السلام في المنطقة . كما اشار الى انه على الاسرة الدولية ان تعثر على طريق تمكن الشعب الفلسطيني من الاعراب عن شخصيته وممارسة حقوقه الوطنية المشروعة شريطة الا يمس ذلك حق اسرائيل في الوجود داخل حدود آمنة ومعترف بها والا يثير اية تساؤلات حول هذا الحق ، وشدد المتحدث البريطاني بان السلام لن يعود الى الشرق الاوسط الا اذا حقق الفلسطينيون مركزا يستطيعون ان يعتبروه ملكا لهم ، وان هدف بريطانيا في هيئة الامم هو الحصول على مشروع قرار يعترف بالاماني المشروعة للشعب الفلسطيني بدون ان يثير العراقيل في طريق تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ . وعلى الرغم من عبارات التحفظ الشديدة التي صيغ بها هذا البيان الرسمي فانه يعتبر أفضل ما صدر عن الحكومات العمالية البريطانية بالنسبة لقضية الشعب الفلسطيني .

أما فيما يتعلق بمؤتمر القمة العربي في الرباط والانتصار الذي تمكنت منظمة التحرير من انتزاعه هناك فقد كان له اصداء دولية هامة . وقد تمثل هذا الانتصار بالاعتراف العربي الاجماعي بمنظمة التحرير كممثل الشعب الفلسطيني الشرعي والوحيد وبتأييد اقامة السلطة الوطنية على كل أرض فلسطينية ينحسر عنها الاحتلال الاسرائيلي مما يعني كف يد الملك حسين عن الضفة الغربية. وبرزت الناحية الدولية لاجتماعات القمة العربية أول ما برزت في المؤتمر الصحفي الذي عقده الملك الحسن الثاني عقب انتهاء اجتماعات القمة حيث حذر الولايات المتحدة واسرائيل من مغبة عدم الاعتراف بمنظمة التحرير كطرف مفاوض لان ذلك سيعني انفجارا جديدا في المنطقة وستكون اليد العليا فيه للعرب . وأشار الى الطاقات والثروات العربية المتراكمة ونصح اسرائيل بضرورة القيام بالخطوة التالية لان الطرف العربي لم يعد هو الطرف الاضعف . كذلك اشار الى موضوع سلاح النفط بقوله ان الدول العربية قررت عدم استخدامه مرة اخرى ضد الغرب « لان هذا السلاح ذو حدين » ولذلك فان النفط سيستمر في التدفق في الوقت الحاضر .

بالنسبة لاسرائيل كان رد فعلها على قرارات مؤتمر القمة عنيفا وممزوجا بالتوتر والمرارة . فقد أعلن وزير الاعلام اهارون ياريف ان اسرائيل ما زالت تعارض انشاء دولة فلسطينية بقيادة منظمة التحرير في الضفة الغربية على الرغم من قرار مؤتمر القمة العربي . كما اكد المسؤولون الاسرائيليون على أعلى المستويات بان حكومتهم ترفض رفضا قاطعا التفاوض مع منظمة التحرير حول مستقبل الضفة الغربية . على سبيل المثال

اعلن رابين ان قرار مؤتمر القمة الفلسطيني « سيجبر اسرائيل على تغير سياستها وسيعقد المفاوضات في الشرق الاوسط » . كما اعلن وزير الدفاع ان اسرائيل مستعدة للتفاوض مع الاردن لاعادة بعض اجزاء الضفة الغربية . وحددت الحكومة الاسرائيلية موقفها الرسمي في بيان القاه رابين في الكنيست ذكر فيه ان حكومته ترفض رفضا قاطعا نتائج مؤتمر القمة وترفض قراراته كما ترفض ان تتفاوض « مع المنظمات الارهابية التي تعلن ان هدفها هو تدمير اسرائيل » . كما قال ان نتائج قرارات مؤتمر القمة خطيرة جدا لانها تعني استمرار سياسة مؤتمر قمة الخرطوم. وأكد رابين في بيانه ان اسرائيل ستستمر في سياساتها القائمة على المفاوضات خطوة خطوة مع الاردن من ناحية اولى ومع مصر من ناحية ثانية . واعلن ياريف مرة اخرى ان بلاده ترفض التفاوض مع منظمة التحرير « الا اذا تخلت عن مبدأها الاساسي وهو ازالة دولة اسرائيل » . وانها لن تتفاوض مع وفد عربي موحد تكون منظمة التحرير جزءا منه ولن تتفاوض الا مع كل دولة عربية على حدة . كذلك اكد ان اسرائيل لم تقطع الامل في التفاوض مع الملك حسين حول الضفة الغربية ، « لكن اذا تخلى الملك حسين نهائيا عن التفاوض مع اسرائيل فانها ستتفاوض مع طرف اخر شرط ان يعترف بأن اسرائيل واقع يجب ان يستمر في هذه المنطقة » .

أما رد الفعل الاميركي فقد تم التعبير عنه بتصريحات يلفها الغموض المتعمد وشيء من التناقض مع ميل الى تأكيد استمرار خط السياسة الاميركي على حاله وكأن قرارات مؤتمر القمة لم تكن . فعلى اثر صدور قرارات مؤتمر الرباط صرح كيسنجر قائلا خلال زيارته لطهران « ان بلاده لا تنوي تغيير سياستها » لكنها ستدرس باهتمام شديد قرارات مؤتمر الرباط . وادلى الرئيس فورد بتعليق على القمة قال فيه بأن الفرصة لم تتوافر له بعد لتقييم قرار القمة لكن « بامكاني ان اقول بأنه من المهم جدا ان يحدث تحرك نحو تسوية للمشكلات بين مصر واسرائيل وبين اسرائيل والاردن او منظمة التحرير الفلسطينية ، وبين اسرائيل وسوريا » . وقد لفتت هذه الاشارة الى منظمة التحرير الانتباه بشكل واسع لانها تشكل المرة الاولى التي يتلفظ فيها رئيس اميركي باسم منظمة التحرير وفي سياق كونها الطرف المفاوض البديل للاردن . وقد اعتبرتها بعض الاوساط مقدمة لاعتراف الولايات المتحدة في المنظمة باعتبارها أحد أطراف النزاع الاصيلة مع اسرائيل . كما اعتبرتها اوساط اخرى مجرد زلة لسان خاصة وان الناطق الصحافي باسم البيت الابيض اعلن ان ما قاله الرئيس فورد « عن مفاوضات محتملة بين منظمة التحرير الفلسطينية واسرائيل لا يمثل اي تغير في السياسة الاميركية » . واضاف الناطق قائلا ان الرئيس فورد لم يتخذ القرار النهائي بعد حول السياسة الاميركية ازاء قرارات مؤتمر القمة المتعلقة بالمنظمة وباقامة السلطة الوطنية . وعندما تم توجيه الاستيضاحات الى الناطق حول ما اذا كان نفيه لوجود اي تغير في السياسة الاميركية يعني سحب كلام فورد حول منظمة التحرير اجاب الناطق بالنفي . وعندما سئل اذا ما كان الرئيس فورد قد ارتكب خطأ عند اشارته الى منظمة التحرير اجاب الناطق بأن الرئيس لم يرتكب اي خطأ . وقد اثارت هذه التصريحات الغامضة وغير المنسجمة مع بعضها القلق والشكوك في اسرائيل مما دعا السفارة الاسرائيلية في واشنطن الى طلب ايضاح رسمي حول هذه المسألة من وزارة الخارجية الاميركية . ومن جانب اخر اعلن كيسنجر في مؤتمر صحفي عقده خلال زيارته لنيو دلهي قال فيه على الرغم من اعتراف مؤتمر القمة بمنظمة التحرير الفلسطينية فان الحكومة الاميركية تعتبر المفاوضات بين الاردن واسرائيل اكثر الطرق فعالية لمعالجة القضية الفلسطينية ومسألة الضفة الغربية المحتلة . واضاف قائلا ان طريق المفاوضات في المستقبل لا يعتمد على وجهة نظر طرف واحد (أي الطرف العربي) بل على وجهات نظر كل الاطراف المعنية . وعاد كيسنجر الى تأكيد الموقف الاميركي القائل بأن المفاوضات خطوة خطوة « بما في ذلك المفاوضات بين الاردن واسرائيل حول الضفة الغربية » تقدم أفضل أمل للنجاح في الوقت الراهن .

وفيما يتعلق بمؤتمر جنيف ذكر مصدر اردني رسمي بأن منظمة التحرير ستذهب وحدها الى المؤتمر وسيشارك وفدها في اعماله ولن يذهب

اي وفد اردني على اعتبار ان مصير الضفة الغربية قد تحدد .

على أثر انتهاء مؤتمر القمة بدأ كيسنجر جولته التاسعة في الشرق الاوسط وقد شملت مصر والسعودية والاردن وسوريا واسرائيل وتونس . وحدد الوزير الامريكي هدف زيارته قبل وصوله الى القاهرة بقوله انه آت لاجراء محادثات مع المشتركين في مؤتمر الرباط وغيرهم من الزعماء في المنطقة وتقييم الوضع معهم على ضوء التطورات الاخيرة . وأكد ان حكومة بلاده « لا تقوم في هذه اللحظة باعادة تقييم سياستها » وان الرئيس فورد وكبار مساعديه يدرسون الوضع في المنطقة بمجمله بعد عودتي (الى واشنطن) ولكني لا اتوقع تغييرا في السياسة الامريكية » . وعند وصوله الى مطار القاهرة قال كيسنجر انه سيناقش مع الرئيس السادات والوزير فهمي اخر تطورات الوضع في المنطقة على ضوء نتائج مؤتمر الرباط وقراراته . واكد ان بلاده ما زالت على استعداد لمساعدة الاطراف المعنية على تحقيق تقدم سريع نحو السلام . وقد ذكرت أوساط مطلعة ان الجانب المصري ابلغ كيسنجر في هذه المحادثات : (أ) ان قرارات الرباط لا يمكن ان تشكل عقبة في طريق التسوية السياسية العادلة لانه لا يمكن لاي سلام ان يتم في المنطقة بمعزل عن الممثلين الشرعيين للشعب الفلسطيني . (ب) ان اية قطعة ارض فلسطينية ينحسر عنها الاحتلال الصهيوني ، ان سلما او حربا ، لا بد ان تقام عليها السلطة الوطنية الفلسطينية مما يعني ضرورة مشاركة منظمة التحرير في جهود التسوية بصفتها كطرف اصيل . (جـ) ان موافقة الاردن على قرارات الرباط لا تعني الغاء دوره في المشاركة في الجهود السياسية والمساعي الرامية للتوصل الى التسوية . (د) ان مصر لن تدخل في محادثات سياسية ثنائية مع اسرائيل ولن توقع على معاهدة منفردة للسلام في مقابل انسحاب من سيناء . وعلى اثر انتهاء المحادثات مع الرئيس السادات عقد كيسنجر مؤتمرا صحفيا قال فيه : (أ) ان محادثاته مع الرئيس السادات كانت مفيدة وبناءة وأن اكثر الطرق فعالية لتحقيق التسوية السلمية هو « اسلوب التقدم خطوة خطوة » . (٢) ان قرارات مؤتمر القمة عقدت الامور بعض الشيء وانه ما زال عليه « ان يبحث في تأثير هذه القرارات » . (٣) نفى ان يكون لديه اي نية للاجتماع بياسر عرفات . (٤) قال انه سيكون بالامكان استئناف مؤتمر جنيف عندما تشعر كل الاطراف المعنية بأن انعقاده سيؤدي الى مساهمة مفيدة في تحقيق السلام .

اما الرئيس السادات فقد اكد في المؤتمر الصحفي نفسه ثقته الكاملة في الدكتور كيسنجر وتأييده لاستمرار جهود الوزير الامريكي من اجل التوصل الى السلام العادل في المنطقة . كما أكد السادات ان الباب نحو التقدم بهذا الاتجاه ما زال مفتوحا لان مؤتمر الرباط لم يضع اية عقبة في وجه حركة التقدم نحو الحل المنشود، وان مصر « على استعداد دائم لاسترجاع كل ما يمكن استرداده من الاراضي » . ورهن السادات امكانات لقائه مرة اخرى بالوزير الامريكي « بقوة الدفع التي تسير بها الاحداث في المستقبل القريب» واضاف قائلا ان هذه القوة الدافعة لا تزال مستمرة ، وان جهود كيسنجر اصبحت مطلوبة في المستقبل القريب اكثر من اي وقت مضى . وفي هذه الاثناء اعلن الناطق الصحافي باسم البيت الابيض ان موضوع مستقبل الشعب الفلسطيني هو جانب مهم من قضية الشرق الاوسط ، وان الولايات المتحدة تعترف بان الوصول الى تسوية عادلة ودائمة في الشرق الاوسط لا بد من يأخذ بعين الاعتبار المصالح الشرعية للشعب الفلسطيني . الا ان الناطق لم يحدد ما اذا كانت الولايات المتحدة تعتبر منظمة التحرير هي ممثلة مصالح الشعب الفلسطيني في مفاوضات السلام أم لا . لكنه اكد مجددا ان الاشارة التي وردت في تصريح الرئيس فورد الى منظمة التحرير لا تشكل اي تغير في السياسة الامريكية .

بعد القاهرة قام كيسنجر بزيارة سريعة للعربية السعودية حيث اجرى محادثات مع الملك فيصل . وادلى كيسنجر بتصريح مطول قال فيه ان محادثاته مع الملك فيصل كانت جيدة ومفيدة وانه شرح للملك « ولاصدقائنا في المملكة بأننا على استعداد للاستمرار في جهودنا اذا كانت الاطراف المعنية موافقة على ذلك وقابلة به » . واكد كيسنجر انه وجد كل مؤازرة من الملك فيصل

من اجل تحقيق هدف السلام وانه بتشجيع من جلالته ستستمر الولايات المتحدة في جهودها لتضييق شقة الخلاف بين الطرفين العربي والاسرائيلي . وبالنسبة لموضوع البترول قال كيسنجر انه شرح للملك النتائج السلبية المترتبة على الكيانات الاقتصادية والسياسية في جميع انحاء العالم بسبب اسعار النفط المرتفعة . واعرب عن أمله في ان تستمر الحكومة السعودية في محاولاتها لتخفيض اسعار النفط .

في الاردن اجرى كيسنجر محادثات مع الملك حسين وأكد بصورة علنية ان حكومته « تولي اهمية كبيرة جدا لدور الاردن بصفته احد العوامل الرئيسية لتحقيق السلام في المنطقة » . كما اشاد بالعلاقات الاردنية — الاميركية ووصف محادثاته بأنها جرت في جو من الصداقة والتفاهم . وذكرت الانباء الصحافية الصادرة من عمان بان الجانب الاردني اخبر كيسنجر بالتزام الاردن بقرارات مؤتمر الرباط وموافقته عليها . بعد ذلك وصل كيسنجر الى دمشق حيث اجرى محادثات مع الرئيس الاسد ووزير خارجيته . وصرح كيسنجر قائلا ان الرئيس الاسد عرض وجهة نظره بالنسبة لتطور الاوضاع في المنطقة ولتفسيره لمعنى قرارات مؤتمر الرباط ، وانه عرض هو بدوره موقف الولايات المتحدة في مسألة التسوية السلمية والتقدم نحوها على اساس « السير خطوة خطوة لتحقيق السلام العادل والدائم » . وذكرت الانباء ان مهمة كيسنجر لم تكن سهلة في دمشق بسبب تشدد السلطات هناك حول موضوع الانسحاب الاسرائيلي الكامل من جميع الاراضي العربية المحتلة . وقبل وصول كيسنجر الى تل ابيب اعلن وزير الخارجية الاسرائيلي الون بأنه تلقى تأكيدات من البيت الابيض ومن وزارة الخارجية الاميركية بأنه لم يطرأ اي تغيير على سياسة الولايات المتحدة فيما يتعلق بالمفاوضات مع الفلسطينيين . وقد جاءت هذه التأكيدات نتيجة اعراب الون عن قلقه من التناقضات التي ظهرت في التصريحات الاميركية عقب انتهاء مؤتمر القمة العربي . وقد أكدت وزارة الخارجية الاميركية لالون بان الولايات المتحدة لن تدعو اسرائيل الى التفاوض مع منظمة التحرير . وعند وصول كيسنجر الى اسرائيل اكد مجددا في تصريح له ما كان قد قاله حول عدم حدوث اي تغيير في السياسة الاميركية نتيجة قرارات مؤتمر القمة . وعلى اثر انتهاء محادثات الوزير الاميركي مع رابين وبقية المسؤولين الاسرائيليين ذكر وزير الاعلام الاسرائيلي ان كيسنجر ترك انطباعا بأن امكانات التفاوض مع مصر هي اكبر من امكانات التفاوض مع سوريا وأن الملك حسين بات خارج المفاوضات في الوقت الحاضر وان كيسنجر يقبل وجهة النظر الاسرائيلية القائلة برفض التفاوض مع منظمة التحرير . بعد ذلك عقد الون مؤتمرا صحافيا شرح فيه الموقف الاسرائيلي بقوله : (أ) ان اسرائيل لا تنوي اطلاقا التفاوض مع منظمة التحرير لكن هذا لا يعني بانها لن تتفاوض الا مع الاردن فقط اذ « توجد امكانات اخرى تدرسها الحكومةالاسرائيلية حاليا » . (ب) ان الاردن يبقى طرفا في مفاوضات السلام مع اسرائيل على الرغم من تخليه عن دوره في التفاوض حول الضفة الغربية . (جـ) ان اسرائيل لا تعتقد بأن مؤتمر الرباط هو الكلمة الاخيرة في سياسة الشرق الاوسط وفي مشكلة المنطقة اذ أن فرصا جديدة لا بد ان تطرح نفسها في المستقبل المنظور « عندما تدرك حكومات اكثر مسؤولية واكثر حكمة في المنطقة ان ما حدث في الرباط لا يمكن ان يؤدي الى حل سياسي » . (د) ان اسرائيل قلقة من القوة العسكرية السورية لكنها لا تنوي مهاجمة سوريا . (هـ) ان اسرائيل ما زالت تنتظر ايضاحات من كيسنجر حول ما اذا كانت مصر مستعدة لاجراء مفاوضات في خطوة اخرى نحو السلام . ويمكننا القول ان حصيلة جولة كيسنجر تمثلت اولا في اصراره على التمسك بخط السياسة الاميركي المعلن قبل مؤتمر القمة وقراراته مما يعني ان كيسنجر يريد منع المؤتمر من التأثير على تصور الولايات المتحدة للتسوية السياسية ، وثانيا في تمسكه بالتصور الاميركي لدور الاردن في هذه التسوية وهذا واضح من عدة تصريحات اطلقها تعليقا على قرارات مؤتمر القمة خلال جولته .

في هيئة الامم قام الاخ ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية بعرض قضية فلسطين امام الهيئة الدولية . وأصبح مسلم به ان مناقشة القضية الفلسطينية في المنظمة الدولية قد كرس نهائيا طابعها السياسي الدولي

بدلا من تناولها ، كما في السابق ، كفرع من فروع النزاع العربي الاسرائيلي وكمسألة مساعدات يجري تقديمها للاجئين الفلسطينيين . وقبل افتتاحه مناقشة القضية الفلسطينية في الجمعية العامة توجه ياسر عرفات الى الشعب الاميركي عبر مقابلة مطولة اجرتها معه احدى الشبكات الاميركية الرئيسية للتلفزيون وعبر مقابلة صحفية نشرتها « النيويورك تايمز » . وقد شدد عرفات في هاتين المقابلتين على : (أ) ضرورة التميز بين العنف الفلسطيني الذي يشكل سلاحا للدفاع عن النفس وبين الارهاب الذي تمارسه اسرائيل لتصفية الفلسطينيين وازالة هذا الشعب الذي ترفض اسرائيل الاعتراف بوجوده . (ب) ان بلادا مثل اسرائيل وجنوب افريقيا وروديسيا هي بؤر الحرب الحقيقية في العالم لانها تقوم على التمييز العنصري والتفرقة . (جـ) انه ما لم توقف الولايات المتحدة مساعداتها غير المشروطة وتأييدها المستمر وتخطيطها المشترك مع اسرائيل لن يكون بالامكان الحؤول دون وقوع حرب جديدة في المنطقة . (د) ان الحكومة الفلسطينية ستشكل قريبا كخطوة تمهيدية لتحقيق السيادة الفلسطينية على الاراضي الفلسطينية التي ستنسحب منها اسرائيل . (هـ) دعوة الولايات المتحدة الى الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في أن تكون له دولته كشرط للسلام في الشرق الاوسط معتبرا السلطة الفلسطينية على الضفة الغربية وقطاع غزة « نواة دولة المستقبل التي ستمتص اسرائيل الحالية بحيث يعيش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود على قدم المساواة ». (و) ان اعتراف الولايات المتحدة بمنظمة التحرير كفريق في مفاوضات السلام سيساعد كثيرا . ولذلك ناشد الشعب الاميركي والمواطنين المخلصين والشرفاء كي يمارسوا الضغط على حكومتهم كما فعلوا بالنسبة الى حرب فيتنام وذلك كي تدرك هذه الحكومة حقيقة القضية الفلسطينية لان « السلام في المنطقة سيبقى بعيدا ما دامت الولايات المتحدة تصر على عدم وجود شيء اسمه الشعب الفلسطيني » .

وجدير بالاشارة اخيرا ان انباء صحافية ترددت استنادا الى مصادر فلسطينية تقول بأن الحكومة المصرية وجهت رسالة هامة الى الحكومة الاميركية عشية مناقشة القضية الفلسطينية في هيئة الامم هدفها وضع الحقائق التالية امام الرئيس فورد ووزير خارجيته كيسنجر : (١) ان القاهرة تعتبر عرض قضية فلسطين امام الامم المتحدة ومشاركة القيادة الفلسطينية في هذا العرض يشكلان فرصة هائلة امام الولايات المتحدة كي تقوم بدور فعال من اجل التوصل الى حل عادل للمشكلة . (٢) انه على الولايات المتحدة ان تبادر منذ الان الى تفهم الصوت الفلسطيني وان تنظر نظرة موضوعية الى اسس المشكلة المتمثلة بالمطالب المشروعة للشعب الفلسطيني وتنفيذ مقررات الامم المتحدة بالاضافة الى الاخذ بعين الاعتبار المصالح الاميركية الضخمة في المنطقة . (٣) ان اي تصور لحل المشكلة بعيدا عن الاستجابة للمطالب الفلسطينية المشروعة يظل تصورا قاصرا وناقصا وسترفضه المجموعة العربية كما انه سيؤدي الى تطورات لا تخدم قضية السلام . (٤) ان جهود التسوية تواجه الان اختبارا صعبا وان امورا كثيرة ستبقى مرهونة بالموقف الذي ستتخذه الحكومة الاميركية اثناء عرض القضية الفلسطينية في هيئة الامم . (٥) ليس بالامكان التوصل الى حل شامل وعادل يضمن مصالح كافة الفرقاء الا في العودة الى قرارات الامم المتحدة وحق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم واقامة دولتهم الوطنية في الضفة الغربية وغزة . (٦) ان اي حديث عن مستقبل الضفة الغربية وغزة يجب ان يوجه الى الطرف المعني اساسا بالمشكلة وهو منظمة التحرير اذ ان الدول العربية جميعا بما فيها الاردن متمسكة بقرارات مؤتمر الرباط . (٧) انه بعد انتهاء مناقشات الجمعية العامة ستقوم الدول العربية باعادة تقييم مواقف مختلف الدول، وبصورة خاصة الولايات المتحدة ، مما يعني ان الوقت قد حان لتراجع اميركا حساباتها في المنطقة .

(٣) المناطق المحتلة

[١]

عززت سلسلة الانتصارات السياسية التي حققتها منظمة التحرير الفلسطينية ، على الصعيد العربي والدولي ، حالة النهوض الوطني بين صفوف الشعب الفلسطيني في سائر اماكن تواجده. ومثلت سلسلة الانتصارات تلك على صعيد المناطق المحتلة ، بصفة خاصة ، وما صاحبها من ردود فعل واسعة ، انجازا وطنيا هاما للثورة الفلسطينية . اذ ثبت بالدليل الحسي اجماع الشعب الفلسطيني وتأييده في كل مكان للاهداف المرحلية المعلنة للثورة الفلسطينية والمتمثلة في اقامة سلطته الوطنية الديمقراطية المستقلة على كل ارض ينحسر عنها ظل الاحتلال .

وكان انعقاد مؤتمر القمة العربي السابع في الرباط وما صدر عنه من قرارات فلسطينية هامة، ووصول الوفد الفلسطيني الى الامم المتحدة لافتتاح النقاش الخاص بالقضية الفلسطينية ، مناسبتين بارزتين لاعلان الشعب الفلسطيني في المناطق المحتلة عن انحيازه الشامل لبرنامج منظمة التحرير الفلسطينية ، المقر في برنامج النقاط العشر ، والصادر عن اجتماعات المجلس الوطني الفلسطيني الثاني عشر .

مؤتمر القمة العربي وقراراته

كان انعقاد مؤتمر القمة العربي السابع ، مناسبة هامة ، لاظهار انحياز جماهير الضفة والقطاع لبرنامج منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني . وقد تأكد عمق هذا الانحياز وشموليته ، عبر المذكرة الهامة التي وقعها ١٨٠ شخصا من ممثلي مختلف القطاعات في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وحملها قائد الثورة الفلسطينية ياسر عرفات الى مؤتمر الرباط . وكانت السلطات الاردنية قد بذلت جهودا مكثفة على اعتاب انعقاد مؤتمر القمة ، وذلك لاثبات وجودها في الضفة الغربية « باي شكل » كما ذكرت جريدة الشعب ، وهو الامر الذي يزيد من اهمية الوثيقة التاريخية التي حملها ياسر عرفات الى القمة . ومن الاجراءات التي بذلتها السلطات الاردنية لاظهار مواطني الضفة الغربية كمؤيدين لها ، تقديم التسهيلات للبلديات في الضفة الغربية وتوزيع الاموال « مقابل عرائض وتواقيع مؤيدة » والضغوط التي مارستها حيال دفع رواتب الموظفين . فقد هددت بعضهم بقطع راتب « كل من لا يؤيد سياسة الاردن بالنسبة لتمثيل الشعب الفلسطيني » . كما قام بعض اعوانها بجمع التواقيع على عرائض من المعلمين في الضفة والبالغ عددهم ٤٥٠٠ معلم . وذكرت جريدة الشعب ان ١٥٠ معلما فقط وقعوا على تلك العريضة « رغم المغريات ووسائل الاقناع المتعددة » (الشعب ٧٤/١٠/٢٥) .

وكتبت صحيفة الفجر عشية انعقاد القمة افتتاحية جاء فيها : « ان الملوك والرؤساء العرب مطالبون بتوكيد الانتصارات العربية توكيدا سياسيا وجعل التضامن العربي يحمل معنى نضاليا للوقوف صفا واحدا عاملا لتأييد دول المواجهة العربية ودعم وتعزيز قوة منظمة التحرير الفلسطينية » . وختمت افتتاحيتها بالقول ان شعوبنا « مصممة على ان يكون مؤتمر القمة هذا مؤتمر انتصار للارادة العربية والفلسطينية والتصميم على النصر هو ربح نصف المعركة » (الفجر ٧٤/١٠/٢٥) .

وعادت « الفجر » في افتتاحيتها لليوم التالي تخص النظام الاردني وموقفه في مؤتمر القمة بالتعليق . فقالت : « سيواجه الاردن امتحانا عسيرا في مؤتمر القمة بالرباط . ومن المستبعد جدا ان يغير النظام جلده ويظهر بغير مظهره فيتول او يوافق على امور تختلف جذريا عن طبيعة ايديولوجية هذا النظام » . وتوقعت الصحيفة ان يجد النظام الاردني نفسه « وحيدا في الساحة . فالدول العربية الرجعية لن تجرؤ على الوقوف معه علنا باي حال رغم التقائها معه وتأييدها له ... كذلك فان دول المواجهة ايضا ستعتبر الاردن خارجا عنها ولن تقف معه لمواقفه المشبوهة والتآمرية اثناء حرب تشرين . والدول التقدمية ترى في النظام الاردني عدوا عميلا وورما خبيثا في جسم الامة العربية يجب استئصاله فورا والقضاء

عليه » . وتوقعت الصحيفة ان يدعم الاردن الشرعية الوهمية التي يدعيها « ببصمات واختام المخاتير النحاسية » . وقالت ، غير ان محاولاته الان «مكتوب لها الفشل الذريع». وقالت ان هذا الفشل امر محتم رغم « العرائض المشبوهة واللقاءات والزيارات المتآمرة التي يعقدها أتباع الاردن هنا في الارض المحتلة بمباركة وتأييد السلطات الاسرائيلية » . وتخوفت الصحيفة في ختام تعليقها ان يقوم الحكم الاردني بالتعاون مع الدول الامبريالية « الى اجراء تسوية مباشرة ثنائية بينه وبين اسرائيل » (الفجر ٧٤/١٠/٢٦) .

وذكرت جريدة الشعب من جانبها ان النظام الاردني قد حمل معه الى مؤتمر القمة عريضة حملت « بعض توقيعات من بعض المجالس البلدية الجديدة والصغيرة وبعض المخاتير في القرى والمخيمات الى جانب اعداد من الموظفين ومعظمهم ممن واصلوا العمل لدى سلطات الاحتلال ويتقاضون راتبين من عمان والاحتلال » وذكرت الجريدة ان عدد التوقيعات هذه لم يزد على مئة (الشعب ٧٤/١٠/٢٧) . وفي « حديث الشعب » الافتتاحي تناولت الجريدة ذاتها مؤتمر القمة بالتعليق ، بعد ان انهى وزراء الخارجية العرب اعمالهم قبيل انعقاد مؤتمر القمة . ففندت ادعاء الحكم الاردني بتمثيل الشعب الفلسطيني وذكرت بمذابحه ضد هذا الشعب في ايلول ١٩٧٠ وتموز الاحراج ١٩٧١ . وذكرت بان سكان المناطق المحتلة اعلنوا اكثر من مرة « ان لا ممثل لهم الا ثورتهم ومنظماتهم ومجلسهم الوطني » . وقالت ان « الاغلبية الصامتة » التي يتحدثون عن تمثيلهم لها ، فما هي الا المقيمين في « فلسطين الشرقية الذين لا يستطيعون الجهر من الكبت والقهر » . وختمت الصحيفة تعليقها قائلة ، ان الشعب الفلسطيني « بقيادة ثورته قد امسك بزمام امره ، ولن يعود الى الوصايات تحت اي ظرف ولا يقبل تزييف ارادته تحت اي شكل » (الشعب ٧٤/١٠/٢٧) .

وتابعت « الشعب » تعليقها على اجتماعات وزراء الخارجية الممهدة لاجتماع القمة العربية بقولها ، ان الحل « البسيط والعادل » لحقوق الشعب الفلسطيني هو « وجوب عودة الامور الى ما كانت عليه قبل التقسيم المشؤوم : كيانا فلسطينيا واحدا يشمل المسلم والمسيحي واليهودي وفقا للاسس والمبادىء التالية :

١ — الفلسطيني هو كل فلسطيني او من اصل فلسطيني يحمل الجنسية الفلسطينية قبل قرار التقسيم عام ١٩٤٧ .

٢ — على كل فلسطيني وفق التعريف السابق العودة الى دياره واملاكه دون قيد او شرط ، مع وجوب اعادة كل من هو غير فلسطيني تواجد في البلاد عام ١٩٤٧ الى بلاده الاصلية التي وفد منها ، واجبار الدولة التي نزح عنها باستقبالـه واعادته الى مواطنيته ورعويته الاصلية مع اعادة املاكه وحقوقه التي تخلى عنها كاملة .

٣ — تقوم في البلاد دولة فلسطينية ديمقراطية تمثل كل الطوائف من غير تمييز وبكل ما في المساواة الكاملة من حقوق وواجبات .

٤ — والى ان يزول الاحتلال ، وكل الاسباب والاثار الاخرى ، تقوم على كل شبر يتحرر سلطة وطنية فلسطينية تكون ذراعا لمنظمة التحرير الفلسطينية بوصفها البديل الوحيد لعودة النظام الاردني او بقاء الاحتلال واستمراره » . وقالت الصحيفة : « وما لم يتحقق هذا ايها الملوك والرؤساء ، فستظل كل الاطراف تغرس رأسها في رمال الوهم والباطل كالنعامة » (الشعب ٧٤/١٠/٢٨) .

وما ان صدرت قرارات مؤتمر الرباط الفلسطينية حتى بدا التحول شاملا وملموسا لصالح منظمة التحرير الفلسطينية . وقد تبدى ذلك الشمول من التأييد في تصريحات بعض الوجهاء الذين عرفوا بتأييدهم التقليدي للملك حسين او اؤلئك الذين لم يبدوا موقفا سياسيا منحازا لاي من اطراف الصراع على تمثيل الشعب الفلسطيني . فصرح الياس فريج رئيس بلدية بيت لحم الذي عرف بتأييده للحكم الاردني لمحطة تلفزيون س. بي. اس الاميركية ، بان منظمة التحرير الفلسطينية « تتمتع بتأييد شامل في الضفة الغربية » . واضاف معلقا على قرارات الرباط « بشعور من الارتياح والغبطة » ، ان هذه هي « المرة الاولى في الحقيقة التي يعطى فيها الفلسطينيون الفرصة لتمثيل انفسهم ومعالجة

تضيتهم من قبل ابناء الشعب ممثـلا في منظمـة التحرير الفلسطينية». وقال أن هناك «دعما كاملا بين الجميع » لمنظمة التحرير الفلسطينية . ونفى ان يكون وجهاء الضفة الغربية قد بعثوا برسالة تأييد للملك حسين في مؤتمر القمة ، وقال عـن نفسه اننا لن نفعل ذلك مطلقا وان توزيـع تلـك الانباء يقصد بها « اثارة الشكوك من حول التمثيل الشرعي والوحيد لشعبنا الممثل في منظمة التحرير الفلسطينية » (الشعب ٧٤/١٠/٢٩) .

اما جريدة القدس المعروفة هي الاخرى بولائها الشديد للملك حسين ، فلم تملـك غداة صـدور قرارات الرباط الفلسطينية سوى الاشادة بهـذه القرارات ووصفها بالتاريخية . فقالت في افتتاحيتها الرئيسية : « لا شك ان قرار مؤتمر القمة العربي السابع الذي اعتبر منظمة التحرير ممثلا شرعيـا للشعب الفلسطيني واكد حق هذا الشعب في اقامة حكمه الوطني على الارض الفلسطينية التي يتـم تحريرها سلما او حربا هو قرار تاريخي من شأنه ان يحمل المنظمة مسؤولية كبرى بالنسبة لمستقبل القضية الفلسطينية » . واضافت قائلة : « سوف يكون لهذا القرار اثره البارز على تطور القضية كلها في المستقبل سواء في تعامـل العـرب مـع اسرائيل او في تعاملهم مع العالم الـذي بـدأ يستيقظ على الثقل الدولي الذي يشكله العـرب في الساحة الدولية . اننا ونحن نرحب بهذا القرار التاريخي ، ليملأنا الامل في المستقبل ، ويملأنـا الايمان بان هذا المستقبل سيكون في مستوى امالنا الكبار لاحقاق الحق وانتصـار منطـق العـدل والسلام » (القدس ٧٤/١٠/٢٩) .

وذكر من ناحية اخرى رئيس بلدية جنين ، وهو الذي لم يعرب عن رأيه السياسي في السابـق « ان الغالبية الساحقة من اهالي الضفة الغربية تفضل تسليم مقاليـد الامـور لمنظمـة التحريـر الفلسطينية وليس للملك حسين » . واضاف ان اهالي الضفة الغربيـة « يشعرون بان منظمـة التحرير التي اعترفت بشرعيتهـا معظم الـدول العربية يجب ان تمثل كافـة الفلسطينيـين » . (القدس ٧٤/١٠/٢٩) .

وقالت صحيفة الشعب في معرض سردها لمظاهر ردود الفعل التي عمت المناطـق المحتلة عقـب قرارات الرباط الفلسطينية : « عمت الفرحـة والبهجة مدن الضفة الغربية والقدس . وقد تجلى ذلك بوضوح على وجوه المواطنين الفلسطينيـين الذين اعربـوا عن ابتهاجهـم وغبطتهم للقـرار التاريخي الذي صدر من مؤتمر الملوك والرؤساء العرب وعلى تأييدهم المطلق لهذا القرار » . ومن نابلس نقل مراسل « الشعب » ردود الفعل على قرارات مؤتمر الرباط فقال : « خـرج طـلاب وطالبات المدارس جماعات متراصة بشكل تظاهري في شوارع المدينة . وكان كل منهم يحيي الاخـر باشارة النصر باصبعيه . وكـانت تسمع مـن الطلاب صيحات « نحن هنا ولا اردن بعد اليوم ». كما شهد اهالي نابلس ومنذ الساعات المبكـرة عددا من الشخصيات التقليدية التي خرجت الـى الشارع واخذت توزع التحيات والتهاني على من تمر بهم سواء كانوا تجارا او موظفين » (الشعب ٧٤/١٠/٣٠) .

وحول نفس الموضوع كتبت صحيفة يدعـوت احرونوت الاسرائيلية مقالا نقلته « الشعب » وجاء فيه : « مؤتمر القمة العربي يشغل وجهاء الضفة الغربية المحتلة بسبب موجة لا سابـق لها مـن الاشاعات والانباء وكلهم يشاركون في الرأي بـأن المسألة الفلسطينية دخلت مرحلة متطورة وكلهـم ينشرون الشائعـات بانهـم سيشكلون حكومـة فلسطينية في المنفى برئاسة ياسر عرفات . وفي هذا الوضع بدأ يظهر في الاونة الاخيرة اتجاه لتغيير الخط السياسي بين الزعامة في المناطق . ويبدو التغيير كبيرا الى درجة انه يمكن القول ان امال الملك حسين بالعودة الى الضفة والعثور فيها على مؤيدين وصلت الصفر . والزعامة التقليدية التي التصقت منذ حرب حزيران بخط سياسي كان من الصعب معه تحديد فيما اذا كانت تؤيد الحكـم الهاشمي او المنظمات ، قررت الان الظهور علنـا وهي تؤيد المنظمات » . واضافـت الصحيفـة الاسرائيلية : « ان الانتقال من التأييـد المستتر للملك حسين الى التأييد العلني للمنظمات بـدأ واضحا بعد حرب اكتوبر نورا ، فالقوى القومية في المناطق اظهرت شعور النصر بعـد الحـرب واثارت الشعور داخل الضفة . وشعر التقليديون بانهم يحشرون في الهامش ، وبدأوا في التنظيـم بسرعة تحسبا مما سيأتي . وفي البدايـة حـج بعضهم الى عمان ليجسوا مـاذا سيكون الـرد

الاردني اذا غيرت الزعامة التقليدية علاقتها المؤيدة للاردن ، وارادوا ايضا ان يعرفوا ماذا تنوي ان يفعل الاردن لتنقذ المناطق من يد المنظمات اذا اخلتها اسرائيل . ورد الاردنيون بتمتمة ولم ينجحوا في تقديم رد كاف » . واضاف ان هذه الزعامة « قلقة بشكل اساسي من حقيقة ان نشيطين قوميين كانوا في الضفة وابعدتهم اسرائيل، احتلوا مراكز حساسة في قيادة المنظمات منهم عبد الجواد الصالح الذي انتخب عضوا في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير وسيكون عضوا في وفد فلسطين الى الامم المتحدة » (الشعب ١٠/٣٠/ ٧٤) .

وذكرت الفجر من جانبها ان عددا كبيرا من اهالي المدينة المقدسة ومنطقتها ، شباب وشابات ومعلمين وموظفين واطباء قد عبروا من « فرحتهم وارتياحهم وسرورهم للقرارات التي اتخذها مؤتمر القمة العربي حول تمثيل الفلسطينيين واقامة السلطة الوطنية في الضفة الغربية بزعامة منظمة التحرير » . وقالت ان سكان المدينة قد تبادلوا التهاني « في حين وزعت الحلويات للتعبير عن الشعور هذا » (الفجر ٧٤/١٠/٣٠) .

ولم تملك صحيفة مثل صحيفة الانباء التي تشرف عليها الحكومة الاسرائيلية غير تقرير حقيقة ردود الفعل الايجابية في الضفة الغربية ازاء قرارات الرباط الفلسطينية . فقالت ان عددا كبيرا من أهالي مدينة نابلس والقضاء قد أعربوا « عن فرحتهم وارتياحهم من القرارات التي اتخذها مؤتمر القمة العربي في الرباط حول تمثيل الفلسطينيين واقامة السلطة الوطنية في الضفة الغربية . وقد شهدت نابلس نشاطا ملحوظا وتبادل عدد كبير من أهالي المدينة التهاني في حين وزعت الحلويات للتعبير عن هذا الشعور . وعلم انه من المقرر ان يجري التوقيع على عشرات من العرائض من قبل المواطنين في المدينة والمخيمات تؤيد منظمة التحرير في تمثيل الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وسترسل هذه العرائض الى زعماء الدول العربية » (جريدة الانباء الاسرائيلية ٧٤/١٠/٣٠). وقالت صحيفة الانباء في عددها لليوم التالي ان سكان محافظة الخليل قد استقبلوا ايضا قرارات الرباط « بالارتياح والبهجة » . وقالت انه « لوحظ ذلك على وجوه المواطنين ومن خلال نقاشهم ومتابعتهم للاخبار. هذا ويعتبر المواطنون ان مؤتمر القمة حقق نجاحا كبيرا سيضمن حقوق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره واقامة دولته » (الانباء ٧٤/١٠/٣١). وفي اريحا « قوبلت قرارات مؤتمر القمة السابع بالارتياح العام من قبل المواطنين في مدينة اريحا وبقية المدن في الضفة الغربية . وفي المساء عقدت اجتماعات مصغرة بين بعض الناس وراحوا يتحدثون عن القرارات التي أسفر عنها مؤتمر الرباط وعن النجاح الذي حققه المؤتمر بالنسبة للشعب الفلسطيني » (الانباء ١٠/٣١/ ٧٤). وذكرت جريدة القدس ان « مذكرة موقعة من عدد كبير من السجناء العرب في الضفة الغربية وسجون اسرائيل تحمل التأييد المطلق من السجناء لقرارات مؤتمر القمة العربي » . وارسلت المذكرة عن « طريق احدى الهيئات السياسية » (القدس ٧٤/١١/١).

يوم فلسطين في الامم المتحدة

تحت عنوان « يوم مشهود عاشته الضفة الغربية أمس ... اضرابات ومظاهرات عارمة تأييدا لمنظمة التحرير » ، نشرت صحيفة الفجر تفاصيل ردود الفعل الوطنية في الضفة الغربية لانطلاق صوت فلسطين من على منبر الامم المتحدة، فكتبت تقول : « رغم الاجراءات الامنية الصارمة التي اتخذتها سلطات الاحتلال الاسرائيلية ، ورغم الحملات التي سبقت هذه الاجراءات خرجت جموع الشعب في مظاهرات صاخبة تعبيرا عن تأييد هذه الجموع لظهور منظمة التحرير الفلسطينية أمام الجمعية العامة للامم المتحدة بمناسبة مناقشة قضية فلسطين » . وانتقلت الصحيفة الى سرد تفاصيل ردود الفعل هذه في مختلف مناطق الضفة الغربية ، فقالت : « ففي القدس العربية نظمت عدة مظاهرات صغيرة صباح أمس ، وكان فريق من رجال الشرطة والمخابرات يطوف في الشوارع مطالبا التجار بفتح حوانيتهم ومحذرا اياهم من مغبة اغلاقها . أما مدينة نابلس فقد شهدت اضرابا شاملا للمحال التجارية ،وبدت المدينة مقفرة تماما ولم يكن يشاهد في الشوارع سوى الدوريات الاسرائيلية الكثيفة المحمولة والراجلة عندما انطلقت المظاهرات الصاخبة التي اشتركت فيها كل فئات المواطنين والطلبة . وانقض رجال الجيش الاسرائيلي من مظليين وحرس حدود على

المتظاهرين . وقد أصيب نتيجة لذلك أكثر من خمسين طالبا وطالبة تم نقلهم الى المستشفى واعتقلت السلطات عددا آخر من الطلبة يقدر بـ ٥٠٠ طالب وطالبة . وانتهت المظاهرة في حوالي الساعة الثامنة صباحا بعد ان استمرت أكثر من ساعة . وكان رجال المخابرات الاسرائيلية اثناء تفريق المظاهرة يسحبون الهويات من الشباب. ولوحظ ان افراد الشرطة من العرب كانوا يشاركون قوات الجيش الاسرائيلي في تفريق المظاهرات » . وفي معرض سردها للتفاصيل ذكرت الصحيفة ان السلطات الاسرائيلية قد اعتقلت الصحفية ريموندا طويل ثم أفرجت عنها بعد ست ساعات . وذكرت ان المجلس البلدي لنابلس اجتمع في التاسعة صباحا على غير العادة لبحث التطورات الناجمة عن اغلاق المحلات التجارية والمظاهرات . وخلال الاجتماع اتصل الحاكم العسكري تليفونيا برئيس البلدية يطلب منه اذاعة الامر العسكري التالي نصه : « بأمر من الحاكم العسكري يجب على جميع أصحاب المحلات التجارية فتح محلاتهم قبل الساعة الحادية عشرة وكل من يخالف هذا الامر يعرض نفسه للعقوبات باغلاق محله نهائيا مع غرامات مالية » . وقد اذيع هذا الامر بالفعل من مكبرات السيارات والمساجد وتم فتح المحلات التجارية على اثر هذا الامر . وقد غطت أنباء المظاهرات هذه وفود من رجال الصحافة الاجانب والاسرائيليين ومراسلي التلفزيون . واضافت « الفجر » ان طلاب المدارس والمعاهد التربوية في رام الله والبيرة قد انتشروا في ساحات مدارسهم وتم اعتقال ستة طلاب من المدرسة الهاشمية في البيرة لمحاولتهم القيام بمظاهرة ، كما أضربت طالبات مركز تدريب الفتيات والمعلمات بالطيرة قرب رام الله واعتصمت طالبات دار المعلمات الحكومية في رام الله امام قاعة الطعام وتحت الشمس . كما تفرق طلاب مركز تدريب المعلمين بالمدينة داخل مراكزهم . وقامت السلطات الاسرائيلية على اثر ذلك بزيارات للمدارس والمعاهد واجتمعت مع المدراء في محاولة لحث طلابهم على مواصلة الدراسة وعدم التظاهر او الاخلال بالامن . وذكرت « الفجر » ان الدوريات المحمولة والراجلة ظلت تجوب شوارع المدينة طول النهار . وقالت كذلك : « جرت مظاهرة مماثلة في حلحول ودورا .

ففي حلحول سار اكثر من ألف طالب وطالبة في مظاهرة عارمة وخرجوا يهتفون بحياة الثورة الفلسطينية . وحضرت على الفور قوات من الجيش وحرس الحدود تقدر بـ ٤٠٠ جندي ووقعت اشتباكات أصيب نتيجتها عدد من أفراد الجيش واعتقلت السلطات مجموعة من الطلاب ، وضرب الجنود الطالبات أمام رئيس البلدية . وأما في دورا فقد خرج طلاب المدارس في البلدة في مظاهرة هاتفين بحياة الثورة الفلسطينية الا ان قوات الجيش الاسرائيلي التي حضرت على الفور فرقت المظاهرة ووضعت علامات مميزة على أبواب المحلات التجارية المغلقة ، واستخدمت هذه القوات العيارات النارية باطلاقها في الهواء لتفريق المتظاهرين ولكن لم يصب أحد من الطلاب » (الفجر ٧٤/١١/١٤).

أما صحيفة القدس التي غدت تطلق على الضفة الغربية اسم فلسطين فقد وصفت يوم فلسطين في الضفة الغربية على النحو التالي : « اتخذت قوات الجيش والبوليس الاسرائيلي أمس اجراءات أمن مشددة لمنع حدوث أية اضطرابات بمناسبة دعوة منظمة التحرير الفلسطينية لمناقشة القضية الفلسطينية أمام الجمعية العامة . هذا وكان الجنود الاسرائيليون يجوبون شوارع مدن الضفة الغربية « فلسطين » بملابس الميدان الكاملة تحسبا للاضطرابات ، وأمروا الكثيرين من أصحاب الحوانيت بفتح محلاتهم واستئناف أعمالهم التجارية » . وقالت الصحيفة على لسان مراسليها في مدن الضفة الغربية : « ان اضرابا عاما شمل معظم مرافق الحياة جرى أمس . كما شلت الحركة التجارية والمدرسية وذكر بعض المراسلين ان القوات الاسرائيلية قامت بالقاء القبض على العديد من الافراد » . وقالت ان ألف متظاهر انطلقوا في نابلس الى ساحة المدينة « وهم يطلقون الهتافات والشعارات المؤيدة لياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ... وفي حوالي الساعة العاشرة والنصف جابت شوارع المدينة عشرات السيارات العسكرية وانتشر الجنود في الميادين العامة وفوق أسطح المنازل ورابطوا أمام مختلف المدارس » . ومن ناحية اخرى أصدرت الهيئات النسائية بيانا جاء فيه : « بمناسبة عرض قضية فلسطين على هيئة الامم المتحدة فان الهيئات

النسائية لتؤيد الزعامة الفلسطينية الممثلة للشعب في عرضها للقضية على المسرح الدولي » . وجاء في البيان ان الهيئات النسائية في الضفة الغربية وقطاع غزة « تطالب بتاليف لجنة قومية لمعالجة الاوضاع والعمل على توفير القوت للمواطنين ».

أما في غزة فقد ذكرت « القدس » ان المحلات التجارية قد أغلقت حتى الساعة التاسعة صباحا « وطلبت الشرطة من أصحاب المحلات فتح محلاتهم وهددت بتقديمهم الى المحاكمة اذا استمروا في اغلاق محلاتهم . وقام عدد من طلاب المدارس بمظاهرة في الشوارع بمحلة الرمال وتوقفت الدراسة في بعض المدارس » (القدس ١٤/١١/١٩٧٤) .

وحول الخطاب الذي القاه السيد ياسر عرفات في الجمعية العمومية للامم المتحدة قالت «الشعب» في افتتاحيتها الرئيسية : « باسم فلسطين ، وقف ياسر عرفات ينقل من فوق أعلى منبر دولي دعوة شعب فلسطين لسلام العالم كله ، وليضع الحقائق كاملة واضحة عن قضية هذا الشعب منذ ان رسم هرتزل الصهيوني بداية الطريق (مراقبة) . كان رئيس منظمة التحرير وقائد الثورة صادقا واضحا وهو يحمل غصن الزيتون مع بندقية الثائر داعيا دول العالم الى الاختيار بينهما ، فاما ان تقف مع الحق والعدل والسلام واما ان تتخلى عن مسؤولياتها وتتحلل من مواثيق وعهود منظمتها وتدع صاحب الحق ينطلق مواصلا طريقه الى اهدافه » . واضافت الصحيفة « هذا هو الوجه الفلسطيني يقف أمام العالم ولاول مرة وجها لوجه ويرسم له الصورة واضحة . . ولقد أصغى العالم الى الرئيس الفلسطيني باهتمام وصفق له طويلا تصفيق المعجب المؤيد المتفهم » (الشعب ١٤/١١/٧٤).

وعلقت « القدس » حول الموضوع نفسه قائلة : « لقد لخص ياسر عرفات اماني الشعب الفلسطيني وآماله وشروطه لتحقيق أهدافه والتي تتمثل في حق تقرير المصير واقامة السلطة الوطنية والعودة. ولا نظن ان ثمة ما يمكن ان يكون أصفى ضميرا وأخلص نية وارحب انسانية من قول الفلسطيني ياسر عرفات ، بالنيابة عن الفلسطينيين اينما كانوا ، من ان الاضطهاد والظلم والتشريد ، الذي حل بشعبنا لم يجعله حاقدا يحلم بالانتقام » (القدس ١٤/١١/٧٤) .

أما صحيفة الفجر فقالت : « لقد عرض عرفات على العالم كله دعوة السلام والعدل ، فاضاء بذلك كل العتمات التي كان يحاول أعداء شعبنا الفلسطيني ان يصمونا بها . وقد أعطى عرفات كل المعاني الانسانية العميقة التي يؤمن بها الفلسطينيون رغم حرمان الفلسطينيين سنينا من حقوقهم الانسانية هذه . لم يكن عرفات متشنجا ولا حاقدا . كان ثائرا يؤمن بحقه ويدعو له ويؤمن بكل حقوق الاخرين ويعمل ايضا من أجلها » . وختمت الصحيفة تعليقها قائلة : « وبعد ، فان العالم كله استمع الى عرفات ، وتفاعل مع دعوته وآماله ، بقي ان يسمع الطرف الاخر ، الطرف الاسرائيلي ، وان لا يرفض اليد الممدودة للسلام » (الفجر ١٤/١١/٧٤).

عيسى الشعيبي

[٢]

سكان المناطق المحتلة يرحبون بقرارات مؤتمر الرباط وسلطات اسرائيل تشن حملة مضادة

استقبل سكان الضفة الغربية وقطاع غزة بالفرح والارتياح ، وعلى جميع الاصعدة والمستويات ، مقررات مؤتمر الرباط ، التي تقضي بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، ممثلا شرعيا ووحيدا للشعب الفلسطيني ، وحق هذا الشعب باقامة السلطة الوطنية في أي جزء يتم تحريره من الارض الفلسطينية ، فقد رحب بذلك ، بل واحتفل به الوجهاء والعمال والفلاحون والطلاب والصحافة ، مما اغضب الراي العام الاسرائيلي وكذلك السلطات الاسرائيلية ، حيث اخذت مختلف الجهات تطلق التهديد والوعيد ، وخاصة ضد الصحف العربية الصادرة في القدس الشرقية ، بعد ان

اتهمتها بالتحريض واثارة القلاقل ضد الامن وضد السلطات . وفيما يلي نستعرض أهم ردود الفعل لدى العرب هناك ومدى استقبالهم لقررات مؤتمر الرباط ، ولدعوة م.ت.ف. للاشتراك في مناقشة القضية الفلسطينية في الجمعية العمومية ، ثم ردود الفعل والحملة الاسرائيلية التي رافقت ذلك.

« لو جرى في هذه الايام استفتاء عام بين سكان الضفة الغربية والقدس الشرقية بالنسبة لمستقبلهم السياسي ، وكان عليهم الاختيار بين منظمة التحرير الفلسطينية والاردن ، فمما لا شك فيه ان منظمة التحرير كانت ستحظى بأغلبية حاسمة » ـ هكذا وصف أحد المعلقين الاسرائيليين (يهودا ليطني ـ هآرتس ، ٧٤/١٠/٢٩) الوضع في المناطق المحتلة، مستطردا : « قال أحد المؤيدين المتحمسين للملك حسين ، انه حسب تقديره ، لا يوجد أكثر من ١٠٪ من بين السكان يؤيدون الاردن الان . وحتى ان الصحف التي كانت معروفة بميولها للاردن ، أخذت تغير من لهجتها وخطها ، وذلك بعد قبول منظمة التحرير كمراقب في المناقشات المتعلقة بقضية فلسطين في الجمعية العمومية . فكتبت « القدس » تقول : « ان قرار الجمعية العمومية هو أسعد يوم بالنسبة للعرب وانه أسوأ يوم بالنسبة للاسرائيليين منذ اقامة دولتهم » .

واضاف ليطني : « ان هؤلاء الذين شكلوا « الاغلبية الصامتة » في الضفة الغربية قبل حرب يوم الغفران ، والعمال والفلاحين الذين لم يجرؤوا في الماضي على ابداء آراء سياسية ، سواء الى هنا ام لهناك ، يميلون اليوم بوضوح لاعتبار زعماء منظمة التحرير الفلسطينية بأنهم أبطالهم » (المصدر نفسه) .

كما أخذت القوة السياسية لمنظمة التحرير في التزايد بحيث أصبحت تضفي طابعها على أكثر من المليون فلسطيني الموجودين في الضفة وقطاع غزة . « ويرفض الجمهور هناك بأغلبيته الساحقة، واكثر من أي وقت مضى اعتبار القضية الفلسطينية قضية انسانية للاجئين ، المحتاجين للاسكان من خلال الشفقة والرحمة . لا يوجد ـ حسب رأيهم ـ مشكلة دفع تعويضات او تصفية المخيمات المزدحمة . ولهذا لا يزعجهم بصورة خاصة قانون التعويضات لسكان القدس الشرقية ، الذي تقوم حكومة اسرائيل باعداده . كما ان مشروع الاحياء الجديدة بالقرب من مخيمات اللاجئين في غزة لا يحظى تقريبا بأي اهتمام . وان مشكلة الفلسطينيين الان هي مشكلة سياسية وقومية من الدرجة الاولى » (دافار ، ٧٤/١٠/٢٨) .

وكانت الدوائر الاسرائيلية قد تنبهت الى حدوث تغير في موقف سكان المناطق المحتلة منذ فترة غير قصيرة ، بينما تطرق أحد المعلقين الاسرائيليين الى ذلك بقوله : « ان كل من يتحدث في هذه الايام مع وجهاء الضفة ورؤساء البلديات فيها يشعر بتغير الجو . لم يبق تقريبا شيء من الاحساس بضرورة العيش سوية مع اسرائيل . فقد تغير الجو بصورة كبيرة منذ حرب يوم الغفران . وانه لا حاجة للابتعاد كثيرا من أجل جمع الاثباتات ، اذ يكفي النظر في الصحافة العربية التي تصدر في القدس . ومنها مثلا صحيفة « الفجر » التي تصف المخربين الفلسطينيين « بالثوار » وتصفهم بأنهم هم الذين يمثلون الشعب الفلسطيني . كما ان صحيفة « الشعب » تحاول التفوق على كافة الصحف بتطرفها ، وهي التي وصفت المعركة التي دارت بين الفدائيين وبين الجيش الاسرائيلي في نهاريا على انها « معركة البطولة » . كما ان هناك الكثير من المقالات والتعليقات التي تؤيد جميعها منظمة التحرير الفلسطينية ومنظمات الفدائيين » (يهوشواع تدمور ـ دافار ، ١٩/ ٧٤/٧).

واضاف تدمور : « واذا سنحت لك الفرصة وزرت مدن الضفة وحاولت التحدث الى الوجهاء ورؤساء البلديات فانهم لا يترددون (في الحديث) عن ذلك . ففي الماضي كانوا يحاولون التقليل من الكلام ، واما الاتجاه اليوم فهو عكس ذلك . انهم مستعدون للكلام والقول حازمين ، أن الممثلين الحقيقيين للفلسطينيين في الضفة هم رجال منظمة التحرير وانه بدونهم لن تتحقق التسوية . وهناك من هو مستعد لان يحذر ، مثل حمدي كنعان ، بانه اذا لم توافق اسرائيل على التسوية على أساس حدود ١٩٤٧ ، فانها يمكن ان تخسر كافة التسويات . كما تسمع هنا وهناك لهجة التهديد » (المصدر نفسه) .

وتطرق معلق آخر (داني روبنشتاين ـ دافار ، ٧٤/٧/٢٢) الى عمليات الطرد والابعاد التي

تنفذها السلطات الاسرائيلية ضد الشخصيات الوطنية من الضفة ، وانعكاس ذلك على المواطنين هناك مشيرا الى « انه بعد فترة قصيرة من حرب يوم الغفران ، عندما ازدادت موجة النشاط التخريبي في الضفة الغربية ، قام الحكم العسكري بطرد عدد من الشخصيات العربية ، مثل عبد الجواد صالح وعبد المحسن ابو ميزر والدكتور وليد قمحاوي ، وكذلك القس ايليا خوري من رام الله ، الذين تم تعيينهم في مراكز حساسة في منظمة التحرير الفلسطينية » . واستطرد الكاتب مؤكدا ان هذا تم « لاعطاء مزيد من التمثيل لسكان المناطق المحتفظ بها بأيدي اسرائيل . وسواء كان هذا أم ذاك ، فان منظمات الفدائيين هي جزء من لحم المواطنين الفلسطينيين الذين يعيشون تحت الحكم الاسرائيلي . ان عرب المناطق سواء كانوا متطرفين أم معتدلين، بالنسبة لنظرتهم الىاسرائيل، فانهم يشبهون تماما اخوانهم الموجودين في الاردن او المنتشرين في المخيمات في لبنان والبلدان العربية الاخرى . انهم يشكلون شريحة مخلصة للشعب الفلسطيني ، بكل فئاته المختلفة ، ويبرز لديهم التأييد والتماثل مع منظمات « الفدائيين » الذين يحاربون من أجلهم . وان الاصوات العربية التي تسمع هنا في المناطق ، تحت الحكم الاسرائيلي ، بانها أصوات الشعب الفلسطيني ، هي صرخات ضد توحيد القدس والاعتقالات والابعاد والمطاردات . ويكفي القاء نظرة على الصحف اليومية في المناطق ، وعلى المجلات الاسبوعية والنشرات السرية والاستماع الى بعض ما يقوله المتحدثون باسم هؤلاء السكان ، للوقوف على وجهة نظرهم . فالمجلة الاسبوعية « البشير » الصادرة في بيت لحم تكتب دائما بالاسلوب المعروف « حكومة تل ابيب » ، وابو غسان في « الشعب » يصف الحكم الاسرائيلي « بالمجموعة » وهو يعني هنا « العصابة » . وكان قد كتب ايضا ان هذه « المجموعة » لا تحارب الفلسطينيين في حياتهم فقط وانما بعد موتهم ايضا . وان السياسة الاسرائيلية كما بدت أمام مليون فلسطيني في الضفة الغربية وفي قطاع غزة ، ليست هي بالذات التي أمنت مصادر العمل ورفعت مستوىالحياة ومستوى الخدمات ، وانما هي التي صادرت الاراضي ، وهي التي قتلت واعتقلت المئات والالاف من أبنائهم » (المصدر نفسه) .

علق بعض الزعماء والمواطنين في المناطق المحتلة على قرارات مؤتمر الرباط معبرين عن تأييدهم المطلق لها . فقد أعلن رئيس بلدية جنين ، أحمد كمال السعدي : « ان قرار مؤتمر القمة العربي في الرباط يمثل ارادة الشعب الفلسطيني . والان من الواضح للجميع ان زعماء هذا الشعب هم زعماء منظمة التحرير الفلسطينية — وليس حسين » (معاريف ، ٣١/١٠/٧٤) . كما ادلى رئيس بلدية بيت لحم ، الياس فريج ، بتصريح مماثل . وقال عدد من الوجهاء : « لا يوجد لدينا ما نقوله حول الموضوع . وان منظمة التحرير تخوض معركتنا . يجب علينا ان نمكن المنظمات من ان تقول كلمتها، فهم أبطال الشعب الفلسطيني والمتحدثون الشرعيون والوحيدون باسمه » (المصدر نفسه) .

وقام مراسل الاذاعة الاسرائيلية بجولة في الضفة الغربية ، ليطلع على مواقف وآراء المواطنين حول قرار مؤتمر الرباط . وقد التقى بعدد كبير من المواطنين ، الذين أبدوا جميعهم ارتياحهم وسرورهم لهذا القرار. فقال أحد المواطنين « نفتخر بذلك ، لانها المرة الاولى منذ ٢٧ عاما ، التي يتقرر فيها ان الشعب الفلسطيني قائم كسائر الشعوب » . وأضاف آخر « انه انتصار للشعب الفلسطيني . ولاول مرة يشعر الشعب الفلسطيني بأن له كلمة في العالم » . ويضيف مراسل الاذاعة « ان الحماس في الضفة لا حد له ، وان اللغة السائدة هنا هي لغة المنظمات الفدائية. المواطنون يريدون دولة فلسطينية مستقلة وديمقراطية وعلمانية » (ر.ا.ا. ، ٥/١١/٧٤).

لم يتوقف رد الفعل لدى سكان المناطق المحتلة على التأييد فقط وانما دعوا حكومة اسرائيل الى التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية لانه ليس بمقدور زعماء اسرائيل تجاهلها ، بعد ان اعترفت جميع أمم العالم بها على انها هيئة رسمية . ويقول احد الصحافيين من نابلس : « كل واحد منا منظمة تحرير فلسطينية . اننا نؤيدها بكل ما نملك ، وما من قوة في العالم — لا الابعاد ولا السجون ولا العقوبات الاخرى لديكم — ستغير ذلك » (معاريف ، ٥/١١/٧٤) .

ازاء ردود الفعل هذه من قبل السكان في المناطق المحتلة ، حاولت السلطات الاسرائيلية التحرك

للعمل على تطويقها والحد من امتدادها ، اذ قام وزير الدفاع الاسرائيلي ، شمعون بيرس ، باجراء سلسلة من اللقاءات مع بعض الوجهاء في المناطق، من مؤيدي عمان . كما أجرى وزير الشرطة ، شلومو هيلل لقاءات مماثلة . والهدف من هذه اللقاءات ، كما لمحت الى ذلك المصادر الاسرائيلية، هو خلق زعامة عربية في المناطق معارضة لمنظمة التحرير . ولكن تلك المصادر نفسها اعترفت بأن القطار قد فات السلطات الاسرائيلية ، حيث ان العالم بأسره يعترف بمنظمة التحرير ويؤيدها . ولهذا ليس باستطاعة أي زعيم في المناطق ان يدمي العكس (دافار ، ٧٤/١٠/٢٨) .

وتؤكد المصادر الاسرائيلية ايضا انه قد يتم فتح جبهة اخرى ضد اسرائيل — وهي جبهة المناطق المحتلة . ويشهد على ذلك الفرح الجامح لدى سكان الضفة وقطاع غزة ازاء الاعتراف بمنظمة التحرير في المجالين الدولي والعربي . فقد علق حغاي ايشد (دافار ، ٧٤/١١/١) على ذلك بقوله : « يتوقع الان تشكيل حكومة فلسطينية في المنفى وجيش فلسطيني وكذلك نشاطات كثيفة أكثر في الضفة والقطاع ، لزيادة ارتباط سكانها بمنظمة التحرير وبالحكومة التي سيتم تشكيلها في المستقبل واخلاصهم لها . ولهذا السبب أسرعت حكومة اسرائيل الى توجيه تحذير لسكان الضفة والقطاع ، بعدم الانجراف أكثر مما يجب في تأييدهم لمنظمة التحرير . وستكون هناك ضرورة للتوضيح لهم ، بأن منظمة التحرير ، بالنسبة لاسرائيل ، هي جبهة معادية يجب محاربتها بكافة الوسائل ».

حملة عنيفة ضد الصحف العربية الصادرة في القدس

تقوم دوائر اسرائيلية متعددة ، رسمية كانت أم شعبية ، منذ مدة بتوجيه حملات عنيفة ضد بعض الصحف العربية الصادرة في المناطق المحتلة، متهمة اياها بانها أداة بأيدي المنظمات الفلسطينية، وانها تزرع الشك بين المواطنين ، كما انها عامل محرض ضد السلطات الاسرائيلية في المناطق المحتلة . وقد وصلت هذه الحملة الى ذروتها مؤخرا ، بعد مقررات مؤتمر الرباط ، اذ أيدت هذه الصحف تلك المقررات ودعت المواطنين الى الالتفاف حول القيادة الفلسطينية ومقاومة سلطات الاحتلال ، مما اثار تلك السلطات ودفعها الى توجيه التهديدات العلنية والمبطنة ضد هذه الصحف . وقبل ان نأتي على ذكر مضمون هذه الحملة ، لا بد لنا من التطرق ولو قليلا الى ما تعانيه الصحف هناك ، وخاصة الوطنية منها ، من اضطهاد ومعاملة سيئة .

وقد علق احدهم (داني روبنشتاين — دافار ، ٧٤/٩/٥) على اوضاع الصحف العربية في المناطق المحتلة والقيود المفروضة عليها ، مشيرا الى ان تلك القيود هي جزء من الحظر على النشاطات السياسية في المناطق المحتلة بأسرها ، وان الغاية من الحظر هو منع أي تنظيم او تجمع يبادر اليه السكان هناك . « وهناك تمييز في حرية النشر والرقابة بين الصحف العربية التي تصدر في المناطق المحتفظ بها وبين حرية النشر والرقابة المفروضة على الصحف في اسرائيل . فصحيفة « الاتحاد » الصادرة في حيفا ، لها حرية النشر من ناحية الرقابة أكثر مما للصحف الصادرة في القدس الشرقية . كما ان الرقابة في اسرائيل هي عسكرية — أمنية في الاساس ، واما بالنسبة للرقابة على الصحف العربية (في المناطق المحتلة) فهناك طابع سياسي . وباستطاعة الصحيفة التي تصدر في اسرائيل (مثلا) أن تترجم مادة معادية لاسرائيل كانت قد نشرت في الدول العربية ، كما تريد ، وان تقتبس من صحف الندائيين ومحطات الاذاعة التي تنادي بالحل بواسطة السلاح فقط ، الخ. وكذلك تستطيع نشر المواد السرية التي توزع على الجمهور العربي والمليئة بالنصوص المعادية لاسرائيل . واما الصحف العربية (في المناطق المحتلة) فلا يحق لها ان تفعل ذلك » (المصدر نفسه) .

وهنا نأتي على الحملة العنيفة التي تشنها السلطات الاسرائيلية بكافة وسائلها ضد الصحف العربية ، وهي الحملة التي وصلت الى ذروتها بعد نشر هذه الصحف تعليقات تشيد فيها بمقررات مؤتمر الرباط ، حيث ارتفعت أصوات تطالب بتقييد حرية التعبير لدى تلك الصحف . كما طرحت التساؤلات حول احجام السلطات عن منع نشر أقوال التحريض « المتطرفة » ، مثل المقال الافتتاحي لجريدة « الشعب » الذي طالب ... بتصفية دولة اسرائيل واقامة دولة فلسطينية

بموجب مفهوم عرفات » (معاريف ، ٧٤/١٠/٣١).
كذلك اشترك في هذه الحملة رئيس بلدية القدس ، تيدي كوليك ، حيث اجتمع الى رئيس الحكومة يتسحاق رابين ، وبحث معه موضوع التحريض في الصحف العربية خلال انعقاد مؤتمر القمة في الرباط . وتمنى كوليك على الحكومة بأن تتخذ كافة الوسائل المتوفرة لديها للجم المحرضين (ر.أ.ا. ، ٧٤/١٠/٣٠) . وحذر كوليك ايضا من ان اوساطا متطرفة تحاول الان تحريض الجمهور العربي في القدس الشرقية ، في اعقاب قرارات مؤتمر الرباط . وقال ان محاولات التحريض تجد تعبيرا عنها ، في هذه المرحلة بالذات ، على صفحات الجرائد ، ولكن أي ابداء للضعف من قبل السلطات الاسرائيلية يمكن ان يؤدي الى التدهور والى ظواهر التحريض في الشارع العربي. كما طالب بضرورة الاستعداد واظهار « اليد القوية » في حال اشتداد محاولات التحريض (معاريف ، ٧٤/١٠/٣١) .

ومن جهة اخرى طالب عضو الكنيست ، أمنون لين (ليكود) باجراء مناقشة عاجلة في الكنيست حول التحريض ضد اسرائيل الذي يظهر في الصحف العربية في القدس ، معلنا انه لوحظ تصعيد في التحريض بين الاوساط المتطرفة ، وانه ما لم يتم عمل شيء لاسكاتهم فسينتقلوا من الكلام الى الافعال (ر.أ.ا. ، ٧٤/١٠/٣٠) .

ولم تتوقف الاجراءات الاسرائيلية عند حد التهديد والوعيد ، وانما وصلت الى حد ابعاد رئيس تحرير صحيفة « الشعب » ، علي الخطيب ، من القدس الشرقية ، بالاضافة الى ثلاثة من نشيطي « الجبهة الوطنية الفلسطينية » : عزام عبد الحق من نابلس ، والدكتور مصطفى ملحم من حلحول ، وداوود عريقات من اريحا ، حيث تم ابعادهم عن طريق الحدود الشمالية الى لبنان ، وذلك بتهمة العمل ضد أمن وسلامة الدولة . وقد تم اتخاذ قرار ابعاد الاربعة خلال مناقشة على مستوى عال ، كما اقرت الحكومة هذا القرار بصورة نهائية . كذلك تقرر توجيه تحذير الى كافة المواطنين في الضفة الغربية ، الذين وقعوا على العريضة التي أرسلت الى مؤتمر الرباط ، معربين فيها عن تأييدهم لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وقام ضباط الحكم العسكري بابلاغهم هذا التحذير (هآرتس ، ٧٤/١١/٥) .

وقد لاقى قرار الابعاد هذا استنكارا وتنديدا عنيفين من كافة الاوساط في المناطق المحتلة ، فنددت صحيفتا « الفجر » و « الشعب » بهذا القرار ، واحتجتا على ذلك بعدم صدورهما ليوم واحد . كما استنكرت ذلك المجالس البلدية في نابلس والخليل واريحا وحلحول ، واعتبرت ذلك مناقضا لميثاق جنيف (هآرتس ، ٧٤/١١/٦) .
وفي اليوم التالي لعملية الابعاد صدرت صحيفة الشعب ، وهي تحمل على صدر صفحتها الاولى صورة رئيس تحريرها ، علي الخطيب ، ومقابلها على الصفحة نفسها صورة لياسر عرفات .

حمدان بدر

(٤) اسرائيليات

[١]

استمرار مساعي التسوية السلمية في المنطقة يفجر أزمة حكم في اسرائيل

مع انتهاء زيارة الدكتور هنري كيسنجر ، وزير الخارجية الاميركي ، للمنطقة قبل اسبوعين وعلى الرغم من تأكيد المسؤولين الاسرائيليين ان الهدف من تلك الزيارة لم يكن الا « استيضاح الاحتمالات للتوصل الى اتفاق بين الاطراف على الخطوات والمبادىء التي ستجري المفاوضات على ضوئها » في المرحلة المقبلة من التسوية، على حد تعبيريغئال آلون ، وزير خارجية اسرائيل (ر.أ.ا. ، ١٩/١٠/٧٤) ، لم تكد المشاورات التي رافقت تلك الزيارة تنتهي حتى وجدت الحكومة الاسرائيلية نفسها في مواجهة اوضاع سياسية داخلية تهددها بالسقوط ، بعد ان نشطت المعارضة في العمل ضدها .

بدأت الزوبعة السياسية التي ثارت في وجه الحكومة الاسرائيلية في منتصف هذا الشهر ، عندما قامت جماعة من اليهود المتدينين ، تطلق على نفسها اسم كتلة ايمونيم ، بمحاولة للاستيطان في عدة أماكن في الضفة الغربية المحتلة ، بهدف وضع الحكومة أمام الامر الواقع ومنعها من « التنازل عن اجزاء من أرض — اسرائيل » . وقد قوي هذا الاتجاه بشكل خاص بعد ان كثرت خلال الشهرين المنصرمين تصريحات المسؤولين الاسرائيليين عن وجود « خرائط مفصلة » لديهم للانسحاب من المناطق المحتلة ، بما في ذلك الضفة الغربية ، وهي الخرائط التي ستعرض على أية دولة عربية توافق على اجراء محادثات سلام مع اسرائيل ، ثم الاعلان عن استعداد اسرائيل للموافقة على تسوية مع العرب مقابل « انهاء حالة الحرب » ودون التوقيع على اتفاق سلام . وكان رئيس حكومة اسرائيل ، يتسحاق رابين ، قد عاد وأكد موقف حكومته هذا ، في تصريح للاذاعة الاسرائيلية ، بقوله : « اذا كان الطرف الاخر غير مستعد لعقد اتفاق سلام دفعة واحدة ، فاننا مستعدون لان نعقده على مراحل... وان السياسة التي تستهدف السلام مع الاردن من خلال اتباع خط عدم التنازل عن اي شبر ارض ، هي سياسة خاطئة » (ر.أ.ا. ، ٢٢/١٠/٧٤) .

انطلاقا من موقفها هذا ، ومن مواقفها السابقة المعلنة بمنع الاستيطان غير المرخص والمصادق عليه سلفا في المناطق المحتلة ، نشطت الحكومة الاسرائيلية ، مستعينة بقوات من الجيش ، في منع محاولات الاستيطان هذه ، وذلك في الوقت الذي أعلن فيه بعض زعماء الحزب الديني القومي (المفدال) ، مع انصارهم ، عن تأييدهم لمحاولات الاستيطان تلك ، بينما تبعهم حالا التكتل اليميني (ليكود) . وقد استطاعت الحكومة الاسرائيلية ، في نهاية الامر احباط محاولات الاستيطان تلك ، بعد ان تم اخراج المستوطنين عنوة من المناطق التي دخلوا اليها في الضفة الغربية . ولكن ما ان انتهت قوات الجيش من ذلك حتى كان ليكود يتزعم حملة للتوقيع على عريضة موجهة الى البرلمان الاسرائيلي تطالبه « بتأمين عدم تسليم يهودا والسامرة (الضفة الغربية) الى حكم اجنبي » استنادا الى « حق شعبنا في ارض — اسرائيل » وكذلك الى « حقه في الامن والاستيطان والسلام » (أنظر نص العريضة في معاريف ، ٢١/١٠/٧٤).

ديان يوقع على عريضة ليكود ويهدد بالتصويت ضد الحكومة

ربما كانت عريضة ليكود ستمر دون احداث ازمة حكم في اسرائيل لو لم يقم موشي ديان ، مع ثلاثة من زملائه من قائمة رافي ، بالتوقيع على تلك العريضة ثم اعلانه انه « اذا اثيرت في الكنيست قضية تسليم الضفة الغربية الى حكم اجنبي ، فانه سيصوت ضد هذه الخطوة » (ر.أ.ا. ، ٢٤/١٠/٧٤) ، بينما ترددت انباء عن وجود تنسيق بينه وبين زعيم المعارضة ، مناحم بيغين. والواضح ان تصويت ديان على هذا الشكل في الكنيست ، سيكون له تأثيره على مصير الحكومة ، التي تستند الى أكثرية صوت واحد (٦١ من ١٢٠ صوتا) فقط في البرلمان ، خاصة وان موقف ديان

هذا قد يؤثر على عدد من بين زملائه السبعة في كتلة رافي ، المحسوبين على الحكومة ، باعتبار كتلتهم جزءا من حزب العمل ، الذين قد يقفون الى جانبه . ورغم عدم التأكد من قوة مركز ديان داخل رافي وقدرته على حمل الكتلة لتأييده في موقفه ، خاصة وان شمعون بيريس نفسه « في وضع جيد للغاية بصفته وزيرا للدفاع ، ولا يبدو عليه انه ينظر الى هذا المنصب وكأنه وديعة ديان . وان وضع جاد يعقوبي (الوزير الثاني في كتلة رافي) يشبه وضع بيريس الى حد كبير... ورغم الشعور (داخل رافي) بالتعب من ديان ، ووجود الكثيرين — ربما الكثيرين جدا — الذين لا يريدون ان يسمعوا عن انشقاق جديد » (ران كسليف — هآرتس ، ٧٤/١٠/٢٧) ، فقد كان واضحا ان ثلاثة نواب على الاقل من رافي ، وهم اولئك الذين وقعوا مع ديان على عريضة ليكود ، سيصوتون الى جانب ديان وليكود ، ومنهم حتى من اعلن عن عزمه على ذلك — مما سيعني فقدان الحكومة لاكثريتها الضئيلة وسقوطها . وكانت بعض دوائر التجمع العمالي (معراخ) الحاكم متيقظة لامكان حدوث مثل هذا التطور منذ ان شكلت حكومة رابين الحالية ، وحاولت العمل على التصدي لها بضم المفدال (١٠ نواب) للحكومة . وقد طالت المفاوضات حول ضم هذا الحزب للحكومة ، وتعرقلت اكثر من مرة ، ولكن هذه المساعي تكللت خلال الاسبوع الماضي بالنجاح ، عندما وافقت اللجنة المركزية للمفدال على ذلك . ولكن يبدو ان هذه الخطوة ايضا لن تستطيع تأمين الاكثرية التي تسعى الحكومة اليها ، اذ اتضح عند التصويت ان ما يقارب ٤٠٪ من اعضاء اللجنة المركزية للمفدال (١٩٣ من ٥٠١ عضو) يعارضون الانضمام للحكومة ، ينتمي معظمهم الى كتلة شباب الحزب ، بزعامة عضو الكنيست زفولون هامر ويهودا بن — مئير والى الكتلة المركزية ، بزعامة الدكتور زيراخ فيرهافتيغ ، وزير الاديان سابقا (موشي مايزلس — معاريف ، ٧٤/١٠/٢٢) . وقد تعرض زعماء الجناح المعارض الى ضغوط شديدة من قبل مؤيديهم ومن قبل ليكود ومؤيديه لمنعهم من الانضمام للحكومة ، حيث ان هذا يعتبر دعما لاولئك الذين يريدون « التنازل عن ارض — اسرائيل الكاملة » (شموئيل كاتس — معاريف ، ٧٤/١٠/٢٤) ، بحيث اضطروا الى الاعلان انهم سيرفضون تعيينهم في المناصب الوزارية التي قد تسند اليهم ، فيما ترددت انباء عن عزمهم على الانشقاق عن الحزب اذا أصر على قرار الاكثرية والانضمام الى الحكومة. وفي الوقت نفسه ، ومع الاعلان عن قرار المفدال أعلنت حركة حقوق المواطن (٣ نواب) التي تتزعمها شولاميت الوني ، انها ستنسحب من الحكومة وستستقيل الوزيرة الوني من منصبها اذا انضم المفدال فعلا الى الحكومة ، نظرا للخلافات الشديدة في وجهات النظر ، القائمة بين هذه الحركة وبين المفدال حول الشؤون الداخلية (التشريع الديني ، مثلا) والخارجية (السياسة تجاه المناطق المحتلة) .

الخلاف حول التسوية على الجبهة الاردنية

كانت التطورات التي أشرنا لها موضوع اهتمام جهات عديدة في اسرائيل ، شغلت بمحاولة الوقوف على ابعادها وامكانات تأثيرها على الاوضاع السياسية داخل اسرائيل ، كحدوث انشقاقات في الاحزاب الاسرائيلية الكبرى وسقوط الحكومة ثم اجراء انتخابات جديدة باشتراك تكتلات سياسية جديدة : وبالتالي تأثير كل ذلك على مواقف اسرائيل المستقبلية من الصراع العربي الاسرائيلي. ففي معاريف (٧٤/١٠/١٨) تحدث يوسف حاريف عما يعتبره سببا للازمة الحالية التي تواجهها الحكومة الاسرائيلية بقوله ان الحديث كثر في الاونة الاخيرة عن ضرورة الوصول الى تسوية اقليمية مع الاردن ، حتى لا تجد اسرائيل نفسها في مواجهة منظمة التحرير الفلسطينية ، وهو الرأي الذي يطرحه الوزير كول « ويؤيده في ذلك وزراء مبام والوزيرة شولاميت الوني وحتى وزراء المعراخ مثل يهوشواع رابينوفيتش وابراهام عوفر، وهناك من يقول انه حتى اهارون ياريف غير بعيد عن هذا الرأي » . غير انه في مقابل ذلك ، هناك اراء اخرى داخل الحكومة الاسرائيلية ، فوزير الخارجية يؤيد تسوية مؤقتة ، بينما يعارض الوزير غليلي ذلك ويؤيده في موقفه هذا وزيرا رافي ، بيريس ويعقوبي ، في حين يطالب رئيس الحكومة بالتريث «الى ما بعد مؤتمر الرباط...» ولكن على الرغم من ذلك فان معظم الوزراء يميلون الى اجراء مفاوضات مع الاردن « واتخاذ

قرارات » في كل مرحلة من مراحل المفاوضات ، شرط ألا يتم انسحاب من أي جزء من الضفة قبل اجراء انتخابات عامة في اسرائيل ، وهذا بحد ذاته كان السبب المباشر ، بحسب رأي حاريف ، الذي « دفع ديان ... للبدء بمعركة ضد حكومة رابين» بشأن مستقبل يهودا والسامرة . وسيتوقف عنف هذه المعركة على نشاط الحكومة . ان ديان ، بقدر ما تسمح له امكاناته ، لن يوافق على ... قيام الحكومة باجراء مفاوضات واتخاذ قرارات ثم ، في مرحلة ما وبعد ان تقبل بتنازلات ، تتجه للانتخابات عارضة على الناخبين (موقفهـــا) النهائي : هذه هي التسوية التي يمكننا الوصول اليها والحصول على سلام ، اما سلام عملي — اذا كان الحديث عن تسوية مؤقتة — او الحرب ... واذا طرح السؤال على الناخبين على هذا الشكل — سلام (على أساس تسوية اقليمية) او حرب ، فمن الطبيعي الا يصوت الناخب من اجل ... « الحرب » . ولكن ديان يعتقد انه ينبغي توضيح الحقيقة للشعب قبل أن تتورط الحكومة في تنازلات وقرارات ... » (المصدر نفسه) .

لم يكن موقف ديان هذا ، المعروف بمواقفه السياسية المتناقضة ، من المواقف الملازمة له في الماضي ، وبالطبع لم يكن هذا موقفه عندما كان وزيرا للدفاع ، ولكن يظهر ان مواقفه السابقة لا تشغل باله كثيرا ويبدو ان هدفه هو اسقاط الحكومة ، وربما ترك التجمع العمالي والانضمام الى التكتل اليميني ، خاصة وانه يجد نفسه في وضع لا يخسر معه كثيرا من جراء ذلك ، بعد ان اجبر على الخروج من الحكم اثر اتهامه «بالتقصير» في حرب تشرين . « من الصعب ان نفترض ان ديان يتجه لاخضاع الحزب مرة اخرى للاخذ برأيه ، كما فعل المرة تلو الاخرى في الماضي ... ان الحزب ، والاكثر من ذلك حكومة رابين ، لا تستطيع السماح لنفسها هذه المرة ... باستسلام كهذا ، الذي يعني الغاء كل الخيارات الممكنة للمفاوضات مع الاردن ... لانه حتى وان كان يتسحاق رابين لا يعتقد بأن مفاوضات كهذه لن تؤدي الى نتائج عملية ، فانه لا يستطيع الا الدخول فيها . وعليه ، فهدف ديان هو اسقاط الحكومة حالا ، او في احدى الجولات المقبلة ، بينما يستعد لهذه المهمة من الان . ويعني هذا من ناحية ديان او رافي ، او جزء منها ، الانشقاق عن حزب العمل والانضمام الى المعسكر المضاد — معسكر ليكود . وقد كان الاعتقاد السائد حتى الان ان ديان مستعد لاتجاه كهذا شرط ان يؤدي الى قيام بداية ... ولكن من الممكن ان يكون ديان على استعداد للانشقاق اليوم ، حتى اذا لم نكون اقامة حكومة مع ليكود امكانا فوريا . ففي نهاية الامر يجد ديان نفسه اليوم في وضع لن يخسر معه كثيرا » (ران كسليف — هآرتس ، ٧٤/١٠/١٨) .

خارطة سياسية جديدة ؟

ازاء هذا الوضع ، كثرت في اسرائيل الدعوات الى اجراء انتخابات جديدة ، استنادا الى هذه المعطيات وحتى وان أدى ذلك الى انقسام الاحزاب الاسرائيلية على بعضها البعض . « ان عدم التأكد من الحصول على اكثرية في الكنيست حول موضوع مهم مثل (مصير) يهودا والسامرة والحاجة الى استعمال الجيش والشرطة ضد موجات من تسلل (المستوطنين) الاستفزازي الى الضفة الغربية يخلقان وضعا غير طبيعي . ولو كان ... رابين رئيس حكومة ، حظي بمنصبه في انتخابات عامة ... لربما كان باستطاعته — او لربما كان ملزما — بالتمسك بحكومته وشن حرب سياسية حتى اخر صوت في الكنيست ، ولكنه لا يستطيع حتى الاستناد على هذا » جدعون سامط — (هآرتس ، ٧٤/١٠/١٨) . وبعد أن يسخر الكاتب من اولئك الذين يعلنون ان الخلاف لا يتعلق بالمسائل الاقليمية ، داعيا الى اجراء انتخابات جديدة لحسم هذا الخلاف ، يضيف مؤكدا « ان المسألة الاقليمية ، لا غيرها ، هي القضية المركزية التي تقف بيننا وبين الدول العربية ، وبدون تسوية اقليمية لن يكون اتفاق. ومن يعتقد غير ذلك يسخر من نفسه او من الاخرين وحتى بالنسبة لمن لا يؤمن بالتسوية اصلا ، فالمسألة الاقليمية هي الحاسمة ... ان هذا هو السؤال المطروح الان بكل حدة وتتعلق به كل مركبات الصراع السياسي : ضم المعتدال للحكومة ، موقف ديان ورافي ، عمليات الاستيطان وبالطبع الاتصالات مع الولايات المتحدة ، وهذا السؤال يقسم الشعب بخط يمر في مكان ما في

منتصفه ... » (المصدر نفسه) .

ويتفق اكثر من معلق اسرائيلي مع سامط في رأيه هذا ، فالياهو اغرس (دافار ، ١٨/١٠/٧٤) يرى أيضا انه لا بد من اجراء انتخابات في اسرائيل بأسرع ما يمكن ، ذلك « لان نتائج الانتخابات للكنيست ، التي جرت في اواخر كانون الاول ١٩٧٣ ، لا تعبر عن رأي الناخبين في اسرائيل بعد حرب يوم الغفران . فقوائم المرشحين لم تتغير ، والاشخاص الذين يتحملون مسؤولية اخطر تقصير في تاريخ دولة اسرائيل ، كانوا مرشحين في الاماكن الاولى من قائمة المعراخ . فحقيقة استبدال وثيقة غليلي بوثيقة النقاط الاربع عشر ، الاكثر حمائمية ، والحديث فيها صراحة عن تسوية اقليمية ، لم يكن حاسما لانه لم يكن لدى زعماء مباي التاريخي الشجاعة للمطالبة صراحة بالغاء وثيقة غليلي . وهكذا بقيت الامور دون حسم وخاضعة لتفسيرات مختلفة . لقد تغير الوزراء الكبار الثلاثة حقا ، وبدلا من غولدا مئير وموشي ديان وابا ايبن جاء يتسحاق رابين وشمعون بيريس ويغئال الون . ولكن لا تفويض هناك لهذه الحكومة ، حكومة الاستمرار (والتغيير ؟) لاحداث تغييرات جوهرية في السياسة التي قررت من قبل سابقتها . ان كل خطوة تقاس بميزان وحدة الحزب والاخطار التي تواجهه . ان حزب العمل لا يستطيع الاستمرار والعمل في وضع مشوش . وسيضطر للحسم بشكل حاد لجانب أو ضد تسوية اقليمية ذات مغزى كبير للغاية من أجل اتفاق سلام » (المصدر نفسه) . واذا كان اغرس يكتفي بهذا القدر من النصائح، فان زميله شلومو اهرونسون (هآرتس ، ١٨/١٠/٧٤) يذهب ابعد منه ، داعيا رابين الى استغلال المناسبة التي قدمها ديان « والتحول من نكرة الى زعيم » ، ولذلك بالعمل على توحيد قوى مبام واحدوت هعفوداه ومباي ، ثم « مواجهة الجمهور بشعار سياسة خارجية وأمن واقعية ومساومة ، كتلك التي خدمت في الماضي مباي القديم كثيرا ، دون أن يتنازل عن أمن اسرائيل » . ولهذا فان « دفع ديان ورفاقه الثلاثة من المعراخ ونفيهم الى اليمين ، نحو ليكود وباباوات المفدال ، قد يكون خطوة سياسية مفيدة ، بالنسبة لرابين ، في الساعة المناسبة . وعندها سيصبح مرة واحدة واضع خارطة سياسية داخلية جديدة ، والزعيم المعلن لحزب سياسي موحد من جديد على أساس عقائدي مشترك » (المصدر نفسه) .

كذلك تطرق اريبه افنيري الى هذه الناحية مشيرا (دافار ، ٢٢/١٠/٧٤) الى الخطر الذي ستتعرض له اسرائيل ، بحسب رأيه ، من جراء سياسة ديان وليكود الداعية الى ضم المناطق المحتلة وتأثير ذلك على طابع اسرائيل اليهودي — الصهيوني . ولهذا « لا مناص من مجابهة علنية مع ديان وافكاره ، وقبل كل شيء داخل حزب العمل نفسه . وينبغي على الحزب الذي يدير دفة الدولة ان يكون ، اولا وقبل كل شيء، متحدا من الداخل حول هذه النقطة الحاسمة » . ولا بد ايضا من ان تتخذ ايضا باقي الاحزاب مواقفها الموحدة الخاصة بها ، وعندئذ « وبعد ان تقرر الاحزاب طابعها الحقيقي وتعرف من يمثل من وماذا ، لا مناص من اجراء انتخابات عامة للكنيست ، يعطي تقسيم الاصوات فيها حول المسألة صورة واضحة ، وكأنها استفتاء ... ولا مناص (عندها) من الحسم » (المصدر نفسه) . اما يحيئيل ليعور ، مراسل معاريف (٢١/١٠/٧٤) في الكنيست فيعلق على الدورة الثانية ، الحالية ، للكنيست الثامن ، التي افتتحت قبل ١٠ ايام ، بقوله « ان هذه الدورة ستكون « حامية » وربما مليئة بالمفاجآت التي لن تنبعث من مقاعد المعارضة فقط ، وانما حتى من بين صفوف الائتلاف . ان انضمام المفدال للائتلاف سيغير ، ظاهريا ، الخارطة البرلمانية ، ولن تستند الحكومة بعد على اغلبية ضئيلة من ٦١ صوتا ، في حين يهرع اعضاء موكيد وراكاح الى مساعدتها من وقت لآخر عند التصويت على (مواضيع) هامة ... ان الصفوف الحزبية غير « مستقيمة » ، واعضاء كنيست من المعراخ اثبتوا أنهم لا يسيرون حسب الخط — ان تم ذلك بواسطة الغياب عند التصويت او بالتوقيع على عرائض ليكود » . ويضيف ليعور ان دورة الكنيست هذه قد تكون الاخيرة « واذا تم فعلا الاسراع في الخطوات السياسية ، بشأن مصير يهودا والسامرة ، وبشكل يضطر الشعب معه الى الاعراب عن رأيه ، خلال الاشهر القريبة ، حول « التسوية الاقليمية » — فسيتم ، بحسب وعد

الحكومة ، اجراء انتخابات جديدة » (المصدر نفسه) . اما بوعز عفرون فقد علق على هذا الوضع بقوله (يديعوت احرونوت ، ٢٥/١٠/٧٤) انه « اذا كان قصد يتسحاق رابين الوصول الى أكثرية ثابتة تؤيد الحكومة وتؤمن جانبه من ضربة سكين من قبل ديان وزملائه ، فهناك امكانات جيدة للغاية بأن تضمن مناورة ادخال المفدال للحكومة ذلك . ولكن بما ان الهدف من قيام الحكومة ليس وجودها بحد ذاته ، وانما قدرتها على تنفيذ سياسة معينة ، من الصعب ان نرى كيف يستطيع رابين ان يتحرك نحو مرونة سياسية» مع وجود المفدال في حكومته . ولهذا « يتضح اذن ، اكثر فأكثر ، انه لا مناص من اجراء انتخابات جديدة ، تدور هذه المرة صراحة حول مبدأ التسوية الاقليمية والسلام ، ضد مبدأ الضم والحرب » .

لا الاردن ولا منظمة التحرير الفلسطينية ؟

ان الاراء التي أشرنا لها لم تكن الاراء الوحيدة التي طرحت حول أزمة الحكم التي تجابه اسرائيل حاليا، اذ سمعت الى جانبها اراء اخرى تدعو الى التريث وعدم دفع الاحزاب نحو الانشقاق على بعضها البعض ، لان المشاكل التي تجابهها اسرائيل على صعيد سياستها الخارجية لا تستوجب ذلك ، بل على العكس ستجد معظم الاحزاب الاسرائيلية نفسها ، على الرغم من الخلافات التي تسودها ، متحدة للتصدي للاخطار التي قد تواجه اسرائيل . وينطلق اصحاب هذا الرأي من توقعهم اعتراف العرب والعالم بـ م.ت.ف. وحقها في اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، بحيث ستضطر اسرائيل ، نظرا لرفضها الاعتراف بهذه الخطوة من جهة ولعدم تمكنها من الاستمرار في المفاوضات مع الاردن من جهة اخرى الى تنفيذ « مشروع الون » بمنح « حكم ذاتي للفلسطينيين » في الضفة ، يكون على علاقة مع اسرائيل بدلا من الاردن ، وهو ما قد يحظى بموافقة معظم حمائم وصقور اسرائيل. وفي هذا الصدد ذكر حقاي ايشد (دافار ، ٢٤/١٠/٧٤) أن المشكلة التي تجابهها اسرائيل ليست تنفيذ مشروع التقسيم لسنة ١٩٧٤ ولا مشروع الون ، اذ أن « الخطر الحقيقي يكمن في مشروع اخر تماما ، وهو الذي يشكل موضوعا للبحث الان ويحظى بتأييد دولي متزايد . انه مشروع اقامة دولة « ثالثة » في يهودا والسامرة وقطاع غزة ، اضافة الى الاردن واسرائيل ... انه هذا عمليا مشروع الحد الادنى » المشترك بين الـ ١٠٥ دولة التي صوتت في الجمعية العمومية للامم المتحدة الى جانب دعوة ممثل م.ت.ف. ، وليس من المستبعد ان تبذل محاولة لفرضها على اسرائيل ، باختيارها او رغما عنها. وكل من يريد الموافقة على هذا المشروع ملزم ، من ناحيته ، بالعمل منذ الان على الانشقاق ثم بلورة اكثرية تؤيد المشروع وتكون مستعدة لقبوله. ان أي انقسام يحدث الان في حزب العمل او المفدال سيساعد على تنفيذ « مشروع عرفات » وليس ، مع الفارق ، « مشروع الون » ... واضاف ايشد معربا عن رأيه بضرورة الاسراع الى التفاوض مع سكان الضفة الغربية وحل المشكلة معهم ، بدلا من الانهماك في العمل على انشقاق الاحزاب الاسرائيلية .

وتجدر الاشارة هنا الى أن يغئال الون وزير خارجية اسرائيل ، كان قد لمح في احدى تصريحاته الاخيرة الى ان اسرائيل قد تجد نفسها مضطرة اخيرا الى ايجاد حل خاص بها لمسألة الضفة الغربية ، وذلك بقوله — اثناء رده في الكنيست على اقتراح لجدول الاعمال ، قدمه ليكود بشأن دعوة م. ت. ف. الى الجمعية العمومية — « انه اذا قامت الاوساط المتطرفة في العالم العربي بتجميد المساعي السياسية ، فسنجد وسيلة بفضل سيادتنا ، لضمان مصالحنا السياسية والامنية، وذلك من خلال احتاق الحق مع المواطنين العرب المقيمين في المناطق المحتلة بها . ولهذا الغرض... لسنا بحاجة الى اي عامل اجنبي مع أن حكومة اسرائيل تريث في حينه ، ان هذه المشكلة يمكن حلها من خلال تسوية النزاع بين اسرائيل والاردن» (را ، ٢١/١٠/٧٤) . ويبدو ان هذا التلميح ينم عن بوادر اتجاه جديد في اسرائيل ، الى ان رئيس حكومة اسرائيل كان قد نفى بشكل قاطع قبل نحو شهر ونصف الشهر (في مقابلة مع دافار، ١٦/٩/٧٤) ان تكون اسرائيل على استعداد للتفاوض حول مصير الضفة الغربية سياسيا مع أية زعامة محلية هناك — في حين يظهر ان احتمال اجراء انتخابات جديدة ، رغم انضمام المفدال للحكومة ، يزداد من يوم لاخر .

ص.ج.

[٢]

قرارات مؤتمر الرباط تربك اسرائيل وتدفعها نحو مزيد من التصلب

أثارت قرارات مؤتمر القمة العربي السابع ، المنعقد في الرباط في نهاية الشهر الماضي ، حول القضية الفلسطينية والاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا وحيدا للشعب الفلسطيني وحق هذا الشعب في اقامة سلطته المستقلة على أي جزء من الارض المحتلة من جهة ، ثم اعلان الدول العربية رفضها التسويات الجزئية المنفردة لحل أزمة المنطقة من جهة اخرى ، موجة من الغضب والاستياء في اسرائيل ، وهي الموجة التي كانت قد بدأت مع منتصف الشهر الماضي، عندما صادقت الجمعية العمومية للامم المتحدة على دعوة م.ت.ف. للاشتراك في مناقشة القضية الفلسطينية . وقد أثارت تلك القرارات الاستياء في اسرائيل ، بشكل خاص ، كما يستدل على ذلك من مختلف التصريحات الرسمية وغير الرسمية الصادرة هناك ، بسبب معارضتها للمواقف الاسرائيلية المعلنة ، التي لا تزال تسعى للوصول الى حلول جزئية منفردة مع الدول العربية لحل ازمة المنطقة ، بينما تصر على حل القضية الفلسطينية مع الاردن بالذات ، دون م.ت.ف. كذلك ازداد تحسب اسرائيل ، بعد الاعلان عن تلك القرارات، من امكان حدوث تغيير في الموقف الاميركي تجاه حل مشاكل المنطقة .

تصلب الموقف الاسرائيلي

تشير معظم ردود الفعل الاسرائيلية على قرارات مؤتمر الرباط الى ازدياد التصلب في الموقف الاسرائيلي ، بعد « خيبة الامل » من تلك القرارات ، في حين يدعو البعض الى القيام بمحاولات للالتفاف حولها ومن خلال التمني بأنها قد تبقى حبرا على ورق . وكانت اعنف ردود الفعل على قرارات ذلك المؤتمر تلك التي صدرت عن المسؤولين الاسرائيليين بالذات ، اذ اعلن يتسحاق رابين ،رئيس حكومة اسرائيل ، بعد الاعلان عن تلك القرارات ، في محاضرة القاها في فرع حزب العمل في القدس (هآرتس ، ٧٤/١٠/٣١) ان « منظمات الارهاب لن تكون شريكة في المفاوضات مع اسرائيل ، حتى ولو وضعت على وجهها هذا القناع او ذاك . ولست ارى أية ظروف او احوال يمكن ان توافق اسرائيل فيها على اجراء مفاوضات مع منظمات الارهاب . لا يوجد لدينا ما نقوله لهذه المنظمات بمواقفها الحالية » . ومضى رابين قائلا، في المناسبة نفسها : « ان مؤتمر الرباط يهمني في امرين : أ — هل مصر مستعدة بعد المؤتمر لمتابعة المفاوضات من أجل التقدم نحو السلام ؟ حتى الان ليس لدي جواب على ذلك . ب — هل لدى الاردن توكيل لاجراء مفاوضات معنا بكل ما يتعلق بمستقبل السلام في حدودنا الشرقية ؟ » . وكان رابين قد صرح في اجتماع كتلة حزب العمل في الكنيست بأنه : « بدون الاردن لا يوجد من نتفاوض معه في الشرق الاوسط ... ان المسألة الرئيسية هي : هل تخطو مصر نحو السلام على انفراد ؟ » (دافار ، ٧٤/١١/١) .

وعاد رابين وصرح في مناسبة اخرى : « ان قرارات الرباط لا تلزم بتغيير سياسة اسرائيل . وهي ليست الكلمة الاخيرة بالنسبة لنا ، ولا بالنسبة للاردن ... » (دافار ، ٧٤/١١/٥) . وفي خطاب القاه امام المؤتمر الرابع لاتحاد الكنس اليهودية في القدس ،اعلن رابين : « اننا نعيش في دولة اسرائيل ، التي تعتبر خطوطها الدفاعية من أفضل ما عرفته دولة يهودية في أي وقت كان » (دافار ، ٧٤/١١/٥) . وشجع رابين في كلمته الاستيطان اليهودي في غور الاردن ومشارف رفح.

وفي ٧٤/١١/٥ عقد الكنيست اجتماعا لمناقشة قرارات مؤتمر الرباط.وتحدث رابين فيالجلسةفهاجم اعتراف الامم المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية، ثم شكر اليهود الذين تظاهروا في نيويورك ضد دعوة ممثلي م.ت.ف. الى الامم المتحدة وادعى ايضا ان قرارات مؤتمر الرباط « هي استمرار لقرارات الخرطوم » . ولعله اراد في ذلك صد بعض اتهامات المعارضين في داخل اسرائيل ، القائلة بأن اسرائيل تقابل قرارات العرب «بلاءات الخرطوم» الخاصة بها . وفي ختام حديثه ، تطرق رابين الى سياسة حكومته تجاه قرارات مؤتمر الرباط بقوله : « ان سياسة الخرطوم والرباط

لن تمر . ولدينا القدرة لمنع تحقيقها . ان موقف اسرائيل تجاه قرارات الرباط غاية في الوضوح :

أ ــ ترفض حكومة اسرائيل ، جملة وتفصيلا، قرارات مؤتمر الرباط ، التي يقصد منها عرقلة التقدم نحو السلام ، وتحريك مصادر الارهاب ، وانشال كل خطوة نحو التعايش بسلام مع اسرائيل .

ب ــ بموجب قرارات الكنيست ، لن تتفاوض حكومة اسرائيل مع المنظمات الارهابية ، التي سياستها المعلنة السعي لتدمير اسرائيل ووسيلتها العنف الارهابي .

ج ــ اننا نحذر القادة العرب من ان يظنوا خطأ ان التهديد او استعمال سلاح العنف او القوة العسكرية سيؤدي الى الحل السياسي . هذا وهم خطر . هدف الميثاق الوطني الفلسطيني لا يتحقق ، لا بعمليات الارهاب ، ولا بالحرب المحدودة ولا بالحرب الشاملة ... ان قرارات الرباط لا تبرر اتخاذ قرارات اضافية (من جانب اسرائيل) ، بل تضيف تأكيدا جديدا على قراراتنا السابقة ... » (دافار ، ٧٤/١١/٦) .

وقد صادق الكنيست بأغلبية الاصوات على بيان رابين هذا ، مؤيدا موقف الحكومة السابق الداعي الى حل القضية الفلسطينية عن طريق المفاوضات مع الاردن ، على اساس وجود دولتين : « دولة يهودية ، عاصمتها القدس ، ودولة عربية اردنية ــ فلسطينية الى الشرق من اسرائيل » ، وهو الموقف الذي صادق عليه البرلمان الاسرائيلي عندما اصبح رابين رئيسا للحكومة ، وصادق عليه للمرة الثانية في ٨/٢١/ ٧٤ ، بعد مناقشة الحكومة الاسرائيلية « القضية الفلسطينية » يومها لاول مرة . وقد أقر بيان الحكومة هذا بأصوات الائتلاف ، بينما عارضه النواب الباقون ، لاسباب مختلفة ، في حين دعا عدد قليل منهم ، ومن هؤلاء المنتمون لاحزاب صهيونية مختلفة ، الحكومة الى التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية شرط ان تغير موقفها من اسرائيل .

اما كتلة ليكود (التكتل اليميني المعارض) فقد أعلنت عن معارضتها لهذا الموقف ، داعية الى اتخاذ قرارات متشددة اكثر . وفي اجتماعات الكنيست تحدث زعيم الكتلة مناحم بيغن وكذلك شركاؤه بلهجة النقد المرير . وقد وصف بيغن حكومة رابين بأنها « حكومة العار » ، وقال ان قرارات الرباط هدمت كل الاسس التي قامت عليها سياسة الحكومة الاسرائيلية . وفي ٧٤/١٠/٣١ أصدرت كتلة ليكود بيانا حول قرارات الرباط ، جاء فيه : « ان جواب اسرائيل على قرارات مؤتمر الرباط يجب ان يكون واضحا : ١ ــ لا مفاوضات بعد الان مع الدول العربية حول يهودا والسامرة (الضفة الغربية) . ٢ ــ يجب اقامة حكومة تكتل وطني . ٣ ــ استيطان واسع في يهودا والسامرة ... » (هآرتس ، ٧٤/١٠/٣١) . وبالاضافة الى ذلك ، دعا بعض زعماء ليكود الى فرض القانون الاسرائيلي على الضفة الغربية كرد على قرارات الرباط ، أي ضمها رسميا الى اسرائيل .

وقد علقت صحيفة دافار شبه الرسمية في افتتاحيتها ليوم ٧٤/١١/٦ على مواقف الاطراف الاسرائيلية المختلفة هذه بقولها انه لا « لا يوجد تناقض بين موقف الحكومة وموقف ليكود ازاء منظمات الارهاب ، ولكن التوجه لدى الطرفين مختلف : فالتجمع العمالي مستعد للمصالحة الاقليمية ، اما ليكود فغير مستعد للتنازلات في الضفة الغربية ، حتى مقابل السلام ... » . وكانت الصحيفة نفسها قد علقت في افتتاحيتها لليوم السابق (٧٤/١١/٥) على موقف اسرائيل من قرارات مؤتمر الرباط ، التي أشرنا لها ، بقولها « يوجد (الان) اجماع في الوزارة والاحزاب الصهيونية على عدم المفاوضات مع م. ت. ف... والان علينا ان نرى الى أي حد سوف ينجح كيسنجر في منع الجمود والتدهور » .

اهتمام بالموقف الاميركي

رغم التأكيدات الاميركية حول عدم حدوث تغيير في سياسة امريكا ازاء م. ت. ف. ، تسود الكيان الصهيوني التساؤلات والشكوك حول امكانية تغيير هذه السياسة ، خاصة بعد تصريح الرئيس الاميركي فورد عن وجوب استمرار المفاوضات « مع الاردن او منظمة التحرير الفلسطينية » . وقد علق مراسل هآرتس (٧٤/١١/٣) في امريكا على تصريح فورد هذا بقوله : « حسب مصادر البيت الابيض ، قد تعترف الولايات المتحدة بمنظمة

التحرير الفلسطينية بهدف انقاذ مساعي كيسنجر ، فيما اذا أبدت المنظمة اعتدالا في نشاطاتها وظهرت كقوة سياسية ناضجة ... » ، مضيفا ان « عثرة لسان » فورد أعدت مسبقا . وكان سفير اسرائيل في واشنطن ، سمحه دينيتس ، قد اجتمع في واشنطن مع جوزيف سيسكو ، فور اذاعة تصريح فورد واستفسر عن موقف اميركا ، فوعده سيسكو بأن « لا تغيير في سياسة واشنطن القائمة على وجوب اجراء المفاوضات مع الاردن وليس مع م. ت. ف. » (هآرتس ، ٧٤/١٠/٣١) .

ومن جهة أخرى ، استدعى وزير خارجية اسرائيل السفير الاميركي في اسرائيل ، كيتينغ ، واجتمع معه مستفسرا عن تصريح فورد . ونشر ان السفير الاميركي اعتبر هذا التصريح على انه « قد يكون زلة لسان ... » (المصدر نفسه) . وذكرت مصادر أخرى ان السفير تحدث مع ألون بلهجة العتاب قائلا : « لقد قلنا لكم ... أترون الان ؟! » (معاريف ، ٧٤/١١/٣) .

ولكن على الرغم من ذلك « هناك مخاوف في القدس من امكانية تغيير السياسة الاميركية ازاء مسألة المفاوضات مع م. ت. ف. وتلمح واشنطن الى أن اسرائيل ساعدت في خلق الوضع الجديد ... » (هآرتس ، ٧٤/١١/٣) . وقد علق احدهم (موشي زاك — معاريف ، ٧٤/١١/١) على هذا الوضع بقوله « انه تم الاتفاق بين الاسرائيليين والاميركيين على انه ليس المهم ماذا ستكون قرارات مؤتمر الرباط . فالامر الاهم هو اذا كان باستطاعة المصريين بدء المجرى العملي للمفاوضات ، وفيما اذا كانوا سيرسلون ممثليهم الى المحادثات في واشنطن ، التي ستجري بوساطة اميركية ، أم انهم سيكونون مقيدين بقرارات الرباط ... » . واما اريئيل غيناي ، المراسل السياسي لصحيفة « يديعوت احرونوت » (٧٤/١٠/٣٠) فقد أبدى تخوفه من « ان يتصاعد الضغط السياسي على اسرائيل بهدف الحصول على موافقتها على اجراء مفاوضات مع من يعرفون بأنهم أعداؤنا الحقيقيون . وليس من المستبعد أن يسأل الاميركيون اسرائيل فيما اذا لم يكن هناك مجال للتفاوض مع م. ت. ف. وحقيقة ان كيسنجر لم يلغ رحلته الى المنطقة ، بعد قرارات الرباط ، تدفع الى الافتراض ان هذا هو موقف اميركا... » .

موقف الاردن :

حظي موقف الاردن من القضية الفلسطينية اثناء اجتماعات مؤتمر الرباط وبعده باهتمام بالغ من قبل دوائر اسرائيلية عديدة ، رسمية وغيرها ، وقد حاول بعض الوزراء الاسرائيليين تبرير سياستهم الرافضة لتقديم اية تنازلات للاردن في الضفة الغربية ، متخذين قرارات الرباط وسيلة لذلك . اذ أعلن مثلا وزير الدفاع ، شمعون بيريس ، ان « قرارات الرباط بددت الاوهام ... ويجب ان نكون مسرورين لاننا لم ننزلق نحو تقديم التنازلات لحسين في يهودا والسامرة ، بهدف تعزيز مكانته ... » (دافار ، ٧٤/١١/٦) .

وفي الوقت نفسه ، أشار بعض المراقبين الاسرائيليين الى أن الملك حسين وافق على القرار الفلسطيني مرغما « وسوف يعمل كل شيء من اجل افشاله » (معاريف ، ٧٤/١١/١) بينما ذكر آخرون (اريئيل غيناي — يديعوت احرونوت ، ٧٤/١٠/٣٠) « اننا في حاجة الى وقت معين لفهم كامل معنى قرار الرباط ، وذلك عندما نقف على كيفية تنسيق العمل بين مصر وسوريا والاردن و م.ت.ف. ومهم أيضا ان نرى الى اي حد سيتعاون حسين مع شركائه الجدد ... » . وذكر ايضا ان السبب الرئيسي الذي دفع الملك حسين للتراجع لصالح م. ت. ف. هو القرار بمنح الاردن ٣٠٠ مليون دولار من قبل دول النفط . بينما أشار معلق آخر (عوديد زراي — هآرتس ، ٧٤/١٠/٣١) الى نواح اخرى بقوله : « يبدو ان حسين عاد من الرباط ومعه خياران مفتوحان ومن الممكن تحقيقهما بصورة فعالة فيما اذا تمسكت كل من اسرائيل والولايات المتحدة بموقفهما تجاه المخربين : ١ — تطبيق قرار رسمي سابق حول تجميد نشاط الاردن السياسي وحول الاشتراك في مؤتمر جنيف ، بحيث يؤدي الجمود في نهاية الامر الى قرع أبواب الملك حسين من قبل العرب ، والطلب منه الدخول في مفاوضات مع اسرائيل . ٢ — الخيار الثاني نابع من بقاء الاردن طرفا في القضية ، ووجوب تنسيق العمل معه . وبموجب هذا الخيار يعترف الاردن بحق م. ت. ف. في استلام الضفة ولكن بعد « تحريرها » واعدادها للتسليم بواسطة حسين . وهذا بالطبع بموجب « تنسيق العمل » بين دول المواجهة و م. ت. ف.

ولكن حتى ذلك الوقت يجب توقع حدوث تطورات ، ومن ضمنها تطورات مبادر اليها ، بحيث لن تكون معها ضرورة او امكانية لتنفيذ التسليم ... » ، خاصة وانه لدى الاردن مجال للمناورة ومتسع من الوقت . امـا يهوشواع طميش ، مراسل يديعوت احرونوت (٧٤/١٠/٣٠) فقد اشار الى ان القرار الذي اتخذ حول وجوب عقد رباعي بين مصر وسوريا والاردن وم. ت. ف. معناه ان « هناك خلافات لم يتـم التوصل لحلها حتـى الان ... » ، في حين نقلت هآرتس (٧٤/١٠/٣١) عن « مصادر الضفة الغربية » قولها ان تراجع الملك حدث بسبب الغليان الذي يسود الجيش الاردني وطلب ضباط كبار في الجيش منه « باسم الجيش الاردني » ان يتراجع لصالح م. ت. ف. لتهدئة الغليان ولتجنب عزلة الاردن في العالـم العربي .

« مات مؤتمر جنيف »

أوضح وزير الاعلام الاسرائيلـي ، أهارون ياريف ، موقف اسرائيل من مؤتمر جنيف بعد الرباط بقوله : « ان معنى قرار مؤتمر الرباط هو انه اذا تفاوضت اسرائيل مع الاردن حول الانسحاب فان المنطقة (التي ستنسحب منها) ستسلم الى م. ت. ف. وستقام في الضفـة الغربية دولة فلسطينية . واسرائيل ترفض اقـامة دولـة فلسطينية مستقلة .. لذلك لا يوجد ما نتحدث عنه في جنيف...» (يديعوت احرونوت، ٧٤/١٠/٣٠).

أما الدكتور هرتسل روزنبلوم ، رئيس تحرير يديعوت احرونوت (٧٤/١٠/٣٠) فقـد لخص قرارات مؤتمر القمة في الرباط ، تحت عنـوان « مات مؤتمر جنيف » ، علـى النحو التالي : « ١ ــ ضعف التأثير الاميركي ، الداعي الـى الاعتدال ، على العرب وازداد التأثير السوفييتي الحربي عليهم . ٢ ــ يمكن بكل تأكيد النظر الى مؤتمر جنيف انه قد مات ، مهما كانت « الصيغة » التي سيتوصل اليها اقطاب الرباط . ٣ ــ نتيجة لهذين الافتراضين ، من الممكن النظر الى الحرب في المنطقة كخطر قريب جدا الينا » . بينما اشارت معـاريف (٧٤/١٠/٢٩) في افتتاحيتها حـول الموضوع نفسه ، الى انه « اذا صحت الانباء حول وقوف مؤتمر الربـاط بالاجماع الـى جانب منظمة التحرير الفلسطينية واعترافه بهـا كممثل وحيد للفلسطينيين اينما كانوا ، وانها ستستلم كل منطقة تجلو اسرائيل عنها ، فان مؤتمر الرباط يكون قد اغلق الطريق نهائيـا على المساعـي السلمية ، وعلى احتمالات مؤتمر جنيف ... ان من يقرر ان المفاوضات ستجري مع ياسر عرفات يكون قـد قرر في الواقع انـه لن تكون هنـاك مفاوضات » .

والواضح ان اسرائيل ، التي لم تكن متحمسة أبدا لمؤتمر جنيف ، والتي حاولت طوال الوقت عرقلته بكل الوسائل تريد اتخاذ قرارات القمة في الرباط حجة لذلك ، رغم انهـا دعت منذ حرب حزيران ١٩٦٧ وحتى حرب تشرين الاول ١٩٧٣ الى اجراء«المفاوضات المباشرة» مع العرب ، دون شروط مسبقة، مما دفع بعض المعلقين الاسرائيليين الى الاشارة الى انإسرائيل ما دعت الىالمفاوضات في حينه ، الا لانها كانت تعلم في تلك الظروف ان العرب سيرفضون ذلك .

نقد ودعوة الى التغيير

دفعت الانجازات الفلسطينية الاخيرة العديدين من الاسرائيليين الى الحـوار فيما بينهم حـول سياسة اسرائيـل تجاه العـرب بشكل عـام والفلسطينيين بشكل خاص. وقد عقدت الاجتماعات والندوات حول هذا الموضوع في جامعات اسرائيل وفي وسائط الاعلام المختلفة . ومع ان الخط العام الذي ساد هذا النقاش هو استمرار التنكر لحقوق الشعب الفلسطيني ، فقد انتقدت بعض الاصوات سياسة الحكومـة الاسرائيلية تجـاه الشعـب الفلسطيني ، بينما دعا بعضها للعودة الى أساس القضية ، وهو الصراع بين الصهيونية والشعب الفلسطيني . ففي دافار (٧٤/١١/٥) انتقـد دانيئيل بلوخ السياسة الاسرائيلية تجاه القضيـة الفلسطينية منذ عام ١٩٦٧ ، ووصفها بأنها كانت « سياسة النعامة » ، حيث انها لم تحل القضية مع الاردن مـن جهة ولـم تسمح بقيام قيـادة فلسطينية في المناطق المحتلة كبديل لمنظمة التحرير الفلسطينية من جهة اخرى . وأضاف : « رغم التصريحات المتشددة مـن قبل رئيس الحكومة ووزير الخارجية وغيره من الوزراء ، ربما لن يكون لنا مناص في احد الايام من اجـراء الحوار مع م. ت. ف. ومع ياسر عرفات . ولكي لا نفعل ذلك مرغمين بواسطة اميركا والعالم ، يجب ان

نفكر جديا منذ الان كيف نخرج من الورطة السياسية التي انزلقنا اليها ، ليس بذنبنا فقط ، ولكن بسبب سياستنا ايضا . يجب ان نذكر ان الصراع بدأ بين العرب واليهود في أرض اسرائيل (فلسطين)، أي انه يجب حل هذا الصراع عن طريق الحوار بين هؤلاء . ورغم اهميـة التسوية مع مصـر وسوريا ، فان هذه التسوية لن تحل المشكلة من أساسها ... علينا ان نقوم بمبادرة حول الضفة الغربية ، تقوم على أساس ان نهر الاردن هو الحد الدفاعي لاسرائيل ، ولكنـه ليس حدهـا السياسي او القومي . علينا أن نعرض خطـة أصيلة وجريئة تجاه الفلسطينيين ، تجعلهم يقفون موقف الدفاع ، اذا رفضوها ... علينا أن نطلق فكرة الكونفدرالية الاسرائيلية — الفلسطينية — الاردنية مقابل شعار الدولة الديمقراطية . علينا أيضا أن نمتنع عن الاكثار من التصريحات حول من لا نريد الجلوس معهم ، بل نقول اننا نريد الجلوس مع كل دولة او منظمـة تعمل على منع الارهاب وتقبل قراري مجلس الامـن رقم ٢٤٢ و٣٣٨ . وهذا التوجه يجمع قوى برلمانية اكبر » .

كذلك انتقد عاموس كينان في يديعوت احرونوت (٣٠/١٠/٧٤) سياسة اسرائيل بقوله : « يجب ان تكون لدينا مقدرة خارقة على الاستهجان لكي نفكر ان الفلسطينيين سيتخلون عـن شخصيتهم وحلمهم بالاستقلال السياسي ، لان موشي ديان يسمح لهم بنقل البندورة عبر جسر اللنبي ... وتلزمنا المقدرة نفسها لكي نفكر اننا سنستمر في الاستيطان في المناطق (المحتلـة) وان العـرب سينظرون الى ذلك كدليل قاطع على رغبتنا القوية في السلام العادل لكلا الشعبين ... في اليوم الذي اعترفت فيه الامم المتحدة بـ م. ت. ف. أفلست السياسة الاسرائيلية افلاسا كاملا . فالخط الذي سار عليه غولدا — ديان — غليلي تابعه رابين . هـذا الخط آمـن بالمستحيـل ، والان مـات المستحيل ... » . وينتقد كينان انضمام الحزب الديني القومي (مفدال) الى الائتلاف الحكومي في اليوم الذي اعترفت به الامم المتحدة بـ م. ت. ف. لان « هذه صورة بائخـة تنبعث منهـا رائحة البارود . وكل مـا تحتوي عليه هو الدمـاء والدموع ... واذا لم يجد يتسحاق رابين الجراة لكي يأتي الى الشعب ويقول له الحقيقة من ان علينا أن نتصالح مع الفلسطينيين ، فانه سيكون مسؤولا عـن الجولة القادمة وكل مـا سيترتب عليها » .

يوسف حمدان

[٣]

اسرائيل تحاول اصلاح اوضاعها الاقتصادية المتدهورة وتخفيض قيمة الليرة

أقرت الحكومة الاسرائيلية ليلة الاحد، ١٠/١١/٧٤ ، خطة اقتصاديـة جديدة لمعالجة الوضـع الاقتصادي المتدهور ، وخاصة العجز في ميزان المدفوعات والانخفاض في فائض العملة الصعبة في اسرائيل . وأساس هذه الخطة هو تخفيض قيمة الليرة الاسرائيلية من ٤٫٢٠ ليرة للدولار الى ٦ ليرات للدولار . وهذه هي تاسع مرة تقدم فيها اسرائيل على تخفيض قيمة عملتها ، منذ قيامها . فحتى ١٨/٩/١٩٤٩ كانت ٠٫٢٤٨ ليرة اسرائيلية تساوي دولارا ، وفي ١٩/٩/١٩٤٩ انخفضت قيمتها فأصبحت كل ٠٫٣٥٨ لـيرة تساوي دولارا . في ١٨/٢/١٩٥٢ أعلن عن سعرين آخرين رسميين لليرة ، بالاضافة الى سعرها السابق : ٠٫٧١٤ ، و١٫٠٠٠ ليرة للدولار . وفي ١٩/٥/١٩٥٣ أضيف سعر رابع : ١٫٨٠٠ ليرة للدولار . وفي ١/١/١٩٥٤ استبدلت كل الاسعـار السابقة بتسعيرة موحدة : ١٫٨٠٠ ليرة للدولار . واستمرت قيمة الليرة في الهبوط بعد ذلك . ففي ١٠/٢/١٩٦٢ اصبحت كل ٣ ليرات تساوي دولارا ، ثم انخفضت مرة اخرى ، في ١٩/١١/١٩٦٧ الى ٣٫٥٠ ليرة للدولار ، ثم في ٢٢/٨/١٩٧١ الى ٤٫٢٠ لـيرة للدولار (كتاب الاحصاء السنوي الاسرائيلي ، ١٩٧٣ ، ص ٢٢٥) ، واخيرا في ١٠/١١/١٩٧٤ الى ٦ ليرات للدولار .

وبالاضافة الى تخفيض قيمة الليرة تقرر تخفيض المساعدات الحكومية لفروع الاقتصاد المختلفـة

بمليارى ليرة، ومنع استيراد نحو ٣٠ سلعة ، منها السيارات ، والسجاد والمشروبات واجهزة التلفزيون وما شابه ، لمدة ٦ اشهر ، وفرض ضرائب جديدة ، بنسبة ١٠ ٪ (جمارك) و١٠ ٪ اخرى (ضريبة شراء) ، على ٣٩ سلعة كمالية ، من بينها البيرة والاقمشة والسجاد والادوات الكهربائية . كما سيضطر المستوردون الى دفع ١٥ ٪ ضريبة أمن على القروض التي يحصلون عليها من البنوك . وبموجب الخطة سيستمر أيضا تجميد التسليف المصرفي بحجمه الحالي ، مع التشديد على فرض الغرامات على السيولة . كما تقرر تحديد المكافآت على التصدير وجعلها ١٫٠٤ — ١٫٢٠ ليرة للدولار ، مقابل ١٫٧٢ — ١٫٨٠ ليرة للدولار في السابق (ر ا ا ، هآرتس ودافار ، ٧٤/١١/١٠) .

ونتيجة لقرار الغاء المساعدات الحكومية ، طرأ ارتفاع على اسعار المواد الاساسية ، مثل السكر والخبز والزيت والطحين والشاي والقهوة والزبدة والحليب ومنتوجاته ، واللحوم والارز والطيور ومواد اخرى غيرها . فقد ارتفع ، مثلا ، سعر كيلو السكر من ٢٫٠٥ ليرة الى ٦ ليرات بينما زاد سعر كيلو الزيت بـ ٢٫٦٠ ليرة . كذلك ارتفع سعر رغيف الخبز من ٥٥ قرشا الى ليرة ، وليتر الحليب من ليرة الى ١٫٦٠ ليرة . كما ارتفع سعر البنزين (٩٤ أوكتان) الى ٢٫٨٠ ليرة لليتر ، في حين ارتفع سعر علبة الزبدة الى ليرتين ، وقارورة الغاز الى ٣٠ ليرة وليتر المازوت الى ١٫٠٤ ليرة ، وكيلوغرام من اللحم المجلد الى ٢٠ ليرة . وقد ارتفع ايضا ثمن السجاير ، بمعدل ٢٥ قرشا للعلبة الواحدة (ر ا ا ، ٧٤/١١/١٠) ، ونظرا لارتفاع سعر البنزين ومشتقاته يتوقع ارتفاع اسعار الكهرباء أيضا (دافار ، ٧٤/١١/١٠) . كما أدى انخفاض قيمة الليرة والزيادة التي فرضت على ضريبة السفر (من ٦٠٠ ليرة الى ٧٥٠ ليرة) ، الى ارتفاع اسعار تذاكر السفر بالطائرة الى الخارج، بنسبة كبيرة جدا .

تحدث وزير المالية ، يهوشواع رابينوفيتش ، عن الخطة الاقتصادية الطارئة التي قررت الحكومة اتباعها ، في الساعة الثانية بعد منتصف ليلة ٧٤/١١/١٠ ، بعد انتهاء جلسة الحكومة ، قائلا : « تدرك الحكومة المسؤولية الملقاة على عاتقها ، وقد اقرت الليلة سلسلة خطوات هدفها تقليص الهوة بين الصادرات والواردات، وذلك لمنع تلاشي احتياطي العملة الصعبة ، وتكييف معيشتنا مع المهمات الصعبة التي سنواجهها » .

ونسر وزير المالية دوافع الحكومة لتخفيض قيمة الليرة بقوله ان « لهذا التخفيض في قيمة العملة عدة اسباب : اولا ، رفع اسعار الواردات ، اذ ان جميع المواد المستوردة من الخارج سترتفع أسعارها ، وهذه الحقيقة تسري على المواد الخام والمواد الجاهزة على السواء ... ولكي لا يكون التحول كبيرا جدا ، فقد خفضت الضرائب الامنية المفروضة على استيراد من ٣٥ ٪ الى ١٥ ٪ . ثانيا ، جاء تخفيض قيمة العملة لزيادة التصدير . اذ أن قيمة الليرة الجديدة ، والحوافز (التي ستمنحها الحكومة) للتصدير تكفي لجعل المصدر الاسرائيلي يتغلغل في اسواق العالم لتصدير بضائعه . وبهذا الاسلوب تنخفض عمليات بيع المنتوجات في البلاد بدل تصديرها ... » . وأضاف رابينوفيتش مؤكدا « ان تبديل قيمة العملة لا يمكن ان ينجح دون خطوات اخرى ، ودون ان يتجسد في جميع المجالات . وأحد هذه المجالات — ويحتمل أن يكون أصعبها — هو مجال أسعار المواد الغذائية الاساسية والوقود ... » (ر ا ا ، ٧٤/١١/١٠) .

كذلك أعلن رابينوفيتش ظهر يوم الاحد ، ٧٤/١١/١٠ ، في مؤتمر صحافي ، مبررا اقرار هذه الخطة الاقتصادية ، ان حكومته اختارت « هذا الطريق الصعب لانه لا يوجد خيار آخر أمامنا ، ولانه لا يوجد مناص ، ولان البديل هو ان نصل بعد ستة أشهر الى حالة من الاضطرابات الخطيرة ، وذلك بسبب بطالة يبلغ حجمها مائة الف عامل ، نتيجة للنقص في العملات الصعبة لاستيراد المواد الخام ... اننا نهدف من وراء هذه السياسة الى الحفاظ على قوتنا الامنية ، وعلى موقف اسرائيل السياسي في العالم » (المصدر نفسه) .

كما أصدر رئيس الحكومة ، يتسحاق رابين ، بيانا تحدث فيه عن الخطة الاقتصادية الجديدة ، مناشدا الاسرائيليين تفهم دوافع القرارات الاقتصادية الاخيرة . وجاء في بيان رابين هذا قوله : « ... اننا نعيش في فترة ما بعد حرب

يوم الغفران . انها فترة صعبة ، فترة نمر خلالها بعدة مجالات من النضـــال : النضال الامني ، وزيادة التعاظم العسكري ، والنضال السياسي للبحث على كل الطرق للتقدم نحو السلام . ومن ثم النضال الاقتصادي والاجتماعي ، وذلك لكي نخلق قاعدة جدية للقوة الامنية ، وحرية المناورة السياسية ، وكذلك من اجل احتمال زيادة عدد سكان البلد بواسطة الهجرة ... » .

واضاف رابين : « لقد كانت حرب يوم الغفران حربا صعبة ، والذي يميزها انها كانت حربا غير منتهية ، حتى بمفاهيم حروبنا السابقة . وفور انتهاء الحرب تدفقت الاسلحة على الدول العربية. وكان علينا ... ان نعصر كل ما في جيوبنا لتعزيز قوتنا ، ولضمان ألا نفاجــأ مرة أخرى ، ولكي نستطيع الصمود أمام القـــوة المتعاظمة لـــدى عدونا ...

« من ناحية اخرى حدثت تبدلات في الاقتصاد العالمي ، وجزء منها نابع من حرب يوم الغفران ، ومن استغلال القوة الاقتصاديـــة الموجودة لدى الدول العربية . وقد أدت هذه ، تقريبا ، الى أزمة في اقتصاد دول العالم الحر ، اذ ارتفعت اسعار النفط بأربعة اضعاف ... واذا قارنا الذي استوردناه قبل سنة بالذي نستورده الان ، فان معدل الزيادة يبلغ نحو مليار دولار . نحن ملزمون بأن نصمد في جميع النضالات العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ... » .

كذلك تحدث رابين عن الخطة الاقتصادية الاولى التي اعتمدتها الحكومة في أواخر تموز الماضي ، مشيرا الى أن الهدف منهـــا كان وقف التضخم المالي . « وفعلا تم كبح جماح التضخم المالي ، خلال الاشهر الاربعة الاخيرة » . اما الهدف من الخطة الاقتصادية الجديدة ، فهو بحسب رأيه ، « منع نضوب الاحتياطي من العملة الصعبة . اذ أن اسرائيل تستورد الكثير ، وبقاؤهـــا متعلق بالاستيراد ، استيراد الاسلحة ، والمواد الخام ومواد اخرى » . وأنهى رابين بيانه قائلا : « لن تكون هذه الخطوة الاخيرة التي ستتبعها الحكومة، وكان يسعدني لو انني استطعت ان اعدكم بأنه لن تحدث أزمات اخرى في الاقتصاد » (المصدر نفسه) .

ردود الفعل : استياء يعم سكان اسرائيل

كان رد الفعل الاولي على الخطة الاقتصادية الجديدة ، هو قرار الهستدروت بمطالبة الحكومة باعادة النظر في رفع الاسعار ، ودفع تعويضات كاملة للعائلات الفقيـــرة والمحتاجة ، ومن ثـــم الاصرار على دفع علاوات غلاء المعيشة كاملـــة للعمال ، ابتداء من شهر كانون الثاني . ووفق الخطة الاقتصادية ، ستدفع الحكومة تعويضات على الغلاء للعائلات الفقيرة ، يبلـــغ ١٠٠ ليرة شهريا للعائلة المكونة من ٤ أفراد و٥٠ ليرة مقابل كل طفل ابتداء من الطفل الثـــالث في العائلات الكثيرة الاولاد (دافار ، ٧٤/١١/١٠) .

كما أثارت الخطة الاقتصادية الجديدة ردود فعل عنيفة بين العمال والطبقة الفقيرة في اسرائيل . فقد طالب عمال ميناء أشدود بتعويضات كاملة مقابل الغلاء « والا سيقررون استعمـــال جميع الوسائل المتاحة لهم » (ر ا ا ، ٧٤/١١/١٠) . كما أضرب نحو ١٨٠٠ عامل في حيفا ، بعد سماعهم بالاجراءات الاقتصادية الجديدة . ويبدو أن مصدر الاستياء بينهم ناجم عن رفع الاسعار ، وخاصة بالنسبة للسلع الاساسية . وكان اضخم رد فعل في حي هتكفا في تل ابيب ، وهو مجمع للعائلات الفقيرة في المدينة ، اذ سارت تظاهرة كبيرة ، تخللتها أعمال العنف ، ضد رفع الاسعار وتخفيض قيمة الليرة وقد تدخلت الشرطة لتفريقها بعد أن اعتقلت عددا من المتظاهرين . كما سارت تظاهرة اخرى في تل ابيب ، نظمها عمال « امكور » حيث سار المتظاهرون حتى وصلوا امـــام مبنى اللجنة التنفيذية للهستدروت :

تدهـــور الوضـــع الاقتصـــادي وراء الخطـــة الاقتصادية الجديدة :

يبدو انه لم يكن هناك مفر من اعتماد الخطة الاقتصادية الجديدة ، نظـــرا للوضع الاقتصادي المتدهور في اسرائيل ، وبعد أن ظهر ان الخطة الاقتصادية التي اعتمدت في شهر تموز الماضي ، لم تكن كافية لتحسين الوضع . أما الاسباب التي أدت الى هذا الوضع فهـــي التضخم المالي ، والعجز في ميزان المدفوعات الذي أصبح المشكلة الرئيسية في الاقتصاد الاسرائيلي . وكان محافظ بنك اسرائيل ، موشي زنبار ، قد وصف هـــذا

الوضع بقوله : « سيصل العجز المتوقع هذه السنة في ميزان المدفوعات ، الى ٣ر٦ مليار دولار — وهو المبلغ الذي يزيد بـ ٥ر٢ مليار دولار عن العجز في سنة ١٩٧٢ . ان ٩٠٠ مليون دولار من هذا العجز تعود الى الزيادة في الاستيراد الامني ، اما الباقي فناتج عن الزيادة في الاستهلاك الفردي . وتشير المعطيات الى ان الاسعار هذه السنة ستكون اكثر ارتفاعا بنسبة ٢٧ ٪ عن مستواها في السنة الماضية .

« وهناك ايضا مجرى مقلق يتمثل في الانخفاض في فائض العملة الصعبة في الدولة . فقد انخفضت هذه الفوائض خلال الاشهر العشرة الاخيرة ، بما يزيد عن ٧٠٠ مليون دولار ، وأصبحت اليوم أقل من مليار دولار — وهو المبلغ الذي يكفي بصعوبة، لتمويل متطلبات الاستيراد المدني لشهرين فقط » (يديعوت احرونوت ، ٢٧/١٠/٧٤) .

وأضاف زنبار انه « في موازاة انخفاض الفوائض ، استمرت ديون الدولة بالعملة الصعبة بالارتفاع ، حتى وصلت في شهر حزيران الى ٦ر٥ مليار دولار ، مقابل ٥ مليار دولار ، في نهاية سنة ١٩٧٣ .

« كذلك فان أزمة الاقتصاد العالمي ستصيب اسرائيل بالضرر ... فأزمة الطاقة وارتفاع أسعار المواد الغذائية في العالم خلقت ضغوطا تضخمية في معظم الدول ، وزادت من عجزها التجاري . لذلك ، فقد اتبعت حكومات كثيرة ، خطوات لتقليل الطلب ، وهذا من شأنه ان يضر بالصادرات الاسرائيلية .

« والخطر الاخر المتوقع لاسرائيل ناتج عن رغبة الدول المصدرة للنفط ، في السيطرة على الاطارات المالية الدولية . واذا نجحت في ذلك ، فسيمس هذا قدرة اسرائيل على تجنيد الاموال » (المصدر نفسه) .

أما وزير المالية ، يهوشواع رابينوفيتش فكان قد ذكر (في مقابلة مع دافار ، ١/١١/٧٤) ان مصاريف الامن المتزايدة هي وراء هذا الوضع ، اذ « ان علينا ان نفهم امرا واحدا هو اننا شعب آخر بعد حرب يوم الغفران . فقبل الحرب وعندما كانت نفقات الأمن تعادل ١٧ ٪ من الدخل القومي القائم خططت الحكومة لسلسلة من النشاطات في مجال الخدمات . وقد رفعت هذه الخدمات مستوى المعيشة والاستهلاك في البلد . غير ان هذا قد توقف بعد الحرب فمع ارتفاع نفقات الامن الى ثلث الدخل القومي ، لا يمكننا التصرف كما تصرفنا في الماضي . ان نفقات الامن هي استثمارات ضخمة ولا ارى اية امكانية لتقليصها ، لا ... في السنة المقبلة ، ولا في السنوات التي تليها . واذا أضفنا الى ذلك نفقات استيعاب الهجرة ، التي ستزداد ، فانه ليس لدي ادنى شك بأن هذه النفقات يجب ان تؤدي الى اسلوب حياة مختلف عند الجمهور ... ».

« ... يجب ان ينتقل الجمهور الى خطوط أخرى في مجال الاستهلاك . أعتقد انه اذا ادرك الجمهور هذا الامر ، سيكون بالامكان تصحيح الوضع الاقتصادي . وسأعطي مثالا على ذلك ، مدعوما بالارقام . ارتفع الدخل الحقيقي عندنا ... في سنة ١٩٧٢ بـ ٥ر٥٪ ، وفي عام ١٩٧٣ بـ ٥٪ . وحتى في عام ١٩٧٤ ، سيرتفع حسب توقعاتنا بـ ٤ر٣٪ . على ضوء هذا الارتفاع ، انا مقتنع ، بأن الجمهور يستطيع تحمل الكبح وخفض مستوى المعيشة . وعلينا ان نتصرف هكذا ، اذا ما كنا نرغب بعدم الوصول الى اوضاع صعبة جدا . اذا لم نغير اسلوب معيشتنا ، فسنواجه انخفاض احتياطي العملة الصعبة ... ».

« ... لا يمكننا التعرض الى نفقات الامن ، فنحن مضطرون لصرفها . وتبلغ ديوننا بالعملة الصعبة ، الملزمين بدفعها ، في السنة الحالية ، ٦ مليارات دولار ، وهذا بند لا يمكن الامتناع عن دفعه . وعدا عن ذلك ، اننا ننفق اموالا طائلة في تشجيع الصادرات . وهذا لا يمكن توفيره ، اذ انه الامل الوحيد لنا لتحسين ميزان المدفوعات . لذلك من الواضح ان مستوى الضرائب ، رغم انه وصل الى ٦ر٥٧٪ من سائر الدخل القومي ، فاننا لا نستطيع تخفيضه ... » (المصدر نفسه).

« الدولة قد تفلس » والبطالة امر محتم

يبدو ان مشكلة النقص في العملة الصعبة ، التي بلغ احتياطها في مطلع عام ١٩٧٤ نحو ٨ر١ مليار دولار ، وانخفض منذ ذلك الوقت بمعدل ٨٠ — ١٠٠ مليون دولار شهريا ، حتى وصل الان الى أقل من مليار دولار ، تثير قلق الاسرائيليين ،

ويظهر انها كانت أحد الدوافع الاساسية وراء الخطة الاقتصادية الجديدة . وقد تطرق احد المعلقين الاقتصاديين الى وصف هذا الوضع ، محذرا مما أسماه خطر « افلاس الدولة » ، فقال « مخطىء من يعتقد ان الدولة لا تستطيع ان تعلن عن افلاسها ... ان افلاس الدولة يختلف عن افلاس شركة تجارية . فعندما تفلس الدولة ، لن يكون بامكانها تجنيد المزيد من الاموال في السوق التجارية (البنوك التجارية) ، بينما تستطيع تجنيد الاموال من الدول المختلفة مقابل « بيع سياسي بالمزاد العلني » فقط . وبالاضافة الى جميع المصائب ، فان الازمة الاقتصادية ، التي تمر على العالم ، ستجعل من الصعب على اليهود ان يحملوا الدولة اليهودية على اكتافهم » (تسفي كسلر — يديعوت احرونوت ، ٧٤/١١/١٢) .

كذلك يتوقع حدوث بطالة في اسرائيل في السنة المقبلة ، نظرا للنقص في فائض العملة الصعبة ، اذ ان هذا النقص سيؤثر على استيراد المواد الخام التي تعتمد عليها الصناعة الاسرائيلية . وهناك ثلاثة فروع تعتمد عليها اسرائيل في مجال استيرادها ، هي (١) الاستيراد الامني ، (٢) استيراد المواد الغذائية ، (٣) استيراد المواد الخام الضرورية للصناعة . وبما ان اسرائيل لا تستطيع الاستغناء عن النوعين الاولين ، فانها ستقلص استيرادها خلال السنة المقبلة ١،٥ مليار دولار ، اذ يتوقع ان يصل العجز التجاري في عام ١٩٧٥، الى ٤ مليارات دولار، بينما لن تتجاوز المساعدات المتوقعة من الولايات المتحدة ويهود العالم ٢،٥ مليار دولار . « ويعتبر استيراد المواد الخام للصناعة ، البند الوحيد الذي يمكن تقليصه، اذ يبلغ ما ينفق على هذا الاستيراد ٢،٢٥ مليار دولار سنويا . ولكن تقليص استيراد المواد الخام معناه عدد أقل من الاليات وكمية أقل من المواد الخام — أي انتاج أقل . وبعبارتين : انكماش وبطالة (يديعوت أحرونوت ، ٧٤/١١/٥) .

علاج الوضع الاقتصادي

كان وزير المالية ، رابينوفيتش ، قد ذكر ، قبل اعتماد الخطة الاقتصادية الجديدة ان اصلاح الوضع الاقتصادي يجب ان يتم على مرحلتين : « في المدى القصير علينا ان نعمل على منع انخفاض احتياط (العملة الصعبة) بواسطة استيراد رؤوس الاموال ، كما فعلت ذلك جميع البلدان في العالم التي تضررت من الهزة التي انتابت الاقتصاد العالمي خلال السنة الاخيرة . مقابل ذلك، يجب تقديم علاج لاصلاح الاقتصاد من خلال تكييف نهج حياتنا من أجل الخروج من الضائقة . أما على المدى البعيد ، فعلينا ان نتبع عدة خطوات . اولا ، يجب ان يكون هنالك وعي أكبر للتوفير في العملة الصعبة ... فنحن غارقون في المليارات وقد فقدنا كل حاسة للتوفير ... (ثانيا) علينا زيادة الانتاج ، اذ ان هذا الموضوع ذو اهمية اولى . وتهتم بهذا الموضوع لجنة أترأسها أنا شخصيا ، وأعضاؤها هم سكرتير عام الهستدروت يروحام ميشل ، ورئيس اتحاد الصناعيين مارك موشفيتش . (ثالثا) طالما نعيش في هذا المستوى من نفقات الامن ، علينا ان نتبع سياسة أجور ومداخيل متزنة . ويجب ان تكون هذه السياسة بالتنسيق مع الهستدروت وارباب العمل ... » (دافار ، ٧٤/١١/١) .

وتطرق رابينوفيتش الى المساعدات الاميركية ، وما يمكن ان تساهم به في حل المشاكل الاقتصادية في اسرائيل ، مؤكدا « ان المساعدات الاميركية ، على المدى القصير ، هي مساعدات حيوية . وانطلاقا من وجهة النظر هذه ، ومن خلال المعرفة بأن زيادة الصادرات وحدها هي التي تمنحنا امكانية تخطي الثغرات الكبيرة في الميزان التجاري ، فقد توصلنا الى تفاهم مع الولايات المتحدة ، لمحاولة تشجيع الاستثمارات الاميركية في اسرائيل . وتعمل اللجان المشتركة التي أقيمت — لتشجيع التجارة ، والاستثمارات وتبادل الخبرة وتزويد المواد الخام — في اتجاه بلورة القرارات قبيل التقائي مع وزير المالية الاميركي سايمون ، وذلك قبيل توقيع اتفاق اقتصادي مشترك بين اسرائيل والولايات المتحدة، يجد حلا لبعض المشاكل الاساسية في هذا المجال (المصدر نفسه) .

كما أعرب سكرتير الهستدروت يروحام ميشيل في مقابلة معه في معاريف (٧٤/١١/٤) ، عن رأيه في علاج الوضع الاقتصادي المتدهور قائلا « ان الهستدروت ستؤيد خطة طوارىء اقتصادية، يكون أساسها المساواة في حمل العبء . والمساواة ، بالنسبة لي ، تعني توزيعا عادلا لحمل العبء ،

أي ان يتجاوز عطاء الغني ، (عطاء) الفئة المتوسطة التي تعيش على الراتب ... » .

وكان عدد من الخبراء الاقتصاديين في اسرائيل قد نصحوا ، حتى قبل اعتماد الخطة الجديدة ، بتخفيض قيمة الليرة ، كعلاج وحيد لمشكلة العجز في ميزان المدفوعات ، ولتجنب حدوث انكماش اقتصادي. فقد أعلن بروفيسور حاييم بن ـ شاحر « انه من أجل تخفيض العجز في ميزان المدفوعات بدون انكماش ، على الحكومة ان تتبع خطوتين . فالى جانب تخفيض الطلب الفائض (الذي تمثل بتخفيض نفقات الحكومة عن طريق الاقتطاع من ميزانيتها ، ورفع الضرائب وجميع عمليات الكبح الاخرى) عليها ان تحدث تخفيضا هاما في قيمة الليرة . وسيؤدي مثل هذا التخفيض الى زيادة اسعار المواد المستوردة ، ولذلك فان انخفاض الطلب سيتمثل في تقليل التهافت على السلع المستوردة بمدى أكبر نسبيا ، من انخفاض الطلب على المنتوجات المحلية . كما ان تخفيضا كهذا سيؤدي الى زيادة الفائدة في التصدير . وسيكون التصدير بمثابة مخرج لذلك الجزء من الانتاج ، الذي لم يجد له سوقا محلية بسبب قلة الطلبات. وبدلا من البطالة والانكماش ، في أعقاب انخفاض الطلب المحلي ، ستزداد العمالة ، وذلك للتصدير، على حساب الانتاج للسوق المحلي ، وهذا سيؤدي الى تخفيض العجز في ميزان المدفوعات » (يديعوت أحرونوت ، ٧٤/١١/١) . كما دعا بروفيسور ميخائيل برونو ، من الخبراء الاقتصاديين المعروفين في اسرائيل ، الى تخفيض قيمة العملة الاسرائيلية ومن ثم ايقاف ربط الليرة بالدولار حيث تقوم هيئة مشكلة من وزارة المالية وبنك اسرائيل بالاجتماع خلال كل شهر أو خلال فترات قصيرة ، كما يتطلبه الوضع ، وتعين قيمة الليرة حسب الوضع في الاسواق العالمية (من مقابلة معه في معاريف ، ١٩٧٤/١١/١).

هنه شاهين

[٤]

علاقات اسرائيل الدوليـــة
نصف دول العالم لا علاقات لها مع اسرائيل

ما زال بعض الاسرائيليين يرددون ما قاله وزير خارجيتهم السابق ابا ايبن ، من انه اذا ما قرر العرب ان يقترحوا على الجمعية العمومية للامم المتحدة اتخاذ قرار يقول بأن الارض مسطحة لا كروية، فان هذا الاقتراح سيقر بأغلبية ٤٧ صوتا، ومعارضة ١٧ صوتا وامتناع الاخرين ! وان دل هذا القول على شيء ، فانه يدل على مدى ضيق اسرائيل ومعاناتها من العزلة التي تعيش فيها داخل المجتمع الدولي المتمثل في الامم المتحدة بدولها الـ ١٣٨ .

يعتقد الاسرائيليون عندما يدرسون ويقيمون النحو الذي توزعت عليه الاصوات في الامم المتحدة خلال السنوات الماضية ، حول القضايا العربية وأزمة الشرق الاوسط ، ان هناك أكثر من ٨٠ صوتا مضمونا الى جانب المطالب العربية ، وهذه الاصوات موزعة على ٢٠ دولة عربية و١٣ دولة شيوعية و٢٩ دولة افريقية و٦ دول اسيوية ودولة اوروبية غربية (هي اسبانيا) ودولة اميركية لاتينية (هي غوايانا) بالاضافة الى ١٠ دول اخرى على الاقل من تركيا الى اكوادور مرورا بقبرص والارجنتين وغيرهما (ايلي ايال ـ معاريف ، ٧٤/٩/٢٧) .

وبرغم اهتمام اسرائيل ومتابعتها الدقيقة لما سيتخذ في الدورة الحالية للجمعية العمومية للامم المتحدة من قرارات ، وخاصة بعد ان أعلن عن عزم جامعة الدول العربية طرح القضية الفلسطينية بندا مستقلا على جدول أعمالها ، فان المسؤولين الاسرائيليين ، لم يملكوا ، ومنذ البداية ، الا الاعراب عن اعتقادهم بأن نجاح العرب في مسعاهم حول هذه المسألة مضمون ، وقد تأكد ذلك عبر ادراج القضية على جدول الاعمال اولا ثم تصويت ١٠٥ دول في الجمعية العمومية يوم ٧٤/١٠/١٤ ، الى جانب دعوة م.ت.ف. للمشاركة في مناقشة القضية الفلسطينية وبأعتبارها ممثلة الشعب

الفلسطيني ، وذلك بمعارضة ٣ دول الى جانب اسرائيل هي الولايات المتحدة والدومينيك وبوليفيا.

وخلال السنوات الماضية ، أكثرت المصادر الاسرائيلية من القول ان النحو الذي تصوت عليه هذه الدولة او تلك في الامم المتحدة ، لا يعبر بالضرورة عن حقيقة نوعية علاقة الدولة المعنية باسرائيل ، وظلت مواقف اسرائيل حول المواضيع الواردة في جدول اعمال الجمعية العمومية وذات العلاقة بها ، تنقل الى الدول المعنية عبر ممثليها في هذه الدول ولكن هذا التقليد خرق منذ ان بدأ الاعداد للدورة الحالية من دورات الجمعية العمومية ، « حيث ابلغت اسرائيل مواقفها الى الدول المعنية في لقاءات مع سفرائها في اسرائيل ، وذلك بهدف التأكيد على ان التصويت في الامم المتحدة على بعض البنود حول موضوع الصراع الاسرائيلي العربي ، ليس مجرد تصويت آخر ، وانما هو ، بالنسبة لنا أمر جوهري » (المصدر السابق) .

ومنذ بدء جلسات الدورة الحالية للجمعية العمومية ، بل وقبل ذلك بأسابيع ايضا ، لم يترك وزير الخارجية الاسرائيلي ، يغئال آلون ، مناسبة للحديث عن هذه الدورة ، الا وقال عنها انها الاصعب بالنسبة لاسرائيل ، وان احتمال نجاح العرب فيها ، واقرار ما يقدمونه من مشاريع قرارات مؤكد . وقاد ذلك ، في اسرائيل ، الى حملة عنيفة على الامم المتحدة ، دفعت بعضهم الى « ابتكار » افكار جديدة ، حيث « لا فائدة من الدفاع في جلسات الجمعية العمومية . ان الهجوم هناك هو اسلوب الشرح والتوضيح الوحيد . ولم تأت من قبل ساعة ملائمة أكثر من هذا الوقت لشن هجوم شامل وعام ومتهم ضد المؤسسة العربية . لقد تحولت المؤسسة العربية الشاملة لتصبح الاداة الاكبر في العالم للسلب والقتل والاستغلال والهدم، ولقد بدأ العالم يحس بذلك على جلده ، مهما كان هذا الجلد غليظا » (اليعيزر ليفنه ــ هآرتس ، ٧٤/٩/٢٧) .

وبمناسبة انعقاد الدورة الجديدة للجمعية العمومية للامم المتحدة ، كثرت التصريحات والتعليقات الاسرائيلية عن علاقات اسرائيل بدول العالم المختلفة ، واظهرت غالبية هذه التصريحات والتعليقات قلقا اسرائيليا ازاء تزايد سوء وضع اسرائيل على الساحة الدولية .

نقطة اللقاء : الصراع العربي الاسرائيلي

ان هناك العديد من دول العالم ، التي تكاد ان تكون خطوطها السياسية متوازية ، ولا تلتقي هذه الخطوط وتتقاطع الا عند نقطة واحدة هي نقطة الصراع العربي الاسرائيلي ، حيث تؤيد هذه الدول المواقف العربية ضد اسرائيل .

ولعل من بين ابرز هذه الدول الصين ويوغسلافيا، وتفسر معاريف (٧٤/٨/٩) موقف الصين بأن « للصين مصلحة في الشرق الاوسط . وهذه المصلحة هي ايقاف التوسع السوفييتي ، وخوف الصينيين الان ليس مقصورا على التهديد الروسي في الشمال ، وانما من عمليات التفاف سوفييتية من الجنوب ، عن طريق المحيط الهندي . ووصل الخوف بالصينيين من حدوث اختراق روسي من الجنوب ، عن طريق الخليج الفارسي وقناة السويس ، حد انهم لم يردوا ولو بكلمة احتجاج واحدة على تمركز الاميركيين في جزر دياغو غارسيا في المحيط الهندي ، ولقد احتجت الهند وكذلك الاتحاد السوفييتي على التوسع الامبريالي ... أما الصينيون فسكتوا ... » .

وبدراسة الاسرائيليين وتحليلهم للسياسة الصينية ، يجدون « ان مواقف الصين تناقض دائما مواقف الاتحاد السوفييتي » دون الالتفات الى الايديولوجية الشيوعية ، ففي السودان مثلا ، أيد الصينيون النميري الذي اعتقل الشيوعيين وقتلهم ، لان الروس عملوا على اسقاط النميري. وكذلك أيد الصينيون بيافرا لان الروس أيدوا نيجيريا » ، ولهم ــ أي للصينيين ــ كما يقول البروفسور شيفرين ، الاستاذ في فرع الدراسات الصينية في الجامعة العبرية في القدس ، « عالم ايديولوجي معلن ، وعالم استراتيجي ممارس » . لكن « اسرائيل بالنسبة للصينيين اصغر من ان يروا فيها عاملا قويا بحيث يصبح من الجدير بدولة كبيرة ان تقيم معها علاقات ديبلوماسية ، والتسبب بذلك في اثارة العالم العربي واصدقائه الكثيرين ضدها ، وبكلمات اخرى ، فان اسرائيل لا تشغل بال الصينيين » (المصدر السابق) .

وغير الصين ، هناك يوغوسلافيا ايضا ، هذه

الدولة غير العضو في حلف وارسو ، ولكنها مع ذلك تلتقي دائما مع دول هذا الحلف لدى اتخاذه مواقف ضد اسرائيل . ويستغرب الكاتب الاسرائيلي يهوشواع غلبواع الذي تطرق الى سياسة يوغسلافيا ازاء اسرائيل (معاريف ، ٧٤/٨/١٨) «التوافق بين يوغسلافيا ومعسكر الدول الاشتراكية رغم ان يوغسلافيا ليست عضوا في حلف وارسو ، وتحاول دائما ان تظهر عدم تبعيتها لدول الحلف ، خاصة وان هذا التوافق غير قائم الا عند نقطة واحدة ، هي نقطة الصراع العربي الاسرائيلي » . ثم يعيد الكاتب الى الذاكرة ان يوغسلافيا اشتركت في لقاء قمة دول حلف وارسو الذي عقد يوم ٩ حزيران ١٩٦٧ ، وقطعت علاقاتها الديبلوماسية مع اسرائيل على غرار دول الحلف الاخرى ، رغم ان احدى دول ذلك الحلف ، وهي رومانيا ، لم تقطع علاقاتها باسرائيل .

لكن ذلك لا يمنع الاسرائيليين من رؤية ما يعتبرونه «علامات ايجابية» في العلاقات الاسرائيلية اليوغسلافية ، « حيث ازدادت التجارة بين البلدين اتساعا ، وذلك بعد ، ورغم قطع العلاقات الديبلوماسية. كما ان السياحة نشطة بين البلدين، اضافة الى وجود عمال يوغسلاف ، عملوا ويعملون في اسرائيل » (المصدر السابق) .

الدعوة الى الحوار مع الاتحاد السوفييتي

مرت العلاقات الاسرائيلية مع دول المعسكر الاشتراكي منذ حزيران ١٩٦٧ وحتى الان باطوار مختلفة ، راوحت بين التوتر الشديد حينا ، وخاصة اثناء حرب الاستنزاف التي توقفت بقبول مشروع روجرز في آب ١٩٧٠ واثناء حرب تشرين ، وبين اللين الى حد توقع موعد لاعلان اعادة العلاقات بين دول هذا المعسكر واسرائيل .

وتكاد اسرائيل ان تقصر كلامها، وهي في معرض التحدث من العلاقات بمعسكر الدول الاشتراكية ، بالاتحاد السوفييتي . وكانت آخر المناسبات التي تحدثت فيها المصادر الاسرائيلية عن احتمال اعادة العلاقات الديبلوماسية بين اسرائيل والاتحاد السوفييتي ، اثناء المرحلة الاولى من انعقاد مؤتمر جنيف ، حين التقى وزير الخارجية السوفييتي اندريه غروميكو ، بأبا ايبن ، وزير خارجية اسرائيل آنذاك ، ثم قول الزعيم السوفييتي ليونيد بريجينيف بعد ذلك ان هناك احتمالا للتقدم خطوات على طريق اعادة العلاقات مع اسرائيل الى طبيعتها في مرحلة متقدمة من مراحل مؤتمر جنيف .

ولقد قابل الاسرائيليون بارتياح قول غروميكو في الامم المتحدة ، اثناء القاء كلمته في الجمعية العمومية في الشهر الماضي، « ان الاتحاد السوفييتي يؤيد وجود وتطور اسرائيل كدولة مستقلة ذات سيادة » ، واعتبر جان دانييل (دافار ، ٧٤/٩/٣٠) هذا القول بمثابة « مفاجأة سارية ... اذ رغم ان هذا الموقف السوفييتي كان امرا مفروغا منه قبل حرب الايام الستة ، فان امورا كثيرة تغيرت منذ ذلك الوقت وحتى الان ، ولاول مرة منذ سنين عديدة يقف سياسي سوفييتي مسؤول ، يحتل مرتبة عالية ، ليؤكد علنا وبوضوح ، ان دولته معنية باستمرار وجود اسرائيل . وهذا هو التجديد » .

وازاء ذلك دعا دوف ايفل (دافار، ٧٤/١٠/٢) الى فتح حوار مع الاتحاد السوفييتي وصولا الى اعادة العلاقات بين البلدين الى طبيعتها ، واقامة علاقات ديبلوماسية . ويبرر ايفل دعوته هذه بقوله « ان المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي، وليس الكونغرس الاميركي ، هو الذي يمسك بمفتاح حل مشكلتنا الديموغرافية ، حيث ان مستودع الهجرة البادي للعيان موجود في الاتحاد السوفييتي لا في الولايات المتحدة » .

العلاقات مع اوروبا

تعتبر اسرائيل ان علاقاتها ودية مع دول المجموعة الاوروبية ، الدول التسع الاعضاء في السوق الاوروبية المشتركة . فالمجموعة الاوروبية، على حد قول موشي آلون ، سفير اسرائيل في بروكسل ، ومندوبها لدى مؤسسات السوق الاوروبية « ليست ضد اسرائيل ، انها تتفق معنا حول نقاط معينة ، مثل مسألة الحدود ، الا انني لن اكون صادقا اذا قلت ان المجموعة غير ودية تجاه اسرائيل ... ان الدول التسع دول ودية تماما تجاه اسرائيل » (في مقابلة مع معاريف ، ٧٤/٨/٧) . واضاف آلون معلقا على مواقف هذه الدول بعد حرب تشرين بقوله « كانت هنالك في البداية مرحلة صعبة ، بلغت حد اتخاذ وزراء خارجية دول السوق المشتركة يوم ١٩٧٣/١٠/٦

قرارهم المعروف المؤيد للعرب ولحقوق الفلسطينيين، وقد اثار هذا القرار الرأي العام في اوروبا ضد كل ما من شأنه ان يلحق الضرر بدولة اسرائيل . ولقد صدر القرار المذكور تحت تأثير «رعب النفط»، وبعد فترة قصيرة فقط ، تأكد الاوروبيون ان هذه ليست الطريق لاحراز مطالبهم ، وقد توصلوا الى نتيجة كالتي نقول بها نحن ، وهي ان قضية علاقات اسرائيل والدول العربية شيء ، وقضية النفط والطاقة شيء آخر ، وانه يجب معالجة هذين الموضوعين باعتبارهما منفصلين عن بعضهما البعض» (المصدر نفسه) .

وتبدي اسرائيل اهتماما واضحا بعلاقاتها مع دولتين من دول اوروبا الغربية ، هما المانيا وفرنسا ، ذلك ان الدولتين المذكورتين هما اللتان « تعطيان النغمة » في اوروبا ، « المانيا من الناحية الاقتصادية ، وفرنسا من الناحية السياسية » (ايلي ايال — معاريف ، ٧٤/٩/٢٧) . ورغم ان المانيا الغربية لم تترجم بعد قوتها الاقتصادية في اوروبا الى قوة سياسية « فان هناك اشارات على انها ستقوم بذلك ، ومثل هذا التطور قد يفيد اسرائيل ، حيث ان نظام المستشار هيلموث شميت يعمل على توثيق علاقاته بالولايات المتحدة أكثر من نظام ويلي برانت . الا انه ليس لدى الجيل الجديد في المانيا شعور بالمسؤولية عن الكارثة (أيام العهد النازي) وهو يفضل بناء « علاقات طبيعية » مع اسرائيل ، دون التزام ادبي تجاه الدولة اليهودية » وذلك ما لا ترتاح له اسرائيل ، لانه يخلص المانيا من الابتزاز الذي تمارسه عليها اسرائيل .

وفيما يتعلق بالعلاقات مع فرنسا ، فان الاسرائيليين يبدون دائما اهتماما خاصا بهما ، وكثيرا ما تحدثوا عن علامات اعتبروها نقاطا ايجابية في سياسة فرنسا تجاه اسرائيل ، وقد علق جاك موريس ، مراسل دامار (٧٤/٩/٢٩) في باريس على العلاقات بين فرنسا واسرائيل قائلا انه « بعد سنة على حرب تشرين تبدو مكانة اسرائيل في فرنسا افضل مما كانت عليه منذ ان الغى الجنرال ديغول المعاهدة غير المكتوبة ، التي كانت قائمة بين البلدين ، وذلك في اعقاب النزاع عام ١٩٦٧ ، وخلال الاسابيع القليلة المقبلة ، فان وزير الخارجية الفرنسي جان سوفانيارغ سيزور اسرائيل ، وتكون هذه اول زيارة رسمية يقوم بها وزير فرنسي لاسرائيل منذ انشائها » .

ولاحظ موريس « انهم في وزارة الخارجية الفرنسية ينظرون الى رابين على انه اكثر ليونة واقل تعنتا من سابقته . وأكثر انفتاحا لتقبل وجهات النظر غير القابلة بالاسس التي كانت تعتبر حتى الان مقدسة في خطوط السياسة الاسرائيلية . وكانوا في الخارجية الفرنسية يخشون من أن لا يتمكن رابين بالاغلبية الضئيلة التي يستند اليها في الكنيست من الصمود ، الا ان مواجهته للمعارضة اليمينية بـ ٦٠ صوتا مقابل ٥٠ صوتا في الكنيست قوبلت بالارتياح في باريس واعتبرت علامة على مقدرة رابين في الاستمرار بسياسته المعتدلة وعلى احتمال نجاحها » (المصدر نفسه) .

اما أشر بن ناتان ، سفير اسرائيل لدى فرنسا فقد أعلن (في مقابلة مع معاريف ، ٧٤/٩/٣٠) ان فرنسا أظهرت نظرة عدائية لاسرائيل اثناء حرب يوم الغفران ، وغازلت العرب طمعا في احراز مكاسب لنفسها ، ولكنها حصدت الريح . ان سياسة فرنسا برئاسة ديستان متمسكة بالشعارات التي طرحت ايام ديغول ، الا انها في سياستها العملية تحول هذه الشعارات في غالبيتها الى شعارات مفرغة من أي جوهر ، ومفتقرة الى أي معنى كما توقع ان تكون زيارة وزير الخارجية الفرنسي لاسرائيل ، والتي ستتم هذا الشهر ، وكذلك زيارة يغئال ألون لباريس قبل نهاية العام الحالي ، عاملا يساعد على اعادة الهدوء للعلاقات الاسرائيلية الفرنسية . ولكن وقبل ان يمر شهر على هذه التوقعات المتفائلة ، جاء تصويت فرنسا في الجمعية العامة للامم المتحدة يوم ٧٤/١٠/١٤ الى جانب دعوة م.ت.ف. للمشاركة في مناقشة القضية الفلسطينية هناك ، واعتبار المنظمة الممثل للشعب الفلسطيني ، ليثير ضجة قوية في اسرائيل ضد فرنسا وسياستها . ثم تبع ذلك لقاء وزير خارجية فرنسا مع عرفات ليزيد من قوة تلك الضجة ، التي لم تكن قد توقفت بعد عندما اعلن الرئيس الفرنسي ديستان ضرورة ان يكون للفلسطينيين وطن .

وعن علاقات اسرائيل ببريطانيا، تقول المصادر الاسرائيلية انها في ظل حكومة العمال افضل مما كانت في ظل حكومة المحافظين ، رغم ان الرسميين

الاسرائيليين يرفضون الاعتراف بذلك (معاريف ، ٧٤/٩/٢٧) . ويفسر شلومو غينوسار (دافار، ٧٤/٨/١١) حسن العلاقات مع بريطانيا بردها الى سببين ، « اولهما العلاقة التقليدية التي تربط حزب العمال وحركة النقابات المهنية في بريطانيا بالمؤسسات والاجهزة الموازية لها في اسرائيل ، وثانيهما ميل السياسة الخارجية الحالية لبريطانيا نحو الولايات المتحدة وليس نحو اوروبا». وعلى ضوء انعقاد مؤتمر سفراء اسرائيل في اوروبا ، الذي افتتح في اسرائيل يوم ٧٤/٨/١٩، قال الكاتب ان باستطاعة السفراء التحدث عن « الريح الجديدة » التي تهب على تفكير القارة الاوروبية بقضايا الشرق الاوسط ، « وموقع لندن داخل اطار « اعادة التفكير » الذي بدأت اوروبا مؤخرا الاهتمام به ، ليس موضع شك » . والشعور عموما في اسرائيل بأن ضعف بريطانيا امر غير جيد بالنسبة لاسرائيل ، « وهي في ذلك مثل ايطاليا ، حيث ان ايطاليا ضعيفة ومنهارة غير جيدة بالنسبة لاسرائيل » (معاريف ، ٢٧ /٧٤/٩) .

منحية من افريقيا ، وسيئة في آسيا ، ومقلقة مع اميركا اللاتينية

واخيرا ، فان الاسرائيليين لا ينسون حقيقة ان اسرائيل مرتبطة بعلاقات ديبلوماسية مع ٦٠ دولة فقط من الدول الاعضاء في الامم المتحدة . وان لا وجود بأية صورة من الصور تقريبا لاسرائيل في افريقيا منذ حرب تشرين ، وان في آسيا دولا عديدة لا تقيم علاقات ديبلوماسية مع اسرائيل ، ومن بين هذه الدول التي تعطي لاسيا طابعها ، الهند وباكستان واندونيسيا ومالاوي وافغانستان وسيلان وبنغلادش والصين الشعبية ، وان العلاقات مع اليابان وخاصة بعد استخدام سلاح النفط اثناء حرب تشرين ليست على ما يرام ، والامر نفسه ينطبق على كمبوديا .

وتنظر اسرائيل الى مستقبل علاقاتها بدول اميركا اللاتينية بعين الريبة والقلق ، اذ بعد « شطب » كوبا من قائمة حسابات العلاقات الاسرائيلية ، تنظر اسرائيل الى توجه دول اميركا اللاتينية الى اقامة علاقات مع كوبا على انها علامة على تحول هذه الدول عن سياستها التقليدية ، باتجاه اكثر تحررا من السياسة الاميركية ، الامر الذي يتوقع ان يكون له مردود سلبي على علاقات تلك الدول باسرائيل . وحتى في السنة الماضية اثناء التصويت على حقوق الفلسطينيين في الامم المتحدة اقترعت ضد مشروع القرار الخاص بهذا الصدد اربع دول اميركية لاتينية فقط ، هي بربادوس وبوليفيا وكوستاريكا ونيكاراغوا ، في حين انقسمت بقية دول القارة الاميركية الجنوبية بين الامتناع (البرازيل والبهاما والدومينيك وسلفادور وجمايكا والمكسيك وباراغواي وفنزويلا وهندوراس وبيرو وترينيداد وتوبوغو) وتغيبت بنما . وكل ذلك يحسب في اسرائيل على انه علامات بارزة لسوء علاقات اسرائيل الدولية، ويفسر الاهتمام مؤخرا بضرورة القيام بمبادرات واسعة لتحسين هذه العلاقات والعمل على المحافظة واستعادة ما كان لاسرائيل في القارة اللاتينية، خاصة بعد الميل الذي بدأ واضحا للتخلي عن تأييد اسرائيل في البرازيل ، كبرى دول القارة (معاريف ، ٧٤/٩/٨) .

أن اكثر من نصف دول العالم لا تعترف باسرائيل ، ولا تقيم معها علاقات ديبلوماسية ، بل حتى أن علاقات اسرائيل بالدول الستين التي تقيم معها علاقات ، هي علاقات سيئة ، ولا يستبعد الاسرائيليون ان تزداد سوءا رغم الجهود الكبيرة التي يبذلها وزير خارجية اسرائيل ، ورغم الضغوطات الاميركية لمصلحة اسرائيل .

عماد شقور

(٥) القضية الفلسطينية عسكريا

١ ــ ماذا يعني وصول « الميغ ــ ٢٣ » الى المنطقة

يتحدث القادة الاسرائيليون منذ حرب تشرين الاول (اكتوبر) عن التسليح العربي ، وقيام الاتحاد السوفياتي بتزويد الدول العربية بأسلحة متطورة ، ويطالبون الولايات المتحدة بمزيد من الدعم العسكري لتعديل ميزان القوى في الشرق الاوسط ، وتحقيق التفوق الجوي على الدول العربية . وأخشى ما تخشاه اسرائيل في هذا السباق التسليحي ، هو حصول العرب على أسلحة ومعدات تجرد الطيران الاسرائيلي من تفوقه ، وتحرم الدولة الصهيونية بالتالي من القوة الضاربة الاساسية التي تعتمد عليها استراتيجيتها العدوانية .

ولقد تزايد حديث اجهزة الاعلام الاسرائيلية والغربية في الآونة الاخيرة عن الاسلحة السوفياتية التي وصلت الى سوريه والعراق وليبيه بكميات ضخمة ، وعن عودة الاتحاد السوفياتي الى تزويد مصر بالاسلحة والمعدات الحربية . ففي ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤ ذكرت المصادر الاسرائيلية نقلا عن مصادر الاستخبارات الاميركية ان ليبيه ستحصل من السوفيات على ٥٠ طائرة حربية حديثة على الاقل من طراز « ميغ ــ ٢٣ » . وكانت صحيفة « واشنطن بوست » (١٠/٥/ ١٩٧٤) قد ذكرت بأن سلاح الطيران السوري يمتلك ٤٥ طائرة من هذا النوع ، وان في سوريه ٥٠ طيارا قادرين على قيادتها ، الامر الذي يقلق خبراء البنتاغون الى حد بعيد . وكانت اذاعة اسرائيل قد ذكرت منذ شهر ايلول (سبتمبر) ان مصر والعراق حصلتا على هذه الطائرات ، وان الدول العربية هي اول دول من خارج حلف وارسو تتمكن من الحصول على هذا النوع الحديث جدا من الطائرات السوفياتية .

ويرجع اهتمام الاوساط الاميركية والاسرائيلية بهذه الطائرة الى ما يمثله وصولها الى الشرق الاوسط من معان استراتيجية كبيرة . ويمكن ايجاز هذه المعاني بالنقاط التالية :

أ ــ **مجابهة طائرة الفانتوم** ، وتجريد اسرائيل من السيطرة الجوية على أجواء المنطقة ، تلك السيطرة التي ظهرت آثارها الردعية بعد حرب ١٩٦٧ ، وخلال حرب الاستنزاف ، وحالة « اللاحرب واللاسلم » التي تلتها ، وبقيت سائدة حتى أوجدت الجيوش العربية في حرب ١٩٧٣ الحل اللازم للحد من حرية عمل السلاح الجوي الاسرائيلي ، عن طريق استخدام الثنائي « صاروخ ــ مطاردة » .

وتتمتع طائرة « الميغ ــ ٢٣ » بميزات تسمح لها بهذه المجابهة ، وتؤمن لها النجاح في المعارك الجوية ضد طائرة « فانتوم ف ــ ٤ اي » ، فهي أسرع منها في الارتفاعات العالية (٣ر٢ ماك مقابل ٢ر٢) رغم تساوي سرعتي الطائرتين في الارتفاعات المنخفضة (٢ر١ ماك على ارتفاع سطح البحر) ويزيد المدى القتالي لطائرة « ميغ ــ ٢٣ » عن المدى القتالي لطائرة « فانتوم » (١١٢٦ كم مقابل ١٠٥٦ كم) . وهذا يعني انها أقدر على البقاء في الجو والاشتباك في المعارك الجوية مدة اطول . وتتمتع طائرة « ميغ ــ ٢٣ » بميزتين كبيرتين تتعلق اولاهما بأنها ذات هندسة متغيرة (أجنحة متحركة) ، وتتعلق الثانية بالنسبة المئوية بين الوزن ودفع المحركات ، فهي تزن عند الاقلاع ١٣٦٨٠ كغ وتبلغ قوة محركها ١٢٧٠٠ كغ وهذا يعني ان النسبة بين الدفع والوزن تصل الى ٩٧ ٪ تقريبا على حين ان هذه النسبة في الفانتوم تصل الى ٧٥ ٪ فقط (الوزن ٢١٥٠٠ كغ ، وقوة دفع المحركين مع حراق خلفي ١٦٢٤٠ كغ) . الامر الذي يجعل طائرة « ميغ ــ ٢٣ » اقدر على التسارع والقيام بالمناورات الجوية من طائرة « الفانتوم » .

ومن المؤكد انه لا يمكن مقارنة الحمولة الحربية لطائرة « ميغ ــ ٢٣ » ، مع مثيلتها بالنسبة الى طائرة « فانتوم » . فالاولى مقاتلة معترضة ، والثانية مقاتلة قاذفة معترضة . بيد ان الحمولة الحربية التي تدخل عند حساب القوة النارية ، لا تدخل في الحسابات الخاصة بالقتال الجوي ، بل ان الطائرات القاذفة ــ المعترضة تتخلص من حمولتها الحربية ومن خزانات وقودها الاضافية

أحيانا لتخفف سرعتها وتزيد مرونتها اذا ما اضطرت للاشتباك مع طائرات معترضة .

ولا يستطيع سلاح الطيران الاسرائيلي الحفاظ على ميزان القوى الجوي الذي كان قائما بعد حرب ١٩٧٢ الا اذا حصل على طائرة « تومكات ف — ١٤ » الامريكية الصنع لمجابهة طائرة « ميغ — ٢٣ ». وهذا يعني تحميل ميزانية اسرائيل أعباء باهظة نظرا لان ثمن طائرة « تومكات ف — ١٤ » الواحدة مع قطع غيارها يصل الى ٣٠ مليون دولار .

ب — **السيطرة على سماء البحار** ، اذ تستطيع طائرات « ميغ — ٢٣ » السورية والمصرية السيطرة على شرقي البحر الابيض المتوسط الذي لا يتجاوز عرضه ٦٠٠ كيلومتر ، وتستطيع الطائرات « ميغ — ٢٣ » الليبية السيطرة على القسم الاوسط من البحر الابيض المتوسط ، بين جزيرتي صقلية وكريت . وبوسع طائرات « ميغ — ٢٣ » المصرية العاملة من مطارات الصعيد او السودان تغطية البحر الاحمر كله والمشاركة في عمليات الخنق الاستراتيجي في الجزء الجنوبي من هذا البحر ، والتصدي لطائرات « الفانتوم » الاسرائيلية المحدودة التي لا يمكنها الوصول الى هذا الجزء من البحر الا اذا تموّنت من الجو . ومن المعروف ان الطائرات المقاتلة وطائرات الصهريج تكون خلال عملية التموين بالوقود من الجو في وضع حساس يساعد على ضربها بكل سهولة . أما طائرات « الميغ — ٢٣ » العراقية المنطلقة من مطارات جنوب العراق فان بوسعها السيطرة على أجواء الخليج العربي حتى البحرين وقطر .

وانه لما يزيد من قدرة مصر على مد سيطرتها الجوية الى جنوبي البحر الاحمر ، بل والى خليج عدن ايضا ، قدرتها على استخدام جزيرة « بريم » التي وافقت جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية في مؤتمر القمة السابع (الرباط ١٩٧٤) على السماح للقوات العربية باستخدامها وتحصينها ووضع اجهزة الرصد والانذار الجوي فيها ، واستخدامها كحاملة طائرات ثابتة عند اللزوم ، في سبيل السيطرة على باب المندب عند اندلاع اي حرب ، واحباط النشاط الاسرائيلي الرامي الى خلق وجود عسكري في بعض الجزر الواقعة قرب باب المندب .

وتؤدي السيطرة الجوية العربية على البحرين الاحمر والابيض المتوسط الى نتائج هامة جدا ، لانها لا تسهل عملية الخنق الاستراتيجي البعيد فحسب، ولكنها تعطي البحريتين الحربيتين المصرية والسورية تغطية جوية كاملة ، وتمنحهما حرية عمل واسعة ، وتحد من حرية عمل البحرية الاسرائيلية ، الامر الذي يسمح للقوات البحرية العربية بالتالي باستخدام تفوقها على البحرية الاسرائيلية ، والعودة الى ممارسة دورها القتالي في العمليات غير المباشرة ، وعمليات الانزال، وقصف الشواطىء الفلسطينية ، والمراكز الصناعية والسكانية الكثيفة الممتدة من رأس الناقورة حتى عسقلان.

جـ — **حماية منابع النفط العربية** من عمليات القصف الاسرائيلي التي كثيرا ما هدد بها القادة الاسرائيليون قبل حرب ١٩٧٣ ، خاصة وان المسافة بين المطارات الاسرائيلية والكويت تزيد عن ١٣٠٠ كيلومتر ، والمسافة بين هذه المطارات ومنابع النفط السعودية تتراوح بين ١٣٠٠ و١٦٠٠ كيلومتر . أي انها تفوق المدى الاقصى لطائرة الفانتوم ، على حين ان المسافة بين المطارات العراقية ومنابع النفط السعودية لا تزيد عن ٩٠٠ كيلومتر . وهذا يعني ان بوسع الطائرات « ميغ — ٢٣ » العراقية المنطلقة من جنوب العراق ، التصدي لطائرات اسرائيل في لحظات التموين بالمحروقات والاشتباك معها واسقاطها او منعها من التموين ، او اسقاط طائرات الصهريج ، الامر الذي يؤدي بالتالي الى سقوط « الفانتوم » الخالية من الوقود . ومن المؤكد ان عبء عملية الاعتراض هذه لن تقع على عاتق طائرات « الميغ — ٢٣ » العراقية وحدها ، ولكنها ستتم بالمشاركة بين هذه الطائرات ، والطائرات المعترضة السعودية والكويتية ، وشبكات الصواريخ أرض — جو في هذين البلدين .

د — **تعريض العمق الاسرائيلي للقصف الجوي** . ولا يتم القصف في هذه الحالة بطائرات « ميغ — ٢٣ » نفسها ، ولكنه يتم بقاذفات القنابل العربية التي يمكن ان تتوغل في الاجواء المعادية تحت حماية مظلة من طائرات « الميغ — ٢٣ » التي يسمح لها مداها بالانطلاق من المطارات السورية او المصرية ، ومواكبة القاذفات حتى سماء تل

أبيب ، والاشتباك في معركة جوية ، والعودة الى قواعدها دونما حاجة الى التموين بالوقود . وانه لما يزيد أهمية هذه النتيجة احتمال امتلاك العراق وسورية لقاذفات متوسطة من طراز « توبوليف — تو ٢٢ » ، التي تفوق سرعتها سرعة الصوت (١٥٩٠ كيلومتر/ساعة) ، والقادرة على حمل كمية كبيرة من القنابل داخل جوفها (الكمية غير معروفة في النشرات العسكرية الجوية) ، والمزودة (النموذج « ب ») بصاروخ جو — أرض بعيد المدى من طراز « كيتشن » ، تستطيع الطائرة بفضله ضرب اهداف تبعد ٤٥٠ كيلومترا عن موقع تحليق الطائرة .

ان هذه النتائج تفسر قلق اسرائيل من حصول العرب على طائرة « ميغ — ٢٣ » ، كما تفسر سعيها الحثيث للحصول على طائرة « ف — ١٤ » او « ف — ١٥ » لمجابهة هذا الخطر الذي يقلب حساباتها الاستراتيجية رأسا على عقب .

٢ — تطور العدوان الاسرائيلي وتطور الرد

٢ — تطور العدوان الاسرائيلي وتطور الرد

كانت اسرائيل قبل حرب ١٩٧٣ تستخدم في قصف قواعد الثورة الفلسطينية ومخيماتها طائرات الهجوم الارضي « سكاي هوك أ — ٤ م » المحمية بمظلة من طائرات « فانتوم ف ٤ — ١ » . وكانت تستخدم في قصف القواعد والمخيمات الواقعة على الشاطىء اللبناني مدافع الزوارق المسلحة وطائرات « سكاي هوك » ، كما تستخدم في مهاجمة القواعد قوات كوماندوس محمولة بالهليكوبتر .

ولقد تابعت اسرائيل عدوانها الجوي والبحري على القواعد والمخيمات بعد الحرب بغية تدمير القوة المادية للثورة الفلسطينية ، وفصل الجماهير عن الثورة ، وخلق تناقض لبناني — فلسطيني ، ورفع معنويات الاسرائيليين الذين أذهلتهم عمليات الثورة الانتحارية ، وأحبطت تدابيرهم الامنية بشكل واضح .

والملاحظ في العمليات الاسرائيلية الانتقامية بعد حرب ١٩٧٣ المظاهر التالية :

أ — عدم استخدام قوات الكوماندوس المحمولة جوا في المناطق التي يحتمل فيها وجود قواعد مسلحة للثورة . واستخدام هذه القوات فقط في المناطق التي انسحبت منها قواعد الثورة ، ولم يبق فيها سوى المزارعين (عملية الكوماندوس بعمق ٩ كيلومتر في خراج بلدة مجدل زون في منتصف ليلة ٥ — ١٩٧٤/١١/٦) .

ب — الاقلال من استخدام طائرات « سكاي هوك » في القصف الجوي ، والاستعاضة عنها بطائرات « فانتوم » (عملية قصف منطقة العرقوب في ١٩٧٤/١١/١١ التي استخدمت فيها ١٢ طائرة « فانتوم ») .

ج — الاستمرار في عمليات القصف المدفعي .

د — الاستمرار في عمليات القصف البحري للمخيمات الساحلية (عملية قصف مخيم الرشيدية من قبل ٨ زوارق اسرائيلية في ليلة ٣٠ — ١٠/٣١/ ١٩٧٤ وعملية ليلة ١٧ — ١١/١٨ من قبل زورقين قصفا مخيم الرشيدية ومنطقة رأس العبد المجاورة لها) .

ويمكن تفسير المظهرين (أ) و(ب) ، في ان القيادة الاسرائيلية اخذت تضع في الحسبان امكانية استخدام قوات الثورة الفلسطينية لصواريخ الكتف السوفياتية الصنع المضادة للطائرات من طراز « ستريلا » (سام — ٧) ، التي تعتقد اسرائيل انها موجودة في القواعد والمخيمات ، وقدرة هذه الصواريخ على اسقاط طائرات الهليكوبتر وطائرات « سكاي هوك » التي تقل سرعتها عن سرعة الصوت (٠,٩ ماك على سطح البحر) وعدم قدرتها على اسقاط طائرات « الفانتوم » بسبب سرعة الطائرة وقلة مدى وسرعة الصاروخ، الامر الذي أثبتته خبرات حرب ١٩٧٣ على الجبهتين السورية والمصرية . اما تفسير المظهرين (ج) ، و(د) فهو يتمثل في ضعف الرد الفلسطيني المباشر على هذا النوع من العمليات نظرا لعدم اعداد الوسائط النارية اللازمة لذلك .

بيد ان بوسع الثورة الفلسطينية — ذاتيا وضمن حدود امكاناتها الحالية — الرد على القصف

المدفعي والقصف البحري . ويتم الرد على رمايات المدفعية بفاعلية اذا ما جهـزت الثورة المخيمات والمناطق الحدودية بـــ « راشدات » محمولة على عربات ، وقادرة على تحديد مواقع بطاريات مدفعية العدو . واعداد مجموعات صاروخيـــة احتياطية متحركة ، مزودة بقذائف صاروخيـــة من طـــراز كاتيوشا (عيار ٢٤٠ مم ومدى ٨ كيلومترات) . وتكون « الراشدات » على اتصال لاسلكي مع المجموعات الصاروخية المتحركة لتحديد احداثيات بطاريات العدو التي تقوم بالقصف ، الامر الذي يساعد المجموعات الصاروخية على الحركة بسرعة الى مواقع الرمي القريبة من الحدود ، والقيام بالرمي « معاكس البطاريات » اذا كانت البطاريات المعادية ضمن مدى رمي القذائف الصاروخية ، او الرمي « معاكس المدن » الردعي اذا كانت هذه البطاريات خارج مدى رمي القذائف الصاروخية ، وتبديل مواقع الرمي بسرعة قبل ان يقوم العدو برمي « معاكس معاكس البطاريات » ، وقبل ان يقصف مواقع الرمي بالطائرات .

ويمكن نجاح هذا التكتيك المضاد للقصف المدفعي اذا توفرت عدة شروط أهمها ارتفـــاع المستوى التدريبي الفني للعناصر ، وسرعة الحركة ، ودقة الاتصالات اللاسلكية بين «الراشدات» والمجموعات الصاروخية الاحتياطية المتحركة وقيـــادات الدفاع عن المخيمات . ويصل هذا النجاح الى حـــدوده القصوى في العمليات الليلية التي تؤمن حمايـــة « المجموعات الصاروخية الاحتياطية المتحركة » من الاخطار الجوية المعادية .

ولا يمكن الرد في الظروف الحالية على القصف البحري الذي تقوم به زوارق سريعة تقف بعيدا عن الشاطىء ، الا باستخدام زوارق استطلاع مدنية سريعة ، متصلة لاسلكيا بشكل دائم مع زوارق الطوربيد الانتحارية النظامية ، او اية زوارق انتحارية مبتكرة (زورق صغير وسريع محمل بالمتفجرات التي تنفجر بالمصادمة) . لان سرعة هذه الزوارق ، وفاعليتها ، واستخدامها لتكتيك « هجوم الذئاب » يجعلها قادرة على اغراق زوارق العدو الحربية بأقل خسارة ممكنة ، الامر الذي يجعل القيادة المعادية تحجم عن القيام بعمليات القصف البحري التي ستكلفها غاليا . ومن المؤكد ان الثورة الفلسطينية التـــي استطاعت خلـــق مجموعات انتحارية للعمل داخل الارض المحتلة ، قادرة على خلق بحارة انتحاريين لمجابهة زوارق العدو .

ويبقى الرد الايجـــابي على قصف طائـــرات « الفانتوم » ، حتى الان ، خارج حدود امكانات الثورة الفلسطينية القادرة على تنفيذ الرد السلبي (تمويه ، ملاجىء ، حفر فردية .. الخ) . لان الرد الايجابي يتطلب معـــدات قتالية متطورة لا تملكها الثورة الفلسطينية ، ولا تملكها القوات المسلحة اللبنانية نفسها (صواريخ ارض ــ جو). ولا يمكن تنفيذ مثل هذا الرد الا عربيا .

واذا جزأنا المسألة الى مسألتين فرعيتين ، وجدنا ان هنالك مهمة حماية القواعد والمخيمات القريبة من الحدود السورية ، ومهمـــة حماية القواعد والمخيمات البعيدة عنها . ولا تسمـــح طبوغرافية الحدود السورية اللبنانية (وجود جبل الشيخ ووجود زوايا ميتة) للصواريخ « سام ــ٦ » الموجودة على هضبة الجولان من التصدي للطائرات التي تقوم بالقصف قرب الحدود ، كما لا تسمح ميزات الصاروخ « سام ــ ٦ » (المدى) بحماية القواعد والمخيمات البعيدة عن الحدود ، وليس في سورية ، حتى الان ، زوارق حربية مسلحة بصواريخ سطح ــ جو لتقف في البحر وتحمـــي مخيمات الشاطىء اللبناني مـــن القصف الجوي المعادي . ولذا فان حماية سماء لبنان ، التي تؤدي الى حماية المخيمات ، لا يمكن ان تتم الا بعد دخول القواعد الصاروخية العربية المضادة للطائرات الى الارض اللبنانية ، او تزويد القوات المسلحة اللبنانية بمثل هذه القواعد ، الامر الذي يقلب مسألة الدفاع عن قواعد الثورة ومخيمات اللاجئين من « مسألة عسكرية ــ تقنية » الـــى « مسألة سياسية » .

المقدم الهيثم الايوبي

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ١٣/١٠ — ١٢/١١/١٩٧٤

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	تاريخ العملية: الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	خسائر العدو البشرية: جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر: البلاغ العسكري	تاريخه
١	١٠/١٠	—	ريشون لتسيون/ جنوبي تل ابيب	تفجير	عبوات حارقة موقوتة	غيرمحدد		تدمير وحرق عدد من المحلات التجارية	—	—	—	رقم٧٤/٢٨٧	١٠/١١
٢	١٠/١٠	—	رمات جان	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير محطة للوقود كما دمرت عدة صهاريج للوقود وعدد من السيارات الاخرى	—	—	—	رقم٧٤/٢٨٨	١٠/١١
٣	١٠/ ٦	—	بئر السبع	تصفية	—	١	—	تم تصفية رجل المخابرات الصهيوني دايد دمجي والاستيلاء على سلاحه وأوراقه	—	—	—	رقم٧٤/٢٨٩	١٠/١٢
٤	١٠/١٤	٢٤٠٠	جلعتايم/شرقي تل ابيب(١)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اصابة بعض المنازل في شارع ماليات هذوهر بأضرار بالغة	—	—	—	رقم٧٤/٢٩٠	١٠/١٥
٥	١٠/١٤	—	حيفا(٢)	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غيرمحدد		تدمير مصنع هامبكة فولفن واشعال النيران فيه	—	—	—	رقم٧٤/٢٩١	١٠/١٥
٦	١٠/١٦	١٣٤٣٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غيرمحدد		تدمير قسم كبير من مستودعات النفط غربي مدينة القدس قرب المحطة المركزية لسكة الحديد « البقعة » وامتداد النيران الى مستودعات للاخشاب	—	—	—	رقم٧٤/٢٩٢	١٠/١٧
٧	١٠/١٤	—	كنار سابا شمال شرقي تل ابيب(٣)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير قسم كبير من المدرسة العسكرية	—	—	—	رقم٧٤/٢٩٣	١٠/١٧
٨	١٠/١٣	—	هرتسليا/شمال تل ابيب(٤)	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد		اندلاع النيران في مصنع للنسيج وامتدادها لمستودع المواد الاولية والحوانيت المجاورة	—	—	—	رقم٧٤/٢٩٤	١٠/١٧
٩	١٠/١٦	—	بين نابلس والقارمة	كمين	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد		اعطاب سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم٧٤/٢٩٥	١٠/١٨
١٠	١٠/١٧	—	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	١	—	تدمير سيارة لرجل مخابرات اسرائيلي	—	—	—	رقم٧٤/٢٩٦	١٠/١٨
١١	١٠/ ٧	—	نابلس	تفجير	عبوات ناسفة	١	—	تدمير شاحنة عسكرية	—	—	—	رقم٧٤/٢٩٧	١٠/١٨
١٢	١٠/١٣	٢٤٠٠	غور القارمة/ شمال اريحا	قصف	صواريخ	غيرمحدد		تدمير أجزاء من معسكر الجفتلك للمشاة والدروع	—	—	—	رقم٧٤/٢٩٨	١٠/١٨
١٣	١٠/١٩	—	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوة قبل انفجارها	—	—	—	رقم٧٤/٢٩٩	١٠/١٩
١٤	١٠/١٨	—	نابلس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	ادعى العدو بأن العبوة تم اكتشافها أمام مقر الحاكم العسكري قبل انفجارها	—	—	—	رقم٧٤/٣٠٠	١٠/٢٠
١٥	١٠/١٩	—	ايلات	تفجير	عبوات ناسفة	٣ واصابات أخرى		تدمير جزء كبير من محطة الكهرباء المركزية في ايلات وقطع التيار الكهربائي	—	—	—	رقم٧٤/٣٠١	١٠/٢٠
١٦	١٠/١٩	—	المحطة المركزية للكهرباء/القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		قطع التيار الكهربائي عن مدينة القدس وضواحيها حتى صباح اليوم التالي	—	—	—	رقم٧٤/٣٠٢	١٠/٢٠
١٧	١٠/٢٠	١٨٠٠	اورعقيبا/شمال غرب الخضيرة(٥)	تصفية	—	١	—	قتل ضابط المخابرات الصهيوني شلومو سعدون الذي كان في مقهى كالبفورنيا	—	—	—	رقم٧٤/٣٠٣	١٠/٢١
١٨	١٠/٢٢	٧٠٠	طريقكفارعسيون/ بين بيت لحم والخليل	هجوم	قنابل يدوية	غيرمحدد		—	—	—	—	رقم٧٤/٣٠٤	١٠/٢٢

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
١٩	١٠/٢٢	—	ناثانيا(٦)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		أصابة المقهى الذي يرتاده ضباط وعملاء العدو بأضرار	—	—	—	رقم٧٤/٣٠٥	١٠/٢٣
٢٠	١٠/٢٣	٢٠،٠٠	خان يونس(٧)	القاءقنبلة	قنبلة يدوية	٢	١	—	—	—	—	رقم٧٤/٣٠٦	١٠/٢٤
٢١	١٠/٢٦	١٥،٣٠	نيفي اوت/جنوب شرق العريش	كمين	ألغام مسيطر عليها		٣٠ اصابة	تدمير سيارة باص سياحية	—	—	—	رقم٧٤/٣٠٧	١٠/٢٧
٢٢	١٠/٢٥	—	طريق بئر السبع	كمين	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	رقم٧٤/٣٠٨	١٠/٢٧
٢٣	١٠/٢٧	١٣،٣٠	ناثانيا	تفجير	عبوات ناسفة	١	وعدد آخر	اصابة المحلات والمباني المجاورة لمحطة الباصات المركزية بأضرار	—	—	—	رقم٧٤/٣٠٩	١٠/٢٧
٢٤	١٠/٢٧	—	طولكرم	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير جزء كبير من مكتب العمل الصهيوني	—	—	—	رقم٧٤/٣١٠	١٠/٢٨
٢٥	١٠/٢٦	—	شمال شرق نهاريا	اشتباك	رشاشات وقنابل يدوية	غيرمحدد		—	—	—	—	رقم٧٤/٣١١	١٠/٢٨
٢٦	١٠/٢٩	٢٣،٣٠	يقفاح	هجوم وقصف	أسلحة مختلفة	غيرمحدد		اصابة عدد من المنشآت والمعدات بأضرار في المستوطنة	٣	—	—	رقم٧٤/٣١٢	١٠/٢٩
٢٧	١٠/٣٠	٢٢،٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير سيارة أحد ضباط المخابرات واصابة المباني المجاورة بأضرار	—	—	—	رقم٧٤/٣١٤	١٠/٣١
٢٨	١٠/٢٨	—	غرب مدينة بانياس	كمين	قنابل يدوية وأسلحة رشاشة	غيرمحدد		—	—	—	—	رقم٧٤/٣١٥	١١/٢
٢٩	١١/ ٢	١٨،٠٠	خان يونس	القاءقنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		اعطاب سيارة عسكرية ومقتل وجرح عدد من جنود العدو	—	—	—	رقم٧٤/٣١٦	١١/٤
٣٠	١١/١٠	٧،٠٠	بئر السبع	هجوم	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد		تدمير جزء من مبنى لضباط المخابرات بعبوات ناسفة ايضا	—	—	—	رقم٧٤/٣١٧	١١/١٠
٣١	١١/ ٩	—	نابلس	تصفية	—	١	—	قتل الضابط الصهيوني بعد اطلاق النار عليه في السوق الرئيسي	—	—	—	رقم٧٤/٣١٨	١١/١٠
٣٢	١١/١١	—	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اشعال النيران في المجمع الصناعي وأتت النيران على المتجرة المهنية كما امتدت الى محل غنس الصهيوني ومعمل روتيك للنسيج .	—	—	—	رقم٧٤/٣١٩	١١/١١

١ — اعترف العدو بانفجار عبوة ناسفة قرب مدخل منزل سائق السيارة شلومو ابشالوم وادعى العدو بأن الدافع كان نزاع شخصي . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٦٥٩ ، ص ٣٦٧ ، بتاريخ ٧٤/١٠/١٥).

٢ — ادعى العدو بأن سبعة عمال أصيبوا بجراح بفعل انفجار دلوين كانا في كومة خردوات وقد تسببت الحرارة بانفجارهما . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٦٥٩ ، ص ٣٦٨ ، بتاريخ ٧٤/١٠/١٥) .

٣ — اعترف العدو بالانفجار في ساحة مدرسة « بن تسفي » وادعى بأن الانفجار وقع على اثر نزاع بين اولياء امور الطلاب وبين ادارة المدرسة . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٦٥٩ ، ص ٣٥٧ ، بتاريخ ٧٤/١٠/١٥).

٤ — اعترف العدو بأن النيران اشتعلت في دكاكين بهرتسليه وقدر الاضرار بمئات آلاف الليرات . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٦٥٨ ، ص ٣١٦ ، بتاريخ ٧٤/١٠/١٤) .

٥ — ادعى العدو بأن مسلحا برشاش عوزي ، قام باطلاق الرصاص داخل المقهى مما أدى الى مقتل اثنين وزعم العدو بانه لم يعثر على القاتل . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٦٦١ ، ص ٤٥١ ، بتاريخ ٧٤/١٠/٢١) .

٦ — زعم العدو بأن القنبلة التي انفجرت في المقهى من انتاج جيش الدفاع الاسرائيلي وبأن الشاب الذي أصابته كان يلعب بها برفقة زملائه . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٦٦٤ ، ص ٥٧٥ ، بتاريخ ٧٤/١٠/٢٤) .

٧ — ادعى العدو بأن أحد أفراد جيش الدفاع الاسرائيلي ويدعى ابراهام هليلي قد قتل وجرح اثنان آخران اثر حادث سيارة . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٦٦٥ ، ص ٦٢٩ ، بتاريخ ٧٤/١٠/٢٥) .

ملاحظة : تصدر التصريحات العسكرية من الاعلام العسكري في القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية .

جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ١٠/١٣ — ١٩٧٤/١١/١٢

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	تاريخ العملية: الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	خسائر العدو البشرية: جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر	تاريخه
١	١٠/١٠	—	ريشون لتسيون	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير دكان للحلويات	—	—	—	ن. عدد٦٥٧ص٢٨٢	١٠/١٢
٢	١٠/١٩	١٠،٣٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوة وابطال مفعولها أمام المحكمة المركزية التي تحاكم المطران كبوجي	—	—	—	ن. عدد٦٦٠ص٤٠٩	١٠/١٩
٣	١٠/٢٣	—	خان يونس	القاعقنبلة	قنبلة يدوية	٢	—	—	—	—	—	ن. عدد٦٦٤ص٥٧٩	١٠/٢٤
٤	١٠/٢٧	—	ناثانيا	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوة في أحد الباصات في المحطة المركزية وابطل مفعولها	—	—	—	ن. عدد٦٦٧ص٦٨٨	١٠/٢٨
٥	١٠/٢٧	—	طولكرم	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	لم تقع أية اصابات أو اضرار في مكتب العمل	—	—	—	ن. عدد٦٦٨ص٧٤١	١٠/٢٩
٦	١٠/٣١	—	برمنيت/الجليل الغربي	قصف	صواريخ كاتيوشا	—	—	لم تقع أية اصابات	—	—	—	ن. عدد٦٧٠ص٨٢٩	١٠/٣١
٧	١١/ ٢	—	كريات شمونة	قصف	صواريخ كاتيوشا	—	—	لم تقع أية اصابات	—	—	—	ن. عدد٦٧٢ص٣٤	١١/٢
٨	١١/ ٣	١٨،٠٠	خان يونس	القاعقنبلة	قنبلة يدوية	—	١	اصابة سيارة بأضرار	—	—	—	ن. عدد٦٧٣ص٥٥	١١/٤

ن — نشرة رصد اذاعة اسرائيل التي تصدر يوميا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

غازي خورشيد

قضايا اسرائيلية

ملف يعنى بالشؤون الاسرائيلية والصهيونية

يصدر مرة كل اسبوعين ، ابتداء من اول تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤

« قضايا اسرائيلية » ملف اخباري تحليلي ، يتابع الشؤون الاسرائيلية والصهيونية ، الداخليـة والخارجية ، مع امتداداتها وأبعادها داخـل اسرائيل وداخل الحركة الصهيونية ، وفي العلاقات بين اسرائيل ودول العالم ، وتأثير كل ذلك على الصراع العربي الاسرائيلي .

« قضايا اسرائيلية » يقدمه قسم الدراسات الاسرائيلية والصهيونية في مركز الابحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية، من خلال متابعته لكل ما يصدر في اسرائيل من صحف يومية ومجلات ودوريات متخصصة ونشرات وكتب، باللغة العبرية او بغيرها ، وما تبثه الاذاعة الاسرائيلية من أخبار وبرامج، وكذلك ما يصدر خارج اسرائيل وله علاقة بالشؤون التي يهتم هذا الملف بمعالجتها .

تقرا في العدد الثالث :

استمرار مساعي التسوية السلمية في المنطقة يفجر ازمة حكم في اسرائيل ــ القضية الفلسطينية في الامم المتحدة : « ارجاع الساعة ٢٧ سنة الى الوراء » ــ اسرائيل تشكو من النشاط الفدائي وتعمل على كبحه ــ ازمة اقتصادية تواجه اسرائيل : تضخم مالي وعجز في ميزان المدفوعات وخطر حدوث انكماش اقتصادي ــ اسرائيل ومشكلة النفط : دولة منتجة في معسكر الدول المستهلكة ــ علاقات اسرائيل الدولية : نصف دول العالم لا علاقات لها مع اسرائيل .

وتقرا في العدد الرابع :

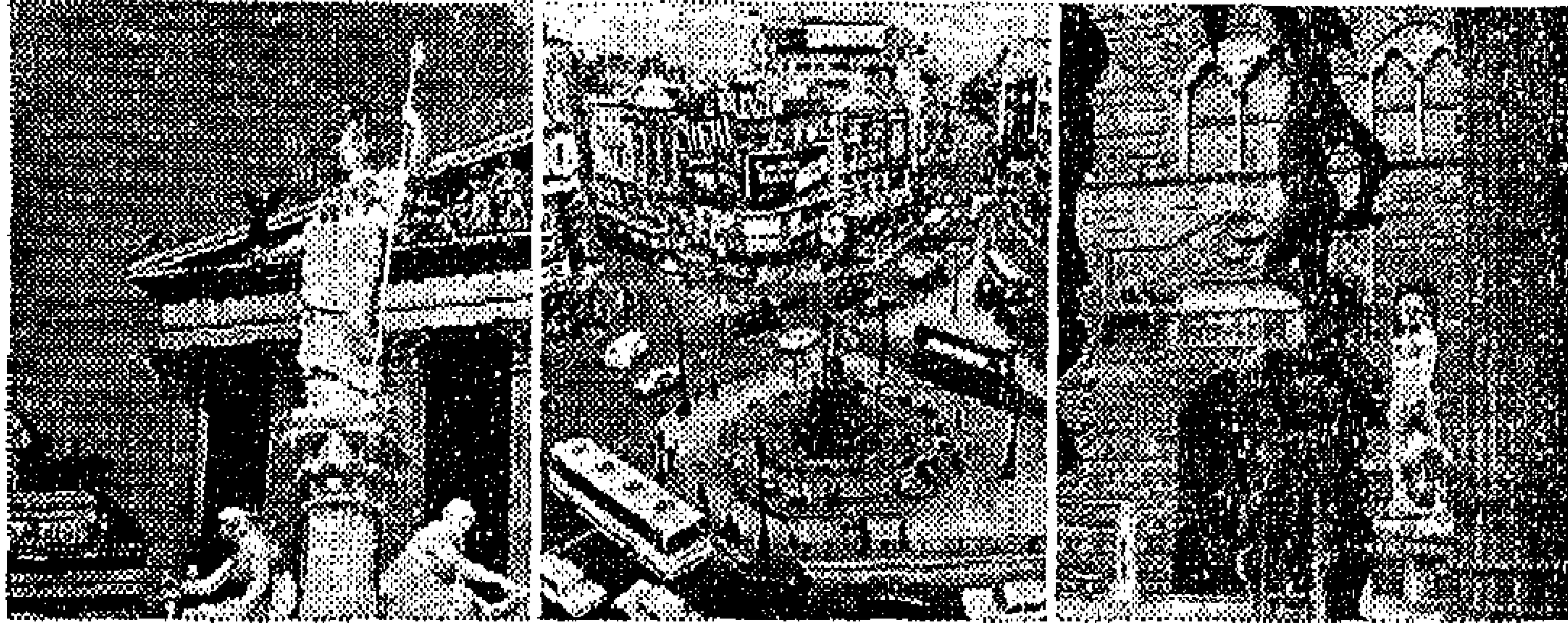
قرارات مؤتمر الرباط تربك اسرائيل وتدفعها نحو مزيد من التصلب ــ سكان المناطق المحتلة يرحبون بقرارات مؤتمر الرباط وسلطات اسرائيل تشن حملة مضادة ــ زيارة سوفانيارغ الى اسرائيل تنتهي بالفشل ــ اسرائيل تحاول علاج اوضاعها الاقتصادية المتدهورة وتخفض قيمة عملتها ــ استعدادات عسكرية واسعة في اسرائيل وتحسب من نشوب حرب جديدة ــ تفاهم اميركي سوفييتي حول الهجرة من الاتحاد السوفييتي واستعدادات اسرائيلية لاستيعاب المهاجرين .

رئيس التحرير : صبري جريس

العنوان : ص.ب ١٦٩١ ، بيروت ــ لبنان ، تلفون ٣٥١٢٦٠/١

بدل الاشتراك السنوي : للحكومات ٩٠ ل.ل. ، للمؤسسات ٦٠ ل.ل. ، للافراد ٣٠ ل.ل.

اوروبــا



مشـاهـد
رائعـة



مـرح
وتسليـة



ما أسهل الوصول
اليها بطائرات
الخطوط الجوية الكويتية

الخطوط الجوية الكويتية تستطيع ان تولي الجودة اهتمامها الأول وان تحققها بالكثير من اساليبها الخاصة . فهي تحيط المسافرين على خطوطها بعناية اضافية وتوفر لطائراتها صيانة ممتازة وتحافظ على المواعيد بدقة متناهية. واليوم تؤمن طائرات الخطوط الجوية الكويتية برحلات منتظمة الى ٢٣ بلدا في كافة انحاء العالم . فاذا اعتزمتم السفر الى اوروبا تذكروا بأن الخطوط الجوية الكويتية تستطيع ان تهيىء لكم رحلة سهلة ومريحة وممتعة.



الخطوط الجويـة الكويتيـة

عروض سينمائية و ٦ اقنية مختلفة من الموسيقى المنوعة

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor,* Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon L L 40, Syria S L 50, other Arab countries LL 50 or equivalent, Africa and Europe LL 65, elsewhere LL 90; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World LL 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٣½ ل.ل. في لبنان
٤ ل.س. في سوريا
٤٥٠ فلساً في الكويت والعراق
٤½ ل.ل. في سائر الاقطار العربية



Bibliotheca Alexandrina
0535858